بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة المترجـــم

- ١ -

لم يعد اسم اغناطيوس يوليانوڤتش كراتشكوڤسكى مجهولا فى العالم العربى المعاصر ؛ غير أن الكثيرين من العرب المحدثين ممن عرفوه مؤرخًا للأدب العربى القديم والحديث يجهلون اهتمامه بتاريخ الجغرافيا عند العرب . وفى الواقع أن معظم بحوث هذا العلامة تدور فى مجالات ثلاثة هى : الشعر العربى ، وأدب النصارى العرب ، وتاريخ الأدب العربى المعاصر . بيد أن هذا لا يمنع اعتباره متخصصًا فى الحضارة الإسلامية بأجمعها ، فقد أسهم فى كل فرع من فروعها ببحوثه العديدة التى بلغ عدد المطبوع منها وحده أربعمائة وثمان وخمسين . وعندما وافاه أجله المحتوم فى ٢٤ يناير ١٩٥١ عن ثمانية وستين عامًا فقد الاتحاد السوفيتى فى شخصه عالمًا فذًا وأكبر مستعرب روسى لعهده .

أما تاريخ حياته إلى أن نال الشهرة كعالم كبير فليس أفضل من أن نسوقه بألفاظه هو . وقد كتب هذه النبذة باللغة العربية وظهرت بمجلة المجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٩٢٧ (المجلد السابع ص ١٢٢ — ١٢٦) ، وهى لا تخلو من الطرافة . قال :

« ولدت فى ٤ آذار (٤/١٦ مارس) سنة ١٨٨٣ فى ويلنا (Vilna) عاصمة ليتوانيـة (Lithuania) القديمة ، وكان والدى رئيسًا لمدرسة المعلمين فيها . ولكن لم يمض من عمرى سنتان حتى ارتحلت عائلتى إلى بلاد ما وراء النهر ، وعين والدى رئيسًا لمدرسة المعلمين فى تاشكند (Tashkent) ، وبعد مدة وجيزة عين ناظرًا عامًا للمدارس فى آسيا الوسطى . وابتدأت أذكر نفسى طفلا صغيرًا فى تاشكند وأول لغة تكلمتها لغة أوزبكية لأن حاضنتى كانت أوزبكية الأصل . وكانت تأثراتى الأولى فى صغرى بما وقعت عينى عليه من المساجد والأسواق الشرقية وتنوع الأمم والطوائف واختلاف الألبسة . وكان لهذه التأثيرات وقع شديـد فى نفسى أيـام طفولتى . وأكبر ظنى أنى غدوت ميالا إلى الشرق وإن كنت غير مدرك هذا الميل الغريزى .

وفى سنة ١٨٨٨ رجع والدى إلى ويلنا وصار مديرًا للمكتبة العمومية ورئيسًا فى لجنة البحث عن الآثار التاريخية القديمة ، ولم يزل عاملا فيها إلى أن فاجأته المنية رحمه الله فى سنة ١٩٠٣ . وكنت

فى صغرى ضعيف الصحة تتناوبنى الأمراض ، ولذلك كنت مع أمى إلى سنة ١٨٩٢ فى ملك صغير كان لنا فى ولاية ويلنا وفيه كانت خزانة الكتب الكبيرة فى أنواع منوعة فى العلم جمعها جدى وأبى وقد ضاعت فى الحرب العالمية سنة ١٩١٥ مع كل ملك لنا . وكنت أتعلم القراءة فى هذه الكتب وقرأت كثيرًا من المؤرخين والقصاصين فى اللغة الروسية . كنت أصغر أولاد أبى وأمى ولذلك نشأت بعيدًا عن العشير والأتراب وربما صار هذا سببًا لحبى الوحدة وسوء الظن بالعالم والسويداء التى تعذبنى أحيانًا حتى الآن .

وفى سنة ١٨٩٣ دخلت المدرسة الإعدادية (الجيمناز gymnasium) فى ويلنا ، وأكملت دروسها سنة ١٩٠١ . وكانت مدرستنا من أشهرالمدارس فى ولايتها من حيث تاريخها وترتيبها . قامت على أساس الكلية الويلناوية التى ألغيت سنة ١٨٣٩ على أثر الثورة البولونية على روسية . وأصبحت مكتبة الكلية مكتبة عامة ، وبقى قسم منها فى مكتبة المدرسة ولذلك رأيت فيها بعض كتب المشرقيات كمؤلفات العلامة دى ساسى (De Sacy) . وقد حاولت فى الصف الأخير أن أتعلم اللغة العربية من كتابه فى الصرف والنحو المشهور ولم يتيسر لى ذلك لضخامة الكتاب وعدم المرشد . تخرج من كليتنا وفى مدرستنا عدد ليس بقليل من علماء المشرقيات المشهورين فى روسية مثل سنكوفسكى (Senkovski) المعلم الأول للغة العربية فى كلية لننغراد من سنة ١٨٢٠ إلى سنة ١٨٤٥ وتورايف (Turaev) عضو أكاديمية العلوم ومؤسس الأبحاث فى قدماء المصريين فى روسية المتوفى سنة ١٩٢١ . وقوتوتش (Kotovic) أستاذ اللغة المغولية فى كلية لووف (Lvov) من بلاد بولونية الآن .

وكنت أهفو أيام الطلب إلى علوم اللغات والآداب لاسيما اللغات « الميتة » اللاتينية واليونانية . ومما كان يلذنى ويشوقنى تعلم أغانى هوميروس ، والروايات التمثيلية التى كتبها شعراء اليونان فكنت أستظهرها وأرجعها . وكذلك كنت أحب علم التاريخ والإنشاء ، وكنت أتمرن فى نظم الشعر ولكن لم أظفر منه بطائل . أما الرياضيات والطبيعيات فلم تتق نفسى إليها وإن كنت غير قاصر فيها ، وأحرزت قصب السبق بين أقرانى ونلت نوط الذهب عقبى المدرسة .

ولم أتجاوز السادسة عشرة من عمرى حتى قويت ميولى وتعينت غرائزى وصرت أفكر فيما أجعله غرض حياتى ، وقد رأيت بعد بحث طويل أن العلم يجذبنى إليه بقوة سحرية ، وأن الشرق يكون ميدان أفكارى . ولا غرابة فقد زرت الشرق فى طفولتى وكان أبدًا يتماثل نصب عينى . وكان لى مثال آخر فى شخص أبى فإنى كنت أراه مكبًا على الكتب والأوراق فى الليل والنهار يبحث عن ماضى الزمان ورجاله .

وفى سنة ١٩٠١ دخلت قسم اللغات الشرقية فى جامعة لننجراد مدفوعًا بعامل الميل وهوى

النفس انضممت إلى سلك تلاميذ فرع لغات الشرق الإسلامى فصرفت أربع سنوات فى دراسة اللغة العربية والفارسية والتركية والتتارية وبعض اللغات السامية كالعبرانية ولا سيما الحبشية القديمة ، ودرست هذه الأخيرة على وطنىّ العلامة تورايف ، ولطالما فكرت أن أمضى فيها وأتعمق لكن اللغة العربية غلبت ضرتها وجذبتنى جملة إليها . وكنت أدرس تاريخ الشرق الإسلامى برياسة العلامة برتولد (Bartold) الذى ترجمت بعض تآليفه إلى اللغة التركية مؤخرًا . وله التأثير المهم فى حياتى العلمية فإنه بأسلوبه السديد المتين وانتقاده المدقق أطلعنى على أسرار فلسفة التاريخ . وكذلك درست علم اللغات العام على المعلم ميليورانسكى (Melioranski) المنتقل إلى رحمة ربه سنة ١٩٠٦ وعلم تاريخ الآداب العامة على العلامة اسكندر فيسيلوفسكى (Veselovski) ، وهو من أكابر علماء العالم بأسره فى هذا الفن . وكان له فى نفسى تأثير قوى كتأثير برتولد فى التاريخ ، وغدوت من ذلك الوقت أفكر فى تطبيق أسلوبه التشبيهى على تاريخ آداب اللغة العربية ، وأرجو أن أكون بلغت شيئًا من ذلك فى مؤلفاتى عن العربيات .

أما العلوم العربية فدرستها على الأستاذ ميدنيقوف (Mednikov) مؤرخ فلسطين المشهور المتوفى سنة ١٩١٨ الذى أثنى على تآليفه الكونت كايتانى (Caetani) من أعضاء المجمع العلمى العربى . أما عمدتى فى العربية فهو العلامة فيكتور فون روزن(Victor von Rosen) عضو أكاديمية العلوم الذى طارت شهرته فى بلاد الغرب والشرق (راجع المشرق سنة ١٩٠٨ ص ١٧١ – ١٧٣ ، والبشير عدد ١٨٤٥ للسنة ذاتها) . وكنت أيضًا أختلف إلى بعض أولاد العرب الساكنين فى روسية كفضل الله صرّوف الدمشقى المتوفى سنة ١٩٠٣ وأنطون خشاب الطرابلسى آخذ منهما قليلا من اللغة العربية الدارجة . ولقد أنجزت دروسى فى الكلية سنة ١٩٠٥ نائلا مدالية الذهب مكافأة لتأليفى عن خلافة المهدى العباسى آخذًا عن المصادر العربية كالطبرى وابن الأثير والعينى والمسعودى وغيرهم .

وبعد انتهاء دروسى فى الجامعة كنت أواصل دروسى تحت أنظار البارون روزن المومأ إليه خلال سنتين . وفى أواخر سنة ١٩٠٧ قدمت الفحص لنيل رتبة الماجسطروس فى الآداب العربية . وبعد أشهر قليلة توفى أستاذى البارون روزن وكانت وفاته ضربة هائلة على ، شوشت صحتى وحركت المرّة فىّ ، ولا غرو فإنى كنت آخر تلاميذه وكان يسمينى بلطفه المعهود بنيامينه الصغير .

وفى صيف تلك السنة نفسها أرسلتنى نظارة المعارف وجامعة بطرسبرج إلى الشرق العربى لتعلم اللغة العربية الدارجة والتعرف إلى علماء العربيات والنظر فى عوائد أبناء الشرق وآدابها . وقد قضيت سنتين بعيدًا عن الروسية زرت خلالهما مدن سورية وفلسطين ومصر وتوغلت فى ربى لبنان وغاباته ومروج الجليل وصحارى مصر أزور حينًا المكاتب المشهورة وحينًا أجلس أمام العلماء المكرمين ، وتارة أختلف إلى المدارس الكبيرة كالكلية اليسوعية فى بيروت والجامع الأزهر والجامعة

المصرية فى مصر وزرت فى سياحاتى مكتبة الملك الظاهر فى دمشق والمكتبة الخالدية فى القدس ومكتبة الموارنة فى حلب والمكتبة الخديوية فى القاهرة وغيرها مما تسنى لى الدخول والاشتغال فيه وجمعت المواد العديدة وكتبت بعض المقالات والانتقادات والأشعار المنثورة فى الجرائد والمجلات العربية والروسية .

وتعرفت خلال إقامتى فى الشرق العربى إلى كثير من علماء العرب ، وأدبائهم وصحافييهم ولا أنسى لطفكم وعنايتكم مدى الدهر . وكان هذا اللطف العربى المشهور من الأسباب التى جذبتنى إلى الشرق جذبة لا أتخلص منها مادمت حيًا . تعرفت إلى الكثيرين من العلماء الذين صاروا من أعضاء المجمع العلمى المكرمين فيما بعد . ففى القاهرة عرفت جرجى زيدان الذى اخترمته المنية سنة ١٩١٤ وأحمد زكى باشا عضو المجمع العربى الحالى ، والأستاذ نالينو الإيطالى (Carlo Alphonso Nallino) ، وفى فلسطين السيد خليل السكاكينى والشاعر الفاضل إسعاف النشاشيبى ، وفى بيروت حضرت دروسًا للأب العلامة لويس شيخو ، وفى دمشق زرت إدارة مجلة المقتبس الغراء . واستفدت فى هاتين السنتين أكثر مما استفدت طول حياتى . ولا أزال أرجو أن يرزقنى الله رؤية تلك البلاد المحبوبة ومسامرة أعيان علمائها مرة ثانية ، تمم الله أمنيتى بالخير فهو السميع المجيب .

وبعد رجوعى إلى الروسية عينت فى صيف ١٩١٠ مديرًا لمكتبة فرع اللغات الشرقية فى كلية لننغراد ، وفى خريف هذه السنة صرت معلما ثانيًا للعربيات فيها وفى سنة ١٩١٤ سافرت إلى أوروبا لدرس بعض المخطوطات فى مكاتبها المشهورة مثل ليبسك وهالّة ولاسيما ليدن من بلاد هولندا التى طارت شهرتها فى الدنيا بسبب مجموعتها فى الكتب . وقد اغترف منها كثير من علماء المشرقيات فى أوروبا . وعينت سنة ١٩١٧ معلما أول للعربيات فى المدرسة المذكورة ، ولم أزل أجتهد فى هذه الوظيفة حتى الآن على قدر الإمكان فى تقلبات الزمان . وقد أصاب الدهر المستعربين غيرى فى لننغراد فمات الأستاذ الأول ميدنيقوف سنة ١٩١٨ وتوفى الأديب كوزمين (Kuzmin) أحد تلاميذى سنة ١٩٢١ وقد كان مدة سنتين معلما ثانيًا فى جامعتنا . وعين صديقى الفاضل الأستاذ شميدت (Schmidt) سنة ١٩٢٠ مديرًا لمدرسة اللغات الشرقية فى تاشكند من بلاد ما وراء النهر وبقيت إلى الآن أدأب وحدى فى التعليم .

فى سنة ١٩٢١ انتخبت عضوًا عاملا فى أكاديمية العلوم الروسية فى قسم التاريخ واللغات فجلست فى مجلس كان فارغًا بوفاة أستاذى البارون روزن سنة ١٩٠٨ . وفى السنة التالية انتخبت كاتمًا لأسرار القسم المذكور . وفى سنة ١٩٢٣ انتخبت عضوًا مراسلا فى المجمع العلمى العربى فى دمشق ، وكان ذلك أكبر شرف نلته مدة عمرى وصار هذا التشريف مساعدًا لى ومشجعًا فى أحوالنا الصعبة . ورأيت فيه تقديرًا أتفاخر به لأتعابى فى التعليم والبحث والتأليف منذ عشرين سنة .

أما مؤلفاتى العلمية التى بدأت بكتابتها من سنة ١٩٠٤ فجلّها إن لم أقل كلها فى آداب العرب من بحث وترجمة وشرح وانتقاد ، وكتاب ومقالة ومحاضرة وملاحظة وعددها يربو على المائتين ولذلك لا يمكن وصفها بتدقيق . وقد طبع فهرستها سنة ١٩٢١ وقت انتخابى عضوًا فى أكاديمية العلوم الروسية وتكلم فى تقدير علمى ثلاثة من أعضاء الأكاديمية الأخصائيين فى علوم المشرقيات ، وقد طبع تقريرهم مع الفهرست المذكور ولذلك اكتفيت بالإشارة إليه . ودوائر أبحاثى ثلاث : الأولى منها تاريخ الشعر العربى ونقده منذ قديم الزمان إلى أيامنا هذه ، والثانية آداب اللغة العربية بين نصارى العرب ، والثالثة تاريخ آداب اللغة العربية منذ نهضتها الأخيرة فى القرن التاسع عشر . وهذا الموضوع الأخير مما أفتخر به فإنى أول من كتب بالروسية فيه ، وقلّ من كتب عنها من المستشرقين فى أوروبا . ولذلك قرظ مؤلفاتى تقريظًا حسنًا المرحوم مارتين هارتمان (Martin Hartmann) الذى كان مطلعًا على أحوال العرب الأدبية بمشاهداته الشخصية والإقامة بين أظهرهم .

ورجائى الآن أن أواصل أبحاثى فى هذه الدوائر الثلاث وأن يتيسر لى طبع ما تراكم لدى من الآثار الأدبية والأبحاث والمقالات . فهذه أمنيتى الوحيدة والرجاء أن يبلغنى تعالى سؤلى وإن مع العسر يسرا وكل ضيق فإلى فرج قريب » * .

هذا وقد استمر كراتشكوفسكى يوالى نشاطه العلمى بالتدريس فى الجامعة وبأكاديمية العلوم السوفيتية ناشرًا بحوثه العديدة القيمة فى دراسة الإسلام والحضارة العربية ومتمتعًا باحترام وتقدير الدوائر العلمية فى العالم بأجمعه . كما لن ينسى له مواطنوه وتلامذته ما أبداه من شجاعة وإنكار للذات أثناء حصار الألمان لمدينة لنينجراد فى الحرب الأخيرة . وإذا كان المجال لا يتسع للكلام على مؤلفاته العديدة فإنه لا يسعنى فى هذا الصدد إلا أن ألفت النظر إلى كتابين من كتبه المتأخرة نالا شهرة عالمية واسعة ، أحدهما هو « مع المخطوطات العربية »(١٩٤٥) Nad Arabiskimi Rukopisiami الذى ترجم إلى عدة لغات ، والآخر « من تاريخ الاستعراب الروسى » (١٩٥٠) Ocherki po istorii Russkoi Arabistiki ** . وقد وافت المنية المستعرب الكبير فى الرابع والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٥١ .

وتقديرًا لمجهوده العلمى وخدمته الكبرى للعلم السوفيتى فقد قرر مجلس وزراء الاتحاد السوفيتى

---

* آثرت إيراد النص كما كتبه المؤلف نفسه دون إحداث أية تغييرات فيه لإعطاء فكرة عن أسلوبه فى الكتابة بالعربية ، فقط أضفت صورة الأعلام بالحروف اللاتينية بين قوسين ليسهل نطقها . (المترجم)

** لجأت على طول الكتاب إلى كتابة الألفاظ الروسية بالحروف اللاتينية ليسهل فهمها على القارىء . (المترجم)

بتاريخ ٥ أبريل ١٩٥١ ، وبريزيديوم أكاديمية العلوم السوفيتية بتاريخ ١٣ أبريل من العام نفسه ، طبع « منتخبات آثار الأكاديمى ا . ى . كراتشكوفسكى » Izbrannye Sochinenia Krachkovskogo ، فظهرت فى ستة أجزاء فى الفترة بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٦٠ ، وأشرف على نشرها نخبة من كبار علماء الاستشراق السوفيتى من تلامذة العلامة الكبير وزملائه .

ومن أهم آثاره التى ظهرت فى هذه المجموعة هذا الكتاب الذى نقدم ترجمته العربية إلى القراء ، أعنى « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » . وهو يكوِّن الجزء الرابع من « منتخبات آثار كراتشكوفسكى » ويرى النور لأول مرة فى هذه الطبعة التى ظهرت فى عام ١٩٥٧ ، أى بعد أكثر من ستة أعوام من وفاة المؤلف .

— ٢ —

شغل الاهتمام بالجغرافيا العربية مكانة مرموقة فى النشاط العلمى لكراتشكوفسكى ، خاصة فى العشرين عامًا الأخيرة من حياته . وقد اهتم كراتشكوفسكى بالجغرافيا عامة منذ سنى حياته العلمية الأولى فانتخب عضوًا فى الجمعية الجغرافية الروسية منذ عام ١٩٠٩ ، وأصبح نائبًا لرئيسها فى عام ١٩٣٩ واستمر يشغل هذا المنصب إلى عام ١٩٤٥ . هذا الاهتمام بالجغرافيا إلى جانب معرفته العميقة بالأدب العربى وبالحضارة الإسلامية جعلت منه أنسب شخص للقيام بذلك العمل الجبار ، وهو كتابة تاريخ علم الجغرافيا فى الإسلام

وقد أحس الدارسون دائمًا بمسيس الحاجة إلى مؤلف تركيبى (synthetic) ضخم يسد ذلك النقص ، خاصة وأن كتاب رينو Reinaud قد طال عليه العهد ولم يعد يفى بمطالب البحث المعاصر ، أضف إلى هذا أن المقالات والبحوث المتفرقة لكبار المستشرقين الذين اهتموا بالجغرافيا الإسلامية مثل نالينو Nallino ومينورسكى Minorsky ومجيك Mzik وهونجمان Honigmann الخ لم يكن من شأنها أن تغنى عن دراسة جامعة تتناول جميع أطراف الموضوع .

لكل هذا فقد كانت الدوائر العلمية فى الاتحاد السوفيتى تنتظر بفارغ الصبر إتمام كراتشكوفسكى لسفره الضخم الذى أخذ فى تأليفه أعوامًا طويلة . وزاد إشفاق الجميع على مصير الكتاب عندما اخترمت المنية المستعرب الكبير قبل أن يرى الكتاب النور . بيد أن اهتمام الدوائر العلمية فى الاتحاد السوفيتى قد كلل بالنجاح فخرج الكتاب فى طبعة قشيبة فى عام ١٩٥٧ . وأثناء وجودى بموسكو حدثنى كثيرًا عن هذا الكتاب المستشرقان المرحوم زاخودر B. Zachoder والأستاذ بليايف Y. A. Beliaev ، فكنت أنتظر على أحر من الجمر ظهور الجزء الرابع من « منتخبات آثار كراتشكوفسكى » الذى يضم بين دفتيه هذا الأثر العلمى الهام .

وما كدت أنتهى من قراءته حتى خرجت بنتيجة مؤداها أن هذه هى فعلا الدراسة التى كان يترقبها الجميع لتسد النقص الكبير فى عالم الاستعراب والدراسات العربية .

وهنا صح منى العزم على نقله إلى العربية حتى لا يحرم أبناؤها من التعرف على جانب هام من التراث الإسلامى . ولأول وهلة اصطدمت بعقبات هائلة ، لأن الكتاب يعتمد على مصادر ودراسات لا يحصيها العد ولم يكن بمقدروى أن أرجع إليها حيث كنت أقيم . وعلى هذا فقد استخرت الله وأخذت فى ترجمة الكتاب ، واغتنمت فرصة زيارتى للقاهرة مرتين فى عامى ١٩٥٩ و ١٩٦١ فراجعت النصوص التى أوردها المؤلف وصححت بعض الأوهام .

أما الترجمة فقد توخيت فيها الدقة التامة والتمسك بالنص ، إذ كان كل جهدى موجهًا إلى نقل ألفاظ المستعرب الكبير كما هى ؛ ولم أحدث فيه أية تغييرات سواء بالحذف أو الزيادة . ورغبة فى توضيح اللفظ العربى المترجم فقد وضعت إلى جانبه فى حالات قليلة ما يعادله بالإنجليزية أو الفرنسية . أما الأسماء الأعجمية فقد زودتها بأشكالها بالحروف اللاتينية إلى جانب الشكل العربى ، كما اقتصرت فى تعليقى على حالات نادرة . وإلى جانب هذا فقد بينت أرقام صفحات المتن الروسى على هامش هذه الترجمة لتسهل المراجعة على من يبتغى ذلك .

وبعد فأرجو أن يجد القارىء العربى فى هذا الكتاب ضالته المنشودة وأن يكون فاتحة عهد جديد فى نقل مؤلفات المستعرب الكبير إلى لغة الضاد . والله المستعان .

صلاح الدين عثمان هاشم

الخرطوم ١٩٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم للطبعة الثانية

الآن وقد ناهزت الطبعة الأولى للترجمة العربية لهذا الكتاب العشرين عامًا من عمرها ، فقد رأيت إخراج طبعة ثانية مصححّة ومنقّحة . وكان مما شجعنى على هذا ما قوبلت به الترجمة العربية من تقدير واستحسان ، سواء بين الباحثين العرب والمستعربين . فقد قال بصددها أستاذ الجيل طيب الذكر الدكتور طه حسين إنه يتمنى لو حظيت فروع الأدب العربى الأخرى بدراسات مماثلة لها. وصرّح علاّمه عربى كبير بأنها توشك أن تكون أهم ترجمة ظهرت فى الأدب العربى المعاصر. وأضاف أديب سودانى إن الكتاب يمثل تاريخاً للحضارة الإسلامية بحالها وللأدب العربى بأجمعه .

أما أثرها على الجغرافيين العرب المحدثين فقد كان كبيرًا للغاية ، لأنها وجّهتهم إلى الاهتمام بدراسة أعمال السلف فى ميدان الجغرافيا حتى اعترف بعضهم بأن مناهج تدريس الجغرافيا بالمعاهد العليا بالأقطار العربية قد تغيرّ الآن تماماً . وأما أهل الأدب عامة فى البلاد العربية فقد اعترفوا بأن الترجمة في وضوحها ونصاعة أسلوبها توشك أن تكون تأليفاً. وفي خطاب إلى المترجم قال المستعرب الفرنسى غاستون فييت، وهو ذو الباع الطويل فى تاريخ الجغرافيا لدى العرب، إن الترجمة العربية لمصنف كراتشكوفسكى قد خدمت المستعربين بقدر ما خدمت العرب.

غير أن الدافع الأساسى لإخراج هذه الطبعة الثانية هو تدارك الأخطاء المطبعية التى لا يحصرها العد والتى وجدت طريقها إلى الطبعة الأولى لهذا المصنف الضخم. وانضم إلى هذا رغبتى في ضبط الترجمة أكثر من ذى قبل وتحسين أسلوبها ما أمكن ذلك. كذلك رأيت وضع الحواشى بأسفل الصفحات أسوة بالأصل الروسى، لا فى آخر الفصول كما حدث مع الطبعة العربية الأولى للكتاب.

هذا وقد أضفت إلى آخر الترجمة العربية ملحقاً يحوى نص مقالى «المستشرقون والجغرافيا العربية»، الذى ظهر فى مؤلف جماعى يحمل عنوان «مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية» (الرياض، ١٩٨٥).

الخرطوم ١٩٨٥

صلاح الدين عثمان هاشم

مقدمة الناشر

يتضمن الجزء الرابع من « منتخبات آثار الأكاديمى ا . ى . كراتشكوفسكى » بحث هذا 3
العلامة فى تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، وهو يرى النور لأول مرة بظهور هذا الجزء . ولم يطبع منه قبل ذلك سوى فصول متفرقة (هى الأول والثانى والثالث والتاسع والعشرون والحادى والعشرون والثالث والعشرون) ظهرت إما كاملة أو مبتورة على هيئة مقالات مستقلة فى نشرات أكاديمية العلوم السوفيتية المختلفة ولكن بدون الإشارات المفصلة إلى المراجع كما هو الحال مع هذه الطبعة .

ومسودة الكتاب محفوظة فى أرشيف كراتشكوفسكى فى نسختين ، إحداهما بخط يده والأخرى صورة طبق الأصل منها منقولة بالآلة الكاتبة . وقد تناول المؤلف النسخة الثانية أى المطبوعة بالآلة الكاتبة بيد التصحيح وضبط الأعلام وأجرى قلمه فى حالات معينة بإضافات وتعديلات تتعلق فى الغالب بالمراجع . وقد يقتصر المتن أحيانًا على ذكر اسم بحاثة أو آخر دون الإشارة إلى بحثه أو مؤلفه أو الموضع منه الذى يشير إليه مؤلفنا .

وسوى هذا فقد حفظت لنا بين مخلفات العلامة الكبير مجموعة البطاقات المختصة بهذا الكتاب وهى تحتوى على ثبت المراجع التى استعان بها فى بحثه . وقد تضم البطاقات إلى جانب ذلك عرضًا وجيزًا للمادة ، وهى ليست مرقمة أو مرتبة حسب حروف المعجم .

وقد استغرق تدوين الكتاب الفترة بين عامى ١٩٣٨ و ١٩٤٥ مع بعض التوقف أثناء الحرب وأثناء حصار لنينجراد . غير أن اهتمام كراتشكوفسكى بدراسة الأدب الجغرافى العربى بدأ منذ الأيام الأولى لنشاطه العلمى ، فنراه منذ عام ١٩٠٩ وذلك أثناء رحلته العلمية إلى الشرق العربى يستمع إلى محاضرات فى تاريخ الفلك عند العرب كان يلقيها بالجامعة المصرية وباللغة العربية[١]
المستشرق الإيطالى الشهير كارلو الفونسو نالينو C.A. Nallino/ (١٨٦٢ – ١٩٣٨) 4
أكبر متخصص فى تاريخ الفلك والجغرافيا الرياضية عند العرب . وقد أفاد المؤلف كثيرًا من بحوثه فى مصنفه هذا .

وبدأ كراتشكوفسكى فى إلقاء محاضرات بالمعهد الشرقى بجامعة بطرسبرغ عقب رجوعه من الشرق تناول فيها مختلف نواحى اللغة ، والحضارة العربية . ومن بين المحاضرات التى ألقاها فى الجامعة فى الفترة ما بين عامى ١٩١٠ و ١٩١٧ تجتذب الانتباه بوجه خاص محاضراته بعنوان « نظرة إلى الأدب الجغرافى العربى مع مطالعة نصوص مختارة منه »[٢] Obzor Arabskoi

(١) -cf: Ignati Iulianovich Krachkovski, Materialy k biobibliografii utchenykh SSSR, M-L., 1949, p. 7

(٢) شرحه ص ١٦٢

geograficheskoi literatury s chteniem izbrannykh otryvkov ، وهو عين الموضوع الذى عالجه بالتالى فى العام الدراسى ١٩٣٥ – ١٩٣٦ بعنوان « أدب التاريخ والجغرافيا عند العرب »[٣] Arbskia Istoriko–geograficheskia Literatura .

وقد رجع كراتشكوفسكى فى تحضير دروسه هذه إلى أهم المؤلفات التى ظهرت فى الموضوع[٤] ، كما قام بعمل ترجمات للمقتطفات التى انتقاها بنفسه من النصوص العربية ليسهل فهمها على تلامذته . وقد ضمَّن المؤلف هذه الترجمات كتابه هذا لإعطاء فكرة عن أسلوب ومنهج كل مؤلف على حدة .

وهكذا عن تلك المحاضرات فى الأدب الجغرافى العربى التى ألقاها الأكاديمى كراتشكوڤسكى بالجامعة ، ولد هذا الكتاب وترعرع على مدى نيف وأربعين عامًا كان يتعهده خلالها بالزيادة ويتناوله بيد التعديل معتمدًا فى ذلك على ما يجدّ من مواد واكتشافات طالما لعب هو نفسه دورًا فعالا فى إماطة اللثام عنها .

ويبدو جليًا من مقدمة المؤلف لكتابه ، وهى التى فرغ من تحريرها عقب تدوينه للفصل الثالث والعشرين ، أنه كان يود متابعة تأريخه للأدب الجغرافى العربى إلى أيامنا هذه ، إلا أنه لم يظهر فى الواقع بعد المقدمة سوى فصل واحد هو الفصل الرابع والعشرون الذى يعالج القرن الثامن عشر فى حين كانت فكرة المؤلف الأساسية هى أن يضيف إلى ذلك فصلين أو ثلاثة يسوق فيها الكلام على العصر الحديث . ولكن لم يقدّر له تحقيق هذه الأمنية إذ عاجلته المنية فى الرابع والعشرين من شهر يناير عام ١٩٥١ . وهذا يوضح لنا السبب فى أن الكتاب ينقصه القسم الخاص بالقرن التاسع عشر كما ينقصه أيضًا الفصل الختامى الذى كان سيعرض فيه المؤلف الاستقراءات العامة التى يمكن استخلاصها من الكتاب فى مجموعه .

لقد حظى تاريخ الأدب الجغرافى العربى بدراسات عامة وبحوث خاصة ليست بالقليلة ، ابتداء من المصنف الكلاسيكى للمستشرق الفرنسى رينو Reinaud . وفى العشرات الأولى من هذا القرن نما هذا المجهود بشكل ملحوظ/ بفضل البحوث الممتازة لبارتولد ومينورسكى وكرامرس 5 Kramers وروسكا Ruska وفيرّان Ferrand وغيرهم من كبار المتخصصين فى ميدان الجغرافيا التاريخية عند العرب . غير أن مصنف كراتشكوڤسكى يحتل مكانة ممتازة بين جميع هذه المؤلفات .

---

(٣) شرحه ص ١٦٢

(٤) مثال ذلك أنه فى المنهج الدراسى ١٩١٥–١٩١٦ لمعهد اللغات الشرقية بجامعة بتروجراد ذكر المراجع الآتية لدراسة الأدب =

نال كراتشكوفسكى الشهرة فى الدوائر العلمية كمستعرب واسع الأفق متعدد النواحى تناول جميع أطراف الحضارة العربية بالدرس والاستقصاء واهتم بجميع مظاهرها الكبيرة والصغيرة ، ابتداء من دراساته العميقة عن المتنبى وأبى العلاء إلى جمعه الحكايات الشعبية من بلدة الناصرة . وكان يعتقد اعتقادًا جازمًا أن حضارة شعب ما إنما تتألف من جميع تلك العناصر المختلفة وأنه يجب لتفهمها تحديد مكانة كل ظاهرة فى التطور العام لتلك الحضارة وتبيان الروابط العضوية التى تجمع بينها . لذا فقد رأى فى الأدب الجغرافى بالذات عنصرًا أساسيًا فى الأدب العربى يجب معالجته من وجهة نظر تاريخ الأدب العربى والحضارة العربية ؛ ومدلول « الحضارة العربية » لديه واسع للغاية وهو قد استعمله للتعبير عن جميع أوجه النشاط الثقافى لشعوب الشرق الأدنى فلم يقتصر على العرب وحدهم بل أدخل شعوب آسيا الوسطى والقوقاز كما أدخل الإيرانيين والأتراك والسريان وغيرهم(٥) .

ويوكد المؤلف أكثر من مرة خلال الكتاب وفى المقدمة أن المنهج الذى اتبعه هو المنهج الفيلولوجى (philological) وأنه ليس من غرضه كتابة تاريخ علم الجغرافيا أو تاريخ الاستكشافات الجغرافية عند العرب . وهو يولى نصيبًا متعادلا من الاهتمام لكل من أدب الدوائر العلمية والأدب الشعبى حتى إنه لم يهمل قصص الرحلات التى تحمل طابعًا أدبيًا صرفًا بل أسطوريًا . ورغمًا من هذا فلا يخلو الأمر من حالات تطرق فيها المؤلف إلى الكلام على تاريخ الجغرافيا العلمية والاستكشافات الجغرافية العربية فقدم لنا لوحة رائعة لهذا الفرع من العلوم عند العرب وبيّن الدور الخطير الذى لعبوه فى تطوير علم الجغرافيا جنبًا إلى جنب مع الفرس والترك الذين ارتبطوا ارتباطًا وثيقًا بالثقافة العربية . ويبدو هذا واضحًا غاية الوضوح عند كلام المؤلف على شخصيات مثل الخوارزمى وألوغ بيك (الفصل الثالث) والبيرونى (الفصل التاسع) وأحمد بن ماجد دليل فاسكو داغاما (الفصل العشرون)/ الذى كشف كراتشكوفسكى عن 6

= الجغرافى العربى :

1-M. Reinaud, Géographie d'Aboulféda, T.I, Paris, 1848.

2-L.M. Devic, Coup d'oeil sur La Littérature géographique arabe au Moyen age, Paris, 1882.

3-Carl Brockelmann, GAL, Berlin 1898-1902.

أما النصوص المختارة فمن كتاب دى خويه :

De Geoje, Selections from Arabic Geographical Literature, Leiden, 1907.

(٥) تعرض كراتشكوفسكى لهذا بالتفصيل منذ عام ١٩١٢ وذلك فى نقده لبحث تومانسكى :

A.G. Tumanski, «Arabski lazyk i kavkazovedenie» (Mir Islama, I, 1912, p. 237),

- Arabskia Literatura, Literatura Vostoka, Sbornik Statei, 1919, p. 24.

-Arabskia Poezia, Vostok, 4, 1929, p. 97.

ثلاثة من مصنفاته فى معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية[٦] ، أو مثل بيرى ريس وغيرهم من ممثلى الجغرافيا العلمية الكثيرين .

ويقدم المؤلف عرضًا منظما للأدب الجغرافى ابتداء من ظهور التصورات الجغرافية الأولى عند العرب التى نلتقى بها فى أقدم آثار الشعر الجاهلى وفى القرآن ، ثم يتتبع ميلاد الجغرافيا الرياضية عند العرب معتمدًا فى ذلك على المصادر الأصلية وعلى الدراسات الحديثة ويبحث مسألة علاقتها بالعلم اليونانى والهندى ؛ ويلى هذا فحص مفصل لميلاد بقية فروع الجغرافيا الأخرى مثل الجغرافيا الوصفية والرحلات والجغرافيا البحرية والجغرافيا العامة والإقليمية إلخ مع ذكر مراكزها ومدارسها واتجاهاتها وأنماطها المختلفة .

وهو فى خلال ذلك يترجم لمعظم الشخصيات الكبيرة وأصحاب الأصالة ويوضح الروابط والمؤثرات التى تركت أثرها عليهم . ونتيجة لتحليله الدقيق لعدد هائل من مصنفات ما يزيد على ستين مؤلفًا فقد استطاع كراتشكوفسكى أن يحدد درجة الثقة التى تتمتع بها مادتهم ومدى أهمية تلك المادة كمصدر لدراسة الجغرافيا التاريخية للأقطار التى تكلموا عنها . ويحتوى الكتاب إلى جانب هذا على ثبت بالمراجع يكاد يستغرق جميع المادة المتعلقة بهذا الموضوع ابتداء من العصور **الوسيطة** إلى أيامنا هذه مع تقدير نقدى للمتون التى نشرت والبحوث العلمية التى عملت حولها ؛ وينطبق هذا القول أيضًا على الفصلين التاسع عشر والحادى والعشرين المفردين للأدب الجغرافى الفارسى والتركى الذى يعالجه المؤلف بالقدر الذى يتلاءم مع ارتباطه بالأدب العربى .

إن هذا الأثر العظيم الذى ألفه كراتشكوفسكى قريبًا من نهاية نشاطه العلمى ليقف فريدًا فى ميدان الاستعراب العلمى لما يتصف به من سعة المادة سواء فيما يتعلق بالمصادر الأولى أو البحوث العلمية ، ومن المتوقع أن يصبح نموذجًا يُحتـذَى فـى عمل دراسات تركيبية من هذا الصنف تتناول الفروع المختلفة لتاريخ الأدب العربى .

وبعد فيمكننا أن نستخلص النتائج الآتية من دراسة هذا الكتاب :

(١) اعتمادًا على مادة علمية ضخمة استطاع المؤلف ، دون سائر من سبقوه ، أن يوكد مكانة الحضارة العربية فى تاريخ البشرية والدور المرموق الذى لعبه علم الجغرافيا العربى فى هذا الميدان/ . 7

(٢) لقد حالف التوفيق المؤلف إلى أقصى الحدود فى أن يدلل على أن ممثلى حضارات آسيا الوسطى (تركستان) والقوقاز وإيران وتركيا وغيرها من الأقطار الإسلامية قد أسهموا فى تشييد هذه الحضارة وأنه قد برز من بينهم علماء كبار فى ميدان الجغرافيا العربية .

---

(٦) راجع كراتشكوفسكى «مع المخطوطات العربية»، موسكو ـ لنينجراد، ١٩٥٥، ص ٧٦، ٧٨ (بالروسية)

(٣) وأخيرًا يتبين لنا أن المؤلف قد انتهج منهجًا علميًا دقيقًا إذ أن دراسته العميقة لجميع الآثار الكبرى فى الأدب الجغرافى قد أثبتت أنه من الممكن استخراج مادة واقعية تساعد إلى حد ما فى دراسة المسائل المتعلقة لا بالجغرافيا التاريخية وحدها بل أيضاً بعلم الآثار وعلم الأعراق البشرية الخ، وذلك من أكثر المصادر إغراباً وخيالاً، أي كتب «العجائب» mirabilia. بيد أن أهمية كتاب كراتشكوفسكى لا تقف عند هذا الحد بل تتجاوزه إلى ما أبعد من ذلك ، فهو قد كشف النقاب عن مسائل عديدة يجب أن يعنى العلم السوفيتى ببحثها و إيجاد الحلول لها . ونأمل أن يكون فى نشر هذا الكتاب حافزًا قويًا إلى ظهور بحوث عديدة تتناول نقاطه المختلفة .

ومنذ أن فرغ المؤلف من كتابه هذا ظهر عدد من البحوث العلمية تتناول موضوعات شتى ، من ذلك ظهور طبعة جديدة لمتن الغرناطى من عمل دوبلر Dubler[٧] ، وظهور الترجمة الفرنسية لتاريخ دمشق لابن القلانسى[٨] ، ومقالات عباس العزاوى عن على ريس وتاريخ الفلك فى العراق[٩] ، ودراسة عمر فرّوخ لابن خلدون[١٠] إلخ . ولم يكن فى مقدور المؤلف بالطبع أن يطلع عليها جميعا ، وكان من الممكن فى حالات معينة أن تعاون فى استكمال الفصول الخاصة بذلك فى الكتاب . بيد أن الاستقراءات الأساسية التى يمكن استخلاصها من الكتاب لم تتأثر فى جوهرها بظهور تلك الدراسات .

وتعتمد هذه الطبعة على النسخة الأصلية المطبوعة بالآلة الكاتبة ، وروجعت على نسخة المؤلف المكتوبة بخط يده وضمت إليها مجموعة البطاقات التى خلفها المؤلف والتى تحتوى على بعض الزيادات ؛ وقد بذل الناشرون جهدهم فى جمع هذه البطاقات وترتيبها وفقًا لحروف المعجم . وتم طبع المتن دون إحداث أية تغييرات ، وفى مواضع متفرقة منه فقط استبدلت بعض ألفاظ بأخرى أو أعيدت صياغتها ابتغاء المزيد من الوضوح . هذا وقد نقلت الحواشى فى أسفل الصفحات والتى تشير إلى المراجع عن مخطوطة المؤلف بحذافيرها وتمت مراجعتها على ضوء البطاقات ؛ كما استكمل الناشرون الحواشى الناقصة والمفقودة ولكنهم خشية إثقال المتن لم يجدوا ضرورة إلى الإشارة إلى تلك الزيادات . وللسبب نفسه احتفظ الناشرون ما أمكن برموز

---

(٧) Abu Hamid el Granadino y su relaicón de Viaje por tierras Eurasiaticas, por César E. Dubler, Madrid, 1953.

(٨) Damas de 1075 à 1154, par Roger Le Tourneau, Damas, 1952.

ونقده لجعفر الحسنى ، مجلة المجمع العلمى العربى ، ١٩٥٤ ، ص ١٢٤ — ١٢٥

(٩) عباس العزاوى ، مجلة المجمع العلمى العربى ، ١٩٥٤ ، ص ٨٩ — ١٠٣

(١٠) عمر فروخ ، مجلة المجمع العلمى العربى ، ١٩٥٤ ، ص ٦٧ — ٧٦ و ٢٠٣ — ٢١٤

المختصرات (abbreviations) التى استعملها المؤلف أو استعاضوا عنها/ بأخرى من عندهم 8
إن لم يجدوها . وأضيف إلى الكتاب فهرس بالمراجع يحوى ثبتًا بهذه الرموز وثبتًا بأسماء الكتب التى رجع إليها المؤلف ، ثم يلى هذا فهارس أسماء الأعلام والأسماء الجغرافية والاثنوغرافية ، فأسماء المصادر من شرقية وغربية ، وأخيرًا يأتى فهرس الموضوعات والمصطلحات . وآخر فهرس بالكتاب هو فهرس الصور والرسومات التى انتقتها من أجل الكتاب السيدة ف . ا . كراتشكوفسكيا ؛ وقد عملت على اختيار النماذج من المخطوطات التى بالاتحاد السوفيتى.

أما الألفاظ والمصطلحات العربية التى نقلها المؤلف كما هى ووضعها جنبًا إلى جنب مع ترجمتها الروسية فقد ضبطت بالحروف الروسية (transcription) وفقاً للطريقة التى انتهجها كراتشكوڤسكى نفسه فى كتابة الألفاظ العربية بالحروف الروسية(١١) ..

هذا وقد قام بإعداد هذا الجزء الرابع من « منتخبات آثار الأكاديمى كراتشكوڤسكى » وتهيئته للطبع ڤ . ا . كراتشكوڤسكيا * و ا . ا . ميخايلوفا A.A. Mikhailova يعاونهما ف . ا . بليايف V. A. Beliaev و ا . ا . بيكوف A.A. Bekov ول . ز . بيساريفسكى L. Z. Pisarevski ، وجميعهم من المتخصصين فى الدراسات العربية والإسلامية . أما الصور والرسوم البالغ عددها خمسًا وتسعين والتى قامت بانتقائها ڤ . ا . كراتشكوڤسكيا فتشمل إلى جانب صورة المؤلف نماذج من مخطوطات الكتب التى تحدث عنها المؤلف فى صلب كتابه (وهى مأخوذة من مجموعة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية ، ومن مجموعة جامعة لنينجراد ومجموعة مكتبة م . ى . سالتيكوف – شيدرين M.E. Saltykov-Shchedrin إلخ) كما تشمل أيضًا صورًا لنباتات وحيوانات ومناظر طبيعية وأجهزة فلكية وأجرام سماوية ** إلخ .

وقد قام بالتقاط الصور مؤسسة « لافوكى » LAFOKI وس . غ . غاسيلوف S.G Gasilov ومعمل تصوير جامعة لنينجراد . أما الفهارس فقد قام بإعدادها س . ن . سكلوف S.N. Sokolov وب . ا . جريازنفتش P.A. Griaznevich .

غ . تسرتيلى
G. Tsereteli

---

(١١) كراتشكوڤسكى ، أبو الفرج الوأواء الدمشقى ، بطرسبرغ ١٩١٤ ، ص ١٠ (بالروسية) ؛ وأيضا بحثه : حكايتان عربيتان من الناصرة ، منشورات الجمعية الفلسطينية الروسية ، لنينجراد ١٩٢٦ ، ص ٢٨ – ٤١ . راجع الجزء الأول من « منتخبات آثار كراتشكوفسكى » ، موسكو - لنينجراد ١٩٥٥ ، ص ٧ - ٨.

* زوج المؤلف وهى عالمة سوفيتية ذات شهرة عالمية فى ميدان النقوش الإسلامية ولا تزال على قيد الحياة [توفيت منذ بضعة أعوام]. (المترجم)

** جميع هذه الصور لا تمثل شيئًا ذا أهمية بالنسبة للقارىء الشرق ، لذا فقد طوينا عنها كشحًا . (المترجم)

مقدمة المؤلف

9 إن هذا المصنف الذى أخذ أعوامًا طويلة ليقف على قدميه إنما يعتمد فى الأصل على مواد المحاضرات التى ألقيتها بجامعة بطرسبرغ ثم بجامعة لنينجراد فى فترات متباينة إبتداء من عام ١٩١٠ . وليست الغاية الأساسية منه تقديم عرض عام لتاريخ الجغرافيا بقدر ما قصد به عرض تاريخ الأنماط الأدبية المرتبطة بعلم الجغرافيا فى صورة أو أخرى ؛ وهو يهدف إلى جانب هذا تبيان الخطوط العريضة لتطور هذه الأنماط ابتداء من الإيماءات الأولى فى الشعر الجاهلى حتى أيامنا هذه .

والكتاب يقدم فى آن واحد نصيبًا متكافئًا لكل من الأدب العلمى والأدب الشعبى ، ويجهد فى أن يلم بأطراف الجغرافيا الرياضية والوصفية كما جهد فى الإحاطة بالجغرافيا العامة والإقليمية . وهو لا يهمل قصص الرحلات حتى تلك التى تحمل طابعًا أدبيًا صرفًا بل وأسطوريًا .

وبالرغم من أننا لم نهمل عند فحصنا للآثار الأدبية علاقتها بعلم الجغرافيا وتاريخ الاكتشافات الجغرافية ، وبالرغم أيضًا من أن العرض العام قد سار على ضوء التطور العام للثقافة العربية إلا أن المنهج الذى اتبع هو المنهج الفيلولوجى الذى يهدف قبل كل شيء توضيح طبيعة الظواهر الأدبية وتطورها . وهو بهذا يقف فريدًا فى هذا الميدان ، وقد تدنو منه من حيث الفكرة العامة أقسام متفرقة من كتاب رينو Reinaud الذى جاوز عمره قرنًا من الزمان تجمعت خلاله مادة غزيرة وتقدم فيه منهج البحث فى الفيلولوجيا العربية . وقد دعت الحاجة لتوضيح دور الأدب الجغرافى العربى فى تأثيره على الشرق والغرب إلى أن أفرد فصلين مستقلين للأدب الجغرافى الفارسى والتركى ، واهتم بمعالجة الأمثلة البارزة لانتقال التراث الثقافى فى ميدان الجغرافيا إلى أوروبا الغربية .

وبالرغم من أن تبييض الكتاب قد بدأ قبل الحرب الوطنية * ، إلا أن العمل فيه قد سار بنسبة أسرع أثناء حصار لنينجراد عام ١٩٤١ – ١٩٤٢ . وكنت قد فرغت قبل الحرب من تدوين سبعة فصول فقط إلى جانب الفصلين اللذين تشتمل عليهما المقدمة . وتضم هذه الفصول التسعة الأولى الفترة من القرن السادس إلى القرن الثانى عشر وتحتوى على نحو اثنتى عشرة ملزمة طباعية . وفى أثناء الحرب ، وذلك ابتداء من يوليو ١٩٤١ إلى لحظة مغادرتى مدينة لنينجراد فى آخر يوليو ١٩٤٢ أضيفت إلى هذه الفصول التسعة أربعة عشر فصلا أخرى ، وبهذا توقف الكتاب عند الفصل الثالث والعشرين المفرد لمعالجة القرن السابع عشر والذى يرد فيه الكلام فيما يرد على رحلة

---

* يطلق اسم الحرب الوطنية فى الاتحاد السوفيتى على الكفاح العنيف فى الجبهة الشرقية أثناء الحرب العالمية الثانية بين الألمان والسوفيت . (المترجم)

مكاريوس الأنطاكى إلى روسيا فى عهد الكسى ميخايلوفتش . كما تم أيضًا إعداد مواد الفصل الرابع والعشرين الذى يبحث فى الآثار الأدبية/فى ميدان الجغرافيا فى القرن الثامن عشر . وهكذا 11
قفز عدد الصفحات المعدة للطباعة إلى أربعين ملزمة طباعية .

ولإتمام هذا الكتاب ، وهو أمر لايتسنى إلا فى لنينجراد ، يتحتم إلقاء ضوء على العصر الحديث (القرنين الثامن عشر والتاسع عشر) ، الذى يحتاج فى أغلب الظن إلى ثلاثة أو أربعة فصول أخرى . ولا تزال محتاجة إلى الإكمال التعليقات وثبت المراجع التى سترد في آخر الكتاب حينما يكتمل عقده . فإذا أمكن تنفيذ هذه الفكرة الأصلية بالصورة المرجوة لها فإن هذا الفرع من فروع الثقافة الإسلامية يكون قد حظى إذن لأول مرة بدراسة واسعة تتناول جميع المادة المدونة . ولم يُقصد بالكتاب المستعربون وحدهم بل قُصد به كذلك مؤرخو الأدب والجغرافيون ومؤرخو الحضارة عامة .

موسكو فى ١٠/١٠/١٩٤٣ — **ا . يو. كراتشكوفسكى**

مدخـــل

١ - عرض عام

15 إن المكانة المرموقة التى تشغلها الحضارة العربية فى تاريخ البشرية لأمر مسلم به من الجميع فى عصرنا هذا ؛ وقد وضح بجلاء فى الخمسين عامًا الأخيرة فضل العرب فى تطوير جميع تلك العلوم التى اشتقت لنفسها طرقًا ومسالك جديدة فى العصور الوسيطة ولا زالت حية إلى أيامنا هذه – أعنى علوم الفيزياء والرياضيات والكيمياء والبيولوجيا والجيولوجيا . أما فيما يتعلق بالأدب الفنى العالمى فإن العرب قد أسهموا فيه بنصيب وافر يمثل جزءًا أساسيًا من التراث العام للبشرية ، كما امتد تأثيرهم كذلك إلى عدد كبير من المصنفات والفنون الأدبية التى نشأت فى بيئات غير عربية .

وبالطبع ليس فى وسع جميع الفنون المختلفة للأدب العربى الحافل أن تدعى لنفسها مكانة واحدة من حيث القيمة ومن حيث الأهمية العلمية ؛ وإذا كان بعضها مثل علم اللغة والعلوم الشرعية يمثل موضوعًا لدراسات المتخصصين ، الأمر الذى لا يمنع بالطبع من أهمية استقراءاتهم فى حالات معينة بالنسبة للنواحى العريضة فى تاريخ الحضارة ؛ إلا أن عددًا من فروع الأدب العربى قد اكتسب أهمية تجاوزت بكثير حدود اختصاصاته الضيقة . ولعل هذا يصدق قبل كل شيء على الأدب التاريخى والجغرافى العربى الذى اعترف العلماء به منذ عهد بعيد بأنه المصدر الأساسى والموثوق به فى دراسة ماضى العالم الإسلامى ؛ إذ تتوفر فيه مادة لا ينضب معينها لا للمؤرخ أو الجغرافى فحسب ، بل أيضا لعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخى الأدب والعلم والدين ، وللغويين وعلماء الطبيعة . ولا يقتصر محيط الأدب الجغرافى العربى على البلاد العربية وحدها بل يمدنا بمعلومات من الدرجة الأولى عن جميع البلاد التى بلغها العرب أو التى تجمعت لديهم معلومات عنها ، وذلك بنفس الصورة المتنوعة التى وصفوا بها بلاد الإسلام . وقد يحدث أحيانًا أن تمثل المادة الجغرافية العربية إما المصدر الوحيد أو الأهم لتاريخ حقبة معينة لقطر ما . فمثلا فيما يتعلق بتاريخ إيران فى عهد الساسانيين – وهو العصر نفسه الذى تمثله تلك الآثار البديعة المحفوظة لدينا بمتحف الارمتاج Ermitage بلنينجراد – نجد أن المادة الأساسية قد حفظها لنا المؤلفون العرب . لذا فليس من الغرابة فى شيء إذا صرحنا بأن هذا الأدب يوشك أن يكون المعين الأول
16 الذى يرده/ مختلف المتخصصين من غير المستعربين وأن يصل الاهتمام به إلى درجة عالية . هذا الاهتمام يبرره الغنى الهائل لهذا الأدب ؛ ولتكوين فكرة عن ضخامته نذكر مثلا أن مؤرخ الأندلس الذى عاش فى القرن السابع عشر وهو المقَّرى قد أورد أسماء مائتين وثمانين شخصًا عندما أراد

وضع قائمة بأسماء الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق فى طلب العلم وحده وليس بغرض التجارة أو الحج ، معترفًا رغمًا عن ذلك بأنه لم يستوعب كل الأسماء[١] . ويزيد فى الاهتمام بالأدب الجغرافى أحيانًا طابعه الفنى الحى ؛ ويكفى أن نتذكر فى هذا الصدد مصنفات من طراز أسفار السندباد ، تلك القصص الجغرافية الفريدة فى نوعها .

ويمكن بوجه عام تمييز اتجاهين أساسيين فى الأدب الجغرافى العربى ، فهو من ناحية يولى وجهه شطر العلوم ، أعنى العلوم الدقيقة وذلك بالمعنى الذى نفهمه حاليًا إذا ما أردنا تحديد علم الجغرافيا ؛ ومن ناحية أخرى فهو يولى وجهه شطر الأدب الفنى بالغًا ببعض آثاره فى هذا المجال ذروة الإبداع . وقد أدرك العرب أنفسهم هذا الطابع المزدوج لعلم الجغرافيا وبينوه بدقة فى تصنيفهم للعلوم . وهم قبل أن يتوصلوا إلى وضع التصنيف على أسس منطقية صارمة ، بل قبل أن يتعرفوا على نظام التصنيف الثلاثى Trivium (النحو والبيان والجدل) والرباعى Quadrivium (الحساب والهندسة والفلك والموسيقى)[٢] الذى ساد بالتالى فى أوروبا الوسيطة ؛ أقول قبل هذا قسم العرب العلوم من وجهة نظرهم الخاصة معتمدين فى ذلك على سير تطورها التاريخى . ففى العهد الإسلامى قسمت العلوم إلى « العلوم القديمة » و« العلوم الحديثة »[٣] . فالمجموعة الأولى (وهى اللغة والكلام والفقه والتاريخ) أرجعوا نشأتها إلى العصر الأموى ، أما الثانية (وهى الفلك والرياضة والطب والفلسفة) فإلى العصر العباسى . وقد ضموا الجغرافيا إلى العلوم الدقيقة ، أقرب ما يكون إلى الفلك . وهم لم يتنكبوا الصواب فى ذلك ، ففى الواقع نشأت الجغرافيا الرياضية والفلكية بين ظهرانيهم فى نهاية القرن الثامن أو بداية التاسع الميلادى نتيجة لتعرفهم واتصالهم بالعلوم الهندية أولا ثم اليونانية بعد ذلك حيث طغت فى الأخيرة على جميع المؤثرات شخصية بطلميوس* Ptolemaeus بمصنفاته الفلكية الجغرافية . ومنذ ذلك الوقت سار تطور الجغرافيا العلمية عند العرب من غير توقف إلى العصور المتوسطة الأخيرة ، محتفظة على الدوام بصلتها بتقاليد المصنفات الأولى فى هذا الميدان .

وفى موازاة هذا الاتجاه وجد اتجاه آخر تشكّل معه فى وقت واحد ، بل وربما تشكل قبله تبعًا لبعض المصادر ، أعنى منهج الجغرافيا الوصفية التى يرتبط بها ارتباطًا وثيقًا قصص الرحلات .
وهو من بعض الوجوه ، خاصة فى بداية ظهوره ، يرتبط بعلوم الشريعة/ وباللغة ثم بالأدب الفنى ؛ 17

---

(١) -Analectes sur l'histoire et la littérature des arabes d' Espagne, par Al-Makkari. Upliés par R. Dozy, G. Dugat, L. Krehl et W. Wright. T.l, Leyde, 1856, p. 463-943 (Chap. V).

(٢) -Bartold, Kult. Mus., p. 35-36.

(٣) عن التصنيفات المختلفة للعلوم راجع : حاجى خليفة ، المجلد الأول ، ص ٢٤ – ٤٣

* هذه هى الطريقة الصحيحة لكتابة هذا الاسم ، أى أن تسبق الميم الياء لا العكس . (المترجم)

الأمر الذى لم يحل بالطبع دون تشبعه بين آونة وأخرى بالجغرافيا العلمية . ولكن يجب الاعتراف بأن المنهج الثانى ، أى منهج الجغرافيا الوصفية ، هو الذى يسترعى النظر بغزارة مادته وهو الذى يغلب على الأدب الجغرافى العربى ويسبغ عليه طابعه المميز ويعطيه شكله الخاص به مما يصعب إيجاد مثيل له فى آداب الأمم الأخرى . وهذا الطابع المتنوع ، أقول بل هذا التلون فى الأدب الجغرافى العربى ، يضحى أكثر فهمًا لنا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار العوامل العديدة التى عاونت على انبعاثه وظهوره .

لقد أدى اتساع رقعة أراضى الخلافة الإسلامية وتدعيم سلطانها فى القرنين الثامن والتاسع إلى ظهور مهام إدارية عديدة خاصة فى محيط الشئون المالية والخراج . وبالطبع كان بمقدور العرب الإفادة من النظم السابقة لهم وهو ما حدث بالفعل ، ففى إيران استطاعوا الإفادة من سجلات خسرو أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٩) فى مسح الأراضى ؛ وفى مصر نسجوا على منوال النظام البيروقراطى البيزنطى . بيد أن ظروف الأحوال الجديدة استلزمت بدورها جمع معلومات دقيقة محققة عن تقسيم الولايات وعن الأماكن المأهولة والمحاصيل الزراعية والصناعية وتقدير الخراج والضرائب عينية ونقدية . ولهذا الغرض ظهرت كتب خاصة هى « كتب الخراج » التى قصد بها فى أول الأمر إرشاد عمال الخراج ، ولكنها لم تلبث أن أصبحت فى متناول أيدى الجميع . هذا وقد تطلبت المركزية فى النظام الإدارى الذى تجمعت خيوطه فى بغداد شق طرق جيدة للمواصلات واستيفاء معلومات دقيقة عن تلك الطرق مع تعداد المراحل ومنازل البريد وتحديد المسافات وظروف السفر . ومن أوائل المصنفات التى وصلت إلينا فى هذا كتاب وضعه عامل للبريد بإحدى ولايات الخلافة المهمة .

ثم إن مصالح الدولة ، التى أصبحت أكبر قوة عالمية لذلك العهد ، حالت دون اكتفائها بمعرفة أراضيها وحدها ، بل كان من الضرورى أن تحصل على معلومات دقيقة عن الأقطار الأخرى خاصة المتاخمة لها . وقد ساعد على هذا الحرب والسلم معًا ، فالمعلومات قد أتت بها السفارات وأسرى الحرب العائدون إلى أوطانهم ؛ ولأحد هؤلاء ممن كانوا فى أسر البيزنطيين ندين بأول معلومات للعرب لا عن بيزنطة وحدها بل أيضًا عن جيرانها من الصقالبة وغيرهم من سكان جنوبى روسيا .

وقد اتخذت الرحلات طابعًا جم الحيوية والنشاط منذ القرون الأولى للخلافة ، وكما هو معلوم فإن من فروض الإسلام حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، أى إذا ساعدت الظروف وكانت الطرق مسلوكة . كما استخدمت التجارة الطرق البرية والبحرية على السواء وتأتّى من هذا ربط أقاصى أراضى الخلافة بعضها ببعض ، بل إن التجارة تجاوزت/ تلك الحدود فجذبت فى فلكها 18
أواسط افريقيا وشمال شرقى أوروبا وجنوب شرقى آسيا ؛ وهى التى ابتدعت تلك الشخصية الخالدة شخصية السندباد البحرى الذى ترتبط أسفاره بالأدب الجغرافى ارتباطًا أوثق مما كان يظن من قبل . وهكذا ساعد الدين والتجارة على توسيع مدى الأسفار ، كما ساعد فى هذا المضمار أيضًا

التعليم ؛ فقد جاء فى الحديث الشريف « اطلبوا العلم ولو بالصين » ، فأصبح الارتحال فى طلب العلم منذ القرن الأول للهجرة أشبه بالضرورة اللازمة لتكملة « دورة الدراسة » . ففى طلب العلم رحل الناس من الأندلس إلى بخارى ومن بغداد إلى قرطبة ، ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى مثال فقيه أندلسى من القرن الثانى عشر هو أسعد الخير الأنصارى الأندلسى (المتوفى عام ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م) الذى نعت بالصينى لارتحاله إلى تلك البلاد النائية[٤] . كل هذا أدى لا إلى اتساع مدى المعلومات الجغرافية فحسب ، بل ترك فى الوقت نفسه أثره على الأدب الجغرافى ، فظهرت أشتات من المصنفات يتناول بعضها أوصاف الطرق بطريقة جافة ويحفل الآخر بالقصص الممتعة التى تسمو أحيانًا إلى مرتبة الأدب الفنى الصرف .

ولم يقف الدين عند فريضة الحج بل تطلب اهتمامًا خاصًا بالجغرافيا الفلكية . فتحديد بداية الصوم ونهايته ومواقيت الصلوات الخمس استدعى معرفة جيدة بالفلك والرياضيات[٥] . ولتحديد مواقيت الصلاة صنعت الساعات الشمسية الأفقية « البسيطة » التى استلزم تخطيطها معرفة دقيقة بخط عرض المكان المعين ، كما أن تحديد ظل المزولة كل يوم استلزم عملية حسابية ودراية بالأمر[٦] . وفى اللحظة التى يتجاوز فيها ظل العصر ظل منتصف النهار بمقدار « مقياس » (gnomon) يبدأ ما يسمى بوقت العصر[٧] . واختلفت القبلة فيما يتعلق بالصلاة أو ببناء المسجد من بلد إلى آخر وارتبط تحديدها بمعرفة خط طول وعرض (geographical coordinates) مكة والنقطة المعينة[٨] .

ومن المسلّم به أن تباين الظروف يؤدى إلى التنوع فى الصور الأدبية ، هذا إذا تركنا جانبًا الميل إلى البحث والاستقصاء مما يتأتّى لجميع الشعوب والأعراق البشرية . وقد تردد صدى هذا التنوع فى الأسماء العديدة التى أطلقها العرب على علم الجغرافيا . ففيما يتعلق بالجغرافيا الفلكية ثبت فى العادة اللفظ اليونانى « جغرافيا » ، الذى تُرجم أحيانًا فى صورة أقرب إلى الفهم هى « علم
19 الأطوال والأعراض » أو / « علم تقويم البلدان » . أما الجغرافيا الوصفية فقد أطلق عليها اسم « علم المسالك والممالك » ، وفى الحالات التى يدور فيها الكلام على مراحل الطرق بصورة خاصة أطلق عليها اسم « علم البرود » . وإذا غلب الجانب الكوزموغرافى (cosmographic)

---

(٤) ياقوت ، المعجم ، ص ٤٤٤[١٤ - ٢٢] — ٤٤٥[٣]

(٥) -Wiedemann und Frank

(٦) -Schoy, Geography, p. 259

(٧) -Schoy, El, IV, p. 332

(٨) -Schoy, Geography, p. 259

-Schoy, El, II, p. 1063-1064

– أى فى وصف الكون – بما يصحبه من ميل واضح نحو العجائب والغرائب فقد استعملت تسمية « علم عجائب البلاد » .

وتاريخ نشأة الأنماط المختلفة للأدب الجغرافى ليس أقل دلالة من مصطلح التسميات على التنوع فى البحث والأهداف . وفى هذا الصدد يمكن ملاحظة عصور محددة فى تاريخه ، فقبل القرن التاسع لم تكن هنالك مصنفات جغرافية قائمة بذاتها ، إنما تقابلنا من وقت لآخر معلومات جغرافية متناثرة حفظها لنا الأدب اللغوى فيما بعد أو تردد صداها فى الرحلات الخيالية . وقد كان القرن التاسع بحق عصر الانبثاق ، إذ تم فيه من ناحية التعرف على مصنفات بطلميوس وأدى هذا بدوره إلى ظهور الترجمات التى بدأت بها سلسلة الجغرافيا العلمية ، كما تشكلت فيه من ناحية أخرى الأنماط المتعددة للجغرافيا الوصفية . وقرب نهاية هذا القرن ظهرت المداخل الجغرافية التى وضع بعضها لكتاب الدواوين وبعضها الآخر للمشتغلين بالأدب ، كذلك تنوعت أوصاف الرحلات فغلب على بعضها العنصر الواقعى بينما احتفظ الآخر بالطابع القصصى . أما القرن العاشر فهو العصر الذى بلغ فيه الأدب الجغرافى أوجه ، وذلك بظهور المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب بما تميزت به من اهتمامها بوصف « المسالك والممالك » وصلتها الوثيقة « بأطلس الإسلام » الذى يمثل قمة الكارتوغرافيا (cartography) عند العرب ، أى فن رسم المصورات الجغرافية أو الخارطات . هذا وقد اكتسب تبسيط المصنفات وتقريبها إلى الجمهور انتشارًا واسعًا وتزايد الاهتمام بالجانب الفنى نتيجة للمطالب المتزايدة لجمهرة المثقفين ، كما تكيف تبعًا لهذا وصف الرحلات فأضحى أكثر تنوعًا فى منهجه . ويمكن القول بوجه عام بأن القرن العاشر قد عمل على تدعيم الأنماط والفنون المذكورة للمصنفات الجغرافية . ومنذ القرن الحادى عشر ، وعلى الأخص فى القرن الثانى عشر ، انضمت إليها شيئًا فشيئًا مصادر من نوع جديد – أعنى المعاجم الجغرافية والأوصاف العامة لجميع العالم سمائه وأرضه ؛ وهى ضروب من الكوزموغرافيا فريدة فى نوعها . وقد أفردت للجغرافيا مكانة بارزة فى الموسوعات التى صنفت بمصر أيام المماليك بحيث تركت أحيانًا أثرها على الكتاب بأجمعه . بهذا ينتهى الطور الخلّاق فى الأدب الجغرافى العربى الذى أصابه العقم بعد ذلك فلم ينتج أى صور جديدة بل اكتفى بتقليد الأنماط السابقة فيما عدا بعض التعديلات فى مضمونها ليتفق مع مقتضيات كل عصر . ورغم هذا فإنه لم يتضاءل من ناحية الكم حتى فى عهد السيادة التركية على البلاد العربية .

لقد قدّر العلم الأوروبى منذ البداية ميزات الأدب الجغرافى العربى ؛ وإذا ما حدث وأن وُجّه إلى المستعربين – شأنهم فى هذا شأن جميع المتخصصين – تهمة التحيز لموضوع دراستهم ، فإنه
لمن الدلالة الخاصة فى هذا الصدد/ مقارنة موقف الغربيين من المؤرخين العرب ، الذين كانوا فى 20
كثير من الأحايين جغرافيين أيضًا . فمنذ بداية الثمانينيات من القرن التاسع عشر ، أى عندما

كان ذلك الأدب أبعد من أن يكون معروفًا في حجمه الحالى ، كتب مؤرخ الحروب الصليبية پروتس Prutz «ليس فى وسع الأدب الأوروبى لذلك العهد أن يقدم مثالا يفضُل مؤلفاتهم ، ويكفى فى هذا الشأن تصفح ماخلفه المؤرخون العرب ومقارنة ذلك بأحسن ماأنتجه فن التاريخ فى أوروبا ليبدو لأول وهلة ودون تردد أين يكمن الفهم والإحساس التاريخى والوعى السياسى والذوق فى الشكل والفن فى العرض »[٩] .

وسننتهى إلى نتيجة ليست بأقل طرافة من هذه إذا ما قارنا مجهود العرب فى مجال الجغرافيا العلمية بما خلفه السريان السابقون لهم والذين أقاموا أحيانًا فى المناطق نفسها التى احتلها العرب فيما بعد . فهؤلاء أيضًا قد نشأت الجغرافيا عندهم معتمدة على أساس المصنفات اليونانية التى عرفوها فى عهد مبكر ، وبارديصان[١٠] المتوفى حوالى عام ٢٢٢ من الميلاد يتحدث عن تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم ، كما تمت حوالى عام ٥٥٥ م ترجمة كتاب بطلميوس المعروف باسم «اسكاريفوس تيس أويكومينيس» Σκάριφος τῆς οἰκουμένης الذى ربما لم يخل من تأثير على العرب . وقد أضيف إليه ذيل هام ولكن التطور لم يتعد ذلك[١١] . بل إن أكبر كمية من المعلومات فى الجغرافيا الفلكية للعهد السابق للعرب والتى حفظها لنا فى القرن السابع يعقوب الرهاوى[١٢] فى مصنفه « هيكساميرون » Hexameron تكاد تعتمد أساسًا على بطلميوس وذلك إلى جانب الثقة المطلقة فى النظريات العلمية اليونانية ؛ ومن الغريب أن هذا المؤلف قد اعتمد على المصادر اليونانية حتى فيما يتعلق بسوريا وبموطنه أرض الجزيرة الأمر الذى اضطر بحاثة قام بدراسة مصنفه من وجهة النظر الجغرافية الصرفة إلى الاعتراف فى خاتمة بحثه بأنه « من العبث البحث فى مصنفه عما من شأنه الإسهام فى تاريخ علم الجغرافيا » . وقد أثبت أحد المتخصصين فى الدراسات السريانية ، وذلك فى بحث له عن نشأة الأدب الجغرافى بين ظهرانيهم ، أنه من العسير القول بوجود مصنفات ذات أهمية فى وصف البلدان والشعوب لدى السريان[١٣] . وفى الواقع أن اللغة السريانية لم تحفظ لنا أى مصنف كبير فى الجغرافيا ، هذا إذا أشحنا النظر عن كتاب « اسكاريفوس » الذى مر ذكره آنفا وعن بعض المعلومات المتعلقة بتحديد الموقع الفلكى

---

(٩) -Prutz, p. 53-54.

(١٠) -Honigmann, Die sieben Klimata p. 92-93

(١١) -Lund 168-174, 179-193.

(١٢) شرحه -p. l. 174-179.

Hjelt, chap. III, p. 19-31, خاصة p. 19, 26, 31.

(١٣) Lund, p. 165.

لمواضع مختلفة بهدف وضع مصور جغرافى . إن الجغرافيين العرب وحدهم هم الذين ذللوا الطريق لدراسة المادة الجغرافية الهائلة التى أورثها اليونان للعصور الوسيطة . وليس أقل مغزى من هذا أنه لم يصلنا عن العهد السابق للمصنفات الجغرافية العربية وصف واحد لرحلة ما باللغة السريانية بالرغم من أن محيط أسفارهم قد شمل القسطنطينية/ وبيت المقدس والإسكندرية[١٤] . أما 21
المصنفات السريانية المتأخرة فى الجغرافيا فقد اعتمدت اعتمادًا تامًا على العلم العربى ويمكن أن تمثل بعض الأهمية كجزء متمم له وذلك فى تحليل فترات معينة من تاريخه[١٥] .

ويمكن القول بأنه قد وضح حاليًا لدى العلماء الأوروبيين بجلاء أن الأهمية الأساسية للأدب الجغرافى العربى تستند على ما أسهم به من مادة جغرافية جديدة لا على النظريات التى اعتنقها . ويجب منذ البداية ملاحظة الاتساع الهائل فى مدى المعلومات الجغرافية لدى العرب عند مقارنة ذلك بما عرفه العالم القديم ، فقد عرف العرب أوروبا بأجمعها باستثناء أقصى شماليها ، وعرفوا النصف الجنوبى من آسيا كما عرفوا أفريقيا الشمالية إلى خط عرض ١٠ درجات شمالا وساحل أفريقيا الشرقى إلى رأس كرينتس قرب مدار الجدى[١٦] . وترك لنا العرب وصفًا مفصلا لجميع البلدان من اسبانيا غربًا إلى تركستان ومصب السند شرقًا مع وصف دقيق لجميع النقاط المأهولة وللمناطق المزروعة والصحارى وبينوا مدى انتشار النباتات المزروعة وأماكن وجود المعادن . ولم يجتذب اهتمامهم الجغرافيا الطبيعية أو الظروف المناخية فحسب بل أيضًا الحياة الاجتماعية والصناعة والزراعة واللغة والتعاليم الدينية . كما لم تقتصر معرفتهم على بلاد الاسلام وحدها بل تجاوزت بصورة ملحوظة حدود العالم كما عرفه اليونان . ومعرفة الأخيرين بالبلاد الواقعة إلى الشرق من بحر قزوين كانت ناقصة ، كما لم تكن لديهم أية فكرة عن الساحل الشرقى لآسيا إلى الشمال من الهند الصينية . هذا بينما عرف العرب طريق اليابس الذى يرتفع إلى أعالى نهر ارتيش ونهر ينسى ، وعرفوا سواحل آسيا إلى كوريا شمالا. ولايزال موضع شك معرفتهم المباشرة باليابان وإن ظهرت فى الآونة الأخيرة على مصور جغرافى وضعه لغوى تركى ببغداد فى القرن الحادى عشر ، ومن المحتمل أنه قد حصل على معلومات بشأنها فى آسيا الوسطى التى عرفها جيدًا ؛ أما عن طريق البحر فمن الثابت أن العرب لم يبلغوا اليابان .

وفيما يتعلق بافريقيا فإن أول مرة يظفر فيها جوف افريقيا بوصف مفصل كان ذلك فى مؤلفاتهم ؛ وقد ظلت معلوماتهم تمثل القول الفصل فى هذا الصدد لحين ظهور المستكشفين

---

(١٤) شرحه -1.162-166

(١٥) -Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 112-113

(١٦) -Peschel-Ruge, p. 131

الجغرافيين الأوروبيين فى القرن التاسع عشر . هذا وقد أثبت البحث العلمى المعاصر أهمية المعلومات التي جمعوها حتى عن بلاد نائية مثل أرخبيل الملايو واسكندينافيا وجنوب شرق أوروبا .

والعيب الأساسى للأدب الجغرافى العربى هو فى خضوعه للنظريات العلمية الموروثة عن الأوائل بالرغم من أن تجارب العرب العملية كثيرًا ما أدت إلى استكمال تلك النظريات وتعديلها بل وحتى إلى صرف النظر عنها ؛ أضف إلى هذا أن نظرياتهم العلمية لم ترق إلى مستوى تجربتهم العملية . فهم على غرار اليونان قد ظنوا أن المعمور من الأرض هو ربعها فقط وذلك فى النصف الشمالى منها وهو ما عرف باسم « الربع المعمور » ؛ كما اعتنقوا الرأى القائل باستحالة الحياة فى
22 البلاد الشديدة الحرارة أو / القارسة البرودة(١٧) . وإذا كان اعتناق اليونان أو أوروبا الوسيطة(١٨) لهذه النظرية الأخيرة له ما يبرره فى عدم إلمامهم بالبلاد الواقعة إلى الجنوب من خط الاستواء فإن العرب بفضل رحلاتهم البحرية قد عرفوا جيدًا تلك الجهات من افريقيا مثل زنجبار ومدغشقر حيث رأوا رأى العين عددًا من المراكز المأهولة ؛ وبالرغم من هذا فقد استمرت هذه النظرية العقيمة عائشة بين ظهرانيهم دونما أدنى تعديل . وهذا الإصرار نفسه قد ظهر بوضوح فى تمسكهم بالرأى القائل بوجود سلسلة جبلية تنتظم الأرض من الغرب إلى الشرق(١٩) ، بالرغم من أن هذه الفكرة تتعارض تعارضًا تامًا مع ما شاهدوه من واقع الأحوال(٢٠) . وتحت تأثير الأفكار المسيحية الأولى لم يكن من النادر أن تقابلنا لديهم الفكرة القائلة بأن الأنهار الكبرى تنبع من الفردوس على الرغم من أنه كثيرًا ما كانت هذه الأنهار معروفة لديهم من منبعها إلى مصبها تقريبًا(٢١) .

وثمت تأثير عاق تقدم العلوم لوقت ما كان نظرية تقسيم المعمورة إلى سبعة أقاليم ، وهى أحزمة عريضة مرتبة من الجنوب إلى الشمال فى موازاة خط الاستواء ومبتدئة منه على وجه التقريب(٢٢) . هذا التقسيم وضعه اليونان على أساس الطول النسبى للنهار والليل أو ميل الشمس على خط الاستواء (باليونانية « كليما » **klima** وجمعها « كليماتا » **klimata**) ؛ وكانت عروض الأقاليم تتفاوت بحيث يختلف أطول أيام السنة بمقدار نصف ساعة من إقليم إلى آخر(٢٣) . هذا وقد

---

(١٧) -Reinaud, Introduction, p. CCXII

(١٨) -J.K. Wright, Geogr. Lore, p. 354.

(١٩) ابن حوقل -BGA, II, p. 108-111

(٢٠) عن تصورات أوربا لهذه السلسلة الجبلية راجع : -G.K. Wright, Geogr. Lore, p. 270.

(٢١) شرحه -p. 72

(٢٢) -Reinaud, Introduction, p. CCXXIV.

(٢٣) -Mzik, OLZ, 34, 1931, p. 939.

اكتسبت نظرية « الأقاليم » انتشارًا واسعًا سواء فى الشرق العربى أو أوروبا الوسيطة ، غير أن الوحدة التامة فى التقسيم لم تُراع ، كما أن التباين فى عروض الأقاليم بلغ حدًا ملحوظًا نتيجة لعدم الاتفاق حول درجات العرض الفاصلة بين كل إقليم والذى يليه(٢٤) . هذا البون الشاسع بين النظرية والواقع قد ترك أثره فى الكارتوغرافيا العربية أيضًا ، فهى وإن تمكنت فى القرن العاشر ، أى عصر ازدهار علم الجغرافيا ، من أن تبرز إلى الوجود « أطلس الإسلام » الطريف المنظم ، إلا أنها عجزت بالتالى عن إنتاج ما يشبهه ولو على شكل مصورات جغرافية منفردة ، بحيث لم يجد اتساع أفق المعلومات الجغرافية انعكاسًا كافيًا فى المصورات الجغرافية المتأخرة التى كانت مجرد تقليد للنماذج السابقة بل وأحيانًا تكرارًا حرفيًا لها . ولكن يجب ألا يغيب عن الذهن أن الكارتوغرافيا لم تتمتع بالكثير من الأصالة حتى فى أوروبا الوسيطة ولم يجر أى تصحيح فى المصورات الجغرافية لتتفق مع المعلومات المعاصرة لها(٢٥) .

وبالطبع لم يكن بمستطاع الأدب الجغرافى التخلص من العيوب المعهودة فى الأدب العربى
بأجمعه ، فنبصر فيه النزعة إلى الوصف الجامع الشامل بدلا/ من العرض المفصل العميق للمناطق 23
المعروفة على أساس الملاحظة المباشرة ؛ أضف إلى هذا أن المنهج النقدى لم يطبق دائمًا على المصادر المكتوبة التى أفاد منها المؤلفون . هذا وقد غلب على الأدب العربى موقف معين من الإنتاج الأدبى للسلف يتفق أحياناً مع الفكرة المعاصرة عن السرقة الأدبية (plagiarism) . وإذا حدث وأن التقينا فى عهد ازدهار الأدب الجغرافى فى القرن العاشر بعدد من العلماء الباحثين ممن بلغوا مرتبة عالية فى نقد مصادرهم بتطبيق مناهج فى البحث ذات قيمة علمية حتى فى أيامنا هذه ، فإنه قد تلاهم صنف آخر من العلماء شغل نفسه بنقل روايات المؤلفين المتقدمين دون الإشارة إلى أنها ترجع إلى عصر سابق لعصرهم بكثير . وقد ساق هذا عددًا من البحاثة المعاصرين إلى الخطأ . ولم يكن الدافع إلى هذا مبنيًا على سوء النية ، وإن كان هذا العامل قد وجد أحيانًا ؛ ذلك أن هذه الظاهرة قد شملت جميع ميادين الأدب ونشأت على وجه التقريب منذ بداية التأليف عند العرب . وقد أكد الجغرافى المقدسى (القرن العاشر) ولو بشيء من المبالغة ، وذلك فى ملاحظاته النقدية عن السابقين له فى مضمار الجغرافيا ، أن كتاب الجيهانى يضم بين دفتيه كتاب ابن خرداذبه وأن ابن الفقيه لا يختلف فى شيء عن الجاحظ(٢٦).وفيما بعد أصبح تضمين مصنفات الغير أو تضمين

---

(٢٤) -J.K. Wright, Geographical Lore, p. 242-243; رسوم هامة p. 454-455.

(٢٥) J.K. Wright, Geogr. Lore, p. 357.

(٢٦) المقدسى BGA, III, p. 241.

قطع منها فى صلب المصنف قاعدة عامة . وفى الأحوال التى يورد فيها المؤلفون أسماء مصادرهم فإن هذا العيب يصبح فضيلة ، فكثيرًا ما حفظت لنا نتيجة لذلك شذور ومقتطفات من مصنفات فقدت تمامًا بالنسبة لنا ؛ ويكفى فى هذا الصدد أن نشير إلى رحلة ابن فضلان التى اعتمد جميع من تفرغوا لدراستها حتى الآونة الأخيرة على المقتطفات التى حفظها لنا ياقوت فى « معجم البلدان » الذى تم تأليفه بعد رحلة ابن فضلان بثلاثة قرون . ومن المؤسف أن طريقة إيراد المصادر لم تكن الغالبة فأحيانًا قد يورد المؤلف فى بداية مصنفه ثبتًا بأسماء المراجع التى أفاد منها دون أن يعنى فى صلب الكتاب بالتمييز بين ما أخذه من غيره وما جمعه هو بنفسه أو يشير إلى أن بعض مادته يرجع إلى أزمنة سالفة . ويحتاج الباحث إلى إعمال الحذر حتى لا يأخذ هذه التضمينات على أنها ألفاظ المؤلف نفسه ، أو أنها ترجع إلى العصر الذى عاش فيه[٢٧] .

وإذا حاولنا حصر مزايا الأدب الجغرافى العربى وعيوبه فإنه يجب الاعتراف على أية حال بأهميته العلمية القصوى والتنوع الكبير فى فنونه وأنماطه . ففيه تقابلنا الرسالة العلمية فى الفلك والرياضيات ، كما تقابلنا المداخل العملية التى وضعت من أجل عمال الدواوين وجمهرة المسافرين .
24 وهو يقدم متعة ذهنية كبرى إذ نلتقى فيه بنماذج أدبية فنية/رائعة ، صيغت بالسجع أحيانًا . والمصنفات الموضوعة من أجل جمهرة القراء يتراوح فيها العرض بين الجفاف والصرامة من جهة والإمتاع والحيوية من جهة أخرى ؛ وهنا تبدو مقدرة العرب الفائقة وبراعتهم فى فن القصص . ولقد أثار هذا الأدب اهتمامًا بالغًا بسبب تنوعه وغنى مادته ، فهو تارة علمى وتارة شعبى ، وهو طورًا واقعى وأسطورى على السواء ، تكمن فيه المتعة كما تكمن فيه الفائدة — لذا فهو يقدم لنا مادة دسمة متعددة الجوانب ليس لها مثيل فى أدب أى شعب معاصر للعرب . وقد أثبت البحث العلمى المعاصر أن مادة الأدب الجغرافى العربى أبعد من أن تكون قد استوفت حقها من الدراسة والاستقصاء حتى فى أيامنا هذه ؛ بل الواقع أنها أخذت تدخل الآن فقط بعض الشيء فى نطاق البحث العلمى المعاصر بصورة واسعة .

٢ ـ تاريخ دراسة الموضوع . المؤلفات ذات الطابع العام . هدف هذا الكتاب .

مرت معرفة العلم الأوروبى بالجغرافيا العربية على أطوار مختلفة وبدرجات سرعة متفاوتة ، وخضعت لتغيرات وفقًا للمستوى العام للثقافة ولحالة الاستعراب . وهنا أيضًا اختلف مصير كل

---

(٢٧) -Ferrand, Relations, I, p. 3-5.

من الجغرافيا الفلكية والجغرافيا الوصفية . فمنذ القرن الحادى عشر بدأت فى اسبانيا ترجمة المصنفات العربية فى الفلك والرياضيات إلى اللغة اللاتينية ، وسرعان ما أصبحت أسماء الغوريثمى Algorithmi (أى الخوارزمى) والفراغانوس Alfraganus (أى الفرغانى) والباتغنيوس Albategnius (أى البتانى) معروفة لدى الجميع ، بل اشتهرت بهذه الصيغ أكثر مما اشتهرت بأسمائها الشرقية الأصلية . وقد أثبت البحث المعاصر أن هذه الترجمات ليست فى مستوى يتفق ومطالب العلم الحديث ولكنها على أية حال قد ساعدت على تطور العلم فى أوروبا الوسيطة ، وهى المسئولة عن تثبيت الشكل اللاتينى للمصطلحات العلمية العربية التى وجدت طريقها إلى عدد من العلوم وما زالت مستعملة إلى الآن . وهذه الترجمات لم يكن بوسعها بالطبع إعطاء فكرة عن تطور العلم عند العرب كما لم تقدم صورة تامة عن مجهودات كل عالم فى محيط علمه . ذلك أن الاهتمام بمثل هذه المسائل لم يكن قد نشأ بعد ، فضلا عن أن البحث فيها لا يتأتّى إلا بالتعرف على الأصول العربية نفسها . ومهما يكن من شيء فإن أوروبا قد تعرفت بفضل هذه الترجمات على الجغرافيا الفلكية عند العرب قبل زمن طويل من نشأة علم الاستعراب . والتأثير المباشر لمثل هذه المصنفات على تطور العلم الأوروبى قد بدأ مبكرًا جدًا ، وهو الآن أمر مؤكد متفق عليه من الجميع .

غير أن الأمر جد مختلف فيما يتعلق بالجغرافيا الوصفية ، فأوروبا المسيحية قد ترجمت عن طيب خاطر مؤلفات العرب فى الرياضيات والفلك والكيمياء إلى اللغة اللاتينية ، إلا أن الاهتمام بالجغرافيا أو التاريخ كما هو الحال أيضًا مع الأدب فى المدلول الخاص لهذا اللفظ قد انعدم تمامًا[٢٨] . وحتى الآن لم يعثر على أى أثر لترجمات لمصنفات الجغرافيين والرحالة العرب فى الفترة الأولى من القرون الوسيطة الأوروبية ، ويبدو أنه لم تكن هناك معرفة مباشرة بهم بعكس الحال/ مع 25
الفلكيين[٢٩] . إلا أن هذا لا يعنى أن موضوعات منفصلة ، خاصة من محيط القصص والجغرافيا الأسطورية لم تجد طريقها من العرب إلى أوروبا ؛ ويكفى فى هذا الصدد أن نتذكر حكاية أسفار القديس براندان Brandan التى تضم بين دفتيها كمية وافرة من العناصر الشرقية[٣٠] . وواحدة من الحالات النادرة التى أثرت فيها النظريات الجغرافية العربية تأثيرًا مباشرًا على التفكير الأوروبى فى العصور الوسطى تمس محيط الكارتوغرافيا أكثر من غيره ؛ فمارينو سانودو Marino Sanudo ، وهو إحدى الشخصيات الأوروبية النشطة فى بداية القرن الرابع عشر ، قد زود

---

(٢٨) -Devic, Le Pays des Zendjs, p. 20-21.

(٢٩) J.K. Wright, Geogr. Lore, p.87.

(٣٠) شرحه ص ٣٩٦ ، ملاحظة ٤٤

مصنفه « كتاب الأرض المقدسة » Opus Terrae Sanctae (١٣٢١) بخارطة للعالم لتوضيح فكرته المبتكرة التى ترمى إلى محاصرة العالم الإسلامى حصاراً اقتصادياً[٣١] . وهذه الخارطة على هيئة دائرة مركزها أورشليم ومبيّن عليها بوضوح بحران كبيران متصلان بالبحر المحيط ، كما يظهر عليها ساحل أفريقيا ممتداً امتداداً بعيداً نحو الشرق[٣٢] . فهى إذن تكرار لجميع الخطوط الرئيسية المميزة لخارطة العالم فى « أطلس الإسلام » ، مع اختلاف بسيط هو أن مركز الأخير ليس أورشليم بل مكة بالطبع . ومثل هذا الاتفاق أبعد من أن يكون من عمل الصدفة ، خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار أن اهتمام سانودو بالشرق يجيز احتمال معرفته بالمصادر العربية . وعلى أى فهذه الحالة فريدة فى نوعها وتقف بمفردها دليلا على فقدان الاهتمام فى أوروبا بالجغرافيا الوصفية عند العرب عامة .

ولما بدأ العلم الأوروبى اتصاله المباشر بالأصول العربية أخذ الاهتمام بالجغرافيا الوصفية يعادل الاهتمام بالجغرافيا الفلكية . وكان بوستل Postell[٣٣] أول مستشرق يجتذبه الجغرافى العربى أبو الفدا ؛ كما أن أول ذكر لياقوت يرد فى محاضرة بتاريخ ٢٠ ديسمبر ١٧٠٢ ليعقوب غرونوفيوس Jacobus Gronovius[٣٤] . وفى عام ١٥٩٢ طبع بمطبعة المديتشى Medici المشهورة أول نص فى الجغرافيا الوصفية ، وهو كتاب اكتسب بالتالى صيتاً عريضاً أعنى بذلك مصنف الجغرافى العربى المغربى المشهور الشريف الإدريسى الذى عاش فى القرن الثانى عشر . وقد جانب التوفيق الناشر حين أعطى الكتاب عنواناً مضللا هو « جغرافيا النوبى » Geographia Nubiensis * ، مما ساق بالتالى إلى غير قليل من اللبس . هذه الطبعة التى تلتها الترجمة اللاتينية فى عام ١٦١٩ كانت أعجز من أن تلبى مطالب المنهج العلمى الحديث ، غير أن صعوبة هذه المهمة ترجع بلا شك إلى أننا لانمتلك إلى الآن طبعة علمية كاملة لكتاب الإدريسى . وقد حالف التوفيق بصورة أكبر طبع أول كتاب فى الجغرافيا الفلكية وقد اضطلع بهذه المهمة العالم الهولندى

---

(٣١) راجع عنه مفصلا : Beazley III, p. 309-319, 549.
وأيضا Atiya, The Crusade, p. 114-127.
وعن الخارطة P. 123

(٣٢) حيث صورة خارطة سانودو لعام ١٣٢١ Kramers, The Legacy, p. 92
وأيضا : Kimble, p. 138-139.

(٣٣) Postell

(٣٤) Jacobus Gionovius, De Geographiae origine progressu ac dulcedine, Lugduni 1703, p. 16
Peschel-Ruge, p. 190.

* أعتقد أن ألفاظ المؤلف هنا قد تسوق إلى اللبس إذ يفهم منها أن هذا العنوان الخاطىء للكتاب تحمله طبعة عام ١٥٩٢ لا ترجمة عام ١٦١٩ . راجع على أية حال كلامه عن الإدريسى فى الفصل العاشر . (المترجم)

الشهير/ للقرن السابع عشر ياكوب غوليس Jacob Golius (١٥٩٦-١٦٦٧)؛ فالطبعة 26
التى قام بتحضيرها للجداول الفلكية للفرغانى (القرن التاسع)، المشهور فى أوروبا الوسيطة باسم الفرغانوس Alfaragnus، ظهرت مع ترجمتها اللاتينية فى عام ١٦٦٩ أى بعد وفاته، وكانت بحق فاتحة عهد جديد فى هذا الباب. وبهذا وضعت أول لبنة فى أساس دراسة الأدب الجغرافى اعتمادًا على مصادره الأصلية؛ وقد سار التقدم بصورة بطيئة، ففى القرن الثامن عشر بأجمعه لم يتعرف العلم الأوروبى إلا على ثلاثة مؤلفين فقط من رجالات القرنين الثالث عشر والرابع عشر، اثنان منهم وهما أبو الفدا (توفى عام ١٣٣١) وابن الوردى (توفى عام ١٤٤٦) اهتما بالجغرافيا العامة، أما الثالث وهو عبد اللطيف البغدادى (توفى عام ١٢٣١) فقد اشتهر بوصفه لمصر. وقد استمرت المعرفة فى النمو بفضل ظهور المقتطفات والترجمات التى لايمكن اعتبارها رغمًا عن ذلك علمية بشكل كاف.

وفى بداية القرن التاسع عشر ظهر بحثان ممتازان فى دراسة الأدب الجغرافى لايزالان إلى اليوم محتفظين بقيمتهما؛ أحدهما ترجمة وصف مصر لعبد اللطيف البغدادى الذى مر ذكره للتو، وهى من عمل المستشرق الفرنسى الكبير سلفستر دى ساسى Silvestre de Sacy (١٨١٠)، والآخر ترجمة المستشرق الروسى فرين Frähn لرسالة ابن فضلان (١٨٢٣). وكلا البحثين يمكن اعتبارهما حجر زاوية فى بداية الدراسة العلمية للأدب الجغرافى العربى. وعند منتصف القرن التاسع عشر اشتدت الحاجة إلى مصنف عام يجمع شتات ما عرف حتى تلك اللحظة، لذا نال أهمية غير عادية كتاب رينو Reinaud (١٨٤٨) الذى أراد به فى الأصل وضع مقدمة لطبعة علمية كاملة لجغرافيا ابى الفدا، ولكن البحث مالبث أن استفاض وتجاوز حدود موضوعه واتخذ صورة عرض عام مستقل لتطور العلم والأدب الجغرافى فى اللغات الثلاث الرئيسة للشرق الإسلامى. ويمثل الكتاب سفرًا فى أكثر من أربعمائة وخمسين صفحة يتضح من خلالها معرفة المؤلف الجيدة بالجغرافيا الوصفية والفلكية؛ ويستند المصنف على عدد من البحوث السابقة المستقلة للمؤلف نفسه؛ وقد كتب بأسلوب شيق جذاب. وهو يمثل خطوة كبرى فى دراسة الموضوع ولم يأخذ مكانه إلى الآن مصنف من نوعه.

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تحقق فى لحظة واحدة تقريبًا مشروعان ضخمان أصبحا بالتالى قاعدة متينة لدراسة الأدب الجغرافى العربى اعتمادًا على أشهر مؤلفيه بين القرنين العاشر والثالث عشر. فبين عامى ١٨٦٦ و١٨٧٦ نشر فستنفلد Wüstenfeld المعجم الجغرافى لياقوت فى ستة أجزاء؛ وهو أهم مرجع جغرافى يتجه إليه البحاثة إلى أيامنا هذه ونموذج لما يجب أن يكون عليه أدب النقل (compilation) فى أدق معانيه. وفى الوقت ذاته على وجه التقريب وذلك فى سنة ١٨٧٠ بدأ العلامة الهولندى دى خويه De Goeje تنفيذ فكرته بنشر سلسلة «مكتبة الجغرافيين العرب» Bibliotheca Geographorum Arabicorum التى اكتمل عقدها بظهور الجزء الثامن فى عام ١٨٩٤، وهى تتكون من تسع مجلدات كانت بالنسبة لعصرها أنموذجًا للنشر العلمى، وتضم فى صفحاتها مصنفات مؤلفى عهد ازدهار

28 الأدب الجغرافى العربى فى القرنين التاسع والعاشر (٣٥)/ . هذا المجهود الذى قام به فستنفلد ودى خويه لم يستنفد بالطبع الذخيرة الأساسية للمصنفات الجغرافية العربية ولكنه كفل للدارسين إمكانية الدراسة المنهجية المنظمة للآثار الأخرى التى لم تكن نشرت بعد ، وقدم مادة ضخمة لمختلف البحوث الجغرافية . وفى القرنين التاسع عشر والعشرين ظهر أسلوب جديد فى دراسة المادة الجغرافية العربية يهتم بجمع المادة المتعلقة بكل قطر ودراستها دراسة نقدية . وبعض هذه الدراسات تجاوز أحيانًا نطاق جزء واحد (مثل مؤلف أمارى **Amari** عن صقلية ومدنيكوف **Mednikov** عن فلسطين وزايپل **Seippel** عن النورمان وفيران **Ferrand** عن الشرق الأقصى الخ) . أما الحديث عن الدراسات الضخمة والمؤلفات الكبرى التى ظهرت فى نصف القرن الأخير ، بل فى عشرة الأعوام الأخيرة ، فيمكن أن يكون موضوع دراسة خاصة قائمة بذاتها . وفى متناول أيدينا الآن ترجمات علمية مثالية ودراسات عن المؤلفين المختلفين أو لقطع من مصنفاتهم ، مثل بحوث توليو **Tuulio** عن الإدريسى (١٩٣٠) أو مينورسكى **Minorsky** عن المصنف الفارسى المجهول المؤلف (١٩٢٧) . وفى متناول أيدينا كذلك دراسات جدية لمختلف الموضوعات مثل بحوث مجيك **Mzik** عن دور بطلميوس فى الجغرافيا العربية (١٩١٥) أو هونغمان **Honigmann** عن نظرية الأقاليم السبعة (١٩٢٩) . وقد اتسع المجال بشكل خاص للبحوث فى تاريخ الحضارة المرتكزة أساساً على مادة جغرافية ، مثال ذلك مجموعة من الدراسات التحليلية الدقيقة لياكوب **Jacob** (١٨٨٦ وما بعدها) . كما وجدت قاعدة رصينة لدراسة تاريخ الكارتوغرافيا العربية منذ مؤلفات ليليول **Lelewel** (١٨٥٠ وما بعدها) ، ولم تلبث هذه الدراسة أن اكتملت وشملت جميع المادة التى أمكن العثور عليها وذلك فى الطبعات الكبرى لميلر **K. Miller** (١٩٢٦ وما بعدها) ويوسف كمال (١٩٣٠ وما بعدها) . هذا وقد تابعت الدراسة سيرها قدمًا فأصبحت المناهج أكثر دقة وارتفع المستوى المطلوب . وفى الآونة الحاضرة اشتدت الحاجة إلى إعادة طبع بعض أجزاء « مكتبة الجغرافيين العرب » ، مع الاستفادة من المادة التى تجمعت منذ ظهور الطبعة الأولى والعمل أيضًا على استيفاء المطالب العلمية المعاصرة .

هذه المادة الغنية الحافلة فى مصادرها وفى البحوث التى كتبت فيها ، والتى تجمعت خلال نصف القرن الأخير ، تطلبت وضع مؤلفات ومراجع مما يحتاج إليه المبتدئون كما يحتاج إليه المتخصصون فى الفروع الأخرى للعلوم الذين يحتاجون إلى استقاء المادة اللازمة لهم من المصادر

---

(٣٥) - Cora e Nallino

العربية . ولكن إذا كان الوضع لا بأس به كما رأينا فيما يتصل بالمصادر العامة فإنه لم يظهر مع الأسف منذ عهد رينو مؤلف عام يستعرض تطور الجغرافيا عند العرب ويقوم بحاجة المستعربين وغير المستعربين . والمؤلفات العامة الموجودة بين أيدينا تمثل فى العادة ملخصات قصيرة أو مقالات تتوزعها الدوريات الجغرافية ، الغرض منها إبراز الخطوط العريضة لتطور الأدب الجغرافى مع الوقوف عند بعض المؤلفين . ويجب اعتبار تلك التى ظهرت فى القرن التاسع عشر قد بليت وذلك نتيجة لظهور مواد جديدة .

وفى عام ١٨٤٢ حاول ڤستنفلد وضع موجز ببليوغرافى للأدب الجغرافى العربى معتمدًا فى
29 ذلك اعتمادًا كلياً/ على مؤلف القرن السابع عشر حاجى خليفة ، فأورد أسماء مائة وستة وعشرين مؤلفًا وهو رقم لا يمكن اعتباره فى الآونة الحاضرة وافيًا بالغرض . وقد فقد كتاب ڤستنفلد هذا قيمته العلمية قبل وقت طويل من كتابه الآخر فى أدب التاريخ عند العرب الذى فرغ من تأليفه فى أواخر أيام حياته العلمية (١٨٨٢) . وبعد نحو عشرة أعوام من ظهور كتاب رينو ظهر فى عام ١٨٥٨ بحث بعنوان « نظرة إلى الأدب الجغرافى عند الشعوب الإسلامية » **Udsigt over de islamiske folks geographiske Kundskaber** للعلامة الدنماركى ميرن **Mehren** الذى اشتهر فيما بعد كناشر ومترجم لكتاب الدمشقى فى الكوزموغرافيا ولمؤلفات ابن سينا . ونظراً لأن البحث كتب باللغة الدنماركية وظهر في صحيفة علمية محدودة الانتشار فقد ظل مجهولا من القراء ؛ وهو أمر يؤسف له حقاً إذ أنه لم يخل فى الكثير من الأحيان من بعض الأهمية ولا يزال ذا فائدة فى بعض النواحى إلى أيامنا هذه رغمًا من أنه يدين بالكثير لرينو . ويشمل ثبت أسماء الجغرافيين العرب الموجود فى بداية البحث على أربعين اسما فقط ، غير أن المؤلف يقدم تفاصيل وافية عنهم معتمدًا فى ذلك على المصادر الأصلية . وفى القسم الثانى من بحثه يعرض لتصورات العرب عن العالم ، وبالرغم من أن هذا القسم يدين بالكثير لكتاب رينو أيضاً إلا أنه يمتاز بعرض موجز بديع لنظرية شكل الأرض وتقسيمها الرياضى وحساب خط نصف النهار وتقسيم المعمورة إلى سبعة أقاليم إلخ . وفى القسم الثالث يوضح نظرية العرب فى تقسيم البحار على الأرض ؛ أما الفصل الأخير وهو بعنوان « أرض الورنك * كما عرفها العرب » فلا يزال محتفظًا ببعض أهميته إلى أيامنا هذه .

ولم تكن محاولات وضع عرض عام للأدب الجغرافى العربى وقفًا على المستعربين اللغويين وحدهم بل أدلى فيه بدلائهم كذلك مؤرخو علم الجغرافيا . فالعالم الفرنسى المشهور لعهده ڤڤيان دى

---

* الورنك أو الوارياغ هم أهل الشمال « النورمان » . (المترجم)

سان مارتان Vivien de Saint Martin نشر فى عام ١٨٦٧ مقالا عن جغرافيا العصور الوسيطة فى المشرق من القرن السابع إلى القرن الخامس عشر وذلك ضمن تاريخه العام للجغرافيا ، وهو مشروع لم يكتب له أن يتممه بالتالى . وقد استطاع هذا العالم أن يلقى فى تسعة فصول نظرة عاجلة إلى الأدب الجغرافى العربى الوصفى والفلكى على السواء ؛ وهذا المقال وإن تقادم عليه العهد فإنه يمثل بعض الطرافة لأنه يحوى رأى عالم جغرافى كبير فى قيمة العلم العربى . وفى السبعينيات من القرن الماضى عندما بدأ دى خويه فى نشر « مكتبة الجغرافيين العرب » دبـج مقالا فى الجغرافيا عند العرب ظهر بالمجلة الجغرافية الهولندية وكان موجهًا إلى القارىء العام (١٨٧٤) ؛ ولم يكتف دى خويه فى مقاله هذا بمعالجة الجغرافيا الفلكية بل أفرد نبذًا قصيرة للكلام على نحو عشرين من ممثلى الجغرافيا الوصفية إلى عهد أبى الفدا ؛ وهو يفصل بعض الشىء فى كلامه عن المقدسى ويلقى ضوءًا على دور المؤرخين فى تطوير الجغرافيا . وللأسباب نفسها التى أحاطت ببحث مين فإنه لم يتعرف على مقال دى خويه إلا عدد محدود من الناس بحيث أصبح الآن نسياً منسياً. وفى مؤلف كريمر Kremer «التاريخ الحضارى للشرق» Culturgeschichte des Orients ظفر الفصل الذى أفرده للجغرافيين بشهرة كبيرة، شأنه فى هذا شأن بقية الكتاب (١٨٧٧)[٣٦] . وهو ككل كتابه قد صيغ أيضًا فى أسلوب يتميز بالكثير من الحيوية والمهارة وظل إلى بداية القرن العشرين خير عرض للموضوع من أجل/القارىء العام غير 30 المتخصص . وثمة عرض آخر يمتاز بالفائدة والوضوح وهو مقال دفيك Devic (١٨٨٢) الذى يعتبر خبيرًا بالأدب الجغرافى خاصة فيما يتعلق بشرق افريقيا . وهو يورد ذكر ستة وثلاثين مؤلفًا مع نبذ صغيرة عنهم وبضع مقتطفات من مصنفات فجر الأدب الجغرافى . وكمدخل عام للموضوع فإن هذا المقال يمكن أن يمثل بعض الأهمية حتى فى الوقت الحاضر .

وفى التسعينات من القرن الماضى وذلك بمناسبة الانتهاء من طبع سلسلة « مكتبة الجغرافيين العرب » ظهرت بضع دراسات مفيدة عن فجر الأدب الجغرافى يجدر بنا أن نميز من بينها خاصة اثنتين ، إحداهما لنالينو (١٨٩٤) والأخرى لشفارتز Schwartz[٣٧] (١٨٩٧) . فالأولى مستهلة بملاحظات للجغرافى الإيطالى الشهير جيدو كورا Guido Cora يعبر فيها عن ضرورة ترجمة مصنفات هذه السلسلة ويرجو أن تتحقق هذه الأمنية يوما ما ؛ وفى الواقع أن تنفيذ ذلك المشروع لم يبدأ إلا فى الآونة الأخيرة . ثم يقدم لنا نالينو خلاصة وافية لجميع أجزاء السلسلة مع

(٣٦) -Kremer, Culturgeschichte, II, p. 425-439

(٣٧) -Schwarz, GZ, 1897

تراجم المؤلفين ويشفع ذلك بثبت حافل للمراجع . أما شفارتز فإنه يبدى ملاحظات ذات طابع عام عن المؤلفين الذين تضمنتهم السلسلة ويفصّل الكلام بشكل خاص على ابن خرداذبه والمقدسى أكثر مما يفعل مع الإصطخرى .

هذا وقد اضطرد نمو المادة وتطور العلم فى نصف القرن الأخير بسرعة هائلة مما دعا إلى اعتبار جميع الملخصات التى ظهرت فى القرن التاسع عشر غير وافية بالغرض حتى ولو سطرتها أقلام علماء كبار ؛ وهى تمثل الآن خطوة ليس إلّا فى دراسة الموضوع . وفيما عدا ذلك فلا أهمية لها ألبتة باستثناء أقسام معينة منها ، بحيث يضحى من الأفضل أن يبدأ الدارس بالمؤلفات التى ظهرت فى العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن والتى تأخذ فى حسابها المادة التى ظهرت فى الآونة الأخيرة . وعدد هذه الملخصات كبير وهى أحيانًا يكمل بعضها بعضًا بصورة مرضية .

وقد أفرد المستعرب وعالم الرياضيات الفرنسى كارّا دى فو **Carra de Vaux** مائة صفحة للجغرافيين والرحالة العرب ، وذلك فى الجزء الثانى من مؤلفه الذائع الصيت « مفكرو الإسلام » **Les Penseurs de l'Islam** الذى يقع فى خمسة أجزاء (١٩٢١)[٣٨] . ولم يكن من هدف المؤلف جمع عدد هائل من الأسماء أو استيفاء جميع المراجع لذا فقد انتقى نحوًا من خمسين شخصية لامعة وترجم لها ووصف اتجاهاتها العلمية . وتتركز الميزة الكبرى للمؤلف فى معرفته الجيدة بالعلوم الدقيقة عند العرب ، ومن ثم فهو يولى عناية خاصة للجغرافيا الفلكية . وهو يستعمل ببراعة الاقتباسات من المصادر العربية ويسوق عرضه بمهارة فائقة رغما من بضعة أخطاء فى التفاصيل أحيانًا . كذلك لا يفتقر إلى الطرافة مقال العالم الهولندى كرامرس **Kramers** « الجغرافيا والتجارة » **Geography and Commerce** الذى ظهر فى الكتاب الجماعى « تراث الإسلام » **Legacy of Islam** المطبوع بأكسفورد (١٩٣١)[٣٩] . وكرامرس من خيرة العارفين بالجغرافيا التاريخية واشتغل كثيرًا بدراسة المصادر العربية ؛ وقد حالفه التوفيق فقدم
صورة/متكاملة الجوانب لدور الجغرافيا فى التطور الثقافى للحضارة العربية وارتباطها بالتوسع 31
الاقتصادى للخلافة الإسلامية ؛ وهو مقال رصين يمكن الاعتماد عليه فى سد النقص البين الذى يعانى منه عرض كارا دى فو . وتتمتع بالدرجة نفسها من الطرافة محاضرة لكرامرس بعنوان « الأدب الجغرافى الإسلامى كظاهرة حضارية » **Die Muhammedanische geographische Literatur als Kulturerscheinung** ، وهى معروفة إلى يومنا هذا مع

---

(٣٨) -Carra de Vaux, Les penseurs, II, p. 1-101

(٣٩) -Kramers, Legacy, p. 79-107.

الأسف فى ملخص شديد الإيجاز (١٩٣٤)[٤٠] .

وثمة مقالان آخران يحملان طابعًا عامًا ولكن يتميزان بإيراد تفاصيل عديدة سواء عن المؤلفين أو عن مسائل منفردة. أحدهما بقلم رسكا Ruska (١٩٢٧) المعروف ببحوثه فى تاريخ العلوم الطبيعية عند العرب ؛ وكان الهدف الأول من مقاله هو الاستدراك على مقال شفارتز بأن يأخذ فى حسابه تطور العلم فى الثلاثين عامًا التى انقضت منذ ظهور الأخير، ولكن ما لبث أن اتسع به الموضوع فخرج عن حدوده بشكل ملحوظ وتحول إلى عرض عام لتطور الجغرافيا عند العرب . وكذلك أفرد اهتمامًا كبيرًا فيه لدور الشعوب المختلفة فى بناء الحضارة العربية ولنشأة الجغرافيا على ضوء هذا ، وذلك فى اتجاهيها الفلكى والوصفى . وينصبّ القسم الأساسى للمقال على الجغرافيا الوصفية والرحلات بشكل خاص مع إفراد نبذ قصيرة لما يقرب من أربعين مؤلفًا ، غالبًا ما صحبها عرض لمحتويات كتبهم . وكان رسكا جد مصيب حين ضم إلى عرضه أسماء بعض العلماء الذين كتبوا بالفارسية وكانت لهم صلة مباشرة بالجغرافيا العربية[٤١] . أما المقال الثانى فهو لكرامرس الذى مر ذكره وقد ظهر فى « ذيل دائرة المعارف الإسلامية » Supplement to the Encyclopaedia of Islam (١٩٣٤ - ١٩٣٦)[٤٢]. وهـــــو إلى جانب عرضه للاتجاهات الرئيسية فى علم الجغرافيا العربية يورد تعدادًا منظمًا لأشهر الجغرافيين والرحالة فى اللغات العربية والفارسية والتركية مع الإشارة إلى المراجع ؛ وقد أبرز بمهارة فائقة الخطوط المميزة والصفات الجوهرية للأدب الجغرافى فى الإسلام . غير أن مقاله كما هو الشأن مع جميع مواد دوائر المعارف مقتضب للغاية ولكنه يصلح كمدخل جيد لدراسة تلك المادة الضخمة ، كما أن ثبت المراجع فى آخر المقال لمما يعين على تلمس الطريق بين العدد الهائل من الدراسات حول هذا الموضوع*. ويمثل مقال شوى Schoy، وهو أحد المتخصصين فى العلوم الدقيقة، تكملة مفيدة لمقالى روسكا وكرامرس فى بعض النقاط ؛ وقد ظهر هذا المقال فى « المجلة الجغرافية » الأمريكية Geographical Review (١٩٢٤)[٤٣] وهو يفتقر على العموم إلى التناسق ؛ فالمؤلف يقف طويلا عند بعض مسائل الجغرافيا الفلكية خاصة تحديد العرب لأطوال وعروض الأماكن المختلفة .

---

(٤٠) -Kramers, ZDMG, 34, 1934

(٤١) -Ruska, GZ.

(٤٢) -Kramers, EI, EB, p. 62-75.

* حل محله الآن المقال المفصل عن «الجغرافيا» الذى ظهر فى الطبعة الثانية من «دائرة المعارف الإسلامية» والذى يتمتع بقيمة علمية عالية. وهو من تدوين العلاّمة المسلم الهندى مقبول أحمد (المترجم).

(٤٣) -Schoy, Geography

وإذا كانت جميع هذه المقالات التى مر ذكرها تصلح مدخلًا متينًا لدراسة الأدب الجغرافى العربى وتعطى صورة جلية عن اتجاهاته الرئيسية وعن كبار من صنفوا فيه إلا أن البحوث المفصلة العميقة عن/المؤلفين ومصنفاتهم تقتضى الالتجاء إلى المراجع الضخمة التى لم يقصد بها المطالعة 32
بل المراجعة . وأول ما ينصرف إليه الذهن فى هذا الصدد هو « تاريخ الأدب العربى » Geschichte der Arabischen Literatur المشهور لبروكلمان Brockelmann (١٨٩٨ – ١٩٠٢) الذى بفضل بقية أجزائه المتممة (١٩٣٦ – ١٩٣٩) يسوق جماع المادة إلى الآونة الحاضرة تقريبًا ويقدم معينًا لا ينضب من المراجع عن جميع المؤلفين ذوى الصلة الوثيقة بالجغرافيا[٤٤] . وفى حالات معينة تمثل تكملة مفيدة لبروكلمان المواد المتعلقة بالجغرافيا فى « دائرة المعارف الإسلامية » Encyclopaedia of Islam[٤٥] ، وفى « المدخل فى تاريخ العلم » Introduction to the Hitsory of Science لسارطون Sarton[٤٦] ، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أن المرجع الأول ، أى « دائرة المعارف الإسلامية » ، بدأ فى الظهور منذ عام ١٩٠٨ لذا فإن مواد الحروف الأولى منه قد فقدت قيمتها أحيانًا ولم تعد ذات نفع كبير فى الوقت الحاضر ، أضف إلى هذا أنها ليست متكافئة من حيث القيمة ولم تتعرض لتصحيح دقيق فى « ذيل دائرة المعارف الإسلامية » * . أما مؤلف سارطون الضخم (١٩٢٧ – ١٩٣١) فإنه يقف عند نهاية القرن الثالث عشر ولكنه يشمل أنشط الفترات وأكثرها ابتداعًا وإنتاجًا فى تاريخ الحضارة العربية . وهو كتاب كبير النفع فى توضيح ما بلغه العرب فى مختلف نواحى العلوم بما فى ذلك الجغرافيا ، وذلك فى نطاق الإطار العام لتطور العلوم عند جميع الشعوب .

وإلى جانب هذه المراجع الأساسية التى مر ذكرها والتى تعالج الأدب الجغرافى بأجمعه هناك مراجع أخرى محدودة بمنطقة أو فترة معينة . وسأذكر من بينها أشهرها قاطبة وهو تحليل مؤلفات مؤرخى وجغرافيى الأندلس Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo-espanoles للمستعرب الأسبانى بونس بويغوس Pons Boigues[٤٧] . وبالرغم من أن هذا الكتاب قد رأى النور منذ عام ١٨٩٨ ، أى فى وقت واحد

---

(٤٤) -Brockelmann, GAL, I-II, SB, I-III

(٤٥) -EI, I-IV, -EB,

(٤٦) -Sarton, Introduction, I-II

* بدأت دار بريل Brill بليدن فى إخراج الطبعة الثانية المعدّلة والمزيدة من « دائرة المعارف الإسلامية » منذ أعوام ، وقد أعيدت صياغة عدد من المواد بما فى ذلك المواد المتصلة بالجغرافيا . هذا كما أن عددًا من مواد الطبعة الأولى قد عدّل وزيد فى الترجمة التركية لدائرة المعارف الإسلامية وأضيفت إليه مواد جديدة . (المترجم)

(٤٧) -Pons Boigues

مع الجزء الأول « لتاريخ الأدب العربى » لبروكلمان ، إلا أنه يضم بين دفتيه مادة وافرة جعلته لا يزال متمتعًا فى بعض أقسامه بقيمته العلمية إلى الوقت الحاضر ؛ وأحيانًا قد يكون من المفيد الرجوع إليه رغم وجود المرجعين الضخمين السالفى الذكر .

وقد اعترف العلم الحديث بأهمية الأدب الجغرافى فى الإطار العام للدراسات العربية ، وظهرت فى القرن العشرين مجموعتان من النصوص المنتخبة من ميدان الجغرافيا كمقدمة لتسهيل دراسة الموضوع لمن يودون الخوض فى مصادره الأصلية . ومن قبل كانت المنتخبات الجغرافية تحتل مكانها بين المنتخبات الأدبية العامة عند المبتدئين فى دراسة العربية ؛ أما وجود منتخبات خاصة فى فرع معين من فروع الأدب العربى فقد كان أمرًا نادرًا . وأولى هاتين المجموعتين من المنتخبات الجغرافية المستقلة قد نشرها فى أواخر أيام حياته الخبير الكبير فى هذا الفن دى خويه وذلك فى عام ١٩٠٧ [٤٨] ؛ وهى تحتوى على قطع ليست بالطويلة مأخوذة عن تسعة من الجغرافيين العرب ممن ينتمون إلى عهد ازدهار هذا الفن من الأدب . وقد قصد جامعها أن « يقدم للدارسين فكرة عن
33 المادة التى/يمكن استقاؤها من المؤلفات الجغرافية فى الأدب العربى باستثناء الجوانب
الرياضية». ويصحب هذه المنتخبات مقدمة قصيرة باللغة الإنجليزية ونبذ عن المؤلفين وتعليقات مقتضبة بالإنجليزية والألمانية أقرب ما تكون إلى نمط المعاجم . هذا وقد أدت هذه المجموعة غرضها بحق ، وهى ذات فائدة بينة فى التعرف على الأدب الجغرافى فى نصوصه الأصلية رغما من بعض الصعوبة التى تكتنف فهم مواضع معينة منها ، وهو أمر كان يجب على المؤلف أن يستدركه فيفصل فى الشرح أكثر من أجل المبتدئين . أما المجموعة الثانية من المنتخبات الجغرافية وهى التى نشرها منذ خمسة وعشرين عامًا المستعرب الفرنسى بلاشير **Blachère** (١٩٣٢) [٤٩] فقد قامت على فكرة أوسع من تلك ، ولم يكن الغرض منها تقديم مجموعة من النصوص فحسب للمهتمين بدراسة اللغة العربية ولكن قصد منها أيضًا تقديم سرد موجز لتطور الأدب الجغرافى لدى العرب مع انتقاء المؤلفين والنصوص بطريقة تبدو معها اللوحة متكاملة ويستطيع القارىء بدوره أن يتتبع خلالها تطور الأنماط المختلفة للأدب الجغرافى . هذا وتشتمل المجموعة على أكثر من خمسين قطعة لنحو من خمسة وعشرين مؤلفًا ، ولم تستثن فيها الجغرافيا الفلكية كما هو الحال مع مجموعة دى خويه ولكن أفرد لها المكانة الثانية . وإلى جانب المقدمة العامة

---

(٤٨) -De Goeje, Selections.

(٤٩) -Blachère, Extraits

زودت كل فترة وكل مؤلف وكل نص بالتعليقات المناسبة مع الإشارة إلى أهم المراجع ؛ ويصحب النص شروح موجزة ولكن وافية . وليس بالكتاب معجم خاص ولكن به فهرسًا للأعلام الجغرافية مع إيراد معادلاتها الأوروبية ؛ كما أن الناحية التدريسية لم تهمل فيه فقد أشير إلى كل قطعة بدرجتها من الصعوبة . وإن ما بذل فى إخراج هذه المجموعة من عناية وجهد سواء فى العدد الوافر من المختارات باللغة العربية أو فى المقدمات الوافية باللغة الفرنسية لمما يجعل منها بحق كتابًا دراسيًا ممتازًا لا من أجل المبتدئين فحسب بل من أجل تاريخ الأدب الجغرافى بوجه عام .

ويحفل العلم الروسى ببحوث عديدة في الأدب الجغرافى العربى احتل بعضها مكانة مرموقة فى تاريخ العلم مثل بحوث فرين Frähn وروزن Rosen وبارتولد Bartold . ولكن الاستشراق الروسى فقير بدرجة ملحوظة فى محيط الدراسات العامة التى يمكن أن تصلح كمقدمة أو كمرجع عام للدارسين . والقسم الذى أفرده جرجاس Girgas للجغرافيا فى كتابه « عرض عام للأدب العربى » Ocherk Arabskoi Literatury[٥٠] ، والذى كان بالنسبة لزمانه (١٨٧٣) مجهوداً محموداً ، لم يعد يفى بمطالب العلم الحديث بتاتاً ؛ واحتل مكانه في عام ١٩١١ الفصل الغنى بمراجعه من كتاب كريمسكى Krymski فى « تاريخ العرب والأدب العربى » Istoria Arabov i arabskoi Literatury[٥١] الـذى يحتـاج الآن إلى الكـثير من الإضافـــات والتصحيحات . هذا وقد عرض بارتولد بما عهد فيه من الأناة والأصالة العلمية الخطوط الرئيسية لتطور الأدب الجغرافى العربى فى كتابـه « تاريخ دراسة الشرق فى أوروبـا وروسيـا » Istoria Izuchenia Vostoka v Evrope i Rossii (١٩١١ و١٩٢٥)[٥٢] ؛ ولا يسعنا إلا أن نعبر عن مزيد أسفنا لأن بارتولد لم يفرد لذلك أكثر من خمس صفحات . وفيما يتعلق بتاريخ الفترة الأولى للجغرافيا فثمة أهمية أساسية تنالها/الفصول المعقودة لذلك فى المقدمة التى دبجها يراع بارتولد 34
من أجل طبعته للمصنف الجغرافى باللغة الفارسية « حدود العالم » (١٩٣٠)[٥٣] . أما مقالى الذى نشر عام ١٩٣٧[٥٤] فقد كان الغرض منه إعطاء صورة سريعة للأنماط المختلفة للأدب الجغرافى وتوضيح ذلك ببعض النماذج .

ونتيجة لانعدام مرجع عام باللغة الروسية يبين الصفات المميزة للمؤلفات المختلفة فى الجغرافيا فمن المفيد الرجوع إلى الدراسات التى بين أيدينا والمفردة لمعالجة موضوعات معينة ؛ فمثلا فى

---

(٥٠) -Girgas, Ocherk, p. 188-213

(٥١) -Krymski, Ist. arabov, p. 100-107

(٥٢) -Bartold, Ist. Izuch. Vostoka, p. 52-57

(٥٣) -Bartold, حدود العالم ,p. 6-21

(٥٤) -Krachkovski, Arabskie Geografy, p. 738-765

مقدمة كتاب پتروفسكى Petrovski « الطرق العربية القديمة فى آسيا الوسطى » Drevnie Arabskie Dorojniki po Sredneaziatskim Mestnostiam (١٨٩٤) الذى اعتمد فيه على كتاب اشبرنجر Sprenger (١٨٦٤) العتيق ، هناك معلومات لا تخلو من فائدة للقارىء الروسى . ويمثل كتاب مدنيكوف Mednikov الضخم عن فلسطين (١٨٩٧ – ١٩٠٣) أهمية لا مثيل لها فى دراسة الجغرافيا العربية فقد أورد فيه ترجمات لقطع مأخوذة من خمسة وعشرين جغرافيًا ؛ وعلى الرغم من أن القطع كلها تتعلق بجغرافيا فلسطين إلا أنها ذات أهمية خاصة بصفتها تساعد على تكوين فكرة جلية عن مناهج أولئك المؤلفين . وهذه الترجمات مصحوبة بمعلومات موجزة عن حياة المؤلفين وكتبهم ، كما أن المؤلف أفرد جزءًا خاصًا لتحليل المادة الجغرافية عن فلسطين ، مما يمكن أن يكون له أهمية فيما يتعلق بالاستقراءات العامة فى ميدان الجغرافيا العربية . ويقدم لنا بارتولد تحليلاً عميقاً لعدد كبير من الجغرافيين العرب فى مقدمة كتابه المشهور «تركستان» * (١٩٠٠ و ١٩٢٨) ، وذلك عند فحصه للمصادر العربية .

وكان المستعربون الروس يبدأون فى العادة معرفتهم بالنصوص الأصلية للمصنفات الجغرافية العربية من كتاب « المختارات العربية » Arabskia Khrestomatia للمستشرقين جرجاس V.F. Girgas وروزن V.R. Rosen (١٨٧٥ – ١٨٧٦) وهى مأخوذة من مصنفات خمسة مؤلفين من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر . والمعجم الذى فى آخرها يجعل من هذه المختارات إلى أيامنا هذه كتابًا دراسيًا مفيدًا حتى فيما يتعلق بالجغرافيا العربية .

بهذا ينتهى عرضنا العام للدراسات الأساسية فى ميدان الأدب الجغرافى العربى ، سواء فى الغرب أو بين ظهرانينا . وهو إن دل على شىء فإنما يدل على أن هذا الفرع من العلم يتمتع حاليًا بكثير من العناية ليس فقط من جانب المستعربين أو المستشرقين عامة بل أيضًا من جانب الجغرافيين ومؤرخى العلم بالمعنى الواسع لهذا اللفظ .

ولقد يبدو أن وضع مؤلف جامع فى تاريخ الأدب الجغرافى العربى أمر يسير ، غير أن الدخول فى محاولة مماثلة تكتنفه صعوبات عديدة . والدليل على ذلك أن آخر عرض واسع للموضوع يرجع إلى عام ١٨٤٨ وأنه منذ ذلك التاريخ لم تظهر سوى موجزات قصيرة تأخذ فى العادة شكل مقالات . ويرجع هذا بالطبع إلى أسباب عديدة يتعلق بعضها بالمادة التى تحت تصرف الباحثين ؛ فعدد كبير من الآثار معروف لدينا من عناوينه فقط ولم يكشف عنه إلى الآن . ويكفى

---

* ظهرت ترجمتنا العربية لهذا السفر الجليل بالكويت عام ١٩٨١ تحت عنوان «تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى» (المترجم)

أن نشير فى هذا الصدد إلى أن كتاب أبى زيد البلخى (المتوفى عام ٩٣٤) ، وهو يمثل أول حلقة فى سلسلة مصنفات المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب ، لم يعثر على أصله إلى الآن ؛/ 35
كذلك لم يعثر على أصل كتاب الجيهانى فى مجلدات عديدة وهو ينتمى إلى العهد نفسه وأفاد منه كثيرًا المؤلفون المتأخرون . أضف إلى هذا أن عددًا من المؤلفات الجغرافية لا يزال ينتظر النشر ولا يزال بعيدًا عن متناول أيدى البحاثين . وقد كتب شوى منذ عام ١٩٢٤ يقول إنه من المستحيل كتابة تاريخ الجغرافيا الفلكية عند العرب نظرًا لأن عددًا من المؤلفات لا يزال قابعًا إلى الآن بين مخطوطات مكتبات لم تفحص بعد . وهذا الحكم نفسه يصدق على الجغرافيا الوصفية فأخبار ابن فضلان مثلا عن رحلته إلى الروس (٩٢١ – ٩٢٢) لم تتداولها الأيدى إلا فى الآونة الأخيرة على الرغم من أن قطعًا منها كانت موضوعًا للدراسة منذ أكثر من مائة عام . ويدفع ظهور مواد جديدة إلى إعادة فحص عدد من المسائل التى كانت تبدو إلى عهد قريب كأنها استوعبت بحثًا وتقصيًا . وإذا أمكن القول بأن مجموعات المخطوطات فى المكتبات الأوروبية والأمريكية قد تم فحصها إلا أن هذا القول لا ينطبق بأية حال على المجموعات الشرقية ؛ فقد برهنت الأعوام الأخيرة على أن مجموعات استنبول تبشر بالكثير فى هذا الصدد إذ أن بعض المخطوطات التى تم الكشف عنها هناك قد دعا إلى إعادة النظر فى نشر طبعة جديدة لأجزاء معينة من طبعة كلاسيكية مثل « مكتبة الجغرافيين العرب » .

وإلى جانب الثغرات فى المصادر فإنه لمما يعوق استكمال الصورة العامة صعوبة تحديد المادة أو نسبتها إلى فن معين . والعالم العربى الوحيد الذى اجتهد فى أن يفصل بين منهجى الجغرافيا والتاريخ كان عبد الواحد المراكشى من علماء القرن الثالث عشر الميلادى(٥٥) ؛ غير أن هذه كانت حالة استثنائية إذ فى الواقع أن فصل المنهجين كان أمرًا عسيرًا . وقد كان عدد من المؤلفين مؤرخًا وجغرافيًا فى آن واحد ؛ ويكفى أن نذكر فى هذا الصدد المسعودى المشهور (توفى عام ٩٥٦) . وكثيرًا ما تضمنت المؤلفات التاريخية مادة جغرافية ذات بال كما هو الحال مثلا مع كتاب « فتوح البلدان » للبلاذرى (المتوفى عام ٨٩٢) . ومن الواضح أن مثل هذه المادة ومثل هؤلاء المؤلفين لا يمكن إغفالهم فى عرض عام للجغرافيا ؛ ولكن هذا سيؤدى بدوره إلى اتساع الموضوع وترامى أطرافه ؛ وهذا القول نفسه يصدق على تلك المؤلفات التى تفرد أقسامًا خاصة للجغرافيا مثل الموسوعات العديدة التى ألفت بمصر فى عهد المماليك . ويضحى من العسير حل المشكلة إذا ما تبعثرت المادة الجغرافية ، وقد أبصرنا كيف أن المصنفات ذات الطابع القصصى أو

---

(٥٥) عبد الواحد ص ٢٥٢ ؛ وأيضاً Kramers, EI, EB, p. 63.

الشعبى مثل «أسفار السندباد» يجب أن تحتل مكانها فى مصنف عام يعرض لتطور الأدب الجغرافى ، إذ أنها تمثل نمطًا قائمًا بذاته وتتميز بالطرافة . بيد أن جمع المادة الجغرافية المتناثرة فى الفروع المختلفة للأدب العربى يكاد يكون أمرًا مستحيلا بل لا يخدم أى غرض ؛ وكتاب فيران **Ferrand** الذى جمع فيه الروايات العربية عن الشرق الأقصى خير دليل على أنه يمكن استخراج هذه المادة من
36 المجموعات الأدبية كما يمكن استخراجها أيضًا من المصنفات الفلسفية والنباتية ومن المعاجم/ومن المؤلفات الاقتصادية(٥٦) . ولعله من الممكن أن يضاف إلى هذه القائمة الآثار الشعرية ، بل ربما جميع فنون الأدب الأخرى دون استثناء . ومن الجلى أن تحليل مادة من هذا النوع فى عرض عام ليس في حيّز الإمكان ؛ أضف إلى هذا أن هذه المصادر عندما تضم مادة جغرافية صرفة إنما تنضم إلى المصنفات الجغرافية نفسها لا إلى مصنف فى تاريخ الجغرافيا . لكل هذا فإن كتابنا قد قصدٍ به تقديم عرض عام للأدب الجغرافى العربى لا جمع المادة الجغرافية المدوّنة فى اللغة العربية . ويمكن أن يمثل بعض الاستثناء فى هذا الصدد الفترة الأولى السابقة لظهور المصنفات الجغرافية المختلفة ، فهنا يجب دراسة المواد المبعثرة والإشارات العديدة التى أخذت منذ ذلك العهد تحدد اتجاهات تطور فن جديد من الأدب سيظهر فى القرن التالى لذلك . ويهدف كتابنا أساسًا تحليل جميع آثار الجغرافيا الوصفية والرحلات ؛ أما الجغرافيا الفلكية فستعالج فقط بالقدر الذى ترتبط فيه ارتباطًا وثيقًا بالجغرافيا الوصفية لا كفرع مستقل لأن هذا يتصل بالعلوم الدقيقة . كما أن عرضًا عامًا كهذا يتطلب بعض الاتساع من ناحية اللغة ليفسح مجالا للآثار الجغرافية باللغتين الفارسية والتركية ؛ وفى خط تطوره الذى شمل اللغات الثلاث نلاحظ أحيانًا أن بعض حلقاته قد حفظ لنا فى لغة مغايرة للغة التى كتب بها الأصل ؛ فمن المعروف مثلا أن كتاب حاجى خليفة (القرن السابع عشر) بالتركية وهو « جهاننما » يغلب أن يكون وضعه مؤلفه فى بادىء الأمر باللغة العربية . وبعض آثار الأدب الجغرافى المبكر باللغة الفارسية ، مثل المصنف المشهور « حدود العالم » (٩٨٢) الذى لم يعرف مؤلفه إلى الآن أو ككتاب كرديزى (حوالى عام ١٠٥٠) ، قد حفظ لنا خطوطًا هامة من تاريخ الأدب الجغرافى العربى بحيث يصبح ذلك التاريخ مبتورًا إذا أغضينا النظر عنها .

ويمكن القول بوجه عام إنه ليس من أغراض هذا الكتاب الإلمام بكل أطراف الموضوع بحثًا

---

(٥٦) **- Ferrand, Relations ١٤٤٦ : الأبشيهى المتوفى عام , II, p. 469; ابن طفيل , I, p. 200; الدمشقى , II, p. 603-606; برهان قاطع , II, p. 563; ابن البيطار , I, p. 234-296; الجوبرى , II, p. 608-611.**

واستيفاء إنما يهدف تقديم لوحة عامة لتطور الأدب الجغرافى ولشخصياته وآثاره المختلفة وذلك على ضوء الاستقراءات التى وصل إليها البحث المعاصر ، كما يهدف أيضًا المساهمة فى تقديم العون اللازم كمرجع أوّلى بالنسبة للموضوعات المختلفة التى يعالج الكلام عليها .

الفصـــل الأول
الجغرافيا عند العرب قبل ظهور المصنفات الجغرافية الأولى

37 للوصول إلى معرفة التصورات الجغرافية فى بلاد العرب قبل الإسلام نجد أنفسنا مضطرين إلى الاعتماد اعتمادًا كليًا على معطيات طفيفة حفظها لنا العرب أنفسهم ، وهى تفتقر إلى التجانس فى الكثير من الأحايين . وبالطبع فدور بلاد العرب الجنوبية فى تاريخ الشرق القديم خاصة فى محيط التجارة يسوقنا إلى الافتراض بأن العرب قد حصلوا على تجارب عملية مما يحتاج إليه التجار . وقد لعبت بلاد العرب دائمًا دور الوسيط فى التبادل التجارى بين الهند وافريقيا الشرقية من ناحية وبلاد دجلة والفرات والإمبراطورية الرومانية من ناحية أخرى . ومن المحتمل أن المعلومات التى جمعها التجار العرب إبان رحلاتهم الطويلة قد تردد صداها فيما خلفوه من أوصاف الطرق المختلفة ، حيث يرد بالإضافة إلى ذكر الأماكن ذكر أهم الآبار وموارد المياه والجبال والقبائل التى يخترق الطريق أراضيها . وقد تبقت شذور من هذه المعلومات التى وصلتنا من السكان المحليين مباشرة فى بعض مصنفات العالم الكلاسيكى القديم، مثال ذلك «المحطات البارثية» Σταθμοί Παρθικοί لايزيدور الخركى Isidorus Characensis الذى عاش فى القرن الأول للميلاد وهو من سواحل الخليج الفارسى وربما كان عربى الأصل*؛ وقد ترك لنا وصفاً لطرق القوافل بين أنطاكية وحدود الهند(١) . ومثال هذا على ما يبدو وصفان لجزيرة العرب، خاصة فيما يتعلق بمدنها وقبائلها، وهما لأورانيوس Uranius(٢) ʼΑραβικά وغلاوكوس Glaucos(٣) ʼΑρχαιολογία ʼΑραβική وقد حفظ لنا منهما شذور نزرة(٤)؛ وقريباً من عهد جستينيان كانا لا يزالان فى متناول يد أسطفان البيزنطى Stephan of Byzantium الذى كثيراً ما أفاد منهما فى معجمه الجغرافى(٥) .

---

* لا يعرف من أمر إيزيدور هذا شىء يذكر ، والظاهر أنه من مدينة Charax Sapsini وهى مدينة تجارية كانت تقع على فم الخليج الفارسى ويظن بعضهم أنها المحمّرة ؛ ويرجح أنه عاش أيام أغسطس قيصر وربما أدرك القرن الأول الميلادى .

(المترجم)

(١) Sarton, Introduction, I, p. 230-

(٢) Müller, p. 523-526-

(٣) شرحه ص ٤٠٩ . عن حياتهما راجع : Christ-Schmidt, II, p. 401

(٤) Mzik, Ptolemaus und die Karten, p. 153-

(٥) Conti Rossini, Chrestomathia, p. 35-37; Sarton, Introduction, I, p. 433.

وجميع هذه المصنفات لا تعنى كثيرًا بالنسبة لموضوع دراستنا(٦) ، ليس فقط لأنها لم تكتب بالعربية التى لما تكن قد ارتقت/إلى مصاف اللغات الأدبية ، بل لأنها ظهرت فى محيط الحضارة 38 الكلاسيكية القديمة ولم يفد العرب منها شيئًا ؛ وهى لم تعكس الوسط والفترة التاريخية التى بزغت فيها أولى مظاهر الحضارة العربية ، تلك الحضارة التى ما لبثت أن ترعرعت سريعًا وأصبحت عنصرًا أساسيًا فى حضارة البشرية جمعاء . ومن الأهمية بمكان أن ننفذ إلى ظروف الحياة البدوية فى بلاد العرب الوسطى حيث بزغ فجر الشعر الجاهلى ؛ ذلك الشعر الذى أصبح بمضى الزمن أنموذجًا كلاسيكيًا للشرق الأدنى بأجمعه . ومن المهم أيضًا بالنسبة لنا أن نزيل النقاب ما أمكن عن التصورات الجغرافية فى بعض مراكز الحضارة بالحجاز حيث ظهر الإسلام لأن هذا بدوره سيوضح لنا الكثير فى نشأة أنماط الأدب الجغرافى التى ظهرت فى وقت واحد مع جميع فنون الأدب العربى الأخرى .

ومن العسير أن نتوقع اتساعًا فى المدارك الجغرافية بين بدو الجاهلية غير أن قوة ملاحظتهم للظواهر الطبيعية المحيطة بهم أمر بدهى مرده إلى طبيعة حياتهم نفسها . والبدو عادة يتمتعون بمعين لا ينضب من التجارب المباشرة فى مجال الجغرافيا الفلكية . وترحالهم الدائم وسراهم بالليل ، حين يعتمد الإنسان على الاهتداء بالقمر والنجوم الساطعة ، قد شحذ ذهنهم مبكرًا لمراقبة جميع التغيرات التى تطرأ على القبة السماوية . وهم لم يعرفوا الاهتداء بالنجوم فحسب بل إنهم بفضل طلوعها ومغيبها قد استطاعوا توقيت ساعات الليل . ويحتل القمر بالطبع المكانة الأولى لديهم ، وقد عبر الأديب ابن منظور (المتوفى عام ٧١١ هـ = ١٣١١) بمهارة فائقة عن علاقتهم بالقمر فى ظروف حياتهم لذلك العهد فقال :

« أنسوا بالقمر لأنهم يجلسون فيه للسمر ، ويهديهم السبل فى سرى الليل والسفر ، ويزيل عنهم وحشة الغاسق ، وينم على المؤذى والطارق »(٧) . وهم فى مراقبتهم لمسير القمر لاحظوا مبكرًا علاقته بالمجموعة النجمية المتغيرة على التوالى وحددوا عدد منازلها بثمانية وعشرين منزلا أطلقوا عليها اسم « منازل القمر » ، وأُعطى لكل واحد منها اسم عربى خالص(٨) ، وترجع هذه الأسماء إلى أقصى زمن ترتفع إليه أشعارهم . وثمة ظاهرة فلكية هامة توصل إليها البدو والحضر على

---

(٦) خلاصة كلام المؤلفين القدامى عن بلاد العرب الجنوبية يعطية باللاتينية :

Conti Rossini, Chrestomathia, p. 1-37.

(٧) نالينو ، الفلك ، ص ١١٢ (= Racc., p. 175-176)

(٨) (فى كتاب : Ferrand, Introduction) -Saussure, Commentaire p. 129-175

السواء فقد استطاعوا التنبؤ بحالة الطقس وتحديد فصول السنة الملائمة للزراعة نتيجة لخبرة طويلة الأمد بمراقبة طلوع ومغيب نجوم معينة ، أو ما يسمى «بالغروب الكونى للمنازل القمرية» (The Cosmic Setting of the Lunar Stations)(٩) ، وكان العرب يعرفون ذلك باسم النوء (الجمع أنواء) ولعب دوراً كبيراً في حياتهم. وشيئاً فشيئاً/ تجمعت لدى العرب بشأن 39
الأنواء معلومات مختلفة صاغوها كما هو ديدنهم فى صور مسجوعة ثبتت به على الدوام وتم تدوينها فى وقت واحد مع الشعر الجاهلى على ما يبدو . وقد حفظت لنا أوصاف مختصرة لجميع الأنواء الثمانية والعشرين نسوق بعضًا منها من باب المثال لا الحصر(١٠) :

« إذا طلع الشرطان استوى الزمان وحضرت الأوطان وتهادى الجيران » .

« إذا طلع الدبران توقدت الحزّان وكرهت النيران واستعرت الذبان وييست الغدران ورمت نفسها حيث شاء الصبيان » .

« إذا طلعت الجوزاء توقدت المعزاء وكنست الظباء وعرفت العلباء وطاب الخباء » .

وترتبط الأنواء بالظواهر الجوية ارتباطًا وثيقًا بحيث أصبحت الأخيرة تسمى أحيانًا باسمها ، فلفظ « نوء » كثيرًا ما يعنى المطر ، وفى الاستعمال المعاصر اتخذ معنى العاصفة (البحرية) . وأحيانًا نسبت الظاهرة إلى النجوم مباشرة فقيل إن نجما ما يسبب المطر ، وهى فكرة اضطر محمد إلى محاربتها بالتالى . ويحفظ لنا التراث العربى القديم مادة غزيرة عن الأنواء ليس فقط على شكل جدول يبين منازل القمر الثمانية والعشرين(١١) بل أيضًا على هيئة تصورات عديدة مرتبطة بها ، سجعًا كان ذاك أم شعرًا . لذا فليس من الغريب فى شيء أن انكب كبار العلماء فيما بعد على تأليف « كتب الأنواء » ؛ وقد عد أحد المتخصصين فى الفلك عند العرب أكثر من عشرين منها(١٢) فى القرنين التاسع والعاشر وحدهما ، ويرجع أحدها إلى واحد من أوائل الجغرافيين العرب وهو ابن خرداذبه كما ندين بآخر إلى المؤرخ المعروف الدينورى . ونظام المنازل القمرية من أقدم تراث البشرية وهو معروف فى أقدم الروايات الصينية والهندية والعربية(١٣) . وليس ثمت ما يدعو على الإطلاق إلى القول بأن مذهب العرب فى المنازل مستعار برمته من غيرهم . هذا وقد وجد طريقه إلى أوروبا فى العصور الوسطى مصور يبين منازل القمر العربية (Lunar Arabic

---

(٩) -Nallino, EI, I, p 517

(١٠) ابن قتيبة ، راجع شكرى الآلوسى ، الجزء الثالث ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(١١) -Ruska, EI, III, p. 252.

(١٢) نالينو ، الفلك ، ص ١٢٨ - ١٣٣ (= Racc., p. 187-192)

(١٣) -Ferrand, Introduction, p. 143-144, note I

Zodiac) ، كما بينت المنازل الثمانية والعشرين بجذافيرها على بعض الاسطرلابات[١٤] .

وبالطبع لم تقف معرفة البدو عند القمر وحده بل عرفوا جيدًا الكواكب التي احتلت المكانة الأولى بينها الزُّهَرَة (Venus) وعطارد (Mercury)[١٥] ، أما فيما يتعلق بالنجوم فقد عرفوا منها ما لا يقل عن مائتين وخمسين نجما فى تسميتها العربية الخالصة * ، جمعهـا بعناية فائقة فى القرن العاشر/الفلكى عبد الرحمن الصوفى (توفى عام ٣٧٦ = ٩٧٦)[١٦] . وتخلو نجوم السمت 40 (Azimuth Stars) لديهم من أى تأثير يونانى ، إذ أن التأثير اليونانى لم يعدّل فى المصطلحات الفلكية العربية إلا ابتداء من القرن التاسع[١٧] . وقد ارتبط بهذه التسميات أحيانًا أساطير فريدة فى نوعها[١٨] . وفى مقابل هذا فإن عرب الجاهلية لم يعرفوا على ما يبدو أسماء البروج ، بل إن لفظ « برج » (وجمعه أبراج وبروج) الذى استعمل بالتالى فى ذلك المعنى كان يعنى لديهم مجرد « النجوم » .

فإذا ما تحولنا من السماء إلى الأرض فسيتضح لنا أن التصورات الجغرافية لدى عرب الجاهلية كانت نزرة ولم تتعد حدود جزيرتهم ، وذلك وفقًا لمفهوم الكتاب المتأخرين ، أى إلى الفرات وجبال طوروس شمالا . ومن نافلة القول أن نوكد غنى اللغة العربية القديمة فى كل ما يتعلق بالتربة وأخص مميزاتها الباطنية ، وبالعالمين النباتى والحيوانى أيضًا . فإذا ما تركنا هذا جانبا فإن المجال الوحيد الذى خلف فيه العرب مادة وافرة يكاد يقتصر على مواضع الجزيرة العربية المختلفة . وقد وصلت إلينا هذه المادة فى آثار فريدة ربما كانت الوحيدة من نوعها فى الأدب العالمى ؛ وكما هو معروف فإن القالب الأساسى الذى صيغ فيه الشعر العربى هو القصيدة التى كان القسم الأول منها يفرد عادة لذكر المحبوب و « الأطلال » حيث كانت تنزل قبيلته وقبيلة الشاعر من وقت لآخر ؛ هذا القسم

---

(١٤) Saussure, Commentaire, p. 143-

(١٥) Nallino, Sun, Moon & Stars, p. 95— Wellhausen, Reste 2, p. 210-

* آخر ما ظهر فى هذا الموضوع بحثا P. Kunitzsch :
1- Arabische Sternkunde in Europa, 1959
2- Untersuchungen zur Sternkunde der Araber, 1960. (المترجم)

(١٦) نالينو ، الفلك (= Racc., p. 107, 109) -
المعلوف ، مجلة المجمع العلمى العربى Samaha, Names, p. 7-
Jacob, Beduinenleben², p. 158-160-Dvorac, p. 38-40 -

(١٧) Hess, راجع : Saussure, p. 105, 107

(١٨) راجع مثلا ياقوت ، المعجم ، الجزء الثالث ، ص ٧٠٤^٨ وص ٥٤٨^٢٠ - ٢١
ولدى البدو أيضًا : راجع Hess ص ١ – ٢ – نالينو ، الفلك ، ص ١٠٨ – ١٠٩ وص ٣١٢ – ٣١٣ (= Racc., p. 172-173, 315-316)

من القصيدة المعروف بالنسيب كثيرًا ما ورد فيه ذكر لأكثر من موضع أو موضعين جغرافيين يمكن فى أغلب الأحوال تحديد موقعها . فلبيد الذى أدرك محمدًا وهو شيخ طاعن فى السن يذكر فى إحدى قصائده الأماكن المحيطة بالمدينة حين يقول[١٩] :

لهند بأعلام الأغر رسوم — إلى أُحُد كأنهن وشوم
فوقف فسُلَّى فأكناف ضلفع — تَربَّعُ فيها تارة وتقيم
بما قد تعل الواديين كليهما — زنانير فيها مسكن فتدوم

ويعطى فى موضع آخر وصفًا فريدًا لمسير قافلتهم فى تجاه الخليج الفارسى فيقول[٢٠] : 41

جاوزن فَلْجًا فالحَزْنَ يدلجن بالليل ومن رمل عالج كُثُبا
من بعدما جاوزت شقائق فالد — هناء فصُلب الصمَّان والخُشُبا

وهكذا نبصر فى بداية قصيدة واحدة عددًا من أسماء المواضع ، وليس بذى أهمية أن تكون مواضع خاملة الذكر ؛ ومثل هذه الحالة ليست بحالة استثنائية بل تغلب أن تكون القاعدة المطردة . فها هو عبيد بن الأبرص ، وهو من شعراء القرن السادس أيضًا ، يتذكر المواضع التى هزم فيها أحد أمراء الغساسنة قبيلته فيقول[٢١] :

أقفر من أهله ملحوب — فالقطبيَّات فالذَّنوب
فراكِسٌ فثعيلبات — فذات فرقين فالقليب
فغردة فقفا حِبر — ليس بها منهم عريب

وحسان بن ثابت ، شاعر محمد فيما بعد ، يتذكر فى أبيات له بعض المواضع التى أمضى فيها وقتًا طيبًا فى ضيافة آل جفنة فيقول[٢٢] :

لمن الدارُ أوحشت بمَعَان — بين أعلا اليرموك فالخمَّان
فالقريَّات من بَلاسَ فدارَ — يَّا فسَكَّاءَ فالقصور الدوانى
فقفا جاسم فأودية الصفر — مغنا قبايل وهجان

لقد حفظ لنا الشعر الجاهلى مادة لا تنضب من هذا القبيل ، وفى القرن التاسع عندما أخذ

---

(١٩) الخالدى No I, 1-3 = Huber-Brockelmann, p. V

(٢٠) الخالدى No XIX, 4-6 (p. 136-137) ، -Brockelmann, GAL, SBI, p. 403
= Huber - Brockelmann, p. XXXIX-XL.

(٢١) (النص ص ٥ ؛ الترجمة ص ١٨) -Lyall, No I,1-3

(٢٢) راجع ياقوت ، المعجم ، الجزء الثالث ص ١٠٥ . ؛ -Hirschfeld, p. 55, No CXXV, 1-3

العلماء العرب يتتبعون مآثر أسلافهم عرب الجاهلية كانت هذه المادة هى القاعدة المتينة التى قامت عليها الرسائل العديدة التى لا تقع تحت حصر من طراز « كتاب مياه وجبال وبلاد جزيرة العرب »[٢٣] و« كتاب أسماء جبال تهامة ومكانها »[٢٤] ، وهى رسائل غلب عليها الطابع اللغوى أكثر من الطابع الجغرافى ولكنها مهدت الطريق شيئًا فشيئًا إلى ظهور الأدب الجغرافى .

ولما أخذ الشعر يثبت فى قوالبه التقليدية بعد ظهور الإسلام بدأ ذكر المواضع والأمكنة فى النسيب يفقد أحيانًا أساسه الواقعى فى الحياة ويتحول إلى مجرد أسماء تجمع من هنا وهناك ، ربما كانت من صنع المخيلة أحيانًا . غير أن الوضع لم يكن كذلك قبل ظهور الإسلام ، وقد أثبتت سلسلة من البحوث أن المادة « المكانية » (toponomy) للشعر الجاهلى يمكن أن تسوق إلى نتائج طيبة لو أخضعت لدراسة دقيقة * . ويذكر فستنفلد Wüstenfeld ، وهو من الملمين بجغرافيا بلاد العرب ، وذلك فى كتابه « البحرين واليمامة » Bahrein und Jemama[٢٥] أن :

« .... وجود الأعلام الجغرافية عند الشعراء يمثل بالنسبة لبحوثنا مادة لا تقدر بثمن ؛/ 42
وكثيرًا ما يقدم شراحهم ، الذين استقى منهم مادته أمثال البكرى وياقوت ، معلومات غاية فى الدقة لأنهم بذلوا مجهودًا كبيرًا فى جمعها وتحقيقها وتجشموا السفر إلى مواضع نائية ليتحققوا بأنفسهم من مواقع المواضع التى ذكرها الشعراء ويسألوا الأعراب عنها . وحينما تتفق معطياتهم فليس ثمة ما يدعونا إلى التشكك فى صحتها » .

هذا ولم تتجاوز المدارك الجغرافية عند عرب الجاهلية حدود جزيرتهم إلا نادراً ، وقلما وجدت لديهم أفكار عامة فى الجغرافيا . ويرد بالطبع فى شعرهم ذكر الأنهار مثل دجلة والفرات ، والأقطار مثل العراق والشام ، والمدن مثل بعلبك ودمشق ، ولكن نادرًا ما ارتبطت بهذه الأسماء أية تجارب واقعية . وهذا نفسه يصدق على الشعوب المجاورة لهم باستثناء اليهود الذين قطنوا معهم فى جزيرة العرب ، فكثيرًا ما ورد لديهم ذكر الروم (البيزنطيين) والعجم (الفرس) . ويبدو أن ذكر الترك والكابليين فى أواخر القرن السادس[٢٦] كان من قبيل المصادفة ؛ وهذان الاسمان يردان

---

(٢٣) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 188, No 2b

(٢٤) شرحه ص ٤٠٣ .

* ظهر فى الآونة الأخيرة بحث باللغة الألمانية فى هذا الموضوع هو :
U. Thilo, Die Ortsnamen in der altarabischen Poesie. 1959 .(المترجم)

(٢٥) -Wüstenfeld, Bahrein und Jemâma, p. 174 (الطبعة المنفصلة ، ص ٢)

(٢٦) -Kowalski, Korosi Czoma Archivum, II, 1926, p. 38-41: =

فى المترادفات من قبيل الإتباع والمزاوجة لدى النابغة الذبيانى والأعشى ، وهما شاعران عرفا بكثرة التسفار وبمعرفتهما الجيدة بدول الثغور فى شمالى الجزيرة العربية . والأول فى قصيدة له يرثى فيها أحد أمراء الغساسنة يقول إنه قد بكته الغساسنة وبلادهم حوران والترك والفرس والكابليون ، ويجدر بنا بالطبع أن نبصر فى اللفظ الأخير شيئا دخيلًا . أما الأعشى فيذكر فى وصف لأحد مجالسه الخمرية أنه كانت « تركض » حولهم الترك والكابليون *. وقد زار الأعشى أثناء تجواله فارس ولكن من العسير أن نحكم استنادًا على هذا أنه يصور حادثًا وقع بالفعل . ولعله تحت تأثير هذه الأبيات الشهيرة للنابغة والأعشى كان ذكر الترك فى الشعر القديم يرد على الدوام مقرونًا باسم الكابليين .

هذا هو على وجه التقريب نوع المعلومات الجغرافية الموجود لدى بدو الجاهلية ولكن وجدت إلى جانب هذا مراكز حضارية بلغت درجة أرفع من الحضارة ويمكن أن تنشأ فيها تصورات جغرافية أوسع وأكثر تنوعًا . ولا نقصد بهذا دولتى الغساسنة واللخميين ، إذ أنهما دخلتا فى محيط حضارتين متقدمتين هما البيزنطية والإيرانية ولم تخلفا مادة عربية يمكن أن تمس موضوع دراستنا . أما فيما يتعلق بالمراكز الحضرية الكبرى فى بلاد العرب نفسها حيث اختلط بالسكان الأصليين عدد من اليهود والنصارى فإنه يمكن الاعتماد اعتمادًا تامًا على القرآن . والمعلومات الأساسية التى
43 كانت تحت تصرف محمد لم تكن غريبة على/الوسط الذى عاش فيه ، أعنى وسط الحياة الحضرية فى الحجاز . ومن الجلى أن محمدًا كان رجلا أميًا ، وتكتسب هذه الحقيقة مغزى خطيرًا لأنها تسوقنا إلى الافتراض بأن القرآن هو جماع تلك المعارف التى حصل عليها محمد عن طريق السماع ، وهى تمثل نموذجًا عامًا لمستوى الثقافة العام فى هذا المجال **.

وبالطبع فإن مدى هذه المعلومات والمسائل المتعلقة بها كان أوسع بكثير مما هو عليه الحال مع البدو كما تردد فى أشعارهم . وهى فى مجموعها لا تكشف عن صعوبات خاصة ولكن تتبع مظانها ومصادرها والملابسات التى أحاطت بظهورها أمر جد عسير لأن المؤثرات التى عملت فى محمد

=أنشدنا الرياشى :

غلبت أمه أباه عليه فهو كالكابلى أشبه خاله

(ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، الجزء الرابع ، ص ١٢٢)

* أبيات الأعشى هى :

ولقد شربت الخمر تر كض حولنا ترك وكابل
كدم الذبيح غريبة مما يعتق أهل بابل
باكرتها حولى ذوو الآكال من بكر بن وائل (المترجم)

** للمؤلف فى هذا الفصل آراء لا تتفق مع وجهة النظر الإسلامية ، ولكنى آثرت إيرادها بنصها تمسكًا بالأمانة العلمية تاركًا لعلماء المسلمين فرصة الرد عليها . (المترجم)

وصقلت شخصيته متنوعة للغاية وأثّرت فيه بطرق متعددة متضاربة وجميع ما يتصل بها يحتاج إلى بحث خاص قائم بذاته . ومثل هذه المهمة يستحيل تحقيقها فى عرض عام كهذا ولهذا السبب اكتفيت بعرض موجز للتصورات الجغرافية فى القرآن موليًا ما أمكن عناية خاصة للاتجاهات والنظريات التى كان لها تأثير ملحوظ فى الأدب الجغرافى العربى فى عصوره التالية .

والمادة الجغرافية فى القرآن طفيفة على العموم ، أضف إلى هذا أنه لا يمكن اعتبارها دائمًا انعكاسًا لمادة عربية بحتة . وما جرت تسميته « بالتراث الأسطورى فى الجغرافيا[٢٧] » قليل جدًا بينها ، غير أنه مما يزيد فى صعوبة تحليل المادة بشكل خاص هو أن مغزى القصص الواردة فى القرآن لم يكن على الدوام واضحًا حتى لمحمد نفسه[٢٨] ، وهو قد التجأ عن قصد إلى العبارات الغامضة والأساليب المبهمة كما يتضح فى أكثر من موضع من القرآن . وبعكس ما عليه الحال مع الشعر الجاهلى فإن القرآن يحفل بالكثير فى تصوير السماء والأرض[٢٩] .

ففيما يتعلق بالسماء كثيراً ما تتكرر النظرية القديمة عن السموات السبع[٣٠] المعروفة منذ عهد البابليين والتى عاشت إلى أيامنا هذه فى تعبيرات لا شعورية مثل « كأنما فى السماء السابع »[٣١] ، بل حتى فى استعمال صيغة الجمع « السموات » إلى جانب المفرد « السماء » . والقول بسموات سبع يرد مرارًا فى القرآن (٢[٢٧] ، ١٧[٤٦] ، ٢٣[٨٨] ، ٤١[١١] ، ٦٥[١٢] ، ٦٧[٣]) ، ويشار إلى أنها قد شيد بعضها فوق بعض طبقة طبقة (« طباقا » ٧١[١٤]) وبشكل متين (« شدادا » ٧٨[١٢]) . وهى على شكل طرق (« طرائق » ٢٣[١٧]) تسلكها الشمس والقمر كل يسبح فى فلكه (٢١[٣٤] ، ٣٦[٤٠]) ؛ وقد أمكن الاستدلال على أن لفظ « فلك » نفسه بابلى الأصل على ما يظهر[٣٢] . وهذه السموات السبع تقف دون عمد (١٣[٢] ، ٣١[٩]) ، معتمدة على القدرة الإلهية/فحسب (٢٢[٦٤]) ، غير أن صورتها مادية بشكل 44
واضح ؛ ففى أكثر من موضع يرد الكلام ، ولو مجازًا ، بإمكان سقوط قطع منها (« كسف » ١٧[٩٤] ، ٢٦[١٨٧] ، ٣٤[٩] ، ٥٢[٤٤]) وأنها قد شيدت بناءًا أو سقفًا ، (« بناء » ٢[٢٠]) .

وتتوكد فى القرآن بشكل خاص أهمية النجوم كهاد فى ظلمات الليل (٦[٩٧] ، ١٦[١٦]) ولكن

---

(٢٧) Mzik, WZKM, XLV, p. 97

(٢٨) شرحه ص ٩٩

(٢٩) Samaha

(٣٠) نالينو ، الفلك ص ١٠٥ (= Racc., p. 170)

(٣١) Michelson, p. 616-617, No. 307

(٣٢) نالينو ، الفلك ص ١٠٦ (= Racc., p. 170-171)

من بين النجوم نفسها لم يرد ذكر لنجم خلاف « الشعرى » Sirius[٣٣] (٥٣[٥٠]) . وكما هو الحال مع الشعر الجاهلى فإن البروج الاثنى عشر (The Signs of the Zodiac) المعروفة منذ أيام البابليين لم يرد لها ذكر فى القرآن ، ولفظ « البروج » نفسه[٣٤] الذى بدىء فى استعماله مأخوذًا من القرآن ورد فى صيغة الجمع فقط وفى معناه الأوَّلى المعروف (٤[٨٠]) ، كما أطلق أيضًا على النجوم عامة (١٥[١٦] ، ٢٥[٦٢] ، ٨٥[١]) . ونتيجة لسوء فهم ما وجد الباحثون فى القرآن ذكرًا للمجموعة الشمسية المعروفة « بالميزان » (٥٥[٦])[٣٥] . وقد ألهبت النجوم المتهاوية مشاعر العرب بشدة ، وكما هو الحال مع عدد من الشعوب فقد اعتبرت أسلحة لحماية السماء من قوى الشر (٣٧[٧] ، ٦٧[٥] ، ٧٢[٨])[٣٦] . أما المهمة الأساسية للشمس والقمر فقد كانت فى تحديد الوقت سواء اليومى أو السنوى (٦[٩٦] ، ٩[٥] ، ٣٩[٧] ، ٥٥[٤]) ؛ كما لوحظ الاختلاف أثناء الشتاء والصيف بين مواضع شروق الشمس ومواضع غروبها ، هذا إذا أخذنا بتفسير الآيات الغامضة عن المشرقين والمغربين (٣٧[٥] ، ٥٥[١٦-١٧])[٣٧] . وقد ورد ذكر القمر مرتين (١٠[٥] ، ٣٦[٣٩]) أما تقسيم السنة إلى اثنى عشر شهرًا فقد اعتبر أمرًا بدهيًا معروفًا من الجميع (٩[٣٦]) . ويلوح أن الاختلاف بين السنتين القمرية والشمسية كان معروفًا ، الأمر الذى يشير إليه معنى « الشهر الكبيس » (أى المزدوج) فى لفظ « النسىء »[٣٨] ، وهو لفظ لمّا يتضح معناه تمامًا إلى الآن .

وإذا كانت نظرية السماوات تلعب الدور الرئيسى فى التصورات القرآنية عن السماء ، فإنه قد وجدت فيما يتعلق بالأرض نظريات ارتبط بها الأدب الجغرافى على ممر تاريخه . وإحدى هذه الأفكار الرئيسية هى أن الأرض مسطح ثابت (٢٧[٦٢] ، ٧٨[٦-٧]) ، وهى فكرة سادت من قبل عند اليهود كما عرفها أيضًا اليونان فى عهد هومير Homer وهزيود Hesiod والفلاسفة اليونيين[٣٩] . وقد عبر القرآن عن هذا عادة بمقارنات حسية مباشرة ، فالأرض تشبه « الفراش »

---

(٣٣) -Samaha, Names, p.6-Horovitz, p. 119

(٣٤) نالينو ، الفلك ، ص ١١٠ ، ٣١١ – ٣١٢ (= Racc., p. 174, 315-316)
ولكن راجع أيضًا : Hartner, EI III, p. 577

(٣٥) -Sablukov, p. 56

(٣٦) -Dvorac, p 41-42

(٣٧) نالينو ، الفلك ، ص ٨٤ – ١٠٤ (= Racc. p. 153-169)
وأيضًا : Moberg, An-nasi', EI, III, p. 924-925

(٣٨) راجع : -Hartner, Zaman, p. 1307-1308

(٣٩) -Streck, Kaf, p. 658

([٢٠]٢ ، [٤٨]٥١) ، و« البساط » ([١٨]٧١) و« المهاد » ([٦]٧٨) ، و« المهد » ([٩]٤٣) . ومهما بدا الأمر غريبًا فإن الحقيقة الواقعة هو أن هذه النظرية المنصوص عليها بصراحة فى القرآن لم تتحول إلى مذهب علمى فى الجغرافيا العربية . وإذا حدث وأن أشار إليها بعض المؤلفين فى افتتاحيات كتبهم/التى يبدؤونها عادة بحمد الله وشكره ، كالإدريسى مثلا[٤٠] ، 45
فواقع الأحوال أن النظرية المضادة وهى نظرية استدارة الأرض أو كرويتها قد ثبتت وعم انتشارها منذ زمن مبكر بل إن فلكيًا من الفلكيين الأوائل وهو الفرغانى[٤١] قد ساق بعض البراهين المتداولة فى أيامنا هذه لإثبات كروية الأرض ، كاختلاف مواعيد طلوع نجم معين أو اختلاف الكسوف باختلاف الأماكن الخ . غير أن هذه التصورات لم تتميز بالوضوح التام ، فبعض وجهات النظر تنعكس فيها آراء المسيحيين الأوائل الذين تصوروا الأرض على هيئة نصف كرة أو درع أو قبة أو مربع .

ووفقًا لما جاء فى القرآن فإن الجبال تخدم غرضًا خاصًا هو جعل الأرض تثبت فى حال من التوازن كيلا تميد ([١٥]١٦ ، [٣٢]٢١ ، [٩]٣١) ؛ وهذه النظرية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالنظرية القائلة بأن الأرض مسطحة وسابحة فى الفضاء[٤٢] . والجبال بوجه عام قد ورد ذكرها فى القرآن فى أكثر من موضع وبينت أهميتها بالنسبة للأرض ([٣]١٣ ، [١٩]١٥ ، [٦٢]٢٧ ، [٩]٤١ ، [٧]٥٠ ، [٢]٧٧) ؛ لهذا فحين ظهرت لدى العرب ، خاصة فى أدب الأساطير والعجائب ، الفكرة التى يغلب على الظن أنها مأخوذة من التصورات الإيرانية ، وهى فكرة وجود سلسلة جبلية هى سلسلة جبال قاف المحيطة بالأرض ، وجدت محاولات لتفسيرها بواسطة الآيات القرآنية عن الجبال ؛ ولعله أيضًا تحت تأثير هذا برزت فكرة وجود سلسلة جبلية تخترق الأرض من حدها إلى الحد الآخر وترتبط جذورها بجبل قاف[٤٣] . والآية القرآنية الغامضة التى تنص على خلق سبع سموات وسبع أرضين ([١٢]٦٥) قد أدت بدورها إلى ظهور نظرية الأرضين السبع[٤٤] ، التى استندت على

---

(٤٠) -Kramers, EI, EB, p. 63

(٤١) -Golius, p. II sui. = Mehren, Udsigt, p. 80-81

(٤٢) -Wensinck, Navel, p. 4

(٤٣) -Streck, Kàf, p. 658-659.

وعن علاقة جبل قاف بالنظريات الإيرانية فى نشأة العالم (البندهشن)

راجع : Aga Oghlu, p. 246-248

(٤٤) راجع مجموعة المنحولات (Apocrypha) المصرية :

Nau, Les Arabes chrétiens, p. 135.

ويشير فيه إلى ROC, XVII, p. 247

التصورات الإيرانية عن السبع كشورات وأيضًا على المغزى السحرى للرقم سبعة ؛ الأمر الذى لم يخل من تأثير على نظرية البحار كما سنرى(٤٥) .

ولعل النظرية القائلة بوجود بحرين تكاد تكون أعسر مشكلة فى الأدب الجغرافى على الإطلاق ، وقد وردت الإشارة إليها أكثر من مرة فى القرآن وأن هذين البحرين يفصل بينهما برزخ يمنع تمازجهما (٢٧ ٦٢ ، ٥٥ ١٩-٢٠) . وسرعان ما ظهرت الفكرة القائلة بأن المراد من هذا هو البحر المتوسط والمحيط الهندى بخليجه الذى يتمثل فى البحر الأحمر، وأن البرزخ المقصود هو برزخ السويس . ولعله تحت تأثير الرواية الإيرانية تحولت أيضًا هذه الفكرة إلى عقيدة
46 ثابتة فى الجغرافيا والكارتوغرافيا العربية(٤٦)/ فحاول بعض الجغرافيين مثل المقدسى التدليل على صحتها(٤٧) . وقد أهملت فى هذا الصدد ، إن قصدًا أو سهوًا ، إشارة القرآن إلى أن أحد هذين البحرين « عذب » وأن الآخر « ملح » (٢٥ ٥٥ ، ٣٥ ١٣) . وبارتولد فى تحليله لهذه المسألة يلفت النظر إلى أن اللفظ الذى استعمله القرآن للتعبير عن عذب فى كلا الآيتين هو « فرات » ، وأن لفظ « بحر » كان يقصد به العرب دائمًا الأنهار الكبرى ، ثم يخرج من هذا بفرض مؤداه أن المراد بذلك نهر الفرات والخليج الفارسى وليس البحر المتوسط والبحر الأحمر، خاصة وأن تلك معروفة للعرب معرفة مباشرة ؛ أما البرزخ فيجب اعتباره فى هذه الحالة تلك المواضع الضحلة التى تعترض مجرى الفرات قبل أن يصب فى الخليج الفارسى(٤٨) . وهذا الفرض واه بالطبع ، لأن القرآن ينص صراحة على أن البرزخ يمنع البحرين من الامتزاج ، الأمر الذى لم يحدث مطلقًا بين الفرات والخليج الفارسى ؛ وفضلا عن ذلك فإن مثل هذا التفسير يفترض فى محمد معرفة كافية بجنوب العراق وهو فرض لا يتفق مع الرواية التاريخية . وثمة تفسير جديد للمستشرق فنسنك Wensinck ، فهو يلاحظ أن الآيات المتعلقة بهذين البحرين تفترض وجود محيط سماوى(٤٩) ، وهى فكرة متداولة بين الساميين الغربيين Western Semites وعرفها محمد ولو بصورة مبهمة . بيد أن فنسنك لم يفصِّل فى توضيح فرضه هذا حتى قيض له فى الآونة الأخيرة عالم من كبار

---

(٤٥) راجع آراء العبرانيين فى هذا : -Hirschberg, p. 86, Note 1
و Reinaud, Introduction, p. CLXXVIII-CLXXX
قارن أيضًا غريمّه (Grimme, II, 47) الذى يرى فى الأرضين السبعة تقليدًا للسموات السبع ، لأن العبرانيين يعتقدون أن كل ما خلقه الله فى أعلى جعل له مثيلا فى أسفل .

(٤٦) -Kramers, Legacy, p. 83-84 p. 47

(٤٧) -BGA, III^2, p. 16

(٤٨) -ZKV, I, 1925, p. 107-108

(٤٩) -Wensinck, Ocean, p. 20, 37

المتخصصين فى تاريخ الجغرافيا عامة والجغرافيا عند العرب خاصة وهو مجيك Mzik[٥٠] فدلل على صحته بما فيه الكفاية . وقد بنى مجيك تفسيره على آية فى القرآن لم تكن قد اجتذبت حتى تلك اللحظة أنظار الباحثين فى نظرية البحرين . ففى هذه الآية (١٨ ٥٩) يدور الكلام على « مجمع البحرين » حيث ذهب موسى باحثًا عن « الماء الحى » . ولقد وضح منذ عهد طويل أن القصة **المرتبطة** باسم موسى إنما مأخوذة من أسطورة الإسكندر ذى القرنين وأنها نسبت خطأ إلى موسى على ما يظهر . وقد اكتنفت محاولات تحديد هذا الموضع آراء بلغت حد العجب ، فالمقدسى مثلا يحدده بالمكان الذى بدأ منه الإسكندر تجواله وذلك عند مبع نهر دجلة[٥١] . وكما أثبت مجيك فإن هذا الموضع من القرآن من المواضع القليلة فيه التى انعكست فيها الجغرافيا الأسطورية[٥٢] . ووفقًا لما جاء فيه فإن المحيط الأرضى يبدو مالحًا أما المحيط السماوى المرتبط بالعالم الآخر والذى يرسل الغيث إلى الأرض فهو عذب[٥٣] ، وفى هذا ينعكس صدى قول سفر التكوين (الإصحاح الأول ، الفقرة السادسة) بوجود فاصل بين الماء السمائى والماء
47 الأرضى[٥٤] . وهكذا/فإن التصورات عن موقع « مجمع البحرين » بل وعن البحرين نفسيهما اللذين ورد ذكرهما فى الآيات المشار إليها ، يرتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا ومن العبث البحث عن تفسير لها فى واقع الأحوال بالأرض[٥٥] . ومما زاد فى اللبس أكثر أن هذه المسألة لم تكن واضحة لمحمد نفسه وأن ألفاظه فى عدد من المواضع تحمل طابع الغموض .

وفى موضع آخر من القرآن غلب فيه الجانب البلاغى دفع هذا إلى ظهور نظرية عن البحار السبعة لم تلبث أن انعكست فى الأدب الجغرافى . ففى هذا الموضع (٣١ ٢٦) ، وهو الذى يلى الكلام على قدرة الله ، جاء ما نصه : ﴿ ... وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ﴾ . من الواضح جيدًا أن الإشارة إلى البحار السبعة فى هذه الآية ، التى تمثل بدورها ترجمة دقيقة لحكمة عبرية[٥٦] ، إنما ترد بطريقة رمزية ؛ وهكذا فهم

---

(٥٠) -Mzik, WZKM, XLV, p. 85-108 وخاصة p. 97-108

(٥١) -BGA, III², p. 20-136

(٥٢) -Mzik, WZKM, XLV, p. 103

(٥٣) شرحه p. 106-107

(٥٤) شرحه p. 107

(٥٥) شرحه p. 108

(٥٦) -Ahreus, p. 132

الأمر[٥٧] . بيد أن هذا لم يمنع بقية الجغرافيين ، بل أحيانًا العلماء الأوروبيين ، من الكلام عن سبعة بحار مختلفة فى القرآن[٥٨] ؛ ولعلنا نجابه مرة أخرى تأثير المغزى السحرى للرقم سبعة كما هو الشأن مع الأرضين السبع .

فإذا ما انتقلنا من النظريات الجغرافية فى القرآن ، أو القائمة على تعبيرات غير واضحة فيه ، إلى المادة الجغرافية الواقعية فإن القرآن يبدو أفقر بكثير من الشعر العربى خاصة فيما يتعلق بذكر الأماكن . ويمكن القول بأن القرآن يقتصر على إيراد نحو عشرة أسماء لمواضع جغرافية جميعها داخل حدود الجزيرة العربية . فيرد بالطبع ذكر مكة باسمها المعروف (٤٨[٢٤]) وباسمها الموقر « أم القرى » (٦[٩٢] ، ٤٢[٥])[٥٩] وباسمها المحلى « بكة » (٣[٩٠]) . أما المدينة التى يرد ذكرها مرارًا ، فقد وردت أيضًا باسمها الجاهلى يثرب (٣٣[١٣])[٦٠] . ومن الأماكن المرتبطة بسيرة محمد يرد ذكر بدر (٣[١١٩]) وحنين (٩[٢٥])[٦١] فقط ؛ ومن أماكن العبادة الصفا والمروة (٢[١٥٣])[٦٢] وعرفات (٢[١٩٤]) . وطريفًا كان مصير الجودى الذى رسى عنده فلك نوح (١١[٤٤]) ، فمحمد بلا ريب اعتبره فى جزيرة العرب[٦٣] ولكن الجغرافيين نقلوه بالتالى إلى شمال أرض الجزيرة بل حددوه بجبل أرارات . ومن الأماكن التى لعبت دورًا فى تاريخ الأديان يرد ذكر سيناء (٢٠[٢٠] ، ٩٥[٢])[٦٤] ، ووادى طوى القريب/منها (٢٠[١٢] ، ٧٩[١٦])[٦٥] . ومن 48 مساكن الأمم البائدة يرد ذكر مواضع حقيقية وأخرى أسطورية مثل مدين (عشر مرات)[٦٦] والأيك (١٥[٧٨] ، ٢٦[١٧٦] ، ٣٨[١٣] ، ٥٠[١٣])[٦٧] والرسّ (٢٥[٤٠] ، ٥٠[١٢])[٦٨] والحجر (١٥[٨٠])[٦٩] وإرم (٨٩[٦])[٧٠] . وخارج حدود الجزيرة العربية ورد ذكر « الأرض المقدسة »

---

(٥٧) -BGA, III^2, p. 16-Wensinck, Ocean, p. 24

(٥٨) -Kramers, EI, EB, p. 63

(٥٩) -Horovitz, p. 141

(٦٠) شرحه p. 137-138

(٦١) شرحه p. 108

(٦٢) شرحه p. 123

(٦٣) -Streck, Djudi, p. 1106-Horovitz, p. 107-108

(٦٤) -Horovitz, p. 123-125

(٦٥) شرحه p. 125

(٦٦) شرحه p. 138

(٦٧) شرحه p. 93-94

(٦٨) شرحه p. 94-95

(٦٩) شرحه p. 94

(٧٠) شرحه p. 89-90

فلسطين مرة واحدة (٥[٢٤]) ومصر[٧١] أربع مرات وذلك بصدد تاريخ يوسف وموسى (١٠[٨٧] ، ١٢[٢١،١٠٠] ، ٤٣[٥٠]) ، ومرة واحدة ذكرت بابل (٢[٩٦])[٧٢] . ولا يمكن ألا يسترعى الانتباه شح هذه المادة .

ولا يلبث الأفق أن يتسع بعض الشىء بذكر الشعوب المختلفة التى يرتبط باسمها أحيانًا أسماء أتباع الديانات . وإذا كان القرآن قد استعمل فى عهده المكى كلمة « عربى » لتحديد اللغة التى أنزل بها فإن لفظ « العرب » لم يظهر فيه إلا فى العهد المدنى (عشر مرات)[٧٣] . وليس للعرب الحضر تسمية خاصة بهم ، أما القبائل فلم يرد لها ذكر فى القرآن باستثناء قريش التى ورد ذكرها مرة واحدة فقط (١٠٦[١])[٧٤] . وإلى جانب اليهود والنصارى الذين ورد ذكرهم مرارًا يرد بضع مرات ذكر الصابئة (٢[٥٩] ، ٥[٧٣] ، ٢٢[١٧])[٧٥] ويرد مرة واحدة ذكر كل من المجوس – الفرس (٢٢[١٧])[٧٦] والروم – البيزنطيين (٣٠[١])[٧٧] . ومن القبائل البائدة فى الجزيرة العربية ذكرت مرارًا عاد[٧٨] وثمود[٧٩] ، وأقل من ذلك جاء ذكر سبأ (٢٧[٢٢] ، ٣٤[١٤])[٨٠] الذين لم يوضح القرآن بجلاء علاقتهم بقوم تُبَّع (٤٤[٣٦] ، ٥٠[١٣])[٨١] . وعند ذكر ذى القرنين فى القرآن يرد الكلام على يأجوج ومأجوج (٢١[٩٦] ، ١٨[٩٣]) الذين حبسهم الإسكندر وراء سد فى نهاية الحد الشمالى الشرقى للأرض ليحمى العالم منهم ، والذين سيظهرون فى آخر الزمان . وأخبار يأجوج ومأجوج ترجع إلى التوراة ولعلها وصلت إلى محمد عن طريق الأساطير السريانية المتعلقة بالإسكندر[٨٢] . وتحديد موطن هؤلاء الأقوام وموقع السد الذى يفصلهم عن بقية العالم/ 49
قد شغل الجغرافيين العرب كثيرًا وساق لا إلى ظهور أوهام وتخيلات غريبة فيما يتعلق بموضع

---

(٧١) شرحه p. 141 وأيضا القرآن (٢[٥٨]) : مصرًا

(٧٢) -Horovitz, p. 101

(٧٣) شرحه p. 127

(٧٤) شرحه p. 131

(٧٥) شرحه p. 121-122

(٧٦) شرحه p. 137

(٧٧) شرحه p. 113

(٧٨) شرحه p. 125-127

(٧٩) شرحه p. 103-106

(٨٠) شرحه p. 115

(٨١) شرحه p. 102-103

(٨٢) -Reinaud, Introduction, p. CCCXI-CCCXIV- Horovitz, p. 150-151-Wensinck, EI, IV, p. 1236

إقامتهم فحسب بل وإلى رحلات واقعية للبحث عن السد نفسه . وكما هو معروف فإن يأجوج ومأجوج قد احتلا مكانة ملحوظة فى التصورات الجغرافية لأوروبا الوسيطة أيضًا ونشأ من جراء ذلك أدب غنى خاص بهما[٨٣] .

وأخيرًا إذا ما حاولنا المقارنة بين المادة الجغرافية فى كل من الشعر الجاهلى والقرآن لخرجنا دون عناء بنتيجة مؤداها أن الشعر يزخر بالواقعية والصحة ، أما القرآن فالمادة الجغرافية فيه قليلة ولكنه فى مقابل ذلك مفعم بالنظريات المأخوذ أغلبها من مصادر خارجية ، وهى نظريات لم يستطع العلم الجغرافى العربى أن يتحمل دائمًا عبء تفسيرها .

وفى الأعوام العشرة الأولى للخلافة صادف اتساع المعلومات الجغرافية انعكاسًا ضعيفًا فى الأدب ، ومن المسلم به أن سيل الفتوحات العربية الجارف الذى حمل العرب بعيدًا عن حدود جزيرتهم إلى مختلف الأقطار كان من شأنه أن يحدث تغييرًا شاملا فى تصورهم للعالم ويؤدى بلا ريب إلى اتساع أفقهم الجغرافى نتيجة للتجربة المباشرة . غير أنه يلاحظ بشكل واضح أن النظرية قد اختلفت منذ البداية عن التجربة الواقعية ، كما أن هذه التجربة الواقعية نادرًا ما وجدت طريقها إلى الوسط العلمى آنذاك . ولقد نشأ العلم وترعرع خاصة بالمدينة وكان حملته صحابة محمد والتابعين ، أما هدفه الأساسى فهو دراسة القرآن وتدوين جميع ما يمت بصلة إلى محمد وخلفائه الأولين . ومن الجلى أن مثل هذا العلم لن يفسح المجال لأى نوع من المعلومات الجغرافية التى تجمعت فى الأوساط العسكرية والإدارية ؛ ومن ثم فقد سار اتساع الأفق الجغرافى فى اتجاه مضاد تمامًا إذ اقتصر على محاولات لتفسير وتأويل الإشارات الجغرافية الغامضة والنظريات التى أتى بها القرآن .

وتتوفر لدينا للحكم على هذا مادة هائلة من الأحاديث النبوية ، التى جمعت فيما بعد فى عدد من المجموعات . والمتعمق فى دراسة الحديث ، الذى ألقى عليه ضوءًا لأول مرة المستشرقان سنوك هرخرونيه **Snouck Hurgronje** وغولدزهر **Goldziher** ، لا يمكنه بالطبع اعتبار جميع الأحاديث صادرة عن محمد ؛ وعلى أية حال فهى تعكس جيدًا وجهات النظر السائدة فى القرن الأول من الهجرة . من تلك الأحاديث نعلم مثلا كيف دخل محمد فى نضال ضد تصورات الجاهلية القائلة بأن الأنواء والنجوم هى المسئولة عن تساقط المطر[٨٤] ؛ غير أن الأسماء الجغرافية فى الحديث نادرة الوجود كما هو الحال مع القرآن ؛ ومن وقت لآخر

---

(٨٣) **-J.k. Wright, Geogr. Lore, p. 72-74, 287-288**

(٨٤) نالينو ، الفلك ، ص ١٢٤ **(= Racc., p. 184-185)**

Wensinck, Handbook, p. 201

يتسلل ذكر الصين رمزًا لأبعد/قطر فى العالم وذلك فى الحديث المشهور الذى يهيب بطلب 50
العلم حتى فى تلك البلاد النائية ؛ أو ذكر الهند وذلك فى حديث يتنبأ بحملة عسكرية على تلك البلاد(٨٥).

أما النمط الذى ازدهر فعلا وانتعش فهو ما يسمى بالجغرافيا الأسطورية . وإذا لم يكن قد ورد فى القرآن مثلا أى ذكر لجبل قاف الذى يحيط بالأرض ، على الرغم من أن بعض رجال التفسير قد حاول أن يبصر إشارة إليه فى الحرف الغامض ق فى أول السورة الخمسين من القرآن ، إلا أن الحديث مفعم بوصف الجبل بل بوصف المواضع دونه التى لا يمكن عبورها والتى تحيط بالأرض على طريق طوله أربعة أشهر(٨٦) ، وأيضًا للبلاد الواقعة خلفه(٨٧) . ولا يخلو من مغزى بالنسبة لعلم الجغرافيا أن هذه الأحاديث لم تمنع بالتالى محاولات تحديد مكان هذا الجبل فى القوقاز . أما سد يأجوج(٨٨) فقد أمكن لمحمد بفضل ما تمتع به من نفاذ البصيرة (clairvoyance) التى تعبر المسافات الشاسعة أن يبصر ما طرأ عليه من تصدع(٨٩) . وقد كان الحديث الذى حفظ هذه الرواية موضع جدل شديد بين عدد من المستشرقين الأوروبيين وذلك فيما يتعلق بوصف طريقة العد على الأصابع (dactylonomy) الواردة فيه(٩٠) . وإذا كان القرآن قد اكتفى بذكر الأرضين السبع(٩١) دونما أى تفصيل فإن الحديث ينسب إلى محمد تعدادًا مفصلا لها يعكس صدى التصورات اليهودية والإيرانية . وإليك ما يرويه ابن الفقيه فى القرن التاسع فى هذا الصدد .

« وسئل النبى صلعم عن الأرض سبع هى قال نعم والسموات سبع وقرأ ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ﴾ فقال رجل فنحن على وجه الأرض الأولى قال نعم وفى الثانية خلق يطيعون ولا يعصون وفى الثالثة خلق وفى الرابعة صخرة ملساء والخامسة ضحضاح من الماء والسادسة سجّيل وعليها عرش إبليس والسابعة ثور والأرضون على قرن ثور والثور على سمكة والسمكة على الماء والماء على الهواء والهواء على الثرى والثرى منقطع فيه علمُ العلماء »(٩٢) .

---

(٨٥) Wensinck, Handbook, p.99

(٨٦) (مع ذكر المراجع) -Streck, (kâf) p.658,

(٨٧) شرحه p. 659

(٨٨) راجع : -Wensinck, Handbook, p. 263

(٨٩) -Wensinck, EI, IV, p. 1235

(٩٠) -Fischer, Beiträge, p, 15

(٩١) -Wensinck, Handbook, p. 66

(٩٢) ابن الفقيه = BGA, V, p. 3

ويلوح أن دور المؤثرات اليهودية فى ظهور الأحاديث من هذا الصنف كان كبيرًا للغاية . وإذا ما تقصينا الشخصيات المرتبط بها انتشار هذه الأحاديث لوجدنا فى المكانة الأولى ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه ، أى على العموم رواة الأحاديث الأوَل المسئولين إلى حد كبير عن
51 تسرب العناصر اليهودية إلى الحديث(٩٣)/ . وفى هذه الأحاديث تقابلنا الإجابة على مختلف المسائل المتعلقة بنشأة الكون وشكله ، كالكلام على حجم الأرض وعن البحر المحيط(٩٤) ومنبع الأنهار من الفردوس(٩٥) وأعماق البحار والبحيرات وسلاسل الجبال(٩٦) . وطابع هذه الإجابات يمكن أخذ فكرة عنه من تحديد ابن عباس لطول الأرض وعرضها فى أربعة آلاف فرسخ وسطحها فى ست عشرة مليون فرسخًا مربعًا(٩٧) ؛ ويروى عن على أنه قال إن امتداد الأرض خمسمائة سنة المعمور منها مائة سنة فقط(٩٨) . ويمكن أن نضيف إلى هذا التعليقات الجغرافية على الأساطير الأُخْرَوِيَّة (eschatological legends) الموجودة بالحديث والتى ترجع فى معظمها إلى أولئك الرواة أنفسهم الذين مر ذكرهم للتو . ففيها نلتقى بوصف دقيق للدجال (Antichrist) الذى يظهر فى آخر الزمان(٩٩) وللبلاد المرتبطة باسمه ، كما يرد أيضًا وصف الصراط(١٠٠) الذى يؤدى إلى العالم الثانى ، ووصف الجنة(١٠١) والنار(١٠٢) . وهنا تطغى الأسطورة على الجغرافيا تمامًا ، ولكن لم يكن بوسع العلماء العرب أن يتجاهلوها لذا فإن معظم المصنفات قد وقع تحت تأثيرها .

= راجع : Wensinck, Navel, p. 51

(٩٣) راجع : -Hirschberg, p. 22-23—Wensinck, Navel, p XII

(٩٤) -Carra de Vaux, EI, I, p. 606-607

(٩٥) -Nau, Les Arabes chrétiens, p. 135
مع الإشارة إلى ترجمة القرآن لسافارى Savary ص ٢١
Barbier de Meynard, Al Macoudi, I, p. 203—Sprenger, Mohammed, II p, 946
راجع أيضًا : Kimble , p.185

(٩٦) Kramers, EI, EB p. 63

(٩٧) ابن الفقيه : BGA, V, p. 4

(٩٨) شرحه : p. 4-
مفصل أكثر ولكن يختلف عنه : ابن خرداذبه BGA, VI, p. 93

(٩٩) Wensinck, Handbook, p. 50-51

(١٠٠) شرحه P. 40.

(١٠١) شرحه p. 180-183

(١٠٢) شرحه p. 96-97

وقد حدث بالطبع خلط بين التصورات الجغرافية المبنية على الواقع من جهة والحكايات والأساطير من جهة أخرى . ففى أقل من خمسين عامًا بعد وفاة محمد أخذ فى الانتشار وصف تخطيطى فريد للمعمورة ينسب إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فاتح مصر الشهير (توفى حوالى عام ٦٣ هـ - ٧٣ هـ = ٦٨٢ - ٦٩٢) جاء فيه[١٠٣] :

« صورة الدنيا على خمسة أجزاء كرأس الطير والجناحين والصدر والذنب فرأس الدنيا الصين وخلف الصين أمة يقال لها واق واق ووراء واق واق من الأمم ما لا يحصى إلا الله والجناح الأيمن الهند وخلف الهند البحر وليس خلفه خلق والجناح الأيسر الخزر وخلف الخزر أمتان يقال لإحداهما
منَشْكَ وماشكَ[١٠٤] وخلف ماشك ومنشك يأجوج ومأجوج من الأمم ما لا يعلمها/إلا الله 52
وصدر الدنيا مكة والحجاز والشام والعراق ومصر والذنب من ذات الحُمام[١٠٥] إلى المغرب وشرُّ ما فى الطير الذنب » .

هذه الرواية راجت بشكل خاص فى مصر طبعًا ورواها من المتقدمين ابن عبد الحكم ومن المتأخرين ابن وصيف شاه والمقريزى وأبو المحاسن . ورغمًا من إغراقها فى الخيال فيمكن استخراج تفاصيل ذات فائدة منها ، وقد استطاع فيران **Ferrand** استغلالها فى تحديد موقع بلاد واق واق التى ظنها البعض خطأً اليابان[١٠٦] . ولا ينفرد العرب فى تصويرهم الأرض على شكل طائر إذ أن الفكرة قد وجدت لدى بعض الساميين الغربيين فقد تصوروا الأرض على هيئة طائر كونى (cosmic) هائل[١٠٧] . وقد انتقلت هذه الصورة بدورها من العرب إلى بعض رسائل المسلمين الصينيين[١٠٨] .

هذا وتمتزج الأفكار الواقعية بالأفكار الموجودة بالتوراة فى وحدة غريبة حتى فيما يتعلق ببلاد العرب نفسها . مثال هذا قصة انتشار القبائل العربية التى تنسب إلى واحد من أخصب واضعى الأحاديث وهو ابن عباس (المتوفى حوالى عام ٦٨٧) والتى حفظت لنا فى وصف جزيرة العرب

---

(١٠٣) يرويها فى صيغة أخرى ابن عبد الحكم ، راجع Torrey, p. 1
وقارن : Brockelmann, GAL, I, p. 148: No I; SBI, p. 227,
مع اشارة : Carra de Vaux, Abrégé, p. 29
ابن الفقيه : BGA, V, p. 3-4

(١٠٤) ترد مع مشك Meshek (عبرية)

(١٠٥) قرب الاسكندرية ، راجع اليعقوبى : BGA, VII, p. 342

(١٠٦) -Ferrand, Le Wakwak.

(١٠٧) -Wensinck, Tree, p. 37.

(١٠٨) -Ferrand, Le Wakwak, p. 214-215.

للهَمْدانى وفى معجم البكرى . وهى تعطى فكرة جيدة عن طابع هذه الأحاديث « الجغرافية » المبكرة التى تغلب الواقعية على موضوعها . ونصها :

« باب ما جاء عن ابن عباس رحمه الله تعالى فى ذكر جزيرة العرب . أما حديث عبد الله بن عباس فى جزيرة العرب فإنه ما نُقل عن محمد بن السائب الكلبى عن أبى صالح عن ابن عبّاس من وجه وعن معاوية بن عَمِيرة بن مِخْوَس الكندى أنه سمع عبد الله بن عباس بن عبد المطلب وسأله رجل عن ولد نزار بن معد قال هم أربعة مضر وربيعة وإياد وأنمار فكثر أولاد معد بن عدنان بن أُدَد ونَمَوْا وتلاحقوا ومنازلهم بمكة وما والاها من تهامة وانتشروا فى ما يليهم من البلاد وتنافسوا فى المنازل والمحالّ وأرض العرب يومئذ خاوية وليس فيها بتهامتها ونجدها وحجازها وعروضها كثير أحدٍ لإخراب بختنصر إياها وإجلاء أهلها إلا من كان اعتصم منهم برؤوس الجبال وشعابها ولحق بالمواضع التى لا يقدر عليه فيها أحد متنكبًا مسالك جنوده ومستنّ خيوله فارًّا إليها منهم فاقتسموا الغَوْر غور تهامة بينهم على سبعة أقسام لكل قسم ما يليه من ظواهر الحجاز ونجد وتهائم اليمن لمنازلهم
53 ومحالهم ومسارح أنعامهم ومواشيهم وبلاد العرب كلها يومئذ على خمسة أقسام/فى جزيرة مُطيفة أى مديرة وطَوْف الجبل دَوْرُه ومنه الطواف حول الكعبة وطوائف من الناس فرق من أطراف الناس ويروى مُطيقة من الطَّوْق وهو ما دار بالعنق من هِجار فضه وغيره وهى جزيرة العرب التى صارت فى قسم من أنطق الله تعالى باللسان العربى حين تبلبلت الألسُن ببابل وفى زمان نمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح يوم قسَمَ فالخ بن عابر بن شالخ بن ارفَخشذ بن سام بن نوح الأرضَ بين أولاد نوح عم سام وحام ويافث »(١٠٩) .

أما الرحلات القليلة التى حفظت لنا أوصافها عن ذلك العهد فمشحونة بتفاصيل خرافية جعلت حوادث الرحلة الواقعية نفسها هدفًا للريبة حتى نسبت إلى القصص الشعبى . ومما تجدر الإشارة إليه أن اللون الغالب عليها بالذات ينتمى إلى العناصر الأُخروية السائدة فى الجغرافيا الأسطورية . وسأقتصر فى هذا الصدد على إيراد مثالين يرتبط أولها باسم شخصية غير مجهولة فى تاريخ الإسلام الأول وهو تميم الدارى الذى أقطعه محمد أرضًا قرب حبرون الخليل من أعمال فلسطين ؛ والوثيقة المنحولة المتعلقة بهذه القصة قد اهتم بها عدد من المؤرخين العرب . وتميم الدارى المتوفى حوالى عام ٤٠ هـ = ٦٦١ أصله من نصارى فلسطين العرب ، وقد استقر بالمدينة فى حياة محمد واعتنق الإسلام . وكنصرانى سابق فمن المحتمل أنه قد ساعد على إدخال العناصر المسيحية فى الأحاديث المبكرة ، خاصة وأنه كان شخصياً من أوائل « القاصِّين » أى رواة الحكايات

---

(١٠٩) De Goeje, Selections, p. 23-24; Brockelmann, GAL, SBI, p. 403

الدينية(١١٠) . ففى إحدى قصصه يتحدث عن رحلة له ببحر الشام (البحر المتوسط) حيث قذفت به عاصفة هو وصحبه إلى جزيرة مهجورة رأوا فيها رأى العين الدجال (Antichrist) مقيدًا ورأوا أيضًا الجساوسة (The Apocalyptic Monster) الذين سيظهرون فى آخر الزمان(١١١) . هذه القصة الملفقة ترجع إلى عهد مبكر ، وعلى أية حال فإننا نلتقى بها بجميع تفاصيلها فى أقدم مجموعات الحديث . ومن الطريف أنه يمكن بدقة كبيرة تتبع التطور التاريخى لهذه الأسطورة التى نالت انتشارًا واسعًا فى العالم الإسلامى . وفيما بعد نسبت إلى العصر التالى لوفاة النبى واكتسبت شكلا مغايرًا لا يرد فيه أى ذكر لرحلة بحرية(١١٢) ، بل يقال إن الجن اختطف تميما من منزله بالمدينة وطار به فوق بلاد عديدة غير معروفة تسكنها مخلوقات غريبة ، بحيث يبدو التقاؤه بالدجال والجساوسة حادثًا بين سلسلة من الحوادث ؛ وفى نهاية مطافه
يصحبه أحد الملائكة على متن السحاب إلى منزله . وكانت زوجه/قد ظنته فى عداد الهالكين 54
فتزوجت من غيره ، كما أن جيرانه لم يصدقوا قصته ؛ وأنقذ الموقف الخليفة عمر الذى أكد بأن ما وقع لتميم كان قد تنبأ به محمد من قبل . والقصة فى صورتها هذه تجمع بين موضوعين أسطوريين عالميين (universal) هما الرحلة إلى البلاد المسحورة ، وأوبة الشخص الذى اعتبر فى عداد الأموات إلى عالم الأحياء . وقد نالت هذه القصة انتشارًا واسعًا ولا تزال حية إلى الآن على هيئة كتيبات شعبية كثيرًا ما أعيد طبعها ، بل عرفت أيضًا فى ترجمات قديمة العهد بالتركية والملايوية والإسبانية . وتأثير المصنفات من هذا النوع قد انعكس فى أساطير العصور الوسطى الأوروبية من طراز رحلة القديس براندان St. Brandan . ومن الطريف أن جغرافى القرن الرابع عشر المقدسى (توفى عام ٧٦٥ هـ = ١٣٦٤)(١١٣) - ويجب عدم الخلط بينه وبين سميه الرحالة المعروف للقرن العاشر - قد أفرد كتابًا قائما بذاته لرحلة تميم الدارى يتضح من عنوانه « إفحام الممارى بأخبار تميم الدارى » أنه رد على من تشككوا فى حقيقة الرحلة(١١٤) .

أما الرحلة الثانية فكانت غايتها القسطنطينية وترتبط بشخصية تاريخية معروفة لنا جيدًا ؛ كما يمكن تحديد زمن وقوعها بالكثير من الثقة بعام ٦٣٢ . وعلى الرغم من ذلك فهى ليست بأقل

---

(١١٠) -Goldziher, Muh Studien, II, p. 161.
Levi Della Vida, EI, IV, p. 700-202.

(١١١) -Sprenger, Mohammed, I, p. 460—Barbier de Meynard, AlMaçoudi, IV, p. 28-29.

(١١٢) -Chauvin, VII p. 50-55—Basset, Temìm, p. 3-26

(١١٣) -Brockelmann, GAL, II, p. 130, No 4, SB, II, p. 162.

(١١٤) حاجى خليفة ، I ، ص ٣٧١ رقم ١٠٠٨ : إفحام الممارى بأخبار تميم الدارى
Basset, Temîm, p. 6.

تلفيقًا من سابقتها . وتقترن هذه الرحلة باسم عبادة بن الصامت[١١٥] أحد الأنصار من الخزرج ممن آمنوا بمحمد قبل هجرته من مكة ، وكان من أقرب المقربين إليه ومن رجالات بدر ؛ وقد لعب فيما بعد دورًا فى فتح مصر وولى على حمص بالشام . وفى عام ٢٣ هـ غزا الروم مع معاوية وبلغ عمورية Amorium[١١٦] . وقد توفى بالرملة عام ٣٤ هـ = ٦٥٤ عن اثنين وسبعين عامًا[١١٧] .

أما رحلته فقد عرف عنها واقعتان فقط ، حفظ الأولى منهما ياقوت واعتمد عليه القزوينى فى روايته[١١٨] ، وهى تتعلق بزيارته للرقيم الذى يرقد فيه أهل الكهف على مقربة من القسطنطينية وقد شغل هذا الموضوع فيما بعد الأدب الجغرافى وتردد صداه فيه أكثر من مرة . والقصة معروفة جيدًا ولها ترجمة فى اللغتين الروسية والأوكرانية[١١٩] . ويبدأ عبادة بن الصامت حكايته كالآتى :

« بعثنى أبو بكر رضى الله عنه سنة استخلف إلى ملك الروم أدعوه إلى الإسلام أو آذنه بحرب ؛ قال فسرت حتى دخلت إلى بلد الروم فلما دنوت إلى قسطنطينية لاح لنا جبل أحمر قيل إن فيه أصحاب الكهف والرقيم ، ودفعنا فيه إلى دير وسألنا أهل الدير عنهم فأوقفونا على سرداب فى الجبل ، فقلنا لهم إنا نريد أن ننظر إليهم ، فقالوا أعطونا شيئًا فوهبنا لهم دينارًا فدخلوا ودخلنا معهم فى ذلك السرداب وكان عليه باب حديد ففتحوه فانتهينا إلى بيت عظيم محفور فى الجبل فيه ثلاثة عشر رجلاً مضطجعين على ظهورهم كأنهم رقود وعلى كل واحد منهم جُبة غبراء وكساء أغبر قد غطوا بها رؤوسهم إلى أرجلهم ، فلم ندْرِ ما ثيابهم أمن صوف أو وبر أم غير ذلك إلا أنها كانت أصلب من الديباج وإذا هى تقعقع من الصفاقة والجودة ، ورأينا على أكثرهم خفافًا إلى أنصاف سوقهم وبعضهم منتعلين بنعال مخصوفة ولخفافهم ونعالهم من جودة الخرز ولين الجلود ما لم ير مثله ، فكشف عن وجوههم رجلاً بعد رجل فإذا بهم من ظهور الدم وصفاء الألوان كأفضل ما يكون للأحياء وإذا الشيب قد وخط بعضهم وبعضهم شبان سود الشعور وبعضهم موفورة شعورهم وبعضهم مطمومة وهم على زى المسلمين ، فانتهينا إلى آخرهم فإذا هو مضروب الوجه بالسيف ، وكأنه فى ذلك اليوم ضرب ، فسألنا أولئك الذين أدخلونا إليهم عن حالهم فأخبرونا أنهم

---

(١١٥) ابن سعد ، الثالث/الثانى ، ص ٩٣ – ٩٤
-Caetani, Chronographia, p. 364, 24—Caetani, Annali, VI, p. 185.

(١١٦) الطبرى ، الأول ، ص ٢٧٩٨ ، والفهرس ص ٣٠٩

(١١٧) ابن سعد ، الثالث/الثانى ، ص ٩٤

(١١٨) ياقوت ، المعجم ، الثانى ، ص ٨٠٦ – ٨٠٧ – القزوينى ، الأول ، ص ١٦١

(١١٩) -Krymski, Sem spiaschikh otrokov, p. 58-59.

يدخلون إليهم فى كل يوم عيد لهم يجتمع أهل تلك البلاد من سائر المدن والقرى إلى باب هذا الكهف فنقيمهم أيامًا من غير أن يمسهم أحد فننفض جبابهم وأكسيتهم من التراب ونقلم أظفارهم ونقص شواربهم ثم نضجعهم بعد ذلك على هيئتهم التى ترونها ، فسألناهم من هم وما أمرهم ومنذ كم هم بذلك المكان فذكروا أنهم يجدون فى كتبهم أنهم بمكانهم ذلك من قبل مبعث المسيح عليه السلام بأربعمائة سنة وأنهم كانوا أنبياء بُعثوا بعصر واحد وأنهم لا يعرفون من أمرهم شيئًا غير هذا » .

55 أما الواقعة الثانية من قصة عبادة والتى حفظها لنا المؤرخ الشهير الدينورى فقد بقيت مهملة إلى الآن . ولعل مرد ذلك إلى أنها نسبت سهوًا إلى عبد الله بن الصامت وليس إلى عبادة ؛ ومسئولية هذا السهو تقع فى أغلب الاحتمال على النساخ لا على المؤرخ . ولإعطاء فكرة عن الأسطورة نورد القصة بحذافيرها :

« وذكر عن عبد الله بن الصامت قال وجهنى أبو بكر رضه سنة استخلف إلى ملك الروم لأدعوه إلى الإسلام أو آذنه بحرب قال فسرت حتى أتيت القسطنطينية فأذن لنا عظيم الروم فدخلنا عليه فجلسنا ولم نسلم ثم سألنا عن أشياء من أمر الإسلام ثم صرفنا يومنا ذلك ثم دعا بنا يومًا آخر ودعا خادمًا له فكلمه بشىء فانطلق فأتاه بعتيدة فيها بيوت كثيرة وعلى كل بيت باب صغير ففتح بابًا منها فاستخرج خرقة سوداء فيها صورة بيضاء كهيئة رجل أجمل ما يكون من الناس وجهًا مثل دارة القمر ليلة البدر فقال أتعرفون هذا قلنا لا فقال هذا أبونا آدم عم ثم رده مكانه ، وفتح بابًا آخر فاستخرج خرقة سوداء فيها صورة بيضاء كهيئة شيخ جميل الوجه فى وجهه تقطيب كهيئة المحزون المهموم فقال أتدرون من هذا قلنا لا قال هذا نوح ، ثم فتح بابًا آخر فاستخرج خرقة سوداء فيها صورة بيضاء على صورة نبيّنا محمد صلعم وعلى جميع الأنبياء فلما نظرنا إليه بكينا فقال مالكم فقلنا هذه صورة نبينا محمد صلعم فقال أبدينكم أنها صورة نبيكم قلنا نعم هى صورة نبينا كأنّا نراه حيًا فطواها وردها وقال أما إنها آخر البيوت إلّا أنى أحببت أن أعلم ما عندكم ، ثم فتح بابًا آخر فاستخرج منه خرقة سوداء فيها صورة بيضاء أجمل ما يكون من الرجال وأشبههم بنبينا محمد صلعم ثم قال وهذا إبراهيم ، ثم فتح بيتًا آخر فاستخرج صورة رجل آدم كهيئة المحزون المفكر ثم قال هذا موسى بن عمران ، ثم فتح بيتًا آخر فاستخرج صورة لرجل له ضفيرتان كأنّ وجهه دارة القمر ثم قال وهذا داود ، ثم فتح بيتًا آخر فاستخرج صورة رجل جميل على فرس له جناحان ثم قال وهذا
56 سليمن/وهذه الريح تحمله ، ثم فتح بيتًا آخر فاستخرج صورة شاب جميل الوجه وفى يده عكازة وعليه مِدْرَعة صوف ثم قال وهذا عيسى روح الله وكلمته ، ثم قال إن هذه الصورة وقعت إلى

الإسكندر فتوارثها الملوك من بعده حتى أفضت إلىّ »[١٢٠]

من الواضح تمامًا أن الأمر يتعلق بحكاية ملفقة ، والدليل على ذلك ليس فى تفاصيل الحكاية وحدها والظروف التاريخية المحيطة بها ، بل أيضًا فى الموضوع نفسه وفى تاريخه الأدبى .

وهذه الحكاية نفسها توجد فى شكل أوسع وبتفاصيل جديدة لدى جغرافى بداية القرن العاشر (حوالى عام ٩٠٠) ابن الفقيه[١٢١] ؛ وثمت رواية أخرى لهذه القصة انتقلت إلى الصين وحفظها لنا أبو زيد السيرافى أو وصلت عن طريقه إلى المسعودى ، وهى على لسان ابن وهب من أهل النصف الثانى للقرن التاسع . ويتبادر إلى الذهن سؤال محيّر هو متى نشأت هذه القصة عن رحلة عبادة بن الصامت ؛ فالمستشرق الروسى كريمسكى Krymski يرى أنها لا تتجاوز بأية حال القرن العاشر[١٢٢] ، ولكنه فى الترجمة الأوكرانية لبحثه يوكد دون تردد أنها ترجع إلى ما بعد القرن العاشر[١٢٣] ؛ غير أن وجود الرواية الثانية لدى ابن وهب والدينورى ولدى ابن الفقيه أيضًا ، وجميعهم من مؤلفى النصف الثانى من القرن التاسع ، يضطرنا إلى الرجوع القهقرى بتاريخها واعتبارها مؤلفًا لا يتجاوز بحال منتصف القرن التاسع ؛ أما الرحلة إلى القسطنطينية فى عهد أبى بكر فإنها بالطبع لم تحدث على الإطلاق . ومن نافلة القول أن نضيف أنه تقترن باسم عبادة أقاصيص خيالية أخرى ؛ من ذلك أن ابن إسحاق[١٢٤] يورد قصة تنسب إليه مؤداها أن محمدًا بعث سرية إلى ساحل البحر فلما نفدت ذخيرتهم قذف لهم البحر بدابة هائلة تغذت عليها السرية عشرين يوما ، وكان يمر تحت أحد أضلعها بعير براكبه .

وإلى جانب هذه الموضوعات الأسطورية والحكايات التى حفل بها أدب الحديث المبكر تجمعت فيه بالتدريج إلى جانب ذلك مادة جغرافية حقيقية ، خاصة فيما يتعلق بالفتوحات الإسلامية . وبعض من هذه الأحاديث الأخيرة تردد صداه فى الأدب الجغرافى بالتالى رغما من أنه قليلا ما احتوى على معلومات ذات أهمية ، ذلكم هو ما يسمى « بالفضائل » أى ذكر محاسن البلاد والشعوب . وفى العهود الأولى اقتصر الاهتمام فى الغالب على الأماكن المقدسة أو المقترنة

---

(١٢٠) الدينورى ، ص ٢١ — ٢٢ .

(١٢١) ابن الفقيه .BGA, p. 140-143

(١٢٢) -Krymski, Sem spiaschikh otrokov, p. 3

(١٢٣) -Krymski, Rozvidki, p. 117.

(١٢٤) -Wüstenfeld, Ibn Ishak, p. 992.

وقراءات أخرى لدى الطبرى ، الجزء الأول ، ص ١٦٠٥ — ١٦٠٦

راجع الدميرى ، الجزء الثانى ، ص ١ -De Goeje, Brandan, p. 63

بحياة محمد كالمدينة وبيت المقدس والشام/ومصر واليمن ، ووفقًا لذلك صيغت مادة الأحاديث . 57
فالشام مثلا تحميها الملائكة وسيسقط عن سكانها حساب اليوم الآخر بفضل أربعين صالحًا (أبدال) ؛ وهى ملجأ من جميع أنواع الفتن وبها يهلك الدجال[١٢٥] . وشيأً فشيئًا بدأت مادة هذه الفضائل تتخذ طابعًا دنيويًا فظهرت أماكن أخرى مثل البصرة وتلتها بقية المدن والبلاد المعروفة . وقد اتخذت الفضائل صيغة أقوال مأثورة تميزت بالإيجاز وبمناسبتها للمقام وغلب عليها طابع السجع . وفى هذه الصورة الأخيرة بدأ ينشرها ليس أهل الورع فحسب بل وأيضًا « الحكماء » أو « أهل البلاغة » مما جنح بها أحيانًا للأسف الشديد نحو العناية باللفظ البليغ واللفتة البارعة على حساب الصحة والواقع .

وبالتدريج بدأت تأخذ مكانها إلى جانب الفضائل « المثالب » أيضًا . ومن المستحيل إغفال أوجه الشبه بين تطور هذا النمط الجديد من الأدب والطريق الذى سلكته المصنفات الأولى فى الأنساب بما اتسمت به من إيراد الفضائل والمثالب المتعلقة بالقبائل المختلفة . ويقرّب بين النمطين أيضًا الصيغة الموجزة المسجوعة كما يتضح من القطعة التى تبقت عن النسابة ابن لسان الحُمَّرة والتى ترجع إلى العصر الذى نحن بصدده[١٢٦] .

هذا وقد ظهرت هذه الفضائل الدنيوية مبكرًا ؛ فقد حفظ لنا المسعودى أنموذجًا منها يقترن باسم الخليفة عمر . وهو يبدأ بالطريقة الآتية :

« ذكر ذوو الرواية أن عمر بن الخطاب حين فتح الله البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر وغير ذلك من الأرض كتب إلى بعض حكماء ذلك العصر إنا أناس عرب وقد فتح الله علينا البلاد ونريد أن نتبوأ الأرض ونسكن الأمصار فصف لى[١٢٧] المدن وأهويتها ومساكنها وما يؤثره الترب والأهوية فى سكانها »[١٢٨] .

وقد رد عليه « الحكيم » بوصف الشام ومصر والحجاز والعراق والجبال وخراسان وفارس والجزيرة ، وتوقف عن وصف الهند والصين وأرض الروم « فلا حاجة فى وصفها لك لأنها شاسعة نائية وبلدان كفرة طاغية » . ومن المؤسف أن تجد طريقها إلى هذه الوثيقة الطريفة زيادات متأخرة ، بل إنها لم تسلم أحيانًا من داء الترادف والازدواج كما يتضح من وصف العراق . أما

---

(١٢٥) Wensinck, Handbook, p. 224.-

(١٢٦) Rosen, k Fihristu, p. 239-241.-

(١٢٧) (فى نص المسعودى بدل « لنا » توجد « لى »)

(١٢٨) Barbier de Meynard, Al-Maçoudi, III, p. 123-130.-

58 وصف مصر فيمكن أن يصلح كأنموذج فى هذا الصدد[١٢٩]/

إن اعتبار هذا الوصف « للحكيم » المجهول كذبًا صراحًا فيه شيء من التعسف ، خاصة وأن اهتمام عمر بالمسائل الجغرافية شهدت به الرواية التاريخية غير ذى مرة ؛ وقد كلف عمر سعد بن أبى وقاص بعد واقعة القادسية (حوالى عام ٦٣٦) أن يصف له المواضع المجاورة لها ؛ وقد حفظ لنا هذا الوصف ياقوت[١٣٠] . وثمة وصف مشابه لهذا يبعث به عمرو بن العاص إلى عمر عقب فتحه لمصر ؛ غير أن وصف مصر هذا لم يكشف عنه إلا عند المؤرخين المتأخرين فى عصر المماليك[١٣١] .

ولقد استمرت الأوصاف من طراز « الفضائل » محتفظة بمكانتها لحين ظهور الرسائل الجغرافية بالمعنى الصحيح . وأحد هذه الأوصاف مما يرجع إلى بداية القرن الثامن حفظه لنا المؤرخ الدينورى وهو يتعلق بالسويعات الأخيرة من حياة أيوب بن زيد إحدى الشخصيات التى اكتنفتها الأسطورة فى ذلك العهد ؛ وقد اشتهر باسم ابن القِرِّية نسبة إلى جدته ؛ وكان بدويًا أميًا . وتمتع ابن القرية وقتًا ما بثقة الحجاج ولكن لم يلبث أن انحاز إلى أعدائه ، ثم وقع فى قبضة الحجاج حوالى عام ٧٠٣[١٣٢] . وقبل أن يأمر الحجاج بقتله بالقسوة المعهودة فيه ، سأله :

« فما تبقى من نعتك قال ابن القِرِّية ذهنى حديد وجوابى عتيد قال كيف علمك بالأرض قال ليسألنى الأمير عما أحبّ قال أخبرنى عن الهند قال بحرها دُرّ وجبلها ياقوت وشجرها عِطر قال أخبرنى عن مُكران قال ماؤها وَشَل وتمرها دَقَل وسهلها جبل ولصها بطل إن كثر الجيش بها جاعوا وإن قلّوا ضاعوا قال فخراسان قال ماؤها جامد وعدوُّها جاهد بأسهم شديد وشرهم عتيد وخيرهم بعيد قال فاليمن قال أرض العرب ومَعْدِن الذهب قال فعُمان قال حرها شديد وصيدها موجود وأهلها عبيد قال فالبحران قال كُناسة بين مصرين وجنة بين بحرين قال فمكة قال قوم ذوو جفاء ومن سجيتهم الوفاء قال فالمدينة قال ذوو لطف وبرٍّ وخير وشر قال فالبصرة قال حرها فادح وماؤها مالح وفيضها سائح قال فالكوفة قال جنة بين حمَاة وكنّة العراق تحشدُ لها والشام يُدرّ عليها سفلت عن برد الشام وارتفعت عن حر الحجاز قال فالشام قال تلك عروس بين نسوة جلوس تُجْلب إليها

---

(١٢٩) شرحه ص ١٢٥ — ١٢٦

(١٣٠) ياقوت ، المعجم ، الرابع ، ص ٨

(١٣١) -Description de l'Égypte, I, 581-582- Nallino, II Valore, p. 22.

(١٣٢) ابن خلكان الأول ، ص ٢٣٦ — ٢٤٣ -Perrier, p. 200-201.

الأموال وفيها الضراغمة الأبطال »[١٣٣] .

غير أن هذه الفصاحة لم تنقذه من الموت ؛ ويروى أن الحجاج صاح بعد مقتله :/« أى أدب 59
فقدنا منك وأى كلام رصين سمعنا منك » . ذلك أن الحجاج نفسه كان مولعًا بأمثال تلك الأقوال البليغة الموجزة ؛ ويروى أنه أوصى واليه إلى أصفهان قبل رحيله قائلا « قد وليتك بلدة حجرها الكحل وذبابها النحل وحشيشها الزعفران »[١٣٤] .

ومن غير الممكن بالطبع أن نبصر فى هذه الصنعة الأدبية رواية حرفية « للفضائل » كما وجدت فى العصر الأموى ، خاصة وأن ابن خلكان[١٣٥] قد حفظ لنا هذه القصة نفسها فى صورة مخالفة ، كما أن وصف مُكران لدى ياقوت ينسب إلى خلافة عثمان ويرد على لسان حكيم بن جبلة[١٣٦] (توفى عام ٣٧ هـ = ٦٥٧) وفى صورة مسجوعة أيضًا ، مما أسخط عليه الخليفة . أما ابن القرية فقد قلب له التاريخ ظهر المجن ، فالأصمعى اللغوى المعروف (توفى حوالى عام ٨١٣) ، وذلك قبل خمسين عامًا من هذه الرواية التى مصدرها الدينورى ، يوكد أن ابن القرية لم يوجد على الإطلاق شأنه فى هذا شأن المجنون الشاعر[١٣٧] . ولا حاجة بالطبع إلى التطرف فى النقد إلى هذه الدرجة[١٣٨] ، ولكن حتى إذا وافقنا الأصمعى فى رأيه فإنه من المستحيل إنكار وجود نمط « الفضائل » الذى يكاد يكون أطرف محاولة فى ذلك العصر لصياغة التصورات الجغرافية فى قالب أدبى . وأحيانًا يمكن الجزم بصورة قاطعة بأن بعض أمثلة « الفضائل » صحيحة الأصل وأنها ترجع فعلا إلى العصر الذى تشير إليه المراجع وتحتفظ بالقالب نفسه الذى صيغت فيه . وفيما يتعلق بوصف مكران بالذات يوجد تأييد طريف فى أبيات لأعشى هَمْدان[١٣٩] ، ذلك الشاعر الذى وقع فى أسر الديلم والذى قتله الحجاج عام ٨٣ هـ = ٧٠٢ .

---

(١٣٣) الدينورى ، ص ٣٢٥ – ٣٢٦

(١٣٤) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢٩٤ : « قد وليتك بلدة حجرها الكحل وذبابها النحل وحشيشها الزعفران » .
راجع حبيب الزيات : Les Couvents, p. 343

(١٣٥) ابن خلكان ، الجزء الأول ، ص ٢٣٩ – ٢٤٠

(١٣٦) ياقوت ، المعجم ، الجزء الرابع ، ص ٦١٣ . أبيات الأعشى . قراءة أخرى :
عمر وقندابيل : ابن قتيبة ، العيون ، الجزء الثانى ، ص ١٩٩

(١٣٧) (كتاب الأغانى ، الجزء الأول ، ص ١٧٦ و ١٦٩) Rescher, Abriss, 1, 2, p. 207. =

(١٣٨) عن ابن القرية راجع كايتانى (Caetani, Chronographia, p. 1015, No 34)

(١٣٩) -Wensinck, A'scha, p. 496
-Brockelmann, GAL, I, p. 62, No 7; SB, I, p. 95 =

قال :

« وأنت تسير إلى مُكّران فقد شحط الــورْد والمصدرُ
ولم تك من حاجتى مُكّــران ولا الغــزوُ فيها ولا المتجــر
وخُبّــــرت عنها ولم آتها   فما زلت من ذكرها أُذعر
بأن الكــثير بها جائــع   وأن القليــل بها مُقتــر / 60
وأن لِحَى الناس من حرها   تطول فتُجْلَمُ أو تُضفَرُ
ويزعُـمُ من جاءها قبلنــا   بأنّا سنُسْهَمُ أو نُنْحَر »(١٤٠)

ليس من العسير أن نبصر فى البيت الذى يرد فيه القول « بأن الكثير بها جائع وأن القليل بها مقتر » إشارة إلى ألفاظ ابن القرية « إن كثر الجيش بها جاعوا وإن قلّوا ضاعوا » . ومن ثم فإن تلك القطعة من « الفضائل » كانت ولابد معروفة جيدًا ومتداولة فى عهد أعشى همدان ، أى فى النصف الثانى من القرن السابع . لذا فإن احتمال ظهورها فى عهد الخليفة عثمان لا يمكن اطراحه كلية . والعصر الأموى يحفل بعدد غير قليل من أمثلة هذا النوع من الوصف الأدبى . وفى مجلس للخليفة هشام (١٠٥ هـ – ١٢٥ هـ = ٧٢٤ – ٧٤٣) يعطى خالد بن صفوان الخطيب المشهور وأحد بلغاء العرب (توفى عام ١٣٥ هـ = ٧٥٢)(١٤١) وصفًا لموطنه البصرة حفظه لنا واحد من أقل الكتاب شهرة فى النصف الأول من القرن العاشر وهو ابن القاصّ(١٤٢) .

ويقترن باسم الحجاج أول ذكر معروف لدينا عن الخارطات عند العرب . ففى عام ٨٩ هـ = ٧٠٨ بعث الحجاج إلى قائده قتيبة بن مسلم الباهلى فاتح بلاد ما وراء النهر ، وذلك عندما استبطأ حصاره لبخارى ليرسل إليه « صورة » المنطقة ؛ ويقال إنه قد بعث إليه بتعليماته الاستراتيجية عقب ذلك اعتمادًا على تلك الخارطة(١٤٣) . وفى الأصل العربى كما نرى تستعمل كلمة « صورة »

= Rescher, Abriss, 1, p. 149-150.

(١٤٠) Geyer, p. 328, No 20—Goutta, p. 15-
ياقوت ، المعجم ، الرابع ، ص ٦١٣ – البلاذرى ، ص ٤٣٣ – ٥٣٤
شيخو ، المجانى ، الخامس ، ص ١٨٣ – ١٨٤

(١٤١) ياقوت ، الإرشاد ، الجزء الرابع ، ص ١٦٠–١٦٥ .

(١٤٢) جرجس افندى صفا ، ص ٤٤١–٤٤٢

(١٤٣) Wellhausen, Das arab. Reich, p. 271-
Périer, p. 235-Gibb, The Arab Conquests, p. 35

التى حل محلها فيما بعد لفظ « مصور جغرافى » * . ورواية الطبرى التى حفظت لنا هذه الواقعة[١٤٤] ترتفع إلى مصدره الأساسى فى فتح تركستان وهو المدائنى (المتوفى حوالى عام ٢١٥ هـ = ٨٣٠) ، وأغلب الظن أنها تعكس حقيقة واقعة .

ويغلب الخيال أكثر على القصة الثانية التى يوردها لنا ابن الفقيه . قال :

« وبعث الحجاج إلى وفد الديلم فدعاهم إلى أن يسلموا أو يقرُّوا بالجزية فأبوا فأمر أن تصوّر له الديلم سهلها وجبلها وعقابها وغياضها فصورت له فدعا من قبله من الديلم فقال إن بلادكم قد صوِّرت لى فرأيت مَطْمَعًا فأقِرُّوا لى بما دعوتكم إليه قبل أن أُغْزيكم الجنود فأخرب البلاد وأقتل المقاتلة وأسبى الذرية فقالوا أرنا الصورة التى أطمعتك فينا وفى بلادنا/فدعا بالصورة فنظروا فيها 61
فقالوا قد صدقوك عن بلادنا هذه صورتها غير أنهم لم يصوروا فرسانها الذين يمنعون هذه العقاب والجبال وستعلم ذلك لو قد تكلَّفته فأغزاهم الجنود وعليهم محمد بن الحجاج فلم يصنعوا شيئًا وانصرفوا إلى قزوين »[١٤٥] .

إن عنصر الخيال المحيط بهذه القصة يحول بيننا وبين الاعتقاد بأن المحاولات الأولى المستقلة للعرب فى رسم المصورات الجغرافية قد ارتبطت باسم الحجاج عن طريق المصادفة وحده[١٤٦] .

فإذا ما انتقلنا إلى الكلام عن الرحلات فى العصر الأموى فإن أول ما نلاحظه هو أن معظم وقائعها ليس من السهل فصله عن الأساطير . وترتبط بعض هذه الرحلات ببيزنطة ؛ وقد جاء فى قصة رواها كاتب من عهد المهدى العباسى (١٥٨ هـ - ١٦٩ هـ = ٧٧٥ - ٧٨٥) أنه فى عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ هـ - ٨٦ هـ = ٦٨٥ - ٧٠٥) عاد إلى مصر أحد أهليها ممن كان فى أسر البيزنطيين منذ عهد معاوية (٤١ هـ - ٦٠ هـ = ٦٦١ ** - ٦٨٠) ، وأنه روى

---

* يستعمل العرب للتعبير عن لفظ خارطة (Map) « المصور الجغرافى » ، بيد أن غلبة خارطة فى الاستعمال الحديث اضطرنا إلى إثباتها فى هذا الكتاب . وقد أخذ العرب عن الروم لفظ Carta (كارتا) بصيغة الجمع فقالوا قرطاس ؛ أما لفظ خارطة فقد عربه المصريون أيام محمد على عن الفرنسية Carte . ولم يكن الجغرافيون العرب على اتفاق تام فى استعمال مصطلح « المصور الجغرافى » ، فابن فضل الله العمرى فى مسالك الأبصار يستعمل « لوح الرسم » بينما ورد فى بعض نسخ نزهة المشتاق للإدريسى « لوح الترسيم » (راجع مقال أحمد زكى باشا الذى ظهر بمجلة المقتبس - الجزء السادس من المجلد الخامس ص ٣٨٧) . (المترجم)

(١٤٤) الطبرى الثانى ، ص ١١٩٩

(١٤٥) ابن الفقيه ، BGA, V, p. 283

(١٤٦) من المحتمل أن بيزلى يعنى هذا بقوله : Beazley, I, p. 409

«The maps or repesentatrions drafted by provincial administrators were put under contribution» (قبل العصر العباسى) .

** فى الكتاب وُجد سهوًا عام ٦٣١ هـ بدلا من ٦٦١ هـ ، فوجب التنبيه . (المترجم)

تفاصيل عجيبة عن حال الأسرى المسلمين هناك ؛ غير أن الحكم على صحة هذه الوقائع يحتاج إلى فحص وتدقيق عميقين للتواريخ ولتفاصيل أخرى[١٤٧] . ويروى لنا المقدسى[١٤٨] حكاية لشخص كان قد بُعث به مع رفيق له إلى « طاغية » (tyrant) بيزنطة عام ١٠٢ هـ = ٧٢٠ ، ومما يؤسف له أن قصتهما أيضًا تقتصر على وصف الرقيم وأهل الكهف . ولدينا من الحقبة نفسها تقريبًا رواية طريفة عن أول محاولة فى الجغرافيا الإدارية والاقتصادية[١٤٩] ؛ ففى عام ١٠٠ هـ = ٧١٩ بعث الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز إلى والى الأندلس السمح بن مالك الخولانى بأن « يخمِّس ما غلب عليه من أرضها وعقارها ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها » . وكان السمح اداريًا ماهرًا ، وهو أول من جعل قرطبة عاصمة للبلاد واستمرت هكذا إلى القرن الحادى عشر[١٥٠] ؛ وعنى بتنظيمها وتجميلها وأعاد ترميم القنطرة الرومانية التى اعتبرت فيما بعد من
عجائب/الأندلس . وقد استشهد السمح بعد عامين من ذلك فى غارة للعرب على جنوب فرنسا 62
عند فتح أربونة Narbonne[١٥١] . ومن العسير بالطبع أن نحدد نصيبه من التوفيق فى تنفيذ رغبة الخليفة بوصف الأندلس وفى أى صورة تم ذلك ، إذ لم يصل إلى أيدينا فى الواقع أى أثر فى هذا الصدد . وأغلب الظن أن ڤستنفلد[١٥٢] لم يتنكب الصواب حينما وضع اسمه فى أول قائمته الزمنية (chronological list) للجغرافيين العرب . وعلى العكس من هذا يقف رسكا **Ruska** موقف التشكك من القصة ومن استطاعة الوالى أن يشغل نفسه بالمسائل الجغرافية ولمّا يمض على فتح العرب للأندلس أكثر من عشرة أعوام[١٥٣] . غير أن هناك عوامل ليست فى مصلحة

---

(١٤٧) التنوخى ، « الفرج » ، الأول ص ١٣٨ – ١٤٧ : « روى نجيد كاتب إبراهيم بن المهدى أن إبراهيم حدثه أن مخلدًا الطبرى الكاتب للمهدى على ديوان الرسائل أخبره أنه كان فى ديوان عبد الملك يتعلم ... »

(١٤٨) المقدسى ، BGA, III ص ١٥٣ – ١٥٤ . راجع : Krymski, Sem spiaschikh otrokov, p. 26-27, no 21 الطبعة الأوكرانية ص ١٢٧ .

(١٤٩) -S. Vila, Atti, p. 545—Dozy, Recherches, I, p. 76-78—
راجع عن المصادر : -Caetani, Chronographia, p. 1245,3
– السمعانى ، ص ١٨٢ – ابن حيان موجود لدى : المقرى ، الجزء الثانى ، ص ٨ ؛ وراجع أيضًا المقرى الجزء الأول ص ١٤٥ – ابن عذارى ، الجزء الثانى ، ص ٢٥ – ٢٦ .

(١٥٠) -Levi-Provençal, L'Espagne, p. 202-203

(١٥١) -Caetani, Chronographia, p. 1288, 40—Wellhausen, Das Arab. Reich, p. 213

(١٥٢) -Wüstenfeld, Erdbeschreibung, p. 2, No I

(١٥٣) -Ruska, GZ, 33, 1927, p. 524
وأيضا قبله : Meyer, III, p. 267, Note, 2

التشكك هذا ، ففى الواقع أن اهتمام السمح بن مالك بالبحوث الجغرافية قد تردد صداه لا فى المصادر العربية وحدها بل وفى المصادر الغربية أيضًا . فالحوليات اللاتينية (latin annals) ، خاصة حوليات ايزيدور الباجى Isidorus Pacensis ، توكد لسبب ما اهتمامه بمسائل من هذا النوع ، كما توكد أيضًا اهتمامه بالاستطلاع والمراقبة فى أرض الأندلس[١٥٤] . ومن العسير بالطبع اعتبار هذا من محض الصدفة .

هذه خلاصة ما يتصل بالجغرافيا لدى العرب وما تردد صداه فى آثارهم الأدبية إلى منتصف القرن الثامن . وهو مجهود إذا قيس وفقًا للمفهوم الجغرافى الدقيق لبدا ضئيلا ؛ ولكنه من الناحية الأدبية يمثل أهمية كبرى . فمن خلال هذه الحقبة نبصر بوضوح ميلاد بعض الأنماط والصور التى بدأت تتشكل فيها بالتالى مصنفات جغرافية قائمة بذاتها ، وضعها فى أغلب الأحوال علماء لغويون . وهم قد جهدوا قبل كل شىء فى جمع وتنظيم تصورات عرب الجاهلية عن الأنواء وتدوين المادة الضخمة المتعلقة بالأماكن ؛ وهم المسئولون أيضًا عن إدخال نمط « الفضائل » فى المؤلفات الجغرافية والتاريخية . وإلى هذا العصر بالذات ترجع أول إشارات ولو مبهمة عن ظهور مصورات جغرافية وعن الجغرافيا الوصفية فى المجالين الإدارى والاقتصادى . أما المعلومات العملية فى ميدان الجغرافيا فقد زادت العناية بتنظيمها أيضًا ولكن لم يتبق لنا أى أثر من ذلك . كما أن بريد الدولة الذى خضع لتنظيم جيد فى العهد الأموى قد استدعى إعداد رسوم تخطيطية لمختلف الطرق ؛ ومثل هذه الرسوم قد وجد بلا ريب فى دواوين الحكومة واستغلها بعض مؤلفى العصر العباسى فى وضع مؤلفات فى هذا الميدان وصلت إلينا . أما طرق البريد فقد نصبت على جانبها حجارة لتوضيح المسافات وهى ما يسمى بالأميال ؛ وكانت تبدأ من مركز الخلافة . وقد عثر على بعض هذه الحجارة بفلسطين وترجع إلى عهد عبد الملك بن مروان (أى قبل عام ٨٦ هـ = ٧٠٥)[١٥٥] ؛ ومنذ عهد ليس ببعيد عثر على واحد منها قرب تفليس وأغلب الظن أنه يرتفع إلى
ذلك العصر نفسه[١٥٦] /. 63

وتنعدم الجغرافيا الفلكية تمامًا فى هذا العصر . وإذا حدث وأن وجدت فقد كان صداها ضئيلا وبين السريان وحدهم بحيث لم تصل إلى العرب . ومن المعلوم أن أسقف اليعاقبة سويرس

---

(١٥٤) - Reinaud, Invasion p. 16, Note 1
Caetani, Chronographia, p. 1288, 40
Simonet, Historia, p. 155-157

(١٥٥) -RChr É Ar, I, p. 13-16, No 14-17

(١٥٦) -Krachkovskia, EV, VI, p. 88-91, illustration, 16

سبوكت Severus Sabokt ، وكان معاصرًا لعمر وعثمان بل ولمعاوية فى الأعوام الأولى لخلافته ، قد وجد الوقت الكافى ليشتغل بالفلك إلى جانب اشتغاله بمنطق أرسطو . ومن معاصرى الخلفاء الأمويين الأوائل يعقوب الرهاوى (٦٤٠ – ٧٠٨) الذى نال الشهرة كعالم لغوى ومفسر ، وكان أول من حاول فى اللغة السريانية إعطاء صورة متماسكة للتصورات العلمية فى ذلك العصر عن العالم وأقسامه وظواهره وذلك أثناء تفسيره لأسطورة التوراة فى خلق العالم ؛ وهو يورد فى سياق عرضه مقتطفات من بطلميوس(١٥٧) . ولم يكن بمقدور السريان أن يصبحوا أساتذة للعرب فى العصر الأموى بالرغم من أن هذا هو ما حدث فعلا فى أقل من قرن بعد ذلك . لذا فليس من الغريب ألا نعثر على أى أثر للجغرافيا الفلكية بين العرب فى ذلك العصر . ولكنها تندفع فجأة كسيل جارف فى نهاية القرن الثامن ولا تكتفى بإبراز فرع جديد فحسب بل تحدث تحولا ملحوظًا فى الفروع الأخرى التى تشكلت آنذاك . وهذه اللحظة بالذات هى التى يجب أن تعتبر بحق بداية الأدب الجغرافى العربى .

---

(١٥٧) -Mzik, Ptolemaeus, p. 158 and note 13

الفصل الثانى

بداية الجغرافيا الرياضية عند العرب[١]

يرجع أصل الجغرافيا/العلمية عند العرب إلى الفلكيين اليونان . فإذا ما تم الاتفاق على هذه 64
الحقيقة الثابتة وانتقلنا منها إلى تاريخ التطورات الأولى للعلم فى قالبه العربى لجابهنا لأول وهلة عدد غير قليل من المشاكل المعلقة التى ما تزال تفتقر إلى الحل حتى الآن . وسيتضح لنا منذ البداية أن التأثير اليونانى لم يكن هو السابق من الناحية الزمنية ، فقد تقدمه الهندى ثم الإيرانى الذى يرتبط بدوره بالهندى . وإذا كان المذهب اليونانى قد أخذت كفته فى الرجحان منذ بداية القرن التاسع ولم يلبث أن غلب عقب ذلك إلا أن المذهبين الأولين ظلا مع ذلك محتفظين ببعض أهميتهما مدة لا تقل عن القرنين حتى فى المناطق البعيدة جدًا عن موطنيهما كالأندلس ، وظلت بعض النظريات
المرتبطة بهما عالقة بالجغرافيا العربية/إلى عهد أبعد من ذلك . وقد أدى أحيانًا تداخل التأثيرات 65
وتشابكها إلى خلق صورة متضاربة الألوان أصبح من العسير تتبع سير التطور التاريخى خلالها .

وثمة سؤال آخر لا يزال يفتقر إلى إجابة شافية وهو لماذا لم تظهر الجغرافيا العلمية عند العرب قبل العصر العباسى ، أى فى النصف الثانى من القرن الثامن؟ ولماذا كان نقلتها فى أول الأمر من الإيرانيين غالباً على الرغم من أن الأمويين كانوا أقرب إلى المهد القديم للحضارة

---

(١) (أضيفت إلى الفصل الثانى المكتوب بالآلة الكاتبة الألفاظ الآتية :

« الكلمة التى قدّمت بها محاضرتى التى ألقيتها بالجمعية الجغرافية للاتحاد السوفيتى فى ٢٣ يونيو ١٩٤٠ » :

« أرجو أن أوضح سلفًا أن هذه المحاضرة عن بداية الجغرافيا الرياضية عند العرب لا تمثل بحثًا قائمًا بذاته ، فهى فصل من مؤلف ضخم فى تاريخ الأدب الجغرافى العربى . وقد تجمعت المادة لدى بالتدريج على شكل دروس ألقيتها على طلبة الجامعة ابتداء من عام ١٩١٠ . وكانت تمثل فى بدايتها ملاحظات ذات طابع عام تتعلق بمصنفات المؤلفين التى شرحت نصوصًا مختارة منها فى البرنامج الدراسى . وشيئًا فشيئًا تجمعت لدى مذكرات فى تاريخ الأدب الجغرافى العربى قرأتها على تلامذتى أكثر من مرة بين عامى ١٩١٠ و ١٩٣٦ .

« وقد عالجت الموضوع كفيلولوجى فجعلت هدفى بادىء ذى بدء أن أعرض للأدب الجغرافى من غير أن أحاول التأريخ لعلم الجغرافيا عند العرب أو لتأريخ الاستكشافات الجغرافية العربية ، بيد أن جميع هذه الميادين يرتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا يجعل من العبث محاولة وضع فواصل اصطناعية بينها . غير أن الأساس الذى اعتمدت عليه هو عرض ما يسمى بالجغرافيا الوصفية والرحلات ، وفقط عندما استكملت المحاضرات فى شكل كتاب اقتنعت فى آخر الأمر بضرورة العناية بالجغرافيا الرياضية التى لم أهتم لها فى أول الأمر . وبهذا نشأ لدى فصلان جديدان لا أجد من نفسى المقدرة التامة لمعالجتهما ؛ أحدهما أريد أن أقرأه عليكم اليوم فى هذا الوسط العلمى حتى أكون على ثقة بأننى لم أرتكب هفوات كبيرة ») .

الهلنستية (Hellinistic Civilization) * فى أنطاكية والإسكندرية حيث قام السريان فى العادة بدور الوسيط.

ويبدو مغريًا الفرض القائل بأن العباسيين فى اتجاههم السياسى نحو إيران قد ارتبطوا بالثقافة الإيرانية أيضًا. وقد عرف بلاط الساسانيين المنجمين(٢) بينما لا نسمع شيئًا عنهم بين العرب فى العصر الأموى، بل إن لفظ « منجم » لا يقابلنا فى الشعر قبل عام ١٣٢ هـ = ٧٥٠(٣). ولعله ليس من محض الصدفة أن يلعب المنجمون دورًا ملحوظًا عند وضع الحجر الأساسى لبناء بغداد عام ١٤٥ هـ = ٧٦٢، بل ويقال إن الخليفة المنصور استعان بمعرفة الطالع (horoscope) لاختيار موقع عاصمته الجديدة(٤). ويرد اسم اثنين من المنجمين فى هذه المناسبة، وكانا كما هو الحال فى ذلك العصر فلكيين أيضًا وعلى معرفة تامة بالتراث العلمى لعصرهما. أحدهما هو نوبخت الذى انحدرت من صلبه دوحة إيرانية احتلت مكانًا مرموقًا فى ميدانى العلم والسياسة فى العصر العباسى(٥)؛ أما الآخر فهو ما شاء الله الذى وإن كان يهوديًا إلا أنه ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالتراث الإيرانى(٦)، وسيرد بالتالى ذكر استعماله « لزيج الشاه » الذى يرجع أصله إلى العهد الساسانى. والتأثير الإيرانى يمكن تتبعه ليس فى الأسماء فحسب بل أيضًا فى المصطلحات التى وجدت طريقها إلى أوروبا الوسيطة بفضل الترجمات اللاتينية لمصنفات ما شاء الله الذى يرد اسمه باللاتينية على صورة Messahallath أو Messeallah(٧). ويمكن افتراض وجود علاقة بين

---

* العصر الهلنستى Hellinistic هو عصر انتشار الحضارة اليونانية فى المشرق عقب فتوحات الإسكندر؛ وقد أثرت هذه الحضارة فى حضارة الشرق وتأثرت بها وأخرجت مزيجًا من الاثنين. وهذا اللفظ يستعمل فى مقابل العصر الهلينى Hellinic وهو عصر الحضارة اليونانية فى بلاد اليونان نفسها، أى قبل الغزو المقدونى. ويقول سارطون إنه « قد أحسن اختيار هذه العبارة إذ توحى بالهيلينية بالإضافة إلى شىء آخر غريب عنها، شىء مصرى أو شرقى ». (المترجم)

(٢) نالينو، الفلك، ص ٣٣١ – ٣٣٢ (= Racc., p. 29)

(٣) الطبرى فى كتاب: Ruska, GZ, p. 521

Nöldeke, Geschichte des Perser, p. 85-86, 304-305

Christensen, p. 391

(٤) نالينو، الفلك، ص ١٤٤ – ١٤٥ (= Racc., p. 200)

(٥) نالينو، الفلك، ص ١٤٤ – ١٤٧ (= Racc., p. 199-202)

Massignon, Nawbakhti, p. 958-959

(٦) شرحه

(٧) نالينو، الفلك، ص ١٤٦ – ١٤٧ (= Racc., p. 201-202)

Brockelmann, GAL, I, p. 249, No. Ia; SB, I, p. 391-392, No. Ic

وعن دور مؤلفات ما شاء الله فى أوروبا الوسيطة راجع مقالات: Shangin =

هذا التراث الإيرانى والمدرسة الطبية الشهيرة لعهد الساسانيين بجنديسابور[٨]/التى وإن كان 66
أطباؤها جلهم من المسيحيين إلا أن لغتهم كانت الفارسية .

ونادرا ما اتسمت المصنفات الفلكية الإيرانية التى وصلت العرب فى ذلك العصر بالأصالة ، فهى كانت عادة تعكس العلم الهندى الذى وجد طريقه أيضًا إلى العرب مباشرة . وتصور الرواية العربية هذه الصلة بالعلم الهندى على الطريقة الآتية : فقد كان من بين أعضاء السفارة الهندية إلى بلاط المنصور فى عام ١٥٤ هـ = ٧٧١ أو عام ١٥٦ هـ = ٧٧٣ عالم هندى هو مانكا Manka أو كانكا Kanka أحضر معه من الهند رسالة فى الفلك بجداولها أطلق عليها فى الترجمة العربية التى عملها الفزارى ويعقوب بن طارق اسم « كتاب السند هند »[٩] . وكثير من جوانب هذه القصة غير واضح ابتداء من التردد فى الوقوف عند تاريخ محدد ، الأمر الذى يزيد فى تعقيده وجود رواية أخرى عن سفارة ثانية فى عام ١٦١ هـ = ٧٧٧ – ٧٧٨[١٠] . غير أن أصل هذه الرسالة قد أمكن تحديده بكل ثقة وبدرجة كبرى من اليقين ألا وهو رسالة « براهما سفوطا سدانتا » Brahmasphutasiddhanta التى وضعها فى عام ٦٢٨ براهما غبتا Brahma Gupta[١١] ؛ ولفظ « سيدانتا » قد تحول فى الوسط العربى تحت تأثير الاشتقاق الشعبى إلى « السند هند » الذى تنعكس فيه التسمية العربية لشطرى الهند ، أى الهند والسند . ومعنى « سيدانتا » فى الأصل هو « المعرفة والعلم والمذهب »[١٢] ، ثم لم يلبث أن أطلق اصطلاحًا على كل مصنف فى الفلك . والرسالة تحوى مقدمة وجيزة أرفق بها عدد من الجداول الفلكية فى تحركات الأجرام السماوية وطلوع ومغيب البروج . وقد حسبت هذه الحركات على أساس دورات زمنية تضم آلاف السنين وهى ما تسمى بالكلبا Kalpa التى تقوم على فرض مؤداه أنه فى بداية العالم كانت الشمس والقمر والكواكب مجتمعة على خط واحد وأنها سترجع إلى ذات الوضع فى نهاية العالم[١٣] .

Catalogus, T. XII, p. 210-216; =
«the seven springs», p. 235-242;
Epistola Messallah, p. 707-718.

(٨) -Eberman, p. 61

(٩) راجع نالينو ، الفلك ، ص ١٤٩ : -Clark, p. 366; (= Racc., p. 203).

(١٠) -Nallino, Sun, Moon & stars; p. 95

(١١) -Nallino, El, p. 517

(١٢) نالينو ، الفلك ، ص ١٥٠ – ١٥١ (= Racc., p. 204-205)
-Nallino, El, I, p. 517: «.... auf demselben Längengrad in Konjunktion»

(١٣) نالينو ، الفلك ، ص ١٥١ (= Racc., p. 205)

وقد ظلت هذه النظرية معروفة فى أوروبا لعهد طويل ، ولنذكر بهذه المناسبة أنه قد وردت فى « الكوميديا الإلهية » لدانتى Dante الأبيات الآتية :

« كان الوقت لحظة الصباح الأولى ، وقد ارتفعت
الشمس محاطة بنفس تلك النجوم التى كانت
تصحبها منذ الأزل ، عندما حرك الحب الإلهى
تلك الأشيـــاء الجميلــــة لأول مرة »[١٤] .

والبرهان على ما بلغته هذه النظرية من انتشار بين العرب يتضح من موضع فى « كتاب الشعر والشعراء » لابن قتيبة (المتوفى عام ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م) . فهو عند شرحه لبيت أبى نواس فى وصف الخمر :

تُخُيِّرت والنجوم وقف   لم يتمكـــن بها المدار

كتب يقول :/ 67

« يريد أن الخمر تخيرت حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفة فى بر ج ثم سيرها من هناك وأنها لا تزال جارية حتى تجتمع فى ذلك البر ج الذى ابتدأها فيه و إذا عادت إليه قامت القيامة وبطل العالم . والهند تقول إنها فى زمان نو ح اجتمعت فى الحوت إلا يسيرًا منها فهلك الخلق بالطوفان وبقى منهم بقدر ما بقى منها خارجًا عن الحوت . ولم أذكر هذا لأنه عندى صحيح بل أردت به التنبيه على معنى البيت ونظر هذا الشاعر فى هذا الفن »[١٥] .

وفيما بعد استعمل الفلكى أبو معشر حساب التوقيت الذى يبدأ من الطوفان ، لأن الطوفان حدث فى لحظة اقتران جميع الكواكب فى نهاية دائرة البر ج[١٦] .

ومن العسير التكهن بالصيغة التى اتخذها كتاب « السند هند » فى الوسط العربى إذ أن نصه لم يحفظ لنا ، ومن العسير كذلك التكهن بطبيعة الدور الذى قام به كلا المترجمين فى هذا الصدد فالفزارى كان إلى عهد غير بعيد ، وذلك لتضارب المعلومات حوله فى المصادر الإسلامية ، يقصد به شخصان . وإحدى أيادى نالينو Nallino العديدة على العلم هى إثبات اسمه

---

(١٤) دانتى ، الجحيم ، الجزء الأول

(١٥) ابن قتيبة ، ص ٥٤ . راجع : نالينو ، الفلك ، ص ١٥١ الحاشية ٥ (= Racc., p. 205, note 2)

(١٦) Plessner, Tarikh, p. 247

الحقيقى[١٧] . وقد استعمل الفزارى فى كتابه الأسس والمناهج الهندية فى الحساب لوضع جداول فلكية جديدة – زيج[١٨] . وحفظ لنا الفزارى على العموم أصل المذهب الذى أطلق عليه فى العلم العربى « مذهب السند هند » ولكنه أجرى فيه بالطبع تعديلات و إضافات جوهرية وقام بتحويل حساب التوقيت الهندى إلى « سنى العرب » كما تقول المصادر ، أى أنه استبدل نظام الكلبا بحساب السنين القمرية المستعمل لدى المسلمين[١٩] أما إضافاته فقد بدت فى الاتساع الملحوظ فى المادة المتعلقة بأراضى الخلافة ؛ وفى القطعة من زيجه التى حفظها لنا المسعودى[٢٠] والتى يرد فيها تعداد البلدان الإسلامية يلاحظ اهتمامه بالعامل التاريخى وهو شىء غريب على الهند تمامًا . فلديه يظهر لأول مرة الرباط بين التاريخ والجغرافيا[٢١] الذى أصبح بالتالى طابعًا مميزًا لجميع مصنفات الأدب الجغرافى فى اللغة العربية . ومادة هذه القطعة تشير إلى /أنها دونت عقب 68
عام ١٧٠ هـ = ٧٨٦[٢٢] بقليل ويلوح أنه إلى تلك الحقبة نفسها ترجع الصيغة النهائية لزيج الفزارى .

إن نشاط الفزارى ومعاصريه كان بلا شك فاتحة عهد جديد فى تطور الفلك والجغرافيا الرياضية عند العرب ، وكان هو وما شاء الله الذى مر ذكره أول من وضعا الأسطرلاب[٢٣] بين العرب . وربما أفاد فى هذا من الرسالة السريانية لسويرس سبوكت التى ترجع إلى منتصف القرن السابع ، غير أنه من الصعب إصدار حكم فى هذا الصدد لأن آثار الفزارى لم تصل إلينا كما أن آثار ما شاء الله فى الموضوع نفسه معروفة لنا فى ترجمتها اللاتينية الوسيطة فقط . ويلاحظ أن الفزارى قد نظم قصيدة فى النجوم مفتتحًا بهذا سلسلة الشعر التعليمى الذى ازدهر بشدة فى العصور التالية .

وأقل من ذلك بكثير معرفتنا بمصنفات الداعية الثانى للمذهب الهندى وهو يعقوب بن

---

(١٧) نالينو ، الفلك ، ص ١٥٦ – ١٦٢ (= Racc. p. 209-214)
Brockelmann, GAL, SBI. p. 391, No la

(١٨) نالينو ، الفلك ، ص ١٥٠ (= Racc., p. 204)
Nallion, Sun, Moon & Stars, p. 95

(١٩) نالينو ، الفلك ، ص ١٦٢ – ١٦٣ (= Racc. p. 213-214)

(٢٠) -Barbier de Meynard, Al-Maçoudi, IV, b. 37-40

(٢١) -Kramers, EI, EB, p. 63

(٢٢) نالينو ، الفلك ، ص ١٦٠ (= Racc., p. 212)

(٢٣) نالينو ، الفلك ، ص ١٤٧ – ١٤٨ (=Racc., p. 202-203) . Sarton, Introduction, I, p. 530-531

طارق[٢٤] معاصر الفزارى . واعتمادًا على بعض الوقائع يمكن أن نفترض أن المعين الذى استقى منه مادته كان أوسع ولم يقتصر على رسالة براهما غوبتا وحدها بل شمل عددًا من الآثار الأخرى . ولكن مصنفاته هو أيضًا مع الأسف الشديد لا يمكن الحكم عليها إلا من عناوينها ، ويبرز من بينها كتاب « تركيب الفلك » الذى يزعم أنه قد جمع بين دفتيه المعلومات التى استقاها من العلماء الهنود أعضاء السفارة الثانية إلى بلاط العباسيين فى عام ١٦١ هـ = ٧٧٧ - ٧٧٨[٢٥] ، أى بعد خلافة المنصور . أما قيمة مؤلفاته فيدل عليها ما لقيته من تقدير علماء مثل البيرونى[٢٦] ، أو إبراهيم بن عزرا الذى عاش بعد ذلك بوقت طويل فى الأندلس النائية وفى إيطاليا .

هذا وقد ثبتت قواعد نظام « السند هند » فى الفلك العربى على أساس عدد من الرسائل الهندية فى عهد المنصور وبقى سائدًا سيادة مطلقة حوالى الخمسين عامًا إلى عصر المأمون حين بدأ يزحمه المذهب اليونانى[٢٧] ؛ غير أنه لا يمكن القول بأية حال أنه قد اختفى مرة واحدة بأجمعه ، فأكبر رياضى عصر المأمون قاطبة وهو الخوارزمى الذى سيرد ذكره مرارًا قد وضع جداوله الفلكية « السند هند الصغير » اعتمادًا على النظام الهندى[٢٨] . وقد استمر متداولا على أية حال إلى آخر القرن الحادى عشر وأفاد منه باحثون كبار مثل البيرونى[٢٩] الذى كان إلى جانب الترجمات العربية
يعرفه معرفة جيدة/فى مصادره الأصلية[٣٠] . أما فى أراضى الخلافة الغربية فقد استمر الاهتمام به 69
زمنًا أطول ، كما يظهر ذلك من مثال إبراهيم بن عزرا[٣١] وغيره . وإحدى القواعد الجوهرية لهذا المذهب ظلت إلى حد ما مرتبطة بالمصنفات الجغرافية العربية على الدوام وامتد تأثيرها فى بعض المجالات على العلم الأوروبى إلى أيام كولومبس ، أعنى بذلك مسألة حساب خط الزوال أى خط منتصف النهار (meridional) من الشرق ، وأيضًا نقطة ابتداء ذلك الحساب . ذلك أنه قبل مجيء النظام اليونانى كانت الأطوال عند العرب تقاس ابتداء من خط منتصف النهار عند الأرين أو « قبة الأرض » Arine الموجودة فى مكان ما من الشرق . وفى القرن العشرين فقط أصبح من

---

(٢٤) -Sarton, Introduction, I, p. 530

(٢٥) -Nallino, Sun,Moon & Stars, p. 59

(٢٦) نالينو ، الفلك ، ص ١٦٤ - ١٧٣ (= Racc., p. 215-223)

(٢٧) نالينو ، الفلك ، ص ١٥٠ ، ١٧٤ (= Racc., p. 204, 223-224)

(٢٨) نالينو ، الفلك ، ص ١٧٤ - ١٧٥ (=Racc., p. 224)

(٢٩) -Nallino, Sun, Moon & Stars, p. 95

(٣٠) نالينو ، الفلك ، ص : ١٧٥ (= Racc., p. 225)

(٣١) نالينو الفلك ، ص ١٧٦ - ١٧٧ (= Racc., p. 225-226)

الممكن إلى حد ما استكناه جوهر هذه النظريات ونفض غبار الغموض الذى تراكم على مرّ قرون طويلة ؛ وكانت أول محاولة فى هذا الصدد للمستشرق الفرنسى رينو Reinaud[٣٢] .

ووفقًا لنظرية العلماء الهنود فإن خطوط الطول يبدأ تعدادها من خط منتصف النهار الذى يمر بوسط المعمورة حيث توجد جزيرة لانكا Lanka التى عرفها العرب باسم سرنديب وتعرف حالياً باسم سيلان* والتى زعموا أنها تقع على خط الاستواء . والنقطة التى يتقاطع فيها خط الاستواء مع خط منتصف النهار كانت تسمى عند العرب « قبة الأرض » أو « القبة » وهى تقع على أبعاد متساوية من الغرب والشرق والشمال والجنوب . ومن جزيرة لانكا أو من هذه « القبة » كان ابتداء حساب الأطوال الجغرافية عند الهنود[٣٣] ، وبحسب تصوراتهم فإن خط زوال لانكا كان يمر على مدينة أوجينى (اجين Ujain الحالية من أعمال مالوه Malwa بالهند الوسطى) حيث كان يقوم مرصد مشهور[٣٤] . وفى صورتها العربية تحولت أجين إلى أزين ، وهذا قريب من شكلها عند بطلميوس وهو أزين Ozene ؛ ثم نتيجة لنقص معهود فى الكتابة العربية تتحول أزين ببساطة إلى أرين Arine . أما الجزيرة نفسها فنظرًا لعدم احتفاظها باسمها الهندى عند العرب فقد تمت زحزحتها سهوًا فى تجاه الغرب مستمرة على خط الاستواء بحيث أصبحت حسب تصوراتهم تحتل مكانًا وسطًا بين الهند والحبشة[٣٥] ؛ ونتيجة لكل هذا فقد ثبتت لدى العرب النظرية القائلة بأن حساب الأطوال وفقًا لمذهب الهند يبدأ من خط زوال الأرين ، وهذا بدوره جر إلى خلط مفعم بالنتائج بين « قبة الأرض » والأرين ، بل أدى إلى ظهور مصطلح « قبة الأرين » . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوزه إلى اتخاذ لفظ أرين شيئًا فشيئًا لمعنى المركز على الإطلاق[٣٦] ؛ وفى القرن
الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) يعرف الجرجانى الأرين فى معجمه/للمصطلحات 70
« التعريفات » كالآتى :

« الأرين محل الاعتدال فى الأشياء وهى نقطة فى الأرض يستوى معها ارتفاع القطبين فلا يأخذ

---

(٣٢) Reinaud, Introduction, p CCCXXXV-CCLY.
يقدم مينورسكى Minorsky تحليلا وافيًا لجميع الآراء المعاصرة حول هذه المسألة فى :
Hudud, p. 188-190. No 13; p. 245-246, No 18-24, p. 335-336, No 60

* وحالياً باسم سرى لانكا. (المترجم).

(٣٣) -Kramers, Legacy, p. 93

(٣٤) -Nallino, Al-Battani, p. 165

(٣٥) شرحه

(٣٦) هناك تحليل عميق للمادة فى هذا الموضوع على أساس نظرية الخرق لدى :
Ferrand, Notes, 202, p. 17-20

هناك الليل من النهار ولا النهار من الليل وقد نقل عرفًا إلى محل الاعتدال مطلقًا »[٣٧] .

ولم يختف حساب الأطوال ابتداء من الشرق اختفاء تامًا حتى بعد دخول المذهب اليونانى . ففى القرن العاشر أثبت الجغرافى وعالم الآثار المشهور الهمدانى ، وأصله من جنوب جزيرة العرب ، أقول أثبت الهمدانى فى كتابه « صفة جزيرة العرب »[٣٨] أطوال « مدن العرب المشهورة » بما فى ذلك مكة والمدينة ابتداء « من الشرق » وأشار إلى أن مصادره هى الفزارى ومعاصر الفزارى المشهور حبش المروزى . وقد اهتم هونغمان Honigmann فى الآونة الأخيرة بدراسة هذه المادة وحللها تحليلا دقيقًا[٣٩] .

ولم يكتف مذهب السند هند بإدخال مصطلح « قبة الأرض » والأرين فى الجغرافيا العربية بل أدخل أيضًا عددًا من النظريات الأخرى ، أحيانًا عن طريق الرواية الإيرانية مع زيادات مختلفة . ويروى البيرونى أن بعض الجغرافيين قد حدد موقع جزيرة جمكوت Djamkut[٤٠] على درجة ٩٠° إلى الشرق من جزيرة لانكا أى فى نهاية المعمورة ، ويذكر أن اسمها عند الهنود هو ياماكوتى Yamakoti ، بالرغم من أن ذكرها لا يرد لديهم . وهكذا فإن جمكوت فى المشرق تقابل « جزر السعادة » (الخالدات) عند بطلميوس فى المغرب[٤١] . وفى أقصى المشرق على خط الاستواء وعلى بعد ١٨٠° درجة إلى الشرق من « جزر السعادة » و ٩٠° درجة إلى الشرق من « قبة الأرض » يضع البيرونى بدلا من جمكوت قلعة كنكدز Kangdez الأسطورية التى كما تزعم الرواية الإيرانية بناها الملك كيكاوس أو الملك جم فى أقصى المشرق على خط الاستواء وعلى بعد ١٨٠° درجة إلى الشرق من « جزر الخالدات » و ٩٠° درجة من « قبة الأرين »[٤٢] . بل إن هذه القلعة ظهرت فى نهاية القرن السادس عشر كأنها موجودة فعلاً وذلك فى كتاب فارسى فى الجغرافيا هو « آئين أكبرى » الذى تم تصنيفه بالهند[٤٣] .

---

(٣٧) نالينو ، الفلك ، ص ١٥٤ — ١٥٥ ، ملاحظة ٤ (= Racc., p. 208, note 3)
وعلى بن محمد الجرجانى ، ص ١٦

(٣٨) -D.H. Müller, Al-Hamadani, I, p. 44-46

(٣٩) ذكره لدى : نالينو ، الفلك ، ص ١٦٢ (= Racc., p. 213)
وتحليله لدى : Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 139-140

(٤٠) -Honigmann, p. 122, note 2—Hudud, p. 188-190, No 13

(٤١) -Ferrand, Relations, II, p. 612, note, 4 = Same, Notes, p . 8, note 2

(٤٢) نالينو ، الفلك ، ص ١٨٧ — ١٨٨ (= Racc., p. 234)

(٤٣) -Honigmann, Die sieben Klimata, p. 140, note 3

ومن الغريب بمكان أن نظرية «قبة الأرض» بالأرين لم تجد فحسب طريقها إلى أوروبا ، بل وأدت هناك إلى ظهور نظريات كانت لها نتائج بعيدة المدى . ففى أثناء أسفاره بالمشرق بين عامى ١١١٠ – ١١١٤ اعتنق اديلارد الباثى Adelard of Bath ، مترجـم الجداول الفلكيـة للخوارزمى النظريات العربية الأساسية عن قبة الأرض والتقسيم المنظم لها ، ويلوح أنه أول من أدخل ذلك المصطلح إلى أوروبا فى ترجمته اللاتينية لتلك الجداول حوالى عام ١١٢٦/[٤٤] ؛ وجاء 71
فى قوله « الأرين أو قبة الأرض تقع على خط الاستواء فى النقطة التى تتلاشى عندها العروض ويمكن تحديد النقاط الرئيسة لأى مكان من خط زوال الأرين » . وهذه الفكرة نفسها قد دعا إليها المترجم الشهير جيرارد الكريمونى Gerard of Cremona (١١١٤ – ١١٨٧) وقد حملها على ما يبدو من طليطلة Toledo[٤٥] . وفى القرن التالى لهذا اعتنقها عدد من كبار علماء القرون الوسيطـة الأوروبيـة مثـل روجـر باكـون Roger Bacon والبرت الكـــبير Albertus Magnus[٤٦] . وكانت التصورات عنها مبهمة أحيانًا ، ففى إحدى الخارطات التى ترجع إلى عام ١٢٧٢ زحزحت الأرين صوب الشمال[٤٧] .

وقد لعب بطرس ألآيى Petrus de Aliaco أسقف كمبرى Cambrai (١٣٣٠ – ١٤٢٠[٤٨]) دورًا خطيرًا بالنسبة للعلم الأوروبى والكشوف الجغرافية التالية ، خاصة بفضل رسالته « صورة العالم » Imago Mundi التى تم تصنيفها حوالى عام ١٤١٠ وتم طبعها حوالى عام ١٤٨٠ – ١٤٨٧[٤٩] . وإذا كانت الرسالة فى حد ذاتها لا تمثل أهمية كبرى من وجهة نظر الدراسات العربية ، إذ لا تتضمن فى الواقع سوى بضع مقتطفات من الترجمات اللاتينية لابن

---

(٤٤) -J. K. Wright, Notes, p. 95

(٤٥) -Beazley, I, p. 403-404

(٤٦) -Kramers, Legacy, p. 93-94

(٤٧) -Taylor, p. 65-67

(٤٨) -Newton, p. 13

(٤٩) شرحه ص ١٤ – ١٥ ؛ وأيضاً -Kimble, p. 208-212

رشد وابن سينا وهالى Hali * والفرغانى[٥٠] ، إلا أنه من الغريب ملاحظة أن نظرية الأرين تظهر فيها بحذافيرها فى المتن وفى الخارطة على السواء[٥١] . وأكثر غرابة من ذلك أن يعرفها خريستوفر كولومبس Christopher Columbus فقد حفظت لنا تعليقاته الشخصية على النسخة التى كان يمتلكها من كتاب « صورة العالم » Imago Mundi[٥٢] . ومن هذا يتضح أن نظرية الأرين هى المسئولة بالذات عن ظهور نظرية الشكل الكمثرى للأرض عند كولومبس ، ومؤداها أن فى نصف الكرة الغربى من الأرض وفى مواجهة « قبة الأرين » مركزًا آخر للأرض على موضع أكثر ارتفاعًا من رصيفه بالجهة الشرقية[٥٣] . وهكذا فمهما بدا الأمر غريبًا اليوم فإن النظرية الجغرافية العربية كان لها دور فى كشف العالم الجديد، وليس ببعيد أن يكون تأثير هذه النظرية هو الذى دفع دانتى – الذى يدين بالكثير للتراث الإسلامى كما أثبت البحث الحديث – إلى وضع « المطهر » Purgatory على جبل فى الجانب الغربى من نصف الكرة الجنوبى[٥٤] ، كأنما يعكس بهذا التصورات المسيحية عن وجود الفردوس الأرضى فى أقصى الشرق فى مكان ما وراء البحار[٥٥] . هذا ولم تختف نظرية قبة الأرين من الجغرافيا الأوروبية إلّا عقب الرحلات الكبرى حول الكرة الأرضية[٥٦] .

72 ولم تجد / النظريات الفلكية والجغرافية الهندية طريقها إلى العرب مباشرة فحسب، بل وصلتهم أحيانًا فى ثوبها الإيرانى . ويتضح هذا بصورة جلية من بعض المصطلحات التى دخلت فى الاستعمال العلمى لدى العرب مبكرًا واستمرت باقية فيه ؛ وأحد هذه المصطلحات هو اللفظ

---

* نقل المستعرب الكبير هذا الاسم من كتاب نيوتن : Newton, Travels and Travellers in the Middle Ages, London 1926

وقد جاء فى ذلك الكتاب فى ص ٢٤ ما نصه :

«Many citations are given from Arab authors, Averroes, Hali, Alfragan, Avicenna and so no»

وإننى أميل إلى الاعتقاد بأن هذا الشكل اللاتينى كان يراد به اسم العالم العربى على بن رضوان (توفى عام ١٠٦٨ م) شارح « كتاب الأربعة » Tetrabiblos – لبطلميوس . (المترجم)

(٥٠) Newton, p. 14-

(٥١) Kramers, Legacy p. 94;—photo and translation: Newton, Frontispiece-

(٥٢) Newton, p. 15 —Kimble, p. 218 —Sarton, Inrtroduction, II, p 958- J.K. Wright, Geogr Lore p. 459-460, No 2—Kretschmer, p. 259-260-

(٥٣) Newton, p. 16-18 —Beazly, I, p. 405-

(٥٤) Kimble p. 184, 243-244-

(٥٥) Kimble, p. 184 —Wensinck, Tree, p. 5-

(٥٦) Reinaud, Introduction, p. CCXXXV, ff.-

الذى يطلق عادة على الجداول الفلكية أعنى بذلك لفظ زيج (وجمعه زيجات ، وزيجة ، وأزياج) ، وأصلها من الفارسية زيك ، وبالبهلوية زيك(٥٧) ، ويقصد به السدى الذى تنسج فيه اللحمة ، ثم أطلق على الجداول العددية لمشابهة خطوطها الرأسية لخيوط السدى . وثمة تفسير آخر لمؤرخ العلوم الدقيقة عند العرب شوى Schoy وهو أن لفظ زيج من الفارسية زه zäh أو زيق zik بمعنى الوتر والخيط الذى يستعمل فى المقاس(٥٨)؛ غير أن هذا التفسير لم ينل القبول رغم أنه يجد بعض التعضيد فى كلام للبيرونى، وذلك أثناء محاولته وضع ترجمة دقيقة للفظ اليونانى «قانون»(٥٩). وقد أطلق لفظ زيج عند العرب على أى مصنف فلكى بجداوله، أما الجداول نفسها فقد حملت أحياناً الاسم العربى «جداول» (جمع جدول) tables، كما استعمل فى معنى جداول نفسه تقريباً اللفظ اليونانى «قانون» الذى وصل إلى العرب على ما يبدو فى شكله السريانى.

وبعض الباحثين أراد أن يبصر آثار النفوذ الشرقى (الهندى - الإيرانى) فى أن الأوصاف الأولى للأقاليم السبعة ، التى ربما ساعد على اعتناق نظريتها التصورات الإيرانية عن الكشورات السبع(٦٠) ، تورد مناطق كل إقليم ابتداء من الشرق كما لدى الفرغانى مثلا(٦١) . ومن المستحيل بالطبع نفى هذا تماما ، رغم أن نظرية الأقاليم السبعة لم تثبت لدى العرب فى الواقع إلا بعد أن تعرفوا على النظريات اليونانية ، وربما حدث ذلك عن طريق السريان أيضا(٦٢) .

ومن بين المصنفات الفارسية لم يحدث تأثيرا كبيرا على العلم العربى إبان نشأته إلا مصنف واحد فقط ، لم يكن ذا قيمة كبيرة فى حد ذاته لأنه يقوم على الأرصاد والجداول الهندية لا الفارسية ، وهو المعروف عند العرب باسم « زيج الشاه » أو« زيج الشهريار » ومعناه زيج الملك(٦٣) . وأصله البهلوى معروف باسم « زيك شتروآيار » (Zik-i Shatroayar) ويبدأ

---

(٥٧) نالينو ، الفلك ، ص ٤٢ (= Racc., p. 120)

Honigmann Die sieben Klimata, p. 117

(٥٨) -Schoy, Kibla, p. 1061

(٥٩) -Honigmann, Die sieben Klimata, p. 117-118

(٦٠) -Kramers EI, EB, p. 64

(٦١) الفرغانى ، ص ٣٢

(٦٢) -Honigmann, Die sieben Klimata, p. 112

(٦٣) نالينو ، الفلك ، ص ١٨٥ - ١٨٦ (Racc.,p. 233 =) وص ٢١٠

Nallino, Sun, Moon and Stars, p. 95 — (= Racc. p. 252)

حساب توقيته ببداية ملك يزدجرد أى فى اليوم السادس عشر من شهر يونيو عام ٦٣٢ ، وهو يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان[٦٤] . وكما هو الحال دائمًا فإنه من العسير الحكم على أصله
73 الذى لم يصل إلينا ، ولكنه/لعب دورًا خطيرًا فى قالبه العربى[٦٥] ؛ وقد أفاد منه كما رأينا ما شاء الله[٦٦] كما وأن نظرياته لم تكن غريبة على محمد الخوارزمى[٦٧] أكبر دعاة المذهب اليونانى . ولما ثبتت جذور المذهب الأخير بدأ يبطل استعمال « زيج الشهريار » ولكنه لم يختف تمامًا وكثيرًا ما اعتمد عليه الفلكى حبش المروزى[٦٨] ، ونال انتشارًا واسعًا على يد أبى معشر البلخى (المتوفى عام ٢٧٢ هـ = ٨٨٦) الذى اشتهر فى أوروبا الوسيطة باسم Albumasar[٦٩] ، وذلك بقصصه المنمقة فى تاريخ هذا الزيج وأهميته . وأبو معشر أصله من بلخ ، انصرف فى أول أمره إلى دراسة التوحيد والحديث ، ثم فكر فى أداء فريضة الحج . أما ما حدث له فى هذا الصدد فيرويه لنا ياقوت فى معجمه « إرشاد الأريب » قال :

« كان بكركر من نواحى القفص * ضيعة نفيسة لعلى بن يحيى بن المنجم وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم والكتب مبذولة فى ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم والنفقة فى ذلك من مال على بن يحيى فقدم أبو معشر المنجم من خراسان يريد الحج وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شيء من النجوم فوصفت له الخزانة فمضى ورآها فهاله أمرها فأقام بها وأضرب عن الحج وتعلم فيها علم النجوم وأعرق فيه حتى ألحد وكان ذلك آخر عهده بالحج والدين والإسلام أيضًا »[٧٠] .

ومن بين المصنفات العديدة لأبى معشر هذا « زيج » يعتمد على خط نصف نهار قلعة كنكدز التى مر ذكرها أى أنه يرتفع إلى الأرصاد الهندية فى قالبها الفارسى[٧١] . وحتى القرن

---

(٦٤) -Honigmann Die sieben Klimata, p. 117-118

(٦٥) نالينو ، الفلك ، ص ١٨١ – ١٨٦ (Racc., p. 229-233 =)

(٦٦) نالينو ، الفلك ، ص ١٨٥ (Racc., p. 233) Nallino, Sun, Moon and Stars, 95 ,

(٦٧) نالينو ، الفلك ، ص ١٨٧ (Racc., p. 235 =)

(٦٨) نالينو ، الفلك ، ص ١٨٨ (Racc., p. 235 =)

(٦٩) -Reinaud, Introduction, p. LIV-LV, Brockelmann, GAL, I, p. 221-222, No 6; SBI, p. 394-395 —Brockelmann GAL 2, I, p. 250-251, Suter, Abu Mashar, p. 105,106, Sarton, Introduction, I, p. 568-569 , Shangin, Grecheskii Perevod Abu Mashara, No 10-11, p. 907-916

* قريبًا من بغداد . (المترجم) .

(٧٠) ياقوت ، الإرشاد الجزء الخامس ، ص ٤٦٧ .

(٧١) نالينو ، الفلك ، ص ١٨٧ – ١٨٨ (Racc., p. 229-235 =)

السابع عشر كان لدى حاجى خليفة فكرة واضحة عن هذا الزيج عندما كتب يقول[٧٢] :

« زيج أبى معشر ... وهو مجلد كبير ألفه على مذهب الفرس وأثنى على هذا المذهب وقال إن أهل الحساب من فارس وغيره/أجمعوا على أن أصح الأدوار أدوار هذه الفرقة وكانوا يسمونها سنى العالم وأما أهل زماننا يسمونها سنى أهل فارس » . 74

ولعله بسبب هذه « الأدوار » قد أطلق على جداوله فى موضع آخر اسم « زيج الهزارات » أى « زيج الألوف »[٧٣] ، حيث نبصر فى القسم الثانى من التركيب لفظًا فارسياً كذلك . وكان اهتمام أبى معشر بالأدوار الكونية (cosmic cycles) يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالنظريات المتعلقة بأدوار حياة العالم وبمسألة طول « السنة الكبرى » الذى حدده بطلميوس كما حدده الهنود والعرب أيضًا بست وثلاثين ألف سنة . ولجهود أبى معشر فى هذا الصدد أهمية خاصة فى تاريخ العلم البشرى ، وترجمة رسالته الكبرى « المدخل إلى علم أحكام النجوم » أو « المدخل الكبير » التى قام بها هرمان الدلماسى Hermann of Dalmatia حوالى عام ١١٤٠[٧٤] ساعدت بشكل خاص على ترويج تلك النظريات فى الغرب[٧٥] . هذا وقد شغلت مسائل التقويم (chronology) وحساب الأزمنة ذهن أبى معشر بوجه عام فلم يحصر نفسه فى نطاق العلم الهندى – الإيرانى ؛ ونبصر من قطعة كبيرة تبقت من مؤلفه المفقود « الألوف » أنه كان يجهد فى توضيح معنى « النسىء » الذى كان يعمل به عرب الجاهلية ، وهو شيء أشبه بالشهر الكبيس . ذلك أنه حتى فى العصر الذى عاش فيه كان المعنى الحقيقى لهذا اللفظ قد نسى تمامًا[٧٦] .

وأبو معشر هو آخر الدعاة الكبار للمذهب الإيرانى ، بالرغم من أنه كمحمد الخوارزمى قد أخذ طرفًا فى نشر المذهب اليونانى . غير أن المذهب الإيرانى لم يهجر بعده بصورة نهائية[٧٧] ، ففى الأندلس مثلا كانت الأطوال تقاس أحيانًا إلى نهاية القرن الحادى عشر « بمذهب أهل الفرس » الذى كثيراً ما أشار إليه إلى جانب « مذهب الهند » مصنف « جداول طليطلة »

---

(٧٢) حاجى خليفة ، الجزء الثالث ، ص ٥٥٨ – ٥٥٩

(٧٣) -Honigmann, Die sieben Klimata, p. 141

(٧٤) -Sarton, Introduction, II, 173

(٧٥) -J. K. Wright, Geogr, Lore, p. 82

عن الأدوار الكونية فى العالم القديم راجع R. Wright, p. 13-14

ولدى العرب راجع ص ١٤ – ١٥ ، ٨٢ – ٨٣

(٧٦) نالينو ، الفلك ، ص ٨٧ – ٩٠ (= Racc., p. 155-158)

(٧٧) نالينو ، الفلك ، ص ١٨٨؛ Nallino, Sun, Moon and stars, p. 95

The Tables of Toledo ومخترع الأسطرلاب المكمل أبو إسحق إبراهيم الزرقالى[٧٨] الذى اشتهر فى أوروبا باسم (Arzahel) بفضل رسالته فى الأسطرلاب .

ولعل « زيج الشاه » كان أكثر مصنفات المذهب الفلكى الإيرانى انتشارًا فى اللغة العربية ، بل وربما كان الوحيد من نوعه إذ لا علم لنا بترجمات لمصنفات أخرى ؛ ومن المحتمل أن الفرس لم تعرف فى هذا الفن كتبًا غيره . أما تلك المصنفات المنحولة ، خاصة فى التنجيم (astrology) ، والمنسوبة أحيانًا إلى زردشت Zoroastra[٧٩] وبزرجمهر ، والتى وجدت انتشارًا واسعًا فى الأدب العربى ، فليس لها أهمية جدية أضف إلى هذا أنها كثيرًا ما ترجع إلى التراث اليونانى لا الإيرانى رغمًا من أن عناوينها تشير إلى العكس .

75 وقد أخذ المذهب اليونانى يضيق الخناق على المذهبين الآخرين فى الجغرافيا الرياضية العربية منذ بداية القرن التاسع ، ويمكن القول بأنه قد أصبح بحق المذهب السائد منذ منتصف القرن التاسع . والمقاومة الضعيفة التى ظهرت من المذهبين الهندى والإيرانى ترجع فى جوهرها إلى أن أغلبية المصنفات التى تمت ترجمتها عنهما من قبل قد حملت طابعًا عمليًا خالصًا واقتصرت على إيراد القواعد وشرح طريقة استعمال الجداول دون الاهتمام بسرد البراهين والأدلة[٨٠] ؛ فالفلكى المكتفى بها لم يكن بوسعه أن يرقى فوق مرتبة المحاكاة الصرفة والتقليد المحض إذا لم يتمرس فى التحليل النظرى ويتمكن من الأسس ويتدرب تدريبًا كافيًا على الأرصاد الشخصية القائمة على الملاحظة الدقيقة لأمد طويل . وسرعان ما أحس العرب بحاجتهم إلى هذا المنهج عندما تعرفوا على مصنفات إقليدس Euclides وبطلميوس ؛ وليس أفضل فى هذا الصدد من إيراد ألفاظ البتانى عن بطلميوس . قال :

« إذ كان قد تقصى ذلك من وجوهه ودل على العلل والأسباب العارضة فيه بالبرهان الهندسى والعددى الذى لا تدفع صحته ولايشك فى حقيقته فأمر بالمحنة والاعتبار بعده وذكر أنه قد يجوز أن يُسْتَدْرَكَ عليه فى أرصاده على طول الزمان كما استدرك هو على إبَّرْخُس (Hipparchus) وغيره من نظرائه لجلالة الصناعة ولأنها سمائية جسيمة لا تدرك إلا بالتقريب »[٨١] .

---

(٧٨) Brockelmann, GAL, I, p. 472, No 3; SBI, 862 ; Sarton, Introduction, I, p. 758-759.

(٧٩) نالينو ، الفلك ، ص ١٨٨ – ١٨٩ ، ٢١٠ – ٢١١ (= Racc., p. 234-235, 251-253)

(٨٠) شرحه ، ص ٢١٤ (= Racc., p. 254)

(٨١) Nallino, Al-Battani, III, p. 7 (= Racc., p. 256).

نالينو الفلك، ص ٢١٥، أما الترجمة، الجزء الأول، ص ٥

ويبدو جليًا أن شمول التراث الهلنستى واتساع مداه واستيعابه المنظم لدى العرب ، هو الطابع المميز فى تاريخ نفوذ العلم اليونانى إلى العرب لدى مقارنته بالهندى والإيرانى . ففيما يتعلق بالتراث الهندى والإيرانى نلتقى بمصنفات منفردة تدين بظهورها لمجهودات فردية ، وذلك بعكس التراث اليونانى الذى بدأ العمل فيه بطريقة منظمة . فمنذ عهد هارون الرشيد (١٧٠ هـ = ٧٨٦ – ١٩٣ هـ = ٨٠٩) تم إنشاء « خزانة الحكمة » أو « بيت الحكمة » وهى أشبه بأكاديمية للترجمة ملحقة بها مكتبتها الخاصة ، وقد أضفى المأمون (١٩٨ هـ = ٨١٣ – ٢١٨ هـ = ٨٢٣) على المؤسسة طابعًا رسميًا/حينما أمدها بهيئة علمية خاصة وبعث من أجلها البعوث إلى بيزنطة لجلب 76
المخطوطات اليونانية . ولم تلبث بغداد أن أضحت مركزًا لحركة الترجمة العلمية وشارك فى هذا ممثلو جميع الطوائف الدينية من مختلف أصقاع الخلافة . وقد بلغ النشاط فى الترجمة درجة عالية حتى لم تكن لتنقضى عشر سنوات أو عشرون دون أن تظهر للكتاب الواحد ثلاث أو أربع ترجمات . وفى زمن قصير انتشرت بين العرب مؤلفات ابقراط **Hippocrates** وجالينوس **Galenus** وأرسطو وإقليدس وأرشميدس ومنيلاوس **Menelaus** وأپوللونيوس **Appollonius** ومارينوس الصورى **Marinus of Tyre** ، وهى تمثل فى مجموعها القاعدة الأساسية للعلم اليونانى[٨٢] . ولم يلبث أن احتل مكانة خاصة فى هذه المجموعة اللامعة من الأسماء شخص بطلميوس * الذى بدأ به عهد جديد فى تاريخ الفلك والجغرافيا عند العرب . أما تبيان أهمية مؤلفاته بالنسبة للعلم العربى بصورة مفصلة متكاملة فأمر يحتاج إلى بحث خاص يتطلب بدوره الكثير من البحث والتقصى . وقد تجمعت فى خلال العشرين عامًا الأخيرة مادة كبيرة وتعددت الأبحاث بصورة ملحوظة ، ولكنه رغمًا من أن التواريخ قد تكون واضحة أحيانًا إلا أن استنباط علاقة الترجمات المختلفة بعضها ببعض ودور كل منها لا يزال يقوم إلى الآن على أسس واهية .

ويمكن القول على وجه التحديد بأن الاهتمام الأساسى قد تركز حول مصنفيه الكبيرين وهما رسالته فى الفلك وتقع فى ثلاثة عشر كتابًا بجداولها (ἡ μεγάλη σύνταξις μαθηματική أى « الجامع ») و « المدخل إلى الجغرافيا » (ἡ γεωγραφική ὑφήγησις) المعروف عادة باسم « جغرافيا » . والأول منهما قد أخذ فى شكله العربى اسم « المَجِسْطى » **Almadjisti** (أحيانًا بكسر الميم « المِجِسْطى » **Almidjisti**) وفيما بعد دخل أوروبا الوسيطة فى صورة

---

* قلاوديوس بطلميوس Claudius Ptolemaeus الذى عرفته العرب باسم بطلميوس القلوذى فلكى مصر عاش فى مصر الرومانية . وأفضل ما فى العربية للتعريف به وبآثاره هو القسم المفرد له فى كتاب سارطون « العلم القديم والمدنية الحديثة » الذى عرّب وطبع بالقاهرة منذ عهد غير بعيد . (المترجم)

(٨٢) Nallino, Il Valore, p. 23

المجسط Almagest[٨٣] وهذه التسمية تعطينا بلا شك صيغة التفضيل (superlative) فى اللغة اليونانية μεγίστη (أى « الأعظم »). وقد أطلقت على المصنف علامة على الاحترام والتقدير الذى فاز به ، وهكذا فهم العرب الأمر[٨٤] . ولعل التسمية ترتفع إلى المترجمين العرب إذ لم تقابل إلى الآن فى المصادر اليونانية ؛ وقد أطرح الآن الرأى القائل بأن التسمية مركبة من اللفظين μεγάλη σύνταξις على طريقة النحت[٨٥] .

ومنذ عام ١٩٢٨ لاحظ أحد الباحثين بالكثير من الاكتئاب أنه « ليس هناك شيء أكثر خلطًا ولا اضطرابًا من مسألة الترجمات العربية لكتاب المجسطى لبطلميوس»[٨٦] . ويرجع هذا الاضطراب إلى أن معظم هذه الترجمات كما هى العادة لم تصل إلينا بل عرفت فقط من بعض الإشارات والشذرات المأخوذة عنها ، فضلا عن أن الترجمات المصلّحة المختلفة التى نما عددها على مر الزمن/قد طغت فى بعض الأحايين على الأصل تمامًا وقضت على إمكانية الحكم عليه*. 78
ويصدق هذا القول على الترجمة الأولى المعروفة باسم « النقل القديم » وهى التى عملت ليحيى بن برمك[٨٧] (توفى عام ١٩٠ هـ = ٨٠٥) ، أى قبل عام ١٨٧ هـ = ٨٠٣ دون شك ، وهو عام نكبة البرامكة . وهناك أساس للقول بأن هذه الترجمة تمت عن السريانية[٨٨] ، وهى كانت ما تزال فى أيدى الفلكيين الأوائل مثل البتانى والصوفى[٨٩] غير أنها بإجماع الآراء لم تكن ذات قيمة كبرى . وتفوقها الترجمة التى عملت فى عصر المأمون والتى قام بها الحجاج بن يوسف * حوالى عام ٢١٢ هـ = ٨٢٧ — ٨٢٨ ، وحفظت لنا فى بضعة مخطوطات لا تمثل الأصل دائمًا[٩٠] ،

---

(٨٣) -Suter, Almagest, p. 320

(٨٤) نالينو ، الفلك ، ص ٢٢٢ — ٢٢٣ (= Racc., p. 261-262)

(٨٥) راجع : نالينو ، الفلك ، ص ٢٢٣ — ٢٢٤ (= Racc., p. 262-263)
Suter, Almagest, p. 329; راجع : Brockolmann, GAL, I, p. 203, note 2; SBI p. 363

(٨٦) -Tallgren, Survivance, II, p. 213, 19

* ظهرت مؤخراً دراسة جيدة عن الترجمات العربية واللاتينية للمجسطى من عمل الخبير فى تاريخ الفلك لدى العرب باول كونيتش
Paul Kunitzsch, Der Almagest - Die Syntaxis Mathematica des Chaudius Ptolemaus in arabische - lateinischer Überlieferung, Wiesbaden, 1974. (المترجم)

(٨٧) -Zettersteen, EI, IV, p. 1245

(٨٨) نالينو ، الفلك ، ص ٢٢٤ — ٢٢٦ (= Racc., p. 262-264)
Tallgren, Survivance, p. 210-211

(٨٩) -Tallgren, Survivance, p. 214

* هو الحجاج بن يوسف بن مطر الذى عاش فى عهد الرشيد والمأمون بين حوالى عام ١٧٠ هـ = ٧٨٦ و ٢٢٠ هـ = ٨٣٥ ، وهو مترجم أصول إقليدس فى الهندسة . (المترجم)

(٩٠) -Brockelmann, GAL, I, p. 203, No I, SBI, p. 363-Tkatsch, p. 70 Nallino, EI, I, p. 518
—Nallino, Tracce di opere greche, p. 346

ويبدو أنها هى أيضًا نقلت عن السريانية[٩١] . ولم يقف الجهد عند هذا فقد شارك فى ترجمة المجسطى عالم يمكن اعتباره أكبر مترجمى القرن التاسع قاطبة وهو حنين بن إسحق (حوالى عام ١٩٤ هـ = ٨١٠ - ٢٦٠ هـ = ٨٧٣)[٩٢] ، وقد صلّح ترجمته بالتالى الفلكى الشهير ثابت بن قرة الصابى الحرّانى (٢١٩ هـ = ٨٣٤ - ٢٨٨ هـ = ٩٠١) الذى سنلتقى به عند الكلام على مصنفات بطلميوس فى الجغرافيا . والعلاقة بين ترجمتى حنين وثابت غير واضحة إذ أن ثابتًا نفسه قد نسب إليه عدد من المؤلفات الشخصية حول المجسطى[٩٣] . ومهما يكن من شىء فإن هذا الوضع يقف دليلا على ما بلغته حركة الترجمة من حيوية وانتظام ابتداء من عصر المأمون ، ويؤكد الاهتمام العميق بكتاب المجسطى الذى ترك أثرًا محمودًا فى تقدم الفلك والرياضيات[٩٤] لا بين العرب وحدهم بل وفى أوروبا الوسيطة . ومن فضل القول أن نضيف أن الترجمات العربية لعبت أيضًا دورها فى أوروبا الوسيطة ، فأولى ترجمات المجسطى العربية إلى اللاتينية قام بها جيرارد الكريمونى منذ عام ١١٧٥[٩٥] .

وكان بطلميوس على الأصح فلكيًا ورياضياً أكثر منه جغرافيًا[٩٦] ، ومن ثم فإن رسالته فى الجغرافيا تمثل فى جوهرها جداول فلكية لعروض وأطوال النقاط الرئيسية المسكونة فى العالم . ويعتبرها أحد كبار الباحثين المعاصرين « مقدمة لوضع مصور جغرافى » وليست « بجغرافيا »؛
وذلك وفقًا لمفهوم الجغرافيا الذى تطور فيما بعد . ووفقًا/لرأيه فإن هدف بطلميوس كان المعاونة فى 79
رسم صورة الأرض لا وصفها[٩٧] . ويرجع الفضل فى ظهور « جغرافيا » بطلميوس فى قالب عربى إلى المترجمين والفلكيين أيضًا ولكن اهتم بها اهتمامًا جدياً كذلك ممثلو الجغرافيا الوصفية . أما تاريخ الرسالة فى العالم العربى فنستطيع تتبعه بصورة أفضل بكثير عما هو الحال مع « المجسطى » وذلك بفضل الترجمة العربية المصلحة التى حفظت لنا والتى تم نشرها منذ زمن غير بعيد . ولكن حتى فيما يتعلق بهذا أيضًا يجب تكرار القول بأنه لا يزال هناك عدد من النقاط

---

(٩١) -Mieli, p.85, note 3

(٩٢) -Nallino, EI, I, p.518

(٩٣) -Wiedemann, Beiträge, LXIV, p.213

(٩٤) -Sarton, Introduction, I, p.273

(٩٥) شرحه ، ص ٢٧٤

(٩٦) -Schoy, Geography, p.257

(٩٧) نقد مجيك Mzik فى : GJ, XCIII, 1939, No 3, March, p. 252

الغامضة ، على الرغم من بحث هونغمان Honigmann الممتاز الذى ظهر عام ١٩٢٩ والذى بيّن فيه الخطوط الرئيسية لتاريخ هذه المسألة . وتذكر المصادر العربية ما لا يقل عن ثلاث ترجمات مختلفة لهذه الرسالة ، ترتبط جميعها بأسماء لامعة ؛ إحداها عملت للكندى (توفى حوالى عام ٢٦٠ هـ = ٨٧٤) الفيلسوف المقرب من بلاط العباسيين ، أو ربما عملها بنفسه[٩٨] ، والزعم الأخير موضع للشك خاصة إذا ما علمنا أن الترجمة وصفت بأنها « رديئة » . أما الترجمة الجيدة فهى من عمل ثابت بن قرة (توفى عام ٢٨٨ هـ = ٩٠١)[٩٩] ، وثمة ترجمة ثالثة يشير إليها ابن خرداذبه (بين ٢٣٢ هـ = ٨٤٦ و ٢٧٢ هـ = ٨٨٥) وذلك فى ألفاظ توحى بأنها من عمله هو . فهو يقول « فوجدت بطلميوس قد أبان الحدود وأوضح الحجة فى صفتها بلغة أعجمية فنقلتها عن لغته باللغة الصحيحة »[١٠٠] . وكما دلل نولدكه Nöldeke[١٠١] فإن الاتجاه الأدبى لابن خرداذبه والمركز الذى كان يشغله فى الإدارة يقف ضد الزعم القائل بأنه كان يستطيع الترجمة عن اليونانية أو السريانية ، ولعل الأمر يتعلق بتنقيح أسلوب الترجمة « الرديئة » التى مر القول عليها والتى عملت من أجل الكندى . أما ثابت بن قرة فهو من صابئة حرّان بالجزيرة وينتمى إلى مدرسة حران العلمية التى حفظت لنا التراث اليونانى بعناية أدق مما فعلت بغداد . ومن العسير القول بأنه ترجم رسالة بطلميوس دون إحداث أى تغيير فيها ، بل المحتمل أنه قد أجرى تعديلات فى النص ليكون أكثر قبولا وفائدة للعرب المعاصرين له[١٠٢] . وجميع هذه الترجمات لرسالة بطلميوس فى الجغرافيا ترد بعناوين مختلطة مضطربة ، الأمر الذى يزيد فى تعقيد المسألة[١٠٣]. غير أنه لحسن الحظ وصلتنا ترجمة مصلّحة معدلة لعلها من أقدم الترجمات وهى لأكبر رياضى وفلكى
فى النصف الأول من القرن التاسع هو محمد بن موسى الخوارزمى ، ويمكن اعتبارها/فى الوقت ذاته 80
أول رسالة أصيلة فى الجغرافيا الرياضية عند العرب وشاملة لجميع العالم المعروف لهم ؛ وسيرد الكلام عليها فى حينه بالتفصيل .

---

(٩٨) -Honigmann, Die sieben Klimata p. 113

(٩٩) شرحه ، ص ١٥٦

(١٠٠) ابن خرداذبه ، BGA, VI ، ص ٣

(١٠١) -Mzik, Afrika, p. V, note 2

راجع عن الخوارزمى وسهراب : Mzik BAH und G, III, P. XXIX

(١٠٢) -Nallino, Le Tabelle, p. 153

(١٠٣) -Honigmann, Die sieben Klimata, p. 115-116

ومما يزيد فى تعقيد مسألة الترجمات العربية لبطلميوس أن العرب باستثناء الأثرين اللذين مر ذكرهما ، قد عرفوا لبطلميوس مصنفات أخرى . وطريقة الاقتباس دون الإشارة إلى المصادر أدت إلى خلق صورة شديدة الاضطراب والخلط ، وقد قام هونغمان بدور ما فى تبديد بعض هذا الخلط . وثمة أهمية جوهرية بالنسبة لنا تمثلها تلك المصنفات التى ظهرت لها ترجمات مستقلة فى العالم العربى ويمكن تتبع آثارها فى مؤلفات الجغرافيين بالمعنى الواسع للفظ أى خارج دائرة الاختصاص الضيقة . وليس من المستطاع الجزم بانتماء جميع هذه المصنفات إلى الأدب الجغرافى ، مثال ذلك كتاب بطلميوس فى التنجيم «كتاب الأربعة» Τετράβιβλος أو quadripartitum(١٠٤) الذى يحتوى على أربع مقالات فى تأثير النجوم على مصير العالم ، وهو بمثابة ذيل للمجسطى وترجع الترجمة الأولى له إلى عهد المنصور وتنسب إلى أبى يحيى ابن البطريق (توفى حوالى عام ٨٠٠) والد المترجم المشهور(١٠٥) ، وأخرى أحدث منها تنتهى إلى العصر الذهبى فى خلافة المأمون ، ويقوم بدور المترجم حنين بن إسحق وثابت بن قرة . كما وأن الكتاب قد شرح أكثر من مرة(١٠٦) ولكنه لم يطبع إلى الآن فى صورة تامة . وقد ضمن الجغرافى وعالم الآثار المشهور الهمدانى قطعة كبيرة منه فى « الجغرافيا التنجيمية » فى كتابه فى وصف جزيرة العرب(١٠٧) .

واكتسب صيتاً واسعاً ترجمة «الجداول الفلكية المبسطة » Πρόχειροι Κανόνες المستخرجة من « المجسطى » والتى ترتبط أحيانًا « بجدول المدن الكبرى »(١٠٨) Επιστήμων πόλεων κανόνες ؛ ولا تزال غير واضحة تمامًا صلة بعض هذه المصنفات ببعض حتى فى المحيط اليونانى . وكما وضح منذ عهد غير بعيد فإن المصنف الأخير يمثل كتابًا مستقلا(١٠٩) ، بينما لا يرجع تأليف « الجداول الفلكية المبسطة » إلى بطلميوس بقدر ما يرجع إلى ثاون Theon الشارح المشهور للقرن الرابع(١١٠) . ومهما يكن من شىء فإن هذه الجداول هى المسئولة بالذات عن ظهور ذلك المصنف الذى عرف فى العالم العربى باسم « زيج بطلميوس » والذى لا علاقة له البتة

---

(١٠٤) Sarton, Introduction, I, p. 277, No 19; Honigmann, Die sieben Klimata, p. 113 (= Racc., p. 256-257, 201)

(١٠٥) نالينو الفلك ، ص ٢١٦ – ٢١٧ ، ٢٤٦ Mieli, p. 69

(١٠٦) Honigmann, Die sieben Klimata, p 116

(١٠٧) D. H. Müller, Al-Hamdani, p. 28-44

(١٠٨) Honigmann, Die sieben Klimata, p. 116, No 4

(١٠٩) Roberto, Catalogue, III, p. 142-146, No 522

(١١٠) Honigmann, Die sieben Klimata, p. 120-121

81 بالمجسطى[١١١] . ويبدو أن معرفة العرب بهذا الزيج منذ عهد/الرشيد كانت عن طريق السريان[١١٢] ؛ وأغلب الظن أنه قد قام بدوره فى تثبيت لفظ « زيج »[١١٣] وانتشاره فى العالم الإسلامى بصورة نهائية ، بحيث استمر يتمتع بتداول واسع على مدى تاريخ الجغرافيا الرياضية عند العرب وبقى كذلك فى عهد ورثتهم الفرس والترك .

ولا تزال مستعصية على الحل مسألة أصل كتاب آخر تعزوه العرب دون أى مبرر إلى بطلميوس وهو « كتاب الملحمة » ، ولا يقصد بالملحمة هنا المعركة بل « التنبؤات » وذلك لعلاقته بالتنجيم[١١٤] . وهذا الكتاب هو المصدر الأساسى لياقوت فى معجمه الجغرافى دون جميع الزيجات الأخرى وعليه بنى تحديده لأطوال وعروض المدن واستخرج منه وقائع تنجيمية مختلفة[١١٥] . وقد بلغت استشهادات ياقوت به السبعين تقريبًا[١١٦] ، جمعها هونغمان بدرجة تتفاوت قربًا وبعداً عن الكمال . والمقارنة التى أجراها بينه وبين بقية المصادر جعلته يفترض أنه على صلة ما بالترجمة « الرديئة » التى كانت تحت تصرف الكندى[١١٧] والمختلفة تمام الاختلاف عن الترجمة المصلّحة للخوارزمى[١١٨] ؛ وهى كالأخيرة تضم عناصر بطلميوسية وأخرى عربية . وليس من الممكن توضيح طبيعة العلاقة الزمنية بين « كتاب الملحمة » وكتاب الخوارزمى ، وقد لوحظ أنه رغمًا عن الطابع التنجيمى الغالب عليه فهو يعطى أحيانًا تحديدات عن بطلميوس أدق من تلك التى يعطيها الخوارزمى[١١٩] .

ويقصد ياقوت فى معجمه « بكتاب الملحمة » مصنفًا معينًا يرتفع إلى تراث علمى ذى مفهوم مستقل . ويجىء استعمال الكلمة عادة فى صيغة الجمع « كتاب (أو أبواب) الملاحم » ويقصد به فى الأدب العربى التعبير عن جميع ضروب التنبؤات التى ازدهرت فى العالم الإسلامى ، خاصة التنبؤات ذات الطابع الأخروى أى المتعلقة بالعالم الآخر والتى نشأت فى محيط لا علاقة له البتة ببطلميوس . وهذه التنبؤات ظهرت فى بادىء الأمر فى مجموعة الأحاديث

(١١١) شرحه ، ص ١١٧
(١١٢) شرحه
(١١٣) شرحه ، ص ١٢١
(١١٤) شرحه ، ص ١٢٥ ، ١٣٣
(١١٥) شرحه ، ص ١٢٥
(١١٦) شرحه ، ص ١٢٦ – ١٣٠
(١١٧) شرحه ، ص ١٣٣ ، ١٥٥
(١١٨) شرحه ، ص ١٣٤ ، ١٥٥
(١١٩) شرحه ، ص ١٥٥

الصحيحة وفى أدب الترغيب والترهيب ، وقد وجدت لها تربة صالحة فى الدوائر الشيعية ولم يكن من النادر نسبتها إلى أئمتهم[١٢٠] . والذى دفعنا إلى هذا الاستطراد من الحديث على الجغرافيا الرياضية إلى الحديث عن أدب الملاحم التوافق فى التسمية وخوف الخلط مع « كتاب الملاحم » المنسوب لبطلميوس .

وقد أدى التاريخ المعقد للترجمات العربية لبطلميوس إلى ضرب من الازدواج فى الجغرافيا 82
الرياضية العربية يرتبط باسمه ويقوم أساسًا على سؤال مؤداه إلى أى مصدر بالذات ترتفع الرواية العلمية لهذه الترجمات ، هل إلى « المدخل إلى الجغرافيا » لبطلميوس أم إلى « الجداول المبسطة » لثاون ؟ ومما يزيد فى غموض هذه الصورة ما علق بهذه المصادر من شوائب مختلفة . بيد أن كل ذلك لا يحول دون الاعتراف بالدور الرئيسى لمصنفات بطلميوس فى تطوير الأدب الجغرافى العربى، وقد اقترنت باسمه على الأقل ثلاثة مصنفات أخرى جرى تداولها فى العالم العربى. فليس غريباً إذن إزاء هذا الاستيعاب الشامل للتراث اليونانى فى ميدان الجغرافيا أن يتقهقر إلى الصف الثانى التأثير الهندى والإيرانى الذى كان سائداً من قبل.

غير أن الأمر لم يقف عند حد الاستيعاب الأدبى ، سواء بالترجمة أو التعديل، بل تعداه إلى ما وراء ذلك . وقد كان البتانى مصيبًا فى قوله إن بطلميوس قد دعى إلى « المحنة والاعتبار بعده » . ففى هذا العصر بالذات بدأ العرب فعلا يجمعون بين الاستيعاب النظرى للعلم اليونانى والتطبيق العملى لنظرياته فى بحوثهم المستقلة، الأمر الذى تجاوزت أهميته نطاق عصرهم بكثير . فقد وصلوا إلى حساب خط منتصف النهار وضبطوا العروض والأطوال الجغرافية ووضعوا جداولهم الفلكية المستقلة على أساس المراجعة النقدية لنتائج السابقين لهم فى هذا المضمار ، ورسموا خارطات لا تقل جودة عن النماذج اليونانية. ويخلو وصفهم لهذه الخارطات من ذلك العنصر الأسطورى الذى دفعنا من قبل إلى التشكك فى إمكان وجود خارطات إسلامية فى العهد السابق لهذا.

وقد أحس العرب فى أنفسهم النضج التام لإعادة تجربة اراتوسثينيس **Eratosthenes** فى تحديد مقاس درجة من خط منتصف النهار ، دفعهم إلى هذا جرأة معهودة لدى جميع ممثلى الحضارات الفتية[١٢١] . وبغض النظر عن النتائج التى توصلوا إليها فإن المحاولة فى حد ذاتها جديرة بالإكبار خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أنه لم تجر منذ أقدم العصور سوى ثلاث تجارب مستقلة لقياس الأرض ــ إحداها لإيراتوسثينيس والثانية لبطلميوس والثالثة للعرب ، وأن جميع معلومات

---

(١٢٠) -Macdonald, Malahim, p. 204-205 —Macdonald, Djafr p. 1037

(١٢١) -Nallino, II Valore p. 24

أوروبا الوسيطة فى هذا الصدد إنما تعتمد عليها اعتمادًا كليًا[١٢٢] . وقد اختيرت لهذا القياس المفازة الواقعة بين تدمر والرقة على الفرات وواد فى أرض الجزيرة قرب سنجار بين درجتى عرض ٣٥° و ٣٦° شمالا[١٢٣] . وانقسمت اللجنة المكلفة بـهذا العمل ، وذلك بعد اجتماعها فى النقطة المركزية ، إلى فرقتين اتجهت إحداهما جنوبًا على خط منتصف النهار على بعد درجة واحدة ، بينما اتجهت الفرقة الأخرى على المسافة نفسها ولكن صوب الشمال . ثم رجعتا إلى نقطة البداية وأجروا مقارنة بين النتائج التى توصلوا إليها ثم استخلصوا النتيجة النهائية . وقد أجريت هذه التجربة عام
٨٢٧ واتسمت الروايات عنها بطابع يسوده الاضطراب من ناحية/والخيال من ناحية أخرى . 83
ويروى ابن يونس ، وهو من فلكيى أواخر القرن العاشر ، أن إحدى الفرقتين قد حددت مقاس الدرجة بسبعة وخمسين ميلا بينما حددته الأخرى بستة وخمسين ميلا وربع الميل ، وأنه حين عرضت النتائج على المأمون أخذ بالرقم المتوسط وهو ستة وخمسون ميلا وثلثا الميل[١٢٤] . وأغلب الظن أن هذه التفاصيل لا تخلو من العنصر القصصى ، ولكن تجدر بنا الإشارة إلى أن بعض الفلكيين ممن كانوا على علم بطريقة القياس هذه قد توصلوا إلى نتائج مكنت العلم المعاصر من حساب المعادل المترى (metric concordance) لمقاسات المأمون . هذا وعقب المحاولة الفاشلة لجوردان Jordan فى أواخر الثمانينيات من القرن الماضى وذلك اعتماداً على الترجمات اللاتينية للمصنفات العربية ، أجرى المستعرب نالينو Nallino فى عام ١٨٩٢ فحصًا عميقًا لجميع الروايات المختلفة عن المقاييس العربية لخط منتصف النهار بدقة فائقة حتى أن عالم الرياضيات شوى Schoy لم يأخذ عليه فى عام ١٩٢٧ سوى فروق ضئيلة[١٢٥] . وقد وضح من هذه القياسات أن الميل العربى كان يساوى أربعة آلاف ما يسمى « بالذراع السوداء » التى ارتبطت باسمها كما هو الشأن دائمًا أسطورة ما . وهذه الذراع السوداء كانت أقل من نصف المتر قليلا (٠,٤٩٣٣ مترًا لدى نالينو و٠,٤٩٣٢ مترًا لدى شوى)[١٢٦] . وقد نشأ الخطأ فى حساب العلماء السابقين لهما من اتخاذهم ذراع « مقياس النيل » nilometer المشهور

---

(١٢٢) تحليله لدى : Taylor, p. 67-68

(١٢٣) -Nallino, Il valore, p. 35; Nallino, Al-Battani,I, p. 164-165

(١٢٤) -Schoy,Erdmessungen, p. 438-439

(١٢٥) نظرية ديكوردمانش مفعمة بالتخيلات.راجع :
(Decourdemanche, JA, 11 Série, I, 1913, p. 427-444)

(١٢٦) -Nallino, Il Valore, p. 116; Schoy, Erdmessungen, p. 441, 443

بالقاهرة كوحدة للقياس . وهو يتجاوز نصف المتر بقليل (٠,٥٤ من المتر لدى شوى)[١٢٧] ولذا فإن الميل العربى المستعمل هنا يقرب طوله من كيلو مترين (١٩٧٣,٢ مترًا عند نالينو أو ١٩٧٢,٨ مترًا عند شوى)[١٢٨] . ودرجة خط منتصف النهار مقدارها عند نالينو ١١١٨١٤,٦٧ مترًا وعند شوى ١١١٧٢٠,٩ مترًا [١٢٩] . فإذا عرفنا أن أكثر المقاسات انتشارًا فى القرن التاسع عشر وهو مقياس بيسيل Bessel قد قدر الدرجة بمقدار ١١٠٩٣٨ مترًا[١٣٠] ظهر لنا جليًا أن الخطأ فى مقياس العرب يقل عن الكيلو متر ، مما يمكن أن نرجعه فى يسر إلى النقص فى الأجهزة المستعملة فى القرن التاسع . إن هذه المحاولة الجريئة لمقاس الأرض تقف فى حد ذاتها دليلا على ما بلغته الحضارة العربية من تقدم علمى كبير وسريع الخطا ، مما جعلها تحتل بحق مكانة مرموقة فى تاريخ الجغرافيا والرياضيات[١٣١] . ومما يوكد الأهمية التاريخية لهذا الحادث أن القياس التالى للأرض بعد العرب لم يتم إلا فى أوائل القرنين السادس عشر والسابع عشر (فرنل Fernel وسنليوس Snellius)[١٣٢] .

كان الحساب المأمونى لدرجة خط منتصف النهار أصح القياسات لعهده وأعمها انتشارًا ، 84
غير أن العرب عرفت أيضًا غيره من القياسات وصلتهم عن اليونان والسريان واستمر بعض العلماء يستعملها من حين لآخر . ويمكن أن يرد أصل هذه الحسابات إلى أن علماء السريان والعرب لم تكن لديهم فكرة واضحة عن حقيقة المقاييس التى استعملها اليونان عند إجراء تلك القياسات. وخير مثال لهذا هو حساب بطلميوس للدرجة بمقدار ستة وستين ميلاً وثلثى الميل[١٣٣] ، على أساس القياسات التى أجريت فى أرض الجزيرة بين حران وآمد والتى يتحدث عنها ياقوت فى مقدمة معجمه الجغرافى[١٣٤] . وقد كان تحديد الدرجة بمقدار خمسة وسبعين ميلا[١٣٥] ، وهو التحديد الذى أخذ غالبًا عن السريان ، أقل دقة واستعمالا من سابقه

---

(١٢٧) -Schoy, Erdmessungen, p. 443

(١٢٨) -Nallino, II Valore, p. 121,Schoy, Erdm., p. 444-445

(١٢٩) -Nallino,II Valore, p 117 ,Schoy, Erdm., p. 441

(١٣٠) -Nallino, II Valore, p 117,Schoy, Erdm., p. 442 , Globus, 1938, 330—110960 m.

(١٣١) -Nallino, II Valore, p 117

(١٣٢) نالينو الفلك ٢٩٣ – ٢٩٤ (= Racc., p. 305)

(١٣٣) -Nallino II Valore, p. 24-27

(١٣٤) ياقوت ، المعجم الجزء الأول ، ص ١٧

(١٣٥) -Nallino, II Valore, p. 50-53

رغما من أنه ظهر فى عدد من المؤلفات الجغرافية ووجد عند فلكى كبير كالبتانى(١٣٦) . هذا وقد ارتبطت مقاسات الطول المستعملة فى الحياة اليومية بالقياس الأول ، وإذا حدث وأن تراوحت مقاسات الذراع نظرًا لتعدد أنواعه فإن الميل قد استمر ثابتًا ، على الأقل فى المعاملات الرسمية(١٣٧) ؛ كما استمر ثابتًا أيضًا الفرسخ وهو يساوى ثلاثة أميال ، أى ستة كيلو مترات بالتقريب(١٣٨) .

وبفضل الترجمات اللاتينية للمصنفات العربية وجد طريقه إلى أوروبا التحديد المأمونى للدرجة بستة وخمسين ميلا وثلثى الميل . ونتيجة لذلك فقد تكرر ما وقع للسريان والعرب مع اليونان ؛ ذلك أن العلماء الأوروبيين للقرنين الرابع عشر والخامس عشر لم يلتفتوا إلى الاختلاف بين الأميال العربية وأميالهم ، الأمر الذى نشأت عنه أخطاء جسيمة أعان أحدها على اكتشاف كولومبس لأميريكا ، فهو قد احتسب الدرجة بمقدار ستة وخمسين ميلا إيطاليا وثلثى الميل ، فى حين كان الميل الإيطالى فى واقع الأمر يقل عن الميل العربى بمقدار ثلاثمائة وأربعة وثمانين مترًا . وعلى ذلك فالدرجة الواحدة فى حساب كولومبس تقل بمقدار اثنين وعشرين كيلو مترًا عن الدرجة العربية ، وبالتالى كان تقدير المسافة بين سواحل أوربا الغربية وسواحل آسيا الشرقية أقل بكثير عن الواقع ؛ ولعل كولومبس لو علم بحقيقة الأمر منذ البداية لما أقدم على ركوب المحيط على سفنه الصغيرة التى لم يكن بوسعها حمل المؤن اللازمة لمثل هذه المهمة(١٣٩) .

وحساب درجة نصف النهار لا يعتبر الحدث الأهم لعصر المأمون ، ولكن يمكن اعتباره حدثًا
فريدًا فقط ، إذ أن النشاط سار قدمًا وبخطا منتظمة فى محيط الفلك والجغرافيا الرياضية/ . ففى 85
خلافة المأمون تم إنشاء مرصدين أحدهما ببغداد بحى الشماسية والآخر على جبل قاسيون عند دمشق ؛ وقد تركز مجهود المرصدين فى تحقيق جميع معطيات المجسطى تحقيقًا علميًا(١٤٠) ، وساق هذا إلى تحديد الموقع الجغرافى لجميع النقاط المهمة من جديد . أما فيما يتعلق بخط نصف النهار الابتدائى فإن الآراء كما أسلفنا لم تتفق على نقطة واحدة ، فالفلكيون العرب بدأوا حسابهم إما على نمط اليونان ابتداء من أقصى الغرب متجهين صوب الشرق إلى درجة ١٨٠° من « المعمورة » ،

---

(١٣٦) -Nallino, Al-Battani, p. 164-165

(١٣٧) -Nallino, II Valore, p. 120

(١٣٨) -Wiedemann, AGNT, I, p. 66, note 3
مع الإشارة إلى نالينو (Nallino, II Valore, p. 105-117)

(١٣٩) نالينو ، الفلك ، ص ٢٩٣ (= Racc., p. 305)

(١٤٠) -Nallino, EI, I, p. 518

أو قاسوا ٠ ٩٠° درجة إلى الشرق وإلى الغرب من خط منتصف النهار المركزى الذى يخترق « قبة الأرين » فى مركز الأرض على خط الاستواء[١٤١] . بيد أن هذا لم يمنعهم من بلوغ درجة عالية من الدقة فى حسابهم مما يمكن استنباطه من بعض الأمثلة . فالفلكيون أبناء موسى بن شاكر قاسوا عرض محلة باب الطاق ببغداد بثلاث وثلاثين درجة وعشرين دقيقة شمالا ، وهو ما ينطبق تمامًا على واقع الحال . كما ضبط الماهانى (توفى حوالى ٢٦٠ هـ = ٨٧٤ - ٢٧٠ هـ = ٨٨٤) عرض مدينة سامراء بأربع وثلاثين درجة واثنى عشر دقيقة شمالا ، بينما يشير التحديد المعاصر لأوبنهيم Oppenheim إلى ٣٤° درجة و ١١ دقيقة و ٥٠ ثانية شمالا[١٤٢] . أما البيرونى فإنه قاس فرق الطول بين بغداد وغزنة فى ٢٤° درجة و ٢٠ دقيقة وذلك بطريقة تنم عن ذكاء وافر توصل إليها بنفسه ، هذا بينما أثبتت الملاحظة المعاصرة أن الفرق يبلغ ٢٣° درجة و ٥٠ دقيقة[١٤٣] . ومما يقدم مثالا طريفًا للتصحيحات التى أجراها العرب فى قياسات الأطوال التى أخذت قبلهم هو اختزالهم التدريجى لطول البحر المتوسط ، فاليونان وفقًا لبطلميوس قدروا طوله باثنين وستين درجة ، اختزلها محمد الخوارزمى إلى ٥٢° درجة وتلاه الزرقالى فى « جداول طليطلة »[١٤٤] فاختزلها إلى ٤٢° درجة أى ما يعادل طوله الحقيقى بالتقريب[١٤٥] . وقد استمر هذا التراث فى حفظ الحساب الدقيق إلى نهاية عصر الابتداع العلمى « العربى » فى الشرق ، فألوغ بيك يحدد عرض مرصده بسمرقند فى ٣٩° درجة و ٣٧ دقيقة شمالا ، صححها الفلكى الروسى استروفه Struve إلى ٣٩° درجة ، و ٣٨ دقيقة و ٥٠ ثانية أى بفرق يقل عن دقيقتين[١٤٦] .

وتقرير فلكيى عصر المأمون فى تحديد المواقع الجغرافية يرجع أساسًا إلى الأرصاد التى أجريت ببغداد عام ٢١٤ هـ = ٨٢٩ وبدمشق عام ٢١٧ هـ = ٨٣٢[١٤٧] ، ويعرف هذا التقرير باسم « الزيج المأمونى الممتحن ».وهو وإن لم يصلنا فى صورته الأصلية إلا أن أثره كان بليغًا كما يتضح من المصنفات المماثلة لمعاصريه الخوارزمى والفرغانى . ومن الطريف ملاحظة أنه لايخلو/من رد فعل 86

---

(١٤١) -Schoy, Geography, p. 263-264

(١٤٢) شرحه ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(١٤٣) -Kimble, p. 65

(١٤٤) شرحه ، ص ٦٣

(١٤٥) -Wright, Notes, p. 86

(١٤٦) -Schoy, Geography, p. 269

(١٤٧) -Honigmann, Die sieben Klimata, p. 123

معين ضد التأثير المطلق للعلم اليونانى ، فهو خلو تمامًا من أية أسماء من أسماء العالم الكلاسيكى كما وأن القليل من الأسماء الأعجمية الواردة فيه إنما يرتفع إلى مصدر سريانى[١٤٨] . والمادة الرئيسية للحكم على « الزيج المأمونى » تستقى أساسًا من الرسالة الشهيرة لأحمد بن محمد بن كثير الفرغانى « كتاب الحركات السماوية وجوامع علم النجوم » – وهى واحدة من أولى المصنفات العربية فى الفلك وتكاد تكون أكثرها شهرة فى أوروبا الوسيطة . ورغما من هذا فإن اضطرابا بالغًا يسود المعلومات عن المؤلف ، ولم يقتصر هذا على الجهل بتاريخ وفاته بل تعداه إلى أنه لم يتضح حتى الآن هل يُقصَد بهذا الاسم شخص واحد أو شخصان مختلفان ، وأيهما يرتبط باسمه إصلاح مقياس النيل . والأمر الذى لا يتطرق إليه الشك هو أن الفرغانى قد عاش فى النصف الأول من القرن التاسع وأن آخر ذكر له يرجع إلى عام ٢٤٧ هـ = ٨٦١[١٤٩] . وفى رسالته هذه يعطى الفرغانى موجزًا للمبادىء الأولية فى الفلك معتمدًا على النظرية اليونانية فى الأساس ، دون أن يورد أية قواعد هندسية معقدة . ويهمنا فى هذا الصدد أنه أرفق برسالته هذه جدولا يبين الأماكن الهامة موزعة وفقًا للأقاليم السبعة من الشرق إلى الغرب مع تحديد مواقعها الجغرافية ؛ وهذا الجدول كما أثبت البحث يمثل اقتباسًا للفصول الخاصة بذلك فى « الزيج المأمونى » مما يسهل الحكم على الأخير إلى حد ما[١٥٠] . وبفضل الفرغانى أخذ الغرب فكرة مبكرة عن « الزيج المأمونى » فقد ترجمت رسالة الفرغانى مرتين إلى اللغة اللاتينية فى القرن الثانى عشر ، كما ترجمت فى القرن الثالث عشر إلى لغات أوروبية أخرى ؛ وقد تمتعت بانتشار واسع وكانت معروفة جيدًا لدانتى[١٥١] ، وتعتبر الترجمة اللاتينية التى طبعت بفرارا Ferrara عام ١٤٩٣ من أوائل ما عرفه فن الطباعة فى أوروبا[١٥٢] . وفضلا عن ذلك فإن الفرغانى يعتبر أول فلكى عربى تعرف عليه العالم الأوروبى فى متنه الأصلى وذلك بفضل الطبعة الممتازة بالنسبة لعصرها والترجمة اللاتينية الجديدة للمستعرب والرياضى الهولندى يعقوب غوليوس Jacob Golius فى عام ١٦٦٩ . هذا وقد استمر صيته حيًا

---

(١٤٨) شرحه ، ص ١٥٦

(١٤٩) Sarton, Introduction, I, p. 567 , Honigmann, Die sieben Klimata, p. 136 , Suter, EI, II, p. 69-70 - Brockelmann, GAL, I, p. 221, No 2; SBI, p. 392-393.

نالينو ، الفلك ، ص ٤٠ (= Racc., p. 119)

(١٥٠) Honigmann, Die sieben Klimata, p. 136, 154, 165 -

(١٥١) Sarton, Introduction, I, p. 567 — Sarton, Osiris, V, p. 106 -

(١٥٢) الصورة فى : Sarton, Osiris V, p. 141

فى أوروبا كمنجم إلى القرن الثامن عشر .

وإلى جانب « الزيج المأمونى » والترجمات العديدة المعدّلة لمصنفات بطلميوس يقدم لنا هذا العصر المبكر لازدهار العلوم العربية أثرًا ممتازًا من الآثار الجغرافية هو ما يسمى « الصورة (أى الخارطة) المأمونية » ؛ وبالطبع لم تحفظ لنا منها آثار أو بقايا مباشرة . غير أنه فى الوقت الذى
87 أحاط بذكر/خارطات العصر الأموى من حين لآخر أساطير وخرافات لا تستند على أساس من الواقع فإن معلوماتنا عن خارطة المأمون صحيحة بدرجة تسمح لنا بتكوين فكرة ما عنها ، وهى ترتبط كما هو متوقع بخارطات بطلميوس وبخارطات مارينوس الصورى التى لم تصل إلينا . وقد رأى كل هذا بعينى رأسه المسعودى فى القرن العاشر ووصفه فى مصنفه الأخير الذى يعرض فيه بعض الشيء لنشاط حياته العام ، فقال :

« ورأيت هذه الأقاليم مصورة فى غير كتاب بأنواع الأصباغ وأحسن ما رأيت من ذلك فى كتاب جغرافيا لمارينوس وتفسير جغرافيا قطع الأرض[١٥٣] وفى الصورة المأمونية التى عملت للمأمون واجتمع على صنعتها عدة من حكماء أهل عصره صور فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك وهى أحسن مما تقدمها من جغرافيا بطلميوس وجغرافيا مارينوس وغيرهما »[١٥٤] .

ومن العسير علينا بالطبع استكناه الطريقة الفنية التى اتبعت فى عمل الخارطة المأمونية ، ولكن هناك ما يحملنا على الافتراض بأنها تتلخص فى مصور جغرافى موضحة عليه « أسماء الأقطار والمدن المعروفة فى كل إقليم » طبقًا للقسم المماثل من « زيج المأمون » . وفيها تم نهائيًا استبدال الأسماء العربية بالأسماء الكلاسيكية ، غير أن حدود « المعمورة » والأقاليم قد حفظت لنا على الطريقة اليونانية ، أما الأطوال فقد حسبت على ما يبدو على أساس المذهب الإيرانى ابتداء من المشرق كرد فعل ضد الاتجاه الغربى للعلم ، أو ربما كان ذلك أكثر ملاءمة لطريقة الكتابة العربية من اليمين إلى اليسار[١٥٥] . وبالطبع فإن إعادة تصوير هذه الخارطة بحذافيرها أمر مستحيل[١٥٦] بالرغم من أن بعض الفلكيين قد أفادوا منها بطريقة منتظمة وحفظوا لنا مجموعة من الحقائق

---

(١٥٣) عن تفسيره قطع الأرض ، راجع : Dozy, Supplément II, p. 371
ولكن راجع أيضا : حدود العالم ، ص ٩

(١٥٤) المسعودى ، BGA, VIII ، ص ٣٣ ، راجع :
Nallino, Al-Huwarizmi, p. 13, note 4 (= Racc., p. 473)

(١٥٥) Honigmann, Die sieben Klimata, p. 155-

(١٥٦) شرحه ، ص ١٤٣

عنها(١٥٧) ؛ ولايزال الكثير من الغموض يكتنف طبيعة الأسس التى رسمت عليها . وبالرغم من أن المسعودى يوكد أن الأرض قد صورت فيها وفقًا لمذهب بطلميوس إلا أن الزهرى الجغرافى الأندلسي للقرن السادس - إذا صح ما زعمه فى مقدمة مصنفه « كتاب الجغرافيا »(١٥٨) من أنه قدر أى الخارطة المأمونية - يعطى وصفًا مغايرًا تمام المغايرة . وطبقًا لما جاء فى قوله فقد كانت مقسمة إلى سبعة أقاليم ستة منها تحيط بالسابع فى الوسط . وهذه الطريقة
أكثر مطابقة للتقسيم الإيرانى للأرض إلى كشورات كما وصفه البيرونى فى/« كتاب 88
التفهيم »(١٥٩) ؛ وإذا ما أخذنا فى حسابنا الميول الإيرانية للمأمون وللدوائر المحيطة به فيجب ألا يدهشنا هذا فى شيء . بيد أن أقوال الزهرى تقف فريدة فى بابها بشكل يمنعنا من تغليبها على إجماع الآراء فى الجانب الآخر . وثمة نقطة لا يرقى الشك إليها وهى أن فكرة صنع خارطة للعالم من أجل المأمون لم تخل من تأثير فكرة اعتبارها رمزًا للسيادة العالمية وذلك على نهج إيران القديمة ، فقد حفظت روايات عديدة عن آثار مماثلة عملت من قبل للأكاسرة الساسانيين . واعتبر كبار الحكام هذا وقفًا عليهم وحدهم لا يشاركهم فيه أحد ، كما سنرى من مثال السامانيين بخراسان والنورمان بصقلية(١٦٠) .

ومهما كانت طبيعة الحل الذى سنجده للمشكلة المتعلقة بخارطة المأمون فإنه يمكن القول على أية حال وبدرجة كبيرة من اليقين أن فن الكارتوغرافيا (أى رسم المصورات الجغرافية) العربى قد ارتبط منذ البداية باسم بطلميوس بالقدر نفسه الذى ارتبطت به الجغرافيا الرياضية . لقد حفظ لنا العرب وورثتهم ذكرى بطلميوس إلى نهاية العصور الوسطى حفظًا فاق بكثير ما فعلته أوروبا الوسيطة فى هذا المضمار رغما من أنها تدين له بالكثير أيضًا . وقد نسيت خارطته تمامًا فى الغرب وكانت خارطة الإدريسى حوالى عام ١١٥٤ هى الأثر الوحيد الهام فى الكارتوغرافيا الأوروبية قبل القرن الرابع عشر الذى يتمثل فيه التراث البطلميوسى(١٦١) . وعرف كتابه المجسطى جيدًا فى أوروبا منذ القرن الثانى عشر وذلك

---

(١٥٧) -Reinaud, Introduction , p. CCXC

(١٥٨) الشواهد لدى نالينو (Nallino, Al-Huwarizmi, p. 13 = Racc., p. 474) الذى لديه سبعون مؤلفًا ، راجع : (Bartold, Hudud p. 8, note 6)

(١٥٩) نظرية الكشورات وفقًا للمصادر الفارسية يعرضها بالتفصيل بلوشيه (Blochet, L'Êtude, b. 5-10)

(١٦٠) -Kramers, EI EB, p. 64-54

(١٦١) -Kimble, p. 188

بفضل الترجمة اللاتينية المنقولة عن العربية[١٦٢] ، ولكن « جغرافيا » لم يكتشف فى أوروبا للمرة الأولى إلا فى بداية القرن الخامس عشر[١٦٣] . ومن الطريف ملاحظة أنه يمكن تحديد تاريخ الكشف عن « جغرافيا » بطلميوس بالكثير من الدقة ؛ فبطرس الآيى المار ذكره والذى يرجع الفضل إلى كتابه « صورة العالم » فى اطلاع كولومبس على نظريات العرب فى الأُرين ، قد استعمل عند تأليفه له حوالى عام ١٤١٠ كتاب « المجسطى » وحده ، ولم يكن له أدنى علم بكتاب « جغرافيا » لبطلميوس[١٦٤] . ولكن لا نلبث أن نراه بعد ثلاثة أعوام فقط من ذلك يضع كتابه « الجامع فى الجغرافيا » Compendium Geographiae ويلخص فيه « جغرافيا » بطلميوس ؛ ثم طبع الأخير بأجمعه فى ترجمة لاتينية فى عام ١٤٧٨[١٦٥] . وفى تلك الآونة بالذات عملت له ترجمتان جديدتان من اليونانية إلى العربية[١٦٦] فى الدولة العثمانية فى عهد محمد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١)ونشرهما بالقاهرة (١٩٢٩) فى طبعة مصورة (facsimile) الأمير يوسف كمال[١٦٧] ، المعروف بنشره لعدد من الآثار الجغرافية ./وفى بداية القرن السادس عشر 89
عندما رسم الملاح التركى پيرى ريس خارطة العالم معتمدًا على أربع عشرة خارطة كانت تحت تصرفه ، وُجد من بينها ثمانى خارطات بطلميوسية[١٦٨] ؛ وهذا المثال يقدم صورة حية للأوضاع الثقافية فى تلك الحقبة التى بدأت فيها السيادة تتحول من الشرق إلى الغرب . وقد أتم الأتراك ما بدأته العرب فى مضمار الجغرافيا وعرضوا خلاصة ما قام به أسلافهم فى هذا الميدان . أما بطلميوس ومترجموه العرب فقد قدرهم الأتراك حق قدرهم ولكن الأمر الذى يلفت النظر حقًا هو أن تصورهم للجغرافيا كعلم لم يختلف كثيرًا عما كان عليه الوضع أيام المأمون . ولا يخلو من الفائدة والتوجيه فى هذا الصدد تلك الخلاصة التى يقدمها لنا فى القرن السادس عشر حاجى خليفة فى سفره الضخم فى أسماء المؤلفين والكتب « كشف الظنون » ، ذلكم المرجع القيم الذى سنرجع إليه أكثر من مرة فى المسائل المتعلقة بالأدب الجغرافى . ففى تعريفه لعلم الجغرافيا كتب

---

(١٦٢) Kimble, p. 215-
عملت حوالى عام ١١٦٠ بصقلية ترجمة من اليونانية مباشرة ولكنها ظلت غير معروفة على العكس من ترجمة جيرار الكريمونى : راجع : Amari (Nallino), III, p. 673, note I

(١٦٣) Honigmann, Die sieben Klimata, p. 114-

(١٦٤) Newton, p. 14-
Youssouf Kamal, Monumenta Cartografica, IV, Fasc. III p. 1353-1359

(١٦٥) Newton, p. 4; kimble, p. 215-

(١٦٦) Ritter, DI, XIX, 1930, p. 52-53-

(١٦٧) راجع : Youssouf Kamal, Monumenta Cartografica-

(١٦٨) Bräunlich p. 19-

حاجى خليفة يقول :

« علم جغرافيا . وهى كلمة يونانية بمعنى صورة الأرض ويقال جغراويا بالواو على الأصل وهو علم يتعرف منه أحوال الأقاليم السبعة الواقعة فى الربع المسكون من كرة الأرض وعروض البلدان الواقعة فيها وأطوالها وعدد مدنها وجبالها وبراريها وبحارها وأنهارها إلى غير ذلك من أحوال الربع كذا فى مفتاح السعادة[١٦٩] . قال الشيخ داود[١٧٠] فى تذكرته جغرافيا علم بأحوال الأرض من حيث تقسيمها إلى الأقاليم والجبال والأنهار وما يختلف حال السكان باختلافه انتهى . وهو الصواب لشموله على غير السبعة وجغرافيا عَلَم لم ينقل له فى العربية لفظ مخصوص وأول من صنف فيه بطلميوس القلوذى فإنه صنف كتابه المعروف بجغرافيا أيضًا بعد ما صنف المجسطى وذكر أن عدد المدن أربعة آلاف وخمسمائة وثلاثون مدينة فى عصره وسماها مدينة مدينة وأن عدد جبال الدنيا مائتا جبل ونيف وذكر مقدارها وما فيها من المعادن والجواهر وذكر البحار أيضًا وما فيها من الجزائر والحيوانات وخواصها وذكر أقطار الأرض وما فيها من الخلائق على صورهم وأخلاقهم وما يأكلون وما يشربون وما فى كل سقع مما ليس فى الآخر غيره من الأرزاق والتحف والأمتعة فصار أصلا يرجع إليه من صنف بعده ولكن اندرس كثير مما ذكره وتغير اسماؤه وخبره فانسد باب الانتفاع منه . وقد عربوه فى عهد المأمون ولم يوجد الآن تعريبه »[١٧١] .

إن ألفاظ حاجى خليفة هذه لتدل على إدراكه العميق للأهمية الكبرى لآثار بطلميوس فى 90
تاريخ الجغرافيا العربية طوال المدة ما بين القرنين الثامن والسابع عشر . ويمكننا أن نقرر بيقين تام أن التراث اليونانى كان ذا أثر جوهرى فى ابتداء الجغرافيا الرياضية عند العرب ولكنه كما أبصرنا لم يطرد التراث الهندى الإيرانى نهائيًا . بل إن التجديد المأمونى بنتائجه الفذة يجب اعتباره إلى حد ما رد فعل ضد السيادة المطلقة للنفوذ اليونانى . وعلى العموم فقد عرفت الجغرافيا العربية على الدوام ازدواجا معينًا نشأ من غلبة أحد مصنفين على الآخر ، إما « المدخل إلى الجغرافيا » لبطلميوس ، أو « الجداول المبسطة » المنسوبة إليه ، والتى يرجّح أنها من عمل ثاون . ويتمثل هذا الازدواج

---

(١٦٩) من تأليف طاشكبرى زاده المتوفى عام ١٥٦١

(١٧٠) توفى داود الأنطاكى عام ١٠٠٨ هـ = ١٥٩٠ — Brockelmann, GAL, II, p. 364, No 3

(١٧١) حاجى خليفة ، المقدمة ، الجزء الثانى ، ص ٦٠١ — ٦٠٣ ، رقم ٤١٣٠ —

هناك ترجمة موجزة : Schoy, Geography. p. 258

أما الترجمة الكاملة فلدى : Mzik, ptolemaeus, p. 156-157, note 7

بوضوح كبير فى الاختلاف الذى يمكن ملاحظته بين « الجداول المأمونية » ، التى يمكن أن يضم إليها رسالة الفرغانى وبين « صورة الأرض » للخوارزمى [١٧٢] . وإذا أمكن القول بأن التأثير اليونانى على الجغرافيا العربية هو المسئول عن ظهور أربعة آثار فذة فى الفترة الأولى من تاريخ ذلك العلم عند العرب ، وهى « خارطة المأمون » و « كتاب الملحمة » المنحول و « صورة الأرض » للخوارزمى وترجمة « جغرافيا » من عمل ثابت بن قرة ، فإن الأول من بينها فقط هو الذى يطابق فى جوهره « الجداول المبسطة » لثاون ، بينما ترجع الثلاثة الباقية بأجمعها إلى جغرافيا بطلميوس فى ترجمتها السابقة للترجمة العربية ، ومع تغييرات جوهرية فى مضمون الكتاب وتبويبه على مايلوح . أما فى كتاب الملحمة فنلمس محاولة للتوفيق بين العناصر البطلميوسية والعربية [١٧٣] ، كما نلمس فى « صورة الأرض » محاولة للتوفيق بين خارطة المأمون وخارطات بطلميوس [١٧٤] .

هذا وسيبقى أبدًا عدد كبير من مسائل تاريخ الفترة الأولى للجغرافيا العلمية عند العرب غامضًا بالنسبة لنا ، ذلك أن الآثار العربية الأولى فى هذا الميدان لم تصلنا ولا يمكن الحكم عليها إلا من خلال الاقتباسات المضطربة والإشارات العابرة التى قام بها علماء لم يكن بمقدورهم أن يعملوا حسابًا لمطالب العصر الحديث . وهذا بدوره يدفعنا إلى الإمعان فى تقديرنا للأثر الوحيد الذى خلفه لنا هذا العصر ، أعنى الترجمة المصلّحة لجغرافيا بطلميوس لمحمد الخوارزمى التى يمكن اعتبارها أول مصنف عربى فى الجغرافيا نعرفه معرفة مباشرة .

---

(١٧٢) **Honigmann, Die sieben Klimata, p. 165**

(١٧٣) شرحه ، ص ١٥٥ – ١٥٦

(١٧٤) شرحه

الفصـل الثالث
جغرافيو المدرسة اليونانية والزيجات الكبرى

91 إن مصنف الخوارزمى فى الجغرافيا وإن اعتبر فاتحة عهد جديد فى ميدانه الخاص به ، إلا أنه يجب ألا يعزب عن البال أن شهرة الخوارزمى التى طبقت الآفاق لا تقوم على هذا الكتاب . وقد اكتسب الخوارزمى بالفعل صيتًا عريضًا فدخل اسمه فى مصطلح علمى معروف لجميع تلامذة المدارس الذين لم يهتموا بالطبع بمعرفة أصل ذلك المصطلح . وهذه الشهرة لم تأت اعتباطًا ؛ وقد أطلق سارطون Sarton فى مقدمته لتاريخ العلم اسم « عصر الخوارزمى » على النصف الأول من القرن التاسع لأنه « أكبر رياضيى عصره وواحد من أكبر رياضيى جميع العصور على الإطلاق إذا أخذنا فى حسابنا اختلاف الظروف[١] » .

وكانت رسالته فى الحساب هى سبب وصول اسمه إلى أوروبا ، فهى أول أثر من نوعه يعرِّف العرب والغرب بمنهج الحساب الهندى . وهذه الرسالة مفقودة الأصل إلا أن ترجمتها اللاتينية للقرن الثانى عشر محفوظة فى مخطوطة فريدة بكمبردج بعنوان : Algorithmi de numero Indorum « الغوريثمى فى حساب الهند » ، ونشرت فى منتصف القرن الماضى . وهى تبدأ بالصيغة الآتية : Dixit Algorithmi « قال الغوريثمى » ؛ ومن هذا يتبين جيدًا أن اللفظ مستعمل كنسبة ، أى اسم علم ؛ ولكنه سرعان ما اتخذ فى شكله اللاتينى Algorithmus « الغوريثموس » معنى جديدًا للحساب بالأرقام العربية وحل محل الطريقة القديمة « للمعداد » (Abacus) اليونانى الرومانى . ولم يلبث أصل الاسم أن نسى سريعًا وظهر عدد من الاشتقاقات الخيالية ، فتارة ينسب إلى فيلسوف ما يدعى « الغوس » Algus ، أو من ربط أداة التعريف العربية «أل» باللفظ اليونانى «أريثموس» ἀριθμός الخ . أما الاسم الحقيقى وهو الخوارزمى فقد توصل إليه قبل طبع مخطوطة كمبردج ، ولكن هذا لم يحل دون صيرورته إلى الأبد مصطلحاً على ضرب معين من الحساب ، رغماً من أن هذه التسمية تقوم على سوء فهم محض[٢] .

وإذا كان اسم الخوارزمى قد ظل إلى الآن رمزًا لمصطلح فى الرياضة فهناك فرع آخر منها قد ثبتت عليه إلى أيامنا التسمية التى أطلقها عليه الخوارزمى . فرسالته « كتاب المختصر فى حساب
92 الجبر والمقابلة » الموجودة أيضًا فى مخطوطة فريدة هى التى يرجع إليها الفضل ليس فقط فى خلق

---

(١) -Sarton, Introduction, I, p. 563

(٢) -Suter, EI, I, p. 290-291

لفظ الجبر Algebra بمعناه الحديث بل أيضًا فى بزوغ فجر جديد فى ميدان الرياضيات ، الأمر الذى لا ينفى بالطبع وجود سابقين له فى هذا المضمار[٣] ممن يتحتم البحث عنهم فى بابل القديمة كما يتضح من أبحاث غاندز C. Gandz ؛ ذلك أنه من المستحيل ، اعتمادًا على هذه الرسالة ، القول بأن الخوارزمى هو الذى اخترع حساب الجبر ، فإن تجربته هذه تستند على منهج المدرسة البابلية أو الإيرانية . ولكن فضله الأكبر يعود إلى أنه قد وضع فى اللحظة المناسبة مصنفًا فريدًا فى بابه كان له الأثر المباشر فى تعميم الجبر على مرّ القرون[٤] .

وقد كان للجداول الفلكية للخوارزمى حظ مماثل أيضًا فى تأثيرها البعيد المدى ، وهى ترتبط فى جوهرها على ما يبدو بترجمة « السند هند » للفزارى التى شُغل الخوارزمى كثيرًا بدراستها وعمل منها نسخة مصلَّحة . وكشأن أى مصنف يحمل اسم الزيج فإن جداول الخوارزمى قد احتوت على مقدمة فلكية وافية هى بمثابة نظرية فى الفلك قائمة بذاتها[٥] . ويقف دليلا على علاقة جداول الخوارزمى بالتراث الهندى الإيرانى أن خط منتصف النهار الابتدائى يبدأ فيها عند الأرين وأن حساب الوقت فيها يسير وفقًا لتقويم يزدجرد . هذا وقد أعاد الفلكى الأندلسى مسلمة المجريطى (حوالى عام ٣٩٨ هـ = ١٠٠٧) صياغة هذه الجداول ولكنه استعمل التقويم الهجرى وجعل نقطة الابتداء خط منتصف النهار المار بقرطبة . ولم تصل إلينا هذه الجداول ، كما لم تصلنا الجداول المصلحة للمجريطى ، ولكن حفظت الترجمة اللاتينية للأخيرة بقلم اديلارد الباثى Adelard of Bath التى عملت عام ١١٢٦ . وهذا الوضع يؤدى بلا ريب إلى تعقيد مشكلة العلاقة بين كتاب الخوارزمى وتنقيحه للمجريطى ؛ وعلى أية حال فإنه يمكن القول بالكثير من الثقة إن الجداول الفلكية للخوارزمى فى صورتها الجديدة للمجريطى كانت أساسًا للمؤلفات الفلكية المتأخرة فى أوروبا الغربية[٦] .

وعلى الرغم من الأهمية البالغة لمؤلفات الخوارزمى فإن المعلومات عن شخصه شحيحة للغاية . ونتيجة لسهو معين فى كتاب بروكلمان[٧] فقد نفذت إلى الاستعراب الروسى فكرة مفادها أن الخوارزمى مؤلف الجغرافيا شخص عاش فى القرن الحادى عشر وأنه لا علاقة له بالرياضى

---

(٣) -Mieli, p. 82

(٤) -Mieli, p. 84-85 ; Gandz, Osiris, V, p, 319-391

(٥) -Wiedemann, EI, II, p. 979

(٦) -Suter, Al-Huwarizmi, p. VIII-IX

(٧) -Brockelmann, GAL, I, p. 225

الفلكى الذى عاش فى القرن التاسع[٨] ؛ ومرد هذا الخطأ إلى أن تاريخ تدوين المخطوطة قد أخذ على أنه تاريخ تأليف الكتاب . ولا يعرف عن سيرة الخوارزمى بالتحديد سوى أنه كان ينتمى إلى دائرة فلكيي المأمون وأنه كان وثيق الصلة « ببيت الحكمة » المشهور وأخذ طرفًا على ما يبدو فى التجارب العلمية المرتبطة فى بعض جوانبها بقياس محيط الأرض . وقد ورد آخر ذكر له مقترنًا/بوفاة 93
الخليفة الواثق عام ٢٣٢ هـ = ٨٤٧[٩] ، ويلوح أنه قد توفى عقب ذلك بقليل . وقليل من الإلمام بمؤلفاته الرئيسة سيعاون فى توضيح الصورة النهائية التى صاغ فيها الخوارزمى مصنفه الجغرافى المتعلق بمدار هذا البحث .

يطلق على هذا المصنف اسم « صورة الأرض » وهى الترجمة المعهودة فى ذلك العصر للفظ « جغرافيا » اليونانى[١٠] ؛ ولكن الكتاب قد حمل فيما يظهر عدة أسماء ، فمثلا يذكره أبو الفدا فى القرن الرابع باسم « رسم الربع المعمور »[١١] ؛ وتم تأليفه عقب وفاة المأمون بين عامى ٢٢١ هـ = ٨٣٦ و ٢٣٢ هـ = ٨٤٧ كما أثبت ذلك بارتولد Bartold[١٢] . وقد حالف التوفيق فرين Frähn فدلل بالكثير من قوة الحدس ، وذلك قبل اكتشاف المخطوطة ، على أن القطع المجهولة المؤلف التى يوردها أبو الفدا إنما ترجع إلى هذا المصنف لذلك الرياضى النابه[١٣] . وعلى هذا الأساس قام بدراستها المؤرخ البولندى ليليويل Lelewel وخرج بنتيجة غريبة مؤداها أن كتاب الخوارزمى يمثل ترجمة لرسالة وضعها باليونانية حوالى عام ٧٥٠ مؤلف يونانى عاش فى أرض الإسلام وعرف كيف يفيد من المصادر الإسلامية[١٤] . ولكن نظرية ليليويل هذه قد انهارت من أساسها بالكشف عن المخطوطة التى وكدت صحة ما ذهب إليه فرين[١٥] .

وقد لاقى مصنف الخوارزمى هذا نفس المصير الذى لاقته مصنفاته الأخرى ، فهو معروف لنا حتى الآن فى نسخة واحدة فقط موجودة بمكتبة استراسبورج ، ورغما من حالتها السيئة[١٦] فهى

---

(٨) Krymski, Ist. Arabov, I, p. 104, 110-

(٩) Nallino, Al-Huwarizmi, p. 9-

نالينو ، الفلك ، ص ١٧٤ ، حاشية ٢ (Racc., p. 224, note 2 =)

(١٠) حدود العالم ، ص ٩

(١١) Nallino, Al-Huwarizmi, p. 18-19-

(١٢) حدود العالم ، ص ٨

(١٣) Nallino, Al-Huwarizmi p. 12-

(١٤) Lelewel, I, p. 21-29; Epilogue , p. 47-60-

(١٥) Nallino Al-Huwarizmi, p. 18-19 —Mzik, Afrika, p. V-VI;:-

ولكن راجع : Honigmann, Die sieben Klimata, p. 115

(١٦) Mzik, BAH und G., III, p. VII-IX-

ترجع إلى رمضان من عام ٤٢٨ هـ = ١٠٣٧ [١٧] ، أى إلى ما بعد قرنين فقط من تاريخ تأليف الكتاب ؛ وقد عثر عليها بالقاهرة فى أكتوبر ١٨٧٨ المستعرب المعروف ف . اسبتا **W. Spitta** الذى كان آنذاك مديرًا لدار الكتب الخديوية ، وانتقلت بعد وفاته (١٨٨٣) إلى مكتبة استراسبورج . وكان أول من لفت الأنظار إليها اسبتا نفسه وذلك فى مقالتين نشرهما عام ١٨٧٩ و ١٨٨٢ [١٨] ، وأصبحت منذ ذلك الحين موضوعًا **لبحوث** عديدة . وأول بحث جدى حولها ظهر عام ١٨٩٥ [١٩] بقلم نالينو ؛ وتلاه ابتداء من عام ١٩١٥ عدد من **البحوث** الخاصة/بقلم 94 مجيك **Mzik** وهونغمان **Honigmann** (١٩٢٩) ؛ وفى عام ١٩٢٦ ظهرت طبعة كاملة لهذا الكتاب قام بتحضيرها مجيك ، غير أن الترجمة التى وعد بها لم تر النور بعد . ولعلها لن تراه إذا حكمنا من ألفاظ مجيك نفسه فى واحد من بحوثه الأخيرة (١٩٣٦) ، وذلك لما يلازم هذه المهمة من مشقة وعسر . ويبدو أن مجيك قد توصل إلى نتيجة صحيحة مؤداها استحالة تنفيذ مثل هذا العمل قبل التمهيد له بتحليل عميق وفحص دقيق للأقسام المختلفة للكتاب [٢٠] . وعلى الرغم من جميع البحوث الجادة العميقة [٢١] فإن عددًا من المسائل المتعلقة بجغرافيا الخوارزمى لا يزال مستعصياً على الحل .

ونظرًا لغلبة الفلك والرياضة على الخوارزمى فقد وضع كتابه فى الجغرافيا على هيئة زيج ، أى جداول فلكية . والكتاب ليس بترجمة ولكنه ترتيب لمادة بطلميوس على هيئة جداول مع إضافات واسعة من ميدان الجغرافيا العربية وطائفة من التعديلات الأخرى . وليس بالمخطوطة مقدمة على الإطلاق ولو أنها وجدت قطعًا بالأصل . وتبدأ الجداول بعد البسملة مباشرة على هيئة عمودين فى كل صفحة مع تبيان المواقع الجغرافية للأماكن الكبرى التى يصل عددها إلى خمسمائة وسبعة وثلاثين موضعًا . وهى موزعة على الأقاليم المختلفة بحسب الابتعاد التدريجى من خط الزوال الابتدائى الذى يمر كما هو الحال عند بطلميوس « بجزر السعادة » (الخالدات) فى أقصى الغرب من افريقيا [٢٢] . ويتلو جدول المدن جدول الجبال وعددها مائتان وتسعون ، ثم يلى ذلك وصف

---

(١٧) Nallino, Al-Huwarizmi, p. 14-

(١٨) شرحه

(١٩) ملخص باللغة الفرنسية : C. Nallino, Al-Khuwarizmi

(٢٠) Mzik, Osteuropa, p. 163-164-

(٢١) راجع عنها : E. Wiedeman, Al-Khwarizmi, II, p. 978-979 ، Sarton, Introduction, I, p. 563-564
Mieli, p. 79-81 ، حدود العالم p. 8-9-

(٢٢) Honigmann, Die sieben Klimata, p. 138-139-

البحار فالجزر . ويشمل القسم الأخير منها ، وهو أوسعها ، وصفًا للأنهار فى كل إقليم[٢٣] .

ويبدو جليًا من كل هذا أن تبويب الخوارزمى لمادته يختلف اختلافًا بينًا عن نهج بطلميوس فى كتابه « المدخل إلى الجغرافيا » . وباستثناء المقالة الأولى لبطلميوس التى تحتوى إلى جانب القواعد الأساسية للكارتوغرافيا نقدًا لمارينوس الصورى ، وكذلك المقالة الثامنة التى تعالج الطول النسبى لليوم فى مواقع مختلفة والتى تقدم جدولا للأربع وتسعين «هيبارخية» (eparchy) (أى ولاية) الموجودة بالمعمورة ، أقول باستثناء تينك المقالتين فإن المقالات الباقية وهى من الثانية إلى السابعة ، قد تم توزيعها لدى الخوارزمى بطريقة مغايرة تمام المغايرة لطريقة بطلميوس ، فبطلميوس يعدد جبال وأنهار ومدن كل منطقة بينما يوزعها الخوارزمى على الأقاليم ويفحص كل ظاهرة على حدة . هذا ويبلغ عدد المناطق عند بطلميوس إحدى وعشرين منطقة ، بينما يبلغ عدد الأقاليم عند الخوارزمى سبعة ؛ وقلَّ أن اتفقا على تحديد الأبعاد الجغرافية للأماكن المختلفة[٢٤] . كل هذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل دلالة واضحة على أن « صورة الأرض » للخورازمى أبعد من أن تكون ترجمة حرفية لبطلميوس ، بل هى مسودة مصلحة تصليحًا جوهريًا لكتاب « المدخل إلى الجغرافيا » . وأكثر من هذا يجب أيضًا رفض القول الذى نادى به البعض من أن « صورة الأرض » ليست سوى قطعة من الجداول الفلكية للخوارزمى ؛ ذلك أن واقع الأحوال يوكد أن « صورة

95 الأرض » / مصنف قائم بذاته وأن علاقته بالجداول الفلكية أشبه بالعلاقة التى بين « المجسطى » و « المدخل إلى الجغرافيا » عند بطلميوس[٢٥] .

هذا ويسترعى النظر بصورة خاصة تقسيم الخوارزمى للأقاليم السبعة حسب درجات العرض ، وهو تقسيم يختلف عن كل التقاسيم الأخرى المعروفة لدى العرب ويعتمد أساسًا كما أثبت البحث الحديث على حسابات العلماء اليونان . وإذا كان مارينوس الصورى قد اعتبر خطوط ايراتوثينيس Eratothenes هى الحدود الجنوبية لأقاليمه فإن الخوارزمى جعلها الشمالية ، بينما نقل الحد الجنوبى للإقليم الأول الموجود على خط عرض ١٦° درجة و ٢٧ دقيقة شمالا (مدينة مروه Meroe) إلى خط الاستواء واعتبر الحد الجنوبى للمعمور من الأرض هو خط عرض ١٦° درجة و ٢٥ دقيقة جنوبًا ، كما هو الحال عند بطلميوس . ومن المستحيل تخطئة الخوارزمى فى هذا فتقسيمه منتظم ونقله الأقاليم صوب الجنوب قد أجراه عن قصد ربما دفعه إليه أن سبعين من المدن الكبرى التى أوردها تقع جنوبى الحد الشمالى للإقليم الأول وفقًا لتقسيمه هو . ولعله لا يخلو من

---

(٢٣) -Nallino, Al-Huwarizmi, p. 15-17

(٢٤) شرحه ، ص ١٧ – ١٨

(٢٥) -Honigmann, Die sieben Klimata, p. 160-191, note 3; against Suter, Al-khw arizmi

مغزى بالنسبة للجغرافيا العربية بأسرها أن الخوارزمى لم يجد من يخلفه أو يسلك سبيله فى هذا التقسيم سوى سهراب الذى عاش فى النصف الأول من القرن العاشر فهو يعتمد على الخوارزمى اعتمادًا كليًا . وبالرغم من أن العرب قد كشفوا فى القرن التالى للخوارزمى عن وجود نقاط عديدة مأهولة على الساحل الشرقى لأفريقيا وفى الهند وجنوب شرقى آسيا فإن النظرية القائلة باستحالة السكنى فى الإقليم الحار قد برهنت على أنها أقوى من الملاحظة العملية المباشرة ، إذ حافظ جميع الفلكيين والجغرافيين المتأخرين دون استثناء على التقسيم القديم للأقاليم(٢٦) . وإذا كان تقسيم المعمورة إلى سبعة أقاليم قد حظى ببعض الأهمية فى الجغرافيا القديمة لدى الأوائل فإنه قد أصبح قاعدة أساسية مقبولة من الجميع فى المصنفات الفلكية بل الجغرافية عند العرب . هذا وقد أهملت إلى حد كبير القاعدة الهندسية التى بنى عليها التقسيم وتفاوتت الحدود الفاصلة بين الأقاليم من وقت لآخر . ولم يخل الأمر من وجود آراء غريبة فى هذا الصدد أحيانًا(٢٧) كزعم المسعودى بأن جميع المدن الكبرى فى إقليم واحد تقع على خط عرض واحد(٢٨) .

وإذا كان الخوارزمى قد أبدى الكثير من الجرأة العلمية فى تقسيمه الجديد للأقاليم فإنه قد أظهر أيضًا الكثير من الأصالة والابتكار فى خارطاته التى تختلف اختلافًا تامًا عن الخارطات المعروفة لنا من العهود التالية . وتقوم أهميتها قبل كل شىء على أنها تمثل أقدم ما وصل إلى أيدينا من آثار الكارتوغرافيا العربية ، ولكننا بكل أسف نفتقر إلى الوقائع والمعطيات الضرورية لنتمكن من الحكم عليها . ولدينا من المبررات ما يجعلنا نفترض أن رسالة « صورة الأرض » إنما تمثل شرحًا فقط لخارطة رسمت على طريقة بطلميوس(٢٩) ، وهذه الخارطة للأسف الشديد لم تصل إلينا ،/ 96
فمخطوطة استراسبورج تحتوى على أربع خارطات فقط تمثل فى الغالب نماذج متناثرة ويغلب عليها أحيانًا طابع الصدفة المحضة . وإحدى هذه الخارطات تستهدف إلى جانب ذلك هدفًا نظريًا هو تصوير السواحل المختلفة بغرض توضيح المصطلحات التى يستعملها العلماء . ولا يخلو من مغزى أن بعضها لا يزال مستعصيًا على الفهم إلى الآن رغما من المجهودات المشتركة لعدد من العلماء(٣٠) . وتقدم خارطة « جزيرة الجوهر » والجبال المحيطة بها مثالا طريفًا من ميدان الجغرافيا

---

(٢٦) -Honigmann, Die sieben Klimata, p. 161-162

(٢٧) -Kramers, EI, EB, I, p. 64

(٢٨) المسعودى ، التنبيه ، BGA, VIII ص ٤٤

(٢٩) -J. K. Wright, Geagr, Lore, p. 393-Mzik, ptolemaeus, p. 162-163

(٣٠) -Mzik, Afrika, p. XI, note I , Mzik, BAH und G, III, p. 162

الأسطورية . وهذه الجزيرة يطلق عليها عادة اسم « جزيرة الياقوت » ، وكانت مثبتة منذ عهد بطلميوس على خط الاستواء فى أقصى الشرق[٣١] ؛ وتستند الروايات عنها فى الواقع على معلومات حقيقية عن جزيرة سيلان ولكن يطغى عليها لدى الخوارزمى تأثير الرواية العربية لأسطورة الإسكندر التى نالت انتشارًا واسعًا فى العالم الإسلامى آنذاك كما بيّن مجيك[٣٢] . أما الأهمية الكبرى فتنالها دون منازع خارطته للنيل التى يتضح منها أن مجراه كان معروفًا جيدًا فى ذلك الوقت ؛ ويتفق رسم هذه الخارطة مع المذهب القديم فى الجغرافيا الفلكية[٣٣] ويقف دليلا على ذلك أن حدود الأقاليم السبعة قد بينت عليها بوضوح . كما تمثل أهمية جوهرية بالنسبة لنا آخر خارطة لديه وهى المبين عليها بحر ميوتيس Maeotis ، أى بحر آزوف Azov الحالى ، فهى على نقيض الخارطات السابقة تجعل الشمال فى أعلاها أى كما هو الأمر حاليًا ، بينما يحتل الجنوب أعلى الخارطات الأخرى وهى الطريقة المتبعة فى الكارتوغرافيا العربية . أما خارطة العالم التى لم تخل منها فيما بعد أية نسخة من نسخ « أطلس العالم » للمدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب فلا أثر لها البتة عند الخوارزمى . وبيان خطوط الطول والعرض يمثل عنصرًا هامًا لإعادة رسم هذه الخارطة ، غير أن المحاولات التى قام بها مجيك خلال دراسته العميقة الطويلة لافريقيا وجنوب شرق آسيا[٣٤] وشرق أوروبا قد أثبتت أنه من العسير تنفيذ هذه المهمة مالم تتوفر مادة علمية جديدة[٣٥] .

وكما هو الشأن مع جميع الترجمات العربية لكتاب بطلميوس فإنه أيضًا فيما يتعلق بكتاب الخوارزمى لسنا على ثقة تامة أى نص استعمل أهو اليونانى أم السريانى؟ إن نالينو يرى أن كتابه لا يمثل ترجمة لبطلميوس بل يستهدف توضيح الخارطة التى أخذت عن المتن اليونانى لكتاب « جغرافيا » مباشرة ، لا عن المتن اليونانى السريانى . ويمكن فى كثير من الأحيان تفسير
الاختلاف مع بطلميوس/فى أن مادته تعتمد على الخارطة ولم يأخذها عن « جغرافيا » . وقد 97
وكدت بحوث مجيك فرض نالينو القائل بأن الرسالة إنما تعتمد أساسًا على الخارطة ، ولكنه يعتقد أن الخارطة نفسها تستند على النص السريانى[٣٦] . أما هونغمان فيرى فى كتاب الخوارزمى محاولة

---

(٣١) -Ferrand, Relations, I, p. 115; II, p. 347, 595

(٣٢) -Mzik, Parageographische, p. 194-198

(٣٣) -Kramers, Al-Nil, p. 990

(٣٤) شرحه -Mzik, Parageographische ,

(٣٥) راجع أيضًا : Ferrand, Relations, II, p. 590-595

(٣٦) -Mzik, Afrika, p. VI-VII ; Mzik, Ptolemaeus, p. 164 ; J. K. Wright, Geogr. Lore, p. 393

للمزج جهد المستطاع بين « الخارطة المأمونية » وخارطة بطلميوس ، وأن تلك المحاولة لم يكتب لها التوفيق التام[٣٧] . والأسماء الجغرافيا القديمة لا تزال كثيرة لدى الخوارزمى ولكنها ما لبثت أن أخذت فى الاختفاء من الجغرافيا الوصفية حتى أصبحت نسيًا منسيًا فى عهد ياقوت فى القرن الثالث عشر . وقد قام الخوارزمى نفسه بمحاولة لمقارنتها بالأسماء المستعملة فى عصره فأورد من وقت لآخر بعض التسميات الجغرافية الفارسية[٣٨] . هذا ويمكن القول بصفة عامة إن الخوارزمى قد أبدى فى مؤلفه هذا نفس الأصالة والابتكار اللذين ظهرا فى مؤلفاته الرياضية ، كما يجب أيضًا الاعتراف تبعًا لنالينو[٣٩] وبارتولد[٤٠] بأنه ليس هناك شعب أوروبى واحد يستطيع أن يفخر بمصنف يمكن مقارنته بهذا الكتاب الذى يعتبر أقدم أثر فى الجغرافيا العربية . وقد لعب كتاب « صورة الأرض » دورًا محدودًا فى أوروبا الوسيطة لدى المقارنة بمؤلفات الخوارزمى الأخرى ، غير أن بعض مادته فيما يتعلق بالعروض والأطوال قد وجدت طريقها إلى « جداول طليطلة » للزرقالى فى القرن الحادى عشر . وهذه الأخيرة قد ترجمت إلى اللاتينية وتمتعت بصيت عريض فى القرن الثانى عشر وما بعده[٤١] .

أما تأثير الكتاب على العلم العربى فقد كان هائلا . ففى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وجد مصنف آخر يكمله ويقترب منه اقترابًا شديدًا بحيث يضحى من الممكن اعتباره مسودة أخرى للخوارزمى . ولا يزال يحيط باسم مؤلفه الكثير من الغموض والإبهام ؛ وفى مخطوطة المصنف الفريدة بالمتحف البريطانى ، وهى مخطوطة جيدة ترجع إلى عام ٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ ، يدعو المؤلف نفسه فى المقدمة باقتضاب « أفقر الورى سهراب » . ومثل هذا الأمر نادر الحدوث بين المؤلفين العرب ، فضلا عن أن الاسم يبدو أجنبيًا مما يدفع إلى الاشتباه فى أنه ربما قصد به التضليل أو أنه اسم مستعار . بيد أن المتن واضح بصورة جعلت الكتاب يثبت على اسم هذا المؤلف فى الدوائر العلمية منذ أن أصدر مجيك طبعة كاملة له فى عام ١٩٣٠[٤٢] . وإلى ما قبل هذا التاريخ ساد خلط كبير حول اسم المؤلف لاتزال آثاره ملموسة إلى

---

(٣٧) -Honigmann, Die sieben Klimata, p. 156

(٣٨) حدود العالم ، ص ٨

(٣٩) -Nallino, Al-Huwarizmi, p. 53

(٤٠) حدود العالم ، ص ٧

(٤١) -J. K. Wright, Geographical Lore, p. 392

(٤٢) -Mzik. BAH und G, I, p. X-XI; V. 1930,Brockelmann, GAL, SBI, p. 406, No 6 , Mieli, p. 114, 117, note 2

98 أيامنا هذه ، فالبعض قد أطلق عليه اسم ابن/سرابيون[٤٣] خالطين بينه وبين الطبيب المعروف لذلك العصر[٤٤] ، بينما دعاه الآخر أبا الحسن بن البهلول[٤٥] . ولا يزال الشك يعتور عنوان الكتاب نفسه وهو « كتاب عجائب الأقاليم السبعة » الذى يرتفع إلى المخطوطة ، ذلك أن الكتاب ليس به أى ذكر للعجائب . وربما كان مجيك محقًا فى قوله إن اسم الكتاب هو ببساطة « كتاب الأقاليم السبعة » .

أما تاريخ تأليفه فيمكن تحديده وفقًا للاستقراء الداخلى لمادته بين عامى ٢٨٩ هـ = ٩٠٢ و ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ ، أى قبل دخول البويهيين بغداد . ويكشف المؤلف عن معرفة جيدة بالعراق بحيث لا يرقى الشك إلى أنه عاش بها ؛ وكان معاصرًا لأبى زيد البلخى مؤسس المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب ولكنه يمثل اتجاهًا مخالفًا كل المخالفة لمذهب تلك المدرسة ، فمصنفه استمرار للمذهب اليونانى فى الجغرافيا ولو بطريقة تخالف بعض الشىء طريقة « صورة الأرض » للخوارزمى . وتزودنا مقدمته بتفاصيل جوهرية تساعد على وضع خارطة مسطحة مربعة (Plattcarte) اعتمادًا على مادة الكتاب نفسه ؛ وهذا بدوره قد دفع مجيك إلى الافتراض بأنه ربما وجدت مثل هذه المقدمة فى كتاب الخوارزمى أيضًا ولكنها مفقودة فى مخطوطة استراسبورج . أما تبويب المادة لدى سهراب فيختلف بعض الشىء عما هو عليه الحال مع « صورة الأرض » ، ففى البداية يرد تعداد المدن وأقسام الأقاليم المختلفة ، ثم يلى هذا وصف البحار والجزر وتعداد الجبال (بحسب الأقاليم أيضًا) وبعد ذلك المنابع والأنهار ، وفى الخاتمة توزعَ هذه الظواهر على الأقاليم المختلفة . ومن هذا يتضح أن هذه التقسيمات هى تقسيمات الخوارزمى نفسها ولكن تخالفها فى التسلسل ، والسبب الذى دعا إلى هذا غير واضح لنا . وأحيانًا قد يختلف التوزيع حتى فى داخل الأقسام نفسها كما هو الحال مثلا مع مدن الأقاليم الثالث والرابع والخامس . ويمكن القول بصفة عامة بأن الاختلاف بين الاثنين فيما يتعلق بالمادة المستقاة من المصادر اليونانية طفيف للغاية ويتمثل بوجه خاص فى تشويه بعض الأسماء اليونانية والطَّمْس الذى أصاب بعض الأرقام ؛ بيد أن هذا لم يحل بالطبع دون وجود قراءات لدى سهراب تفضل أحيانًا قراءات الخوارزمى . وعلى وجه العموم ففى الأقسام التى يقربان فيها بعضهما من بعض

---

(٤٣) Le Strange, Ibn Serapion, p. 1-76. 255-315 —Guest, Delta —Sarton, Introduction, I, p. 635, Brockalmann, GAL, I, p. 227, No 6 —Huart, Littératuire. p. 297

(٤٤) Ferrand, Relations, I, p. 112-113

(٤٥) Seippel, p. 132. 125

يضحى من غير الممكن كما يقول مجيك إعداد طبعة علمية للكتاب الأول بدون الاعتماد على مخطوطة الثانى .

وتتمثل الأهمية الرئيسية لكتاب سهراب فى اتساع المادة المستقاة من المصادر العربية ، ويبدو
أن غرضه كان إضافة مادة جديدة إلى ما جمعه الخوارزمى قبل قرن من ذلك ، فيجعل بهذا مصنفه
أقرب إلى حاجة معاصريه ؛ ويصدق هذا قبل كل شىء على الأقسام عن الجبال وعن الأنهار
خاصة. ووصف المؤلف لشبكة/ قنوات بغداد واف بصورة استرعت أنظار لى استرانج 99
Le Strange منذ التسعينيات من القرن الماضى وزوده بمادة جوهرية فى وضع وصفه التخطيطى
لأرض السواد وقتذاك[٤٦] . هذا وقد حمل وصفه لدلتا النيل المستشرق غست Guest إلى القول
بأن سهراب قد عرف مصر معرفة مباشرة وأنه من أهليها[٤٧] ؛ وكما بين مجيك فإن مثل هذا الزعم لم
يكن ليصدر إلا نتيجة للجهل بمصدر سهراب الرئيسى وهو الخوارزمى[٤٨] . ولا يخلو من طرافة فى
آخر الأمر ملاحظة أن لغة سهراب أكثر « استعرابًا » وأن أسلوبه يحافظ على مستوى النثر العلمى
المعتاد بينما يلاحظ فى أسلوب الخوارزمى وعورة فى اللغة ، وفى هذا دليل على أن أسلوب نثر الرسائل
العلمية فى عصره لم يكن قد أوفى بعد على الغاية[٤٩] .

ولم يقف تأثير الخوارزمى عند سهراب وحده بل تعداه إلى غيره ، وإن لزم الاعتراف بأنه من العسير أحيانًا إدراك تأثير مصنف بعينه بقدر الإحساس بتأثير الاتجاه العام الذى يستهدف عرض المادة الجغرافية على هيئة جداول ، وهو ذلك الاتجاه الذى يستمد مادته من المصادر اليونانية نفسها التى ترتفع إليها « صورة الأرض » . ولقد ارتبط هذا الاتجاه فيما بعد بالفلك أكثر منه بالجغرافيا الوصفية التى بدأت فى الظهور آنذاك ؛ ومن ثم فلنا الحق كل الحق فى أن نغفل بعض الشىء التسلسل التاريخى ونقصر أنفسنا فيما يلى من هذا الفصل على الكلام على المصنفات الكبرى فى ميدان الجغرافيا الفلكية دونما حاجة إلى الكلام عنها مرة ثانية عند معالجة العصور التى تنتمى إليها .

وقبل الدخول فى هذا يجدر بنا أن نقدم نبذة موجزة عن معاصر الخوارزمى الأصغر وهو « فيلسوف العرب » الشهير يعقوب الكندى (المتوفى حوالى عام ٢٦٠ هـ = ٨٧٤)[٥٠] .

---

(٤٦) -Le Strange, Ibn Serapion, p. 1-76, 255-315, 739; Baghdad, p. 586, 587, 592

(٤٧) -Guest, Delta, p. 305

(٤٨) -Mzik, BAH und G, p. 140-141

(٤٩) شرحه ، ص ١٠ ؛ والجزء الثالث ص ٢٩ — ٣٠ .

(٥٠) -Brockelmann, GAL I, p. 209-210, No 2; SBI, p. 372-374 ; Reinaud, Introduction, p. LIV-CCCII; Sarton, Introduction, I, p. 595-560.

ويرتبط بهذا الاسم كما ذكرنا من قبل واحدة من أولى ترجمات جغرافيا بطلميوس ؛ وأغلب الظن أن تأثيرها قد ظهر فى تأليفه لكتابه « رسم المعمور من الأرض » الذى يشير إليه المسعودى[٥١] والذى لا نعلم عنه شيئًا للأسف . وتنال أهمية كبرى رسالته « فى البحار والمد والجزر » كما يدعوها المسعودى ؛ وقد استعملها الأخير فى الفصل الذى أفرده للمحيط الهندى[٥٢] ويرجع الفضل فى تعريف العلم الأوروبى بها إلى بحثين للعلامة فيدمان Wiedemann[٥٣] . وبالرغم من أن نظرية الكندى فى المد والجزر تستند على أفكار خاطئة إلا أنه من الطريف ملاحظة أنه قد اعتمد
100 على الملاحظة والتجربة العلمية ليثبت صحتها[٥٤] . هذا وسنلتقى بأحد/تلامذته عند الكلام على تاريخ التطورات الأولى فى محيط الجغرافيا الوصفية .

وقد استمر اسم الزيج مطلقًا على الجداول الفلكية التى امتدت حياتها خلال عدد من الآثار المجيدة حتى اختتمت بجداول ألوغ بيك **Ulugh Bek** ، وهى جميعها بالتقريب تعطينا أطوال وعروض المواضع الجغرافية موزعة على الأقاليم السبعة . ويحتل المكان الأول من بينها زيج البتانى (حوالى ٢٤٤ هـ - ٣١٧ هـ = ٨٥٢ - ٩٢٩)[٥٥] الذى عاش بعد قرن من الخوارزمى تقريبًا . والبتانى لا ينتسب إلى المدرسة البغدادية بقدر ما ينتسب إلى مدرسة صابئة حرّان ؛ ومن فضل القول التحدث عن مكانته فى تاريخ العلم البشرى ، ودليل هذا ذيوع صيته فى أوروبا الوسيطة تحت اسم **Albategnius** وأيضًا الاهتمام الكبير الذى أبداه نحوه رجيو منتانس **Regiomontanus** (١٤٣٦ - ١٤٧٦)[٥٦] بصدد حساب المثلثات الكروى (**spheric trignometry**)، كما وأن ملاحظاته عن الكسوف قد أفاد منها فائدة كبيرة دنتورن **Dentorn** حتى فى وقت متأخر كعام ١٧٤٩[٥٧] . وقد أمضى البتانى حياته بأسرها تقريبًا يرصد الأجرام السماوية بمرصد الرقة ، من عام ٢٦٤ هـ = ٨٧٧ إلى عام ٣٠٦ هـ =

---

(٥١) المسعودى ، التنبيه BGA, VIII ، ص ٢٥ ، حدود العالم ، ص ٩
Brockelmann, GAL, SBI, p.374, X

(٥٢) المسعودى التنبيه ، BGA, VIII ، ص ٥١

(٥٣) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 373, IV, physik, I

(٥٤) -De Boer, Al Kindi, p. 1096

(٥٥) -Sarton, Introduction I, p. 602-603-Brockelmann, GAL, I. p. 222 No 8. SBI, p.337 - Mieli, p. 83, 88

(٥٦) -Nallino, Al-Battani, EI p.709

(٥٧) شرحه وMieli, p. 88

٩١٨[٥٨] . ورغما من أنه اعتبر نفسه مسلما إلا أنه كان أقرب فى أصله إلى صابئة حرّان الذين برز منهم فى ذلك العهد عدد من كبار العلماء يكفى أن نشير من بينهم إلى ثابت بن قرة الذى مر ذكره . وترتبط باسم البتانى تصليحات لبعض آثار بطلميوس نخص منها كتابه « المقالات الأربع »[٥٩] ؛ غير أنه لم يصلنا من بين جميع مصنفات البتانى سوى الجداول الفلكية المعروفة باسم « الزيج الصابىء » وتحوى مقدمة وافية فى أكثر من ستين فصلا تعالج جميع مسائل الفلك ؛ وقد ذاع صيتها فى أوروبا بعد أن ترجمها إلى اللاتينية فى عام ١١٤٠ أفلاطون التيفولى Plato of Tivoli . ولقد أبصرنا من قبل سعة إدراك البتانى فى تقديره لمكانة بطلميوس فى تاريخ الفلك العربى ، وسنقتصر الآن على تلك المواضع من زيجه التى تتعلق بالجغرافيا فى معناها الضيق .

ويمثل أهمية خاصة فى هذا الصدد الفصل السادس من المقدمة الذى يعطى وصفًا عامًا للأرض ويخص بالتفصيل البحار . وكما لاحظ نالينو فإن مادة هذا الفصل بأجمعه ترتفع إلى بطلميوس فى روايته اليونانية السريانية التى جرت فيها يد التعديل بصورة جوهرية[٦٠] . ويجب أن نلاحظ أن وصفه للبحار والجزر التى بها قد أضحى بفضل ترجمة أفلاطون التيفولى معروفًا لأوروبا منذ عهد مبكر وأن جميع التصورات التى انتشرت فى الغرب عن المحيط الهندى مثلا إلى
101 عهد/الكشوف الجغرافية الكبرى إنما ترجع إلى البتانى[٦١] ؛ ومن الملاحظ أن المادة الجغرافية فى أوروبا المعاصرة لا يمكن مقارنتها بأية حال مع مادة البتانى من حيث القيمة العلمية[٦٢] . وقد اجتذب هذا الفصل أنظار العلماء الأوروبيين منذ أن كان الكتاب معروفًا فى مخطوطته الوحيدة بالأسكوريال فترجمه رينو[٦٣] ومرن[٦٤] قبل ظهور الطبعة العلمية لنالينو ؛ وهو ذو أهمية خاصة بالنسبة للأدب الجغرافى العربى إذ يقدم لنا أتم وصف للعالم عرفته العصور السابقة مأخوذ عن جغرافيى المدرسة اليونانية . وقد أفاد منه ممثلو الجغرافيا الوصفية من معاصرى البتانى كما توجد شذرات منه لدى ابن رسته والمسعودى وقدامة والجيهانى مأخوذة عن مصادر أخرى

---

(٥٨) Nallino, Al-Battani, EI, p. 709-
Nallino, Al-Battani, I, p. VIII-IX

(٥٩) هكذا فى : EI, I, p. 709 ؛ ولكن راجع : Brockelmann, GAL, SBI. p. 397, وفقًا لنالينو (Nallino Al-Battani, I, p. XX,—XXIII) .

(٦٠) J. K, Wright, Geogr. Lore, p. 393 note 7-

(٦١) شرحه ، ص ٢٨٠ – ٢٨١

(٦٢) شرحه ، ص ٩٦

(٦٣) Reinaud, Introduction, p.CCLXXXIII—CCXC-

(٦٤) Mehren, Udsigt, p. 13-18-

ولكن تكرر المادة حرفيًا بحيث لا يمكن إنكار أثر البتانى عليها . ونصه كالآتى :

« وأما مواضع الأرض المعلومة والبلدان المسكونة فى الطول والعرض فقد أوضحنا بالقياس الذى قد ذكره بطلميوس ووافقه عليه غيره من القدماء أن الأرض مستديرة وأن مركزها فى وسط الفلك والهواء محيط بها من كل الجهات وأنها عند فلك البروج مثل منزلة النقطة قِلّة . وأما عمرانها فإنهم أخذوا حدوده من الجزائر العامرة التى تسمى الخالدات التى فى بحر أوقيانس الغربى (٦٥) وهى ست جزائر عامرة إلى أقصى عمران الصين فوجدوا ذلك اثنتىْ عشرة ساعة فعلموا أن الشمس إذا غابت فى أقصى عمران الصين كان أول طلوعها على أول الجزائر العامرة المذكورة أنها فى بحر أوقيانس الغربى وإذا غابت فى هذه الجزائر صار أول طلوعها على أقصى عمران الصين وذلك نصف دائرة الأرض وهو طول العمران الذى وقف عليه ومقداره من الأميال ثلاثة عشر ألفًا وخمسمائة ميل من الأميال التى عملوا عليها فى مساحة الأرض ثم نظروا فى العرض فوجدوا العمران من موضع خط الاستواء إلى ناحية الشمال ينتهى إلى جزيرة ثولى التى فى بَرْطانية حيث يكون طول النهار الأطول عشرين ساعة . وذكروا أن خط الاستواء من الأرض يقطع من المشرق إلى المغرب فيما بين الهند والحبش فى جزيرة هناك من ناحية الجنوب من معدل النهار فتعترض هنالك وتحد ما بين الشمال والجنوب . والخط الذى يقطع هذا الخط من ناحية الشمال إلى ناحية الجنوب فى النصف مما بين هذه الجزائر المذكورة أنها فى بحر أوقيانس وأقصى عمران الصين وهو قبة الأرض المعروفة بما وصفنا

102 وموضعها موضع/التقاطع . والعرض من خط الاستواء إلى جزيرة ثولى يكون قريبًا من ستين جزءًا وذلك سدس دائرة الأرض فإذا ضُرِب هذا السدس الذى هو مقدار العرض فى النصف الذى هو مقدار الطول كان ما يظهر من العمران من ناحية الشمال مقدار نصف سُدس الأرض وهو جزء من اثنى عشر جزءًا . وقدَّروا بحر الهند وقالوا إن طوله يُعَدُّ من المغرب إلى المشرق من أقصى الحبش إلى أقصى الهند ثمانية آلاف ميل وعرضه ألفان وسبعمائة ميل ويجاوز من جزيرة استواء الليل والنهار إلى ناحية الجنوب ألفاً وتسعمائة ميل وله خليج بأرض الحبش يمدّ إلى ناحية البربر يسمى الخليج البربرى وطوله خمسمائة ميل وعرض طريقه مائة ميل . وخليج آخر يخرج نحو أرض أَيْلَةَ وهو بحر القُلْزُم طوله ألف وأربعمائة ميل وعرض طريقه الذى يسمى البحر الأخضر (٦٦) مائتا ميل وعرضه فى

---

(٦٥) هى جزر السعادة فى الطرف الغربى لافريقيا فى المحيط الأطلنطى .

(٦٦) كما يفترض نالينو (Nallino, Al-Battani, I. p. 175-177) فإن المقصود بالبحر الأخضر هنا هو ذلك الجزء من البحر الأحمر الذى هلك فيه فرعون عند مطاردته للعبرانيين ؛ وقد نشأت التسمية من ترجمة غير دقيقة لاسم سريانى . ويخالفه فى هذا دى خويه (De Goeje, II (?) p. XXIII—XXIV) . أما مجيك (Mzik, Parageog,p. =

الأصل سبعمائة ميل . وخليج آخر يخرج نحو أرض فارس يسمى الخليج الفارسى وهو بحر البصرة طوله ألف وأربعمائة ميل وعرضه فى الأصل خمسمائة ميل وعرض طريقه مائة وخمسون ميلا . ويكون بين هذين الخليجين أعنى خليج أَيْلَة وخليج فارس أرض الحجاز واليمن ويكون ما بين هذين الخليجين ألفًا وخمسمائة ميل . ويخرج منه أيضًا خليج آخر إلى أقصى أرض الهند عند تمامه يسمى الخليج الأخضر طوله ألف وخمسمائة ميل . وفى هذا البحر كله أعنى بحر الهند والصين من الجزائر العامرة وغيرها ألف وثلثمائة وسبعون جزيرة منها جزيرة فى أقصاه عند بلد الصين تسمى طَبْرُنَاني وهى سر نديب يحيط بها ثلاثة آلاف ميل مقابل الهند من ناحية المشرق وفيها جبال عظام وأنهار كثيرة منها يخرج الياقوت الأحمر ولون السماء وحولها تسع وخمسون جزيرة عامرة فيها مدن وقرىً كثيرة . فأما بحر أوقيانس الغربى الذى يدعى المحيط فإنه لا يعرف منه إلا ناحية المغرب والشمال من أقصى أرض الحبش إلى برطانية وهو بحر لا تجرى فيه السفن والستّ الجزائر التى فيه مقابل أرض الحبش هى الجزائر العامرة وتسمى أيضًا جزائر السُّعداء . وجزيرة أخرى مقابل الأندلس تسمى غَدِيرة عند الخليج وهذا الخليج يخرج منه وعرض موضعه الذى يخرج منه سبعة أميال هو بين الأندلس وطنجة يُسمَّى سبطا يخرج إلى بحر الروم وفيه أيضًا من ناحية الشمال جزائر برطانية وهى
اثنتا عشرة جزيرة/ثم يبعد عن العمران فلا يعرف أحد كيف هو ولا ما فيه . وأما بحر الروم ومصر فإنه 103
يخرج من عند الخليج الذى يخرج من بحر أوقيانس الغربى عند الجزيرة التى تسمى غديرة مقابل الأندلس إلى صور وصيداء من ناحية المشرق وطوله خمسة آلاف ميل وعرضه فى مكان ستمائة ميل وفى مكان سبعمائة ميل وفى مكان ثمانى مائة ميل وفيه خليج واحد يخرج إلى ناحية الشمال قريبًا من رُومية طوله خمسمائة ميل يسمى بحر أَذْرِيَس وخليج آخر يخرج نحو أرض نربونة طوله مائتا ميل . وفى هذا البحر كله من الجزائر مائة واثنتان وستون جزيرة عامرة منها خمس عظام إحداها جزيرة قرنس يحيط بها مائتا ميل وسَرْدَانية يحيط بها ثلاثمائة ميل وقُبْرُس يحيط بها ثلاثمائة وخمسون ميلا وصِقِلِّية يحيط بها خمسمائة ميل و إِقْرِيطِش يحيط بها ثلاثمائة ميل . وبحر بُنْطُس يمد من لاذقة إلى القسطنطينية العظمى طوله ألف وستون ميلا وعرضه ثلاثمائة ميل يدخل فى النهر الذى يسمى طَنَايِس ومجراه من ناحية الشمال من البحيرة التى تسمى مايُطِس وهو بحر ضخم و إن كان يسمى بحيرةً طوله من المشرق إلى المغرب ثلاثمائة ميل وعرضه مائة ميل وعند القسطنطينية ينفجر منه

= 186, Note 21.) فيرى فى البحر الأخضر التسمية المعتادة للمحيط الهندى والمحيط المتصل به (شرحه ، ص ١٨٨ – ١٨٩) .

خليج يجرى كأنه نهر ويصب فى بحر مصر وعرضه عند القسطنطينية قدر ثلاثة أميال والقسطنطينية عليه . وبحر جُرجان وهو بحر الباب طوله من المغرب إلى المشرق ثمانى مائة ميل وعرضه ستمائة ميل وفيه جزيرتان قبالة جرجان كانتا فيما مضى عامرتين وهذه المواضع العامرة من موضع بحر الأرض المعروف والله بذلك أعلم . وقد قُسِمت الأرض بثلاثة أقسام الأول منها من البحر الأخضر من ناحية الشمال والخليج الذى يخرج من بنطس إلى البحر الأكبر وما بين بحيرة مايطس إلى بنطس فصارت حدود هذه الناحية من المغرب والشمال البحر الغربى وهو أوقيانس ومن ناحية الجنوب بحر مصر والروم ومن ناحية المشرق طنايس وبحيرة مايطس وصارت هذه الأرض شبه الجزيرة وسموها أوروفى . والقسم الثانى من ناحية الجنوب من بحر مصر إلى بحر الحبش وحدود هذه الناحية من المغرب البحر الأخضر ومن الشمال بحر مصر والروم ومن المشرق العريش ومن الجنوب بحر الحبش ويسمى هذا القسم لوبيا . والقسم الثالث جميع ما بقى من عمران الأرض إلى أقصى ذلك وحدوده من المغرب طنايس والنهر والخليج والعريش وأيلة ومن الجنوب بحر اليمن والهند ومن المشرق أقصى عمران الصين من ناحية المشرق والصين نفسها ويسمى هذا القسم أشيا الكبرى . فهذه الثلاثة الأقسام قد
104 جمعت الأقاليم والكُوَر وسائر البلدان العامرة . وأما ما لايُعْرف/عمرانه ولا خرابه فهو أحد عشر جزءًا من اثنىْ عشر جزءًا وأما الجزء الذى فيه العمران المعروف من موضع خط الاستواء ففيه البحور والمفاوز . فإن قال قائل هل فى هذه الأحد عشر جزءًا نبات وحيوان وعمران كان القول فيه من جهة القياس والرأى وأما ما كان من عمران الأرض قبلنا فإنه لا يجوز الحدّ والأفراق التى ذكرنا وأما الذى وراء ذلك فإنه لم يُجْرِه أحد إلينا ولكن الرأى والظن يقع على ما لا ينكره أحد من ذوى المعرفة على جهة القياس ، أن الشمس والقمر والكواكب تجرى عندنا فيكون بحركتها وقربها وبعدها صيف وشتاء ونبات وحيوان وعمران ومايعرفه كل أحد فإن كانت الشمس تطلع على كل مكان من دائرة الأرض الباقية والكواكب مثل ما عندنا ، فيمكن أن يكون هنالك نبات وحيوان وبحور وجبال مثل ما عندنا وينبغى أن يكون كذلك . وتكون حصة الدرجة الواحدة من هذه الأميال المذكورة قريبًا من خمسة وستين ميلا وهو مسيرة يومين بالتقريب والله أعلم . فأما طول المدن وعرضها على ما رُسِمَ فى كتاب صورة الأرض فإن مواضعها من الطول الذى هو مسافة ما بين المغرب والمشرق فإنهم ابتدأوا به من الجزائر العامرة التى فى بحر أوقيانس الغربى إلى ناحية المشرق على حسب ما وجدوا أوقات كسوفات القمر خاصة بتقدم بعضها بعضًا فى البلدان فعلموا بذلك أن انتصاف النهار فى كل بلد يتقدم انتصاف النهار فى غيره من ناحية المغرب بأجزاء من أزمان معدّل النهار يكون مقدارها مقدار أزمان ما بين الكسوف فى البلديْن ومن ذلك ما أخذوه من الأخبار ممن يسلُك الطرق بالتقريب . وأما عروض المدن فإنهم أخذوها من قبل قياس الشمس فى أوقات انتصاف النهار فى البلدان فعرفوا بعدها وقربها من نقطة سمت الرؤوس على نحو ما بينا فيما تقدم من

هذا الكتاب ، فعلموا بُعد كل بلد عن خط الاستواء وهو مسافة ما بين الجنوب والشمال ورسموا تحت كل مدينة بعدها عن الجزائر الخالدات فى الطول وعن خط الاستواء فى العرض بالتقريب وقد أثبتنا ذلك على الرسم الذى وجدناه فى كتاب صورة الأرض المعروف وذِكْرَ أوساط البلدان والكُوَر المعلومة أيضًا ذكرًا مفردًا كما فعل بطلميوس وهى أربعة وتسعون بلدًا . وقد يوجد فى هذا الكتاب خلل فى الأطوال والعروض وسنعيد ذكر ما يحتاج إليه من ذلك فيما يستأنف من كتابنا هذا » *(٦٧) .

105 وبالطبع فهذا الفصل لا يستغرق جميع المادة الجغرافية فى زيج البتانى . وجدول الأقاليم لديه يتفق بالتقريب مع الفرغانى ولكنه يختلف مع الخوارزمى بالطبع ، لأن هذا الأخير كما بيّنا من قبل يقف فريدًا فى هذا الصدد . والبتانى لا يضع هذا الفصل فى القسم الجغرافى من زيجه بل بين الجداول المفردة للأجرام السماوية . ولا تخلو من الأهمية أيضًا جداوله الجغرافية التى لسبب ما لم تجد مكانها فى الترجمة اللاتينية لأفلاطون التيڤولى ولذا فلم تصبح فى متناول أيدى العلماء إلا فى منتصف التسعينيات من القرن الماضى وذلك فى الترجمة الكبرى لنالينو التى سبقت ظهور الطبعة الكاملة للكتاب . وهى تعطى ثبتًا بأسماء مائتين وثلاثة وسبعين موضعًا موزعة على مجموعتين مع تبيان العروض والأطوال(٦٨) . ولأول وهلة قد يظن أن البتانى كان يستهدف تتمة الخوارزمى لأنه يورد فى القائمة الأولى الأربع والتسعين ولاية «eparchies» للمعمورة الواردة فى المقالة الثامنة من كتاب بطلميوس والتى لم تجد مكانها فى « صورة الأرض » للخوارزمى . وفى كلا جدوليه ، كما فى مقدمة زيجه أيضًا ، يورد البتانى فى الواقع ذكر مصدر واحد فقط بعنوان « كتاب صورة الأرض » . غير أنه من المستحيل أن يبصر فى هذا كتاب الخوارزمى وذلك لأسباب عديدة من بينها ، وإن ليس أهمها ، أن الترجمة اللاتينية لأفلاطون التيڤولى القائمة على الأصل العربى لكتاب البتانى تضيف بعد هذا العنوان « المعروف باسم جغرافيا » . وكما أثبت نالينو فالكلام يدور هنا فى الواقع حول

---

* إن شرح هذه القطعة يحتاج إلى بحث خاص ، ولكن تسهيلا لفهمها نذكر أنه يقصد بالبربر والخليج البربرى بلاد الصومال ، أما سبطا فهى سبتة (Ceuta) . وبحر أذريس هو البحر الأدرياتيكى ، أما جزيرة قرنس فهى كورسيكا ، وأما لاذقة فهى بلاد اللاظ . ونهر طانايس يقصد به الدون الحالى ، أما بحيرة مايطس فهى بحر آزوف . ويريد ببحر جرجان بحر قزوين وبالباب ممر دربند . (المترجم)

(٦٧) Nallino, Al-Battani Text III p. 25. —Translation, I, p. 17-20; Commentary, I p. 164-177. —Reinaud, Introduction, p. CCLXXXIII-CCXC; Text, p. CDLXI—CDLXIV —Mehren, Udsigt, p. 13-18 —Reconstruction of map: Reinaud, Introduction, p. CCLXXXII, No 1.

(٦٨) عن طريقته فى حساب خطوط العرض راجع : Schoy, Polhöhenbestimmungen, p. 16-19.

الترجمة المصلحة لبطلميوس التى عملها ثابت بن قرة(٦٩) ؛ وهذا ليس بغريب فثابت من مواطنى البتانى فضلا عن أن الأخير قد تحاشى ، عن قصد فى أغلب الظن ، الاستفادة من النتائج العلمية التى وصل إليها فلكيو المأمون ، هذا إذا اعتمدنا فى حكمنا على عدم وجود أية مقتطفات من مصنفاتهم فى كتابه(٧٠) . وهو لا ينبس ببنت شفة عن القياسات التى أجراها أولئك لخط منتصف النهار ، ولكن من ناحية أخرى فإن صاحب الترجمة المصلحة لبطلميوس كان على علم بمصنف الخوارزمى فقد استعار منه بعض المعطيات(٧١) ، كما كان على علم أيضًا بالترجمات السريانية لبطلميوس(٧٢) .

وكما أبصرنا من قبل فجميع المسائل المتعلقة بالتاريخ المبكر للجغرافيا الرياضية عند العرب
يحيط بها الكثير من الغموض واللبس ؛ وهذا الحكم يصدق بدوره على مصادر البتانى . غير أن
مصنفاته تمتاز على المصنفات الأخرى التى بين أيدينا الآن بوجود طبعة علمية لأحدها . إذ الواقع
يثبت أنه ليس هناك رسالة فلكية واحدة/عن العصر الأول تتمتع بطبعة علمية نموذجية مع ترجمة 106
وتعليقات ضافية كما هو الحال مع « الزيج الصابئ » فى الأجزاء الثلاثة الكبرى لنالينو (١٨٩٩ –
١٩٠٧) . وتعتبر تعليقات نالينو بحق موسوعة لا مثيل لها لكل من يريد الخوض فى مسائل
الفلك والجغرافيا الرياضية عند العرب .

وبعد قرن بالتقريب من البتانى وفى مصر الفاطمية ظهر مؤلف فى الفلك على هيئة جداول تمتّع بالمكانة نفسها الممتازة التى تمتع بها زيج البتانى . وهو من عمل ابن يونس الذى على النقيض من البتانى حفظ لنا تفاصيل الوصف الهام لحساب خط منتصف النهار الذى تم فى عهد المأمون . وكما هو الحال مع فلكيي المأمون فإن ابن يونس ، واسمه أبو الحسن على الصدفى(٧٣) ، كان أيضًا فلكيًا للبلاط ؛ وقد بدأ عمله فى وضع الجداول حوالى عام ٣٨٠ هـ = ٩٩٠ على جبل المقطم بالقاهرة فى المرصد الذى ضُم فيما بعد إلى « بيت الحكمة » التى أنشأها الخليفة الفاطمى الحاكم واستمرت

---

(٦٩) -Nallino, Le Tabelle, p. 162-163 —Nallino, Al-Battani I, p. XLII

(٧٠) -Nallino, Le Tabelle p. 163. Note 10
Nallino, Al-Battani, I, p. XLII

(٧١) -J. K. Wright, Geogr. Lore, p. 393, Note 7

(٧٢) -Honigmann, Die Sieber Klimata, p. 111-135

(٧٣) -Reinaud, Introduction, p. XCIII-XCIV —Brockelmann. GAL, I, p. 224. No 14 SBI, p. 400-401 —Suter, Ibn Yunus, p. 546 —Sarton, Introduction, I, p. 716-717 —Mieli, p.109, 212

من عام ١٠٠٥ إلى آخر عهد الفاطميين فى عام ١١٧١ [٧٤] ؛ وهى تقدم لنا مثيلا للمؤسّسة المعروفة فى عهد هارون الرشيد والمأمون . أما الجداول فقد أتمها ابن يونس قبل قليل من وفاته (فى عام ٣٩٩ هـ = ١٠٠٩) وأخذت عنوان « الزيج الحاكمى الكبير » نسبة إلى الخليفة الفاطمى لذلك العهد وهو الحاكم بأمر الله . وقد حفظ لنا الكتاب فى عدة مخطوطات غير كاملة ، نشر شذورًا منها وترجمات كوسان دى برسيفال Caussin de Percival ، ويحمل كتابه تاريخ العام الثانى عشر للجمهورية الفرنسية (١٨٠٣ – ١٨٠٤) . وقد قام المستعرب وعالم الرياضيات شوى Schoy بالكثير فى دراسة نظرياته فى العشرينيات من هذا القرن [٧٥] وبيّن ما قام به ابن يونس لا فى ميدان الفلك وحده بل أيضًا فى حساب المثلثات الكروى (spheric trignometry) حيث يجتذب الأنظار بشكل خاص قاعدة رياضية كشف عنها ابن يونس . ولا شك أن ابن يونس يعتبر أكبر الفلكيين العرب قاطبة بعد البتانى .

وتسبق الجداول مقدمة قصيرة تمتاز بالطرافة وتعرض بإيجاز لجميع تلك الأغراض العملية التى تستخدم الفلك والجغرافيا الرياضية فى مجال الشعائر الإسلامية . قال :

« ... ولما كان للكواكب ارتباط بالشرع [٧٦] فى معرفة أوقات الصلوات وطلوع الفجر الذى يحرم به على الصايم الطعام والشراب وهو آخر أوقات الفجر وكذلك مغيب الشفق الذى هو أول أوقات العشا الآخرة وانقضا الإيمان والنذور /والمعرفة بأوقات الكسوف للتأهب لصلاته والتوجه 107
إلى الكعبة لكل مصل وأوائل الشهور معرفة بعض الأيام إذا وقع فيه شك وأوان الزرع ولقاح الشجر وجنى الثمر ومعرفة سمت مكان ما من مكان والاهتداء عند الضلال وكان رصد أصحاب الممتحن قد بعد عمره وكان عليه من الخلل ما وجد فى أرصاد من تقدمهم من أهل العلم والبطش مثل ارشميدس وابرخس وبطلميوس وغيرهم أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين أبو على المنصور الإمام الحاكم بأمر الله صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنيائه الأكرمين بتجديد رصيد الكواكب السريعة السير وبعض البطيئة » [٧٧] .

---

(٧٤) -Sarton, Introduction, I, p. 717

(٧٥) راجع : Sarton, Introduction I. p. 717

تحديد العرض لدى : Schoy, Polhóhenbestimmungen, p. 19-21

(٧٦) -Reinaud, Introduction, p. XCIV

(٧٧) -Reinaud, Introduction, p. XCIV—XCV

Reinaud, Notices sur les Dictionnaires p. 76.

كما تحتوى الجداول نفسها على مقدمة تبسط ما يحتاج إليه عمليًا فى الرصد والحساب وكيفية استعمال الجداول سواء من الناحية الفلكية بمعناها الضيق أو من ناحية التوقيت وحساب المثلثات . والمهمة الأساسية لجداوله هى تصحيح الأرصاد السابقة ، فحصل بهذا على نتائج جديدة ؛ والأمر الذى يهمنا بصورة خاصة ، أى من وجهة النظر الجغرافية البحتة ، هو تحديدها لمواقع مائتين وسبع وسبعين مدينة وهو رقم لا يختلف كثيرًا عن الرقم الوارد فى الجداول الجغرافية للبتانى السالف ذكرها .

وفى كلامنا على بداية الجغرافيا الفلكية عند العرب أشرنا إلى الدور الهام الذى قام به الزرقالى كوسيط بين الشرق والغرب ، كما وقفنا بعض الشىء عند « جداول طليطلة » التى لعب الزرقالى دورًا رئيسيًا فى وضعها . وأبو إسحق إبراهيم بن يحيى الزرقالى ، الذى اشتهر فى الدوائر العلمية بنسبته « الزرقالى » وفى أوروبا الوسيطة باسم **Arzachel** (عاش حوالى عام ٤٢٠ هـ = ١٠٢٩ – ٤٨٠ هـ = ١٠٨٧ [٧٨]) كان فى بادئ أمره على أغلب الظن نقاشًا ، وتكمن هذه الحقيقة فى أنه لقب أيضًا بالنقاش . وكان يعمل فى تحضير الآلات الفلكية الدقيقة فاخترع اسطرلابًا جديدًا بلغ حد الكمال ، ولم يلبث أن صار أكبر راصد لعصره . ومسقط رأسه قرطبة ولكنه أمضى حياته بأجمعها تقريبًا بطليطلة التى كانت آنذاك المركز الثقافى لأسبانيا . ورسالته فى الاسطرلاب المسماة « صفيحة الزرقالى » (فى الترجمة اللاتينية **Saphaera Arzachelis**) كان لها تأثير لا نظير له على كافة العلم الأوروبى ، وترجمت فى ذلك الوقت إلى لغات عديدة كالعبرية واللاتينية والقشتالية/والإيطالية [٧٩] . وقد لعبت هذا الدور نفسه أيضًا « جداول 108
طليطلة » الفلكية التى شارك فى وضعها الزرقالى مشاركة فعالة وعمل لها شرحًا خاصًا بها ؛ ولم يعثر على الأصل العربى لها إلى الآن غير أن الترجمة اللاتينية لجيرارد الكريمونى **Gerard of Cremona** فى القرن الثانى عشر معروفة فى أكثر من خمس عشرة مخطوطة ، الأمر الذى يدل على سعة انتشار الكتاب . وقد كان لهذه الجداول أثر كبير فى النشاط العلمى للفونس « العالم » فى القرن الثالث عشر ؛ وأفرد لها ريجيومنتانوس **Regiomontanus** رسالة خاصة ، كما وأن

---

(٧٨) نالينو، الفلك، ص ١٧٠ ، ١٧٦ ، ١٨٨ ، ٢٣٥ – ٢٣٦ ,Brockelmann,GAL, I, p. 472-473, No3, SBI- p. 862; (= Racc., p. 221, 225, 235, 272)

Sarton, Introduction, I, p. 758 - 759. Carra de Vaux, Les Penseurs, II, p. 227 - 230. Mieli, p. 184 - 187.

(٧٩) -Carra de Vaux, Les penseurs, II, p. 229 - 230

كوبرنيكوس Copernicus ينقل عنها كما فعل مع البتانى[٨٠]؛ وفى الأعوام الأخيرة قام العالم الإسبانى خوسيه مياس فاليكروسا Jose M. Millás y Vallicrosa ببحوث عديدة تبين جميع أوجه النشاط العلمى للزرقالى . ومما يصور أهمية نشاطه بالنسبة للجغرافيا أنه استغل الترجمات العربية لبطلميوس بما فى ذلك كتاب الخوارزمى أيضًا[٨١] ؛ ومن بين أعماله العلمية حسابه لطول البحر المتوسط إلى ما يقرب من الواقع وذلك فى ٤٢ ° درجة ، هذا بعد أن تم اختزال القياس البطلميوسى من ٦٢ ° درجة إلى ٥٤ ° درجة بواسطة فلكيى المأمون[٨٢] .

وبالطبع فلم تلعب جميع الزيجات فى تاريخ العلم العالمى دورًا يماثل الدور الذى لعبته جداول البتانى أو الزرقالى ، ولكن حتى تلك التى لا تجتذب الأنظار كثيرًا قد تمثل أحيانًا بعض الأهمية بالنسبة لنا لصلتها بالعلم الروسى . ففى نهاية الخمسينيات من القرن الماضى عرّف خانيكوف Khanikoff الدوائر العلمية لأول مرة بالمخطوطة الفريدة التى كان يمتلكها وقتئذ وهى كتاب « ميزان الحكمة » لمؤلف يدعى الخازنى وذلك بنشره لمقتطفات منها فى مجلة الجمعية الشرقية الأميركية Journal of the American Oriental Society[٨٣] . وسرعان ما اجتذب الكتاب الأنظار وتم الاعتراف به كأثر بارز فى ميدان الميكانيكا والفيزياء والهيدروستاتيكا (hydrostatics) كما اتضح أنه يمثل خطوة إلى الأمام فى دراسة الوزن النوعى التى بدأها البيرونى . وقد ظهر فى الآونة الأخيرة عدد من الدراسات عن هذا المصنف ، كما أن العمل يسير قدمًا فى تحضير طبعة علمية كاملة له تأخذ فى حسابها إلى جانب مخطوطتنا المخطوطات التى تم الكشف عنها فى الهند منذ ذلك الوقت[٨٤] .

أما عن المؤلف نفسه فقد تجمعت الحقائق ببطء شديد ، وشيئًا فشيئًا بدأ يتضح أنه كان عبدًا روميًا (بيزنطيًا) عاش بمدينة مرو وأعتقه سيده ووفر له تعليمًا جيدًا ، كما اتضح أيضًا أن له مصنفًا آخر يهمنا بصورة خاصة فى ميداننا هذا وهو « الزيج السنجرى/المعتبر » ؛ وهذه الجداول محفوظة 110

---

(٨٠) شرحه ، ص ٢٣٠

(٨١) -J. K. Wright, Georgr. Lore, p. 79, 394

(٨٢) -Mehren, Udsigt, p. 27-28

(٨٣) المتن والترجمة : - Khanikoff, JAOS, VI, p. 1 - 28; المتن والترجمة p., 1 - 78; زيادات المحرر p. 107 - 128; زيادات المؤلف p. 107 - 128.

(٨٤) -Brockelmann, GAL, I, p. 494, No I; SBI, p. 902 ; Sarton, Introduction, II, p. 216 - 217;
— Wîedemann, al-khazini, p. 1006 - 1007;
Mieli, p. 154 - 155; Suter, Mathematiker, p. 122, No 296, p. 226

فى مخطوطة فريدة بالفاتيكان ندين بمعرفتنا بها إلى المستشرق نالينو[٨٥] . وقد عملت الجداول بمرو حوالى عام ٥٢٠ هـ = ١١٢٦ على أساس أرصاد ترجع فى الغالب إلى عام ٥٠٩ هـ = ١١١٥ –
١١١٦ وتعتمد على خط عرض/مرو الذى حدد بسبع وثلاثين درجة وأربعين دقيقة[٨٦] . ومن 111
الطريف أن الخازنى يورد فيها حسابات تقوم على الأدوار الكونية (cosmic cycles) للسدهانتا وأدوار « الألوف » لأبى معشر[٨٧] ، وهذا برهان آخر على أن المذهب الهندى – الإيرانى كان لا يزال متمتعًا ببعض الحيوية . أما الجداول فقد أخذت اسمها من اسم السلطان سنجر آخر السلاجقة الكبار (٥١١ هـ – ٥٥٢ هـ = ١١١٨ – ١١٥٧) الذى نشط الخازنى فى عصره ورفع جداوله إليه .

وفى القرن الثالث عشر ينتقل بنا إلى افريقيا الشمالية الفلكى أبو على حسن المراكشى (توفى حوالى عام ٦٦٠ هـ = ١٢٦٢)[٨٨] الذى يمثل بعض الأهمية بالنسبة للجغرافيا أيضًا لأنه سافر كثيرًا فزار الأندلس وعرف شمال افريقيا من المحيط الأطلنطى إلى النيل . ومصنفه الأساسى هو « جامع المبادىء والغايات إلى علم الميقات » ؛ وفى القسم الأول منه يعالج مبادىء تلك العلوم التى يقوم عليها الفلك وهى الكوزموغرافيا (وصف الكون) والتوقيت وفن صنع الساعات الشمسية أى المزاول gnomonics ؛ أما القسم الثانى فقد أفرد بصورة خاصة لصناعة أجهزة الرصد وطريقة العمل بها . وهو يقدم لنا كشفًا بأسماء مائتين وأربعين نجما رصدت عام ٦٢٢ هـ = ١٢٢٥ – ١٢٢٦ ، هذا إلى جانب جداول العروض والأطوال لمائة وخمسة وثلاثين موضعًا جغرافيًا حقق منها بنفسه أربعة وثلاثين[٨٩] . ومن الطريف اتخاذه الأرين خطًا للابتداء ، وهو مذهب يرجع إلى التراث السابق لعهد المأمون . وقد أكمل تأليف هذا المصنف فى عام ٦٢٧ هـ = ١٢٣٠ ، وهو كغيره من الآثار الفلكية قد تعرف عليه العلم المعاصر قبل تعرفه على الآثار الجغرافية وأضحى جزء كبير منه فى متناول الأيدى فى ترجمة فرنسية من عمل العالمين الفرنسيين سيديو Sédillot الأب والابن (١٨٣٤ – ١٨٣٥ ، والتتمة عام ١٨٤٢) . وكما لاحظ

---

(٨٥) Nallino, Al-Battani I, p. LXVII, p. 161, 269-271, 279-281-

(٨٦) شرحه ، ص ٦٧

(٨٧) نالينو ، الفلك ، ص ١٧٩ (Racc., p. 227-228 =)

(٨٨) Reinaud, Introduction, p. CXXXVIC-XXXVIII ; Brockelmann, GAL, I, p. 473-474, No 7; SBI, p. 866 ; Sarton Introduction, II, p. 621-622 ; Kramers, EI, EB, p. 64, 71; Mieli, p. 210-211-

(٨٩) عن طريق ملاحظته للعروض راجع : Schoy, Polhöhenbestimmungen, p. 21-33-

رينو[٩٠] فإنه من المستحيل بالطبع إنكار أن المراكشى كان تجريبيًا أكثر منه عالمًا وأنه يقف فى المستوى العلمى دون ابن يونس بكثير ، إلا أن مصنفه يمثل خطوة هامة فى ميدان الجغرافيا الرياضية ولا يزال وصفه لأجهزة الرصد فريدًا فى نوعه إلى اليوم .

وفى العصر الذى كان يقوم فيه المراكشى بأرصاده الفلكية فى المغرب حدث بالمشرق تحول كبير نتيجة لاستيلاء المغول على بغداد وقضائهم نهائيًا على الخلافة العباسية . وهذا العهد الذى صحبه القضاء على عدد من آثار الحضارة استطاع رغم ذلك أن ينتج أثرًا ممتازًا فى ميدان الفن الذى نعالجه الآن ، أعنى بذلك « الزيج الايلخانى » ؛ كما استطاع أن ينشىء مؤسّسة واصلت بجدارة النشاط العلمى « لبيت الحكمة » **المأمونى والحاكمى** ، أعنى بذلك مرصد مراغة
الشهير. والجداول الفلكية/ والمرصد يرتبطان باسم واحد من أكبر علماء الإسلام قاطبة 112
وهو نصير الدين الطوسى (٥٩٧ هـ - ٦٧٢ هـ = ١٢٠١ - ١٢٧٤)[٩١]. ويكتب اسمه فى العلم الأوروبى أحيانًا على هيئة ناصر الدين ، ولكن هذا كما أثبت نالينو[٩٢] يستند على محض خطأ إذ أن اسمه فى الواقع هو نصير الدين ليس غير . وقد كان نصير الدين يجيد اللغتين العربية والفارسية ويكتب بهما ، ويمكن اعتباره ممثلا للثقافتين العربية والفارسية على السواء . وفى مؤلفاته العلمية سار بالطبع على منوال المذاهب العربية المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بتراث الأوائل . وقد مكنته مهارته
السياسية الفائقة من أن يحتفظ بحياته/فى الظروف القاسية التى مرت بها إيران فى منتصف القرن 113
الثالث عشر ، بل أن يزوال نشاطه العلمى كذلك ؛ وحدث له أن أمضى فترة ليست بالقصيرة محتجزًا فى قلعة الاسماعيلية بألموت Alamut ، وما لبث أن وقع فى قبضة هولاكو ولكنه عرف كيف يحتفظ بنفوذه لديه معتمدًا فى ذلك على ما يظهر على سمعته كمنجم ؛ وكان فى معية هولاكو عند استيلائه على بغداد . وقد حالفه التوفيق فى العام التالى لذلك (٦٥٧ هـ = ١٢٥٩) فأقنعه ببناء مرصد كبير بمراغة بأذربيجان حيث كان يوجد بلاط المغول .

---

(٩٠) -Reinaud, Introduction, p. CXXXVII,

(٩١) -Brockelmann, GAL, I, p. 508-512 No 8; SBI, p. 924-933 ; Ruska, Al-Tusi, p. 1063 ; Sarton Introduction. II, p. 1001-1013
-Reinaud, Introduction, p. CXXXVIII.-CXLI ; Carra de Vaux, Les penseurs, II, p. 222-225 ; Strothmann, Die Zwölfer schia
-Mieli, p. 150-154 ; Wiedemann, Beiträge, LXXV, p. 363-379
-Wiedemann, Al-Tusi, p. 289-316 ; Browne, Literary History, II, p. 484-485; III, p. 17-18

(٩٢) -Nallino, OM, VIII, p. 43-44 (= Racc., II, 1940, p. 463)

وقد تم تزويد المرصد بأفضل أجهزة الرصد لذلك الحين حفظ لنا وصفها تلامذة الطوسى وزملاؤه فقدموا بذلك مادة لبحوث قام بها بعض المتخصصين من الأوروبيين . واشترك نصير الدين أحيانًا فى حملات المغول العسكرية ليجمع المخطوطات لمكتبة المرصد التى ضمت أربعمائة ألف مجلد ؛ وهو رقم مبالغ فيه كما يحدث عادة فى أمثال هذه الحالات . وكان من بين أمناء هذه المكتبة يومًا ما المؤرخ المعروف ابن الفوطى الذى كان قد وقع أسيرًا فى يد المغول فأنقذه نصير الدين . وأعد المرصد خير إعداد ليس فى الأجهزة والآلات والكتب فحسب بل أيضًا فى العدد الضخم من العلماء حيث وجد إلى جانب تلامذة الطوسى أبناؤه أيضًا ؛ وثمة روايات عن مشاركة علماء صينيين فى أعمال الرصد بهذا المرصد وهو أمر ليس بمستبعد بالنسبة لدولة المغول . بيد أن المرصد لم يدم أكثر من جيلين ولم يسمع عنه شيء بعد النصف الأول من القرن الرابع عشر (٩٣) ؛ ولا تزال **أطلاله** ماثلة إلى أيامنا هذه بمراغة(٩٤) .

وكان نصير الدين الطوسى دائرة معارف بمعنى الكلمة ، فقد شمل نشاطه العلمى جميع العلوم سواء الإسلامية الصرفة أو العلوم الدقيقة . ويسترعى النظر ما قاله عنه فى عام وفاته العالم السريانى المعروف ابن العبرى ، وكان يعرفه معرفة جيدة ، بل اشتغل هو نفسه بالتدريس بعض الوقت بمراغة . قال :

« وفى هذا التاريخ توفى خواجا نصير الدين الطوسى الفيلسوف صاحب الرصد بمدينة مراغة حكيم عظيم الشأن فى جميع فنون الحكمة . واجتمع إليه فى الرصد جماعة من الفضلاء المهندسين . وكان تحت حكمه جميع الأوقاف فى جميع البلاد التى تحت حكم المغول . وله تصانيف كثيرة منطقيات وطبيعيات وإلاهيات وأوقليدس ومجسطى . وله كتاب أخلاق فارسى فى غاية ما يكون من الحسن جمع فيه جميع نصوص أفلاطون وأرسطو فى الحكمة العملية . وكان يقوّى آراء المتقدمين ويحلّ شكوك المتأخرين و/المؤاخذات التى قد أوردوا فى مصنفاتهم »(٩٥) . 114

أما فى محيط العلوم الدقيقة فندين له بتصليحات عديدة لمؤلفات جميع علماء الأوائل تقريبًا ممن عرفهم العرب ، وقد استمر الشرق الإسلامى يستخدم هذه الترجمات المصلحة لنصير الدين الطوسى إلى أيامنا هذه . من ذلك أنه أعد مسودة جديدة للمجسطى طغت على جميع الترجمات السابقة تقريبًا . أما أرصاده لوضع جداول فلكية فقد بدأها فى سن متقدم من عمره وهو سن

---

(٩٣) راجع أيضًا عنه : -Schwartz, Iran, VIII, p. 1019; IX, p. 1403-1404, note 2, 3

(٩٤) -Minorsky, Maragha, p. 288

(٩٥) صالحانى ، ص ٥٠٠ – ٥٠١ ؛ راجع : Browne, Lit.History,III, p.18

الستين ؛ ومع ذلك فقد وفق فى إتمامها خلال اثنى عشر عامًا وذلك حوالى عام ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ رغما من أنه يقرر فى مقدمة الجداول أن دورة الأرصاد الفلكية لا تتم فى أقل من ثلاثين سنة[٩٦] . وقد شارك فى وضع هذه الجداول فلكيون آخرون واستند حسابها على أساس خط منتصف النهار الذى يمر بمراغة ، وأطلق عليها اسم « الزيج الايلخانى » نسبة إلى اللقب الذى كان يحمله حكام إيران المغول . والكتاب مرتب على أربع مقالات الأولى فى التقاويم المختلفة والثانية فى حركات الكواكب والثالثة فى تحديد الأوقات والرابعة فى حسابات تنجيمية مختلفة . هذه الجداول وإن لم تشتمل دائمًا على إرصادات أصيلة إلا أنها اكتسبت صيتًا واسعًا فى الشرق الأدنى واستمرت مستعملة حتى إلى ما بعد ظهور جداول ألو غ بيك ، بل إنها نفذت إلى الصين وسيطرت سيطرة مطلقة على علم الفلك هناك . وقد اعتمد أحد علماء سمرقند ممن عاشوا بالصين على جداول نصير الدين الطوسى فى وضع تقويم خاص لأحد أحفاد جنكيز خان فى عام ٧٦٤ هـ = ١٣٦٢[٩٧] ، واستمر تأثيرها فى الصين إلى ما بعد زوال دولة المغول بها فى القرن الرابع عشر حتى طغت عليها فى القرن السابع عشر مؤلفات الجزويت الغربيين الذين اشتد نشاطهم فى ذلك الوقت[٩٨] .

وأغلب الظن أن « الجداول الايلخانية » قد وضعت أصلا بالفارسية إلّا أن عددًا كبيرًا من مسوداتها معروف باللغة العربية ، ليس هذا فحسب بل وفى عدد من المسودات المصلّحة والشروح[٩٩] . ويرجع الفضل لأحد تلك الشروح وهو لمحمود شاه قلجى فى تعريف أوروبا بهذه الجداول ، إذ نشر مقتطفات من هذا الشرح مع ترجمة المستشرق والفلكى الإنجليزى جون غريفز John Greaves سنة ١٦٤٨ – ١٦٥٠[١٠٠] . وكما هو الشأن مع بقية الزيجات فإن كمية المادة الجغرافية الخالصة فيه لا يستهان بها رغما من أنها تقتصر بشكل خاص على إيراد الأطوال والعروض[١٠١] . وينسب إلى نصير الدين الطوسى مصنف خاص فى الجغرافيا/باللغة الفارسية 115

---

(٩٦) Reinaud, Introduction, p. CXXXIX-CXL-

(٩٧) Schefer, Notice, p. 24-26 ; Brockelmann, GAL, SBI I. p. 297; No I, C Blochet, Catalogue, p. 169, No 6039-

(٩٨) Bartold, Kult-Mus., p. 85-

(٩٩) Brockelmann, GAL, I, p. 511, No 45, SBII, p. 298-

(١٠٠) شرحه ، ص ٥١١ – ٥١٢ —Greaves

(١٠١) راجع Ferrand, Relations, II, p. 357-358

ترتفع تسميته إلى المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب هو « صورة الأقاليم » الذى يحوم الشك حول صحة نسبته إليه والذى لا يمثل فى واقع الأمر سوى ترجمة فارسية لكتاب الاصطخرى على ما يبدو[١٠٢] .

ويجب أن نخص بالذكر من بين تلامذة الطوسى ومعاونيه العديدين قطب الدين مسعود الشيرازى (٦٣٤ هـ - ٧١٠ هـ = ١٢٣٦ - ١٣١١)[١٠٣] الذى تجاوزت مواهبه العلمية حدود الجغرافيا الرياضية بكثير ، فهو كنصير الدين الطوسى كان جامعًا لصنوف المعارف مما حدا بأبى الفدا إلى أن يلقبه « بالمتفنن »[١٠٤] ؛ وهو قد فات نصير الدين فى بعض النواحى وأبدى أصالة أكثر منه . ويرى فيه بارتولد « فلكيًا عظيما بحث عن طرق جديدة فى الفلك »[١٠٥] ، فى حين اعتبره سارطون Sarton من كبار علماء الفرس قاطبة[١٠٦] .

والذى يهمنا بصورة خاصة اثنان من مصنفاته ارتبط بعضهما ببعض ارتباطًا وثيقًا ، أحدهما « نهاية الإدراك فى دراية الأفلاك » الذى فرغ من تأليفه عام ٦٨٠ هـ = ١٢٨١ ، والآخر « التحفة الشاهية فى علم الهيئة » الذى يرجع إلى عام ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ ، وهو يمثل إلى حد كبير مسودة مصلحة للمصنف الأول . و« نهاية الإدراك » ليس مصنفًا فلكيًا بالمعنى الدقيق للفظ بل يعالج بصورة منظمة مسائل الكوزمولوجيا والجيودوسيا والمترولوجيا والميكانيكا والبصريات[١٠٧] . وفيدمان الذى اهتم كثيرًا بدراسة هذا الأثر يعتبره أفضل عرض للفلك (الكوزموغرافيا) باللغة العربية يخلو من الرياضيات[١٠٨] . ويمثل بعض الطرافة فحصه لموضوع

---

(١٠٢) -Miller, I, p. 22, No 22 ; Sarton, Introduction, II, p. 1009, No 17
بالتفصيل فى كتاب : Mzik, Abbildungen, p.149
ومع وصف الخارطة لدى : G. Melgunof

(١٠٣) -Brockelmann, GAL, II p. 211-212, No I, SB II, p. 296-297 ; Wiedemann, Kutb-al Din. p. 1252-1253 ; Sarton, Introduction, II, p. 1017-1020 ; Mieli p. 151, 154 note 8 ; Reinaud, Introduction, p. CXLI ; Honigmann, Die Sieben Klimata p. 162-163, 167

(١٠٤) -Wiedemann, Kutb-aldin, p. 1252

(١٠٥) -Bartold, Kult-Mus., p. 82

(١٠٦) -Sarton, Introduction, II, p. 1017

(١٠٧) شرحه ، ص ١٠١٨

(١٠٨) -Wiedemann, Kutb-aldin, p. 1252

شكل الأرض وموضعها وحركتها(١٠٩) وحجمها(١١٠) . وهو أكثر ميلا إلى نفى الحركة عنها(١١١) . وفى القسم الجغرافى يعرض وصفًا مفصلا للبحار والأقاليم مأخوذ كما هى العادة عن الفلكيين ولكن أكثر استيفاء ، بحيث يقدم لنا فى أحوال عديدة مادة تكفى لوضع خارطة . ولديه أحيانًا
116 معلومات مهمة عن بلاد كالهند وجاوه(١١٢) ، كما وأن معرفته بالمغرب لا بأس بها ./وعندما دخل الخان أرغون فى علاقات دبلوماسية مع فرنسا والبابوية تمكن قطب الدين من أن يريه فى عام ٦٨٨ هـ = ١٢٨٩ خارطة لبحر المغرب وسواحله مبين عليها بدقة مواقع مدن آسيا الصغرى كذلك(١١٣) . والشيرازى لم يظفر إلى هذه اللحظة بالاهتمام والتقدير اللائقين به فى الأوساط العلمية ولم ير النور حتى الآن أىٌّ من مصنفاته التى ذكرناها ؛ أما معرفتنا بنظرياته فنحن مدينون بها إلى فيدمان الذى أوضح فى كثير من بحوثه المتناثرة(١١٤) آراء الشيرازى حول عدد من المسائل العلمية .

أما آخر الزيجات الذى يكتمل به عقد هذه السلسلة من الآثار فيقترن باسم حفيد تيمورلنك وهو ألوغ بيك (٧٩٦ هـ - ٨٥٣ هـ = ١٣٩٣ - ١٤٤٩)(١١٥) ؛ وقد بين بارتولد فى بحث مفصل مكانة هذا الأمير فى التاريخ والعلم * . وكان محبًا للفلك خبيرًا فيه فقد شيد على غرار إيلخانات إيران مرصدًا هائلا بسمرقند فى سنة ٨٣٢ هـ = ١٤٢٨ ، ظهرت أطلاله فى حفريات عام ١٩٠٨ ولكن للأسف ليس بصورة تمكننا من الحكم على البناء بأجمعه ؛ ورغما من ذلك فإن ربع الدائرة (quadrant) فى الجزء المتبقى منه لايزال يحدث تأثيرًا قوياً فى نفس من يراه(١١٦) . وفى هذا المرصد كان ألوغ بيك يعمل مع عدد من العلماء بعضهم من آسيا الصغرى والآخر من

---

(١٠٩) Wiedemann AGNT, III p. 395-422-

(١١٠) شرحه ، ص ٢٥٠ - ٢٥٣

(١١١) شرحه ، ص ٤٣١ - ٤١٧

(١١٢) Ferand, Relations II p. 612-613-

(١١٣) رشيد الدين لدى : Blochet, L'Étude, p. 4
مخطوطة طشقند ، رقم A 236ª

(١١٤) ذكرها لدى : Sarton, Introduction, II, p. 1020 — Wiedemann, Kutb-aldin, p. 1252-1253

(١١٥) Brockelmann, GAL, II, p. 212-213, No 3; SB II, p. 298-Bouvat, p. 1077-1078 —Mieli, p. 263, 266-267 —Carra de Vaux, Les, Penseurs II, p. 225-226 —Bartold, Ulughbek, p. 107-111 Bartold, Kult. Mus. p. 94-96-

* ظهر كتاب جيد بالروسية يتناول نشاط الوغ بيك كعالم ، وهو من تأليف العلامة الأوزبكى قارى - نيازوف وذلك بعنوان «مدرسة الوغ بيك الفلكية» (الطبعة الأولى ١٩٥٠ بموسكو، والثانية الموسّعة ١٩٦٧ بتاشكند). (المترجم).

(١١٦) الصورة لدى : Bartold, Kult. Mus., p. 95

إيران، وظهرت آثار هذا النشاط في جداول النجوم المعروفة باسم «زيج سلطاني جديد» أو بالاختصار «زيج ألوغ بيك»، التى تم وضع معظمها حوالى عام ٨٤١ هـ = ١٤٣٧ . وأغلب الظن أنها وضعت أصلاً بالفارسية ولكن ظهرت معها فى وقت واحد بالتقريب الترجمتان العربية والتركية وأعقبهما عدد من الشروح والتنقيحات . وترتيب هذا الزيج يكاد يطابق ترتيب الزيج الايلخانى، فيلى المقدمة الطويلة المقالة الأولى فى معرفة التقاويم، بينما تبحث المقالة الثانية فى معرفة الأوقات، أما الثالثة ففى حركات الكواكب، ثم الرابعة فى مواقع النجوم الثابتة . وبالطبع فزيج ألوغ بيك استمرار للتراث العلمى العربى فى مجرى من مجاريه، فهو لم يكشف عن شىء جديد البتة . وقد أصبحت عمليات الرصد فى العصور التالية لذلك إلى العصر الحديث عسيرة التنفيذ فى الشرق الأدنى، لذا فإن زيج ألوغ بيك يمثل الكلمة الأخيرة فى فلك العصور الوسيطة بل الدرجة القصوى التى بلغها علم الفلك قبل اختراع المنظار المقرِّب (التلسكوب)[١١٧] .

أما مرصد ألو غ بيك فقد كان أقصر عمرًا حتى من مرصد مراغة ، وأغلب الظن أن عمره لم
يتجاوز حياة مؤسسه فأضحى منذ القرن السادس عشر/خرائب وأطلالا[١١٨] . هذا وكان من 117
أكبر معاونى ألو غ بيك فى مرصده ومن واضعى الزيج على بن محمد القوشجى (توفى عام ٨٧٩ هـ = ١٤٧٤) الذى اضطر إلى مغادرة سمرقند ووجد الملاذ بعد تجوال طويل لدى السلطان العثمانى محمد (الثانى) الفاتح بالقسطنطينية حيث أصبح المسئول الأول عن انتشار المعارف الفلكية والجغرافية فى الدولة العثمانية فقد نُقل إلى اللغة التركية عدد من مؤلفاته العربية والفارسية[١١٩] . ولعله ليس من محض الصدفة أن ترجمت جغرافيا بطلميوس إلى العربية مرة أخرى فى عهد ذلك السلطان .

أما زيج ألو غ بيك فقد تجاوز عمره عمر المرصد بقرون عديدة وكان يستعمله « الموقتون » فى البلاد الإسلامية إلى عهد قريب ، كما أن أوروبا قد عرفته فى القرن السابع عشر فى وقت واحد مع نصير الدين الطوسى بفضل دراسات غريفز Greaves (١٦٤٨ ، ١٦٥٢) وهيد Heyd (١٦٦٥) . وقد ترجم مقدمة الجداول سيديو Sédillot (١٨٤٧ ، ١٨٥٣)، أما فهرس النجوم فقد نشره فى طبعة علمية بول كنوبل Paul Knobl عام ١٩١٧[١٢٠] .

---

(١١٧) شرحه ، ص ٩٤

(١١٨) شرحه ، ص ٩٥

(١١٩) -Brockelmann, GAL, II, p. 234-235, No 4; SB II, p. 326-330, Bel, EI, I, p. 304

(١٢٠) -Brockelmann, GAL, SB II, p. 298

وزيج ألو غ بيك يختم سلسلة تلك المصنفات الفلكية التى اقتفت أثر علماء عصر المأمون والتى لا تخلو من الأهمية بالنسبة للجغرافيا الوصفية رغما من اقتصارها على تحديد أطوال وعروض البلاد والمدن . وليس من السهل حصر عدد من يمثلون هذا الاتجاه بصورة كاملة منتظمة ، بل إنه ليس هناك ما يدعو إلى ذلك لأننا فى الواقع عالجنا جميع الآثار الكبرى التى كانت فاتحة عهد جديد بالنسبة لعصورها . وباستثناء حالات معينة فإنه ليس هناك خارطات للمادة الجغرافية التى تحتويها ، فالفلكيون أنفسهم لم يحاولوا القيام بذلك كما أن معظم الجغرافيين لم تكن لهم دراية بمسائل الفلك . والاستثناء الوحيد المثمر كما أبصرنا يمثله فى النصف الأول من القرن العاشر سهراب الذى حفظ لنا النظام نفسه الموجود لدى الخوارزمى ولكنه اهتم كثيرًا بإيراد المادة العربية المعاصرة له[١٢١] ، ولا يتطرق الشك إلى صلته بالرياضيات من جهة وبالجغرافيا الوصفية من جهة أخرى . وهذا الموضوع الأخير ، أعنى الجغرافيا الوصفية ، هو الذى سننتقل الآن إلى معالجة ظروف نشأته فى الخلافة العباسية .

(١٢١) Kramers, EI, EB p. 64-

الفصـل الرابع
الجغرافيون اللغويون ورحالو القرن التاسع

118 فى القرن التاسع ظهرت لدى العرب جغرافيتهم الرياضية ؛ وقرب منتصف ذلك القرن بدأت تتشكل الجغرافيا الوصفية ببطء ملحوظ فى أول الأمر كأنما كانت تتحسس الاتجاهات التى ستسلكها فى تطورها التالى ؛ ذلك أنها لم تجد أمامها نماذج معدَّة لتسير وفقًا لها . وهذا الميدان لم يشتغل به ممثلو العلوم الدقيقة بقدر ما اشتغل به اللغويون الذين أخضعوا المادة لمطالبهم . ومن العسير علينا أن نحكم على المحاولات الأولى فى هذا المجال ، ذلك أنه لم يحفظ لنا فى معظم الأحوال من المصنفات إلا أسماؤها فحسب . وفى بداية النصف الثانى للقرن التاسع فقط بدأت تظهر مصنفات قائمة بذاتها ولكنها لم تعرف إلا فى روايات أو موجزات بأقلام بعض المتأخرين .

وقد سبق لنا الحديث عن بعض الأنماط الأولى فى صياغة المادة الجغرافية بواسطة اللغويين ، أعنى ما يعرف « بكتب الأنواء » التى ضمنها اللغويون جميع صنوف الملاحظات عن الطقس وظواهر الطبيعة الأخرى مصحوبة بتعليقات لغوية وغير لغوية . وقد ربط العرب الأقدمون الأنواء بحركات المنازل القمرية وأورثوها الخلف فى أغلب الأحيان على هيئة سطور قصيرة مسجوعة يكثر فيها غريب اللغة حتى احتاجت منذ القرن التاسع إلى الشرح والتوضيح . وقل أن وجد عالم لغوى من المتخصصين فى العهد الجاهلى لم ير من اللازم أن يظهر علمه بالأنواء فى هيئة رسالة خاصة . وتبدأ سلسلة هذه الرسائل فى الأنواء فى الحد الفاصل بين القرنين الثامن والتاسع بمؤرج السدوسى (توفى عام ١٩٥ هـ = ٨١٠)[١] أحد المقربين إلى المأمون عندما كان الأخير واليًا على خراسان ؛ وتمضى السلسلة هكذا متصلة الحلقات على امتداد القرنين التاسع والعاشر ؛ ويمكن أن نكون فكرة عنها من خلال الاقتباسات العديدة الموجودة غالبًا فى المعاجم العربية . ولعل أبعدها صيتًا على الإطلاق مصنف لأبى حنيفة الدينورى (توفى عام ٢٨٢ هـ = ٨٩٥) المعروف لنا على الأخص كمؤرخ . وأحد الأمثلة الفريدة لكتب الأنواء يقدمه لنا « تقويم قرطبة » The Calendar of Cordova المشهور لعام ٩٦١ ؛ وهو بالطبع ليس مصنفًا لغويًا بل

---

(١) -Brockelmann, GAL, I,p. 102, No 6; SBI, p. 160
نالينو ، الفلك ، ص ١٢٨ (= Racc., p. 188)

مرشدًا لصغار الزرّاع / يقدم لهم معلومات لا فى الزراعة فحسب بل فى الفلك والطقس . 119
ولإعطاء فكرة عن الأساس الذى يستند عليه يكفى أن نذكر فقط تقسيمه للعام إلى ثمانية وعشرين منزلا قمريًا ؛ كما أن العنوان الذى اتخذه باللاتينية وهو Liber Anoe ليس من العسير أن يتعرف فيه القارىء على اللفظ العربى أنواء *[٢] .

والفلكيون المتخصصون الذين أفردوا للمنازل القمرية رسائل خاصة قد وقفوا[٣] من مصنفات اللغويين موقف التشكك الذى له ما يبرره ؛ والفلكى الشهير عبد الرحمن الصوفى (توفى عام ٣٧٦ هـ = ٩٨٦) كتب يقول بصدد مصنف الدينورى السالف الذكر ، وذلك بعد قرن منه : « ووجدنا فى الأنواء كتبًا كثيرة أتمها وأكملها فى فنه كتاب أبى حنيفة الدينورى فإنه يدل على معرفة تامة بالأخبار الواردة عن العرب فى ذلك وأشعارها وأسجاعها فوق معرفة غيره ممن ألفوا الكتب فى هذا الفن . ولا أدرى كيف كان معرفته بالكواكب على مذهب العرب عيانًا فإنه يحكى عن ابن الأعرابى وابن كُنَاسة وغيرهما أشياء كثيرة من أمر الكواكب تدل على قلة معرفتهم بها وأن أبا حنيفة أيضًا لو عرف الكواكب لم يسند الخطأ إليهم »[٤] .

ولقد طغى الاهتمام اللغوى على المنهج الواقعى فى جميع الأحوال المماثلة تقريبًا ؛ غير أن مقدار المادة كان من الضخامة بحيث كشف عن نواح أخرى للصورة . ففى بداية القرن التاسع وضع النضر بن شميل (توفى عام ٢٠٣ هـ = ٨١٨)[٥] ، وهو من أصحاب كتب الأنواء ، ما يشبه موسوعة قائمة بذاتها فى الحياة البدوية بعنوان « كتاب الصفات » . وترتيب مادة هذا الكتاب معروف لنا ، رغما من أن بعض عناوين محتوياته الداخلية قد أصابها الخلط والاضطراب . ويصفه ابن النديم ورّاق القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) المشهور كالآتى[٦] :

---

* راجع فى هذا الصدد: Le Calendrier de Cordue. Publié par R. Dozy, Nouvelle èdition accompagnée d'une traduction francaise annotée par Ch. Pellat. Leiden. 1961. (المترجم)

(٢) Krachkovski, Arabsk. Kult v Ispanii, p. 18 ; Reinaud, Introduction, p. XC-XCII ; Dozy, Le Calendrier-

(٣) نالينو ، الفلك ، ص ١٣٤ – ١٣٦ (= Racc., p. 192-194) Motylinski-Griffini, RSt OR, I, p. 423-438; 607-608

(٤) (= Racc., p 190) نالينو ، الفلك ص ١٣١ = Schjellerup, p. 32-

(٥) نالينو ، الفلك ، ص ٢٨، رقم ٢ (= Racc., p. 188) Brockelmann, GAL, I, p. 102, No 7; SBI, p. 161-
أما عن هجرته من البصرة بألفاظ أبى عبيدة (توفى عام ٢١٠ هـ = ٨٢٥) فراجع : ابن خلكان، الجزء الثالث، ص ٥٤٩ = اليافعى، الجزء الثانى ، ص ٨

(٦) الفهرست ، الجزء الأول ، ص ٥٢ = ابن خلكان ، الجزء الثالث ، ص ٥٥٣ – ٥٥٤ =

« كتاب الصفات وهو كتاب كبير ويحتوى على عدة كتب ... الجزء الأول يحتوى على خلق الإنسان والجود والكرم وصفات النساء . الجزء الثانى يحتوى على الأخبية والبيوت وصفة الجبال والشعاب والأمتعة . الجزء الثالث للإبل فقط . الجزء الرابع يحتوى على الغنم الطير الشمس القمر الليل النهار الألبان الكماة الآبار الحياض الأرشية الدلا صفة الخمر. الجزء الخامس يحتوى على الزرع الكرم العنب أسماء البقول الأشجار الرياح السحاب الأمطار » .

120 يتضح من هذا أن تبويب مادة الكتاب يمكن اعتبارها نموذجًا للمؤلفات من هذا النوع ، فهو يحفل بمادة مختلطة تحوى أمشاجًا من الجغرافيا الطبيعية والاثنوغرافيا والجغرافيا الحيوية وغيرها تفتقر إلى الكثير من الترابط والانسجام من وجهة نظرنا الحديثة . ويمكن أن نفترض أن طريقته فى العرض تشبه إلى حد كبير مؤلفات اللغويين من الصنف نفسه وتتلخص فى سرد ألفاظ كل موضوع على حدة مع توضيحها بشواهد عديدة من أمثلة استعمالها فى الشعر الجاهلى . ومن الجلى أن بعض أوجه الحياة البدوية التى ورد وصفها فى المؤلفات التى من هذا **الضرب** قد عولجت بتفصيل واف. وكتاب النضر هذا الذى لم يصلنا قد نقل عنه كثيرًا كما يزعم الوراقون معاصره الأصغر منه سنًا أبو عبيدة (توفى عام ٢٢٣ هـ = ٨٣٧) الذى أمضى معظم سنى حياته كالنضر بخراسان(٧) . ويمثل معجمه « غريب المصنف » محاولة مبكرة لتوزيع المادة اللغوية حسب الأنواع(٨) ؛ وبالطبع فإن المادة الجغرافية لديه قد وردت على الصورة نفسها التى كانت عند النضر .

أما فيما يتعلق بالجغرافيا الإقليمة (regional) فقد انصرف اللغويون انصرافًا تامًا إلى جزيرة العرب . وقد لاحظ ياقوت بالكثير من الدقة ، وذلك عند تحليله لمصادر معجمه ، أن الكتب التى صنفت فى أسماء الأماكن صنفان « منها ما قصد بتصنيفه ذكر المدن المعمورة والبلدان المسكونة المشهورة .. ومنها ما قصد به ذكر البوادى والقفار واقتصر على منازل العرب الواردة فى أخبارهم والأشعار »(٩) فأولئك « الذين قصدوا ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية » فهو ينسبهم إلى « طبقة أهل الأدب »(١٠) ، أى اللغويين كما أسميناهم فى هذه المناسبة ؛ وقد التقينا فيما بينهم بعدد غير قليل من الشخصيات المشهورة ولكن منهجهم جميعًا فى التأليف يكاد يكون

= Reinaud, Introduction p. LI , Flügel, Gram Schulen, p. 60

(٧) -Brockelmann, GAL, I, p. 106-107, No 14; SBI, p. 166-167

(٨) -Gottschalk, p. 284-285

(٩) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ٦ – ٧

(١٠) شرحه ص ٧

واحدًا .

ويجب أن يحتل مكانة أولى فى هذا التراث الجغرافى اللغوى ، وذلك ليس من ناحية الأسبقية الزمنية فحسب ، المؤرخ المشهور هشام بن الكلبى (توفى حوالى عام ٢٠٦ هـ = ٨٢٠)[١١]. وهو خبير ممتاز بالجاهلية وصاحب « كتاب الأصنام » الذى يكاد يمثل إلى الآن المصدر الأساسى للتعريف بأديان عرب الجاهلية ، وأيضًا كتاب كبير فى الأنساب هو « جمهرة النسب ». والاعتراف به كحجة فى هذه الموضوعات يوكده بشكل قاطع قول ياقوت « ما تنازع العلماء فى شىء من أمور العرب إلا وكان قوله أقوى حجة وهو مع ذلك مظلوم وبالقوارص مكلوم »[١٢] . ومن بين العدد الضخم من مؤلفاته يذكر لنا ابن النديم/عشرة منها فى الجغرافيا[١٣] ، 121
فنبصر من بينها « كتاب تسمية من بالحجاز من أحياء العرب » و« كتاب قسمة الأرضين » و« كتاب الحيرة وتسمية البيع والديارات ونسب العباديين » . وإذا كانت هذه التسميات تتعلق بجزيرة العرب على نمط اللغويين فثمة أخرى على ما يظهر تعالج موضوعًا أوسع من ذلك وتبدى نواحى سيهتم العلماء كثيرًا بمعالجتها فيما بعد ، فلديه « كتاب الأقاليم » ، ثم « كتاب البلدان الصغير وكتاب البلدان الكبير » . ومعرفتنا بجميع أوجه النشاط العلمى لابن الكلبى يجعل من العسير علينا أن نفترض أن مادة هذه الكتب قد تجاوزت نطاق الجزيرة العربية ، غير أن عناوينها التى تذكرنا بالأدب التاريخى الجغرافى المتأخر تعطينا الحق فى افتراض ذلك . والحكم نفسه يصدق بصورة أقوى على عنوان كتابه الذى أورده ابن النديم وهو « كتاب العجائب الأربعة » ، فهو يذكرنا بجميع صنوف كتب العجائب التى ازدهرت عقب ذلك بفترة طويلة . ومن المُغرى أن نفترض أن هذا الكتاب بالذات هو الذى نقل عنه الإدريسى كثيرًا فى القرن الثانى عشر تحت اسمه المختصر « كتاب العجائب » مشيرًا إلى اسم المؤلف على أنه حسن بن المنذر بدلا من هشام أبى المنذر . فإذا كان الأمر كذلك فإن ابن الكلبى إذن هو أول مؤلف بالنسبة لعصره يكتب فى موضوعات جغرافية عامة تتجاوز نطاق جزيرة العرب[١٤] . ويوكد هذا تلك الاقتباسات التى ينقلها عن ياقوت مشيرًا فى العادة إلى « كتاب أنساب البلدان »[١٥] ؛ وهو يقصد فى أغلب

---

(١١) -Brockelmann, GAL, I, p. 138-140, No I; SBI p. 211-212
Brockelmann, EI, II, p. 737-738

(١٢) ياقوت ، المعجم ، الجزء الثانى ، ص ١٥٨

(١٣) الفهرست ، الجزء الأول ، ص ٩٧

(١٤) -Kramers, EI, EB, p. 63

(١٥) -Heer, p. 5

الظن كتاب « اشتقاق البلدان »[١٦] المذكور فى مقدمته ، بل وربما أيضًا « كتاب البلدان » الوارد ذكره فى « الفهرست » . وهذه الاقتباسات تمس بعض المدن خارج جزيرة العرب مثل الكوفة[١٧] والرها[١٨] والمخرّم[١٩] قرب بغداد والنهروان[٢٠] . والرأى الذى نودى به أخيرًا وهو أن ابن الكلبى ألف رسالة عامة فى الجغرافيا فى « عشر مجلدات »[٢١] يستند على محض وهم مرده إلى أن ابن النديم أورد أسماء عشرة من مؤلفاته .

ومهما يكن من شيء فابن الكلبى يمثل ظاهرة نادرة بين لغويى ذلك العهد بما اتصف به من اتساع الأفق ، ذلك أن أغلبهم قد اكتفى بوضع ملخصات لغوية عن بلاد العرب . وخير مثال لهذا الأصمعى المشهور (توفى حوالى عام ٢١٦ هـ = ٨٣١)[٢٢] الذى يدين له العلم/بحفظ 122
عدد من آثار الشعر الجاهلى ؛ فبجانب مصنف له فى الأنواء[٢٣] له أيضًا رسالة ذات طابع عام هى « رسالة فى صفة الأرض والسماء والنباتات »[٢٤] . بيد أن ياقوت يعتبره المصدر الأساسى عن جزيرة العرب بفضل مصنفه « كتاب جزيرة العرب »[٢٥] ؛ ويكفى أن نذكر أن اسمه ورد حوالى ثلاثمائة وخمسين مرة عند ياقوت[٢٦] . وكانت له أيضًا رسائل تبحث موضوعات أخص من ذلك ، مثل « كتاب مياه العرب »[٢٧] ؛ وقياسًا على بقية مؤلفاته اللغوية الأخرى يمكننا أن نفترض بكل اطمئنان وثقة أن هذه أيضًا تمثل تعدادًا لأسماء ومصطلحات مصحوبة بشروح موجزة وشواهد من الشعر . ويبدو أن رسالة تلميذه سعدان بن المبارك « كتاب الأرضين والمياه والجبال والبحار »[٢٨] قد سارت فى الاتجاه نفسه ولم تخرج مادتها عن نطاق جزيرة العرب .

---

(١٦) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٧

(١٧) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ٦٥٢

(١٨) شرحه ، ص ٨٧٦

(١٩) شرحه ، الجزء الرابع ، ص ٤٤١

(٢٠) شرحه ، ص ٨٤٧

(٢١) -Mieli, p. 81, note 6 bis

(٢٢) -Brockelmann, GAL, I, p. 104-105, No 11; SBI, p. 163-165
Haffner, EI, I, p. 509

(٢٣) نالينو ، الفلك ، ص ١٢٩ ، رقم ٥

(٢٤) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 164, No 10

(٢٥) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول، ص ٧.

(٢٦) -Heer, p. 26, a

(٢٧) -Haffner, Quellenwerke, p. 69 No 45

(٢٨) الفهرست ، ص ٧١ Flügel, Gram. Schulen, p. 156. ؛ مؤلف «النقائض»: Bevan, I, p. XI -

ومن بين العلماء اللغويين الذين سلكوا الاتجاه نفسه نلتقى بشخصية طريفة لأعرابىٍّ أمىٍّ يُدعى عرّام بن الأصبغ ؛ وهو لمّا أبصر إقبال الناس على مثل هذه الموضوعات أملى فى سن الشيخوخة (بعد عام ٢٣١ هـ = ٨٤٥) « كتاب أسماء جبال التهامة ومكانها »[٢٩] معتمدًا فى ذلك على معرفته الجيدة بمواضع جزيرة العرب . وقد نال مصنفه انتشارًا وصيتًا واسعين ورواه علماء مختلفون من بينهم السيرافى المعروف[٣٠] (توفى حوالى عام ٣٦٨ هـ = ٩٧٩) الذى ندين له أيضًا بكتاب مستقل عن الجزيرة العربية هو « كتاب جزيرة العرب »[٣١] . هذا وقد حفظت لنا من مصنف هذا الأعرابى مقتطفات هامة فى المعجمين الجغرافيين للبكرى وياقوت . والتحليل الدقيق الذى قامت به إلزا رايتمير Else Reitemeyer[٣٢] قد أثبت أن مصنف هذا الأعرابى كان يشمل مادة تخرج عن نطاق عنوانه ، فهو لم يقتصر على ذكر الجبال التى أولى اهتمامه من بينها لتلك الواقعة بين مكة والمدينة بل ذكر أيضًا المياه والنباتات الموجودة بها * .

ومن المعهود فى الأدب العربى تكرار أسماء الرسائل بحيث يضحى من العسير القول هل نحن
أمام مصنف مستقل أم رواية جديدة لمصنف سابق . ويمثل بعض الأهمية مصنف لمعاصر / 123
للدينورى هو اللغوى ابن لغذة الأصفهانى (قبل عام ٢٨٢ هـ = ٨٩٥)[٣٣] بعنوان « كتاب مياه وجبال وبلاد جزيرة العرب » . وكما هو متوقع فإن المعلومات الجغرافية كما يتضح من وصف المخطوطة الوحيدة المعروفة[٣٤] لهذا الأثر يصحبها شواهد من الشعر القديم .

هذا النمط المتشابه للمصنفات الجغرافية للغويين المكرسة لجزيرة العرب وحدها بدأ يطرأ عليه التغيير منذ النصف الثانى للقرن التاسع فشمل مضمونه بلاداً وأقطارًا أخرى ، الأمر الذى ظهرت تباشيره عند ابن الكلبى كما مر بنا ؛ كما أخذت تتغير أيضًا العناوين وظهرت بالتدريج أنماط لم تلبث أن أصبحت الغالبة والمسيطرة بمرور الزمن . وأحيانًا قد تكون المعلومات الموجودة بين أيدينا طفيفة للغاية ولكنها رغمًا من ذلك لا تخلو من بعض الفائدة ؛ فأحد لغويى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وهو وكيع القاضى الذى وضع رسالة فى الأنواء[٣٥]

---

(٢٩) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 175

(٣٠) شرحه ، ولكن ريتمير Reitemeyer تتخذ موقفًا مخالفًا

(٣١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٧ ;Heer, p. 27 - 28

(٣٢) -Reitemeyer, p. 247-254

* تحققت صحة هذه الفروض بالكشف عن رسالة عرام ونشرها . راجع فى هذا مقدمة الأستاذ عبد السلام محمد هارون لطبعته المحققة لمخطوطة « كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه لعرام بن الأصبع السلمى » القاهرة ١٩٥٦ . (المترجم)

(٣٣) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 188, No 2 b

(٣٤) -Cheikho, Catalogue Raisonné, p. 112-113, No 184

(٣٥) نالينو ، الفلك ، ص ١٣٢ ، رقم ١٤ (Racc., p. 190 =)

يقال عنه أيضًا « وله من الكتب .. كتاب الطريق ويعرف أيضًا بالنواحي ويحتوى على أخبار البلدان ومسالك الطرق ولم يتمه »[٣٦] . وهنا يتضح لنا من مضمون الكتاب بل من عنوانه ظهور اتجاه جديد فى التأليف الجغرافى .

أما كبار العلماء فإنهم بالطبع لم يحصروا نشاطهم فى حدود ضيقة كاللغويين ، فعالم كالجاحظ (توفى عام ٢٥٥ هـ = ٨٦٩)[٣٧] تنعكس فى مادته الجغرافية شخصيته الأدبية الفريدة بما تمتاز به من سعة الأفق وتنوع الموضوعات التى يطرقها وملاحظاته الفنية الدقيقة ؛ ولكنه من جهة أخرى كما هو معهود فيه يفتقر إلى الترتيب ، هذا إلى جانب ميله المعروف إلى الإمتاع على حساب الفائدة . وتقدم لنا مؤلفات الجاحظ العديدة فى الأدب مادة جغرافية ضخمة ؛ ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى كتابه الكبير « كتاب الحيوان » الذى يحفل بالكثير فى الجغرافيا الحيوانية والانثروبولوجيا والاثنوغرافيا على الرغم من غلبة الموضوعات الأدبية عليه ؛ وقد أصبح من الممكن الآن بفضل العرض الموجز لمحتويات الكتاب الذى قام به آسين بلاثيوس Asin Palacios[٣٨] أن يخوض الباحث فى خضمه المتضارب دون كبير عناء . أما مصنف الجاحظ فى الجغرافيا فلما يعثر عليه إلى الآن ومن ثم فليس من الممكن الحكم عليه إلا مما نقله عنه الآخرون ؛ أضف إلى هذا
أن عنوانه غير معروف لنا على وجه التحديد ولعل أقربها إلى الصحة / هو العنوان الذى يورده 124
المسعودى وهو «كتاب الأمصار وعجائب البلدان»[٣٩]. ويقابلنا أحياناً عنوان «كتاب البلدان»[٤٠] و «كتاب الأمصار»[٤١]؛ أما الشذرة المحفوظة فى إحدى مخطوطات المتحف البريطانى فتحمل اسم «كتاب الأوطان والبلدان»[٤٢] وهو عنوان لا يقرب كثيراً من الواقع . ويتضح مما نقله عنه ياقوت أن الجاحظ قد تابع إلى حد ما نمط ما يسمى بالفضائل أو الخصائص الذى ازدهر في العصر الأموى، أى صفات ومحاسن الحواضر الكبرى، حيث يدور الكلام أحياناً

---

(٣٦) الفهرست ، ص ١١٤

(٣٧) -Brockelmann. GAL, p. 152-153 No 2; SBI, p 239 - 247; Al-Djáhiz, p. 1043-1044 ; Sarton, Introduction I, p. 597 ; Rescher, Abriss, II, p. 274- 219; Reinaud, Introduction, p. LII-LIII, CCCXCII

(٣٨) -Asin Palacios, Libro de los Animales

(٣٩) المسعودى ، المروج ، الجزء الأول ، ص ٢٠٦

(٤٠) ياقوت ، المعجم ، الجزء السادس ، ص ٧٧

(٤١) حاجى خليفة ، الجزء الخامس ، ص ٥٢ رقم ٩٩٠٤ (وفقًا للمسعودى)

(٤٢) -Rieu, Supplément, No 1129, 15 الورقة 199-219 ; Brockelmann, GAL, SBI, p, 244, No 59; =

عن مواطنيها أكثر مما يدور عن البلاد نفسها . وفى هذه المقتطفات يتحدث الجاحظ عن أهل دمشق[٤٣] وعن عجائب البصرة[٤٤] ومساوئها[٤٥] وعن مساوىء مصر[٤٦] . ويوكد هذا ويدعمه الاقتباسات العديدة لدى جغرافيـى العهد الكلاسيكى ، مثال ذلك ما ينقله المقدسى بطريق الرواية الشفوية عن الجاحظ فى خصائص المدن العشرة الكبرى وهى بغداد والكوفة والبصرة والفسطاط والرى ونيسابور ومرو وبلخ وسمرقند[٤٧] ؛ ويسوقه هذا بدوره إلى إفراد فصل بأجمعه لخصائص الأقاليم المختلفة . وأحياناً قد يختلط بالمعلومات من هذا النوع ذكر مختلف أصناف العجائب التى تحولت بالتالى إلى نمط قائم بذاته من أنماط الأدب الجغرافى . وفى الفصل الذي أفرده للعجائب ينقل ابن خرداذبه عن الجاحظ خبراً عن الأهواز[٤٨] كما يفعل هذا أيضاً ابن الفقيه[٤٩] ؛ أما ابن حوقل فيروى حكاية أسطورية تتعلق بصخرة بهستون يذكر فيها على وجه التحديد أن مصدره «كتاب البلدان» للجاحظ[٥٠] .

لا شك أن كتاب الجاحظ عالج الكلام عن بلاد خارج نطاق العالم الإسلامى ولكن لم يحفظ لنا مع الأسف عن هذا سوى إشارة واحدة جديرة بالثقة ، ولكن فى مقابل هذا واسعة الانتشار وهى نظريته فى أن نهرى النيل والسند ينبعان من موضع واحد ؛ وهى نظرية ترتبط على ما يبدو بالنظرية اليهودية المسيحية القائلة بأن منابع الأنهار الكبرى بالفردوس[٥١] . وقـد كانت هذه النظرية سببًا فى دهشة المسعودى ، الذى/مكنته أسفاره العديدة من التعرف على جلية الأمر ، 125
بصورة جعلته يقف عندها أكثر من مرة . ففى كتابه المبكر « مروج الذهب » كتب يقول :
« وقد ذكر الجاحظ أن نهر مهران السند من نيل مصر واستدل على ذلك بوجود التماسيح فيه فلست أدرى كيف وقع له هذا الدليل وذكر ذلك فى كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب

= وأيضًا فى دار الكتب المصرية ، أدب ، ١٨٤٤ ، الورقة ١٣٩ – ١٥٣ ا (نسخة من مخطوطة ٤٠٣ هـ) فصل من صدر كتاب فى ....

(٤٣) ياقوت ، المعجم، الجزء الثاني، ص **٥٩٣**

(٤٤) شرحه ، الجزء الأول ، ص ٦٥١

(٤٥) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ٧٩٢

(٤٦) شرحه ، الجزء الرابع ، ص ٥٥٢

(٤٧) المقدسى ، BGA, III ، ص ٣٣ (هناك تسعة فقط)

(٤٨) ابن خرداذبه ، GBA, VI ، ص ١٧٠

(٤٩) ابن الفقيه ، BGA,V ، ١١٦

(٥٠) ابن حوقل ، BGA,II ، ص ٢٢٦

(٥١) Krymski, Istoria Arabov, I, p. 101, note : راجع ; Kramers, Al-Nil, p. 991-

البلدان وهو كتاب فى نهاية الحسن وإن كان الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار ولا تقرّا الممالك والأمصار ولم يعلم أن مهران السند يخرج من أعين مشهورة من أعالى السند »[٥٢].

وفى موضع آخر من كتابه نفسه هذا يكرر المسعودى هذه النظرية بإيجاز وذلك بصدد كلامه عن وجود التماسيح فى مواضع أخرى[٥٣] ؛ ويعود إليها مرة أخرى وبتفصيل أكثر فى آخر كتبه « التنبيه والإشراف » حيث يقول :

« وقد ذكر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى كتابه فى الأخبار عن الأمصار وعجائب البلدان أن مخرج مهران السند والنيل من موضع واحد واستدل على ذلك باتفاق زيادتهما وكون التمساح فيهما وأن سبيل زراعتهم فى البلدين واحد ولا أدرى كيف ذلك وقع له وقد توجد التماسيح فى أكثر أخوار الهند .. وتلحق الناس وسائر الحيوانات منها الأذيَّة على حسب ما يلحق أهل مصر وحيواناتهم »[٥٤] .

وليس غريبًا أن تفسح هذه النظرية المجال لعالم رزين كالبيرونى ليصم الجاحظ بالبساطة والسطحية[٥٥] . وعلى العموم فقد قدر الجغرافيون مصنف الجاحظ هذا حق قدره ، وقد رأينا كيف كان موقف المسعودى منه رغمًا عن تخطئته للجاحظ ؛ وقال عنه ابن حوقل « كتاب نفيس له فى معرفة الأمصار »[٥٦] ، أما المقدسى فقد أبدى بعض التشدد وذلك بقوله « وأما الجاحظ وابن خرداذبه[٥٧] فإن كتابيهما مختصران جدًا لا يحصل منهما كبير فائدة » ؛ وعلى أية حال فإن تأثيره على الأجيال الأدبية التالية لا يرقى إليه الشك حتى أن ابن الفقيه مثلا اعتبر مقلدًا له[٥٨] ، ويتضح هذا من ألفاظ المقدسى أيضًا « وإذا نظرت فى كتاب ابن الفقيه فكأنما أنت ناظر فى كتاب الجاحظ والزيج الأعظم »[٥٩] . ومن وقت لآخر كانت تظهر مقتطفات/من كتاب 126

---

(٥٢) المسعودى ، المروج ، الجزء الأول ، ص ٢٠٦ – ٢٠٧

(٥٣) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ٥٢ – ٥٣

(٥٤) شرحه ، BGA, VIII ، ص ٥٥ ؛ الترجمة لدى Carra de Vaux, Maçoudi, p. 82-83

(٥٥) : Rozen, ZVO, III, p. 160 : راجع Sachau, Alberunis India, المتن : p. 100; الترجمة p. 204- بسلامة قلبه

(٥٦) ابن حوقل ، BGA, II ، ص ٢٦٦ .

(٥٧) المقدسى ، BGA, III ، ص ٤ – ٥ ؛ راجع ص ٥ ، الملاحظة

(٥٨) Al-Djahiz, p. 1044-

(٥٩) المقدسى ، BGA, III ، ص ٢٤١

الجاحظ هذا فى مجموعات أدبية بحتة ؛ وأحد كبار المعجبين بالجاحظ وهو الثعالبى (توفى عام ٤٢٩ هـ = ١٠٣٨) كان يعنى على مايبدو هذا الكتاب عندما أشار إلى « خصائص البلدان » للجاحظ[٦٠] .

وقد تم الكشف فى الآونة الأخيرة عن مصنف للجاحظ يقف دليلا على اهتمامه الواسع بالجغرافيا ويمثل على وجه العموم أهمية كبرى بالنسبة للتاريخ الحضارى للعالم الإسلامى ، كما يمكن اعتباره أول محاولة للعرب فى الجغرافيا الاقتصادية أو على الأصح جغرافيا الاستيراد (import geography) أعنى بذلك الرسالة الصغيرة الحجم المعروفة باسم « التبصر بالتجارة » التى عثر عليها بتونس العلامة العربى المعروف حسن حسنى عبد الوهاب ونشرها فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق *[٦١] . وبالرغم من أنه لم يرد أىّ ذكر لهذه الرسالة فى ثبت مصنفات الجاحظ[٦٢] إلا أن صحة نسبتها إليه لا يتطرق إليها الشك ، سواء من ناحية الاستقراء الداخلى لمادتها أو لأن بعض العلماء نقل عنها كالثعالبى والنويرى فى موسوعته الكبرى التى وضعها فى عهد المماليك[٦٣] . وتنقسم الرسالة إلى بضعة أبواب تعالج السلع التجارية المختلفة وأسعارها ومزاياها والزائف منها ؛ وهنا يتناول البحث الكلام على الذهب والفضة والأحجار الكريمة ثم العطور والطيب والأنسجة والثياب . وأكثر الأبواب متعة هو « باب ما يجلب من البلدان من طرائف السلع والأمتعة والجوارى والأحجار وغير ذلك » ، حيث يعدد لنا الجاحظ أسماء السلع المستوردة من مختلف الأقطار ابتداء من الهند والصين ، أحيانًا فى شكل تعداد جاف وأحيانًا بتفاصيل تختلف طولا وقصرًا . ويرد بالطبع ذكر للبلاد الشمالية كخوارزم وبلاد الخزر وبلاد البلغار ؛ أما البابان الأخيران فيغلب عليهما طابع الارتجال ويحس منهما أنهما أضيفا مؤخرًا ؛ فالأول منهما أفرد لجوارح الطير مما يستعمل فى الصيد والأخير لما يفضّل من صفات الأشياء سواء بين الحيوان أو الناس ، وهو لا يخلو من الحكمة والموعظة . ويغلب على الرسالة طابع الإفادة العملية ويندر أن تلجأ إلى الاستطرادات الأدبية . وقد تستعصى فى مواضع منها على الفهم نتيجة لمصطلحات

---

(٦٠) المقصود « ثمار القلوب » ، ص ٤١١ ، ٤٣٨ ؛ راجع : عبد الوهاب ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، المجلد الثانى عشر ، ص ٣٢٤

* طبعت بالتالى على حدة فى القاهرة . (المترجم)

(٦١) شرحه ، ص ٣٢١ – ٣٢٥ (مقدمة الناشر) ، ص ٣٢٦ – ٣٥١ (المتن) ، ص ٣٥٢ – ٣٥٥ (مقارنته مع ابن الفقيه) . تعليقات لغوية للكرملى ، المجلد الثالث عشر ، ص ٢٨٧ – ٢٩٥

(٦٢) Brockelmann, GAL, SBI, p. 244 , No 54-

(٦٣) عبد الوهاب ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، المجلد الثانى عشر ، ص ٣٢٤

غريبة أو غير مدروسة ولكن بعد التغلب على هذا فإن الرسالة تعتبر مصدرًا من المصادر الأساسية للتاريخ والجغرافيا الاقتصادية للعالم الإسلامى . وقد كان المؤلفون المتأخرون على إلمام جيد بها ويتضح من المقارنات التى أجراها حسن حسنى عبد الوهاب أن ابن الفقيه مدين أيضًا بقدر غير قليل لرسالة الجاحظ هذه .

127 إن التسلسل التاريخى لظهور المصنفات المختلفة لبعض أنماط الجغرافيا الوصفية لم يكن واضحاً على الدوام حتى للعرب أنفسهم فى العهد المبكر. فصاحب كتاب «الفهرست» مثلا يذكر أن أول من صنّف فى « المسالك والممالك » هو الأديب أبو عباس جعفر بن أحمد المروزى(٦٤) ؛ وهذه الرواية يكررها ياقوت(٦٥) بالرغم من أن ذلك الشخص قد توفى بالأهواز حوالى عام ٢٧٤ هـ = ٨٨٧ أى عندما كان ابن خرداذبه قد فرغ من المسودة الأولى بل وربما من الثانية لكتابه الذى يحمل العنوان نفسه(٦٦) . ولم يحفظ لنا التاريخ أية معلومات عن كتاب المروزى هذا أو عن مصنفات أخرى له ، ومن المؤكد أنها لم تكتسب صيتًا ما أو ذيوعًا رغمًا عن إشارة ابن النديم التى تحمل طابع الاستحسان والإشادة . وقد تنسب إليه حكايات من وقت لآخر عند الجغرافيين المتأخرين ، فابن الفقيه(٦٧) يروى عنه أسطورة تتعلق بحجر المطر(٦٨) كما ينقل عنه أيضًا روايات عديدة عن القبائل التركية ؛ وهذه الروايات تسوق إلى الافتراض بأن آثار المروزى كانت تضم مادة قيمة بالنسبة لاتحادنا السوفيتى خاصة فيما يتعلق بجغرافية آسيا الوسطى .

ويلى هذا من الناحية الزمنية فى تثبيت نمط « المسالك والممالك » تلميذ الفيلسوف الكندى وصديقه أحمد بن محمد بن الطيب السرخسى (توفى عام ٢٨٦ هـ = ٨٩٩)(٦٩) وهو يمثل نوعًا نادرًا من الكتاب فى ميدان الأدب العربى وذلك بجمعه على السواء بين الاهتمام بالفلسفة والعلوم الدقيقة من جهة والأدب الفنى من جهة أخرى . ويمكن إرجاع اهتمامه بالأدب إلى اتصاله ببلاط

---

(٦٤) الفهرست ، ص ١٥٠ ; Girgas, p. 193

(٦٥) ياقوت ، المعجم ، الجزء الثانى ، ص ٤٠٠

(٦٦) حدود العالم ، ٩ – ١٠ ؛ Kramers, EI, EB, p. 65

(٦٧) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٨٤٠ – ٨٤٢ (تختلف الأسماء بعض الشىء)
راجع : BGA, V, p. 329-330

(٦٨) يرد الكلام عن حجر المطر لدى تميم بن بحر ؛ راجع : ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٨٤٠ .
وعنه عامة راجع : Grigoriev, Abu Dulaf, p. 31 —Rohr-Sauer, p. 50

(٦٩) Sarton, Introduction I, p. 597 ؛ الفهرست ،ص ٢٦١–٢٦٢
-Brockelmann GAL, I, p. 210 No 3; SBI, p. 375

عن السرخسى راجع : Rosenthal

الخليفة المعتضد الذى راح ضحية لسخطه عندما كان يشغل فى آخر سنى حياته وظيفة المحتسب ببغداد . وفى ميدان الأدب الجغرافى ينضم السرخسى من ناحية إلى المدرسة الرياضية الجغرافية ذات النزعة اليونانية وهذا بالطبع كان نتيجة لتأثير أستاذه عليه ، ومن ناحية أخرى نراه يهتم بالجغرافيا الوصفية من طراز « المسالك والممالك » ؛ حيث له فى المجال الأول رسالة « فى البحار والمياه والجبال»[٧٠] ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمصنف مماثل لأستاذه مما جعل المسعودى يربط بينهما دائماً عند وصفه للبحار ؛ ومن الجائز أنها الرسالة نفسها التى يشار إليها أحيانًا باسم/« كتاب 128
منفعة الجبال »[٧١] . ويذكر المسعودى[٧٢] فى موضع آخر أن السرخسى إلى جانب ذلك « قد صنف ... كتابًا حسنًا فى المسالك والممالك والبحار والأنهار وأخبار البلدان وغيرها » ؛ وهو معروف أيضًا باسم « كتاب المسالك والممالك »[٧٣] . وينقل ياقوت منه كثيرًا خاصة فيما يتعلق بعصر المعتضد[٧٤] الذى صحبه السرخسى فى بعض أسفاره .

ولو كانت جميع هذه المصنفات التى ذكرناها موجودة وفى متناول أيدى العلماء لاختلفت كثيرًا لوحة التسلسل التاريخى لنشأة الأنماط المختلفة للجغرافيا الوصفية . ولكن ، وفى غير حاجة إلى دراسة القليل الذى حفظ لنا منها ، فإنه من الممكن أن نقرر على أساس ما أوردناه من حقائق أن الجغرافيا الوصفية بدأت تتخذ منذ النصف الثانى للقرن التاسع أنماطًا ثابتة كما هو الحال مع الجغرافيا الرياضية التى سبقتها بقليل . وفيها انفسح المجال لا للفلكيين والرياضيين بل للغويين بصورة خاصة ، فهم الذين وضعوا كتب الأنواء والرسائل الجغرافية اللغوية عن جزيرة العرب . وقد اتسع شيئًا فشيئًا وصف المدن والأقطار المختلفة من طراز « الفضائل » أو « الخصائص » الذى يرجع إلى العصر الأموى ليصبح « كتب البلدان » ؛ وأحيانًا تحت تأثير الموضوعات الأسطورية والرغبة فى الإمتاع والتشويق ليتحول إلى « كتب العجائب » . وأخيرًا دفعت الرغبة الملحة فى تنظيم المادة ووصفها على هيئة طرق إلى ظهور كتب « المسالك والممالك » . وفيما بعد ستختفى من بين هذه المجموعة كتب « الأنواء » وحدها ، أما الأنماط الأربعة الأخرى فقد أبدت جميعها حيوية فياضة عاشت بها فترة طويلة من الزمن ولم تطرأ عليها سوى تغييرات طفيفة .

---

(٧٠) المسعودى ، المروج ، الجزء الأول ص ٢٧٥ – Reinaud, Introduction p. LIV, CCCII

(٧١) الفهرست ص ٢٦٢

(٧٢) المسعودى ، BGA, VIII ، ص ٧٥

(٧٣) الفهرست ، ص ٢٦٢ – حاجى خليفة ، الجزء الخامس ، ص ٥٠٩ ، رقم ١١٨٧٠ – حدود العالم ، ص ١١ – Kramers, El, EB, p. 65

(٧٤) -Heer, p. 17-18

وإلى جانب هذه الأنماط المذكورة للجغرافيا الرياضية والوصفية ثبتت فى القرن التاسع أيضًا الصورة النهائية للقصص عن الرحلات وعن البلاد الأجنبية فى جميع ألوانها وأنواعها ابتداء من الرحلات الأسطورية إلى أوصاف الطرق العملية والمراحل أو السرد الجاف للأسماء ؛ ولا يقل هذا الصنف عن سابقه من ناحية الكم حتى فى الأزمنة الأولى . وقليلا ما وصلتنا أوصاف مباشرة عن ذلك العهد إذ أن معظمها لم يحفظ منه شيء ؛ وفى كثير من الأحيان تقتصر مادتنا على فقرات يسيرة أو مجرد ذكر الموضوع دون أية تفصيلات عنه . وهذا بدوره قد يشير أحيانًا إلى اتساع مجال
الرحلة ويمكّننا من/تكوين فكرة عن أنواع الرحلات المختلفة . وقد انتظمت الرحلات مناطق 129
عديدة فلم تقتصر على المشرق وحده الذى ربط العرب به تاريخ طويل من العلاقات التجارية بل دخل فى نطاقها الغرب أيضًا .

وابتداء من هذا العصر نلتقى بأخبار رحلات علمية فريدة فى نوعها تستهدف فى معظم الأحوال أغراضًا علمية . ويحفظ لنا الإدريسى[٧٥] قصة مؤداها أن أخا الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ هـ - ١٩٣ هـ = ٧٨٦ - ٨٠٩) وهو إبراهيم بن المهدى (المتوفى عام ٢٢٤ هـ = ٨٣٩)[٧٦] روى فى مصنفه « كتاب الطبيخ »[٧٧] أن الخليفة بعث إلى اليمن أشخاصًا ليعرفوا من أين يأتى العنبر وأنهم فى أثناء رحلتهم استقصوا أحوال سكان عدن وخاسك على ساحل المهرة[٧٨] وغيرها من الأماكن المأهولة بجنوبى الجزيرة . وتحمل هذه القصة جميع علامات الصحة ، إذ أن أهمية العنبر الأشهب (الذى يجب التفريق بينه وبين العنبر الأصفر) كوسيلة للعلاج وكضرب من الطيب أمر جد معروف فى ذلك العهد[٧٩] ؛ وكان يحصل عليه غالبًا من السواحل الشرقية لافريقيا قبالة اليمن[٨٠] ولعب دورًا ما فى اقتصاديات الخلافة ويذكره ابن يوسف معاصر الرشيد المعروف كمورد هام للخراج يعادل اللؤلؤ[٨١] .

وليس بمقدورنا أن نقف موقف الثقة التامة من جميع الروايات التى تقترن بشخصية هذا الخليفة ، أضف إلى هذا أن التاريخ الأدبى يدل على أنه كثيرًا ما نسجت حول اسمه مختلف

---

(٧٥) Jaubert, I, p. 64-

(٧٦) Brockelmann, GAL, SBI, p. 223-

(٧٧) ولكن راجع : الفهرست ، ص ١١٦ ,كتاب الطبيب , Jaubert, I, p. 94 —

(٧٨) عن بلدة خاسك ، راجع Schleifer, p. 305

(٧٩) Ruska, EI, I, p. 363-364-

(٨٠) Devic, Les pays des Zendjs, p. 188-194 —Storbeck, p. 67-68-

(٨١) Riedel, p. 257, 261-

الموضوعات الأسطورية . وقد لفت فرين ، واضع أسس الاستعراب الروسى خاصة فى ميدان الجغرافيا ، الأنظار إلى الرواية الآتية الواردة فى مصدر متأخر ، وذلك فى كتابه الكلاسيكى عن ابن فضلان .

« وكانت للخلفاء العباسية جواسيس من الرجال والنساء وكان عبد الله الشهير بسيد غازى يتجسس الأخبار من بلاد الروم عشرين سنة وكان سأله هارون الرشيد عن عجائب الأمور فكان يخبره كما حكى الإمام الدمشقى فى فضايل الجهاد »(٨٢) .

واستنادًا إلى سمعة فرين العلمية ثبتت هذه القصة فى الدوائر العلمية وتناقلها عدد من العلماء ابتداء من رينو(٨٣) . ومن المؤكد أن العرب كانت لهم جاسوسيتهم المنظمة فى ذلك العهد خاصة فى آسيا الصغرى بالذات ؛ لكن هذه القصة التى لفت إليها الأنظار فرين لا تثبت عند
التمحيص ، فهى أولا ترجع/إلى مصدر متأخر جدًا لا يمكن اعتباره مصدرًا موثوقًا به فقد نقل فرين 130
هذه القصة عن مخطوطة « رسالة الانتصار »(٨٤) التى يبدو أنها من عمل المؤرخ البوسنوى على دده (المتوفى عام ١٠٠٧ هـ = ١٥٩٨)(٨٥) من أواخر القرن السادس عشر، الذى تستند شهرته أساسًا على مصنف نقلى له أصاب نجاحًا ملحوظًا فى القرون الثلاثة الأخيرة ولكن قيمته التاريخية كما أثبت أحد المتخصصين فى فن التاريخ لدى العثمانيين « لا تساوى شروى نقير »(٨٦) ؛ أضف إلى هذا أن ذكر اسم عبد الله سيدى غازى يدل على أننا أمام رواية أخرى للأسطورة المعروفة عن سيد البطال بطل الملحمة العربية – التركية . والشخصية التاريخية الواقعية التى صيغ حولها هذا الموضوع الأدبى ترجع إلى منتصف القرن الثامن وترتبط بحملات الأمويين العسكرية على آسيا الصغرى ، وقد لقى عبد الله البطال مصرعه فى معركة ضد البيزنطيين عام ١٢٢ هـ = ٧٤٠(٨٧) ، ولم تلبث أن زحزحت الفترة التى عاش فيها إلى نهاية القرن العاشر لتتفق مع تطور الملحمة ؛ ثم تم ربطه بشخصية الرشيد الأسطورية لدى على دده حيث يظهر البطل فى دور لا تسنده أية وقائع تاريخية صحيحة .

---

(٨٢) -Frähn, Ibn-Foszlan, p. XXV

(٨٣) -Reinaud, Introduction, p. LII

(٨٤) مخطوطة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية ، راجع : الورقة ١٣٦/١
(Rosen, Notices sommaires, p. 144-145, No 194)

(٨٥) -Brockelmann, GAL, II, p. 427, No 6; SB, II, p. 635

(٨٦) -Babinger, GOW, p. 119-120 ; No 102

(٨٧) -Bâttal p. 709; قارن : Wittek, p. 336-337

ولعله ليس من محض الصدفة أن تقترن باسم حفيد الرشيد وهو الخليفة الواثق (٢٢٧ هـ - ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ - ٨٤٧) سلسلة من الرحلات والبحوث الخاصة بالجغرافيا، بالرغم من أن الباعث إليها فى بعض الأحيان كان مجرد عوامل خيالية بحتة. واثنان منها قد أخذ فيهما طرفًا بأمر من الخليفة الواثق رياضى شهير هو محمد بن موسى (توفى عام ٢٥٩ هـ = ٨٧٣)(٨٨). وليس هناك ميل فى الآونة الحاضرة ليُبْصَر فى هذا اسم الفلكى المشهور محمد بن موسى الخوارزمى(٨٩) ناشر بطلميوس المعروف لنا جيدًا؛ وكان البعض قد نادى بهذا الرأى من قبل. أما الرحلة الأولى فقد توجهت بعد الحصول على موافقة إمبراطور بيزنطة إلى آسيا الصغرى لفحص كهف الرقيم بين عمورية Amorium ونيقية Nicaea. ومما هو جدير بالملاحظة أن محمد بن موسى رفض أن يرى فى الجثث المحنطة أهل الكهف الوارد ذكرهم فى القرآن. والظاهر أن قصة الرحلة قد نالت بعض الانتشار حتى أثناء حياته، إذ يرويها لنا ابن خرداذبه(٩٠) بألفاظ المؤلف نفسه، وهى موجودة فى ترجمة روسية(٩١)؛ كما يرويها لنا أيضًا السرخسى وبألفاظ المؤلف كذلك، وروايته موجودة لدى المسعودى(٩٢). ويميل علماء البيزنطيات المعاصرون إلى اعتبار هذه الرحلة واقعة
تاريخية صحيحة(٩٣). أما الرحلة الثانية/التى شارك فيها محمد بن موسى بأمر الخليفة فقد بعث بها 131
إلى طرخان حاكم الخزر(٩٤) وهى ترتبط برحلة سلّام الترجمان المشهورة إلى سد يأجوج ومأجوج التى سيأتى ذكرها بالتفصيل عند الكلام على الرحلات إلى شرقى العالم الإسلامى.

ومن أهم الحوادث التى ساعدت على توسيع مدارك العرب عن أقطار الغرب فى عهد الواثق كان بلا شك حادث افتكاك مسلم بن أبى مسلم الجَرْمى(٩٥) من أسر البيزنطيين. ولسنا على بينة من حقيقة اسمه إذ يمكن قراءته الحُرْمى كما حدث أحيانًا، أو بصيغ أخرى. أما عن شخصه فلا يعرف سوى هذه القصة المتعلقة بإطلاق سراحه والتى حفظها لنا المسعودى، وهى تمثل أهمية ليست بالضئيلة:

---

(٨٨) -Brockelmann, GAL, I, p. 216, No 2; SBI, p. 382

(٨٩) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 382, No 1

(٩٠) ابن خرداذبه، BGA, VI، ص ١٠٦ - ١٠٧، الترجمة ٧٨ - ٧٩

(٩١) -Krymski, Sem spiachikh otrokov, p. 6-7

(٩٢) المسعودى، المروج، الجزء الثانى، ص ٣٠٧ - ٣٠٨

(٩٣) -Vasiliev, Byzance, I, p. 8-9, note

(٩٤) المقدسى، BGA,III، ص ٣٦٢

(٩٥) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 404

« الفداء الثالث فداء خاقان فى خلافة الواثق باللامس فى المحرم سنة ٢٣١ (الموافق سبتمبر ٨٤٥) .... وفيه خرج مسلم بن أبى مسلم الجرمىُّ وكان ذا محل فى الثغور ومعرفة بأهل الروم وأرضها وله مصنفات فى أخبار الروم وملوكهم وذوى المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومسالكها وأوقات الغزو إليها والغارات عليها ومن جاورهم من الممالك من برجان والإبر والبرغر والصقالبة والخزر وغيرهم وحضر هذا الفداء مع خاقان رجل يكنى أبا رملة من قبل أحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة يمتحن الأسارى وقت المفاداة فمن قال منهم بخلق التِّلاوة ونفى الرؤية فودى به وأحسن إليه ومن أبى ترك بأرض الروم فاختار جماعة من الأسارى الرجوع إلى أرض النصرانية على القول بذلك وأبى مسلم الانقياد إلى ذلك فنالته محن ومهانة إلى أن تخلص »[٩٦] .

ولا تخلو التفصيلات الأخيرة من طرافة بالنسبة للتاريخ الفكرى للخلافة ، فهى دليل على أن المذهب العقلى للمعتزلة كان لا يزال سائدًا إلى ذلك العهد ومتمتعًا بالقبول نفسه الذى تمتع به فيما بعد مذهب أهل السنة[٩٧] . غير أن الأهمية الجوهرية بالنسبة لنا فى هذه القصة هو القول بوجود مصنفات للجرمى ؛ وبالطبع لو كان قد تبقى لنا شىء منها لاستطعنا بلا ريب أن نصدر الحكم على كثير من المسائل المتصلة بتطور المعلومات الجغرافية عند العرب ، إلا أننا مع الأسف لا نعرف فى الحقيقة من جميع مصنفاته سوى/شذرة واحدة لا يعتور الشك صحة نسبتها إلى الجرمى وهى 132
المتعلقة بتعداد الولايات البيزنطية (Themata) * وما يرتبط بذلك من وصف نظم تلك الدولة . وقد حفظ لنا هذه القطعة ابن خرداذبه ويرجع تاريخها إلى عام ٨٨٥ هـ[٩٨] . وأغلب الظن أن المعلومات التى يوردها قدامة[٩٩] عن بيزنطة ترجع إلى الجرمى ولاسيما أن من بينها إشارات إلى أوقات الإغارة على آسيا الصغرى[١٠٠]؛ الأمر الذى نوه إليه المسعودى عند كلامه على مصنفات الجرمى . ومسألة الجزم بوجود مقتطفات وشذرات لدى المؤلفين المتأخرين نقلوها عن مصادر قديمة مفقودة أو مجهولة العناوين من أصعب المسائل وأعسرها ؛ وقد أحسَّ بعض

---

(٩٦) المسعودى BGA, VIII ، ص ١٩٠ – ١٩١ ؛ الترجمة لدى :
Carra de Vaux, Maçoudi, p.257-258 , Vasiliev, Byzance, p. 336; Cf p. 203-204

(٩٧) -Goldziher, Vorlesungen, Zweite Auflage, p. 115 (الترجمة غير دقيقة)
شواهد أخرى يسوقها : Wensinck, Mihna, p. 551

* أو البنود كما يسميها العرب . (المترجم)

(٩٨) ابن خرداذبه ، BGA, VI ، ص ١٠٥ – ١١٣ ؛ الترجمة ص ٧٧ – ٨٦

(٩٩) شرحه ، ص ٢٥٥ – ٢٥٩ ؛ الترجمة ص ١٩٦ – ١٩٩

(١٠٠) شرحه ، ص ٢٦٩

العلماء ، خاصة ماركفارت Markwart ، بميل شديد إلى أن ينسبوا إلى مسلم الجرمى جميع ما أورده الجغرافيون العرب بصدد الموضوعات التى ذكرها المسعودى عند كلامه على الجرمى(١٠١) . والأمر الوحيد الذى لا يتطرق إليه الشك هو أن مصنفاته كانت مصدرًا هامًا للغاية فى معرفة العرب بالدولة البيزنطية بل وتقدم لنا لأول مرة معلومات مباشرة ومفصلة عن الصقالبة وجيرانهم . ويمكن أن نقرر وفقًا لرأى بارتولد أن مادته قد تناقلها جميع الجغرافيين المتأخرين حتى القرن الثالث عشر فى جميع العالم الإسلامى(١٠٢) دون أن يشيروا إلى مصدرها . ويظهر أن تسمية البحر الأسود ببحر الخزر ترجع إليه ؛ وهو قد عرف الصقالبة كجيران لمقدونيا من ناحية الغرب وميز عنهم البرجان أو بلغار الطونة كجيران لتراقيا من ناحية الغرب ولمقدونيا من ناحية الشمال .

وبعد نصف قرن تقريبًا من مسلم الجرمى وذلك فى حوالى عام ٢٨٨ هـ = ٩٠٠ وجد فى أسر البيزنطيين هارون بن يحيى الذى حفظ لنا حقائق مهمة ، خاصة وصفه القيم للقسطنطينية فى ذلك العهد . ويبدو أن محيط معلوماته كان أضيق بعض الشيء من محيط مسلم الجرمى ؛ ولكن مما يزيد فى أهمية روايته أنه قد حفظ لنا قطعة كبيرة منها الجغرافى ابن رستة(١٠٣) ، كما أن هناك مقتطفات منها لدى القزوينى(١٠٤) . وكان هارون بن يحيى قد وقع فى أسر قراصنة من أهل أطاليه Attaleia بآسيا الصغرى وذلك قرب عسقلان بفلسطين فساقوه بحرًا وبرًا إلى القسطنطينية وامتدت إقامته بعض الوقت زار خلاله رومه عن طريق سلانيك كما زار أيضًا أرض الصقالبة والبندقية ؛ وفى رومة حصل على معلوماته عن برغنديا والفرنجة وبريطانيا . وينصبّ الجزء الأساسى من روايته على
وصف القسطنطينية ،/وقد لفت النظر إليه حتى قبل طبع كتاب ابن رسته المستشرق الروسى 133
روزن Rosen فنشر النص مع ترجمة روسية منذ عام ١٨٧٩(١٠٥) وكتب عنه مقالا فى عام ١٨٨٧(١٠٦) . وفى القرن العشرين أخضع ماركفارت(١٠٧) الرواية جميعها لفحص دقيق ، كما أن

---

(١٠١) حدود العالم ص ٤١٩ ، ٤٢٢ – ٤٢٣ الخ : راجع -Markwart, Streifzüge, p. 28 etc ;

(١٠٢) (حضرها للطبع وعلق عليها كوفالفسكى) -V.V. Bartold, SV, I,

(١٠٣) ابن رسته ، BGA, VII ، ص ١١٩ – ١٣٢

(١٠٤) القزوينى ، الجزء الثانى ، ص ٣٩٧ – ٣٩٩ ، ٤٠٦ – ٤٠٧

(١٠٥) -Krachkovski, Opis, p. 1332, No 29; 1336, No 47

(١٠٦) -Rozen, ZVO, II, p. IV

(١٠٧) -Mrkwart, Streifzüge, p. 206-207

علماء البيزنطيات وجهوا اهتمامهم فى الأعوام الأخيرة إلى وصفه للقسطنطينية(١٠٨) . هذا وقد ظهرت بحوث عديدة واختلافات فى وجهات النظر حول الفترة التى يرجع إليها وصفه هذا ، فالبعض يميل إلى نسبته إلى عام ٩١٢(١٠٩) ، هو فرض بعيد الاحتمال(١١٠) . ومما يلفت النظر أنه إذا كان وصفه للقسطنطينية لا يخلو من معلومات مهمة طريفة تقوم على الملاحظة المباشرة فإن وصفه لرومة على عكس ذلك يقتصر على إيراد « العجائب » mirabilia ويمثل رواية نقلية ترتفع إلى مصادر مسيحية شرقية ، على أغلب الظن سريانية ؛ وهذا الحكم يصدق على رواية بقية الجغرافيين العرب عن رومة(١١١) .

وقد لعبت السفارات إلى جانب الأسرى دورًا ملحوظًا فى توسيع نطاق المعلومات الجغرافية ؛ ولم تكن أخبار هذه السفارات حتى فى القرن التاسع نفسه شيئًا نادرًا ولكن فيما يتعلق بالمغرب الإسلامى يجب أن نخص بالعناية شخصية حفظت لنا عنها معلومات جمة تلكم هى شخصية يحيى بن الحكم البكرى (١٥٣ هـ - ٢٥٠ هـ = ٧٧٠ - ٨٦٤) الملقب بالغزال لجماله والذى لعب دور الدبلوماسى مرتين . وهو شاعر فنان وعلى معرفة بعدد من اللغات ، وكان أمير قرطبة عبد الرحمن الثانى قد وجهه إلى بلاد الشمال ، إلى جتلاند Jutland على ما يبدو ، لمفاوضة النورمان الذين أغاروا قبل ذلك بقليل فى عام ٨٤٤ على الأندلس ونهبوا اشبيليه . ويلوح أنه قد زار قبل هذا القسطنطينية ضمن سفارة أوفدت لعقد معاهدة صلح مع الإمبراطور تيوفيل . وقد حفظ لنا أخبار السفارة الأولى مؤرخ الأندلس فى بداية القرن الثالث عشر ابن دحية(١١٢) ، أما الثانية فيرويها لنا فى القرن السابع عشر علامة المغرب المقرى(١١٣) ؛ غير أنه تم فى الآونة الأخيرة العثور على معلومات لدى مؤلفين سابقين لهذا(١١٤) . وقد حفظ لنا إلى جانب التفاصيل عن الرحلة نفسها ، وهى تفاصيل تتسم بالاقتضاب والتشويش ، بعض شعر للغزال نفسه يمس جوانب من هذه الرحلة . ولا يخلو من طرافة فى هذا الصدد مخاطبته لسيدات البلاط البيزنطى فى شعر عربى رصين تُستشف من خلاله تلك العواطف الوجدانية الجياشة التى حفل بها شعر التروبادور

---

(١٠٨) راجع عن هذا : Hudud, p. 419, note 2

(١٠٩) قارن : Honigmann, Die Ostgrenze, p. 41

(١١٠) -Hudud, p. 419, note 2

(١١١) - Guidi, L'Europa Occidentale, p. 269; Guidi, Roma, p. 7

(١١٢) - Fabricius; Jacob, Arabische Berichte, p. 37-42

(١١٣) -Vasiliev, Byzance, I , p. 186-187

(١١٤) -Byzantion, XII, p. 1-24

Troubadours . وقد نادى أحد العلماء الفرنسيين منذ أمد غير طويل برأى مؤداه أن رحلة
134 الغزال إلى بيزنطة هى الوحيدة/التى حدثت فعلا بينما تستند رحلته إلى النورمان على محض اختلاق(١١٥) . بيد أنه من العسير الاتفاق مع هذا الرأى المتطرف لأن الرحلة فى واقع الأمر تحفل بتفصايل واقعية ، بل إن شخصية الملك المذكور فى الرحلة والذى أجهد تحقيق اسمه العلماء وقتًا طويلا قد تمكن أخيرًا العلامة النرويجى زايبل Seippel من إثبات شخصيته(١١٦) .

وقد اقتدى عرب المغرب بإخوتهم عرب المشرق فلم يقصروا اهتمامهم على المشرق وحده الذى ربطه بالعرب تاريخ طويل من العلاقات ، بل جهدوا أيضًا فى التعرف على الغرب والكشف عن بلاده غير المعروفة لهم . وعرب الأندلس رغمًا من خوفهم من المحيط الأطلنطى الذى اقترن فى أذهانهم « ببحر الظلمات » الرهيب قد قاموا بمحاولات عديدة للكشف فيه ؛ ولكن نظرًا لأنه لم يصلنا عن هذه الاستكشافات خبر متواتر فقد استمر مجهولا من العالم إلى أن أماط سره الأوروبيون . ويروى لنا المسعودى خبر إحدى تلك المغامرات فى عبارات موجزة مع الإشارة إلى مصنف له لم يصل إلينا :

« ويذهب قوم إلى أن هذا البحر أصل ماء سائر البحار وله أخبار عجيبة قد أتينا على ذكرها فى كتابنا فى أخبار الزمان وفى أخبار من غرّر وخاطر بنفسه ومن نجا منهم ومن تلف وما شاهدوا منه وما رأوا وإذ منهم رجل من أهل الأندلس يقال له خشخاش وكان من فتيان قرطبة وأحداثهم فجمع جماعة من أحداثها وركب بهم فى مراكب استعدّها فى هذا البحر المحيط فغاب فيه مدة ثم انثنى بغنائم واسعة وخبره مشهور عند أهل الأندلس »(١١٧) .

ويمكن من الناحية الزمنية إرجاع هذه المغامرة إلى القرن التاسع ، أما النقطة التى بلغوها فهى مجال للتخمين والافتراضات(١١٨) .

وقد حفظت لنا بتفصيل أكثر من هذا أخبار رحلة من لشبونة قام بها ثمانية شبان أبناء عمومة لقبوا « بالمغرِّرين » ، أى المخاطرين . ويروى لنا قصتهم بشكل مفصل الإدريسى(١١٩) وذلك

---

(١١٥) شرحه ، ص ١٠ – ١٦

(١١٦) Nansen, Nebelheim, II, p. 149, note : وأيضًا — Seippel, II, p. X-

(١١٧) المسعودى ، المروج ، الجزء الأول ، ص ٢٥٨ – ٢٥٩

(١١٨) Beazley, I, p. 465; Sarton, Introduction, II, p. 1062-

(١١٩) آخر نشرة لنص الإدريسى لدى : Levi-Provençal, La péninsule
(النص ص ١٦ - ١٨ والترجمة ص ٢٣ - ٢٤) أما بصدد الترجمة القديمة:
p. 223-225 و (المتن) Jaubert, II, p. 26-29; ed. Dozy—De Goeje, p. 184-185 =

بمناسبة كلامه عن لشبونة ، فقد كان بها درب يعرف باسمهم هذا[١٢٠] ؛ ويعيد القصة أبو حامد الغرناطى ، والعمرى[١٢١] . وجوهرها أن ثمانية إخوة عزموا على « ركوب بحر الظلمات ليعرفوا/ما 135 فيه وإلى أين انتهاؤه » فأبحروا مع الريح الشرقية مدة أحد عشر يومًا إلى موضع صخرى مخيف شديد الظلمة . ثم اتجهوا جنوبًا مدة اثنى عشر يومًا إلى أن بلغوا « جزيرة الغنم » فأبصروا قطعان هائلة منها ؛ ثم توغلوا اثنى عشر يومًا أخرى فى الاتجاه نفسه حتى بلغوا جزيرة أخرى فأسرهم أهلها وكانوا ذوى بشرة حمراء وشعرهم قليل ناعم وطوال القامة . وعندما بدأ هبوب الريح الغربية أمر سيد الجزيرة بترحيلهم معصوبى الأعين إلى القارة التى بلغوها بعد إبحار ثلاثة أيام بلياليها . وهناك علموا من البربر أنهم بجنوبى مراكش على مسيرة شهرين من بلدهم ، وكان موضع نزولهم البقعة التى قامت بها فيما بعد ميناء آسفى **Asfi** .

وواضح من هذا أن نقاطًا عديدة فى هذه القصة تدخل فى محيط الأدب الشعبى « الفولكلور » (folklore) العالمى للقرون الوسيطة ؛ وقد استطاع دى خويه أثناء تحليله للأساطير الأوروبية المبكرة عن رحلة القديس براندان أن يكشف عن عدد من نقاط الشبه الطريفة بين القصتين ، مما يشير إلى مصدر مشترك[١٢٢] . وبالطبع فإن تحديد زمان ومكان رحلة « المغررين » يفسح مجالا واسعًا للتخمين والافتراضات[١٢٣] . ويبدو أن وصف الرحلة يرجع إلى القرن العاشر كما يرى دى خويه ، وذلك قبل إنشاء ميناء آسفى[١٢٤] . ويميل بيزلى **Beazley** إلى الاعتقاد بأن الجزيرة الأولى الوارد ذكرها فى الرحلة هى جزيرة ماديره **Madeira** أما الثانية فيرى فيها إحدى جزر الكنارى **Canaries**[١٢٥] . وبخلاف هذا فإن أى قول يتعلق بالرحلة لا يخرج عن حيز الافتراضات التى لا يدعمها الواقع ؛ ورغمًا عن هذا فقد اعتقد المتخصصون فى جغرافيا العصور الوسطى أن هذه الرحلة ربما ساهمت فى الحث على الرحلات المتأخرة التى قام بها الملاحون الأوروبيون فى المحيط الأطلنطى[١٢٦] . وقد لاقت تسمية هؤلاء الملاحين بالمغررين ، أو « المغرَّرين » كما تروى أحيانًا ،

= Carra de Vaux, Les Penseurs, II, (ترجمة) p. 47 - 49 ؛ (الترجمة)

(١٢٠) -Lévi-Provençal, La Péninsule p. 16 - 17 (المتن)

(١٢١) شرحه ، ص ٢٣ ، الحاشية ٢

(١٢٢) -De Goeje, Brandan, p. 56-59

(١٢٣) عن تاريخها راجع : Hennig, II, p. 329-335

(١٢٤) -De Goeje, Brandan, p. 59-65

(١٢٥) -Beazley, III, p. 532-533, note 2; Sarton, Introduction, II, p. 1062

(١٢٦) -Beazley, III, p. 533

انتشارًا واسعًا ؛ ومما يدعم صحة اشتقاق اللفظ الثانى الاستعمالات العديدة التى وردت لدى المسعودى[١٢٧] ، مما لا يفسح المجال للأخذ برأى متز Metz فى أنه يجب قراءتها « المغربين » أى الضاربين فى الغرب[١٢٨] .

إن مغامرة هؤلاء « المغرورين » تخرج بعض الشيء عن الحدود الزمنية الموضوعة لهذا الفصل ، ولكنها من ناحية أخرى تكمل سلسلة المحاولات العربية للتجوال فى الغرب فى ذلك العهد . فإذا ما ولينا وجهنا شطر المشرق مرة أخرى أمكننا أن نقرر بكل ثقة أن الاهتمام الرئيس للعرب قد انصب حقًا على البلاد الواقعة إلى الشرق من العالم الإسلامى وأن أفق معرفتهم الجغرافية بتلك النواحى قد اتسع بصورة ملحوظة . وهنا يقتصر الحال فى أول الأمر بالطبع على مجرد ذكر / 136
الرحلات المختلفة وقد يصحب ذلك سرد لمراحل الطريق ، وشيئًا فشيئًا يقابلنا عدد من الروايات عن هذه الرحلات احتفظ بها مؤلفون متأخرون أو أعادوا صياغتها فى قالب جديد . أما فى القرن التاسع نفسه فلا نكاد نلتقى بوصف لرحلات يسرده الرحالون أنفسهم .

وفيما يتعلق بالتجارة عن طريق البحر مع الهند وأرخبيل الملايو والصين فإن العرب قد ساروا على التقاليد القديمة لمنطقة جنوبى العراق وسواحل الخليج الفارسى فى العصر الساسانى . ويُروى أنه عندما سقطت ميناء الأبلة قرب البصرة فى يد العرب فى خلافة عمر وجد بها المسلمون سفنًا صينية[١٢٩] . وواضح أن الفرس ظلوا حتى فى عهد السيادة العربية أكثر العناصر جسارة فى ركوب البحر ؛ ومن المعلوم منذ عهد طويل أن المستعمرة العربية الفارسية بميناء كانتون Canton بالصين بلغت حدًا من القوة استطاعت معه فى عام ٧٥٨ أن تضع يدها على المدينة وتنهبها وتغادرها عن طريق البحر[١٣٠] . وفى الآونة الأخيرة حالف التوفيق العلامة البولندى لفيتسكى Lewicki فعثر على شواهد تثبت زيارة بعض العرب للصين فى ذلك العهد[١٣١] ، وذلك فى تاريخ طائفة الإباضية من الخوارج ؛ ومصدر هذه الشواهد مصنف لأبى سفيان محبوب العبدى المتوفى

---

(١٢٧) المسعودى ، المروج ، الجزء الأول ، ص ٢٥٨ : « أخبار من غرر وخاطر بنفسه » ؛ وأيضًا ص ٣٢٧ : « وليس يكاد يقطع من عمان بحر الهند فى تيرماه إلا مركب مغرر حمولته يسيرة » .

(١٢٨) Mez, p. 476, note 2-

(١٢٩) الدينورى ، ص ١٢٣ ؛ قارن : Lewicki, RO, XI, p. 176. 180

(١٣٠) Mez, p. 480 (اعتمادًا على : Chau Ju Kua, p. 14 Sui) —Lewicki, RO, XI, p. 176, 180-

(١٣١) Lewicki, RO, XI, p. 173-186-

فى النصف الأول من القرن التاسع(١٣٢) جاء فيه أن أحد شيوخ تلك الطائفة وهو أبو عبيدة عبد الله
ابن القاسم من أهل عمان كان عالمًا كبيرًا لعصره وتاجرًا معروفًا اشتغل بتجارة المر . وكان قد
سافر بتجارة له إلى الصين ؛ ولكن تاريخ الرحلة غير معروف لنا ولو أنه لاعتبارات شتى يمكن القول
بأنها حدثت دون شك قبل نهب كانتون السالف الذكر فى عام ٧٥٨(١٣٣) . أما التاجر الإباضى
الآخر فهو النضر بن ميمون الذى عاش بالبصرة على ما يظهر على حدود القرنين الثامن والتاسع
ومن هناك سافر إلى الصين ؛ ولكن ليست لدينا أية تفاصيل عن رحلته هذه(١٣٤) . وعلى أية حال
فإنه يمكن اعتبار هؤلاء التجار الإباضيين بمثابة ممهدى الطريق للتاجر المعروف سليمان ولابن
وهب اللذين سنلتقى بهما فى رواية أبى زيد السيرافى التى دونت بعد قرن من ذلك .

يتضح لنا مما مر أن العرب قد جمعوا عن بلدان الشرق الأخرى مادة وجيزة منذ ذلك العهد
المبكر السابق للقرن التاسع معتمدين فى ذلك على روايات لشخصيات عربية ؛ ويروى لنا ابن
رسته حقائق عن الهند ينقلها عن شخص غير معروف لنا يدعوه أبا عبد الله محمد بن إسحاق ،
وكان قد أمضى عامين من حياته فى قمار (أى خمير Khmer ، وهو الاسم القديم لكمبوديا)(١٣٥)
وحدث هذا على أغلب الظن فى بداية القرن التاسع(١٣٦) . ويعتبره بارتولد المصدر الأساسى عن
137 الهند لا بالنسبة لابن رسته وحده ، وهو الذى نقل عنه فقرات/معينة ، بل أيضًا « بالنسبة لابن
خرداذبه وغيره من الجغرافيين العرب »(١٣٧) . وهذا لا يعنى بالطبع أن مادتهم فيما يتعلق بتلك
البلاد قد اقتصرت على أبى عبد الله وحده(١٣٨) ، إذ يلوح أن مثل هذه الحالات لم تكن نادرة .

وإلى هذا العهد المبكر نفسه ترجع أول معرفة للعرب بالطريق البرى الذى يخترق آسيا
الوسطى إلى الصين ، وذلك اعتمادًا على الوصف الذى يقدمه تميم بن بحر المطوعى . وكما يتبين من
نسبته فإنه لم يكن تاجرًا أو عالمًا بل انتمى إلى فئة المتطوعة من جنود الثغور الإسلامية الذين كثر
عددهم على تخوم الخلافة خاصة فى آسيا الوسطى . وقد توجه تميم إلى خاقان الترك التغزغز بمهمة

---

(١٣٢) شرحه ، ص ١٧٧ – ١٧٨

(١٣٣) شرحه ، ص ١٧٩ – ١٨١

(١٣٤) شرحه ، ص ١٨١ – ١٨٢

(١٣٥) ابن رسته ، BGA, VII ، ص ١٣٢

(١٣٦) Hudud, p. 236-

(١٣٧) حدود العالم ، ص ١٩

(١٣٨) قارن : Hudud p. 236

دبلوماسية على ما يظهر ؛ ويرجع بارتولد تاريخ هذه الرحلة مع بعض التردد(١٣٩) إلى الفترة بين عامى ٧٦٠ و ٨٠٠(١٤٠) . وحفظ لنا ياقوت (١٤١) أهم قطعة من هذه الرحلة أمكن بوساطتها الاستدلال على شخصية المؤلف الذى ترجع إليه القطعتان المجهولتا المؤلف فى معجم ياقوت وكتاب ابن خرداذبه(١٤٢) ؛ وبهذا فإن الأخير هو أول جغرافى عربى يحفظ لنا وصف الطريق البرى إلى الصين(١٤٣) . ويمكن أيضًا تتبع أثر تميم عند بعض الجغرافيين مثل أبى دلف وقدامة(١٤٤) بل وحتى عند الإدريسى(١٤٥) . وتميم هو أول عربى يمدنا بمعلومات عن التغزغز تستند على معرفة مباشرة بهم فى ديارهم(١٤٦) ، وهو إلى جانب الأخبار الطريفة عنهم وعن غيرهم من القبائل التركية الأخرى يصف لنا عاصمة التغزغز قامجو Kan-Chou قرب طرفان Turfan(١٤٧) . وقد ورد لديه أيضًا ذكر لحجر المطر عند الترك ، الأمر الذى دفع ياقوت بهذه المناسبة إلى نقل الرواية الأكثر تفصيلا والمأخوذة عن المروزى الذى مر ذكره(١٤٨) . والفرض الذى نادى به ماركفارت وهو أن تميما قد زار الأويغور على نهر الأورخون Orkhon قبل هجرتهم منه(١٤٩) قد ثبتت صحته فى الآونة الأخيرة بعد الاطلاع على مخطوطة ابن الفقيه التى عثر عليها بمشهد ، فهى تورد لنا قصة تميم بصورة أوفى مما لدى ياقوت(١٥٠) .

وباسم الخليفة الواثق (٢٢٧ هـ - ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ - ٨٤٧) الذى مر الكلام عليه كمشجع للرحلات تقترن الرحلة الشهيرة لسلام الترجمان إلى الأصقاع الشمالية . وتتخذ هذه
الرحلة/بالنسبة لوطننا السوفيتى أهمية خاصة ، فليس غريبًا إذن أن يرجع الاهتمام بها بين ظهرانينا 138

---

(١٣٩) -Barthold, Toghuzghuz, p. 873

(١٤٠) -Barthold, Vorlesungen, p. 54

(١٤١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٨٤٠

(١٤٢) ياقوت ، المعجم ، الجزء الرابع ، ص ٨٢٣ = BGA, V, p. 30-31

(١٤٣) -Barthold. Vorlesungen, p. 54

(١٤٤) -Hudud, p. 268

(١٤٥) شرحه ، ص ٢٦٩

(١٤٦) شرحه ، ص ٢٦٨ - حدود العالم ، ص ١٠

(١٤٧) حدود العالم ، ص ١٩

(١٤٨) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٨٤٠ - ٨٤٢

(١٤٩) -Markwart, Streifzüge, p. 81

(١٥٠) ابن الفقيه ، مخطوطة مشهد ، ص ١٦٩ - ١٧٠ - Hudud, p. 481 ، Validov,IRAN, p. 241-242

إلى أكثر من قرنين فيكتب عن سلام الترجمان (Alsalemo Altargjeman) واحد من أوائل الأكاديميين لدينا وهو باير Baer وذلك فى أول جزء من « التعليقات » (Commentaries) الأكاديمية[١٥١] . ولم تتغير كثيرًا نظرة الدوائر العلمية فيما يتعلق بسلام فى السبعين عامًا الأخيرة ؛ وإذا كان اشبرنجر Sprenger قد اعتبر الرحلة منذ عام ١٨٦٤ « تضليلا مقصوداً»[١٥٢] ، وهو موقف انضم إليه بالتالى غريغوريف Grigoriev[١٥٣] ، فإن مينورسكى Minorsky أيضًا ، وذلك فى عام ١٩٣٧ ، يرى فيها « حكاية خرافية تنتثر فيها بضعة أسماء جغرافية »[١٥٤] . إلا أنه لا يجب أن نهمل الآراء المعارضة لذلك ، فمنذ عام ١٨٨٨ اعتبر دى خويه[١٥٥] الرحلة واقعة تاريخية لا شك فيها وأنها جديرة باهتمام العلماء ، وقد أيده فى هذا الرأى[١٥٦] خبير ثقة بالجغرافيا التاريخية هوتوماشك Tomaschek[١٥٧] ، وفى الآونة الحاضرة يرى عالم البيزنطيات فاسيلييف Vasiliev أنه من الممكن القول بأن سلامًا « قد نقل إلى الخليفة الروايات المحلية التى سمعها فى الأماكن التى زارها[١٥٨] » . ويلوح لى أن هذا الرأى الأخير لا يخلو من الوجاهة رغمًا من أن وصف الرحلة ، شأنه فى هذا شأن جميع الآثار من هذا النوع ، لا يمكن اعتباره رسالة جغرافية بل مصنفًا أدبيًا يحفل بعناصر نقلية من جهة وانطباعات شخصية صيغت فى قالب أدبى من جهة أخرى .

ويجب قبل كل شيء ملاحظة أن القصة قد وصلت إلينا فى رواية جديرة بالثقة ، فابن خرداذبه يرويها لنا بألفاظ سلام نفسه[١٥٩] ويوكد فى آخر روايته[١٦٠] أنه قد سمعها فى بداية الأمر من سلام ثم أمليت عليه من التقرير الذى رفعه سلام إلى الخليفة[١٦١] . ومما يدعم صحة هذه الرواية قول

---

(١٥١) -Bayer, Sallam, p. 438-442

(١٥٢) -Sprenger, Reiserouten, p. XV

(١٥٣) -Grigoriev, Abu Dulaf, p. 23

(١٥٤) -Hudud, p. 225

(١٥٥) (على حدة ص ١٧ – ٢٣) -De Goeje, De Muur, p. 103-109

(١٥٦) -De Goeje, De Muur, 116, p. 30

(١٥٧) -Tomaschek, WZKM, III, p. 103-108

(١٥٨) -Vasiliev, Byzance I, p. 9, note 2

(١٥٩) ابن خرداذبه ، BGA, VI ، ص ١٦٢

(١٦٠) شرحه ، ص ١٧٠

(١٦١) شرحه (الترجمة) ، ص ١٢٤ – ١٣١ – Wilson, p. 20-25 , De Goeje, De Muur, p. 103-109 (p. 17-23)

المقدسى عن ابن خرداذبه بصدد هذا : « لأنه كان وزير الخليفة وأقدر على ودائع علوم خزانة أمير المؤمنين » ، هذا إلى جانب أنه قد سمعها من صاحبها[١٦٢] . وقد نالت القصة انتشارًا واسعًا فى الأدب الجغرافى ورواها الجغرافيون المتقدمون والمتأخرون مع تفاوت فى التفاصيل ، مثل ابن
رسته[١٦٣] وياقوت[١٦٤] وأبى حامد/الغرناطى والإدريسى[١٦٥] والقزوينى[١٦٦] والنويرى[١٦٧] 140
وغيرهم . وحفظ لنا الإدريسى بضعة تفاصيل منها وجدت على ما يظهر فى المسودة الأصلية لابن خرداذبه[١٦٨] التى لم تصل إلينا ، وسقطت من موجز كتابه الذى بين أيدينا اليوم .

وكان الدافع إلى إرسال هذه السفارة دافعًا خياليًا بحتًا كالدافع نفسه الذى جعل الخليفة يبعث محمد بن موسى الفلكى ليستقصى خبر أهل الكهف . فقد تراءى للخليفة فى المنام كأنما انفتح السد الذى بناه الإسكندر ذو القرنين ليحول دون تسرب يأجوج ومأجوج ؛ ولعل هذا الحلم المزعج قد سببته للخليفة الشائعات عن تحرك القبائل التركية فى أواسط آسيا نتيجة لقضاء القرغيز على دولة الأويغور حوالى عام ٨٤٠ . هذا وإذا طرحنا جانبًا كل التفاصيل نجد أن خط سير سلام[١٦٩] قد اتجه شمالا خلال أرمينيا و بلاد الكرج (جورجيا) إلى بلاد الخزر ، ثم اتجه من هناك شرقًا إلى بحر قزوين فوصل إلى بحيرة بلخش Balkash وجنغاريا Zhungaria ، وعاد من هناك إلى سامراء بالعراق مارًا فى طريقه على بخارى وخراسان . وهو بلا شك قد أبصر سد القوقاز المشهور عند دربند[١٧٠] ؛ ومن ناحية أخرى فإن من الممكن جدًا أن يكون قد بلغ سور الصين العظيم كما أثبت ذلك دى خويه[١٧١] . ويمكن تفسير الخلط فى وصفه للحائطين بأن عصر الخوارزمى ، معاصر سلام ، قد عرف روايتين عن سد ذى القرنين إحداهما تضعه فى الشرق

---

(١٦٢) المقدسى ، BGA, III ، ص ٣٦٢ – ٣٦٥

(١٦٣) ابن رسته ، BGA, VII ، ص ١٤٩

(١٦٤) ياقوت ، المعجم ، الجزء الثالث ، ص ٥٦ – ٥٨

(١٦٥) Jaubert, II, p. 416-420

(١٦٦) القزوينى ، الجزء الثانى ، ص ٤٠١ – ٤٠٢ – ترجمة كارادى فو (Carra de Vaux, Les penseurs, II, p. 43-47)

(١٦٧) النويرى ، الجزء الأول ، ٣٧٤ – ٣٧٦

(١٦٨) -Zichy, p. 191

(١٦٩) -Barthold, Kirgizen, p. 1101 —Markwart, Streifzüge, p. 89-90

(١٧٠) عن توضيح لفظ فى وصفه راجع : Y. N. Marr, p. 11-13

(١٧١) راجع : Markwart, Streifzüge, p. 86 —Tomaschek, WZKM, III p. 108

والأخرى فى الشمال(١٧٢) . ومن المحتمل جدًا أن سلامًا قد حاول إلى جانب تسجيل انطباعاته المباشرة أن يردد أيضًا وفى قالب أدبى الرواية التى فى القرآن(١٧٣) عن سد يأجوج ومأجوج . ومن المستحيل بالطبع تحديد ميدان تجواله بالمنطقة الواقعة بين القريم والأورال كما فعل منذ عهد غير بعيد العالم الهنغارى زيتشى Zichy(١٧٤) الذى أبصر فى السد ممرًا من ممرات جبال الأورال حصنته البلغار(١٧٥) . وأحد كبار العلماء المحدثين وهو خبير فى الجغرافيا التاريخية لأوروبا الشرقية وآسيا الوسطى يختتم كلامه عن سلام بقوله : « ليس هناك أدنى شك فى أن سلامًا قام فى حوالى عام ٨٤٢ — ٨٤٣ برحلة عبر فيها القوقاز وأرض الخزر متجهًا صوب الشرق ، ثم مر فى طريقه على برسخان وطراز (تلاس) وسمرقند راجعًا إلى خراسان ؛ وهو قد أبصر بالفعل فى هذه الرحلة/ 141
حائطًا أو ممرًا جبليًا يشبه الحائط »(١٧٦) . وبهذا يمكن القول بأن سلامًا قد ظفر أخيرًا ببعض الثقة لدى الدوائر العلمية .

لقد حاول البعض أن يعتبر رحلة سلام أسطورة خيالية وكفى ، ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن مصادر الأساطير الجغرافية فى الأدب العربى توجد فى ميدان غير هذا ، فهى ترتبط بالأقاصيص والحكايات البحرية عن بلدان الشرق كالهند وأرخبيل الملايو أو بلدان الغرب خاصة سواحل افريقيا الشرقية . وقد بدأت هذه الأقاصيص تزدهر فى القرن التاسع فى موانى الخلافة كالبصرة وسيراف وعلى وجه خاص فى العاصمة بغداد . ونادرًا ما أودع القصاصون حكاياتهم بطون الأسفار ، فهى فى الغالب وصلتنا بأقلام شخصيات أخرى كانت أحيانًا من معاصريهم أو من ممثلى الأجيال التالية لهم .

ويبدأ سلسلة القصاصين المعروفين لنا « التاجر سليمان » الذى لا يعرف عنه أكثر من أن قصصه ترجع إلى حوالى عام ٢٣٧ هـ = ٨٥١ . وهو قد سافر مرارًا بغرض المتاجرة إلى الهند والصين ؛ ويصف الطريق بدرجة من الدقة مكنت فيران Ferrand من أن يتتبعه على الخارطات الحديثة(١٧٧) . وهو خير مثال للتجار العرب والفرس الذاهبين إلى الصين ، وقد أبحر من سيراف

---

(١٧٢) -Mzik, Parageographische, p. 186, note

(١٧٣) القرآن ، ٢١ : ٩٦

(١٧٤) -Zichy, p. 194-200 — راجع : Hudud, p. 225 note 1

(١٧٥) -Zichy, p. 200

(١٧٦) -Ibn Fadlan, p. 197-198

(١٧٧) -Ferrand, Sulayman, p.18 (راجع : Sarton, Introduction, I, p. 572, Sarton, Isis, VI p. 146)
—Sauvaget, Relation de la chine

إلى مسقط على ساحل الجزيرة العربية ومن هناك إلى كلم على ساحل مليبار، ثم مر بمضيق بالك Palk شمال جزيرة سيلان وعبر خليج البنغال فوصل إلى جزيرة لنجبالوس (إحدى جزر نيكوبار) . ثم تقدم إلى كَلَه برَه على ساحل الملايو الغربى ومن هناك إلى جزيرة تيومن الواقعة إلى الجنوب الغربى من ملقا ، ومنها إلى رأس القديس يعقوب قرب سايجون ، ومن هناك إلى جزيرة هاينان فعبر المضيق الذى يفصلها عن أرض الصين ليصل إلى ميناء خانفو أو كانتون الحديثة بالصين . وكانت الرحلة البحرية من مسقط إلى الصين تستغرق أكثر من أربعة أشهر(١٧٨) . ولم يقتصر سليمان فى وصفه على ذكر المراحل ، أو « البربلوس » * periplus كما تقول اليونان ، وتقدير المسافات بالأيام وأحيانًا بالفراسخ بل ترك أيضًا وصفًا حيًا للسواحل والجزر والموانى المختلفة والمدن وسكانها والمحاصيل والمنتجات وسلع التجارة ؛ كما ثبت أن المعلومات التى أوردها عن كانتون تتميز بالتفصيل والدقة . ونظرًا لعدم وجود أية معلومات عن سليمان نفسه فإن بعض كبار علماء الصينيات (Sinologists) مثل يول Yule وبليو Pelliot قد تشككوا فى نسبة القصص إليه ، كما ظهر رأى آخر يقول بأن هذه القصص لعربى زار الهند ؛ ومن الملاحظ أنه لا ترد
142 فيها إشارة إلى سليمان إلا مرة واحدة(١٧٩) . غير أن / فيران(١٨٠) لفت الأنظار إلى أن ابن الفقيه ينسب القصص صراحة إلى سليمان ،(١٨١) ولهذا فإن مسألة تأليفه لها لا يحوم حولها أدنى شك حتى بعد مرور خمسين عامًا على وفاته . وقد أضاف إلى القصص المنسوبة إلى سليمان ، وذلك بعد عشرين عامًا من هذا ، رحالة آخر هو ابن وهب(١٨٢) الذى يرجع نسبه إلى قريش وكان من الأعيان الأثرياء فلما سقطت البصرة فى يد ثوار الزنج عام ٢٥٧ هـ = ٨٧٠ استقر رأيه على القيام برحلة طويلة من سيراف إلى الصين؛ وحالفه التوفيق فوصل إلى عاصمة الصين وكانت فى ذلك الوقت خمدان Khumdan (أو سينانفو Sinanfu) ولوصفه أهمية خاصة إذ بعد قليل

---

(١٧٨) -Ferrand, Sulayman, p. 18-19

* لفظ « بربلوس » periplus معناه باليونانية دورة ملاحية (cricumnavigation) ، وقد أطلق اللفظ على رسائل فى الملاحة يصف فيها اليونان سواحل البحار المختلفة . ومن أهم ما تبقى لنا منها هو « بربلوس البحر الأحمر » Periplus Mare Erythraeum ، أى « دليل البحر الأحمر » ، الذى يرجع إلى القرن الأول الميلادى . (المترجم)

(١٧٩) -Pelliot, p. 401-402

(١٨٠) -Ferrand, Notes, p. 21-35

(١٨١) ابن الفقيه ، BGA, V ، ص ١١ – ١٣

(١٨٢) -Reinaud, Introduction, p. CCCXCIV—CCCXCV, CCCXCIX—Hudud, p. 224 and index: IbnWahb

من ذلك فى عام ٢٦٤ هـ = ٨٧٨ تم القضاء على المستعمرة العربية بكانتون نتيجة للحروب الداخلية فانقطعت بذلك الصلات المباشرة بين العرب والصين[١٨٣] وأصبحت آخر ميناء تصلها السفن العربية ميناء كله أو كله بره بشبه جزيرة الملايو[١٨٤] ، ولم يتجدد الاتصال بالصين إلا فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر[١٨٥] .

وقصص سليمان وابن وهب قد دونها فى بداية القرن العاشر أبو زيد الحسن السيرافى[١٨٦] من أهل البصرة ، وهو الذى أعطاها شكلها المعروف لدينا الآن . والسيرافى نفسه لم يكن رحالة ولا عالمًا بل كان على ما يظهر من المغرمين بأمثال هذه القصص التى كان من السهل جمع محصول وافر منها سواء فى مسقط رأسه سيراف أو فى البصرة . وقد التقى به المسعودى عام ٣٠٣ هـ = ٩١٦ ؛ ورغمًا عن الخلط فى الأسماء فإن جميع الدلائل تشير إلى أن المسعودى قد أخذ عنه رواية ابن وهب[١٨٧] .

ومسودة أبى زيد السيرافى وصلتنا فى مخطوطة فريدة موجودة بباريس أضاف إليها النساخ مقدمة لا علاقة لها البتة بمحتويات الكتاب ؛ وزاد المشكلة تعقيدًا أن المخطوطة تحمل عنوانًا غير مناسب على الإطلاق هو « سلسلة التواريخ » . وقد اجتذب هذا الأثر أنظار العلماء منذ عهد مبكر فظهرت له منذ عام ١٧١٨ ترجمة فرنسية لم تلبث أن أثارت الريبة لدى البعض والاشتباه فى التدليس لدى آخرين . ويعود الفضل فى دراسة هذه المجموعة من القصص إلى رينو ، كما درسها فى القرن العشرين فيران * الذى يدين له العلم بوضع أساس متين لدراسة الرحلات البحرية التى قام بها العرب فى بحر المشرق .

وقد سارت هذه القصص البحرية فى سلسلة متصلة الحلقات فأبرزت لنا فى فرع من فروعها « أسفار السندباد »/التى طبقت شهرتها الآفاق والتى وجدت كمجموعة مستقلة قائمة بذاتها 143
قبل أن تدخل ضمن مجموعة « ألف ليلة وليلة » الضخمة[١٨٨] ، وقد أثبت العلم أخيرًا أنه من الخطل اعتبارها محض أسطورة خرافية تدور حوادثها خارج حدود الزمان والمكان ؛ إذ استبان من

---

(١٨٣) -Reinaud, Introduction, p. LXXIV, CCCXCIX

(١٨٤) -Mez, p. 481

(١٨٥) -Reinaud, Introduction p. LXXIV—LXXV

(١٨٦) بارتولد فى نقده لكتاب Hirth—Rockhill, Chau Ju-Kua, p. 0165

(١٨٧) المسعودى ، المروج ، الجزء الأول ، ص ٣١٢ – ٣٢٠ ، ٣٢١ – ٣٢٤

* آخر دراسة لهذه القصص قام بها المستشرق الفرنسى سوفاجيه G. Sauvaget (١٩٤٨) . (المترجم)

(١٨٨) يعتقد كازانوافا Casanova (p. 125) أنه « من المستحيل فصلها عن ألف ليلة وليلة » .

بحوث رينو ودى خويه وفيران أن « أسفار السندباد » انبعثت فى الوسط نفسه الذى نشأت فيه قصص التاجر سليمان وفى المواضع نفسها أيضًا أى سيراف والبصرة وبغداد ، بل وفى العصر نفسه تقريبًا أى حوالى عام ٩٠٠ [١٨٩] . ويتفق فيران وكازانوفا Casanova فى أنها ترتفع إلى زمن أبعد بكثير من زمن القصص الأخرى لأنه لا يرد فيها ذكر للصين [١٩٠] مما يستدل منه أن تلك البلاد إما كانت غير معروفة البتة أو كانت معروفة قليلا فى العصر الذى تشكلت فيه الصورة الأولى « لأسفار السندباد » [١٩١] . ويرجع كازانوفا تاريخها بالتحديد إلى عصر الرشيد [١٩٢] ، أما مسرح حوادثها فهو الهند وأرخبيل الملايو ؛ وقد أمكن تحديد أماكن بعض حوادثها بالكثير من الدقة . هذا وكان لأسفار السندباد تأثير واضح على سير القديسين فى أوائل العصور الوسيطة بأوروبا ، فأسطورة القديس براندان St. Brandan التى ترجع إلى أوائل القرن الحادى عشر [١٩٣] مدينة بالكثير فى بعض مواضعها لهذه القصص [١٩٤] ، كما يجب ألا ننسى أيضًا تأثير الرحلات البحرية على الأساطير الأخروية (eschatological) للمسيحية الأوروبية [١٩٥] .

وكما رأينا فإن القصص البحرية ترتبط ارتباطًا وثيقًا ببلاد الشرق كالهند والصين ، ولكن يمكن أن يضم إلى هذه الأقطار أيضًا سواحل افريقيا الشرقية خاصة بلاد الزنج المشهورة ، وهى تنطبق بوجه التقريب على زنجبار الحالية . ويشغل مكانًا مرموقًا فى هذه السلسلة كتاب تم تأليفه بعد ذلك بقليل فى حوالى عام ٣٤٢ هـ = ٩٥٣ ، أعنى مجموعة « عجائب الهند » لبزرج بن شهريار وهو ربان من رامهرمز على الخليج الفارسى ؛ وليس لدينا أية معلومات عنه بخلاف ما تقدمه لنا قصصه نفسها ؛ ويجب ألا ينظر فيه إلى المؤلف بقدر ما ينظر فيه إلى القاصّ الرئيس الذى دونت الحكايات من ألفاظه.إذ يأخذ طرفًا فيها قاصّون آخرون من الربابنة والنواخذة والتجار الذين ينتمون خاصة إلى الفترة ٢٨٨ هـ - ٣٤٢ هـ = ٩٠٠ - ٩٥٣ ؛

---

(١٨٩) -De Goeje, Brandan, p. 65

(١٩٠) -Casanova, p. 119

(١٩١) -Ferrand, Relations, II, p. 564

(١٩٢) -Casanova,p. 121

(١٩٣) -De Goeje, Brandan, p. 65, 75;
وبراندان نفسه يرجع إلى القرن السادس (شرحه ص ٤٣)

(١٩٤) شرحه ، ص ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٣

(١٩٥) -Asin Palacios, La eschatologia, p. 264

وبعض قصص هذه المجموعة ترجع إلى نهاية القرن العاشر وفقًا لرأى فيران[١٩٦] .

والكلام فى هذه المجموعة لا يدور حول قصة واحدة متماسكة الأطراف كما هو الحال مع كتاب
أبى زيد السيرافى ولكنه يتناول مجموعة من القصص المتفرقة/التى تختلف طولا وقصرًا فتتراوح بين 144
عشر صفحات وبضعة أسطر ؛ كما تتميز مادتها أيضًا بالتنوع ، فتارة يقابلنا وصف قصير لنبات أو سمك أو عجائب ، وطورًا وصف لحادث فى البر أو البحر قد يتحول إلى قصة مغامرات أو دراما أخلاقية معروضة بالكثير من المهارة الفنية . ويحس من هذا العرض العام للقصص أنها لشخص يتمتع بأسلوب حى سلس ويجيد الفن القصصى ويعرضه أحيانًا بطريقة وجدانية مؤثرة ، ومن ثم فهى تمثل مصنفًا أدبيًا ممتازًا لا يقل قيمة عن أفضل مواضع « أسفار السندباد » بل يفوقها أحيانًا . هذا وقد أصبح كتاب « عجائب الهند » فى متناول الأيدى فى طبعة فاخرة منذ الثمانينيات من القرن الماضى .

لقد عاش نمط القصص البحرية فى الأدب العربى قرونًا طويلة ولكنه لم ينتج لنا آثارًا ممتازة كالتى مر بنا الكلام عليها . أما مجموعة الحكايات المعروفة باسم « مائة ليلة وليلة »[١٩٧] فإنها لم تدون قبل النصف الثانى من القرن الرابع عشر ولكنها ربما عرفت منذ القرن العاشر[١٩٨] ؛ ورغمًا من أنه يثبت من قراءتها معرفتها « بألف ليلة وليلة » إلا أنها لا تعتمد عليها فى مادتها[١٩٩] . وبهذه المجموعة حكاية عن جزيرة الكافور[٢٠٠] تصف الرحلة البحرية إلى الصين ويرد فيها الكلام عن عاصمتها خمدان[٢٠١] ، وهى ترتبط ارتباطًا وثيقًا بحكاية ابن وهب[٢٠٢] ؛ أما مصادرها فتنتظم مجالا عريضًا يصل إلى كوزموغرافيا ابن الوردى فى القرن الرابع عشر[٢٠٣] . وسنرى كيف أن مسار هذا التطور للقصص البحرية على ممر القرون سيؤدى بنا فى القرن الخامس عشر إلى مرشدات الملاحة للربابنة العرب المشهورين فى المحيط الهندى الذين كان من بينهم ربان فاسكو دا غاما .

وفى الفترة التاريخية التى نعالجها فى هذا الفصل كان الطريق البحرى إلى الصين يعتبر أسهل

---

(١٩٦) Ferrand, Relations, II, p. 565

(١٩٧) شرحه ، ص ٥٦٤ ؛ و Ferrand, Note, p. 309, 318

(١٩٨) -Gaudefroy —Demombynes, Les cents et une nuits, p. 351

(١٩٩) -Ferrand, Note, p. 309

(٢٠٠) -Gaudefroy —Domombynes, Les cents et une nuits, p. 68-77

(٢٠١) -Ferrand, Relations, II, p. 570-573

(٢٠٢) -Ferrand, Note, p. 310-316.

(٢٠٣) شرحه ، ص ٣١٨

الطرق المؤدية إلى تلك البلاد من أماكن نائية كسمرقند . ويحكى لنا المسعودى[٢٠٤] أن أحد « التجار من أهل سمرقند من بلاد ما وراء النهر خرج من بلاده ومعه متاع كثير حتى أتى العراق فحمل من جهازها وانحدر إلى البصرة وركب البحر حتى أتى بلاد عمان وركب إلى كِلَّةَ وهى النصف من طريق الصين أو نحو ذلك ... ثم ركب هذا التاجر من مدينة كلة فى مراكب الصينيين إلى مدينة خانفوا وهى مرسى المراكب » . وبسبب إساءة لحقته عند جمع المكوس فقد سافر هذا التاجر إلى خمدان[٢٠٥] شاكيًا فظفر باستخلاص حقوقه[٢٠٦] . وهكذا فإن الطريق الذى سلكه هذا السمرقندى يتفق بوجه عام مع الطريق الذى سافر به التاجر سليمان أو ابن وهب ، ومن
145 المؤكد/أن هذه الرحلة من آسيا الوسطى إلى الصين لم تكن الوحيدة من نوعها .

وليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا الطريق البحرى قد طغى على الطريق البرى نهائيًا فى ذلك العصر ، فالمسعودى يحكى كذلك :

« وقد رأيت ببلخ شيخًا جميلا ذا رأى وفهم وقد دخل الصين مرارًا كثيرة ولم يركب البحر قط وقد رأيت عدة من الناس ممن سلك من بلاد الصغد على جبال النوشادر إلى أرض التبت والصين[٢٠٧] » .

وهذا الطريق الأخير تعرفه المصادر الصينية أيضًا[٢٠٨] . ومن العسير أن نحدد بالدقة أى طريق سلكه إلى الصين بعد قليل من ذلك الراهب النجرانى الذى التقى به فى عام ٣٧٧ هـ = ٩٨٧ صاحب كتاب « الفهرست » وحفظ لنا عددًا من حكاياته بلسانه ؛ وهو يبدأ فصلا من كتابه بالطريقة الآتية :

« مذاهب أهل الصين وشىء من أخبارهم : ما حكاه لى الراهب النجرانى الوارد من بلد الصين فى سنة سبع وسبعين وثلثمائة هذا الرجل من أهل نجران أنفذه الجاثليق منذ نحو سبع سنين إلى بلد الصين وأنفذ معه خمسة أناسى من النصارى ممن يقوم بأمر الدين فعاد من الجماعة هذا الراهب وآخر بعد ست سنوات فلقيته بدار الروم وراء البيعة فرأيت رجلا شابًا حسن الهيئة قليل الكلام إلا أن يُسئل فسألته عما خرج فيه وما السبب فى إبطائه طول هذه المدة فذكر أمورًا لحقته فى

---

(٢٠٤) المسعودى ، مروج الذهب ، الجزء الأول ، ص ٣٠٧ – ٣١٢

(٢٠٥) صحح هذا الاسم المشوه فى الأصل العلامة مينورسكى Minorsky (Hudud, p. 224)

(٢٠٦) لدى هارتمان (Hartmann, China, p. 877)

(٢٠٧) المسعودى ، المروج ، الجزء الأول ، ص ٣٤٩

(٢٠٨) Mez, p. 467-

الطريق عاقته وأن النصارى الذين كانوا ببلد الصين فَنِيوا وهلكوا بأسباب وأنه لم يبق فى جميع البلاد إلا رجل واحد وذكر أنه كان لهم بيعة خربت قال فلما لم أر من أقوم لهم بدينهم عدت فى أقل من المدة التى مضيت فيها فمن حكاياته قال إن المسافات فى البحر قد اختلفت وفسد أمر البحر وقلّ أهل الخبرة به وظهر فيه آفات وخوف وجزائر قطعت المسافات إلا أن الذى يسلم على الغَرَر يسلك »[٢٠٩] .

والملاحظات الأخيرة التى يمكن أن يحس منها أنها ثمرة تجربة شخصية تدفع إلى الاعتقاد بأن الرحلة قد تمت على أية حال بطريق البحر .

إن حكايات الراهب النجرانى مقتضبة فى الواقع ولكنها تبلغ حد الطرافة[٢١٠] بالنسبة للتاريخ الحضارى لذلك العصر وبالنسبة للأوضاع السائدة فى الصين آنذاك . وقد اجتذبت منذ القرن السابع أنظار المستشرق غوليوس ، كما يبدو ذلك فى تعليقاته على رسالة الفرغانى[٢١١] ؛ وكانت معرفة العلماء بالجغرافيا العربية آنذاك فى مستوى جعل الشك وعدم التصديق يحيطان بالرواية إلى
146 ما بعد قرن من ذلك التاريخ ؛/ولكن لم يلبث أن وكد صحتها رينو[٢١٢] وترجمها فيران فى القرن العشرين ترجمة علمية ضمنها صفحات مؤلفه عن الشرق الأقصى[٢١٣] . ولقد صاغ صاحب « الفهرست » قصة الراهب النجرانى بألفاظ عادت بالغرم عليه هو نفسه ، فقد حدث أن ناشر « الفهرست » وهو المستشرق فليجل **Flügel** قد أخذ خطأ « دار الروم » ، وهو أحد أحياء بغداد ، على أنه عاصمة الدولة البيزنطية وبنى على أساس هذا نظرية واهية مؤداها أن ابن النديم زار القسطنطينية عام ٩٨٧ والتقى بالراهب النجرانى قريبًا من آيا صوفيا . وقد كشف عن هذا الخطأ فى بحث مفصل المستعرب الروسى روزن[٢١٤] ، ولكنه لا يزال مع الأسف الشديد يتسلل من آونة لأخرى إلى العلم الأوروبى إلى أيامنا هذه[٢١٥] .

---

(٢٠٩) الفهرست ، ص ٣٤٩

(٢١٠) شرحه ، ص ٣٤٩ – ٣٥٠

(٢١١) -Golius , Notae, p.76.

(٢١٢) -Reinaud, Introduction, p. CLI-CLIII

(٢١٣) - Ferrand, Relations, I, p. 129-131

(٢١٤) -Rozen, ZVO, IV, p. 401-404

(٢١٥) -Fück, ZDMG, 84, p. 117 and note 5
ولكنه يصححها فى مقاله فى دائرة المعارف الإسلامية (EI, III, p. 873) مع الإشارة إلى روزن .

لقد كان القرن التاسع فاتحة عهد جديد فى تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ليس فقط لأن عددًا من الأنماط الجديدة قد رأى النور لأول مرة بل أيضًا لظهور رسائل ذات طابع عام وصلت إلينا فى صيغ مختلفة . وبمقدورنا الحكم على تلك المصنفات لا من مجرد ذكر عناوينها أو من المقتطفات التى حفظت لنا منها فى آثار متأخرة بل من أصولها الأولى التى ربما وجدت فى روايات ترجع إلى فترة تتلو بكثير تاريخ تأليفها .

الفصل الخامس

المصنفات العامة فى الجغرافيا فى القرن التاسع
الجغرافيا الإقليمية فى القرنين التاسع والعاشر

147 يعتبر ابن خرداذبه عادة أول مؤلف يصلنا عنه مصنف فى الجغرافيا الوصفية . وكما تبين لنا منذ برهة فإن هذا القول ليس صحيحًا كل الصحة ، فقد وجدت مصنفات أخرى مماثلة ترجع إلى تلك الفترة بل إلى فترة سابقة عليها ؛ وهذه المصنفات الأخيرة معروفة لنا لا من أسمائها فحسب بل من مقتطفات وقطع كبيرة حفظها لنا المؤلفون المتأخرون . غير أن ذلك القول يمكن اعتباره صادقًا بمعنى أننا نلتقى لدى ابن خرداذبه بأول مصنف كامل على الرغم من أنه وصل إلينا فى رواية ملخّصة عملت فى عصور متأخرة ولا تمثل المسودة الأصلية للمؤلف ؛ بيد أن هذا لا يمنعنا من الحكم على محتويات المصنف . ويلوح أن هذا المصنف الذى كان يحمل العنوان التقليدى « كتاب المسالك والممالك » لم يكن بالنسبة للمؤلف سوى حدث ثانوى عابر فى مجال نشاطه الأدبى ، لأنه لم يتحكم فى ظهوره نزعته الأدبية بل طبيعة المنصب الذى كان يشغله فى الدولة .

وأبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خُرْداذبه فارسى الأصل وكان جده مجوسيًا كما هو واضح من الاسم الذى حمله المؤلف . وقد حاول بعض العلماء فى الآونة الأخيرة تفضيل صيغة خُرَّداذبه[١] وهى محاولة لا غناء فيها على الإطلاق إذ كلا الصيغتين من أسماء تمجيد الخالق ولهما اشتقاق واضح فى اللغة الفارسية الوسيطة . والصيغة الأولى للفظ وهى خُرْداذبه معناها « خُرْداد أفضل[٢] » ، أما الثانية وهى خُرَّداذبه فمعناها « خَلَقه خُرّ أفضل »[٣] . وهكذا فإن كلا الاسمين صحيح وليس ثمة حاجة لاطراح الأول الذى ثبت على مر السنين منذ أن تعرف العلم الأوروبى على المؤلف . وفى العصور المتأخرة استعمل فى اللغة العربية لفظ خردادى لتسمية نوع من البلور الجبلى والأوانى المصنوعة منه[٤] . وكان والد المؤلف حاكمًا على طبرستان جنوبى بحر
148 قزوين/فى أوائل القرن التاسع وذاع صيته بسبب التوفيق الذى أحرزه فى إخضاع بعض مناطق

---

(١) Kramers EI, EB, p. 65 —Brockelmann, GAL, SBL, p. 404 etc No 2-

(٢) قارن : « هبة الشمس الجميلة » Barbier de Meynard, Livre des routes, p. 9, note I-

(٣) توضيح فريمان A. A. Freimann

(٤) أخطأ متز Mez فى قوله إن ابن خرداذبه معناه « الكوب » Mez, Renaiss., p. 264
راجع توضيح زكى محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، ص ٤٤ ، الحاشية ٢ ، ص ٤٥ .

الديلم التى لم تدخل ضمن أراضى الخلافة الإسلامية إلى زمانه . أما المؤلف فقد حصل على تعليم جيد وكان لوالده فضل كبير فى دراسته الموسيقى فتتلمذ ردحًا من الزمن على المغنى والموسيقى المشهور إسحق الموصلى(٥) ؛ غير أن مكانة أسرته حددت مستقبله بصورة جازمة فأصبح مقربًا من بلاط الخليفة المعتمد (٢٥٦ هـ - ٢٧٩ هـ = ٨٧٠ - ٨٩٢) بسامرا ومن ندمائه أصحاب النفوذ . وجميع مؤلفاته البالغ عددها عشرة معروفة لنا من أسمائها فقط(٦) ومن المقتطفات لدى المؤلفين المتأخرين أو الإشارات إليها فى المراجع المختلفة . وجميعها على وجه التقريب تدور فى محيط الأدب الخفيف والحياة المرحة ، وقد يلاحظ فى بعضها وجود اتجاهات شعوبية إيرانية كما فى كتابه « جمهرة أنساب الفرس » ؛ وبعضها يستهدف إمتاع الكبراء والأغنياء مثل « كتاب الشراب » و« كتاب الطبيخ » ، وقد كشف أخيرًا عن مخطوطة واحد منها هو كتاب « الملاهى والأسمار » ، وذلك ضمن مجموعة شخصية(٧) . وله فضلا عن ذلك كتاب فى « التاريخ » يعالج فيه كما ذكر المسعودى(٨) تاريخ الأمم قبل الإسلام ؛ وكما هو الشأن مع كل أديب فى ذلك العصر فإن ثبت مؤلفاته لم يخل من « كتاب الأنواء » ، وقد وقفنا عنده فيما مر بنا من القول .

ويبدو أن مكانته فى البلاط قد هيأت له شغل وظيفة هامة هى وظيفة صاحب البريد بنواحى الجبال بإيران ؛ ومن المحتمل أن هذا الوضع هو الذى دفعه إلى تأليف كتاب جغرافى استجابة لطلب أحد العباسيين . ولا نعرف على وجه التحديد التاريخ الذى شغل فيه ابن خرداذبه هذا المركز ، ولكن يبدو أن تأليف الكتاب قد استغرق وقتًا طويلا ؛ ويرى دى خويه أن المسودة الأولى ترتفع إلى حوالى عام ٢٣٢ هـ = ٨٤٦ ، أما الثانية فلا تتجاوز بحال عام ٢٧٢ هـ = ٨٨٥ . ولا تزال المسألة إلى أيامنا هذه باقية دون حل نهائى ، فبعض العلماء لا يزال يعتقد أنه ليست هناك سوى مسودة واحدة تعود إلى التاريخ الأخير(٩) رغمًا من أن الأغلبية ترى رأى دى خويه(١٠) . وهذا الأخير يعتقد أن كلا المسودتين لم تصلا إلينا وأن الطبعة الحالية تمثل موجزًا متأخرًا وجد فى

---

(٥) عن ابن خرداذبه كموسيقى ، راجع : Farmer, p. 169-170 and sui

(٦) الفهرست ، ص ١٤٩

(٧) حبيب الزيات ، Les Couvents ، ص ٣٧٨ ، **حاشية ٢**

(٨) المسعودى ، المروج ، الجزء الأول ، ص ١٣ ؛ الثانى ، ص ٢٧

(٩) -Markwart, Streifzüge, p. 390

(١٠) حدود العالم ، ص ١٠

مخطوطتين فقط . كذلك لسنا على يقين من عام وفاة ابن خرداذبه ، وإذا كان صحيحًا ما أورده حاجى خليفة ، معتمدًا فى ذلك على مصدر غير معروف لنا ، من أنه توفى حوالى عام ٣٠٠ هـ = ٩١٢[١١] فإن ابن خرداذبه يكون بذلك قد عاش عمراً طويلا لأنه ولد على ما يظهر حوالى ٢٠٥ هـ = ٨٢٠.

أما قيمة كتابه « المسالك والممالك » فيمكن الحكم عليها من الاستشهادات التى سقناها فيما مر من الكتاب ؛ وستظهر محاسنه وعيوبه من خلال العرض العام لمحتوياته[١٢] . وهو يبدأ
وفقًا للتقليد المعروف بالمعلومات المعهودة/من محيط الجغرافيا الرياضية خاصة وصف شكل 149
الأرض كما لدى بطلميوس[١٣] ؛ وقد بينا فيما سبق من الكلام كيف يجب أن نقف من ترجمة بطلميوس التى نقل عنها ابن خرداذبه . وبعد فصل قصير عن اتجاه القبلة بالنسبة لكل بلد يكرس المؤلف قسما كبيرًا للكلام على سواد العراق فيذكر تقسيمه الإدارى وأنواع الضرائب التى تجبى منه ، مع إيراد ملاحظات عن تاريخها هنا وفى مواضع أخرى من الكتاب ؛ ويمكن على ضوء هذه التفاصيل وضع ميزانية الدولة الإسلامية لذلك العهد ، وأول من فعل ذلك المستشرق كريمر Kremer[١٤] . ويختتم ابن خرداذبه هذا القسم بتعداد الملوك القدماء من لدن افريدون معتمدًا فى ذلك على المصادر الفارسية فيذكر ملوك الفرس والروم والترك والصين ويذكر أحيانًا ألقابهم التى يلاحظ من بينها « ملك الصقالب قناز » *[١٥] .

أما القسم الرئيس من الكتاب فيشمل وصف الطرق ، وذلك بدرجات تتفاوت فى التفصيل . فيبدأ بالطرق التى تخرج من بغداد شمالا إلى آسيا الوسطى وجنوبًا إلى الهند ، ويصحب ذلك ملاحظات عابرة عن التقسيم الإدارى والخراج مع استشهادات شعرية عند الكلام على المواضع أحياناً. ويمتاز بحيوية أكثر وصفه الطريق البحرى إلى الهند والصين حيث يبدو واضحًا تأثير « القصص البحرية » التى مر الكلام عليها . وفى خلال هذا الوصف يبدو واضحًا اهتمامه بمحصولات البحار والجزر ، كما يذكر بالتفصيل كيفية الحصول على الكافور

---

(١١) حاجى خليفة ، الجزء الثانى ، ص ١٠١ ، رقم ٢٠٨٦

(١٢) Ruska, GZ, p. 524-528-

(١٣) Blachère, p. 22-24; يقتطف منها : Kimble p. 50-51-

(١٤) Kremer, Culturgeschichte, I, p. 268-269-

* بالروسية Kniaz أى الملك والأمير ؛ ومن المحتمل أن الصقالبة قد أخذوها عن الجرمان . (المترجم)

(١٥) راجع : Krymski, Narisi, p. 131

ويصف الفيل ووحيد القرن ويتحدث عن البوذية لدى ملك جاوه وعن الطبقات (castes) فى الهند[١٦]. أما فيما يتعلق بالغرب فإنه يصف الطريق إلى الأندلس، ويسهب فى وصف الطرق المؤدية إلى بيزنطه مع إيراد تفاصيل ترجع إلى مسلم الجرمى كما بينّا فى حينه. أما وصفه المسهب لرومه والذى قام بدراسته المستشرق جويدى Guidi فيرتبط بالمصادر المسيحية الشرقية وليست له أهمية تذكر، شأنه فى هذا شأن جميع أوصاف رومه التى تركها لنا الجغرافيون العرب قبل الإدريسى[١٧]. ويصف طريق الشمال خلال أذربيجان والقوقاز كما يصف الطرق الخارجة من بغداد فى اتجاه الجنوب الشرقى إلى مكة والمدينة وجنوبى الجزيرة العربية، فيذكر المنازل من البصرة وبغداد ومصر إلى مكة. ويختتم هذا القسم بالكلام على طريقين مهمين للغاية كان يسلكهما التجار اليهود من أوروبا إلى الهند والصين، أحدهما يمر بالسويس والبحر الأحمر، والآخر يمر بأنطاكية إلى الفرات. وليس أقل أهمية من ذلك وصفه لطريق التجار الروس إلى الجنوب وهو الذى يمر بنهرى الدون والفُلجا ثم يعبر بحر قزوين متجهًا صوب الجنوب[١٨]؛ وهو يحمل على الاعتقاد بأنه مدخول على الكتاب ولكن يبدو أنه قد وجد فى المسودة الأصلية[١٩] ومنها وقع لابن الفقيه الذى يختلف مع متن ابن خرداذبه فى شىء بسيط هو أنه يتحدث عن تجار الصقالبة/وليس الروس[٢٠]. 150
وقد أدى هذا الموضوع إلى ظهور بحوث عديدة[٢١] وله ترجمة علمية باللغة الروسية[٢٢].

ولم يقتصر كتاب ابن خرداذبه على وصف الطرق بل أتْبَع ذلك أقسامًا عديدة تحمل على الاعتقاد بأنها زيادات متأخرة أضيفت بمرور الزمن، كالحديث مثلا عن تقسيم الأرض الذى يحفل بأخطاء عديدة، وعن عجائب العالم وعن الأبنية المشهورة حيث يورد قصة عن فتح الأهرامات فى عهد ابن طولون. وينضم إلى هذا القسم من كتابه الوصف المعروف لنا لرحلة سلّام الترجمان، ويتلوه حكاية عن العجائب المختلفة والجبال والأنهار. وهنا وعلى حين فجأة تنتهى المخطوطة كأنما بدون خاتمة.

ليس من العسير أن نبصر أن كتاب ابن خرداذبه يقوم على عنصرين متميز أحدهما كل التميز عن الآخر ؛ فمن ناحية يقابلنا عرض جاف للمادة الرسمية ولكنه يمتاز بأهمية كبرى ، ومن ناحية

---

(١٦) -Ferrand, Relations, I, p. 21-23

(١٧) -Florilegium, p. 267-269

(١٨) الترجمة لدى رينو : Reinaud, Introduction, p. LVIII—LIX

(١٩) راجع : Rozen, ZVO, IV, p. 452

(٢٠) -Bartold, SV, I, 1940

(٢١) -De Goeje, Russes-Normands, p. 39-40 —Hennig, II, p. 208-214, 356-360

(٢٢) -Kunik-Rozen, II, p. 128-131

أخرى نلتقى بمجموعة من الغرائب mirabilia الجغرافية المختلفة . ولا تحس من جانب المؤلف أية محاولة لصهر هذه المادة وصبها فى قالب متجانس ، فضلا عن أن الكتاب يفتقر إلى الكثير من ناحية التبويب . وقد كان بمقدور المؤلف بلا شك الاطلاع على الوثائق الرسمية ، أى الأرشيف الحكومى ؛ ويشير إلى هذا المقدسى ، بل المؤلف نفسه عند الكلام على مصادره . وقد كان لاهتمام المؤلف بالرحلات أن حفظت لنا مادة مفيدة خاصة فيما يتعلق بوصف الطرق فى عهود مبكرة ، الأمر الذى سبق الكلام عليه فى فصل آخر . ولا شك أن عدم التناسق فى مادة هذا الكتاب هو المسئول عن التناقض فى حكم الجغرافيين العرب المتأخرين عليه[٢٣] ، غير أن تأثيره على الأدب الجغرافى التالى كان كبيرًا جدًا فأخذ عنه من المؤلفين المتقدمين اليعقوبى وابن الفقيه وابن رسته وابن حوقل والمقدسى والجيهانى والمسعودى وذلك عن مخطوطة ثالثة هى أفضل المخطوطات جميعًا[٢٤] . كما أن العناية به ظلت قوية حتى بين المتأخرين فعرفه الإدريسى وابن خلدون كما عرفه جيدًا الجغرافيون الفرس ، سواء المتقدمون منهم مثل المؤلف المجهول لكتاب « حدود العالم » أو المتأخرون مثل حمد الله قزوينى وميرخواند وخواندمير . ولم يكن باستطاعة ابن خرداذبه أن يؤسس مدرسة جديدة ، غير أن المادة التى جمعها كانت بمثابة الأساس المتين بالنسبة لكثيرين . وقد عرف كتابه فى الدوائر العلمية الأوروبية فى مخطوطتين منذ الستينيات من القرن الماضى وأصبح فى متناول الأيدى بفضل الطبعة العلمية التى استخدم فى إخراجها مخطوطة ثالثة أفضل من المخطوطتين الأوليين وظهرت مع ترجمة فرنسية لدى خويه De Goeje فى عام ١٨٨٩ . وقد اجتذب اهتمام العلماء الروس بصورة خاصة وصفه للطرق التى كان يسلكها الروس، فظهرت فى السبعينيات من القرن الماضى[٢٥] بحوث هامة فى هذا للمستشرقين
كونيك Kunik وروزن Rosen ، كما ندين بتحليل عام للكتاب للمؤرخ الكبير بارتولد[٢٦] . 151

وإلى طبقة موظفى الدولة ينتمى معاصر لابن خرداذبه هو الجغرافى والمؤرخ اليعقوبى ، واسمه الكامل أبو العباس أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسى اليعقوبى ؛ ويرد اسمه فى المصادر بصيغ مختلفة من هذا النسب الطويل فهو مرة أحمد الكاتب وأخرى أحمد بن يعقوب وتارة ابن واضح وطورًا اليعقوبى ؛ وجده الأعلى واضح كان من موالى الخليفة المنصور وشغل يومًا وظيفة الحاكم على أرمينيا ومصر ودفع حياته ثمنًا لميوله الشيعية ؛ وقد ظلت هذه الميول

---

(٢٣) جمعها دى خويه (De Goeje, BGA, VI, p. XII-XIII)

(٢٤) راجع عنها : Rozen, ZVO, I, 1886, p. 225-226

(٢٥) راجع : -Kunik-Rozen, II, p. 119-138

(٢٦) حدود العالم ، ص ٩ – ١١

الشيعية فى الأسرة إلى عهد مؤلفنا . وكان جده ووالده أيضًا من كبار عمال البريد ، ولا يعرف على وجه التحديد ما إذا شغل اليعقوبى نفسه بعض المناصب الحكومية ولكن يمكن افتراض هذا من أسفاره العديدة . وعلى الرغم من أن مولده ببغداد إلا أنه غادرها مبكرًا فعاش طويلا بأرمينيا وخراسان وزار الهند وفلسطين وتمتع برعاية الطولونيين أثناء مقامه الطويل بمصر والمغرب . وكتابه فى الجغرافيا بعنوان « كتاب البلدان » معروف إلى يومنا هذا فى مخطوطة فريدة كان قد جلبها من المشرق مخلينسكى A. Mukhlinski (١٨٠٨ – ١٨٧٧)(٢٧) الأستاذ بجامعة بطرسبرغ ، وهى الآن بميونيخ . وثمة مخطوطة أخرى كان يمتلكها المستشرق ف . كرن F.Kern(١٨٧٤ – ١٩٢١) ودخلت منذ عهد غير بعيد إلى المكتبة الملكية البروسية(٢٨) ولكنها لما تدرس حتى الآن(٢٩) . ويرجع تأليف الكتاب إلى حوالى سنة ٢٧٨ هـ = ٨٩١ أى قبل قليل من وفاة المؤلف على ما يظهر التى حدثت عام ٢٨٤ هـ = ٨٩٧ أو عام ٢٩٢ هـ = ٩٠٥(٣٠) .

وقد بدأت ميول اليعقوبى تتكيف منذ عهد مبكر ولم تلبث أن اتخذت اتجاهًا واضحًا نحو الجغرافيا بالذات ، وهو يبين هذا بجلاء فى مقدمة كتابه حيث يقول :

« إنى عنيت فى عنفوان شبابى وعند احتيال سنى وحدة ذهنى بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد لأنى سافرت حديث السن واتصلت أسفارى ودام تغربى فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره فإذا ذكر لى محل داره وموضع قراره سألته عن بلده ذلك فى ... بلدته ماهى وزرعه ماهو وساكنيه من هم من عرب أو عجم ... شرب أهله حتى أسأل عن لباسهم ... ودياناتهم ومقالاتهم والغالبين عليه والمنزا ...(٣١) مسافة ذلك البلد وما يقرب منه
152 من البلدان والـ ... لرواحل ثم أثبتُ كل ما يخبرنى به/مَن أثق بصدقه واستظهر بمسئلة قوم بعد قوم حتى سألتُ خلقًا كثيرًا وعالمًا من الناس فى الموسم وغير الموسم من أهل المشرق والمغرب وكتبتُ أخبارهم ورويت أحاديثهم وذكرتُ من فتح بلدًا بلدًا وجند مصرًا مصرًا من الخلفاء والأمراء ومبلغ

---

(٢٧) راجع عنه : Kotwicz i Kotwiczowna, Coll. Orient, No 8

(٢٨) Brockelmann, GAL, SBI, p. 405, No 3-

(٢٩) فى آخر زياة له لألمانيا نقل عنها المستشرق الروسى بارتولد شذرات محفوظة الآن فى أوراقه بأرشيف أكاديمية العلوم السوفيتية .

(٣٠) Brockelmann, GAL, SBI, p. 405 No 3-

(٣١) النقاط المتتابعة تشير إلى طمس فى المخطوطة .

خراجه وما يرتفع من أمواله فلم أزل أكتب هذه الأخبار وأؤلف هذا الكتاب دهرًا طويلا وأضيف كل خبر إلى بلده وكل ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدمتْ عندى معرفته وعلمت أنه لا يحيط المخلوق بالغاية ولا يبلغ البشر النهاية وليست شريعة لابد من تمامها ولا دين لا يكمل إلا بالإحاطة به وقد يقول أهل العلم فى علم أهل الدين الذى هو الفقه مختصر كتاب فلان الفقيه ويقول أهل الآداب فى كتب الآداب مثل اللغة والنحو والمغازى والأخبار والسير مختصر كتاب كذا فجعلنا هذا الكتاب مختصرًا لأخبار البلدان فإن وقف أحد من أخبار بلد مما ذكرنا على ما لَم نضمنه كتابنا هذا فلم نقصد أن يحيط بكل شيء وقد قال الحكيم ليس طلبى للعلم طمعًا فى بلوغ قاصيته واستيلاء على نهايته ولكن معرفة مالم يسع جهلهُ ولا يحسن بالعاقل خلافه وقد ذكرت أسماء الأمصار والأجناد والكور وما فى كل مصر من المدن والأقاليم والطساسيج ومَنْ يسكنه ويغلب عليه ويترأس فيه من قبائل العرب وأجناس العجم ومسافة ما بين البلد والبلد والمصر والمصر ومن فتحه من قادة جيوش الإسلام وتأريخ ذلك فى سنته وأوقاته ومبلغ خراجه وسهله وجبله وبره وبحره وهواءه فى شدة حره وبرده ومياهه وشربه »[٣٢] .

هذا وقد وفى اليعقوبى بوعده فخرج الكتاب وفقًا لمقاله ، إذ التزم فيه المؤلف بدقة الخطة التى وضعها فى تبويب مادته . غير أن العرض العام يخرج من حد التناسق بعض الشيء فقد أسهب المؤلف فى وصف بغداد وسامرا بحيث أخذ ذلك ربع الكتاب تقريبًا . وبعد الفراغ من وصفهما يستمر فى قوله :

« وقد ذكرنا بغداد وسرّ من رأى وبدأنا بهما لأنهما مدينتا الملك ودار الخلافة ووصفنا ابتداء أمر كل واحدة منهما فلنذكر الآن سائر البلدان والمسافات فيما بين كل بلد وبلد ومدينة ومدينة على قسم أربعة حسب ما تقسم عليه أقطار الأرض بين المشرق والمغرب ومهب الجنوب وهو القبلة وهو مطلع سهيل الذى يسميه الحُسّاب التّيْمَن ومهب الشمال وهو كرسىّ بنات نعش الذى يسميه الحساب الجدى ونصفُ كل بلد إلى الربع الذى هو منه والذى يتصل به وبالله التوفيق »[٣٣] .

وقد التزم المؤلف فى جميع كتابه هذا المنهج فى الوصف أى حسب الجهات الأصلية الأربعة ، فالقطاع الأول شمل الكلام على إيران وتركستان وأفغانستان مع فصول مفردة/لحكام خراسان 153
وسجستان ؛ والثانى يشمل غربى العراق وغربى وجنوبى الجزيرة العربية ؛ والثالث يشمل العراق

---

(٣٢) اليعقوبى ، BGA, VII ، ص ٢٣٢ — ٢٣٣ (قارن : Blachére, p. 117-118)
الترجمة لدى : Wiet, Jakubi, 1-3 (قارن : Mez, p. 265)

(٣٣) اليعقوبى : BGA, VII ص ٢٦٨ — ٢٦٩ = Wiet, p. 64

الجنوبية والشرقية وشرقى الجزيرة العربية والهند والصين ؛ أما الرابع فبيزنطة والشام ومصر والنوبة وشمالى افريقيا . والقسمان الثالث والرابع من الكتاب مفقودان فى المخطوطة ؛ وثمة عشر صفحات من المخطوطة عبثت بها يد البلى بصورة ضاعت معها خاتمة وصفه للبصرة ووصفه لبلاد العرب الشرقية وخوزستان وفارس والهند وجميع الشمال وبداية الغرب[٣٤] .

ومن المستحيل إنكار النزعة التجديدية فى هذا التقسيم على أساس الولايات ؛ أما طرق المواصلات فقد نالت اهتمامًا كافيًا على الرغم من أن المراحل لم تضبط بالدقة التى التزمها ابن خرداذبه . واهتمام اليعقوبى يتجه بالذات إلى الجانب الاحصائى الطوبوغرافى ، وهو يولى عناية كبرى للخراج ؛ ولكن كتابه يحفل أيضًا بمسائل الاثنوغرافيا والصناعة والفنون . وقد اعترف عدد من الباحثين بأمانة اليعقوبى العلمية وتفرده بمعلومات وافية ليست فى المصادر الأخرى . ويمثل وصفه للخطط التاريخية لبغداد وسامرا أهمية منقطعة النظير ، كما يجب ملاحظة أنه ترك وصفًا لافريقيا قبل انفصالها مباشرة عن بقية أراضى الخلافة على يد الفاطميين وأنه أورد أخبارًا قيمة عن الأندلس من بينها خبر غارة النورمان عليها فى سنة ٨٤٤ حيث ترد فى صدد ذلك عبارته التى اشتهرت بالتالى وهى « الذين يقال لهم الروس » ، مما أدى إلى اشتهار اسم اليعقوبى فى الدوائر العلمية وظهور عدد من البحوث حول هذا . وأول من لفت الأنظار إلى ذلك فرين فى عام ١٨٣٨[٣٥] اعتمادًا على المخطوطة التى اكتشفها مخلينسكى قبل ذلك بقليل ؛ وقد جمع فرين بما عهد فيه من الدقة كل ما استطاع جمعه عن المؤلف وكتابه ؛ وفى العام نفسه بيّن سنكوفسكى Senkovski لجمهرة القراء أهمية الاكتشاف الذى قام به فرين وذلك فى مقال له بعنوان « أصل الروس » O Proiskhojdenii Russov[٣٦] . وبعد عشرة أعوام من هذا تمكن رينو استنادًا على بحث فرين من تعريف الدوائر العلمية العريضة فى أوروبا بشخصية المؤلف وذلك فى مقدمته المشهورة فى الجغرافيا العربية[٣٧] . وقد أصبح المتن فى متناول الأيدى بفضل الطبعات الجزئية والترجمة بقلم دى خويه (١٨٦٠) وينبول Juynboll (١٨٦١) وتلا هذا أن ضمنه هركبى

---

(٣٤) شرحه ، ص ٣٢٣ ، حاشية د.

(٣٥) -Frähn, Beleg, p. 131-147

(٣٦) -Senkovski, Sobr. Soch., VI, p. 149-168
(= Bibl dlia, Ch, XXIX, 1838, p. 45-58)

(٣٧) -Reinaud, Introduction, p. LXI

Harkavi فى عرضه العام (١٨٧٠)[٣٨] ورجع إليه كونيك مرة أخرى فى مقال واف عالج فيه مسألة ذكره للروس[٣٩] . ولم تلبث أن ظهرت طبعة جديدة للكتاب بواسطة دى خويه (١٨٩٢)، وتم تتويج كل هذا بظهور ترجمة نموذجية للكتاب بقلم ڤييت G. Wiet (١٩٣٧) تحتوى على تعليقات وافية .

أما من الناحية الأدبية فإن كتاب اليعقوبى يمتاز على كتاب ابن خرداذبه بصورة قاطعة رغمًا من
أنه قصد به الوسط نفسه من القراء الذين كتب من أجلهم ابن خرداذبه ./وهو قليلا ما يكترث 159
للنظرية الجغرافية بل هدفه إعطاء لوحة عامة للبلدان لمن يريدون الإلمام السريع بها . وقراؤه ، باستثناء المطلعين والراغبين فى المعرفة ، هم على مايبدو عمال الدولة العديدون الذين كانو يبتغون تعريف أنفسهم ببلد أو آخر قبل الذهاب إليه . وهو ليس بعرض جاف للطرق على طراز ابن خرداذبه بل يقرب أكثر من النمط المتأخر « لكتاب المسالك والممالك » كما عرفته المدرسة الكلاسيكية فى القرن العاشر ، أضف إلى هذا أن أسلوبه علمى مبسط وسهل المأخذ . ويحس فى الكتاب نزعة المؤلف إلى التحليل العقلى ، ولا عجب فهو يخلو من أى أثر للعجائب mirabilia التى افتتن بها المؤلفون الآخرون .

وقل أن تقابلنا اقتباسات أو نقول من كتاب اليعقوبى لدى المؤلفين المتأخرين ، غير أن القليل الذى وجد منها يرجع إلى أسماء معروفة فى ميدان الجغرافيا مثل الإدريسى وياقوت وأبى الفداء ، ويعتبره الأخير مصدرًا مهماً يمكن الوثوق به . وبخلاف مصنفه الجغرافى هذا فقد وصلنا عن اليعقوبى أيضًا كتاب فى التاريخ هو « تاريخ اليعقوبى » فى جزأين ، وهو مصنف له مكانته فى ميدان التاريخ أضف إلى هذا أنه يحفل بالمادة الجغرافية أو على الأصح الاثنوغرافية . وعلى أية حال فوفقًا لما جاء فى المقدمة التى سقنا شذرة منها فيما سبق من الكلام فإن اليعقوبى يعتبر نفسه جغرافيًا قبل كل شىء . هذا وقد كان مجال نشاطه الأدبى من السعة بحيث لم يكن غريبًا عليه قرض الشعر ، وتنسب إليه فى هذا الصدد أبيات قالها حين زيارته للطولونيين بمصر[٤٠] .

وعلى النقيض من اليعقوبى فإنه يغلب عند البلاذرى جانب التاريخ على جانب الجغرافيا ، بل إنه يحتل مكانة مرموقة فى الميدان الأول لمحاولته تطبيق المنهج البراغمى (pragmatic) فيه ؛ ويمكن

---

(٣٨) -Garkavi, Skazania, p. 59-71

(٣٩) -Kunik-Rozen, II, p. 151-174

(٤٠) راجع مسألة صحة نسبتها إليه ، مع تحليل المتبقى منها لدى :
Z. M. Hassan, Les Tulunides, p. 271-273

اعتباره ليس جامعًا فحسب بل ومؤرخًا بمعنى الكلمة . وقد حفظ لنا البلاذرى مادة هامة فى محيط الجغرافيا التاريخية يستحيل معها إغفال ذكر صاحبها فى عرض للأدب الجغرافى . وكان البلاذرى مقرّباً أيضاً من بلاط الخلفاء كمعاصِرَيْه اللذين مر ذكرهما قبل قليل، ولكن لا فى مرتبة عامل الدولة الكبير بل فى مرتبة أكثر تواضعاً وهى التدريس ؛ وكان من تلامذته الشاعر والأديب الذى استخلف «ليوم واحد» عبد الله بن المعتز . ويجب أن نطرح القصة التى تحيط بأصل لقبه وهو أنه سمى بذلك لأنه كان يفرط فى أكل البلاذر حتى مات من جراء ذلك، إذ ليس مألوفاً لدى العرب إضافة النسبة عقب وفاة صاحبها، فضلا عن أن جده قبله كان يحمل هذا اللقب(٤١) .

ويهمنا من الناحية الجغرافية مصنفه الأصغر « كتاب فتوح البلدان » وهو أشبه بتاريخ للفترة
156 الأولى للفتوحات الإسلامية، ويمثل للأسف موجزاً لمسودة أوسع . أما مضمونه فيشمل قصة كفاح محمد ضد أعدائه بعد هجرته إلى المدينة، وحرب الردة، وفتح الشام والجزيرة وأرمينيا ومصر والمغرب والعراق ، وفارس ، مع ذكر بعض الحوادث التالية لذلك . وتتركز قيمة الكتاب فى أنه لا يمثل تاريخًا عسكريًا جافًا ؛ بل إن البلاذرى يورد بكل دقة الأخبار المحلية عن السكان والهجرات والأبنية الشهيرة . وهو يقدم لنا تفاصيل عديدة فى مجال التاريخ الحضارى كمسألة دخول اللغة العربية الدواوين ، وعن الخراج ، وعن مسائل السكة ، وتاريخ الكتابة العربية . وقليلا مايشير البلاذرى إلى مصادر مكتوبة ، ولعل هذا يفسر وجود عدد من الأخطاء التاريخية فى صلب الكتاب . ولا يخلو من أهمية بالنسبة لنا فى الاتحاد السوفيتى المادة التى يوردها عن أذربيجان وأرمينيا والتى ترجمت إلى الروسية . وفى الأعوام الأخيرة أخذ يتحقق مشروع إصدار طبعة علمية لكتابه الكبير فى التاريخ الذى انتظرت الدوائر العلمية طويلا صدوره ، وهو ذو قيمة كبرى فى ميدان التاريخ الإسلامى ولكنه يختلف فى تبويبه عن بقية المؤلفين * .

وقرب نهاية القرن التاسع كانت أنماط الأدب الجغرافى تقف متنوعة فى صورها ، فإلى جانب المصنفات التى وضعت من أجل الإداريين وعمال الدواوين نلتقى بكتاب جامع على منهج مؤلفات الجاحظ قصد به إمتاع المثقفين ذلكم هو « كتاب البلدان » لابن الفقيه الهمدانى الذى تم تأليفه حوالى عام ٢٩٠ هـ = ٩٠٣ . ولا نعلم عن المؤلف شيئًا ما ، وكل ما استطاع أن يذكره

---

(٤١) Brockelmann, GAL SBI, p. 216, No 3-

* يعنى المؤلف بذلك « أنساب الأشراف » وقد أخرجت دار المعارف بالقاهرة الجزء الأول منه ، ونرجو أن يحالفهم التوفيق فى إخراج بقية أجزاء هذا السفر الهام . (المترجم)

عنه صاحب « الفهرست » فى نهاية القرن العاشر أنه كان من أهل الأدب وأن اسمه أحمد[٤٢] ؛ وأغلب الظن أنه من مدينة همدان Hamadan بإيران وكان خبيرًا بالرواية والأدب وله كتاب آخر عن الشعراء معروف من عنوانه فقط . ومؤلفه الجغرافى كان فى الأصل ضخم الحجم يشتمل على خمسة أجزاء فى حوالى ألفى صفحة على ما يقال ، ولكنه معروف فقط فى مختصره الذى عمله على الشيزرى فى عام ٤١٣ هـ = ١٠٢٢ ، أى بعد حوالى مائة عام من تاريخ تأليفه .

وينقل ياقوت عن المسودة الأصلية شذرات كبيرة ؛ أما المقدسى فيقف من الكتاب موقف الحذر حين يقول :

« ورأيت كتابًا صنفه ابن الفقيه الهمدانى فى خمس مجلدات سلك طريقة أخرى ولم يذكر غير المدائن العظمى وأدخل فيه فنونًا من العلوم مرة يزهد فى الدنيا ودفعة يرغب فيها ووقتًا يبكى وساعة يضحك ويلهو وأما كتاب الأمصار للجاحظ فصغير وكتاب ابن الفقيه فى معناه غير أنه أكثر حشوًا وحكايات واحتجًا بأنّا إنما أدخلنا خلال كتبنا ما أدخلنا ليتفرّج فيها الناظر إذا ملّ وربما كنت أنظر فى كتاب/ابن الفقيه فأقع فى حكايات وفنون من البلدان ولم استحسن أنا هذا »[٤٣] . 158

والحق إلى جانب المقدسى ، إذ أن ارتباط أسلوب ابن الفقيه بأسلوب الجاحظ أمر غير مشكوك فيه وغلبة هذا الأسلوب لديه شيء واضح للجميع ؛ وليس كتابه إذا حكمنا من مختصره مصنفًا جغرافيًا بالمعنى الدقيق للكلمة بل مجموعة أدبية عن بلاد العالم الإسلامى تزخر بكمية كبيرة من الشعر والقصص . وهو عبارة عن نخبة مختارة من الطرائف الأدبية من أجل القارىء العام لا تمس الجغرافيا أو الأسماء الجغرافية إلا من بعيد . وبعض الأمثلة التى سقناها فيما مضى تصوّر بما فيه الكفاية ذوق ابن الفقيه الأدبى . ومصادر ابن الفقيه متنوعة بشكل كبير فجميع المؤلفين الذين مر ذكرهم على وجه التقريب وجدوا مكانًا فى مصنفه وأحيانًا فى مقتطفات كبيرة كالجاحظ[٤٤] وابن خرداذبه والتاجر سليمان[٤٥] والبلاذرى وربما الجيهانى أيضًا[٤٦] . والمقدسى

---

(٤٢) الفهرست ، ص ١٥٤

(٤٣) المقدسى ، BGA, III ، ص ٥ – الاختلاف فى المخطوطات لا يؤثر فى الفكرة الأساسية .

(٤٤) الجاحظ ، ص ٢٩٦ ، راجع : Van Vloten, Naturphilosoph, p. 43, note 4

(٤٥) -Ferrand, Relations I, p. 3-5

وخاصة : Ferrand, Note, p. 309, and 318

(٤٦) يرفض دى خويه (De Goeje, BGA, V, p XI) هذه الفكرة على عكس « الفهرست » (ص ١٥٤) .

محق أيضًا من ناحية أخرى وهى اتهامه لابن الفقيه بالافتقار إلى خطة يسير عليها فى مؤلفه ، ويكفى لإثبات هذا أن نورد عناوين الفصول ورؤوس الموضوعات التى يعالجها فى القسم الأول من كتابه : فى خلق الأرض والبحار المحيطة بها وما فيها من العجائب ، الفرق بين الصين والهند ، مكة والكعبة ، الطائف ، المدينة ومسجدها ، فرق ما بين تهامة ونجد ؛ اليمامة والبحرين ، اليمن ، انقلاب الهزل إلى جد والجد إلى هزل ، فى مدح التجوال ، مصر والنيل ، البلاد الواقعة إلى جنوبها (النوبة والحبش والبجة) ، المغرب ، المقدس ، دمشق ، العراق ، الروم ، مدح الآثار المشهورة وذمها ، الكوفة وقلعة الخورنق (مع مجموعة من الملاحظات التاريخية والاستشهادات) ، البصرة ، فارس ، أذربيجان ، أرمينيا إلخ . ولإعطاء فكرة عن ميله إلى الحشو والاستطراد الذى أشار إليه المقدسى من قبل نذكر أنه عند الكلام على عين ماء قرب همدان وقع ابن الفقيه فى ثلاثة استطرادات مختلفة أحدها عن الماء مع مدح الماء العذب والثانى محاورة بين منتصر للعراق وممجد لهمدان ومنقص من شأنهما والثالث فى حب الأوطان . ويسوق الاستطراد الأخير إلى الاعتقاد بأن ابن الفقيه أصله من همدان .

ومنذ حوالى خمسة عشر عامًا اكتشفت بمدينة مشهد مخطوطة تحوى الجزء الثانى من المسودة الكبرى لكتاب ابن الفقيه ويبدأ على وجه التقريب بالكوفة . ولعل الدراسة والفحص الدقيق قد
159 يسفران عن تفاصيل مهمة فيه ، غير أن الفكرة العامة عن مصنفه ستظل فى الغالب على ما كانت عليه دون تبديل . وإذا كان كتاب ابن الفقيه لايرقى إلى مصاف عدد من مؤلفات معاصريه فى ميدان الجغرافيا إلا أنه من وجهة نظر تاريخ الحضارة يقف أحيانا على مستوى أعلى إذ يقدم لنا لوحة معبرة للنزعات والاتجاهات الأدبية للمجتمع العربى المثقف فى نهاية القرن التاسع(٤٧) . وابن الفقيه غير مجهول للمستشرقين الروس فهو إلى جانب ما يورده من معلومات عن تركستان والقوقاز(٤٨) يصف طريق سير التجار اليهود والروس ، وقد نقل ذلك عن ابن خرداذبه . وهو موضوع دفع إلى ظهور عدد من البحوث من بينها بحث خاص لكونيك **Kunik**(٤٩) ؛ ومن الممكن أن تلقى مخطوطة مشهد ضوءًا على بعض جوانب هذه المسألة .

ومعروف بصورة أفضل من هذه للمؤرخين الروس الجغرافى الفارسى أبو على بن رسته الذى كتب بعد عشر سنوات من ابن الفقيه وذلك بين عامى ٢٩٠ هـ = ٩٠٣ و ٣٠٠ هـ = ٩١٣ .

---

(٤٧) راجع : Sprenger, Reiserouten, p XVII-XVIII

(٤٨) -Karaulov

(٤٩) - **Kunik - Rozen, II, p. 138 - 151**

ويرى ماركڤارت أن تاريخ تأليفه لكتابه يرجع إلى عام ٣١٠ هـ = ٩٢٣ ، ذلك لأنه يعتبر المصدر الأساسى لابن رسته كتاب الجيهانى فى الجغرافيا الذى تم تأليفه بحسب رأى ماركڤارت فى حوالى ذلك الوقت[٥٠] . ومن العسير بالطبع قبول هذا الرأى ، بل إن بارتولد يتشكك فى صحة الزعم القائل بأن ابن رسته قد رجع إلى ابن فضلان فى قصته عن الروس . ويلوح أن الرأى الأكثر قبولًا الآن هو أن الكتاب قد تم تأليفه بعد قليل من عام ٢٩٠ هـ = ٩٠٣[٥١] ، ويندر الآن وجود من يقول بإرجاع زمن تأليفه إلى عام ٩١٣ كما كان سائدًا من قبل[٥٢] . وتستند شهرة ابن رستة لدينا على كتاب خڤولسون Chwolson العتيق (١٨٦٩)[٥٣] الذى أثبت على مدى طويل الصيغة الخاطئة لاسمه وهى ابن دسته ؛ وهذا الكتاب لم يوضح سوى جانب واحد من المادة المتعلقة بوصف الشعوب التى كانت تقطن الاتحاد السوفيتى والأصقاع المتاخمة له . أما المؤلف نفسه فلا نعرف عنه سوى القليل وهو أن أصله من أصفهان وأنه كان بالحجاز على ما يظهر فى عام ٢٩٠ هـ = ٩٠٣ . ولم يتبق لنا من موسوعته الضخمة « الأعلاق النفيسة » سوى الجزء السابع فى الفلك والجغرافيا وهو موجود فى مخطوطة فريدة[٥٤] ؛ ويمكن أن يعتبر ابن رسته أستاذًا للكوزموغرافى القزوينى . وابن رسته يتوخى الحذر فى كتابته كى لا يتهم بحرية الفكر فهو يعتمد على شواهد من القرآن لإثبات التنجيم ، وعرضه للجغرافيا الفلكية والرياضية واف جدًا ويعتمد فى ذلك على
الفرغانى وأبى معشر المعروفين لنا جيدًا ولكنه لا يخلو من تأثير عرض ابن خرداذبه[٥٥] ./أما 160
الجغرافيا الطبيعية لديه فتبدأ بوصف مكة والكعبة مع تحديد الأبعاد بدقة متناهية ولكن وصفه يفتقر إلى الحيوية ؛ ويلى وصف المدينة قسم مكرس لجميع صنوف العجائب من العالمين النباتى والحيوانى وللمبانى الشهيرة ، ثم يعقب هذا وصف البحار والأنهار والأقاليم السبعة بما فيها من المدن المشهورة . وفى وصفه للأقطار يفرد أهمية خاصة لإيران ولكنه لا يهمل الكلام على بلاد العرب الجنوبية ومدينة صنعاء والعراق ومدينة بغداد ومصر . وفيما يتعلق بالقسطنطينية يحدثنا عن موكب الإمبراطور المهيب إلى أيا صوفيا ، ثم يصف الكنيسة نفسها ويتحدث عن الساعة التى بها

---

(٥٠) -Markwart, Streifzüge, p. 26

(٥١) - Bartold, SV, I, 1940

(٥٢) -Hudud, p. 168, وفقاً لمقال : Umniakov, Compendium, p. 1139, note 5

(٥٣) -Khwolson

(٥٤) يضيف بروكلمان مخطوطة بكمبردج، لا علم لنا بها (Brockelmann, GAL, SBI p. 406, No 5)

(٥٥) -Blachère, p. 34-44

والتى تنسب صناعتها إلى بلنياس الطوانى A pollonius of Tyana . وطبيعى أن تختلف قيمة كل قسم من كتابه عن الآخر، ويظفر بأهمية خاصة كلامه عن صنعاء والإمبراطورية البيزنطية والهند الشرقية والصقالبة والشعوب الأورالية الألتائية (Ouralo - Altaic)* ونواحى مدينة أصفهان . كما لا يخلو من الأهمية أيضًا كلامه عن مكة والمدينة ووصفه للأنهار ولنواحى طبرستان ووصف الطرق الوارد فى آخر الكتاب . ويلى هذا استطرادات يحس منها أنها إضافات عارضة ليس هناك ما يربطها على الدوام بالموضوعات الجغرافية[٥٦] .

أما من ناحية العرض والأسلوب فكتاب ابن رسته ينضم إلى ذلك النوع من المؤلفات المفضّلة عند جمهرة القراء والتى قصد بها على ما يظهر كتبة الدواوين ، ولكن يتضح لديه الميل الأدبى أكثر مما لدى ابن خرداذبه . وأحيانًا يقتصر العرض على سرد الأسماء ، ولكن يحس لدى المؤلف الميل إلى القصص فلديه مثلا قصة سلام الترجمان التى أسقطها الناشر لأنها تكرر النص المعروف لدى ابن خرداذبه .

وإذا كان ابن رسته فارسيًا فقد كان قدامة بن جعفر أراميًا فهو ينتمى إلى أسرة مسيحية من عمال الدولة أقامت بالبصرة وكانت مقربة إلى العباسيين ؛ ولم يعتنق قدامة الإسلام إلا بعد إلحاح شديد من جانب الخليفة المكتفى (٢٨٩ هـ — ٢٩٥ هـ= ٩٠٢ — ٩٠٨) ، وكان من جراء ذلك أن انفسح أمامه الطريق إلى المناصب العليا فشغل فى أواخر أيام حياته منصب صاحب البريد . ولم يكن هذا هو الشبه الوحيد الذى يربطه بابن خرداذبه بل إن جميع نشاطه وميوله الأدبية تذكرنا بذلك المؤلف ، فهو قد جمع بين العمل الإدارى والاهتمام بالمسائل الأدبية البحتة وترك لنا بضعة مؤلفات . وفى إحدى هذه المؤلفات يقدم لنا نظرية جريئة فى الشعر على طراز ما فعله ابن المعتز ، ينعكس فيها تأثير الفلسفة اليونانية التى من الجائز أن قدامة كان على معرفة بها وفقًا لتقاليد أسرته . وتاريخ وفاته غير معروف على وجه التحديد ويتأرجح بين عامى **٣١٠ هـ = ٩٢٢ و ٣٣٧ هـ = ٩٤٨**[٥٧]، ومن المحتمل أن يكون وسطاً بين هذين التاريخين.

وليس لقدامة مصنف جغرافى بالمعنى الدقيق بل لديه مدخل من أجل عمال الدولة هو « كتاب الخراج وصنعة/الكتابة » . وليس فى الاستطاعة الحكم عليه ككل ، وقد تم تأليفه على 161

---

* هى المجموعة اللغوية التى تضم الترك والمغول والتنغوس من ناحية ، والمجر والفنيين Finns وغيرهم من ناحية أخرى . ويميل علماء اللغة الآن إلى فصل هذين الفرعين بعضهما عن بعض . (المترجم)

(٥٦) راجع : Nallino, Il Valore (= Nallino, Cosmos, Ser. II. V. XII, p. 58, note 26)

(٥٧) سوء فهم لدى : Brockelmann, GAL, SBI, p. 406, No 8

ما يبدو حوالى عام ٣١٦ هـ = ٩٢٨ م[٥٨] ، وكان يتكون من ثمانية أقسام لم يصلنا منها سوى أربعة فقط تمثل الجزء الثانى من الكتاب ، وقد نشر من بينها الشطر الذى يتعلق بالخراج . أضف إلى هذا أن حالة المخطوطة لا تبعث كثيرًا على الرضى فقد وجدت طريقها إليها من حين لآخر ملاحظات توضيحية أضافها إليها النساخ[٥٩] . والجزء الذى فى متناول الأيدى الآن يذكّر كثيرًا بكتاب ابن خرداذبه فقد انصب اهتمامه الأساسى على وصف طرق البريد والولايات مع إيراد معلومات مهمة عن تقسيم الأراضى وجباية الخراج ؛ كما أن به استطرادًا فى تاريخ الفتوحات الإسلامية يستند على البلاذرى . وترد فى صلب العرض معلومات من محيط الجغرافيا الرياضية وأوصاف الجبال والأنهار والأقاليم السبعة كما يولى اهتمامًا كبيرًا لجيران العالم الإسلامى . وعلى العموم فمن الأفضل اعتبار القسم المطبوع من كتاب قدامة بمثابة تتمة هامة لابن خرداذبه إذ كثيرًا ما يساعد على تحقيق نقاط عديدة فيه لأنه يعتمد فى أغلب الأحوال على الوثائق الرسمية لذلك العهد . وقد وضحت أهميته الكبرى فى هذا المجال من بحوث العلامة اشبرنجر Sprenger (١٨٦٤) .

ومقدمة القسم المطبوع من كتابه تعطى فكرة جلية عن وجهة نظر المؤلف والغاية التى استهدفها والخطة التى سار عليها[٦٠] ، وهى تسمح بتقدير دور البريد فى الدولة العباسية ، وهو الغرض الرئيسى من كتابى ابن خرداذبه وقدامة .

« قال أبو الفرج يحتاج فى البريد إلى ديوان يكون مفردًا به ويكون الكتب المنفذة من جميع النواحى مقصودًا بها صاحبه ليكون هو المنفذ لكل شىء منها إلى الموضع المرسوم بالنفوذ إليه ويتولى عرض كتب أصحاب البريد والأخبار فى جميع النواحى على الخليفة أو عمل جوامع لها ويكون إليه النظر فى أمر الفُروانقيين * والموقعين والمرتبين فى السكك وتنجُّز أرزاقهم وتقليد أصحاب الخرائط فى سائر الأمصار والذى يحتاج إليه فى صاحب هذا الديوان هو أن يكون ثقة إما فى نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر فى وقته لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج معه إلى الكافى المتصفح وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ والرسوم التى يحتاج إليها من أمر الديوان هو ما يقارب الرسوم التى بيناها فى غيره مما يضبط به أعماله وأحواله فأما غير ذلك من أمر الطرق ومواضع السكك

---

(٥٨) -Nallino, Il Valore, p. 56 —Hudud, p. 168

(٥٩) -Hudud, p. 291, note 3

(٦٠) قدامة بن جعفر ، BGA, VI ، ص ١٨٤ – ١٨٥ (المتن) ؛ ص ١٤٤ – ١٤٥ (الترجمة) = Blachère, p. 55 - 57

* من فرانق معرب بروانك الفارسية وهو البريد أو الذى يدل صاحب البريد على الطريق . (المترجم)

162 والمسالك إلى جميع النواحى فإنا لم نذكره ولا غنى بصاحب هذا الديوان/أن يكون معه منه ما لا يحتاج فى الرجوع فيه إلى غيره وما إن سأله عنه الخليفة وقت الحاجة إلى شخوصه وإنفاذ جيش يهمه أمره وغير ذلك مما تدعو الضرورة إلى علم الطرق بسببه وجد عتيدًا عنده ومضبوطًا قِبَله ولم يحتج إلى تكلف عمله والمسئلة عنه فينبغى أن نكون الآن نأخذ فى ذكر ذلك وتعديده بأسماء المواضع وذكر المنازل وعدد الأميال والفراسخ وغيره من وصف حال المنزل فى مائه وخشونته وسهولته أو عمارته أو ما سوى ذلك من حاله ونبدأ بالطريق المأخوذ فيه من مدينة السلام إلى مكة وهو المنسك العظيم وبيت الله الأقدم ونأخذ بعد البلوغ إليه بذكر ما بعده من الطريق إلى اليمن ثم فى سائر الجهات المقاربة له وتسميته إن شاء الله » .

فى هذه المقدمة نبصر مرة أخرى كيف استحثت المطالب الدنيوية على تأليف الأوصاف الجغرافية التى انضمت إلى الجغرافيا الفلكية لتقدم لنا عرضًا عامًا شاملا مترابط الحلقات ابتداء من القرن التاسع .

وإلى جانب هذه المصنفات الجغرافية العامة فقد أسهم القرن التاسع فى تدعيم الأشكال المختلفة للجغرافيا الإقليمية المحلية ؛ وهذه الأخيرة لم يكن فى طوقها أن تدعى حق الانضواء تحت ما يمكن أن يعتبر عرضًا عامًا للأدب الجغرافى إذ كثيرًا ما طغت فيها المادة التاريخية ، أو الأسطورية بتعبير أدق ، على الجغرافية . ولم يكن أمرًا نادرًا أن تتحول هذه المصنفات إلى مجموعات تعالج سير الشخصيات الكبرى التى اشتهرت فى الأماكن والبلدان المختلفة ، هذا إلى أنه يمكن أن يلاحظ فيها تطور طراز « الفضائل » المعروف لنا جيدًا ، أعنى بذلك ذكر مناقب الأماكن المختلفة استنادًا إلى الأحاديث النبوية . ونادرًا ما تكون المادة الجغرافية فيها سهلة المأخذ إذ يجب انتزاعها انتزاعًا من الروايات والأخبار التى قلَّ أن تمس المسائل التى نعالجها . وعلى أية حال فإنه يلاحظ فى هذا الميدان ميلاد أشكال جديدة حية تتعلق بالقواعد الجغرافية العامة ، بل إنه أنتج لنا فى القرن العاشر مصنفًا هامًا ؛ ومن العسير أن نستعرض جميع أمثلته ونماذجه ولكن من الضرورى أن نعطى فكرة عامة عن أشكاله المختلفة .

ومن الطبيعى أن يتجه اهتمام العلماء فى ظروف ذلك العهد إلى « المدن المقدسة » ، كما اتجه اهتمام اللغويين من قبل إلى بلاد العرب . ونلتقى فى القرن التاسع بمؤلِّفَيْن على الأقل كتبا فى تاريخ مكة ، أحدهما هو الأزرقى (المتوفى عام ٢٤٤ هـ = ٨٥٨)[٦١] والآخر الفاكهى (المتوفى حوالى

---

(٦١) -Brockelmann, GAL, I. p. 137, No I; SBI, p. 209

عام ٢٧٢ هـ = ٨٨٥)[٦٢] ،/وينحدر الأول من أسرة تنتسب إلى آل غسّان وتربطها الرواية 163
بالحديث النبوى . وهذا النوع من المصنفات فى تواريخ المدن انبعث نتيجة لاهتمام المسلمين بالأماكن المقدسة وحاجتهم إلى مصنف يكون أشبه بدليل جغرافى للتعريف بنواحيها ووصف الشعائر الدينية المرتبطة بهذا . وقد أسبغت عليها الأساطير القديمة التى ترجع إلى التوراة والتلمود طابعًا مميزًا فهى تتكون غالبًا من مقدمة يليها وصف الكعبة وتاريخها المتأخر ووصف الأبنية المحيطة بها ، ثم يعقب هذا تعداد الدروب والأحياء بمكة مع ذكر عدد كبير من الأسماء ؛ أما المادة الجغرافية فضئيلة للغاية ولكنها ذات قيمة كبرى بالنسبة لتاريخ نشأة مكة ونموها[٦٣] . وقد تعاقب بعد الأزرقى عدد من المؤلفين كانوا متممين لعمله وتمتعت مؤلفاتهم بالشهرة عند الجمهور إلى الآونة الأخيرة . ويرجع الفضل فى إلمامنا بهذا الفرع من الأدب إلى بحوث فستنفلد الذى نشر « أخبار مكة » فى أربعة أجزاء (١٨٥٧ — ١٨٥٨) ختمها بآخر ممثل لهذا النمط الجغرافى وهو النهروالى من أهل القرن السادس عشر (توفى عام ٩٩٠ هـ = ١٥٨٢)[٦٤] .

والطابع الغالب على تواريخ المدن هو أن تحتوى المقدمة على الجانب الجغرافى الذى يعطى وصفًا طوبوغرافيًا للمدينة ، بينما تتحكم فى بقية مادة الكتاب السِّير ، أى تراجم حياة المشاهير من أهل تلك المدينة . ومن العسير الجزم هل وجدت مثل هذه المقدمة عند أول مؤرخ لبغداد وهو أحمد بن أبى طاهر طيفور (توفى عام ٢٨٠ هـ = ٨٩٣)[٦٥] ، إذ لما يعثر إلى الآن سوى على الجزء السادس من تاريخه وهو يحوى مادة تاريخية صرفة . ومثل هذه المقدمة عند خلفه المشهور الخطيب البغدادى (توفى عام ٤٦٣ هـ = ١٠٧١)[٦٦] الذى يقدم لنا فى « تاريخ بغداد » تراجم لنحو من ثلاثين وثمانمائة وسبعة آلاف شخص فى أربعة عشر جزءًا . وهذه المقدمة تمثل بالتقريب جميع المادة الجغرافية للكتاب ، وقد بينت أهميتها بالنسبة لتاريخ تخطيط المدينة الترجمة الفرنسية التى قام بها سلمون Salmon (١٩٠٤) . واستخراج المادة الجغرافية من هذا الضرب من المصنفات لا يمثل على الدوام جهدًا يسيرًا ، ويصدق هذا بصورة خاصة على أضخم مصنف من هذا النوع فى الأدب العربى ، أعنى « تاريخ دمشق » فى ثمانية عشر مجلدًا لابن عساكر (توفى عام ٥٧١ هـ =

---

(٦٢) شرحه ، رقم ٢

(٦٣) -Ruska, GZ, p. 590

(٦٤) -Brockelmann, GAL, II, p. 381-382, No 3; SBII, p. 514-515

(٦٥) -Brockelmann, GAL I, p. 138, No 5; SBI, p. 210

(٦٦) -Marçais, EI, II p. 997-998 —Brockelmann, GAL, I p. 329 No 1; SBI, p. 562-564

١١٧٦) ، وبخاصة أنه فى طبعة لا تبعث كثيرًا على الرضى .

هذا النوع من تاريخ المدن الذى يتضح فيه الميل إلى وصف خططها قد نال انتشارًا واسعًا فى الأدب العربى بحيث لا تكاد توجد مدينة كبرى فى العالم العربى إلا ولها مؤرخها من هذا القبيل .

164 وبعض/هذه المؤلفات يمثل أحيانًا أهمية خاصة من وجهة نظر الجغرافيا التاريخية فى أوسع مدلولها ويصدق هذا بصورة خاصة على « تاريخ بخارى » للنرشخى (توفى عام ٣٤٨ هـ = ٩٥٩)[٦٧] . وقد كتب هذا المصنف بأسلوب لا يخلو من الصنعة ، وقدمه مؤلفه إلى نوح بن نصر السامانى حوالى عام **٩٤٣** ثم نقل إلى الفارسية فى القرن الثانى عشر، وهى التى وصلتنا وذلك فى صورة معدلة ترجع إلى أزمنة متأخرة . هذا وقد قدر مؤرخو تركستان قيمته منذ عهد طويل وأخضعوه لدراسة منظمة ؛ وفى الحقيقة أن التنقيحات والاختصارات والزيادات التى لحقت بهذا الكتاب[٦٨] تبرر بالكاد نسبته إلى النرشخى ، ولكن على الرغم من هذا الشكل الذى آل إليه أخيرًا فإنه يحتفظ باالكثير من أخبار بلاد ما وراء النهر قبل الإسلام وفى فترة الفتوحات العربية . كما لا تخلو من قيمة المعلومات ذات الطابع الجغرافى التى يوردها عن المناطق المأهولة حول بخارى والمبانى والمحاصيل وأساليب الحياة الموروثة عن العهد السابق لدخول الإسلام إلى تركستان[٦٩] .

ويتميز بهذه الدرجة نفسها من الطرافة كتاب مفقود هو « التاريخ فى أخبار ولاة خراسان » لعلى السلامى الذى يرجع تأليفه إلى حوالى عام ٣٤٤ هـ = ٩٥٥ ، وقد أفاد منه كثيرًا المؤرخون المتأخرون مثل كرديزى وابن خلكان ، وعلى الأخص ابن الأثير الذى كان هذا الكتاب يمثل بالنسبة له المصدر الأساسى لتاريخ خراسان وبلاد ما وراء النهر إلى منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . ويتضح مما نقلوه عنه أنه كان كتابًا حافلا بشتى صور الحياة اليومية والمعلومات الجغرافية .

وقد اكتسب الأدب الجغرافى – الطوبوغرافى انتشارًا واسعًا خاصة فى مصر ، حيث يمكننا أن نتتبع منذ النصف الثانى للقرن التاسع ميلاد ضرب فريد مستقل من المصنفات من الطراز المعروف باسم « الخطط » ، أى وصف الأحياء والنواحى . وقد استمر هذا النمط فى سيل لاينقطع ، بل ليس من العسير أن نتبين آثار مولده لدى أول مؤرخ لمصر وهو ابن عبد الحكم (توفى عام ٢٥٧ هـ =

---

(٦٧) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 211. No 6; Krymski, Istoria Persii, 1909, p.6 - 7; وأيضاً 1914, p. 191-192 —Bartold, Iran, p. 70

(٦٨) -Markwart, Wehrot, p. 160-161

(٦٩) -Minorsky, Naršhakhi, p. 914

٨٧١)[٧٠] فى كتابه « فتوح مصر » ؛ وهو يقع فى خمسة أبواب يفرد الثالث منها لوصف
خطط الفسطاط والجيزة والإسكندرية ؛ وقد ورد فى الشطرين الأولين من هذا الباب لفظ
« خطة » . ويعوز المؤلف الكثير من الموهبة النقدية ، ومع ذلك فيجب تقدير كتابه بوصفه أول
مؤلف يصل إلينا من هذا النوع . وأوضح دليل على قيمته أن المؤرخين المتأخرين قد أفادوا منه
كثيرًا ، ولا يقتصر هذا على المصريين وحدهم من أمثال المقريزى والسيوطى بل تعداه إلى غير
المصريين مثل ياقوت . ويرى المقريزى أن أول من ألف فى هذا الباب هو محمد بن يوسف الكندى
(توفى عام ٢٥٠ هـ = ٩٦١) صاحب كتاب « تاريخ ولاة مصر وقضاتها »[٧١] ، إذ يبدو أنه
165 وضع/مصنفًا بعنوان « الخطط »[٧٢] لم يصل إلينا ، كما أن ابنه عمر بن محمد الكندى وضع
رسالة بعنوان « فضائل مصر »[٧٣] سار فيها على نمط النهج القديم للمؤلفين الأوائل من العصر
الأموى ؛ وفى الوقت نفسه جمع مؤرخ العهد الفاطمى ابن زولاق (توفى عام ٣٨٧ هـ =
٩٩٧)[٧٤] مجموعة من الفضائل من هذا النوع اعتمادًا على الأحاديث النبوية ؛ وهو أيضًا ممن
اهتموا بخطط مصر . هذا ولقد ظلت الرواية الأدبية فى مصر متواترة أكثر مما فى غيرها من البلاد
العربية الأخرى، لذا فإن جميع الأنماط الأدبية التى تميزت ولو بقليل من الحيوية وجدت من يتممها
ويسير فيها من رجالات الأجيال التالية . وفى القرن الحادى عشر وضع المؤرخ المعروف القضاعى
(توفى عام ٤٥٤ هـ = ١٠٦٢)[٧٥] مصنفه « المختار فى ذكر الخطط والآثار » ، وهو مصنف
اجتذب أيضًا أنظار ياقوت والمقريزى مرات عديدة . وفى القرن الثانى عشر وضع أبو الصلت أمية
بن عبد العزيز (المتوفى عام ٥٢٩ هـ = ١١٣٤)[٧٦] ، وهو طبيب وشاعر وفلكى وعالم
بالطبيعيات أصله من الأندلس ، كتابًا بعنوان « الرسالة المصرية » قدم فيه من ناحية تراجم
لسير المشاهير ومن ناحية أخرى وصفًا طوبوغرافيًا ؛ وهو معروف بدوره جيدًا للمؤلفَيْن اللذَيْن مر
ذكرهما .

---

(٧٠) -Brockelmann, GAL, I, p. 148, No I; SBI, p. 227-228 —Sarton, Introduction, I, p. 616 —Torrey, EI, II, p. 375-376

(٧١) -Brockelmann, GAL, I, p. 149, No 4; SBI, p. 229-230

(٧٢) -Guest, GMS, XIX, p. 9 (3)

(٧٣) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 230, No 4 A

(٧٤) -Brockelmann, GAL, I, p. 149, No 6; SBI, p. 230

(٧٥) -Brockelmann, GAL, I, p. 343, No 3; SBI, p. 584-585

(٧٦) -Brockelmann, GAL, I, p. 486-487, No 14; SBI, p. 889

هذا وقد شقت الجغرافيا الإقليمية لنفسها طريقًا إلى المغرب ، ويمكن أن نشير فى خلال القرن العاشر إلى محمد بن يوسف الوراق (توفى عام ٣٦٣ هـ = ٩٧٣) الذى عاش فى القيروان وقرطبة وأفرد لوصف المغرب كتابًا يحمل العنوان المعهود لنا « كتاب المسالك والممالك »[٧٧] . ولم يصلنا هذا الكتاب ولكن البكرى يدين له لا بعنوان كتابه فحسب بل بمقتطفات عديدة كما يتضح ذلك من نقوله عنه[٧٨] . وأول من أدخل نمط الجغرافيا الإقليمية إلى الأندلس مؤرخها الكبير أحمد بن محمد الرازى التاريخى (توفى عام ٣٤٤ هـ = ٩٥٥)[٧٩] المشهور فى أوروبا باسم Elmore Elrasis ، والذى حفظ لنا مصنفه التاريخى فى ترجمة قشتيلية ترجع إلى عهد متأخر ونقلت بدورها عن ترجمة برتغالية مفقودة * . وتشير جميع المصادر إلى أنه وضع كتابًا كبيرًا فى طرق الأندلس ومرافئها ومدنها الكبرى والأجناد العربية الستة التى نزلتها بعد الفتح . وبالرغم من أن استعمال مصنف مر بترجمتين أمر معقد فإن كتاب الرازى مصدر هام جدًا لمعرفة الأحوال/ 166
الجغرافية فى الأندلس على عهد عبد الرحمن الثالث ، أى عهد ازدهار خلافة قرطبة[٨٠] . ويبدو أنه وضع أيضًا مصنفًا خاصًا بقرطبة هو « كتاب فى صفة قرطبة » على طراز كتاب ابن طيفور فى وصف بغداد ؛ وترد فيه تفصيلات عن شوارعها وقصور الأعيان بها[٨١] .

وليس فى وسعنا إحصاء جميع المؤلفات العربية فى الجغرافيا الإقليمية التى ظهرت فى العصور التالية لذلك ؛ وقد ظل الوصف التاريخى الطوبوغرافى من أهم الأنماط التى افتتن بها المسلمون إلى أيامنا هذه لا فى الأدب العربى وحده بل فى الأدبين الفارسى والتركى أيضًا .

ومن بين المجموعة الضخمة لمصنفات هذا الأدب التى ترجع إلى القرن العاشر يجب أن نفرد

---

(٧٧) المقرى ، الجزء الثانى ، ص ١١٢ الخ — Kramers, EI, EB, p. 67 — Pons Biogues, p. 80-81, No 39 — Brockelmann, GAL, SBI, p. 233, No 4 A — Lévi Provencal, Fés, p. 41

(٧٨) -Brunschwig, p. 151-152

(٧٩) -Brockelmann GAL, I, p. 150, No 2; SBI, p. 231 — Pons Boigues. p. 62-66, No 23

* عثر على الترجمة البرتغالية وتم نشرها منذ وقت غير بعيد ، كما تم العثور على شذور من كتاب الرازى لدى بعض المؤلفين المغاربة . راجع عن حياة الرازى مادة الرازى فى دائرة المعارف الإسلامية بقلم ليفى بروفنسال ، واستدرك عليها بالرجوع إلى كتاب الدكتور حسين مؤنس « فجر الأندلس » ، (ص ٥٦١ وما يليها ، القاهرة ١٩٥٩) ، ومقال الدكتور لطفى عبد البديع الذى ظهر بمجلة معهد المخطوطات العربية ، الجزء الثانى من المجلد الأول ص ٢٧٢ وما يليها ، القاهرة ١٩٥٥ . وأخيرًا وليس آخرًا المقال الوافى للدكتور حسين مؤنس بعنوان « الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس من البداية إلى الحجارى » (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٥٩ — ١٩٦٠) . (المترجم)

(٨٠) -Lévi-Provençal, Al-Râzi, p. 1228

(٨١) المقرى ، الجزء الثانى ، ص ١١٨ = Pons-Boigues, p. 63, No 3

مكانة خاصة لمصنف يقف فريدًا فى نوعه هو « صفة جزيرة العرب » للهَمْدانى الذى يعتبره اشبرنجر Sprenger[٨٢] إلى جانب كتاب المقدسى أقيم ما أنتجه العرب فى الجغرافيا . ولم يكن هذا المؤلف معروفًا للعلم الأوروبى قبل التسعينيات من القرن الماضى ، بل إن معلوماتنا عنه لا تزال ضئيلة للغاية إلى الآن ؛ وهذا أمر قد حدث مرارًا لعدد من كبار الكتاب العرب ممن جروا على أنفسهم ريبة أهل السنة فى الأجيال التالية . هذا ومما زاد فى تعقيد المسألة وفى جهل المؤلفين المتأخرين به أن اسمه ورد فى أشكال مختلفة ، فهو الحسن بن أحمد الهمدانى ، وتدل النسبة على أنه من قبيلة هَمْدان المعروفة فى جنوبى الجزيرة العربية . وقد جرت النسبة إلى الخلط بينه وبين ابن الفقيه الهَمَدانى الذى مر ذكره والذى أخذ نسبته من مدينة همدان بإيران * ؛ وقد وقع ضحية هذا اللبس علماء كبار منذ منتصف القرن الماضى[٨٣] . ومما ساعد على زيادة الغموض أنه كان يشار إليه أحيانًا باسم جده ابن أبى الدمين ، كما لقب أيضًا بابن الحائك الذى أطلقه عليه فيما يظهر خصومه . ولا يعرف عن تاريخ حياته سوى أنه ولد ونشأ بصنعاء وزار مكة وتوفى عام ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ بسجن صنعاء الذى كان سبب الزجّ به فيه كما تزعم الرواية قصيدة هزلية فى حق رسول الله ؛ ولكن الراجح أن يكون السبب فى ذلك دسائس أعدائه .

وفى مصنفاته ترتسم أمام ناظرينا شخصية فذة لوطنى متحمس وعالم متعدد النواحى وشاعر . وقد مرت بنا الإشارة عرضًا إلى معرفته الواسعة فى محيط الجغرافيا الفلكية ؛ وهو لم يكن جغرافيًا فحسب بل وخبيرًا كبيرًا بأنساب العرب وتاريخ الجزيرة العربية نفسها ، خاصة آثارها القديمة (archaeology) ، وهو أمر نادر بين العرب . ومما يدعو إلى الدهشة حقًا/أنه استطاع 168
فك رموز الكتابة العربية القديمة فى جنوبى الجزيرة[٨٤] ؛ ويقف مصنفه «الإكليل» الذى يقع فى عشرة أجزاء دليلا ساطعًا على سعة معارفه ، فقد أفرغ فيه جماع معرفته بالأنساب والتاريخ والآثار بل حتى بأدب الحميريين سكان جنوبى الجزيرة فى القدم . ولم يكتف فى كتابه بعرض المادة الأسطورية التى تجمعت فى الأدب العربى بعد الإسلام بل بذل قصارى جهده ليقف منها موقف الناقد وذلك على ضوء دراسته المباشرة للنقوش التاريخية . وإلى عهد قريب لم يعرف من كتابه هذا سوى الجزأين الثامن والعاشر وذلك بفضل بحوث مولر Müller الذى يرجع الفضل إليه فى

(٨٢) -Sprenger, Reiserouten, p. XVIII

* همدان بتسكين الميم القبيلة وبفتحها المدينة . (المترجم)

(٨٣) -Löfgren, Hamdani Fund, p. 3 note 1

(٨٤) -Müller, Südarabische Studien, p. 33

التعريف بالهمدانى فى القرن التاسع عشر . وقد نشر وترجم الآن الجزء الثامن بفضل مجهودات العلماء العرب ببغداد وأميريكا(٨٥) ؛ أما الجزءان الأول والثانى فقد كشف عنهما منذ وقت غير بعيد ببرلين المستشرق السويدى لوفجرين Löfgren ؛ وعثر على الجزء التاسع بمكتبة البارودي ببيروت(٨٦) . وهكذا لم يعد ثمة مجال فى الوقت الحاضر لتلك الفروض المتشائمة من جانب درنبورج Derenbourg الذى أصر على أن المؤلف لم يتمم من الكتاب سوى الجزأين الثامن والعاشر فقط(٨٧) . أما فيما يتعلق بالكشف عن الأجزاء الباقية فقد راجت إشاعة قوية عن وجود نسخة كاملة بمكتبة الإمام بصنعاء(٨٨) وأجزاء متفرقة باستنبول(٨٩) وفى جنوبى الجزيرة العربية(٩٠) بل وفى أماكن نائية مثل جاوه(٩١) .

ولا شك أنه قد اتضح مما اقتبسناه عن الهمدانى فيما مر من هذا الكتاب أن « وصف جزيرة العرب» **لا يمكن ضمه بأية حال إلى ذلك الضرب من المؤلفات الجغرافية اللغوية المفردة لجزيرة** العرب والتى سبق وعالجنا الكلام عليها فيما مر من الكتاب . والهمدانى كان بلا شك على علم تام بالمادة الجغرافية اللغوية التى عرفها المؤلفون السابقون له فى القرن التاسع ، كما كان أيضًا على معرفة تامة بالجغرافيا الفلكية الرياضية ؛ ويمكن تتبع كلا الاتجاهين بوضوح فى كتابه . ومن المستحيل بالطبع القول بأنه وفق فى المزج بينهما فى وحدة تامة منسجمة ، كما من العسير أيضًا القول بأن الهمدانى قد نفذ خطته الأولى بحذافيرها . ومن الواضح أن وصفه لليمن يعتمد على الملاحظة الشخصية مع الإفادة بالطبع من المادة الأدبية التى خلفها السابقون ؛ أما وصف بقية الجزيرة العربية فيعتمد فيه أساسًا على الرحالة والحجاج الذاهبين إلى مكة كما يعتمد أيضًا بدرجة كبيرة على
مادة الجغرافيين اللغويين المتخصصين فى جزيرة العرب ؛ بل إنه قد يسوق أحيانًا/شواهد من 170
مصادر غير معروفة لغيره من المؤلفين .

وللهمدانى معرفة جيدة ببطلميوس ، وهو يبدأ كتابه بمقدمة رياضية جغرافية وافية يورد فيها

---

(٨٥) -Arendonk, Al-Hamadani, p. 87

(٨٦) عيسى اسكندر المعلوف ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، المجلد الخامس ، ١٩٢٥ ، ص ٣٢ .

(٨٧) -Derenbourg-Schefer, p. 180 —Löfgren, Hamdani —Fund, p. 8 note 1

(٨٨) أمين الريحانى ، **ملوك العرب، الجزء الأول،** ص ٤٤

(٨٩) شكيب أرسلان ، ص ٤٣٩ – ٤٤٤

(٩٠) الإكليل ، الجزء الثامن Krenkow,L'A, IX, p. 291-202; I and VI شرحه ، p. 626-627

(٩١) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، المجلد الحادى عشر ، **١٩٣١**، ص ٤٤٠ – ٤٤١

ذكر المذاهب المختلفة لتحديد الأطوال والعروض كما يورد فيها أيضًا وصفًا عامًا لمناطق الأرض بحسب توزيعها على الأقاليم السبعة . أما القسم الأساسى من كتابه فقد كرسه لوصف جزيرة العرب ، وهو ينقسم إلى خمسة أبواب رئيسية فى وصف تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن . ووصفه بالطبع لا يسير دوامًا على نسق واحد أو يتبع خطة محددة فهو يكثر من إعادة الكلام على المناطق التى ذكرها من قبل . وبينما تحتل اليمن مكان الصدارة فى كتابه نجد حضرموت لا تظفر منه إلا بالإشارة الطفيفة والذكر العابر ؛ وبصدد اليمن نراه يفصّل فى الكلام على مساكن قبيلته همدان . وهو يكشف دائمًا عن معرفة لا تجارى بالآثار والنقوش القديمة التى حاول أحيانًا أن يفك رموزها ؛ كما تبدو جلية للعيان معرفته الجيدة بالرواية السماعية والأدبية فهو مثلا يعرف جيدًا تقسيم اليمن قبل الإسلام إلى « مخاليف »(جمع « مخلاف »أى ناحية) . وفى خلال كلامه عن اليمن يعود القهقرى من وقت لآخر إلى ذكر حقائق ذات طابع تكميلى عن شمالى الجزيرة العربية ولكنه على أية حال يختتم كلامه باليمن ويفرد قسما خاصًا لذكر عجائبها أو على الأصح خصائصها التى لا يشاركها فيها بلد آخر . وهذا الطابع الفريد نفسه تحمله مجموعة الأشعار « الجغرافية » التى استخرجها من دواوين الشعراء الأقدمين والوارد فيها ذكر الأسماء الجغرافية المختلفة ، وتنضاف إليها أرجوزة جغرافية طويلة تقع فى خمس قصائد ومائة وسبعة وعشرين بيتًا هى أشبه بملحق للكتاب يصف فيها صاحبها أحمد بن عيسى الرُّداعى طريق الحج فى بلاد العرب .

لقد تملك الهمدانى ناصية المادة الأدبية بأكملها ؛ ولم تكن مقدرته فى الملاحظة المباشرة بأقل من ذلك فى شىء . ولا يزال كتابه محتفظًا إلى أيامنا هذه بقيمته العلمية ؛ وقد أشار الرحالة مالتزان Maltzan المعروف بتجواله فى الجزيرة العربية إلى أنه كثيرًا ما يساعد فى دراسة الجغرافيا المعاصرة لجزيرة العرب(٩٢) . أما فى مجال الجغرافيا الإقليمية فإن كتاب الهمدانى يمتاز على جميع مصنفات القرنين التاسع والعاشر ولا يبزه فى القرن العاشر إلا أثر واحد ذلكم هو كتاب « الهند » للبيرونى العظيم .

---

(٩٢) Müller, Das Buch der Arabischen Halbinsel, p. 299-

الفصل السادس
المسعودى والرحالة الذين زاروا الأصقاع الشمالية فى القرن العاشر

171 يعتبر القرن العاشر من الناحية السياسية عصر الاضمحلال النهائى للخلافة الإسلامية ، ولكن من ناحية أخرى يعتبر أيضًا عصر ازدهار الحضارة العربية أو « النهضة الإسلامية » Renaissance of Islam كما حلا لأحد المستشرقين أن يسميه (متز Metz) . وفى القرن العاشر كذلك بلغ الأدب الجغرافى العربى أوجه فى مجال تطوره الخلاق كحركة مستقلة قائمة بذاتها . وهو يذخر بمصنفات هامة فى محيط الجغرافيا الإقليمية ، غير أن الإنتاج الأدبى فيه لم يقف عند هذا الحد فقد تم فى هذا القرن أيضًا تشكيل ما يسمى « بالمدرسة الكلاسيكية » للجغرافيا العربية ، كما شهد أيضًا ميلاد أكثر آثار الكارتوغرافيا العربية أصالة وهو « أطلس الإسلام » . وقد بلغ عدد الرحالة فى هذا القرن حداً كبيراً، غير أن المهم بالنسبة لنا هو أن بعضهم جال فى أصقاع اتحادنا السوفيتى أو الأصقاع المتاخمة لها. وفى هذا العصر بالذات نفذت الجغرافيا إلى الأنماط الأدبية المقاربة لها وأفرد لها مكان فى دوائر المعارف وفى المصنفات الببليوغرافية وفى معاجم المصطلحات ، كما ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالموضوعات الأدبية والعرض الأدبى . وإلى جانب كل هذا يقدم لنا القرن العاشر شخصيات كبرى ذات جوانب متعددة ليست هى شخصيات جغرافية بالمفهوم الضيق للفظ .

ويحتل المكانة الأولى بينهم دون منازع المسعودى * « أكثر الكتاب الجغرافيين أصالة فى القرن العاشر » ، على حد قول واحد من أفضل المتخصصين فى هذا الفرع من الأدب فى عصرنا(١) . غير أن آراء العلماء حوله أبعد من أن تتسم بطابع الإجماع ، فخبير آخر بالجغرافيا العربية – لا يخلو فى الحقيقة من بعض الميل إلى التناقض – يرى فى أسلوبه « قرابة ورحمًا مع أسلوب الصحافة الحديثة » ، وفى شخصه « أنموذج المراسلين الصحفيين المعاصرين الذين يذرعون الأرض »(٢) . هذا الحكم يقف دليلا آخر على عدم جدوى أمثال هذه المقارنات المبالغ فيها بين القديم

---

* فى يناير من عام ١٩٥٨ أقيمت احتفالات بجامعة عليكرة بالهند بمناسبة مرور ألف عام على المسعودى وصدر بهذه المناسبة كتاب بعنوان : Al-Masudi Millenary Commemoration Volume, 1960 يحوى عددًا من البحوث الجيدة عنه . (المترجم)

(١) Kramers, EI, EB, p. 67-

(٢) Markwart, Streifzüge, p. XXXV-

والحديث ، ولا يزال أفضل منهج لمعرفة شخص ما أو إلقاء ضوء على حياته هو التحليل الدقيق للظروف التى عاش فيها .

والمسعودى عربى صرف يرتفع نسبه إلى الصحابى مسعود ؛ وقد ولد على ما يظهر/ببغداد فى 172
بداية القرن العاشر وأحاط إحاطة تامة بكل التراث الأدبى لعصره وبمختلف فروع العلم . غير أن ميدانه الحقيقى فيما يبدو كان الرحلات الواسعة والاتصال المباشر بممثلى مختلف الطبقات ؛ وقد شملت رحلاته جميع البلدان من الهند إلى المحيط الأطلنطى ومن البحر الأحمر إلى بحر قزوين ، ومن المحتمل أن يكون قد زار الصين وأرخبيل الملايو . وكثيرًا ما يثبت فى مصنفاته تاريخ زيارته لمواضع معينة ، وهو أمر وإن لم يمكنا من تتبع خطاه إلا أنه على أية حال يعطى فكرة عن تجواله الواسع العريض .

ولعل شخصية المسعودى ككاتب يمكن أن تكون أكثر جلاء لو أن مؤلفاته الكبرى لم تمسها يد الضياع ، ونخص منها بالذكر كتابيه الكبيرين « أخبار الزمان » الذى يقع فى ثلاثين جزءًا والذى بدأ تأليفه فى عام ٣٣٢ هـ = ٩٤٣ ، و« الكتاب الأوسط » . غير أن هذه المؤلفات مع الأسف لم تعرف إلا من خلال اقتباسات ضئيلة ليست بذات أهمية ، فضلا عن أن الشك يعتور صحة نسبتها إليه(٣) . وهكذا فمن بين جميع مؤلفاته العديدة المعروفة لدينا بأسمائها نستطيع إعطاء فكرة عن نشاطه العلمى اعتمادًا على اثنين منها فقط أحدهما هو « مروج الذهب ومعادن الجوهر »(٤) أكثر مؤلفاته التاريخية الثلاثة إيجازًا ؛ وآخر يعكس مادة جغرافية بالمعنى الصحيح وهو كتاب « التنبيه والإشراف » . وكلاهما يقف مثالا حيًا لصعوبة الفصل بين المؤلفات التاريخية والجغرافية . وقد تم تأليف الأخير منهما فى عام وفاة المسعودى ، وهو يقدم لنا فيه خلاصة وافية لمعارفه وتحليلا لكل مؤلفاته ؛ ومقدمته تعطى فكرة محددة عن الخلط فى التبويب وعن الوفرة فى مادة كتبه التى لم تصلنا .

« ذكر الغرض من هذا الكتاب . قال أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى أما بعد فإنا لمّا صنفنا كتابنا الأكبر فى أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة وشفعناه بالكتاب الأوسط فى معناه ثم قفوناه بكتاب مروج الذهب ومعادن

---

(٣) Brockelmann, GAL, I, p. 143-145 No 6, SBI, p. 220-221-

(٤) لا يزال العنوان يترجم أحيانا إلى الآن فى اللغات الأوروبية : «golden meadows» بالرغم من أن جلدمايستر Gildemeister قد بين منذ عام ١٨٤٤ خطأ ذلك

(Gildemeister, WZKM, V, p. 202 - 204)

الجوهر فى تحف الاشراف من الملوك وأهل الدرايات ثم أتلينا ذلك بكتاب فنون المعارف وما جرى فى
الدهور السوالف وأتبعناه بكتاب الاستذكار لما جرى فى سالف الأعصار /ذكرنا فى هذه الكتب 173
الأخبار عن بدء العالم والخلق وتفرقهم على الأرض والممالك والبر والبحر والقرون البائدة والأمم الخالية
الداثرة الأكابر كالهند والصين والكلدانيين وهم السريانيون والعرب والفرس واليونانيون والروم
وغيرهم وتاريخ الأزمان الماضية والأجيال الخالية والأنبياء وذكر قصصهم وسير الملوك وسياساتهم
ومساكن الأمم وتباينها فى عاداتها واختلافها فى آرائها وصفة بحار العالم وابتدائها وانتهائها واتصال
بعضها ببعض وما لا يتصل منها وما يظهر فيه المد والجزر وما لا يظهر ومقاديرها فى الطول والعرض
وما يتشعب من كل بحر من الخلجان ويصب إليه من كبار الأنهار وما فيها من الجزائر العظام وما
كان من الأرض برًّا فصار بحرًا وبحرًا فصار برًّا على مرور الزمان وكرور الدهور وما قاله حكماء الأمم
فى كيفية شبابها وهرمها وعلل جميع ذلك والأنهار الكبار ومبادئها ومصابّها ومقادير مسافاتها على
وجه الأرض من ابتدائها إلى انتهائها والأخبار عن شكل الأرض وهيئتها وما قالته حكماء الأمم من
الفلاسفة وغيرهم فى قسمتها والربع المسكون منها وحَدَبها وأنجادها وأغوارها وتنازع الناس فى كيفية
ثباتها وتأثيرات الكواكب فى سكانها واختلاف صورهم وألوانها وأخلاقهم ووصف الأقاليم
السبعة وأطوالها وعروضها وعامرها وغامرها ومقادير ذلك ومجارى الأفلاك وهيئتها واختلاف
حركتها وأبعاد الكواكب وأجرامها واتصالها وانفصالها وكيفية مسيرها وتنقلها فى أفلاكها
ومضاداتها إياها فى حركاتها ووجوه تأثيراتها فى عالم الكون والفساد التى بها قوام الأكوان وهل أفعالها
على المماسَّة أم على المباينة عن إرادة وقصد أم غير ذلك وكيف ذلك ومما سببه وهل حركات الأفلاك
والنجوم جميعًا طباع أم اختيار وهل للفلك علة طباعية فاعلة فى الأشياء المعلولة التى هو مشتمل
عليها ومحيط بها والنواحى والآفاق من الشرق والغرب والشمال والجنوب وما على ظهر الأرض من
عجيب البنيان وما قاله الناس فى مقدار عمر العالم ومبدأه وغايته ومنتهاه وعلة طول الأعمار وقصرها
وآداب الرئاسة وضروب أقسام السياسة المدنية الملوكية منها والعامية مما يلزم الملك فى سياسة نفسه
ورعيته ووجوه أقسام السياسة الديانية وعدد أجزائها ولأية علة لابد للملك من دين كما لابد للدين من
ملك ولا قوام لأحدهما إلا بصاحبه ولم وجب ذلك وما سببه وكيف تدخل الآفات على الملك وتزول/ 174
الدول وتبيد الشرائع والملك والآفات التى تحدث فى نفس الملك والدين والآفات الخارجة المعترضة
لذلك وتحصين الدين والملك وكيف يعالج كلُّ واحد منهما بصاحبه إذا اعتلّ من نفسه أو من
عارض يعرض له وما نيَّة ذلك العلاج وكيفيته وإمارات إقبال الدولة وسياسة البلدان والأديان
والجيوش على طبقاتهم ووجوه الحِيَل والمكايد فى الحروب ظاهرًا وباطنًا وغير ذلك من أخبار العالم
وعجائبه ، وأخبار نبينا صلعم ومولده وما ظهر فى العالم من الآيات والكوائن والأحداث المنذرات

بظهوره قبل مولده من أخبار الكهان وغيرهم وما أظهر الله سبحانه على يديه من الدلائل
والعلامات والجرائح المعجزات ومنشأه ومبعثه وهجرته ومغازيه وسراياه وسواربه ومناسره إلى وفاته
والخلفاء بعده والملوك والغرر من أخبارهم وما كان من الكوائن والأحداث والفتوح فى أيامهم وأخبار
وزرائهم وكتابهم إلى خلافة المطيع . وذكرنا من كان فى كل عصر من حملة الأخبار ونَقَلة السِّير
والآثار وطبقاتهم من عصر الصحابة والتابعين ومن بعدهم من فقهاء الأمصار وغيرهم من ذوى
الآراء والنِّحَل والمذاهب والجدل بين فِرَق أهل الصلاة ومن مات منهم سنة سنة إلى هذا الوقت
المؤرّخ ، وذكرنا فى كتاب منظم الأعلام فى أصول الأحكام وكتاب نظم الأدلة فى أصول الملة
وكتاب المسائل والعلل فى المذاهب والملل تنازع المتفقهين فى مقدمات أصول الدين والحوادث
التى اختلفت فيها آراؤهم وما يذهب إليه من القول بالظاهر وإبطال القياس والرأى والاستحسان
فى الأحكام إذ كان الله جل وعز قد أكمل الدين وأوضح السبيل وبيّن للمكلفين ما يبغون فى آياته
المنزلة وسنن رسوله المفضلة التى زجرهم بها عن التقليد ونهاهم عن تجاوز ما فيها من التحديد وما
اتصل بذلك من الكلام فى الفتوى والأحكام العقليات منها والسمعيات وغير ذلك من فنون العلوم
وضروب الأخبار مما لم تأت الترجمة على وصفه ولا انتظمت ذكره رأينا أن نتبع ذلك بكتاب سابع
مختصر نترجمه بكتاب التنبيه والإشراف وهو التالى لكتاب الاستذكار لما جرى فى سالف الإعصار
175 نودعه لُمَعًا من ذكر الأفلاك وهيأتها والنجوم وتأثيراتها والعناصر وتراكيبها وكيفية/أفعالها والبيان على
قسمة الأزمنة وفصول السنة وما لكل فصل من المنازل والتنازع فى المبتدأ به منها والاستقصّات وغير
ذلك والرياح ومهابها وأفعالها وتأثيراتها والأرض وشكلها وما قيل فى مقدار مساحتها وعامرها
وغامرها والنواحى والآفاق وما يغلب عليها وتأثيراتها فى سكانها وما اتصل بذلك وذكر الأقاليم
السبعة وقسمتها وحدودها وما قيل فى طولها وعرضها وقسمة الأقاليم على الكواكب السبعة الخمسة
والنيرين ووصف الإقليم الرابع وتفضيله على سائر الأقاليم وما خُصَّ به ساكنوه من الفضائل التى
باينوا بها سكان غيره منها وما اتصل بذلك من الكلام فى عروض البلدان وأطوالها والأهوية وتأثيراتها
وغير ذلك وذكر البحار وأعدادها وما قيل فى أطوالها وأعراضها واتصالها وانفصالها ومصبات عظام
الأنهار إليها وما يحيط بها من الممالك وغير ذلك من أحوالها وذكر الأمم السبع فى سالف الأزمان
ولغاتهم وآرائهم ومواضع مساكنهم وما باتت به كل أمة من غيرها وما اتصل بذلك ثم تتبع ذلك
بتسمية ملوك الفرس الأولى والطوائف والساسانية على طبقاتهم وأعدادهم ومقدار ما ملكوا من
السنين وملوك اليونانيين وأعدادهم ومقدار ملكهم وملوك الروم على طبقاتهم من الحنفاء وهم
الصابئون والمتنصرة وعدتهم وجملة ما ملكوا من السنين وما كان من الكوائن والأحداث العظام
الديانية والملوكية فى أيامهم وصفة بنودهم وحدودها ومقاديرها وما يتصل منها بالخليج وبحرى الروم

والخَزَر وما اتصل بذلك من اللمع المنبهة على ما تقدم من تأليفنا فيما سلف من كتبنا وذكر الأفدية بين المسلمين والروم إلى هذا الوقت وتواريخ الأمم وجامع تأريخ العالم والأنبياء والملوك من آدم إلى نبينا محمد صلعم وحصر ذلك وما اتصل به ومعرفة سنى الأمم الشمسية والقمرية وشهورها وكبسها ونسيئها وغير ذلك من أحوالها وما اتصل بذلك من التنبيهات على ما تقدم جمعه وتأليفه وذكر مولد النبى صلعم ومبعثه وهجرته وعدد غزواته وسراياه وسواربه وكتّابه ووفاته والخلفاء بعده والملوك وأخلاقهم وكتابهم ووزرائهم وقضاتهم وحجابهم ونقوش خواتيمهم وما كان من الحوادث العظيمة الديانية والملوكية فى أيامهم وحصر تواريخهم إلى وقتنا هذا وهو سنة ٣٤٥ للهجرة فى خلافة المطيع منبهين بذلك على ما قدّمنا ذكره من كتبنا ، وإنما اقتصرنا فى كتابنا هذا على ذكر هذه الممالك لعظم ملك ملوك الفرس وتقادم أمرهم واتصال ملكهم وما كانوا عليه من حسن السياسة وانتظام
176 التدبير /وعمارة البلاد والرأفة بالعباد وانقياد كثير من ملوك العالم إلى طاعتهم وحملهم إليهم الإتاوة والخراج وأنهم ملكوا الإقليم الرابع وهو إقليم بابل أوسط الأرض وأشرف الأقاليم وأن مملكتى اليونانيين والروم تتلوان مملكة فارس فى العظم والعزّ ولما خُصّوا به من أنواع الحكم والفلسفة والمهن العجيبة والصنائع البديعة ولأن مملكة الروم إلى وقتنا هذا ثابتة الرسوم منسّقة التدبير وإن كان اليونانيون قد دخلوا فى جملة الروم منذ احتووا على ملكهم كدخول الكلدانيين وهم السريانيون سكان العراق فى جملة الفرس الأولى لغلبتهم عليهم فأحببنا أن لا نخلى كتابنا هذا من ذكرهم وإن كنا قد ذكرنا سائر الممالك التى على وجه الأرض وما أزيل منها ودثر وما هو باق إلى هذا الوقت وأخبار ملوكهم وسياساتهم وسائر أحوالهم فيما سميناه من كتبنا على أنّا نعتذر من سهو إن عرض فى تصنيفنا مما لا يسلم منه من لحقته غفلة الإنسانية وسهوة البشرية ثم ما دُفعنا إليه من طول الغربة وبعد الدار وتواتر الأسفار طورًا مشرِقين وطورًا مغربين كما قال أبو تمام :

خليفةُ الخِضر مَن يَربعْ على وطن — فى بلدة فظهورُ العِيس أوطانى
بالشأم قوْمى وبغدادُ الهوى وأنا — بالرَّقتيـنِ وبالفسطـاط إخـوانى

وكقوله أيضًا :

فغربت حتى لم أجد ذِكرَ مَشرق — وشرقت حتى قد نسيت المغاربا
خطوب إذا لاقيْتُهـنَّ رددننـى — جريحًا كأنى قد لقيت الكتائبا

ونحن آخذون فيما به وعدنا وله قصدنا وبالله نستعين وإياه نسأل التوفيق والتسديد »[٥] .

---

(٥) المسعودى ، BGA, VIII ، ص ٢ – ٧

والأبيات الأخيرة لأبى تمام التى يختتم بها المسعودى مقدمته تدل دلالة واضحة على مبلغ اهتمامه بالعرض الأدبى الذى يحتل أحيانًا بالنسبة له المكانة الأولى . ولم يكن المسعودى بالطبع عالمًا بحاثة على غرار البيرونى ولا متخصصًا فى الجغرافيا أو التاريخ بل كان أديبا قبل كل شىء وناشرًا للمعارف على منهج الجاحظ أو ابن الفقيه مع ميل أكثر نحو الجدية ونحو الدقة فى الأسلوب . وهو قاصّ ماهر ، وفى كتابه الذى يغلب عليه التاريخ/وهو « مروج الذهب » يقابلنا أفضل تصوير للحياة 177
الاجتماعية والثقافية فى عصر الخلافة ، فليس غريبًا إذن أن يفتتن به فى السبعينيات من القرن الماضى شخص عرف بتقديره لهذا النوع من العرض التاريخى وهو المؤرخ الفرنسى ارنست رينان Ernest Renan[٦] . وقد أعاد المسعودى تنقيح كتابه هذا مرتين الأولى حوالى عام ٣٣٦ هـ = ٩٤٧ والثانية حوالى عام ٣٤٥ هـ = ٩٥٦ ، وفى هذا الكتاب فصول يغلب عليها الطابع الجغرافى وقد تتحول أحيانًا إلى استطرادات مطوّلة ، مثال ذلك ما كتبه عن البحار والأنهار ، وقبائل العرب والكرد والترك والبلغار ، وعن دور العبادة عند جميع شعوب العالم خاصة فى القوقاز . وطريفة ملاحظاته عن هجرات القبائل وعن الهند وعن الزنج ؛ والفصل الذى أفرده للصقالبة أضحى منذ أكثر من مائة عام موضوعًا لبحث مستقل قام به شارموا Charmoy[٧] (١٨٣٤) ولبحث آخر لماركفارت[٨] فى أوائل القرن العشرين . وعلى الرغم من تقدم النقد العلمى فلا يزال عدد من مشاكل هذا الفصل فى حاجة إلى الحل . ومنذ عهد غير بعيد ظهر رأى جديد يقول بأن دولة الدِّيره التى ذكرها المسعودى[٩] إنما هى إمارة كييف Kiev وأنه يجب أن نبصر فى هذا اللفظ اسم دير Dir الذى حكم فى وقت واحد مع أسكولد Askold[١٠] . ولا تقلُّ قيمة عن هذا رواية المسعودى عن حملات الروس بعد عام ٩١٢ – ٩١٣ على سواحل بحر قزوين الجنوبيـة إذ لا يفصله عن حوادثها أكثر من عشرة أعوام[١١] .

أما مصنفه الأخير « كتاب التنبيه » فقد اكتسب عن جدارة حق الانضمام إلى « مكتبة

---

(٦) -Renan, Mélanges d' histoire p. 253-275

(٧) -Charmoy, Relations de Masoudy

(٨) -Markwart, Streifzüge, p. 95-160

(٩) المسعودى ، المروج ، الجزء الثالث ، ص ٣٤ .
Markwart, Streifzüge, p. 145

(١٠) -Kvalen, Norwegian Settlements, p. 23 —Kvalen, Det norske gurdariki, II, 1, p. 33, 44
قارن : Mzik, WZKM, 46, 1939, p. 317

(١١) -Bartold, SV, I, 1940

الجغرافيين العرب » Bibliotheca Geographorum Arabicorum على الرغم من أنه ليس مصنفًا جغرافيًا بمعنى الكلمة ولا تشغل الموضوعات الجغرافية فيه حيزًا كبيراً . وهى تتركز بصفة عامة فى أول الكتاب على هيئة مقدمة تعطى عرضًا عامًا للجغرافيا الفلكية والطبيعية ، يلخص فيها المؤلف نظريات القرن العاشر فى خطوطها الجوهرية المعروفة ويفرد مكانة خاصة لنظرية الرياح حيث يقول :

« وأن الشمس إذا كان مسيرها فى الميل الشمالى عن معدّل النهار حمى الهواء فى ناحية الشمال وبرد الهواء الجنوبى فيجب من ذلك أن ينقبض الهواء الجنوبى ويحتاج إلى موضع أصغر ويتسع الهواء الشمالى ويحتاج إلى موضع أوسع إذ لا فراغ فى العالم فبالواجب أن تكون أكثر رياح الصيف عند من هو فى ناحية الشمال شمالية لأن الهواء من عندهم يتحرك إلى ناحية الجنوب إذ ليس الريح شيئًا غير
178 حركة الهواء وتموجه وكذلك يجب أن تكون أكثر رياح الشتاء جنوبية لتحرك/الهواء إلى ناحية الشمال لمسير الشمس فى الشتاء فى الميل الجنوبى »(١٢) .

ويلى هذا وصف لصناعات مصر وتجارتها ومحاصيلها ، وهذا بدوره يسوق المؤلف إلى محاولة لتفسير المميزات النفسانية حسب تأثير المناخ على الناس . ولا يخلو من بعض الطرافة فى هذا الصدد حكمه على أهل الشمال :

« وأما أهل الربع الشمالى وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين فى الشمال كالصقالبة والإفرنجة ومن جاورهم من الأمم فإن سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها فغلب على نواحيهم البرد وتبلدت أفهامهم وثقلت ألسنتهم وابيضت ألوانهم حتى أفرطت فخرجت من البياض إلى الزرقة ورقت جلودهم وغلظت لحومهم وازرقت أعينهم أيضًا فلم تخرج من طبع ألوانهم وسبطت شعورهم وصارت صهبًا لغلبة البخار الرطب ولم يكن فى مذاهبهم متانة وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة ومن كان منهم أوغل فى الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهائمية وتزايد ذلك فيهم فى الأبعد فالأبعد إلى الشمال »(١٣) .

أما الجغرافيا الوصفية فتعرض بالطريقة المعروفة لنا جيدًا أى على أساس الأقاليم السبعة مع تفصيل أكثر فى وصف الإقليم الرابع الذى تقع فيه العراق . ويرد القول عرضًا عن عجائب

---

(١٢) المسعودى ، Nallino, Cosmos, XII, p. 60 = BGA, VIII, p. 12,
Carra de Vaux, Maçoudi, p. 17-18

(١٣) المسعودى Nallino Cosmos XII = BGA, VIII p. 23-24
Carra de Vaux, Maçoudi, p. 36-38

الإسكندرية التى شغلت الناس منذ العصور القديمة وعن زلـزال عام ٣٤٤ هـ = ٩٥٥ . أما وصف البحار والأنهار فيصحبه وصف موجز للأقطار التى تجرى فيها أو تمسها مع استطرادات شتى كالحديث عن موقع بحيرة أُرميه وبراكين فارس ، كما يستوفى القول فى فصل خاص عن البلاد الواقعة إلى الشمال والشمال الشرقى من بحر قزوين . وفى القسم الاثنوغرافى من الكتاب يقسم الشعوب إلى سبعة مجموعات هى الفرس ، ويليهم الكلدانيون الذين يضم إليهم العرب واليهود ، ثم سكان أوروبا (اليونان والبيزنطيون والصقالبة والفرنجة) ، ثم الليبيون والأفارقة عامة ، ويلى هذا الترك ، فسكان الهند والسند وأخيرًا الصينيون ومعهم الكوريون . ومن الغريب أن لديه فكرة وحدة الشعوب السامية وذلك قبل عهد طويل من ظهورها كنظرية علمية فى أوروبا ؛ ولكن ليست لديه تسمية جامعة خاصة بهم . أما باقى الكتاب وهو ما يقرب من أربعة أخماسه فيغلب عليه الطابع التاريخى . وإن اتساع أفق المسعودى ليظهر بجلاء أيضًا فى مصنفه هذا وهو لا يقتصر على تاريخ العرب وحدهم بل يولى اهتمامًا كبيرًا لتاريخ إيران القديمة ولوصف المقاطعات البيزنطية بل ولتاريخ الكنيسة المسيحية .

179 ومن المستحيل إنكار ما يمتاز به المسعودى من تنوع النشاط العلمى وما يتصف به من موضوعية فى الحكم على ما يتعلق بالشعوب والأديان ؛ فهو يسأل باهتمام ممثلى مختلف العقائد ويفحص بانتباه فائق كتبهم ويتعرف جيدًا على آدابهم ، وكان موقفه محايدًا إزاء النصارى واليهود والصابئة . وفى أثناء تحرك القرامطة على بغداد اطلع المسعودى على تعاليمهم وكتبهم بل حادث دعاتهم الذين رفضوا تعاليم أهل السنة وأخذوا على عاتقهم تفنيدها دون معرفة جيدة بها[١٤] . وإن تعدد نواحى اهتمامه لمدهش حقًا فهو يجمع بشغف المعلومات عن اقتران البحر الأسود ببحر قزوين كما يجمعها أيضًا حول موضوع : هل يمكن لوحيد القرن أن يمكث سبعة أعوام فى بطن أمه ؟ وفى الإسكندرية يبحث بالكثير من الاهتمام انهيار منارة فاروس Pharos المشهورة فى زلزال عام ٣٤٤ هـ = ٩٥٥ ؛ وفى سجستان يورد أول خبر معروف عن طواحين الهواء[١٥] ؛ وفى المنصورة بالهند يراقب حياة ثمانين فيلا ملكيًا . وإنه لمما يدعو إلى الدهشة تمكنه من جمع وتحليل كل هذه المادة الضخمة .

غير أن منهجه فى التبويب لا يرقى إلى المستوى المطلوب فقد كان من الصعب عليه أن يأخذ

---

(١٤) المسعودى ، BGA, VIII, p. 384 ص ٣٨٤ وص ٣٩٦

(١٥) Sarton, Introduction. I, p. 638-

نفسه باتباع منطق صارم سواء فى التفكير أو التعبير . وقد كان يزاول عمله بعجلة فائقة بحيث أضحى من العسير عليه أن يكون دائمًا فى حالة تسمح له بتحليل المادة المتنوعة التى جمعها من مختلف المصادر عن شعوب نائية . وقد أبان دوزى Dozy فيما يتعلق بالأندلس أنه لم يكن واضحًا بالنسبة للمسعودى أحيانًا الفرق بين أسماء الأعلام والأسماء العامة[١٦] . ومهما يكن من شىء فإن المسعودى يقف على قمة المعارف الجغرافية لعصره وكان دائمًا يتطلع إلى الحصول على أحدث المعلومات عن البلاد التى لم يزرها بنفسه .

وطريقته فى التأليف تعتمد على العرض الأدبى لا على الإسناد ؛ ومن ثم فإنه نادرًا ما يشير إلى مصادره . وما من شك فى أن مجال اطلاعه وقراءته كان واسعًا ، ولكن هذا لا يبدو لنا جليًا ، سواء عن قصد أو غير قصد ، خاصة فى معطياته الأثنوغرافية ، وهو شىء يعتبر بالنسبة لنا خسارة لا تعوض . وهو يشير بإيجاز إلى السابقين له فى مضمار الجغرافيا وفى حدود معلوماتنا عنهم ، فنلتقى عنده بأسماء الممثلين الرئيسين لنمط المسالك والممالك[١٧] كالسرخسى والجيهانى الذى لم يصلنا مصنفه وابن خرداذبه المعروف لنا جيدًا . وهنا يظهر لنا بجلاء سعة أفق المسعودى فهو لا يخشى أن يذكر أسماء الشخصيات التى كانت ممقوتة فى عصره ، فمثلا يشير فى خاتمة تعداده للجغرافيين إلى كتاب « النواحى والآفاق » الذى يروى « الأخبار عن البلدان وكثير من عجائب ما فى البر والبحر » . ومؤلفه هو محمد[١٨] بن أحمد بن النجم الذى اشتهر /باسم ابن أبى عون الكاتب[١٩] 180
وهو أحد أتباع الزنديق المعروف الشلمغانى وقد أعدما سويًا فى عام ٣٢٢ هـ = ٩٣٤[٢٠] ؛ ولعل هذه الظروف هى التى دفعت مؤلف كتاب « الفهرست » ، على نحو ما فعل بعض معاصريه من المؤرخين ، إلى أن يصفه بأنه « ناقص العقل »[٢١] ؛ وكان كتابه معروفًا لياقوت فى القرن الثالث عشر[٢٢] . ويختتم المسعودى كلامه عن السابقين له باستطراد طريف يتحدث فيه عن

---

(١٦) -Dozy, Rechrches, 1³, p. 168-170

(١٧) المسعودى ، BGA, VIII ، ص ٧٥

(١٨) هناك اختلاف حول الاسم : الفهرست ، ص ١٤٧ ؛ ياقوت ، الإرشاد ، الجزء الأول ص ٢٩٦ .
حيث يوجد : إبراهيم بن محمد إلخ .

(١٩) المسعودى ، BGA, VIII ، ص ٧٥

(٢٠) شرحه ، ص ٣٩٧ – ياقوت ، الإرشاد ، الجزء الأول ص ٢٩٧ ؛
راجع : Bartold, IAN, 1918 p. 790

(٢١) الفهرست ،، ص ١٤٧

(٢٢) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٧ = ياقوت ، الإرشاد ، الجزء الأول ص ٢٩٧ .

أهمية المؤلفات القديمة والحديثة[٢٣] ؛ وتنعكس فيه بمهارة الخصومات الأدبية التي كانت تهز مختلف الدوائر الاجتماعية فى ذلك العصر . قال :

« فكل استفرغ وسعه وبذل مجهوده وقد يدرك الواحد منهم ما لا يدركه الآخر وقد ذكرنا فى كتابنا هذا وما سلف قبله من كتبنا التى هذا سابعها أخبار العالم وعجائبه ولم نخله من دلائل تعضدها وبراهين توتدها عقلا وخبرًا وغير ذلك مما استفاض واشتهر وشاهد من الشعر على حسب الشيء المذكور وحاجته إلى ذلك ونحن وإن كان عصرنا متأخرًا عن عصر من كان قبلنا من المؤلفين وأيامنا بعيدة عن أيامهم فلنرجو أن لا نقصر عنهم فى تصنيف نقصده وغرض نؤمُّه وإن كان لهم سبق الابتداء فلنا فضيلة الاقتداء وقد تشترك الخواطر وتتفق الضمائر وربما كان الآخر أحسن تأليفًا وأتقن تصنيفًا لحنكة التجارب وخشية التتبع والاحتراس من مواقع الخطأ ومن ها هنا صارت العلوم نامية غير متناهية لوجود الآخر ما لا يجده الأول وذلك إلى غير غاية محصورة ولا نهاية محدودة وقد أخبر الله عز وجل بذلك فقال وفوق كل ذى علم عليم[٢٤] . على أن من شِيم كثير من الناس الإطراء للمتقدمين وتعظيم كتب السالفين ومدح الماضى وذم الباقى وإن كان فى كتب المحدثين ما هو أعظم فائدة وأكثر عائدة وقد ذكر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أنه كان يؤلف
181 الكتاب الكثير المعانى الحسن النظم فينسبه إلى نفسه فلا يرى الأسماع/تصغى إليه ولا الإرادات تيمَّمُ نحوه ثم يؤلف ما هو أنقص منه مرتبة وأقل فائدة ثم ينحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون أو غيرهما من المتقدمين ومن قد طارت أسماؤهم من المصنفين فيقبلون على كتبها ويسارعون إلى نسخها لا لشيء إلا نسبتها إلى المتقدمين ولِمَا يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو فى عصرهم ومنافسته على المناقب التى يخص بها ويُعنى بتشييدها وهذه طائفة لا يعبأ بها كبار الناس وإنما العمل على ذوى النظر والتأمل الذين أعطوا كل شيء حقَّه من العدل ووفوْه قسطه من الحق فلم يرفعوا المتقدم إذ كان ناقصًا ولم ينقصوا المتأخر إذ كان زائدًا فلمثل هؤلاء تُصنَّف الكتب وتدوَّن العلوم » .

أما ذوق المسعودى الأدبى فيتضح بجلاء من حكمه على الجاحظ فى كتابه « مروج الذهب » قال[٢٥] :

---

(٢٣) المسعودى ، BGA, VIII ، ص ٧٥ – ٧٧ Carra de Vaux, Maçoudi, p. 110-111.

(٢٤) القرآن ، ١٢ ٧٦

(٢٥) المسعودى ، المروج ، الجزء الثامن ، ص ٣٤ – ٣٥

« وقد كان أبو الحسن المدائنى كثير الكتب إلا أن أبا الحسن المدائنى كان يؤدى ما سمع وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلو صداء الأذهان وتكشف واضح البرهان لأنه نظمها أحسن نظم ووصفها أحسن وصف ورصفها أحسن رصف وكساها من كلامه أجزل لفظ وكان إذا تخوّف ملل القارىء وسآمة السامع خرج من جدّ إلى هزل ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة وله كتب حسان منها كتاب البيان والتبيين وهو أشرفها لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم وغُرَر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب مالو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به وكتاب الحيوان وكتاب الطفيليين وكتاب البخلاء وسائر كتبه فى نهاية الكمال » .

ونحن نعلم جيدًا أنه رغمًا من هذا الإعجاب فإن المسعودى لم يأخذ مصادره الأدبية على علاتها بل وقف منها موقف الناقد ، وقد أبصرنا من قبل كيف فحص باهتمام شديد رواية الجاحظ عن السند والنيل وكيف كان يقارن المادة المكتوبة بالمعطيات الواقعية فى وصفه للطرق المختلفة ذاكرًا فى كثير من الأحايين أين ومتى التقى بالمسافرين ، المشهور منهم والمغمور ، فمن أولئك يذكر صاحب وصف طريق الهند والصين أبا زيد السيرافى . ومما يكفر عن افتقار مصنفاته إلى التنظيم والتبويب أنه لا يتبع اتباعًا أعمى المنهج التأليفى السائد فى الجغرافيا العلمية آنذاك ، بل يفرد مجالا
واسعًا للمعلومات الجغرافية المأخوذة مباشرة من الرحالين والتجار ،/ولم يكن من النادر أن تتجه 182
عواطفه نحو الأخيرين . وهو يلفت النظر إلى التباين بين النظرية الموجودة فى الكتب والمشاهدات الواقعية فيما يتعلق بامتداد المحيط الهندى[٢٦] . أما الجغرافيا الفلكية فإنه لم يشعر نحوها بميل كبير ، وقد مر بنا فيما سبق رأيه الغريب القائل بأن جميع المدن الكبرى لإقليم ما تقع على خط عرض واحد[٢٧] .

ولم يكن بمقدور مصنفات المسعودى أن تظفر بانتشار واسع بسبب ضخامة حجمها ، غير أن الصغرى من بينها نالت صيتًا يعادل الصيت الذى ناله اسمه ومنهجه فى التأليف . ولعل هذا يفسر لنا لماذا نسبت إليه أكثر من مرة مصنفات منحولة كان أكبرها شهرة « كتاب أخبار الزمان وعجائب البلدان » أو « مختصر العجائب والغرائب » المعروف فى عدد كبير من المخطوطات خاصة بالمكتبة الأهلية بباريس Bibliotheque Nationale ، وهى التى قام بفحصها كارا دى فو[٢٨] . وينقسم الكتاب إلى قسمين غير متساويين ، أولهما وهو الأصغر يبحث فى خلق

---

(٢٦) -Kramers, Legacy, p. 87

(٢٧) شرحه ، ص ٨٨

(٢٨) -Carra de Vaux, L' Abrégé

العالم وعجائب الأمم القديمة ، وهنا يفرد مكانًا خاصًا للأساطير المتعلقة ببحر الهند والتى ترتبط بعض الارتباط بكتاب « عجائب الهند » ؛ أما القسم الثانى والأكبر فيعالج التاريخ الأسطورى القديم لمصر ؛ وهو لا يعتمد فيه على المصادر اليونانية أو الروايات الهيروغليفية . وفى بعض المخطوطات ينسب هذا الكتاب إلى المسعودى[٢٩] ولكن يستحيل عقلا أن يكون من تأليفه سواء من ناحية الموضوع أو الشكل ؛ أضف إلى هذا أن المسعودى لا يذكره فى ثبت مؤلفاته وأن تلك الفصول من « مروج الذهب » التى يرد فيها الكلام عن مصر لا تذكّر فى شىء بكتاب « مختصر العجائب »[٣٠] سواء من ناحية العرض أو الترتيب . ويزيد فى تعقيد المسألة المحيطة بشخصية مؤلف الكتاب عامل آخر هو وجود مقتطفات منه فى خطط المقريزى منسوبة إلى إبراهيم بن وصيف شاه[٣١] ، وهو مؤلف معروف عاش فى بداية القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) واشتهر بتاريخ له عن مصر يحمل شطره الأول طابعًا أسطورياً كالذى فى « مختصر العجائب » ويصل إلى عام ٦٨٨ هـ = ١٢٨٩ فى بعض مخطوطاته ، وقد يمتد أحيانًا إلى عام ٩٢٣ هـ = ١٥١٧ وما يليه . وهذا الكتاب تمثله مسودات مختلفة تحمل عناوين متباينة[٣٢] ، وهناك ترجمة تركية معروفة لمختصره تحمل عنوان « جواهر البحور ووقائع الأمور »/تمتد روايتها إلى 184
القرن السادس عشر . وبتحليله لمخطوطة لنينجراد بيَّن روزن أنه فيما يتعلق بمعالجته لتاريخ مصر القديمة فإنه يمثل أثرًا من آثار « العصبية » القبطية[٣٣] . ورغمًا من التشابه فى الموضوعات فإن « مختصر العجائب » لا يمكن أن يكون من تأليف ابن وصيف شاه لأن التواريخ فيه لا تتجاوز القرن العاشر ، ويصبح من المريب أن يقف ابن وصيف شاه عند هذا العصر إذا كان الكتاب قد خرج فعلا من يده[٣٤] . والأرجح أنه يمثل مسودة لأحد مصادره فقط أو أنه يمثل مسودة أولية لكتاب جرت فيه يد ابن وصيف شاه بالتعديل . وقد عرف هذا المصنف مبكرًا فى أوروبا ونقله إلى الفرنسية فاتييه Vattier منذ عام ١٦٦٦ معتمدًا على مخطوطة فقدت بالتالى ونسبه إلى شخص ثالث من نسج خياله[٣٥] . وكل هذا يقف برهانًا على ما أحاط بروايات هذا الكتاب

---

(٢٩) شرحه ، ص XXX
(٣٠) شرحه ، ص XXXIII
(٣١) شرحه ، ص XXXI
(٣٢) شرحه -Brockelmann, GAL, I, p. 335-336, No 5; p. —XXXIII SBI, p. 574-575
(٣٣) -Rosen, Netices Sommaires, p. 167-173, No 220
(٣٤) -Carra de Vaux, L' Abrégé, p. XXXIV
(٣٥) راجع : -Brockelmann, GAL, SBII, p. 1026, No 7; Carra de Vaux, L' Abrégé p. XXVIII and XXXI

ومسوداته المختلفة من اللبس والتعقيد . وتمثل الترجمة العلمية التى قام بها كارادى فو (١٨٩٨) أهمية بالغة سواء فى محيط التاريخ الأدبى أو الفولكلور Folklore ؛ أما القول بأن « مختصر العجائب » من تأليف المسعودى فهو قول لا يستند على أساس من الواقع[٣٦] .

ورحلات المسعودى كما رأينا تشمل ميدانًا واسعًا ووجدت انعكاسًا كبيرًا فى مؤلفاته ، ولكن رغمًا من هذا فقد دخل اسمه فى التاريخ لا كرحالة بل ككاتب . وعلى العكس من هذا برز فى عصره عدد من الرحالين ممن زاروا الأصقاع القريبة من الاتحاد السوفيتى ونالوا شهرة واسعة بفضل أوصاف الرحلات التى خلفوها رغمًا من أن أحدهم تمتع ببعض الصيت كشاعر أيضًا .

ويحتل ابن فضلان المكانة الأولى بينهم سواء من الناحية الزمنية أو الأهمية الذاتية وذلك بسبب رسالته المشهورة التى تجدّد الاهتمام بها فى الأعوام الأخيرة بالدرجة نفسها التى تمتعت بها لأول مرة منذ مائة وعشرين عامًا . وهذا الأثر بلا شك جدير بهذا الاهتمام خاصة فى الآونة الحاضرة بعد أن أصبح لأول مرة فى متناول أيدى الجميع فى طبعة كاملة تقريبًا .

وفيه نجد أثرًا طريفًا بالنسبة لعصره فهو يقدم لنا صورة حية للظروف السياسية فى العالم الإسلامى والعلاقات بين بلاد الإسلام والبلاد المتاخمة لها فى آسيا الوسطى أو الأصقاع النائية التى كانت تمثل أطراف العالم المتمدن آنذاك مثل حوض الفولجا . وتحفل الرسالة بمادة اثنوغرافية قيمة
جدًا ومتنوعة بصورة فريدة ، وهى تمس عددًا من القبائل التركية البدوية/القاطنة آسيا الوسطى 185
وعددًا من الشعوب التى كانت تلعب آنذاك دورًا أساسيًا فى تاريخ أوروبا الشرقية كالبلغار والروس والخزر . كما لا يمكن إنكار قيمتها الأدبية وأسلوبها القصصى السلس ولغتها الحية المصورة التى لا تخلو بين آونة وأخرى من بعض الدُّعابة التى ربما لم تكن مقصودة .

وقد تم إعداد هذه السفارة كطلب بلغار الفولجا الذين أرسلوا رسولا إلى عاصمة الخلافة يرجون العون ضد ضغط الخزر عليهم من الجنوب وأن يُنْفَذ إليهم من يفقههم فى الدين ويعرفهم بشعائر الإسلام الذى اعتنقوه منذ عهد غير طويل ، وقد أرسلت إليهم سفارة تحت رئاسة سوسن الرسى كان من أفرادها أحمد بن فضلان كفقيه ذى خبرة ؛ وعلى الرغم من عدم وجود أية معلومات عنه إلا أنه يحاول دائمًا فى « الرسالة » أن ينسب إلى نفسه الدور الرئيس . هذا وقد غادرت السفارة بغداد فى الحادى عشر من صفر عام ٣٠٩ هـ = ٢١ يونيو ٩٢١ ووصلت إلى بلغار فى

---

(٣٦) يذكر أصل المختصر تحت هذا العنوان حاجى خليفة ، الجزء الثانى ، ص ١٥٠ و٦٤١ ، رقم ٤٢٧٢ : الترجمة التركية بقلم يوسف بن نعمة الله الذى لا نعرف عنه كثيرًا ؛ راجع :
Babinger, GOW p. 121 No 105

الثامن عشر من المحرم عام ٣١٠ هـ = ١٢ مايو ٩٢٢ ؛ وقد مرت فى طريقها بهمدان والرى ونيسابور ومرو وبخارى ، حيث التقى ابن فضلان فى سبتمبر من عام ٩٢١ بوزير السامانيين والعالم الجغرافى الشهير الجيهانى(٣٧) . ثم ساروا مع نهر جيجون إلى خوارزم عند بحر آرال وعبروا صحراء أوست أورت ثم نهر يايق فوصلوا إلى حوض الفولجا . أما تاريخ وخط سير الرجعة فليس معروفًا لدينا إذ أن خاتمة « الرسالة » قد امتدت إليها يد الضياع .

ومن الطبيعى أن يكون علماء الشمال هم أول من سبق إلى لفت أنظار الدوائر العلمية فى أوروبا إلى ابن فضلان ؛ وقد حدث ذلك فى الدنمارك وروسيا . وظلت رحلته معروفة لمدة طويلة عند ياقوت وحده الذى حفظ لنا جزءًا كبيرًا منها فى معجمه الجغرافى ؛ ثم أفرد لها المستشرق الروسى فرين Frähn بحثًا رائعًا كان أشبه ببراعة الاستهلال فى تاريخ الاستعراب الروسى واستمر ثمانين عامًا تقريبًا لا يبزه شىء بل حفز إلى ظهور عدد من البحوث بأقلام ممثلى مختلف الاتجاهات العلمية ، احتل من بينها مكانة مرموقة بحوث روزن وبارتولد . وقد أدى الكشف عن مخطوطة مشهد فى العشرينيات من هذا القرن إلى اتساع المادة عن ابن فضلان بشكل ملحوظ ، وإذا صرفنا النظر عن خاتمتها المفقودة فإن هذه المخطوطة الأخيرة تمكننا لأول مرة من الحكم على الرسالة فى صورتها الكاملة . ولم تلبث دراسة ابن فضلان أن دخلت فى طور جديد بفضل البحث الذى قام به كوفاليڤسكى A. P. Kovalevski (١٩٣٩)(٣٨) ؛ ومن المستحيل بالطبع الجزم بأن جميع المسائل المتعلقة بمتن الرسالة قد حلت نهائيًا ، بيد أن وجود مخطوطة مشهد سيمنع على أية حال من تكرار مثل تلك الأخطاء التى تسربت إلى مؤلفات هنغ Hennig الذى ينسب دائمًا إلى ابن فضلان روايات المؤلف الفارسى عوفى الذى عاش فى أوائل القرن الثالث عشر *(٣٩) .

186 وعلى الرغم من ندرة المعلومات عن شخص ابن فضلان إلا أنه لم يقم هنالك أدنى ريب/حول صحة نسبة الرسالة إليه . وإذا كان البعض قد أبدى ارتيابه من وقت لآخر بشأنها ، كما فعل عالم الآثار اسبتزن Spitzin ، فإن ذلك يمس فى العادة بعض التفاصيل ولا يثبت على محك النقد الدقيق . ويختلف الأمر بالنسبة لرحلة أخرى خرجت من عاصمة السامانيين بخارى متجهة صوب الشرق والجنوب وهى تنسب إلى أبى دلف الينبعى الخزرجى . ورغمًا من وجود بعض

---

(٣٧) -Validi, Ibn Fadlan, p. 6 — M. J. Haschimi, Biruni p. 21, note 2

(٣٨) -A. P. Kovalevski [راجع طبعته الجديدة بخار كوف ، ١٩٥٦]

* نشر أحد العلماء السوريين طبعة جديدة لرحلة ابن فضلان بدمشق عام ١٩٥٩ ؛ كما وأن كوفالڤسكى أخرج بحثًا جديدًا حول موضوع الرسالة . (المترجم)

(٣٩) -Hennig, II, p. 215-220, خاصة p. 216, 218, 221, 222

المعلومات عن المؤلف إلا أن الرحلة نفسها كانت هدفًا للريبة والشكوك . وكما أن المؤلف قد عرف بكنيته فقد عرف أيضًا باسمه مِسْعر بن المهلهل ، وهى أسماء واسعة الانتشار فى وسط الجزيرة العربية منذ أقدم العصور إلى أيامنا هذه وتشير إلى أصله العربى الصريح ؛ أما نسبة « الينبعى » و «الخزرجى » فتؤكد علاقته بميناء ينبع على البحر الأحمر وقبيلة الخزرج بالمدينة ؛ ويبدو أنه أحد الأدباء العديدين الذين مكنتهم وحدة الحضارة الإسلامية فى ذلك العصر من القيام برحلات عريضة . ويظهر أن الأقدار قد بعثت به كشاعر مدّاح متجول إلى بلاط نصر الثانى بن أحمد السامانى (٣٠١-٣٣١ هـ = ٩١٤-٩٤٣) ، وهو ذلك الحاكم نفسه الذى سافر ابن فضلان فى عهده إلى البلغار . وفى أواخر أيام حكمه وصلت إلى بخارى سفارة من الصين حوالى عام ٣٣١ هـ = ٩٤٢ فاغتنم أبو دلف الفرصة وصحبها فى طريق العودة فعبر تركستان الغربية وتركستان الشرقية Sinkiang والتبت ودخل الصين عن طريق غير معروف[٤٠] ، ثم غادرها إلى الهند ومن هناك رجع إلى بلاد الإسلام عن طريق سجستان . ونلتقى به عقب ذلك فى بلاط الوزير البويهى الأديب المشهور الصاحب إسماعيل بن عباد (توفى عام ٣٨٥ هـ - ٩٥٥) ، وهناك وضع « القصيدة الساسانية » الغريبة ، وهى فى لغة ومكائد الشطار والصعاليك الذين اتخذوا لأنفسهم فى ذلك العصر اسم « الساسانيين » الرفيع * . وفى تلك الأعوام نفسها وضع رسالته الثانية فى وصف مشاهد أذربيجان وأرمينيا وإيران مما سيأتى الكلام عنه فى موضعه . وربما كان الصاحب بن عباد هو الذى شجعه على وضعها ، إلا أن أبا دلف أهدى النسخة الأولى منها إلى أولئك الذين سبقت أيديهم عليه من قبل فى ما وراء النهر والذين لم يقطع صلاته بهم فيما يبدو ، أعنى السامانيين . .

ولم يكن وصف رحلة أبى دلف معروفًا معرفة مباشرة حتى الآونة الأخيرة . وإحدى الخدمات العديدة التى طوق بها ياقوت أعناق العلماء هى حفظه لشذرات كبيرة منه ، كما نقل منه أيضًا معاصره الأصغر الكوزموغرافى القزوينى الذى يفتقر إلى الدقة كما هو ديدنه دائمًا . وفى وقت واحد انصرف إلى دراسة الرسالة كل من فستنفلد (١٨٤٢) وشلوزر Schlözer (١٨٤٤) . وقام الأخير بطبعها وترجمتها إلى الألمانية ، مما اعتبر مجهودًا محمودًا بالنسبة لذلك العصر ؛ وشارك

---

(٤٠) Rohr-Sauer, p. 61-

* عن استعمال تلك الفئة لاسم « ساسان » الرفيع راجع مقال كرامرس Kramers فى دائرة المعارف الإسلامية واستدرك عليه بتعليق الإمام الشيخ محمد عبده فى شرحه لمقامات الهمذانى (المقامة الساسانية) . (المترجم)

فى ذلك/ المستشرق فرين مشاركة فعالة . هذا ويرجع أول بحث جدى عن أبى دلف إلى العلامة 188
الروسى غريغوريف V. V. Grigoriev (١٨٧٢) ، كما يعتبر البحث الذى قام به المستشرق روزن[٤١] ، وهو لمّا يزل طالبًا ، خطوة إلى الأمام فى دراسة الموضوع . غير أن النتائج التى خرج بها غريغوريف لا تبعث على الاطمئنان ، فهو يجد عند أبى دلف « خلطًا لا مثيل له فى العرض »[٤٢] ويعتقد أن « القصة لا تقوم على أساس من الواقع بل هى جمع لشتات ما قرأه وسمعه من آخرين[٤٣] » . وهذه الآراء قد رددها غريغوريف دون تعديل فى المؤتمر الدولى الثالث عشر للمستشرقين الذى عقد فى بطرسبورغ فى عام ١٨٧٦[٤٤] ؛ وقد ظلت تلك هى وجهة النظر السائدة إلى أيامنا هذه . وقد قام ماركفارت بدراسة خط سير أبى دلف إلى عاصمة الصين (١٩٠٣)[٤٥] ؛ ورغمًا من أن بارتولد قد أماط اللثام فيما يتعلق بإحدى تحقيقات ماركفارت عن مدى الخطورة التى تكمن فى طيات فروضه إلا أنه عاد فاعترف بأن قصة الرحلة « مدلسة » (« قصة أسفاره التى لا شك أنها مدلسة ») ، واختتم كلامه بقوله « ومادامت قصة السفارة لا يسندها مصدر آخر يوكد صحتها فسيظل محتاجًا إلى جواب شاف مدى ارتباط هذه الرحلة ودوافعها بواقع الأحوال التاريخية »[٤٦] . وإلى هذه النتائج نفسها بالتقريب انتهى أحد البحاثة المتأخرين ممن عالجوا هذا الأثر وهو مينورسكى (١٩٦٧) ، فهو يرى فى الرحلة سلسلة من الوقائع التى لا يربط بينها شىء ، بعضها حقيقى وبعضها من نسيج الخيال[٤٧] ، أما وصف طريق الرحلة فيرى فيه خلطًا وتعقيدًا شديدين ويعتبره خلوًا من أية قيمة عملية[٤٨] بحيث يضحى من الأفضل أن يؤخذ هذا الأثر بوصفه خلاصة للتصورات الجغرافية التى كانت سائدة فى شرقى العالم الإسلامى آنذاك عن الصين وآسيا الوسطى والهند ، يعرضها أبو دلف عرضًا يفتقر إلى الدقة والمهارة أضف إلى هذا أن نسبتها إليه تعتمد على مجرد افتراض .

غير أن لهذه المسألة جانبًا آخر أشبه ما عليه الأمر مع سلام الترجمان الذى مر ذكره يمنعنا من قبول ذلك الحل قبولا نهائيًا : ذلكم أن رحلة أبى دلف إلى الصين واقعة حقيقية لا شك فيها . وتلك

---

(٤١) -Krachkovski , Dopolnenia p. 271, 8 A

(٤٢) -Grigoriev, Abu Dulaf, p. 3

(٤٣) شرحه ، ص ١٩

(٤٤) -Grigoriev, Trudy, I; p. XXXIX, No 22, LVII

(٤٥) -Markwart, Streifzüge p. 74-75

(٤٦) -Barthold, Sandabil, p. 158

(٤٧) -Hudud, p. 225

(٤٨) شرحه ، ص ٣٠٦

القصص الورادة على لسانه فى « الفهرست[٤٩] » ، وهو مصدر معاصر له تقريبًا ، تحمل جميع الدلائل على رجحان حدوثها ولم تثر أدنى شك لدى خبير بالموضوع مثل فيران (١٩١٣)[٥٠]/ . هذا ويلاحظ أن روسكا Ruska ، الخبير الكبير فى تاريخ العلوم الدقيقة 189
عند العرب ، يلفت النظر إلى أن قصة تسلق أبى دلف لجبل دماوند (دنباوند) * التى حفظها لنا القزوينى تمثل شيئًا طريفًا للغاية وأن اهتمامه بظواهر الطبيعة يضطرنا إلى الوقوف موقف الاطمئنان من رواياته والبعد بها عن مواطن الرِّيَب الواهية[٥١] .

هذا الفارق فى التقدير الإيجابى للكاتب والتقدير السلبى للقصة المرتبطة برحلته من بخارى قد اضطر الباحثين إلى ترك الباب مفتوحًا فيما يتعلق بمدى صحة نسبتها إليه لحين الحصول على معلومات جديدة ؛ وهو ذات الرأى الذى نادى به بارتولد وذلك عند تقييمه لمادة الرسالة من وجهة نظر التاريخ . وأول خطوة فى هذا السبيل كانت الدراسة الدقيقة لمسودة مصنف أبى دلف التى حفظتها لنا مخطوطة مشهد فى شكل رسالتين منفصلتين ؛ وهى المخطوطة نفسها التى تضم قسما من مصنف ابن الفقيه وأيضًا رسالة ابن فضلان . وبالرغم من أن الترجمة والبحث الذى قام به رور زاور Rohr-Sauer (١٩٣٩)[٥٢] لا يمكن اعتباره بأية حال من الأحوال دراسة شاملة إلا إنه قد تمخض عنه عدد من الاعتبارات الجديدة ، ذات طابع خاص وعام . فقد وضح أنه لا أساس للقول بأن الرحلة من نسج الخيال[٥٣] ، إذ ثبت مثلا صحة المعلومات التى أوردها عن والى سجستان فى ذلك العهد ، وكان العلماء يرفضون الاعتراف بصحتها منذ أيام غريغوريف[٥٤] . وبعض التفاصيل المتعلقة بزيارته للصين وجدت توكيدها فى وصف السفارة المتأخرة التى بعث بها شاهرخ[٥٥] إلى تلك البلاد ، كما تم الاعتراف بدقة ملاحظة أبى دلف فى محيط الظواهر الطبيعية والتاريخية . وفيما عدا هذا فيمكن القول الآن وبصفة قاطعة إنه قد ثبت أن روايته لا تمثل يوميات أو وصفًا للطريق بل تم تدوينها من الذاكرة وبعد مدة طويلة من حدوث الرحلة على ما يظهر ومع عدم

---

(٤٩) الفهرست ، ص ٣٤٦ – ٣٤٧ ، ٣٥٠ – ٣٥١

(٥٠) Ferrand, Relations I, p. 132-134-

* جبل دماوند Demavend قرب طهران وفى القاموس « دُنْبَاوَنْدْ والعامة تقول دماوند » . (المترجم)

(٥١) Ruska, GZ, XXXIII, p. 591-

(٥٢) Rohr-Sauer-

(٥٣) شرحه ، ص ٤١

(٥٤) شرحه ، ص ٤٢ – ٤٥

(٥٥) شرحه ، ص ٥٧

مراعاة التسلسل التاريخى حين الكلام على زيارته للقبائل والأماكن المختلفة ؛ وإلى جانب ما شاهده بعينى رأسه أضاف أبو دلف غير قليل مما سمع ولم يفرِّق بين الاثنين[٥٦] . والخلاصة أنه ليست هناك أدلة قاطعة تثبت أن الوصف لم يعتمد على رحلة واقعية أو أنه لم يكن سوى مجموعة من القصص المنسوبة إلى أبى دلف *[٥٧] .

هذا وقد وصل الرحالة العرب إلى أوروبا لا من ناحية المشرق وحده بل من المغرب كذلك .
190 ولدينا فى ذلك أثر ممتاز /هو مصنف إبراهيم بن يعقوب الذى حفظ لنا جزءًا منه الجغرافى والأديب الأندلسى للقرن الحادى عشر البكرى ، وأيضًا كوزموغرافى القرن الثالث عشر القزوينى . وإبراهيم بن يعقوب عالم أندلسى يهودى كان يشتغل بتجارة الرقيق وقد جال فى جنوب ألمانيا فى عام ٩٦٥ وقابل الإمبراطور أوتو **Otto** فى مجدبرج **Magdeburg**[٥٨] وحفظ لنا معلومات واسعة عن إمارات الصقالبة فى أوروبا الوسطى فى ذلك العصر ، ويحدثنا عن أربعة منها هى بلغاريا وبولندا والتشك وإمارة ناقون الأبدريتى **Nakon of Obdorites** . كما يورد تفاصيل وافية عن بعض المدن الساحلية أو القريبة من الساحل بفرنسا وهولندا وألمانيا ، ومن الطبيعى أن يجتذب مصدر هام فريد فى نوعه كهذا اهتمامًا خاصًا من جانب العلماء الألمان والسلاف الذين ندين لهم قبل غيرهم ببحوث كثيرة ومتنوعة عن إبراهيم .

وجميع هذه البحوث تعتمد على كتاب كونيك وروزن (١٨٧٨ — ١٩٠٣) ، الذى بقى إلى الآن أفضل بحث فى هذا الموضوع . ويشمل الجزء الأول[٥٩] من هذا البحث متنًا وترجمة لجميع ما حفظه لنا البكرى من رواية إبراهيم فى كتابه « المسالك والممالك » ، وذلك اعتمادًا على المخطوطتين المعروفتين آنذاك (إحداهما للمستشرق الإسبانى غايانغوس **Gayangos** والأخرى بالقسطنطينية) . وتمثل البحوث العديدة التى قام بها جورج ياكوب **G. Jacob** ابتداء من عام ١٨٨٩ خطوة إلى الأمام فى دراستها ، وكذلك بحوث فستبرج **F. Vestberg** التى ترجع إلى نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين . والميزة الكبرى لياكوب ، إلى جانب تحليله العميق

---

(٥٦) شرحه ، ص ٥٦ ، ٥٩ ، ٧٠ — ٧١

* ظهرت طبعتان للرسالة الثانية لأبى دلف فى الآونة الأخيرة ، إحداهما لمينورسكى (القاهرة ١٩٥٥) والأخرى لمستشرقين سوفيتيين هما بلغاكوف وخالدوف (موسكو ١٩٦٠) . (المترجم)

(٥٧) شرحه ٧١

(٥٨) -Jacob, Studien, IV, p. 136 = Hennig

(٥٩) -Kunik, Rozen

للمادة ، هى دراسته المنظمة لما حفظه لنا القزوينى عن إبراهيم و إفادته من مخطوطة جديدة للبكرى كشف عنها لاندبرج Landberg .

هذا وقد أدت المقارنة بين القزوينى والبكرى إلى ظهور فكرة معقدة لدى ياكوب عن وجود شخصيتين عربيتين زارتا ألمانيا ، وهو ما يسمى بفرض (hypothesis) « إبراهيم – الطرطوشى » الذى أصر عليه ياكوب أكثر من مرة خلال اثنين وأربعين عامًا[٦٠] ، على الرغم من أنه قد جر أحيانًا إلى اعتراضات شديدة بسبب غرابته ومجافاته للواقع . وجوهر فكرة ياكوب يمكن إيجازه فيما يلى[٦١] :

فى وقت واحد بالتقريب وعلى حدة وجه الحكام العرب سفارتين إلى بلاط أوتو الأول ، إحداهما بعث بها الفاطميون من شمال افريقيا بطريق البحر إلى إيطاليا فجنوبى ألمانيا . أما الثانية وهى سفارة خليفة قرطبة فقد بدأت سيرها من اسبانيا وسارت فى محاذاة الأطلنطى وبحر الشمال مارة فى طريقها على بوردو وروان وأوترخت ، ثم عبرت شلزفيج إلى بادربورن وسست وفلدا إلى ماينز . وقد
191 اشترك فى هاتين الرحلتين شخصيتان تركت كل منهما وصفًا لرحلتها ، ويحمل كل منهما/اسم إبراهيم بطريق الصدفة . فالسفارة التى خرجت من افريقيا صحبها إبراهيم بن يعقوب وهو يهودى مغربى ، بينما صحب سفارة قرطبة إبراهيم بن أحمد الطرطوشى . وقد استقبل أوتو الأول كلا السفارتين فى عام ٩٦٥ بمجدبرج واستمع كلا الرجلين إلى حديث الإمبراطور عن أقطار أوروبا الوسطى . وعند عودتهما دوّن كل منهما انطباعاته وما سمعه عن الإمبراطور . وعلى هذا الأساس يمكن تفسير اتفاقهما فى تفاصيل القصة .

وعلى الرغم مما يحيط بهذا الفرض من التكلف والصنعة فإنه يقوم على أساس الاختلاف فى اسمى الرجلين كما ورد فى الشذور المتبقاة والتى باستثناء هذا تتفق فى فحواها . والبكرى يدعوه عادة إبراهيم بن يعقوب ، بينما يدعوه القزوينى بالطرطوشى ، ولكن يرد لديه مرة فى صورة « إبراهيم بن أحمد » . ومن هذه الصورة الأخيرة يتضح أنه مسلم وليس يهوديًا ، الأمر الذى لا يرتقى إليه الشك فيما يتعلق بمصدر البكرى[٦٢] . هذه المسألة المعقدة قد حلها العالم البولندى كوفالسكى Kowaleski فوضع بذلك حدًا نهائيًا « لفرض » ياكوب[٦٣] .

---

(٦٠) -Jacob, Studien,IV, p. 127-150 —Jacob, Arab. Berichte, p. 11-18

(٦١) -Kowalski, Z hadan, p. 134

(٦٢) شرحه ، ص ١٣٥

(٦٣) شرحه ، ص ١٣٣ – ١٣٧

فعلى مدى الأعوام الطويلة التى قضاها كوفالسكى فى تحضير طبعة جديدة لرسالة إبراهيم بن يعقوب(٦٤) أمكنه أن يفيد كثيرًا من مخطوطة لكتاب البكرى كان قد تم الكشف عنها حديثًا فى مراكش ؛ وقد وضح أن هذه المخطوطة ليست فى الواقع بذات قيمة كبيرة وأنها لا تخلو من العيوب ، فضلا عن أنه ينقصها القسم من رواية إبراهيم الخاصة بالصقالبة . إلا أنها فى مقابل هذا تحمل الاسم الكامل للرحالة على شكل « إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلى الطرطوشى »(٦٥) بحيث أصبح من اليسير إثبات أن الاسمين السابقين إنما هما فى حقيقتهما لشخص واحد . ومما يوكد صحة هذا أنه قد تم فى الأعوام الأخيرة نشر عدد من الآثار المهمة فى محيط الأدب العربى الأندلسى التاريخى منه والجغرافى ، وأنه فى أحد هذه الآثار وهو من تأليف عبد المنعم الحميرى ، أحد رجالات القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، نلتقى بالوصف ذاته لمدينة لورقه **Lorca** بأسبانيا الذى ينسبه القزوينى إلى إبراهيم بن أحمد الطرطوشى مع اختلاف جوهرى هو أن اسم أحمد هذا لا وجود له فى رواية الحميرى ، ومن ثم فإنه يجب أن يؤخذ ذلك بوصفه سهوًا إمّا من القزوينى نفسه أو من أحد النساخ . وبهذا يزول اللبس والغموض الذى أحاط بتحديد شخصية المؤلف . ومما يدعم هذا أن المخطوطة المراكشية الجديدة للبكرى التى تنقصها رواية إبراهيم عن الصقالبة قد وردت بها فى مقابل ذلك عدة مقتطفات فى وصف الأندلس غير موجودة بالمخطوطات الأخرى ويظهر فيها اسم إبراهيم بن يعقوب بصفته حجة ثقة فى مسائل اسبانيا النصرانية ، كما ترد فيها أيضًا إشارة عابرة إلى محادثة له مع « قيصر الروم »(٦٦) . ولا شك أن المقصود بهذا هو الإمبراطور/أوتو الذى وردت 192
الإشارة إليه فى القطعة المعروفة لنا عن الصقالبة(٦٧) .

بذا يمكن القول بأنه قد ثبت بصفة قاطعة أنه قد عاش فى القرن العاشر رحالة عالم من الأندلس يدعى إبراهيم بن يعقوب اليهودى الطرطوشى نسبة إلى طرطوشة **Tortosa** بالأندلس ؛ وهو لم يكن تاجرًا فحسب كما كان يظن عنه إلى الآن ، بل كان من المحبين لاقتناء الكتب وخبيرًا ماهرًا بأنحاء اسبانيا وفرنسا وألمانيا وبلاد الصقالبة الغربيين(٦٨) كما كان شخصًا مثقفًا دقيق الملاحظة يستطيع قراءة النقود الكوفية ويعرف عن نصر بن أحمد السامانى وسمرقند النائية والتوابل التى تجلب

---

(٦٤) -Kowalski, Z jazdy, III-VI, 1934, p. 63-64

(٦٥) -Kowalski, Z hadan, p. 135

(٦٦) تاريخ ٣٠٥ هـ = ٩١٧ عرضة للشك -Lévi-Provencal, La Péninsule, p. 206-207

(٦٧) -Kowalski, Zhadan, p. 136

(٦٨) شرحه ، ص ١٣٧

من الهند[٦٩] . أما وصف رحلته فلم يبق منه سوى شذرات عرفت منها الأقسام الخاصة بألمانيا والصقالبة وهى التى حفظها لنا العذرى والبكرى والقزوينى ، وانتقلت منهم إلى مؤلفين متأخرين مثل ابن سعيد الغرناطى وأبى الفداء والدمشقى وإلى الكاتبين التركيين سباهى زاده والباكوى . ويبدو أن وصفه للأندلس الذى أماطت عنه اللثام المخطوطة المراكشية للبكرى ووجد أيضًا لدى القزوينى والحميرى كان واسع الانتشار ؛ ومن الممكن أيضًا أن ترجع إليه شذور عديدة فى تلك الموضوعات نفسها عند المؤلفين الذين ذكرناهم ولكن ليس هناك إشارة إلى مصدرها .

ومن الخطل الاعتقاد بأن رحلات العرب فى القرن العاشر قد اقتصرت على الشرق والشمال ؛ وسيرد الحديث عن الرحلات إلى الغرب فى الفصل القادم عند الكلام على ابن حوقل . وهناك احتمال بأن يكون الجنوب قد اجتذب أيضًا بعض الاهتمام ولكن لم يصل إلينا عن ذلك إلا النزر اليسير ؛ وتمثل أهمية جوهرية فى هذا الصدد رحلة ابن سليم الأسوانى[٧٠] إلى بلاد النوبة حوالى عام ٣٦٥ هـ = ٩٧٥ ؛ وكان قد بعث به القائد الفاطمى جوهر الصقلى إلى ملك النوبة فى مهمة دبلوماسية ووضع كتابًا بعنوان « كتاب أخبار النوبة والمُقُرَّة وعَلْوَه والبجه والنيل » . وفيه وصف دقيق لكل النواحى التى رآها ولسكانها وقد حفظت لنا شذرات منه لدى المقريزى[٧١] وابن إياس[٧٢] ؛ ويمتاز وصفه للنيل بالكثير من الدقة على الرغم من أنه يخضع أحيانًا لتأثير الرواية المنقولة التى تستتر وراء الملاحظة المباشرة . ويوشك هذا الوصف أن يكون هو الوصف الوحيد فى الأدب العربى للعصور الوسيطة الذى يبين لنا المدى الذى وصلت إليه معرفة العرب بمجرى الأعلى للنيل ، ولم يكن لروايته أى تأثير على المصنفات الجغرافية التالية فوصف الإدريسى مثلا/ 193
لمجرى النيل الأعلى يدل دلالة واضحة على مدى النقص الذى كان يعانيه ذلك المؤلف فى المصادر التى تحت يده والتى لم تكن إلى جانب هذا واضحة له على الدوام[٧٣] .

ومن الثابت أن ابن سليم الأسوانى لم يكن المثال الفريد للكاتب المغمور الذى أسدل عليه النسيان ستاره فى الأدب الجغرافى للقرن العاشر ، فإلى جانب كبار المؤلفين المعروفين لنا جيدًا

---

(٦٩) -Jacob, Studien, II, p. 52

(٧٠) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 410, No 12

(٧١) -Guest, El-Maqrisi, p. 109, 115 —Quatremère, «Khitat» Al-Makrizi, Journal des Savants, 1856, p. 327

(٧٢) -Arnold, Chrestomathia, p. 54, X

(٧٣) -Kramers, Al-Nil, p. 992

والذين مر الكلام عليهم أو سيمر ، هناك عدد غير قليل من الكتاب المجهولين الذين لم يعرف المسلمون عنهم لسبب ما سوى القليل ؛ وفوق ذلك فإن هناك ثلة لم تصل إلينا مؤلفاتهم أو أنها لا تزال فى طى المجهول . وعلى أية حال فإنه رغم افتقارنا إلى المادة فى صورتها التامة فيمكننا أن نقرر بكل اطمئنان أن القرن العاشر هو عصر الازدهار الخلاق للأدب الجغرافى العربى . وإنه لمما يسترعى النظر حقًا ليس هو العدد الكبير من الكتاب المبرزين فحسب بل هو ظهور حركة جديدة يمكن أن يطلق عليها بجدارة اسم « المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية » ، وقد استمرت هذه الحركة لمدة نصف قرن من الزمان تخرج مجموعة من المصنفات يسودها طابع الوحدة والانسجام .

الفصل السابع
المدرسة الكلاسيكية لجغرافيي القرن العاشر

194 لعل الاهتمام الواسع بالموضوعات الجغرافية فى القرن العاشر يتضح بصورة أكثر جلاء من سلسلة المصنفات التى تعكس طراز « المسالك والممالك » . وهذا النمط من المصنفات الجغرافية يرجع فى الأصل إلى وصف للعالم الإسلامى وضعه رجل أصله من بلخ وأخذه عنه وأضاف إليه عالم من ولاية فارس بإيران ؛ وعلى هذا الأخير اعتمد رحالة أصله من بغداد ولكنه عاش طويلا فى شمال افريقيا[١] فصححه واستدرك عليه . وترتبط حلقات هذه السلسلة بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا ، ويندرج فيها من ناحية أو أخرى عدد من المصنفات المماثلة ؛ وهى لا تنفصل عن سلسلة الخارطات المرتبطة بها ابتداء من أول أثر معروف لنا وتخضع لنظام دقيق لم تجر فيه يد التبديل . ومن الطبيعى أن يكون تأثير هذه المجموعة الأصيلة كبيرًا جدًا ؛ وهناك مبرر كاف لأن يطلق على ممثليها الذين يرتبطون فيما بينهم ارتباطًا وثيقًا اسم « المدرسة الكلاسيكية » للجغرافيا الإسلامية . كما يستحق أن يطلق على تلك السلسلة من الخارطات التى تستند عليها أساسًا هذه المصنفات اسم « أطلس الإسلام » الذى يمثل أوج ما بلغته الكارتوغرافيا **cartography** (فن رسم الخارطات الجغرافية) عند العرب[٢] .

ولا تزال غير واضحة المعالم إلى الآن فى جميع تفاصيلها علاقة الحلقات الأساسية الثلاث بعضها ببعض ، على الرغم من أن دراستها قد سارت قدمًا إلى الآونة الأخيرة . وفى بداية السبعينيات من القرن الماضى كتب دى خويه يقول « لعله لم يعرف خلط على الإطلاق أشد من الخلط الذى يرتبط بأسماء الجغرافيين العرب الثلاثة : أبى زيد البلخى والإصطخرى وابن حوقل »[٣] . ومن الطبيعى أن يرجع الفضل الأكبر فى بدء دراسة هذه المسألة إلى دى خويه نفسه ، فهو الذى بطبعه للكتابين المعروفين لنا من هذه المجموعة ، وذلك اعتمادًا على المخطوطات المعروفة لعصره ، بدأ السلسلة المشهورة « مكتبة الجغرافيين العرب » **Bibliotheca Geographorum Arabicorum** ؛ كما وأنه حاول فى بحث خاص له أن يلقى ضوءًا على

---

(١) -Bartold, Istoria izuchenia Vostoka, 2 ed, p. 54

(٢) -Kramers, EI, EB, p. 66

(٣) -De Goeje, ZDMG, 25, p. 42

طبيعة العلاقة بين المؤلفين الثلاثة . وقد اتسعت المادة دون انقطاع خلال السبعين عامًا التى انقضت منذ ظهور ذلك البحث/وبرز فى الآونة الأخيرة جانب منهجى هام لم يكن قد وضح تمامًا 195
حينما نشر دى خويه سلسلته تلك ، ذلك هو وجوب دراسة المتن والخارطات جنبًا إلى جنب عند مؤلفى هذه السلسلة دون أن يفصل بينهما فاصل لأن المؤلفين أنفسهم لم يفصلوا بين الاثنين . وقد أبدى نشاطًا فعالا فى هذا الصدد مواطن لدى خويه من المعاصرين لنا ، أعنى بهذا كرامرس Kramers الذى ندين له فى الأعوام الأخيرة بمجهود جبار فى إلقاء ضوء على هذه المسألة التى ما تزال على الرغم من كل ذلك مستعصية على الحل .

ومما يزيد فى وعورة المسألة قلة المعلومات عن المؤلفين أنفسهم . فالمؤلف الأول ، أى الذى لم يصلنا كتابه بطريقة مباشرة ، هو الوحيد الذى لدينا عنه بعض المعلومات الصحيحة . وعلى النقيض من ذلك الوضع مع المؤلفين الآخرين اللذين وصل إلينا مصنفاهما ، فإنه لم يمكن العثور إلى الآن على أية أخبار عنهما فى المصادر التى بين أيدينا . والمصنف الذى تبدأ به هذه السلسلة ندين به إلى عالم معروف لعصره هو أبو زيد أحمد بن سهل البلخى الذى ولد حوالى عام ٢٣٥ هـ = ٨٥٠ بإحدى قرى بلخ وبدأ نشاطه كمعلم ثم اضطره الاهتمام بدراسة العلوم الشرعية إلى القيام برحلة إلى بغداد مركز الحضارة آنذاك فأقام بها ثمانى سنوات أدى فى خلالها على ما يبدو فريضة الحج ؛ ولم تلبث ميوله أن اتخذت اتجاهًا مغايرًا لما كان عليه الحال فى شبابه فقد وقع تحت تأثير الفيلسوف المعروف الكندى (توفى بعد عام ٢٥٦ هـ = ٨٧٠) وأصبح من ألزم تلامذته به . وهكذا مر البلخى على المدرسة نفسها التى مر بها السرخسى من قبل ، وهو أحد مؤلفى المصنفات الجغرافية المعروفين لنا . وعند رجوعه إلى بلخ لم يغادرها مرة أخرى واشتغل خاصة بمسائل الفلك والفلسفة كأستاذه الكندى وضعف لديه الاهتمام بعلوم الشريعة ، بل ثار الشك حينًا فى صحة عقيدته . وقد حدث أن قامت بينه وبين الجيهانى الجغرافى وزير السامانيين علاقة وطيدة حتى نصحه الأخير بالمجىء إلى بخارى ولكنه امتنع . وشغل البلخى فترة من الزمن وظيفة كاتب لأمير بلخ أحمد بن سهل (حوالى عام ٣٠٧ هـ = ٩١٩ - ٩٢٠) الذى لم يحكم لوقت طويل ؛ وكان البلخى بوجه عام يعتبر نفسه عالمًا وأديبًا من المشتغلين بالتأليف ؛ وارتبط اسمه بما يقرب من ستين مصنفًا لا نعرف منها إلا أسماءها ، أو وجدت فى مخطوطات نادرة لم تفحص بعد . أما المصنف الضخم « كتاب البدء والتاريخ » الذى نسبه ناشره الأوروبى فى بداية الطبعة إلى البلخى نتيجة لسهو ساقته إليه بعض المصادر فقد وضح بالتالى أنه من وضع مؤلف عاش فى آخر القرن العاشر هو مطهر بن طاهر المقدسى .

وفى شيخوخته وذلك حوالى عام ٣٠٨ هـ - ٣٠٩ هـ = ٩٢٠ - ٩٢١ وضع البلخى

مصنفه فى الجغرافيا الذى تختلف أسماؤه باختلاف المصادر ، فهو مرة « صور الأقاليم » وحينًا
196 « أشكال البلاد » وتارة « تقويم البلدان » ؛/وهذا التباين فى العنوان يدل على أن الكتاب لم يكن فيما يبدو معروفًا فى صورته الأصلية حتى فى العهد القريب من عهد المؤلف . وهو يمثل شيئًا أشبه بالأطلس مصحوبًا ببعض التوضيحات ، ويمكن الحكم عليه من ألفاظ المقدسى الذى عاش بعد ذلك بنحو نصف قرن والذى لا تزال ألفاظه هذه مصدرنا الأساسى للتعريف بكتاب البلخى :

« وأما أبو زيد البلخى فإنه قصد بكتابه الأمثلة وصورة الأرض بعدما قسمها على عشرين جزءًا ثم شرح كل مثال واختصر ولم يذكر الأسباب المفيدة ولا أوضح الأمور النافعة فى التفصيل والترتيب وترك كثيرًا من أمّهات المدن فلم يذكرها وما دوَّخ البلدان ولا وطىء الأعمال ألا ترى أن صاحب خراسان استدعاه إلى حضرته ليستعين به فلما بلغ جيجون كتب إليه إن كنت استدعيتنى لما بلغك من صائب رأيى فإن رأيى يمنعنى من عبور هذا النهر ، فلما قرأ كتابه أمره بالخروج إلى بلخ »[٤] .

ومن العسير بالطبع استخلاص أية تفصيلات من مثل هذا التحليل الموجز ؛ ويمكن فقط الإحاطة قليلا أو كثيرًا بالشكل العام لكتاب البلخى من خلال التعديلات المتأخرة التى أدخلت عليه والتى يكتنف تاريخها غموض شديد . ومن الملاحظات التى أبداها المقدسى فى مواضع أخرى يمكن الوصول إلى أن أصل كتاب البلخى كان نادرًا حتى فى عصره[٥] ؛ وعلى الرغم من معرفة ياقوت بوجوده إلا أنه يقتصر على الإشارة إلى الإصطخرى وحده تقريبًا ، ولعله قد وجدت فى يده مسودة واحدة للكتاب[٦] فاعتبر أجزاء متفرقة منها فقط قديمة وترجع إلى البلخى . وقد ثبت بعد الفحص الدقيق أن بعض المخطوطات التى نسبت فى فهارس المخطوطات أو حتى فى الأصل إلى البلخى إنما تمثل فى الحقيقة مسودات لمصنف الإصطخرى أو ابن حوقل[٧] .

وهناك مادة غزيرة فى متناول اليد للحكم على المصنفين الأخيرين . فإلى جانب المخطوطات الفريدة التى اعتمد عليها دى خويه فى إعداد طبعته فقد شهدت الأعوام الأخيرة الكشف عن ما لا يقل عن اثنتى عشرة مخطوطة[٨] باستنبول وحدها ، بعضها قديم جدًا ؛ وكلها تؤكد ازدياد الحاجة

---

(٤) المقدسى ، BGA, III ، ص ٤

(٥) حدود العالم ، ص ١٣ – ١٤

(٦) De Goeje, ZDMG, 25, p. 46-

(٧) راجع : حدود العالم ، ص ١٧ والحاشية **٣**

(٨) Ritter, DI, XIX, p. 55-56-

إلى طبعة جديدة للأجزاء الأولى من « مكتبة الجغرافيين العرب » . وعلى النقيض من وفرة المادة فيما يتعلق بالمخطوطات فإن معلوماتنا عن المؤلفين لا تزال شحيحة كما كان عليه الحال من قبل ، وعلى أية حال فأقل كثيرًا مما هو الشأن مع البلخى . هذا ويمكن أن نستنبط من اسم الأول منهما وهو أبو إسحاق الفارسى الإصطخرى أنه من إيران الوسطى ؛ ويتضح من مطالعة كتابه/أنه قد 197
سافر كثيرًا فزار بلاد ما وراء النهر وإيران وجزيرة العرب والشام ومصر . وقد عنون كتابه على الطريقة القديمة « كتاب المسالك والممالك » وأنهى أول مسودة له وأبو زيد البلخى على قيد الحياة وذلك حوالى عام ٣١٨ هـ – ٣٢١ هـ = ٩٣٠ – ٩٣٣ ، غير أن كتابه قد انتشر فى الشرق بوجه خاص على هيئة طوامير ترتفع إلى المسودة التى عملت حوالى عام ٣٤٠ هـ = ٩٥٠* .

والإصطخرى كغيره من جغرافيى هذه المدرسة يقتصر على وصف العالم الإسلامى وحده مقسما إياه إلى عشرين إقليما ، لا بالمعنى المعروف لنا عن الأقاليم كأحزمة عريضة تضم عددًا من درجات العرض (klimata)، بل كمناطق جغرافية واسعة أو ولايات (regions) . ويلى الكلام العام عن « الربع المعمور » وأبعاده وعن البحار وصف جزيرة العرب وبحر فارس (مع المحيط الهندى) والمغرب (مع الأندلس وصقلية) ومصر والشام وبحر الروم والجزيرة والعراق وإيران الجنوبية والهند وإيران الوسطى والشمالية (مع أرمينيا وأذربيجان وبحر الخزر) ، ويختتم كلامه بوصف بلاد ما وراء النهر [٩] . ويورد الإصطخرى عن كل قطر معلومات عن الحدود والمدن والمسافات وطرق المواصلات ويروى تفاصيل متفرقة عن الحاصلات والتجارة والصناعة وعن الأعراق البشرية. ومعظم التفاصيل تتعلق بالبلاد التى زارها ولكن قد يحدث أحياناً أن يكون للاوصاف الموجزة أهمية خاصة، وقد لاحظ أمارى Amari مثلا أنه «يذكر القليل عن صقلية ولكن ما أورده جوهرى للغاية»[١٠]؛ ويصدق هذا القول على ما ذكره عن جزيرة القلال بالبحر المتوسط وهى ليست بعيدة عن سواحل فرنسا والمرجح أنها جزيرة فراكسينيتم **Fraxinetum** ، وقد احتلها العرب بين عامى ٨٨٩ ، ٩٧٢[١١] . ومعلوماته عن الصقالبة على تناثرها وقلتها لا تخلو من بعض القيمة . ويمكن القول بأن المحاولة التى قام بها هركبى **Harkavi** لجمع شتات هذه المادة ومقارنة بعضها ببعض ، وذلك قبل ظهور طبعة دى خويه ، قد عفا عليها الزمن ؛ وعلى النقيض

---

* ظهرت طبعة جديدة لكتاب الإصطخرى بالقاهرة منذ وقت قصير . (المترجم)

(٩) Nallino Cosmos. XII, p. 46-

(١٠) Amari Bibl. ar-sic. (versione), I, p. XXIV-

(١١) Hudud, p. 191-192, No 28-

من هذ لا تزال تتمتع ببعض الأهمية مقالة المستشرق التشيكى دفورجاك Dvorak (١٨٨٩) رغمًا من افتقارها إلى التحليل الضرورى . وقد وضعت رواية الإصطخرى عن الخزر أمام المؤرخين صعوبات جمة إذ أنه جمع فيها دون فائدة تذكر بين روايتين مختلفتين كما حاول أن يثبت ذلك العلامة الهنغارى كموشكو Kmoshko (١٩٢١)(١٢) . غير أن هذه المشكلة قد حلت بعض الشيء عقب العثور على النص الأكمل لابن فضلان حيث اتضح أن القسم الخاص بالخزر الذى ينسبه ياقوت إلى ابن فضلان إنما هو فى الواقع للإصطخرى .

وكان لكتاب الإصطخرى تأثير كبير لم يقف عند حد الأدب العربى وحده ، فللكتاب عدد من الترجمات الفارسية ترتفع فى العادة إلى المسودة الأولى للكتاب مما دعا إلى ظهور الرأى القائل بأن الإصطخرى قد كتب فى الأصل باللغة/الفارسية(١٣) . ويمتد هذا التأثير من الناحية الزمنية 198
إلى وقت طويل ، فعندما حصلت مكتبة شاهرخ فى القرن الخامس عشر على الأصل العربى للإصطخرى حفز ذلك حافظ آبرو إلى وضع مصنفه الجغرافى(١٤) ؛ أما الترجمة التركية للإصطخرى فترجع إلى عهد السلطان محمد الثالث فى حوالى عام ١٥٩٦(١٥) .

وأما فى الوسط العربى فقد أكمل عمل الإصطخرى معاصره الأصغر منه سنًا أبو القاسم ابن حوقل الذى نعرف عنه إلى حد ما أكثر من سابقه . ومن اسمه يمكن أن ندرك أنه من مدينة نصيبين بالجزيرة ، كما يتضح من خلال ألفاظه أنه بدأ تجواله من بغداد فى رمضان عام ٣٣١ هـ = مايو ٩٤٣(١٦) متخذًا التجارة مهنة له ، ولكنه ربما كان فى الحقيقة داعيًا سياسيًا . وقد انتظم تجواله أفريقيا الشمالية والأندلس ، وزار نابلى وباليرمو وعرف عن كثب العراق وإيران وجزءًا من الهند . وقد ظهر الاهتمام بالجغرافيا لديه مبكرًا ، ومما حفزه إلى ذلك مقابلته للإصطخرى عام ٣٤٠ هـ = ٩٥١ - ٩٥٢ التى يرويها فيما يلى :

« وكان أكثر ما حدانى على هذا الكتاب وتأليفه على هذه الصورة أنى كنت فى حالة الحداثة شغفًا بأخبار البلدان والوقوف على حال الأمصار كثير الاستعلام والاستخبار لسافرة النواحى ووكلاء التجار وقَرَأة الكتب المؤلفة فيها وكنت إذا لقيت الرجل الذى أظنه صادقًا وإخاله بما أسأله

---

(١٢) -Kmoskó, p. 141-148

(١٣) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 408

(١٤) حدود العالم ، ص ١٥

(١٥) -Taeschner, ZDMG, 77 (2), p. 39-40, note 3

(١٦) ابن حوقل ، BGA II ، ص ٥ = BGA, II^2 ، ص ٣

عنه خبيرًا فأجده عالمًا عند إعادة الخبر الذى اعتقد فيه صدقه وقد حفظت نَسَقَه وتأملت طرقه
ووصفه وأكثر ذلك باطلا وأرى الحاكى بأكثر ما حكاه جاهلا ثم أعادوه الخبر الذى ألتمسه منه
والذكر ليسمع الذى استوصفته وأطالع معه ما صدر مع غيره فى ذلك بعد رؤية وأجمع بينهما وبين
حكاية ثالثٍ بالعدل والسوية فتتنافر الأقوال وتتنافى الحكايات وكان ذلك داعية إلى ما كنت
أحسه فى نفسى بالقوة على الأسفار وركوب الأخطار ومحبة تصوير المدن وكيفية مواقع الأمصار
وتجاور الأقاليم والأصقاع . وكان لا يفارقنى كتاب ابن خرداذبه وكتاب الجيهانى وتذكرة أبى الفرج
قدامة بن جعفر وإذا الكتابان الأولان قد لزمنى أن استغفر الله من حملهما واشتغالى بهما عن ما
يلزمنى من توخى العلوم النافعة والسنن الواجبة[١٧] ولقيت أبا إسحاق الفارسى وقد صور هذه
الصورة لأرض الهند فخلطها وصور فارس فجودها وكنت قد صورت أذربيجان التى فى هذه الصفة
فاستحسنها والجزيرة فاستجادها وأخرج التى لمصر فاسدة وللمغرب أكثرها خطأ وقال قد نظرت
فى مولدك وأثرك وأنا أسألك إصلاح كتابى هذا حيث ضللت فأصلحت منه غير شكل وعزوته إليه
ثم رأيت أن أنفرد بهذا الكتاب وإصلاحه وتصويره أجمعه وإيضاحه من غير أن ألم بتذكرة/أبى 199
الفرج وإن كانت حقًا بأجمعها وصدقًا من سائر جهاتها وقد كان يجب أن أذكر منها طرفًا فى هذا
الكتاب ولكن استقبحت الاستكثار بما تعب فيه سواى ونصب فيه غيرى »[١٨] .

وتحت تأثير هذه الظروف تم تأليف كتاب ابن حوقل ؛ وهو أيضًا يحيط بمسوداته الكثير من اللبس ، ويحمل فى العادة عنوان « كتاب المسالك والممالك » بالرغم من أنه قد حفظت لنا أحيانًا تسمية أخرى ترتبط بالحلقة الأساسية لهذه السلسلة وهى « كتاب صورة الأرض » . وقد رفع ابن حوقل المسودة الأولى من مصنفه إلى سيف الدولة الحمدانى (توفى عام ٣٥٦ هـ = ٩٦٧) ، وترجع المسودة الثانية إلى حوالى عام ٣٦٧ هـ = ٩٧٧[١٩] . وتمثل خطوة إلى الأمام بالنسبة للطبعة الأولى (editio princeps) لدى خويه تلك الطبعة الثانية التى نشرها كرامرس Kramers لأقدم مخطوطة لابن حوقل وهى مخطوطة استنبول التى يرجع تاريخها إلى عام ٤٧٩ هـ = ١٠٨٦ أى بعد مائة عام من تأليف الكتاب . ويميل كرامرس إلى القول بوجود ثلاث مسودات للكتاب مع فوارق يسيرة بين الأولى والثالثة[٢٠] .

---

(١٧) -De Goeje, ZDMG, 25, p. 46 —Nallino, Cosmos, XII, p. 47-48 —Kramers, AO, p. 18

(١٨) ابن حوقل ، BGA, II ، ص ٢٣٥ – ٢٣٦

(١٩) -Kudrian, p. 84-85

(٢٠) -Kramers, AO, p. 17 —BGA, 11^2 p. V

والدراسة المباشرة لهذا الأثر توكد صحة ما ذكره ابن حوقل فى قصته عن مقابلته للاصطخرى ، فلدى مقارنته مع كتاب الأخير نجد أن يد التغيير والتبديل قد مست بصورة كبيرة الأقسام المفردة لمصر وافريقيا واسبانيا وصقلية كما أنه أجرى تعديلا أساسيًا فى الأقسام الخاصة بالعراق وأرمينيا وماوراء النهر ، بينما تركت الأقسام المتعلقة بإيران بالذات دون أدنى تغيير . وقد ترسم ابن حوقل خطا السابقين له فى تنظيم كتابه ، ولكن مادة الكتاب نفسها معروضة عرضًا دقيقًا مفصلا مع توضيح لبعض النقاط الجوهرية . ويمكن تطبيق قوله فى هذا الصدد على بقية مصنفات « المدرسة الكلاسيكية » للجغرافيين العرب . قال :

« وقد فصّلت بلاد الإسلام إقليما إقليما وصُقعًا صقعًا وكورة كورة لكل عمل وبدأت بذكر
ديار العرب فجعلتها إقليما واحدًا لأن الكعبة فيها ومكة أم القرى وهى واسطة هذه الأقاليم عندى ،
وأتبعت ديار العرب بعد أن رسمت فيها جميع ما تشتمل عليه من الجبال والرمال والطرق وما يجاورها
من الأنهار المنصبة إلى بحر فارس بفارس لأنه يحتف بأكثر ديارها وشكلت عطفه عليها ولأن بحر فارس
يعطف من جزيرة مَسقط مغرّبًا إلى مكة وإلى القلزم عن خمسين فرسخًا من عُمان ويدعى ذلك
الموضع رأس الجمجمة ثم ذكرت المغرب ورسمته فى وجهين وبدأت بشكل ما حاز منه أرض مصر
إلى المهدية والقيروان وما فى براريها من المدن وإن قلّت وأعقبتها بباقى صورته من القيروان والمهدية إلى
200 أرض طنجة وازيلى ورسمتُ على بحره مدنه الساحلية وشكلت طرقه إلى جميع أنحائها/وكيفيتها مغربه
ومشرقه فى سائر جهاتها ، ثم ذكرت مصر فى شكلين حسب ما جرى رسم المغرب به وبطول
العمل المرتب فيهما عن حال مدنها ومواقعها على المياه الجارية فى أرضها وما كان برسمها فى البعد عن
المياه وخططت جبالها ومياهها بخلجانها وشُعَبها واتصال بعضها ببعض وانفصالها إلى البحر على
حيالها وما يصب من ماء الفيوم إلى بحيرة أقنى وتنهمت ، ثم صورت الشام وأجناده وجباله ومياهه
من أنهاره وبحره وما على ساحله من المدن وبحيرة طبرية وبحيرة زُغْروتيه بنى إسرائيل وموقعه من ظاهر
الشام ، ثم بحر الروم وكيفيته فى ذاته وشكله فى نفسه وما عليه من الجانب الشرقى للروم من المدن
والأعمال المحاذية لبلد المغرب وذكرت ما بقلورية للروم من المدن والأنكبردة والزنقة المعروفة ببليوتس
والخليج الخارج من بحر الروم إلى المجاز المحيط على القسطنطينية ومياه بلد الروم وأكابر أنهاره ومدنه
وكنت استوفيت صورة الأندلس فى أشكال المغرب فلم أعده شيئًا منها وقد رسمت فى هذا البحر
الجزائر المسكونة وما دعت الحاجة إلى ذكره إذ كان مسكونًا مشهورًا ، ثم ذكرت الجزيرة المشهورة
المعروفة بديار ربيعة ومُضَر وبكر وكيفية دجلة والفرات عليها واشتمالها على حدودها إلى ذكر جبالها
وسائر طرقها وأحوالها ، وأعقبتها بصورة العراق ومياهها وبطائحها وانصباب مياهها إلى البحر وما
يُفَرَّعُ ويُفْرِعُ إليها من أنهارها وذكرت خوزستان على حدودها وأنهارها وما اقتضته صورتها وحالها

وقنيها بصورة فارس على تصور جميع أنهارها وبحيراتها ومواقع مدنها وصورة برها وبحرها وسهلها وجبلها وسائر طرقها وسبلها ، ثم صورت بلاد السند ومدنها وطرقها وسبلها وما يصاقبه من بلاد الهند والإسلام ، ثم تلوتها بصورة أذربيجان وشكلت ما فيها من الجبال والطرق والأنهار العذبة كالرَّسّ والكُر إلى أن رسمتُ بحيرة خلاط وبحيرة كبودان وكلتاهما متصلتين بشيء من البحار وأثبت فيها جبال القبق ، ثم صورت الجبال وأعمالها ومواقع بلدانها على ما هى به وما انخذق منها بدخول بعض مفازة خراسان وفارس على حدودها وذكرتُ إليها صورة الجيل والديلم وطبرستان وما يليها من بحر الخزر وبعض سبله إذ لم أحط علما بكليته وأتبعتها بصورة بحيرة طبرستان وجزيرتها ومصب ما إليها من المياه وما يصاقبها من الجبال وكمية ما للإسلام منها وحدودها ما لغيره من أقطارها وشكلت المفازة التى بين فارس وخراسان وجميع ما فيها من الطرق إلى النواحى المجاورة لها والمضافة إلى حدودها وما يليها من أعمال سجستان على ما يجاورها من بلاد الغور وجبالها/ومصب مياهها إلى بحيرة زَرَه 201
وصورت خراسان وما فى ضمنها من طخارستان وجبال الباميان وطوس وقوهستان بجميع مياهها الجارية وجبالها المشهورة ورمالها وطرقها المعروفة ، ثم صورت نهر جيجون وما وراءه من أعمال بخارى وسمرقند وأشروسنه واسبيجاب والشاش وخوارزم إلى جميع ما يشتمل عليه من المياه ويحيط به من الطرق والمسالك .

فهذه جميع الأرض عامرها وغامرها وهى مقسومة على الممالك وعماد ممالك الأرض أربع فأعمرها وأكثرها خيرًا وأحسنها استقامة فى السياسة وتقديم العمارات ووفور الجبايات مملكة إيران شهر وقطبها إقليم بابل وهى مملكة فارس ؛ وكان حد هذه المملكة فى أيام العجم معلومًا فلما جاء الإسلام أخذت من كل مملكة بنصيب فأخذت من مملكة الروم الشام ومصر والمغرب والأندلس وأخذت من مملكة الصين ما وراء النهر وانضمت إليها هذه الممالك العظيمة ، ومملكة الروم يدخل فيها حدود الصقالبة ومن جاورهم من الروس والسرير واللان والأرمن ومن دان بالنصرانية ومملكة الصين يدخل فيها سائر بلدان الأتراك وبعض التُّبَّت ومن دان بدين أهل الأوثان منهم ومملكة الهند يدخل فيها السند وقشمير وطرف من التبت ومن دان بدينهم ، ولم أذكر بلدان السودان فى المغرب والبُجه والزنج ومن أعراضهم من الأمم لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة وهؤلاء مُهْملون فى هذه الخصال ولاحظ لهم فى شيء من ذلك فيستحقون به إفراد ممالكهم بما ذكرت به سائر الممالك ، غير أن بعض السودان المقارِبين هذه الممالك المعروفة يرجعون إلى ديانة ورياضة وحِكم ويقاربون أهل هذه الممالك كالنوبة والحبشة فإنهم نصارى يرتسمون مذاهب الروم وقد كانوا قبل الإسلام يتصلون بمملكة الروم على المجاورة لأن أرض النوبة مصاقبة أرض مصر والحبشة على بحر القلزم وبينهما وبين أرض مصر مفاوز معمورة فيها معادن

الذهب ويتصلون بمصر والشام من طريق بحر القلزم ، فهذه الممالك المعروفة ولمّا زادت مملكة الإسلام بما اجتمع إليها من طرائف هذه الممالك المذكورة شرفت وعظمت »[٢١] .

من هذا يتضح أن ابن حوقل ، شأنه فى هذا شأن بقية ممثلى المدرسة الكلاسيكية ، قد حصر اهتمامه على وجه التقريب فى وصف « دار الإسلام » خاصة إيران ؛ ولكنه كان يتجاوز فى حالات معينة بالطبع نطاق العالم الإسلامى ، فمثلا لا يخلو من بعض القيمة روايته عن هزيمة
202 الروس للبلغار والخزر[٢٢] حوالى عام ٣٥٨ هـ = ٩٦٩/حين كان المؤلف نفسه آنذاك بجرجان . وهذا الحادث يتفق مع حملة اسفياتوسلاف Sviatoslav أمير كييف Kiev على الخزر عام ٩٦٥[٢٣] ؛ وقد ظهر فى الآونة الأخيرة رأى يقرن هذا الحادث بحملة هارالد إيركسون Haralde Eriksson ملك النرويج[٢٤] . وإذا تركنا جانبًا نقاط التشابه العديدة فإنه يجب الاعتراف بأن ابن حوقل هو الخبير الأول من بين جغرافيى هذه المدرسة فى شئون المغرب[٢٥] ؛ ويتضح هذا بصورة أقوى من خلال المخطوطة التى نشرها كرامرس وذلك لدى المقارنة بطبعة دى خويه ، ففيها يرد وصف مفصل لمنطقة البجه وتاريخهم ولإرتريا Eritrea[٢٦] مع ذكر أسماء ما لا يقل عن مائتين من قبائل البربر ؛ ويصف الواحات ثم يورد وصفًا مفصلا للغاية لموقع صقلية[٢٧] . وروايته عنها تمثل أهمية خاصة كما أثبت ذلك منذ منتصف القرن الماضى المستشرق أمارى Amari[٢٨] أكبر خبير بهذه البلاد والذى قدم لنا تحليلا دقيقًا لهذه المادة[٢٩] . وكثيرًا ما انعكست المصالح التجارية لابن حوقل فى تضاعيف كتابه ؛ وتقدم المادة التى جمعها لوحة طريفة لحضارة العالم الإسلامى فى ذلك العهد . فهو قد التقى مثلا فى سجلماسة بجنوبى مراكش بتجار عراقيين من أهل البصرة

---

(٢١) -BGA, II, p. 7-10 = BGA, II^2, p. 5-10;
المتن وفقاً لطبعة كرامرس (Kramers, Ibn Haukal)

(٢٢) -BGA, II, p. 14 = BGA, II^2, p. 15 —Kunik i Rozen, II, p. 171-172

(٢٣) -Markwart, Streifzüge, p. 474-475 — Barthold, Bulghar, p. 823

(٢٤) -Kvalen, Dat norske Gurdariki, II, p. 3;
ولكن راجع : Mzik, WZKM, XLVI, p. 317

(٢٥) -Kramers AO, p. 18

(٢٦) -Kramers, L'Êrythrée, p. 573-574

(٢٧) -Kramers BGA, II^2 p. VI

(٢٨) -Amari (Nallino), I, p. 46-47, No 6

(٢٩) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ٣٣٦ – ٣٥٤

والكوفة المقيمين هناك ، ويمكن الحكم على مدى اتساع معاملاتهم التجارية من أنه قد أبصر صكًا بدين على أحد سكان واحة أو دغشت بداخل افريقيا قيمته اثنان وأربعون ألف دينار(٣٠) .

وتبرز الميول السياسية لابن حوقل من وقت لآخر جلية للعيان ، ومن الطريف فى هذا الشأن موقفه من أمويى الأندلس فهو يقدم لنا فى مصنفه صورة من أدق الصور للأندلس فى العصر الأموى . ويرى دوزى Dozy فى ابن حوقل جاسوسًا للفاطميين بلا ريب(٣١) ؛ غير أن ليڤى بروفنسال Levi-Provencal وهو أحد كبار الخبراء المعاصرين عن أسبانيا الإسلامية لا يرى فيه هذا الرأى القاطع إنما هو فى رأيه على أية حال من عملاء العباسيين أو الفاطميين . والأسباب التى دفعت إلى هذه التهمة تبدو من طيات كتابه إذ يمكن إبصار عواطفه الفاطمية فى أنه كان من أوائل من قدموا معلومات وافرة عن قرامطة البحرين الذين عرفهم فيما يبدو جيدًا وعن كثب(٣٢) . وفوق ذلك فإن ابن حوقل قد عاش طويلا بقرطبة فى عهد عبد الرحمن الثالث أى عهد
204 ازدهار خلافة الأمويين بالأندلس ؛/وهو يورد معلومات وافية عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالأندلس ويبين المحاصيل المصدرة إلى المغرب وإلى مصر . وله معرفة جيدة بتجارة الرقيق الأوروبى التى كان يقوم بها تجار منقطعون لها ، لا فى الأندلس وحدها بل فى جميع بلاد شرقى البحر المتوسط . ويقدم ابن حوقل صورة سلبية عن شجاعة أهل الأندلس وعن نظامهم الحربى والإدارى مبديًا دهشته لعجزه عن إدراك السر فى احتفاظهم باستقلالهم حتى ذلك الوقت دون أن يخضعوا لحاكم من حكام المشرق الإسلامى ؛ ويمكن أن يؤخذ قوله بأنه يرى ذلك أمرًا سهلا بمثابة إيعاز للفاطميين أو العباسيين بالتدخل(٣٣) . غير أن ابن حوقل على أية حال لا ينفى الجانب الإيجابى للحضارة الأندلسية فهو يعترف بأن الخزانة العامة كانت عامرة بصورة لا يمكن مقارنتها فى المشرق إلا بالحمدانيين فى حلب ، أما عاصمتهم الزاهية فيدعوها ببغداد الثانية ويصف بالتفصيل جمال مدينة الزهراء ورونق حى الرصافة(٣٤) .

فليس غريبًا أن يكتسب كتاب ابن حوقل فى المغرب صيتًا أوسع مما اكتسبه فى المشرق ،

---

(٣٠) -BGA, II, p. 42 = II^2, p. 61 = Kramers, Legacy, p. 102

(٣١) -Dozy, Hist. des Musulmans, III, p. 17, 21, 181-182

(٣٢) -Lewis, The Origins of Ismailism. p. 99

(٣٣) رد على ابن حوقل فى آرائه عن أخلاق الأندلسيين الجغرافى الأندلسى ابن سعيد فى القرن الثالث عشر . راجع : Moritz, Ibn Said

(٣٤) -Lévi-Provençal, La Civilization, p. 53-54

خاصة فى الأندلس . ويبدو أنه لم تنقل إلى الفارسية سوى مسودة الإصطخرى وحده(٣٥) ، ولكن فى مقابل هذا فقد عرف منذ منتصف القرن الثانى عشر مختصر ابن حوقل المعمول فى الأندلس والذى يوجد فى مخطوطة بباريس ويحوى إضافات كثيرة ترجع إلى عهد الشخص الذى اختصره وذلك فى الفترة بين عامى ٥٣٤ هـ = ١١٣٩ و ٥٨٠ هـ = ١١٨٤(٣٦) . وقد أضيفت إلى الأطلس المرفق بهذا المختصر خارطة للنيل مأخوذة من خارطة مصنف الخوارزمى (٣٧) مع زيادة مناسبة فى المتن . وفى القرن الثالث عشر هاجم المؤرخ والجغرافى الأندلسى المشهور ابن سعيد (توفى عام ٦٨٥ هـ = ١٢٦٨ أو ٦٧٣ هـ = ١٢٧٤) آراء ابن حوقل فى أخلاق عرب الأندلس مهاجمة عنيفة(٣٨) ، ولعل هذا ما حفزه إلى أن يكمل كتاب ابن حوقل فيما يتعلق بالأبواب الثلاثة التى أفردها للأندلس وصقلية واسبانيا الغربية(٣٩) .

ويقدم ابن حوقل مثالا حيًا لمحاولة المدرسة الكلاسيكية فى الجغرافيا أن تقصر موضوعها على « دار الإسلام » ، وهو يبين ذلك فى قوله :

« ومملكة الإسلام فى حيننا هذا ووقتنا فإن طولها من حد فرغانة حتى يقطع خراسان
والجبال والعراق وديار/العرب إلى سواحل اليمن فهو نحو خمسة أشهر(٤٠) وعرضها من بلد 205
الروم حتى يقطع الشام والجزيرة والعراق وفارس وكرمان إلى أرض المنصورة على شط بحر فارس نحو أربعة أشهر وإنما تركت فى ذكر طول الإسلام حد المغرب إلى الأندلس لأنه كالكم فى الثوب وليس فى شرقى المغرب ولا فى غربيه إسلام لأنك إذا جاوزت مصر فى أرض المغرب كان جنوبى المغرب بلاد السودان وشماله بحر الروم ثم أرض الروم ، ولو صلح أن يُجْعل طول الإسلام من فرغانة إلى أرض المغرب والأندلس لكان مسيرة ثلثمائة مرحلة »(٤١) .

إن محاولة قصر المادة على « بلاد الإسلام »(٤٢) مع إهمال الأقطار الواقعة خارجها تعتبر من

---

(٣٥) حدود العالم ، ص ١٥

(٣٦) -BGA, II², p. V

(٣٧) -Kramers EI, EB, p. 69

(٣٨) المقرى ، الجزء الأول ، ص ١٣٠ – ١٣١

(٣٩) المقرى ، الجزء الأول ، ص ١٣٨ – ١٣٩ – و Brockelmann, GAL, SBI, p. 408

(٤٠) يرد «أربعة» في Kramers, Legacy, p. 80 ؛ ولكن يرد «خمسة» في BGA, II, p. 16 = BGA, II², p. 17 .

(٤١) -BGA, II, p. 16 = II², p. 16-17 —Kramers, Legacy, p. 80

(٤٢) -Kramers, Legacy, p. 85

أبرز مميزات المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية ؛ وبالطبع فقد حاول الكتاب المعروفون لنا جيدًا من أمثال ابن خرداذبه واليعقوبى وابن الفقيه وابن رسته ثم المسعودى إعطاء وصف منتظم لتخطيط العالم الإسلامى ونظامه الإدارى مع الاهتمام خاصة بوصف طرق المواصلات إلا أنه لم يكن من منهجهم الاقتصار على البلاد الإسلامية وحدها بل تكلموا عن البلدان غير الإسلامية كذلك ابتداء من الشرق الأقصى إلى الإمبراطورية البيزنطية ؛ كما وأنهم أولوا القدر نفسه من الاهتمام لقصص العجائب بجميع أنواعها[٤٣] . أما المدرسة الكلاسيكية وإن كانت أكثر تشددًا فى أسلوبها وأكثر تمسكًا بالمنهج العلمى إلا أنها فى مقابل ذلك كانت أميل إلى تضييق أفقها الجغرافى بعض الشىء .

والطابع الثانى الأكثر تمييزًا لهذه المدرسة هو الدور الذى لعبته فيها الخارطات . وقد سبق أن نوهنا فى حينه وذلك بصدد الكلام على أول رسالة فى هذه السلسلة وهى مصنف أبى زيد البلخى أنه يمكن من بعض النواحى اعتبارها أيضًا توضيحًا فحسب لمجموعة الخارطات . ومن المعلوم أن خارطات هذه الحلقة تسير جميعها على نمط واحد وتتشابه تمام التشابه لأنها فى الواقع ليست سوى مجموعة معدلة لخارطات « أطلس الإسلام » ، أما المصنفات الجغرافية العربية من عمل العصور التالية لذلك فإنها باستثناء الإدريسى لا تضم سوى خارطات منفردة مستقل بعضها عن بعض . وهذا بالطبع لا يعنى أن الخارطات المنفردة لم تعرف فى هذا العصر أيضًا ، بل إنها فى الواقع كانت معروفة للعرب قبل ذلك . وقد مر بنا الكلام على خارطة الديلم التى
206 عملت/للحجاج بن يوسف الثقفى ، كما أن هناك أيضًا معلومات مبهمة عن خارطة البطيحة ، وهى منطقة المستنقعات قرب البصرة ، رفعت وفقًا لرواية البلاذرى[٤٤] إلى الخليفة المنصور فيما يتعلق بتقسيم الأراضى[٤٥] . ويذكر صاحب « الفهرست »[٤٦] أن الفلكى المشهور ثابت بن قرة (توفى عام ٢٨٨ هـ = ٩٠١) نسب لنفسه رسمًا للأرض (« صفة الدنيا ») من صنع حرانى آخر ، وقد أبصر مؤلفنا هذا الرسم بعينى رأسه على نسيج دبيقى * خام قد لوّن

(٤٣) شرحه ، ص ٨٥ – ٨٦

(٤٤) البلاذرى ، طبعة De Goeje, ص ٣٧١ = طبعة القاهرة ، ١٩٠١ ، ص ٣٧٩ : فقدموا عليه ومعهم صورة البطيحة .

(٤٥) -Kramers, EI, EB, p. 66

(٤٦) الفهرست ، ص ٢٨٥ : ورأيت هذه الصفة فى ثياب دبيقى خام بأصباغ وقد شمعت الأصباغ .

* دبيق بلد بمصر بين الفرما وتنيس خربت الآن ، وكانت تشتهر بصناعة الثياب . (المترجم)

بألوان ثبتت بالشمع . وهناك رواية مماثلة لهذه مؤداها أنه لما نهبت خزينة الخليفة الفاطمى المستنصر (٤٢٧ هـ =٤٨٧ هـ - ١٠٣٦ = ١٠٩٤) وجدت خارطة كانت قد طرزت على نسيج تسترى * فى عام ٣٥٣ هـ = ٩٦٤ للمعز لدين الله الفاطمى وبُيِّن عليها مختلف البلدان والجبال والبحار والأنهار والمدن والطرق وطرزت أسماؤها بالذهب والفضة والحرير وكانت تقدر على ما يقال باثنين وعشرين ألف دينار[٤٧] . ومن العسير بالطبع التكهن بما كانت عليه هذه الخارطات وما هو نوعها ، غير أنه ليس بمستبعد أن تكون من صنع أيد محلية . وعلى النقيض من هذا فإنه يقترن بالتراث العلمى التأليفى خارطات معروفة لنا فى نماذج محدودة وذلك فى الترجمة المصلحة لبطلميوس التى عملها محمد الخوارزمى ، وهى التى عالجنا الكلام عليها بالتفصيل فى حينه ؛ وقد افترض العلماء بالطبع أن خارطاته تسير إلى حد ما وفقًا لمنهج بطلميوس الذى لا يمثله فى الوسط العربى المتأخر سوى الإدريسى .

وخارطات المدرسة الكلاسيكية لا علاقة لها البتة بهذه النماذج البطلميوسية إذ هى تمثل « أطلس الإسلام » الذى يعتبر نسيج وحده والذى يحوى دائمًا وفى نظام لا يتغير إحدى وعشرين خارطة تتتابع بالصورة الآتية : أولاهن « خارطة العالم المستديرة » ، تليها خارطات جزيرة العرب وبحر فارس والمغرب ومصر والشام وبحر الروم ، ثم أربع عشرة خارطة تمثل الأجزاء الوسطى والشرقية للعالم الإسلامى (الجزيرة والعراق وخوزستان وفارس وكرمان والسند وأرمينيا ومعها ارّان وآذربيجان أيضًا والجبال وكيلان ومعها طبرستان وبحر الخزر وصحراء فارس وسجستان وخراسان وما وراء النهر)[٤٨] . ومما يوكد صحة الرأى القائل بأن هذا الأطلس إيرانى الأصل أن كل مقاطعة **إيرانية تظفر فيه بخارطة مستقلة، فى الوقت الذى خرجت فيه الأقطار الغربية بعدد أقل من الخارطات تنتظم مساحات جغرافية أكثر اتساعاً من رصيفتها الإيرانية. والغرض الأساسى من الأطلس هو تصوير «العالم الإسلامى» بالذات وفقاً لمفهوم هذا اللفظ عند الإصطخرى وابن حوقل كما اتضح من الشذرة التى أوردناها منذ قليل[٤٩].**

ولا يزال الغموض يكتنف الظروف التى أحاطت بظهور « أطلس الإسلام » ، ويميل اشبرنجر 208

---

* تستر أو شستر بلد بإيران (المترجم)

(٤٧) -Quatremére, Mémoires géographiques II, p. 377 = Reinaud, Introduction, p. CCLXIII
زكى محمد حسن ، ص ٥٣

(٤٨) - Kramers, AO, p.10

(٤٩) -Kramers, EI, EB, p. 66

Sprenger[٥٠] ونالينو Nallino[٥١] ، وذلك استنادًا إلى إشارة مبهمة وردت بكتاب « الفهرست »[٥٢] ، إلى الاعتقاد بأن أبا زيد البلخى قد اعتمد فى الأصل على الخارطات التى وضعها الفلكى أبو جعفر الخازن . غير أن هذا الفرض لا يكاد ينهض على أساس ، فالخازن قد توفى على ما يبدو بعد عام ٣٥٠ هـ = ٩٦١[٥٣] أى أنه كان أصغر سنًا من البلخى بكثير ، أضف إلى هذا أنه ليس هناك أية علاقة بين الخارطات نفسها وبين الجغرافيا الفلكية ، تمامًا كما هو الشأن مع متنى الإصطخرى[٥٤] وابن حوقل[٥٥] ؛ هذا إلى جانب خلوها من أى أثر للتقسيم إلى سبعة أقاليم المأخوذ عن جغرافيى المدرسة الرياضية ، بل إن لفظ « إقليم » نفسه يستعمل فى هذا الصدد للدلالة على المنطقة الجغرافية (region) التى تصورها الخارطة . وجميع خارطات هذه المجموعة مستقلة كل واحدة عن الأخريات ولا يمكن وصل بعضها ببعض لتكوين خارطة عامة ، كما ليس فيها أى أثر لخطوط الطول والعرض . ومما يوكد مرة أخرى انعدام الصلة بينها وبين الجغرافيا الفلكية هو أنه لا علاقة لها البتة بخارطات الخوارزمى ؛ وربما كانت الفكرة الأساسية التى قامت عليها هى تصوير طرق المواصلات .

ويسوقنا نظام توزيع هذه الخارطات إلى الافتراض بأنها ترجع فى أصلها إلى « أطلس إيران » القديم ولكن جرت فيه يد التعديل بصورة طفيفة ليتفق مع حاضر العالم الإسلامى آنذاك ، ثم أضيفت خارطة العالم والبحرين إلى خارطات المقاطعات الإيرانية الأصلية ؛ وربما ارتبطت خارطة العالم هذه بالخارطة « المأمونية » التى سبق الكلام عليها . أما بقية الخارطات فهى تمثل إما خارطات المقاطعات القديمة للدولة الساسانية وإما خارطات لمقاطعات كانت تخضع حينًا من الدهر لتلك الدولة على نحو ما ، مثل بلاد العرب وأرمينيا وسواحل بحر قزوين وما وراء النهر وربما السند أيضًا . أما الشام وفلسطين فقد كانتا بالطبع من أراضى الدولة الرومانية الشرقية ولكن نظرًا لأنهما كانتا تمثلان معبراً أساسياً للمواصلات يربط إيران بالغرب وبالبحر المتوسط فقد نالتا أهمية خاصة بالنسبة للساسانيين . من هذا يتضح أن الأطلس قد وضع فى الأصل من أجل

---

(٥٠) Sprenger, Reiserouten, p. XIII-XIV-

(٥١) Nallino, Cosmos, XII, p. 46, note 2-

(٥٢) الفهرست ، ص ١٣٨

(٥٣) Suter, Mathematiker, p. 58, No 124 - Sarton, Introduction p. 664-

(٥٤) الاصطخرى ، BGA, I ، ص ٣

(٥٥) ابن حوقل ، BGA, II ، ص ٤

الإمبراطورية الساسانية القديمة ولم تمسه يد التعديل والتحوير إلا قليلا ليتفق مع حاجة المسلمين فى القرن العاشر[٥٦] . وقد لوحظ أن تقسيم الأقطار المختلفة إلى مقاطعات يتفق مع الطريقة التى اتبعها البلاذرى عند الكلام على فتوحها[٥٧] .

209 أما الخارطات نفسها فيمكن القول على وجه العموم بأنها تدل على معرفة بالحقائق الجغرافية أدق مما كان عليه الحال فى أوروبا لذلك العهد ، الأمر الذى يمكن الحكم عليه من خارطة الراهب الإسبانى للقرن الثامن بياتوس Beatus[٥٨] . ويلاحظ أن الخارطات العربية خلو من صور الناس والحيوانات التى كانت تحفل بها الخارطات الأوروبية التى وضعت فى العصور الوسيطة ، ولكن فى مقابل هذا بدا واضحًا فى « أطلس الإسلام » بوجه خاص ، وفى خارطة العالم المستديرة بالذات ، الجنوح إلى تصوير السواحل والأنهار تصويرًا هندسيًا ؛ ففى بعض خارطات الإصطخرى مثلا يصور البحر المتوسط فى شكل كروى أو إهليلجى تقريبًا[٥٩] . وخارطة العالم المشار إليها قد نالت انتشارًا واسعًا فى الأدب الجغرافى المتأخر ويمكن التعرف عليها دون صعوبة تذكر خلال جميع الرسوم التى نقلها القزوينى وابن الوردى فى القرنين الثالث عشر والخامس عشر وكذلك فى خارطات الإدريسى المستديرة التى تنتمى إلى مدرسة أخرى ؛ بل وربما تعتمد عليها أيضًا الخارطة المستديرة الطريفة لمخطوطة كتاب محمود الكاشغرى التى باستنبول ، وهو مؤلف من رجالات النصف الثانى للقرن الثانى عشر[٦٠]

وهناك احتمال كبير فى أن يكون العرب قد عرفوا فى العصر الذى وضع فيه « أطلس الإسلام » خارطات من أصل آخر لا ترتبط به ويتردّد ذكرها حينًا بعد حين فى مصادر مختلفة . فالمقدسى الذى سيرد الكلام عليه بعد قليل يذكر عرضًا أنه أبصر فى بعض مكتبات الأمراء والأفراد[٦١] ما لا يقل عن أربع خارطات . ومن العسير الحكم من هذه الملاحظات المتناثرة على أصل هذه الخارطات وصفتها وتأثيرها على الخارطات التالية ، أما فيما يتعلق « بأطلس الإسلام » فإن لدينا مادة وفيرة . وبالرغم من أن تفاصيل كثيرة قد بقيت خافية علينا

---

(٥٦) Mzik, die Karten, p. 28-

(٥٧) Kramers, EI, EB, p. 66-

(٥٨) Sarton, Introduction, I, p. 536; الصورة لدى : J. K. Wright, Geogr. Lore, 69-

(٥٩) Kramers, Legacy, p. 87-

(٦٠) Kramers, EI, EB, p. 67-

(٦١) المقدسى ، BGA, III ، ص ١٠

إلا أننا نستطيع بكل اطمئنان أن نعده الخطوة الثانية والأهم فى تاريخ الكارتوغرافيا العربية . أما الخطوة الثالثة والأخيرة فتمثلها خارطات الإدريسى المشهور .

وكما هو الشأن مع الخارطات فإنه يحيط بمتن مصنفات المدرسة الكلاسيكية عدد من المشاكل المعلقة ؛ والأمر الذى لا يتطرق إليه الشك هو أن توزيع المادة الجغرافية فيها يعتمد اعتمادًا تامًا على الخارطات ويخضع بصفة عامة لمنهج صارم محدد فيبدأ وصف كل منطقة بالكلام على المدن والأنهار فالجبال فالسكان ، ويعقب ذلك وصف طرق المواصلات . ومثل هذا الترتيب ملائم للغاية لأنه يفسح المجال لضم أية كمية من المادة الجديدة المأخوذة عن الرحالين وعن الوثائق الرسمية
أو التى تجمعت نتيجة لنمو المادة التاريخية/أو التى فى مظان أخرى . ولعل فيما زاده ابن حوقل على 210
الأقسام المتعلقة بافريقيا وأسبانيا ما ينهض مثلا حيًا لهذا[٦٢] .

وآخر الممثلين الكبار للمدرسة الكلاسيكية هو المُقَدَّسى الذى يعتبره اشبرنجر « أكبر جغرافى عرفته البشرية قاطبة »[٦٣] . وإذا شاب هذا الرأى بعض المبالغة من جانب عالم كان من أوائل من بحثوا فى هذا الموضوع ، وهو الذى اكتشف أول مخطوطة لمصنف المقدسى ، إلا أنه يمكن أن نسلم دون تحفظ برأى العالم المعاصر كرامرس Kramers الذى يرى فى المؤلف أكثر الجغرافيين العرب أصالة وفى المصنف نفسه واحدًا من أكثر المصنفات الجغرافية فى الأدب العربى قيمة[٦٤] . وفى تحليله للكتاب يستدرك اشبرنجر على نفسه بالكثير من الصواب فيقول : « ولا أعنى بذلك أن كتابه فى الجغرافيا يفوق المؤلفات الحديثة فى هذا الفن ، إذ يعوزه من أجل ذلك تجربة الأجيال التالية . ولكن من المحتمل أنه لم يسبقه شخص فى اتساع مجال أسفاره وعمق ملاحظاته وإخضاعه المادة التى جمعها لصياغة منظمة »[٦٥] .

ولعل اسمه فى حاجة إلى بعض التوضيح ، فهو كمعظم المؤلفين العرب غير معروف باسمه الكامل الذى يرد على صفحة العنوان بإحدى مخطوطات كتابه[٦٦] وهو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر البنّاء الشامى المقدسى البشارى ؛ ولكنه اشتهر فى الغالب بإحدى نسبتيه الأخيرتين . والأولى منهما ترتبط بالاسم الذى أطلقه العرب على أورشليم التى إلى جانب

---

(٦٢) -Kramers EI, EB, p. 66

(٦٣) -Sprenger, Reiserouten, p. XVIII: «... der grösste Geograph den es je gegeben hat»

(٦٤) -Kramers, Al-Mukaddasi, p. 765

(٦٥) -Sprenger, Reiserouten, p. XVIII = De Goeje, Eenige, p. 3

(٦٦) -Kramers, Al-Mukaddasi, p. 765

« القُدْس » تدعى أيضًا « البيت المُقَدَّس » أو « بيت المَقْدِس » ، هذه الصيغة الأخيرة هى التى يتمسك بها اللغويون المتشددون[٦٧] ولا تزال تحتفظ بها إلى يومنا هذا إحدى الأسر العربية الكبرى وهى أسرة المَقْدسى (ينطقه العامة غالبًا بضم الميم) ؛ غير أن صيغة المَقَدَّسى واسعة الانتشار كذلك ؛ ولعل المؤلف نفسه يشير إلى هذه الصيغة الأخيرة فى قطعة شعرية يختتم بها كتابه حيث يُجرى لعبًا بالألفاظ حول تعبير « حكمة مُقَدَّسة »[٦٨] . وياقوت فى القرن الثالث عشر كان يدعوه فى معظم الأحوال بنسبته البشّارى وأحيانًا بأسمائه الأخرى مثل ابن البنّاء مثلا .

والاسم الأخير يرتبط بتاريخ حياته ، فقد ولد المقدسى فى عام ٣٣٥ هـ = ٩٤٦ – ٩٤٧ ببيت المقدس وكان حفيدًا لبنّاء اشتهر ببنائه لميناء عكا فى عهد أحمد بن طولون ؛ وتنعكس فى كتاب حفيده نفسه بين آونة وأخرى ميوله المعمارية التى ربما ورثها عن جده . أما أسرة/أمه فتنتمى 211
إلى قرية بِيَر من أعمال قومس على مقربة من حدود خراسان وقد يسرت له عوامل النسب والقرابة التعرف على نصف العالم الإسلامى ، ودفعه ولعه بالأسفار إلى زيارة جميع أنحائه باستثناء الأندلس والسند وربما سجستان أيضًا . ويلوح أنه قد زار صقلية كما أثبت ذلك أمارى Amari الذى حلل روايته عن تلك الجزيرة[٦٩] ؛ أما معلوماته عن الأندلس فقد نقلها كما يذكر هو نفسه عن حاجين التقى بهما فى مكة عام ٣٧٧ هـ = ٩٨٧[٧٠] . ولكن معلوماته عنها كما بين دوزى Dozy[٧١] يسودها بعض الاضطراب وتفتقر إلى الكثير من الوضوح . ويلاحظ منها أن المؤلف لعدم معرفته المباشرة بتلك البلاد لم يكن بوسعه أن يفهم دائمًا ما يروى له ؛ ورغمًا من هذا فإن روايته هذه مفيدة بل وقيمة جدًا فى بعض الأحايين .

ونتيجة لرحلاته الواسعة واستفهاماته العديدة ونشاطه الجم فى محيط الأدب والكارتوغرافيا فقد استطاع المقدسى وهو فى سن الأربعين أن يضع كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » . ويبدو أن الكتاب قد وجد فى مسودتين ترتفع إحداهما وفقًا لألفاظ المؤلف نفسه إلى عام ٣٧٥ هـ = ٩٨٥ – ٩٨٦[٧٢] ، أما الثانية وهى التى استعملها ياقوت فقد أكملت بعد ثلاثة أعوام من

---

(٦٧) Fischer, Al-Maqdisi, p. 404-410-

(٦٨) المقدسى ، BGA, III ، ص ٤٩٨ راجع : Schwartz, Iran, II, p. VI - Brockelmann, GAL, SBI, p. 410, note 1

(٦٩) **وعن زيارته لصقلية: ص ٣٥٦** Amari (Nallino), II, p. 354-363;-

(٧٠) المقدسى ، BGA, III، **ص ٢٢٣، الحاشية ا؛ ص ٢٣٥**

(٧١) Dozy, Recherches, I, p. 313-

(٧٢) المقدسى ، BGA, III^2، ص، **٩**

ذلك التاريخ وذلك فى عام ٣٧٨ هـ = ٩٨٨ – ٩٨٩[٧٣] . ولا يخلو من مغزى بالنسبة للأوضاع السياسية فى ذلك العهد أنه رفع المسودة الأولى إلى آل سامان بينما قدم الثانية إلى الفاطميين . والمسودتان تنعكسان بوضوح تام فى المخطوطتين المعروفتين لدى الدوائر العلمية واللتين ترتكز عليهما الطبعة العلمية التى بين أيدينا الآن[٧٤] . وغير معروف عام وفاة المؤلف على وجه التحديد ولكن من الراجح أن المقدسى توفى فى أواخر القرن العاشر وذلك حوالى عام ٣٩٠ هـ = ١٠٠٠ .

ويحدثنا المقدسى فى أحد فصول مقدمته الطويلة كما وأيضًا فى استطرادات ذات طابع شخصى فى صلب الكتاب عن منهجه فى التأليف . ولا نملك إلا الاعتراف بأنه قد أبدى فى هذا الصدد الكثير من التمحيص والتدقيق فى المنهج . قال : « اعلم أننى أسست هذا الكتاب على قواعد محكمة وأسندته بدعائم قوية وتحريت جهدى الصواب واستعنت بفهم أولى الألباب وسألت الله عز اسمه أن يجنبنى الخطأ والزلل ويبلغنى الرجاء والأمل فأعلى قواعده وأرصف بنيانه ما شاهدته وعقلته وعرفته وعلقته وعليه رفعت البنيان وعملت الدعائم والأركان ومن قواعده أيضًا وأركانه وما استعنت به على تبيانه سؤال ذوى العقول من الناس ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس عن الكور والأعمال فى الأطراف التى بعدتُ عنها ولم يتقدر /لى الوصول إليها فما وقع عليه اتفاقهم أثبته وما 212
اختلفوا فيه نبذته وما لم يكن له بدٌّ من الوصول إليه والوقوف عليه قصدته وما لم يقرّ فى قلبى ولم يقبله عقلى أسندته إلى الذى ذكره أو قلت زعموا ووشحته بفضول * وجدتها فى خزائن الملوك .

وكل من سبقنا إلى هذا العلم لم يسلك الطريق التى قصدتها ولا طلب الفوائد التى أردتها ... فهذا ما وقع إلينا من المصنفات فى هذا الباب بعد البحث والطلب وتقليب الخزائن والكتب وقد اجتهدنا فى أن لا نذكر شيئًا قد سطروه ولا نشرح أمرًا قد أوردوه إلا عند الضرورة لئلا نبخس حقوقهم ولا نسرق من تصانيفهم مع أنه لا يعرف فضل كتابنا هذا إلا من نظر فى كتبهم أو دوّخ البلدان[٧٥] وكان من أهل العلم والفطنة . ثم إنى لا أبرىء نفسى من الزلل ولا كتابى من الخلل ولا أسلمه من الزيادة والنقصان ولا أفلته من الطعن على كل حال »[٧٦] .

يتضح جليًا من هذا القول أن المقدسى يقف موقف الناقد بل المتعسف أحيانًا من السابقين له

---

(٧٣) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٦٥٣

(٧٤) عن مخطوطة اياصوفيا ، وهى أصل مخطوطة ليدن ، راجع : Ritter, DI, XIX, p. 57

* يفضل كراتشكوفسكى قراءتها فصول ، وهكذا يترجمها . (المترجم)

(٧٥) راجع : Nallino, Cosmos, XII, p. 49-50

(٧٦) المقدسى ، BGA, III², ص ٣ ، ٥ – ٦

فى هذا المضمار ؛ وهو يوكد أكثر من مرة فضل كتابه على كتب الآخرين دون أن يبذل جهدًا فى إخفاء فخره واعتداده به . وفى استطراد له فى وسط الكتاب ، وذلك فى الفصل المفرد للمغرب ، كتب يقول :

« فإن قال قائل إنك تركت كثيرًا من العجائب فى هذا الإقليم لم تذكرها قيل له إنما تركنا ما ذكره مَن قبلنا فى تصانيفهم ومن مفاخر كتابنا الإعراض عما ذكره غيرنا وأوحش شىء فى كتبهم ضد ما ذكرنا ألا ترى أنك إذا نظرت إلى كتاب الجيهانى وجدته قد احتوى على جميع أصل ابن خرداذبه وبناه عليه وإذا نظرتَ فى كتاب ابن الفقيه فكأنما أنت ناظر فى كتاب الجاحظ والزيج الأعظم وإذا نظرت فى كتابنا وجدته نسيج * وحده يتيما فى نظمه[٧٧] ولو وجدنا رخصة فى ترك جمع هذا الأصل ما اشتغلنا به ولكن لما بلّغنا الله تعالى أقاصى الإسلام وأرانا أسبابه وألهمنا قسمته وجب أن ننهى ذلك إلى كافة المسلمين ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى
213 ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ ﴾ وفيما/يذكر عبرة لمن اعتبر وفوائد لمن سافر »[٧٨] .

وينضم كتاب المقدسى إلى السلسلة التى بدأها أبو زيد البلخى ، ويمكن اعتباره آخر ممثل للمدرسة الكلاسيكية الإسلامية بالمعنى الدقيق . وتنعكس صلته بهذه المدرسة فى الخارطات أكثر مما فى المتن نفسه ؛ وخارطاته تعيد إلى الذاكرة الطابع البدائى لخارطات الإصطخرى ويلاحظ فيها تقدم المعلومات الجغرافية الذى ينعكس بوضوح فى الكتاب نفسه . أما تقسيم المناطق عنده – ويطلق عليها كذلك اسم أقاليم – فيختلف بعض الشىء عما عليه الحال فى « أطلس الإسلام » ، ولكن الفرق بين المشرق والمغرب واضح جدًا لديه . وهو يمس أحيانًا معطيات الجغرافيا الفلكية ولكن مسًا رفيقًا[٧٩] ، كما أنه يقصر وصفه على العالم الإسلامى شأنه فى هذا شأن جميع ممثلى المدرسة الكلاسيكية ، واضعًا فى اعتباره أمرين فحسب كما يقول هو نفسه :

« ولم نذكر إلا مملكة الإسلام حسب ولم نتكلف ممالك الكفار لأنها لم ندخلها ولم نر فائدة فى ذكرها بل قد ذكرنا مواضع المسلمين منها »[٨٠] .

لهذا فلا نجد أية معلومات لديه عن أوروبا الشرقية أو سواحل البحر الأسود ؛ غير أن وجود

---

* يفضل كراتشكوفسكى قراءتها « تسبح » كما ورد بالأصل . (المترجم)

(٧٧) -Nallino, Cosmos, XII, p. 44-50 : «... emergere sola ed unica nel suo genere»

(٧٨) المقدسى ، BGA, III ص ٢٤١ – راجع : Nallino, Cosmos XII, p. 49

(٧٩) -Kramers, EI, EB, p. 66-67

(٨٠) المقدسى ، BGA, III² ، ص ٩

المسلمين بتلك الأصقاع يضطره أحيانًا إلى الكلام عن البلغار والخزر[٨١] .

والفصول الأولى من الكتاب التى بمثابة مدخل إليه طويلة بعض الشيء ولا تخلو من الأصالة عند المقارنة بكتب السابقين له ، إذ تنعكس فيها شخصيته واضحة للعيان[٨٢] ؛ ومنها يستدل على أنه قد أعاد النظر فى المسودة بحيث يصبح من العسير تتبع الخطة فى كتابه . ويلى المقدمة التى اقتبسنا منها عدة مرات فى صلب كتابنا هذا وصف البحار والأنهار مع محاولة لربط وصف البحار كما هى العادة بنظرية مذهب البحرين . أما الفصل الذى يعقده للكلام على أسماء الأماكن (toponomy) فيتناول فيه الحديث على المواضع المختلفة التى يجمع بينها اسم واحد والموضع الواحد الذى يحمل عدة أسماء . ويلى هذا فصلان يحويان وصفًا موجزًا لخصائص « الأقاليم » المختلفة والمذاهب الإسلامية . ويعترض السرد العام حكايته المشهورة للمغامرات التى مرت عليه خلال أسفاره وتجوالاته والتى يعرض لنا فيها لوحة من أمتع اللوحات التى تصور حياة المسلمين فى ذلك العهد رغمًا من أن عرضه لا يخلو من الزهو والفخر بالنفس .

وأول من لفت الأنظار إلى هذه الحكاية هو دى خويه (١٨٧٥) الذى ترجمها إلى الهولندية ترجمة كاملة بالتقريب . ومنذ ذلك الحين بدأت تتوالى ترجمات أقسام منها بقلم كريمر Kremer
214 (١٨٧٧) ونالينو Nallino (١٨٩٥) ومؤلف هذا الكتاب (١٩٣٧) وغيرهم ./وقد ظهرت لها ترجمة كاملة بقلم رانكنغ Ranking وأزو Azoo (١٨٩٧) ثم أخيرًا بقلم سوفاجيه Sauvaget (١٩٤٦)[٨٣] . وهذه الحكاية مكتوبة فى لغة مسجوعة تحفل بالكثير من التعابير النادرة والإشارات المقتضبة لذا فإنها تمثل أنموذجًا طريفًا لأسلوب المقدسى ويبرز فيها ميله الواضح إلى السجع والنثر المقفى . وإن الصعوبات التى تعترض فهم هذه القطعة قد جعلت من ترجمتها أمرًا عسيرًا ولكن على أية حال ليس بالدرجة التى تقف حائلا دون ترجمتها فى الظروف المعاصرة . وإليك النص الكامل لها * :

---

(٨١) شرحه ، ص ٣٦٠ = ٣٦١ — Markwart, Streifzüge, p. 3

(٨٢) Kramers Al-Mukaddasi, p. 765-

(٨٣) 1875: De Goeje, Eenige, p. 2-3: 1877: Kremer, Culturgschichte, II, p. 429-432; 1895: Nallino, Cosmos XII, p. 50-51; 1897: Ranking —Azoo p. 73-80; 1937: Krachkovski, Arabskie Geografy, p. 746-747; Sauvaget, Hist. Arabes, translation of preface, p. 65-68, 68-69-

* يورد المؤلف ترجمة دقيقة لهذه القطعة باللغة الروسية ويشرح الألفاظ الصعبة فى الهامش . أما نحن فنكتفى بالطبع بإيراد النص العربى كما هو دون اجراء تصحيحات فيه . (المترجم)

« ذكر ما عاينت من الأسباب[٨٤] . اعلم أن جماعة من أهل العلم ومن الوزراء قد صنفوا فى هذا الباب وإن كانت مختلة غير أن أكثرها بل كلها سماع لهم ونحن فلم يبق إقليم إلا وقد دخلناه وأقل سبب إلا وقد عرفناه ، وما تركنا من ذلك البحث والسؤال والنظر فى الغيب فانتظم كتابنا هذا بثلاثة أقسام أحدها ماعاينّاه والثانى ماسمعناه من الثقات والثالث ماوجدناه من الكتب المصنفة فى هذا الباب وفى غيره ، وما بقيت خزانة ملك إلا وقد لزمتها ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها ولا أهل زهد إلا وقد خالطتهم ولا مذكرو بلد إلا وقد شهدتهم ، حتى استقام لى ما ابتغيته فى هذا الباب ولقد سُمِّيتُ بستة وثلاثين اسما دُعِيتُ وخوطبتُ بها مثل مقدسى وفلسطينى ومصرى ومغربى وخراسانى وسلمى ومقرئ وفقيه وصوفى وولى وعابد وزاهد وسيّاح وورّاق ومجلّد وتاجر ومذكّر وإمام ومؤذن وخطيب وغريب وعراقى وبغدادى وشامى وحنيفى ومتؤدب وكرّى ومتفقه ومتعلم وفرائضى وأستاذ ودانشومند وشيخ ونشاسته وراكب ورسول ، وذلك لاختلاف البلدان التى حللتها وكثرة المواضع التى دخلتها ، ثم إنه لم يبق شيء مما لحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيبًا غير الكدية وركوب الكبيرة فقد تفقهت وتأدبت وتزهدت وتعبدت وفقَّهت وأدَّبت وخطبت على المنابر وأذنت على المنائر وأممت فى المساجد وذكَّرت فى
215 الجوامع واختلفت إلى المدارس ودعوت فى المحافل وتكلمت فى المجالس/وأكلت مع الصوفية الهرائس ومع الخانقاءيين الثرائد ومع النواتى العصائد وطُردت فى الليالى من المساجد وسحت فى البرارى وتهت فى الصحارى وصدقت فى الورع زمانًا وأكلت الحرام عيانًا وصحبت عبّاد جبل لبنان وخالطت حينًا السلطان وملكت العبيد وحملت على رأسى بالزنبيل ، وأشرفت مرارًا على الغرق وقُطع على قوافلنا الطرق وخدمتُ القضاة والكبراء وخاطبت السلاطين والوزراء وصاحبت فى الطرق الغسَّاق وبعت البضائع فى الأسواق وسُجنت فى الحبوس وأخذت على أنى جاسوس ، وعاينت حرب الروم فى الشوانى وضرب النواقيس فى الليالى ، وجلّدت المصاحف بالكرى واشتريت الماء بالغلى وركبت الكنائس والخيول ومشيت فى السمائم والثلوج ونزلت فى عرصة الملوك بين الأجلّة وسكنت بين الجهال فى محلة الحاكه ، وكم نلتُ العز والرفعة ودبّر فى قتلى غير مرة وحججت وجاورت وغزوت ورابطت وشربت بمكة من السقاية السويق وأكلت الخبز والجلبان بالسيق ومن ضيافة إبراهيم الخليل وجمَّيز عسقلان السبيل وكُسيتُ خلع الملوك وأمروا لى بالصلات ، وعريت وافتقرت مرات وكاتبنى السادات ووبخنى الأشراف وعُرضت على الأوقاف

---

(٨٤) المقدسى ، BGA, III^2 ، ص ٤٣ – ٤٥

وخضعت للأخلاف ، ورميت بالبدع واتهمت بالطمع وأقامنى الأمراء والقضاة أمينًا ودخلت فى
216 الوصايا وجُعلت وكيلا وامتحنت الطرّارين ورأيت دُوَل العيّارين واتبعنى الأرذلون/وعاندنى الحاسدون وسعى بى إلى السلاطين ، ودخلت حمامات طبرية والقلاع الفارسية ورأيت يوم الفوّارة وعيد برباره وبئر بُضاعة وقصر يعقوب وضياعه * . ومثل هذا كثير ، ذكرنا هذا القدر ليعلم الناظر فى كتابنا أنّا لم نصنفه جزافًا ولا رتبناه مجازًا ، ويميزه عن غيره ، فكم بين مَنْ قاسى هذه الأسباب وبين من صنف كتابه فى الرفاهية ووضعه على السماع . ولقد ذهب لى فى هذه الأسفار فوق عشرة آلاف درهم سوى ما دخل علىّ من التقصير فى أمور الشريعة ، ولم يبق رخصة مذهب إلا وقد استعملتها ، قد مسحت على القدمين وصليت بمُدْهامَّتان ونفرت قبل الزوال وصليت الفريضة على الدواب ومع نجاسة فاحشة على الثياب وترك التسبيح فى الركوع والسجود وسجود السهو قبل التسليم ، وجمعت بين الصلوات وقصرتُ لا فى سفر الطاعات ، غير أنى لم أخرج عن قول الفقهاء الأئمة ولم أؤخر صلاة عن وقتها بتَّة ، وما سرت فى جادّة وبينى وبين مدينة عشرة فراسخ فما دونها إلا فارقت القافلة وانفتلت إليها لأنظرها قديمًا ، وربما اكتريت رجالا يصحبونى وجعلت مسيرى فى الليل لأرجع إلى رفقائى مع إضاعة المال والهم » .

هذه القطعة تذكرنا بعض الشىء بالمقدمة المعروفة لليعقوبى ، ولكنها تمتاز عليها بحيوية أكثر فى العرض ؛ وفى مدى بضعة قرون سنلتقى بابن بطوطة الرحالة الذى لم تكن مشاهداته بأقل مما شاهده المقدسى هذا إن لم يزد عليه ، بل إن تجواله انتظم مجالا أوسع . غير أن عرض ابن بطوطة قد ذهب بأجمعه فى الرحلة وليس لديه أثر للحديث عن مصادره كما فعل المقدسى فى بداية كتابه بمهارة وبراعة فائقتين .

217 ولا تقف فصول المدخل عند هذا الحد ، فقد رجع المؤلف إلى الكلام على الأماكن المجهولة الموقع وتعداد المدن والنواحى (« الأمصار والقصبات ») والنقاط المأهولة بها . ويلى هذا الكلام على تقسيمه الأرض إلى الأقاليم السبعة المعروفة لنا ، وعلى موضع القبلة وامتداد « دولة الإسلام » . وجميع هذه الفصول الأولى من الكتاب تمثل ما يقرب من سدسه ، وفقط عند استيفاء الكلام فيها ينتقل بالقارىء إلى وصف البلاد الذى يخضع لتنظيم دقيق على طول صفحات الكتاب . وعند وصفه لكل قطر يقسمه عادة إلى ثلاثة أقسام غير متساوية الحجم ، ففى القسم الأول يرد الكلام

---

* فى هامش ص ٤٥ من المتن المطبوع لكتاب المقدسى جاء أن إحدى المخطوطات تقرأ بعد « قصر يعقوب وضياعه » ما يأتى : « والمهرجان والسنده (والسذه) والنيروز بعدن وعجبه وعيد الماوسرجه (المارسرجه) » . وفى الترجمة الروسية أدخل المؤلف هذه الألفاظ فى صلب المتن . (المترجم)

على أقسام المنطقة ومدنها والمواضع العامرة منها ؛ أما القسم الثانى فيبحث فى المناخ والزرع والطوائف واللغة والتجارة والأوزان والنقود والعادات والمياه والمعادن والأماكن المقدسة وأخلاق السكان والتبعية السياسية للقطر والخراج ؛ هذا فى حين يتناول القسم الثالث ذكر المسافات وطرق المواصلات[٨٥] . وليس من العسير أن نلاحظ أن المقدسى قلَّ أن يولى اهتمامه للجغرافيا الطبيعية كأن يصف مثلا الجبال والمياه إلخ ، ولكنه فى مقابل ذلك يقدم لنا لأول مرة مجموعة هائلة من المعلومات عن التجارة والمعتقدات والعادات .

ويبدأ وصف المناطق المختلفة ، وذلك وفقًا للترتيب المشار إليه ، بجزيرة العرب فالعراق فأقور * فالشام فمصر فالمغرب فبادية الشام التى ينتهى بها القسم الأول . أما القسم الثانى فيبدأ بالمشرق الذى يقسمه المقدسى إلى بلاد الهياطلة وخراسان والديلم وأرمينيا ومعها أذربيجان والجبال وخوزستان وفارس وكرمان والسند ومفازة فارس . وهكذا نجد أن الجزء الأساسى من كتابه إنما يسير حسب المنهج العام للمدرسة الكلاسيكية على الرغم من استطرادات المؤلف العديدة .

ولعل لغة المقدسى وأسلوبه ينتميان لا إلى أعسر أساليب هذه المدرسة فحسب بل إلى أعسر أساليب « مكتبة الجغرافيين العرب » **Bibliotheca Geographorum Arabicorum** اطلاقا . وإذا كان الإصطخرى يتبع أسلوبًا مبسطًا فى كتابه ويمكن تفسير بعض الوعورة فيه بأن اللغة العربية لم تكن لغته الأصلية ، وأن ابن حوقل بدوره لا يخلو من آثار الصنعة والتكلف والميل إلى السجع فإن المقدسى قد أوفى على الغاية فى هذا الباب ، إذ بالرغم من تملكه لناصية اللغة نراه يلجأ إلى الصنعة المرهقة فيفسح المجال للسجع لا فى بداية الكتاب وخاتمته فحسب بل وفى صلبه أيضًا ، ولداع أو لغير داع . ويحفل متن المقدسى بالألفاظ الصعبة القليلة الاستعمال لأنه كان يميل بعض الشىء إلى غريب اللغة . وهو يقول فى خاتمة أحد الفصول الأولى :

« وسنتكلم فى كل إقليم بلسانهم ونناظر على طريقتهم ونضرب من أمثالهم لتعرف/لغتهم 218
ورسوم فقهائهم ، فإن كنا فى غير الأقاليم مثل هذه الأبواب تكلمنا بلغة الشام لأنها إقليمى الذى به نشأت ... ألا ترى إلى بلاغتنا فى إقليم المشرق لأنهم أصحُّ الناس عربية لأنهم تكلفوها تكلفًا وتعلموها تلقُّفًا ، ثم إلى ركاكة كلامنا فى مصر والمغرب وقبحه فى ناحية البطائح لأنه لسان القوم »[٨٦] .

---

(٨٥) أكثر تفصيلا لدى : Beliaev, MITT, I, p. 28

* أقور أو أثور منطقة شمالى العراق . (المترجم)

(٨٦) المقدسى ، BGA, III², ص ٣٢

ومن كتابه يتبين أن المقصود بهذا بالتأكيد ليس لغة الكلام التى لا يلتفت إليها الأدباء عادة ، إنما يعنى بالذات الاختلاف فى استعمال الألفاظ الكتابية بين المناطق المختلفة .

ومن الواضح أن مثل هذا يصعِّب كثيرًا من لغة المقدسى وأسلوبه ، ولعل هذا من الأسباب التى حالت دون ظهور ترجمة لكتابه إلى الآن ، شأنه فى هذا شأن بقية ممثلى المدرسة الكلاسيكية . والترجمة الإنجليزية التى بُدئت فى الهند وقفت عند مصر ، أى فيما يمثل خمس الكتاب فقط . وفى السلسلة التى نظمها فيران **Ferrand** لترجمة مصنفات الجغرافيين العرب اقترح أن يعهد لوليم مارسيه **Marçais** بترجمة المقدسى ؛ وبالطبع فإن ذلك كان سيكون فتحًا جديًدا فى دراسة المقدسى لأن مارسيه كان من بين معاصريه خير من يعرف النثر العربى القديم ؛ بيد أن الفكرة قبرت مع الأسف بوفاة فيران .

إن شخصية المقدسى لتختتم بجدارة المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية وسلسلة الجغرافيين الكبار للقرن العاشر ، غير أن شخصيته لا تتمتع بالكثير من الجاذبية والعطف ؛ فأسلوبه لا يخلو من التكلف فضلا عن أن اعتداده الشديد بنفسه قد يحدث أحيانًا بعض الضيق للقارئ . ولكن من غير المستطاع أن يغمطه إنسان نصيبه من الفهم والذكاء وألا يعترف له بالأصالة والطرافة وقوة الملاحظة ؛ لذا فيجب الاتفاق مع اشبرنجر وكرامرس فى اعتباره جغرافيًا عظيما وواحدًا من كبار الكتاب العرب قاطبة .

الفصل الثامن
جغرافيو القرن العاشر الآخرون

219 إن المصنفات التى وضعها جغرافيو المدرسة الكلاسيكية لتعجز عن أن تستوعب جميع نتاج الأدب الجغرافى فى القرن العاشر ، ولقد تبين لنا من خلال أحد الفصول السابقة أن عدد الرحالين الذين خلفوا آثارًا مدونة عن تجوالهم كان كبيرًا جدًا لا يضارعه كثرة إلا تلك المصنفات التى يصعب اعتبارها جزءًا من الأدب الجغرافى إما لأنه تعوزنا المادة اللازمة للحكم عليها أو لأنها تدخل فى نطاق هذا الأدب بطريقة ما .

فمن بين مصنفات الضرب الأول يتمتع واحد منها بصيت واسع في الأدب الجغرافى القديم ولكنه غير معروف لنا حتى الآن بصورة مباشرة ، ومؤلفه هو وزير السامانيين أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن نصر الجيهانى[1] الذى مر بنا ذكره أكثر من مرة بوصفه راعيًا ومشجعًا للدراسات الجغرافية وللرحالين . وقد طوقت رعايته حينًا من الدهر مؤسس المدرسة الكلاسيكية أبا زيد البلخى ، كما خرج على عهده أيضًا أبو دلف فى أسفاره النائية ولعله قد رفع إليه الرسالتين اللتين وضعهما عن رحلته ، كما التقى به ابن فضلان خلال مروره ببخارى فى رحلته إلى الأصقاع الشمالية . ومن الجلى أن منصبه كوزير قد ساعده فى تأليف كتابه هذا الذى اعتمد فيه على المؤلفات السابقة له وعلى رصيد كبير من الأسئلة والاستفهامات .

ومصدرنا الأساسى للحكم على الطابع العام للكتاب هو المقدسى ؛ فقد كتب فى مقدمته المعروفة لنا جيدًا يقول :

« أما أبو عبد الله الجيهانى فإنه كان وزير أمير خراسان وكان صاحب فلسفة ونجوم وهيئة فجمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودخلها وكيف المسالك إليها وارتفاع الخُنَّس منها وقيام الظل فيها
220 ليتوصل بذلك/إلى فتوح البلدان ويعرف دخلها ويستقيم له علم النجوم ودوران الفلك ألا ترى كيف جعل العالم سبعة أقاليم وجعل لكل إقليم كوكبًا مرة يذكر النجوم والهندسة وكرّة يورد ما ليس

---

(١) راجع عنه : Reinaud, Introduction, p. LXII-LXIV - Sprenger, Reiserouten, p. XVII-Bartold, Turkestan, p. 12 - 13 - حدود العالم ، ص ١٧ (الترجمة الإنجليزية ، ص ٢٣ — ٢٤) Markwart, Streifzüge, p. XXXI-XXXII - Markwart, Bericht, p. 303 - Wiedemann, Beiträge, XXVII, 1912. p. 8 - 9 note 3 - Krachkovski, «Blagodatny Ogon», p. 241 note 7

للعوام فيه فائدة وتارة ينعت أصنام الهند وطورًا يصف عجائب السند وحينًا يفصّل الخراج والردّ ورأيته ذكر منازل مجهولة ومراحل مهجورة ولم يفصّل الكور ولا رتب الأجناد ولا وصف المدن ولا استوعب ذكرها بل ذكر الطرق شرقا وغربًا وشمالا وجنوبًا مع شرح ما فيها من السهول والجبال والأودية والتلال والمشاجر والأنهار وبذاك طال كتابه وغفل عن أكثر طرق الأجناد ووصف المدائن الجياد »[٢] .

وبهذا الأسلوب القاطع نفسه يقرر المقدسى أن ابن خرداذبه هو المصدر الأساسى للجيهانى : « ألا ترى أنك إذا نظرت فى كتاب الجيهانى وجدته قد احتوى على جميع أصل ابن خرداذبه وبناه عليه »[٣] ، وفى موضع آخر من إحدى مسوداته يدعم قوله هذا بأمثلة محسوسة فيقول : « ورأيت كتابه فى سبع مجلدات فى خزائن عضد الدولة غير مترجم وقيل بل هو لابن خرداذبه ورأيت مختصرين بنيسابور مترجمين أحدهما للجيهانى والآخر لابن خرداذبه تتفق معانيهما غير أن الجيهانى قد زاد شيئًا يسيرًا »[٤] .

ومن العسير التسليم بصدق هذا الزعم استنادًا على ألفاظ المقدسى وحده ؛ كما يجب أن نقرّ بحقيقة ثابتة وهى أن الشذور التى تبقت لنا من الجيهانى لا تتفق عادة مع ما هو معروف لدينا من متن ابن خرداذبه . غير أن هذا لا يعتبر رأيًا قاطعًا فى حد ذاته لأن طبعة دى خويه إنما تمثل المسودة المختصرة لكتاب ابن خرداذبه وهى وحدها المعروفة إلى أيامنا هذه . وليس بدعًا أن نبصر فى رأى المقدسى بعض التشدد والمبالغة فقد عرف سلفًا بالتشدد فى الحكم على من سبقوه ؛ وفى مقابل هذا نجد المسعودى أكثر اعتدالا فى حكمه ، فهو حين الكلام على مصادره يقول بصدد الجيهانى :

« أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهانى ... ألف كتابًا فى صفة العالم وأخباره وما فيه من العجائب والمدن والأمصار والبحار والأنهار والأمم ومساكنهم وغير ذلك من الأخبار العجيبة والقصص الطريفة»[٥].

---

(٢) الترجمة ، راجع: Bartold, Turkestan, p. 12-13 (= Barthold, Turkestan, p. 12) - Hudud, p. XVIII

(٣) المقدسى BGA, III ص ٢٤١

(٤) شرحه III ، ص ٤ ، رقم ١ ؛ الترجمة راجع :
Bartold, Turkestan, p. 13 (= Barthold, Turkestan, p. 12)

(٥) المسعودى BGA, VIII ، ص ٧٥ = Carra de Vaux, Maçoudi p. 109

221 وما كان للمسعودى ، وهو يتحدث عقب هذا مباشرة عن ابن خرداذبه ، أن يغض النظر عن الصلة الوثيقة التى تربطه بالجيهانى لو وجدت تلك الصلة حقًا كما زعم المقدسى .

وبالرغم من إيجاز هذه الإشارات إلا أنها تمكننا من تحديد النمط الذى ينتمى إليه مؤلف الجيهانى ؛ فهو وإن انبعث من الوسط نفسه الذى نشأت فيه أول حلقة معروفة لنا من المدرسة الكلاسيكية إلا أنه لا ينتمى إلى هذه الجماعة لأنه يرتبط ارتباطًا بينًا بالجغرافيا الرياضية من جهة ، ويوكد هذا تقسيمه المعمورة إلى سبعة أقاليم . ولدى المقارنة يمكننا أن نقرر بالكثير من اليقين أن استعماله للفظ « إقليم » إنما بمعناه الأول ، أى بوصفها أحزمة عريضة تنتظم المعمورة من الشرق إلى الغرب لا بمعنى المناطق الجغرافية كما هو الحال مع مفهوم المدرسة الكلاسيكية . كذلك ليس هناك ثمة مبرر للأخذ برأى هونغمان Honigmann[٦] الذى يعتقد أن المسألة تتعلق بفكرة اقتران الأقاليم بالكواكب . والسمة الثانية التى تميز كتاب الجيهانى عن تلك المدرسة هو اهتمامه البالغ بالبلاد الأجنبية وهو أمر غريب على المدرسة الكلاسيكية ، أضف إلى هذا أيضًا اهتمامه بالعجائب والغرائب المختلفة mirabilia .

واستنادًا إلى هذه الخطوط الرئيسية فإنه يمكن استشفاف بعض صلة الرحم بين هذا المصنف وكتاب ابن خرداذبه ، بل كتب بعض المؤلفين الذين مروا بنا كاليعقوبى وخاصة الجاحظ وابن الفقيه ؛ فهذا الفن من المؤلفات فى الجغرافيا الوصفية يقدم معلومات واسعة متنوعة تستطيع أن تجتذب أنظار الطبقات المثقفة لمجتمع ذلك العهد ؛ وهذا ما يؤكده إلى حد ما المقدسى فى حكمه السلبى على الجيهانى . وقد استعمل هذا الفن فى جمع شتات المعلومات عن العالم التى لم تجد طريقها إلى أدب الحديث أو الأدب الجغرافى فكانت بذلك فى حاجة إلى تنظيم أكثر وإلى صياغة علمية . ومن أسماء بعض المصنفات الأخرى للجيهانى[٧] التى أوردها صاحب « الفهرست » يتضح أنه كان على معرفة بالأدب الإيرانى كالذى ينعكس عند ابن المقفع والجاحظ ، وذلك نتيجة لاتصاله بآل سامان .

ومما يؤسف له أننا لا نستطيع أن نصدر حكمًا مرضيًا على تفاصيل ثابتة من كتاب الجيهانى كما حدث عند الكلام على الكتاب نفسه بوجه عام ، إذ أنه لم يعثر له على أثر إلى الآن . وقد ثبت أن ما تردد منذ نيف وعشرة أعوام فى ثنايا مقال خاص[٨] عن الكشف عنه بمدينة مشهد إنما يستند على

---

(٦) -Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 178

(٧) الفهرست ، ص ١٣٨

(٨) -Janicsék, p. 15-26

محض لبس[٩] . واسم الكتاب فيما يبدو كان ، وفقًا للعرف السائد ، هو « كتاب المسالك
والممالك » ولكن يظهر لنا أحيانًا عنوان أكثر تعقيدًا هو « كتاب/المسالك فى معرفة 222
الممالك »[١٠] .

وليس من المستطاع إثبات تاريخ تأليف هذا الكتاب الذى كثرت حوله الآراء والمعلومات الخاطئة إلا بصورة تقريبية . ويفترض بروكلمان Brockelmann[١١] ، ويظاهره فى هذا هير Heer[١٢] وسارطون Sarton[١٣] ، أن الكتاب قد تم تأليفه بين عامى ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ و ٢٩٥ هـ = ٩٠٧ . ولكن يضعف من هذا الرأى اعتبارات زمنية ، منها التقاؤه بجغرافيين ورحالة آخرين ، وأنه قد استوزر لأمير سامانى صغير السن هو نصر الثانى بن أحمد (٣٠١ هـ - ٣٣١ هـ = ٩١٤ - ٩٤٣) فى أوائل سنى حكمه[١٤] . ويدلل بارتولد استنادًا على رواية كرديزى أن الجيهانى قد وضع مؤلفه فى ذلك الحين ، ومن ثم فهو يميل إلى الافتراض بأن ذلك قد تم قبل عام ٣١٠ هـ - ٩٢٢[١٥] . وتاريخ وفاة الجيهانى غير معروف لنا ؛ أما قول جرجاس Girgas[١٦] بأنه قد توفى عام ٩٥٦ فهو سهو واضح .

فإذا ما اعتبرنا أن الكتاب قد تم تأليفه قريبًا من عام ٣١٠ هـ = ٩٢٢ فيجب أن نطرح جانبًا بعض المزاعم القائلة بعلاقة الجيهانى بجغرافيى الجيل المعاصر له . ويرى بروكلمان[١٧] أن الجيهانى قد اعتمد فى وضع كتابه على كتاب الخراج لقدامة بن جعفر وهو زعم لا تدحضه اعتبارات زمنية فحسب ، لأن قدامة كتب بعد الجيهانى أو على الأقل فى وقت واحد معه ، بل أيضًا ما نعرفه عن مصنف الأخير .

ويجب أن نأخذ بعين الحذر والارتياب قول صاحب « الفهرست » أن ابن الفقيه قد « سلخ » كتاب الجيهانى[١٨] . حقًا أن الطابع النقلى لكتاب ابن الفقيه ليس فى الوسع إنكاره ولكن كتابه

---

(٩) -Validi , GZ, XL. p. 368. note 1 —Brockelmann, GAL, SBI, p. 407, No 9

(١٠) -Reinaud, Introduction, p. LXIII

(١١) -Brockelmann, GAL, I, p. 228, No 9

(١٢) -Heer, p. 21, No 9

(١٣) -Sarton, Introduction, I, p. 635-636

(١٤) -Markwart, Streifzüge, p. XXXI —Hudud, p. 168

(١٥) -Bartold, SV, I, p. 42

(١٦) -Girgas, p. 195

(١٧) -Brockelmann, GAL, I, p. 228, No 9

(١٨) الفهرست ، ص ١٥٤

يرجع تأليفه إلى ماقبل عام ٢٩٠ هـ = ٩٠٣ ، أى قبل أن يخرج كتاب الجيهانى إلى عالم الوجود .

وليس هناك شك فى وجود صلة الرحم بين جميع هذه المصنفات فى شكلها ومضمونها ، ولعل هذا من الأسباب التى دفعت صاحب « الفهرست » إلى افتراض فرضه هذا ؛ وذلك إلى جانب فروض أخرى قام بتحليلها دى خويه تحليلًا عميقًا[١٩] .

ويقف ياقوت فيما يبدو من كتاب الجيهانى موقفًا يسوده التحفظ ، فهو يذكره من بين السابقين له[٢٠] وينقل عنه رواية واحدة ذات طابع غريب تتعلق بمشابهة أرض الصغد لصورة الإنسان[٢١]* . ولعل هذا يفسر من ناحية أخرى السبب فى أن ياقوت لم يفرد له فى معجم الأدباء
سوى/ملاحظة تافهة[٢٢] مليئة بالحكايات عن ضروب من تصرفاته الغريبة ويسوق بيتًا لأحد 223
الشعراء فى ذلك . ويلوح أن المعرفة المباشرة بكتاب الجيهانى قد انقطعت مبكرًا وأن معرفة المؤلفين المتأخرين به جاءت فيما يغلب على الظن عن طريق السماع ، فحاجى خليفة عندما يتحدث عنه لا يزيد عن تكرار ألفاظ المقدسى[٢٣] .

وليس أمامنا فى هذه الحال سوى طريقة واحدة لتكوين فكرة واقعية عن مضمون الكتاب وهى دراسة المادة التى حفظها لنا منه المؤلفون الذين نقلوا مادته . وطالما صحب هذه المادة ذكر اسمه فإنه يمكن الاعتماد على هذه الطريقة بالكثير من الثقة ؛ أما الاستنتاجات المبنية على مادة مجهولة المؤلف فمن شأنها أن تقود إلى بعض التزيد كما رأينا من مثال مسلمة الجرمى . ولعل مصير الجيهانى يكاد يكون شبيهًا بهذا فقد نسبت إليه فى العادة تلك المعلومات الحافلة عن أوروبا الشرقية التى لم يعرف مصدرها بالضبط ، وهى التى استقى منها ابن رسته والبكرى والمؤلفون الفرس مثل صاحب كتاب « حدود العالم » وكرديزى وعوفى . وفى حالات معينة ليس هناك مجال كبير للشك فى نسبة بعضها إليه ؛ غير أنه ، كما ينصح بارتولد ، يجب إعمال الحذر فى أمثال هذه

---

(١٩) ابن الفقيه ، BGA, V ، ص XI

(٢٠) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٧

(٢١) شرحه الجزء الثالث ، ص ٣٩٤ ؛ راجع : Heer, p. 21 No 9

* رأينا تحاشيا للغموض أن نورد نص ياقوت بحذافيره . قال : « وقال الجيهانى فى كتابه الصغد كصورة إنسان رأسه بُنْجِكَث ورجلاه كشانية وظهره وفر وبطنه كبوكت ويداه ما يَمُرْغ وبزماخر » . (المترجم)

(٢٢) ياقوت الإرشاد ، الجزء السادس ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤

(٢٣) حاجى خليفة ، الجزء الخامس ، ص ٥١٠ ، رقم ١١٨٧٢ — Frähn, Ibn Foszlan, p. XXIV-XXV

المواضع[٢٤] . وإذا كان كتاب الجيهانى مصدرًا أساسيًا عن الأقطار الغربية بالنسبة للمؤلفين الشرقيين فهو أيضًا قد جمع مادة وفيرة عن المشرق . وقد رأينا كيف اعترف المقدسى بأنه كان نشيطًا فى جمع المعلومات عن الأقطار المجاورة لخراسان خاصة وادى السند والهند عامة[٢٥] ؛ وهذه المادة الأخيرة بعينها هى التى تكاد تكون المصدر الوحيد ، أو على الأقل الأساسى ، للإدريسى عن تلك البلاد . وليس أقل قيمة من ذلك ما أورده عن القبائل التركية وعن الشرق الأقصى[٢٦] ؛ وقد أثبت بارتولد أنه من الممكن أن يرتفع إليه واحد من أهم أوصاف الطرق التى تربط بين تركستان وعاصمة الصين[٢٧] .

ومما يثبت أن حكم المقدسى لا يخلو من الإجحاف شهادة مؤلف ذى مكانة كالبيرونى الذى لم يأنف من الرجوع إلى الجيهانى أو الاستشهاد به[٢٨] ؛ وفى أمثال هذه الحالات يتوكد ميل الجيهانى إلى طراز العجائب والغرائب . وأطرف من هذا معرفته الواسعة بالديانة المسيحية ، فالبيرونى فى كتابه « الآثار الباقية » ينقل عنه قصة معجزة حدثت بإحدى الكنائس القبطية بمصر ذكرّته بمعجزة « النار المباركة » ببيت المقدس[٢٩] ؛ وفى كتابه « الجماهر فى معرفة
224 الجواهر » يروى عنه قصة/تتعلق بكنيسة اسطفانوس رئيس الشهداء برومة التى كان بها مذبح ثمين[٣٠] . ويقف دليلا على صلة الجيهانى بالجغرافيا الرياضية أن أحد ممثلى المدرسة الرياضية فى القرن الثانى عشر وهو الخرقى (توفى عام ٥٣٣ هـ = ١١٣٨)[٣١] قد أفاد من وصفه للبحار[٣٢] ، وهو أشبه بوصف البتانى الذى مر بنا ذكره فيما تقدم من هذا الكتاب . من كل هذا يمكن الخروج بنتيجة مؤداها أن كتاب الجيهانى على الرغم من النقد الذى وجهه إليه المقدسى يستحق اهتمامًا كبيرًا وأن العثور عليه سيكون من شأنه إلقاء الضوء على مسائل عديدة من ميدان

---

(٢٤) Hudud, p. XVII-XVIII-

(٢٥) Reinaud, Introduction, p. LXIII-

(٢٦) Hudud, p. XVIII-

(٢٧) حدود العالم ، ص ١٧ (= Hudud, p. 24)

(٢٨) Krachkovski, «Blagodatny ogon» p. 242 note 1-2 —Wiedemann, Beiträge, XXVII, p.8-9 note 3-

(٢٩) Krachkovski, «Blagodatny ogon», p. 230, 241-

(٣٠) البيرونى ، كتاب الجماهر ، ص ١٦٦

(٣١) Wiedemann und Kohl-

(٣٢) Nallino, Al-Battani, I. p. 166, 167-169; II, p. XXIII —Wiedemann, Beiträge, XXVII, p. 8-9, note 3 —Validi, Schwerter, p. 42-

الأدب الجغرافى العربى للقرن العاشر .

ويرتبط بكتاب الجيهانى إلى حد ما مصنف بارز يرجع إلى الربع الأخير من القرن العاشر وتم تأليفه فى المنطقة الواقعة حاليًا فى شمال شرقى أفغانستان ، ذلك هو الكتاب الفارسى المجهول المؤلف « حدود العالم من المشرق إلى المغرب »[٣٣] . وبالرغم من أنه مكتوب بالفارسية إلا أنه يجدر بنا الوقوف عنده لا لأنه وجد زعم يقول بأنه ترجم عن العربية فى الأصل[٣٤] بل أيضًا لارتباطه الوثيق بالتراث العربى بحيث لا يكتمل الوصف العام للأدب الجغرافى دونه .

والمخطوطة الوحيدة المعروفة لنا لهذا الأثر كشف عنها المستشرق الروسى طومانسكى Tumanski فى عام ١٨٩٢ ومن ثم فقد نسبت إليه فى الدوائر العلمية فأصبحت تعرف باسم «مخطوطة طومانسكى المجهولة المؤلف» L'Anonyme de Tumanski . وبعد بحوث كثيرة حول المصنف ظهرت طبعة مصورة له (facsimile) قام بنشرها بارتولد فى عام ١٩٣٠ ، ثم تلا ذلك ظهور ترجمة إنجليزية علمية تصحبها تعليقات وافية بقلم مينورسكى فى عام ١٩٣٧ . ويمكن القول بلا تردد أنه ليس هناك مصنف جغرافى من العصر الكلاسيكى ظفر بترجمة مثل هذه جعلت منه بحق كنزًا فى متناول أيدى الجميع[٣٥] . وبالرغم من هذا فلا يزال الكتاب إلى الآن مجهول المؤلف ، ولكن ثبت بالتحديد أنه ألف حوالى عام ٣٧٢ هـ = ٩٨٢ لأمير ناحية كزكان أو كزكانان (جزجان فى شكلها العربى) من أسرة صغيرة حاكمة هى آل فريغون . والمؤلف فيما يبدو كان عالمًا نقليًا لم يعرف التجوال أو الترحال ؛ وهو لا يميل إلى ذكر مصادره ولكنه يشير مرة أو مرتين إلى كتاب أرسطوطاليس فى « الآثار العلوية » meteorology ويذكر أيضًا بطلميوس[٣٦] الذى استعمله بالطبع فى ترجمة عربية . وصلته بالأخير أمر لا يرقى إليه الشك فإن
أسلوبه فى توزيع البلاد بطلميوسى صرف /ولكنه يهمل الأطوال والعروض ، ولو أن هذا لم يمنعه أحيانًا 226
من الاحتفاظ ببعض الأصالة كوصفه للبحار السبعة . ولم يقف إغفاله ذكر المراجع حائلا دون التعرف على مصادره مع البحث العميق والتقصى ؛ ويرى بارتولد أن مصدره الأساسى هو الجيهانى

---

(٣٣) وفقاً لترجمة مينورسكى (Hudud, p. VII, note 2) : مناطق (Regions)

(٣٤) -Kramers, EI, EB, p. 67

(٣٥) نقد تشنر ، راجع : Taeschner, DI, XXVI, p. 67

– راجع أيضًا : Minorsky, une nouvelle source, p. 1-8;

Umniakov, VDI, No 3 (4), 1938, p. 211- 218; Brockelmann, GAL, SBI, p. 411, No 15

[راجع أيضًا : Minorsky, Addenda to the Hudud, BSOAS, XVII, 1955, p. 250]

(٣٦) حدود العالم ، ص ٦

وأنه أفاد بالقدر نفسه من مصنفات جغرافيي المدرسة الكلاسيكية خاصة من المسودات المختلفة لكتاب الإصطخرى . كما يمكن أن نذكر ابن خرداذبه كمصدر من مصادره الأساسية عن الأقطار الواقعة خارج العالم الإسلامى ؛ ويقينًا أنه اعتمد فى ذلك على نسخة كاملة منه لم تصل إلينا . وبالطبع كان تحت تصرف المؤلف آثار المؤلفين السابقين التى تنعكس فى أقسام مختلفة من كتابه ولكنها لم تلعب دورًا جوهريًا ، ولا يزال الأمر يحتاج إلى دراسة دقيقة مهد لها السبيل إلى حد كبير العلامة مينورسكى .

ويشير المؤلف عدة مرات إلى خارطة تم إعدادها فيما يبدو قبل تأليف الكتاب ؛ وليس من المستحيل فى شيء أن يستند وصفه للبلاد على خارطة ولكن لم يلاحظ فى هذا الصدد أية صلة بينها وبين « أطلس الإسلام » المعروف . وينقسم الكتاب إلى واحد وستين فصلا[٣٧] ليست كبيرة الحجم ، فيتلو المقدمة القصيرة سبعة فصول تعالج مسائل عامة كشكل الأرض وأحوال سكانها والبحار والجزر والجبال والأنهار والصحارى وتقسيم الأرض إلى مناطق . وهذه المناطق قد أفرد لمعالجتها اثنين وخمسين فصلا ابتداء من الشرق فى اتجاه الغرب ، ولو أن تتابعها يضحى أحيانًا غير مفهوم لنا فهمًا تامًا . ويحمل الوصف عادة طابعًا عمليًا مقتضبًا ، ويلاحظ لدى المؤلف الاهتمام بمسائل التجارة والمحاصيل المحلية .

ولا ريب فى أن مخطوطة طومانسكى المجهولة المؤلف كانت ذات أثر فعال فى الأدب الجغرافى التالى لها ، غير أن مسألة إلقاء ضوء على هذه الحقيقة مسألة عسيرة تتطلب فحص مصادر عامة ليست معروفة فى مجموعها لنا ، مثل المسودة المكملة لابن خرداذبه أو مصنف الجيهانى . وليس ثمة شك فى أن المؤرخ الفارسى كرديزى[٣٨] الذى سيأتى عليه الكلام فى حينه قد اعتمد فى القسم الجغرافى من كتابه على « حدود العالم » .

ويرتبط بنشاط الدوائر الثقافية القريبة من السامانيين ظهور أثر آخر كبير أُفرد فيه للجغرافيا مكان معين ، أعنى بذلك الموسوعة الفريدة فى بابها « كتاب البدء والتاريخ » . وفى المخطوطة الوحيدة المعروفة لهذا الكتاب الموجودة باستنبول والتى تحمل تاريخ ٦٦٣ هـ = ١٢٦٥ ، كما وأيضًا لدى بعض المؤلفين المتأخرين مثل كوزموغرافى القرن الخامس عشر ابن الوردى ، أو ببليوغرافى القرن السابع عشر حاجى خليفة ، ينسب تأليف الكتاب إلى مؤسس المدرسة

---

(٣٧) حسب تعداد الكتاب نفسه (الورقة الأولى ، ب) ستون فصلا ، فقد أسقط « البجناق » (الورقة ١٨ ، ب) .

(٣٨) راجع : Kramers, EI, EB, p. 67

الكلاسيكية للجغرافيا العربية أبي زيد البلخي (٣٩) ؛ وهكذا ظن ناشر الكتاب المستشرق الفرنسي
227 هوار Huart عند طبع الأجزاء الأولى منه . غير أن فحص/النصوص التى نقلها المؤلف عن مؤلفين متقدمين ، هذا بالإضافة إلى اعتبارات زمنية (٤٠) ، قد أقنع المتخصصين بأن الكتاب من تأليف شخص غير معروف فى المصادر الأخرى أصله فيما يبدو من فلسطين ، وهو مطهر بن طاهر المقدسى الذى عاش بمدينة بست بسجستان ووضع كتابه عام ٣٥٥ هـ = ٩٦٦ لأحد وزراء السامانيين (٤١) . وحاجى خليفة الذى يكرر لنا ألفاظ مقدمة الكتاب – وهو ربما قد رجع فى ذلك إلى مخطوطة استنبول آنفة الذكر – يقول عنه :

« وهو كتاب مفيد مهذب عن خرافات العجائز وتزاوير القصّاص لأنه تتبع فيه صحاح الأسانيد فى مبدأ الخلق ومنتهاه فابتدأ بذكر حدود النظر والجدل وإثبات القديم ثم ذكر ابتداء الخلق وقصص الأنبياء وأخبار الأمم وتواريخ الملوك والخلفاء إلى زمانه فى ثلاثة وعشرين فصلا وهو فى مجلد واحد » (٤٢) .

وفى طبعة هوار الذى كشف عن مخطوطة استنبول فى عام ١٨٧٧ ونشرها فى الفترة بين ١٨٩٩ و ١٩١٩ مع ترجمة فرنسية فى ست مجلدات ضخمة (٤٣) نجد أن الكتاب ينقسم إلى اثنين وعشرين فصلا تتفاوت من حيث الحجم والأهمية . فالفصل الأول على هيئة مقدمة تعالج مناهج المعرفة وحدودها ، والفصلان الثانى والثالث أفردا للالهيات (theodosy) ، أما الفصل الرابع فلنظرية النبوة والخامس لبداية الخليقة والسادس للاهوت والسابع فى صفة السماء والأرض كما ورد فى الأديان ، ثم الثامن فى ظهور الإنسان على الأرض وانتشاره بها والتاسع فى الأخرويات (eschatology) . ثم يعقب ذلك القسم التاريخى الذى يبدأ بتاريخ الأنبياء والرسل (الفصل

---

(٣٩) -Huart, JA, q série, XVIII p. 16

(٤٠) شرحه ، ص ٢٠

(٤١) شرحه ص ١٧ ، ٢٠ – راجع أيضًا :
Huart, Le Livre de la Creation —Brockelmann, GAL, SBI, p. 222, No 8 —Sarton, Introduction I, p. 659 —Krymski, Istoria Arabov, I, p. 103, 125 - Huart, Littérature Arabe, p. 282 - 283

(٤٢) حاجى خليفة ، الجزء الثانى ، ص ٢٣ ، رقم ١٦٩٣ – قارن :
المتن : Huart, Le livre de la Création, I, p. 5-6
« فأمرنى أن أجمع له كتابًا ... مصفى عن سقاط الغسالات وخرافات العجائز وتزاوير القصاص ... » – الترجمة : الجزء الأول ، ص ٥

(٤٣) -Huart, Le livre de la Creation

العاشر) يليه تاريخ الفرس (الفصل الحادى عشر) فالأديان المختلفة (الفصل الثانى عشر) . وينتقل إلى التاريخ العربى بعد الفصل الثالث عشر وهو الفصل الذى يتكلم فيه عن الجغرافيا ، ويلى ذلك تاريخ العرب الأقدمين مع ذكر أنسابهم (الفصل الرابع عشر) فتاريخ محمد (الفصول ١٥ – ١٧) وصحابته (الفصل الثامن عشر) وتطور التعاليم الإسلامية (الفصل التاسع عشر) وتاريخ الخلافة إلى عام ٣٥٠ هـ = ٩٦١ ، أى فى خلافة المطيع العباسى (الفصول ٢٠ – ٢٢) .

وجميع هذه المادة الضخمة قد عرضت بلا تنسيق مما حدا بأحد العلماء المعاصرين أن يصف الكتاب ، خلافًا لرأى حاجى خليفة ، بأنه[٤٤] : « مجموعة مختلطة من المعلومات فى اللاهوت وتاريخ الأديان والتاريخ العام ». والقول بأن هذه المعلومات وفيرة ومتنوعة لا يمكن إنكاره بأية
حال ، فمطهر بن طاهر المقدسى كان بحق/جامعًا أكثر منه شيئًا آخر ولكنه لم يكتف بالمصادر 228
المكتوبة بل أخذ عن عدد من الرواة الذين عرف كيف يتخيرهم ، فقد كانت له صلات باليهود وبالمجوس الإيرانيين بل حتى بالهنود ؛ ويلاحظ أنه كان على معرفة جيدة بالحساب الزمنى للهنود الذى مر بنا القول عليه عند الكلام على بداية الجغرافيا الرياضية . وهو يحسب عمر العالم لدى الهنود بأربعة بلايين وثلاثمائة وعشرين مليوناً من السنين وذلك بالأرقام الدونغارية (Dvengaari)[٤٥] . وهذا المثال يقف شاهدًا على أن اهتمام المؤلف بالجغرافيا إنما يتجه بالذات نحو الرياضة والفلك ، غير أن القسم المكرس للجغرافيا نفسها[٤٦] يهدف شيئًا أوسع من ذلك بكثير ، ويمكن الاستدلال على هذا من عنوان الفصل الثالث عشر وهو « فى صفة الأرض ومبلغ عمرانها وعدد أقاليمها وصفة البحار والأنهار وعجائب الأرض والخلق » . وفى الواقع نراه يبدأ العرض بتلك الأقسام المعروفة لنا من جغرافيى المدرسة اليونانية ، أعنى وصف الأقاليم السبعة[٤٧] والبحار[٤٨] والأنهار[٤٩] والأقطار المعروفة[٥٠] . ويظهر جليًا فى وصفه لبلاد

---

(٤٤) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 222 No 8

(٤٥) -Sarton, I, p. 659 —Huart, Le Livre de la Création, II (المتن) p. 146; (الترجمة) II, p. 135

(٤٦) -Huart, Le Liver de la Creation, IV, p. 49-104; الترجمة p. 47-99

(٤٧) شرحه ، ص ٤٩

(٤٨) شرحه ، ص ٥٤

(٤٩) شرحه ، ص ٥٧

(٥٠) شرحه ، ص ٦١

الإسلام[٥١] تأثير المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب ؛ وتلى ذلك أقسام ذات مادة مختلطة فى وصف المساجد المشهورة[٥٢] ووصف الطريق من العراق إلى مكة[٥٣] ووصف الثغور الإسلامية والرباطات[٥٤] وعجائب الأرض[٥٥] وغرائب الناس[٥٦] وبناة بعض المدن[٥٧] وأسباب هلاكهم[٥٨] . لكل هذا فإن مصادر « كتاب البدء والتاريخ » جدٌّ متنوعة ، ويبدو هذا جليًا الآن بعد أن تعرفنا على الأدب الجغرافى العربى ؛ ولعل ارتباطه الوثيق بالمدرسة الكلاسيكية ينعكس فى اهتمامه الزائد بإيران ، أو « إيرانشهر » كما يدعوها ؛ وقد حدث هذا مرتين فى كتابه[٥٩] . ولا ريب كذلك فى التأثير البالغ للمدرسة اللغوية عليه وأيضًا المجموعات العديدة من صنوف العجائب **mirabilia** ؛ وأخيرًا نصل إلى أدب الحديث الذى وجد مكانه فى الفصل الأخير المتعلق بالأخرويات . من كل هذا يتبين لنا أن مضمون الكتاب متنوع جدًا وأن المؤلف يفتقر افتقارًا تامًا إلى الأصالة .

229 فإذا ما انتقلنا من هذا إلى المادة التى يوردها فى مجال الجغرافيا الوصفية لألفيناها شحيحة فى الواقع ؛ وقد أثبت هذا فيران **Ferrand** عند فحصه للفقرات المتعلقة بالهند وأرخبيل الملايو[٦٠] . ومن الملاحظ أن ياقوت[٦١] يعترف بأنه أخذ عن طاهر المقدسى الرواية التى يذكر فيها أن الروس يقيمون بجزيرة موبوءة تحيط بها بحيرة[٦٢] ؛ وهذه الرواية معروفة بدورها لكل من ابن رسته وكرديزى وقد اجتذبت إليها أنظار الباحثين أكثر من مرة[٦٣] . ولا يخلو من طرافة نزوع المقدسى فى الفصل الجغرافى[٦٤] من كتابه وأيضًا فى الفصول الأخرى إلى النصح والإرشاد على حساب المادة

---

(٥١) شرحه ، ص ٧٠
(٥٢) شرحه ، ص ٨١
(٥٣) شرحه ، ص ٩٠
(٥٤) شرحه ، ص ٩١
(٥٥) شرحه ، ص ٩٢
(٥٦) شرحه ، ص ٩٦
(٥٧) شرحه ، ص ٩٨
(٥٨) شرحه ، ص ١٠٢ – ١٠٤
(٥٩) شرحه ، ص ٥٤ ، ٩٧
(٦٠) -Ferrand, Relations, I, p. 116-117
(٦١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الثانى ، ص ٨٣٤
(٦٢) -Huart, IV, p. 66-67 = (الترجمة) p. 62-63
(٦٣) -Markwart, Streifzüge, 200, 556
(٦٤) -Huart, IV, p. 49-104

التى يسوقها(٦٥) . لهذا ، وأيضًا بالإضافة إلى القسم الرياضى من الفصل الجغرافى ، فإن « كتاب البدء والتاريخ » ينضم إلى « رسائل إخوان الصفاء » التى ظهرت فى ذلك الوقت نفسه تقريبًا والتى تعرض فى الفصل المشابه لهذا الآراء البطلميوسية نفسها التى ثبتت فى القرن التاسع(٦٦) .

ولعل هذا الاتفاق ليس وليد الصدفة المحضة فقد وردت لدى بعض مؤلفى هذه المجموعة ، الذين نادرًا ما يشيرون إلى مصادرهم ، الإشارة إلى شخص يدعى المقدسى البستى . حقًا إن الأسماء الأولى تختلف ، كما وأن النسبة الثانية ترد أحيانًا فى صيغة أخرى ، ولكن رغمًا من هذا فإن التقارب فى النسبة يثير بعض التساؤل خاصة على ضوء الشبه بين القسمين الجغرافيين الذى أشرنا إليه . أما مجموعة إخوان الصفاء نفسها فهى تمثل أهمية كبرى ليس فيما يتعلق بالقسم الجغرافى بقدر ما يتعلق بالدور الذى احتلته الجماعة كظاهرة ثقافية كبرى لمنتصف القرن العاشر .

ففى هذا العصر الذى لحقت فيه عوامل الضعف والوهن بمذهب أهل السنة الذى ازدهر مدة قرن من الزمان عقب خلافة المتوكل ثم ضعفت شوكته نتيجة لارتفاع نجم البويهيين المعروفين بميولهم الشيعية ، أقول فى هذا العصر كان يجتمع بالبصرة جماعة من المفكرين فى محيط الدين والفلسفة اتخذوا لنفسهم اسم « إخوان الصفاء وخلان الوفاء »(٦٧) ، إشارة إلى إحدى حكايات « كليلة ودمنة »(٦٨) . ومن العسير معرفة ما إذا اتخذت هذه الجماعة شكلا معينًا أو أن نفوذها قد امتد إلى بغداد ، ولكن وضح فى الأعوام العشرة الأخيرة بما لا يدع مجالا للشك أنها كانت قريبة من دوائر
الإسماعيلية وتنتصر لمذهبهم . ويجب ألا يعزب عن البال أنه/إلى هذا العصر بالذات يرجع تمكين 230
سلطان الفاطميين بمصر ونشاط الدعوة الإسماعيلية بخراسان(٦٩) .

ولنشر آرائهم بين الناس قامت الجماعة بوضع إحدى وخمسين رسالة دون الإشارة إلى أسماء المؤلفين ؛ وقد حاولوا فى هذه الرسائل التقريب بين المنقول والمعقول ووضع فلسفة دينية

---

(٦٥) شرحه ، ص ٨٠ – ٨١

(٦٦) Kramers, EI, EB, p. 67-

(٦٧) Brockelmann, GAL, I, p. 213-214, No 5; SBI, p. 379-380 —Sarton, Introduction, I, p. 660-661 —Mieli, p. 128-130 —De Boer, EI, II, p. 489-440 —Krymski, Istoria Arabov, I, p. 126 —Krymski, Istoria Persii, I, No 2, p. 171-172 —Levy, II, p. 362-400 —Krachkovski, Arabskie Entsiklopedii, p. 17-18-

(٦٨) Goldziher, Ichwan al-Safa, p. 22-26-

(٦٩) Brockelmann, GAL, I, p. 213-214: SBI, p, 380-

جديدة[٧٠] . هذا وقد ظهرت هذه الموسوعة الفريدة فى نوعها فى بداية النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)[٧١] ، على أية حال ليس بعد عام ٣٧٣ هـ = ٩٨٣ إذ كان على معرفة جيدة بها الفيلسوف الأديب أبو حيان التوحيدى الذى يقدم لنا وصفًا دقيقًا لهذه الجماعة[٧٢] ولكنه كما هو العهد به دائمًا لا يخلو من السخرية فى وصفه . هذا وقد أحاطت رسائلهم بجميع العلوم التى كانت سائدة فى ذلك العصر ، من علوم تربوية ودينية وفلسفية ، مع جنوح واضح إلى المذهب اليونانى[٧٣] . واختيار المادة عندهم يتخذ طابعًا انتقائيًا ملحوظًا ، فالأساس عندهم هو الثقافة اليونانية والعلم اليونانى ولكن يبصر لديهم بوضوح أيضًا نفوذ الثنائية الغنوصية (gnostic dualism) والنظريات الإيرانية فى العناية الإلهية[٧٤] . وفى صلتهم بالعلم اليونانى بل وحتى فيما يتعلق بنظرتهم الفلسفية العامة إلى الوجود فإن أرسطو كان يأتى عندهم فى المرتبة الثانية عند مقارنته بهرمس Hermes وسقراط وأفلاطون وفيثاغورس[٧٥] الذى تنال نظريته فى الأعداد أهمية خاصة بينهم ؛ ومعرفتهم العامة بالفلسفة اليونانية تغلب عليها السطحية عند المقارنة بالكندى والفارابى[٧٦] . وفى بعض المخطوطات تضاف إلى الرسالة الحادية والعشرين عن الحيوان حكاية رمزية غريبة « فى شكوى الحيوانات من الإنسان أمام ملك الجن[٧٧] » ، وهى بمثابة تلخيص لجميع الأفكار الأساسية للرسائل بما فى ذلك الأفكار الجغرافية ؛ بل تمتاز بأهمية أدبية فريدة ويمكن أن يبصر فى أسلوبها فى الكلام على ألسنة الحيوان تأثير كتاب « كليلة ودمنة » الذى أخذت هذه الجماعة اسمها منه .

وعلاقة العلوم المختلفة التى تعالجها هذه الموسوعة بعضها ببعض تبدو فى عدد الرسائل المفردة لكل منها ، فالرياضة والمنطق أفرد لهما أربع عشرة رسالة ، والعلوم الطبيعية سبع عشرة رسالة ، بينما ظفرت الميتافيزيقيا وعلم النفس بعشر رسائل ، والتصوف والتنجيم والسحر بإحدى عشرة

---

(٧٠) -Nicholson , Literary History, p. 370

(٧١) -Massignon, DI, IV, p. 324

(٧٢) ابن القفطى ، ص ٨٢

(٧٣) -Arnold, Chrestomathia, p. 111

(٧٤) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 380

(٧٥) -Krachkovski, Arabskie Entsiklopedii, p. 17

(٧٦) -Sarton, Introduction, I, p. 660

(٧٧) -Dieterici, Streit (الترجمة) – وأيضًا بحثه : Thier und Mensch

رسالة(٧٨) . والفكرة الأساسية التى يقوم عليها هذا المصنف الجماعى يمكن تلخيصها فى أن كل ما يحدث فى العالم السفلى إنما هو انعكاس للعالم العلوى فحسب ، وأن كل ما يحدث على الأرض
إنما يخضع لحركات النجوم(٧٩) . /وعلى ذلك فليس من العسير أن نتكهن بنوع الجغرافيا التى يمكن 231
أن نجدها لديهم ؛ وقد أفردت لها رسالة خاصة هى « الرسالة الخامسة فى العلوم التعليمية فى الجغرافيا أى صورة الأرض والأقاليم »(٨٠) ، وموضعها فى القسم الأول بين الفلك والموسيقى وذلك فى المجموعة العامة التى تشمل العلوم الرياضية والطبيعية ، الأمر الذى يفهم منه أننا إزاء عرض موجز للجغرافيا الفلكية الرياضية وفقًا للمذهب اليونانى ، أى للنظريات البطلميوسية . وفى بداية الرسالة تؤكِّد النظرية القائلة بأن الأرض مركز الكون (٨١) ، ويتلو هذا وصف الربع المعمور(٨٢) والأقاليم السبعة(٨٣) كل على حدة . ويستغرق هذا الجزء الأكبر من موضوع الرسالة(٨٤) ، ثم يختتم كل ذلك كما هى العادة بعدد من الاستنباطات ذات طابع تعليمى (didactic) القصد منها توضيح المغزى الباطنى للظواهر المحسوسة ؛ وإحدى قطع هذا القسم وهى المتعلقة بالشرق الأقصى والتى قام بتحليلها فيران Ferrand(٨٥) تقف دليلا على أن المادة كما
هو متوقع تحمل طابعًا نقليًا وليست بذات/أهمية كبيرة . أما جداول توزيع الأماكن المأهولة وفقًا 232
لكل إقليم فمشوهة للغاية(٨٦) كما هو الشأن دائمًا مع المخطوطات . وعلى ذلك فقد حاول الكارتوغرافى المشهور كيبرت Kiepert أن يضع على أساسها خارطة للعالم كما تصوره « إخوان الصفا » .

---

(٧٨) -Sarton, Introduction, I, p. 661 —Krachkovski, Arabskie Entsklopedii, p, 17-18
راجع مذهبًا آخر لدى : Gibb, Arabic Literature, p. 68

(٧٩) -Ruska GZ, p. 592

(٨٠) إخوان الصفا ، الجزء الأول ، ص ١٢٦ – ١٤٤ . القطعة لدى :
Dieterici, Ichwan essafa, p. 59-65;
Dieterici, Die Propaedeutik, 4th section, p. 86-99 : راجع الترجمة ـ قارن : Levy, II, p. 377 - 381

(٨١) إخوان الصفاء ، الجزء الأول ، ص ١٢٨

(٨٢) شرحه ، ص ١٣٠

(٨٣) شرحه ، ص ١٣١

(٨٤) شرحه ، ص ١٣٤ – ١٤٢

(٨٥) -Ferrand, Relations I, p. 114-115

(٨٦) -Dieterici, Die Propedeutik, p. 191-199,
مع المتن مصورًا وخارطة من عمل Kiepert كيبرت

وفيما عدا القسم الخاص بالجغرافيا فإن المعطيات الجغرافية تتناثر فى بقية الرسائل ، وهى لا تخلو من أهمية فى بعض الأحيان رغمًا من أنها قليلا ما تميزت بالأصالة . وتلعب نظرية الأدوار الكونية (cosmic cycles) دورًا كبيرًا فى « رسائل إخوان الصفاء » ؛ فقد عمل هؤلاء العلماء على تطوير النظريات القديمة للعالم الكلاسيكى ونظريات العلماء الهنود التى مر بنا ذكرها من قبل ، ولكنهم إلى جانب هذا أتوا بآراء طريفة فى مجال الجغرافيا الطبيعية[٨٧] والمتيورولوجيا (meteorology) . فهم قد لاحظوا ارتفاع حرارة الغلاف الجوى نتيجة لانعكاس أشعة الشمس على سطح الأرض ، كما تثبتوا من أصل المنابع والأنهار[٨٨] ولاحظوا أيضًا وجود التغير التدريجى فى موضع كل من اليابس والماء * . وقد تجاوزوا عصرهم بكثير عندما نادوا بالنظرية التى مؤداها أنه بمرور الزمان تتحول الأراضى المزروعة إلى صحارى والصحارى إلى أرض مزروعة ، وتصبح السهول بحارًا وتتحول البحار إلى سهول وجبال[٨٩] ؛ وفى بداية القرن التالى لهذا يحاول العلامة البيرونى أن يثبت ذلك بأدلة محسوسة .

و« رسائل إخوان الصفا » التى صيغت فى أسلوب سهل لا تثقله المصطلحات والتى تضم دائرة واسعة من الموضوعات فى تركيب جلى واضح قد نالت انتشارًا واسعًا ولكن ليس فى الأوساط السنية بالطبع ، فالغزالى مفكر أهل السنة الكبير (توفى عام ٥٠٥ هـ = ١١١١) يرى فى استنتاجاتهم ضلالا مبينًا[٩٠] . وقد تجاوزت شهرتهم بسرعة فائقة ليس حدود موطنهم فحسب بل حدود الأدب العربى بمعناه الضيق ، فمنذ نهاية القرن العاشر نشر تعاليمهم بالأندلس[٩١] مسلمة المحريطى « اقليدس الأندلس » ، وفى القرن الثالث عشر وقع تحت تأثيرهم الكاتب السريانى يعقوب (سويرس) برشكّو (شككُو) Bar Shakko[٩٢] ، وفى القرن الرابع عشر نقلت رسائلهم إلى الفارسية فى دولة تيمور[٩٣] ، كما أن أجزاء متفرقة منها وجدت طريقها إلى أوروبا

---

(٨٧) -J. K. Wright, Georgr Lore, p. 83 = Kimble, p. 169-170

(٨٨) شرحه ، ص ٣٩٥ - ٣٩٦

* حدث سهو لدى المؤلف عندما كتب « اليابس والأرض » بدلا من « اليابس والماء » . وفى الواقع أن ألفاظ J. K.Wright التى نقلها هى كالآتى : «gradual alteration in th the relative position of land and sea» (راجع كتابه Geographical lore, New York, 1925 ص ٨٣) . (المترجم)

(٨٩) شرحه ، ص ٨٣ = Kimble, p. 170

(٩٠) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 380

(٩١) -Gonzalez Palencia, p. 262

(٩٢) -Ruska, Quadrivium, p. 5 —ZA, XII, 1897, p. 145

(٩٣) -Bartold, Kult, mus., p. 41

الوسيطة . ويرجع الفضل فى تعريف الدوائر العلمية المعاصرة بهم إلى ديتريتشى Dieterici الذى أفرد لهم أكثر من عشرين بحثاً فى تحليل معظم الرسائل وترجمتها ونشرها . وترتفع هذه البحوث إلى العهد الذى لم تكن قد وضحت فيه بعد طبيعة الوسط الذى نشأت فيه جماعة «إخوان الصفاء» ؛ وفى الأعوام العشرة الأخيرة فقط عندما وضحت طبيعة علاقتهم بحركة الإسماعيلية
أصبح في حيز الإمكان فهم أفكارهم/داخل الإطار العام للقرن العاشر. أما بالنسبة للأدب 233
الجغرافى وذلك فى مفهومه المستعمل فى هذا الكتاب فإن هذه الرسائل ترتبط به ارتباطاً غير مباشر ولكنها لا تخلو من أهمية فى تحديد مدى الاهتمام بالجغرافيا لأنها تمثل أثراً ممتازاً فى نطاق التاريخ الثقافي لذلك العصر.

ولم ينتج المغرب الإسلامى فى القرن العاشر أية مصنفات جغرافية ممتازة حتى يتسنى لها انتشار واسع . ولقد ساهمت مصر والمغرب والأندلس فى هذا العصر بالكثير فى محيط الجغرافيا الإقليمية ممـا ورد ذكره فى موضعه ، ولكن المصنفات ذات الطابع العام كانت قليلة العدد وليست بذات أهمية تذكر .

ويمكن أن ينسب بشيء من التحفظ إلى هذا العصر مصنف لمؤلف يدعى إسحاق بن الحسين نشرته منذ خمسة عشر عامًا أنجيلا كوداتسى Angela Codazzi ويحمل عنوانًا فيه الكثير من أثر الصنعة هو « آكام المرجان فى ذكر المدائن المشهورة فى كل مكان » . وقد حُفظ لنا فى مخطوطة فريدة من مجموعة معروفة تمتاز بالأصالة بميلان وتقتصر كلية على مخطوطات من جنوبى الجزيرة العربية . ولم يمكن العثور حتى الآن على أية معلومات عن المؤلف(٩٤) ويبدو أن الكتاب قد تم تأليفه بالأندلس ، الأمر الذى يمكن ملاحظته من استعماله لتعبيرات لغوية خاصة(٩٥) . وتحليل مصادر هذا الكتاب الذى قام به إلى جانب الناشرة مينورسكى وأومنياكوف Umniakov يشير إلى أن تأليفه قد تم فيما يغلب على الظن فى منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر) ؛ ومن الجائز كذلك أن يمتد هذا التاريخ إلى قرن بعد هذا ، ولكن لن يتجاوز بأية حال عام ٤٥٤ هـ = ١٠٦٢(٩٦) .

ومن الواضح من مضمون الكتاب أنه لم يحفظ صورته الأصلية بل يمثل فى العموم ملخصًا لمصنف أكبر من ذلك بكثير تستند فكرته الأساسية على وصف المدن الكبرى(٩٧) ، وهو نمط

(٩٤) Umniakov, Kompendium, p. 1139-

(٩٥) شرحه ، ص ١١٤٠

(٩٦) Brockelmann, GAL, SBI, p. 405, No 2 b-

(٩٧) Kramers, EI, EB, p. 67-

من الأدب الجغرافى أولع به الناس كثيرًا فيما بعد . وليست واضحة لنا فى جميع تفاصيلها طريقة تصنيفه لمادته ، فبعد الكلام على المراكز الدينية وهى مكة والمدينة وبيت المقدس يأتى الكلام على بغداد ويتلو ذلك الحديث عن بلاد الشرق كالعراق والجزيرة العربية وفلسطين و إيران وما وراء النهر ، ثم عن الغرب كمصر والمغرب والأندلس ؛ ويفرد وصفًا خاصًا لرومه والقسطنطينية . ولسبب ما يعقب آسيا الصغرى الحديث عن « مدينة الزابج بالهند » ، وفى الخاتمة يأتى وصف بلاد الترك[٩٨] والخزر .

وتجىء الأوصاف بوجه عام قصيرة جدًا وكثيرًا ما يصحبها تحديد المواقع الجغرافية ، أى تبيان خطوط الطول والعرض . وقد يرد الكلام عن فتح مدينة ما فتعطى معلومات موجزة فى الجغرافيا الطبيعية والسياسية قد تتسع بعض الشيء كما هو الشأن مع القسم المفرد للأندلس . وتقل/ 234
المعلومات ذات الطابع الاثنوغرافى[٩٩] ولو أن الفصول المتعلقة بالخزر والترك ربما تمثل أهمية خاصة . ورغمًا من ذلك فقد ثبت فى بحثين خاصين عالجا هذه النقطة أن كتاب إسحاق بن الحسين لا يقدم عنهما سوى تفاصيل ثانوية تستند على مصنفات لم تصل إلينا فى صورتها الكاملة أو معروفة فى مسودات أخرى .

وإسحاق بن الحسين كما هو متوقع لا يستقى مادته من المدرسة الكلاسيكية وحدها بل من المتقدمين عليها كذلك ؛ ويمكن ملاحظة تأثير الخوارزمى وابن خرداذبه عليه ، ومن الواضح أنه كان أكثر اعتمادًا على اليعقوبى وابن رسته . وفيما يتعلق بالأخير يستقى منه بشكل خاص فى الفصول المعقودة للخزر والترك ولو أنه لا يمكن استبعاد نقله عن مصنف الجيهانى الذى لم يصلنا ، وعلى أية حال فإنه يجب فيما يتعلق بهذا المؤلف الأخير إعمال الحذر الشديد[١٠٠] كما فعلنا من قبل . ومن العسير أن نحكم ما إذا كان الأدب الجغرافى المتأخر على علم بمصنف إسحاق بن الحسين ، إذ لم يعثر إلى الآن على ما يثبت ذلك . والرأى الذى نادى به نالينو من أن الإدريسى وابن خلدون قد أخذا عنه قوبل باعتراض شديد[١٠١] لأن تحديد الأسامى التى يوردها هذان المؤلفان يحتاج إلى براهين أقوى وأمتن من ذلك . وثمة رسالة مشابهة لهذا المصنف تم الكشف عنها فى إحدى مكتبات استنبول ولكن لم تنشر عنها أية تفاصيل بعد .

---

(٩٨) -Umniakov, Kompendium, p. 1140-1141

(٩٩) شرحه ، ص ١١٤١

(١٠٠) شرحه ، ص ١١٤٥ ؛ وراجع : Minorsky, Khazars, p. 149-150

(١٠١) شرحه ، ص ١١٣٨

وبمصر الفاطمية ظهر كتاب كان له تأثير كبير على المؤلفات التالية ولكن لا يمكن الحكم عليه إلا من شذرات متفرقة . فقد وضع الحسن بن أحمد (أو محمد) المهلبى مصنفه « كتاب المسالك والممالك » للخليفة الفاطمى العزيز (٣٦٥ هـ - ٣٨٦ هـ = ٩٧٥ - ٩٩٦) ولذا فكثيرًا ما ورد اسم الكتاب بعنوانه المقتضب « العزيزى »[١٠٢] . والعنوان الكامل للكتاب يقودنا إلى الظن بأنه من طراز « المسالك والممالك » المعروف لنا جيدًا من قبل . وقد تبين من المقتطفات التى نقلها عنه المؤلفون المتأخرون أنه يستند أساسًا على أوصاف الطرق خاصة طرق افريقيا[١٠٣] ؛ وهو يمثل فيما يتعلق بالسودان بالذات أحد المصادر الرئيسية لياقوت[١٠٤] الذى ينقل عنه أكثر من ستين مرة[١٠٥] ؛ ولكنه لا يقتصر على افريقيا وحدها فياقوت مثلا يرجع إليه أكثر من مرة بصدد مواضع مختلفة من الجزيرة العربية . وقد زار المهلبى سامرا وحفظ لنا ياقوت انطباعاته الشخصية عن أطلالها[١٠٦] ؛ وهو يوليه عناية خاصة من بين مصادره فيضعه جنبًا إلى جنب مع المقدسى[١٠٧]/ ويعرف مصنفه بالعنوانين اللذين ذكرناهما . وقد استعمله كثيرًا أبو 236
الفدا[١٠٨] ، وهو أيضًا لم يكتف بمادته المتعلقة بافريقيا بمفهومها الضيق إذ يورد عنه خبرًا عن جزيرة سقطرى وسكانها من النصارى النساطرة[١٠٩] ، كما يورد عنه عددًا من الروايات تتعلق بموطنه الشام . هذا وقد ظل كتاب المهلبى معروفًا معرفة مباشرة إلى أيام دولة التيموريين فاستعمله فى بداية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) حافظ آبرو عندما وضع مصنفه فى الجغرافيا[١١٠] .

وجميع أنماط الأدب الجغرافى التى مرت بنا من قبل ظلت تعيش فى القرن العاشر فى مؤلفات ذات أصالة حقة فى بعض الأحيان . فمعروف لنا مثلا مصنف تلعب فيه دورًا أساسيًا الرغبة فى

---

(١٠٢) حاجى خليفة ، الجزء الخامس ، ص ٥١٢ ، رقم ١١٨٧٥ -
Carra de Vaux, Les Penseurs, II, p. 9

(١٠٣) -Kramers, EI, SB, p. 67

(١٠٤) -Mez, p. 267

(١٠٥) ياقوت ، المعجم ، الجزء السادس ، ص ٣٨٠ - يفتقد لدى Heer

(١٠٦) شرحه ، الجزء الثالث ، ص ١٩ - ٢٠

(١٠٧) شرحه ، الجزء الأول ، ص ٧

(١٠٨) -Reinaud, Introduction, p. XCII-XCIII = Mehren, udsigt; p. 25

(١٠٩) أبو الفداء ، الجزء الثانى ، ص ٣٧١ = Storbeck, p. 52

(١١٠) -Bartold, Hafiz Abru, p. 3-4

إرضاء المطالب التعبدية وهو للفقيه أبي العباس أحمد بن القاصّ الطبرى الآملي الذى اشتغل بالتدريس فى آمل وتوفى بطرسوس عام ٣٣٥ هـ = ٩٤٦[١١١] . وعنوان الكتاب فيما يبدو هو « دلائل القبلة » هذا إذا لم يكن حاجى خليفة[١١٢] ، قد استمده من تعبير ورد فى مقدمة المؤلف الذى يقول : « تتبعت من علم دلائل القبلة وزوال الشمس ومنازل القمر وطلوع الفجرين ومقادير الفىء وأوقات الصلاة مما ألفه الماضون قبلى »[١١٣] . ويصفه حاجى خليفة بقوله إنه « مختصر أكثرها تاريخ وحكايات عن أحوال الأرض » . هذا الطابع المزدوج لمحتويات الكتاب توكده المخطوطة الوحيدة المعروفة له والموجودة ضمن مجموعة شخصية ببيروت وأعطى وصفًا مختصرًا لها باللغة العربية صاحبها نفسه[١١٤] ، كما أثبت أصلها فى عام ١٩١٤[١١٥] كاتب هذه السطور ولكنها لم تصل إلى أيدى الدوائر العلمية بعد[١١٦] .

ومحتويات المخطوطة واضحة على العموم رغم أن أسلوبها لا يخلو من الخلط ؛ وهى تنقسم إلى أحد عشر فصلا تتفاوت فى أحجامها ؛ وتتضح الأهداف الأصلية للكتاب من فصوله الأولى ، فالفصل الأول يحدد القبلة والثانى يعالج علاقة النجوم بها والثالث يتحدث عن مواقع البلدان المختلفة بالنسبة للقبلة والرابع عن شكل الأرض والموقع المركزى الذى تحتله فيها الكعبة . أما الفصول التالية فتحمل طابعاً تغلب عليه الجغرافيا العامة، فالفصل الخامس يعالج الأطوال
237 والعروض والسادس موقع مكة والجزيرة العربية من حيث الطول/والسابع البحار والثامن الأنهار والتاسع تقسيم الأرض إلى أقاليم والعاشر الجبال . أما أطول الفصول وأكثرها افتقارًا إلى التجانس فهو الفصل الحادى عشر الذى يتحدث عن البلدان المختلفة والذى جمع فيه المؤلف بلا أدنى تنسيق كل ما ظنه ذا علاقة بموضوع كتابه . فهنا يرد وصف لمسجد مكة كما يرد الكلام على الكعبة والمدينة والبصرة مع وصف قلعتى الخضر والخورنق من عهد الجاهلية ، ثم بيت المقدس والقسطنطينية وروميه مع وصف أسوارها ، وكهف الرقيم وسد يأجوج ومأجوج ، فصنعاء ومعها إرم الأسطورية ، والإسكندرية والأندلس وأصفهان وطبرستان وسمرقند . ويختم الفصل بتصورات

---

(١١١) -Brockelmann, GAL, I, p. 180, No 5; SBI, p. 306-307

(١١٢) حاجى خليفة ، الجزء الثالث ، ص ٢٣٦ ، رقم ٥١٢٨

(١١٣) جرجس افندى صفا ، ص ٤٣٩

(١١٤) شرحه ، ص ٤٣٩ – ٤٤٢ ، ص ٥٧٨ – ٥٧٩

(١١٥) -Krachkovski, «Blagodatny ogon» p. 232-233

(١١٦) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 951, 307

عن نهاية العالم وتاريخ الخلافة الإسلامية إلى عهد الراضى الذى ولى الخلافة عام ٣٢٢ هـ = ٩٣٤ .

ورغما من الخلط الذى فى كتاب ابن القاصّ فإن مادته الجغرافية واضحة بالنسبة لنا ، فالمؤلف فقيه يهتم بمسائل الجغرافيا الفلكية بالقدر اللازم لمطالب العبادة المختلفة التى أهمها تحديد القِبلة ومواقيت الصلوات المختلفة. وإلى جانب هذا فهو يقدم خلاصة لما وقع إليه من « الفضائل » و« العجائب » عن البلاد والمدن المختلفة مستقيًا ذلك من الحديث أو من المادة اللغوية . وفى الأحوال النادرة التى ترد فيها الإشارة إلى المصدر الذى ينقل عنه فقد أمكن التثبت من صدق قوله ، فهو مثلا يسجل وصفًا للبصرة مأخوذًا عن ألفاظ أحد أهليها وهو خالد بن صفوان (توفى عام ١٣٥ هـ = ٧٥٢ – ٧٥٣)(١١٧) من مشاهير البلغاء وكان مقربًا إلى الخليفة الأموى هشام (١٠٥ هـ – ١٢٥ هـ = ٧٢٤ – ٧٤٣) ووصف له بالفعل ذات مرة موطنه البصرة(١١٨) . أما وصفه لرومه فقد أخذه عن قصة هارون بن يحيى المعروف لنا جيدًا ، والذى كان فى أسر البيزنطيين فى أوائل القرن العاشر(١١٩) .

ولعل مصنف ابن القاص لم يكن ليتمتع بشىء من الذيوع لو اقتصر الأمر على المخطوطة الوحيدة التى أمكن الكشف عنها حتى الآن ، ففى الواقع أن آثار معرفة الآخرين به يمكن ملاحظتها لدى عالم رزين كالبيرونى ؛ غير أن الطريف فى الأمر أن البيرونى لا يرجع إليه فيما يتعلق بمسائل الجغرافيا الرياضية بل بصدد قصة « النار المباركة » فى بيت المقدس(١٢٠) ، ولكن من الجائز أن يكون الدافع الذى حفز البيرونى إلى التعرف عليه هو القسم الفلكى الرياضى من كتابه .

ومثل ابن القاص ليس هو الفريد لعالم عربى ترك لنا مصنفًا فى الجغرافيا دون أن يكون هو نفسه عالمًا جغرافيًا أو رحالة ، فالمؤلفات التى ترتبط بالجغرافيا من جانب واحد لا تقع تحت حصر ، غير أن إغفال ذكرها من شأنه أن يقدم صورة ناقصة للعرض العام لتاريخ الأدب الجغرافى . ويهمنا من وجهة نظرنا هذه فى القرن العاشر/تلك المؤلفات الببليوغرافية والاصطلاحية الفريدة فى 238

---

(١١٧) ياقوت ، إرشاد الأريب ، الجزء الرابع ، ص ١٦٠ – ١٦٥ : راجع : الزركلى ، الجزء الأول ، ص ٢٨٤ – ٢٨٥

(١١٨) جرجس افندى صفا ، ص ٤٤١ – ٤٤٢

(١١٩) راجع أعلاه الفصل الرابع

(١٢٠) Krachkovski., «Blagodatny ogon», p. 232-233

نوعها ، وكذلك بعض مصنفات أخرى يمكن فى أحوال أخرى أن تندرج فى محيط الأدب الفنى .

لقد وضح فى الفصول السابقة من هذا الكتاب إلى أى مدى كان اعتمادنا على كتاب « الفهرست » المشهور ، ذلك الكتاب الذى يعتبر محاولة فريدة فى نوعها لعرض تاريخ الأدب العربى[١٢١] . وهو قد أصبح مرجعًا عامًا فى جميع فروع التاريخ والأدب والعلم العربية منذ السبعينيات من القرن التاسع عشر بفضل الطبعة التى عنى بتحضيرها فليغل Flügel والتى لم تر النور إلا بعد وفاته . وفى العشرين عامًا الأخيرة فقط بدأت تبرز إلى الوجود إمكانية تكوين فكرة عامة عن الكتاب فى مجموعه بصورة أكثر دقة ووضوحًا ، كما بدت الحاجة ماسة إلى إخراج طبعة علمية جديدة له رغمًا من المجهود الكبير الذى كان قد بذله فليغل . ولم يكن السبب فى هذا هو الكشف عن مخطوطات جديدة للكتاب باستنبول فحسب ، بل أيضًا التطور العام لمنهج البحث العلمى منذ السبعينيات[١٢٢]* .

أما عن المؤلف نفسه فلا نعرف الكثير ، كما هو الشأن مع عدد غفير من المؤلفين . وجميع معلوماتنا عنه بالتقريب يجب استنباطها من كتابه نفسه[١٢٣] ، فاسمه الكامل وفقًا لمخطوطات الكتاب هو أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم الوراق البغدادى ، ومن هذا يتبين أن أباه كان يتاجر فى الكتب ببغداد . ويبدو أنه صحب أباه فى شئون تتعلق بتجارة الكتب فزار الموصل مرارًا ؛ أما الزعم القائل بأنه قد زار القسطنطينية ، ذلك الزعم الذى لا يزال يتردد فى الأوساط العلمية إلى أيامنا هذه[١٢٤] ، فيستند على محض سهو لفت إليه الأنظار منذ عهد طويل المستشرق روزن . ويمكن أن نلمس فى كتاب ابن النديم وجود عواطف معينة نحو الشيعة .

وفى عام ٣٧٧ هـ = ٩٨٧ - ٩٨٨ فكر ابن النديم فى وضع مصنف من أجل الوراقين ومحبى الكتب ، واتخذ لنفسه غاية معينة ذكرها فى مقدمة كتابه حيث يقول :

« هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها فى

---

(١٢١) -Fück , ZDMG, 90, 2, p. 299-321

(١٢٢) -Ritter, DI, XVII, p. 15-23-Fück, ZDMG

* مازال « الفهرست » محتاجًا إلى طبعة علمية (رغمًا من وجود ترجمة إنجليزية جيدة له) . ولحين ظهورها فيمكن الاعتماد على الطبعة التى نشرها العلامة الإيرانى رضا تجدّد وظهرت بطهران عام ١٩٧١ (المترجم)

(١٢٣) -Brockelmann. GAL, I, p. 147-148, No 3; SBI, p, 226-227 —Ritter, DI, XVII, p. 17-23 = ٦٨٧ - ٦٧٨ محمد يونس الحسينى ، ص – Fück, ZDMG, 84, p. 111-124 —Fück, EI, III, p. 873-874 —Nallino, Racc., p. 47-50 —Sarton Introduction ,p. 662

(١٢٤) -Fück. EI, III, p. 873 —Fück, ZDMG, 84, p. I11-1-4 —Sarton, شرحه

أصناف العلوم وأخبار مصنفيها وطبقات مؤلفيها وأنسابهم وتاريخ مواليدهم ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم وأماكن بلدانهم ومناقبهم ومثالبهم منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للهجرة »[١٢٥] .

وقد أراد ابن النديم فيما يبدو للوهلة الأولى أن يقصر مهمته فى الكلام على العلوم « غير الإسلامية » ، فالمسودة الأولى لمصنفه تضم أربع مقالات فقط جمعت إلى جانب المؤلفات العربية
الأصيلة/الترجمات العربية للمصنفات اليونانية والسريانية والفارسية والهندية المعروفة للمؤلف . 239
وقد أفرد المقالة الأولى للفلسفة و « علوم الأوائل » معالجًا فيها إلى جانب الفلسفة المنطق والرياضة والطب . أما المقالة الثانية فلأدب الأسمار والخرافات وأساطير الأمم والسحر . وتحوى المقالة الثالثة الكلام على تاريخ الأديان وعن المذاهب والفرق المختلفة ؛ والمقالة الرابعة فى أخبار الكيمائيين . غير أن المؤلف أضاف إلى ذلك فى العام ذاته ست مقالات أخرى كرسها « للعلوم الإسلامية » التى شغلت القسم الأول لما سُمِّيت « بالمسودة الموسعة » . وفيه يرد على التوالى تعداد المصنفات التى تتصل بعلوم القرآن والنحو والتاريخ والشعر والكلام ؛ وقد ظل المؤلف يضيف إلى كتابه إلى بداية القرن الخامس الهجرى تقريبًا (التاسع الميلادى) . أما عام وفاته فغير معروف لنا . وقد استعمل ياقوت كتاب « الفهرست » فى المسودة الموسعة من عمل الوزير المغربى (المتوفى عام ٤١٨ هـ = ١٠٢٧)[١٢٦] ؛ ويلوح أنها حظيت بانتشار واسع .

ومن المؤكد أن ابن النديم لم يكن من أصحاب السير بل من جامعى أسماء المصنفات فى فروع العلوم المختلفة (ببليوغرافى[١٢٧]) ، وما خلفه لنا من تراجم الأشخاص نزر يسير إذ أنه لم يلق بالًا إلى المؤلفين بقدر ما حصر اهتمامه فى مصنفاتهم ؛ وهو المجال الذى برزت فيه مقدرته بحق . وهو يعالج عددًا من المسائل المتعلقة بالكتابات القديمة وبالخط ، وقد نالت ملاحظاته عن كتابات الأمم المختلفة بما فى ذلك الروس[١٢٨] شهرة واسعة وبُذلت محاولات شتى لفك طلاسمها . وهو يولى اهتمامًا خاصًا إلى المخطوطات التى وجدت بخط المؤلفين أنفسهم ، وكذلك إلى المكتبات الشخصية والنسخ الممتازة الموجودة بها . وصاحب « الفهرست » على إحاطة تامة بفروع

---

(١٢٥) الفهرست ، ص ٢

(١٢٦) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 226-227

عن الوزير المغربى راجع : Zettersteen, EI, III, p. 117

(١٢٧) -Fück, EI, III, p. 874

(١٢٨) -Fren, Pism dr. Russov

العلوم المختلفة ويمكن الموافقة تماماً على رأى بارتولد فى أن هذا الكتاب «سيظل على الدوام المصدر الرئيسى لمعرفة الأدب والعلم فى القرون الأربعة الأولى للإسلام »[١٢٩] .

ولم يفرد للجغرافيا فيه مقالة خاصة ولكن هذا لا يقلل من شأن الكتاب بالنسبة لتاريخ علم الجغرافيا . فالجغرافيا لديه تنضم من ناحية إلى العلوم الرياضية ومن ناحية أخرى إلى التاريخ والأدب . وترد المعلومات عن المصنفات الجغرافية تحت أسماء المؤلفين عادة ؛ وقد أفدنا منها فى معظم الحالات السابقة للقرن العاشر . غير أنه إلى جانب هذا يضم « الفهرست » أحيانًا وقائع ذات طابع جغرافى صرف غاية فى الأهمية ؛ وقد سبق أن ذكرنا روايته لقصص أبى دلف ولقصة الراهب النجرانى الذى زار الصين . ويمكن أن يضاف إلى هذا معلومات أخرى مثل معلوماته عن الهند وفرقها وعن الصين ، وهى تمثل أهمية كبرى فيما يتعلق بتلك البلاد كما دلل على ذلك فيران Ferrand[١٣٠] أثناء تحليله لها .

240 وإلى جانب هذا المصنف الببليوغرافى وصلنا عن أواخر القرن العاشر مصنف فى المصطلحات العلمية لا يقل أهمية عن « الفهرست » ، ذلك هو كتاب « مفاتيح العلوم » لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمى . وقد أصبح هذا الكتاب معروفًا جيدًا للعلماء المتخصصين فى كافة فروع العلوم منذ الطبعة التى نشرها فان فلوتن Van Vloten عام ١٨٩٥ والتى تعتمد على أقدم مخطوطة يرجع تاريخها إلى عام ٥٥٦ هـ = ١١٦٠ – ١١٦١[١٣١] ؛ أما أهمية الكتاب بالنسبة لتاريخ العلوم والثقافة فقد تم الاعتراف بها بحق على أنها لا تقل عن أهمية « الفهرست » و« رسائل إخوان الصفاء »[١٣٢] .

وقد ظهر هذا الأثر فى الوسط الإدارى ذاته الذى برزت فيه إلى الوجود فى ذلك العصر طائفة من الآثار الممتازة فى منطقة إيران الشرقية التى نافست بغداد نفسها فى القرن العاشر . وكان أبو عبد الله الخوارزمى كاتبًا للعتبى وزير نوح الثانى السامانى الذى تولى الحكم فى المدة ٣٦٥ هـ – ٣٨٧ هـ = ٩٧٦ – ٩٩٧ ، وعاش بنيسابور حيث وضع كتابه بين عامى ٣٦٥ هـ = ٩٧٦ و ٣٨١ هـ = ٩٩١ . وكان هدفه فى الأصل وضع مصنف للدواوين على هيئة معجم يشرح المصطلحات المستعملة فى جميع فروع العلوم المختلفة . وقد أفرد المقالة الأولى لعلوم الشريعة ولعلوم

---

(١٢٩) - Bartold, Musl. Mir, p. 51

(١٣٠) -Ferrand, Relations, I, p. 118 - 130

(١٣١) -Van Vloten, Mafatih al-olum, p. 6

(١٣٢) -Sarton, Introduction, I, p. 659 — Krymski, Istoria persii, p. 172

العربية المرتبطة بها ، وهى تقع فى ستة أبواب تضم الفقه والكلام والنحو والكتابة (الرسائل) والشعر (ومعه العروض) والتاريخ . أما المقالة الثانية فتعالج علوم « العجم » ويعنى بذلك اليونان والسريان والفرس والهند ، وهى تحتوى على تسعة أبواب فى الفلسفة والمنطق والطب وعلم العدد والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والحيل والكيمياء(١٣٣) .

هذا الترتيب يكشف عن مدى إحاطة المؤلف الجيدة بتصنيف العلوم عند اليونان(١٣٤) ، ولعله عرف اليونانية والسريانية إلى جانب الفارسية التى كانت دون ريب قريبة منه . ولم يكن إلمامه بالمصادر العربية بأقل من ذلك ، فهو كثيرًا ما استعمل معجم الخليل ومصنفات الأصمعى اللغوية بل كان يرجع إلى مصنف مثل كتاب الشعر لابن المعتز . ولكتابه أهمية خاصة فيما يتعلق بخراسان وما وراء النهر التى عرفها أكثر من غيرها . ومعطياته عن مصطلح الرى فى تلك البلاد قد بحثها العلماء الروس أكثر من مرة(١٣٥) ولا تزال تحتفظ بأهمية واقعية إلى أيامنا هذه . والكتاب بأجمعه كما قال فان فلوتن يمتاز « بترتيب وإيجاز فى العرض قلّ أن يوجد مثيل لهما فى المصنفات العربية »(١٣٦) .

والجغرافيا كعلم تحتل بالطبع مكانًا ثانويًا فى « مفاتيح العلوم » ؛ ويقتصر المؤلف على معالجتها من الناحية الرياضية فحسب ، وهى تدخل فى الغالب فى باب الفلك/(الباب السادس 241
من المقالة الثانية) حيث تشغل المكان الثانى(١٣٧) . وفيه يرد شرح مفيد جدًا لجميع المصطلحات الأساسية المستعملة فى اللغة العربية فى ميدان الجغرافيا الرياضية والفلكية ، تلك المصطلحات التى مر بنا الكلام عليها عند ذكر المصنفات المرتبطة بالمدرسة اليونانية . وهذا الباب فى متناول أيدى غير المستعربين بفضل الترجمة التى قام بها فيدمان Wiedemann مؤرخ العلوم عند العرب(١٣٨) .

وإذا كان ابن النديم وأبو عبد الله الخوارزمى قد وجها اهتمامهما الرئيس إلى تصنيف العلوم فإننا نلتقى فى القرن العاشر بعدد لا يستهان به من مصنفات المنهج الأدبى اللغوى التى تمس علم

---

(١٣٣) Brockelmann, GAL, I, p. 244, No 1, SBI, p. 434-435 —Wiedemann, Al-Khwarizmi, p. 979-980 Mieli, p. 96-97 —Beliaev, MITT, p. 29

(١٣٤) Bartold, Kult-Mus., p. 35-36

(١٣٥) Bartold, K. istorii orosh., p. 17-18, 54-58 — Volin, Mafatih, p. 217-219

(١٣٦) Van Vloten, Mafatih al-olum, p. 5

(١٣٧) شرحه ، ص ٢١٥ — ٢٢٥

(١٣٨) Wiedemann, Beiträge, XXVII, p. 37-40

الجغرافيا كذلك . وقد مر بنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب كيف أن دراسة الأعلام الجغرافية الواردة فى النسيب الجاهلى دفعت إلى وضع مؤلفات من طراز «كتاب جزيرة العرب» أو « كتاب جبال تهامة » ؛ والآن فى القرن العاشر وفى عهد العباسيين نبصر ظهور عدد من الكتب الطريفة من طراز « كتب الديارات » التى جمعت فيها الأشعار الوارد فيها ذكر الديارات الشهيرة مع شروح وافية لها . وهى دون ريب لم تجتذب اهتمام المجتمع العربى والشعراء العرب بوصفها أماكن لعبادة المسيحيين ، بل اجتذبتهم بسبب الشهرة التى نالتها فى إنتاج النبيذ وبيعه . ففيها كان يمكن شراء النبيذ الجيد وإقامة مجالس الشراب المقتصرة ، سواء فى بساتين الدير أو فى محلات خاصة بعيدًا عن أعين الرقباء من متشددى المسلمين . وفى هذه المجالس كان الشعراء ينشدون أشعارهم ، بل إن المجالس نفسها كانت توصف فى هذه الأشعار بطريقة حية تقدم لنا لوحة دقيقة لحياة ذلك العصر. وكان عدد هذه الديارات كبيرًا ، وسرعان ما أحس اللغويون بالحاجة إلى وضع مرجع عام عنها كما فعلوا من قبل مع مواضع الجزيرة العربية الواردة فى الأشعار .

ويمكن الحكم على الاهتمام بهذا الموضوع من أن عدد المصنفات التى من هذا الطراز لا يقل عن العشرين(١٣٩) . أما ما حوته من مادة ضخمة حية عن الحياة الثقافية والاجتماعية للعصر فيتضح من ثنايا البحث الذى نشره منذ عهد غير بعيد العلامة العربى حبيب الزيات(١٤٠) . ومن المرجح أن البحث الذى وعد به فيشر **Fischer** عام ١٩٢٩ لن يكون أقل أهمية من ذاك*(١٤١) .

وفى النصف الثانى من القرن العاشر تمتعت ثلاثة من « كتب الديارات » بشهرة خاصة ، وأحدها لمؤلف كتاب « الأغانى » المشهور أبى الفرج الأصفهانى(١٤٢) . وترجع معرفتنا بهذه الكتب عادة إلى شذرات متفرقة ، إلا أن واحدًا منها وهو/ للشابشتى معروف لنا معرفة مباشرة 242
بفضل المخطوطة الفريدة التى ببرلين(١٤٣) والتى لا تخلو من السقط . وهناك زعم بوجود مخطوطة طريفة مصورة لهذا الكتاب رؤيت فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى)(١٤٤) . أما المؤلف فليست لدينا عنه أية معلومات بخلاف أنه كان أمينًا

---

(١٣٩) حبيب الزيات ، Les Couvents ، ص ٢٩٢ – ٢٩٥

(١٤٠) شرحه ، ص ٢٩١ – ٤١٨

* توفى فيشر عام ١٩٤٩ ، وليس لنا علم ببحث له فى هذا الموضوع . وهو نفس المستعرب الألمانى الذى ندين له باللبنة الأولى فى وضع معجم تاريخى للغة العربية . (المترجم)

(١٤١) -Fischer, SBSAW, 81, 3 (1929)

(١٤٢) حبيب الزيات ، Les Couvents ، ص ٢٩٣ ، رقم ٢ – -Heer, p. 23
Sachau, Klosterbuch, p. 6

(١٤٣) حبيب الزيات ، ص ٢٩٣ ، رقم ٤ -Sachau, Klosterbuch

(١٤٤) شرحه

لمكتبة الخليفة الفاطمى العزيز (٣٦٥ هـ - ٣٨٦ هـ = ٩٧٥ - ٩٩٦) وقارئًا[١٤٥] له . وقد أبدى ياقوت الذى كثيرًا ما ينقل عن كتابه[١٤٦] ترددًا واضحًا فيما يتعلق باسم المؤلف[١٤٧] ، أما ابن خلكان فإنه لم يستطع رغم بحثه وتقصيه أن يثبت أصل النسبة ، وافترض فى آخر الأمر أنها ديلمية الأصل[١٤٨] * . كذلك يحيط شك كبير بتاريخ وفاته وهل كان ذلك فى عام ٣٨٨ هـ = ٩٨٨ أم عام ٣٩٩ هـ = ١٠٠٨[١٤٩] .

ولعل طبيعة وظيفته كقاص للبلاط هى التى حفزته لوضع مصنفه « كتاب الديارات »[١٥٠] ، ووفقًا لفكرته الأساسية فقد كان من المفروض أن يشمل الكتاب جميع أديرة العراق والجزيرة والشام ومصر ، إلا أن المخطوطة البرلينية لم تحفظ لنا عن أديرة العراق إلا قسما ضئيلا ، بينما تفتقد أديرة الشام بالكلية[١٥١] . ونصيب مصر أقل بكثير من نصيب الجزيرة ، غير أن القسم الخاص بها كما هو واضح من بحث العلامة القبطى عزيز سوريال عطية[١٥٢] يحوى مادة قيمة . وكما هو الشأن مع المصنفات السابقة فإن مركز الثقل فى الكتاب لا يقوم على الوصف الجغرافى لتوزيع الأديرة وإن لقى بعض الاهتمام ، بقدر مايقوم على القصائد الطويلة والحكايات المتعلقة بها . وهذه بالطبع لها قيمتها الذاتية وقد جمعها زاخاو Zachau فى كتيب خاص ويمكن للجغرافى أن يستقى منها معلومات غير قليلة .

ومن الثابت أن كتب الديارات لم تكن النمط الوحيد فى ذلك العصر الذى يقدم لنا معطيات جغرافية ؛ إذ يمكن استخراجها بصورة أيسر من المجموعات التاريخية الأدبية التى ذخر بها ذلك العصر أيضًا . ويجب أن نولى اعتبارًا خاصًا فى هذا الصدد لثلاثة مصنفات لأبى على المحسّن التنوخى (توفى عام ٣٨٤ هـ = ٩٩٤)[١٥٣] الذى تزايد الاهتمام بشخصه فى الآونة الأخيرة

---

(١٤٥) Brockelmann, GAL, SBI, p. 411, No 14-

(١٤٦) تحليله لدى : Heer, p. 88-98

(١٤٧) ياقوت ، الإرشاد ، الجزء السادس ، ص ٤٠٨

(١٤٨) De Slane, Ibn Khalikan, II, p. 263-

* عن توضيح أصل اسم الشابشتى راجع ما جمعه الأستاذ كوركيس عواد فى مقدمة طبعته لكتاب الديارات . (المترجم)

(١٤٩) Brockelmann, GAL, SBI, p. 411, No 14-

(١٥٠) راجع : Sachau, Arab. Erzählungen, p. 104-105, 115-119

(١٥١) حبيب الزيات ، Les Couvents ، ص ٢٩٣ ، رقم ٤

(١٥٢) A. S. Atiya, XXme Congrès, p. 77-

(١٥٣) Brockelmann, GAL, I, p. 155-156, No 10, SBI, p. 252-253 —Paret, p. 710 —Wiener p. 39-41-

243 عند المؤرخين بسبب طبع قسم من أحد مصنفاته الأدبية منذ عهد غير بعيد[١٥٤] ./ففى مصنفاته هذه تنعكس قصة حياته المضطربة التى قذفت به من البصرة إلى بغداد إلى الأهواز تارة فى منصب قاض وأخرى مدرسًا وثالثة أديبًا مفلسًا ؛ ويبدو فيها مجهوده لابتكار القصص الجديدة وقوة ملاحظته واتباعه لمنهج أصيل فى معالجة كل ما يقع تحت ناظريه . وسأقتصر على إيراد مثال واحد طريف يهمنا من وجهة نظر الأدب الجغرافى .

ففى أكثر مجموعاته الأدبية شهرة وهو « كتاب الفرج بعد الشدة » الذى طبع فى القاهرة منذ وقت طويل أفرد الفصل السابع[١٥٥] للقصص المختلفة من عالم الحيوان ، كالفيلة[١٥٦] والأسود[١٥٧] والقردة[١٥٨] وكثير غيرها . وإذا اعتُبر بعضها مجرد حكايات للتسلية فحسب فإن بعضها الآخر يتميز بالكثير من الحيوية والتفصيل بحيث يقدم للمتخصصين فى الجغرافيا الحيوانية (zoological Geography) مادة لاستقراءات علمية ذات أهمية . وفى كتاب التنوخى تنعكس تلك المصادر التى خلقت نمط « القصص البحرية » المعروف لنا ؛ وهكذا يقترن فى مصنفاته الأدب التاريخى بالأدبين الفنى والجغرافى .

وإلى جانب « القصص البحرية » المحببة إلى الجماهير وجد فى هذا العصر دون شك « الرهمانى » ، أى مرشد الطريق البحرى ؛ وهى أوصاف لطرق الملاحة يرجع أصل واحد منها إلى نهاية القرن العاشر ومؤلفه هو « المعلم » (أى الربان) خواشير بن يوسف الأركى * الذى أبحر حوالى عام ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ على سفينة هندية على طول الساحل الشرقى والجنوبى الشرقى لافريقيا . وقد استعمل رهمانيه مؤلفو القرن الثانى عشر ، أما أخباره فقد حفظها لنا الربابنة الكبار للقرن الخامس عشر من معاصرى فاسكو دا غاما Vasco da Gama الذين صحبوه فى رحلته التى كشف فيها الطريق من افريقيا إلى الهند[١٥٩] .

---

* الأرجح أن تكون « العركى » . وفى المعاجم أن العركى هو الملّاح لأنه يعارك الأمواج . (المترجم)

(١٥٤) -Margoliouth, Al-Tanukhi , p. 137-146

(١٥٥) التنوخى ، الجزء الثانى ، ص ٧٣ – ٩٤

(١٥٦) شرحه ، ص ٧٣ – ٧٤ ، ٧٩ – ٨٠ ، ٨٧ – ٨٨

(١٥٧) شرحه ، ص ٧٥ – ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ – ٨١ ، ٨٨ – ٨٩

(١٥٨) شرحه ، ص ٧٨ – ٧٩

(١٥٩) -Mez, p. 267 —Ferrand, Sofala, p. 394-395

ويمثل القرن العاشر فى جميع ميادين الأدب الجغرافى خطوة هامة ، بل يرى فيه البعض أوج الجغرافيا العربية . ومن الثابت أن عدد المصنفات لم يتعرض للنقصان فى العصور التالية ، ولكن يمكن الجزم بأنه لم يحدث كما حدث فى هذا العصر أن ظهر فى وقت واحد مثل ذلك العدد الضخم من الكتاب المبرزين ومن الآثار الكبرى الذى لا يزال تأثيره محسوسًا إلى القرن العشرين .

الفصل التاسع
البيرونى وجغرافيو القرن الحادى عشر بالمشرق

244 بدأ القرن الحادى عشر مشرقًا بالنسبة للعلم العربى ، ففى عام ٣٩٠ هـ = ١٠٠٠ أتم تأليف كتابه المشهور « الآثار الباقية » علامة شاب هو البيرونى ؛ وهو كتاب لا مثيل له فى جميع آداب الشرق الأدنى . وفى خلال نصف قرن تقريبًا من هذا التاريخ لم يتوقف البيرونى عن تزويد مختلف فروع العلم بمؤلفاته العديدة التى يمكن القول بأنها بلغت ذروتها بكتابه عن الهند ، ذلك الكتاب الذى وصفه روزن منذ أكثر من خمسين عامًا بأنه « أثر فريد فى بابه لا مثيل له فى الأدب العلمى القديم أو الوسيط سواء فى الغرب أو الشرق »[١] . وقد أحس العلماء بسمو شخصية البيرونى العلمية منذ بزوغ فجر الاستعراب العلمى ، فكاترمير Quatremère قد لفت إليه الأنظار قبل روزن بنصف قرن تقريبًا[٢] . وكلما توسع العلم وتعمق فى التعرف عليه وعلى مصنفاته بدت شخصيته أكثر عظمة وسموًا . وفى أيامنا هذه أطلق سارطون على الفترة التى تشمل منتصف القرن الحادى عشر ، وذلك بالنسبة لتاريخ العلم العالمى ، اسم عصر البيرونى لأنه أكبر شخصية علمية عاشت فى ذلك الوقت . ولا تزال شخصيته العلمية آخذة فى النمو ، فقد تم العثور على مواد جديدة توكد أحقية هذا العالم الذى ينتمى إلى بلاد ما وراء النهر لكل ما ناله من تقدير وإجلال .

وحياة البيرونى أبعد من أن توصف بالهدوء والاستقرار ؛ ولا نملك إزاء هذا إلا الانحناء فى خشوع واحترام أمام النتائج العلمية الباهرة التى توصل إليها والتراث العلمى الحافل الذى أنتجه فى ظروف الزمان الذى عاش فيه . ولد البيرونى فى الثانى من ذى الحجة عام ٣٦٢ هـ = ٤ سبتمبر ٩٧٣[٣] بضاحية من ضواحى خوارزم ، ومنها أخذ نسبته البيرونى التى تنطق فى العربية بكسر الباء ولكن فى الفارسية تنطق الباء ممالة بعض الشىء (أى تليها e ممدودة) . ويمكن أن نجد إشارة إلى هذا فى إحدى النسخ التى كتبها بخط يده حيث يشكل اسمه بالعربية البَيْرونى أى بفتح الباء تليها ياء مسكَّنة[٤] ، يريد بذلك على ما يظهر أن يبين الصوت الممدود e الذى لا تسجله الكتابة

---

(١) -Rozen, ZVO, III, p. 147

(٢) -Quatremère, Des sciences chez les Arabes, p. 45

(٣) عام ميلاد البيرونى ٣٦٢ هـ = ٩٧٢ -Krause, Biruni, p. 2 —Meyerhof, Kitàb al-Saidana, p. 3

(٤) -Krenkow, Islamic Culture, VI, p. 528

العربية ./أما فى الاستعمال العربى العادى فقد سرى عليه اسم البيرونى بكسر الباء ، وهو الذى 245
سنسير عليه أسوة بما حدث مع اسم المؤرخ الدينورى . والنسبة نفسها غير مستعملة كثيرًا ، ولعله إلى جانب المعنى المعروف الذى يشير إليه السمعانى(٥) وهو «من خارج البلد»، تختفى إشارة ما إلى أصل مغمور لمؤلفنا . وعلى ضوء هذا فقد لا يكون من قبيل المزاح والفكاهة أبيات البيرونى التى حفظها لنا ياقوت والتى يقول فيها(٦) :

« .... ولست والله حقًا عارفًا نسبى
إذ لست أعرف جدى حق معرفة وكيف أعرف جدى إذ جهلت أبى
إنى أبو لهب شيخ بلا أدب نعم ووالدتى حمالة الحطب »

وكنيته أبو الريحان غير واضحة بدورها(٧) ، كما وأن نسبه مجهول تمامًا . أما اسمه محمد بن أحمد فلا يفاد منه شيء البتة ، بل جرت العادة على استعمال هذه الأسماء عندما تكون الأسماء الحقيقية غير معروفة . ومهما يكن مدلول أبيات الشعر هذه فإن لغته الوطنية كانت الخوارزمية(٨) ، وتأتّى له أن يتلقى تعليما جيدًا دعمته أسفاره العديدة وتجواله وتعطشه الشديد إلى المعرفة الذى ألهب مشاعره منذ سن مبكرة . ومنذ سن مبكرة أيضًا اتجه اهتمامه إلى نواح من العلم لم تكن معهودة للدارسين فى العصور الوسيطة الإسلامية؛ ويروى أنه عاش بخوارزم إذ ذاك عالم يونانى فكان يختلف إليه البيرونى حاملا أنواع النبات والبذور والثمار يسأله عن أسمائها اليونانية ويدوّن ذلك(٩) .
وقد لفت وهو لا يزال شابًا أنظار رعاة الأدب فى دولة بنى عراق المحلية الصغيرة ، ولكنه لم يلبث أن اضطر عقب إحدى الانقلابات إلى مغادرة وطنه وهو فى سن العشرين ، فرحل إلى سواحل بحر قزوين . وفى جرجان التقى بأكبر أساتذته وهو الطبيب والفلكى النصرانى أبو سهل عيسى المسيحى ؛ وهناك أيضًا تمتع بعطف أمير جرجان وطبرستان قابوس بن وشمكير الزيارى(١٠) ، الذى اكتسب بدوره بعض الشهرة كناثر وآخذ فى العلم بطرف(١١) ؛ وإليه رفع البيرونى أول

---

(٥) السمعانى ، الورقة ٩٨ ب

(٦) ياقوت ، الإرشاد ، الجزء السادس ص ٣١٣

(٧) -R. Wright, Al-Birüni, p. III

(٨) -Krause, Biruni, p. 2-3

(٩) والترجمة، ص ٤٢ ، ٥٠ ؛ ١٤ Meyerhof, Kitab al-saidana, p -
Krenkow, Islamic Culture, VI, p. 531

(١٠) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 154

(١١) -Krymski, Istoria Persii, 1915, p. 525-528

مصنفاته الكبرى وهو « الآثار الباقية » . ويبدو أن ميل هذا الحاكم إلى الطغيان جعل الحياة
عسيرة ببلاطه ، الأمر الذى تردد صداه فى أشعار متأخرة للبيرونى . وإلى هذا الوقت المبكر من
حياته العلمية ترجع أيضًا الرسائل التى تبادلها مع معاصره الأصغر منه سنًا ابن سينا الذى طبقت
شهرته الآفاق فيما بعد ؛ وهى تقف دليلا/على عمق معرفته بالفلسفة وعلى حدة مزاجه[١٢] . وفى 246
حوالى عام ٤٠٠ هـ = ١٠١٠ رجع إلى موطنه حيث كانت تتولى مقاليد الحكم أسرة المأمونيين
التى ما لبثت أن وجدت نفسها بين شقى الرحى ، تتهددها دولتان قويتان هما دولة ايلكخانات
سمرقند ودولة محمود الغزنوى التى كانت تنمو بسرعة متزايدة . ولم يلبث البيرونى أن تقاذفته
الدسائس والمؤامرات السياسية ، فلما احتل محمود الغزنوى خوارزم أخذ البيرونى معه إلى غزنة
عام ٤٠٨ هـ = ١٠١٨ بوصفه عنصرًا لا يُطْمَأن إليه . ولا تكاد تخلو مصنفاته المتأخرة بأجمعها
من الشكوى المُرّة لما يلاقيه العلم من سوء التقدير ولمصيره الشخصى الذى انتهى إليه هو
نفسه[١٣] . وليس فى الاستطاعة النفاذ إلى جوهر شكايته ، فهى بالنسبة لظروف ذلك الزمان
كثيرًا ما وردت على هيئة إشارات غامضة . ويبدو أن البيرونى ظل طوال ذلك الوقت مُرَاقبًا من
محمود الذى كان لايثق فيه ، ومن ثم فقد اضطر البيرونى دائمًا إلى البقاء إلى جانبه بل وإلى مصاحبته
فى حملاته العسكرية دون أن يتمتع بحرية التنقل ؛ وقد عرف البيرونى فى هذه الفترة شظف العيش
ولم تكن الأجهزة والوسائل العلمية فى متناول يده حتى يستطيع متابعة أبحاثه . ورغمًا من هذا فقد
وضع فى هذه الفترة بالذات عددًا من المؤلفات الضخمة من بينها كتابه المشهور عن الهند . وإلى
خليفة محمود وهو ابنه السلطان مسعود رفع البيرونى كتابه الكبير «القانون المسعودى» . ويلوح
أن وضعه آنذاك/كان قد تحسن بعض الشىء فخصص له راتب منتظم وتمتع بحرية التنقل ، ومن ثم 247
فقد استطاع فى حوالى عام ١٠٣٤ أن يزور مسقط رأسه خوارزم ، ولم نعد بعدها نسمع
بشكاياته[١٤] . والظاهر أن الأعوام الأخيرة من حياته كانت هادئة إلى حد ما ؛ وفى عهد مودود
الذى خلف مسعود وضع البيرونى كتابه فى « الصيدنة » وهو آخر مؤلفاته الكبرى ؛ وتوفى
البيرونى بغزنة فى الثالث من رجب عام ٤٤٠ هـ الموافق ١٣ ديسمبر ١٠٤٨[١٥] .

---

(١٢) -Wiedemann, Al-Biruni, p. 59-60

(١٣) -Krause, Biruni, p. 6-7

(١٤) شرحه ، ص ٧

(١٥) شرحه — و (القرن الثالث عشر) Meyerhof, Kitab al-saidana, p. 7
وهنا أيضاً الحاشية رقم ٢ عن أنه : «أناف على الثمانين»

وعلى الرغم من أن اسم البيرونى يجد مكانه فى الأدب العربى فى ميدان الجغرافيا والرحلات(١٦) ، إلا أنه كما يتبين لنا من المصنفات التى مر ذكرها فإن البيرونى لم يكن جغرافيًا ؛ أو على الأصح لم يكن جغرافيًا بقدر ما كان مؤلفًا واسع المعرفة شمل نشاطه كل دائرة العلوم المعاصرة له والتى تحتل من بينها العلوم الرياضية والفيزيائية المكان الأول بالنسبة له ، بل وربما كانت أيضًا العلوم التاريخية والطبيعية ليست أقل مكانة عنده من تلك ؛ ويوكد هذا فى رسائله الموجزة التى وصلنا منها نحو العشرين ، وأيضًا ثبت مؤلفاته الذى وضعه بنفسه والذى يصل إلى عام ٤٢٨ هـ = ١٠٣٧(١٧) . وقد بلغ محيط دراساته حدًا أصبح معه من الأيسر تعداد فروع العلوم التى لم تجتذبه إليها عما اجتذبه فعلا . فلا نستطيع مثلا أن نلمس أثرًا لاشتغاله بعلوم الشريعة ، ويبدو أنه لم يذهب فيها إلى أبعد من الحد المفروض على كل مسلم مثقف . وإذا كانت اللحظات الأخيرة من حياته قد أمضاها كما تقول إحدى الحكايات(١٨) فى فحص حالة معقدة تتصل بالتركات فهذا يمكن تفسيره بأن هذه الموضوعات بالذات كانت ترتبط بمسائل الرياضة والجبر ؛ وقد أولاها الخوارزمى الفلكى المعروف من قبل الكثير من الاهتمام . وكانت العلوم الاجتماعية تمثل عند البيرونى أهمية كبرى ، وهو نفسه لم يكن غريبًا على الشعر كما يتضح من الأبيات الشعرية التى خلفها لنا ؛ وعلى أية حال فقد كان على معرفة جيدة بالشعراء ووضع فى ذلك بضع مصنفات لم تصل إلينا . ومعرفته بالشعر تنعكس بصورة أكثر وضوحًا فى مؤلفاته ذات الطابع التخصصى ، ففى كتابه فى « الجواهر » مثلا يستشهد بما يقرب من ثمانين شاعرًا عربيًا(١٩) . ولم تصلنا مؤلفاته التاريخية التى عالج فيها تاريخ الفرق وتاريخ موطنه خوارزم وتاريخ الغزنويين الأول ، وليس ثمة ما يوجب الكلام عن الأهمية القصوى التى كانت ستمثلها جميع هذه المؤلفات ولكن يبدو أنها أصبحت نادرة الوجود منذ عهد مبكر ؛ فياقوت ، وهو الذى كان على علم بكتاب البيرونى فى تاريخ خوارزم ، لم يكن هذا الكتاب فى متناول يده عندما دون معجمه الجغرافى(٢٠) . ويبدو أن البيرونى لم يشعر بميل/إلى 248
الفلسفة المجردة ، وفقط من مراسلاته مع ابن سينا فى سنى الشباب يمكن الاستدلال على معرفته

---

(١٦) Brockelmann, GAL, I, p. 475-

(١٧) الترجمة عند : Wiedemann, Albiruni, p. 66-95
المتن عند : Krause, p. 30-43

(١٨) ياقوت الإرشاد ، الجزء السادس ، ص ٣٠٩ ؛ راجع : Wiedemann, Al-Biruni, p. 95

(١٩) M. J. Haschimi, Biruni, p. 37-30 —Meyerhof, kitab-al-saidana, p. 15-

(٢٠) ياقوت ، المعجم الجزء الثانى ، ٤٨٣ ؛ وأيضًا : Heer, p. 41, h

بها . وهو لم يعتبر نفسه ذا خبرة فى ميدان الطب خاصة الجانب العملى منه ؛ وفى آخر كتاب له وهو كتابه فى « الصيدنة » يوكد عدم عزمه على أن يمس مسألة الاستعمال الطبى للأدوية(٢١) .

ومجال نشاطه العلمى وبحوثه هو الرياضة والفلك والعلوم المرتبطة بها كالمتيورولجيا وجميع المسائل المتعلقة بحساب الوقت وصناعة أجهزة الرصد . ولعل زيارته للهند قد اضطرته إلى الاهتمام اهتمامًا كبيرًا بالمعادن وذلك نتيجة لولع الحكام المحليين بالأحجار الكريمة ؛ وقد جره هذا إلى إجراء عدد من التجارب القيمة فى الوزن النوعى ؛ وفى أواخر أيام حياته يقع اشتغاله بالصيدنة(٢٢) .

ومن الطبيعى أن يتجه اهتمام البيرونى فى ميدان الجغرافيا إلى الجانب الرياضى والفلكى . ولكن يتضح من كتابيه « الآثار الباقية » و« الهند » ، وهما اللذان اقتصر عليهما تداول الدوائر العلمية حتى عهد قريب ، أن البيرونى لم يقف عند هذين الفرعين بل ضرب فى جميع فروع العلوم الأخرى بنصيب . أما مصنفاته التى تعرف عليها العلم الحديث منذ عهد ليس بالبعيد فإنها تثبت أنه كان ملمًا بجميع المادة العلمية المعاصرة له . ويمكن إعطاء فكرة جيدة عن مدى اتساع أفق المعلومات الجغرافية فى عصره مما دونه بصدد توزيع البحار على سطح الأرض ، وذلك فى مصنف لم يقصد به فى الواقع إلى علم الفلك إنما قصد به التنجيم . قال :

« أما البحر الذى فى مغرب المعمورة وعلى ساحل طنجة والأندلس فإنه سمى البحر المحيط وسماه اليونانيون أوقيانوس ولا يُلَجَّج فيه إنما يسلك بالقرب من ساحله وهو يمتد من عند هذه البلاد نحو الشمال على محاذاة أرض الصقالبة ويخرج منه خليج عظيم فى شمال الصقالبة ويمتد إلى قرب أرض بلغار بلاد المسلمين(٢٣) ويعرفونه ببحر وَرَنك وهم أمة على ساحله ثم ينحرف وراءهم نحو المشرق وبين ساحله وبين أقصى أرض الترك أرضون وجبال مجهولة خربة غير مسلوكة ... وأما امتداد البحر المحيط الغربى من أرض طنجة نحو الجنوب فإنه ينحرف عن جنوب أرض سودان المغرب وراء الجبال المعروفة بجبال القمر التى تنتج منها عيون نيل مصر(٢٤) وفى سلوكه غَرَر(٢٥) لا تنجو منه سفينة .../وأما البحر المحيط من جهة الشرق وراء أقاصى أرض الصين(٢٦) فإنه أيضًا غير 249

---

(٢١) -Krause, Biruni, p. 8

(٢٢) شرحه

(٢٣) قرب الأرض بلغار المسلمين : -R. Wright, Al-Biruni, p. 121

(٢٤) الترجمة راجع : Validi, Schwrter, p. 40-41

(٢٥) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢٠ ، اقرأ : غرر بدلاً من غزر – وأيضًا :
غرو : . R. Wright, Al-Biruni, p. 121

(٢٦) -R. Wright, Al-Biruni, p. 122

مسلوك ويتشعب منه خليج يكون منه البحر الذى يسمى فى كل موضع من الأرض التى تحاذيه فيكون ذلك أول بحر الصين ثم الهند وخرج منه خلجان عظام[٢٧] يسمى كل واحد منهـا بحرًا على حدة كبحر فارس والبصرة الذى على شرقيه تيز ومُكران وعلى غربيه فى حياله فرضة عُمان فإذا ما جاوزها بلغ بلاد الشحر التي يجلب منها الكندُر ومرّ إلى عدن وانشعب من هناك خليجان عظيمان أحدهما المعروف بالقُلْزُم وهو ينعطف فيحيط بأرض العرب حتى تصير به كجزيرة ولأن الحبشة عليه بحذاء اليمن فإنه يسمى بهمـا[٢٨] فيقـال لجنوبيـه بحر الحبشة وللشمـالى بحر اليمن ولمجموعهما بحر القلزم وإنما اشتهر بالقلزم لأن القلزم مدينة على منقطعه فى أرض الشام حيث يستدق ويستدير عليه السائر على الساحل نحو أرض البجة .. والخليج الآخر المقدم ذكره وهو المعروف ببحر البربر يمتد من عدن[٢٩] إلى سفالة الزنج ولا يتجاوزها مركب لعظم المخاطرة فيه ويتصل بعدها ببحر أوقيانوس المغربى وفى هذا البحر من نواحى المشرق جزائر الزابـج ثم جزائر الديبجات وقمير ثم جزائر الزنج ومن أعظم هذه الجزائر الجزيرة المعروفة بسرنديب ويقال لها بالهندية سيلانديب ومنها تجلب أنواع اليواقيت جميعها ومنها يجلب الرصاص القلعى وسُربزه ومنها يجلب الكافور ... ثم فى وسط المعمورة فى أرض الصقالبة والروس بحر يعرف ببنطُس عند اليونانيين[٣٠] وعندنا يعرف ببحر طرابزنده لأنها فرضة عليه ويخرج منـه خليـج يمر على سور القسطنطينية ولايزال يتضايق حتى يقع فى بحر الشام الذى على جنوبيه بلاد المغرب إلى الإسكندرية ومصر وبحذائها فى الشمال أرض الأندلس والروم إلى انطاكية وبينهما أرض الشام وفلسطين وينصب إلى البحر المحيط عند الأندلس فى مضيق يذكر فى الكتب بمعبرة هيرقلس ويعرف الآن بالزقاق يجرى فيه ماؤه إلى البحر المحيط وفيه من الجزائر المعروفة قُبْرُس وسامس ورودس وصقلية/وأمثالها . 250
وبالقرب من طبرستان بحر فُرضة جرجان عليه مدينة آبسكون وبها يعرف ثم يمتد إلى طبرستان وأرض الديلم وشروان وباب الأبواب وناحية اللان ثم الخزر ثم نهر اتل الآتى إليه ثم ديار الغزية ثم يعود إلى آبسكون وقد سمى باسم كل بقعة حاذاها ولكن اشتهاره[٣١] عندنا بالخزر وعند الأوائل بجرجان وسماه بطلميوس بحر أرقانيا وليس يتصل ببحر آخر ... فأما سائر المياه المجتمعة فى مواضع من

---

(٢٧) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢١ .

(٢٨) زيادة فى : ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢١

(٢٩) زيادة فى ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢١

(٣٠) -Wright, Al-Biruni, p. 123

(٣١) ياقوت ، المعجم الجزء الأول ، ص ٢٢

الأرض فهى مستنقعات وبطائح[٣٢] وربما سميت بحيرات كبحيرة أفامية وطبرية وزُغر بأرض الشام وكبحيرة خوارزم وأبسكون بالقرب من برسخان »*[٣٣] .

إن قرائن الأحوال تشير إلى أن البيرونى كان يعتبر هذا الفصل جماعًا للمعارف الجغرافية فى عصره ، وهو يعيد هذا الكلام نفسه بإيجاز ولكن فى خطوطه الرئيسة فى كتابه « القانون المسعودى »[٣٤] . وإذا ما رجعنا بذاكرتنا إلى وصف البحار الذى يقدمه قبل قرن من هذا البتانى للاحظنا اختلافًا جوهريا بينه وبين البيرونى ، ذلك أن البتانى يسير على هدى المدرسة اليونانية فيقدم لنا الرواية الكلاسيكية القديمة دون تغيير تقريبًا ، أما البيرونى فرغمًا من تأثره بالعلم اليونانى إلا أنه يعمل على مزجه بالمعلومات الجديدة التى حصل عليها الجغرافيون العرب فى ذلك العصر . ومن الميسور أن نستنتج من عرضه هذا بوصفه ملخصًا شاملا لمعلوماتهم بعض الحقائق الجلية[٣٥] .

لقد توفرت للعرب قرب ذلك العصر معلومات عن ساحل افريقيا الشرقى إلى خط عرض ٢٠ درجة جنوبًا ؛ أما عن البلاد الواقعة إلى الجنوب من ذلك فقد كانت فكرتهم بصفة عامة تستند على الحدس والتخمين وإن كان علمهم بالكوارث التى كانت تتعرض لها السفن يشير إلى معرفتهم بطريق غير مباشر بمضيق موزمبيق . ويتضح أنهم عرفوا افريقيا كجزيرة رغمًا من عدم توفر المعطيات الواقعية التى يمكن أن تبرر هذا ، ورغمًا أيضًا من وجود أنصار عديدين لنظرية بطلميوس فى هذا الصدد . ويلاحظ عدم وجود أية إشارة فى كلامهم إلى وجود قارة فى الجهة المقابلة من الأرض (antipodes)[٣٦] ؛ وتندر معلوماتهم عن أوروبا الشمالية وآسيا الشرقية كما كان عليه الحال تمامًا من قبل . أما البيرونى فكان لديه عن جميع هذه المناطق معلومات وافية تعتمد لا على إلمامه التام بمؤلفات السابقين عليه بل أيضًا على المعلومات التى حصل عليها من الرحالة والتجار . ولقد

---

(٣٢) R. Wright, Al-Biruni, p. 124-

* بحر ورنك هو بحر البلطيق ؛ والبربر الصومال ؛ وجزائر الزابج أندونيزيا ؛ والديبجات ارخبيل لكديف وملديف ؛ وبنطس البحر الأسود ؛ ومعبرة هيرقلس مضيق جبل طارق واتل الفلجا ؛ وبحيرة آبسكون هى بحيرة ايسيق كول . (المترجم)

(٣٣) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢٠ – ٢٢ Wiedemann, Beiträge, XXVII p. 3-7

R. Wright, Albiruni, p. 121-124

مختصرة فى : « القانون المسعودى » ؛ راجع : Blachère, p. 240 - 242 — Kimble, p. 54 - 56

(٣٤) قارن : Validi, Schwerter, p. 41

(٣٥) Kimble, p. 55-56-

(٣٦) قارن : Wiedemann, Al-Biruni, p. 57-58

كانت لديه فكرة عن بحر البلطيق والبحر الأبيض الشمالى[٣٧] ،/وعرف الكثير عن سكان شمالى 251
وشرقى أوروبا[٣٨] خاصة النورمان الاسكندنافيين الذين يدعوهم لا باسمهم المعهود فقط وهو الروس بل باسم الورنك[٣٩] أيضًا ، وهو قد سمع بقصة الملاح الذى ضرب فى الأصقاع الشمالية فبلغ بقعة لا تغرب فيها الشمس صيفًا[٤٠] ؛ ويورد لنا تفاصيل فريدة عن صناعة السيوف لدى الفرنجة والروس[٤١] . وفيما يتعلق بسيبريا فإنه أول من أورد لنا ذكر نهر انغارا **Angara** والأقوام التى تقطن منطقة بحيرة بايكال **Baikal**[٤٢] . وقد كانت معروفة له أيضًا بلدان افريقيا الواقعة إلى الجنوب من خط الاستواء فهو يذكر أن هناك أصقاعًا جنوبية « يكون فيها الوقت شتاء عندما يكون لدينا صيفًا » .

ونظرية البحار كما عرفها البيرونى قد ثبّتت هذه التصورات فى الجغرافيا العربية لمدة طويلة ، إن لم نقل على الدوام . فياقوت الذى كثيرًا ما نقل عن هذا المصنف للبيرونى[٤٣] ينقل عنه أيضًا بعد مضى قرنين الوصف المشار إليه عن البحار بحذافيره ودون أية تغييرات باعتباره أفضل ما عرفه عن توزيع البحار على الأرض[٤٤] ؛ والقول نفسه يصدق على أبى الفدا[٤٥] وذلك بعد قرن من ياقوت . وتمتاز بالصحة والدقة آراء البيرونى الأصيلة حول عدد من المسائل الجغرافية . فمؤرخو علم الجغرافيا يشيرون بالكثير من الاحترام[٤٦] إلى بحثه لمسائل مثل دوران الأرض حول محورها ، وخضوع منابع المياه لقواعد الهيدروستاتيكا **Hydrostatics** ؛ وأنه كان محقًا عندما قال بأن وادى السند كان يومًا ما قاعًا للبحر ثم غطته الرواسب الفيضية بالتدريج .

وإلى جانب العدد الكبير من الرسائل المختلفة فى الجغرافيا الرياضية ، والتى لم تكن فيما يبدو كبيرة الحجم ، ندين للبيرونى بمصنفات تشير أسماؤها إلى اهتمامه بالأنماط الجغرافية المعروفة لنا .

---

(٣٧) **-Validi, GZ, XI, p. 364**

(٣٨) **-Validi, Schwerter, p. 46**

(٣٩) شرحه ، ص ٤٤

(٤٠) شرحه ، ص ٤٠ ، ٤٧ – ٤٨

(٤١) شرحه ، ص ٢٧ وغيرها

(٤٢) **-Validi, GZ, XL, p. 364**

(٤٣) **-Wiedemann, Beiträge, XXVII, p. 19-25**

(٤٤) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٢٠

(٤٥) أبو الفدا و **Validi, Schwerter, p. 41**

(٤٦) **-Kimble, p. 56**

فياقوت مثلا كثيرًا ما ينقل عن مصنف له يحمل عنوان « تقاسيم الأقاليم »[٤٧] وذلك من نسخة خطية بقلم المؤلف ترجع إلى عام ٤٢٢ هـ = ١٠٣١[٤٨] . وجميع هذه المصنفات لم تصل إلينا ومن ثم فسنقتصر فى تحليل آرائه فى الجغرافيا على مؤلفاته الكبرى التى لا تحمل طابعًا جغرافيًا
252 صرفًا ؛ غير أن استيعاب جميع المادة الجغرافية التى بها أمر يحتاج إلى دراسة خاصة/مهد لها الطريق بحوث فيدمان Wiedemann رغمًا من أن مؤلفات البيرونى التى تم الكشف عنها أخيرًا لم تكن فى متناول يده . ولن نستطيع هنا سوى الإشارة إلى الخطوط الرئيسة لمؤلفاته مع الوقوف عند نقاط معينة لأهميتها بالنسبة لتاريخ الأدب الجغرافى العربى .

وأول مؤلفات البيرونى الكبرى من الناحية الزمنية وأكثرها شهرة فى العلم الأوروبى هو كتابه فى التقويم « الآثار الباقية عن القرون الخالية » الذى انتهى من تصنيفه وهو فى سن السابعة والعشرين تقريبًا بجرجان ؛ وقد أصبح فى متناول الأيدى منذ السبعينيات للقرن الماضى بفضل مجهودات العلامة زاخاو Sachau . وفى الآونة الحاضرة اشتدت الحاجة إن لم يكن لطبعة جديدة فعلى الأقل إلى إضافة زيادات جوهرية إلى المتن الذى طبعه زاخاو . ويمكن بفضل المخطوطات التى كشفت منذ عهد غير بعيد ، ومن بينها واحدة بالاتحاد السوفيتى ، تدارك جميع الفجوات (lacunae) فى الأصول التى اعتمد عليها زاخاو والتى ترجع فى معظمها إلى عهود حديثة ، هذا بينما ترتفع المخطوطات التى تم العثور عليها أخيرًا إلى القرن السابع (الثالث عشر الميلادى) وكثيرًا ما تبين القراءة الصحيحة[٤٩] . والكتاب فى جوهره خلاصة للتقاويم المختلفة فلكية كانت أم شعبية ؛ وهو يقدم لنا وصفًا كاملا لجميع المواقيت والأعياد المعمول بها عند الشعوب وفى الأديان المعروفة له كاليونان والرومان والفرس والصغد والخوارزميين والحرانيين والقبط والنصارى واليهود وعرب الجاهلية والمسلمين . ومصادره فى هذا الميدان غاية فى التنوع فهو يعتمد من ناحية على مؤلفات خاصة مفقودة بالنسبة لنا ، ومن ناحية أخرى على الرواية المتواترة التى تمتاز فى بعض الأحوال بقيمة نادرة . ويكفى فى هذا الصدد أن نلاحظ أنه وهو المسلم يقدم لنا أول وصف مفصل لنظام التوقيت عند اليهود[٥٠] . أما فى مجال الجغرافيا الرياضية فلا تقتصر الأهمية على المادة نفسها بل تنتظم أيضًا المنهج الأصيل الذى اتبعه البيرونى ، كتحليله المفصل لفكرته عن مساقط الخارطات

---

(٤٧) Wiedemann, Beiträge, XXVII, p. 2-3-

(٤٨) ياقوت ، الإرشاد ، الجزء السادس ، ص ٣٠٨

(٤٩) Zaleman, Al-Biruni —Brockelmann, GAL, SBI, p. 872, 1-

(٥٠) Krause, Biruni, p. 9-

(cartographic projections) الذى دفع أحد المتخصصين المعاصرين إلى الاعتراف بأنه قد جمع إلى سعة العلم خيالا خصبًا[٥١] . وكما هو الشأن مع بقية مصنفاته فكذلك تبرز هنا بجلاء المميزات التى تنفرد بها معطيات البيرونى التى أخذ الاهتمام يزداد بها وفقًا لاطراد الاكتشافات الجديدة وتقدم العلم المعاصر . ويمكن إدراك ذلك فى الآونة الحاضرة من الاهتمام المتزايد بحضارة الخوارزميين القدماء عندما وكدت الاكتشافات والبحوث الأخيرة أهمية معطياته فيما يتعلق بلغتهم وتقويمهم .

ويلاحظ بوضوح فى هذا المصنف المبكر إحدى العلامات المميزة للبيرونى فيما بعد ، ذلك
هو إحساسه القوى بقوميته الإيرانية/ . فالتراث الإيرانى فى تاريخ الحضارة البشرية يستأثر 254
باهتمامه ، بينما يبدو العرب قبل الإسلام وكذلك دورهم فى الفتوحات الإسلامية فى صورة سلبية ؛ وهو يوجه نقده بصورة خاصة إلى فاتح بلاد ما وراء النهر المشهور قتيبة الباهلى لقضائه على حضارة خوارزم[٥٢] . ولما كان البيرونى يحرص دائمًا على التزام الموضوعية (objectivity) فمن العسير اتهامه بمعاداة العرب[٥٣] ، فهو مثلا يعتقد أن اللغة العربية هى اللغة الوحيدة الجديرة بأن تكون لغة العلم[٥٤] . وتقف تجربة حياته بأكملها برهانًا على هذا ؛ وقد عبر عن رأيه فى اللغة العربية فى آخر مصنفاته وهو كتاب « الصيدنة » الذى وضعه بعد خمسين عامًا تقريبًا من تأليفه « للآثار الباقية » . ففيه يقول :

« وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت إلى الأفئدة وسرت محاسن اللغة منها فى الشرايين والأوردة ، وإن كانت كل أمة تستحلى لغتها التى ألفتها واعتادتها واستعملتها فى مآربها مع ألافها وأشكالها. وأقيس هذا بنفسى وهى مطبوعة على لغة لو خُلِّد بها علم لاستغرب[٥٥] استغراب البعير الميزاب والزرافة فى العراب[٥٦] ثم متنقلة إلى العربية والفارسية فأنا فى كل واحدة دخل ولها متكلف والهجو بالعربية أحبّ إلىّ من المدح بالفارسية[٥٧]. وسيعرف

---

(٥١) -Fiorini, p. 294

(٥٢) - Krause, Biruni, p. 9

(٥٣) راجع رأى زخاو : Brockelmann, GAL, SBI, p. 870-871

(٥٤) -Krause, Biruni, p. 9

(٥٥) لاتستغرب : -Krenkow, Islamic Culture, VI, p. 530

(٥٦) شرحه : فى الكواب؛ قارن: Krause, p. 9

(٥٧) والهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية .

مصداق قولى من تأمل كتاب علم قد نقل إلى الفارسى كيف ذهب رونقه وكسف باله واسودوجهه وزال الانتفاع به إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية والأسمار الليلية»[٥٨].

وهكذا لم يمنع الشعور القومى الإيرانى البيرونى من تفضيل اللغة العربية على الفارسية ؛ وهو وإن أبدى فى ذلك بعض المبالغة إلا أنه بقى مخلصًا لهذا الرأى طول حياته .

وقد دون البيرونى مصنفاته بكل تأكيد بالعربية التى كان بلا شك يمتلك ناصيتها ، سواء فى الأسلوب العلمى الصارم فى مجال الرياضة والفلسفة أو فى الأسلوب القصصى البسيط الذى يحفل به خاصة أحد مصنفاته الأخيرة وهو كتابه/فى « الجواهر » . ورغمًا من هذا فإن العربية لم تكن 255
لغته الأصلية ، ولعل هذا من الأسباب التى أكسبته أسلوبًا خاصًا لا يمكن بأية حال اعتباره سلسًا . وفى مؤلفاته للخاصة يبدو ميله إلى الإيجاز الشديد ؛ وهو نفسه يعترف بأنه لا يكتب من أجل المبتدئين ، ولكنه حتى فى العرض القصصى العادى يجنح من وقت لآخر إلى الخروج عن المألوف المستعمل بل ويضحى أسلوبه عسرًا وعرًا يحتاج فهمه إلى إعمال الجهد . وقد تؤدى دراسة أسلوبه الكتابى إلى نتائج طريفة لو تفرغ لذلك أحد العلماء[٥٩] . وبالرغم من اعترافه بفضل اللغة العربية على غيرها من اللغات فإن هذا الحكم لم يخف عليه مناقصها ، فهو يقف موقفًا سلبيًا تامًا من رسمها ، ففى كتابه « الصيدنة » يقول * :

« ولكن للكتابة العربية آفة عظيمة هى تشابه الحروف المزدوجة فيها واضطرارها فى التمايز إلى نقط العجم وعلامات الإعراب التى إذا تركت استبهم المفهوم منها . فإذا انضاف إليه إغفال المعارضة وإهمال التصحيح بالمقابلة ، وذلك من الفعل عام قومنا ، تساوى به وجود الكتاب وعدمه بل علم ما فيه وجهله . ولولا هذه الآفة لكفى نقل ما فى كتب ديسقوريدس وجالينوس وبولس وأوريباسيوس المنقولة إلى العربى من الأسامى اليونانية ، إلا أننا لا نثق بها ولا نأمن التغايير فى نسخها »[٦٠] .

---

(٥٨) الصيدنة : المتن لدى Meyerhof, kitab al-saidana ص ١٣ ، الترجمة ص ٤٠ – ٤١ : وفقًا لكرنكو Krenkow راجع: RAAD, XIII, p. 422 ومع قراءات سيئة وأخطاء فى الطباعة راجع Krenkow, Islamic. Culture, VI, p. 530, note

(٥٩) راجع : Rozen, ZVO, III, p. 162, note 4 —Krause, Biruni, p. 15 —Sachau, SBWA, Phil, hist —Kl., 73, p. 485 = Wiedemann, al-Biruni, LX, p. 60

* هذه الفقرة والسابقة لها نقلتهما عن مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ل ٣٠١٤ وكانت ملكًا لميرهوف (ص ١٥ ، ١٧) . (المترجم)

(٦٠) -Krenkow, Islamic Culture, VI, p. 531, note

وعواطف البيرونى نحو الشيعة التى تنعكس فى كتابه « الآثار الباقية » قد اختفت بمرور الزمان ؛ ومن المحتمل أن يكون قد اضطر إلى خنق هذه العواطف فيما بعد أثناء إقامته فى الوسط السني المتطرف لبلاط محمود الغزنوى . غير أن منهجه فى التفكير يدل على أن مثل هذه المسألة لم تمسه كثيرًا وأن بعض الميول التى عرفها أيام شبابه قد حل محلها عدم الاكتراث بها[٦١] .

أما المصنف الثانى من الناحية الزمنية فيرتبط بمسائل الجغرافيا الفلكية وذلك بالمعنى الضيق لهذا المصطلح ، وهو كتابه « تحديد نهاية الأماكن لتصحيح مسافات المساكن » المحفوظ حتى الآن فى مخطوطة فريدة باستنبول بخط يد المؤلف فيما يبدو وترجع إلى عام ٤١٦ هـ = ١٠٢٥[٦٢] . وفى المقدمة النظرية لهذا الكتاب يدور الكلام حول تحديد العروض الجغرافية والاختلاف فى تحديد أطوال المواضع والتطبيق العملى للمناهج السائدة[٦٣] . ويبدى البيرونى ملاحظته عن أن العرب/قد اتبعوا ثلاثة مذاهب فى تحديد المسافات ، فهم إما أن يكونوا قد أخذوا حسابات بطلميوس كما هى ، أو أجروا أرصادهم الخاصة وفقًا لمذهبه ، أو استقوا مادتهم فى آخر الأمر من أسفار الرحالة وسير البريد . وقد اتبع البيرونى فى نشاطه العلمى المذاهب الثلاثة ، مستعملا ملاحظاته الشخصية فيما يتعلق بمنطقة شرقى إيران[٦٤] . ولما كان من شأنه أن يبين دائمًا التواريخ التى دون فيها هذه الملاحظات فإنه من الممكن تتبع تحركاته من الوجهة الزمنية بالكثير من الدقة[٦٥] .

وللبيرونى فى كتابه هذا استطراد لطيف يوضح فيه بالكثير من الحق والصواب الوضع الأفضل الذى تمتع به جغرافيو العرب بالنسبة للمؤلفين اليونانيين فيما يتعلق باتساع رقعة أفقهم الجغرافى نتيجة لامتداد نطاق الحضارة الإسلامية كما يقول « فيما بين الأندلس غربًا وبين أطراف الصين وواسطة الهند شرقًا ، وفيما بين الحبشة والزنج جنوبًا ، والترك والصقالبة شمالًا »[٦٦] . وتتركز أهمية

---

(٦١) -Krause, Biruni, p 6; راجع أيضًا Meyerhof, kitab al-saidana, p. 48-50

(٦٢) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 874 —Krenkow, Islamic Culture, VI, p. 529

الصورة فى ص ٥٣٤ .

(٦٣) -Krause, Biruni, p. 9

(٦٤) -Ritter, DI, XIX, p. 54

(٦٥) راجع التصحيح فى : -Krause, DI, XXII, p. 268 . DI, XXV, p. 196

(٦٦) -Validi, GZ, XL, p. 370-371

الكتاب كما هو الحال دائمًا فى مواضع معينة من العسير الحكم عليها إلا من خلال نقاط مبعثرة ؛ ويرجع السبب فى ذلك إلى عدم وجود طبعة للكتاب * . وتمتاز بقيمة كبيرة آراؤه فى هذا الكتاب عن جيولوجيا خوارزم القديمة ، وهى آراء تكشف عن الكثير من سعة الأفق وعن جرأة فكرية نادرة[٦٧] . وفى القرن الخامس عشر نجد أن المقريزى يستشهد بكتاب البيرونى هذا عند كلامه عن محاولات القدماء لحفر قناة بين البحرين الأحمر والمتوسط[٦٨] .

ومن بين مصنفات البيرونى الكبرى المعروفة لنا نعرف معرفة أجود ثلاثة منها ترجع بالتقريب إلى وقت واحد هو حوالى عام ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ ، أى عام وفاة محمود الغزنوى . أما أبعدها صيتًا فهو « القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم » الذى رفعه إلى خليفة محمود ؛ وعليه بالذات تعتمد شهرته فى المشرق[٦٩] . وهو لم يطبع إلا فى الآونة الأخيرة وذلك بفضل عناية المستشرق الألمانى كراوزه Krause[٧٠]، غير أن العلماء رجعوا إليه دائمًا بحيث أمكن تكوين فكرة عن الكتاب من خلال القطع المختلفة التى نقلوها عنه . وقد ترجم ڤيدمان[٧١] فصلين منه هما التاسع فى وصف سكان الأرض وحدود الأقاليم وفقًا للأطوال والعروض ، والعاشر الذى يبين لنا جداول أطوال وعروض المواضع المختلفة . وكان كتاب « المجسطى » النموذج الذى سار على هديه « القانون » ؛
257 فهو يقدم لنا فى اثنى عشر بابًا موجزًا لعلم الفلك كله مع حساب التوقيت/وحساب المثلثات والرياضيات والجغرافيا والتنجيم[٧٢] ؛ وهو يستند على الآثار السابقة المصلَّحة كما يعتمد أيضاً على أرصاد جديدة[٧٣] . أما فيما يتعلق بشكله فهو تعداد ضخم للمدن كما هو الشأن عند الخوارزمى ، وهى موزعة فيه تبعًا للأقاليم المختلفة مع تبيان الأطوال والعروض . وتتمثل طرافة الكتاب بشكل خاص فى أن الهند والبلدان الشرقية للعالم الإسلامى تنال فيه من العناية أكثر ما نالته

---

* طبع بأنقرا عام ١٩٦٢ على يد محمد بن تاويت الطنجى ، وبالقاهرة عام ١٩٦٣ على يد بولغاكوف . (المترجم)

(٦٦) -Validi, GZ, XL, p. 370-371

(٦٧) -Volin,VDI, No 1, p. 192-196

(٦٨) -Wiedeman, Beiträge, XXVII, p. 1-2, note 2

(٦٩) -Brockelmann, GAL, SBI, p, 873, no 4

(٧٠) -Krause, DI, XXII, p. 267

(٧١) -Wiedemann, Beiträge, XXIX, p. 119-125

(٧٢) -Kause, Biruni, p. 10

راجع المحتويات فى : نالينو ، الفلك ، ص ٣٨ – ٤٠ (= Racc. , p. 117, 38-118, 40)

(٧٣) -Krause, Biruni, p. 10

فى المؤلفات السابقة له ؛ أما من ناحية الشكل الخارجى فإن العرض لا يختلف عما هو الحال مع الجداول السابقة عليه ، فهو يعتمد فى تحقيق عدد من معطياته على المصادر القديمة الموثوق بها مثل بطلميوس والبتانى(٧٤) . وهذا الكتاب بالذات هو الذى أفرد له المؤلفون المتأخرون مكان الصدارة من بين جميع مؤلفات البيرونى ، فابن القفطى(٧٥) لا يذكر إلى جانبه مصنفاً آخر ، وياقوت يقول عنه إنه « يعفى على أثر كل كتاب فى تنجيم أو حساب »(٧٦) ، كما أفاد منه كثيراً أبو الفدا بل إنه يدين له بالكثير من الفضل فى مصنفه الجغرافى على ما سوف نراه(٧٧) .

وكتاب البيرونى المعروف باسم « التفهيم لأوائل صناعة التنجيم » والذى يرجع إلى ذلك العهد نفسه لا يتسق موضوعه مع اسمه تمام الاتساق ، فهو فى واقعه ليس بمقدمة تقتصر على التنجيم وحده كما يمكن أن يفهم من العنوان بل عبارة عن موسوعة كبرى تعرض بالتوالى لمسائل فنية ولمصطلحات الهندسة والحساب والفلك (وينضم إلى ذلك الجغرافيا وحساب الأوقات ووصف الأجهزة الفلكية) والتنجيم . وهو كتاب جديد فى نوعه يتميز بالاستقلال ، حفظ لنا فيه البيرونى قواعد المذهب القديم(٧٨) . وفى القسم الثالث المفرد للفلك نلتقى بقطع عديدة فى الجغرافيا(٧٩) ؛ وقد مر بنا الكلام عن إحداها وهى التى تعالج موضوع توزيع البحار على الأرض . أما القطع الأخرى فتبحث فى كيفية ضبط العروض والأطوال ، وفى الأقاليم وخط الاستواء وارتفاع الشمس وقبة الأرض ، وفى المذاهب الأخرى فى تقسيم الأرض بخلاف الأقاليم(٨٠) ؛ وجميع هذه القطع تقريبًا معروفة فى الترجمة الألمانية لفيدمان(٨١) . وإلى جانب الفصول الأخرى فى الجغرافيا هناك قطعة بعنوان « ما يوجد من البلاد فى كل إقليم »(٨٢) ، وهى تختلف اختلافاً كبيرًا عن

---

(٧٤) -Honigmann, Die sieben Klimata, p. 165-166

(٧٥) طبعة Lippert ، ص ٩٧

(٧٦) ياقوت ، الإرشاد ، الجزء السادس ، ص ٣١١

(٧٧) راجع : -Honigmann, Die sieben Klimata, p. 166 —Wiedemann, Al-Biruni, p. 88-99 —Brockelmann, GAL, SBI, p. 873, 4

(٧٨) -Honigmann, Die Sieben Klimata, 166

(٧٩) -Wiedemann Beiträge, XXVII, p. 3

(٨٠) البيرونى ، كتاب التفهيم ، راجع طبعة : R. Wright, Al-Biruni, p. 138-145, 236-241

(٨١) -Wiedemann, Beiträge, XXVII, p. 3-16

(٨٢) شرحه ، ص ١٦ – ١٨

258 الجداول الفلكية المعروفة للفرغانى/بالرغم من أن حدود الأقاليم عند الاثنين لا تتفاوت كثيرًا(٨٣). ويمتاز بالطرافة على وجه الخصوص القسم عن البحار الذى مر بنا، وتصحبه فى جميع المخطوطات المعروفة خارطة مستديرة تبين توزيعها(٨٤)، وهو الرسم نفسه الذى نقله عنه ياقوت.

وهكذا نجد أن هذا المصنف على نقيض تسميته الضيقة لا يمكن بأية حال اعتباره مقدمة فى التنجيم، فهو فى أبسط مدلولاته عبارة عن محاولة لإبراز تلك العناصر العقلانية (rationalistic) التى يرتبط بها التنجيم. وهو إلى جانب بعض الرسائل الصغرى للبيرونى قد دفع أكثر من مرة إلى التساؤل عما إذا كان البيرونى نفسه يعتقد فى التنجيم أو أنه كان منجما كما تصوره فى أغلب الأحيان الأسطورة المتأخرة؛ إن الإجابة على هذا التساؤل يجب أن تكون بالنفى، فقد حفظ لنا عدد من القصص والإشارات المختلفة وكلها توكد أنه كان يقف من التنجيم موقف المستريب بل المتهكم أحيانًا. بيد أنه ليس هناك أدنى شك فى أنه قد حدث له أن لعب دور المنجم شأنه فى هذا شأن جميع فلكيى ذلك العصر والوسط. أما القول بأنه كان المنجم الرسمى لبلاط محمود الغزنوى كما تصوره بعض المصادر المتأخرة فأمر مشكوك فيه، ولكنه يظهر فى حالات معينة فى هذا الدور محاولا فيما يبدو أن يفسح المجال لغلبة العناصر العقلانية كما فعل فى كتابه «التفهيم»(٨٥)

وبخلاف الفصل الذى مر ذكره فقد أفاد ياقوت على وجه العموم كثيرًا من كتاب البيرونى هذا؛ والخلاصة التى عملها ڤيدمان(٨٦) له تعطى فكرة ما عن مقدار ما يدين به ياقوت إليه؛ كما أن أبا الفدا قد عرفه جيدًا(٨٧). وثمة دليل على سعة انتشاره هو العدد الهائل من المخطوطات الذى وصلنا منه؛ وإحدى هذه المخطوطات وهى ليست بأفضلها قام بنشرها بالزنكوغراف فى عام ١٩٣٤ رامزى رايت Ramsay Wright وزودها بترجمة إنجليزية مرافقة للمتن، وهى تستند أساسًا على الرواية الفارسية للكتاب. ولا تزال طبيعة العلاقة بين الروايتين العربية والفارسية غير واضحة تمامًا حتى الآن، وظهر رأى يقول بأن كليهما بقلم أبى الريحان(٨٨) غير أن علمنا بموقفه من

---

(٨٣) Honigmann, Die, sieben Klimata, p. 166-

(٨٤) Kramers, EI, EB, p. 68 ; والصورة فى ص ٧٠-
وإعادة رسمها بواسطة Lelwel فى Miller, V, p. 125-126; p. 126

(٨٥) راجع : Krause, Al-Biruni, p. 10-11

(٨٦) Wiedemann, Beiträge, XXVII, p. 19-25-

(٨٧) راجع : Brockelmann, GÀL, SBI, p. 873

(٨٨) R. Wright, Al-Biruni, p. 111-

الفارسية يدفعنا إلى أخذ هذا الرأى بالكثير من الحذر * .

و « كتاب التفهيم » على عكس مؤلفات البيرونى الأخرى لم يُرفع إلى أحد الحكام بل إلى سيدة من خوارزم تسمى ريحانة ابنة الحسين ، كانت على ما يلوح كثيرة الاهتمام بمسائل العلوم الدقيقة . ويمكن الافتراض بأنها كانت تنتمى إلى الأسرة الحاكمة بخوارزم وأنها قد رحلت إلى غزنة مع بقية أفراد أسرتها عندما أجلاهم محمود معه . أما القول اعتمادًا على هذا بأن/البيرونى كان وقت 259
تأليف الكتاب بخوارزم فهو قول لا ينهض على أساس (٨٩) . ومن ناحية الشكل نجد أن هذا الكتاب يختلف عن بقية مؤلفات البيرونى فهو معروض على هيئة أسئلة وإجابات ، وهو أمر كما يقول المؤلف « أحسن وللتصور أسهل » (٩٠) . ولعل البيرونى لم يتنكب الصواب فى حكمه هذا لأن ذلك الكتاب بالذات يمثل موسوعة مبسطة لعدد من علوم عصره ونال انتشارًا واسعًا فى ما يبدو من عدد المخطوطات الموجودة منه .

أما كتاب البيرونى الذى كسب له الصيت والمجد فى الدوائر العلمية الأوروبية ، وأعنى به كتاب « الهند » فهو ينتمى إلى طراز آخر من المؤلفات ويقف فريدًا فى نوعه إلى يومنا هذا . ولا حاجة بنا إلى الكلام عنه بالتفصيل ، فمنذ أكثر من خمسين عامًا قدم روزن عنه تحليلًا قيمًا وكَّدت قيمته على ممر نصف قرن من الزمان الاكتشافات التالية ولايزال محتفظًا بحيويته وجدته إلى أيامنا هذه . أما معرفة الدوائر العلمية به فندين بها إلى المستشرق زاخاو الذى ترجمه إلى الإنكليزية ونشر متنه العربى فى الثمانينيات من القرن الماضى اعتمادًا على مخطوطة ترجع إلى عام ٥٥٤ هـ = ١١٥٩ منقولة عن الأصل الذى كتبه المؤلف بخط يده .

ومن المستحيل اعتباره كتابًا جغرافيًا بالمعنى الضيق للفظ ؛ وهدف المؤلف الحقيقى يبدو فى العنوان الكامل للكتاب وهو « تحرير ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » (٩١) . فالمكانة الأولى عنده إذن تحتلها الحضارة الروحية للهند ، وقليل من فصوله الثمانين يمس موضوعات جغرافية بحتة . فمقدمة الكتاب مثلا تعرض للهند عامة ، ويضم الفصل الثامن عشر ملاحظات متفرقة عن الأرض والأنهار والأوقيانوس المحيط وعن اتساع الأقطار المختلفة . وفى

---

* طبع المتن الفارسى السيد جلال همائى بطهران . ويبدو من مقدمة الناشر أنه ليس لديه أدنى شك فى أن المتن من تدوين البيرونى نفسه ؛ ويسوق فى تدعيم قوله ألفاظًا للعلامة الإيرانى الكبير محمد عبد الوهاب قزوينى . (المترجم)

(٨٩) Wiedemann, Al-Biruni, p. 87 —Semenov, Al-Biruni, p. 106-116-

(٩٠) أحسن وللتصور أسهل

(٩١) تحقيق ما للهند (= Meyerhof, Kitab Al-saidana, p. 6, note 4) Nazim, p. 6, note 2-

الفصل الخامس والعشرين يرد الحديث عن أنهار الهند ومنابعها . ويجب أن يضم إلى هذا بكل تأكيد المجموعة الهائلة من المعلومات الاثنوغرافية المتناثرة بالكتاب ، وكذلك الفصول المهمة التى يعالج فيها الكلام عن ديانة الهند وحياتها الفكرية[٩٢] . وتتخذ أهمية استثنائية ظاهرة خاصة هى أنه إلى جانب المجموعة الضخمة من المادة الجغرافية التى يحتويها الكتاب بصفة عامة فهو يكشف عن معرفة عميقة بالتصورات الجغرافية والكوزمولوجية لدى الهنود[٩٣] وبالتالى يوضح لنا الكثير من المسائل المتعلقة بالتاريخ المبكر للعلوم والآداب الجغرافية العربية . أما طريقة العرض فتتشابه فى جميع الفصول ، فالمؤلف يبدأ بسوق ملاحظات عامة تعقبها مقتطفات موثوق بصحتها من المؤلفين الهنود ، ثم ينظر فى المسائل التى عالجوها ويقارنها بنظريات المسلمين واليونان والإيرانيين معلقًا على هذا بملاحظاته الشخصية الفذة . أما ما يحفل به الكتاب من مادة علمية فهو شىء يقف نسيج وحده وليس له أى مثيل[٩٤] .

260 وللبيرونى كتابان كبيران معروفان لنا يرجع تاريخهما إلى الأعوام العشرة الأخيرة من حياته ، إذ تم تأليفهما فى عهد السلطان مودود (٤٣٢ هـ - ٤٤٠ هـ = ١٠٤١ - ١٠٤٨) حفيد محمود الغزنوى الذى توفى فى عام واحد مع البيرونى . أحدهما هو مصنفه فى المعادن بعنوان « كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر » الذى يبحث فى المعادن والفلزات خاصة الأحجار الكريمة حيث يفرد لما يقرب من الخمسين منها فصلا خاصًا لكل واحد . وقد نشر الكتاب منذ عهد غير بعيد المستشرق كرنكو Krenkow بحيدر أباد (١٣٥٥ هـ = ١٩٣٧) فى طبعة تمكن من إعطاء فكرة واضحة عن الكتاب ، كما أن عدداً من المقالات والبحوث قد بينت أهمية مادته لا من الناحية العلمية الخالصة فحسب بل من ناحية التاريخ الحضارى كذلك[٩٥] . وقد جمع فيه البيرونى بين بحوث قام بها على أساس تجربة طويلة الأمد ومعرفة جيدة بالأدب العلمى من جهة والأدب الفنى من جهة أخرى ؛ ولم يقتصر فى ذلك على الأدب العربى وحده ، بل أفسح المجال لآداب اللغات الأخرى . ويمكن تكوين فكرة عن مصادره من الدراسة القيمة التى أفردها لذلك محمد يحيى الهاشمى ، فمن بين المصنفات الجغرافية الأصيلة أفاد بصورة خاصة من مصنفات المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب ومن الجيهانى كذلك . وكمية المادة الجغرافية فى هذا

---

(٩٢) -Ruska, GZ, XXXIII, p, 592

(٩٣) -Kramers, EI, EB, p. 68

(٩٤) -Mieli, p. 100

(٩٥) راجع تعدادها لدى : Brockelmann, GAL, SBI, p. 874, 11

الكتاب كبيرة للغاية سواء كانت فى شكل ملاحظات قصيرة أو قصص مفصّلة ، غير أن استخراج هذه المادة يتطلب جهداً كبيراً لا يقل بحال عن الجهد الذى تتطلبه المصنفات من هذا الصنف ، وذلك إما بمعاونة الفهرس أو بفحص الفصول المختلفة الخاصة بكل معدن أو فلز على حدة .

ومن هذا الطراز نفسه « كتاب الصيدنة فى الطب » ، وهو آخر مؤلفات البيرونى ، ولعله لم يتممه . وقد تم الكشف عنه منذ أمد غير بعيد فى مخطوطة فريدة بمدينة بروسة بتركيا ولا يزال معروفاً فى مقدمته فقط التى نشرها ماكس ميرهوف Max Meyerhhof . وكما رأينا من قبل فإن البيرونى لم يقصد به البحث فى الأثر الطبى للأدوية[٩٦] . ولما لم يكن يعتبر نفسه متخصصًا فى هذه المسائل فقد استعان بخبرة طبيب من معارفه[٩٧] . والشذور التى نشرت من هذا الكتاب إلى الآن توكد أهميته البالغة ليس فقط بالنسبة للجانب الذي يبحث فيه بل أيضاً بالنسبة لجوانب عديدة من بينها الجغرافيا. وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفارسية ، الأمر الذى يدل على ما تمتع به من انتشار واسع . واقتنع ميرهوف بعد بحث عميق أن هذا الكتاب يقف برهاناً على أن البيرونى عالم لا مثيل له فى جميع العصور الوسيطة سواء فى عمق التفكير أو متانة منهجه فى البحث[٩٨] .

والمعلومات الواقعية التى يوردها البيرونى كانت معروفة لدى الجغرافيين المتأخرين الذين أفادوا منها كثيرًا كما أبصرنا من مثال ياقوت وأبى الفدا والمقريزى . وعلى النقيض من هذا لم تجد نظرياته الأصيلة الفذة من يكملها أو يواصل البحث فيها وبقيت غير مطبقة من الأجيال التالية ، وقد حدث هذا بوجه التحديد لمشروعه الهندسى لمساقط الخارطات[٩٩] كما هو الشأن مع كثير غيرها مما أبدعته هذه العقلية الفذة . وقد كان مصيره فى أوروبا الوسيطة أسوأ من هذا بكثير ، ويبدو أن الأندلس لم تعرف مؤلفاته جيدًا . وفى الوقت الذى ترجمت فيه إلى اللاتينية أكثرية المصنفات الكبرى للعلماء العرب بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر ظلت مصنفات البيرونى غير معروفة لأوروبا[١٠٠] . ويبدو أن الأقدار قد سخرت منه فتردد صدى شهرته فى مفهوم مناقض لسمعته وجد طريقه بشكل ما إلى اللغة الفرنسية . « فالأوسطى البيبورون » Maître 261

---

(٩٦) راجع : Krause,Di,XXII,p. 266 - Meyrhof, Kitab al-saidana, P. 15, 46

(٩٧) -Brockelmann,GAL,SBI,p.874,27

(٩٨) -Meyerhof,Kitab.al-saidana,p.52

(٩٩) -Kramers,EI,EB,p.68

(١٠٠) -Mieli,p.102,note9

Aliboron يقصد به كما يتضح من معجم الأكاديمية الفرنسية[١٠١] Dictionnaire de l'Acadèmie Francaise, 8 éd., 1931 : « الإنسان أو الحيوان الموصوف بالجهل والفدامة ، والمضحك والحمار » .

من هذا يتبين لنا أن العلم الأوروبي المعاصر هو الذى اكتشف حقًا البيرونى فى القرن التاسع عشر ؛ بل إن المادة لم تتوفر إلا فى السنوات العشر الأخيرة لتمكننا من تقديره تقديرًا جديرًا بمنزلته . وإذا كان روزن على أيامه قد استطاع أن يوفيه حقه ، فالآن يستطيع بدوره علامة شاب يعد من خيرة العارفين بمصنفاته وهو كراوزه Krause أن يقول عنه بحق : « هكذا يقف البيرونى أمام أعيننا بحاثة لا يعرف الكلل وعلّامة وضع نصب عينيه أهدافًا بعيدة المدى ، ولكنه فى ذات الوقت تطلب الكثير من الآخرين . وكان أمينًا فى منهجه العلمى لا تأخذه فى الحقيقة لومة لائم إذا ما أبصر تلاعبًا حوله أو ضربًا من الإهمال . لقد كان عالمًا واسع الأوفق ، وسعت معرفته العلوم الدقيقة لعصره ؛ وإن شوقه إلى البحث والتقصى ليعود بالشرف لقومه وعصره ويقف قدوة لجميع العصور التالية » .

وإذا كان البيرونى قد غمط الفارسية حقها فى أن ترتفع إلى مصاف لغة علمية فإن واقع الأحوال حتى فى عصره يشير إلى النقيض ؛ ولعله لم يكن على علم بذلك أو أنه تجاهله عن قصد . فقد وجد فى القرن السابق عليه مصنف مثل « حدود العالم » . وحتى إذا سلمنا جدلا بأن البيرونى لم يجد فى الأدب التاريخى الجغرافى باللغة الفارسية ما يجعله أهلا لحمل اسم العلم فإننا نجد أمثلة تدل على أن اللغة الفارسية قد استعملت فى ذلك العهد فى ميدان العلوم الطبيعية ؛ فبين عامى ٣٥٧ هـ = ٩٦٨ و ٣٦٦ هـ = ٩٧٧ وضع موفّق الهروى ، وهو أحد المقربين من السامانيين ، كتابه فى الصيدنة باللغة الفارسية معتمدًا فى ذلك كما/هو الحال مع كتاب البيرونى لا على العناصر العربية وحدها بل أيضًا 262
على العناصر اليونانية والسريانية والهندية . وهو ذو أهمية لا بالنسبة لتاريخ الطب والكيمياء فحسب بل بالنسبة لتاريخ اللغة الفارسية كذلك[١٠٢] . والطريف فى الأمر أن أقدم مخطوطاته ترجع إلى عام ٤٤٧ هـ = ١٠٥٦[١٠٣] ، أى أنها تكاد تكون معاصرة للبيرونى . وأما استعمال اللغة الفارسية فى

---

(١٠١) -Dictionnaire de l'Académie Francaise, 8 ed., 1931, I, p. 39 —Lokotsch, p. 26, No 313

(١٠٢) عن المراجع الأخرى انظر : —Carra de Vaux, Les penseurs, II, p. 76, Meyerhof, Kitab al-saidana, p. 3, note 1 -Sarton, Introduction, I, p. 678-679 —Mieli, p. 121

(١٠٣) -Krymski, Istoria Persii, 1914, p. 170

الأدب التاريخى والجغرافى فقد أضحى منذ ذلك العهد أمرًا مألوفًا حتى فى الوسط الذى كتب فيه البيرونى ؛ ويبدو أنه لم يشاطره أحد ممن عاش فى ذلك الوسط موقف الريبة الذى وقفه من اللغة الفارسية .

وواحد من هؤلاء المؤرخين الذين كتبوا بالفارسية وهو كرديزى يذكر أنه استمع إلى البيرونى . وكرديزى ينتسب كما يتضح من اسمه إلى محلة تقع إلى الجنوب من غزنة على الطريق إلى الهند ؛ ولم يمكن العثور على أية معلومات تتصل بسيرة حياته[١٠٤] . ويرجع الفضل إلى حد بعيد إلى دراسات المستشرق الروسى بارتولد فى تعريف الوسط العلمى بكتابه « زين الأخبار » الذى لم يطبع طبعة كاملة إلى الآن * . وقد تم تأليفه فى عهد السلطان الغزنوى عبد الرشيد (٤٤٠ هـ - ٤٤٤ هـ = ١٠٤٩ - ١٠٥١) ، وهو يمثل فى جوهره مصنفًا تاريخيًا يعالج تاريخ الأكاسرة وتاريخ محمد والخلفاء إلى عام ٤٢٣ هـ = ١٠٣٢ وتاريخ خراسان من الفتح العربى إلى عام ٤٣٢ هـ = ١٠٤١ . وقد أضيفت إلى الكتاب فصول عن العلوم اليونانية والتقاويم والأعياد الدينية لمختلف الشعوب . وفى القسم الأخير من الكتاب يرد الكلام على الأنساب والعلوم العامة ، وعقد فيه المؤلف فصلا عن الترك[١٠٥] يمثل أهمية كبيرة بالنسبة لجغرافيا آسيا الوسطى وهو ذلك الفصل الذى قام بارتولد بدراسته دراسة مفصلة . أما الفصل عن الهند فيستشهد فيه مرارًا بالبيرونى ، كما يدين فيه بالكثير إلى الجيهانى أيضًا[١٠٦] . وفى فصله عن الترك يذكر من بين مصادره ابن خرداذبه والجيهانى[١٠٧] . ومن بين المصادر التى لا يسميّها يحتل ابن رسته مركزًا رئيساً خاصة فى الأجزاء التى تمس أوروبا الشرقية ، هذا بالرغم من أن المؤلف لم يشر إليه ولو مرة واحدة[١٠٨] . أما فيما يتعلق بالقسم التاريخى فإن مصنفه ينال أهمية خاصة لأنه يعتمد فيه إلى حد كبير على كتاب « تاريخ خراسان »[١٠٩] الذى لم يصل إلينا والذى يرجع تاريخ تأليفه إلى منتصف القرن الرابع

---

* هناك طبعة طهرانية حديثة وجيدة لتاريخ كرديزى قام بتحقيقها المؤرخ الأفغانى عبد الحى حبيبى . (المترجم)

(١٠٤) راجع عنه أيضًا : حدود العالم ، ص ١٧ - ١٨ : و Bartold, Iran, p. 26
-Krymski, Istoria Persii, 1909, p. 3-4 —Romaskevich, MITT, I, p. 44-55 —Mieli, p. 119, note 13

(١٠٥) -Bartold, Ochet, 1897, p. 78-126

(١٠٦) -Minorsky, Une nouvelle source, p. 309

(١٠٧) -Barthold, Gardizi, p. 137-138

(١٠٨) -Bartold, Ochet, 1897, p. 79

(١٠٩) -Barthold, Turkestan, p. 20-21

الهجرى (التاسع الميلادى) . وفى وصفه للصين يمثل أهمية قصوى وصفه للطريق بين طرفان Turfan وخمدان Khumdan عاصمة الصين آنذاك ؛ ولا تزال فى هذا الوصف جوانب
263 عديدة غير واضحة ، ورغمًا من ذلك فليس هناك شك فى أن هذا الطريق قد سار/فى الاتجاه نفسه الذى سارت فيه طرق المواصلات بين الصين والغرب(١١٠) . هذا ونادرًا ما نقل المؤرخون المتأخرون عن كرديزى ، كما أن تأثيره على تطور العلم بالتالى لم يكن كبيرًا على ما يظهر(١١١) .

وفى وقت واحد مع كتاب كرديزى هذا الذى يمثل فى جوهره مصنفًا تاريخيًا ، ظهر باللغة الفارسية وفى آسيا الوسطى أيضًا وصف رحلة « سفرنامه » لناصر خسرو المشهور (٣٩٤ هـ - حوالى ٤٨١ هـ = ١٠٠٣ - ١٠٨٨)(١١٢) . ولد ناصر خسرو ببلخ وعاش نيفًا وأربعين عامًا من حياته كعامل حكومى متوسط الحال بمدينة مرو فى خدمة السلاجقة الذين بدأ نجمهم يعلو آنذاك . ثم اعتراه تحول نفسانى عميق دفعه إلى التجوال سبع سنوات ، وأنهى أيامه كداعية للإسماعيلية بمنطقة بدخشان الجبلية . ويحتل شخصه مكانة مرموقة فى الأدب الفارسى وفى تاريخ الحركات الدينية فى الإسلام(١١٣) . أما فيما يتعلق بموضوعنا فسنقصر الحديث على روايته لأسفاره .

ففى مارس من عام ١٠٤٦ خرج من مرو يريد الحج فمر بنيسابور فى طريقه إلى الرى ، وفى أثناء مسيره يشير إلى أن الكثير من النشادر كان يستخرج إذ ذاك من جبل دنباوند (Demavend) . وفى طريقه مر على قزوين وبتليس وميافارقين وآمد (ديار بكر) إلى حلب وطرابلس ؛ وفى معرة النعمان زار الشاعر الأعمى المشهور أبا العلاء المعرى . ثم أخذ طريق الساحل من بيروت فوصل إلى عكا ومنها قام بعدة زيارات إلى الأماكن المقدسة العديدة ومن بينها طبرية ؛ وبعد رجوعه إلى عكا استمر فى طريقه مارًا بحيفا والرملة وبيت المقدس حيث أقام مدة ما تخللها رحلات صغيرة إلى المدن القريبة مثل حبرون الخليل . ويمثل وصفه لبيت المقدس

---

(١١٠) -Hartmann, China, p. 878-879 —Yule, Cathay, I, p. 140-141

(١١١) -Barthöld, Gardizi, p. 138

(١١٢) عن تاريخ وفاته راجع : Krymski, Istoria Persii, 1915, p. 461, note 2

(١١٣) -Berthels, EI, III, p. 939-940 —Bertels, Nasir-i Khusrau —Browne, Literary History, II, p. 221-246 —Mieli, p. 116, 119, note 14 —Sarton, Introduction, I, p. 768 —Mednikov, Palestina, II, p. 843-882 —Krymski, Istoria Persii, 1915, p, 451-506

قسما من أهم أقسام كتابه ، مما مكنّ لمدنيكوف Mednikov على أساسه أن يقدم وصفًا واقعيًا للمسجد المعروف بمسجد عمر (١١٤) . ومن القدس أدى ناصر خسرو أول حجة إلى مكة فى ربيع عام ١٠٤٧ ، ومنها رجع إلى القدس فأخذ طريق البر مارًا بالرملة متجهًا إلى عسقلان ثم أخذ السفينة من مرفأ طينة الصغير إلى جزيرة تنيس بمصر عند بحيرة المنزلة . وفى جزيرة تنيس – وبها مدينة مزدحمة بالسكان – كان يقيم آنذاك أهل الحرف من النساجين الذين اشتهرت صناعتهم فى الشرق بأجمعه ، ولكن كانت فى الغالب تحتكرها الحكومة ، وهى النسيج المعروف بالطراز ؛ كذلك اشتهرت بصناعة الحديد والعطر .

264 هذا وقد امتدت إقامة ناصر خسرو بمصر من أغسطس ١٠٤٧ لعدة أعوام . وفى هذه الفترة أدى فريضة الحج ثلاث مرات كانت كلها عن طريق البحر من القلزم إلى مرفأ الجار ، ومنها إلى المدينة ثم مكة . أما القسم الأساسى من وصف رحلته فقد كرسه لمصر وتم الاعتراف به منذ عهد بعيد كمصدر من أهم مصادر تاريخ وخطط مدينة القاهرة فى العهد الفاطمى (١١٥) . وهو يصف فى كثير من التفصيل التجارة وحياة المدينة ورسوم البلاط الفاطمى ونظام الإدارة فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر . وبعد كل ما رآه فى المشرق فقد أثار دهشته ما كانت تتمتع به مصر من رخاء وأمن . ويغلب على الظن أن يكون اعتناقه نهائيًا للمذهب الإسماعيلى قد تم بالقاهرة ، وقد أصبح بالتالى داعية متحمسًا لمذهبهم فى موطنه .

أما حجّته الرابعة إلى مكة فقد أخذ فيها طريقًا مغايرًا ، إذ أنه ركب النيل إلى أسوان ؛ وبعد سفر شاق لمدة خمسة عشر يومًا من شهر يوليو عام ١٠٥٠ وصل إلى عيذاب على البحر الأحمر ومنها أخذ البحر إلى جدة . وفى زيارته هذه الرابعة يقدم وصفًا مفصلا لجميع المواضع والأبنية التى تهم الحجاج بمكة خاصة الكعبة وما يتعلق بها . أما قصة اجتيازه لجزيرة العرب فتمتاز بالكثير من الحيوية والمتعة ، فقد ذهب إلى الطائف حيث سمع فى نواحيها قصة ليلى والمجنون ، ثم سار فى محاذاة جبل الطويق ذى الصخور البازلتية فمر فى طريقه بواحة فلج إلى اليمامة فالبحرين على الخليج الفارسى . وقد اضطر إلى البقاء أربعة أشهر فى ظروف مرهقة بواحة فلج لم يكن يمتلك أثناءها من متاع الدنيا سوى سلتين مليئتين بالكتب لم تجدياه فتيلا مع السكان الجهلاء الذين كانوا يعيشون إلى حد كبير على قطع الطريق . وقد بلغ البصرة وهو لا يملك شيئًا ، ولكنه يقدم لنا فى مقابل ذلك

---

(١١٤) Mednikov, Palestina, II, p. 858, 864-

(١١٥) زكى محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، ص ١٠ – ١٣ ، ١٨٠ – ١٨٨ .

وصفًا مفصلا وهامًا للأحساء التى كانت لا تزال تحت سلطان القرامطة(١١٦) . وفى البصرة تمكن من أخذ طريق العودة إلى وطنه بفضل معاونة وزير ثرى من أهل الأهواز ، فمر فى طريقه بمهرُبان وارجّان وأصفهان ، ووصل إلى بلخ فى أكتوبر عام ٤٤٤ هـ = ١٠٥٢(١١٧) بعد صعوبات جمة صادفها فى الطريق . وهو يختتم كتابه بأمله فى أن يوفق فى القيام برحلة مماثلة إلى المشرق ؛ غير أن طريق حياته اتخذ اتجاهًا مغايرًا فلم يكتب لهذه الرغبة أن تتحقق .

وسفرنامه يرتبط ارتباطًا ضئيلا بالرواية الجغرافية المدونة وقليلا ما يتحدث المؤلف عن التقائه بالعلماء فى المدن المختلفة التى زارها . ولا ريب فى أنه كان ملمًّا بالأدب الجغرافى لعصره ، غير أنه لم يهدف بكتابه غرضًا علميًا فهو ينتمى إلى نمط مغاير لذاك . وعلى الرغم من دقته فى الملاحظة إلا
266 أنه كان فى الوقت ذاته يعتنق آراء جد خاطئة عن التركيب العام للعالم(١١٨) ؛/وكان هدفه أن يقدم وصفًا لما رآه وسمعه بنفسه ، وسرده بسيط فى أسلوبه ويخلو من أثر الصنعة ولكنه يتميز بالحيوية أحيانًا ، كما لا يخلو من العنصر الدرامى . وهو فى مواضع من وصفه يفصل الكلام بصورة مرهقة عن الأبنية والآثار ، بالرغم من أن ذلك قد لا يهم القارئ كثيرًا . أما تاريخ تأليف الكتاب فغير معروف لنا ، لكن الكتاب نفسه يعتمد إل حد كبير على المذكرات التى دونها المؤلف أثناء الطريق وذلك وفقًا لألفاظه هو ؛ كما أنه يذكر فيه أنه عمل أحيانًا رسومًا (sketches) للطريق . والكتاب وإن أمكن ضمه من ناحية فكرته الأساسية إلى نمط « كتب الزيارات » (أى الحج) إلا أن هذه الفكرة لم تطغ على الانطباعات الأخرى التى أثرت فى نفس المؤلف والتى عرف كيف يبرزها لنا بحيوية فائقة . ومن المؤسف أن المسودة الأولى الكاملة له لم تصلنا ، بل وصلنا فى رواية موجزة إلى حد ما ربما قام بها شخص من أهل السنة حاول بدوره أن يزيل عنها جميع عواطف المؤلف نحو الشيعة خاصة الإسماعيلية(١١٩) . وإلى جانب الترجمات الجزئية فإن الكتاب موجود الآن فى ترجمة روسية كاملة وجيدة * .

ويمكن من الناحية الزمنية أن ينسب إلى هذا العصر عالم معروف بمصنف له فى الجغرافيا ، وإن كان لا يرتبط بشرقى العالم الإسلامى . وكانت رحلته من بغداد إلى الشام ومصر كناصر خسرو

---

(١١٦) تقريظه لدى : Lewis, p. 99-100

(١١٧) طريق السير وفقًا لروسكا (Ruska, GZ. XXXIII, p. 593-594)

(١١٨) -Kramers, Legacy, p. 88

(١١٩) -Bertels, Nasir-i Khusrau, p. 21 —Berthels, EI, III, p. 940

* له أيضًا ترجمة عربية كاملة وجيدة بقلم الدكتور يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ . (المترجم)

ولكن أغراضه تختلف عن أغراض الأخير تمامًا ؛ ومما يزيد فى طرافة وصفه أنه ينتمى إلى وسط النصارى العرب الذين قلما ظهروا على صفحات كتابنا هذا.ذلكم هو العالم الطبيعى ابن بطلان الذى نال شهرة عريضة فى عصره وخلف عددًا من المصنفات الطبية التى ترجم بعضها إلى اللغة اللاتينية فى العصور **الوسيطة**[١٢٠] . وقد ولد ببغداد حيث درس الفلسفة والطب وتوفى بأنطاكية على ما يبدو عام ٤٥٨ هـ = ١٠٦٦[١٢١] ولو أن المصادر غير مجمعة على تاريخ وفاته[١٢٢] . وأول من لفت إليه الأنظار البارون روزن فى دراسته المعروفة عن يحيى الأنطاكى الذى كان ابن بطلان معاصرًا[١٢٣] له ؛ غير أن إشارة روزن إليه ظلت مجهولة فى الغرب شأنها فى هذا شأن عدد كبير غيرها من **البحوث** باللغة الروسية ؛ وقد وصل العلم إلى النتائج نفسها التى وصل إليها روزن ولكن متأخرًا وعلى حدة .

غادر ابن بطلان بغداد فى رمضان من عام ٤٠٤ هـ = ١٠٤٩ ووصف انطباعاته عن الطريق
من العراق إلى شمال الشام فى رسالة/إلى صديقه المؤرخ هلال بن المحسّن الصابى (توفى عام 267
٤٤٨ هـ = ١٠٥٦)[١٢٤] . وهذه الرسالة حفظها لنا ابن المؤرخ وهو محمد بن هلال (توفى عام ٥٠٨ هـ = ١١١٤) فى مصنفه « كتاب الربيع »[١٢٥] ؛ وعنه نقلها ياقوت[١٢٦] وابن القفطى[١٢٧] فى القرن الثالث عشر . ويمكن من خلال هذه المقتطفات تتبع طريق رحلته بوجه

---

(١٢٠) -Brockelmann, GAL, I, p. 483, No 2; SBI, p, 885 —Brokelmann, Ibn Butlan, p. 392 —Cheikho, Poétes Arabes Chrétiens, III, p. 266-272, 392 —Sarton, Introduction, I, p. 730-731.
فى الأونة الأخيرة جمع المادة عن ابن بطلان شاخت وميرهوف .
(J. Schacht and M. Meyerhof, p. 14-15, note 14)

(١٢١) هذا التاريخ يشير إليه مؤرخ حلب المعاصر الطباخ ، راجع :
Cheikho, Poétes arabes chretiens, III, p. 392

(١٢٢) -Brockelmann, GAL, I, p. 483, no 2: « بعد عام ٤٥٥ هـ = ١٠٦٣ » ; SBI, p. 885:
« بعد عام ٤٦٠ هـ = ١٠٦٨ » راجع : Rozen, Vasilii Bulgaroboitsa, p. 40, 48

(١٢٣) شرحه -Rozen, Vas. Bulg., p. 036, 038-053

(١٢٤) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 556-557, No 2

(١٢٥) شرحه ، ص ٥٥٧ ، فى أعلى

(١٢٦) (ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ص ٣٨٢ – ٣٨٥ : أنطاكية ؛) = -Heer, p. 22
(والجزء الثانى ، ص ٣٠٦ – ٣٠٨ : حلب ؛ والجزء الثانى ، ص ٦٧٢ : دير سمعان ؛ والجزء الثانى ، ص ٧٨٥ : الرصافة ؛ والجزء الثالث ، ص ٧٢٩ : عم ؛ والجزء الرابع ، ص ١٠٠٣: يافا)

(١٢٧) طبعة Lippert ، ص ٢٩٥ – ٢٩٨

عام كما فعل ذلك الأب شيخو(١٢٨) ؛ فمن بغداد سار فى محاذاة نهر عيسى مرتفعًا إلى الفرات حتى بلغ الأنبار والرحبة ، ثم عبر المفازة إلى الرصافة الهاشمية . ويلوح أنه قد أمضى وقتًا طويلا بحلب وأنطاكية واللاذقية ، وكانت المدينتان الأخيرتان فى أيدى البيزنطيين آنذاك ؛ ولأنه كان مسيحيًا فقد استطاع أن يتعرف عليهما عن كثب كما فعل مع البلاد الإسلامية . ومن العسير معرفة ما إذا اقتصرت رسالته على وصف هذا الجزء من الرحلة أم أنها تناولت غيره أيضًا ، غير أن رجوع ياقوت إليه فيما يتعلق بوصفه ليافا ربما ينهض دليلا على أنه قد أتم وصف الطريق إلى مصر(١٢٩) . ومن خلال المصادر الأخرى نعرف أنه قد زار القسطنطينية(١٣٠) إلا أن ذلك قد تم عقب هذا بمدة طويلة .

ومما يزيد فى أهمية رسالته أنه استطاع أن يوجه اهتمامه إلى جوانب من الحياة الاجتماعية والثقافية قل أن حفل بها العرب المسلمون ، مثل كلامه عن وضع السكان النصارى وموقفهم من البيزنطيين وعاداتهم وأماكن العبادة عندهم الخ . وبالرغم من أن ابن بطلان كان أديبًا وشاعرًا إلا أن رسالته صيغت فى أسلوب بسيط لا أثر للصنعة فيه ، هذا إذا استثنينا الافتتاحية بما يصحبها عادة من العبارات المتكلفة الموجهة إلى الشخص الذى بعث بالرسالة إليه . وهى بلا شك تعكس انطباعات حية مباشرة عن ذلك العصر المضطرب الذى لم يتجاوز فيه سلطان الخليفة فى واقع الأمر بغداد ونواحيها ؛ وكانت حلب آنذاك تحت حكم المرداسيين بينما كانت أنطاكية فى قبضة البيزنطيين ؛ أما مصر فقد سيطر عليها الفاطميون . ورغمًا من هذا فقد كانت حرية التنقل كما أبصرنا مكفولة لا فى داخل العالم الإسلامى فحسب بل حتى بين الدولة البيزنطية وأراضى الإسلام(١٣١) .

---

(١٢٨) راجع : -Cheikho, Poètes arabes Chrétiens, III, p. 272-277.
Rozen, Vasili Bolgaroboitsa, p. 039

(١٢٩) من المحتمل أنه ترجع إليه رواية عن اللاذقية ترتفع إلى عام ٤٤٦ هـ = ١٠٥٤ ، حيث يوجد بدلا من اسم ابن بطلان اسم ابن فضلان : ياقوت ، المعجم ، الجزء الرابع ، ص ٣٣٩ (الطبعة المصرية ، الجزء السابع ، ص ٣١٢) . قارن : Kovalevski, p. 14, no 1
و Meyerhof, Kitab al-saidana. p. 57, note 23

(١٣٠) -Rozen, Vasilii Bolgaroboitsa, p. 044

(١٣١) ترجمة جزئية لدى لى استرانج ورورخت -(Le Strange, Röhricht)
راجع : Meyerhof, Kitab al-saidana و Brockelmann, GAL. SBI, p. 885, No 2

268 ويرتبط بعهد السلاجقة التالى لذلك كتاب باللغة العربية ذو أهمية بالغة بالنسبة للجغرافيا ، ذلك هو « ديوان لغات الترك »(١٣٢)/ لمحمود الكاشغرى الذى يعتبره بارتولد « الوحيد تقريبًا الذى كتب بالعربية عن آسيا الوسطى معتمدًا فى ذلك على معرفته الشخصية بتلك البلاد ولم ينقل عن مراجع مدونة »(١٣٣) . وقد تم تدوين كتابه ببغداد بين عامى ٤٦٤ هـ = ١٠٧٢ و ٤٦٦ هـ = ١٠٧٤ كما يذكر ذلك هو بنفسه(١٣٤) ؛ وقد يثير هذا الاختلاف فى التواريخ بعض الشبهات رغمًا من أن المخطوطة الفريدة المعروفة للكتاب والتى ترجع إلى القرن السابع أو الثامن الهجرى قد أخذت عن المخطوطة الأصلية بيد المؤلف . ولاعتبارات تتعلق بمادة الكتاب فإنه ليس هناك ثمة شك فى أن تاريخ تأليفه يرجع إلى النصف الثانى من القرن الحادى عشر . وليست لدينا معلومات على الإطلاق توضح سبب ظهوره ببغداد بالذات . والمعلومات الطفيفة عن حياة مؤلفه يجب استخراجها من صلب الكتاب نفسه ؛ فيتضح من ذلك مثلا أن المؤلف كان يجيد العربية إجادة تامة بالرغم من أنه كان تركى الأصل وربما انتمى فيما يبدو إلى أسرة القاراخانيين الذين حكموا بالمشرق ؛ وكان لأبيه صلة ما بمدينة برسخان القريبة من بحيرة ايسيق كول Issik Kol . وهو قد سافر كثيرًا فى سهوب آسيا الوسطى وجال فى بلدان الترك وأجاد تقريبًا جميع اللهجات التركية بآسيا الوسطى(١٣٥) . أما من ناحية اللغة فكتابه يمثل أهمية كبرى لا نظير لها ؛ وقد كان الكشف عنه بين مجموعة العلامة التركى المعروف على أميرى الديار بكرى (١٨٥٧ – ١٩٢٤)(١٣٦) ، ثم طبعه بتركيا أثناء الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣ هـ – ١٣٣٥ هـ = ١٩١٤ – ١٩١٦) ، حدثًا هامًا فى تاريخ دراسة اللهجات التركية . ولا تقل عن ذلك أهميته من وجهة نظر الجغرافيا لأنه يقدم لنا مادة وفيرة من محيط الأدب الشعبى التركى ومعلومات وافية عن مواضع سكنى القبائل التركية تصحبها تفاصيل عديدة عن الجغرافيا التاريخية للبلدان التى يقيمون بها . والمادة التى يوردها المؤلف جديرة بالثقة وكثيرًا ما دعمتها الاكتشافات الأثرية الحديثة فى آسيا الوسطى(١٣٧) .

---

(١٣٢) -Brockelmann, Mitteltürkischer Wortschatz

(١٣٣) -Barthold, Vorlesungen, p. 58

(١٣٤) حدود العالم ، ص ١٦٨ (٤٦٦ هـ = ١٠٧٤ أو ٤٧٠ هـ = ١٠٧٧)

(١٣٥) -Barthold, Vorlesungen, p. 93-95

(١٣٦) -Babinger, GOW, p. 402-404, No 374

(١٣٧) -Beliaev, MITT, p. 31-32

أما الخارطة المستديرة التى حفظت بالمخطوطة والتى توفر على دراستها اثنان من العلماء هما ميلر Miller[١٣٨] وهرمان Hermann[١٣٩] فإنها تمثل أهمية قصوى ؛ وعلى ذلك فلا يمكن القول بأن جميع المسائل المتعلقة بها قد وجدت الحل النهائى ، خاصة وأن الباحث الأول قد درسها منفصلة عن متن محمود الكاشغرى. وقول هرمان بأن أحد الأسماء التى بالخارطة يقصد منه اليابان[١٤٠] قد أحاط به الكثير من التشكك ، كما أن افتراضه بأن الخارطة يجب أن تعتبر أثرًا طريفًا وأصيلا كل الأصالة لا يستند على أى أساس من الواقع[١٤١] . ولا يزال من الصعب القول بما إذا كانت الخارطة معاصرة للمتن وهل رسمها المؤلف بنفسه . والمرجح أنها ترجع فى الأصل إلى خارطة العالم
المستديرة/« بأطلس الإسلام » للمدرسة الكلاسيكية فى الجغرافيا[١٤٢] ، ولكن واضعها 265
استباح لنفسه حرية كبيرة فجعل مركز الخارطة مدينة كاشغر ومنطقة الأنهار السبعة (يدى صو Semirechie) مع مدينة بلاساغون ، وذلك بدلا من مكة . ومن المؤكد أنه كان يعتبر هذه المنطقة مركز مساكن القبائل التركية ، الأمر الذى يعززه متن الكتاب . ولا شك أن الخارطة قد عملت خصيصًا لتصوير هذه المنطقة والمناطق المتاخمة لها ، أما الأقاليم الأخرى فإن واضع الخارطة لم يهتم لها كثيرًا ، ولعلها أضيفت مؤخرًا إلى النواة الأساسية للخارطة ؛ على أية حال فإن تبيينها على الخارطة ليس من الدقة كما يجب . ولعل الفكرة الأساسية كانت متجهة نحو إخراج خارطة إقليمية ولكن على هيئة صورة « الخارطة المستديرة للعالم » ؛ إلا أن المؤلف قد ارتأى بالتالى أن يملأ الأجزاء الخالية منها بالأسماء المعروفة له ، ومن ثم أصبحت خارطة للعالم قائمة بذاتها . ويرجع الفضل
لأمنياكوف Umniakov[١٤٣] فى إلقاء ضوء على التفاصيل المتفرقة لهذا/الأثر الفريد فى 270
الكارتوغرافيا العربية والذى يمثل أهمية خاصة بالنسبة للجغرافيا التاريخية لجوف آسيا والمناطق المتاخمة له .

وبعهد السلاجقة أيضًا ، ولكن فى أخرياته ، يرتبط اسم شرف الزمان طاهر المروزى[١٤٤]

---

(١٣٨) -Miller, V, p. 142-148

(١٣٩) -Hermann, Imago Mundi, I, p. 21-28

(١٤٠) شرحه ، ص ٢٣

(١٤١) شرحه ، ص ٢٢

(١٤٢) -Kramers, EI, EB, p. 67

(١٤٣) -Umniakov, Samia staria turetskia karta mira

(١٤٤) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 903, No 2 A

الذى كان طبيبًا ببلاطهم . ومنذ عهد غير بعيد أصبح معروفًا فى بعض المخطوطات مصنفه « طبائع الحيوان » الذى يبحث فى جوهره فى علم الحيوان ولكن القسم الأول منه يعالج الكلام على الأعراق البشرية والجغرافيا[١٤٥]. ولا يمكن تحديد زمن تأليفه إلا بصورة تقريبية، فآخر تاريخ به يرجع إلى عام ٥١٤ هـ = ١١٢٠ ولكن بالكتاب أخبار لأحداث شهدها المؤلف بنفسه فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر[١٤٦]. وأكثر رواياته قيمة هى تلك التى يرد فيها الحديث عن الشرق الأقصى – الهند والتبت والصين . هذا وقد تم الكشف من قبل عن شذرات منه لدى الكاتب الفارسى عوفى[١٤٧] فى بداية القرن الثالث عشر ، وكذلك عند ابن المهنّا فى بداية القرن الرابع عشر وهو مؤلف اشتهر بكتاباته عن اللغات الشرقية ؛ غير أنهما لم يقدما أية فكرة عن قيمة الكتاب بوجه عام[١٤٨] . ومهم بالنسبة لنا حفظه لعدد كبير من روايات الجيهانى مع الإشارة الدقيقة إليه ؛ وبهذا أمكن التعرف على عدد من الروايات المجهولة الأصل عند المؤلفين الآخرين[١٤٩] . وثمة أهمية خاصة تمثلها قصة عن سفارة بعث بها حوالى عام ٤١٨ هـ = ١٠٢٧ « حاكم الصين والترك » إلى بلاط محمود الغزنوى ؛ وخبر هذه السفارة معروف لنا من كرديزى ولكن بصورة مبهمة[١٥٠] . وهى لم تسفر عن أية نتائج سياسية لأن محمودًا رفض أن يدخل فى علاقات دبلوماسية مع الكفار ؛ ولكنها فيما يبدو قد تركت أثرها على العلم ، إذ يلوح أن وصف الطريق بين غزنة وعاصمة الكيتان Kitans قد أخذ عن هذه السفارة . ويمكن أن نلاحظ عرضًا أن بعض الأسماء فى هذا الطريق مذكورة فى « القانون السعودى » ، أى أن البيرونى قد استقاها على أغلب الظن من المصدر ذاته . وأكثر أهمية من هذا رواية المروزى عن هجرات شعوب آسيا الوسطى التى استعارها عوفى والتى استعصت على الأفهام لحين التعرف من جديد على هذا المصدر الذى يسَّر بعض الشيء فهم هذه المسألة وإرجاع حوادثها إلى منتصف القرن الحادى عشر[١٥١] .

---

(١٤٥) Minorsky, une nouvelle source, p. 317-318

(١٤٦) شرحه ، ص ٣١٧

(١٤٧) Muhammad Nizamuddin, p. 88-89, No 29

(١٤٨) Minorsky, une nouvelle source, p. 318

(١٤٩) شرحه ، ص ٣١٩

(١٥٠) Barthold, Vorlesungen, p. 89 —Minorsky, une nouvelle source, p. 319-320

(١٥١) شرحه ، ص ٣٢٠ – ٣٢٣

ومن الملاحظ أننا عدنا إلى الكلام على البيرونى مرة أخرى فى آخر هذا الفصل الذى بدأناه
بالحديث عنه . وهذا بالتأكيد ليس من محض الصدفة فالبيرونى هو تلك الشخصية الفذة التى
271 طغت على شرق/العالم الإسلامى فى القرن الحادى عشر فى ميدان العلوم المتصلة بالجغرافيا ،
خاصة الجغرافيا الرياضية . ورغمًا من هذا فإنه لم تصلنا عنه مصنفات جغرافية بحتة وذلك بالمعنى
الذى حددناه من قبل ؛ ولعله ليس من قبيل المصادفة أن تنعدم أيضًا عند المؤلفين الذين مر
ذكرهم فى هذا الفصل . وهذا يعنى بلا شك أن الأنماط المعروفة فى الأدب الجغرافى التى نالت
انتشاراً واسعاً قد انقطع الاهتمام بها فى القرن الحادى عشر بل وأخذت تختفى فى البلدان الشرقية .
غير أن هذا يجب ألا يفهم منه أنها انقرضت تمامًا ؛ إذ سنراها بعد قليل تنتعش انتعاشًا كبيرًا
بالمغرب وبوجه خاص فى الأندلس ، وهى مناطق سار فيها تطور الأدب بوجه عام بخطا أبطأ مما
بالمشرق . أما فى المشرق فلم ترفع رأسها من جديد إلا أنه يلاحظ فى القرنين الثانى عشر والثالث
عشر بالذات ظهور أنماط جديدة وازدهارها بحيث يصبح من العسير القول بتدهور الأدب
الجغرافى فى جملته حتى فى ذلك العصر .

الفصل العاشر

جغرافيو القرنين الحادى عشر والثانى عشر بالمغرب*

تكاد جميع المصنفات الجغرافية الكبرى التى تحدثنا عنها حتى الآن ترتبط بمشرق العالم 272
الإسلامى ، وهذا دون ريب لا يعنى أن غرب العالم الإسلامى ، أقصد المغرب والأندلس بالذات ، لم يأخذ بنصيبه فى التطور العام لهذا الأدب ؛ غير أن الأدب الجغرافى فى تلك الأقطار اتخذ صبغة محلية وقلما كان يخرج عن نطاق البلاد التى ظهر فيها ، كما أنه لم يُبْرِز إلى الوجود مصنفات نالت انتشارًا عامًا . ويمكن القول بأن التطور الأدبى ربما تأخر بعض الشىء هنا ؛ صحيح أنه يقابلنا حتى فى العهود المبكرة ممثلون ذوو باع طويل فى الجغرافيا الإقليمية مثل الرازى Elmoro Razis أو الرحالة الطريف فى نظرنا إبراهيم بن يعقوب ، غير أنه فقط فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر انبعثت مؤلفات معروفة لنا معرفة مباشرة وظفرت بمكانة رفيعة فى المشرق نفسه .

وفى هذه الآونة تعرضت البلاد العربية لغير قليل من الأحداث التى وجهت ضربات قاصمة إلى وحدة العالم الإسلامى ، بالرغم من أن تلك الوحدة كانت فى غالب الأحوال ليست سوى فكرة فى أذهان الناس . ففى نحو عام ١٠٥٠ للميلاد تعرض النصف الشرقى من العالم الإسلامى لغارة السلاجقة ، بينما وقعت صقلية بأجمعها وجزء هام من اسبانيا بل من حين لآخر بعض المواضع على ساحل افريقيا الشمالى تحت سيطرة النصرانية . وفى ذلك الوقت نفسه بدأت تختمر فى أوروبا الفكرة الصليبية وأخذ العالم الإسلامى ينكشف بالتدريج للمسيحيين ؛ كذلك خَفَّت بعض الشىء حدة العلاقات السياسية بين العالمين ، ولكنها سرعان ما عادت سيرتها الأولى فترة من الزمن إبان حكم السلاجقة والأيوبيين فى خلال صراعهم العنيف ضد الصليبيين . بيد أن جميع هذه الأحداث لم تؤثر فى النظريات الأساسية التى سادت الأدب الجغرافى ، ويمكن فقط أن نلحظ بعض المحاولات إلى الاقتراب من الجغرافيا الفلكية . فمثلًا فى نسخة معدلة لمصنف ابن حوقل يرجع تاريخها إلى عام ١٠٦٤ لا تظهر خارطة العالم مستديرة بل تتخذ شكلا إهليلجيا

---

* نقل هذا الفصل برمته إلى الفرنسية البروفسور ماريوس كانار M. Canard ، وظهرت الترجمة فى Annales de L'Institut des Etudes Orientales لجامعة الجزائر ، وذلك فى المجلد ١٨ – ١٩ الذى ظهر فى عام ١٩٦٠ – ١٩٦١ . (المترجم)

(elliptic) ، مما يتفق مع الفكرة الفلكية عن المعمورة[١] .

ومن الملاحظ أن تطور العلوم الجغرافية فى الأندلس كان أبطأ مما فى المشرق ، فمنذ القرن الحادى عشر نلاحظ الاهتمام بأنماط كانت قد بدأت تتقهقر فى المشرق إلى الصف الثانى هذا إذا لم تكن قد اختفت تمامًا .

273 ويقدم لنا مثالا طريفًا المحدث الأندلسى المشهور ابن عبد البر النمرى القرطبى (٣٦٨ هـ - ٤٦٣ هـ = ٩٧٨ - ١٠٧١) الذى اكتسب شهرة واسعة كعالم فى الحديث ، وأخذ العلم بقرطبة التى كانت لا تزال تتصف بجميع أبهتها كعاصمة للخلافة الغربية ؛ وهو لم يغادر الأندلس على الإطلاق وتوفى بشاطبة Jativa فى التسعين من عمره تقريبًا[٢] . وقد نالت مؤلفاته العديدة فى الحديث شهرة عريضة وإن لم يكن فيما يبدو غريبًا على الموضوعات الأدبية ، ويتضح ذلك من أحد مصنفاته الأدبية وكذلك من شرحه المشهور لأشعار أبى العتاهية ، شاعر الزهد فى العصر العباسى . وبالحديث يرتبط أكثر مما يرتبط بالأدب مؤلفه الذى يمكن أن تكون له صلة بالجغرافيا ، أو على الأحرى بالاثنوغرافيا .

ويحمل الكتاب عنوانًا طنانًا قد يختلف أحيانًا من مصدر لآخر هو « القصد والأمم فى التعريف بأصول العرب والعجم » ؛ وهو فى الواقع عبارة عن رسالة صغيرة تقع فى عشرين صفحة تقريبًا ولا تكاد تذكر شيئًا عن العرب بل تعالج فقط مسألة ظهور الشعوب الغريبة التى ورد ذكرها فى الحديث . وبعض مادته مأخوذ من العهد القديم ، بل ومن أسطورة الإسكندر ذى القرنين كذلك ، وهى فى هذا تتفق بعض الشىء مع روايات المسعودى . وقد افترض نولدكه Nöldeke أن الرسالة إنما تمثل ذيلا فحسب لكتاب كبير لابن عبد البر فى أنساب القبائل العربية والصحابة وأن قيمتها العلمية ليست بذات بال[٣] . ومثل هذا الضرب من المؤلفات معروف لنا جيدًا فهو يتمم محاولات العهد المبكر لتفسير الأحاديث النبوية تفسيرًا جغرافيًا ، وهى محاولات ترجع إلى عهد ابن عباس . وهذا بالتأكيد لا ينفى أن عناصر متفرقة منها يمكن أن تقدم بعض الفائدة فى محيط الجغرافيا إذا ما عرضت لتحليل مناسب . ولعل شيفير Schéfer كان مصيبًا عندما نشر قطعة من رسالة ابن عبد البر هذه مصحوبة بترجمة فرنسية ، وهى القطعة الخاصة بأهل الصين ، وأكد

---

(١) Kramers, Legacy, 88-89-

(٢) Brockelmann,, GAL, p. 367-368, No 1; SBI, p. 628-629 —Pons Boigues, p. 147-150, No III —
طبعة القاهرة ، ١٣٥٠ -

(٣) Nöldeke, ZDMG , 40, p. 308-

أن بها إشارة دقيقة إلى عبادة الأسلاف كما أن بها فكرة عن وجود قبائل الأينو Aino فى شمال الصين[٤] . وفيران Ferrand على تشككه بصدد هذه النقطة الأخيرة إلا أن ذلك لم يمنعه من الاستشهاد بمتن ابن عبد البر حول مسألة علاقة الصين بسكان الملايو[٥] .

وإلى هذا الوسط نفسه ينتمى مؤلف يحتل مكانة كبيرة بالنسبة لنا وهو أحمد بن عمر العذرى (٣٩٣ هـ - ٤٧٨ هـ = ١٠٠٣ - ١٠٨٥)[٦] الذى يعتبر فى الوقت ذاته تلميذًا وأستاذًا لابن عبد البر[٧] ، تمامًا/كما كان تلميذًا وأستاذًا لابن حزم المشهور[٨] ؛ فجميعهم أبناء عصر واحد 274
ووفقًا لما كان متبعًا فى الدوائر العلمية آنذاك فإنه لم يكن هناك ما يمنع أحدهم من التتلمذ على الآخر فى فرع من العلوم التى يجيدها الثانى. وقد توفى العذرى عام استيلاء الفونس السادس Alfonso VI على طليطلة Toledo . وميزة العذرى الكبرى على ابن عبد البر ليست فى رحلته إلى المشرق فحسب بل فى أنه عاش بمكة نحوًا من تسعة أعوام[٩] ، ولذا فمن المنطقى أن تتصف معلوماته الجغرافية بالعمق ولا تعتمد على المادة المدونة فى الكتب وحدها بل وعلى انطباعاته الشخصية كذلك . ومن العسير معرفة أىٍّ من هذين الاتجاهين دفعه قبل الآخر إلى وضع مصنف خاص فى الجغرافيا ، غير أنه يتضح من العنوان وهو « نظام المرجان فى المسالك والممالك » أنه ربما ارتبط بالتراث المعروف لنا جيدًا .

ولم يعرف لهذا المصنف إلى الآن أية مخطوطات ، ولكنه كان معروفًا معرفة جيدة للمؤلفين التالين ، وحفظت لنا منه شذور مهمة * . وقد كان العذرى أستاذًا للبكرى[١٠] المشهور الذى سيرد الكلام عليه بعد حين فى شىء من التفصيل لذا فليس من الغريب أن يمثل مصنفه مصدرًا من المصادر الأساسية لمصنفات البكرى فى ميدان الجغرافيا ؛ كما استعار منه الكوزموغرافى القزوينى

---

(٤) -Schefer, Notice, p. 9-11

(٥) -Ferrand, K'ouen Louen p. 443-445

(٦) -Lévi-Provencal, La Péninsule, p. XXIV, note 2 —Pons Boigues, p. 158-159, No 120

(٧) ياقوت ، المعجم ، الجزء الثانى ، ص ٥٨٢ ؛ الجزء الرابع ، ص ٥١٧

(٨) شرحه ، الجزء الرابع ص ٥١٧

(٩) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ٥٨٢ — Lévi-Provensal, La Péninsule, p. XXIV, note 2 —Pérès, MGD, p. 235, note 2

* عثر الأستاذ المصرى عبد العزيز الأهوانى على نص للعذرى فى جغرافيا الأندلس والظاهر أنه ناقص . وهو يعمل على تحضيره للطبع . (المترجم)

(١٠) ياقوت ، المعجم ، الجزء الثانى ، ص ٥٨٢

كل المادة المتعلقة باسبانيا[١١] وأوروبا الغربية[١٢] تقريبًا ورجع إليه الإدريسى[١٣] وعرفه ياقوت جيدًا . ففى وصفه لموطنه دلاية Dalias من أعمال المرية Almaria ينقل عنه بتفصيل واف[١٤] . وعلى معرفته بعنوان الكتاب[١٥] إلا أنه فيما يبدو لم يستعمله استعمالا مباشرًا ، والمرة الوحيدة التى يتحدث فيها عنه كانت بمناسبة الكلام على تلميذه ابن حزم[١٦] . إزاء ذلك نجد من الصعب علينا إعطاء وصف لهذا الكتاب فى مجموعه ؛ ومن ثنايا القطع المنقولة عنه يتضح أحيانًا أن اهتمامًا كبيرًا قد أفرد فيه لمختلف أنواع العجائب mirabilia[١٧] . وأعتقد أن الكتاب لم يقتصر على الأندلس وحدها كما ظن البعض ، فالقطع التى نقلها عنه ياقوت مثلا تمس فى الواقع مدينة مكة . أما انتماء الكتاب إلى نمط المسالك والممالك فأمر لا ريب فيه ولكن هذا لا يعنى أنه ارتبط ارتباطًا مباشرًا بالمدرسة الكلاسيكية للجغرافيا بالمشرق إذ أن هذا النمط قد خضع لتعديل جوهرى بالأندلس كما سيتضح لنا عند الكلام على تلميذه المشهور البكرى .

275 وقبل أن ننتقل إلى الكلام عن الأخير يلزمنا أن نوكد مرة أخرى ضرورة رفض الزعم القائل بوجود شخص قائم بذاته يدعى إبراهيم الطرطوشى كما افترض ياكوب Jacob[١٨] عند كلامه على الرحالة الذى زار ألمانيا وأرض الصقالبة ؛ ومما زاد فى اللبس أكثر أن كرامرس Kramers يرجعه إلى القرن الحادى عشر ويجعل تاريخ وفاته تاريخ وفاة العذرى (٤٧٨ هـ= ١٠٨٥)[١٩] . وكما رأينا فى حينه فقد أثبت كوفالسكى Kowaleski أن إبراهيم الطرطوشى هو فى حقيقة الأمر إبراهيم بن يعقوب نفسه الذى قام برحلة فى النصف الثانى من القرن العاشر ، أما القول بوجود مؤلفين يحملان اسما واحدًا فهو قول يجب اطراحه نهائيًا .

وأبو عبيد عبد الله البكرى هو « أكبر جغرافى أخرجته الأندلس قاطبة » كما قال دوزى

---

(١١) -Alemany, p. 126, 189 No 4

(١٢) -Jacob, Studien, I, p. 6-8; IV p. 138

(١٣) -Pons Boigues, p. 159

(١٤) ياقوت ، المعجم ، الجزء الثانى ، ص ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، الجزء الرابع ، ص ٥١٧ – ٥١٨

(١٥) شرحه ، ص ٥٨٢ : الجزء الرابع ، ص ٥١٧ – ٥١٨

(١٦) شرحه ، الجزء الرابع ، ص ٢٤١

(١٧) -Lévi-Provencal, La Péninsale, p. XXIII

(١٨) -Jacob, Studien, I, p. 8-10; II, p. 52; IV, p. 137-147

(١٩) -Kramers, EI, EB, p. 68

Dozy[٢٠] . وقد تعرف عليه الاستشراق الروسى أساسًا بفضل حفظه لشذرات من مذكرات إبراهيم بن يعقوب الذى مر ذكره للتو . وبحث كونيك Kunik وروزن Rosen الذى اعتبر فتحًا جديدًا بالنسبة لعصرهما قد أسدل الستار قليلا على النواحى الأخرى لشخصية البكرى ، فلم يتذكره الناس إلا بعد طبع مصنفاته الأدبية فى الآونة الأخيرة . وكان البكرى تلميذًا للعذرى وابن عبد البر ، ومن هذا الأخير تسلم إجازته فى التدريس[٢١] غير أنه كان ينتمى إلى وسط آخر سواء من ناحية أصله أو من ناحية شخصه . فهو لم يكن عالمًا متفرغًا للحديث أو متفقهًا فيه بل كان أديبًا ذا ميل واضح محدد نحو الموضوعات الأدبية ، لا يرفض حياة المتعة والخمر[٢٢] ، وكان من كبار عمال الدولة ودبلوماسيًا كما كان وثيق الصلة بمعاصريه من الأدباء كابن حيان وابن خاقان اللذين عرفهما عن كثب[٢٣] . ويرتفع نسبه إلى بكر بن وائل ، وكان جده وأبوه يومًا ما أميرين على مدينتى ولبه Huelva وشلطيش[٢٤] Saltès على ساحل البحر المحيط إلى الغرب من إشبيلية Seville ؛ وقد اضطر أبوه إلى مغادرة إمارته عندما غلب عليها العباديون أمراء إشبيلية ورحل مع ابنه إلى قرطبة التى احتفظت بعد سقوط الأمويين بأهميتها حينًا من الدهر كمركز ثقافى وكملاذ لأمراء الأقاليم الذين فقدوا سلطانهم . وهناك أتم البكرى دراسته بل انتسب إلى المدينة فعرف أيضًا باسم القرطبى . ونقابله بعد ذلك لفترة من الزمن وزيرًا لأمير المرية ، وقد قام بمهمة دبلوماسية لدى بلاط الأمير الشاعر المعتمد بن عباد/بإشبيلية. وبعد هزيمة الأخير على أيدى المرابطين 276
Almoravides رجع البكرى مرة ثانية إلى قرطبة وظل يزاول نشاطه الأدبى بها إلى وفاته فى عام ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤[٢٥] .

ولم يتخذ اهتمامه بالجغرافيا طابعًا مستقلا بل كانت تخضع إلى حد كبير لميوله الأدبية . وقد اشتهر البكرى كخبير فى الشعر والأدب الفنى اللذين أفرد لهما بعض الرسائل التى تنعكس فيها مجادلاته مع اللغوى الشهير للقرن العاشر أبى على القالى الذى نقل ثقافة بغداد الأدبية إلى الأندلس . وكان البكرى بطبيعته محبًا للكتب فأولاها اهتمامًا متزايدًا وكان يلفها فوق الجلدة بقطعة من النسيج « إكرامًا لها » كما قال هو نفسه[٢٦] . ورغمًا من أنه لم يغادر الأندلس البتة إلا أنه ترك لنا مصنفين فى الجغرافيا تمتعا بشهرة عريضة .

---

(٢٠) Dozy, Récherches, I, p. 1849, p. 282

(٢١) -Wüstenfeld, El-Bekri, I, Vorwort, p. 3

(٢٢) -Dozy, Recherches, I, 1849, p. 297

(٢٣) -Pons Boigues, p. 162

(٢٤) -Dozy-Lévi-Provençal, III, p. 222 —Lévi-Provénçal, La Péninsule, p. 136, note 1

(٢٥) -Dozy, Recherches, I, 1849, p. 295-298

(٢٦) شرحه ، ص ٢٩٧

أحدهما بعنوان « المسالك والممالك » نحا فيه المنحى القديم فى وصف الطرق والمراحل وبيّن فيه بلدان العالم الإسلامى المختلفة . ووفقًا لتركيبه فهو كتاب جامع ولكن أسلوبه جاف ؛ وقد قصد به مؤلفه فى المكان الأول إرضاء مطالب الإدارة ولكنه لا يخلو من استطرادات ممتعة ويتضمن أحيانًا وثائق هامة . ومن المستحيل نسبته إلى مدرسة البلخى ، وذلك لأسباب عديدة وليس فقط لأنه يخلو من الخارطات(٢٧) . وكان الفراغ من تأليفه حوالى عام ٤٦٠ هـ = ١٠٦٨(٢٨) ؛ غير أن النص لم يحفظ لنا كاملا بالرغم من أن مخطوطاته استمرت تظهر إلى الآونة الأخيرة(٢٩) ، وكل ما تبقى منه هو أوصاف أفريقيا الشمالية ومصر والعراق وسكان نواحى بحر قزوين وبعض أجزاء اسبانيا ؛ وحتى هذا الذى بين أيدينا لم يطبع بأجمعه * . ومن أكثر أوصافه تفصيلا وصفه لافريقيا الشمالية الذى أصبح فى متناول اليد بفضل طبعة وترجمة دى سلان De Slane(٣٠) . وفيه تمكن البكرى من الإفادة من كتاب يحمل العنوان نفسه لمؤلف سابق من أهل القرن العاشر هو ابن الوراق(٣١) الذى مر بنا الكلام عليه ؛ ومن هذا القسم يتضح لنا معرفة البكرى العميقة بالطرق وبكل الساحل بمرافئه وخلجانه العديدة . وفى مواضع أخرى توفرت لديه مصادر عديدة كمذكرات إبراهيم بن يعقوب فى وصف أراضى الصقالبة ، وهو القسم من كتابه الذى نشره
روزن . ولعله من الجائز أن يكون قد اطلع على وثائق قرطبة فاستخرج منها/المادة اللازمة لوصف 277
بعض الطرق(٣٢) . أما الأدب المدون فإنه كان بلا أدنى ريب معروفًا له معرفة جيدة ؛ ففى القسم الخاص بالصقالبة نلمس تأثير الجيهانى(٣٣) والمسعودى(٣٤) وابن رسته ، كما أن انتماءه إلى المغرب قد

---

(٢٧) Kramers, EI, EB, p. 68-

(٢٨) Lévi - Provençal, La Péninsule, p. 251, note 2 — Kramers, EI, EB, 68; but date 459 = 1067 not exact -

(٢٩) مخطوطة كيل Kiel لعام ٨٥١ هـ ؛ عن مخطوطة استنبول راجع :
Ritter, DI, XIX p. 57 p. (Kramers, EI, EB, p. 68 — خطأ p. 43)-
وعن مخطوطة مراكش راجع : Minorsky, Khazars, p. 143, note 1
Kowalski, Relcia Ibrähima, p. 7-16

* نشر الجغرافى الكويتى الدكتور عبد الله الغنيم القسم من كتاب البكرى المتعلق بالجزيرة العربية (١٩٧٨) ، وكذلك القسم المتعلق بمصر (١٩٨٠) . كما نشر القسم المتعلق بالأندلس وأوروبا الدكتور عبد الرحمن الحجى (١٩٦٨ م) . (المترجم)

(٣٠) Kunik i Rozen, I, p. 5-17 — González Palençia, p. 195-

(٣١) Kramers, Legacy, p. 88-

(٣٢) Kunik i Rozen, I, p. 6-

(٣٣) شرحه ، جزء أول ، ص ٩ — ١٠ ، ١٧

(٣٤) شرحه ، ص ٨ — ١٠ ، ١٦

يسر له أحيانًا الرجوع إلى مصادر كانت غير معروفة بالمشرق فقد أثبت المستشرق الإسبانى سيمونيت Simonet [٣٥] أن وصفه لجزر الكنارى The Canaries مأخوذ من كتاب « أصول الكلمات » Etymologia الشهير لايزيدور الإشبيلى Isidorus Seviliensis ، أحد مشاهير أصحاب الموسوعات فى القرن السابع الميلادى [٣٦] . ويمكن القول دون تردد بأن المصنف بأجمعه يقوم أساسًا على جهد المؤلف الشخصى وأنه يقدم إلى جانب المادة المدونة معلومات عديدة معاصرة له ، وقد كان الكتاب واسع الانتشار أفاد منه ياقوت [٣٧] ورجع إليه كثيرًا الدمشقى كوزموغرافى القرن الرابع عشر [٣٨] * .

أما مصنف البكرى الثانى فى الجغرافيا فقد كان إحياءً للمنهج القديم فى المعاجم الجغرافية الذى يرتفع إلى القرن التاسع ، وهى المعاجم التى وضعها اللغويون . وقد اضمحل هذا النمط فى القرنين التاليين لذلك حتى إنه لم يظهر مصنف ذو بال فى هذا الميدان قبل مصنف البكرى ، لذا فإن معجمه كان إيذانًا بفاتحة عهد جديد لازدهار هذا النمط الأدبى . ومن خلال المقدمة تبرز أمامنا واضحة الأفكار الرئيسية التى سيطرت عليه وعلى ممثلى هذا الصنف من المؤلفات الجغرافية ، فهو يقول :

« هذا كتاب معجم ما استعجم ذكرت فيه إن شاء الله جملة ما ورد فى الحديث والأخبار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار منسوبة محددة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة . فإنى لما رأيت ذلك قد استعجم على الناس أردت أن أفصح عنه بأن أذكر كل موضع مبين البناء معجم الحروف حتى لا يُدرك فيه لبس ولا تحريف . وقد قال أبو مالك الحضرمى ربّ علم لم تُعجم فصوله فاستعجم محصوله . فإن صحة هذا لا تدرك بالفطنة والذكاء كما يُلحق المشتق من سائر الأسماء ، وما أكثر المؤتلفَ والمختلف ** فى أسماء هذه المواضع مثل ناعجة وباعجة ونبتل وثيتل ونخلة ونحلة وساية وشاية والنَقَرَة والنُّقْرَة وجُند وجَنَد وجُسَان وحسَّان وحُبْحُب وحَبْحَب وسنام

---

(٣٥) Pons Boigues, p. 163.—Brockelmann, GAL, SBI, p. 876, No 2-

(٣٦) Sarton, Introduction, I, p. 471-472-

(٣٧) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٦٥٣ ؛ راجع الفهرس ، الجزء الخامس ، ص ٣٥٠

(٣٨) Kunik i Rozen, I, p. 5-

* إن أفضل تحليل لهذا المصنف هو الذى يقدمه الدكتور حسين مؤنس فى مقاله الأصيل « الجغرافيا والجغرافيون فى الأندلس » الذى ظهر بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلدان السابع والثامن (١٩٥٩ — ١٩٦٠) . (المترجم)

** المؤتلف والمختلف ما تتفق فى الخط صورته وتفترق فى اللفظ صيغته . (المترجم)

وسَنَام وشبام وسَلْع وسَلَع والحَوْب والحَوْءَب وقَرْن وقَرَن وجُفاف وحِفاف وحُتَّ وخَتَّ وتَريم وتَرْيم وتهامة ونِهامة بالنون وخزاز وجَرار وحَراز . وكذلك ما اشتبه أكثر حروفه نحو سُمْنَ بالنون
278 وسُمْيٍ /بالياء وشمام بالميم وسَقام بالقاف وشابة بالباء وشامة بالميم ونَمَلى بالنون وقَمَلَى بالقاف وخَمَلَى بالخاء وجُرْزان بالزاى وجرذان بالذال وإلاهه وإهالة بتقديم الهاء على اللام والقاعة والقاحة . وقديمًا صحف الناس فى مثل هذا .

قال ابن قتيبة قرئ على الأصمعى فى شعر أبى ذؤيب :

بأسفل ذات الدَّير أُفردَ جحشُها　　　فقدولهت يومين فهى خلوج(٣٩)

فقال أعرابى حضر المجلس للقارئ ضل ضلالك إنما هى ذاتُ الدبرْ بالباء المعجمة بواحدة وهى ثنية عندنا ، فأخذ الأصمعى بذلك فيما بعد(٤٠) .

وقال أبو حاتم قرأت على الأصمعى فى شعر الراعى :

وأفرعن فى وادى الأمير بعدما　　　كسا البيد ساق القيظة المتناصرُ(٤١)

فقال الأعرابى لا أعرف وادى الأمير . قال فقلت إنها فى كتاب أبى عبيدة « فى وادى دلاميد » ، فقال ولا أعرف هذا ولعلها جلاميد ففُصِلت الجيم عن اللام . قال أبو حاتم وفى رواية ابن جَبَلة « وادى الأُمَيِّل » باللام ، وكلها غير معروفة .

فهؤلاء عدة من العلماء قد اختلفوا فى اسم موضع ولم يدروا وجه الصواب فيه ، وسأبين ذلك فى موضعه إن شاء الله ....

وترتيب حروف هذا الكتاب ترتيب ا ب ت ث فأبدأ بالهمزة والألف نحو آرة ثم بالهمزة والباء نحو أُبْلى وأبان ، ثم بالهمزة والتاء نحو الأُتْم ، ثم بالهمزة والثاء نحو الأُثَيْل والأثاية ، هكذا إلى انقضاء الحروف الثمانية والعشرين . فجميع أبواب هذا الكتاب سبع مئة وأربعة وثمانون بابًا وهو ما يجتمع من ضرب ثمانية وعشرين فى مثلها فالحرفان من كل اسم مقيدان بالتبويب ، وأذكر باقى حروف الاسم وأبين المشكل بالمعجم والمهمل وأذكر بناءه وضبطه واشتقاقا إن عرف فيه وأنسُب كل قول إلى قائله من اللغويين والأخباريين المشهورين . وجميع ما أورده فى هذا الكتاب عن السَّكونى فهو

---

(٣٩) Der Diwan des Abu Du'aib, herausg. von J. Hell. Hannover, 1926, Text p. 18, No 11, 27; translation, p. 30; cf: Brockelmann, GAL, I, p. 41-42; SBI, 42-43, 71, No 1 —Bräunlich E., Abu Duaib-Studien, DI, XVIII, 1929, p. 1-23

(٤٠) Wüstenfeld, El-Bekri, I, p. 3

(٤١) شرحه ، ص ٤

من كتاب أبى عبيد الله عمرو بن بشر السكونى فى جبال تهامة ومحالها يحمل جميع ذلك عن أبى الأشعث عبد الرحمن بن عبد الملك الكندى عن عرّام بن الأصبغ السُّلمى الأعرابى(٤٢) * » .

فالبكرى إذن يواصل منهج عرام بن الأصبغ بدوى القرن التاسع الذى مر بنا الكلام عليه من قبل ، ويبدو/أنه لم يعرف مصنفات فى هذا النوع أكبر من هذا . ويجب ألا يبدو غريبًا أن ترتفع 279
مصادر البكرى إلى هذه المحاولات للغويين الأوائل ، إذ ليس هناك أساس للبحث عنها فى معاجم أنساب القبائل مثلما حاول أن يفعل فى الآونة الأخيرة بلاشير Blachère(٤٣) معيدًا فى هذا الصدد ، وفى صورة أقل دقة ، مزاعم رينو Reinaud التى ترجع مائة عام إلى الوراء تقريبًا(٤٤) . وإذا كان معجم البكرى هو أول ما وصلنا فى هذه السلسلة فإن هذا بالتأكيد لا يعنى أنه كان أول من سبق فى هذا المضمار ؛ إذ من العسير اعتباره أول من ولج باب هذا الفن من الأدب الجغرافى . ولكن من المرجح أن يكون أول من استعمل الطريقة الأبجدية فى هذا الباب وإلا لما شرحها بمثل هذا التفصيل فى افتتاحيته ؛ ومهما بدت لنا هذه الطريقة سهلة ومطروقة فى العصر الحالى فإنه يجب ألا يغيب عن الذهن أن أول معجم جغرافى يظهر بأوروبا (وهو معجم أورتلى Ortelius) كان فى القرن السادس عشر(٤٥) .

وكما هو الحال مع الخبراء الأول فى معرفة بلاد العرب القديمة فإن معجم البكرى ليس كتابًا فى الجغرافيا بقدر ما هو كتاب لغوى ، ولا يعالج جميع البلدان المعروفة بوجه عام مثل ما يعالج جزيرة العرب بوجه خاص . فهو قد جهد قبل كل شيء فى استغراق الأسماء الواردة فى القرآن والحديث وفى الشعر القديم وقصص المغازى الأولى وذلك عن طريق شرح الشواهد المتعلقة بها . وهذا المعجم الذى ورد نظام ترتيبه مشروحًا مفصلا فى الافتتاحية يبدأ بمقدمة كبيرة تبحث فى حدود الجزيرة العربية ومناطقها ونواحيها كالحجاز وتهامة واليمن ؛ وفى القسم الثانى من المقدمة يرد الكلام على القبائل العربية المستوطنة بها وعن هجراتها . وقد كانت الافتتاحية مصدرًا لبحث خاص للعلامة فستنفلد الذى يدين له العلم بطبعة كاملة للمعجم .

---

* هذه القطعة نقلتها عن الطبعة الجديدة لمعجم البكرى التى نشرها السقا بالقاهرة فى أربعة أجزاء ١٩٤٥ – ١٩٥١ . لأن قراءتها أفضل من طبعة فستنفلد. (المترجم)

(٤٢) شرحه ، ص ٣ – ٥ – (جزئيًا) Blachère, p. 255-257

(٤٣) - Blachère, p. 252 - 253

(٤٤) -Reinaud, Introduction, p. CVIII-CIX

(٤٥) -Reinaud, Notice, p. 68-69

نال المعجم تقديرًا كبيرًا لدى الجيل الأول من المستشرقين فى القرن التاسع عشر فاعتبره دوزى فريدًا لا يمكن مقارنته بشيء آخر [٤٦] ؛ ولا شك أننا نوافقه فى أنه يمثل مرجعًا لا غناء عنه لكل من يشتغل بالتاريخ العربى القديم والجغرافيا والشعر الجاهلى ، ولكن يجب أن نعترف فى الوقت ذاته بأنه إنما يعتمد فى الغالب على المادة المدونة وأن المكانة الأولى فيه تشغلها جزيرة العرب . ومن المنطقى أن يخمل ذكره وتتضاءل قيمته منذ أن أصبح معجم ياقوت فى متناول الأيـدى ، لأن الأخير يفوقه بشكل ملحوظ سواء فى اتساع ملاحظاته المباشرة أو فى اهتمامه بجميع البلدان على قدم المساواة أو فى ضخامة المادة التى ينقلها عن المؤلفين الآخرين . ومن الطريف أن نلاحظ أن ياقوت كان على علم بهذا المعجم ولكن لم يستطع الإفادة منه مباشرة ، وهو يقول ما نصه : « ولم أره بعد البحث
عنه والتطلب له » [٤٧] . وهو من وقت لآخر /يورد ذكره عن مصادر أخرى [٤٨] ؛ واستشهاداته 280
من البكرى كثيرة [٤٩] ولكن نظرًا لأنه يتحدث أحيانًا عن كتابه « المسالك والممالك » [٥٠] فمن الراجح أن يكون قد أخذها بأجمعها من هذا المصنف الأخير . وإذا حدث وأن وقفنا موقف التحفظ من شهادة دوزى الحماسية عن البكرى فإنه يتحتم علينا موافقته فى أن البكرى هو أكبر جغرافيى الأندلس ، وإن لزم أن نستدرك على ذلك بإضافة « أى للمدرسة اللغوية » .

ويجب ألا يقتصر الاستدراك على الأندلس وحدها، ذلك أنه منذ القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ظل عدد كبير من المصادر الأدبية ، وبوجه خاص التاريخية ، يقدم مادة جغرافية ، إلا أن الأدب الجغرافى نفسه بدأ يتخذ شيئًا فشيئًا طابع التجميع لما خلفه المؤلفون السابقون . ولم يلبث حجم هذه المادة أن تزايد بشكل ملحوظ بحيث تولدت الرغبة فى توحيد جميع المعطيات التى جمعتها الأجيال السابقة بطرق شتى فى قالب أدبى . ومما زاد فى تعقيد المسألة أن مفهوم الوحدة الجغرافية للعالم الإسلامى انكمش شيئًا فشيئًا نتيجة لاختلاف المصير التاريخى الذى أحاط بكل قطر من أقطاره . وإلى جانب كل هذا فقد قوى الاتجاه نحو الغريب والخارق والخارج عن المألوف ، بالصورة نفسها التى انعكس فيها هذا فى المصنفات الجغرافية المتأخرة التى ظهرت باللاتينية فى أوروبا الوسيطة [٥١] .

---

(٤٦) -Dozy, Recherches, I, 1849, p. 304-305

(٤٧) ياقوت المعجم ، الجزء الأول ، ص ٧ – ٨ -Heer, p. 21

(٤٨) شرحه ص ٨٠١

(٤٩) شرحه ، الفهرس ، الجزء الخامس ، ص ٣٥٠

(٥٠) شرحه ، الجزء الأول ، ص ٣٠٢ ، ٦٥٣ ، ٨٦٢

(٥١) -Kramers, EI EB, p. 68

ولعل الجهد فى البحث عن نمط جديد يمكن تفسيره على ضوء ظهور اتجاه جديد فى هذا العصر يرمى إلى الربط بين الجغرافيا الوصفية والجغرافيا الفلكية مرة أخرى . وهذا الاتجاه يبدو واضحًا عند الإدريسى بالذات ، ولكن يقابلنا أيضًا عند غيره ليس بدرجة أقل . وقد حدث أن مر بنا فى أحد الفصول الأولى من هذا الكتاب ذكر الزهرى جغرافى الأندلس لمنتصف القرن الثانى عشر وكيف ركّز جهده فى وصف ما سميت « بالخارطة المامونية للعالم » . وكما رأينا فإن تقسيمه الأرض إلى ستة أقاليم تحيط بإقليم سابع يقع فى مركزها وينقسم كل منها إلى ثلاثة أقسام إنما يرجع فى الأرجح إلى النظريات الإيرانية القديمة عن الكشورات السبع التى تنعكس فى إحدى خارطات البيرونى . ومما يدعو إلى الأسف أن تحليل هذه المشكلة يزيد من صعوبته عدد من النقاط الغامضة التى تحيط بالمؤلف نفسه ، وأيضًا ذلك اللبس الذى يكتنف مخطوطات مصنفه(٥٢) ؛ وعلى أية حال فقد ثبت فى الآونة الأخيرة أن اسمه هو محمد بن أبى بكر الزهرى ويظن أنه عاش بغرناطة حوالى عام ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ ؛ ولما لم تكن الآراء متفقة اتفاقًا تامًا حول اسمه فإن البعض يدعونه وفقًا لرأى دوزى بمؤلف المرية المجهول Anonyme d' Almerie(٥٣) . والمقتطفات التى نشرت عن مخطوطاته المختلفة / تتناول بوجه خاص مراكش والأندلس وصقلية(٥٤) ؛ وقد أفرد للأندلس فى 281
مصنفه عناية أكبر . أما تبويب الكتاب فيتمشى برمته مع وصف الأقاليم على التوالى ، كما يبدو من معطياته فى الجغرافيا الفلكية ميل واضح إلى جميع أنواع العجائب(٥٥) ؛ وهو فى هذا الصدد يقص علينا حكاية من أكثر الحكايات تفصيلا وقيمة ، تلك هى أسطورة الشجرة المسحورة بجزائر واق الواق بالصين التى تثمر أشجارها كل عام نساءً بدلا من الفاكهة(٥٦) .

وخير مثال لمحاولة التقريب بين الجغرافيا الوصفية والفلكية ، وهى محاولة لم تكلل بالنجاح التام ، هو كتاب الإدريسى Idrisi (أو Edrisi كما تعود أن يكتبه الأوروبيون منذ القرن السابع عشر) . وهو أبعد من أن يكون أكبر الجغرافيين قاطبة داخل الإطار العام لتطور الأدب الجغرافى العربى ، بل ولا نستطيع أن نضعه فى مصاف العلماء المبرزين الممتازين ؛ ورغمًا من ذلك فكتابه

---

(٥٢) -Brockelmann, GAL, I, p. 476, No 3; SBI, p. 876 —Sarton, Introduction, II, p. 221, Kramers, EI, EB, p. 64-65, 69 —Amari (Nallino, I,) p. 60-61, No 27

(٥٣) -Dozy, Recherches, II, 1881, Appendice XXXV, p. LXXX1X

(٥٤) راجع تعدادها لدى : Basset, Extraits, p. 619 —Griffini, Estratti, p. 414-420

(٥٥) -Basset, Extraits

(٥٦) الترجمة والتحليل لدى : Ferrand, EI, IV, p. 1198
وأيضًا بحثه : Le Wakwak, p. 201-202

أكثر الكتب الجغرافية باللغة العربية رواجًا وصيتًا فى أوروبا، إذ ليس هناك مؤلف حفظ لنا معطيات وافرة ذات قيمة كبرى عن أوروبا كما فعل الإدريسى . وقد مر وقت كان فيه الممثل الوحيد للأدب الجغرافى العربى(٥٧) فى الدوائر العلمية الأوروبية ، أضف إلى هذا أنه لم يظهر مصنف مماثل له فى وسط مثل الوسط الذى ظهر فيه ، وهو ذلك الوسط الفريد نصف العربى ونصف الأوروبى الذى تقدمه لنا صقلية فى ذلك العهد . ورغمًا من هذا الاهتمام الكبير بالإدريسى ، والذى يرجع إلى عهد قديم ، فإن معلوماتنا عن سيرة حياته نزرة للغاية ، وهى جميعها فى جوهرها إما أن تكون قد استمدت من كتابه نفسه أو أنها تمثل روايات ترددها الأحاديث المنقولة وظل مصدرها مجهولا بالنسبة لنا .

وينتمى أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس إلى بيت الأدارسة العلويين الذين طالبوا وقتًا ما بأحقيتهم فى الخلافة ، ولهذا السبب فقد اشتهر مؤلفنا باسم الشريف الإدريسى . وكان مؤسس دولة الأدارسة وهو إدريس الأول قد هرب من المشرق إلى المغرب الأقصى وأسس إمارة مستقلة بنواحى سبتة Ceuta عام ١٧٢ هـ = ٧٨٩، ونال الشهرة بعد وفاته عام ١٧٧ هـ = ٧٩٣ كولىّ ولا يزال يتمتع بهذا الصيت فى افريقيا إلى أيامنا هذه. ويرتبط باسم ابنه إدريس الثانى (١٧٧ هـ-٢١٣ هـ = ٧٩٣-٨٢٨) تأسيس مدينة فاس؛ ولم تعمّر دولتهم لأكثر من عام ٣٧٥هـ = ٩٨٥. أما أجداد الإدريسى المباشرون فكانوا أمراءاً صغاراً بمالقة Malaga، وهم أيضاً لم يستطيعوا الاحتفاظ طويلا بسلطانهم فاضطروا إلى الرجوع إلى سبتة فى القرن الحادى عشر، وهناك فيما يبدو ولد الإدريسى فى عام ٤٩٣ هـ = ١١٠٠(٥٨).

282 ويلوح أن صلة الأسرة بالأندلس لم تنفصم فالإدريسى نفسه تلقى العلم بقرطبة التى ظلت مركزًا ثقافيًا كبيرًا . وهو قد عرف قرطبة معرفة جيدة ، فالوصف الشامل الذى أفرده لها فى كتابه يحمل جميع آثار المعرفة المباشرة بالمدينة(٥٩) . وقد بدأ الإدريسى أسفاره منذ سن مبكرة فزار أماكن لم تكن مألوفة فى ذلك العصر. ومعرفته الواسعة بالأندلس ومراكش ليست أمراً غريباً، ولكن يبدو من مواضع مختلفة من كتابه أنه زار لشبونة وسواحل فرنسا بل انجلترا ؛ وفى عام ٥١٠ هـ = ١١١٦ ، وهو لما يتجاوز السادسة عشرة من عمره زار آسيا الصغرى . وهذا جميع ما أمكن استنتاجه بالتحديد بشأن رحلاته ؛ والظاهر أنه لم ير بقية افريقيا وآسيا . وفى عام ١١٣٨ عبر

---

(٥٧) -Kramers, Legacy, p. 89

(٥٨) عن التواريخ راجع : Seybold, Edrisiana, p. 596, note 1

(٥٩) -Dozy et de Goeje, p. III

البحر فى ظروف يشوبها الغموض إلى جزيرة صقلية حيث كان بلاط روجر الثانى ببالرمو. وقد ظل الإدريسى وثيق الصلة بروجر إلى وفاة الأخير فى فبراير من عام ١١٥٤ [٦٠]؛ ثم مرت عليه وهو بصقلية لحظات قلقة فى عهد خليفة روجر، ولكنه رجع فى أيام شيخوخته فيما يبدو إلى مسقط رأسه سبتة وتوفى بها فى عام ٥٦٠ هـ = ١١٦٠ على أرجح الأقوال[٦١].

وبمدينة بالرمو تقترن ذكرى أنضر فترة فى حياة الإدريسى، وببالرمو أيضًا يقترن كتابه الكبير « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق »[٦٢]. وقد انبعثت فكرة الكتاب فى عصر ازدهار حضارة صقلية تحت حكم النورمان ويرجع الفضل فى ظهوره إلى روجر الثانى نفسه. ويؤكد هذا القول ألفاظ المؤلف نفسه فى مقدمة الكتاب حيث يبين فى وضوح وجلاء دور الملك النورمانى فى ذلك، ويصف لنا بالكثير من الحيوية الظروف الفريدة التى تم فيها تنفيذ هذه الفكرة الرائعة لإخراج مصنف جامع فى الجغرافيا. ففى خاتمة تمجيده لراعيه وولى نعمته يقول الإدريسى:

« فمن بعض معارفه السنية ونزعاته الشريفة العلوية أنه لما اتسعت أعمال مملكته وتزايدت همم أهل دولته واطاعه البلاد الرومية ودخل أهلها تحت طاعته وسلطانه أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ويقتلها يقينًا وخبرة ويعلم حدودها ومسالكها برًا وبحرًا وفى أى إقليم هى وما يخصها من البحار والخلجان الكاينة بها مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار فى الأقاليم السبعة/التى اتفق عليها المتكلمون وأثبتها فى الدفاتر الناقلون والمؤلفون، وما لكل إقليم منها من قسم بلاد يحتوى عليه ويرجع إليه ويعدّ منه بطلب ما فى الكتب المؤلفة فى هذا الفن من علم ذلك كله مثل كتاب العجائب للمسعودى وكتاب أبى نصر سعيد الجيهانى وكتاب أبى القسم عبيد الله بن خرداذبه[٦٣] وكتاب أحمد بن عمر العذرى وكتاب أبى القسم[٦٣] محمد الحوقلى البغدادى وكتاب جاناخ بن خاقان الكيماكى وكتاب موسى بن قاسم القردى وكتاب أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبى وكتاب إسحق بن الحسن المنجم وكتاب قدامة البصرى وكتاب بطلميوس الأقلودى وكتاب أرسيوس 283

---

(٦٠) - Miller, I, heft 2, p. 41

(٦١) -Seybold, Al-Idrisi, p. 480
(Brockelmann, GAL, SBI, p. 876 = ١١١٦ : غير صحيح)
Kramers, EI,EB, p. 68 (٥٥١ هـ = ١١٥٦ مشكوك فيه)

(٦٢) تحمل طبعة ١٥٩٢ الترجمة اللاتينية للعنوان وهى :
Oblectatjo desiderantis in descriptione civitatum principalium et tractatuum et provinciarum et insularum et urbium et plagarum mundi. Roma, 1592 (قارن Schnurrer, p. 167, من أسفل)

(٦٣) هكذا فى المتن

الأنطاكى ، فلم يجد ذلك فيها مشروحًا مستوعبًا مفصلا بل وجده فيها مغفلا فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن فباحثهم عليه وأخذ معهم فيه فلم يجد عندهم علما أكثر مما فى الكتب المذكورة ، فلما رآهم على مثل هذه الحال بعث إلى سائر بلاده فأحضر العارفين بها المتجولين فيها فسألهم عنها بواسطة[٦٤] جمعًا وأفرادًا فما اتفق فيه قولهم وصح فى جمعه نقلهم أثبته وأبقاه ، وما اختلفوا فيه ألغاه وأزجاه ، وأقام فى ذلك نحوًا من خمس عشرة سنة لا يخلى نفسه فى كل وقت من النظر فى هذا الفن والكشف عنه والبحث عن حقيقته إلى أن تم له فيه ما يريده ثم أراد أن يستعلم يقينًا صحة ما اتفق عليه القوم المشار إليهم فى ذكر أطوال مسافات البلاد وعروضها[٦٥] فأحضر إليه لوح الترسيم[٦٦] وأقبل يختبرها بمقاييس[٦٧] من جديد شيا فشيا مع نظره فى الكتب المقدّم ذكرها وترجيحه بين أقوال مؤلفيها وأمعن النظر فى جميعها حتى وقف على الحقيقة فيها فأمر عند ذلك أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة[٦٨] عظيمة الجرم ضخمة الجسم فى وزن
أربعمائة رطل بالرومى فى كل رطل منها/مائة درهم واثنا عشر درهمًا[٦٩] فلما كملت أمر الفعلة أن 284
ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وسيفها وريفها وخلجانها وبحارها ومجارى مياهها ومواقع أنهارها وعامرها وغامرها ومابين كل بلد منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة والمسافات المشهودة والمراسى المعروفة على نص ما يخرج إليهم ممثلا فى لوح الترسيم ولا يغادروا منه شيئًا ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم لهم فيه وأن يولفوا كتابًا مطابقًا لما فى أشكالها غير أنه يزيد عليها بوصف أحوال البلاد والأرضين فى خلقها وبقاعها وأماكنها وصورها وبحارها

---

(٦٤) Amari (Nallino), III, p, 462, note 1 —Tallgren, Finlande p. 5, note 2

(٦٥) لا يتعلق الأمر بالتحديد الفلكى للأطوال والعروض ؛ راجع : Amari (Nallino), III, p. 463, note 2, وذلك على نقيض تالغرين (Tallgren, Finlande, p. 5, note 3)

(٦٦) إن فكرة إمارى Amari عن لوح مبيّنة عليه خطوط الطول والعرض يرفضها نالينو Nallino راجع : Amari (Ñallino), III, p. 690-691, note 3

(٦٧) الدائرة = Amari (Nallino) III, p. 463: Compasso-

(٦٨) يعتقد أمارى (Amari (Nallino), III, p. 464, note 1) أنه بيّن عليها خط الاستواء والخطوط الأفقية الفاصلة بين الأقاليم إلى الشمال منه، وأيضاً الخطوط الرأسية التى تفصل بين الأجزاء العشرة لكل إقليم.

(٦٩) وفقاً لرأى نالينو (Amari (Nallino), III, p. 364, note 1) فإن الرطل يساوى ١٤١,٠٣٠ كيلو جرامًا ، وفقاً لرأى ميلر Miller حوالى ١٥٠ كيلو جراما ,(Miller 1, 2, 39) ; أما قطر الدائرة ، فقد كان وفقاً لرأي أمارى Amari ١,٩٠ متراً.

وجبالها وأنهارها ومواتاتها ومزروعاتها وغلاتها وأجناس بنائها وخواصها والاستعمالات التى تستعمل بها والصناعات التى تنفق بها والتجارات التى تجلب إليها وتحمل منها والعجائب التى تذكر عنها وتنسب إليها وحيث هى من الأقاليم السبعة مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزينهم وملابسهم ولغاتهم وأن يسمّى هذا الكتاب بنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق وكان ذلك فى العشر الأول من ينير الموافق لشهر شوال الكائن فى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة فامتثل فيه الأمر وارتسم الرسم »[٧٠] .

فإذا أغضينا النظر عن المحسنات البديعية فى المقدمة فإنه ليس هناك ما يدعو إلى التشكك فى صحة الوقائع التى يوردها . حقًا إن المصادر الغربية لا تتحدث عن نشاط خاص لروجر فى ميدان الجغرافيا غير أن كلام الإدريسى يحمل جميع مقومات الصحة والواقع ، خاصة على ضوء ظروف الحياة الثقافية بصقلية فى ذلك العهد . كما ليس هناك ما يدعو إلى التشكك فى تاريخ إتمام الكتاب وهو يناير ١١٥٤ ، أى قبل أسابيع من وفاة روجر . ومعلوم أن الملك النورمانى كان فى أيامه الأخيرة فريسة لمرض عضال لا يرجى الشفاء منه ، ولعل الرغبة فى أن يرى الكتاب الذى ترجع فكرة ظهوره إليه تامًا كاملا قبل أن يغادر الحياة تفسر طابع العجلة الذى اتسم به مؤلف الإدريسى فى أكثر من موضع خاصة فى القسم الثانى منه . وليس اعتباطًا أن يذكر أن روجر شغل بالموضوعات الجغرافية زهاء خمسة عشر عامًا ،/إذ لو أخرجنا هذا الرقم من تاريخ إتمام الكتاب 285
فإننا نحصل على عام ١١٣٩ ؛ ومعلوم لدينا من المصادر الغربية أنه عقب صلح سان جرمانو San Germano ، وفى الخامس والعشرين من يوليو بالذات من ذلك العام ، أنهى روجر بنجاح حروبه الطويلة واستطاع أن يمكّن لسلطانه فى صقلية وجنوبى إيطاليا[٧١] ومن ثم فيمكنه حينئذ أن يشغل نفسه بنشاط سلمى .

ويمكن أن نلاحظ بعض التناقض فى مخطوطات الكتاب المختلفة — ولعل مرد ذلك إلى أن

---

(٧٠) وفقًا لمتن امارى Amari واسيكاباريللى Schiaparelli
(M. Amari e C. Schiaparelli, L'Italia, p. 4-6; translation, p. 4-8;
مع تحليل امارى (Amari (Nallino), III, 2, p. 461-466) —
Amari, Bibl. ar. Sic, p. 17 - 19 راجع : أيضاً المتن لدى Tallgren, Finlande, p. 4-7 -
والترجمة فى الجزء الأول ص ٣٥ ـ ٤٣
Jaubert, I, p. XVI-XVII = de Slane, وهى نقد لجوبير p. 362-385 = Miller, 1, 2, p. 37 sui =
Reinaud, Introduction, p. CXVI- CXVIII —Carra de Vaux, Les Penseurs, II, p. 25

(٧١) -Amari e Schiaparelli, L'Italia, p. III

المؤلف قد ترك مسودات عديدة للكتاب – حول الدور الذى لعبه الإدريسى نفسه فى وضع الكتاب إذ يدور الكلام فيه بضمير الغائب ؛ غير أن العنوان قد ينسب إليه أحيانًا وليس إلى روجر . هذا ولا يرقى الشك إلى أنه مؤلف هذا الكتاب ؛ ولعله مما يكمل الفائدة التى جنيناها من افتتاحيته لو أضفنا إلى ذلك رواية لمؤلف مشهور من أهل القرن الرابع عشر وهو الصفدى (توفى عام ٧٦٤ هـ = ١٣٦٣) الذى لم يقف عند حد الإفادة من تلك الافتتاحية بل ضم إليها موادًا أخرى كما يتبين من بعض الحكايات التى يسوقها . قال :

« رجّار ملك من الفرنج صاحب صقلية هلك بالخوانيق سنة ثمان وأربعين وخمسمائة . ويقال فيه أجّار بهمزة بدل الراء وجيم مشددة وبعد الألف راء – كان فيه محبة لأهل العلوم الفلسفية . وهو الذى استقدم الشريف الإدريسى صاحب كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، من العدوة إليه ليضع له شيئًا فى شكل صورة العالم . فلما وصل إليه أكرم نزله وبالغ فى تعظيمه . فطلب منه شيئًا من المعدن ليدع منه ما يريد ، فحمل إليه من الفضة الحجر وزن أربعمائة ألف درهم فصنع منها دوائر كهيئة الأفلاك وركب بعضًا على بعض ثم شكلها له على الوضع المخصوص . فأعجب بها رجّار ودخل فى ذلك ثلث الفضة وأرجح بقليل وفضل له مايقارب الثلثين فتركها له إجازة وأضاف لذلك مائة ألف درهم ومركبًا مساقًا كان قد جاء إليه من برشلونة بأنواع الأجلاب الرومية التى تجلب للملوك – وسأله المقام عنده وقال له أنت من بيت الخلافة ومتى كنت بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك ومتى كنت عندى أمنت على نفسك . فأجابه إلى ذلك ورتب له كفاية لا تكون إلا للملوك . وكان يجىء إليه راكبًا بغلة فإذا صار عنده تنحى له عن مجلسه فيأبى فيجلسان معًا – فقال له أريد تحقيق أخبار البلاد بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب فوقع اختيارهما على أناس ألباء فطناء أذكياء وجهزهم رجار إلى أقاليم الشرق والغرب جنوبًا وشمالا وسفر معهم قومًا مصورين ليصوروا ما يشاهدونه عيانًا وأمرهم بالتقصى والاستيعاب لما لابد من معرفته . فكان/إذا 286
حضر أحد منهم بشكل أثبته الشريف الإدريسى حتى تكامل له ما أراد وجعله مصنفًا وهو نزهة المشتاق الذى للشريف الإدريسى » .(٧٢)

---

(٧٢) المتن لدى : Tuulio, Du Nouveau, p. 226-228
راجع أيضًا : Amari, Bibl. ar-Sic., p. 657-658
Tallgren, Finlande, p. 8 (قطعة) – الترجمة : – Amari (Nallino), III, 2.
p. 467-468; Amari, Bibl. ar-sic., II, p. 564-565 —Reinaud,
قارن : Introduction, p. CXIV-CXV —Carra de Vaux, Les penseurs, II, p. 11 Miller, I, 2, p. 37-38 —Pizzi , p. 331-333
وعن مخطوطة نزهة المشتاق فى باريس (مجموعة Asselin) وبالقاهرة ، راجع :
Dehérain, De Sacy, p. 97, 111

وروجر الذى عاش على الحد الفاصل بين الحضارتين العالميتين لذلك العصر كان على معرفة جيدة بالاثنتين ، وتكليفه لعالم عربى بالذات بوضع وصف للعالم المعروف آنذاك لدليل ساطع على تفوق الحضارة العربية فى ذلك العهد وعلى اعتراف الجميع بهذا التفوق . وقد كان بلاط النورمان بصقلية نصف شرقى ، هذا إذا لم يكن أكثر من النصف ؛ وتشهد على هذا مختلف المصادر بما فى ذلك الأشعار العربية التى كانت تنشد فى صقلية فى عهد روجر(٧٣) ؛ ولم يكن الإدريسى هو الوحيد الذى مجد من شأن روجر . ورغبة روجر فى الحصول على مصور للعالم يعمل خاصة من أجله تنعكس فيها نزعة شرقية صرفة . وإذا ما صرفنا النظر عن المحاولات الموغلة فى القدم للإسكندر وملوك إيران فى هذا الشأن فإننا نذكر بلا ريب أنه قد مرت بنا فى هذا الكتاب محاولتان شبيهتان بهذه . ولا شك أن اهتمام المامون بالجغرافيا(٧٤) ، وعلى الأخص بعمل « الخارطة المامونية » إنما يرجع فى الأصل إلى رغبته فى تكوين فكرة عن العالم الخاضع لسلطانه . وهذه الفكرة نفسها قد طبقتها المدرسة الكلاسيكية على دولة السامانيين(٧٥) .

يفهم من افتتاحية الإدريسى وكلام الصفدى أن العمل فى الكتاب قد مر بثلاثة أطوار وخلف وراءه ثلاثة آثار — أحدها أنموذج فريد فى نوعه للكرة السماوية وهو عبارة عن قرص من الفضة مرسوم عليه صورة العالم ؛ وثانيها خارطات على نسيج من القطن ، وثالثها هو الكتاب الذى يحمل العنوان الذى مر بنا . وقد ثبت أن أقلها دوامًا ومقاومة لطوارق الحدثان كانت الكرة الفضية التى يقال بأن الثوار حطموها ونهبوها عند اقتحامهم لقصر روجر فى عهد خلفه سنة ١١٦٠(٧٦) . ومن حسن الحظ أن الكتاب والخارطة قد حفظا لنا فى مخطوطات عديدة ولكنها بالتأكيد ليست معاصرة للمؤلف بأى حال من الأحوال ، كما وأنها ليست كاملة دائمًا . بل إنه توجد إلى جانب ذلك مسودات مختلفة لهما ، ولكن على الرغم من ذلك تمكّن فى مجموعها من بناء متن الكتاب والأطلس معًا . وقد بلغ عدد المخطوطات حاليًا حدًا كبيرًا ، فإلى جانب المخطوطتين المعروفتين
منذ النصف الأول للقرن التاسع عشر وهما مخطوطتا باريس وأكسفورد ، تنضم فى أوائل هذا القرن/ 287
مخطوطات استنبول ومخطوطة القاهرة(٧٧) . أما مخطوطة لنينجراد التى تحتوى على القسم الثانى من

---

(٧٣) -De Slane. review of Jaubert, p. 365-372

(٧٤) -Kramers, Legacy, p. 89

(٧٥) شرحه ص ٩٠

(٧٦) -Miller, 1, 2, p. 39 —Tallgren, Finlande, p. 6, note 1

(٧٧) -Seybold. Al-Idrisi, p. 480-Miller, p. 44-46—Hoenerbach, Idrisi, p. 3-7—Tallgren, Finlande, p. 15-19 —Tuulio, Du nouvean, p. VII-IX

الكتاب وحده ، والتى وصلت إلى المكتبة العامة من إيران فى عام ١٨٩٧[٧٨] فقد كان زيبولد Seybold هو أول من أورد ذكرها فى الأدب العلمى الأوروبى[٧٩] ، ثم عكف على دراستها ميلر Miller[٨٠] وتوليو Tuulio[٨١] حينًا ما وسار على نهجهما بعض العلماء السوفيت مثل فولين Volin[٨٢] وبترون Petrun[٨٣] . ورغمًا من ذلك فإنها لا تزال فى حاجة ماسة إلى بحث خاص لما لها من أهمية . ويبدو أن الأمل فى العثور على نسخ من كتاب الإدريسى لايزال يراود الكثيرين حتى الآونة الأخيرة ، فمنذ خمسة أعوام تقريبًا تواترت الأنباء بالكشف عن مخطوطة له فى شومين Shumen ببلغاريا[٨٤] ، إلا أن تقصى صحة هذا الزعم لم يتم مع الأسف . كذلك يحتاج إلى التقصى والتحقيق الزعم القائل بوجود كتاب الإدريسى فى إحدى مجموعات المخطوطات بمدينة الموصل[٨٥] ، ولعل الأمر كله يدور حول الطبعة القديمة التى عملت برومه كما حدث ذلك أكثر من مرة فيما يتعلق بفهارس مكتبات استنبول .

وعلى الرغم من العدد الكبير لمخطوطات الكتاب فإن من العسير القول بأن دراسة مؤلف الإدريسى بتمامه قد بلغت الدرجة المنشودة من الكمال ؛ والطبعة الوحيدة التى تشمل أصل الكتاب طبعت عام ١٥٩٢ بمطبعة المديتشى Medici المشهورة برومه تحت عنوان مطوّل هو « نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق »[٨٦] . وقد أصبحت هذه الطبعة نادرة الوجود وهى تمثل واحدة من أقدم الطبعات التى ظهرت فى أوروبا بالحروف العربية ، هذا بجانب أنها لا تقدم كتاب الإدريسى فى صورة مرضية لأنها تمثل رواية موجزة إيجازًا مخلًا يرجع تاريخها إلى فترة متأخرة وعملت بنابلس من أعمال فلسطين فى عام ٩٤٤ هـ = ١٥٣٨ وأصلها محفوظ بباريس[٨٧] . وتمثل أهمية تاريخية بالصورة نفسها فحسب تلك الترجمة اللاتينية

---

(٧٨) -Ochet Imp. Publ. bibl. za 1897, p. 80 - 81

(٧٩) -Seybold, Al-Idrisi, p. 481

(٨٠) -Miller, 1, 2, p. 46

(٨١) -Tallgren, Finlande, p. 16

(٨٢) -Volin, Al-Idrisi p. 220-222

(٨٣) - Petrun, Jurnal Nauchno-Issledovatelskoi Kafedry g. Odessy, 1, 7; II, 2.

(٨٤) -Kassner, Peterm. Mitteilungen, 79, 1933, p. 304

(٨٥) داود الجلبى ، مخطوطات ، ص ٥٣ ، رقم ٩٣

(٨٦) -Schnurrer, p. 167-168, No 187

(٨٧) -Saavedra, p. 226 —De Slane, Catalogue, p. 391, No 2223 (القديم ، رقم 894)

-Miller, 1, 2 p. 43 — طمس

لهذه الطبعة التى ظهرت بباريس عام ١٦١٩ والتى قام بها عالمان مارونيان Maronites كانا يشتغلان بتدريس اللغات الشرقية وهما يوحنا الحصرونى Joannes Hesronita وجبريل الصهيونى Grabriel Sionita[٨٨] . وهى تحمل عنوان/« جغرافيا النوبى » Geographia 288 Nubiensis ، وهى تسمية قادت إلى تثبيت خطأ فاحش بصدد المؤلف استمر لمدة قرنين فى الدوائر العلمية الأوروبية ذلك أنه بسبب جهلهما باسم المؤلف فقد قرر المترجمان أنه نوبى الأصل ، لأنه فى الموضع الذى يرد فيه الكلام عن أن النيل يقطع أرض النوبة قرأ المترجمان « أرضنا » بدلا من « أرضها »[٨٩] ، أى أرض النوبة . أما الترجمة الكاملة لمتن الإدريسى فقد ظل العلم الأوروبى فى انتظارها إلى منتصف القرن التاسع عشر حينما ظهرت باللغة الفرنسية فى جزأين (١٨٣٦ – ١٨٤٠) بقلم جوبير Jaubert (١٧٧٩ – ١٨٤٧) ، وهو أحد العلماء الذين اشتركوا فى حملة بونابرت على مصر . هذه الترجمة التى صيغت فى لغة فرنسية رصينة واعتمدت على المخطوطة الباريسية (وهى ليست أفضل المخطوطات) ظفرت فى أول الأمر بتقدير عال ولكن عكوف العلماء بالتالى على دراسة الإدريسى سرعان ما كشف عن عيوبها الأساسية بحيث لم تعد ترضى المطالب العلمية . وقد قام دوزى ودى خويه[٩٠] بتحليل مفصل للأخطاء الجسيمة الموجودة بها ، ومنذ ذلك الحين أعلن عدد من العلماء بأنه ليس من المستطاع الركون إليها فى أى بحث جدى[٩١] . لذا فإنه من الواجب إلى يومنا هذا الاعتماد على المخطوطات أو على الدراسات المفردة للأقسام المختلفة من الكتاب ، وبهذه الطريقة وحدها يمكن تقدير كتاب الإدريسى فى مجموعه تقديرًا صحيحًا .

وإلى جانب العنوان المشهور الذى مر ذكره آنفًا فإن كتاب الإدريسى يحمل أيضًا عنوانًا آخر واسع الانتشار هو « كتاب رجّار » أو « الكتاب الرجّارى » نسبة إلى راعيه وولى نعمته . وليس هناك فى الواقع أساس للتشكك فى أن الكتاب قد تم تأليفه فى يناير ١١٥٤ ، ولكن يجب ألا يفهم من هذا أن الإدريسى لم يجر فيه بيد التعديل والإضافة ؛ ويستدل من التباين فى المخطوطات على إمكان وجود مسودات شتى للكتاب . وقد استطاع الجغرافى الإيطالى باردى G. Pardi أن

---

(٨٨) -Schnurrer, p. 168 —Günther, Edrisi, p. 113-123

(٨٩) -Dozy et de Goeje, p. VI, note 1

(٩٠) شرحه ، ص ٦ – ٢١

(٩١) -Seybold, Edrisiana, p. 591

يستخلص[٩٢] من إغفال ذكر مدينة اسپوليتو Spoleto ، التى خربت بعد وفاة روجر ، أن المسودة الثانية للكتاب ، إذا جاز القول بذلك ، قد تم إعدادها بعد يوليو ١١٥٤[٩٣] .

وطريقة ترتيب كتاب الإدريسى بسيطة بالرغم من أنها لا تخلو من آثار الصنعة . فهو يقدم لنا فى أول الأمر وصفًا موجزًا للأرض التى يتصورها على شكل كرة طول محيطها اثنان وعشرون ألفًا وتسعمائة ميل ومعلقة فى الفضاء « كالمح فى البيضة » . وبعد وصف قصير للأقاليم والبحار والخلجان ينتقل إلى وصف سطح الأرض بالتفصيل . وهو يتبع فى هذا مذهب بطلميوس المعروف لنا بتقسيمه الأرض إلى سبعة أقاليم ، أى أحزمة عريضة فوق خط الاستواء ، غير أن الإدريسى أدخل على ذلك تجديداً بتقسيمه لكل إقليم من هذه الأقاليم السبعة إلى عشرة أجزاء رأسية هى التى يتفرغ لوصفها فى كتابه الواحد تلو الآخر مبتدئًا من الغرب ومتجهًا نحو الشرق . وكل وصف لجزء من هذه الأجزاء يرتبط بخارطة ، بحيث إذا ضمت هذه الخارطات السبعون
289 الصغيرة بعضها إلى بعض لتكوّن/من ذلك خارطة عامة لكل العالم على شكل مستطيل ، الأمر الذى يستحيل فعله مع « أطلس الإسلام »[٩٤] * . ويبدو جليًا أن العيب الأساسى لمثل هذا المنهج هو فى أن وصف قطر ما يأتى موزعًا بين عدد من القطع الصغيرة المبعثرة هنا وهناك ، بحيث يتطلب جمعها مجهودًا ملحوظًا .

وأهم الأجزاء بالطبع هى تلك التى أفردها لافريقيا الشمالية واسبانيا وصقلية ونواحى إيطاليا الأخرى لانها تعتمد قبل كل شيء ، وذلك خلافاً للأجزاء الأخرى ، على الملاحظة الشخصية للمؤلف[٩٥] . كذلك ينم وصفه لأوروبا الغربية (فرنسا وألمانيا واسكتلنده وإيرلنده وسواحل بحر الشمال) عن المقدرة والمهارة التى تتناسب مع الظروف العلمية لذلك العهد . وقد بلغت معرفة الإدريسى شمالا بلاد البلطيق فعرف سغتونا Sigtuna (« سقطون ») وفنمارك Finmark (« فنمارك ») وتافستلاند Tavastland (« طبست ») . أما ألمانيا وبولندا وروسيا فإن وصفها يرد فى دقة أقل بكثير وإن اشتمل على مجموعة من المعلومات المهمة[٩٦] . وقد ظفرت

---

(٩٢) -Pardi, p. 380 382

(٩٣) -Hoenerbach, Idrisi, p. I, note 3

(٩٤) -Kramers, EI, EB, p. 68 —Kimble, p. 57 —J. K. Wright, Geogr. Lore, p. 80-81

* تم بالفعل ضم بعضها إلى بعض وإخراج خارطة كبرى موحدة اهتم بطبعها المجمع العلمى العراقى وظهرت ببغداد منذ أعوام . (المترجم)

(٩٥) -Dozy et De Goeje, p. XXI

(٩٦) -Tomaschek, Zur Kunde, II, p. 4

رومانيا وسائر شبه جزيرة البلقان بتفصيل كبير ربما مرده إلى الحملات الصليبية التى كانت قد بدأت منذ عام ١٠٦٤ ، وأيضًا إلى نمو العلاقات التجارية بين الغرب الفرنجى – الرومانى والشرق الإغريقى – الصقلبى[٩٧] .

ويمكن اعتبار تحليل توماشك Tomaschek لرواية الإدريسى عن البلقان أنموذجًا لبقية أقطار أوروبا . فمادة الإدريسى فى هذا الصدد تمثل فى جوهرها تقريرًا عن الأحوال التجارية ، فضلا عن أن الطرق التى يصفها هى بدورها الطرق التجارية[٩٨] . وكانت شواطىء نهر الطونه Danube فى عهد الإدريسى تتمتع بشىء من الهدوء فكان يرد إليها بالتجارة مختلف الشعوب كالإغريق والبلغار والولاخيين (الأفلاق) Wallachians والقومان Komans * . وفيما بعد لعبت دورًا كبيرًا فى تلك التجارة الجمهوريات البحرية مثل البندقيـة Venice وجنـوا Genoa وتلتهماراغـوزة Ragusa ؛ ثم أخذ طرفًا بالتدريج تجار روسيا وبولندا والمجر وتلتها النمسا وبقية البلاد الألمانية إلى حدود الفلاندر Flanders[٩٩] . وقد استطاع الإدريسى أن يكوّن فكرة عن أهم المراكز والطرق التجارية برومانيا من خلال استماعه إلى روايات التجار من العرب واليهود والإغريق والفرنجة ؛ وتمثل روايته فى هذا الشأن محاولة مبكرة لم يستطع أن يقوم بها أحد فى بيزنطة فى ذلك العهد على الرغم من مجاورة بلادهم لتلك الأصقاع ؛ وهى لن تفقد قيمتها على مر الزمن[١٠٠] . ومعطياته عن الجغرافيا الطبيعية للبلقان طفيفة ولكنه يقدم لنا الكثير فى مجال التاريخ ، وأكثر من ذلك فى وصف الوضع الاقتصادى للإمبراطورية البيزنطية وبلغاريا فى القرن الثانى عشر[١٠١] . ولم يخل الأمر بالطبع فى
حالات معينة/من ضرورة إيضاح بعض المسائل الغامضة ؛ مثال ذلك أنه من غير المستطاع 290
الاعتماد على الإدريسى فيما يتعلق بتحديد المسافات والأبعاد بوجه خاص[١٠٢] . وهو حين يتكلم عن الميل لا يتضح دائمًا ما إذا كان يقصد بذلك اللوغا Leuga الفرنجية أم الميليا Miglia الإيطالية أم الميل العربى[١٠٣] . كذلك يحيط هذا الاضطراب نفسه بمفهوم مرحلة الطريق لديه

---

(٩٧) شرحه ، ص ٥

(٩٨) شرحه ، ص ٩ ، ٩١

* شعب من العنصر التركى كان يقطن سهوب روسيا الجنوبية وعرفه الروس باسم البلوفتسيين Polovtsi وعرفته المصادر الإسلامية باسم القبجاق . أما اسم القومان فهو الذى يقابلنا بالمصادر البيزنطية واللاتينية . (المترجم)

(٩٩) شرحه ، ص ١٥

(١٠٠) شرحه ، ص ٤ ، ٩١

(١٠١) شرحه ، ص ٩١

(١٠٢) شرحه ، ص ٦

(١٠٣) شرحه ، ص ٥

وهى التى كان يستعملها جنبًا إلى جنب مع الميل . وعلى أية حال فقد أثبت توماشك بصفة عامة أنه فيما يتصل بالمسافات القصيرة فإن الميل يساوى لديه ألفًا وخمسمائة وخمسة وخمسين مترًا (أى أنه أقل من الميل العربى المعتاد الذى يبلغ طوله ألفًا وثمانمائة وثمانية وسبعين مترًا) ، بينما تبلغ المرحلة البحرية نحوًا من المائة ميل فى اليوم (١٥٥ كيلو مترًا)[١٠٤] . وفى تحديده للطريق البرى بين كييف Kiev وفلاديمير فولنسكى Vladimir Volynski وكّد لفتسكى Lewicki صحة قياس الميل[١٠٥] ولكنه اختلف فيما يتعلق بمقياس المرحلة اليومية ، إذ لا يمكن فى رأيه أن تتجاوز العشرين ميلا (١١ و ٣١ كيلو مترًا)[١٠٦] .

ومن المؤكد أن الإدريسى لم يجد تحت تصرفه مادة مفصلة عن كل البلاد كما وجد عن البلقان . فمعلوماته عن الروس مثلا إنما هى تكرار لروايات ابن حوقل والجيهانى ، وهو يقسمهم إلى ثلاث قبائل[١٠٧] ، ولا يذكر من مدنهم الكبرى إلى جانب كييف ونوفغورود Novgorod إلا اسمولنسك Smolensk[١٠٨] التى حاول البعض أن يبصر فيها مدينة تموطرخان Tmutarakan[١٠٩] . وقد جاءت روايته على درجة من الضحالة حتى أنها لا تسمح بفهم ألفاظ أحد البحاثة الذى صرح بأن الخوارزمى هو مصدر الإدريسى عن أوروبا الشمالية والشرقية[١١٠] .

فإذا ما انتقلنا إلى الأقطار غير الأوروبية فإن الإدريسى لم يكن يعرفها معرفة مباشرة باستثناء افريقيا الشمالية ، بل ولم يستطع أن يجمع عنها مادة حافلة كالتى جمعها عن أوروبا بفضل استفهاماته وأسئلته المتواصلة . ويجب الاعتراف بأن مادته فى هذا الصدد ليست بذات قيمة تذكر ، بل إن الكثرة الغالبة من البحاثة لا تعترف لها بأية قيمة إطلاقًا . ويرى نالينو أن تخطيط بلاد آسيا وافريقيا غير الإسلامية عند الإدريسى إنما يعتمد على بطلميوس الذى استعمله فى الترجمات والتعديلات العربية[١١١] . وإلى هذه النتيجة نفسها وصل مجيك الذى بين أن الإدريسى إنما

(١٠٤) شرحه : ص ٥ – ٦

(١٠٥) -Lewicki, Al-Idrisi, p. 95

(١٠٦) شرحه ، ص ٩٨

(١٠٧) توضيح جديد : Validi, Ibn Fadlan, p. 320-321

(١٠٨) -Garkavi, Trudy III Archeologich Syezda, I, p. 345-352

(١٠٩) -Grushevski, p. 34-35

(١١٠) -Mzik, Osteuropa, p. 193

(١١١) -Nallino, Al-Huwarizmi, p. 39, No 2, 42 - 44, 52

يعتمد إعتمادًا كليًا على بطلميوس فى معلوماته عن داخل افريقيا بحيث يضحى من العسير اعتباره مصدرًا مستقلًا فيما يختص بتلك المناطق(١١٢) . وعلى الرغم من قسوة هذه الأحكام إلا أنه من المستطاع أحيانًا تلمّس بعض/فوائد معينة لديه ، فبعض مؤرخى الجغرافيا يرى أن الإدريسى فى 291
وصفه لافريقيا لم يترسّم خطا بطلميوس دون وعى ؛ فوصفه لمجرى « النيل الغربى » ، أى نهر النيجر Niger ، قد وكدت صحته الاكتشافات الجغرافية فى القرن التاسع عشر . وهو على معرفة جيدة بالتجارة مع داخل افريقيا وقد أورد أسماء المراكز التى ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية فى ذلك الوقت مثل غانا وسلّا وتكرور(١١٣) .

أما اعتماده على بطلميوس فيما يتعلق ببلاد الشرق الأقصى فأمر لا يرقى إليه الشك ، وقد أثبت هذه الحقيقة بعد تحليل معلوماته عن الصين مثلا كل من ريختهوفن Richthofen(١١٤) ويول Yule . ومعلوماته عن جنوب شرقى آسيا بما فى ذلك الهند ضحلة للغاية ويشوبها الاضطراب(١١٥) ؛ وكثير من الأسماء الجغرافية فى هذا القسم ترتفع إلى بطلميوس ولكن هناك أسماء أخرى لم يمكن تحديدها بدقة إلى الآن(١١٦) . وعلى الرغم من هذا النقد الشديد فإن هذا القسم بدوره لا يخلو من بعض النتائج الإيجابية ؛ وتعليقات فيران على الجزء الخاص بالهند(١١٧) يؤكد إمكانية الحصول على معطيات قيمة فى وصف تلك البلاد ترتفع فى معظمها إلى الجيهانى(١١٨) * . وقد لا يؤدى أحيانًا تحليل مادة الإدريسى إلى نتائج قاطعة فالنتف التى أوردها عن الغز Guzz والتى ترجمت منذ عهد غير بعيد (القسم الثامن من الإقليم الخامس)(١١٩) تدل على أنه بجانب اعتماده فيما يبدو على رواية الجيهانى فإن الإدريسى يورد عددًا من الأسماء لم يمكن العثور عليها فى مصنفات المؤلفين الآخرين(١٢٠) .

---

(١١٢) -Mzik, OLZ, XV, p. 403

(١١٣) -Kimble, p. 59

(١١٤) -Miller, 1, 2 p. 42

(١١٥) -Yule-Cordier, 1, p. 141

(١١٦) شرحه ، ص ١٤٣

(١١٧) شرحه ، ١٧٢ – ١٩٩

(١١٨) -Beazly 1, p. 435

* نشر وترجم الجزء المتعلق بالهند العلامة الهندى مقبول أحمد الأستاذ بجامعة عليكرة . (المترجم)

(١١٩) -Volin, Al-Idrisi, p. 220-222

(١٢٠) شرحه ، ص ٢٢٠ ، رقم ١

ويمكن الحكم على مصادر الإدريسى لا من تحليل أقسام الكتاب المختلفة فحسب ، بل ومن ملاحظاته الشخصية فى افتتاحية الكتاب كما رأينا ذلك فى حينه . ومن العسير القول بأنه استهدف استيعاب جميع المصادر المكتوبة التى كانت فى متناول يده . ونصف مجموع الأسماء الجغرافية التى يذكرها يرجع فى الأصل إلى مؤلفين معروفين لنا جيدًا من أمثال ابن خرداذبه واليعقوبى وقدامة والمسعودى والجيهانى وابن حوقل ؛ وقد مر بنا الكلام فى أول هذا الفصل عن مصدر آخر له هو العذرى ، أما إسحاق بن الحسن المنجم فإن نالينو يحاول أن يجعل منه مؤلف النص الذى نشرته كوداتسى Codazzi[١٢١] . والكاتبان الآخران اللذان أورد الإدريسى اسميهما واللذان مازالت شخصيتاهما مجهولتين لنا تمامًا فإن أحدهما يمثل بالنسبة لنا أهمية خاصة وهو جاناخ بن خاقان الكيماكى الذى يرجع أصله كما يبدو من الاسم إلى قبيلة كيماك التركية بآسيا الوسطى .

ومن المؤلفين الذين كتبوا باللغات الأوروبية لا يذكر الإدريسى سوى بطلميوس وأوروسيوس
292 Orosius (هروشيوس) * مؤلف المصنف المشهور فى التاريخ العام ** /الذى عاش فى النصف الأول من القرن الخامس الميلادى والذى كسب شهرة عريضة فى أوروبا الوسيطة . ويقينًا أن مصادره لم تقف عند هذا الحد فلدينا علم بأسفار وبعثات أرسلها روجر ، ولكن يلوح أن الإدريسى قد أفاد إلى جانب هذا من كثرة تسآله واستفهامه من الرحالة والحجاج . وقد لوحظ مرارًا موقفه غير النقدى من مصادره ، سواء المدونة أو السماعية . ولن يدهشنا فى شىء اهتمامه بالكلام عن يأجوج ومأجوج[١٢٢] فقد شغلا مكانة كبيرة فى كل من الجغرافيا العربية والجغرافيا الأوروبية فى العصور الوسيطة . كذلك يلوح أنه قد وضع أسطورة حياة القديس براندان St Brandan[١٢٣] موضع الاعتبار فجعل منها مادة جغرافية ذات قيمة ؛ كما يضحى من الميسور أن نفهم سبب اتباعه لرأى بطلميوس القائل بأن الطرف الجنوبى لافريقيا متجه نحو الشرق وأن

---

(١٢١) Amari (Nallino), III, 2, p. 686, note 3 —Codazzi, p. 373-463-

* عرفه العرب باسم هروشيوش ، راجع عنه وعن تاريخه ودوره كمصدر بالنسبة للمؤرخين والجغرافيين العرب مقال الدكتور حسين مؤنس عن الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس . (المترجم)

(نشر متن الترجمة العربية الدكتور عبد الرحمن بدوى ، بيروت ١٩٨٢) . (المترجم)

** كان سهواً من المستعرب الكبير أن جعل الكتاب فى الجغرافيا لا فى التاريخ. (المترجم)

(١٢٢) مثلا : Kramers, EI, EB, p. 68

(١٢٣) وله أيضًا -Reinaud, Introduction, p. CXVI —Géographie d'Aboulefeda, p. 263

الأراضى الواقعة جنوبى خط الاستواء غير مأهولة[١٢٤] . وحتى فى وصفه لمدينة قريبة منه مثل رومه يفعل ذلك فى أسلوب يذكر بحكايات « ألف ليلة وليلة » ، معيدًا فى هذا الصدد قصة ابن خرداذبه تارة وقصة يهودى «متجوّل» (Wandering Jew) تارة أخرى[١٢٥].

لقد برهنت دراسة الإدريسى منذ بداية القرن العشرين على أن تحليل متن كتابه لا يمكن أن يتم إلا بتحليل مماثل لخارطاته جنبًا إلى جنب مع المتن . غير أن هذا لم يصبح ميسورًا بصورة قاطعة إلا فى العشرينيات من هذا القرن فقط ، وذلك بعد أن نشر ميلر جميع المادة الكارتوغرافية المعروفة فى المخطوطات العربية والفارسية . بيد أن مسألة العلاقة بين متن الإدريسى وخارطاته ليست من السهولة بالدرجة التى تصورها افتتاحيته ؛ ومن ثم فإن الكثرة الغالبة من البحاثة يميلون إلى اعتبار الكتاب شرحًا للخارطات فحسب[١٢٦] ، وقد تردد أكثر من مرة الرأى القائل بأن المسافات المذكورة بالمتن ، سواء المراحل منها أو الأميال ، لا تستند فى الواقع على معطيات واقعية عن الطرق نفسها بل تعتمد على القياس المقرّب لمواقع الأماكن الجغرافية المختلفة على الخارطة[١٢٧] . ويمكن لأول وهلة إثبات أسبقية الخارطات على المتن من الدراسة المقارنة لكليهما ؛ فمن الملاحظ مثلا أن الأسماء على الخارطة ترد فى صورة أصح وأقدم مما هى عليه فى المتن ، فضلا عن أن عددها أكثر[١٢٨] ، خاصة فيما يتعلق بأسماء الجبال والمدن[١٢٩] ؛ وإذا ما حدث العكس ووجدت فى المتن أسماء[١٣٠] لا أثر لها بالخارطات فمرد ذلك إلى أنه ليس من السهل تضمين كل ذلك الحشد من الأسماء داخل خارطة فى حين يسهل إيرادها فى متن الكتاب . غير أن الدراسة الفاحصة قد
293 تسوق أحيانًا إلى نتيجة مضادة/عند بحث موضوع الأسبقية هذا ، فتوليو Tuulio الذى درس بعناية فائقة خارطة الأجزاء الشمالية من أوروبا وهى القسمان الثالث والرابع من الإقليم السابع قد وصل إلى نتيجة حاسمة مؤداها أن الخارطة تالية للمتن[١٣١] . لذا فإنه من غير الميسور إصدار حكم عام فى هذا الصدد يصدق على جميع أقسام الكتاب ؛ أما إذا أخذنا بمنطوق الافتتاحية فإنه

---

(١٢٤) -Reinaud, Introduction, p. CXVI

(١٢٥) -Amari (Nallino), III, 2 p. 697, note 2

(١٢٦) -Mzik, Ptolemaeus, p. 165 —Kramers, Legacy, p. 90 —Hoenerbach, idrisi, p. 22-24

(١٢٧) -Mzik, Ptolemaeus. p. 166

(١٢٨) شرحه ، ١٦٥

(١٢٩) -Kramers, Notices, p. 26-27

(١٣٠) شرحه

(١٣١) -Tuulio, Du nouveau, p. 44-62

يجب القول بوجه عام بأسبقية الخارطات . ولكن يجب الاستدراك على هذا بقولنا إنه فى حالات معينة ، خاصة عندما يدور الكلام على مناطق معروفة قليلا ، فإنه يمكن الافتراض بأن العمل فى كليهما قد سار جنبًا إلى جنب ؛ أضف إلى هذا أن المتن فيما يبدو قد تعرض للتدوين فى أكثر من مسودة ، مرتبطًا فى ذلك بالخارطات أو مستقلا عنها ، كما أنه من الممكن أن يضاف إلى الخارطة من المتن فيما بعد .

ومن العسير علينا أيضًا فى الوقت الحاضر الوصول إلى رأى قاطع حول أصل خارطات الإدريسى وصلتها ببطلميوس . وكما ذكرنا من قبل فإن أطلس الإدريسى يضم سبعين خارطة ، يفتقد منها عادة فى المخطوطات واحدة أو اثنتان(١٣٢) . كما أن هناك سوى ذلك فى مطلع الكتاب خارطة مستديرة للعالم(١٣٣) هى الوحيدة التى يمكن ربطها بمنهج « أطلس الإسلام » للمدرسة الكلاسيكية(١٣٤) . فالفكرة الخاصة بهذا الأطلس وهى المتعلقة بوجود بحرين كبيرين تنعكس بوضوح فى خارطة الإدريسى هذه ، ولكن تحديد سواحل البحر المتوسط بها يقرب من الواقع أكثر مما هو الحال مع أية واحدة من الخارطات السابقة(١٣٥) . وجميع خارطات الإدريسى بما فى ذلك هذه الخارطة المستديرة تنفرد بدقة الرسم(١٣٦) وباطراح منهج الخطوط المستقيمة والدوائر الهندسية التى تميزت به الفترة الثانية للكارتوغرافيا العربية ، أى « أطلس الإسلام » .

ومن الصعب القول هل كانت الكرة الفضية التى عملت لروجر على هيئة خارطة مستديرة للعالم أم خارطة كبرى « للأقاليم » . وفيما عدا بعض ملاحظات عامة فى الجغرافيا الفلكية فإن مقدمة الكتاب لا تذكر شيئًا عن المناهج الفلكية التى اتبعت فى تخطيط هذه الخارطات ، وهذا بدوره قد سول لكرامرس Kramers الافتراض بأن مثل هذه المناهج لم تستخدم فى ذلك العصر وأن أنموذج الرسم لم يكن سوى خارطة قديمة من نوع الخارطات البطلميوسية مبين عليها الأسماء باللغة العربية على أغلب الظن(١٣٧) وأن الإدريسى كان يضيف إليها بالتدريج أسماء جديدة(١٣٨) .

---

(١٣٢) -Kramers, Legacy, p. 90

(١٣٣) الصورة لدى : Kimble, p. 58 —Kramers Legacy, p. 90

(١٣٤) -Kramers, EI, EB, p. 68

(١٣٥) -Kramers, Legacy, p. 90

(١٣٦) -Mzik, Ptolemaeus, p. 165

(١٣٧) -Kramers, EI, EB, p. 68

(١٣٨) -Kramers, Notices, p. 28

وحتى مثل هذا الفرض لا يمكن قبوله إلا بشيء من التحفظ . وفى دراسته لخارطة الإدريسى المبين عليها بحر الأدرياتيك اضطر العلامة الإيطالى فورلانى Furlani إلى التصريح بأن هذه الخارطات تقف بمعزل ، سواء عن متن « نزهة المشتاق » أو عن خارطات بطلميوس[١٣٩] . وقد وافقه على هذا الرأى نالينو[١٤٠] ./ 294

والفترة الثالثة فى تاريخ الكارتوغرافيا العربية وهى المقترنة باسم الإدريسى[١٤١] تعتبر الأوج الذى بلغه فن رسم الخارطات الجغرافية عند العرب ، ولكن فى الوقت نفسه تحمل فى طياتها بوادر الاضمحلال رغمًا من الدقة الكبيرة فى طريقة الرسم . ويظهر بوضوح تام أن فكرة الأطوال والعروض الجغرافية اختفت تمامًا من الخارطة[١٤٢] ولكن يمكن ملاحظة بعض آثارها فيما يتعلق بالأقاليم الأولى[١٤٣] . والأقاليم لدى الإدريسى بوجه عام تتحول إلى أحزمة متساوية فى العرض ، مما يدل على أن الأساس الفلكى الذى قام عليه تقسيمها قد نسى تمامًا[١٤٤] . أما تقسيم كل واحد منها آليًا إلى عشرة أجزاء فيقف دليلا على انحطاط الكارتوغرافيا العربية ؛ وتبيان خط منتصف النهار الابتدائى الذى يمر بجزر السعادة فى طرف الخارطة فيه إشارة أخرى إلى تأثير مذهب بطلميوس[١٤٥] . وثمة برهان آخر على هذا التدهور هو أن فحص التفاصيل التى بخارطات الإدريسى أشق بكثير من فحصها لدى الخوارزمى الذى يمثل بداية المذهب البطلميوسى عند العرب بقدر ما يمثل الإدريسى نهايته[١٤٦] . ورغمًا من هذا التقدير السلبى فإنه يجب على أية حال اعتبار أطلس الإدريسى أهم أثر للكارتوغرافيا العربية ، بل لعله أهم أثر لكارتوغرافيا العصور الوسطى بأجمعها[١٤٧] .

ويكاد اسم الإدريسى يقترن بصفة نهائية بكتابه « نزهة المشتاق » ولكن ثبت منذ عهد طويل أن لديه مصنفًا آخر فى الجغرافيا عمله من أجل غليوم الأول (١١٥٤ - ١١٦٦) ولد روجر

---

(١٣٩) Furlani, Le Carte-

(١٤٠) Amari (Nallino), III, 2, p. 701, note-

(١٤١) راجع : Mieli, p. 201-202

(١٤٢) Mzik, Ptolemaeus, p. 165-

(١٤٣) Kramers, Notices, p. 28-

(١٤٤) Honigmann, Die Sieben, Klimata, p. 181-

(١٤٥) Mzik, Ptolemaeus p. 165-

(١٤٦) شرحه ، ص ١٦٦

(١٤٧) شرحه

وخلفه ، وذلك بعنوان « روض الأنس ونزهة النفس » . وفيما عدا العنوان فلا نكاد نعرف عن هذا المصنف إلا شذرات قليلة حفظها لنا فى القرن الرابع عشر أبو الفدا الذى أطلق على الكتاب عادة اسم « كتاب المسالك (والممالك) »(١٤٨) . وفى بداية هذا القرن عُثر باستنبول على مخطوطة تمثل فيما يبدو قطعة من هذا المصنف الأخير تحمل عنوان « روض الفرج ونزهة المُهَج » يرجع تاريخها إلى عام ٥٥٨ هـ = ١١٩٢ ، وهى تحتوى على أطلس كامل من ثلاث وسبعين خارطة . وقد عرف هذا المصنف فى الدوائر العلمية باسم « الإدريسى الصغير » وذلك للتفريق بينه وبين كتابه الرئيس « نزهة المشتاق »(١٤٩) . وعندما نشر ميلر هذه الخارطات سماها خطأ « أطلس الجيب »(١٥٠)؛ بينما المخطوطة فى الواقع ذات حجم طبيعى(١٥١) . ولا يزال متن هذا
295 الكتاب غير معروف لنا فيما عدا شذرات طفيفة ،/ويمكن الحكم عليه فقط من خطاب لزيبولد Seybold الذى كان يقوم بتحضير طبعة له(١٥٢) . وفى افتتاحية هذا الكتاب يذكر الإدريسى أن هدفه هو مجرد إعطاء موجز فحسب ، ولكنه مع ذلك يورد كمصادره الاثنى عشر مؤلفًا أنفسهم الذين مر ذكرهم ، ويضيف إلى هذا أنه قد ذكر إلى جانب ذلك كل ما شاهده بنفسه فى الغرب أو استوضح عنه الرحّالين وأنه قد استغل جميع الإمكانات التى قدمها له الملك روجر عند وضع الكتاب الذى يحمل اسمه وذلك خاصة فيما يتعلق بأخبار بلاد الروم كألمانيا وفرنسا وبروفنس وغسكونية وبريطانيا ونورمندية واكويليه وتسكانيه ولانغوربادية والبندقية وهنغاريا والروس والقومان والكيماك ، إلى أن قال « ولم أترك شيئًا من هذه الأرضين إلّا وجهت بها مشروحة موضوحة على استقصاء وجعلتها مبسوطة القول كما يجب »*(١٥٣) .

لكل هذا فإن موضوع العلاقة بين هذين المصنفين للإدريسى يجب أن يظل قائمًا فهو حقًا موضوع شائك . ومما يسترعى الانتباه أن مصنف « الإدريسى الصغير » يضيف إلى الأقاليم

---

(١٤٨) -Reinaud, Introduction, p. CXXI —Miller, 1, 2, p. 43 - 44, Tallgren, Finlande p. 9

(١٤٩) -Miller, 1, 2, p. 44 and 1, 3

(١٥٠) شرحه ، ١ ، ٣ ، ص ٦٧

(١٥١) -Tallgren, Finlande, p. 17-18, note 3, Letter of Nallino

(١٥٢) -Miller, 1, 3, p. 67-68

* نقلت هذه الألفاظ عن صورة المخطوطة (مكتبة حكيم أوغلو على باشا رقم ٦٨٨) التى تفضل بوضعها تحت تصرفى الدكتور عبد الله الغنيم. (المترجم)

(١٥٣) -Seybold cf: Miller, 1, 3 p. 68 cf: Tallgren, Finlande, p. 6-10

السبعة المعروفة إقليما ثامنًا[١٥٤] إلى الجنوب من خط الاستواء ، بل إن وصفه يرد فى المتن كذلك[١٥٥] . كما أن بعض الغموض يحيط بالتواريخ أيضًا فقد لاحظ كرامرس فى ملخص استنبول إشارة إلى ابن سعيد ، مما أغراه حينًا من الوقت بأن ينسب الكتاب إلى القرن الثالث عشر[١٥٦] .

وكما هو الشأن مع معظم علماء عصره فقد كان الإدريسى إلى حد ما مؤلفًا موسوعيًا (Eneyclopaedist) ، بل عرفت له بعض الأشعار منذ وقت طويل . ومنذ عشرة أعوام تقريبًا عثر فى إحدى مكتبات استنبول على مخطوطة القسم الأول من رسالة له فى تحضير الأدوية (pharmocognozia) . هذا وقد أثبت البحث التمهيدى الذى قام به ميرهوف Meyerhof[١٥٧] أن الكتاب لا يخلو من بعض الأهمية وإن ليس فى الوسع وضعه فى مرتبة واحدة مع المصنفات الممتازة فى هذا الباب كرسالة البيرونى مثلا ؛ ومن الطريف أنه لا يرتبط فى شيء باسم ثيوفراست Theophrast الذى يرجع إليه العرب عادة فى هذا الفن ، أو بكتاب « النبات » De Plantis المنسوب لأرسطو . ويلى مقدمة الكتاب وصف لثلاثمائة وستين نباتًا لا يخلو من بعض القيمة من وجهة علم النبات Botany ؛ أما الطب فإن الإدريسى لم يعتبره ميدانًا له بل ترسّم فى ذلك خطا الآخرين[١٥٨] . وهو يبذل جهده دائمًا فى إيراد أسماء النباتات فى اللغات المختلفة ، بل إنه يميز بين التسميات البيزنطية (« إغريقى ») واليونانية القديمة (« يونانى ») . ولا شك أنه يدين بمثل هذه/المعرفة إلى إقامته بصقلية حيث كان التراث اليونانى 296
البيزنطى لا يزال على قيد الحياة[١٥٩] .

---

(١٥٤) -Miller, I, 3 p. 68

(١٥٥) كرامرس عن الإدريسى ، راجع :
Youssouf Kamal, Quelques éclaircissements, p. 106
(المسودة الثالثة « أنس المهج » ليست للإدريسى – فى نهاية القرن الثالث عشر)
ووفقًا لرأيه كانت هناك أربع مسودات :
كتاب روجر ؛ « وروض الأنس ونزهة النفس » الذى عمله لغليوم الأول ؛ ثم ثالثة هى التى عمل منها أحد مؤلفى القرن الثالث عشر كتاب « أنس المهج » –
راجع أيضًا : -Cerulli, OM, XXIII, No 1, p. 22-23, note 7

(١٥٦) -Kramers, EI, EB, p. 68-69

(١٥٧) -Meyerhof, Pharmakologie, p. 45, 225

(١٥٨) -Sarton, Introduction, II, p. 410

(١٥٩) -Mieli, p. 200, note 2

ورغمًا من كل هذه التحفظات فإن مؤلفات الإدريسى فى الجغرافيا تمثل بكل تأكيد ظاهرة ممتازة فى محيط الأدب الجغرافى العربى خاصة وفى النشاط العلمى لجميع العصور الوسيطة عامة ؛ لهذا فإنه لمما يثير الدهشة أن تظل مؤلفاته مغمورة الذكر فى القرون التالية لذلك ؛ وقد أبصرنا فى حينه كيف أن الوقائع عن سيرة حياة الإدريسى نفسه كانت قليلة ومتناثرة . ومنذ بداية الأربعينيات للقرن الماضى أورد دى سلان De Slane ، وذلك بصدد نقده لترجمة جوبير للإدريسى ، أسماء المؤلفين الذين أغفلوا ذكر أى شىء عن الإدريسى رغمًا من أن الدلائل تشير إلى إمكان معرفتهم به(١٦٠) ؛ ويجب الاعتراف بأن مادتنا لم تنمُ منذ ذلك التاريخ ولو قليلا . وقد أراد بعض العلماء أن يبصر فى ذلك الصمت أمرًا مقصودًا مرده إلى أن الإدريسى كان يعمل ببلاط ملك نصرانى بل ورفع إليه مصنفًا يمتدحه فى افتتاحيته ؛ ولعل الدوائر السُنيّة اعتبرته مارقًا ، كما أنه من الجائز أن يكون حجم الكتاب وخارطاته المعقدة قد جعل من مسألة استنساخه أمرًا عسيرًا مما كان سببًا فى إعاقة انتشار مخطوطاته .

ومن بين المؤلفين الذين استعملوا مصنفات الإدريسى استعمالا مباشرًا اثنان ، أحدهما وهو ابن سعيد المغربى الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر أخذ عن الإدريسى كل معلوماته عن أوروبا تقريبًا(١٦١) ومقدارًا لا يستهان به عن بلاد أخرى(١٦٢) ؛ أما الآخر وهو أبو الفدا الذى عاش فى بداية القرن الرابع عشر فقد نقل عن الكتاب الثانى للإدريسى كما رأينا . وأبعد إلى جهة الشرق من هذين فإن معرفة الناس بالإدريسى لم تكن واسعة ، ولا يخلو من مغزى فى هذا الصدد أن خبيرًا كبيرًا بالأدب الجغرافى مثل ياقوت الحموى لا يعلم عنه شيئًا على الإطلاق(١٦٣) ؛ وربما كان السبب فى هذا أيضًا الموقف السلبى الذى وقفه ممثلو المدرسة الرياضية من منهج الإدريسى . . ومما يسترعى النظر بوجه خاص شهادة الطبيب المصرى الأكفانى (توفى عام ٧٤٩ هـ = ١٣٤٨) فى كتابه الفريد الذى يحلل فيه ستين علما من العلوم ويشير إلى أهم الكتب فى كل فرع منها(١٦٤) . ففى القسم الخاص بالجغرافيا يقول(١٦٩) :

---

(١٦٠) -De Slane, review of Jaubert, p. 373-375

(١٦١) -Hoenerbach, Al-Idrisi, p. 19

(١٦٢) -Miller, I, 2, p. 50-51

(١٦٣) -Amari, Bibl. ar-sic., I, p. XXVII = Amari (Nallino), I, p. 49

(١٦٤) -Brockelmann, GAL, II, p. 137, No, 3; SBII p. 169-170

(١٦٥) إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد (Sprenger , Two works , p. 85-86)

« ولبطلميوس فى أحوال المساكن والأقاليم كتاب يعرف بجغرافيا تام فى معناه إلا أن أكثر مسمياته مجهولة عندنا لأنها أسماء أعلام نقلت بجلها من اللغة اليونانية . وكتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق فيه مخالفة لقسمة الأقاليم فإن/مؤلفه وإن كان عارفًا بالمسالك والممالك لجوبه 297 الآفاق فإنه عرى من علم هيئة الأفلاك » . ومن هذا يتضح لنا أن محاولة الإدريسى للتقريب بين الجغرافيا الوصفية والفلكية قد عرفت فى الشرق بوصفها محاولة فاشلة ، تمامًا كما عرفها العلم الحديث[١٦٦] .

إن نشاط الإدريسى فى الجغرافيا فى قطر أوروبى يقع على الحد الفاصل بين حضارتين ألقى فى روعه أن تأثيره سيمتد على أوروبا أكثر مما على العالم العربى. بيد أن شيئًا من هذا لم يحدث فقد بقى أثره الجغرافى مجهولاً إلى بداية القرن السابع عشر فيما يبدو. صحيح أن الكارتوغرافى ميلر K. Miller أراد أن يبصر تأثيراً لخارطاته على خارطة مارينو سانودو Marino Sanudo التى نشرها فسكونتى Visconti عام ١٣١٨ - ١٣٢٠[١٦٧] ، وأيضًا على الخارطات القطلونية (Catalonian)[١٦٨]؛ بيد أن كل هذا محض افتراضات نظرية . ويوسف كمال ، وهو من أفضل الخبراء فى الكارتوغرافيا العربية والكارتوغرافيا الأوروبية المبكرة فى العصور الوسطى ، ينفى نفيًا باتًا وجود أى تأثير مزعوم لمتن البكرى ولخارطات الإدريسى على أوروبا الوسيطة بل ويعتبر أى زعم من هذا القبيل ضربًا من « الهذيان العلمى » scientific hallucinations[١٦٩] . وإذا وجد ثمة تأثير فإنه دون ريب لم يكن للإدريسى نفسه بل للوسط الذى أمضى فيه زهرة عمره ؛ وبعض مؤرخى الجغرافيا والمسائل الملاحية يعللون هذا التأثير بأن أهل صقلية كانوا أساتذة الجنويين فى الملاحة وأن الأخيرين نقلوها بدورهم إلى الإسبانيين والبرتغاليين والفرنسيين والإنجليز على التوالى[١٧٠] . هذا بلا ريب أمر لا تربطه علاقة مباشرة بالنشاط الجغرافى للإدريسى الذى يرجع الفضل فى التعريف به إلى الاستعراب الأوروبى ، لا فى القرن السابع عشر حين استعمل ملخصًا للكتاب بل فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حين أصبح فى حيز الإمكان الاتصال بأصل الكتاب اتصالا مباشرًا عن طريق مخطوطاته الأصلية .

---

(١٦٦) -Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 181-183

(١٦٧) -Miller, I, 2, p. 51

(١٦٨) شرحه ، ص ٥١ - ٥٢

(١٦٩) -Kramers, Notices, p. 15, 17, 25, 28-29, 32

(١٧٠) -J. K. Wright, Geogr. Lore, p. 81, with reference to De la Roncière

وقد اقتنع العلماء بصعوبة العمل فى كتاب الإدريسى كوحدة قائمة بذاتها وذلك لتعدد الأقطار التى يصفها وتنوع المادة التى يوردها ، لذا فإنه بعد المحاولة الفاشلة التى قام بها جوبير لترجمة الكتاب ترجمة كاملة اهتدى الباحثون إلى أن المنهج الصحيح هو الاقتصار على دراسات محددة لكل قطر من الأقطار المختلفة . ووضع هارتمان Hartmann اللبنة الأولى لهذا منذ القرن الثامن عشر ببحثه عن افريقيا عند الإدريسى[١٧١] ، وهو بحث وإن عفى عليه الزمن إلا أنه كان بالنسبة لعصره مجهودًا محمودًا . وكان البحث المشهور لدوزى Dozy ودى خويه De Goeje[١٧٢] عن اسبانيا وافريقيا الشمالية أول خطوة جدية فى هذا المضمار ، وقد أتم هذا البحث وأضاف إليه فيما

298 يتعلق/باسبانيا العلامة سافدرا Saavedra[١٧٣] . وهذه الدرجة العالية نفسها تتمتع بها دراسة الأجزاء الخاصة بإيطاليا وصقلية على يد أمارى Amari واسكيابارلى Schiaparelli[١٧٤] ، وهى دراسة هامة أيضًا فيما يتعلق بمسائل عامة تتصل بدراسة الإدريسى . والجزء الأقل أهمية من ذلك وهو الذى أفرده الإدريسى للشام وفلسطين قد ترجم ونشر عدة مرات (جلدمايستر Gildemeister[١٧٥] وبراندل Brandel[١٧٦] ومدنيكوف Mednikov[١٧٧]) ؛ كما قدم توماشك تحليلا ممتازًا لمادة الإدريسى عن شبه جزيرة البلقان ، ولكن لم ينشر النص أو ترجمة كاملة له . ولا تخلو من الأهمية فى الجوانب المتعلقة بها تلك الدراسات التى نوهنا إليها من قبل فيما يتعلق بالهند والشرق الأقصى .

وقد انبعث الاهتمام بالإدريسى من جديد فى السنوات الثلاثينات بصفة خاصة ، ويرجع الحافز إلى هذا نشر ك . ميلر لخارطاته . والدراسات التى ظهرت فى تلك الآونة كانت ذات علاقة مباشرة بأراضى اتحادنا السوفيتى ، ونخص بالذكر منها أبحاث تالغرين – توليو -Tallgren Tuulio . وقد كانت نقطة الابتداء فى دراسته وصف فنلندا لدى الإدريسى ، ولكنه لم يلبث أن أخضع لبحث عميق الأجزاء التى تمس الدنمارك والنرويج والسويد وألمانيا الشمالية واستونيا وشبه

---

(١٧١) -Hartmann

(١٧٢) -Dozy et De Goeje

(١٧٣) -Saavedra, p. 225-242

(١٧٤) - Amari — Schiaparelli, L'Italia, 1883,
بعض تصحيحات لدى : Seybold, Analecta-Arabo —italica, p. 213-215

(١٧٥) -Gildemeister, Idrisis Palestina

(١٧٦) -Brandel

(١٧٧) -Mednikov, Palestina, II, 921-937

جزيرة كولا وشمالى روسيا ومناطق الدنيبر الأعلى . ونظرًا لتطبيقه مناهج جديدة فى الدراسة فقد أثار عددًا من المشاكل والاعتبارات الخاصة ؛ وبوجه عام فإن بحوثه تمثل خطوة جديدة فى دراسة الإدريسى عامة ، ويجب أن يعمل لها حساب خاص بصرف النظر عن المنطقة التى اختارها موضوعًا لبحثه(١٧٨) . ولا تخلو من فائدة رغم هدفها المتواضع دراسة هنرباخ Hoenerbach لوصف الإدريسى لألمانيا والبلاد المجاورة لها ، وكذلك مقال لڤتسكى Lewicki عن وصف الإدريسى لطريق من الطرق الخارجة من كييف . ولا شك أن الوضع الآن فيما يتعلق بالإدريسى أفضل بكثير مما كان عليه فى نهاية القرن الماضى ، بحيث أصبح فى الإمكان تقديم طبعة كاملة وترجمة « لنزهة المشتاق » . وقد فكر فيران Ferrand وغودفروا ديمومبين G. Demombynes فى مثل هذا العمل بالفعل ولكن لم يكتب له أن يرى النور بسبب وفاة الأول . وفى الأعوام الأخيرة ترددت الفكرة أكثر من مرة ، فى هولندا حين ظهرت فكرة إخراج طبعة جديدة « لمكتبة الجغرافيين العرب » Bibliotheca Geographorum Arabicorum ، وكذلك فى المؤتمرات الجغرافية المنعقدة بإيطاليا حيث دار الكلام بشكل خاص عن الخارطات(١٧٩) . هذا وقد تضافرت حوادث الأعوام الأخيرة مع عسر المهمة نفسها على تأجيل تنفيذ هذا العمل إلى أجل غير مسمى * .

وفى خلال مائة العام التى أعقبت ظهور ترجمة جوبير أخذت صورة المصنف الجغرافى الأكبر للإدريسى تبدو واضحة المعالم بفضل الدراسات المستقلة لأجزائه المختلفة . كما توكد أكثر من ذى قبل صدق الحكم الذى أصدره عليه رينو Reinaud منذ مائة عام تقريبًا/حين قال « والإدريسى 299
فى بعض النقاط قد ساعد بالأحرى على تقهقر العلم بدلا من تقدمه ، غير أن مصنفه على وجه العموم يمثل صرحًا هائلا فى ميدان الجغرافيا ، يشبه فى هذا الصدد مؤلف اسطرابون Strabon(١٨٠) » . ولن يفكر أحد الآن فى منازعة رأى بارتولد الذى يبصر فيه « محاولة للتنظيم والترتيب ولكن على حساب الدقة والتثبت » . ورغمًا من كل هذا فإن الجميع يوافقون أمارى فى اعتباره الكتاب « أفضل رسالة فى الجغرافيا وصلتنا عن العصور الوسيطة »(١٨١) سواء من الشرق أو الغرب ؛ وعلى هذا الحكم يقف الآن إجماع آراء المستعربين ومؤرخى الجغرافيا على السواء(١٨٢) .

---

(١٧٨) راجع نقده لدى : H Jansky, OLZ, 36, p. 633-695

(١٧٩) -Furlani, p. 196-206

* ظهرت الآن الطبعة الكاملة « لنزهة المشتاق » بإيطاليا . (المترجم)

(١٨٠) -Reinaud, Introduction, p. CXX

(١٨١) -Amari (Nallino), III, 2, p. 701

(١٨٢) -J. K. Wright, Geogr. Lore, p. 80

وإذا ما رأى الأكفانى فى الإدريسى رحالة فقط وأشار إلى « جوبه الآفاق » فإن حكمه هذا يبعد كثيرًا من الصحة ، ذلك أن الإدريسى فى حقيقة الأمر عالم جغرافى . أما الرحالة جواب الآفاق فقد كان معاصره الأكبر منه سنًا أبو حامد الغرناطى ، بالرغم من أنه لم يدون انطباعاته عن الطريق فى شكل ملاحظات بل أحيا النمط الأدبى القديم « لكتب العجائب » فصنف مؤلفًا ذا طابع كوزموغرافى بحت ؛ وهو فى هذا ربما كان واضع لبنة جديدة فى الأدب الجغرافى العربى . وقد ولد بغرناطة عام ٤٧٣ هـ = ١٠٨٠ وكان اسمه الطويل بما يصحبه من كنى وأنساب مدعاة إلى الخلط الذى حدث أكثر من مرة ، فهو أبو حامد أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم المازنى القيسى الغرناطى الأندلسى الأُقليشى[١٨٣] القيروانى ؛ ويرد اسمه فى المراجع الأدبية فى صياغات مختلفة لهذه الأسماء العديدة ؛ أما أسفاره فمعروفة لنا من مصنفاته الشخصية . ففى عام ٥٠٨ هـ = ١١١٤ قام بأولى رحلاته إلى مصر حيث استمع إلى بعض علماء القاهرة والإسكندرية[١٨٤] ، ثم رجع إلى وطنه ولكنه لم يمكث به طويلا فغادره مرة أخرى فى عام ٥١١ هـ = ١١١٧ بنية مغادرته نهائيًا فيما يبدو ، وفى رحلته هذه مر على جزيرة سردينيا وعلى صقلية فالإسكندرية فالقاهرة . وفى عام ٥١٦ هـ = ١١٢٢ نلتقى به فى بغداد حيث أمضى أربعة أعوام متمتعًا بعطف الوزير المعروف برعايته للأدب والأدباء يحيى بن هبيرة[١٨٥] ، وقد رفع إليه الغرناطى أحد مصنفاته . وفى عام ٥٢٤ هـ = ١١٣٠ نراه بأبهر فى إيران ، وفى العام التالى ٥٢٥ هـ = ١١٣١ يعبر بحر قزوين فيصل إلى مصب نهر الفلجا ، وكان لا يزال بأرض بلغار الفلجا فى عام ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ . وتلى هذا أن قام بثلاث رحلات إلى خوارزم[١٨٦] . ونظرًا العلاقة بلغار بشبه جزيرة البلقان فمن الجائز أن يكون قد زار هنغاريا[١٨٧] ، وكان بها فى عام ٥٤٥ هـ = ١١٥٠ ؛
300 وهناك كان يمتلك منزلا بل إن ابنه الأكبر حامد/تزوج بسيدتين من أهل تلك البلاد وأقام بها نهائيًا[١٨٨] . أما الأعوام الأخيرة من حياته فقد أمضاها بمركز الخلافة فكان ببغداد عام ٥٥٥ هـ = ١١٦٠ وبالموصل عام ٥٥٧ هـ = ١١٦٢ وتوفى بدمشق عام ٥٦٥ هـ = ١١٧٠ .

---

(١٨٣) Ferrand, Le Tuhfat al-albab, p. 17-18-

(١٨٤) المقرى فى كتاب : Ferrand, Le Tuhfat, p. 14

(١٨٥) توفى عام ٥٦٠ هـ = ١١٦٥.راجع الفخرى (Derenbourg, Al-Fahri, p. 425)
قارن : Brockelmann, GAL, II, p. 161, No 1

(١٨٦) Brockelmann, GAL, SBI, p. 878 (Bactrien)-

(١٨٧) شرحه (Russland)

(١٨٨) Jacob, Studien, III, p. 71—Lewicki, Al-Andalusi ,p.108-

ومن المصنفات ذات الطابع الجغرافى المنسوبة إليه نعرف على وجه التحديد واحدًا فقط هو « تحفة الألباب ونخبة الأعجاب » الموجود فى عدد كبير من المخطوطات والذى نشره وترجم جزءًا منه فيران * . وتحفل مقدمة الكتاب بالتعبيرات العادية ذات الطابع الدينى ولكن يستنتج من ثناياها أن الكتاب قد تم تصنيفه فى عام ٥٥٧ هـ = ١١٦٢ بالموصل بتوصية من عالم متصوف هو الإربلى ، وهو عالم معروف فى الأدب العربى[١٨٩] . وينقسم الكتاب إلى أربعة أبواب[١٩٠] ، الأول منها يعطى « صفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانها » ، ويشمل الثانى « صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان » ، والثالث منها يتناول « صفة البحار وعجائب حيواناتها ومايخرج منها من العنبر والقار وما فى جزائرها من أنواع النفط والنار » ، أما الرابع فيحوى « صفات الحفائر والقبور وما تضمنت من العظام إلى يوم النشور » .

ورأى رينو[١٩١] عن « تحفة الألباب » يشوبه الكثير من التحفظ ، ففى رأيه أن المؤلف « كان بوسعه تقديم خدمات كبرى فى محيط الجغرافيا والتاريخ الطبيعى لو أنه جمع إلى طبيعته المتشوفة إلى المعرفة نصيبًا أوفر من الاطلاع وروح النقد » . هذا الحكم صحيح لا مجال للشك فيه ، ذلك أن محيط اطلاع المؤلف لم يكن واسعًا فهو لا يبرز من مصادره إلى جانب القرآن إلا عددًا ضئيلا جدًا من المؤلفات . أما مادته الجغرافية ففقيرة للغاية ومضطربة كما أن ميله إلى الغرائب[١٩٢] واضح ملموس بحيث لا يمكن إنكاره ، ولكن عرضه يتميز بالحيوية والتفنن ويمكن بعد تمحيصة تمحيصاً دقيقاً استخراج نتائج طيبة فى شتى المجالات . وقد أثبتت الدراسة العميقة التى قام بها ياكوب Jacob أن التحليل الدقيق لرواياته التى كانت تنسب قبلا إلى محيط الأساطير قد يكشف فى كثير منها عن أسس واقعية وعن دقته الكبيرة فى الملاحظة.

ويورد أبو حامد أسماء رواته بدقة ويتحدث عن نفسه بضمير المتكلم[١٩٣] ولهذا يمكن التفريق بسهولة بين مصادر مادته . وكثير مما يورده على لسان الغير لا يمثل فى الواقع أهمية ما وذلك/لسهولة 301

---

* نشره الآن دوبلر Dubler مع ترجمة اسبانية وتعليقات وافية بمدريد ١٩٥٣ . (المترجم)

(١٨٩) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 783-784 —Ferrand, Le Tuhfat, p. 284

(١٩٠) المحتويات عرضها ياكوب : (Jacob, Studien, III, p. 74-77)
أما المتن فراجع : Ferrand, Le Tuhfat, p. 36

(١٩١) -Reinaud, Introduction, p. CXI

(١٩٢) -Kramers, EI, EB, p. 69

(١٩٣) -Jacob, Studien, III, p. 92

تصديقه للعجائب(١٩٤) واعتقاده فيها ، ولكنه على أية حال يبذل دائمًا قصارى جهده لتوسيع نطاق معلوماته . ففى القاهرة مثلا يتجاذب أطراف الحديث مع أحد أهل الحجاز عن عجائب الهند والصين(١٩٥) حيث أمضى ذلك الرجل هناك أربعين عامًا ؛ وفى بغداد يستفهم من أحد مسلمى صقلية عن ثوران بركان اتنا(١٩٦) ؛ وفى هنغاريا يجمع أخبارًا مفصلة من أهل البلاد عن القسطنطينية والمشاكل السياسية فيها(١٩٧) . وتنال أهمية خاصة روايته لما رآه بعينى رأسه ، وهو يمثل ثلث الكتاب بالتقريب(١٩٨) . واهتمامه بالأبنية والمعالم المختلفة قد خلف لنا مقدارًا ملحوظًا من المعطيات الطريفة ، فهو قد رأى أعمدة هرقل عند مضيق جبل طارق وذلك قبل فترة قصيرة من انهيارها عام ١١٤٥ . وكان واحداً من بين آخر من رأوا منارة الإسكندرية فى صورتها التامة ؛ وآخر من ذكرها كان الإدريسى(١٩٩) . وبعين شمس قرب القاهرة رأى المسلة المعروفة التى سقطت عام ١١٦٠(٢٠٠) كما نفذ إلى داخل هرم خوفو(٢٠١) ؛ ويعلق ياكوب على هذا بقوله إن هذه ليست الحالة الوحيدة التى قد تثير اهتمام علماء الدراسات المصرية القديمة (egyptology) فى كتابه(٢٠٢) ؛ ويصدق هذا القول على مجالات أخرى كثيرة . وإذا حدث وأن وجد لديه علماء التاريخ الطبيعى مادة طفيفة(٢٠٣) إلا أن معلوماته ذات قيمة كبرى فيما يتعلق باستفادة الإنسان من ثمار الطبيعة ، العضوية منها وغير العضوية(٢٠٤) .

وليس من المستطاع بطبيعة الحال مقارنة معلوماته عن أوروبا من ناحية الكم بما أورده غيره

---

(١٩٤) شرحه

(١٩٥) -Ferrand, Le Tuhfat, p. 106

(١٩٦) -Amari Bibl. ar-sic., I, p. 134 —Amari (Nallino), II. p. 504-505

(١٩٧) -Lewicki, Al-Andalusi, p. 109

(١٩٨) -Jacob, Studien, III, p. 93

(١٩٩) شرحه ، ص ٧٦ . لا يرد ذكر لأبى حامد لدى أسين (Asin Palacios, Al-Andalus, 1, 2, p. 269)

(٢٠٠) -Jacob, Studien, III, p. 87

(٢٠١) شرحه ، ص ٨٩

(٢٠٢) شرحه ، ص ٨٦ – ٩١

(٢٠٣) شرحه ، ص ٨٣

(٢٠٤) شرحه ، ص ٨٤

من الجغرافيين ، ولكن رغمًا من ذلك نجد من بينها معطيات قيمة كذكره للألمان تحت اسم «نامس*»(٢٠٥)، ومثل حكايته عن هنغاريا التى مكنت العلامة البولندى لفتسكى منذ وقت قريب من إلقاء ضوء جديد على مشكلة أصل المسلمين الهنغاريين ووضعهم(٢٠٦) . ويرتبط بهذه المسألة الأخيرة وصفه لمدينة « رومية العظمى » التى يجب أن نبصر فيها القسطنطينية لا رومة نفسها ، وذلك رغم المحاولات العديدة لربطها بالأخيرة(٢٠٧) . هذا وقد تعرف العلم الروسى على أبى حامد منذ عهد طويل ، ويرجع الفضل فى ذلك/إلى العلامة دورن Dorn الذى كان من أول 302
العلماء الذين اشتغلوا بدراسة الغرناطى دراسة جدية وكان ذلك فى عام ١٨٧٢ ، على الرغم من أن ذكر الغرناطى يرد فى الغرب منذ عهد دربلو d'Hërbelot وفى روسيا منذ عهد فرين Frähn وشارموا Charmoy(٢٠٨) . أما بالنسبة لاتحادنا السوفيتى فإن معطياتـه عن حوض الفلجـا الأوسط والأدنى وعن شعوب القوقاز تمثل أهمية كبرى . ولمّا يثبت حتى الآن على وجه الدقة موقع مدينة سقسين التى يفرد لها وصفًا مفصلا فى كتابه ، ومن الجائز أنها كانت على مصب نهر يايق أو نهر الفلجا نفسه(٢٠٩) . ونالت اهتمامًا كبيرًا قصة أبى حامد عن تجارة العظام المندثرة (من المحتمل أنها عظام الماموث Mamoth) التى نشطت بين سكان الفلجا الأدنى وخوارزم(٢١٠) ؛ وقد أثبت سارطون Sarton أن ذكر هذه العظام قد ورد عند مؤلفى العالم الكلاسيكى القديم . ويسوق لنا أبو حامد تفاصيل وافية عن شعوب القوقاز(٢١١) خاصة أصحـاب الـزرد (« زره كران ») وهـم الكُبجـى Kubachi(٢١٢) الحاليـون . وعلى الرغـم من أن عددًا كبيـرًا من الجغرافيين العرب ابتداء من البلاذرى والمسعودى يتحدث عنهم إلا أن أبا حامد هو الوحيد الذى يتكلم عن طقوس الدفن لديهم ، وهى ترجـع فيمـا يغلـب على الظـن إلى أصل إيـرانى

---

* يذكرنا باسم النمسا الذى أخذناه عن العثمانيين الذين أخذوه بدورهم عن الصقالبة ، وهو الاسم الذى ينعت به هؤلاء الأخيرون الشثوب الجرمانية ومعناه لديهم «البكم»، أى الأعاجم. ومن المعلوم أن العرب أنفسهم دعوا الصقالبة «الخرس». (المترجم).

(٢٠٥) شرحه ، ص ٩١ – ١٢٣

(٢٠٦) -Lewicki, Al-Andalusi

(٢٠٧) (راجع نقد زيبولد : - Moncada.(Seybold, Deutsche Literaturzeitung p. 1716

(٢٠٨) عن المراجع المبكرة راجع : Ferrand, Le Tuhfat, p. 15-16

(٢٠٩) -Barthold, Vorlesungen, p.168-169; —Büchner, EI, IV, p. 89 —Ferrand, Le Tuhfat, p. 87-90

(٢١٠) -Jacob, Studien, III, p. 77-79 —Sarton, Introduction, II, p. 412

(٢١١) -Ferrand, Le Tuhfat, p. 82-83

(٢١٢) شرحه ، ص ٨٤ – ٨٥ – راجع أيضًا :

Orbeli i Trever, Sasanidskii Metall, p. XV

كما أثبت ذلك بارتولد[٢١٣] ؛ ومن الجائز أن أبا حامد نفسه لم يزر بلادهم وأنه سمع هذه القصص فى دربند . وهو أكثر الجغرافيين تفصيلا فى الكلام عن أسطورة سيف مسلمة[٢١٤] التى استرعت أنظار دى خويه منذ عام ١٨٧٥[٢١٥] . وأبو حامد أحد المؤلفين الذين تظفر روايتهم بأهمية خاصة بالنسبة لتاريخ شعوب اتحادنا السوفيتى ، ولا تزال مادته فى هذا الشأن تنتظر بحثًا خاصًا يأخذ فى حسابه المادة التى تجمعت منذ عهد دورن .

ومن المستحيل تجاهل الغرناطى فى تاريخ الأدب الجغرافى ، فهو قد اكتسب شهرة عريضة لدى جمهرة القرّاء لأن المنهج الذى ابتدعه فى الجمع بين معطيات واقعية دقيقة وضروب من مختلف العجائب فى وحدة كوزموغرافية قد راق كثيرًا للأجيال التالية . وقد اتسعت قراءة مصنفه واستنساخه بصورة ملحوظة ، كما حفظ لنا شذرات كبيرة منه كوزموغرافى القرن الثالث عشر القزوينى واستعمله ابن الوردى فى القرن الرابع عشر والمقريزى فى القرن الخامس عشر وابن إياس فى بداية القرن السادس عشر ؛ ولم يقف عدد من نقلوا عنه عند حد الجغرافيين وحدهم بل تعداه إلى غيرهم ، فرجع إليه عالم الحيوان الأديب الدميرى (القرن الرابع عشر) وصاحب المجموعة الأدبية الذائعة الصيت الابشيهى[٢١٦] فى القرن الخامس عشر . وقد خمن أبو حامد تخمينًا
303 صحيحًا حاجة الأجيال القادمة إلى هذا الضرب من المؤلفات ،/ فمنذ ذلك الحين أصبح نمط الكوزموغرافيا بما يلازمه من عنصر الغرائب محببًا إلى الطبقات الشعبية بشكل خاص . وليس فى مقدورنا بطبيعة الحال أن نعتبر هذا النمط خطوة تقدمية فى ميدان العلم ، اللهم إلا إذا استثنينا نقاطًا معينة فيه .

ومنذ هذه اللحظة أيضًا يتسع انتشار نمط آخر من الأدب الجغرافى وينال القبول لدى الجمهور ، ذلك هو وصف الرحلات التى كثيرًا ما حملت عنوانًا بسيطًا هو « الرحلة » ، وذلك على غرار « سفرنامه » لناصر خسرو . ولم تدون الرحلات على هيئة كتب « المسالك » المعروفة لنا بل دونت على هيئة « مذكرات يومية » مع تفاوت فى الدقة فيما يتعلق بتدوينها من يوم لآخر . وكثيرًا ما ارتبطت هذه الرحلات بالحج، ولكن هذا لا يعنى أن الحج كان يحتل دائمًا المكانة الأولى

---

(٢١٣) -Bartold, ZVO, XIII, p. 0101-0104
راجع أيضًا : Barthold, Daghestan p. 925 —Trever, p. 18

(٢١٤) -Ferrand Le Tuhfat, p. 83-84

(٢١٥) -De Goeje, Eenige Mededeelingen, p. 23-33

(٢١٦) تعدادهم لدى : -Ferrand, Le Tuhfat, p. 18-19

فيها ، وهو ما رأينا مثاله من قبل فى « سفرنامه » . والرحلات تمثل بالأحرى انطباعات من « سنوات التجوال » للعلماء الشبان الذين كان هدفهم قبل كل شيء التعريف بأساتذتهم وبالعلماء الذين التقوا بهم ، متجاهلين تسجيل جوانب الحياة الأخرى . ويكوّن وصف الرحلة أحيانًا قصة ممتازة يسجل فيها صاحبها كل ما رآه أو ما هو جدير بالاهتمام ، وكثيرًا ما تبلغ مستوى عاليًا من الفن والصياغة الأدبية . ولعل أكثر الآثار قيمة دون منازع فى هذا المجال رحلة ابن جبير ولكنها ليست الأولى من الناحية الزمنية فى هذا الضرب من الأدب .

فأول من وضع الأساس لهذا الفن حسب علمنا ، وكان ذلك قبل نصف قرن من ابن جبير ، هو الفقيه أبو بكر محمد بن العربى (٤٦٨ هـ - ٥٤٣ هـ = ١٠٧٦ - ١١٤٨)[٢١٧] وأصله من إشبيلية ولكن لم يلبث أن غادرها إلى المشرق[٢١٨] بعد زوال دولة / آل عباد التى شغل أبوه فيها مركزاً مرموقاً؛ وكان هدفه الدراسة، ولما يتجاوز عمره إذ ذاك السادسة عشرة (٤٨٥ هـ = ١٠٩٢) . وفى الشام تتلمذ على واحد من مواطنيه ممن أقاموا هناك وهو أبو بكر الطرطوشى[٢١٩] صاحب كتاب « سراج الملوك » المعروف . وفى بغداد استمع إلى دروس الغزالى[٢٢٠] وأصبح تلميذاً للغوى النابه التبريزى[٢٢١] الذى كان يدرّس آنذاك بالنظامية، وهى المدرسة نفسها التى كان يدرس بها الغزالى . ومن بغداد أدى فريضة الحج بطريق الصحراء عام ٤٨٩ هـ = ١٠٩٦ ثم رجع إلى بغداد ليقيم بها بعض الوقت ، وغادرها إلى مصر فدرس بالقاهرة والإسكندرية على علماء المدينتين . وتوفى أبوه بالإسكندرية عام ٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ ولعل هذا ما دفعه إلى الرجوع إلى وطنه وذلك بعد تجوال دام ثمانية أعوام . وسرعان ما ذاع صيته كقاض وفقيه من أكبر فقهاء المالكية بالأندلس، وتوفى أثناء / رحلة اضطر فيها يبدو إلى القيام بها إلى مدينة فاس . وقد خلف لنا عدة مصنفات 304
فقهية[٢٢٢] ، ولم يكن الشعر غريبًا عليه فقد حفظ لنا المقرى عددًا من قصائده[٢٢٣] ، أما وصف

---

(٢١٧) ابن خلكان (طبعة De Slane) الجزء الثالث ، ص ١٢ - ١٤ - المقرى الجزء الأول ، ص ٤٧٧ - ٤٨٩
Reinaud, Introduction, p. CXXIII-CXXIV —Pons Boigues p. 216- 217, No I72

(٢١٨) المقرى الجزء الأول ، ص ٤٨٢

(٢١٩) ابن خلكان ، شرحه ، ص ١٣

(٢٢٠) شرحه - المقرى ، الجزء الأول ، ص ٤٧٩ ، ٤٨٢

(٢٢١) المقرى : الجزء الأول ، ص ٤٧٨

(٢٢٢) راجع ذلك لدى : المقرى ، الجزء الأول ، ص ٤٨٣ - ٤٨٤ و Pons Boigues, p. 217
راجع أيضًا : Brockelmann, GAL, SBI, p. 298

(٢٢٣) المقرى ، الجزء الأول ، ص ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠ ، ٤٨٣ ، ٤٨٩

رحلته فمفقود ، وكان يحمل عنوان « الرحلة » أو « ترتيب الرحلة »[٢٢٤] ، وقد نقل عنه ابن خلدون[٢٢٥] والمقرى[٢٢٦] . وينقل عنه الأخير وصفًا شيقًا لغرق سفينتهم عند سواحل افريقيا ولكن يرجع إلى مصنف آخر له يحمل عنوان « قانون التأويل » ، وهو أمر غير واضح لنا تمام الوضوح . ويبدو من الأسلوب ميل ملحوظ إلى الصنعة[٢٢٧] ؛ وفى موضع آخر يذكر لنا المقرى ولع ابن العربى بصنوف الغرائب[٢٢٨] ويورد أخبارًا عديدة عن مقابلاته مع بعض العلماء والأدباء[٢٢٩] . وابن العربى يقدم لنا مادة ضخمة فى مجال الحضارة الثقافية والاجتماعية لذلك العصر .

وقد رفع هذا الضرب من الصياغة الأدبية إلى درجة عالية كما ذكرنا من قبل ابن جبير . ولا غرابة فى هذا إذ ينتمى هو وأبوه إلى طبقة الكتاب والأدباء من رجال الدواوين المثقفين ، وهم تلك المجموعة التى لعبت بوجه عام دورًا كبيرًا فى تطوير الأدب العربى . ويرتفع نسب محمد بن أحمد بن جبير الكنانى إلى أسرة عربية عريقة ، فقد دخل أسلافه الأندلس فى القرن الثامن[٢٣٠] مع القائد المشهور بَلْج بن بشر بن عياض القشيرى ؛ وكان اسم ابن جبير من الأسماء المحببة إلى أسرته فقد حمله الكثيرون قبله[٢٣١] . وموطن الأسرة على ما يبدو كان بلنسية **Valencia**، وقد ولد ابن جبير عام ٥٤٠ هـ = ١١٤٥ والتحق مبكرًا بأعمال الدواوين والكتابة كأبيه[٢٣٢] وعمل مدة طويلة كاتباً لحاكم غرناطة من الموحدين، ولم يلبث أن كسب الشهرة ككاتب وشاعر بل وكان له ديوان شعر، فيما يبدو، متعدد الرواية ولكن لم يصلنا عنه سوى قصائد متفرقة؛ كما ترك لنا أيضاً رسائل نثرية كسبت بعض الشهرة[٢٣٣]. ولم يكن بوسعه أن يشتهر فى الدوائر العلمية الأوروبية على أساس هذا، أى قبل التعرف على رحلته التى ضمنت له مكانة مرموقة فى الأدب الجغرافى .

---

(٢٢٤) -Pons Boigues, p. 217

(٢٢٥) ابن خلكان (طبعة De Slane) ، الجزء الثالث ، ص ١٤

(٢٢٦) -Pons Boigues p. 217

(٢٢٧) المقرى ، الجزء الأول ، ص ٤٨٠ – ٤٨١

(٢٢٨) شرحه ، ص ٤٨١ – ٤٨٢

(٢٢٩) شرحه ، ص ٤٨٤ – ٤٨٩

(٢٣٠) -Schiaparelli, Ibn Gubayr, p. VIII

(٢٣١) شرحه ، ص ٧ – ٨

(٢٣٢) المصادر عنه جمعها زيبولد (Seybold, ZDMG, 63, p. 353-355)

(٢٣٣) مصنفاته لدى ابن الخطيب ؛ راجع : Schiaparelli, Ibn Gubayr, p. XII-XIII

وفى سن مبكرة توجه إلى الحج فغادر غرناطة فى رفقة أحد الأطباء وذلك فى فبراير من عام / 305
٥٧٨هـ =١١٨٣. وخط سير رحلته معروف لنا جيدًا بفضل الإشارات الدقيقة والتواريخ
المحددة(٢٣٤) ، فقد مر بسبتة وسار بمحاذاة سواحل سردينيا وصقلية حتى دخل ميناء
الإسكندرية ، ومنها ركب النيل إلى القاهرة . ثم غادرها إلى صعيد مصر فوصل إلى مرفأ عيذاب
وهو المرفأ المعهود للحجاج على البحر الأحمر . ونزل بجدة وأخذ قافلة إلى مكة حيث أقام هناك
حوالى نصف عام ؛ ثم مر بالمدينة فى طريقه إلى الكوفة وزار بغداد وسامرا فالموصل فحلب ومنها
إلى دمشق التى أمضى بها بضعة أشهر قبل أن يغادر الأراضى الإسلامية فقد كانت سواحل الشام
آنذاك فى قبضة الصليبيين . ومن ميناء عكا أخذ ابن جبير سفينة مسيحية فنزل بصقلية وذلك
بعد رحلة طويلة حافلة بالمشاق/لم تخل من كوارث هددت السفينة . وفى هذه المرة استطاع أن 306
يتعرف على الجزيرة عن كثب ، وفى أبريل من عام ٥٨١ هـ = ١١٨٥ وصل إلى غرناطة بعد غيبة
دامت أكثر من عامين . ومن الجلى أن انطباعاته عن المشرق كانت قوية جدًا وانعكست فى قصيدة
له طويلة يشيد فيها بصلاح الدين الأيوبى الذى تعلقت به آنذاك أنظار المسلمين ؛ ولم يمض وقت
طويل فإذا بابن جبير لدى سماعه باستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس (٥٨٣ هـ =
١١٨٧) يخرج فى رحلة ثانية تستغرق عامين (٥٨٥ هـ - ٥٨٧ هـ = ١١٨٩ - ١١٩١) ،
ولكن لم تحفظ لنا تفاصيل عنها . كذلك نعرف القليل عن الأعوام الأخيرة من حياته ؛ وقد قام
برحلة ثالثة إلى المشرق وهو شيخ كبير قد أحزنته وفاة زوجه فى عام ٦٠١ هـ = ١٢٠٤(٢٣٥) ، ولم
يرجع إلى الأندلس مرة أخرى بل أمضى أكثر من عشرة أعوام متنقلا بين مكة وبيت المقدس
والقاهرة مشتغلا بالتدريس والأدب إلى أن وافته المنية بالإسكندرية فى عام ٦١٤ هـ = ١٢١٧ .

ورحلته الأولى فقط هى التى ترك لنا وصفها على هيئة يوميات فى كتاب منفرد وضعه بعد رجوعه حوالى عام ٥٨١ هـ = ١١٨٥ . وعنوانه غير معروف لنا بالضبط ، وله عنوانان تغلب عليهما الصنعة هما « كتاب اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك » ، و« تذكير بالأخبار عن اتفاقات الآثار » ، ولكن كلاهما منحول على ما يظهر(٢٣٦) . ويمكن القول بأن العنوان ربما كان بكل بساطة « رحلة الكنانى » نسبة إلى القبيلة التى ينتسب إليها . وعلى هذه

---

(٢٣٤) عن طريق رحلته راجع : Schiaparelli, Ibn Gubayr, p. XXV-XXVII

(٢٣٥) هكذا يقول ابن الأبار (Schiaparelli, Ibn Gubayr, p. X, note 1)
وفى العادة يقال إنه بدأ رحلته فى عام ٦١٤ هـ = ١٢١٧

(٢٣٦) هكذا يؤكد رايت (Wright, Ibn Jubayr, 2 ed.,

الرحلة بالذات تعتمد شهرته الأدبية بين الأجيال التالية ؛ وإن اقتصرت هذه الشهرة بطبيعة الحال على المغرب . وقد أفاد منه فائدة كبرى الجغرافيون والمؤرخون مشيرين إلى اسمه تارة ومضمنين ببساطة قطعًا كبيرة منه فى مصنفاتهم تارة أخرى . فمن بين الرحالة أخذ عنه العبدرى وخالد بن عيسى البلوى (حوالى عام ٧٣٦ هـ = ١٣٣٥) وابن بطوطة المشهور أو راويته على الأصح[٢٣٧] ؛ ومن بين المؤرخين رجع إليه ابن الخطيب والمقريزى والفاسى وأيضًا المقرى[٢٣٨] الذى كما هى عادته قد حفظ لنا روايات عديدة هامة منه . وتلميذ ابن جبير هو الشريشى (توفى عام ٦١٩ هـ = ١٢٢٢) شارح مقامات الحريرى المشهور الذى حفظ لنا شذورًا كبيرة من رحلة أستاذه[٢٣٩] .

وعلى ذيوع صيته فإن الدوائر العلمية الأوروبية لم تعرف إلى الآن سوى مخطوطة وحيدة لرحلته موجودة بليدن ويرجع تاريخها إلى عام ٨٧٥ هـ = ١٤٧٠ . وقبل التعرف عليها وجدت عن ابن
307 جبير معلومات مهملة متناثرة فى مصادر أخرى ؛/وقد أصبحت الرحلة معروفة بفضل الطبعة الجزئية لدوزى وأمارى ، وهو أمر مفهوم بالنسبة لأهمية مادته عن صقلية بالذات . ولا يخلو من طرافة أن نذكر فى هذا الصدد أن الشيخ الطنطاوى * الذى كان يدرِّس آنذاك ببطرسبرغ قد أخذ طرفًا فى تلك الطبعة[٢٤٠] . ولم تلبث الرحلة أن أصبحت فى متناول الأيدى بفضل الطبعة الكاملة التى نشرها المستشرق البريطانى رايت Wright (١٨٥٢) فى بداية نشاطه العلمى ولمّا يتجاوز سن الثانية والعشرين ، ثم بفضل الترجمة الإيطالية الجيدة بقلم اسكياباريلى Schiaparelli (١٩٠٦)[٢٤١] . وبعد أكثر من نصف قرن أعاد دى خويه (١٩٠٧) طبعة رايت مع تصحيحات عديدة ؛ أما المخطوطة التى تم الكشف عنها خلال تلك الفترة بفاس فإنها لم تجلب تصحيحات ذات أهمية[٢٤٢] .

ووفقًا لمضمونها فإن « رحلة الكنانى » تمثل أهمية قصوى فى تصوير حياة ذلك العصر ، فهى

---

(٢٣٧) شرحه ، ص ١٧

(٢٣٨) شرحه ، ص ١٨ – ١٩

(٢٣٩) شرحه ، ص ١٩

* هو أستاذ مصرى اشتغل بتدريس اللغة العربية بجامعة بطرسبرغ وتوفى بها عام ١٨٦١ . وقد ترك لنا كراتشكوفسكى بحثًا طريفًا عن حياته ونشاطه العلمى . (المترجم)

(٢٤٠) -Krachkovski, Sheikh Tantawi p. 80

(٢٤١) -Schiaparelli, Ibn Gubayr; reviewed by de Goeje cf: W. Wright, Ibn Jubayr, 2 ed., p. 24

(٢٤٢) شرحه ، ص ٢٣

تقدم وصفًا حيًا لمصر والشام عندما بدأت فيهما حركة التحرير الإسلامية ضد الصليبيين بزعامة نور الدين وصلاح الدين . وهى فى هذا تقترب كثيرًا من مذكرات الأمير أسامة بن منقذ ، على الاختلاف الكبير فى المنهج وطريقة العرض بين المؤلفين . وفى تحليله لرواية ابن جبير عن الشام اعترف الأب لامنس Lammens بأن ابن جبير(٢٤٣) يمتاز بقوة ملاحظة نافذة . وللرحلة قيمة فريدة فيما يتعلق بتصويرها لحياة مسلمى صقلية ، ففى طريق عودته مر ابن جبير فى ديسمبر من عام ١١٨٤ على ساحل صقلية الشمالى من مسينا Messina إلى ترابانى Trapani وبقى هناك إلى فبراير سنة ١١٨٥ يرقب عن كثب مظاهر الحضارة المادية والروحية لإخوته فى الدين . والمهم فى روايته ليس وصفه لآثار العصور الوسيطة الممتازة بصقلية بل أيضًا لبلاط النورمان الذى لم يترك لنا الكتاب اللاتين المعاصرون شيئًا يذكر عنه(٢٤٤) .

وتعتبر رحلة ابن جبير من الناحية الفنية ذروة ما بلغه نمط الرحلة فى الأدب العربى . وإذا كان وصفه المفصل للأبنية مملا للقارىء العادى فإن أسلوبه يمتاز بالكثير من الحيوية وسهولة التعبير ، مثال ذلك وصفه لمكس الإسكندرية أو لكارثة السفينة على سواحل صقلية . أما عرضه العام فيستهدف الصنعة والأناقة ، وهو كثيرًا ما يلجأ إلى السجع الذى يعالجه بالكثير من المهارة دون أن يبالغ فيه أو يضطر القارىء إلى تكلف الجهد فى تفهمه . كما يشحن كتابته بالاقتباسات الأدبية والإشارات اللطيفة مما يتطلب درجة معينة من المعرفة والاطلاع حتى يضحى مفهومًا للقارىء . وبعد فهذا مصنف رفيع الأسلوب يختتم بجدارة حلقة الجغرافيين الأندلسيين لهذا العصر .

ومن الطبيعى أن شخصيات لامعة كالبكرى والإدريسى وابن جبير لا تستغرق حلقة مؤلفى المغرب ، إذ نلتقى إلى جانبهم/بمصنفات أقل شهرة ولكنها لا تخلو أحيانًا من بعض الصلة بهم ، 308
أحدها هو « كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار » لمؤلف مجهول(٢٤٥) . ويدين العلم بمعرفته إلى كريمر A. Kremer الذى نشر المتن عام ١٨٥٢ معتمدًا على مخطوطة فينا مع عرض مفصل لمضمون الكتاب باللغة الألمانية . ومخطوطة باريس التى استعملها لأول مرة أمارى(٢٤٦) قد ساعدت فى تغطية الفجوات التى بمخطوطة فينا ، غير أنها لا هى ولا مخطوطة الجزائر عاونتا على

---

(٢٤٣) -Lammens, Causeries, p. 53-64

(٢٤٤) -Amari (Nallion), I, p. 52; III, p. 541-542, 544-546

(٢٤٥) وهناك أيضاً -Brockelmann, GAL, SBI, p. 879, No 5 b (Anonyme Paris, 2225
(قارن : Fagnan, L'Afrique, p. II ؛ الاستبصار = 879 - 878 .p ,

(٢٤٦) -Amari (Nallino) I, p. 53, No 11

حل المشاكل المتعلقة بأصل الكتاب ومضمونه . أما ترجمة فانيان Fagnan (١٩٠٠) التى اعتمد فيها على المخطوطات الثلاث وزودها بكمية من الشروح والتعليقات فهى تمثل خطوة فى هذا السبيل وإن كانت لا تقدم لنا الكتاب فى صورته الكاملة[٢٤٧] . ولا يتطرق الشك إلى صلته بالبكرى غير أن باب الاستنتاج يقف عند هذا الحد ؛ ويرجع تاريخ تأليف الكتاب إلى عام ٥٨٧ هـ = ١١٩١ ، ويتضح هذا من مضمونه[٢٤٨] . ويلوح لنا أن المؤلف أدى فريضة الحج فهو يصف الحرمين وصفًا مفصلا ثم ينتقل إلى الكلام عن مصر ويتحدث عن أهراماتها[٢٤٩] ؛ وبعد هذا ينتقل شمالا إلى الكلام عن شواطىء المحيط الأطلنطى ، ثم يورد لنا فى الغالب مادة البكرى[٢٥٠] واصفًا المدن وفقًا لترتيب جغرافى معين مضيفًا إلى ذلك بعض روايات المعاصرين[٢٥١] . وهو يجهد فى تسجيل جميع ما رآه فى طريقه وكل ما سمعه عن البلاد المحيطة[٢٥٢] ومن ثم فهو يختلف عن البكرى لا فى التبويب وترتيب المادة[٢٥٣] فحسب بل وأيضًا فى أنه يصف افريقيا الشمالية وصف شاهد عيان[٢٥٤] ويقتصر فى عرضه على الجغرافيا الوصفية وحدها[٢٥٥] . وأغلب الظن أن المصنف لم يصلنا فى مسودته الأصلية ، فالعرض يرد على لسان من يدعى « الناظر » ، وهو الذى (نظر) فى الكتاب فى عهد أبى يوسف يعقوب الموحدى (الذى حكم ابتداء من عام ٥٨٠ هـ = ١١٨٤) وأضاف إليه روايات تتعلق بانتصار الخليفة وسفارة صلاح الدين الأيوبى إلى فاس فى عام ٥٨٨ هـ = ١١٩٢ . أما مؤلف الكتاب نفسه فيأتى ذكره على ما يبدو تحت اسم « المؤلف » وتذكر إلى جانبه مصادر أخرى[٢٥٦] . وجميع هذه النقاط لا تزال تنتظر المزيد من التوضيح إذ يحيط بها الغموض منذ أيام أمارى ؛ ومن الجلى أن الأثر / 309

---

(٢٤٧) كذيل لترجمته أضاف فانيان Fagnan كذلك ترجمة روايته عن صقلية :

Fagnan,Centenario, II, 105-106

(٢٤٨) -Fagnan, L'Afrique, p. IV

(٢٤٩) شرحه ، ص ، ٢ ، ٥

(٢٥٠) شرحه : ص ٤

(٢٥١) -Kramers, EI, EB, p. 69

(٢٥٢) -Reinaud, Notice sur les Dictionnaires, p. 106

(٢٥٣) -Fagnan, L'Afrique, p. VII

(٢٥٤) -Reinaud, Notice sur les Dictionnaires, p. 106

(٢٥٥) -Fagnan. L'Afrique, p. VII

(٢٥٦) -Amari (Nallino), I, p. 53- cf: Fagnan, L'Afrique, p. 211-212

لا يبلغ مرتبة الآثار الأخرى كما وأن الاهتمام به لم يكن كبيرًا[٢٥٧] * .

وعلى نقيض الأندلس والمغرب فمن الملاحظ أن مصر لم تخرج فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر مصنفات جغرافية ممتازة طبقت شهرتها البلاد العربية الأخرى ، غير أنها حافظت على الدوام كما كان عليه الحال من قبل على إنتاج تلك المراجع الرسمية فى الإحصاء والإدارة التى يمكن تقصى بدايتها فى المقدمات الأدبية المختلفة التى عملت من أجل كتاب الدواوين منذ العهد العباسى ثم تتبع تطورها فى الموسوعات الكبرى لعهد المماليك بمصر . هذا وقد احتلت الجغرافيا مكانتها كعلم فى تلك المراجع الرسمية وهاته الموسوعات الكبرى كغيرها من العلوم الأخرى ، بيد أن التحليل العميق لمادة هذه المصنفات من شأنه أن يساعد على استخراج معطيات هامة تتعلق بالأوضاع الداخلية أو الخارجية للأقطار المختلفة .

وإلى هذا العصر ينتمى مصنف من ذلك النوع وضعه ابن ممّاتى ، واتضحت قيمته منذ أيام هامر Hammer وڤستنفلد Wüstenfeld ووكد هذه الأهمية من أرّخوا لمصر الإسلامية مثل بكر Becker وبيوركمان Björkman . وتتميز شخصية المؤلف نفسه فى بعض نواحيها بطرافة لا تقل عن طرافة كتابه[٢٥٨] ، فابن مماتى (توفى عام ٦٠٦ هـ = ١٢٠٩) ينتمى إلى أسرة قبطية عريقة شغل عدد من أفرادها مناصب كبرى فى دواوين الدولة المختلفة . ولما وضع صلاح الدين يده على مصر (٥٦٤ هـ = ١١٦٩) اعتنق ابن مماتى الإسلام وشغل فى عهد صلاح الدين وخلفائه منصب رئيس ديوان الجيش والمالية . وبعد أن تدعم سلطان الملك العادل بمصر فى عام ٥٩٦ هـ = ١٢٠٠ اضطرت الدسائس ابن مماتى إلى الهرب إلى حلب حيث وافاه أجله المحتوم ؛ وقد سرد لنا سيرة حياته ياقوت الذى كان على معرفة تامة بنشاطه فى أواخر سنى حياته . وثقافة ابن مماتى الأدبية تقف فى أعلى مستوى لذلك العصر ، وقد خلف لنا عددًا من الآثار الأدبية هناك اثنان منها ضمن مخطوطات جامعة لنينجراد[٢٥٩] .

---

* من المعتقد أن اسم المؤلف هو أبو الفضل جعفر بن محمد المعروف بابن محشرة . وقد تناول الكتاب بالدرس والتحقيق أستاذ مصرى هو الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ونشره مع تعليقاته سنة ١٩٥٨ . (المترجم)

(٢٥٧) -Amari (Nallino), I, p. 54

(٢٥٨) -Brockelmann, GAL, I, p. 335, No 2; SBI, p. 572-573;

انظر خاصة : -Krachkovski, Ibn Mammātī, p. 1-3

وأيضًا بحثه فى الموضوع نفسه ص ٨٩ — ٩٠ ؛ Sarton, Introduction, II, p. 464

(٢٥٩) -Krachkovski, Ibn Mammati p. 3-4

وأيضًا بحثه فى الموضوع نفسه ص ٩٠ — ٩٦

هذا وقد ساعده وضعه الحكومى فى الاطلاع على الوثائق الرسمية هذا إلى جانب معرفته الجيدة بالنظام الإدارى مما يضفى على كتابه « قوانين الدواوين » قيمة لا مراء فيها . وإلى جانب الكلام على التعليمات الدواوينية البحتة فإن نصف الكتاب يبحث فى نظام الأراضى بمصر ويفحص فحصًا دقيقًا أنواعها ومساحتها وخراجها وغير ذلك من المسائل المتعلقة بها ؛ ولا حاجة لنا بالطبع
310 إلى توكيد أهمية مثل هذه المادة . والكتاب معروف فى روايتين ،/غير أنه مع الأسف ليست فى متناول اليد سوى القصيرة منهما ، أضف إلى هذا فى طبعة غير مرضية بل وموجزة أكثر (١٢٩٩ هـ = ١٨٨٢)[٢٦٠] ، وهى ترجع إلى عهد السلطان العزيز (توفى عام ٥٩٥ هـ = ١١٩٨) وتشمل عشرة فصول . أما الرواية الأولى والأكبر فتضم خمسة عشر فصلا وظهرت فى عهد صلاح الدين ولكنها لا تزال معروفة فى المخطوطات فقط[٢٦١] * . ورغما من أن ابن مماتى لا يعد شخصية كبيرة فى ميدان الجغرافيا العربية إلا أنه خير من يمثل أحد اتجاهات ذلك الأدب فى مصر . وكما مر بنا فإن سيرة حياته تأخذنا إلى الشام وبذلك تسمح لنا بتركيز أنظارنا مرة أخرى على مشرق العالم الإسلامى حيث يبدو القرن الثانى عشر شاحبًا فقيرًا فيما يتعلق بالأدب الجغرافى ، فهو بهذا كأنما يهيىء الجو لظهور آخر أثر جغرافى ضخم للعهد السابق للغزو المغولى ، أعنى بذلك معجم ياقوت الحموى .

* نشر المؤرخ الكبير البروفسور عزيز سوريال عطية كتاب ابن مماتى بالقاهرة فى عام ١٩٤٣ ، مع مقدمة ضافية عن حياة المؤلف ونظام الأراضى بمصر فى عصره. (المترجم)

(٢٦٠) -Björkman, Beiträge, p. 33

(٢٦١) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 573

الفصل الحادى عشر
جغرافيو القرن الثانى عشر بالمشرق

إذا حدث ولم نلتق بمصنف جغرافى هام فى شرق العالم الإسلامى فى القرن الثانى عشر فإن هذه
الظاهرة/لا تعنى إطلاقًا أن المصنفات الجغرافية كانت قليلة العدد أو تنتمى إلى نمط واحد . فهنا 311
تقابلنا كما كان عليه الحال من قبل جميع الأنماط الأساسية ممثلة فى الجغرافيا الفلكية التى تمس أحيانًا
الجغرافيا الوصفية ، وفى المعاجم الجغرافية سواء التى تعتمد على أساس لغوى أو أسس أخرى
كالأنساب ، وأخيرًا تأتى الرحلات . وإلى جانب اللغة العربية التى استمرت بها تقاليد القرون
السابقة نما أيضًا بالكثير من الحيوية الأدب الجغرافى باللغة الفارسية وظهر بها فى هذا الصدد آثار
تتميز بالكثير من الأصالة والإبداع .

وفى جوٍّ عربى خالص بالنسبة لذلك العصر يمكن أن نلاحظ ظاهرة طريفة ترتبط بمحيط حضارى مستقل بذاته ، مركزه خوارزم ومجاله جميع بلاد ما وراء النهر . ويمكن تقصى آثار ابتداء هذه الظاهرة فى تلك المنطقة بالذات إلى القرن العاشر ، أى فى العصر السابق لعصر البيرونى ؛ أما نهايتها فيمثلها الغزو المغولى ، أى بالتقريب تلك اللحظة التى كان يجمع فيها ياقوت مادة علمية ضخمة من مكتبات مرو من أجل معجميه المشهورين .

وبخوارزم وبلاد ما وراء النهر ترتبط معظم أسماء المؤلفين والمصنفات الذين سنتكلم عنهم فى
نطاق القرن الثانى عشر ، وقد لاحظنا أثناء الكلام على الترجمة الفارسية لكتاب ابن حوقل كيف
ظهر الميل إلى ربط الجغرافيا الوصفية بالجغرافيا الرياضية فى منتصف ذلك القرن ؛ ويمكننا أن
نلاحظ الآن فى مصنف لأحد أهالى خيوه وهو الخرقى[١] محاولة مضادة لتقريب الجغرافيا الرياضية
من الجغرافيا الوصفية . أما عن المؤلف نفسه فإن معلوماتنا تقتصر على القليل ، بل إن اسمه نفسه
مجال لاختلاف كبير[٢] . وتشير النسبة إلى صلته بمحلة صغيرة من أعمال مرو ،/وكان مقربًا من 312
بلاط شاهات خوارزم ومن المحتمل أنه كان فلكياً للبلاط ، وقد عاش معظم حياته بخيوه[٣]* . وتوفى

---

(١) -Brockelmann, GAL, I, p. 473, No 4; SBI, p. 863 —Kramers, EI, EB, p. 69
-Wiedemann, Al-Kharaki, p. 1027 —Sarton, Introduction, II, p. 204-205.
عن مقالات فيدمان راجع : Sarton, Introduction II, p. 205

(٢) -Wiedemann, Beiträge, LXX, p. 203 —Sarton, Introduction, II, p. 204

(٣) -Wiedemann Beiträge, LXX, p. 204

* لذا فضل البعض قراءة اسمه على أنه الخيوقى . (المترجم)

على ما يظهر فى عام ٥٣٣ هـ = ١١٣٨ [٤] ، أما أرصاده الأساسية فترجع إلى عام ١١٣٢ [٥] .

ويحمل مصنفه الرئيسى طابعًا فلكيًا ينعكس فى العنوان نفسه وهو « منتهى الإدراك فى تفسير الأفلاك » . ويجب أن يقتصر حكمنا عليه من مضمونه العام ومن المقتطفات المنقولة عنه ، إذ أن المعروف من مخطوطاته لم ينشر بعد ؛ ويرجع الفضل فى دراستها لنالينو وفيدمان . والمصنف كان على ما يظهر معروفًا فى الشرق لمدة طويلة فحاجى خليفة يورد لنا تحليلا موجزًا لمحتوياته يعتمد فى أغلب الظن على رأى العين (de visu)[٦] .

وهو ينقسم إلى ثلاث « مقالات » رئيسة يدور الكلام فى الأولى منها على تركيب الأفلاك وحركاتها ، وتعالج المقالة الثانية الكلام على شكل الأرض وتقسيمها إلى معمور وغير معمور وتحديد المواقع الجغرافية وفقًا لخطوط الطول والعرض ؛ أما الثالثة فتبحث فى التقاويم المختلفة وأشكال المجموعات النجمية[٧] . وللفصل الثانى من المقالة الثانية الذى يعالج الكلام على البحار أهمية خاصة بالنسبة للجغرافيا الوصفية ، وهو معروف بأكمله فى طبعة مستقلة وترجمة لاتينية بقلم نالينو[٨] . وينضم هذا الفصل بطبيعته إلى ذلك التراث من الجغرافيا الفلكية الذى مر بنا فى أحد الفصول السابقة وذلك أثناء إيراد ترجمة قطعة البتانى ؛ غير أن رسالة الخرقى لا تتفق معها تمام الاتفاق . ولا يخلو من طرافة أن نلاحظ أن الخرقى ينقل عددًا من رواياته عن الجيهانى بل يبدأ الفصل المشار إليه بالرجوع إليه[٩] .

والخرقى فى الواقع عالم نقالة وليس ببحاثة . ولا يخلو من مغزى فى هذا الصدد أنه أفرد فصلا « لقبة الأرض »[١٠] ؛ وقد لاحظ بارتولد فى حالات معينة صلته الوثيقة ببطلميوس[١١] . أما آراؤه فى الفلك فهى استمرار لنظريات الخازم من القرن العاشر وابن الهيثم من القرن الحادى عشر ونظرًا لأن الأخيرين قد عرفا فى أوروبا الوسيطة فقد ورد ذكر مصنف الخرقى فى الرسائل اللاتينية

---

(٤) -Kramers, EI, EB, p. 69 —Brockelmann, GAL, SBI, p. 863

(٥) -Nallino, Battani, I, p. LXVI-LXVII

(٦) حاجى خليفة ، الجزء السادس ، ص ١٧٠ ، رقم ١٢١٢٤

(٧) -Sarton, Introduction, II, p. 205

(٨) -Nallino Battani, I, p. 169-172 (ترجمة) ; p. 173-175 (نص)
راجع أيضا فيران : Ferrand, Relations, I, p. 170-171

(٩) راجع : حدود العالم ، ص ٢٨

(١٠) -Ferrand, Notes, p. 17-20

(١١) حدود العالم ، ص ٧

القديمة[١٢] .

أما مصنفه الثانى الذى لا يقل انتشارًا عن الأول ، وذلك إذا بنينا حكمنا على عدد المخطوطات المعروفة لنا منه ، فيحمل عنوان « التبصرة فى علم الهيئة ». /وهو يرتبط بالمصنف الأول ارتباطًا وثيقًا 313
وأشبه ما يكون بمقتطفات منه ولكنها تقتصر على الجانب الفلكى فقط مع إهمال الأجزاء المتعلقة بالجغرافيا الوصفية مثل الفصل الذى مر بنا ذكره عن البحار والذى يمكن أخذ فكرة عنه من ترجمة فيدمان لمقدمتى المقالتين الأولى[١٣] والثانية[١٤] . أما بالنسبة لتطور الأدب الجغرافى فإن هذا المصنف الأخير أقل مساسًا بالتأكيد بموضوع دراستنا من « منتهى الإدراك »

وإلى خيوه ينتسب أيضًا معاصر للخرقى هو الأديب العالم المشهور أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى (٤٦٧ هـ - ٥٣٨ هـ = ١٠٧٥ - ١١٤٤)[١٥] ، وسنقصر كلامنا على معجمه الجغرافى فقط وإن كان لا يمثل أهمية ذات بال بالنسبة لشخصيته العامة . أما مكانته فى الثقافة الإسلامية فتعتمد على شهرته كمفسر ممتاز على مذهب المعتزلة وكنحوى ولغوى ومؤلف لعدد من المصنفات الأدبية فى النثر الفنى . وقد ولد وتوفى بخوارزم ، وبالرغم من أن إحدى ساقيه كانت خشبية فقد عرف بأسفاره الواسعة وأمضى أعوامًا طويلة بمكة حتى لقب « جار الله » ؛ وقد رأى ابن بطوطة قبره بالجرجانية[١٦] . وهو يمثل من ناحية تفكيره أنموذجًا طريفًا وفريدًا لمؤلف نشط فى مجال الحضارة العربية بينما يرجع نسبه إلى أصل غير عربى ؛ بل إنه يؤكد على الدوام فى مقدمات كتبه قيمة اللغة العربية كأداة لتلك الحضارة .

وليس لمصنفه الجغرافى أية علاقة برحلاته بل يرتبط بدراساته وقراءاته ويحمل عنوان « كتاب الجبال والأماكن والمياه » ؛ وهو على هيئة معجم جغرافى من طراز معجم البكرى تقريبًا . والزمخشرى وإن لم يكن على علم بهذا المعجم الأخير إلا أن مصادرهما واحدة وهى معاجم لغويى القرن التاسع التى تبين مواقع الأماكن الجغرافية فى الجزيرة العربية مما ورد ذكره فى الأشعار وفى النثر العربى المبكر . والفرق الأساسى بين البكرى والزمخشرى هو أن الأول كان يستهدف فى الغالب

---

(١٢) -Wiedemann, Al-Kharaki, p. 1027 —Sarton, Introduction, II p. 205

(١٣) -Wiedemann, Beiträge, LXX, p. 205-209

(١٤) شرحه ص ٢٠٩ - ٢١١

(١٥) -Brockelmann, GAL, I, p. 289-293, No 12; SBI, p. 507-513 —Brockelmann, EI, IV, p. 1305-1307 —Sarton, Introduction, II, p. 271-272 —Reinaud, Introduction, p. CV-CVI
وأيضًا بحثه : Notice sur les dictionnaires, p. 78-82

(١٦) ابن بطوطة ، الجزء الثالث ، ص ٦

الناحية الأدبية اللغوية بينما أولى الثانى اهتمامه إلى التفسير فجهد قبل كل شىء فى ضبط الأعلام الجغرافية الواردة فى السيرة النبوية والقرآن والحديث .

314 ولقد كانت زيارته لجزيرة العرب ذات قيمة كبرى فى اضطلاعه بهذا العبء ، بل إن فكرة وضع مصنف من هذا النوع قد نشأت لديه هناك وشجعه عليها شريف مكة آنذاك ، الذى كان مولعًا بالكتب وعلى معرفة جيدة بالحجاز فقد زار معظم مواضعه الهامة[١٧] لذا فإن أكثر مادة الزمخشرى تفصيلا هى المتعلقة بجبال الحجاز وأوديته ومياهه ؛ والمؤلف يرجع فى معظم الحالات إلى رواية الأمير المذكور[١٨] . وقد ترك هذا أثره على جميع الكتاب فالأعلام التى استوفيت فيه استيفاء تامًا هى مواضع الجزيرة العربية وحدها ، وأندر من ذلك بكثير تظهر مواضع فلسطين والشام والعراق ومصر ، وبصورة استثنائية إيران وما وراء النهر ؛ هذا بينما لا يرد أى ذكر للأندلس أو الهند . وباستثناء الحالة التى أشرنا إليها فإن جميع مصادر الزمخشرى تكاد تكون مصادر مكتوبة وهى تمثل فى جوهرها مصنفات اللغويين الذين عالجوا هذا الموضوع قبله[١٩] .

بهذا تتحدد قيمة كتاب الزمخشرى بالنسبة لنا ولذلك فمن العبث البحث فيه عن أية مواد تتعلق بمناطق قريبة من موطنه كخوارزم وآسيا الوسطى ، إذ إن اهتمامه فى الواقع قد اتجه إلى ناحية أخرى . ولدى مقارنته بالبكرى تبدو مادته أقل تفصيلا ؛ وفقط من وقت لآخر تظهر لديه قراءات أفضل للأعلام الجغرافية . وقد عرف ياقوت كتابه وأثنى عليه[٢٠] ، ولكن لا يخلو من مغزى أنه لم يضمه إلى مجموعة المصنفات المكرسة لجزيرة العرب وأنه قلما ينقل عنه[٢١] . لهذا فليس غريبًا ألا نلتقى به إلا نادرًا حتى فى المراجع العلمية الحديثة بالرغم من وجود طبعة له لا بأس بها صدرت منذ عام ١٨٥٦ وقام بتحضيرها سالفردا دى غرافه **Salverda de Grave** تلميذ يينبول **T. G. J. Juynboll**[٢٢] ؛ وقد زود هذا الأخير تلك الطبعة بتحليل دقيق لمادتها ؛ وبحسب رأيه فإن مصنف الزمخشرى لم يكمل وأن مؤلفه لم يصغه الصياغة النهائية[٢٣] .

---

(١٧) يينبول فى كتاب : Salverda, p. 26-28

(١٨) شرحه ، ص ١٤ — ١٨

(١٩) شرحه ، ص ١٨

(٢٠) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٧ : له كتاب لطيف فى ذلك .

(٢١) Heer, p. 30, 1—Salverda, p. 8-

(٢٢) Salverda-

(٢٣) شرحه ، ص ٩

ولحسن الحظ لم يكن جميع مواطنى الزمخشرى قليلى الاهتمام بموطنهم مثله ، ويمثل طرف نقيض له فى هذا الصدد معاصره الأصغر منه سنًا أبو سعد عبد الكريم السمعانى (٥٠٦ هـ – ٥٦٢ هـ
315 = ١١١٣ – ١١٦٧)[٢٤] من أهالى مرو ؛ وقد اشتهر فى الدوائر العلمية الإسلامية/كمفسر وعالم بالحديث ولكن شهرته الأساسية بالنسبة لنا هى كمؤرخ ، فقد أكمل تاريخ بغداد للخطيب البغدادى وألف تاريخًا معتمدًا لموطنه مرو تواترت الأخبار أخيرًا بالعثور على مخطوطته ونقل عنه ياقوت[٢٥] . ولمصنفه « كتاب الأنساب » علاقة مباشرة بالأدب الجغرافى بحيث يقدم لنا فرصة مواتية للتحدث عنه فى هذا الصدد .

وقد ساعد الوسط الذى نشأ فيه السمعانى على تنمية ميوله العلمية فهو ينتمى إلى أسرة عربية استوطنت مرو منذ عهد بعيد وخرج منها عدد كبير من العلماء والفقهاء[٢٦] ؛ هذا وقد اشتهرت مرو بمكتباتها الحافلة بالكتب إلى عهد ياقوت . وتمكن السمعانى مبكرًا من القيام بعدد من الرحلات فى « طلب العلم » وأمضى فترات تختلف طولا وقصرًا فى مراكز العلم القريبة من موطنه مثل بخارى ونيسابور وأصفهان ، أو النائية مثل بغداد وحلب ودمشق والمقدس بل عاش وقتًا ما بالحجاز ؛ ويتراوح عدد العلماء الذين سمع منهم بين أربعة آلاف وسبعة آلاف ؛ ويستلفت النظر أيضًا العدد الكبير لمؤلفاته فالقائمة الموثوق بها تورد ما يقرب من خمسين مصنفًا معروفة لنا جميعها من أسمائها فقط[٢٧] باستثناء « كتاب الأنساب » المذكور .

وقد جعل السمعانى هدفه من هذا الكتاب وضع مؤلف فى الأنساب التى اشتهرت بها شخصيات تاريخية فى مجال أو آخر ؛ وترد فيه الأنساب مرتبة حسب حروف المعجم ؛ وإذا كان بعضها يرتفع إلى أسماء أعلام قبلية أو تاريخية فإن الغالبية العظمى منها ترتبط بأسماء جغرافية للنواحى والمدن والأماكن المختلفة . وبهذا يضحى مفهومًا لنا أن القيمة الكبرى التى ينالها الكتاب ليست من ناحية مادته التاريخية فقط بل والجغرافية كذلك . وترد فيه الأنساب مزودة بالشرح

---

(٢٤) -Brockelmann, GAL, I, p. 329-330 No 2; SBI, p. 564-565 —Sarton, Introduction, II, p.444-445 —Margoliouth, Al-Sam'ani المقدمة ص ١ – ٥ — Bartold, Turkestan, p. 35-36 —Beliaev, MITT, p. 33-34 —Reinaud, Introduction, p. CX-CXI.

(٢٥) -Heer, p. 39, b

(٢٦) عن نسب السمعانى راجع : Margoliouth, Al-Sam'ani, p. 5

(٢٧) فهرست مصنفات السمعانى ، شرحه ص ٦

الكافى مع ضبط الأعلام الجغرافية والتعريف بها تعريفًا دقيقًا ، ويصحب كل ذلك تعريف مختصر بسير الشخصيات التاريخية وذكر مصنفات العلماء الخ .

ولا شك أن السمعانى لم يكن أول من صنف فى هذا الميدان فمن بين السابقين له[٢٨] يرد عادة
اسم الدارقطنى[٢٩] فى القرن العاشر الذى وضع مرجعًا فى « أسماء التابعين »[٣٠]، ثم ابن/ماكولا 316
فى القرن الحادى عشر وقد ألف فى « أسماء الرجال »[٣١].ولعل أقربهم رحمًا بالسمعانى من حيث الموضوع هو ابن القيسرانى (توفى عام ٥٠٧ هـ = ١١١٣)[٣٢] الذى وضع مرجعًا فى الأنساب المتشابهة طبع منذ عام ١٨٦٥[٣٣] وأفاد السمعانى منه كثيرًا . ومن هذا يتضح أن فكرة وضع مصنف من هذا الطراز لم تنشأ لأول مرة لديه ، غير أن المؤلفين الآخرين اختلفوا عنه من حيث أن هدفهم كان قبل كل شيء استيفاء ما يسمى « بعلم الرجال » (أى رواة الأحاديث النبوية) ؛ وقد وجد من أمثال هذه المصنفات عدد غفير ولكن فائدتها اقتصرت على مجالها فحسب ، لذا فليس غريبًا أن يضفى النسيان ذيوله على من ذكرناهم من المؤلفين السابقين للسمعانى فى خضم العدد الهائل للمؤلفين الذين كتبوا فى هذا الموضوع وألا يحفل العلم الأوروبى بهم إلا فى مجال ضيق يهم المتخصصين فى أمثال تلك الموضوعات .

ولم تكن فكرة السمعانى تحقيق أسماء الأشخاص بل توضيح أصل واشتقاق الأسماء التى نُسبوا إليها ؛ وبذلك اتسع موضوعه بدرجة كبيرة خاصة فى المحيط الجغرافى ، وفى هذا يتركز الاختلاف الجوهرى فى المنهج بينه وبين الزمخشرى . وتحتل مكانًا بارزًا من بين الأنساب التى عالجها أنساب إيران وماوراء النهر ؛ وهو يسوق أحيانًا مادته إلى العصر الذى عاش فيه بل وكثيرًا ما اقتصر علمنا ببعضها على روايته وحدها ، مثال هذا ما يورده تحت نسب الصينى عن شخصيات مختلفة تحمل هذا الاسم وزارت الصين فى أغراض التجارة أو العلم ؛ وهو يسوق فى هذا الصدد تفاصيل قد تسمح أحيانًا بإلقاء ضوء على مسائل تتصل بعلاقة الصين لا ببلاد ماوراء النهر وحدها بل حتى بمناطق نائية كالمغرب[٣٤] .

(٢٨) -Reinaud, Introduction, p. CVIII-CIX

(٢٩) -Brockelmann, GAL, I, p. 165, No 12 —Heffening, Al-Darakutni, p. 49-50

(٣٠) -Brockelmann, GAL, SBI, p, 275 No 12

(٣١) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 602, No 4

(٣٢) -Brockelmann, GAL, p. 355-356, No 8; SBI, p. 603

(٣٣) -De Jong, Kitab al-ansab

(٣٤) (ياقوت ، المعجم ، الجزء الثالث ، ص ٤٤٤ – ٤٤٥ =) -Schefer, Notice, p. 11

هذا وقد بدأ السمعانى فى وضع كتابه فى عام ٥٥٠ هـ = ١١٥٥ ولم يلبث أن نال الشهرة التى يستحقها وأصبح خلال نصف قرن من ذلك مصدرًا من المصادر الأساسية لياقوت الذى كان يحمل له تقديرًا عاليًا[٣٥] .

وكما هو الحال دائمًا فقد لاح الكتاب بالنسبة للأجيال التالية هائلا ضخم الحجم وفى حاجة إلى الإيجاز فاختصره فى منتصف القرن الثالث عشر المؤرخ المشهور ابن الأثير بعنوان « اللباب »[٣٦] ، واختصر هذا بدوره فى القرن الخامس عشر عالم جم النشاط هو السيوطى وذلك تحت عنوان « لب اللباب » . وهذه الكتب عرفتها الدوائر العلمية الأوروبية بفضل طبعاتها الجزئية منذ السنوات الثلاثينات من القرن الماضى ؛ أما كتاب السمعانى نفسه فقد تأخر ظهوره رغمًا من أهميته الكبرى إلى عام ١٩١٢ . وإخراج طبعة علمية مستوفاة لأثر ضخم متعدد
النواحى مثل « كتاب الأنساب » أمر/ليس باليسير ولعل ناشرى « سلسلة جب التذكارية » 318
Gibb Memorial Series فعلوا خيرًا حينما اكتفوا بنشر المخطوطة المحفوظة بالمتحف البريطانى على هيئة طبعة مصورة طبق الأصل (facsimile)* . ويجب ألا يغيب عن الذهن أن هذه المخطوطة ليست أفضل المخطوطات الموجودة وأن قراءتها تتطلب أحيانًا غير قليل من العناء والمشقة وذلك لخطها الدقيق الذى تصعب قراءته فى بعض المواضع . ولدينا بالاتحاد السوفيتى لحسن الحظ مخطوطة بمعهد الدراسات الشرقية جلبت من تركستان ويمكن على ضوئها تصحيح مخطوطة المتحف البريطانى ، وهى من ناحية القيمة أفضل من الطبعة المصورة على الرغم من أن الاثنتين ترتفعان إلى أصل واحد على ما يظهر[٣٧] ؛ وعلى نقيض المختصرات المتأخرة التى عملت للكتاب والتى فقدت إلى حد كبير قيمتها العلمية حاليًا فإن « كتاب الأنساب » للسمعانى سيبقى على أغلب الاحتمال محتفظًا على الدوام بقيمته فيما يتعلق بالمسائل التاريخية والجغرافية المرتبطة ببلاد ما وراء النهر .

وأحد السابقين لياقوت مباشرة قد أفاد ياقوت كثيرًا من مصنفه ولكن لا يمكن اعتباره عالمًا على الإطلاق بل رحالة ، ورحالة ذا أهداف معينة ، وهو على الهروى (توفى عام ٦١١ هـ = ١٢١٥) . وكما تدل نسبته فأصله من هرات ولكنه ولد بالموصل وارتبطت حياته بالبلدان الغربية

---

(٣٥) (فهرس فستنفلد غير تام : المعجم . الجزء السادس) -Heer, p. 39, note 5.

(٣٦) العنوان الكامل: «كتاب اللباب فى تهذيب الأنساب»

* لا تزال دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن توالى نشر الأجزاء المحققة من طبعتها «للأنساب». (المترجم)

(٣٧) -Beliaev, MITT, p. 34

للعالم الإسلامى (٣٨) . وقد أمضى معظم حياته فى التجوال حتى لقب « بالسائح » ، ولكن تجواله لم يكن فى طلب العلم أسوة بعدد من الجغرافيين المعروفين لنا بل فى زيارة أضرحة الأولياء والمقامات الكثيرة التى سمع بها . وهذه التجوالات تقف أنموذجًا حيًا لتلك الرياضة الروحية التى سيطرت بمرور الزمن على دوائر عديدة والتى عرضها لنا بالكثير من المهارة جولدتسهر Goldziher (٣٩) . وفى أواخر أيام حياته تمتع الهروى بنفوذ كبير لدى والى حلب وهو أحد أبناء صلاح الدين الأيوبى ، وشيد له الأمير مدرسة توفى بها ؛ وقد رأى قبره ابن خلكان (٤٠) .

ونظرًا لأنه اتخذ فى تجواله مسوح صوفى متسول فقد استطاع أن يحصل على ما يقيم أوده فى الطريق مستغلا فى ذلك أحيانًا معرفته بالسحر وجميع ضروب المخاريق . ويبدو اهتمامه بعرض الدنيا أنه كتب اسمه أو نقشه فى كل مكان زاره ، وقد أبصر ابن خلكان بعينى رأسه أمثلة لذلك بعد
319 نصف قرن من هذا (٤١) . وعلى أية حال فقد كان الهروى كاتبًا نقالة يرتبط اسمه/ببعض المصنفات تارة من طراز « كتب الزيارات » المعروفة لنا وهى أشبه بمرشد للحجاج ، وطورًا من طراز آخر معروف لنا أيضًا وهو طراز « العجائب » . وأشهر مصنفاته « كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات » الذى وإن لم يطبع إلى الآن * إلا أن الاقتباسات والترجمات العديدة منه تسمح بتكوين فكرة صحيحة عنه (٤٢) . وتحيط بالكتاب ظاهرة فريدة هى أن المؤلف اعتمد على ذاكرته اعتمادًا تامًا أثناء تدوينه له ، ذلك أن الجانب الأكبر من أوراق الهروى ومدوناته فقد أثناء كارثة حلت بسفينته قرب عكا فى ١١٩٢ ؛ وهو يستدرك على نفسه أحيانًا بقوله إن معلوماته عن بعض الأماكن التى لم يستطع زيارتها شخصيًا قد أخذها ممن زاروها .

وقد بدأ الهروى تجواله من حلب فكانت الشام أولى الأقطار التى زارها ووصفها ، وقد حدث هذا بعد أعوام قليلة من زيارة ابن جبير . وأقام أثناء ١١٧٣ – ١١٧٤ ببيت المقدس تحت سلطان الصليبيين ، وهنا تظهر لنا جدوى اهتمامه بالنقوش فقد دون نقوشًا ذات قيمة تاريخية

---

(٣٨) -Reinaud, Introduction, p. CXXVII-CXXIX —Brockelmann, GAL p. 478, No 8, SBI, p. 879 —Sarton, Introduction, II, p. 413-414 —Amari, (Nallino) I, p. 51-52, 199; II, p. 500 —Mednikov, Palestina. Translation, p. 948. 966 —Schefer, Archives p. 587-609 —Bloch.

(٣٩) -Goldziher, Muham. Studien, II, p. 318

(٤٠) -Bloch, p. 14

(٤١) شرحه ، ص ١٣

* نشره المعهد الفرنسى بدمشق سنة ١٩٥٣ بعناية جانين سورديل – تومين Janine Sourdel-Thomine . (المترجم)

(٤٢) راجع : حاجى خليفة ، الجزء الأول ، ص ٣٠٤ – ٣٠٥ ، رقم ٧٥٠

كانت بمسجد عمر واختفت بعد ذلك . وزار على ممر الوقت أضرحة الأولياء وأماكن العبادة المعروفة بمصر وبلاد العرب والعراق وإيران والهند كما زار أيضًا أراضى الدولة البيزنطية والقسطنطينية فى عهد الإمبراطور مانويل الأول من آل كومنين (١١٤٣ - ١١٨٠) وجرت له محادثة مع الإمبراطور كما يزعم . وفى صقلية سنحت له فرصة مراقبة ثوران بركان اتنا Etna فى عام ١١٧٥ ؛ وهو وإن لم يزر الحبشة إلا أنه وصف الأماكن المشهورة بها عن من زاروا تلك البلاد .

وقد أسفر تحليل نقاط مختلفة من كتابه أنه لا يجب رفض مادة الهروى بحجة أنه رجل سهل التصديق لما يقال ومخادع ؛ وهذا هو موقف كاتب جغرافى واسع الاطلاع لا يخلو من الحذر مثل ياقوت . فهو رغمًا من أنه يشير إلى اسمه مرتين فقط[٤٣] إلا أنه كما ثبت من البحث الذى قام به بلوخ Bloch قد رجع إليه فيما يقرب من ثمانين مرة أمكن تحديدها بدقة تامة . والواقع أن ما نقله ياقوت عن الهروى يفوق هذا بكثير لأن بلوخ قصر بحثه على النقاط المتعلقة بالشام وفلسطين . وصواب رأى ياقوت فى أنه يمكن استخراج معلومات مفيدة من مصنف الهروى قد وكده العلم الأوروبى الحديث ، على الأقل فيما يتعلق بتلك الأقسام التى أخضعت لأبحاث مستقلة وهذا ينطبق على المادة الضخمة التى يوردها الهروى عن الصليبيين وفى وصفه للقسطنطينية[٤٤] ولثوران بركان اتنا . ومن الطريف ملاحظة أنه رغمًا من سهولة التصديق لدى الهروى فإنه قد ذهب لمراقبة ثوران بركان اتنا/ليتحقق بعينى رأسه من زعم أحد العلماء المحليين الذى ادعى أنه قد رأى 320
السمندر (Salamandar) يقفز فى اللهب دون أن يحترق . وقد تمكن الهروى من أن يثبت أن فوهة البركان هى التى كانت تقذف فى الواقع بحجارة ملتهبة فى اتجاه البحر[٤٥] .

ومن المؤكد أن كلا من السمعانى والهروى ، على اختلاف منهجيهما ، كانا أستاذين كبيرين لياقوت ، أعنى بذلك أنه قد نقل عنهما كثيرًا ؛ ويمكن أن نحكم إلى حد ما على درجة هذا النقل بفضل وجود المصنفات الأصلية بين أيدينا . وإلى جانب هذين المؤلفين نعرف أيضًا من القرن الثانى عشر ، وفى النصف الثانى منه بالذات ، عددًا من صغار المؤلفين السابقين لياقوت والذين تعتمد معرفتنا بهم فى الواقع على مجرد ذكر ياقوت لأسمائهم . وهم جميعًا نجوم ليست من الدرجة الثانية فحسب بل الثالثة ، غير أن عددهم الكبير يقف دليلا على الطابع المميز لذلك العصر وبرهانًا على أن ياقوت قد جهد فى استيعاب جميع المادة السابقة له حتى تلك التى لم تتمتع بأهمية

---

(٤٣) -Bloch, p. 12

(٤٤) -Hartmann, DI, XIX, p. 296-298

(٤٥) -Amari, Bibl. ar-Sic., I p. 136 —Amari (Nallino) II, p. 505

من المكانة الأولى . والسلسلة الطريفة لهؤلاء المؤلفين ممن ذكرهم ياقوت بالذات تساعدنا على إلقاء ضوء ساطع على شخصيته فى الفصل القادم .

وفى مقدمة معجمه التى يعطى فيها سردًا مفصلا لمصادره يذكر ياقوت أنه قد رجع إلى كتاب أبى الفتح نصر بن عبد الرحمن الإسكندرى (توفى عام ٥٦٠ هـ = ١١٦٥) بعنوان « فيما اختلف وائتلف فى أسماء البقاع » ، فهو بهذا إنما ينتمى إلى المصنفات من طراز « المختلف والمؤتلف » المعروف لنا بما فيه الكفاية والذى كثر استعماله فى ترتيب أسماء الأعلام فى مختلف فروع الأدب ، أى ليس فى الجغرافيا وحدها بل فى التاريخ وتاريخ الأدب الخ . ويقدر ياقوت هذا الكتاب تقديرًا عاليًا ويرى فيه « تأليف رجل ضابط قد أنفذ فى تحصيله عمرًا وأحسن فيه عينًا وأثرًا »[٤٦] ؛ورغمًا من ذلك فقد اطلع عليه ياقوت فى موجز لأبى موسى محمد بن عمر الأصفهانى[٤٧] (توفى عام ٥٨١ هـ = ١١٨٥) الذى مر بنا شخصه فى صدد آخر ، وهو من رواة الأحاديث المشهورين[٤٨] وأهم من ذلك أنه وضع ذيلا لمعجم الأنساب لابن القيسرانى[٤٩] .

ويتضح لنا من هذا المثال أن اهتمام هذه الجماعة من العلماء كان موجهًا قبل كل شىء إلى ما يسمى
321 «بعلم الرجال» (أى رواة الأحاديث). وإلى جانب هذا عرف ياقوت / مسودة أخرى لكتاب الإسكندرى عملها أبو بكر محمد بن موسى الخازمى[٥٠] (توفى عام ٥٨٤ هـ = ١١٨٨)، وهو كسابقه كان أيضاً من رواة الأحاديث[٥١] ولا شك أن هدفه كان مشابهاً لهدف ذاك. وقد قدر ياقوت مصنفه تقديراً عالياً فى بادىء الأمر ولكن عندما تعرف على مسودة أبى موسى تأكد لديه أن الخازمى «قد اختلسه وادعاه واستجهل الرواة فرواه»[٥٢]. ومن الممكن جداً أن يتصل بهذا المصنف مصنف آخر للخازمى محفوظ فى مخطوطة باستراسبورج يبحث فيه «ما اتفق لفظه واختلف مسماه من الأمكنة المنسوب إليها نفر من الرواة والمواضع التى ذكرت فى مغازى رسول الله»[٥٣].

---

(٤٦) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٨ .
(٤٧) شرحه
(٤٨) -Brockelmann, GAL, I, p. 365-366, No, 11; SBI, p. 625
(٤٩) المتن ص ١٦٧ – ٢٢٤ -De Jong, Kitab al-ansab, p. XIV-XVIII;
(٥٠) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ص ٨
(٥١) -Brockelmann, GAL, I, p, 366, No 12; SBI, p. 605
(٥٢) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٨ – ياقوت ، المعجم ، الجزء الخامس ، المقدمة ص ٣٢ – ٣٣
(٥٣) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 605, No 13, 3

وقد وكد صدق رأى ياقوت فى هذه الحالة ناشره فستنفلد فقد تمكن بفضل معاونة رايت Wright من أن يكشف بالمتحف البريطانى عن مخطوطة كتاب الإسكندرى تحت عنوان يشير إلى النمط المعروف لنا جيدًا وهو « كتاب الأمكنة والمياه والجبال والآثار ونحوها المذكورة فى الأخبار والأشعار[٥٤] » . ومن ثم فيجب أن نبصر فيه معجما جغرافيًا من طراز معاجم اللغة ورجال الحديث وضع خصيصًا لتوضيح « المؤتلف والمختلف » من الأسماء ، وهو هائل الحجم ويضم حسب تعداد فستنفلد ألفين وتسعمائة وثمانية وثلاثين اسما[٥٥] . وإزاء انعدام المصادر اللازمة لإجراء مقارنة صحيحة فمن العسير القول إلى أى واحدة من مسوداته الثلاث المعروفة لياقوت ترجع هذه المخطوطة ؛ غير أنه لدى مقابلته بمتن ياقوت تبدو ظاهرة طريفة وهى أن جميع مادة رسالة الإسكندرى قد ضمنها ياقوت فى معجمه . ورغمًا عن أن المقتطفات ترد تحت ثلاثة أسماء مختلفة إلا أنها تنطبق دائمًا على مادة مخطوطة المتحف البريطانى[٥٦] . ويتجاوز عدد الحالات التى ينقل فيها ياقوت عنه الألفين[٥٧] .

إن تفصيلنا الكلام على هذا الاتجاه فى المصنفات الجغرافية للنصف الثانى من القرن الثانى عشر أمر هام جدًا بالنسبة لنا ، لأنه يقف دليلا على سعة اطلاع/ياقوت المدهشة[٥٨] من ناحية وبرهانًا 322
على النشاط الكبير فى ميدان الجغرافيا لذلك العهد من ناحية أخرى . ومهما كان نوع الحكم الذى يصدره الإنسان على هذه المصنفات ، التى بالتأكيد لا يمكن مقارنتها بالآثار الكبرى لمدرسة البلخى – الإصطخرى – ابن حوقل ، إلا أن هناك ثمة نقطة للتشابه بين الطرفين . ذلك أنه من المستحيل أن يتجاهل الإنسان أن أحد تلك المصنفات ، مهما كانت قيمته من الدرجة الثانية ، قد خضع لثلاث مسودات مختلفة فى نطاق ثلاثين عامًا فقط . ونظرًا لأن الكتاب مصنف عادى فإن هذه الحقيقة لا يمكن أن تكون ظاهرة استثنائية ، إذ تحملنا على الافتراض بأن النشاط العلمى قد استمر قدمًا حتى وإن لم يتصف بالابتداع والأصالة .

ويمثل أهمية خاصة فى القرن الثانى عشر الأدب الجغرافى باللغة الفارسية . وقد حدث أن بينا

---

(٥٤) ياقوت ، المعجم ، الجزء الخامس ، المقدمة ، ص ٣٣ . غير موجود لبروكلمان .
راجع : Catalogus, II, p. 608, No 811

(٥٥) ياقوت ، المعجم ، الجزء الخامس ، المقدمة ، ص ٣٣ ، الفهرست ص ٣٤ – ٤٥

(٥٦) ياقوت ، المعجم ، الجزء الخامس ، المقدمة ، ص ٣٤ .

(٥٧) Mednikov, Palestina, II, 2 p. 969, note 1-

(٥٨) راجع : Heer, p 19 No 1

أكثر من مرة أن هذا الاتجاه يرتبط فى تطوره ارتباطًا وثيقًا بالجغرافيا العربية وأنه فى أى عرض هدفه الاستيعاب يجب فحصهما معًا جنبًا إلى جنب . وقد حدث فى بعض العهود أن قدم لنا الأدب الفارسى آثارًا أعظم بكثير من العربية ؛ وهو وإن رجع فى مصادره إلى المادة نفسها التى استقى منها الأدب العربى إلا أن تأثيره كان محدودًا لأن اللغة حالت دون انتشاره فى الجزء الغربى من العالم الإسلامى فاقتصر على المشرق وحده . وقد أتيحت لنا الفرصة لنبصر كيف أن المصنفات الأولى قد مرت فى المشرق على تعديلات وتغييرات عديدة أو أصبحت أساسًا ومصدرًا للمصنفات المتأخرة . وبالطبع لم تنشأ أنماط جديدة أو أصيلة فى الأدب الجغرافى باللغة الفارسية ، وبذا يمكن أن توزع جميع الآثار المبرزة للقرن الثانى عشر على الأنماط المعروفة لنا .

وأحد هذه المصنفات يذكرنا بمصنف ابن حوقل وإلى حد ما بمنهج وصف البلدان والمدن المختلفة كما تم تطبيقه فى المغرب فى « كتاب الاستبصار » الذى مر بنا الكلام عليه فى الفصل السابق لهذا ، ذلكم هو كتاب « فارسنامه » لابن البلخى ؛ وهو أحد الآثار الأدبية القليلة التى تمخض عنها عهد سلاجقة فارس(٥٩) . ولا نكاد نعلم شيئًا عن المؤلف نفسه ، غير أن اسمه يشير إلى انتماء أسرته إلى مركز من المراكز الثقافية القديمة فى المشرق الذى ينتمى إليه أيضًا مؤسس المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية . وكان المؤلف « مستوفيًا » (أشبه ما يكون برئيس حسابات) فى عهد أحد السلاجقة(٦٠) ، وهو الذى كلفه بوضع هذا المصنف الذى يمثل وصفًا تاريخيًا جغرافيًا مفصلا لولاية فارس بإيران ؛ ويمكن إرجاع تاريخ تصنيفه إلى العشرة الأولى من
القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ،/وهى الفترة بين عامى ١١٠٦ 323
و١١١٦(٦١) . والكتاب يبدأ بقسم تاريخى مفصل عن ملوك إيران قبل الإسلام(٦٢) ؛ ورغمًا من أن لى استرانج Le Strange ، وهو أول من لفت الأنظار إلى هذا الأثر(٦٣) ، يتشكك فى قيمة القسم التاريخى منه إلا أن نيكولسون Nicholson يعتقد أنه لا يخلو من بعض الأهمية بصفته أقدم ما كتب نثرًا باللغة الفارسية فى تاريخ تلك الحقبة وأنه بالإضافة إلى هذا لا يعتمد على تاريخ حمزة

---

(٥٩) -Kramers, EI, EB, p. 69-70

(٦٠) -Nicholson, The Farsnama, p. X

(٦١) -Sarton, Introduction, II, p. 221

(٦٢) -Nicholson, Farsnama, p. 8-113

(٦٣) -Le Strangc, Description of The Province of Fars, p. 4-5

الاصفهانى وحده كما ظن لى استرانج بل على عدد كبير من المصادر الأخرى[٦٤] .

وقد أفرد فيه قسم ليس بالكبير لفتح العرب لفارس[٦٥] ، ولكن يلى هذا القسم الجغرافى القيم الموجود فى ترجمة علمية بقلم لى استرانج[٦٦] . ومضمون هذا القسم يقرب إلى حد كبير من كتاب ابن حوقل فى واحدة من مسوداته العديدة[٦٧] . أما تبويب الكتاب فيتبع أيضًا النموذج المعروف لنا جيدًا ، فبعد عرض قصير للتقسيم الإدارى للولاية[٦٨] يرد وصف لنواحيها المختلفة[٦٩] وللطرق الرئيسة[٧٠] ثم استطرادات مختلفة عن القبائل التى تقطن الولاية[٧١] ، ويلى هذا الكلام على الخراج[٧٢] . وواضح من هذا أننا بإزاء تكملة واستمرار لأسلوب المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب ولكن مع الاقتصار على وصف ولاية واحدة .

وعلى ما يظهر فإن الكتاب لم يكتسب صيتًا واسعًا ، وهو معروف حتى الآن فى مخطوطتين فقط وثيقتى الصلة ولكنهما مكنتا على أية حال من إخراج الترجمة التى ذكرناها للقسم الجغرافى وأيضًا الطبعة الكاملة للمتن[٧٣] . أما فى محيط الأدب الفارسى فلا شك أن المؤلف قد ترك أثرًا كبيرًا ، ففى القرن الرابع نقل عنه كثيرًا حمد الله قزوينى[٧٤] ، وفى القرن الخامس عشر أفاد منه كثيرًا حافظ آبرو[٧٥] .

وبعهد آخر سلاجقة العراق طغرل الثانى (٥٧٣ هـ - ٥٩٠ هـ = ١١٧٧ - ١١٩٤) يرتبط مصنف جغرافى لأحمد طوسى يعكس نمطًا آخر فى الجغرافيا[٧٦] ، ذلكم هو أول كتاب باللغة الفارسية فى الكوزموغرافيا[٧٧]/وهو يذكّر بعض الشيء بالمصنف المعاصر له فى المغرب 324

---

(٦٤) -Nicholson, The Farsnama, p. XXII-XXIV

(٦٥) شرحه ، ص ١١٣ - ١١٩

(٦٦) -Le Strange, Description of The Province of Fars, p. 17-30, 311-339, 865-889

(٦٧) -Kramers, EI, EB, p. 69-70

(٦٨) -Nicholson, Farsnama, p. 119-120

(٦٩) شرحه ص ١٢١ - ١٦٠

(٧٠) شرحه ص ١٦٠ - ٢٤٦

(٧١) شرحه ص ١٦٤ - ١٧٠

(٧٢) شرحه ص ١٧٠ - ١٧٢

(٧٣) شرحه

(٧٤) -Le Strange, Deseription of The Province of Fars, p. 1-2 —Sarton, Introduction, II, p. 221.

(٧٥) -Le Strange, شرحه , p. 3

(٧٦) -Sarton, Introduction II, p. 413

(٧٧) -Ruska, GZ, p. 596

للغرناطى ولكن يغلب عليه طابع أكثر جدية فضلا عن أن مادته أحفل بكثير من مادة الغرناطى[٧٨] . وعنوانه « عجائب المخلوقات » ، بل وتبويبه فى عشرة فصول (« قانون وأركان »)[٧٩] يكشف عن شبهه الشديد بمصنف زكريا القزوينى الذى ظهر بعد قرن من ذلك[٨٠] . وكان تأليفه كما يجب أن يفترض من التاريخ الذى يسوقه المؤلف هو حوالى عام ١١٨٠[٨١] ؛ ويستند على محض خطأ التاريخ الذى يذكره حاجى خليفة (وهو عام ٥٥٥ هـ = ١١٦٠)[٨٢] ، وهو خطأ وجد طريقه إلى بعض المؤلفين الأوروبيين . أما عن المؤلف نفسه فلا نكاد نعلم شيئًا ، ويرد اسمه فى الغالب على أنه محمد بن محمود بن أحمد[٨٣] ويلوح أن أصله من همدان ، ودليل ذلك إشادته بتلك المدينة مما يفوق كثيرًا ما كتبه عن طوس[٨٤] .

ودليل آخر على ارتباطه بموطنه استعماله الكثير لابن الفقيه وذلك فى مسودة تشبه إلى حد كبير مخطوطة « مشهد »[٨٥] المعروفة لنا . كذلك يكشف عن معرفة مباشرة كهذه بابن فضلان رغمًا من أنه ينقل روايته بالكثير من الخلط[٨٦] ؛ ومعروفة لديه أيضًا مذكرات أبى دلف . وكما هو الأمر فى كثير من الأحايين مع جغرافيى العهود المتأخرة فإن المعلومات المتعلقة بالقرنين الحادى عشر والثانى عشر يسودها الكثير من الاضطراب لدى المقارنة بما عليه الحال مع العهد السابق لذلك الذى توجد عنه مصادر يمكن الاعتماد عليها أكثر[٨٧] .

والعدد الهائل لمخطوطات هذا المصنف التى بأوروبا قد لفت النظر إليه ، خاصة فيما يتعلق بتاريخ شعوب أوروبا الشرقية ؛ وقد حاز قصب السبق فى الكشف عن قيمته بالنسبة لهذا الموضوع المستشرق فون هامر **Von Hammer** الذى نقل عنه مقتطفات عديدة فى مؤلفه الذى ظهر عام ١٨٢٥ عن « أصل الروس » **Sur les Origines Russes**[٨٨] . وقيمة هذه

---

(٧٨) -Kramers, EI, EB, p 69

(٧٩) -Rosen, Coll, Scient., III, p. 144

(٨٠) -Kramers, EI, EB, p. 69

(٨١) -Ruska, GZ, شرحه

(٨٢) حاجى خليفة ، الجزء الرابع ، ص ١٨٨ ، رقم ٨٠٧١

(٨٣) (يتشكك فى صحة الاسم) -Rosen, Coll. Scient., III, p 144

(٨٤) شرحه ص ١٤٥ . أثبت الاسم الحقيقى : N. D. Miklukho-Maklai p. 186-188

(٨٥) -Beliaev, MITT, p. 20

(٨٦) -Kovalevski, p. 42

(٨٧) -Volin, Zap. IVAN, VI, p. 79

(٨٨) المتن ص ٩٦ – ١٠٢ -Hammer, Sur Les orig. russes, p. 32-39

المقتطفات كما هو الأمر دائمًا ليست عالية ولكنها لعبت دورها فى البحث العلمى ، ففى عهد فرين Frähn لم توجد مخطوطة لكتاب طوسى بسان بطرسبرغ فاضطر إلى الاستعانة فى بحثه المشهور عن ابن فضلان بما نقله هامر[٨٩] . وفقط بعد أعوام طويلة من ذلك تمكن دورن Dorn من الاستعانة بأشهر مخطوطة لطوسى بأوروبا وهى مخطوطة غوتا Gotha[٩٠] ، وذلك فى بحوثه عن بحر قزوين وسواحله . ويمتلك معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية فى الوقت الحاضر / مخطوطتين للكتاب لم تفحصا بعد فحصًا كاملا دقيقًا[٩١] . 325

وفى بعض مخطوطات طوسى ، خاصة مخطوطة غوتا ، خارطات يبلغ عددها ستة فى العادة ، وهى لبحر قزوين والبحر المتوسط وبلاد الجبال والسند والخليج الفارسى وبلاد العرب[٩٢] . ولعله من فحصها يمكن الافتراض بأنها ذات علاقة ما « بأطلس الإسلام » ؛ وقد لاحظ دورن عند نشره لخارطة بحر قزوين أنه مرسوم فى الواقع على طريقة الإصطخرى[٩٣]. غير أن أفضل الخبراء قاطبة بالكارتوغرافيا العربية ، وهو كونراد ميلر K. Miller الذى نشر جميع هذه الخارطات فى أطلسه نقلا عن مخطوطة غوتا[٩٤] المذكورة قرر أن « خارطات طوسى فريدة فى نوعها وغير عادية[٩٥] » . وفى الواقع أن خارطتى الجبال وبحر قزوين فقط هما اللتان روعى فى تخطيطهما بعض العناية والدقة ، أما بقية الرسوم فتمثل فى الغالب مسودات وتخطيطات أولية .

وثمة مصنف فى الجغرافيا العامة باللغة الفارسية يسوقنا إلى عهد قريب من عهد المغول وهو كتاب « جهان نامه » لمحمد بن نجيب بكران الذى وضعه لآخر شاهات خوارزم إلا واحدًا وهو السلطان محمد (٥٩٦ هـ – ٦١٧ هـ = ١٢٠٠ – ١٢٢٠)[٩٦] . وهو محفوظ فى مخطوطتين وأصبح معروفًا لدينا بالذات لأنه يدخل ضمن المجموعة الشهيرة التى كان يمتلكها طومانسكى Tumanski والتى تضم أيضًا مخطوطة « حدود العالم » المجهولة المؤلف . وتحمل مخطوطة

---

(٨٩) -Frähn, Ibn Foszlan, p. LIX

(٩٠) -Dorn, Auszüge, Mél. As., VI, p. 364-381

(٩١) -Kovalevski, p. 42

(٩٢) -Sarton, Introduction, II, p. 413

(٩٣) -Dorn, Auszüge, Mél. As., VI, p. 365

(٩٤) -Miller, III/IV, No V, Tabl 12, No 5 (The Mediterranean); No I, Tabl. 21, No 10 (Arabia); No II, Tabl. 22, No II (Persian Sea); No XII, Tabl 36 No 13 (Sind); No XIV, Tabl. 41, No 6 (Djibal); No XVI, Tabl, 47, No 6 (Caspian Sea)

(٩٥) -Miller, I, I, p. 21

(٩٦) -Kramers, EI, EB, p. 70

« جهان نامه » فى هذه المجموعة تاريخ ٦٦٣ هـ - ١٢٦٤ (٩٧)، أى أنه قد تم نسخها بعد خمسين عامًا تقريبًا من تأليف الكتاب * . ويرجع إلى طومانسكى نفسه الفضل فى التعريف بها لأول مرة وبشذرات منها ، ثم أضاف بارتولد مرارًا إلى هذه الشذرات اعتمادًا على المخطوطة الباريسية(٩٨) . والكتاب يمثل مصنفًا من النوع العادى فى جغرافيا العالم موجزًا بعض الشىء مما قد يحمل على الاعتقاد بأن المقصود به ليس سوى تعليق على مصور جغرافى (خارطة) لم يصلنا(٩٩) . غير أن بعض مادته عن آسيا الوسطى بالذات يمثل أهمية ما ؛ وقد لاحظ بارتولد فى وقته أنه يقدم تفاصيل قيمة عن جغرافيا ما وراء النهر وتاريخ القراخطاى(١٠٠) ؛ وقد ضمنت منه فى الآونة الأخيرة شذرات فى مجموعة المواد الخاصة بتاريخ التركمان(١٠١) . وبالرغم من أنه لا يمثل أهمية خاصة فى التاريخ العام
326 لتطور الأدب الجغرافى /فإن مصنف محمد بكران لم يُهْمَل على أية حال فى نطاق المحيط الفارسى لهذا الأدب فرجع إليه فى القرن الخامس عشر حافظ آبرو(١٠٢) ، وفى نهاية ذلك القرن يقدم لنا سعيد جرجانى موجزًا له فى القسم الثانى من كتابه الذى يحمل العنوان التقليدى « مسالك وممالك »(١٠٣) .

ويوشك « جامع الحكايات ولوامع الروايات » لمحمد عوفى أن يكون أهم مصنف باللغة الفارسية بالنسبة للعصر السابق للغزو المغولى وذلك فيما يتعلق بمادته الجغرافية(١٠٤) ، رغمًا من أنه لم يقصد به الجغرافيا فى حد ذاتها . ويرجع وقت تأليفه إلى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر . وعوفى أصله من بخارى وكان يفخر بأن جده الأعلى هو عبد الرحمن بن عوف الصحابى الجليل(١٠٥) ؛ غير أن شهرة عوفى ومكانته إنما تعتمدان على كونه مؤلفًا كبيرًا باللغة الفارسية .

---

(٩٧) حدود العالم ، p. VII (هناك خطأ فى التاريخ الميلادى)

* طبع بموسكو طبعة مصورة (facsimile) فى عام ١٩٦٠ . (المترجم)

(٩٨) -Tumanski, ZVO IX, p. 302-303—Same, ZVO, X, p. 124

(٩٩) -Romaskevich, Djehan-name, p. 49

(١٠٠) -Barthold, Turkestan, p. 36-37

(١٠١) -MITT, I, p. 349-350

(١٠٢) -Tumanski, ZVO, X, p. 124, note 1 (Bartold)

(١٠٣) -Romaskevich, Djehan-Name, p. 49

(١٠٤) -Browne, Literary History of Persia, II, p. 477-479 —Sarton, Introduction. II, p. 602 —Krymski, Isoria Persii, II, p. 22-25 —Krymski, Istoria Persii, (Ukranian) I, p. 11, No 25

(١٠٥) توفى فى عام ٣١ للهجرة = ٦٥٢ – Houtsma, EI, I, p. 57

ونال انتشارًا واسعًا مؤلف له باللغة الفارسية أيضًا يغلب عليه طابع التاريخ الأدبى هو « لباب الألباب » . وقد أمضى عوفى أيام صباه ببلاد ما وراء النهر خاصة بسمرقند ولكنه أقام أيضًا بخوارزم ونيسابور ؛ ونظرًا لاضطراب الأحوال بموطنه وتواتر أخبار الغزو المغولى فقد هاجر عوفى إلى بلاط سلطان البنجاب ناصر الدين قباجه وبعد هلاكه عام ٦٢٥ = ١٢٢٨ على يد ايلتتمش سلطان دهلى (٦٠٧ هـ - ٦٣٣ = ١٢١٠ - ١٢٣٦) التحق عوفى ببلاط الأخير ، وهو أول أمير هندى يعترف به رسميًا خلفاء بغداد بالرغم من أن هذا الاعتراف قد تم قبل قليل من زوال الخلافة العباسية على أيدى الغزاة المغول(١٠٦) .

وإلى وزير ايلتتمش رفع عوفى مصنفه « جوامع الحكايات » الذى بدأ تأليفه قبل عام ٦٢٥ هـ = ١٢٢٨ وأتمه بعد عام ٦٣٣ هـ = ١٢٣٦ . ورغمًا من أن متن الكتاب لم يطبع إلى الآن طبعة علمية * إلا أنه يمكن تكوين فكرة واضحة عنه ليس فقط من الشذرات المتفرقة المنقولة عنه أو من طابعه العام بل أيضًا بفضل البحث الوافى الذى كتبه باللغة الإنجليزية محمد نظام الدين وقدم فيه تحليلا لا مثيل له لمضمون الكتاب يمتاز بالعمق والتفصيل(١٠٧) .

ومصنف عوفى ينتمى إلى ذلك الطراز من المجموعات الأدبية الذى انتشر بشكل خاص فى الأدب العربى ، أقصد مجموعة القصص التاريخية واليومية التى يقصد بها النصيحة والموعظة الحسنة وأحيانًا الإمتاع . وهو يذكرنا من ناحية بكتاب التنوخى « الفرج بعد الشدة » الذى مر الكلام عليه ؛ ولا غرو فقد ترجم عوفى نفسه هذا الكتاب إلى اللغة الفارسية حوالى عام ٦٢٠ هـ = ١٢٢٣(١٠٨) ،/بل إن بعض قصصه يتكرر فى مجموعته هذه . ولا يخلو مصنف عوفى من درجة 327
معينة من التناسق ولو أنه تناسق ذو طابع خارجى إلى حد كبير ، فهو ينقسم إلى أربعة أقسام يضم كل واحد منها خمسة وعشرين بابًا ويختلف عدد الحكايات من باب إلى آخر . ويبلغ عدد الحكايات وفقًا لتعداد نظام الدين ألفين ومائة وثلاث عشرة حكاية(١٠٩) . ويضم القسم الأول منه الحكايات عن حكمة الخالق ومعجزات الأنبياء والأولياء وتاريخ الملوك والخلفاء وسير مشاهير الرجال . أما الثانى ففى بيان الأخلاق الحميدة والسيِّر المرضية ، والثالث فى الأخلاق المذمومة ؛

---

(١٠٦) -Awfi, EI, I, p. 537-538 —Iltutmish, EI, II, p 501

* ظهر الجزء الأول منه باعتناء الدكتور محمد معين ، وذلك ضمن منشورات جامعة طهران . (المترجم)

(١٠٧) محمد نظام الدين

(١٠٨) شرحه ص ١٤ - ١٨ ، ٩٤

(١٠٩) شرحه ، ص ١٩ ، ١٤٠ - ٢٦١

أما الرابع فيرد فيه الكلام على الأحوال الغريبة وعجائب البحر والبر وطبايع الحيوان وطرف وملح لمشاهير الناس . وهكذا كما هو الحال دائمًا مع المجموعات الأدبية نبصر فى كتاب عوفى موضوعات شتى تتابع داخل الباب الواحد دون أى نظام ، فيقابلنا إلى جانب التاريخ الأدب والنصائح والأخلاق بل وحتى ، كما يقول سارطون ، الكوزموغرافيا وعلم الحيوان(١١٠) .

وكمية المادة الجغرافية فيه ليست بالمهملة ، بل وأحيانًا ذات قيمة كبرى . فإلى جانب النقاط العديدة المنتشرة خلال الأقسام المختلفة للكتاب تفوز الجغرافيا بمعناها الواسع بالبابين السادس عشر والسابع عشر من القسم الرابع(١١١) وتبدو خلال ذلك محاولة ملحوظة لعرض المادة فى صورة منظّمة . ويرسم لنا فيهما عوفى لوحة عامة للعالم كما يراه الجغرافيون ويزودنا بمعلومات عن بعض الشعوب التى تقطن « الأقاليم » المختلفة . ويبدأ الفصل السادس عشر بفذلكة قصيرة فى الجغرافيا الطبيعية ، ويلى ذلك تقسيم العالم إلى سبعة « أقاليم » ؛ وفى هذا يتفق عوفى كثيرًا أو قليلا مع المسعودى من الجغرافيين السابقين والقزوينى والدمشقى من الجغرافيين اللاحقين . ويتلو هذا الكلام على الصين وعاصمتها القديمة وفنها وحضارتها ، وتتفق بعض معطياته فى هذا الصدد مع رواية أبى دلف المعروفة لنا . وتظفر بأهمية كبرى الروايات التالية لذلك عن القبائل التركية فى أواسط آسيا وشمال شرقى أوروبا . ويبدأ الفصل السابع عشر بالجغرافيا التاريخية للروم أى الدولة البيزنطية مع وصف لنظامها العسكرى وللإدارة البلدية والطقوس الدينية والعلم اليونانى فى آسيا الصغرى . ووصف جزيرة العرب الذى يلى هذا تصحبه حكايات عن حضارة العرب قبل الإسلام وعن حياتهم البدوية . أما روايته عن الهند فتقتصر على ملاحظات قصيرة عن انتشار السحر فيها وعن التنوع الكبير فى شعوبها وأديانها . ويلى هذا قسم عن الحبش وأخلاقهم وعاداتهم ، ويختتم هذا الفصل برواية مفصلة عن جزر بحر قزوين ومنطقة البلغار القريبة منه وقبائل أخرى ، وعن الرمال المتحركة وبلد النساء .

وكما يبصر من هذا السرد فالمعطيات الواقعية فى القسم الجغرافى تسير جنبًا إلى جنب مع
328 التفاصيل الأسطورية ؛ والمصنف فى مجموعه/يمثل أنموذجًا جيدًا لكتاب وضع من أجل المطالعة الأدبية ولكنه ينتحى بعض الشيء ناحية العجائب mirabilia . ومجموع الروايات الصحيحة فيه خاصة المتعلقة بالتاريخ القديم لشعوب اتحادنا السوفيتى ليس بالضئيل ؛ ويجب أن نتذكر دائمًا

---

(١١٠) Sarton, Introduction, II, p. 602-

(١١١) تحليل للمحتويات لدى محمد نظام الدين ، ص ١٠٢ – ١٠٣ ؛ وبالتفصيل فى المرجع نفسه ص ٢٤٧ – ٢٤٩

أن عوفى ، كما وضّح ذلك لأول مرة بارتولد ، هو المؤلف الإسلامى الوحيد الذى يورد اسم الأمير ڤلاديمير Vladimir[١١٢] عند الحديث على اعتناق الروس للمسيحية . كذلك بين ماركڤارت Markwart الأهمية الفريدة لروايات عوفى عن شعوب بلغار ويورا Youra وسكـان شمالى أوروبا[١١٣] ، كما لا تخلو من بعض الأهمية مادته عن قبائل شرقى آسيا والقبائل التركية ؛ وقد أثبت بارتولد أنه أول كاتب فارسى يذكر الأويغور Uighur[١١٤] . بل وحتى فيما يتعلق بالشرق الأقصى لديه نقاط لا تخلو من الأهمية فقد لفت شيفير Schéfer الأنظار إلى قصته عن السادة العلويين الذين هربوا بأنفسهم من اضطهاد الأمويين إلى الصين واتخذوها موطنًا لهم وأصبحوا بالتالى حلقة وصل بين الصين وبلاد الإسلام[١١٥] .

هذا التنوع فى المادة التى يرويها عوفى يقف دليلا على العدد الهائل من المصادر التى رجع إليها واستقى منها ، وقد حلل لنا محمد نظام الدين[١١٦] بالكثير من المهارة نيفًا وأربعين منها مما أمكن إثباته دون ريبة . أما فيما يتعلق بمادته الجغرافية على وجه الخصوص فإنه لن يتأتى تكوين فكرة عنها إلا إذا أفردت لذلك بحوث ودراسات مستقلة . ويبدو جليًا فى الأقسام العامة للكتاب تأثير مصنفات كمصنفات الجاحظ[١١٧] والبيرونى[١١٨] ، كما أن عدد المراجع التاريخية التى استقى منها مادته كبير للغاية[١١٩] . غير أنه يقتصر فى الفصول الجغرافية على الإشارة الغامضة إلى « كتاب الطبائع » و« مسالك وممالك »[١٢٠] ؛ وإذا أمكننا أن نبصر فى الأول بالكثير من الصواب « طبائع الحيوان » للمروزى[١٢١] من القرن الحادى عشر ، وقد مر عليه الكلام فى موضعه من الكتاب ، فإن القول بأن أى مصنف من نوع المسالك والممالك يقصد عوفى بالذات أمر عسير للغاية بإزاء العدد الضخم من المصنفات فى ذلك الباب . وكما هو الأمر دائمًا

---

(١١٢) راجع أيضًا : -Bartold, ZVO, IX, p. 262-267; SV, I, p. 39-50

(١١٣) -Markawrt, Bericht. p 261-334

(١١٤) -Barthold, Turkestan. p. 36

(١١٥) -Schefer, Notice, p. 3-4 —Muhammad Nizamuddin, p. 247

(١١٦) -Muhammad Nizamuddin, p. 35 - 103

(١١٧) شرحه ، ص ٩٦ – ٩٩ ، رقم ٣٤

(١١٨) شرحه ، ص ٣٧ ، رقم ١

(١١٩) شرحه ، حسب القائمة صفحات ٣٥ – ٣٦ ، رقم ٣ – ٤ ، ٨ – ١٧ ، ٣٠ ، ٣٦

(١٢٠) شرحه ص ١٠٢

(١٢١) راجع : شرحه ص ٨٨ – ٨٩ ، رقم ٢٩

مع مصنفات القرنين الثانى عشر والثالث عشر فهناك ما يبرر الافتراض بأنه قد استعمل آثار المؤسسين الأصليين لمدرسة القرن العاشر بصورة أقل مما استعمل مصنفات المتأخرين من هذه الجماعة .

ومؤلف عوفى يعتبر بحق مصنفًا كلاسيكيا فى الأدب الفارسى عرفه جميع الكتاب المتأخرين
329 ونخص منهم بالذكر حمد الله قزوينى وحافظ آبرو اللذين سنلتقى بهما فيما بعد ./هذا وقد ترجم « جوامع الحكايات » أكثر من مرة إلى التركية ، وممن ترجمه ابن عربشاه المشهور[١٢٢] (القرن الخامس عشر) كما رجع إليه كمصدر عام عدد كبير من الباحثين المعاصرين فى مختلف الميادين[١٢٣] . وهو مهم بالنسبة لنا لأنه يبين مدى اتساع أفق المعلومات الجغرافية بين غير المتخصصين من أهل الأدب فى بداية القرن الثالث عشر ، أى قبل قليل من الغزو المغولى .

ونظرة عامة إلى القرن الثانى عشر بالمشرق تبين لنا أنه لم يأت فى الواقع بأية أنماط جديدة أو آثار كبرى كما حدث فى الماضى ، غير أن هذا بالتأكيد لا يعنى أنه لم تظهر فيه آثار لا تزال محتفظة بأهميتها العلمية إلى أيامنا هذه ، إذ يكفى فى هذا الصدد الإشارة ولو إلى السمعانى وحده ؛ وغفير عدد تلك المصنفات التى لم تستخرج منها بعد المواد التى تخص كل فرع من فروع العلوم . كما أن هذا العصر هو أول عصر تكتسب فيه المصنفات الفارسية أهمية أكثر من ذى قبل بل وتتمتع أحيانًا بدرجة عالية من الأصالة . ولكن أن يُستنتج من هذا أن الأدب الفارسى قد تفوق على الأدب العربى فى ذلك العصر ، على الأقل فى محيط الجغرافيا كما حدث بالتالى فى محيط التاريخ ، لهو أمر سابق لأوانه حقًا . بل على العكس من هذا يقدم لنا القرن التالى لهذا عددًا من المصنفات الكبرى ، إن ليس فى أنماط جديدة فعلى الأقل بأهداف جديدة . ويشغل المكانة الأولى بينها دون منازع سواء من ناحية الأسبقية الزمنية أو القيمة الذاتية مؤلف ياقوت الذى يقدم لنا جماع ما عرف فى هذا الميدان فى الحقبة التاريخية السابقة للغزو المغولى ، ويحتل مكانة رفيعة لا مثيل لها سواء فى محيط الرحلات أو الجغرافيا بفروعها الفلكية واللغوية والوصفية .

---

(١٢٢) شرحه ص ٣١

(١٢٣) راجع البحوث الهامة إلى عام ١٩٢٩ لدى: Muhammad Nizamuddin, p. 31-32

الفصل الثانى عشر
ياقوت ومؤلفو النصف الأول للقرن الثالث عشر

330 يعتبر الغزو المغولى حدًا فاصلا فى تاريخ القسم الشرقى من العالم العربى ؛ فابتداء من تلك اللحظة أخذت مراكز الحضارة الإسلامية تتزحزح بسرعة نحو الغرب ولم تلبث بغداد التى كانت حتى تلك اللحظة محتفظة بمكانتها كمركز علمى رغمًا من التدهور السياسى للخلافة العباسية ، أقول لم تلبث بغداد أن تنازلت عن ذلك المركز لحلب ودمشق ثم بصورة نهائية للقاهرة . ومن الممكن عمل خلاصة وافية لكل فرع من فروع العلوم فى العالم الإسلامى فى منتصف القرن الثالث عشر ، غير أنه لم يحدث فى الواقع أن اهتم العلماء لذلك باستثناء ياقوت ؛ فهو قد أحس إحساسًا صادقًا بالحاجة إلى مرجع عام يجمع شتات المادة الجغرافية المعروفة لعصره . وقد حدث فعلا أن هلك جزء كبير من المادة التى كانت تحت تصرفه فى خضم المصيبة الكبرى التى اجتاحت العالم الإسلامى .

وأهمية معجم ياقوت تتجاوز بكثير حدود الأهداف الجغرافية الضيقة ، فهو فوق ذلك يمثل آخر انعكاس لتلك الوحدة المثالية للعالم الإسلامى تحت حكم العباسيين ، رغمًا من أنها كانت فى واقع الأحوال أثرًا من آثار الماضى . وهو أوسع وأهم ، بل وأكاد أقول أفضل مصنف من نوعه لمؤلف عربى للعصور الوسيطة[١] . ولتكوين فكرة عن حجمه يكفى أن نذكر أن المتن المطبوع يضم ثلاثة آلاف وثمانمائة وأربعًا وتسعين صفحة . وهو جماع للجغرافيا فى صورها الفلكية والوصفية واللغوية وللرحلات أيضًا ، كما تنعكس فيه الجغرافيا التاريخية إلى جانب الدين والحضارة والاثنولوجيا (ethnology علم الأعراق والفصائل البشرية) والأدب الشعبى (folklore) والأدب الفنى وذلك فى القرون الستة الأولى للهجرة . ويقرب عدد الشواهد الشعرية وحدها فيه ، وذلك بين صغيرها وكبيرها ، من خمسة الآلاف[٢] استطاع الناشر أن يحقق منها ما يقرب من ثلاثة آلاف من المصادر الأخرى .

ورغمًا من القيمة الأدبية الكبرى لهذا الأثر فقد تعرف عليه العلم الأوروبى بعد مدة طويلة من تعرفه على الإدريسى ، وأبى الفدا خاصة ؛ وهذا الأخير هو الذى استمرت له السيطرة دون انقطاع إلى

---

(١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، المقدمة ، ص ٧

(٢) شرحه ، ص ١١

منتصف القرن التاسع عشر تقريبًا . حقًا إن اسم ياقوت قد ورد ذكره من وقت لآخر لدى علماء مدرسة الاستشراق الهولندية مثل غوليوس Golius فى طبعته للفرغانى (١٦٦٩) أو غرونوفيوس Gronovius (١٧٠٣) الذى لفت إليه الأنظار فى بحثه عن « نشأة/وتطور 332
وفائدة الجغرافيا »[٣] De geographiae origine, progresssu ac dulcedine ، كما عرفه كوهلر Koehler الذى نشر الجزء الخاص بالشام من جغرافيا ابن الوردى* (١٧٧٦)[٤] . بيد أن الاهتمام بمؤلف ياقوت قد انبعث فى القرن التاسع عشر فقط عندما تسربت مخطوطاته إلى أوروبا بالتدريج ؛ ويرجع الفضل فى هذا قبل كل شيء إلى اثنين من علماء الشمال هما راسموسن Rasmussen (١٨١٤) وفرين Frähn (١٨٢٣) اللذان كانا أول من نقل عن المعجم القطعة المشهورة لابن فضلان ؛ وكان فرين بالذات هو أول من كتب عن شخص ياقوت وعرّف به ، وقد احتفظ بحثه كما أثبت روزن بقيمته إلى أوائل القرن العشرين . ومن قبل روزن حاول باربييه دى مينار Barbier de Meynard أن يبخس من تقييم فرين[٥] لشخصية ياقوت العلمية ولكن الخطوات التى تمت بالتالى فى دراسة الموضوع أثبتت خطل رأيه ، ولعله يمكن توضيح موقفه التشككى بأن المتن الكامل للمعجم لم ير النور إلا فى عام ١٨٦٠ . وقد وكدت الأيام صدق رأى فرين ، بل ورأى سنكوفسكى أيضًا ؛ والأخير عندما نشر ترجمته[٦] لرواية ياقوت عن تفليس (١٨٣٨)[٧] وصفه بأنه « كاتب مدقق مجتهد ندين له بحفظ آثار قيمة فى تاريخ وجغرافيا العصور الوسيطة[٨] .... وهو قد أبدى الكثير من الغيرة والحماس فى دراسة الأوضاع الجغرافية والاثنوغرافية والسياسية لعصره[٩] » . أما عملية نشر المصنف بأجمعه فى عهد فرين فقد كانت أمرًا بعيد المنال إذ حال دون ذلك ليس فقط العيوب الموجودة بالمخطوطات الثلاث المعروفة آنذاك (كوبنهاغن وبطرسبرغ وأوكسفورد) بل أيضًا

---

(٣) Gronovius, p. 16 (= Günther, Gesch. d. Erdkunde, p. 42, note 2)-

* كان سهواً غير مقصود من المؤلف Lapsus Calami حين وضع اسم أبى الفدا محل اسم ابن الوردى . (المترجم)

(٤) Kovalevski, p. 10-

(٥) Barbier de Meynard, Dictionnaire, p. XV-XVI-

(٦) Senkovski, Bibl. dlia cht, XXX, p. 151-172-

(٧) (ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ص ٧٥٨ - ٨٥٩ =) Senkovski, Sobr. Soch., VI, p. 192-195-

(٨) شرحه ، ص ١٩١

(٩) شرحه ، ص ١٩٥

الحجم الضخم للكتاب . ومرت فترة نصف قرن تقريبًا قبل أن يفكر أحد فى تنفيذ ذلك المشروع ، ولكن تم فى خلالها فحص مخطوطات أخرى للكتاب (باريس وبرلين ولندن)[١٠] وطبع مصنفين آخرين لياقوت أقل حجما من المعجم . وفى الواقع أن طبع أحد هذين المصنفين الصغيرين ، الذى كانت الفكرة الأساسية من تأليفه أن يكون بمثابة مدخل للمعجم الكبير ، كان أشبه بالقوة الدافعة التى ساقت إلى التفكير فى طبع المعجم نفسه[١١] .

وكان طبع المعجم فى ستة أجزاء فى الفترة بين عامى **١٨٦٦ و١٨٧٣** إحدى الخدمات الجليلة، بل وربما كانت أجلها، التى طوّق بها فرديناند ڤستنفلد عنق الاستعراب العالمى . وهذه الطبعة وإن وقفت على مستوًى عال بالنسبة لحاجة ذلك العصر إلا أنها لا تستوفى تماماً المطالب العلمية لعصرنا بالنسبة لما يجب أن يكون عليه نشر النصوص وتحقيقها ، ورغمًا من هذا فإنه لا يبخس من قيمتها تلك الاعتبارات والفروض التى أعرب عنها فليشر **Fleischer** ، أبرع ناقد للنصوص فى وقته ، والتى ظهرت فى الجزء الخامس للمعجم ؛/ كذلك لا تخلو من أهمية كبيرة فى هذا الصدد 333
الفهارس المختلفة التى أفرد لها الجزء السادس . ولم ينكص ڤستنفلد أمام الجهد الهائل الذى تطلبه أحيانًا تحقيق أسماء الشخصيات التاريخية التى ذكرها ياقوت ، مما استدعى منه الرجوع إلى عدد هائل من المصادر الأدبية . ولا تزال هذه الطبعة إلى الآن من أهم المراجع لجميع المشتغلين بالدراسات العربية ، ولم يأت بجديد إعادة طبع المتن بالقاهرة فى عام ١٣٢٣ هـ - ١٣٣٤ هـ ١٩٠٦[١٢] ، رغمًا من أن الناشر كانت لديه فكرة عالية عن مجهوده بالنسبة لطبعة ڤستنفلد[١٣] الذى لم يفعل شيئًا فى الواقع سوى أن أعادها بحذافيرها . ويمكن بالطبع أن تقابلنا أحيانًا فى هذه الطبعة الثانية قراءات أفضل ، ولكن هذا يحدث من قبيل الصدفة البحتة[١٤] ؛ وأطرف من ذلك أن طبعة القاهرة هذه قد أضيف إليها جزءان بعنوان « منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان »[١٥] يستدرك فيهما الناشر ، وهو أمين الخانجى المعروف ، على مادة معجم البلدان . وقد تمس هذه الاستدراكات أحيانًا نقاطًا عالجها ياقوت فيورد الناشر المعلومات المتأخرة فى

---

(١٠) عن المخطوطات راجع : Kovalevski, p. 174-178

(١١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٥

(١٢) فى ثمانية أجزاء راجعها أحمد أمين الشنقيطى (توفى عام ١٣٣١ هـ = ١٩١٣) . راجع ياقوت ، المعجم ، الجزء الثامن .

(١٣) الشنقيطي : راجع ياقوت ، المعجم ، الجزء الثامن ، ص ٥٣٦

(١٤) (استبدل بص ٥٢٦ ص ٥٣٦ عند القراءة) -Kovalevski, p. 179-180

(١٥) ياقوت ، المعجم ، التاسع والعاشر

ذلك ، ولكنه فى أغلب الأحيان يقصر كلامه على بلاد ومدن العالم الحديث بأوروبا وأميريكا واستراليا . وهذه الإضافة وإن لم تمثل قيمة ما من وجهة النظر العلمية إلا أنها برهان طريف على استمرار الأنماط القديمة للمعاجم الجغرافية التقليدية بين الأوساط العربية المثقفة إلى بداية القرن العشرين * .

وقد كان مجهود فستنفلد بمثابة حجر الزاوية فى دراسة شخصية ياقوت نفسه ودراسة المادة التى تحتويها دفتا مصنفه . ولعله لم يتمتع جغرافى عربى بعدد من الدراسات مثل الذى أفرد لياقوت ، بل إن الناشر نفسه قد حاول فى مقالات منفردة إلقاء ضوء على سيرة حياته وعلى الأخص رحلاته . وبمرور الزمن ظهرت دراسات عن مصادره – وبالذات عن المادة التاريخية الجغرافية التى اشتمل عليها كتابه من ناحية عامة(١٦) ، وكذلك فيما يختص بالمؤلفين الذين نقل عنهم(١٧) . ونتيجة لظهور طبعة كاملة للمعجم فقد أضحى فى حيز الإمكان تكوين فكرة صحيحة عن عدد كبير من المؤلفات التى رجع إليها والتى لم تصبح فى متناول الأيدى إلا بعد ذلك بوقت طويل ؛ ويصدق هذا بالذات على مصنفات ابن الكلبى وابن فضلان وأبى دلف وابن بطلان وعدد آخر من المؤلفين ، فلا غرو أن نلتقى باسم ياقوت فى كتابنا هذا أكثر من اسم أى جغرافى آخر كمصدر
334 عن المؤلفين السابقين . هذا وقد أخضعت المادة/الجغرافية التى جمعها ياقوت لدراسات مختلفة بحسب كل قطر أو عصر ؛ فمعروفة لنا محاولة باربييه دى مينار فى جمع وتنسيق مادته عن إيران ؛ كما أن هناك دراسة عن انعكاس صدى الحروب الصليبية فى المعجم ؛ بل وفهرس منظم خاص بالموضوعات الأدبية والشعبية (الفولكلورية folkore) والاثنوغرافية التى يعالجها ياقوت مع سرد أسماء المراجع التى يستقى منها . وفى عام ١٨٩٠ حلل مدنيكوف Mednikov المعجم تحليلا عامًا فى محاضرة له لم تطبع بالتالى(١٨) ، كما بيّن طريقة تناول ياقوت لمصادره وكيف كان منهجه فى نقد النصوص ؛ كذلك لا تزال تحتفظ ببعض أهميتها إلى أيامنا هذه آراء روزن حول هذا الموضوع . من كل هذا يتضح لنا أن المجال قد هيئ لدراسة وافية عن ياقوت ، وأنه يستحق فعلا

---

* ظهرت أخيرًا ببيروت طبعة ثالثة للمعجم ؛ وهى أيضًا بدورها لم تأت بجديد . (المترجم)

(١٦) Heer-

(١٧) Bloch. —Heer-

(١٨) ألقى مدنيكوف Mednikov محاضرته «Ob arabskom geograficheskom slovare yakuta»
(معجم ياقوت الجغرافى باللغة العربية) بتاريخ ١٨٩٠/٢/٢٧
(راجع : Krachkovski, Pamyati N. A. Mednikova, p. 424, note 2)

مثل هذه الدراسة . وبالنسبة لموضوعنا فإن سيرة حياة ياقوت ليست بأقل أهمية من مصنفه ، وهى برهان آخر على سعة الأفق والعبقرية التى تميزت بها الشخصيات العلمية التى شادت بمصنفاتها الصرح الهائل للحضارة العربية .

واسم ياقوت يشير إلى أنه كان فى الأصل عبدًا رقيقًا ؛ وقد جرت العادة بتسمية الأرقاء بأسماء الحجارة الكريمة والطيب كزمرد وكافور الخ . وقد حاول ياقوت فيما بعد أن يستبدل باسمه اسمًا مقاربًا له فى اللفظ وهو يعقوب ولكن ثبت عليه ، سواء بين معاصريه أو لدى الأجيال التالية أو فى الدوائر العامية ، ذلك الاسم الذى كان يطلق عادة كما ذكرنا على الأرقاء . أما نسبته وهى الرومى فدليل على أن أصله من بلاد الدولة البيزنطية وربما كان إغريقى الأصل . ونظرًا لأن أباه كان غير معروف فقد تسمى بابن عبد الله كما جرت العادة فى مثل هذه الأحوال . وجميع هذه الأسامى كانت واسعة الانتشار وتسمى بها عدد كبير من الموالى من أصل رومى ؛ وياقوت نفسه يذكر فى معجمه الأدبى اثنين من معاصريه كانا يشاركانه اسمه مشاركة تامة ، أحدهما أبو الدرياقوت بن عبد الله الرومى الذى عُرف كشاعر وأديب وتوفى عام ٦٢٢ هـ = ١٢٢٥[١٩]، والآخر ياقوت بن عبد الله الرومى الذى عاش بالموصل واشتهر لا كأديب ونحوى فحسب بل وكخطاط أيضًا من مدرسة ابن البواب المشهور ؛ وقد قابله مؤلفنا بالموصل عام ٦١٣ هـ = ١٢١٦ وتوفى بعد خمسة أعوام من ذلك فى عام ٦١٨ هـ = ١٢٢١[٢٠] .

ويعرف ياقوت أيضًا باسم الحموى نسبة إلى التاجر الذى اشتراه وهو غلام ، وكان من أهل حماة . وإجماع الآراء أن ياقوت ولد عام ٥٧٥ هـ = ١١٧٩ ، ولم يكن يفهم لغته الأصلية أو على
الأقل لم يُجِدْها ؛ وقد أصبحت العربية لغته القومية/ولكن يلوح أنه بالنسبة لأصله الأجنبى فإنه 335
لم يبلغ درجة عالية من الفصاحة فيها ، وإن كان الذى لاحظ ذلك علامة متعسف كفليشر Fleischer[٢١] ؛ ولعله ليس من قبيل الصدفة أن نثره الفنى لم يبلغ درجة عالية من البلاغة أيضًا[٢٢] .

وعلى أية حال فقد نال ياقوت تعليما إسلاميًا جيدًا ، شأنه فى هذا شأن الأرقاء من الروم الذين التقينا بهم من وقت لآخر على صفحات هذا الكتاب . وقد جهد سيده الذى لم ينل حظًا وافرًا من

---

(١٩) ياقوت ، الإرشاد ، الجزء السابع ، ص ٢٦٧ ، رقم ١٦٣

(٢٠) شرحه ، ص ٢٦٧ — ٢٦٨ ، رقم ١٦٤

(٢١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الخامس ، مقدمة ، ص ٥٨ — ٦٥

(٢٢) ابن خلكان ، الجزء الرابع ، ص ٢٣ ، الملاحظة السابعة

التعليم فى أن يوفر له هذا ، وكان تاجرًا على سعة من العيش اضطرته مصالحه إلى الإقامة ببغداد فأراد أن يتخذ لنفسه كاتبًا ماهرًا يساعده فى أعماله التجارية . ويذكر لنا ياقوت من بين أساتذته اللغويين المشهورين العكبرى (توفى عام ٦١٦ هـ = ١٢١٩) وابن يعيش (توفى عام ٦٤٣ هـ = ١٢٤٥)[٢٣]. وكثيرًا ما اصطحبه سيده فى أسفاره التجارية وبعث به أحيانًا بمفرده . ومن أكثر الأسفار التى تركت أثرًا فى نفسه فى ذلك العهد رحلاته العديدة إلى جزيرة كيش التى ساعدت كثيرًا فى توسيع أفقه الجغرافى . وجزيرة كيش أو كيس (وفى شكلها المعرّب قيس) تقع فى ذلك الجزء من خليج فارس الذى أسمته العرب بحر عمان ، وكانت لعهد ياقوت مركزًا من مراكز التجارة الخارجية للعالم الإسلامى تجمع فيها ممثلو مختلف الأقطار والشعوب ؛ وكانت الجزيرة غنية بالنخيل وغيره من الأشجار وأنواع النبات . وقبل ياقوت بقليل ، وذلك فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر زارها رحالة آخر هو بنيامين التُّطَيْلى **Benjamin of Tudela** وامتدحها كثيرًا . وبعد مائة عام من ذلك ، أى فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، زارها ماركو بولو **Marco Polo** البندقى ؛ وعقب هذا مباشرة أخذت تفقد أهميتها بالتدريج لهرمز على الساحل الفارسى ولم تلبث أن طواها النسيان فى آخر الأمر[٢٤] .

وخلال إحدى تلك الأسفار وذلك فى عام ٥٩٦ هـ = ١١٩٩ علم ياقوت بوفاة سيده وإعتاقه له فأصبح بذلك حرًا طليقا . ومنذ تلك اللحظة استقر ببغداد واحترف نهائيًا مهنة استنساخ الكتب وبيعها ، الأمر الذى يذكرنا بصاحب « الفهرست » المشهور الذى مر الكلام عليه فيما تقدم من هذا الكتاب . ولكن ياقوت لم يلبث أن بدأ تجواله ابتداء من عام ٦١٠ هـ = ١٢١٣ ، ذلك التجوال الذى استمر ستة عشر عامًا إلى لحظة وفاته ، ولم تتخلله سوى وقفات قصيرة الأمد . ويمكن تكوين فكرة عن رحلاته هذه اعتمادًا على الإشارات الواردة بمعجمه ، وقد ساهم فى ذلك ڤستنفلد إلى حد كبير . بدأ ياقوت تجواله مارًا بتبريز والموصل فى
طريقه إلى الشام ومصر أولا ، وبعد ثلاثة أعوام من ذلك ،/أى فى عام ٦١٣ هـ = ١٢١٦ ، 336
نبصره مرة أخرى بدمشق التى غادرها إلى حلب فإربل ثم أُرمية فتبريز ومنها إلى إيران الشرقية . وأمضى عامين بنيسابور حيث علق قلبه حب فتاة من أهلها ، ثم غادرها إلى هرات وسرخس إلى أن بلغ مرو . وبمرو أمضى عامين متنقلا بين مكتباتها الشهيرة التى وصفها الكثيرون بحماس

---

(٢٣) ياقوت ، الإرشاد ، الجزء الثالث ، ص ٧٧

(٢٤) Streck, Kais, p. 695-697-

شديد ، ولم يلبث أن واتته فكرة الاستقرار بها نهائيًا خاصة وأن فكرة وضع المعجم قد انبعثت لديه هناك فى عام ٦١٥ هـ = ١٢١٨ . وكان معتزمًا زيارة خوارزم وبلخ عندما تواترت إلى مسامعه أخبار خروج المغول عام ٦١٦ هـ = ١٢١٩ ثم استيلائهم على بخارى فسمرقند ، فهرب ياقوت إلى خراسان تاركًا وراءه بعض مادته العلمية وفى طريقه مر بالرى وقزوين وتبريز إلى أن بلغ الموصل فدخلها فقيرًا معدمًا لا يملك شروى نقير ؛ غير أن عطف « الوزير الفيلسوف »[٢٥] ابن القفطى (توفى عام ٦٤٦ هـ - ١٢٤٨) وزير السلطان الظاهر بن صلاح الدين الأيوبى صاحب حلب[٢٦] ، أمكن له فرصة العمل بضعة أعوام فى معجمه الذى لم يلبث أن أتم تسويده فى عام ٦٢١ هـ = ١٢٢٤ ورفع أولى مخطوطاته إلى ابن القفطى[٢٧] ، وكان نازلا عليه بحلب . وفى عام ٦٢٤ هـ = ١٢٢٧ توجه مرة أخرى إلى فلسطين ومصر ثم رجع إلى حلب وأخذ على عاتقه ابتداء من أول يناير ٦٢٥ هـ = ١٢٢٨ تهذيب المعجم ولكن الوفاة عاجلته دون ذلك فقد انتقل إلى جوار ربه فى العام التالى لهذا وذلك فى العشرين من أغسطس عام ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ بخان عند أحد أبواب حلب ولمّا يتجاوز الخمسين . وقد وقف كتبه على مسجد ببغداد وكلف بتنفيذ وصيته هذه صديقه المؤرخ المعروف ابن الأثير[٢٨] فحملها إلى هناك . وخلال عام من وفاته زار حلب مؤلف كتاب التراجم المشهور ابن خلكان وذكر أن أهل العلم كانوا لا يزالون يثنون عليه ويتذكرون فضله وأدبه[٢٩] . وأمام الظروف القاسية التى اكتنفت الأعوام الأخيرة من حياته يجب أن نعجب لا للعدد الضئيل من الأخطاء الذى وجد الطريق إلى مصنفاته بل لعدد هذه المصنفات الكبير وقيمتها العالية التى لا يتطرق إليها الشك . ويحتل المكانة الأولى بينها من وجهة نظرنا دون منازع معجمه الجغرافى الكبير الذى سنقصر حديثنا عليه الآن .

لقد انبعثت فكرته كما رأينا بمرو عام ٦١٥ هـ = ١٢١٨ ، ويبدو لنا الطابع المميز للكتاب من الظروف التى أحاطت بتأليفه[٣٠] . فقد حدث أن جمع ياقوت مجلس للإمام السمعانى ابن صاحب كتاب الأنساب المشهور ودار الكلام حول اسم موضع/بالجزيرة العربية ورد ذكره فى 337

---

(٢٥) -Bartold, Vostok, IV, p. 126-138

(٢٦) عن سيرة ابن القفطى راجع : ياقوت ، الإرشاد ، الجزء الخامس ، ص ٤٧٧ - ٤٩٤ و Mittwoch, EI, II, 423

(٢٧) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ١٢

(٢٨) ابن خلكان ، الجزء الرابع ، ص ٢٢

(٢٩) شرحه

(٣٠) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٦

الحديث وهو حُباشة . وقد دلل ياقوت معتمدًا فى ذلك على اشتقاق اللفظ على أنه يجب نطقه هكذا ، أى بضم الحاء ؛ غير أن أحد الحاضرين أصر على نطقه حَباشه بفتحها . وقد استعصى على ياقوت أن يجد مرجعًا ثقة يدعم به رأيه ، مع اكتظاظ مكتبات مرو آنذاك بالمراجع ، فعجز عن العثور على الشاهد . حينئذ عقد العزم على وضع معجم جغرافى جامع يكون مرجعًا عند الحاجة ولا يقتصر على تفسير الأعلام الجغرافية فحسب بل ويبيّن أيضًا نطقها الصحيح . فهو فى جوهره إذن من نمط المعاجم اللغوية نفسه التى تقابلنا منذ القرن التاسع ؛ بل إن هذا يستبين لنا من ألفاظ ياقوت نفسه عند وصفه للكتاب فى بداية مقدمته : « كتاب فى أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والأوطان والبحار والأنهار والغُدران والأصنام والأبداد والأوثان »[٣١] ؛ ولهذا السبب فقد أطلق عليه اسم « معجم البلدان » .

وعلى الرغم من اتباعه لدرب مطروق سلكه قبله الكثيرون فإن ياقوت قد خشى أن يتهم بأن هدفه من وضع المعجم كان جغرافيًا بحتًا ، لذا فقد جهد فى أن يدعم معطياته قبل كل شىء بالشواهد من القرآن والحديث[٣٢] . فهو يشير إلى أن آيات الخالق وبراهين قدرته منتثرة على الأرض بأجمعها لذا فإن قراءة الرحلات والاطلاع على وصف البلدان فيه فائدة كبرى وموعظة حسنة ، والرجل الورع ملزم بأن يتذكر ملاحظاته ويدونها أثناء أسفاره لفائدة معاصريه وفائدة الأجيال التالية . وياقوت لا يهمل التفصيل فى أهمية المعلومات الجغرافية من الناحية العملية ؛ وهو يعتقد أن النساخ وأهل الأخبار الذين يقفون من الأعلام موقفًا غير نقدى كثيرًا ما أثبتوا الصور الخاطئة لها[٣٣] ، هذا بينما يحتاج فى الواقع إلى ضبط الأعلام جميع صنوف الناس ، فالحكام والمشرعون يحتاجون إلى معرفة تاريخ فتح المسلمين لبلد ما وكيف تم هذا الفتح وذلك لتحديد خراج البلد . كما يجب على أهل الحديث معرفة من اشتهر من أهل بقعة ما من العلماء والمجتهدين ؛ ويهم أهل الطب المعلومات عن المناخ والظروف الطبيعية كما يهم المنجمين مطالع النجوم ليحكموا على طوالع البلاد . ويلزم الشعراء وعلماء اللغة معرفة دقيقة بنطق أسماء الأماكن والأنهار والجبال والآبار كى لا يخطئوا فيصبحوا هدفًا لسخرية المثقفين من الناس . ويسوق ياقوت مثالا لهذا شرحًا
« لمقامات الحريرى »/لعالم جليل من معاصريه كشف عن عجزه التام عندما حاول تحديد مواقع 338

---

(٣١) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ١

(٣٢) شرحه ، ص ٢ – ٣

(٣٣) شرحه ، ص ٣

بعض المواضع[٣٤] . وجميع هذه العلل التى يسوقها ياقوت وجيهة فى حد ذاتها ، وهى تعطى مرة أخرى فكرة عن تلك الاعتبارات العملية المعروفة لنا من قبل والتى عاونت على ظهور الأدب الجغرافى وتطوره عند العرب ، هذا بالرغم من أن ياقوت لا يوردها بأجمعها .

وفى آخر مقدمة المعجم يورد ياقوت فى الكثير من التفصيل أسماء السابقين له فى مضمار الجغرافيا ، ولكن لا يمكن القول إطلاقًا بأنه قد استوفى أسماء جميع من استقى مادته منهم[٣٥] . وقد حدث أن عرضنا لعدد كبير منهم فيما مر من هذا الكتاب معتمدين فى ذلك أحيانًا على ياقوت وحده وذلك لفقدان الأصول التى نقل عنها . ويختتم ياقوت المقدمة بتحليل لكتابه ولمنهجه فى التأليف[٣٦] ، وهى مسألة قد ألقى عليها روزن بعض الضوء فى بحثه المشار إليه . وقد رفض ياقوت فى كثير من الحدة والغيرة التماس من طلبوا منه مرارًا اختصار كتابه ، وهو يستشهد فى هذا الصدد بحكاية للجاحظ فى عيوب اختصار الكتب[٣٧] .

ويلى المقدمة خمسة أبواب بمثابة مدخل للمعجم ، يعرض أولها للنظريات المختلفة فى صورة الأرض معتمدًا فى ذلك على معطيات الجغرافيا الرياضية المعروفة لنا فى جوهرها . ويميل ياقوت إلى اعتبار الأرض كروية تتجاذبها أطراف الفلك من جميع النواحى كالمغناطيس . ويبحث الباب الثانى فى نظام تقسيم الأقاليم ، ولكن ياقوت يورد فيه أيضًا قائمة البروج الاثنى عشر والبلدان الواقعة تحت تأثيرها كما يعرض للطرق العملية المتبعة فى تحديد قبلة كل موضع من الأرض . وأما الباب الثالث ففى تفسير المصطلحات التى يرد ذكرها فى المصنفات الجغرافية كالبريد والفرسخ والميل ، وأيضًا النواحى كالإقليم والكورة والمخلاف والاستان والرستاق والطسوج والجند وآباد والسكة والمصر ، ثم يوضح مصطلحات الجغرافية الفلكية كالطول والعرض والدرجة والدقيقة ، ثم المصطلحات الخاصة بالخراج وغلة الأرض كالصلح والسلم والعنوة والخراج والفىء والغنيمة والصدقة والخمس والقطيعة . ويعطى الباب الرابع تصنيفًا قصيرًا للبلاد المختلفة التى فتحها المسلمون وذلك وفقًا للخراج الذى يجبى من كل منها . أما الباب الخامس فأشبه ما يكون بمقدمة فى أخبار البلاد وسكان النواحى المختلفة وتوزيع الممالك بحسب مكانتها وعراقتها فتأتى فى المرتبة الأولى بابل وتليها الهند فالصين فالترك فالروم . وفقط بعد هذه الأبواب المدخلية

(٣٤) شرحه ، ص ٥
(٣٥) شرحه ، ص ٧ – ٨
(٣٦) شرحه ، ص ٨ – ١١
(٣٧) شرحه ١١ – ١٢

(introductory) التى تشغل خمسين صفحة من الكتاب * يبدأ المعجم بمعناه الدقيق .

وترد فيه أسماء المواضع بحسب الترتيب الأبجدى كما هو الحال مع المعاجم السابقة المعروفة لنا ؛
339 ولكن يجب ألا يغيب/عن البال أن الترتيب قد يختلف داخل الحرف الواحد أحيانًا ، وهو أمر غير معهود لنا من قبل . وبعد إيراد الاسم يرد توضيح مفصل بالألفاظ لنطقه مع ذكر اختلاف القراءات . وكثيرًا ما يسوق ياقوت اشتقاق بعض التسميات ويحاول توضيح منشئها وأصلها ؛ وكما هو ديدن جميع اللغويين العرب فهو يحاول أيضًا تفسير التسمية من صميم اللغة العربية ولا يسمح بفكرة وجود أصل غير عربى لها إلا فى حالات نادرة . وهذا القسم الأول اللغوى يصحبه فى العادة شواهد من الشعراء العرب ممن يحتجّ بشعرهم لتحديد النطق الصحيح الذى قد يعتمد أحيانًا على البحر والقافية ؛ ثم يلى هذا عادة بيان طول وعرض المكان مع تحديد البرج الذى يقع تحته .

أما القسم التاريخى الذى يعقب هذا مباشرة فيبحث فى أصل الموضع الجغرافى المذكور ونشأته والظروف التى أحاطت بذلك ، ومن سكنه والدور التاريخى الذى لعبه ؛ وكثيرًا ما يصحب هذا الأخبار والأساطير المتعلقة به . وإذا جاء ذكر الموضع فى القرآن أو الحديث سيقت فى ذلك الشواهد ، وإذا كان قد فتحه المسلمون فيعرض لتاريخ هذا الفتح ؛ كما يورد على الدوام تقريبًا أسماء كبار علمائه خاصة الفقهاء وأهل الحديث وأسماء أساتذتهم وتلامذتهم . وبخلاف هذا فليس من النادر أن يعطى ياقوت وصفًا دقيقًا للأمكنة والمدن التى زارها ويورد تفاصيل دقيقة عن الأبنية المختلفة والقلاع والمرافئ ، وهو كثيرًا ما يقف أيضًا ليصف عادات وأخلاق القبائل والشعوب كما لا يهمل الكلام عن صنوف العجائب فى البلاد النائية . ويتخلل العرض أثناء ذلك ضروب من الحكايات الطريفة والنكات والقصص مع مختارات واسعة من الشعر ، وقد يضمنّه قطعًا ورسائل بأجمعها من المؤلفين السابقين . ونتيجة لهذا فقد تنشأ لديه أحيانًا مقالة قائمة بذاتها تمتد أحيانًا إلى عشر أو خمس عشرة صفحة .

ومن الطبيعى ألا تظفر جميع مواد المعجم بمثل هذه الصورة الحافلة ؛ وإذا كان القسم اللغوى موجودًا على الدوام فإن التاريخى قد يختفى بالطبع عند الكلام على محلة مغمورة أو غير معروفة جيدًا ، وفى هذه الحالة يختفى أيضًا القسم الفلكى ويرد تحديد موقع المكان بصورة تقريبية ؛ وأحيانًا قد تقتصر المادة على سطر واحد فقط مع التعريف بالاسم بشكل عام .

---

* ظهرت فى عام ١٩٥٩ ترجمة إنجليزية لهذه الأبواب الخمسة مع تعليقات وافية وإشارات إلى المراجع ؛ وهى بقلم وديع جويدة وقد طبعت بدار بريل Brill بليدن . (المترجم)

وليست بنا حاجة الآن إلى التحدث بشكل خاص عن مصادر المعجم الجغرافى لياقوت فقد رجعنا إليه أكثر من مرة فى الفصول السابقة من كتابنا هذا واقتنعنا بأنه يجمع شتات المادة الجغرافية الضخمة التى تراكمت على ممر ستة قرون . ورغمًا من الميل اللغوى الملحوظ عند المؤلف فإن هذا المصنف الجامع ، كما تبين لنا أكثر من مرة ، لم يقتصر على الجغرافيا اللغوية أو الوصفية بل شمل أيضًا الرياضية وحفظ لنا فى هذا المجال معطيات من مصادر أخرى ليست معروفة/دائمًا ، الأمر 340 الذى وضحه بالكثير من الدقة هونغمان فى كتابه عن الأقاليم السبعة . كما يتوكد هذا فى مواضع أخرى من المعجم ؛ فمن بين جميع الزيجات (أى الجداول الفلكية) أولى ياقوت اهتمامًا خاصًا لزيج أبى عون إسحاق بن على[٣٨] . وهو لم يكن معروفًا لخبير كبير فى الموضوع مثل نالينو Nallino الذى استطاع أن يثبت شبه هذا الزيج « بصورة الأرض » للخوارزمى[٣٩] وذلك اعتمادًا على الشذور التى حفظها لنا منه ياقوت . من هذا يتضح لنا أنه حتى فى هذا المجال الذى لم يهتم له كثيرًا فإن ياقوت وجد تحت تصرفه مصادر لم تصل إلى أيدينا .

ومادة ياقوت متنوعة للغاية ؛ وهو لم يقصر نفسه على العالم الإسلامى وحده كما فعل ممثلو المدرسة الكلاسيكية ، كما أنه لم يفرد أهمية استثنائية لمواضع جزيرة العرب دون غيرها كما فعل ممثلو المدرسة اللغوية . وقد رأينا كيف وزّع اهتمامه بالسوية على العالم الإسلامى والشرق الأقصى وأن هذا الحكم ينطبق أيضًا على معالجته لأوروبا الشرقية والشمالية . ومن الطبيعى أن معرفته بالمشرق أفضل بكثير من معرفته بالمغرب ، ولكن فيما يتعلق بالأخير فإنه تقابلنا أحيانًا تفاصيل تدل على معرفته الواسعة بأحواله . وقد أثبت أمارى Amari[٤٠] أن ياقوت هو المؤلف الوحيد الذى حفظ لنا شذرات من مصنفين مفقودين لمؤلفين من صقلية هما أبو على الحسن (حوالى عام ١٠٥٠)[٤١] وابن القطاع (توفى عام ٥١٥ هـ = ١١٢١)[٤٢] ؛ وهو يعتمد عليهما اعتمادًا كليًا فى معلوماته عن الجزيرة . وعلى العكس من هذا فإن معرفته بإيطاليا على العموم لم تكن جيدة ؛ وهذا الحكم نفسه كما لاحظ زيبولد Seybold يصدق على معرفته بقورسيقا ولانغوبرديه وكلابريا ومالطة وغيرها[٤٣] .

---

(٣٨) شرحه ، الجزء السادس ، ص ٣١٧

(٣٩) Heer, p. 24-

(٤٠) Amari (Nallino), II, p. 491-

(٤١) Heer, p. 44, f.-

(٤٢) شرحه ، ص ٤٣ — ٤٤

(٤٣) Seybold, Analecta Arabo-italica, p. 206-213-

وبخلاف المعجم الكبير فإنه يرتبط باسم ياقوت أيضًا مصنفان جغرافيان معروفان تم طبعهما قبل المعجم وهبطت قيمتهما عقب طبعه . أولهما وضعه بعد المعجم الكبير لهدف خاص وهو يحمل عنوان « كتاب المشترك وضعًا والمفترق صقعًا » أى أنه بمثابة معجم للمواضع التى تشترك فى الاسم . ويتضح من ألفاظ ياقوت نفسه فى مقدمة هذا الكتاب أنه قد استخرجه من معجمه الكبير ليكون أسهل عند المراجعة . ومادته مقتضبة إلى أقصى حد ؛ كما أسقطت منه جميع تلك الاستطرادات التى تضفى أحيانًا على مصادرها أهمية خاصة . ونظرًا لأنه قد تم تأليفه عقب المعجم الكبير فقد أضحى فى حيز الإمكان إضافة تفاصيل صغيرة إليه غير موجودة بالمعجم ، الأمر الذى يجعل من المفيد الرجوع إليه فى أمثال تلك الأحوال . أما من ناحية الكم فمادته هو
341 أيضًا/واسعة جدًا إذ يورد فيه ذكر ألف وواحد وتسعين اسما تعالج أربعة آلاف ومائتين وواحدًا وستين موضعًا جغرافيًا .

أما المصنف الثانى الذى يحمل اسما تغلب عليه الصنعة وهو « مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع » الذى طبع مسودته يينبول Juynboll[٤٤] فإنه ليس من عمل ياقوت نفسه . فهذا الكتاب الذى لا يمثل فى الواقع سوى موجز للمعجم الكبير قد عمله بعد مائة عام من ذلك على ما يظهر شخص يدعى صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحكم (توفى عام ٧٣٩ هـ = ١٣٣٨) ؛ ولا تزال مسألة من هو المؤلف موضع نزاع[٤٥] ، فرينو Reinaud الذى فحص الطبعة بعناية فائقة خرج بنتيجة مؤداها أنه قد وجد على الأقل ثلاث موجزات أو ثلاث مسودات تحت عنوان واحد ؛ إحداها فقط لياقوت ولكنها لم تصل إلينا[٤٦] . وإذا تذكرنا موقف ياقوت من الموجزات كما حدده هو بنفسه فى آخر مقدمته للمعجم الكبير فإن وجود مصنف له من هذا الضرب عرضة لشك كبير . أما المسودة الثانية فيرجعها رينو إلى عبد المؤمن هذا ،[٤٧] بينما ينسب الثالثة إلى السيوطى[٤٨] المشهور وقد تم العثور عليها منذ وقت غير طويل[٤٩] . وطبعة يينبول فى ستة أجزاء[٥٠] قد أحيطت بالكثير من العناية والاهتمام * بحيث ساهمت مساهمة فعالة فى تيسير مهمة

---

(٤٤) Juynboll, Marâsid al ittilâ'-

(٤٥) Reinaud, Introduction, p. CXXXIII-CXXXV-

(٤٦) Reinaud, Notice sur les dictionnaires, p. 91-92-

(٤٧) شرحه ، ص ٩٣ – ٩٩

(٤٨) شرحه ، ص ٩٩ – ١٠١

(٤٩) Brockelmann, GAL, SBI, p. 880, No 10, I, b-

(٥٠) Reinaud, Notice sur Les dictionnaires, p. 101-106-

* ظهرت له طبعة جديدة فى البلاد العربية لا أعتقد أنها تختلف كثيرًا عن طبعة يينبول . (المترجم)

فستنفلد عند تحضيره لطبعة المعجم الكبير . وتقتصر أهميتها فى الوقت الحاضر على أنه يمكن بواسطتها أحيانًا توضيح النقاط المغلقة فى المعجم الكبير ، كما ستستمر على الدوام مفيدة وقيمة تعليقات يينبول عليها .

وكان ياقوت أديبًا واسع الأفق وكاتبًا جم النشاط متعدد النواحى ؛ ومن دون حاجة إلى ذكر مصنفاته التى لم تصل إلينا فإنه يكفى أن نشير إلى معجم الأدباء الذى لا يقل حجما أو أهمية عن معجمه الجغرافى بل وربما يفوقه فيما يتعلق بالمادة التاريخية والحضارية عن العالم الإسلامى . ومن المستحيل مقارنة ياقوت ببحاثة عالمى كالبيرونى أو رحالة من طراز المسعودى أو المقدسى ، غير أنه لدى المقارنة بجماعة الجغرافيين اللغويين من أمثال البكرى فإن ياقوت يبزهم أجمعين ، ليس فقط فى غزارة مادته وتنوعها بل أيضًا فى منهجه المستقل الذى ينطوى على الذكاء . لكل هذا فإن مصنفه
الجغرافى يختتم بجدارة/العهد السابق للغزو المغولى ، أما هو نفسه فيمكن اعتباره من أبرز رجالات 342
عصره خاصة فى هذا الفرع من الأدب الذى نعالجه فى كتابنا هذا . ولا يزال معجمه إلى أيامنا هذه يخدم غرضه ويلعب دوره كمرجع موثوق به ، مما يقف برهانًا ساطعًا على أهميته التى لا تضارع .

وبعد عامين من وفاة ياقوت توفى ببغداد معاصره الأكبر سنًا منه (موفق الدين) عبد اللطيف (ابن يونس) البغدادى[٥١] ، الذى لم يكن عالمًا لغويًا فى الأصل بل عالمًا بيولوجيًا (biologist) ، ولم يكن مؤلف سفر ضخم جامع بل رسالة صغيرة عن مصر ذات أهمية جغرافية عامة ممتازة .

وسيرة حياته معروفة لنا جيدًا بفضل الإشارة إليها فى عدد من المؤلفات من ناحية وبفضل الشذرات من سيرة حياته التى كتبها بنفسه (autobiography) والتى حفظها لنا ابن أبى أصيبعة (توفى عام ٦٦٨ هـ = ١٢٧٠) فى الفصل الذى أفرده له فى تاريخه للأطباء . وكان جد ابن أبى أصيبعة صديقًا حميما لعبد اللطيف كما أن أباه قد درس الطب عليه . وقد ولد عبد اللطيف ببغداد عام ٥٥٧ هـ = ١١٦٢ وترعرع بها ودرس الأدب والكيمياء التى كانت تشمل آنذاك الكيمياء والطب . وكانت مراكز تلك العلوم قد أخذت منذ ذلك الوقت تنتقل غربًا لذا فقد توجه عبد اللطيف فى طلب العلم ، لا فى إثر ياقوت إلى بلاد ما وراء النهر بل إلى الشام ومصر . وقد بدأ ترحاله عام ٥٨٥ هـ = ١١٨٩ من الموصل حيث استمع هناك إلى الرياضى الفقيه الذى ذاع صيته فى ذلك الوقت كمال الدين بن يونس ، وهو أحد العلماء الذين تمكنوا من حل المسألة الهندسية التى طرحها مع مسائل أخرى على العلماء العرب الإمبراطور فردريك الهوهنشتاوفنى

---

(٥١) -Brockelmann,GAL,I,p.481,No11;SBI,p.880-881—Houtsma,Abdal-Latif,p.50

Frederick of The Hohenstaufen[٥٢] . وبفلسطين استرعى عبد اللطيف أنظار صلاح الدين الأيوبى الذى كان يقاتل الصليبيين فوصله وعينه مدرسًا بإحدى مساجد دمشق . وبعد وفاة صلاح الدين فى عام ٥٨٩ هـ = ١١٩٣ انتقل عبد اللطيف إلى مصر وتمتع برعاية الأيوبيين وظل بها يدرّس الفقه ويتابع بحوثه فى الطب والنبات ؛ وقد يسرت له علاقته بالأيوبيين التعرف بعدد كبير من فطاحل العلماء بمصر والشام مثل عماد الدين الأصفهانى مؤلف سيرة صلاح الدين والقاضى الفاضل وزيره ، وأيضًا موسى بن ميمون . وبمصر شهد عبد اللطيف المجاعة الهائلة والوباء الفتاك الذى حدث عام ٥٩٧ هـ - ٥٩٨ هـ = ١٢٠٠ - ١٢٠٢ . وفى عام ٦٠٤ هـ = ١٢٠٧ نقابله مرة أخرى بحلب ومن هناك ذهب فى رحلة إلى آسيا الصغرى استمرت عدة أعوام ، وأمضى بعض الوقت ببلاط أمير أرزنجان قرب أرضروم . ومن المحتمل أنه فى أثناء رحلته هذه تعرف عن كثب على أخبار المغول ، وقد حفظ لنا المؤرخ الذهبى (توفى عام ٧٤٨ هـ = ١٣٤٨[٥٣])
343 كثيرًا من رواياته/عنهم . ورجع عبد اللطيف إلى بغداد فى شيخوخته وتوفى بها عام ٦٢٩ هـ = ١٢٣١ .

وكان عبد اللطيف رجلا جم المعرفة ضاربًا فى جميع فروع العلم بسهم ، كما كان عالمًا دقيق الملاحظة فهو بهذا يمثل طراز العالم المحقق الذى يتوق إلى المعرفة الإيجابية مع ميل واضح إلى التجربة العلمية . ولم تقتصر معرفته على مصنفات العرب وحدهم بل عرف مصنفات اليونان خاصة أرسطو وديوسقوريدس وجالينوس . ولم يزاول مهنة الطب فقط بل كان أيضًا بحاثة فى العلوم الطبيعية عامة ، وهو قد طبق نظريات جالينوس على الموميات الموجودة بمصر وصحح بعض معطياته فى التشريح . وقد تمكن بعد معاينة مومياء من بوصير أن يثبت على نقيض جالينوس أن الفك الأسفل لا يتكون من عظمين بل من عظم واحد[٥٤] . ومثل هذا الاهتمام وتلك المقدرة فى التحليل الدقيق يسود جميع ملاحظاته سواء عن الطبيعة أو عن الناس فى جميع الملابسات .

وعدد مصنفات عبد اللطيف كبير بعضها فى العلوم الفقهية والأدب والآخر فى العلوم الطبيعية بالمفهوم الواسع للفظ كالنبات والطب والتشريح . غير أن شخصيته تنعكس بصورة جلية فى أثره المعروف لنا أكثر من غيره والذى يتصل اتصالا مباشرًا بالأدب الجغرافى ، أعنى بذلك سفره الصغير عن مصر الذى عرفه العلم الأوروبى منذ نهاية القرن الثامن عشر والذى يحمل

---

(٥٢) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 859-860, No 9b. —Suter, AGNT, IV, Erlangen, 1922, p. 1-8

(٥٣) -Somogyi, DI, XXIV, p. 106-130

(٥٤) -De Sacy, Ralation, p. 418-420 —Sarton, Introduction, II, p. 599

عنوان « كتاب الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » . وكما يقرر عبد اللطيف نفسه فإن كتابه ليس سوى ملخص لمصنف كبير له فى الموضوع نفسه وأنه بدأ تأليفه فى رمضان عام ٦٠٠ هـ = ١٢٠٤ بالقاهرة وأتم تهذيبه ببيت المقدس عام ٦٠٣ هـ = ١٢٠٦ ورفعه إلى أحد خلفاء صلاح الدين وهو أخوه الملك العادل « لئلا ينطوى عن العلوم الشريفة شيء من أخبار بلاده وإن تراخت أو يخفى بعض أحوال رعاياه وإن تناءت »[٥٥] .

وينقسم الكتاب إلى مقالتين تنقسم كل منهما إلى بضعة فصول ، الفصل الأول من المقالة الأولى يقدم ملاحظات عامة عن مصر ، طبيعتها وسكانها ؛ والثانى والثالث يصفان نباتها وحيوانها ، وقد أثبتت البحوث الخاصة فى تاريخ النبات أنهما يحتويان على معطيات ذات قيمة كبيرة[٥٦] . أما الفصل الرابع فطريف جدًا فى فكرته إذ يصف فيه عبد اللطيف آثار مصر القديمة ، وكما هو معروف فإن الاهتمام بالآثار القديمة (الأركيولوجيا achaeology) نادرًا ما وجد بين العرب ، وفى هذا المضمار يمثل عبد اللطيف حالة استثنائية . وأطرف من هذا أن عبد اللطيف/يعترض على التخريب الوحشى للآثار القديمة وإتلافها كما يعترض أيضًا على البحث عن 344
الكنوز القديمة الذى يستند على الأساطير والمعتقدات الباطلة . وفى الفصل الخامس يصف الأبنية فى مصر المعاصرة له وأيضًا السفن ، بينما يبحث الفصل السادس فى صنوف الأطعمة والمأكل . أما المقالة الثانية من رسالته فتحتوى على ثلاثة فصول فقط ، الأول منها مكرس للنيل وفيه ينتقد عبد اللطيف مرة أخرى بعض المعتقدات الباطلة السائدة عن منابعه وعن أسباب حدوث الفيضان ؛ وقد حاول عبد اللطيف أن يقيس ارتفاع الفيضان كل عام على أساس الملاحظة المتتابعة . أما الفصلان الأخيران فيقدمان وصفًا حيًا لا يخلو من الرهبة لأحداث ٥٩٧ هـ – ٥٩٨ هـ = ١٢٠٠ – ١٢٠٢ التى اجتاح فيها مصر قحط هائل ووباء مروع . وقد دفعته نزعته العلمية كطبيب وحاثة إلى الاحتفاظ بقوة ملاحظته ورباطة جأشه ، فهو يصف لنا بهدوء وبدقة تامة الحالات الرهيبة لأكل لحوم البشر وكيف كانوا يختطفون الأطباء الذاهبين لعيادة مرضاهم وكيف أحرق المجرمون الذين ثبتت عليهم تهمة أكل الغير وكيف وجدت جثث هؤلاء المجرمين مأكولة فى الصباح . وفى جميع هذه الظروف المروعة لم يفقد عبد اللطيف حب الاستطلاع وروح البحث المتأصلين لديه فأجرى عددًا من الملاحظات التشريحية والطبية . ولا

---

(٥٥) عنان ، ص ١٠٦ – راجع : Brockelmann, GAL, SBI, p. 881, No, I.

(٥٦) -Meyer, III, p. 301-306

يزال كتابه فى هذا الصدد محتفظًا بقيمته كوثيقة إنسانية حية . وهو مهم ليس فقط من وجهة النظر الجغرافية الصرفة بل كوصف للأحوال التاريخية والاجتماعية لعصره ، ناهيك ما يحفل به من مسائل علمية متنوعة .

وقد تعرف الاستعراب الأوروبى على هذا الأثر مبكرًا وأولاه اهتمامًا جديرًا به منذ الخطوات الأولى فى تاريخ تطوره ؛ فمنذ مستهل القرن السابع عشر جلب مؤسس الاستعراب الإنجليزى پوكوك الأكبر E. Pococke مخطوطة قديمة جدًا من الشرق ، وهى موجودة الآن بالمكتبة البودليـة Bodleyan . وكان يحلم هو وخلفاؤه بنشر هذا الأثر وترجمته ، بل وبدأوا فعلا ذلك أكثر من مرة ، ولكن يلوح أنه قد أحاطت بهذا الأثر طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر لعنة شريرة(٥٧) فلم تظهر الطبعة التى أعدها وايت White إلا عام ١٧٨٩(٥٨) ، وأعيد طبع المتن مرة ثانية فى عام ١٨٠٠(٥٩) ،وعنها ترجم الكتاب مرتين إلى الألمانية ومرة إلى اللاتينية ، كما نشرت وترجمت معه سيرة عبد اللطيف البغدادى لابن أبى أصيبعة . ولم يلبث أن تُوِّج هذا المجهود فى آخر الأمر بظهور ترجمة علمية مصحوبة بالشروح والتعليقات لسلفستر دى ساسى Sylvester de Sacy (١٨١٠) ، أعنى بذلك بحثه المشهور «Relation d'Egypte» . وهى محاولة كانت بالنسبة لعصرها شيئًا ممتازًا ، ولا يزال بحثه يحتفظ إلى الآن ببعض الأهمية التى يتمتع بها الأثر نفسه ، بل إن روزن لم يجد كفئًا له فى أوائل القرن التاسع عشر إلا بحث فرين المشهور عن ابن فضلان . وكان آخر من اهتم بتقدير الأثر حق قدره ممثلو النهضة الأدبية العربية المعاصرة الذين اجتذب أنظارهم عبد اللطيف بشكل خاص فى السنوات الثلاثينات فأفرد له النقادة المعروف سلامة موسى كتيبًا (١٩٣٤)(٦٠) والمؤرخ محمد عبد الله عنان فصلا فى كتابه القيم « مصر الإسلامية »/(١٩٣١)(٦١) . وهكذا ظفر عبد اللطيف بتقدير المستعربين والعرب وتردد اسمه 345
لدى علماء الحياة (biologists) والمؤرخين . وعلى الرغم من أنه ينتمى إلى طراز من الناس يخالف تمامًا طراز ياقوت إلا أنه يُعتبر بالدرجة نفسها مثالا نموذجيًا لعصره وبيئته بل ولجميع الحضارة العربية عشية الغزو المغولى .

---

(٥٧) -Schnurrer, p. 150-152

(٥٨) -White, Abdallatif's compendium.

(٥٩) -White, Abdallatif's historiae Aegypti

(٦٠) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 881

(٦١) عنان ، ص ٩٦ – ١٠٦ .

ولم يكن الاهتمام بعلم النبات شيئًا غريبًا على الجغرافيين العرب بل كان يمثل أحيانًا هدفًا أساسيًا لرحلاتهم ومصنفاتهم ؛ فبعد عبد اللطيف زار مصر عالم من الأندلس يحمل لقب « النباتى » ، كما أن كنيته « ابن الرومية » تشير إلى أن والدته من نصارى اسبانيا . أما اسمه فلم يختلف عن الأسماء المعهودة لدى المسلمين وهو أبو العباس أحمد بن محمد ، وقد ولد بأشبيلية وتوفى بها على ما يظهر عام ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩ بعد رحلات واسعة[٦٢] .

وعلى الرغم من حمله للقب « الحافظ » (وذلك لحفظه القرآن) فإن ميوله على أية حال اتجهت نحو علم النبات بحيث اعتبره العرب من أكبر علمائهم فى هذا الفرع من العلوم . ولهذا ما يبرره فقد درس النبات نتيجة لاهتمامه المباشر به وليس بأغراض الطب فحسب كما جرت العادة . وفى البداية ساح فى اسبانيا وحدها وعلى محاذاة جبل طارق ثم عبر البحر حوالى عام ١٢١٧ إلى شمالى افريقيا ومصر وأدى فريضة الحج مدفوعًا دائمًا بأهدافه نفسها فى دراسة النبات . وقد حاول السلطان الأيوبى العادل أن يغريه بالبقاء بمصر لمعرفته الواسعة بالطب ولكن « النباتى » آثر الرحيل إلى الشام والعراق ليتعرف على نباتاتها غير الموجودة بالمغرب ؛ ولعله رجع إلى الأندلس عن طريق صقلية . وقد أودع نتائج ملاحظاته ودراساته كتابه الذى يحمل عنوانًا عاديًا وهو « كتاب الرحلة » ؛ ويتضح من المقتطفات المتبقية منه أن الكتاب قد كرس فعلا بتمامه للمسائل النباتية وحدها وحفل بمعلومات جديدة فى صددها مثال ذلك ما يورده عن نباتات سواحل البحر الأحمر . ومصنفه معروف إلى الآن فى مقتطفات كبيرة فقط حفظها لنا معاصره الأصغر وتلميذه عالم النبات الشهير ابن البيطار (توفى عام ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨)[٦٣] .

وانتساب جميع هؤلاء العلماء إلى عصر الموحدين يبرر الكلام عن مؤرخ قام بمحاولة طريفة لفصل المنهج التاريخى عن المنهج الجغرافى وهو الأمر الذى لم يحفل له كثيرًا التأليف العربى كما
رأينا ، ذلكم هو عبد الواحد المراكشى سمى الفلكى المعروف/الذى مر بنا الكلام عليه[٦٤] . 346
وقد ولد بمراكش عام ٥٨١ هـ = ١١٨٥ ودرس بفاس وأقام بالأندلس وأدى فريضة الحج ثم استقر بمصر وكان بها أثناء استيلاء الصليبيين على دمياط (٦١٧ هـ - ٦١٩ هـ =

---

(٦٢) Sarton, Introduction, II, p. 650-651 —González Palencia, p. 269-270 —Kramers, EI, EB, p. 70-

(٦٣) البحوث فى هذا:
Simonet, Glossario, p. CL, No 12 and note 4, p. XCIV, note I.

(٦٤) Brockelmann, GAL, I, p.322, No 5; SB, I, p. 555 —Sarton, Introduction, II, p. 681 —EI, I, p.- 70 —Dozy, Recherches, II, 1881, p. 461 —Pons Boigues, p. 413 —González Palencia, p. 161-162 —Reinaud, Introduction, p. CXXXV-CXXXVI

١٢٢٠ - ١٢٢٢)[٦٥] .

ومصنفه الأساسى هو « كتاب المعجب فى (تلخيص) أخبار المغرب » الذى كرسه لتاريخ دولة الموحدين مع مقدمة قصيرة فى الحوادث السابقة لذلك ؛ وقد أتمه حوالى عام ٦٢١ هـ = ١٢٢٤ . والكتاب معروف منذ السنوات الأربعينات للقرن الماضى بفضل طبعة دوزى Dozy ثم الترجمة الفرنسية بقلم فانيان Fagnan . وتحقيقًا لرغبة مولاه يعطى المراكشى فى القسم الأخير من الكتاب وصفًا جغرافيًا لدولة الموحدين ولكن يسبقه بالألفاظ الآتية التى يتضح منها أنه يعتبر هذا الموضوع غير مناسب على الإطلاق لمهنة المؤرخ :

« وقد رسم مولانا حرس الله مجده أن يضاف إلى هذا التصنيف ذكر أقاليم المغرب وتعيين مدنه وتحديد ما بينها من المراحل عددًا من لدن برقة إلى سوس الأقصى وذكر جزيرة الأندلس وما يملكه المسلمون من مدنها على ما تقدم فلم ير المملوك بُدًّا من الجرى على العادة فى سرعة الإجابة وامتثال مرسوم الخدمة لوجوب ذلك عليه شرعًا وعرفًا هذا مع أن هذا الباب خارج عن مقصود هذا التصنيف وداخل فى باب المسالك والممالك وقد وضع الناس فيه كتبًا كثيرة ككتاب أبى عبيد الله البكرى الأندلسى وكتاب ابن فيَّاض الأندلسى أيضًا وكتاب ابن خرداذبه الفارسى وكتاب الفرغانى وغيرها من الكتب المفردة لهذا الشأن المستوعبة له ونحن إن شاء الله ذاكرون من ذلك موافقة لرأى مولانا العالى بما يقف به على حدود البلاد ويصور له صورتها على التقريب من غير تطويل جارين فى ذلك على ما سلف من عادتنا فى سائر الكتب »[٦٦] .

من هذا القول يتضح أنه قد وجدت لدى العرب رغبة صادقة للتفريق بين المادتين التاريخية والجغرافية وإخضاع كل منهما لمنهج خاص يقوم على أسس عامة ، ولو أنهم فى الواقع لم يتمكنوا من ترجمة ذلك فى صورة واقعية .

وقد أصبحت مصر الأيوبية التى لم تمسها وطأة الغزو المغولى ملاذًا للعلماء من الشرق والغرب / 347
فكانت بذلك كأنما تتهيأ لتتسنم مركز الثقافة العربية ، وهذا ما حدث بالتالى نتيجة لاستيلاء المغول على بغداد . هذا وقد داوم علماء مصر على الاحتفاظ بالتراث الذى نشأ هناك ، فنلتقى فى هذا العصر بمصنفات من أنماط معروفة لنا . فمن جهة يقابلنا ذلك النوع الفريد لجغرافيا الدواوين وهى مراجع إدارية واقتصادية عملت من أجل كتاب الدواوين ، وخير مثال لهذا كتاب ابن مماتى « قوانين الدواوين » الذى لم يكن الوحيد من نوعه . ومن جهة أخرى تجمعت بالتدريج ونمت مادة نمط « الخطط » ، وهى أوصاف تاريخية وإدارية للنواحى والأحياء المختلفة من المدن الكبرى . ولعل

---

(٦٥) -Reinaud, Introduction, p. CXXXV

(٦٦) -Dozy, History of the Almohades, p. 252-253

خير مثال لهذين الاتجاهين مايقدمه فى مصنفاته الإدارى والجغرافى النابلسى (توفى عام ٦٤١ هـ = ١٢٤٣)[٦٧] .

واسمه الكامل وهو عثمان بن إبراهيم النابلسى الصفدى يشير إلى أن أصله من فلسطين ، ولكنه عاش بمصر وعمل بها فى عهد السلطان الأيوبى نجم الدين أيوب (٦٣٧ هـ - ٦٤٧ هـ = ١٢٤٠ - ١٢٤٩) ولعله لم يتفاد تأثير ابن مماتى حينما وضع مصنفًا مماثلا لمصنفه وهو « كتاب لمع القوانين المضيئة فى دواوين الديار المصرية » المعروف إلى الآن فى المخطوطات فقط . ويبحث القسم الأساسى من الكتاب كما هو الحال عند ابن مماتى فى نظام الدواوين المالية المختلفة التى يحتل من بينها مركز الصدارة ديوان الأحباس الذى يعالج الأوقاف كما يعالج أيضًا جزءًا هامًا من الإدارة المالية ، وهو الديوان الوحيد الذى كان بمقدوره أن يتخذ قرارات دون توقيع خاص من السلطان[٦٨] . وقد عين النابلسى حاكمًا على الفيوم عام ٦٤١ هـ = ١٢٤٣ فوضع خلال عامين[٦٩] وصفًا وافيًا لها يوجد فى متناول الأيدى فى طبعة لموريتز **Moritz** . ومن العسير القول بأنه هل يتفق هذا المصنف مع المخطوطة التى باستنبول والتى تحمل عنوان « إظهار صنعة الحى القيوم فى ترتيب بلاد الفيوم »[٧٠] ؛ وعادة يحمل مصنفه عنوانًا بسيطًا هو « تاريخ الفيوم وبلاده » . وينتمى المصنف إلى طراز الجغرافيا الإقليمية (**regional**) ويقدم فى عشرة أبواب وصفًا يمس فى الغالب الأماكن المأهولة من الفيوم[٧١] ؛ والأبواب التسعة القصيرة كأنما تخدم غرض مقدمة للباب الأخير . فبعد وصف عام مجمل للمنطقة ترد معطيات موجزة عن المناخ ومزاج السكان ، وأكثر تفصيلاً من ذلك وصفه للنظام الهيدروغرافى (**hydrographic**) للمنطقة
واتصال قنواتها بالنيل . وفى الباب الذى عقده عن السكان يتحدث عن انقسامهم إلى حضر / 348
وبدو مع سرد أسماء القبائل العربية . كما أفرد اهتمامًا خاصًا فى أبواب الكتاب المختلفة للمساجد والأديرة وأخيرًا لطبيعة الأقاليم . ويلى هذا القسم الأساسى من الكتاب الذى يصف فيه المواضع المأهولة ، وهو حافل ومفصل بحيث يمكّن من وضع خارطة تخطيطية لمنطقة الفيوم . وهو كجميع المصنفات من هذا الطراز يحفل بالتفاصيل المختلفة سواء فى المسائل الاجتماعية والاقتصادية المتعلقة بالمنطقة أو فى الجغرافيا الطبيعية . وقد مكنت هذه التفاصيل بدورها أحد العلماء من

---

(٦٧) عن هذا التاريخ راجع : Kramers, EI, EB, p. 71

و : Brockelmann, GAL, I, p. 335, No 4, SB, I, p. 573

(٦٨) -Björkman, Beiträge, p. 33-34

(٦٩) -Moritz, Description du Faiyoum, p. 2

(٧٠) شرحه ، ص ٣ .

(٧١) سركيس ، ص ١٢١٠ .

وضع قائمة بنباتات الفيوم[٧٢] بالرغم من أن النابلسى نفسه لم يكن البتة عالمًا بالنبات كبعض السابقين له ممن مر ذكرهم للتو .

وقد ضربت الجغرافيا الإقليمية فى هذا العصر فى اتجاهات أخرى بالطبع ، ولم يكن مؤلفوها دائمًا من أهل المنطقة الموصوفة نفسها . وغير واضح بالنسبة لنا مثلا لماذا أصبح خبيرًا ممتازًا بجنوبى جزيرة العرب والحجاز الأوسط شخص مثل يوسف بن يعقوب الدمشقى المشهور بابن المجاور[٧٣] الذى ولد بدمشق ونشأ وترعرع ببغداد[٧٤] . وكانت له صلات بالهند حيث أقام بعض الوقت بملتان ؛ وفى عام ٦١٠ هـ = ١٢٢١ عبر البحر من الديبل إلى عدن ، وكان ببلاد العرب على أية حال فى عام ٦٢٧ هـ = ١٢٣٠ . والتاريخ الأخير يقابلنا فى مصنفه[٧٥] ، لهذا فإن الرأى الغالب هو أنه قد تم تأليفه قبل عام ٦٣٠ هـ = ١٢٣٣ بقليل[٧٦] ؛ وهذا بدوره دفع إلى الافتراض بأن تاريخ وفاته الذى يرجعه بعض المؤلفين عادة إلى عام ٦٩٠ هـ = ١٢٩١[٧٧] متأخر جدًا على أغلب الأحوال . وربما يمكن تفسير هذا التردد فى التواريخ بأن اسم ابن المجاور ليس اسمه الشخصى بل هو اسم عام استعمل للتوقير وحمله عدد من أفراد هذه الأسرة . وهذا التردد نفسه فى الاسم يصدق أيضًا على مصنفه ، فهو بحسب آراء البحاثة السابقين يحمل عادة اسم « تاريخ المستنصر » ولكن نظرًا لأن مادته لا ترتبط فى شىء مع هذا العنوان الواسع الانتشار فمن المحتمل أنه يجب قراءته « تاريخ المستبصر » وفقًا لرأى آخر بحاثة طرق هذا الموضوع[٧٨] .

وكان أول عالم يتعرف عن كثب على كتاب ابن المجاور هو اشبرنجر Sprenger ، فقدره حق قدره (١٨٦٤) ووضعه أحيانًا جنبًا إلى جنب مع المقدسى[٧٩] . وابن المجاور قد زار تقريبًا جميع
النواحى/التى وصفها ، ووصفه لبلاد العرب الجنوبية لا يعتمد على وصف المقاطعات والنواحى 349
بل وصف الطرق فيورد المسافات ويذكر آثار كل منزلة ويتحدث عن أخلاق السكان وعاداتهم

---

(٧٢) -Salmon, Flore du Fayyoûm, p. 25-28

(٧٣) -Brockelmann, GAL, I, p. 482, No 15; SB, I, p. 883, No 15 —Kramers, EI, EB, p. 70
—Ferrand, K'ouen Louen, p. 469-483 (على حدة ، ص ١٣٩)

(٧٤) -De Goeje, Ibn al-Modjawir, p. 31

(٧٥) شرحه .

(٧٦) شرحه ، ص ٢٣ .

(٧٧) -Brockelmann, GAL, SBI, p. 883, No 15

(٧٨) -Löfgren, Aden, p. 19

(٧٩) -Sprenger, Reiserouten, p. XXI-XXIV

ويسجل الروايات والأساطير المحلية التى يشعر بميل شديد نحوها . ومعرفته بالتاريخ القديم ليست كبيرة فهو ليس بعالم نقلى ؛ وارتياب اشبرنجر فى معرفته بالأدب الجغرافى السابق له[٨٠] قد خفف منه دى خويه De Goeje كثيرًا ، فقد اتضح له أثناء اشتغاله بإعداد ذلك الأثر للطبع أن عددًا من المصادر المكتوبة التى يرجع إليها ابن المجاور تدل على اطلاعه الواسع فى ذلك الأدب[٨١] وعلى معرفته العميقة لا بالشعر العربى وحده بل وبالفارسى أيضًا[٨٢] . وقد مكنته رحلاته البحرية من معرفة تلك المراجع الفريدة المعروفة باسم الراهنامجات (أى المرشدات الملاحية) التى ألقى ضوءًا على أهميتها المستشرق الفرنسى فيران Ferrand[٨٣] .وكان ابن المجاور على معرفة دقيقة بخطوط الملاحة فيورد مثلا ذكر المسافة بين نجران ببلاد العرب الجنوبية وجاوه[٨٤] ؛ ويلوح أنه كان مولعًا أشد الولع بالمسائل الملاحية وحفظ لنا شهادة فريدة ذات قيمة كبرى كما برهن فيران عن وجود أسطول ملغاشى قوى فى الأزمنة القديمة[٨٥] . غير أن أهمية ابن المجاور لا تقوم على هذه المعلومات المدونة بل على أساس ملاحظاته المباشرة عن الحياة العامة ، ومن العسير أن نلتقى بهذه الكمية الضخمة من المعطيات الطبوغرافية والحضارية والأسطورية لدى أى مؤلف آخر . وهى جميعها تكشف عن معرفة عميقة بالهند خاصة فى محيط الأثنوغرافيا والأدب الشعبى (الفولكلور)[٨٦] ؛ وهو يصف بالتفصيل عادات الزواج وطقوس العرس فى زبيد باليمن[٨٧] ؛ وفى بلد كمكة[٨٨] .كما يسرد بحيوية فائقة التقاليد البدائية لقبيلة بجيلة التى تقطن محلة السرو بين الطائف وتبالة[٨٩] . وجميع هذه الروايات أيدها الرحالون فيما بعد ؛ فخبير لهجات جنوبى الجزيرة العربية لاندبرج Landberg الذى كانت لديه وقتًا ما فكرة نشر هذا الأثر[٩٠] استخرج منه مادة اثنوغرافية ضخمة[٩١]

(٨٠) شرحه ص XXI

(٨١) DeGoeje, Ibnal-Modjâwir, p.24

(٨٢) شرحه ، ص ٢٥ .

(٨٣) -Ferrand, L'Element Persan, p.213, 257

(٨٤) -Ferrand (فى نقده لكتاب : G.Coedès, Le Royaume de Çrivijaya, p.191)

(٨٥) -Ferrand, K'ouen Louen, p.469 (على حدة ص ١٣٩) ; p. 476-479 (على حدة ص ١٤٦ – ١٤٩)

(٨٦) -Löfgren, Aden, p.20

(٨٧) -DeGoeje, Ibnal-Modjâwir, p.26-28

(٨٨) شرحه ، ص ٢٥ – ٢٦ .

(٨٩) شرحه ص ٢٨ – ٣٠ .

(٩٠) شرحه ، ص ٣١ – ٣٣ .

(٩١) -Landberg, Etudes, II, Datinah, 2, Commentaire, p. 826-829, 859-869, 908-913, 918-919, 999.

350 يمكن على ضوئها تكوين فكرة واضحة/عن مضمون تلك الأقسام من كتابه وعن سلاسة أسلوبه وسهولته[٩٢] .

وقسمًا كبيرًا من « تاريخ المستبصر » ينوف على الخُمْس يشغله وصف مدينة عدن[٩٣] ؛ وهو قد عُرف منذ وقت طويل ويرجع بالتقريب إلى عهد الكشف عن المصنف نفسه . وكما هو ديدنه دائمًا فقد قدم لنا فيران فى الآونة الأخيرة تعليقًا وافيًا على جزء منه[٩٤] ، أما الطبعة الكاملة لهذا القسم فقد نشرها أخيرًا (١٩٣٦) لوفغرين Löfgren[٩٥] . وكما هو الحال مع بقية أقسام الكتاب فإن وصفه لعدن يمثل خلطًا غريبًا مبتكرا بين الرواية الأسطورية للتاريخ القديم والملاحظات الدقيقة للمؤلف نفسه . أما المادة الأثنوغرافية فوافرة جدًا ، كما تتوفر لديه أيضًا المعطيات الطبوغرافية ؛ ومن الطريف ملاحظة أن بعض مخطوطات الكتاب تحمل رسمًا بدائيًا لخطط مدينة عدن[٩٦] .

وتاريخ مخطوطات هذا الكتاب معقد للغاية[٩٧] ؛ فإلى جانب المخطوطات التى وجدت طريقها إلى أوروبا بفضل مجهودات شيفير Schéfer[٩٨] أضيفت مخطوطتان أخريان فى عهد دى خويه ولاندبرج[٩٩] ؛ ورغمًا من هذا فلم يقدر لأحد هذين العالمين أن يتخذ قرارًا حاسما بإخراج طبعة كاملة للكتاب مع أن كليهما كان يعد العدة لذلك ، ولعل لوفغرين كان أكثر حظًا منهما فقد استطاع أن يضيف إلى تلك المخطوطات مخطوطة استنبول[١٠٠] وينشر قطعًا من كتاب ابن المجاور . والأثر حقًا جدير بطبعة كاملة ولو أنه من المبالغة بالطبع وضعه جنبًا إلى جنب مع المقدسى كما فعل أول باحث فى الموضوع ، أو مع الهمدانى كما فعل آخر باحث[١٠١] . ومع ذلك فيمكن القول بدون تردد أن ابن المجاور كاتب أصيل له طابعه الخاص به وأنه ربما يحتل المكانة الأولى

(٩٢) تعداد كامل للأقسام فى : Löfgren, Aden, p. 20, note 1

(٩٣) شرحه ، ص ٥ .

(٩٤) Ferrand, K'ouen Louen, p. 469-483 (على حدة ص ١٣٩ – ١٥٣)-

(٩٥) عن شخصية ابن المجاور راجع : Löfgren, Aden, p. 19-21

(٩٦) Löfgren, (خارطة عدن ص ٧٠ ، ٥٠)-

(٩٧) شرحه ، ص ٢٠ – ٢١ .

(٩٨) Sprenger, Reiserouten, p. XXI-

(٩٩) De Goeje, Ibn al-Modjâwir, p. 30-

(١٠٠) Löfgern, Aden, p. 7-

(١٠١) شرحه ، ص ١٩ .

فيما يتعلق بالملاحظات الاثنوغرافية .

من كل هذا يتضح لنا أن البلاد العربية لم تمسها جميعًا وطأة الغزو المغولى فى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، فاستمرت تنمو وتترعرع بها الأنماط المعروفة للأدب الجغرافى . بل إن كاتبًا كياقوت الذى اضطر إلى الفرار أمام جحافل جنكيز خان قد استطاع بالتالى أن يضع مؤلفًا كان بمثابة القول الفصل والخاتمة الحسنة فى ميدان المعاجم الجغرافية . وبعد سقوط بغداد فى أيدى المغول عام ١٢٥٨ انتقلت مراكز النشاط الأدبى للغة العربية كما ذكرنا من قبل /إلى الشام وأبعد منها 351
إلى الغرب . غير أن هذا لا يعنى أن التأليف الجغرافى قد اختفى من المشرق كلية ؛ وكما هو معروف فقد ظهر باللغة الفارسية فى عهد المغول عدد من الآثار الممتازة فى مجالى التاريخ والجغرافيا . بل إن اللغة العربية نفسها قد عرفت فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر مصنفًا من أكثر مصنفاتها انتشارًا وتداولا بين جماهير القراء ، أعنى بذلك كوزموغرافيا القزوينى . وهذا المصنف كمعجم ياقوت يمثل الأوج كذلك فى نمطه الخاص به ، وهو ذلك النمط من التصنيف الجغرافى الذى ينتحى ناحية العجائب mirabilia والذى أوفى على غايته واستنفذ أغراضه فى كتاب القزوينى بحيث لم يكشف بالتالى عن أية طاقة جديدة فاكتفى المؤلفون باختصار كتاب القزوينى أو تنقيحه فى صورة أو أخرى .

الفصل الثالث عشر
النصف الثانى من القرن الثالث عشر

352 يتميز القرن الذى أعقب الغزو المغولى بظهور عدد من الآثار الكبرى فى محيط الأدب الجغرافى تحتل بالنسبة لأنماطها المكانة نفسها التى يحتلها معجم ياقوت وإن كانت لا تبلغ قيمته . هذا وقد كسبت أسماء القزوينى وأبى الفدا والدمشقى صيتًا واسعًا سواء فى الشرق أو فى محيط الاستعراب الأوروبى . غير أن هذه الأسماء أخذت تفقد مكانها وتتقهقر إلى الصف الثانى من أواخر القرن التاسع عشر نتيجة للكشف عن مصنفات المؤلفين السابقين لهم ؛ ورغمًا من هذا فقد أزاح البحث الحديث الستار عن جوانب جديدة فى كتبهم لم يكن قد التفت إليها الباحثون من قبل ولهذا فمن العسير القول بأن مادتها قد درست دراسة كافية إلى يومنا هذا . ومما يميز هذا العصر أيضًا كما يميز العصر السابق له تلك المصنفات الجغرافية أو المتعلقة بالجغرافيا التى تم تدوينها باللغة الفارسية والتى تمثل أوج ما بلغه هذا الفن من الأدب فى تلك اللغة .

وإلى جانب أوصاف الرحلات التى تتفاوت من حيث قيمتها يسترعى النظر فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر مؤلفان يرتبط أحدهما بمغرب البلاد العربية بينما يرتبط الثانى بمشرقها . فأبو الحسن على الغرناطى الذى اشتهر بابن سعيد ولد قريبًا من غرناطة فى حوالى عام ٦١٠ هـ = ١٢١٤ ؛ ومصدر معلوماتنا عنه فى الغالب هو النبذة التى كتبها عن نفسه والتى حفظها لنا المقرى فى مصنفه المعروف[١] . وقد نال ابن سعيد حظه من التعليم باشبيلية وأمضى الجانب الأكبر من حياته متنقلا فى طلب العلم ، وكما عبر عن ذلك أحد علماء القرن التاسع عشر فإنه قد تنقل فى تجواله « من المغرب الأقصى على المحيط الأطلنطى إلى الخليج الفارسى والتقى بأكابر العلماء ورأى أفضل الكتب »[٢] . وقد صحب أباه فى أولى رحلاته إلى الحج عام ٦٣٨ هـ = ١٢٤٠ فزار شمالى افريقيا ومصر ؛ وفى طريق العودة توفى والده بالإسكندرية عام ٦٤٠ هـ = ١٢٤٣[٣] فتخلف ابن سعيد بالقاهرة حتى عام ٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ ثم غادرها إلى الشام وأقام حينًا من الدهر بالموصل
354 وبغداد والبصرة . وقبل استيلاء هولاكو على بغداد بأعوام قليلة/تمكن ابن سعيد من متابعة دراساته

---

(١) -Pons Boigues, p. 306-310, No 260

(٢) -Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 136

(٣) -Ibn Sa'id, p. 440

بمكتباتها البالغ عددها ستًا وثلاثين مكتبة والتى يصفها لنا بحماس يماثل الحماس والإعجاب الذى وصف به ياقوت مكتبات مرو لعهده . ثم رحل إلى حلب ودمشق فى صحبة المؤرخ الشهير ابن العديم وحج إلى مكة مرة ثانية[٤] ؛ ونلتقى به فى عام ٦٥٢ هـ = ١٢٥٤ ببلاط أمير تونس ؛ وفى عام ٦٦٦ هـ = ١٢٦٧ خرج فى رحلة أخرى فمر بالإسكندرية وحلب متجهًا إلى أرمينيا[٥] حيث دفعه حب الاستطلاع ليرى بعينى رأسه هولاكو الجبار (توفى عام ٦٦٣ هـ = ١٢١٥)[٦] ؛ وهذا التناقض فى التواريخ يسوقنا إلى التشكك فى صدق هذه الواقعة الأخيرة[٧] . وقد توفى ابن سعيد على قول إحدى الروايات بدمشق فى خلال عودته من هذه الرحلة وذلك فى عام ٦٧٣ هـ = ١٢٧٤ ؛ وترجع رواية أخرى تاريخ وفاته إلى ما بعد هذا بأعوام طويلة فتذكر أنها قد حدثت بتونس فى عام ٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ . ويعتبر ابن سعيد بصفة عامة من أخصب الكتاب إنتاجًا على الرغم من أسفاره التى لم تنقطع ، هذا إلى جانب ميوله الواضحة نحو الأدب الفنى[٨] خاصة الشعر الذى نال فيه حظًا وافرًا من الشهرة .

وكان ابن سعيد محبًا لوطنه الأندلس وانعكس حنينه إلى الوطن فى أشعار عاطفية عميقة[٩] ؛ وقد رد على ابن حوقل لأنه ارتاب فى أخلاق أهل الأندلس[١٠] كما وأنه وضع سائر المدن التى زارها فى مرتبة دون مرتبة مدن الأندلس . وقد عبر عن أحاسيسه هذه بإيجاز فى قوله[١١] :

« وأنا أقول كلامًا فيه كفاية منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطفت فى بر العدوة ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وسبتة ثم طفت فى إفريقية وما جاورها من المغرب الأوسط ، فرأيت بجاية وتونس ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الإسكندية والقاهرة والفسطاط ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلبًا وما بينهما لم أر ما يشبه رونق الأندلس فى مياهها وأشجارها إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ومدينة دمشق بالشام وفى حماة مسحة

---

(٤) Reinaud, Introduction, p. CXLI-

(٥) Ibn Sa'id, p. 440-

(٦) Brockelmann, GAL, I, p. 337-

(٧) من المحتمل أنه قد حدث خلط ها هنا فيما يتعلق بالقصة التى يرويها المقرى عن آخرين (الجزء الأول ، ص ٧٠٧ ، وقارن ص ٧٠٦ السطر الثالث من أسفل) .

(٨) Pons Boigues, p. 309-

(٩) المقرى ، الجزء الأول ص ٦٤٨ = Schack, I, p. 178-181

(١٠) شرحه ، الجزء الأول ، ص ١٣٠ ، السطر ١٣ وما يليه .

(١١) شرحه الجزء الأول ، ص ١٢٨ ، السطر ١٧ إلى ص ١٢٩ ، السطر ١ .

أندلسية ولم أر ما يشبهها فى حسن المبانى والتشييد والتصنيع إلا ما شيد بمراكش فى دولة بنى عبد المؤمن وبعض أماكن فى تونس وإن كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالإسكندرية ولكن
355 الإسكندرية أفسح شوارع وأبسط وأبدع ومبانى حلب داخلة فيما يستحسن/لأنها من حجارة صلبة وفى وضعها وترتيبها إتقان »[١٢] .

أما فى الدوائر العلمية فقد لفتت الأنظار بشكل خاص مصنفاته التاريخية ، ذلك أن ابن سعيد سار على نهج أسرته فأتم مؤلفات كان قد بدأها جده وأبوه[١٣] وهى تعالج تاريخ العرب والبلاد العربية منذ الجاهلية إلى العصر القريب من حياة المؤلف . هذا وقد أصبحت تلك المؤلفات معروفة فى القرن العشرين عن طريق البحوث الخاصة[١٤] وعن طريق طبعات للفصول التى لم تمتد إليها يد الضياع[١٥] ؛ وهى تضم إلى المادة التاريخية جانبًا ليس بالقليل من المعطيات الجغرافية ينعكس فيها بجلاء ميل المؤلف إلى الأدب الفنى ، من ذلك وصفه لصقلية الذى استخرجه موريتز Moritz من إحدى مصنفاته التاريخية التى أشرنا إليها[١٦] وذلك فى مخطوطة كتب قسم منها بخط يد المؤلف نفسه .

أما نشاطه فى محيط الجغرافيا فإنه لا يتصل بالأدب بقدر ما يتصل بالاتجاه الذى يمثله الإدريسى ؛ ويتضح ذلك من عنوان مصنفه « كتاب جغرافيا فى الأقاليم السبعة » ، وكأنه يشير بهذا إلى المذهب الذى ينضوى تحت لوائه المؤلف . غير أنه يجب أن نضيف إلى هذا أن المشكلة المتعلقة بمسودات هذا الكتاب ومختصراته لا يمكن القول بأنها قد حلت تمامًا[١٧] ؛ ولا يزال البحث الذى بكر به بارتولد منذ السنوات التسعينات من القرن الماضى هو الدراسة الوحيدة حول هذا الموضوع وفيه ينعكس الاهتمام الخاص بمحتويات هذا الكتاب . غير أن عدم وجود طبعة له حتى يومنا هذا ليقف حجر عثرة فى سبيل دراسته دراسة صحيحة .

وترجع معرفتنا بهذا المصنف إلى قطعة واحدة ترتفع إلى بداية القرن الرابع عشر وتوجد نسخة خطية لها بمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية[١٨] . وقد اعتقد بعض الباحثين

---

(١٢) هاتان الفقرتان الأخيرتان أضافهما كراتشكوفسكى مؤخرًا .

(١٣) -Brockelmann, GAL, SB, I, p. 576, 1.

(١٤) -Trummeter

(١٥) -Cf. Amari (—Nallino), I, p. 41-42, No 10

(١٦) -Moritz, Ibn Sa'id, I, p. 292-305

(١٧) -Reinaud, Introduction, p. CXLII-CXLIII —Amari (—Nallino), I, p. 55-56, No 18

(١٨) -Rosen, Notices sommaires, p. 181, No 233

استنادًا على إحدى النسخ بأن الكتاب من تأليف أحمد بن ياقوت الحموى وهو ابن ياقوت المشهور[١٩] ؛ إلا أن الواقع يكذب هذا الزعم ذلك أنه إذا كان تأليف القطعة يرجع حقًا إلى ما بين عامى ٧٢١ هـ = ١٢٣١ و ٧٢٣ هـ = ١٢٣٣ كما هو مبين بها فإن هذا يعنى أن ابن ياقوت لم يكن عمره آنذاك ليقل عن سبعة وتسعين عامًا[٢٠] . وثمة قطعة أخرى من هذا الكتاب تحمل عنوانًا مغايرًا
356 هو « كتاب بسط الأرض فى طولها والعرض »* ؛ ومن الطريف أن/إحدى نسخ هذه الأخيرة التى استعملها أبو الفدا وعلق على هامشها بملاحظاته العديدة محفوظة الآن بباريس[٢١] . وعلى الرغم من الغموض الذى يحيط بمسودات الكتاب إلا أنه يمكن القول بأن « جغرافيا » ابن سعيد تعتمد على الإدريسى اعتمادًا كبيرًا فى مادتها الأساسية وفى تبويبها فالأقاليم فيها مقسمة إلى سبعة وكل واحد منها مقسم بدوره إلى عشرة أجزاء، ولكنه كما لاحظ هونغمان Honigmann[٢٢] «لا يترسم فى هذا مذهب بطلميوس إطلاقاً» ذلك أن مفهوم «الإقليم» بمعناه الخاص الذى يقوم على الفكرة الفلكية قد أخذ يختفى شيئاً فشيئاً . ويزيد ابن سعيد على الإدريسى أنه قد بين عروض وأطوال جميع المواضع المأهولة بطريقة دقيقة يمكن معها إلى حد كبير تخطيط مصور جغرافى متكامل.

وعلى الرغم من الطابع النقلى الذى يغلب عليه إلا أنه يجب الاعتراف بأنه مصنف غنى حافل وأن ما أورده من معلومات عن أوروبا الغربية خاصة فرنسا وهنغاريا لا يخلو من الطرافة ، كما لا يخلو منها أيضًا وصفه لآسيا الصغرى ولمنطقة قسطمونى بالذات التى كانت آنذاك مركزًا للتركمان . وابن سعيد يقدم لنا معلومات عن الصقالبة الغربيين على سواحل بحر البلطيق ؛ وقد أخضع بارتولد مادته عن أوروبا الشرقية وآسيا الداخلية لدراسة ممتازة ؛ وهو على معرفة بالروس على سواحل بحر آزاق Azov ونهر الدون[٢٣] كما وأنه يورد بعض التفاصيل عن جبال القوقاز[٢٤] والشعوب القاطنة إلى الشمال والشرق منها كالبرطاس والغز والقومان والقبجاق[٢٥] ؛ أما معرفته بالصين فتعتمد فى

---

(١٩) Derenbourg-Schefer, t.à.p., p.39 — Brockelmann, GAL, SB, I, p. 577, 3 and 880, No. 10, at the end.

(٢٠) Barbier de Meynard, Dictionnaire, p. VI, note

* نشره مؤخرًا معهد مولاى الحسن بتطوان بعناية الأستاذ Juan Vernet Gines بجامعة برشلونه . (المترجم)

(٢١) Brockelmann, GAL, I, p. 336, 3 —Trummeter, p. 12, II, Geographisches, No 1

(٢٢) Honigmann, Die sieben Klimata, p. 181 and note 4

(٢٣) Bartold, Geografia Ibn Sa'ida, p. 232-235

(٢٤) شرحه p. 235-236

(٢٥) شرحه p. 236-238

الغالب على الإدريسى ولكنه كان على علم بالاسم التركى لبكين وهو خانبالق وباسم حاكمها لذلك العهد وهو محمود يلواج من أهل خوارزم ؛ وقد ساور الشك أبا الفدا فى صحة هذه الرواية الأخيرة فآثر ألا ينقلها فى مؤلفه الجغرافى(٢٦) .

وأبو الفدا بوجه عام يقف موقف المتشدد من ابن سعيد بل إنه يذكر فى مواضع من كتابه أنه قد اعتمد على روايته عن المغرب كل الاعتماد فى مبدأ الأمر لأن ابن سعيد مغربى ولكنه ما لبث أن تبينت له أخطاؤه فصار يتحاشاه(٢٧) . غير أن هذا الحكم القاسى لأبى الفدا لم يقره عليه العلم الأوروبى بصفة دائمة ، فأمارى Amari وهو من خيرة العارفين بالمصادر فى هذا الميدان قد أماط اللثام عن معرفة ابن سعيد الجيدة بجنوبى أوروبا(٢٨) وبإيطاليا بوجه خاص ؛ أما فيما يتعلق بنواحيها ومدنها
358 مثل سردينيا وقورسيقا ونابلى/وسالرنو وروما وبيزه وجنوه فقد أورد بشأنها عددًا من المعطيات الجديدة مما لم يعرفه المؤلفون الآخرون ، ولعله استقاها من التجار الأندلسيين والأفارقة(٢٩) . وهذا الحكم عينه يصدق بدوره على معرفته بسواحل افريقيا الغربية والشرقية التى لم يزرها بنفسه بل استقى مادته عنها من ملاح عربى لا نعلم عنه شيئًا يدعى ابن فاطمة ولعله عاش فى القرن السابق على ذلك(٣٠) ؛ وقد أبحر هذا الملاح على طول الساحل الغربى لافريقيا حتى بلغ مصب نهر السنغال الذى كان يعتبر فى ذلك الوقت متصلا عن طريق نهر النيجر بحوض النيل الذى كان الجغرافيون يضمون إليه فى ذلك العهد منطقة بحيرة تشاد(٣١) * . أما فى شرقى افريقيا فإن ابن فاطمة بلغ سفالة الزنج على ما يبدو وعرف جيدًا مدغشقر(٣٢) وربما ترتفع إليه تلك الرواية الهامة

---

(٢٦) شرحه p. 240

(٢٧) -Reinaud, Introduction, p. CXLIII

(٢٨) -Amari (—Nallino), I, p. 55-56

(٢٩) -Amari, Frammenti, p. 388-392

(٣٠) -Kramers, EI, EB, p. 69, 70

(٣١) -Kramers, Legacy, p. 102

* لدى المترجم مايحمله على الاعتقاد بوجود بعض الاختلاف بين هذا الكلام وبين النص الذى اعتمد عليه المؤلف ، لذا فقد آثر إيراده بحذافيره :

«The Author Ibn Said, on the thirteenth century, is very well acquainted, through the travels of ابن فاطمة with the Atlantic coast as far as the Senegal (which was thought to be connected with the Niger and even to belong to the same fluvial system as the Nile), and with the negro peoples living round lake Chad» (p. 102, Legacy of Islam, 1960) (المترجم)

(٣٢) -Ferrand, EI, IV, p. 508 —Storbeck, p. 59-60

التى ينفرد ابن سعيد بروايتها دون المؤلفين العرب قاطبة والتى تتعلق باستيطان الهنود لجزيرة مدغشقر(٣٣) . وكل هذه الاعتبارات ذات الطابع العام والخاص تقف دليلا على أن « جغرافيا » ابن سعيد تستحق اهتمام الباحثين المعاصرين ؛ ولا يزال محتفظًا بقيمته ذلك الرأى الذى أفصح عنه بارتولد منذ نصف قرن حين قال : « ويمثل هذا المصنف لدى مقارنته بالإدريسى وأبى الفدا أهمية قائمة بذاتها ... ولم يستطع أبو الفدا أو المترجمون والناشرون أن يستغرقوا جميع مادته(٣٤) » ، أى أن المصنف لا يزال فى حاجة إلى بحث خاص وعند ذلك فقط يمكن توضيح الجوانب الغامضة فيه توضيحًا كافيًا .

وإذا استحال القول بأن ابن سعيد كان مؤلفًا مغمورًا ، سواء عند العرب أو لدى العلماء الأوروبيين ، فإن الصيت الأكبر فى ذلك العصر بل وفى العصور التالية له كان من نصيب القزوينى الذى يكاد يكون أكثر المؤلفين العرب قاطبة قربًا إلى الجماهير ؛ ذلك أن معرفة جمهرة القراء بالآثار الأدبية لم ترتبط بالطبع دائمًا بأسماء كبار العلماء بل كانت فى أغلب الأحيان من نصيب تلك المصنفات المحببة إلى نفوسهم والتى تتجاوب مع رغباتهم . وإذا كان ياقوت قد بلغ الأوج فى نمط المعاجم فإن القزوينى يعتبر أكبر كوزموغرافى ومبسّط للعلوم من أجل الجمهور . وكما رأينا من قبل فإن ممثلى هذا النمط بدأوا فى الظهور منذ نهاية القرن الثانى عشر ، وهم لم يقفوا عند حد عرض القوانين التى تتحكم فى نظامنا الشمسى فحسب بل اهتموا على السواء بجميع الظواهر التى تحدث على الكرة الأرضية فلعبوا فى وقت واحد دور الفلكيين والجغرافيين والجيولوجيين وعلماء المعادن والنبات والحيوان والاثنوغرافيا وبهذا يعتبرون إلى حد ما مكملين للجاحظ والمسعودى والبيرونى ولكن مع الافتقار إلى الأصالة فى البحث وعمق التحليل . وهم فى كثير من الأحيان قوم متصوفون ولكن بطريقة بدائية ، يرون فى كل شىء « معجزات الخالق » وكثيرًا ما اتخذت
359 رسائلهم طابع الموعظة والتهذيب . وهم على عكس أولئك/لم يهدفوا الإبداع والأصالة بل اكتفوا بالنقل والجمع ولكنهم كانوا فى العادة أمناء فى نقلهم وبلغوا درجة رفيعة فى التصنيف التركيبى ؛ ومؤلفاتهم وإن افتقرت إلى عنصر الذاتية إلا أنها كانت تتطلع فى معظم الأحايين إلى الوضوح فى الأسلوب والتزام منطق فى العرض له سماته المميزة . والميزة الكبرى للقزوينى هى فى بلوغه بهذا

---

(٣٣) Ferrand, Relations, II, p. 317-320 —Ferrand, K'ouen Louen, p. 445-446, 479, 204 sui = t. à.p. 115-116, 149, 230 = Hudud, p. 205, No 29; Hennig, II, p. 314-319

(٣٤) Bartold, Geografia Ibn Sa'ida, p. 241

النمط أقصى درجة من الإبداع الفنى ؛ وسينضم إلى هذا الاتجاه فى العصور التالية الدمشقى وابن الوردى[٣٥] .

والقزوينى بالطبع ناقل مثالى ويقدم لنا نموذجًا حيًا لأدب عصر التدهور ؛ وهو على اطلاعه الواسع ومعلوماته الغزيرة لا يأتى بجديد أو يصوغ نظرية أصيلة . وقد عاونته ثقافته على أن يفقه كل شيء وفقًا لطريقته الخاصة مما أدى به فى آخر الأمر إلى وضع مصنف تركيبى يجمع كل معارف عصره . والقزوينى ككاتب يتميز بالوضوح فى الأسلوب الذى يبلغ به فى واقع الأمر درجة رفيعة ، وهو بلا ريب نابغة كمبسّط للمعارف يعرض مادته العلمية فى كثير من المهارة بحيث لا تنفر القارىء العام . ولديه مقدرة فائقة فى تبسيط أكثر الظواهر تعقيدًا وذلك بطريقة جذابة واضحة كما وأن أسلوبه يجمع بوجه عام بين البساطة والتنوع ولو أنه يقدم فى كثير من الأحايين صورة متداخلة الألوان (mosaic) من روايات المؤلفين السابقين عليه[٣٦] . ويرى أحد العلماء المعاصرين أن كوزموغرافيا القزوينى هى أهم أثر أنتجه كاتب عربى فى العصور الوسيطة ؛ وكثيرًا ما قارنه العلماء بهيرودوت **Herodotus** وبلينى **Plinius** ولعل هذه المقارنة لا تخلو من بعض الوجاهة على الرغم من أنه يجب الاعتراف بأن القزوينى لا يفضل هذين المؤلفين الكلاسيكيين سواء من ناحية الروح النقدية أو المنهج[٣٧] .

والقزوينى هو زكريا بن محمد ، ويجب عدم الخلط بينه وبين سميه حمد الله قزوينى المؤرخ والجغرافى الفارسى الشهير الذى سيرد الكلام عنه فى حينه . وقد ولد القزوينى فى عام ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ ، ورغمًا من النسبة التى يحملها فهو ينحدر من أسرة عربية أصيلة استقر بها المطاف فى العراق العجمى منذ عهد طويل . ومن الملاحظ أن لغته العربية يكثر بها الغريب ولا ترتفع إلى مصاف اللغة الكلاسيكية مما يمكن أن يستدل منه على أنها لم تكن لغة طفولته[٣٨] . أما عن حياته وأساتذته فلا نعرف سوى النزر اليسير ، من ذلك أنه كان بدمشق حوالى عام ٦٣٠ هـ = ١٢٣٣ وهناك وقع تحت تأثير الصوفى الشهير ابن العربى (توفى عام ٦٣٨ هـ = ١٢٤٠)[٣٩] كما ربطته علاقة بالكاتب والأديب الكبير ضياء الدين بن الأثير أخ المؤرخ المشهور وكان مقيما آنذاك

---

(٣٥) -Blachère, p. 276-277

(٣٦) شرحه p. 278-279

(٣٧) -Streck, Al-Kazwini, p 901

(٣٨) شرحه .

(٣٩) شرحه .

بالموصل (توفى فى عام ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩)[٤٠] . ولا شك أن القزوينى درس الفقه/لأنه تولى 360
منصب القضاء بمدينتى واسط والحلة بالعراق . ومن العسير القول ما إذا بقى فى منصبه هذا أم
تركه عقب استيلاء هولاكو على بغداد ولكن من المؤكد أنه استطاع أن يتابع دراساته العلمية ؛
وقد توفى بعد ذلك بأمد طويل وهو فى سن متقدمة وذلك فى عام ٦٨٢ هـ = ١٢٨٣ .

ويرجع السبب فى شهرة القزوينى إلى أثرين قد يخلط الناس بينهما أحيانًا فى مؤلف واحد ولكنهما مرتبطان على أية حال بعضهما ببعض ارتباطًا وثيقًا . أما الكتاب الأول فيمكن أن نطلق عليه من باب التجاوز اسم « كوزموغرافيا » وأما الثانى فهو مصنفه الجغرافى ؛ وكلاهما يتمتع بانتشار واسع أضاف إلى تعقيد المشكلة المتعلقة بمسودة الكتابين . ويحمل مصنفه فى الكوزموغرافيا عادة اسم « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » وقد رفعه مؤلفه إلى حاكم بغداد فى عهد المغول عطا ملك الجوينى[٤١] الذى سنلتقى به بعد قليل كعلامة أيضًا ؛ وكل هذا يشير إلى أن القزوينى قد بذل جهده فى أن يكيف حياته وفقًا للأوضاع الجديدة . والنصف الأول من عنوان الكتاب تكرار لعنوان مصنف مر بنا الكلام عليه لأحمد طوسى ؛ وكما هو واضح فإن العنوان يحدد بصراحة انتماء المصنف إلى نمط العجائب **mirabilia** المعروف ؛ وقد عاون كثيرًا انتشار هذا العنوان بين المصنفات التى من هذا الطراز على سهولة الخلط بينها . والكتاب ينقسم فى جملته إلى قسمين يعالجان الكلام على العالمين العلوى والسفلى كل على حدة ، وتسبق هذا مقدمة تحوى تصنيفًا عامًا لجميع الموجودات وذلك وفقًا للمذهب اليونانى كما وجد لدى أرسطو خاصة . والقسم الأول الذى يبحث فى العالم العلوى يتناول الكلام على الأجرام السماوية (الشمس والقمر والنجوم) وسكان ذلك العالم أى الملائكة ، وفى التوقيتات والتقاويم العربية والسريانية وما يرتبط بها من أعياد ومناسبات ؛ أما القسم الثانى فمكرس للأرض وظواهرها بأوسع معنى تحمله هذه الكلمة ففيه يرد الكلام بشكل عام عن العناصر الأربعة ثم عن كل واحد منها بشكل خاص فيعالج الحديث عن النار والهواء والماء وعن الشهب والرياح . ويحوى هذا القسم وصفًا لتقسيم المعمورة إلى سبعة أقاليم مع بيان أسباب حدوث الزلازل وتكوين الجبال ونشأة الأنهار والمنابع والعيون ؛ ومحاولته لتدعيم هذه النظريات بتعليلات طبيعية وجيولوجية لا تخلو من الطرافة[٤٢] .

---

(٤٠) -Reinaud, introduction, p. CXLIV

(٤١) -Browne, Literary History, II, p. 483

(٤٢) -Carra de Vaux, Les penseurs, II, p. 37-40

ويلى هذا عرض سريع لممالك الطبيعة الثلاث وهى المعدنية والنباتية والحيوانية(٤٣) ؛ والمملكة الأخيرة تبدأ بالكلام على الإنسان وخصائصه الأخلاقية وتشريحه وتركيبه العضوى ومميزات الشعوب المختلفة ؛ ويعقب هذا الكلام عن المخلوقات الأخرى ابتداء من الجن والغيلان(٤٤) . ومن كل هذا تبدو لنا لوحة متعددة الألوان تحفل بمادة جغرافية وافرة كثيرًا ما تكرر مادة مصنفه الآخر فى الجغرافيا .

361 عرفت كوزموغرافيا القزوينى /فى رواية قصيرة واسعة الانتشار توجد فى طبعات عديدة موجزة وفى مسودات جديدة قد تحمل أحيانًا عنوانًا مخالفًا للعنوان الحقيقى للكتاب . وأقدم مخطوطاته المعروفة لنا بميونخ ويرجع تاريخ تدوينها إلى عام ٦٧٨ هـ = ١٢٨٠ أى والمؤلف على قيد الحياة(٤٥) ؛ وهى مزودة بالرسوم المصغّرة (المنمنمات) **miniatures** كما هو الحال مع عدد كبير من مخطوطات ذلك الكتاب ؛ والشىء الطريف فى الأمر أن علماء الحشرات **entomologists** يفترضون أن ذلك ربما يكون قد تم تحت إشراف القزوينى نفسه(٤٦) . ويميز العلامة فستنفلد **Wüstenfeld** الذى ندين له بنشر الكتابين ، رغمًا من أن المادة لم تكن بأجمعها فى متناول يده ، بين ثلاث مسودات لهذا الكتاب قام بتحضيرها حسب رأيه القزوينى نفسه(٤٧) ؛ إلا أنه تبين فيما بعد أن الأمر أكثر تعقيدًا مما ظن فستنفلد . فمؤرخ العلوم الدقيقة المستعرب المعروف روسكا **Ruska** قد كشف النقاب عن وجود مسودة رابعة وذلك عند تحليله للفصول الأنثروبولوجية والمعدنية من الكتاب خاصة الأسطورة المشهورة عن « حجر المطر » عند الشعوب التركية . وتنتمى أقدم مخطوطات الكتاب إلى المسودة الثانية التى وضح أنها أكثر المسودات انتشارًا فى اللغة العربية والتى توجد فى عدد كبير من المخطوطات . أما المسودة الثالثة فإن أصلها العربى غير موجود ، وطابعها المميز هو أنه قد أضيف إليها الفصلان السابع والثامن اللذان يعالجان الكلام عن الشعوب والحرف . وهذه المسودة الأخيرة ليست من عمل القزوينى وهى الأساس الذى اعتمدت عليه الترجمات الفارسية واستندت إليه المسودة الرابعة ؛ وهذه

---

(٤٣) Reinaud, Introduction, p. CXLV —Streck, Al-Kazwini, p. 901 —Sarton, Introduction, II, p. 868-869 —Ruska, GZ, p. 596

(٤٤) Amari (—Nallino), I, p. 57

(٤٥) Streck, Al-Kazwini, p. 901

(٤٦) Bodenheimer, I, رسم 46, 47 لوحة IV, cf. II, p. 305, note 34

(٤٧) Streck, Al-Kazwini, p. 901

الأخيرة هى آخر المسودات من الناحية الزمنية وأكثرها انتشارًا إلى أيامنا هذه وتمتاز بالعدد الكبير من الزيادات التى أدخلت على فصولها المختلفة فهى وحدها مثلا التى تتحدث عن القبائل التركية فى القرن العاشر وهى وحدها كذلك التى تتضمن القطع المعروفة لنا جيدًا لأبى دلف وابن فضلان والفصول عن الأحجار الكريمة للخازنى ؛ وليس ثمة شك فى أن هذه المسودة لا ندين بها لقلم القزوينى فالمخطوطة الأساسية لها تحمل عنوانًا مغايرًا وتعتبر نفسها شرحًا للقزوينى .

هذه المسودة الأخيرة بالذات هى التى طبعها فستنفلد ومن ثم فإن الكوزموغرافيا التى نشرها لا يمكن اعتبارها بأية حال الأصل الذى أعده القزوينى نفسه بل تمثل آخر رواية مصلحة للكتاب وترجع على ما يبدو إلى القرن الثامن عشر . وقد زاد فستنفلد من تعقيد المسألة بشكل ملحوظ بإسقاطه لقطع منها واستعانته بمخطوطات المسودات الأخرى لملء الفجوات المختلفة وبهذا يوجد بين أيدينا فى الواقع متن يقوم على أساس تحكّمى (arbitrary) ولا يعكس أية واحدة من المسودات التى بين أيدينا[٤٨] وهو أمر يجب عدم إغفاله بالنسبة لجميع المسائل المتعلقة بدراسة « كوزموغرافيا » القزوينى . لكل هذا فلا تزال الحاجة ماسة إلى طبعة علمية تعتمد قبل كل شىء على أقدم مخطوطات المسودة الثانية للكتاب .

وإذا كان من الواجب عدم تجاهل السابقين للقزوينى فى هذا المضمار فإنه يجب من جهة أخرى الاعتراف بمصنفه كأكبر أثر/من هذا النوع كسب انتشارًا واسعًا فى جميع آداب الشرق 362
الإسلامى . ومن الطريف اكتشاف شبه كبير بين القسم المتعلق منه بالعالم العلوى والرسائل المسيحية المعاصرة فى الغرب والشرق[٤٩] ؛ ويصدق هذا بشكل خاص على المصنف السريانى المجهول المؤلف « علّث كل علّان » (« علة كل العلل ») الذى يصفه زخاو **Sachau** بأنه مصنف فى الكوزموغرافيا لا مثيل له من حيث طرافته وأنه يهدف تقديم « كتاب عام لجميع الشعوب »[٥٠] ؛ ولا مشاحة فى أن روايات جميع هذه المصنفات إنما تشترك من حيث مصادرها .

ولا يقف برهانًا على الرواج الكبير الذى لقيته كوزموغرافيا القزوينى ذلك التباين والتعدد فى مسوداته ومخطوطاته فحسب بل أيضًا العدد الكبير من الترجمات والمسودات المعدّلة التى ظهرت

---

(٤٨) -Streck, Al-Kazwini, p. 902 —Brockelmann, GAL, SB I, p. 882

(٤٩) -Kramers, EI, EB, p. 70

(٥٠) -Wright —Kokovtsov, p. 174

عن الطبعة والترجمة راجع : Kayser

باللغات الأخرى ، فقد ظهرت المسودة الفارسية للكتاب فى وقت واحد بالتقريب مع مسودته العربية . ومعروف لنا ما لا يقل عن ثلاث مسودات بالفارسية هذا عدا الموجزات والمقتطفات ؛ بل إن القسم الثانى من الكتاب موجود فى رواية شعرية . أما المسودات المعدّلة والترجمات باللغة التركية فقد أخذت فى الظهور منذ منتصف القرن الخامس عشر وظلت تتوالى فى سلسلة لا تكاد تنقطع خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر[٥١] ، بل إن هناك ترجمة جغتائية * محفوظة فى مجموعة خانيكوف Khanikov بالمكتبة العامة ببطرسبرغ[٥٢] . وبالطبع فإن الغموض لا يزال يكتنف العلاقة بين جميع هذه الترجمات والمسودات المصلحة بحيث يحتاج فحصها إلى المجهود نفسه الذى يحتاج إليه فحص المسودات العربية للكتاب ؛ والأمر الذى لا يرقى إليه الشك هو أن عددها الكبير يقف دليلا على الرواج والانتشار والإقبال الذى لقيته كوزموغرافيا القزوينى . وقد امتد صيت الكتاب حتى بلغ روسيا الموسكوفية فى أواخر القرن السادس عشر فهو بهذا يوشك أن يكون المصنف العربى الوحيد الذى نفذ اسمه إلى الوثائق الرسمية لتلك الحقبة من التاريخ الروسى بل إن هذا قد ساق بدوره إلى افتراض مبالغ فيه عن ضخامة مكتبة ايفان الرهيب . ويتلخص جوهر القصة[٥٣] فى أن السفير الموسكوفى الذى أُرسل فى عام ١٥٦٥ إلى دولة نوغاى Nogai** كان قد كلف بالآتى : « ويقول الأمير تونمخات Tunemkhat : « لقد كتبت إلى الملك والأمير العظيم بشأن كتاب az a ibu imakh lukat*** فلم يرسل الملك الكتاب إلىّ » . وقولوا لميخائيل : إن ملكنا قد أمر بالبحث عن ذلك الكتاب فى خزائنه ولكن لم يمكن العثور عليه » . وليس ثمة ما يدعو إلى الشك فى أن هذا العنوان المحرّف إنما قصد به كوزموغرافيا القزوينى إذ من الصعب القول بأنه المقصود بذلك مصنف آخر يحمل هذا الاسم نفسه حتى ولو كان ذلك

---

(٥١) -Taeschner, GLO, p. 37 and 38,
وخاصة الزيادة فى صفحة ١٤٤ .

* يطلق اسم الجغتائية على اللغة التركية الأدبية التى ازدهرت بآسيا الوسطى عقب الغزو المغولى وظهر بها أدب حافل كان من أكبر ممثليه على شيرنوائى والسلطان بابر . وهذه النسبة مأخوذة من اسم جغتاى أحد أبناء جنكيز خان وكان أبوه قد أقطعه أقطار آسيا الوسطى عندما قسم إمبراطورية المغول المترامية الأطراف بين أفراد أسرته . (المترجم)

(٥٢) -Streck, Al-Kazwini, p. 902-903

(٥٣) -Sedelnikov, p. 165-167 —Krachkovski, Arabskie geografy, p. 756

** اسم إمارة من الإمارات التترية التى تقاسمت الحكم عقب سقوط دولة الأوردو الذهبى فى أواخر القرن الرابع عشر ، ولا تزال تحمل هذا الاسم قبيلة مسلمة تتكلم لهجة تركية وتقطن فى منطقة القوقاز الشمالية . (المترجم)

*** أى أنه يجب أن يرى فى هذه الألفاظ اسم « عجائب المخلوقات » . (المترجم)

مصنف أحمد طوسى . ولعله من الخير البحث عن توضيح لهذه المسألة فى واقعة تاريخية معينة ؛ فقد حدث فى عام ١٥٤٩ أن وضعت قوات دولة موسكو يدها على سفارة كانت فى طريقها من قازان إلى القريم وكان فى حوزة هذه السفارة نسخة من كتاب يحمل ذلك العنوان نفسه . هذه
الرواية التى تقدم لنا تفاصيل الواقعة والتى ترجع إلى عصر ايفان/الرهيب تقدم ترجمة عنوان 363
الكتاب على أنها « حكمة كل العالم » ولكن تضيف إلى هذا أنه « مدون باللغة الفارسية » ؛ وبهذا يصبح من العسير علينا أن نحدد بصفة قاطعة أىَّ روايات القزوينى بالذات هى التى وجدت طريقها إل أراضى دولة الموسكوف . هذا وقد ظلت كوزموغرافيا القزوينى متمتعة بالرواج بين الجمهور فى آسيا الوسطى حتى السنوات العشرينات من هذا القرن ولم يمر يوم إلا وظهرت طبعات جديدة لترجماتها فى اللغات المحلية المختلفة .

وثمة دليل آخر على الانتشار الواسع الذى تمتع به مصنف القزوينى هو أنه من الكتب العربية القليلة التى زينت بالتصاوير ؛ فهو مزود لا بأشكال وجداول فلكية فحسب بل أيضًا بالرسومات المصغّرة (المنمنمات) miniatures التى تبلغ أحيانًا قمة الجودة والإتقان كما يظهر هذا من مخطوطة ميونخ التى مر القول عليها ، وأيضًا فى مخطوطة بمعهد الدراسات الشرقية . والرسوم نفسها تتكرر فى المسودات العربية والفارسية على السواء ؛ وإذا حدث وغلب طابع الخيال على بعض رسوم النبات والحيوان وجميع أصناف الوحش فإن الرسومات المصغرة قد عاونت فى أحوال معينة على تفسير مسائل على غاية من الأهمية كتاريخ تصوير الكواكب مثلا وبعض مسائل التاريخ الطبيعى(٥٤) . وفى الختام يمكن أن يلاحظ أن معظم مخطوطات القزوينى ، شأنها فى هذا شأن المصنفات الكوزموغرافية المتأخرة للحرانى وابن الوردى تحتوى على خارطة مستديرة للعالم من طراز خارطة الإصطخرى(٥٥) .

أما مصنف القزوينى الآخر والذى يطلق عليه مع بعض التجاوز اسم « جغرافيا » فهو معروف بدوره فى روايتين تحمل إحداهما عنوان « عجائب البلدان » وترجع إلى عام ٦٦١ هـ = ١٢٦٣، بينما تحمل الأخرى عنوان « آثار البلاد وأخبار العباد » ويرجع تاريخها إلى عام ٦٧٤ هـ = ١٢٧٥ ، وهى تختلف عن الأولى اختلافًا كبيرًا وتضم زيادات هامة(٥٦) ؛ وطبعة فستنفلد تعتمد على الرواية الثانية .

---

(٥٤) -Streck, Al-Kazwini, p. 903

(٥٥) -Kramers, EI, EB, p. 70

(٥٦) -Streck, Al-Kazwini, p. 903

ووصف الأرض موزع هنا على الترتيب المعروف لنا أى بتقسيمها إلى سبعة أقاليم ؛ وفى داخل كل إقليم يرد وصف مختلف البلاد والمدن والجبال والجزر والبحيرات والأنهار الخ وفقًا لحروف المعجم . وهو فى كلامه عن كل بقعة يتحدث عما يستحق الاهتمام فيها ويورد فى هذا الصدد تفاصيل تاريخية وافية كما أنه لا يهمل التفصيل أيضًا حين يتحدث عن سير مشاهير الرجال فى الأماكن المختلفة ؛ ونلتقى من بين هؤلاء كما لاحظ براون Browne بعدد كبير من شعراء الفرس بحيث تعتبر رواياته أحيانًا من أقدم ما وصلنا عنهم[٥٧] ؛ وهكذا فإن جغرافيا القزوينى تقترب
364 من حيث طرازها من معجم ياقوت الجغرافى/بل إنه يستعير منه الكثير . وتوزيع المادة فى هذا الكتاب على صورة سبعة معاجم مستقلة بحسب الأقاليم السبعة لا يجعله سهل المتناول ، كما وأن عددًا من الفقرات كتلك التى تتناول الحديث عن الجبال والبحار والأنهار المختلفة كثيرًا ما تكرر بالحرف الواحد تقريبًا المعطيات نفسها التى وردت فى مصنفه الكوزموغرافى[٥٨] . أما مادته الجغرافية فلا يمكن مقارنتها بمادة ياقوت أو بمادة الجغرافيين الأوائل من باب أولى وإن كانت لا تخلو من روايات طريفة ؛ كما يجب الاعتراف من ناحية أخرى بأنها تتميز دائمًا بالإمتاع. مثال ذلك أنه عند الكلام على الإقليم السادس يورد فقرة عن ايرلنده يتحدث فيها عن صائدى القيطس ، وفى الإقليم السابع يعدد الصور المختلفة عند الفرنجة لما يسمى « بالمحنة » (ordeal) سواء كان ذلك بالنار أو الماء أو القتال ، كما يتحدث أيضًا عن السحر والساحرات وحرقهن[٥٩] .

وجغرافيا القزوينى بوجه عام لم تحظ بمثل ما حظيت به الكوزموغرافيا من رواج وانتشار ولكنها فى مقابل ذلك معروفة فى عدد من الترجمات الفارسية والمختصرات التركية[٦٠] . ويقدم لنا فى بداية القرن الخامس جغرافى من أهل القوقاز يعرف بالباكوى رواية جديدة للجغرافيا لها أهمية قائمة بذاتها من بعض النواحى ؛ هذا وسيرد الكلام عن ذلك فى حينه .

ولم يحدث حتى الآن أن تصدى أحد العلماء لدراسة مصادر القزوينى ولو فى المجالين التاريخى والجغرافى كما حدث مع ياقوت ؛ أما المجهود المثمر الذى بذله فى هذا الصدد مولر Möller وفستنفلد فيرتفع إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر عندما لم يكن تحت

---

(٥٧) -Browne, Literary History, II, p. 483; III, p. 64-65

(٥٨) -Streck, Al-Kazwini, p. 903

(٥٩) -Browne, Literary History, II, p. 483

(٦٠) -Streck, Al-Kazwini, p. 903

تصرف العلماء آنذاك المادة المتوفرة حاليًا . وقد عدد فستنفلد ما يقرب من خمسين مؤلفًا من الذين رجع إليهم القزوينى فى تأليف جغرافيته ؛ ويلاحظ أن من بينهم كبار المؤرخين والجغرافيين المعروفين لنا[٦١] ؛ ويمكن بالطبع زيادة هذا العدد بصورة ملحوظة فى الآونة الحاضرة . وتسمح لنا البحوث التى أفردت لدراسة القزوينى خاصة بتكوين فكرة عن مدى اطلاعه الواسع ومحيط قراءاته ، حتى ولو اقتصرنا فى ذلك على ذكر ما مر فى صفحات كتابنا حتى هذه اللحظة . والقزوينى قد اطلع على تراث الأوائل عن طريق الرواية العربية كجميع العلماء العرب تقريبًا ، وهو على معرفة جيدة بكتاب « المعادن » المنسوب خطأ لأرسطو كما كان على معرفة أيضًا بمؤلفات ابن سينا . أما من بين المؤلفين السابقين له فى ميدان الجغرافيا فإنه لم يجتذبه كثيرًا ممثلو « المدرسة الكلاسيكية » وإن كان كما رأينا على معرفة « بأطلس الإسلام » ؛ وحيث إن هدفه الأساسى كان الإمتاع فقد اجتذبه أكثر من ذلك المؤلفون من طراز الجيهانى والجاحظ والمسعودى ولكن هذا لم يحل دون رجوعه مرارًا إلى ممثلى العلوم الدقيقة ، فهو مثلا يستشهد بالبيرونى عند معالجته لمسألة كثر حولها الأخذ والرد أعنى مسألة صلاحية الأقاليم للسكنى فيقول : « فإذا تأملت وجدت الناس محصورين فى الأقاليم السبعة وليس لهم علم بحال بقية الأرض »[٦٢] . هذا وتمثل الرحلات
365 بالنسبة للقزوينى مادة ذات قيمة خاصة/وقد حدث أن أشرنا فيما سبق من هذا الكتاب إلى أنه قد حفظ لنا شذرات هامة مما دونه هارون بن يحيى عن بيزنطة[٦٣] كما حفظ لنا أيضًا قطعًا من روايتى أبى دلف وابن فضلان . ومن الطبيعى جدًا أن يكون القزوينى قد أفاد فائدة محسوسة من السابقين له فى هذا المضمار مثل أحمد طوسى الذى تحدثنا عنه وعن مصنفه الذى يحمل العنوان نفسه فيما مر من هذا الكتاب . ومما يقف دليلا على سعة المادة التى جمعها القزوينى تلك المصادر التى يوردها عن الأندلس فهو قد رجع إلى مؤلفات أبى حامد الغرناطى المعروف لنا جيدًا وإلى العبدرى السابق له كما يدين له العلم إلى حد كبير بحفظه لعدد من الشذور عن إبراهيم بن يعقوب الطرطوشى . ويجب فى آخر الأمر ألا نغفل مسألة هامة وهى أن القزوينى قد استخدم مصادر لم تصلنا فهو مثلا قد أفاد من رواية عن رحلة فى داخل افريقيا لشخص يدعى أبا الربيع سليمان الملتانى لا يعرف عنه

---

(٦١) شرحه p. 903-904

(٦٢) -Honigmann, Die sieben Klimata, p. 168

(٦٣) -Hudud, p. 419 (= Wüstenfeld, EI —Cazwini's Kosmographie, II, p. 406-407, 397-399).

شيئًا البتة(٦٤) ومن المحتمل أنه لعب بالنسبة للقزوينى الدور نفسه الذى لعبه ابن فاطمة الذى أبحر على طول سواحل افريقيا بالنسبة لابن سعيد . وحتى إذا ما اكتفينا بسرد عاجل للمصادر الثانوية التى استعان بها القزوينى فإن اللوحة التى تتكشف لنا تبعث فى الواقع على الكثير من الدهشة .

أما أثر القزوينى فى الأدب المتأخر فليس ثمة ما يدعو إلى الوقوف عنده بشكل خاص بعد كل ما ذكرناه عن التعديلات والتصليحات التى مرت عليها مصنفاته ؛ وبالطبع قد وجد عدد من المؤلفين ممن اعتمدوا عليه اعتمادًا كبيرًا مثل الدميرى عالم الحيوان المعروف(٦٥) . وإن عدم وجود طبعات علمية لمصنفات القزوينى ليقف دليلا على أن العلم الأوروبى لم يفرغ من دراستها بعد ، وقد كان ظهور طبعة فستنفلد حافزًا لإيتيه Ethé على ترجمة الكتاب فبلغ إلى منتصفه ، ومما يسبغ على ترجمته أهمية خاصة تلك التعليقات والتصحيحات العديدة التى ندين بها لقلم فليشر Fleischer . وقد رجع العلماء مرة ثانية فى القرن العشرين إلى منهج الاستقصاء المحدد لنقاط معينة من القزوينى ، وهو ذلك المنهج الذى أنار السبيل إليه فى مستهل القرن التاسع عشر المستشرق دى ساسى De Sacy بطبعه للأقسام المتعلقة بالمعادن والنبات والإنسان من كتاب القزوينى والذى سلكه أيضًا اديلر Ideler الذى أفاد فى بحثه الممتاز (١٩٠٩) من وصف النجوم لدى القزوينى(٦٦) ؛ وقد أيدهم فى هذا المجال بشكل خاص فى الآونة الأخيرة العلامة ياكوب Jacob الذى لم يقصر نشاطه على تحليل المادة المتصلة بإبراهيم بن يعقوب بل عالج أيضًا فى بحوث خاصة علم الطيور وعلم النبات لدى القزوينى ؛ أما العلامة رسكا Ruska فبعد دراسة عميقة لقسم المعادن توصل كما رأينا إلى نتائج أساسية هامة تتعلق بتاريخ تدوين المصنف وذلك فى
مقال له يتميز بالدقة وعمق التحليل . ويقدم لنا مؤرخ/العلوم فيدمان Wiedemann وذلك فى 366
مجموعة من المقالات تحليلا لعدد من المسائل التى عالجها القزوينى فى محيط الفيزياء والتاريخ الطبيعى ؛ ومثل هذه المادة كبير للغاية ومتنوع لدى الكوزموغرافى العربى ويكفى أن نلاحظ فى هذا الصدد وجود ترجمات لعدد من الفصول الخاصة ، منها ما هو متعلق بالأرواح والمخلوقات العجيبة

---

(٦٤) -Streck, Al-Kazwini, p. 904
لعله ينبغى قراءتها المليانى ؛ راجع ياقوت ، المعجم الجزء الرابع ، ص ٦٣٩ ، الأسطر ١٣ – ١٤ حيث يروى نقلا عن المليانى قصة عن تنس (بعد عام ٦٢٠ هـ = ١٢٢٣) ؛ راجع ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٨٧٨ ، الأسطر ٢١ – ٢٣ .

(٦٥) -Streck, Al-Kazwini, p. 901

(٦٦) -Ruska, GZ, p. 596

(انسباخر Ansbacher ١٩٠٥)[٦٧] ومنها ما يتعلق بآرائه فى علم النفس psychology (تيشنر Taeschner ١٩١٢)[٦٨] . ونتيجة لهذا فإنه يمكن أن نكرر بشأنه الحكم نفسه الذى أصدرناه فى أحوال عديدة عن بقية الجغرافيين العرب وهو أن مصنفاته أبعد من أن تكون قد استوفت حقها بعد من الدراسة وإن كانت المادة قد تجمعت بصورة متزايدة تسمح من الآن بوضع دراسة خاصة عميقة عن هذا المؤلف ؛ بل إن العرب أنفسهم لم يعودوا فى الآونة الأخيرة يبصرون فى مؤلفاته مجرد حكايات طريفة فحسب تعج بمختلف العجائب الخارقة من صنع المخيلة[٦٩] ، كما حدث مع أوروبا لزمن طويل .

وابن سعيد والقزوينى هما أضخم الأسماء التى ظهرت فى محيط الأدب الجغرافى لنهاية القرن الثالث عشر وإلى جانبهما تتضاءل أسماء أولئك الرحالة الذين اكتسب كل واحد منهم أهمية معينة فى محيطه الخاص ولكنهم لم يلعبوا دورًا هامًا فى المحيط العام ؛ لهذا فإننا نفتقر إلى معلومات كافية عنهم وليس من النادر عن مصنفاتهم أيضًا . وليس من محض الصدفة أن الغالبية العظمى منهم قد اتجهت من المغرب إلى المشرق وأن أسفارهم تنضوى تحت النمط المعروف لدينا باسم « الرحلة » ولو أنه اكتسب طابعًا خاصًا فى هذا الميدان .

وأحد هؤلاء الرحالة كان أبو محمد العبدرى الذى ينتمى فى الأصل إلى مدينة بلنسية Valencia على ما يبدو[٧٠] . وتشير النسبة إلى أنه ينحدر من صلب بنى عبد الدار من بنى قصى وهذا الأخير هو الذى تنسب إليه الأسطورة توحيد قبيلة قريش[٧١] . أما سيرة حياة العبدرى فلا نكاد نعلم عنها شيئًا ويلوح أنه كان على صلة مابمراكش لأنه بدأ أسفاره من موغادور Mogadar تاركًا أسرته مع قبيلة حاحه[٧٢] . وقد خرج فى رحلته يصحبه ابنه فى ديسمبر من عام ٦٨٨ هـ = ١٢٨٩ ووجهته مكة[٧٣] ، وفى البداية سارت الرحلة ببطء فى شمالى افريقيا وتوقف الرحالة خلالها

---

(٦٧) Ansbacher

(٦٨) -Taeschner, Die Psychologie Kazwini's

(٦٩) ع . م . العقاد ، الفصول ، ١٢٣ – ١٢٧ .

(٧٠) -Mohammed Ben Cheneb, Al-Abdari, p, 71-72 —Sarton, Introduction, II, p. 1065-1066 -Mieli, p. 211 and 212, note 6 —Reinaud, Introduction, p. CXXVI —Pons Boigues, p. 310-313, No 261 —González Palencia, p. 201 —Amari (—Nallino), I, p. 56, No 20

(٧١) -Levi della Vida, EI, II, p. 1243

(٧٢) -Mohammed Ben Cheneb, Al-Abdari, p. 72

(٧٣) -Bons Boigues, p. 310

وقفات طويلة بالمدن الكبرى . ومن مصر رافق قافلة الحج لأداء الفريضة(٧٤) ثم رجع إلى مصر عن طريق فلسطين فأمضى بعض الوقت بالقاهرة والإسكندرية وغادرها إلى وطنه مارًا فى طريقه
367 بتلمسان وفاس ومكناسه حتى بلغ أزمور على المحيط وهناك أقام لبعض الوقت حتى تلحق به/ أسرته(٧٥) . هذا وقد أخذ فى رحلته طريق البر ذهابًا وإيابًا وربما دفعه إلى هذا كراهية العرب المعهودة لركوب البحر(٧٦) ؛ وقد بدأ رحالتنا فى تدوين وصف رحلته وهو بتلمسان وكرسه بصورة خاصة للكلام على المدن الكبرى بشمالى افريقيا ، وابتداء من القاهرة يبدأ الوصف يفقد حيويته وتفصيله(٧٧).أما الرحلة نفسها فتمثل إلى حد ما لونًا جديدًا عند مقارنتها بمن سبقوه فى هذا المضمار،وهى تحفل فى واقع الأمر بكمية كبيرة من المعطيات الجغرافية إذ يقدم لنا المؤلف وصفًا دقيقًا وصحيحًا للمواضع والبقاع المختلفة مع تفاصيل وافية عن الآثار القديمة وأخلاق السكان المحليين(٧٨) . وقد لاحظ أحد العلماء الأسبان أن عرضه يتميز « بالصدق والدقة فى الرواية والحيوية والرشاقة فى الأسلوب » ؛ وقد تمكن هذا العالم فى أثناء رحلة قام بها فى الجزائر وتونس من أن يتحقق بنفسه من دقة ملاحظات العبدرى التى تتميز أحيانًا بلون محلى خاص(٧٩) . غير أن الطابع الأساسى للمصنف لا تعكسه هذه المعلومات الجغرافية على الرغم من أنها لا تخلو من القيمة بجانب أهميتها ودقتها ، ذلك أن اهتمام المؤلف الرئيس قد اتجه إلى الحديث عن العلماء الذين التقى بهم والذين تتلمذ عليهم أحيانًا ردحًا من الزمن فى الأماكن التى يقيمون بها(٨٠) . وهو يغتنم أمثال هذه المناسبات فى سرده ليبين مهارته الأدبية فيسوق بعضًا من قصائده أو يصوغ الوصف فى نثر مسجوع تغلب عليه الصنعة ؛ وقد لاحظنا من قبل أن هذا الاتجاه كان خاصًا بابن جبير ولكنه لم يغلب لديه بشكل يطغى على خيط القصة أما ابتداء من العبدرى فإن نمط الرحلة أخذ يتحول شيئًا فشيئًا إلى ضرب من يوميات العلماء تتدهور أحيانًا لتصبح محاولة من المؤلف ليبرز فيها المدى الذى بلغته معارفه(٨١) ؛ ويجب أن نستدرك

---

(٧٤) -Cherbonneau, p. 172

(٧٥) شرحه ، p. 174

(٧٦) -Pons Boigues, p. 310

(٧٧) -Mohammed Ben Cheneb, Al-'Abdari, p. 72

(٧٨) شرحه

(٧٩) -Pons Boigues, p. 313; cf. Gonzàlez Palencia, p. 201

(٨٠) -Mohammed Ben Cheneb, Al-'Abdari, p. 72

(٨١) -Brockelmann, Amelang, p. 167 —Mohammed Ben cheneb, Al-'Abdari, p. 72

على هذا بقولنا إن العبدرى لم ينحدر إلى ذلك المستوى فعلى الرغم من أن أسلوبه لا يخلو من التكلف إلا أنه يكتب فى الوقت نفسه بحرية ويسر بحيث لا يصل إلى درجة المبالغة الممجوجة التى نلتقى بها لدى ممثلى الأجيال التالية ، أو يجعل من مصنفه مجموعة من التطبيقات الأدبية(٨٢) . ومن المؤكد أنه كان على معرفة بمن سبقوه فى هذا الاتجاه ؛ وهو عندما يضمِّن وصفه كلامًا من المسعودى أو البكرى إنما يدفعنا بذلك إلى إعمال الحذر بل وإلى التساؤل هلّا يعتمد وصفه على المصادر المكتوبة دون الملاحظة المباشرة(٨٣) ؛ ومن حسن الحظ أن هذا الرأى الأخير ليس له كما رأينا ما يبرره تبريرًا كافيًا . وهو ينقل فى بعض الأحايين عن/مواطنه ابن جبير ويورد أشعاره(٨٤) ؛ 368
والعبدرى بوجه عام يميل إلى الشعر بشكل واضح ويضمن وصف رحلته عددًا كبيرًا من قصائده الشخصية حتى تلك التى لا علاقة لها البتة بقصة الرحلة نفسها(٨٥) ؛ كما أنه يختتم رحلته بقصيدة طويلة فى وصف الطريق . وقد شبه البعض العبدرى بابن بطوطة على غير أساس(٨٦) ذلك أن رواية ابن بطوطة تحتل فيها القصة المكانة الأولى بينما يولى العبدرى اهتمامًا كبيرًا للقالب الأدبى . ويجب الاعتراف بأن معرفتنا بالعبدرى ضئيلة للغاية كما أنه لا توجد حتى الآن طبعة لمصنفه(٨٧) ؛ ولإعطاء فكرة عن معدل السرعة التى سار بها تطور العلم نذكر أن الشكوى التى عبر عنها شربونو Cherbonneau فى عام ١٨٥٤ بصدد جهل القراء الأوربيين به لم يمكن تداركها إلا فى عام ١٩٤٠ بفضل دراسة هنرباخ Hoenerbach(٨٨) .

وهناك احتمال فى أن يكون محمد العبدرى الذى لقب احترامًا باسم ابن الحاج ابنًا لرحالتنا هذا ؛ وهو من مواليد فاس ولكنه توفى بالقاهرة . وقد نال الشهرة قبل كل شىء كفقيه(٨٩) وإن كان من الطريف أن نلاحظ أن مصنفه الرئيس الذى أفرده للكلام عن مختلف أنواع البدع يضم بين دفتيه مادة وفيرة فى الجغرافيا والاثنوغرافيا ، وهو ذات المصنف الذى قدم كمية هائلة من المعطيات لبحث خاص يتمتع بطرافة كبرى بعنوان « مصطلحات الطحانين والخبازين فى

---

(٨٢) -Cf. Pons Boigues, p. 311

(٨٣) -Cherbonneau p. 172

(٨٤) -W. Wright, Ibn Jubayr, p. 16-17 Schiapaelli, Ibn Gubayr. p, XIV

(٨٥) -Mohammed Ben Cheneb, Al-'Abdari, p. 72

(٨٦) -Pons Boigues, p. 311

(٨٧) ترجمة الشذور ، راجع شرحه ، Cherbonneau, p. 150-170, p. 311—313

(٨٨) -Hoenerbach, ZDMG, 94, 3, p. 11 —Hoenerbach, Itinerar des 'Abdari, p. 193

(٨٩) -Brockelmann, GAL, II, p. 83, No 1; SB II, p. 95 —Brockelmann, Al-'Abdari p. 72

العصور الوسيطة الإسلامية»(٩٠) (Terminologie der Müller und Bäcker im islamischen Mittelalter, 1914 R, Mielck)

ولم تكن رحلة العبدرى المصنف الوحيد فى بابها فقد قام مغربى آخر يدعى (أبو عمر عبد الله ابن رُشَيْد) النشريسى برحلة طويلة امتدت لبضعة أعوام من ٦٧٣ هـ - ٧٠٠ هـ = ١٢٧٤ - ١٣٠٠ بدأها من غرناطة وزار خلالها شمالى افريقيا ومصر والشام ووصف كل ذلك فى الأجزاء الخمسة التى تكوّن « الرحلة »(٩١) . ويحتل مكان الصدارة لديه سير العلماء المقيمين فى المواضع التى زارها ووصف المكتبات ودور العلم المختلفة . ولإعطاء فكرة عن ضخامة مصنفه نذكر أن الجزء الثالث منه المحفوظ بالاسكوريال قد أفرد بتمامه للكلام على علماء الإسكندرية والقاهرة بين عامى ٥٨٥ هـ = ١٢٨٦ و ٧٠٠ هـ = ١٣٠٠ وذلك عندما كان المؤلف نفسه مقيما بمصر(٩٢) .

369 ومن الطبيعى أن نفترض أن مثل هذه الرحلات العلمية لم تسر فى اتجاه واحد فقط أى من الغرب إلى الشرق بل سارت أيضًا فى الاتجاه المضاد . وبمكتبة برلين مخطوطة لوصف رحلة تم تأليفه بمدينة الحلة على نهر الفرات فى عام ٦٩٩ هـ = ١٢٩٩ وهو لمؤلف غير معروف لنا عن قرب ويدعى الفضل بن يحيى الطِّيبى(٩٣) . وفى هذا المصنف يرد الكلام عن رحلة لشخص يدعى على المازندرانى صحب فيها أستاذه على الأندلسى ، وكانا قد خرجا فى رحلتهما من دمشق فمرا على مصر فى طريقهما إلى الأندلس وبلاد البربر . ويرد فى سياق العرض ذكر لزيارتهما لجزيرة تسمى « جزيرة الرافضة » (ربما يعنى بذلك جزيرة جربه كما يفترض بروكلمان) ؛ ويغلب الخيال على الحقيقة عندما يدعى بأنه أمضى ثمانية أيام فى الجزر الخضراء (جزر الأزور Azores) بالبحر الأبيض (المحيط الأطلنطى) فى محادثة علمية مع رجل عرف بتفقهه فى القرآن هو شمس الدين محمد العالم ، وأنه اضطر لأسفه الشديد إلى مغادرته لأنه كان ينوى الإسراع فى العودة ؛ واسم بطل القصة يدفعنا إلى التشكك فى صحتها وإلى التساؤل أليست هذه القصة بحذافيرها من نسج خياله وذلك على الرغم من أن مخطوطة كتابه تحدد بالكثير من الدقة مسقط رأسه على أنه

---

(٩٠) -Mielck, p. 6

(٩١) -Reinaud, Introduction, p. CXXVII, —Devic, Litt. géogr. arabe, p. 389-390 (t. á. p., p. 28-29) —Pons Boigues, p. 314, No 264 —Gonzalez Palencia, p. 201

(٩٢) -Reinaud, p. CXXVII

(٩٣) - Brockelmann, GAL, I, p. 482, No 16—Kramers, EI, EB, p. 70—Ahlwardt, V, p. 432, No 6132

بمازندران[٩٤] . وعلى أية حال فإنه يمكن الخروج بنتيجة هامة هى أنه ابتداء من القرن الثالث عشر بدأ طابع الرحلة فى « طلب العلم » يطغى على نمط الرحلة وما لبث أن اتسع نطاق انتشاره على ممر القرون حتى بلغ الأوج بوجه خاص فى العهد التركى .

ويمثل الجغرافيا الإقليمية (regional) لهذا العهد بالشام مصنف يتميز بالطرافة وهو للمؤرخ عز الدين بن شداد ، ويجب ألا يخلط بينه وبين كاتب سيرة صلاح الدين الأيوبى المشهور بهاء الدين بن شداد الذى عاش قبل ذلك بقرن من الزمان . أما اسم مؤلفنا الكامل/فهو أبو عبد الله 370
محمد *بن على بن إبراهيم الحلبى[٩٥] ؛ وأصله من حلب وقد شغل منذ سنى شبابه الأولى مناصب إدارية لدى الايوبيين وكان يعد خبيرًا فى شئون الميزانية والمالية ، الأمر الذى ينعكس بشدة فى كتابه[٩٦] . وقد عاش عز الدين فى أزمنة خطيرة فقد ولد عام ٦١٣ هـ = ١٢١٧ وأخذ طرفًا فى النشاط الدبلوماسى لعصره فشارك فى النضال العسكرى ضد الزحف المغولى . وفى عام ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ عندما استولت جحافل المغول على حلب[٩٧] هاجر عز الدين إلى القاهرة وهناك تمتع برعاية الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون[٩٨] ؛ وفى عام ٦٧٦ هـ = ١٢٧٧ تمكن من زيارة دمشق ولكنه لم يلبث أن عاد إلى القاهرة وتوفى بها فى عام ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥[٩٩] .

ويحمل مصنفه الأكبر اسم « الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة » ؛ ويجب ألا تصرفنا هذه التسمية عن مادة الكتاب فهو لا يقتصر على تاريخ أمراء هاتين المنطقتين بل على العكس من ذلك نجد أن المخطوطات التى وصلت إلينا كثيرًا ما تخلو تمامًا من الأقسام المفردة لهما إما لأنها فقدت أو أنها لم تكتب منذ البداية . والكتاب يمثل فى الواقع دراسات مستقلة ذات طابع نصف تاريخى ونصف جغرافى للمقاطعات والمدن المختلفة[١٠٠] ؛ الأمر الذى يقرّب الكتاب أحيانًا من نمط الخطط المصرية .

---

(٩٤) شرحه

* سقط اسم محمد سهوًا من المتن الروسى . (المترجم)

(٩٥) Brockelmann, GAL, I, p482, No 13; SBI, p. 883 — Ibn Shaddad, p. 445 — Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 146, No 362 — I. Guidi, محاضرات ص ٢٢

(٩٦) Ledit, Al-Alak, p. 163

(٩٧) شرحه ، p. 165

(٩٨) شرحه ، p. 166

(٩٩) شرحه ، p. 167

(١٠٠) شرحه — Cahen, p. 110

وعلى الرغم من أن المصنف قد عرف منذ زمن طويل إلا أن الحكم عليه كان أمرًا عسيرًا حتى
الآونة الأخيرة ؛ وفى الواقع أن هذا لم يعد أمرًا ممكنًا إلا عقب اكتشاف مخطوطة الفاتيكان التى
يغلب على الظن بأنها بخط يد المؤلف نفسه فهى التى مكنت كلا من كاهن Cahen[١٠١] ولودى
Ledit[١٠٢] من كتابة مقاليهما عن هذا المصنف . والكتاب ينقسم إلى ثلاثة أجزاء ليس من
النادر أن يتبادل الثانى والثالث منهما الأماكن ؛ هذا وقد بدأ ابن شداد العمل فيه وهو بمصر . وهو
أشبه بخلاصة للوضع فى العالم العربى شرقى البحر المتوسط قبل تحركات المغول ، وقد انتهى ابن
شداد من الجزء الأول الذى أفرده لشمالى الشام فى عام ٦٧٣ هـ = ١٢٧٤ أما الثانى المفرد لجنوبى
الشام فقد أتمه عام ٦٧٤ هـ = ١٢٧٥ بينما أنهى الجزء الثالث الخاص بالجزيرة فى عام ٦٧٥ هـ =
١٢٧٦[١٠٣] ؛ وعلى أية حال فإن تاريخ مسودته النهائية لا يتجاوز عام ٦٧٩ هـ =
١٢٨٠[١٠٤] . والجزء الأول من الكتاب فى قسمين يتناول الأول منهما الكلام على منطقة حلب
بينما يعالج الثانى الكلام على قنسرين والمناطق الملاصقة لها (العواصم والثغور) وحمص ؛ أما
القسم الثالث الذى/كان سيتناول الحديث عن أمراء حلب فلا أثر له فى المخطوطات[١٠٥] . 371
وينقسم الجزء الثانى من الكتاب إلى عدد مماثل من الأقسام فالقسم الأول منه مخصص لدمشق
والثانى لمدن الشام الجنوبية وفلسطين باستثناء دمشق ، أما الثالث المفرد لأمراء دمشق فهو أيضًا
معدوم الأثر[١٠٦] . ويوجد الجزء الثانى مستقلا بنفسه فى مخطوطة محفوظة بليدن تحت عنوان يجانبه
التوفيق هو « برق الشام فى محاسن إقليم الشام »[١٠٧] ؛ وكما دلل حبيب الزيات[١٠٨] فإن هذا لا
يعدو أن يكون تزييفًا فريدًا مرجعه فى أغلب الظن إلى أحد النساخ لأن النص لا يختلف فى الواقع عن
أصل الكتاب إلا فى مختصرات ضئيلة وفى بعض التغييرات فى صيغة العبارة . والجزء الثالث
المكرس للجزيرة ينقسم بدوره أيضًا إلى ثلاثة أقسام وفقًا لمناطق ديار مضر وديار ربيعة وديار بكر

---

(١٠١) -Cahen

(١٠٢) -Ledit, Al-Al'ăk, p. 161-223 —Ledit, Ibn Šaddăd, p. 586-608

(١٠٣) -Ledit, Al-A'lăk, p. 166

(١٠٤) -Cahen, p. 109

(١٠٥) -Ledit, Al-A'lăk, p. 167-169

(١٠٦) شرحه ، p. 169-170

(١٠٧) -Sauvaire, JA, Série 9, VI, 1895, p. 409. note a —Brockelmann, GAL SB I, p. 883, No 13

(١٠٨) حبيب الزيات ، المشرق ، المجلد الثانى والثلاثون ، ص ٥٠٤ – ٥٠٥

مع وصف أهم المدن فى كل منطقة[١٠٩] . وهذا التقسيم وإن كان فى جوهره متعدد الجوانب إلا أنه يغلب عليه الطابع التاريخى الجغرافى ، ويمكن أن نحكم على محتويات الكتاب حتى ولو اكتفينا بسرد سريع لعناوين تلك الفصول العشرة التى يتكون منها القسم الخاص بدمشق[١١٠] : (١) فى ذكر اشتقاق اسمها . (٢) فى ذكر من بناها وعدة أبوابها وقلعتها (٣) فى ذكر مسجدها الجامع (الجامع المعمور) (٤) فى ذكر مساجدها بباطنها وظاهرها (٥) فى ذكر المزارات بها بباطنها وظاهرها (٦) فى ذكر الخوانق والربط بباطنها وظاهرها (٧) فى ذكر المدارس (٨) فى ذكر ما بدمشق وظاهرها من الكنائس والأعمار (٩) فى ذكر الحمامات بباطن دمشق وظاهرها (١٠) فى ذكر فضلها وما مدحت به نثرًا ونظمًا . وفى وصفه لحلب يزيد فى الفصول حتى يبلغ بها سبعة عشر فصلا[١١١]، هذا بينما يميل وصفه إلى الاقتضاب فيما يتعلق بالمدن التى تقل أهمية عن ذلك وإن كان لا يحيد فى شيء عن المنهج الذى سار عليه فى بقية الكتاب *

ولكتاب ابن شداد مزايا أخرى فمصادره مثلا متنوعة وقيّمة للغاية ، وهو يسمح لنا دائمًا بالتعرف على مصنفات لم تصل إلينا أحيانًا بطريق مباشر[١١٢] . وأطرف من هذا أنه لم يكن له علم فيما يبدو بمعجم ياقوت ، ومهما يكن من شيء فإنه لم يشر إليه ولو مرة واحدة[١١٣] . ومن الجدير بالملاحظة أن ابن شداد كان حتى عام ٦٢٩ هـ = ١٢٣٢ يعتمد اعتمادًا كليًا على رواية الغير[١١٤] ولكن ابتداء من ذلك التاريخ أخذ يبدو على عرضه طابع الأصالة التامة الذى يعكس بجدارة اتساع تجربته وملاحظته الشخصية . هذا ولم يفد المؤرخون المتأخرون كثيرًا من كتاب ابن
شداد[١١٥] باستثناء الأقسام المتعلقة بالشام/وبدمشق بصفة خاصة والتى اجتذبت اهتمام جميع 372
من عالجوا الكتابة فى أمثال هذه الموضوعات[١١٦] . وتعتبر مادة ابن شداد فى تاريخ دمشق

---

(١٠٩) -Cahen, p. 110

(١١٠) -Ledit, Al-A'läk, p. 169-170

(١١١) شرحه ، p. 167-168

* نشر المعهد الفرنسى بدمشق القسم الخاص بحلب فى عام ١٩٥٣ بتحقيق المستشرق الفرنسى سورديل Sourdel ، والقسم الخاص بدمشق فى عام ١٩٥٦ بتحقيق الأستاذ سامى الدهان . وهذا هو جميع ما نشر من كتاب ابن شداد حتى هذه اللحظة بحسب علمنا . (المترجم)

(١١٢) شرحه ، p. 173-178

(١١٣) شرحه ، p. 178 —Cahen, p. 110

(١١٤) -Cahen, p. 110

(١١٥) شرحه

(١١٦) حبيب الزيات ، المشرق ، المجلد الثانى والثلاثون ، ص ٥٠٦

وخططها من أكمل ما قدمه عصره[١١٧] . وقد تردد صدى هذا عند جميع المؤلفين الذين كتبوا عن فضائل دمشق فى العصور التالية له ؛ ومما يزيد فى أهمية ابن شداد أنه يكاد أن يكون الممثل الأخير للجغرافيا التاريخية على الأساس الإقليمى الذى درس الشام فى وحدة عضوية مع أرض الجزيرة .

ولعله من نافلة القول أن نستدرك بقولنا مرة أخرى أن تطور الأدب الجغرافى (أو التاريخى) فى اللغة العربية قد تردد صداه فى الأدب الفارسى . وقد كان عصر المغول بالنسبة للأدب الفارسى عصر ازدهار خاص ، ولعله ليس من محض الصدفة أن يرفع القزوينى مؤلفه كما رأينا إلى الجوينى ؛ ذلك أن هذا الأخير لم يكن عاملاً كبيراً من عمّال الدولة فحسب بل كان فى ذات الوقت عالماً مرموقًا ومؤرخًا كبيرًا استطاع أن يقدر مصنف القزوينى حق قدره لأن المسائل الجغرافية لم تكن غريبة عليه ؛ وإلى جانب هذا فهو كان يستطيع الكتابة بالعربية كما وأنه استعمل المصادر العربية بالكثير من الحرية . وأصل علاء الدين عطا ملك الجوينى من خراسان وقد بدأ نشاطه فى خدمة الدولة فى وقت مبكر ؛ ولما توطد سلطان المغول أصبح جوينى كاتبًا خاصًا للأمير أرغون الذى كلفه مرتين بالسفر إلى منغوليا . وفى عهد هولاكو وفق جوينى فى إنقاذ جزء كبير من مكتبة الإسماعيلية فى آلموت، ثم لم يلبث أن عين منذ عام ٦٦١ هـ = ١٢٦٢ - ١٢٦٣ حاكماً على بغداد وكان هذا يعنى فى واقع الأمر امتداد سلطانه على جميع البلاد العربية الخاضعة لسلطان المغول . وقد جهد جوينى كثيرًا فى إعادة الحياة إلى ما كانت عليه فى المناطق التى قاست من وطأة الغزو المغولى حتى إن ابن عدوه اللدود وهو مؤلف تاريخ « كتاب الفخرى » يثنى ثناء جمًا على خدماته . ولم تكن سنوات حياته الأخيرة سعيدة فقد أحاطت به الدسائس التى لم يكن ليسلم منها البتة كبار رجال الدولة آنذاك ومات كمدًا فى عام ٦٨١ هـ = ١٢٨٣[١١٨] .

أما شهرته العلمية فتعتمد على مصنفه التاريخى المشهور « تاريخ جهانكشا » * الذى أوضح لنا بارتولد أهميته الفريدة أكثر من مرة ، وقد أتمه جوينى فى سنى شبابه وذلك فى عام ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ . وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام يعالج الأول منها تاريخ المغول وفتوحات جنكيز خان ويبحث

---

(١١٧) شرحه ، ص ٥٠٥

(١١٨) Bartold, Djuwaini, p. 1115-1117—Bartold, Iran, p. 73-74—Sarton, Introduction, II, p. 1123-1124 —Kramers, EI, EB, p. 71 —Krymski, Istoria Persii, III, No I, p. 40-43 —Romaskevich, Djekhan-name, p. 50-52 — Volin,Orda, II, ch. II, p. 20-24 —Browne, Literary History, II, p. 434, 435, 443, 473; III, p. 20-21, 24-25, 65-67

* نقل إلى الانجليزية مؤخراً في ترجمة تتميّز بالجودة والدقّة . (المترجم)

الثانى فى تاريخ خراسان وشاهات خوارزم بينما يؤرخ الثالث للقتال ضد الإسماعيلية وحملة هولاكو على العراق . ومن هذا يتضح لنا أننا بإزاء مصنف تاريخى صرف ولو أنه يحفل بمادة جغرافية وافرة ؛ 373 وقد لاحظ بارتولد بحق أنه المؤرخ الفارسى الوحيد الذى زار منغوليا/ووصف بلاد آسيا الشرقية اعتمادًا على ملاحظاته الشخصية ؛ ومن الطريف أنه هو وروبروك Rubruquis قد وجها اهتمامًا كبيرًا إلى تأسيس قره قورم(١١٩) . هذا وقد أتم القسم الأخير من كتابه فى بعض النقاط معاصره الشهير نصير الدين طوسى الذى سبق أن تحدثنا عنه بالتفصيل فى أحد الفصول الأولى لكتابنا هذا ؛ ولعله ليس من فضل القول فى هذه المناسبة أن نضيف مرة أخرى أن هذا العصر بأجمعه قد تميز بازدهار الجغرافيا الرياضية فلمع فيه إلى جانب اسم نصير الدين طوسى اسم واحد من كبار علماء الفرس وهو قطب الدين شيرازى ؛ وقد ارتبطت أسماء عدد كبير من علماء هذا العصر كما تبين لنا من قبل بمرصد مراغة المشهـور ؛ ويمكن اعتبارهم جميعًا ممثلين لوحدة الحضارة العربية الإيرانية .

وذكر مراغة وعلاقتها بالجغرافيا يسوقنا بدوره إلى الوقوف عند واحد من معاصرى هاته الشخصيات البارزة ؛ وهو ينتمى إلى حضارة مغايرة الأمر الذى يوكد مرة أخرى الطابع الجماعى التركيبى الذى تميز به هذا العصر . ويستحيل علينا فى عرض عام للأدب الجغرافى العربى أن نغفل اسم الممثل المبرز للحضارة السريانية ، أو على الأصح السريانية العربية ، ابن العبرى . هذا لا لأنه قد كتب بالعربية أيضًا ولا لأنه خلف مصنفات ترتبط بالجغرافيا بل لأنه أسهم بوجه خاص فى تطوير التراث العربى على نحو لا يقل عن معاصريه الفرس الذين تقدم ذكرهم . ولقد كان للحضارة السريانية فيما مضى تأثير كبير على العرب ؛ ونحن نذكر جيدًا كيف كان العرب فى القرنين الثامن والتاسع تلامذة على السريان وكيف أنه فيما يتعلق بالجغرافيا بالذات فإن عددًا من الترجمات العربية لمصنفات بطلميوس قد تم نقلها دون ريب عن طريق الترجمات السريانية . أما الآن وفى العصر الذى نعالج الكلام عليه فقد أصبح ذلك أثرًا من آثار الماضى لأن الحضارة العربية اندفعت قدمًا فى تطورها بحيث أضحى العلماء السريان المتأخرون يدينون لها بالكثير ؛ وليس أبلغ فى الدلالة على هذا فى القرن الثالث عشر من ابن العبرى الذى يعتبر أكبر كاتب موسوعى فى الأدب السريانى لذلك العهد بل ويمثل الأوج الذى بلغه تطور ذلك الأدب .

---

(١١٩) -Bartold, Djuwaini, p. 1117

واسمه بالعربية أبو الفرج غريغوريوس بن العبرى الملطى[١٢٠] ؛ وكنيته ابن العبرى تشير إلى أصله اليهودى وقد ساقت فى شكلها السريانى برعبرايا إلى التسمية اللاتينية برهبرايوس Barhebraeus التى ثبتت عليه فى العلم الأوروبى خاصة . وكان مواطنًا ومعاصرًا لمعظم كبار المؤلفين الذين مر ذكرهم فى هذا الفصل ؛ وقد ولد بمدينة ملطية عام ١٢٢٦ أى قبل ثلاثة أعوام
374 من وفاة ياقوت وتوفى بمراغة عام ١٢٨٦/أى بعد ثلاثة أعوام من وفاة القزوينى وجوينى . وكان متمكنًا فى الأدبين السريانى والعربى على السواء وألف فى كل فرع من فروع العلوم المعروفة آنذاك مخلفًا فى كل منها مؤلفات جامعة تمثل خلاصة معارف عصره . أما بالنسبة لمواطنيه السريان فقد كان نشاطه العلمى فاتحة عهد جديد ، هذا على حين أنه اشتهر فى العلم الأوروبى غالبًا كمؤرخ ولا يزال يحتفظ ببعض هذه الشهرة حتى الآن. وأما أهميته بالنسبة لنا فتتصل ببعض مصنفاته التى ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالجغرافيا .

وأحد هذه المصنفات وهو « سلاكه خوننايه » (« معراج الروح ») الذى يرجع تاريخ تأليفه إلى عام ١٢٧٩ يمثل رسالة متكاملة فى الفلك والكوزموغرافيا تعرض باختصار « المجسطى » لبطلميوس مع إضافات مختلفة تقع فى قسمين أحدهما مكرس لشكل السماء والأجرام السماوية وأفلاكها والثانى لشكل الأرض والظواهر الجوية وما يرتبط بذلك . وفى هذا القسم الأخير يرد وصف لتقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم ولبحارها وجزرها وأنهارها ثم حساب الوقت ومسائل التقويم وأبعاد النجوم من الأرض وأحجامها بالنسبة للأرض الخ[١٢١] ؛ وكل هذا التقسيم يذكرنا بشدة بالمؤلفات العربية المماثلة فى ميدان الجغرافيا الرياضية مما سبق الكلام عنه فى حينه . ولعل تأليف هذا الكتاب يرتبط بالدروس التى ألقاها ابن العبرى فى مراغة بين عامى ١٢٧٢

---

(١٢٠) -Brockelmann, GAL, I, p. 349, No 17; SB I, p. 591 —Brockelmann, Barhebräus, p. 684-685 —Sarton, Introduction, II, p. 975-979 —Wright —Kokovtsov, p. 190-204 —Baumstark, p. 312- 320 —Chabot, p. 131-137 —Browne, Literary History, II, p, 468-469 —Nöldeke, Orientalische Skizzen, p. 253-273

شيخو ، المشرق ، المجلد الأول ، ص ٢٨٩ — ٢٩٥ ، ٣٦٥ — ٣٧٠ ، ٤١٣ — ٤١٨ ، ٤٤٩ — ٤٥٣ ، ٥٠٥ — ٥١٠ ، ٥٥٥ — ٥٦١ ، ٦٠٥ — ٦١٢

-Brockelmann, Syr. u. chr. —ar. Litt., p. 60-62

(١٢١) شيخو ، المشرق ، المجلد الأول ، ص ٥٠٧ — ٥٠٨

Wright. Kokovtsov, p. 194 —Baumstark, p 318, note 1 —
Nau, Le Livre de l'ascension de l'esprit.

و ١٢٧٩[١٢٢] . وكما بين المتخصصون فى هذا الميدان فقد ظل هذا المصنف هو الرسالة الجديدة الوحيدة فى الجغرافيا الفلكية باللغة السريانية[١٢٣] ؛ وكشف بعض العلماء فيه عن معرفة جيدة بالبيرونى[١٢٤] ، الأمر الذى أيدته مصنفات أخرى لابن العبرى . ومن المحتمل أنه يرتبط بهذا المصنف الكبير « زيج » (جداول فلكية) وتقويم فلكى ، وقد ورد ذكر الاثنين معًا فى المصادر على أنهما مصنفان قائمان بذاتهما[١٢٥] . هذا وموسوعته الكبرى فى اللاهوت « منارث قدشى » (« منارة الأقداس ») التى يحلل فيها الأسس التسعة عشر للإيمان الصحيح تضم مادة جغرافية ضخمة[١٢٦] ؛ والمكانة الأولى بينها تحتلها المعرفة بوجه عام وتأتى بعدها فى المرتبة الثانية معرفة العالم الطبيعى ، وهنا ينتهز ابن العبرى الفرصة ليسوق ضروبًا من المعلومات يمكن أن نذكر بصددها على سبيل المثال أنه يمكن عمل قائمة للأزهار التى ورد ذكرها لدى ابن العبرى[١٢٧] . وهذه الرسالة معروفة بأكملها فى ترجمات عربية[١٢٨] .

وفى شخص ابن العبرى ينعكس بقوة تأثير الثقافة العربية الإسلامية ؛ ولعل هذا يبدو بصورة 375
أقوى فى أثره العلمى الثالث الذى يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالجغرافيا أعنى بذلك مصورًا له للعالم شبه مستدير يرتبط على السواء بكتابه « منارث قدشى »[١٢٩] وبتاريخه[١٣٠] ، وقد كشف عنه حتى الآن فى أربع مخطوطات[١٣١] ، وتوجد أفضل نسخه فى مخطوطة باريسية لمعجم برعلى[١٣٢] . أما الأصل الذى اعتمد عليه ابن العبرى فى وضع المصور فيرتفع إلى القرن الثانى عشر[١٣٣] مكملا بهذا سلسلة مصورات العالم المستديرة المعروفة لنا من قبل ولكن لا علاقة له « بأطلس

---

(١٢٢) Sarton, Introduction, II, p. 975

(١٢٣) شرحه

(١٢٤) -Wiedemann, Beiträge, XXVII, p. 2

(١٢٥) -Wright —Kokovtsov, p. 194 —Baumstark, p. 318 —Sarton, Introduction, II, p. 975

(١٢٦) -Sarton, Introduction, II, p. 978, No 6 —Baumstark, p. 315, note 1 —Wright —Kokovtsov, p. 197-200

(١٢٧) -Gottheil, p. 39-55 (p. 40-46 والترجمة ، p. 47-55 المتن)

(١٢٨) شيخو ، المشرق ، المجلد الأول ، ص ٤٥١
cf. Cheikho, Catalogue, p. 10, No 31, 1

(١٢٩) -Kramers, EI, EB, p. 71

(١٣٠) -Sarton, Introduction, II, p. 976, No 3

(١٣١) V, p. 168-172 : عن الوصف راجع شرحه ;Miller, V, Beiheft, Taf. 81: عن الصور راجع

(١٣٢) شرحه p. 170

الإسلام » على الرغم من أنه يقسم العالم إلى سبعة أقاليم . ويقول عنه خبير الكارتوغرافيا العربية ميلر Miller إنه « من أصل يونانى عربى انتقل إلى السريان دون شك من مصدر عربى »[١٣٤] ، ويرى أن فيه ما يذكّر بالإدريسى[١٣٥] . ولم تجد المسألة حلا شافيًا عند أول من قام بنشر هذا الأثر وهما شابو Chabot وغوتهيل Gottheil ؛ وأول من استطاع أن يلقى ضوءًا على مصادره هو هونغمان Honigmann الذى تمكّن أثناء تحليله للأسماء الجغرافية[١٣٦] أن يثبت بنصيب واف من الاحتمال أن هذا الأثر يرتبط بالبيرونى أكثر من غيره[١٣٧] ، وقد ثبت من مصنف آخر لابن العبرى أن مؤلفنا كان على معرفة بمصنفات ذلك العالم الجليل . وعلى أية حال فهذه الخارطة تعد أفضل نموذج للكارتوغرافيا عند السريان[١٣٨] وتمثل أوج ما بلغه تطور هذا الفن عندهم .

ويقدم لنا هذا العصر فى الأدب السريانى أثرًا آخر فى الجغرافيا فريدًا فى بابه هو وصف رحلة قام بها أحد الأويغور من الصين الشمالية إلى العراق ومصر ، وهو مصنف لا شبيه له من حيث موضوعه فى جميع الأدب العربى لذلك العصر ؛ وقد حفظ لنا هذا الأثر فى سيرة الجاثليق مارياباللاها الثالث (١٢٨١ - ١٣١٧) التى كتبها معاصر له مجهول الاسم[١٣٩] . وتتلخص قصة الرحلة فى أن اثنين من الرهبان النساطرة أصلهما من شمال الصين ، وهما الراهب الذى أصبح فيما بعد الجاثليق مارياباللاها ومعلمه ربان برصوما ، قد عقدا العزم على الحج إلى بيت المقدس فخرجا من خانبالق مارين فى طريقهما على كاشغر وتركستان الصينية حتى بلغا العراق ، وهناك علما أن الطريق إلى بيت المقدس مقفل بسبب اشتعال نيران الحرب ؛ وبما أن الرجوع إلى وطنهما قد بدا لهما أمرًا مستحيلا فى ذلك الوقت فقد اضطرا إلى البقاء بالعراق بصفة دائمة ولم يلبث أحدهما أن أصبح جاثليقا للنساطرة وحاز الآخر وهو برصوما على ثقة الايلخان
المغولى أرغون (١٢٨٤ - ١٢٩١) الذى تمتع الجوينى برعايته ./ونظرًا لرغبة الخان فى توثيق 376
علاقاته بالحكام الأوروبيين فقد وجه ببرصوما فى عام ١٢٨٧ مبعوثا إلى رومه فأخذ الأخير طريق

---

(١٣٣) -Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 167

(١٣٤) -Miller, I, p. 9

(١٣٥) شرحه ، V, p. 169

(١٣٦) -Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 167-168

(١٣٧) شرحه ، p. 167

(١٣٨) -Sarton, Introduction, II, p. 976, No 3

(١٣٩) -Wright —Kokovtsov, p. 211-212, Note —Baumstark, p. 325-326, g) and p. 326, note 1 —Sarton, Introduction, II, p. 1068-1070

البحر من القسطنطينية إلى إيطاليا وهناك شهد ثوران بركان اتنا فى أواخر يوليو ١٢٨٧ وزار رومه وجنوه وباريس وتعرف عن كثب على جامعة الأخيرة ، ثم أمضى الشتاء بجنوه التى يثنى ثناء عاطرًا على طقسها اللطيف وأقام برومه بعض الوقت قبل أن يأخذ طريق العودة فى عام ١٢٨٨ . وتوفى برصوما ببغداد عام ١٢٩٣ ، ويفترض البحاثة[١٤٠] أن سيرة مارياباللاها ووصف هذه الأسفار من وضع مؤلف مجهول اعتمد على مذكرات برصوما نفسه لأن بعض التفاصيل تتميز بحيوية ووضوح يحتاجان إلى شاهد عيان * . وبالطبع فقد اهتم الراهب قبل كل شىء بالمسائل المتعلقة بالعبادة ، ولكنه قوى الملاحظة شديد الانتباه ينعكس فى وصفه طابع الجدة الذى نلتقى به عادة لدى الإنسان القادم من بيئة مغايرة . ومن الجلى أن مصنفات ابن العبرى وسيرة حياة مارياباللاها قد تم تأليفها فى وسط نصرانى بحت وفيه انتشرت وعرفت من دون أن يكون لها أثر كبير فى التطور العام للأدب العربى ؛ غير أن المصنفات العربية لابن العبرى لم تقتصر قراءتها على الوسط النصرانى وحده ، وقد رأينا كيف أن مصنفاته السريانية نفسها قد ترجمت إلى العربيـة ؛ أما سيرة مارياباللاها الثالث فقد وجدت بدورها طريقًا ولو فى صورة موجزة إلى مصنف عربى للقرن الرابع عشر يعرف باسم « كتاب المجدل »[١٤١].

إزاء كل هذا فمن العسير القول بحدوث تدهور فى الأدب الجغرافى فى القرن الثالث عشر ؛ حقًا إنه لم يشق طرقًا جديدة أو يبتدع أنماطًا لم تعرف من قبل ولكنه بلغ الأوج فى بعضها مثل الكوزموغرافيا . وسيقابلنا فى القرن الرابع عشر التالى لهذا ازدهار نمط جديد هو نمط الموسوعات الكبيرة التى يفرد فيها للجغرافيا مكان هام . أما من حيث الكم فقد ظل الأدب الجغرافى حافلا بمؤلفاته إلى بداية نهضة الأدب العربى فى القرن التاسع عشر . بيد أن النتيجة الحتمية للغزو المغولى كانت فى أن فقدت اللغة العربية سيطرتها نهائيًا على المشرق واحتلت مكانها هناك اللغة الفارسية التى أخذت تظهر بها ابتداء من هذا العصر بالذات مصنفات تاريخية وجغرافية تمثل قمة الإنتاج الأدبى بالنسبة لعصرها فى جميع أقطار العالم الإسلامى . ومن الملاحظ فى القرن الرابع عشر أن المصنفات العربية الكبرى فى هذا المجال قد ظهرت بالشام ومصر اللتين احتفظتا بقصب السبق حتى العصر الحديث تقريبًا هذا بينما توقفت العراق عن أن تلعب أى دور ذى بال فى هذا الميدان .

---

(١٤٠) -Sarton, Introduction, II, p. 1069

* ظهرت فى الآونة الأخيرة ترجمة روسية لهذا الكتاب الذى عرف من قبل فى ترجمتين فرنسية وإنجليزية . (المترجم)

(١٤١) -Wirght-Kokovtsov, p. 182-183, note

الفصل الرابع عشر
القرن الرابع عشر

377 بدأ نصيب الأندلس والمغرب فى تطور الأدب الجغرافى يتضاءل بصورة ملحوظة فى القرن الرابع عشر ؛ وكان السبب فى ذلك هو أن غرناطة قد أصبحت المركز الوحيد للعرب فى شبه الجزيرة الأيبرية ، وهى إن ظلت محتفظة بهالة من الحضارة السالفة إلا أنها كانت دائمًا تحت رحمة جيرانها الشماليين . وقد أثبت نمط الرحلة بجدارة أنه أكثر الأنماط مقاومة ورواجًا غير أن اهتمام المغاربة به كان يتجاوز اهتمام الأندلسيين ، وظل هذا الاتجاه مزدهرًا بين ظهرانيهم حتى اختتمه ابن بطوطة فاختتم بذلك فى الوقت نفسه سلسلة الرحلات العربية ذات الأهمية العالمية . وباستتباب سلطان المماليك بمصر مدة قرنين من الزمان اقتضت ظروف الحكم أن تولى عناية خاصة للأدب الجغرافى فى جميع أنماطه التى عرفناها من قبل ، فنلتقى فى هذا العصر بنمطى الفضائل والخطط وقد ظل هذا الأخير مزدهرًا بمصر حتى القرن التاسع عشر ؛ كما نما بصورة خاصة نمط الموسوعات الذى ساد فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر والذى يمثله عدد من المصنفات الضخمة التى تقع فى مجلدات عديدة . أما الشام فتقدم لنا فى النصف الأول من القرن الرابع عشر مصنفين هامين فى الكوزموغرافيا هما مصنفا أبى الفدا والدمشقى ؛ وقد نال الأول منهما شهرة لم يبلغها غيره فى الدوائر العلمية الأوروبية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وأما إلى الشرق من الشام فإن الأدب الجغرافى يبدو لنا فى قالبه الفارسى وحده ، وإن أسماء رشيد الدين فضل الله وحمد الله قزوينى لتقف شاهدًا على أن أهميته قد تجاوزت حدود بلاده . وقد رأينا من الأفضل أن نغض النظر عن التتابع الزمنى بعض الشىء فنؤجل الكلام على موسوعات عهد المماليك إلى الفصل التالى لهذا بوصفها نمطًا جديدًا فى الأدب الجغرافى وسنختتم ذلك الفصل نفسه بوصف رحلة ابن بطوطة الذى يعتبر من الناحية الزمنية آخر أثر جغرافى كبير يظهر فى القرن الرابع عشر . أما الآثار العديدة الأخرى والتى تنتمى جميعها بالتقريب إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر فسيجرى فحصها وتحليلها فى هذا الفصل الواحد تلو الآخر متجهين من المغرب إلى المشرق .

وأول ما يواجهنا منها هو نمط الرحلة التى أخذت تعكس الاهتمام بالعلوم الطبيعية إلى جانب الأدب الفنى والتى تذكّرنا إلى حد ما بما لاحظناه فى العصر السابق لهذا . وإلى هذا النمط ينتمى

مصنفان لمحمد بن رشيد الفهرى الأندلسى[١] * الذى ولد/بسبتة فى عام ٦٥٧ هـ = ١٢٥٩ 378
وخرج من المرية لأداء فريضة الحج فمر فى طريقه بشمال افريقيا ومصر وزار الشام أيضًا . وعند عودته اشتغل بعض الوقت بالتدريس فى غرناطة ثم أمضى بقية عمره فى كنف عثمان الثانى من بنى مرين بفاس إلى وفاته بها فى عام ٧٢١ هـ = ١٣٢١ . وإلى جانب مؤلفاته العديدة فى الحديث فإن له وصفًا لرحلتين مختلفتين من حيث العنوان ولكنهما تحملان أحيانًا اسما جامعًا هو « الرحلتان » . أما الأولى منهما فيصف فيها طريقه فى افريقيا والمرجح أنها وجدت فى عدة أجزاء ، غير أن ما تبقى منها موجود بمكتبة الاسكوريال وهو بخط يد المؤلف ويعالج الكلام عن علماء الإسكندرية والقاهرة فى نهاية القرن الرابع عشر ؛ وعنوانها الذى تغلب عليه الصنعة يعكس بحق مضمون هذه الرحلة وهو « ملء العيبة فى ما جمع بطول الغيبة فى الوجهة الواجهة إلى الحرمين مكة وطيبة »[٢] . أما الرحلة الثانية فتتناول الكلام عن أهل الحديث والفقهاء الأندلسيين وقد فرغ من تأليفها فى حوالى عام ٦٨٩ هـ = ١٢٩٠ بسبتة . والرحلتان تمثلان فى جوهرهما الطراز المعروف لنا جيدًا وهو « يوميات عالم » ، ومما يلفت النظر فيهما أن المؤلف إلى جانب اهتمامه بالأدب يهتم كذلك بالتاريخ الطبيعى . ومن الممكن تكوين فكرة واضحة عن كتابيه ومحتوياتهما ولو من خلال تلك الشذرة التى يفردها للكلام عن مصحف عثمان الذى بمسجد قرطبة والتى نقلها عنه المقرى[٣] فى القرن السابع عشر ، وكذلك من خلال موقفه من صدق عقيدة الشاعر إبراهيم بن سهل[٤] أو الكاتب ابن حبيش الذى كان تلميذًا له[٥] .

وإلى هذا العصر نفسه بالتقريب ترجع « رحلة » محمد بن أحمد التجانى الذى لا علم لنا بتفاصيل سيرة حياته بل إن اسمه لم يثبت حتى الآن بصورة قاطعة[٦] . وكل ما يمكن استقراؤه من

---

(١) -Brockelmann, GAL, II, p. 245-246, No 1; SB II, p. 344 —Sarton, Introduction, II, p. 1066 —Reinaud, Introduction, p. CXXVII — Pons Boigues, p. 317-318, No 270 —Kramers, EI, EB, p. 70

* راجع المقال الذى دبجه يراع العلامة المغربى محمد الفاسى عن هذا الرحالة ونشر « بمجلة معهد المخطوطات العربية » (المجلد الخامس ، ١٩٥٩) . (المترجم)

(٢) المقرى ، الجزء الثانى ، ص : ٣٥٢ ، الأسطر ٥ — ٧

(٣) شرحه ، الجزء الأول ، ص ٣٩٩ — ٤٠٦

(٤) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ٣٥٢ ، الأسطر ٥ — ٧

(٥) شرحه ، ص ٦٤٥ — ٦٤٦

(٦) -Brockelmann, GAL, II, p. 257, No 1; SB II, p. 368 —Kramers, EI, EB, p. 70 —Plessner, EI, IV, p. 806-807 —Amari (—Nallino), I, p. 80-81 No 54 —Amari, Bibl. ar.-sic., II, p. 41-81

مصنفه أنه خرج من تونس لأداء فريضة الحج عام ٧٠٦ هـ = ١٣٠٩ فى صحبة أمير من بنى حفص هو يحيى بن زكريا ، وفيما بعد عندما أصبح هذا الأمير حاكمًا على تونس صار التجانى من عماله المقربين إليه . وتاريخ وفاة التجانى كتاريخ ميلاده مجهول لنا جهلا كاملا .

ولما كان سير الرحالة بطيئًا ومجالها محدودًا فقد كان ذلك فى مصلحة الوصف إلى حد كبير إذ تمكن المؤلف بذلك من الوقوف عند كل ما يمكن ملاحظته فى طريق سيره القصير . وقد برهنت
379 رحلته على أهميتها الكبرى وذلك بتزويدها لنا بمعلومات وافية/عن جميع المناطق التى زارها وعن الأصقاع المجاورة لها . وهى تتناول مسائل الجغرافيا كما تتناول مسائل التاريخ الطبيعى وبوجه خاص التاريخ البشرى ؛ وكما جرت العادة فإنه يستشهد بمختلف المؤلفين ويقتبس أحيانًا من الوثائق ، أما أسلوبه فى العرض فأدبى صرف ولكنه لا يثقله بالانطباعات الشخصية أو بمحاولة التدليل على سعة معارفه ومهارته ككاتب فهو فى هذا الصدد أفضل بكثير من غيره من الكتاب الذين عالجوا التأليف فى هذا النمط . وبعد قرن من الزمان قدره ابن خلدون تقديرًا كبيرًا وأفاد من مصنفه مرارًا عديدة فى تلك الأجزاء من تاريخه التى أفردها لشمالى افريقيا[٧] . وقد دللت بحوث أمارى على أن التجانى يقدم معلومات تاريخية وجغرافية ذات قيمة كبرى، من ذلك ما كتبه عن جزيرة جربه بل وعن صقلية نفسها . ولم تطبع رحلته حتى الآن * ولكن يمكن الاطلاع على شذرات هامة منها فى ترجمة روسو Rousseau التى ترجع إلى الخمسينيات من القرن الماضى[٨] وتستند على اختيار تحكمى للنصوص مع سوء فهم للمتن أحيانًا . أما أمارى Amari وبل Bel فإنهما لم يتعرضا فى كتابيهما إلا لقسم ضئيل من الرحلة[٩] .

ومما لا شك فيه أن البحث الدقيق المتواصل فى المصادر سيمكن من الكشف عن مجهودات أكثر أصالة فى القرن الرابع عشر فى البلاد العربية ؛ ويقص علينا العمرى ، وهو من مؤلفى النصف الأول من هذا القرن وسيرد الكلام عنه فيما يلى ، أن أحد ملوك الزنج بعث بجماعة من ساحل افريقيا الغربى لدراسة المحيط الأطلنطى[١٠] ؛ ومما يؤسف له أن قصته هذه جاءت عرضًا وبصورة مقتضبة ولكن يمكن بكل اطمئنان إرجاع هذه المحاولة إلى عام ١٣٠٠ – ١٣٠٧ ، وفيما عدا

---

(٧) Plessner, EI, IV, p. 807-

* نشر متن الرحلة العلامة التونسى الكبير حسن حسنى عبد الوهاب فى عام ١٩٥٨ . (المترجم)

(٨) Rousseau, JA, 4 série, XX, p. 572-08; 5 série, I, p. 101-168, 354-425-

(٩) Plessner, EI, IV, p. 807 (= Amari, Bibl ar.-sic, II, p. 41-81 —Bel, Benou Ghânya)-

(١٠) Hennig, III, p. 128-132-

ذلك فمن العسير إضافة شيء ذي بال . أما فيما يتعلق بإمكان حدوث هذه المغامرة من وجهة النظر التاريخية فهذا شيء ممكن للغاية ، غير أن القول بأنها تمثل « المحاولة الثانية للمسلمين للكشف عن أميريكا[١١] » كما وصفها أحد العلماء العرب المعاصرين فهو قول لا يقوم على أسس وجيهة .

وتحتل مصر المكانة الأولى فى هذا العصر فيما يتعلق بسعة الإنتاج الأدبى فى محيط الجغرافيا موكدة بذلك استمرار تقاليدها الأدبية دون انقطاع بحيث يمكن أن نلتقى بجميع الأنماط الجغرافية المختلفة حتى تلك التى ترتفع إلى القرنين التاسع والعاشر . فإلى نمط الفضائل الذى وصفناه من قبل يمكن أن نرجع مصنفًا صغيرًا للحسن بن عبد الله الصفدى الذى يجب عدم الخلط بينه وبين المؤرخ المشهور خليل بن أيبك الصفدى[١٢] ؛ أما حياته/فلا نعرف عنها إلا القليل[١٣] ويبدو أنه 380
كان من المقربين إلى السلطان الناصر ابن قلاوون الذى حكم مصر ثلاث مرات (كانت آخرها من عام ٧٠٩ هـ إلى ٧٤١ هـ = ١٣١٠ - ١٣٤١) . وهو ينتمى إلى فئة عمّال الدولة المشتغلين بالأدب ممن حفل بهم هذا العصر ، وله تاريخ مختصر لمصر تحمل إحدى مخطوطاته عنوانًا يغلب عليه التكلف هو « نزهة المالك والمملوك فى مختصر سيرة من ولى مصر من الملوك » ؛ وحيث أن القسم الأول من الكتاب يعالج « الفضائل » فإنه يحمل فى بعض مخطوطاته العنوان المعهود لنا جيدًا وهو « فضائل مصر » . أما القسم التاريخى من الكتاب فإن أقيم ما فيه هو ما جاء بصدد « الأتراك » أى السلاطين المماليك ، وهنا ندين له بوصف دقيق لحوادث السنوات الأخيرة للقرن السابع الهجرى بمصر . ويبحث القسم الأول فى مختلف الفضائل الطبيعية والروحية لمصر ؛ وهو نمط معروف لنا جيدًا وكان مبعثه فى الأصل كما أبصرنا من قبل هو الأحاديث النبوية المتعلقة بالجغرافيا . أما التواريخ المذكورة فى الكتاب فلا تتعدى الخمسة عشر عامًا الأولى من القرن الرابع عشر ؛ وهناك أساس للافتراض بأن الكتاب قد تم تأليفه فى عام ٧١٦ هـ = ١٣١٦ - ١٣١٧ ؛ وأحيانًا قد يسوق النسّاخ تكملة هذا الكتاب إلى نهاية القرن الرابع عشر .

وقد كان لنمط الخطط ، وهى طراز من الجغرافيا التاريخية قائم بذاته ، ممثلوه فى هذا العصر أيضًا فهم كأنما كانوا يمهدون الطريق بهذا إلى الاكتمال الذى بلغه هذا الفرع من الأدب الجغرافى فى مؤلف المقريزى القيم . وبفضل الشذرات التى حفظها لنا المقريزى نفسه أصبح معروفًا لنا اسم

---

(١١) -Ahmed Zéki Pacha, p. 57

(١٢) -Kramers, EI, EB, p. 71

(١٣) -Brockelmann, GAL, II, p. 35, No 1; SB II, p. 33-34 —Krenkow, EI, IV, p. 57-58

أحد المصنفات الأساسية فى هذا المجال وهو لمحمد بن عبد الوهاب الزبيرى الذى اشتهر باسم ابن المتوّج (توفى فى عام ٧٣٠ هـ = ١٣٣٠)[١٤] وكثيرًا ما أطلق عليه لقب ابن القاضى ، وأغلب الظن أنه ينتمى إلى ذلك الوسط الإدارى الذى ينتمى إليه المؤلف السابق عليه ؛ أما كتابه فباستثناء حالات طفيفة تتعلق باختلاف القراءات فإنه يحمل عنوان « كتاب إيقاظ المتغفل
381 واتعاظ المتأمل » ./ويقول عنه المقريزى إنه كان آخر مؤرخ للخطط[١٥] وأنه « يبين جملا من أحوال مصر وخططها إلى أعوام بضع وعشرين وسبعمائة ، قد دثرت بعده معظم ذلك فى وباء سنة تسع وأربعين وسبعمائة ثم فى وباء إحدى وستين ، ثم فى غلاء سنة ست وسبعين وسبعمائة »[١٦] .

ومن الطريف أن المقريزى الذى استقى منه مادة وافرة عن بلاد مصر وآثارها المختلفة ومساجدها ومشاهدها[١٧] لا يشير إليه إطلاقًا فيما يتعلق بالقاهرة التى يغلب على الظن أنه لم يعالج الكلام عنها[١٨] ؛ كما ينقل عنه القلقشندى[١٩] فى موسوعته الدواوينية . ويشير حاجى خليفة[٢٠] عدة مرات إلى مصنفه ولكن فى عبارات تحمل على الاعتقاد بأنه لم يطلع على الكتاب نفسه بل كان يكرر ألفاظ المقريزى[٢١] ؛ وكما هو معلوم فإن ذلك المؤرخ الكبير للمؤلفات الإسلامية (bibliograph) أبعد من أن يكون قد رأى رأى العين (de visu) جميع المصنفات التى تحدث عنها .

وإلى جانب المؤلفات الجغرافية من طراز الفضائل والخطط فإن مصر عرفت فى القرن الرابع عشر أيضًا المؤلفات المتعلقة بمسح الأراضى حينًا فى شكل رسمى جاف وحينًا آخر موضحة بمعلومات إضافية ؛ وآخر هذه « الروكات » ، أى سجلات مسح الأراضى ، وأبعدها صيتًا هو « الروك الناصرى » المعروف والذى يرجع تاريخه إلى عام ٧١٥ هـ = ١٣١٥ . ويفترض دى

---

(١٤) عنان : ص ٤١ – ٤٢ — Kramers, EI, EB, p. 71

(١٥) -Vollers, Ibn Doukmak, p. 6

(١٦) عنان ، ص ٤٢

(١٧) عنان ، عدد من المقتطفات ، ص ٤٢ ، الحاشية ٣

(١٨) عنان ، ص ٤٢

(١٩) -Björkman, Beiträge, p. 83

(٢٠) حاجى خليفة ، الجزء الأول ، ص ٥١٦ ، رقم ١٥٨١ ؛ شرحه ، الجزء الأول ، ص ١٥١ ، رقم ٦٣ ؛ الجزء الثانى ، ص ١٤٦ – ١٤٧ ؛ قارن عنان ، ص ١٦٨

(٢١) حاجى خليفة ، الجزء الأول ، ص ٥١٧ .

ساسى أنه قد وجد أيضًا « روك » آخر تم وضعه فى عهد الملك الأشرف شعبان فى حوالى عام ٧٧٧ هـ = ١٣٧٥ ؛ وقد نشر له هذا المستشرق ترجمة فى تذييلاته لكتابه عن عبد اللطيف البغدادى . وكما بين موريتز[٢٢] فإن هذا الأثر لا يمثل فى الواقع وثيقة رسمية بل هو عبارة عن مرشد عمل من أجل عمال الدواوين ويحمل عنوان « تقويم البلدان المصرية فى الأعمال السلطانية » ، وهو مضمن برمته فى مصنف متأخر من تأليف يحيى بن الجيعان الذى سيمر بنا الكلام عليه فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى)[٢٣] .

والآن وقد فرغنا من الكلام على جميع هذه المصنفات التى لا تخلو أحيانًا من الأهمية والفائدة فى محيطها فإنه يجب ألا يغيب عن بالنا بأنها ليست هى التى تمثل الطابع المميز للأدب الجغرافى العربى بمصر فى ذلك العصر إذ أن شرف هذا يعود إلى سلسلة الموسوعات التى ظهرت إلى عالم الوجود
فى ذلك العهد بالذات والتى سنتحدث عنها فى الفصل التالى لهذا . وفى الوقت نفسه/تقدم لنا 382
الشام عالمين يختتمان بجدارة هذا العصر ويحتلان إلى جانب أصحاب الموسوعات المكان الأول من بين مجموعة الكتّاب الذين لا يمكن تجاهلهم فى عرض عام للأدب الجغرافى عند العرب .

وكلا هذين المؤلفين لا ينتميان إلى الوسط الذى انتمى إليه الكتاب المصريون الذين ورد ذكرهم قبل قليل ؛ وأولهما وهو شمس الدين محمد بن أبى طالب الدمشقى ولد فى سنة ٦٥٤ هـ = ١٢٥٦[٢٤] أى قبل استيلاء هولاكو على بغداد بعامين فهو بهذا قد كان معاصرًا منذ طفولته لسيل الأحداث الذى اجتاح العالم الإسلامى . وفى عام ١٢٦٠ ألحق السلطان بيبرس هزيمة نكراء بالمغول فى الشام فوضع بذلك حدًا لتهديدهم لمصر ووثق العُرى بين مصر والشام اللتين ظلتا طوال عهد المماليك خاضعتين لإدارة واحدة ؛ كما كان المغرب بدوره فى ذلك العهد مسرحًا لحوادث كبرى فمنذ عام ١٢٦٤ لم يبق تحت السيادة العربية باسبانيا سوى غرناطة . هذا وقد أمضى الدمشقى معظم حياته بمسقط رأسه دمشق إمامًا بمسجد الربوة ، ولقب بالصوفى لميوله التصوفية . ويبدو أن هذه الميول هى المسئولة عن اعتزاله العالم فى أواخر أيام حياته وإقامته بناحية صفد من أعمال فلسطين حيث عاش عيشة الزهاد إلى وفاته فى عام ٧٢٧ هـ = ١٣٢٧ ، أى قبل

---

(٢٢) -Moritz, Ibn al-Gî'ân, p. 11

(٢٣) -Brockelmnn, GAL, II, p. 131, No 5; SB, II, p. 163 —Moritz, Ibn Al-Gî'ân, p. III — قارن Kramers, EI, EB, p. 71

(٢٤) -Reinaud, Introduction, p. CL —Brockelmann; GAL, II, p. 130, No 1; SB II, p. 161 —Brockelmann, Al-Dimashki, p. 1616 —Kramers, EI, EB, p. 70

وفاة أبى الفدا بأربعة أعوام .

وعلى الرغم من جنوحه إلى التصوف إلا أنه خلف وراءه عددًا كبيرًا من المؤلفات يكشف بعضها عن اهتمام ومعرفة جيدة بالعلوم الدنيوية ؛ وأكثرها شهرة وأهمية بالنسبة لنا هو كتابه فى الكوزموغرافيا « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » . وعلى نحو ما سنرى فإن طريقة تصنيفه للمادة تكاد تنطبق على طريقة القزوينى(٢٥) إلا أنه لا يكررها دون تدبر . وينقسم الكتاب إلى تسعة أبواب يشغل الأول منها المقدمة التقليدية فى شكل الأرض ووصف الأقاليم السبعة وفصول السنة وبعض الآثار القديمة ، أما الفصل الثانى فيبحث فى المعادن والجواهر والأحجار الكريمة بينما يصف الثالث الأنهار والعيون والآبار التى تناقل ذكرها التاريخ ؛ والباب الرابع مكرس للكلام على البحار أما الخامس فيتحدث عن البحر المتوسط خاصة ويتضمن وصفًا مفصلا لميناء الإسكندرية بينما يعالج السادس الكلام على «بحر الجنوب» (أى المحيط الهندى) . وأما اليابس فقد أفرد له البابان السابع والثامن فيرد فى أولهما الكلام عن « الممالك المشرقية » ابتداء من الشرق
الأقصى فى اتجاه الغرب وذلك على ثلاث مناطق متوازية تشمل الهند وإيران/والشرق الأدنى ؛ 383
ويعالج الثانى الكلام على القسم الغربى من الأرض « الممالك المغربية » فيبدأ بوصف مصر ثم يتابع ساحل افريقيا الشمالى ابتداء من برقة إلى المحيط ثم يلى هذا بالتتابع وصف مراكش والبربر والسودان والزنج ، وتشغل الأندلس الجزء الأخير * .

وتقدير العلماء الأوروبيين للدمشقى لا يخلو من بعض التحفظ فهم يعتبرونه عادة دون الكوزموغرافيين الآخرين من وجهة النظر العلمية ، فمثلا دفيك Devic يراه دون القزوينى بكثير سواء من حيث المعرفة أو روح النقد(٢٦) . والدمشقى على نقيض أبى الفدا يهمل الجغرافيا الرياضية ولكن كتابه الذى يعتبر فى آن واحد مصنفًا فى الجغرافيا والكوزموغرافيا يفضل كتاب أبى الفدا من حيث تبويب مادته وإن كان أقل ملاءمة لروح عصره(٢٧) ؛ وهو ذو أهمية كبيرة من وجهة نظر التاريخ الطبيعى(٢٨) لأنه يحفل بمعطيات وافرة فى النبات والحيوان والمعادن وطبقات الأرض ؛

---

(٢٥) -Kramers, Legacy, p. 92

* لا ضير فى أن نضيف أن الباب التاسع والأخير يبحث « فى وصف انتساب الأمم إلى سام ويافث وحام أولاد نوح » . (المترجم)

(٢٦) -Devic, Litt. géogr. arabe, p. 396 (= t. à.p., p. 35)

(٢٧) -Kramers, EI, EB, p. 70

(٢٨) -Ruska, GZ, p. 596

ويغلب على طابع الكتاب الميل إلى الروحيات ولكن ليست من ذلك الطراز البدائى البسيط . ومن تحليل مصنف آخر له يجادل فيه نصارى قبرص الذين تصدى للرد عليهم أيضًا مواطنه ومعاصره المشهور ابن تيمية يستبين لنا أن الدمشقى لا ينتمى إلى مدرسة المتصوفين القديمة المعادية لكل فكر فلسفى بل ينضم إلى ذلك الاتجاه الذى اقتفى أثر ابن العربى والذى يجيز تطبيق المنهج التشككى فى حدود معينة[٢٩] .

ومما يزيد فى قيمة كوزموغرافيا الدمشقى والمصنفات المشابهة له وجود معلومات غير قليلة فيها نفتقدها لدى المؤلفين الآخرين ، هذا إلى جانب الإشارة إلى مواضع جغرافية معينة تصمت عنها المصادر الأخرى صمتًا مطبقًا . وتحتل المكانة الأولى مادته عن الشام وفلسطين التى عاش كل حياته فيها والتى يعتبر كتابه مصدرًا أساسيًا بالنسبة لجغرافيتها وتاريخها ؛ وفى الواقع أن وصفه لهذه البلاد يعتبر من أكمل ما عرف فى هذا الصدد[٣٠] ، وعند المقارنة به تهبط قيمة الأقسام الأخرى من كتابه المكرسة للكلام على البلاد الواقعة إلى الشرق من البلاد العربية خاصة مناطق المحيط الهندى[٣١] كما بين ذلك فيران Ferrand . أما فيما يتعلق بالهند نفسها فقد أدان العلماء الدمشقى بأخطاء عديدة[٣٢] .

وترد الإشارة فى مقدمة بعض المخطوطات إلى خارطة بالكتاب إلا أنه لم يمكن الكشف عنها حتى الآن فى أية واحدة من المخطوطات/المعروفة[٣٣] ؛ بيد أنه إذا أخذنا فى الاعتبار أن جميع كتب 384
الكوزموغرافيا من هذا الطراز كمصنف القزوينى والحرانى وابن الوردى قد وجدت بها خارطة مستديرة للعالم فإن الاحتمال يغلب بوجودها عند الدمشقى أيضًا . وبعض مخطوطات الكتاب يحمل عددًا كبيرًا من الرسوم التخطيطية ، ويقدم لنا كونراد ميلر تحليلا لثلاثة منها يبين أحدها تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم ويوضح الآخر توزيع الشعوب على الأرض بينما يمثل الثالث رسمًا للبحر المتوسط[٣٤] .

والدمشقى نادرًا ما يشير إلى مصادره وهى جميعها أسماء معروفة لنا كابن حوقل والمسعودى

---

(٢٩) -Fritsch, p. 36

(٣٠) -Devic, Litt. géogr. arabe, p. 396 (= t. à.p., p. 35)

(٣١) -Ferrand, Relations, II, p. 363-393

(٣٢) -Hudūd, p. 254

(٣٣) -Mehren, Cosmographie, p. VIII —Miller, V, p. 139

(٣٤) -Miller, V, p. 130-141

والبكرى والإدريسى[٣٥] ؛ ويحتل مكانة بارزة من بينها معاصره أحمد الطينى ، ولعلـه هو ذلك المؤلف نفسه الذى ترد الإشارة إليه تحت لقب الوطواط الوراق (توفى فى عام ٧١٨ هـ = ١٣١٨) وهو من أوائل واضعى الموسوعات وسيرد الكلام عنه فى الفصل التالى لهذا . والرأى الذى أخذ به من قبل[٣٦] ومؤداه أن كتاب الدمشقى ليس إلا نقلا من كتاب هذا المؤلف الأخير لا يستند على أى أساس من الواقع .

هذا وقد عرفت كوزموغرافيا الدمشقى منذ السنوات الستينات من القرن الماضى (١٨٦٦ ، ١٩٢٣) فى طبعة وترجمة فرنسية جيدة من عمل المستعرب الدنماركى مرن **Mehren** ، غير أن المحاولات الأولى لدراسة هذا الأثر قد ارتبطت إلى حد ما بنشاط الاستشراق الروسى . وبفضل انتشار مخطوطات الكتاب بين المجموعات المختلفة فقد بدأ الاهتمام به مبكرًا ، فمنذ القرن الثامن عشر نشر المستشرق السويـدى نوربـر ج **Norberg** مقتطفـات صغيرة منـــه (١٧٩٨ – ١٧٩٩) وفكر فى إعداد طبعة كاملة له[٣٧] . وفى عام ١٨١٩ عندما وصلت إلى المتحـف الأسيوى ببطرسبر غ مخطوطة من هذا الكتاب ضمن مجموعة روسو اهتم بها المستشرق فرين **Frähn** اهتمامًا متزايدًا حتى أنه تقدم فى العام التـالى لهذا باقتـراح إلى الأكاديميـة بأن تقـوم بطبعه[٣٨] ؛ ولما كان حجم الكتاب كبيرًا فإن اقتراحه لم يكن يرمى فى الواقع إلى إخراج طبعة علمية للمتن بقدر ما كان يهدف إلى نشر مخطوطة بطرسبر غ ؛ وقد بدأ الطبع فعلا ولكنه حين وصل إلى الصفحة الثانيـة عشرة بعد الثلاثمائـة أتى الحريـق على بقيـة الصفحـات المعـدة للتصحيح[٣٩] . ولهذا السبب أو لأسباب أخرى اضطر فرين إلى الإقلاع عن السير فيه ؛ وفى عام ١٨٦٦ فقط ، أى بعد مضى خمسة عشر عامًا على وفاة فرين ، جمعت الصفحات التى لم تمتد إليها النيران وجلدت وصدرت بوصفها مخطوطة ، ولم يتجاوز المطبو ع منها مائة النسخة يضاف إلى هذا صفحة تحمل العنوان باللغة الفرنسية ولا تحمل أى توضيح آخر ؛ وقد بلغ المتن بالتقريب إلى وصف فلسطين وهو يضم ثلثى الكتاب . وفى ذلك العام نفسه ظهرت طبعة مرن الذى كان

---

(٣٥) راجع عن المؤلفين والكتب الذين ينقل عنهم الدمشقى

Mehren, Cosmographie, p. LXXXVII-LXXXVIII

(٣٦) -Mednikov, Palestina, Issledovanie, p. 282

(٣٧) -Mehren, Cosmographie, p. X

(٣٨) -Dorn, Das Asiatische Museum, p. 36

(٣٩) -Mehren, Cosmographie, p. XI

385 أول من اهتم بدراسة الدمشقى ولم يكن له أى/علم بمجهود فرين ؛ وهو قد اعتمد فى ذلك على المخطوطة التى بكوبنهاغن .وقد بدأ بنشر ترجمة لأقسام من الكتاب وعمل دراسات حول نقاط معينة منه (الشام وفلسطين ؛ شبه جزيرة البرانس الخ)[٤٠] ، ثم استعان بالمادة التى أعدها فرين فأخرج طبعة كاملة للكتاب قامت بنشرها أكاديمية العلوم الروسية . ونتيجة لتعرف العلماء فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر على المؤلفين السابقين للدمشقى وعلى مؤلفى الموسوعات أيضًا فقد تضاءل الاهتمام به بصورة ملحوظة وكان آخر بحث يتصل بكتابه هو بحث دهيران Deherain عن افريقيا لدى الدمشقى الذى ظهر فى عام ١٨٩٨[٤١] . بيد أن هذا لا يمنع من القول بأن كتابه لا يزال يجتذب أنظار العلماء فيما يتعلق بمسائل معينة .

وينتمى إلى نمط الكوزموغرافيا ، مرتبطًا بعض الشىء بمؤلف الدمشقى ، كتاب أحمد بن حمدان بن شبيب الحرانى بعنوان « جامع الفنون وسلوة المحزون »[٤٢] . ولا يزال الغموض بكل أسف يكتنف عددًا من المسائل المتعلقة بشخص المؤلف نفسه وبمسودة مصنفه التى توجد فيها اختلافات كبيرة تبعًا لاختلاف المخطوطات[٤٣] . والثابت فقط أنه كان بمصر فى عام ٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ ؛ ويبصر كرامرس فى مصنفه تأثير المنهج الذى اتبعه الدمشقى فى تبويب مادته ولكن يعتقد أن الكتاب قد اعتمد على أساس جغرافى مغاير[٤٤] وهو أمر يوكده توزيع الأقسام المختلفة للكتاب فى بعض المخطوطات[٤٥] . فمثلا تتحدث المقالة الثانية فى مخطوطة لنينجراد عن «الآثار العلوية والسفلية » أو بمعنى آخر عن العجائب التى يمكن ملاحظتها فى السموات وفيما بين السماء والأرض ؛ أما المقالة الثالثة فتحدث عن « الدنيا وأحوالها والدهور والزمان » . وهى تحفل بأمشاج من المعلومات المتعلقة بالتقاويم ولكنها تجمع إلى جانب ذلك مواداً أدبية ذات طابع انتخابى تزينها الأشعار والأقوال البليغة ، وهذا بالطبع لا يتعلق فى قليل أو كثير بالكوزموغرافيا كما أنه من العسير تحديد ارتباطه بالمسودة الأولى للكتاب ؛ أما المقالة الرابعة فتمثل أنموذجًا جيدًا للكوزموغرافيا عند الحرانى بل إن عنوانها نفسه يحدّد مضمونها الأساسى وهو « فى عجائب

---

(٤٠) - Rozen, Mehren, p. 40-41 —Mednikov, Palestina. Perevod, p. 1166-1167

(٤١) -Dehérain, 1898

(٤٢) -Brockelmann, GAL, II, p. 130, No 3; SB II, p. 161-162 —Rozen, Notices Sommaires, p. 175-176 No 224

(٤٣) -Brockelmann, GAL, SB II, p. 161, note 1

(٤٤) -Kramers, EI, EB, p. 70

(٤٥) راجع أيضًا : Rozen, Notices sommaires, p. 175-177, No 224

الأقطار وغرايب البحار والأنهار والجبال والقفار » ، فهى تنضم إذن فى جوهرها لنمط العجائب (mirabilia) المعروف لنا جيدًا منذ القرن العاشر . وإزاء كل هذا فإن من السهل علينا أن ندرك السر فى أن قسمًا كبيرًا من هذه المقالة قد أفرد لعجائب مصر التى يستقيها أساسًا من مصنف إبراهيم بن وصيف شاه وإن كان لا يشير إليه بصراحة فى صفحات كتابه(٤٦) ؛ وهذا القسم بالذات هو الذى ضمنه بأجمعه تقريباً سراج الدين بن الوردى فى مصنفه
386 فى الكوزموغرافيا/ وذلك بعد مضى قرن من الحرانى(٤٧). أما تلك الأقسام من كتاب الحرانى التى تمس بحر قزوين فهى ليست سوى تكرار حرفى لمادة المسعودى والقزوينى(٤٨) . وعلى أية حال فإن كتاب الحرانى مثال جيد لما طرأ على مادة الكوزموغرافيات القديمة من تبسيط وتقريب إلى أفهام الجمهور فى العصور التالية حتى أصبحت تتمتع برواج كبير فى أوساط القراء كما يتضح لنا من كتب ابن وصيف شاه والحرانى وابن الوردى على التوالى .

وإلى جانب الدمشقى يجب أن نذكر شخصية معاصره ومواطنه أبى الفدا الذى احتل فى ميدان العلم مكانة أرفع من مكانته والذى يقول رينو Reinaud عن مصنفه الجغرافى وذلك قبل قرن من الزمان إنه يمثل « إلى جانب الإدريسى مؤلفًا ضخمًا فى مجاله » ويوكد فى الوقت ذاته « أن العصور الوسيطة بأوروبا لم تعرف كتابًا يمكن مقارنته به » . ولا يزال هذا الحكم صحيحًا فى جوهره حتى أيامنا هذه ولكن يجب أن تعدّل بعض تفاصيله على ضوء تطور البحث فى مجال الأدب الجغرافى منذ أن أصدر رينو حكمه هذا . وأبو الفدا على نقيض المؤلفين السابقين له ينتسب إلى فرع دوحة عريقة هى أسرة الأيوبيين التى تولت زمام الحكم فى الشرق فهو بذلك تربطه رابطة الرحم بصلاح الدين الأيوبى ، وإلى جانب هذا فهو يتفرد بين سائر الشخصيات التى تشاركه الحسب والنسب فى أنه لم يكن من بين رعاة الأدب والفن فحسب كما كان الكثيرون غيره بل كان إلى جانب ذلك مؤلفًا كبيرًا خلف وراءه مصنفين كبيرين فى التاريخ والجغرافيا . وقد أدى انتسابه إلى تلك الأسرة الكبيرة أن تعددت الأسماء التى عرف بها ، فهو وإن ثبتت عليه فى الأوساط العلمية الأوروبية كنية أبى الفدا إلا أنه غلب عليه فى الشرق لقبه عماد الدين أو لقب الإمارة الملك المؤيد ؛ أما اسمه فهو إسماعيل بن على الأيوبى . وسيرة حياته معروفة لنا جيدًا بفضل ما خلفه لنا من ملاحظات وفيرة تذكرنا فى بعض خطوطها بسيرة حياة أمير شيزر أسامة بن منقذ الذى عاش

---

(٤٦) -Rosen, Notices sommaires, p. 177

(٤٧) -Brockelmann, GAL, SB II, p. 162

(٤٨) -Dorn, Mél. As., VI, p. 347 (p. 348-364 : شذور)

بالشام أيضًا ولكن قبل قرن من أبى الفدا وخلف مذكرات ممتعة عن حياته الخاصة(٤٩) . هذا وقد سارت حياة أبى الفدا بحسب ما يبتغى حتى اعتقد البعض أن الأقدار حابته كثيرًا(٥٠) .

وإلى جانب ما منحته إياه الأقدار من ذهن صاف وقريحة فياضة وملكة شعرية وتملك لمختلف فروع المعارف إلا أنه برز كذلك بشجاعته وصفاته العسكرية ؛ وقد اعترف له معاصروه بالمرونة والاستعداد الدبلوماسى فاستطاع فى تلك الأزمنة الشديدة الاضطراب أن يحتفظ بما ورثه عن آبائه من أملاك بل أن يوسّع رقعتها . وكانت تلك الفترة التاريخية عصيبة حقًا فقد استمر الكفاح ضد الصليبيين من ناحية وضد تحركات المغول على الشام من ناحية أخرى ، أضف إلى هذا أن سلطان المماليك لم يكن قد ثبت بعد فى الشام بصورة قاطعة ؛ وعلى أية حال فقد كانت قرائن الأحوال تشير إلى أن/سلطان مصر هو صاحب القوة الكبرى وقد أحس أبو الفدا بهذا ولعل ذلك هو 388
السبب الذى جعله يثبت على ولائه لدولة المماليك .

ولد أبو الفدا فى سنة ٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ بمدينة دمشق التى كان قد التجأ إليها آنذاك أبوه أمير حماة ؛ وقد سارت مهمة تثقيفه فى الأدب جنبًا إلى جنب مع تدريبه العسكرى وصحب أباه وهو فى سن الثانية عشرة فى الحملة التى انتزعت من أيدى الصليبيين قلعة المرقب ، كما أخذ جانبًا وهو فى سن السادسة عشرة فى إخراج الصليبيين من طرابلس ؛ وفى عام ٦٩١ هـ = ١٢٩١ أخذ طرفًا فى حملة على أرمينيا الصغرى بقيادة السلطان لاجين ؛ وتنسب أسطورة أوروبية هذا الأخير إلى جماعة الفرسان التيوتون (Teutonic Knights) وتزعم بأنه قد وصل إلى فلسطين مع الصليبيين ولكنه لم يلبث أن أخذ جانب المسلمين ونال المكانة لديهم شيئًا فشيئًا حتى صار سلطانًا(٥١) ؛ ومن الخير أن نضيف أن هذه الأسطورة مجهولة تمامًا فى المصادر العربية(٥٢) .

هذا وقد ربط أبو الفدا كفاحه مع المماليك نهائيًا فى عام ٦٩٨ هـ = ١٢٩٩ وذلك فى عهد خليفة لاجين السلطان الناصر الذى ظل أبو الفدا مخلصًا له طوال حياته . وفى عام ٧٠١ هـ = ١٣٠١ أخذ أبو الفدا طرفًا فى الحملة الثانية للمماليك * على آسيا الصغرى ، وقريبًا من ذلك العهد قام بزيارة لبلاط السلطان بالقاهرة لأول مرة فقوبل بما هو أهل له من تقدير واحترام وأعيدت

---

(٤٩) أسامة بن منقذ Hitti, Kitäb al-I'tibär

(٥٠) -Carra de Vaux, Les Penseurs, I, p. 139-146 —Reinaud, Introduction, § II, p. XXXVIII

(٥١) -Carra de Vaux, Les Penseurs, I, p. 141

(٥٢) -Lane Poole, p. 290 note 2

* ورد فى الكتاب سهوًا « المغول » بدلا من « المماليك » . (المترجم)

إليه حقوقه الشرعية بعد عامين من هذا فثبّت أميرًا على حماة . ومنذ تلك اللحظة استقر فى أملاكه ولكنه كان يُرى بالقاهرة فى المناسبات والأعياد كما أدى فريضة الحج بضعة مرات صحب فيها أحيانًا السلطان الذى كان يأنس بصحبته ؛ وحوالى عام ٧١٥ هـ = ١٣١٥ اشترك أبو الفدا فى حملة أخرى على آسيا الصغرى . غير أن هذه الحياة النشطة الدائبة الحركة لم تحل دون اشتغاله بالأدب فإلى هذه الفترة بالذات يرجع تدوين القسم الأكبر من تاريخه الذى ظل يضيف إليه عامًا بعد عام حتى سنة ٧٢٩ هـ = ١٣٢٩ ؛ وفى الوقت نفسه وذلك عندما كان بحماة فى عام ٧١٧ هـ = ١٣١٧ اشتغل أيضًا فى تأليف كتابه فى « الجغرافيا » . وقد كان التوفيق حليفه دوامًا فى خططه السياسية فتم تنصيبه للمرة الثانية فى عام ٧٢٠ هـ = ١٣٢٠ أميرًا على حماة وأصبحت الإمارة وراثية فى بيته ولقب بالملك المؤيد . وفى رحلة له إلى مصر زار الإسكندرية ونال شرف حضور استقبال سفراء نادرين مثل سفير خايمه Jaime (يعقوب) الثانى ملك أراغون Aragon وسفير ايلخان إيران ؛ وفى أثناء اصطحابه للسلطان فى تجواله بمصر العليا بلغ دندرة . وختم أيام حياته بسلام فى حماة وذلك فى أكتوبر سنة ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ بعد أن تنبأ كما تزعم الأسطورة بأنه لن يتجاوز الستين شأنه فى هذا شأن جميع أفراد أسرته ؛ بل إن نسله أنفسهم لم يكتب لهم البقاء طويلا فى عالم الأحياء فقد ورث ابنه بعده سلطان الأسرة بحماة وخلعت عليه الإمارة من سلطان مصر ولكن بعد وفاته فى عام ٧٤٢ هـ = ١٣٤١ لم يستطع الحفيد أن يرتفع إلى مستوى الأحداث المعقّدة لذلك العصر وقنع بالاحتفاظ بمظهر الإمارة إلى وفاته بحماة فى عام ٧٥٨ هـ = ١٣٥٧ فانقرض بذلك بيت أبى الفدا(٥٣) . ولا تزال مقبرة أبى الفدا حتى يومنا هذا
389 بمدينة حماة قرب/المسجد المعروف « بمسجد الحيايا » * الذى بناه أبو الفدا نفسه كما يمكن الاستدلال حاليًا من نقش بالمسجد يرجع تاريخه إلى عام ٧٢٧ هـ = ١٣٢٧(٥٤) ، وعلى مقربة من منارة المسجد أمر أبو الفدا بتشييد « تربة » له زودها بكفن ، وإذا لم يكن ثمة خطأ قد وجد سبيله إلى تاريخ النقش فإن أبا الفدا يكون بذلك قد أعد العدة لوفاته قبل أربعة أعوام من حدوث ذلك ، أى عندما بنى مسجده فى عام ٧٢٧ هـ = ١٣٢٧(٥٥) . وقد حفظت لنا الأقدار أثرًا فنيًا كان يمتلكه أبو الفدا ويمثله كاتبًا أكثر مما يشير إليه كحاكم ، هو عبارة عن « قلمدان » ، أى وعاء

---

(٥٣) Reinaud, Introduction, p. XXXI-

* أى الأفاعى ، وهو جمع عامى لحية كما يستعمله أهل تلك النواحى . (المترجم)

(٥٤) Mühlinen, p. 658-

(٥٥) شرحه ، p.660

للأقلام ، مصنوع من البرونز ونقشت عليه عبارة مناسبة وهو يعد أثرًا طريفًا فى الفن الإسلامى(٥٦) .

وكانت حماة فى عهد أبى الفدا مركزًا للأدب والأدباء نلتقى فيها بعدد من الشعراء الذين تنافسوا فى مدح الأمير كالشاعر المشهور ابن نباته ، كما نلتقى فيها أيضًا بمواطنين من أهل المدينة نفسها كالشاعر الشعبى عمر المحّار (توفى حوالى عام ٧١٠ هـ = ١٣١٠)(٥٧) . ولم يكن أبو الفدا نفسه غريبًا على الشعر ، كما أنه ضرب بسهم وافر فى كثير من العلوم كالفلك والطب والنبات إلا أن شهرته العلمية تعتمد أساسًا على مصنفيه فى التاريخ والجغرافيا .

وأبو الفدا وإن كان معاصرًا لماركو بولو Marco Polo (١٢٥٦ - ١٣٢٣) إلا أنه لم يكن رحّالة ، فهو لم يعرف غير الشام والبلاد المجاورة لها كفلسطين وبلاد العرب ومصر والجزء الشرقى من آسيا الصغرى وأرض الجزيرة العليا . أما بخلاف هذا فهو جغرافى نقالة كان يستقى مادته من الآثار المدونة وأحيانًا من قصص التجار والرحالة التى سمعها بالشام ، وهو لم يكن بحاثة ولكن هذا لم يمنعه من وضع أثر لا يقل فى شىء عن معجم ياقوت . ومما لا شك فيه أن كتابه مصنف نقلى جمع مادته من عدد كبير من المؤلفات القديمة ولكنه أضاف إلى هذا عددًا ليس بالقليل من المعلومات الجديدة عن البلدان غير الإسلامية ؛ وهو فى تبويبه لمادته يكشف عن مقدرة ملحوظة فى التأليف . وليس فى مقدور أحد أن ينكر أن المكانة التى بلغها عند الأجيال التالية من العرب والفرس والترك ، وبين دوائر المستشرقين ابتداء من القرن السادس عشر ، إنما تقوم فى الواقع على أساس متين(٥٨) .

ويحمل مصنفه فى الجغرافيا عنوانًا متواضعًا هو « تقويم البلدان » ؛ وقد أتم مسودته فى سبتمبر من عام ٧٢١ هـ = ١٣٢١ ولكن من الممكن القول بأنه ظل يزيد عليه حتى لحظة وفاته ؛ وبمكتبة ليدن مخطوطة له راجعها أبو الفدا نفسه . وينقسم الكتاب إلى قسمين غير متساويين الأول منهما أقل أصالة من الثانى(٥٩) ، وهو على هيئة مقدمة فى الكوزموغرافيا العامة تضم المعلومات المعهودة عن تقسيم الأرض وعن خط الاستواء والأقاليم السبعة/والمعمور من الأرض ومساحتها وعن 390
المصطلحات المستعملة فى الجغرافيا ؛ ويرد فيها وصف قصير للبحار والبحيرات والأنهار والجبال

---

(٥٦) -Wiet, Catalogue, p. 81, No 11 and p. 196, No 152 (Collection Harari, No 179)

(٥٧) -Brockelmann, GAL, SB II, p. 1. No 1 b

(٥٨) -Kramers, EI, EB, p. 70 ؛ ومع تشدد أكثر لديه : Kramers, Legacy, p. 91

(٥٩) -Blachère, p. 291

كما يوضح النظام الذى يسير عليه الكتاب[٦٠] . أما القسم الثانى والأكبر فهو ينقسم بدوره إلى ثمانية وعشرين قسما ، أو جداول على الأصح مكرسة للكلام على المناطق الجغرافية المختلفة التى تسمى أيضًا بالأقاليم والتى يرد وصفها على الترتيب الآتى الذى قد يختلف اختلافًا ضئيلا وفقًا للمخطوطات : بلاد العرب ، مصر ، المغرب ، السودان ، الأندلس ، جزر البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى ، الشمال (بلاد الفرنجة والترك) ، الشام ، الجزيرة ، العراق ، خوزستان ، فارس ، كرمان ، سجستان ، السند (البنجاب) ، الهند ، الصين ، جزر البحر الشرقى ، الروم (آسيا الصغرى) ، أرمينيا (ومعها أرّان وأذربيجان) ، العراق العجمى ، الديلم (وكيلان) ، طبرستان (ومازندران) ، خراسان ، زابلستان (والغور) ، طخارستان ، خوارزم ، ما وراء النهر . وهذا التعداد يبين لنا لأول وهلة أن تبويب أبى الفدا يعكس بدقة تأثير المدرسة الكلاسيكية للبلخى[٦١] كما أن الاهتمام الذى يفرده لبلاد إيران يحس من خلاله تأثير « أطلس الإسلام » ؛ ويمكن أن نستنبط من هذا التبويب كيف أن أبا الفدا قد تحول عن الإدريسى إلى التقسيم الذى اتبعه جغرافيو القرن العاشر ، أى أنه اطرح جانبًا التقسيم إلى أقاليم فلكية مفضلا عليه التقسيم إلى مناطق جغرافية[٦٢] .

هذا وإذا كان أبو الفدا يفتقر إلى الأصالة فى طريقة تعداده للمناطق وتنظيمه لها إلا أنه بلا ريب يظهر الكثير من هذه الأصالة فى طريقة تبويبه للمادة داخل هذه المناطق . فكل واحدة من المناطق الثمانية والعشرين منسقة وفق نظام موحد وينقسم كل منها إلى جزئين يحتوى الأول على عرض عام للمنطقة وأخلاق سكانها وعاداتهم وآثارها القديمة وطرقها ؛ وتتفاوت هذه الأجزاء الأولى من حيث الحجم وفقًا لمساحة كل منطقة وأهميتها الجغرافية أو تبعًا للمادة التى كانت تحت تصرف أبى الفدا عنها . أما الجزء الثانى لكل منطقة فيمثل جدولا يقدم رسومًا بيانية متتالية تحتوى على أسماء البلاد والنقاط المأهولة فيها والمصدر الذى اعتمد عليه أبو الفدا فى تحديد طولها وعرضها والإقليم الفلكى والجغرافى الذى تنتمى إليه ، هذا مع بيان الأسماء بدقة من جهة الإملاء وتقديم وصف عام للمدن[٦٣] . وأبو الفدا أول من اتبع نظام الجداول فى علم الجغرافيا وهى خطوة لا تعتبر شيئًا أصيلا إذ من الطبيعى أن نفترض منذ البداية أن أبا الفدا قد استعار فكرة الجداول من الزيجات

---

(٦٠) شرحه -Blachère, p. 291 —Reinaud et de Slane, Texte, p. 507

(٦١) -Kramers, EI, EB, p. 70

(٦٢) -Bartold, Geografia Ibn Sa'ida, p. 228

(٦٣) -Blachère, p. 291-292

التى كان يعرفها معرفة جيدة . غير أن أبا الفدا نفسه يذكر صراحة(٦٤) أنـه قد سار على نهج
391 الطبيب يحيى بن جزله (توفى عام ٤٩٣ هـ = ١١٠٠)(٦٥)/الذى وزع الأمراض فى مصنفه
الشعبى « تقويم الأبدان » على هيئة جداول وفقًا للنماذج الفلكية . وربما تقودنا هذه الملاحظة
الأخيرة إلى التفكير فى أن الاثنين قد رجعا إلى مصدر مشترك ، غير أن أبا الفدا يذكر بصراحة أنه
أخذ تلك الطريقة عن الطبيب بما فى ذلك عنوان الكتاب نفسه .

والمصادر المدونة التى اعتمد عليها أبو الفدا معروفة لنا على وجه العموم لأنه كان من عادته الإشارة إلى مصادره بدقة(٦٦) ؛ ففيما يتعلق بالأدب الكلاسيكى للقرن العاشر اعتمد أبو الفدا أساسًا على الإصطخرى وابن حوقل ؛ ومن بين المتأخرين اعتمد على الإدريسى الذى عرفه لا فى كتاب « نزهة المشتاق » وحده بل فى مصنفه الثانى الذى لم يصل إلينا(٦٧) ؛ كذلك استعمل معجم ياقوت وجغرافيا ابن سعيد ؛ ومخطوطة هذا المصنف الأخير التى اطلع عليها أبو الفدا محفوظة الآن بباريس(٦٨) . أما من بين المؤلفين الذين فقدت مصنفاتهم بالنسبة لنا فتحتل أهمية خاصة الفقرات العديدة التى نقلها عن المهلبى جغرافى العهد الفاطمى ، والتى تساعد على تكوين فكرة عن مؤلفه الجغرافى(٦٩) . وقد وجه أبو الفدا اهتمامه كما هو معروف إلى الجغرافيا الوصفية ، إلا أن الجغرافيا الرياضية تحظى كذلك بمكانة كبيرة فى كتابه إذا ما قورن ذلك بالحالة السائدة فى عصره(٧٠) . وكان مصدره فى هذا المجال هو البيرونى خاصة فى كتابه « القانون » ، وابن سعيد الذى مر ذكره ؛ وغير معلوم لنا أى « كتاب الأطوال » يعنى عندما يشير إلى ذلك ولكن الرأى الغالب أنه يقصد بهذا الترجمة العربية لإحدى مصنفات بطلميوس العديدة . أما فيما يتعلق بمصادره الشفوية فلا نستطيع إلا أن نقف موقف التكهن ؛ وهى بلا شك قد وجدت ويمكن أن نقدم مثالا لها الرواية التى ينقلها على لسان أحد التجار عن مصب نهر الفلجا أو إشارته خلال كلامه عن الهند إلى رحالة زار تلك البلاد .

---

(٦٤) -Cf. Reinaud et de Slane, Texte, p. 3. الترجمة : Reinaud, II, I Partie, p. 3; Cf: Blachère, p. 292

(٦٥) -Brockelmann, GAL, I, p. 485, No 8; SB I, p. 887-888

(٦٦) -Reinaud, Introduction, p. CDXLVII—CDXLIX

(٦٧) شرحه p. CXXI – Mednikov, Palestina, الترجمة p. 1143, note 3

(٦٨) -Reinaud, Texte arabe, p. XLV, note 1

(٦٩) Mednikov. Palestina, Issledovanie, p. 282

(٧٠) -Amari (-Nallino), I, p. 58, No 24

ومن الطبيعى أن تحتل الشام والبلاد المجاورة لها الأهمية الكبرى عنده من حيث وفرة المادة ؛ أما فيما يتعلق بأوروبا الشمالية والغربية فإنه لا يمثل أهمية كبيرة بجانب بعض المصادر التى فى أيدينا الآن . وقد لوحظ أكثر من مرة تسرب الأخطاء إلى مادته عن عدد من الأقطار وذلك لأسباب مختلفة ، فمثلا وصفه لافريقيا الجنوبية يمثل تقهقرًا علميًا واضحًا عند المقارنة بمصدره البيرونى[٧١] . وقد لمسنا عنده من قبل الخلط فى القسم الخاص بالهند ، من ذلك روايته التى ينقلها عن ابن سعيد والتى يزعم فيها خطأ أن البيرونى أصله من مدينة هندية[٧٢] وهى رواية لا تزال تتردد من آن لآخر إلى أيامنا هذه * ؛ كما يلاحظ لديه أيضًا بعض التخبط فى معلوماته عن الصين والتى استقاها من مصادر مختلفة[٧٣] .

وجميع هذه التفاصيل تتكشف بوضوح فور الفحص الدقيق لكل قسم من الأقسام المختلفة
392 لكتاب أبى الفدا ؛ وكتابه بوجه عام/مصنف تام مكتمل يمتاز بأصالة التبويب وبالوضوح فضلا عن أنه تمتع برواج كبير سواء بين الأجيال القريبة من المؤلف أو التالية له[٧٤] . وقد لخصه الذهبى[٧٥] معاصره الأصغر سنًا منه (توفى فى عام ٧٤٨ هـ = ١٣٤٧) كما نال حظوة كبرى لدى الأتراك فرتبه فى القرن السادس عشر سباهى زاده (توفى عام ٩٩٧ هـ = ١٥٨٨) على حروف المعجم باللغة العربية وزاد عليه وأخرجه بعنوان « أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك[٧٦] » ، ومنه مخطوطة بمعهد الدراسات الشرقية بلنينجراد[٧٧] كان قد درسها المستشرق دورن Dorn[٧٨] ؛ ولم يقف سباهى زاده عند حد إعادة صياغة المصنف بالعربية بل نقل شذورًا منه إلى التركية ؛ أما فى إيران فقد خضع لتأثيره محمد صادق الأصفهانى من مؤلفى القرن السابع عشر[٧٩] .

---

(٧١) Kimble, p. 60-62 ، خاصة (p. 61)

(٧٢) -Hudüd, p. 372

* بين أحد العلماء الهنود المعاصرين أن مصدر هذا الخطأ يرجع إلى أبعد من ذلك وهو كتاب « نزهة الأرواح » لشمس الدين الشهرزورى الذى تم تأليفه بين عامى ١١٩٠ و١٢١٤م. (المترجم)

(٧٣) -Yule —Cordier, Cathay, I^2 p. 145, 258

(٧٤) عن ملخصات وتنقيحات مصنف أبى الفدا فى الشرق راجع :
Reinaud, Introduction, p. CDLIII-CDLIV

(٧٥) شرحه ، p. CDLIII

(٧٦) -Brockelmann, GAL, II, p. 46, 453, No 4; SB II, p. 44, 673 —Taeschner, DI, XIX, p. 39, note 1

(٧٧) -Rozen, Ćollections scientifiques, p. 35, No 69

(٧٨) -Dorn, Caspia, p. 167-169 = Dorn, Kaspi, p. 263-267

(٧٩) -Reinaud, Introduction, p. CDLIV

وقد حدث هذا فى اللحظة التى عرفت فيها أوروبا أبا الفدا معرفة ليست أقل من معرفة الشرق به[٨٠] ؛ وفى الواقع أنه لم يفقه فى الشهرة هناك إلا مصنفان فى اللغة العربية بأجمعها هما القرآن و« ألف ليلة وليلة » . ويمثل كتابه واحدًا من أوائل المصنفات التى ترجمت عن اللغة العربية ؛ وحاز التقدير كما يقول أمارى « لأسلوبه المتزن ونقده القويم »[٨١] . وقد ورد ذكره منذ منتصف القرن السادس عشر (فى عام ١٥٦١) لدى المستشرق الفرنسى بوستل Postell الذى يعد فى الرعيل الأول من بين المستشرقين . وفى القرن التالى لذلك شغل كثيرًا بدراسته المستشرق الألمانى شيكارت Schickardt (١٥٩٢ – ١٦٣٥) ، ثم لم تلبث أن وجدت نسخة من المصنف ، لا الترجمة وحدها[٨٢] ، طريقها إلى مكتبة باريس[٨٣] . وعقب ذلك بقليل (١٦٥٠) وضع المستشرق والفلكى الإنجليزى غريفز Greaves أو غرافيوس Gravius (١٦٠٢ – ١٦٥٠) اللبنة الأولى فى دراسة هذا الأثر دراسة نقدية بنشره لقسم من الكتاب[٨٤] ؛ وفى القرن الثامن عشر ظهرت إلى جانب دراسات لبعض نقاط الكتاب ترجمة كاملة له (١٧٧٠ – ١٧٧١) بقلم المستشرق رايزكه Reiske (١٧١٦ – ١٧٧٤) وهى ترجمة يغلب عليها مع الأسف طابع الاستعجال ؛ ثم لم يلبث أن تُوّج كل هذا المجهود الكبير بظهور الطبعة والترجمة اللتين بدأ العمل فيهما فى بداية الثلاثينيات من القرن الماضى تلامذة المستشرق الكبير دى ساسى بإيعاز منه وتحت توجيهه ؛ ولا يزال هذا العمل حتى أيامنا هذه من أبرز ما أنتجه الاستشراق الفرنسى . وقد ظهر المتن الذى قام بإعداده رينو Reinaud ودى سلان
De Slane فى عام ١٨٤٠ مصحوبًا بمقالة ضافية فى سيرة حياة أبى الفدا وعن مصنفه[٨٥] ؛/ 394
وأعقب ذلك فى عام ١٨٤٨ ظهور القسم الأول من الترجمة بقلم رينو ومقدمة عامة فى علم الجغرافيا لدى المشارقة تمثل فى حد ذاتها أثرًا مستقلا بنفسه[٨٦] . وقد أتم الترجمة غيار Guyard بعد خمسة وثلاثين عامًا من ذلك التاريخ وظهرت هذه التتمة فى عام ١٨٨٣[٨٧] . وكان سير العلم قد تقدم بشكل محسوس منذ أن بدأ تنفيذ هذه الفكرة لذا فإن غيار أورد فى مقدمته لترجمة القسم

---

(٨٠) شرحه p. CDLV

(٨١) -Amari, (-Nallino), I, p. 58, No 24

(٨٢) -Carra de Vaux, Les penseurs, II, p. 13

(٨٣) -Reinaud, Texte arabe; p. XLII, note 2

(٨٤) -Abulfedae Chorasmiae et Mavaralnahrae desciptio, ed. J. Gravius, London, 1650

(٨٥) راجع الحاشية رقم ٦٠

(٨٦) راجع الحاشية رقم ٦٦

(٨٧) -Guyard, II, deuxième partie

الثانى قائمة بأسماء الطبعات والبحوث المختلفة التى ظهرت فى هذه الفترة والتى عدلت كثيرًا من موقف العلماء إزاء أبى الفدا فى الثلاثينيات والأربعينيات من ذلك القرن بحيث بدا هذا المشروع لدى علماء الثمانينيات وكأنه قد عفى عليه الزمن وذلك بسبب ظهور طبعات لآثار أهم بكثير من مصنف أبى الفدا .

غير أن هذا لا يقلل فى شىء من قيمة الترجمة فى حد ذاتها ، فهى تمثل إحدى الترجمات القيمة فى هذا الميدان وستظل على الدوام محتفظة بأهميتها لأنها تقدم لنا فى صورة متكاملة مصنفًا قائمًا بذاته لعب دورًا ليس بالصغير فى تطور العلوم عند العرب وغير العرب . أما المقدمة العامة لرينو Introduction Générale à la Géographie des Orientaux. Paris, 1848 فإنها تتمتع بأهمية استثنائية كما حدث وأن بينا ذلك فى مقدمة كتابنا هذا ؛ لا لأنها كانت البحث الرئيسى للتعريف بأبى الفدا وجغرافيته على ممر قرن من الزمان بل لأنها ظلت عشرات من السنين الدراسة العامة الوحيدة فى تاريخ الجغرافيا العربية (ويصدق هذا بعض الشىء على الفارسية والتركية) ولم يحل محلها حتى الآن أى بحث آخر * . وعلى الرغم من التقدم الذى أحرزه العلم فى الفترة التى مرت منذ ظهور المقدمة وعلى الرغم أيضًا من التغير التام الذى طرأ على الصورة العامة فى بعض الفترات التاريخية وفى بعض الجوانب فإن هذا الأثر لا يزال على وجه التقريب المرجع الأساسى للتعريف بجميع الآثار الجغرافية العربية هذا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الفترة التى انقضت منذ تأليفه . ويرتبط بهذه « المقدمة العامة » على الدوام اسم أبى الفدا الذى كان حافزًا ولو بطريق غير مباشر على ظهور هذا الأثر العلمى الذى يعتبر من أبرز منتجات الاستعراب الأوروبى .

وكما أسلفنا فى مرات عديدة فإن الأدب الجغرافى فى هذا العصر لم يجد تربة خصبة فى المناطق الواقعة إلى الشرق من الشام ، ولكن فى مقابل ذلك بلغ الأدب الجغرافى باللغة الفارسية أوجه فى هذا العصر بالذات . ويتبين لنا هذا من خلال فحص مصنف رشيد الدين المشهور « جامع التواريخ » الذى وإن كان فى جوهره أثرًا تاريخيًا صرفًا إلا أنه يمكن اعتباره بالقدر نفسه مصنفًا فى الجغرافيا التاريخية أيضًا[٨٨] . وكان أبو الفضل رشيد الدين طبيبًا فى الأصل وقد ولد حوالى عام

---

* إن كتاب نفيس أحمد الباكستانى الذى وضعه باللغة الإنجليزية والذى تم تعريبه فى الآونة الأخيرة لم يستطع أن يشغل المكانة التى احتلها مؤلف رينو ، ومصداق هذا أن جماعة من العلماء الهنود قد قامت بنقل مصنف رينو إلى اللغة الإنجليزية منذ وقت غير بعيد ؛ أما الآن وبظهور كتاب كراتشكوفسكى فإنه يمكن القول بأنه قد ظهر فعلا كتاب يحل محل مقدمة رينو التى عفى عليها الزمن . (المترجم)

(٨٨) = Bartold, MI, I, 1912, p. 56-107 —Berthels, Rashid al-Din, p. 1213-1214 —Romaskevich, =

٦٤٥ هـ = ١٢٤٧ فى أسرة يهودية من همدان ، ولم تلبث مهنته أن قربته من بلاط الحكام المغول ايلخانات الفرس منذ عهد/آباقا خان وظل محتفظًا بهذا النفوذ حتى كان فى واقع الأمر الوزير الأول 395
فى عهد غازان واولجايتو؛ ولكن بوفاة الايلخان أو لجايتو سقط رشيد الدين فريسة لدسائس أعدائه الذين استغلوا فيما استغلوا حقيقة أصله اليهودى فلم يلبث أن نفذ فيه حكم الإعدام فى عام ٧١٨ هـ = ١٣١٨ . هذا الأثر الكبير الذى استعان فيه رشيد الدين بخبرة عدد من العلماء ، وهو شىء جر عليه وقتًا ما تهمة السرقة الأدبية ، بدأ تأليفه فى حوالى عام ٧٠٠ هـ = ١٣٠٠ وفرغ منه فى عام ٧١٠ هـ = ١٣١١ ؛ وهو يتألف فى صورته المعروفة لنا من جزأين أفرد الأول منهما لتاريخ المغول ويتكون بدوره من قسمين يحتوى الأول منهما على تاريخ القبائل التركية والمغولية مع تفاصيل مسهبة عن فروعهم وأنسابهم وأساطيرهم ، بينما يحتوى الثانى على تاريخ المغول منذ جنكيز خان إلى غازان . أما الجزء الثانى فيمثل شيئًا أشبه بالتاريخ العام وهو معروض أيضًا فى قسمين يشغل الأول منهما تاريخ إيران القديمة بينما يبدأ الثانى بتاريخ محمد فالخلفاء إلى عام ١٢٥٨ ويضم قطعاً خاصة عن الدويلات الإيرانية وعن الإسماعيلية ومعلومات حول كفاح البابا ضد الأباطرة ؛ وفى الفصل الأخير المتعلق بالهند يعطى تحليلا خاصًا لبوذا ولتعاليمه . وكما لاحظ عدد من الباحثين(٨٩) فإن هذا المصنف لا مثيل له فى تعدّد مصادره واتساع أفقه ، بحيث لا نلتقى بمصنف مثله لا فى هذا العصر ولا فى العصور التالية يعالج تاريخ العرب والفرس باعتباره « جدولا من الجداول العديدة التى تصب فى بحر التاريخ العالمى » ويجهد فى تبويب مادته من وجهة النظر هذه .

ولا يزال موضعًا للنزاع القول بوجود جزء مخصص للجغرافيا فى هذا المؤلف الضخم ؛ وعلى الرغم من أن رشيد الدين يتحدث فى شىء من التفصيل فى مقدمة سفره عن مضمون كتابه ، وعلى الرغم أيضًا من أن بعض الكتاب الفرس يشيرون إلى وجود هذا الجزء إلا أن أكثر العلماء يفترض سلفًا أن هذا الجزء كان مجرد أمنية لم يكتب لها التحقيق ؛ وعلى هذا كان رأى بارتولد(٩٠) . وفى الآونة الأخيرة جنح العلامة أحمد زكى وليدى إلى القول بأن هذا القسم قد وجد بالفعل(٩١) ؛

MITT, I, p.52-54 —Volin, Orda, II, p. 27-29 —Bartold, Iran, p. 75-79 —Krymski, Istoria Persii, = III, p. 44-48 —Ferrand, Relations, II, p. 361-362 —Schefer, Chrestomatie persane, p. 12-14 —Yule —Cordier, Cathay, III², p. 107-133 —Browne, Literary History, III, p. 68-87

(٨٩) -Validi, GZ, XL, p. 364-365 and note 1

(٩٠) -Bartold, Iran, p. 76 —Krymski, Istoria persii, III, p. 44, note 2

(٩١) -Validi, GZ, XL, p. 365-366, note 5 —Validi, Schwerter, p. 47 and note 1

وعلى أية حال فإنه لم يتم الكشف عنه حتى الآن * . هذا وقد تعرض كتاب رشيد الدين لعدد من البحوث لا مثيل له ، تحتل من بينها البحوث الروسية مكانة مرموقة ؛ وجميع هذه البحوث تقدم لنا فكرة متكاملة الجوانب عن كل المسائل المتعلقة بالكتاب . وهو وإن اعتبر من ناحية امتدادًا للمذهب العربى إلا أنه يقدم لنا من نواح أخرى موادًا نادرة جدًا فى محيط الأدب الجغرافى الإسلامى ترتفع إلى مصادر أوروبية بل وشرقية غير إسلامية(٩٢) .

هذا وقد خضع لتأثير رشيد الدين القوى معاصره حمد الله مستوفى قزوينى وانعكس ذلك بوضوح فى نشاطه العلمى ؛ وهو أيضًا كان موضع اهتمام العلماء الروس(٩٣) . وينتسب قزوينى
396 إلى أسرة/من قزوين شغل أفرادها لمدة طويلة مناصب إدارية كان من بينها منصب المستوفى (أى المشرف على الحسابات)،وقد شغل حمد الله نفسه هذا المنصب فى أيام رشيد الدين. ولعله هو أيضًا بدأ نشاطه العلمى كرشيد الدين بالتأليف فى التاريخ فقد وضع فى البداية قصيدة تاريخية على غرار شاهنامه الفردوسى ، تلاها كتاب فى التاريخ العام بعنوان « تاريخ كزيده » أتمه فى حوالى عام ٧٣٠ هـ = ١٣٣٠ وهو يتمتع بشهرة كبيرة فى الأدب . ويقدم لنا المؤلف فى الفصل السادس من هذا الكتاب الأخير وصفًا مفصلا لمسقط رأسه قزوين وذلك على طراز الرسائل الجغرافية التاريخية المعروفة لنا جيدًا عن المدن الكبرى(٩٤) ؛ والكتاب فى متناول الأيدى فى ترجمة فرنسية ظهرت منذ السنوات الخمسينات من القرن الماضى ؛ وقد وكد الرحالون فى منتصف القرن التاسع عشر دقة ما أورده من معلومات(٩٥) . وإلى جانب هذا فلقزوينى مصنف جغرافى مستقل هو « نزهة القلوب » أتم تأليفه فى حوالى عام ٧٤٠ هـ = ١٣٣٩(٩٦) . وتاريخ وفاة قزوينى غير معروف على

---

* لقد تم الآن الكشف عن هذا القسم وذلك ضمن مخطوطة تحوى جميع مصنفات رشيد الدين « جامع التصانيف رشيدى » ، وهى المخطوطة الفارسية رقم س ٣٧٥ التى بمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية . (المترجم)

(٩٢) -Yule —Cordier, Cathay, III^2, p. 107-133

(٩٣) -Bartold, Iran, p. 79-81 —Krymski, Istoria Persii, III, p. 49-50 —Romaskevich, MITT, I, p. 54-55 —Reinaud, Introduction, p. CLV-CLVI —Büchner. EI, II, p. 904-906 —Kramers, EI, EB, p. 71 —Ferrand, Relations, II, p. 405-407 —Le Strange, Description of Persia, p. 49-63 —Browne, Literary History, III, p. 87-100

(٩٤) -Browne Literary, History p. 93-94 —Barbier de Meynard, Kazvin, p. 257-308

(٩٥) -Barbier de Meynard, Kazvin, p. 257

(٩٦) -Le Strange, Description of Persia, p. 54 —Browne, Literary History, III, p. 98-100

وجه التحديد ولكنه يؤخذ فى العادة على أنه عام ٧٥٠ هـ = ١٣٤٩ . ويمكن اعتبار مصنفه مكملا للمذهب العربى الإيرانى من نمط الكوزموغرافيا المعروف لنا ، جامعًا إلى هذا بضع ملاحظات فلكية وطبيعية وجغرافية بأوسع ما يحمله هذا اللفظ من معنى . وينقسم الكتاب إلى مقدمة وثلاث مقالات وخاتمة ، ففى المقدمة ترد المعلومات المعتادة عن السماء والنجوم والفصول والتوقيت كما يرد وصف عام للأرض وللأطوال والعروض والأقاليم السبعة ، أما المقالة الأولى فتعالج الكلام على المعادن والنبات والحيوان بينما تتناول المقالة الثانية الكلام على الإنسان (خاصة من وجهة النظر التشريحية) ، ويلى هذا المقالة الثالثة المفردة للجغرافيا والتى تنقسم إلى أربعة أقسام يتحدث فى الأول منها عن مكة والمدينة والمسجد الأقصى وفى الثانى عن إيران مع استطرادات عديدة أما الثالث فعن الأقطار المجاورة لإيران والتى خضعت لها حينًا من الدهر بينما يتحدث فى الرابع عن المناطق التى لم تخضع لإيران مطلقًا ؛ وفى الخاتمة يعالج المؤلف الكلام عن جميع صنوف العجائب فى مختلف أنحاء العالم[٩٧] . ويفضلها جميعًا من حيث القيمة الفصل الثانى من المقالة الثالثة عن إيران لأنه لا يعتمد على المصادر الكتابية فحسب بل وأيضًا على ملاحظات المؤلف الشخصية التى جمعها أثناء أسفاره الإدارية العديدة بنواحى إيران المختلفة ، زد على هذا أن المنصب الإدارى الذى ورثه عن أسرته[٩٨] قد ساعد قزوينى على الوصول إلى الوثائق الرسمية . ووفقًا للمذهب التقليدى القديم فهو لا يكتفى بالكلام على البلاد الإيرانية بل يتحدث عن بلاد
كالجزيرة العربية وشرقى/افريقيا[٩٩] ؛ إلا أن المكانة الرئيسية عنده تشغلها آسيا الصغرى والعراق ، 397
وبوجه خاص إيران . وقد أفاد قزوينى فائدة جمة من الذين سبقوه فى هذا المضمار خاصة ابن خرداذبه وياقوت وزكريا القزوينى ؛ وهو فى وصفه لفارس يعتمد إلى حد كبير على المسودة الفارسية لابن البلخى[١٠٠] . ولا يمكن إنكار حظه من المنهج النقدى فهو لم يكتف بنقل معطيات من سبقوه بطريقة آلية ولكنه يكملها ويصححها أحيانًا على ضوء الظروف السائدة فى عصره[١٠١] . وثمة أهمية كبيرة تنالها بشكل خاص معلوماته عن الوضع الاجتماعى والاقتصادى السائد بإيران والبلاد المجاورة لها فى عهد المغول ، بل فى عهد السلاجقة أيضًا حيث أفاد فى هذا

---

(٩٧) -LeStrange, شرحه p. 59-63

(٩٨) شرحه ، p. 53-54

(٩٩) -Ferrand, Relations, II, p. 405-407

(١٠٠) -Büchner, EI, II, p. 906

(١٠١) -Bartold, Iran, p. 80

الصدد من الوصف الرسمى الذى وضع فى عهد ملكشاه فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر[١٠٢] . ويعود إلى العلم الروسى فضل كبير فى دراسة معطيات قزوينى فى محيط التاريخ الاقتصادى والجغرافيا الاقتصادية[١٠٣][١٠٤] ؛ وينال كتابه أهمية خاصة بالنسبة للجغرافيا التاريخية وذلك بإعطائه وصفًا لإيران فى الفترة التى تعقب رحلة ماركو بولو مباشرة[١٠٥] .

لقد اتسع مجال الأدب الجغرافى باللغة الفارسية فى القرن الرابع عشر بصورة ملحوظة فلم يقتصر على المراكز الكبرى وحدها ؛ وإلى عام ٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ مثلا يرجع مصنف لشخص يدعى محمد بن يحيى[١٠٦] يحمل فى أغلب الأحيان عنوان « صور أقاليم سبعة » على الرغم من أنه لا يعكس هذه التسمية بأية حال[١٠٧] ؛ وقد تم تأليفه بكرمان[١٠٨] ورفعه مؤلفه إلى مبرز الدين محمد (٧١٣ هـ - ٧٥٩ هـ = ١٣١٤ - ١٣٥٨) أحد أمراء كرمان[١٠٩] من المظفرية[١١٠] . وتبويب هذا المصنف الجغرافى الكوزموغرافى الذى حفظ فى عدد من المخطوطات[١١١] بعضها بالاتحاد السوفيتى[١١٢] معروف أساسًا من تحليل للمستشرق الروسى زاليمان **Salemann**[١١٣] ومن مقال للمستشرق الفرنسى هوار **Huart** . والفصل الأول منه عبارة عن مقدمة تليها المادة الجغرافية المعهودة ، أما الفصل الثانى فينقسم إلى سبعة أقسام وفقًا للأقاليم السبعة[١١٤] . ويبدى ريو **Rieu** الكثير من التشدد فى حكمه على هذا الكتاب فيصفه /بالايجاز المخل وبأنه يحفل بالأساطير والخرافات وحكايات الأطفال[١١٥]. غير أن الكتاب لا يخلو إلى 398

---

(١٠٢) شرحه

(١٠٣) -Le Strange, Description of Persia, p. 54-55

(١٠٤) -Bartold, Mechet, p. 14 et sui. —Petrushevski, Khamdallakh Kazvini

(١٠٥) Le Strange, شرحه p. 50

(١٠٦) -Kramers, EI, EB, p. 71

(١٠٧) -Huart, l'Afrique, p. 1 (=t. á p., p. 13)

(١٠٨) -Dorn, Mél. As., VI, p. 574, No 3

(١٠٩) شرحه VII, p. 43-44

(١١٠) -Huart, l'Afrique, p. 1 (=t. à p., p. 13)

(١١١) شرحه p. 1-2 (t. à p., p. 13-14)

(١١٢) -Salemann, Mél, As., IX, p. 493 —Miklukho —Maklai, opisanie, p. 43-45, No 27

(١١٣) -Salemann, Mél. As., IX, p. 493-495

(١١٤) شرحه p. 494-495

(١١٥) -Huart, l'Afrique, p. 2 (=t. à p., p. 14)

جانب المعلومات المعروفة لنا جيدًا من تفاصيل قيمة خاصة فيما يتعلق بالمناطق الشمالية لإيران كما بين ذلك دورن Dorn ، بل إن القسم الخاص بافريقيا يحتوى إلى جانب الحكايات عن معلومات ذات أهمية مستقاة من مؤلفين عرب لم تصلنا مصنفاتهم [١١٦] .

وقد امتد تأثير الأدب الجغرافى الفارسى على الشرق الأقصى وظل باقيًا هناك إلى القرن الرابع عشر ؛ وقد بينا فى حينه الدور الذى لعبه فى هذا المجال مرصد مراغه ومؤلفات نصير الدين طوسى فى القرن الثالث عشر . وتمثل الخارطة الصينية الرسمية للمستعمرات « الغربية » التى يرجع تاريخها إلى عام ١٣٣١ (أو عام ١٣٢٩ على الأصح [١١٧]) نموذجًا طريفًا لهذا التأثير ؛ وقد رسمت هذه الخارطة فى عصر حكم أسرة اليوان Yuan وعملت من أجل الفصل الثالث والأربعين من تاريخ اليوان « يوان شى Yuan She » ؛ وأول من أشار إلى أهميتها برتشنيدر Bretschneider (١٨٧٦) [١١٨] ثم أخضعها لبحث خاص البيرت هرمان A. Hermann (١٩٢٢) . وتبين هذه الخارطة بدقة حدود دولة « الخاقان الأكبر » والدول الثلاث التى دانت لسلطان أسرة جنكيز خان وهى دولة جغتاى فى آسيا الوسطى ودولة أوزبك فى سهوب القبجاق ودولة أبى سعيد فى إيران . ويمكن أن نستبين من بين الأسماء الواردة فى المناطق الجنوبية من الخارطة اسم القسطنطينية ودمشق ومصر [١١٩] . والخارطة مخططة على هيئة شبكة مربعة أشبه ما تكون برسم هندسى (diagram) منها بخارطة [١٢٠] ويحس فى كل نقطة منها اختلافها الكبير عن الخارطات الصينية القديمة . أما الأسماء الجغرافية فيها فتبدو فى صورة جديدة بحيث يصبح من العسير التعرف عليها فى الخارطات الصينية المألوفة ، كما أن توجيه الخارطة من الجنوب إلى الشمال يشبه المذهب الغالب على الخارطات العربية ويتعارض مع الأسس التى رسمت عليها الخارطات الصينية فى العهد المغولى وإن كانت الكارتوغرافيا الصينية تلجأ فى العادة إلى استعمال كلتا الطريقتين [١٢١] . ومن ثم فإنه لا يمكن تفسير نشأتها إلا على ضوء التأثير المباشر للكارتوغرافيا العربية على الكارتوغرافيا الصينية ، بل إن هناك أساسًا للاعتقاد بأن واضعها كان من ممثلى المدرسة

---

(١١٦) شرحه

(١١٧) Hermann, p. 278, note 1, Table. VIII-

(١١٨) شرحه

(١١٩) شرحه ، p. 279

(١٢٠) شرحه ، p. 278

(١٢١) Introduction, p.48, note 2 شرحه — Ferrand, Tuhfat al-albāb, p. 88-89, note-

العربية الإيرانية ؛ ومن الممكن أن الأسماء قد كتبت فى البداية باللغة المغولية ثم نقلت الخارطة عقب ذلك إلى الصينية[١٢٢] . وكل هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الأهمية العالمية للجغرافيا العربية لم تكن قد تلاشت فى القرن الرابع عشر .

---

(١٢٢) -Hermann, p. 280

الفصل الخامس عشر
موسوعات عصر المماليك ـ أسفار ابن بطوطة

399 وكد القرن الرابع عشر تفوق مصر الفكرى بوجه عام لا فى ميدان الأدب الجغرافى وحده ، فنحن نلتقى فى العصر المملوكى بأدب حافل قل أن نجد له مثيلا فى أى بلد من بلدان الشرق الأخرى[١] . وقد تعرفنا حتى الآن على عدد من المصنفات الجغرافية المتعلقة بمصر كما أننا سنتحدث عن أخرى غيرها ؛ بيد أنها ليست هى التى تكسب الأدب الجغرافى لهذا العصر طابعه المميز فإن شرف ذلك يرجع إلى نمط الموسوعات التى ازدهرت فى تلك الآونة والتى أفرد فيها للجغرافيا على الدوام مكانة مرموقة ، وهى التى تترك طابعها المميز بوضوح على القرنين الرابع عشر والخامس عشر وتعتبر خير ما أنتجه ذلك العصر .

أما من وجهة نظر التاريخ الأدبى فإن الموسوعات تنتمى إلى طراز مصرى صرف من المؤلفات الوصفية التى وضعها عمال وعلماء حكومة عصر المماليك ؛ ويجب أن يضم إليها عدد من الأوصاف المستقلة فى جغرافيا مصر والشام وإدارتهما[٢] مما حدث وأن عالجنا الكلام عليه من قبل وسنعرض له حين الحديث على القرن الخامس عشر . وكنمط أدبى فإن هذه الموسوعات وليدة تاريخ طويل معقد فهى ترتبط بعض الشيء بتلك المجموعات التى وضعت فى الإدارة والجغرافيا المعروفة لنا من القرنين التاسع والعاشر ، ولكنها تختلف عنها فى أنه قد قصد بها دائرة أوسع من القراء . وعلى الرغم من أنها عملت أساسًا من أجل كتبة الدواوين الذين كانوا زينة الجهاز الكتابى والإدارى لمصر آنذاك إلا أن جميع المثقفين قد اهتموا بمطالعتها ، مما جعل مؤلفيها يولون اهتمامًا كبيرًا للأسلوب الأدبى . وهى بلا شك أوسع مجالا من المؤلفات السابقة لها ، كما أنها تعالج مسائل أعم وأكثر شمولا فى جميع فروع العلوم التى يريد المؤلف أن يعرّف بها . ولا تقف أهميتها عند حد الجغرافيا وحدها بل إنها بالقدر نفسه تولى اهتمامها أيضًا إلى التاريخ والحضارة[٣] ؛ وهى وإن
400 كانت لا تخلو من بعض الصلة/بمصنفات الجغرافيا المبكرة إلا أنها إلى جانب هذا قد خضعت لتأثير قوى من ناحية المصنفات الكوزموغرافية للقرن الثالث عشر بحيث تستعير أحيانًا طريقة تبويبها . والاختلاف الجوهرى الذى يميزها عن غيرها هو أن هدفها الأول لم يكن الإعلام بل الأدب

---

(١) -Hartmann, ZDMG, 70, p. 12

(٢) -Kramers, EI, EP, p. 70

(٣) -Blachère, p. 299-300

الفنى ، كما أن مؤلفيها لم يروا فى أنفسهم علماء بل كتّابًا ، أعنى كتّابًا من موظفى ديوان الإنشاء كل زادهم هو بعض الخبرة فى الشئون الكتابية . وقد أدت وحدة الوسط الذى نشأت فيه الموسوعات إلى تشابهها فى الترتيب ، وهو ترتيب يعكس أحيانًا بوضوح تام أثر التدريب الصارم فى الشئون الكتابية .

وأكبر موسوعات القرن الرابع عشر هما موسوعتا النويرى والعمرى ، غير أنه وجد مؤلف سابق عليهما فى هذا الميدان من الناحية الزمنية ويمكن بوساطته تقصى أصل نمط الموسوعات هو محمد بن إبراهيم الوطواط الكتبى الوراق (توفى عام ٧١٨ هـ = ١٣١٨)(٤) . ولقبه الوراق يشير بوضوح تام إلى أنه لم يكن من رجال الأعمال أو عمال الحكومة بل كان من المشتغلين بالكتب وربما كان من تجارها أو نسّاخها ، وعلى أية حال فقد كان وثيق الصلة بالأدب .

ولا تتوفر لدينا معطيات عن سيرة حياته إنما يؤخذ من ألفاظه أنه مغربى المولد مصرى الوطن والدار(٥) . وكان شاعرًا أديبًا اشتهر بمؤلف فى المختارات الأدبية نال رواجًا كبيرًا كما هو الشأن مع المؤلفات من هذا **الضرب**، كما اشتهر أيضًا بكتاب آخر فى شعراء الأندلس غير معروف لنا عن كثب(٦) . ويمثل أهمية أساسية بالنسبة لنا مصنف له لم يطبع حتى الآن ويقف فى الحد الفاصل بين الكوزموغرافيا والموسوعة والمختارات الأدبية ، جامعًا بين هذه العناصر الثلاثة وأشبه ما يكون بحلقة موصلة إلى مصنف النويرى . وكما هو الحال دائمًا مع أمثال هذه المؤلفات فهو يحمل عنوانًا متكلفًا يختلف أحيانًا فى المصادر والمخطوطات هو « مباهج الفكر ومناهج العبر » ؛ ويهدف المؤلف بكتابه إلى الموعظة والعبرة وهو كبقية الكوزموغرافيات غرضه تفسير « معالم » الطبيعة المختلفة ، لهذا فإنه يمثل موسوعة فى العلوم الطبيعية والجغرافيا ولكنه معروض فى أسلوب المصنفات الأدبية وموضح بالشواهد من شعر ونثر . وينقسم الكتاب إلى أربعة فنون الأول فى الفلك والأجرام السماوية والثانى فى الجغرافيا والاثنوغرافيا مع استثناء الشعوب المنحدرة من أولاد يافث وأولاد حام « لأن رائد العقل بهمت عليه أسماؤها فما عرّج عليها ولا حام »(٧) والثالث فى الحيوان والرابع فى النبات . وكل فن ينقسم بدوره إلى تسعة أبواب(٨) ينعكس فى تتابعها تأثير نظام العرض المعهود فى

---

(٤) Brockelmann, GAL, II, p. 54-55, No 2; SB II, p. 53-54 —Sarton, Introduction, p. 870-

(٥) مناش ، المشرق ، المجلد العاشر ، ص ٧٢٣ ، ٧٢٤

(٦) شرحه ص ٧٢٤

(٧) شرحه ، ص ٧٢٧

(٨) شرحه ، ص ٧٧٥ – ٧٧٦

كتب الكوزموغرافيا ./والفن الثانى المكّرس للجغرافيا يبحث فى بابه الأول فى خلق الأرض 401
وهيئتها ، ولعل مما لا يخلو من الطرافة اعترافه بكروية الأرض وحركتها(٩) ؛ والباب الثانى منه فى الجبال والمعادن والثالث فى البحار والجزائر والرابع فى العيون والآبار والخامس فى ذكر أسباب من سكن المعمور . أما السادس فيبحث فى ذكر البلاد ونواحيها وما ملك المسلمون منها والسابع فى طبائع البلاد وأخلاق من سكنها من العباد والثامن فى المبانى التى بقى أثرها ووعظ خبرها والتاسع فيما وصفت به المعاقل والمنازل .

إن هذا المضمون يذكرنا إلى حد كبير بما هو معروف لنا فى المصنفات الكوزموغرافية خاصة كتاب القزوينى ، غير أن أسلوبه يختلف عنها اختلافًا كبيرًا لأن الوطواط يقرر منذ البداية فى كل قسم من كتابه بالتقريب أنه لم يقصد إلى الإعلام أو إلى استنباط نتائج عملية من النظريات التى يعرضها ولكن يترك هذا للمتخصصين . فهو مثلا فى الفن الأول الذى أفرده للكلام على الفلك لا يمس الجانب التطبيقى منه وهو التنجيم(١٠) ؛ وكذلك الشأن مع الفن الثالث الذى يمس الحيوان نراه لا يتعرض فى شيء إلى نفعها أو ضررها أو تشريح أعضائها « إذ ذلك موضوع لهم فى كتب مدونة » . وهذا القول نفسه يصدق على الفن الرابع الذى يتعرض فيه للكلام على النبات فهو لا يتحدث فيه عن منافع النبات ومضاره أو ذكر ماهيته وقواه وطبائعه بل يكتفى بذكر طرف من تجارب الفلاحين والطرق التى مارسوها فى علاجه والعناية به(١١) . ولا ينفى مؤلفنا أن الهدف من كتابه هو تقديم جماع ما عرفه فى زمانه علماء العرب واليونان والسريان فيما يخص الأرض والسماء ، وفيما عدا ذلك فإنه يغلب عنده بصورة واضحة الميل الأدبى على الميل العلمى(١٢) فيحفل بنماذج من النثر والشعر من كل لون معروضة عرضًا جيدًا يكشف عن خبرة كبيرة بالمسائل الأدبية ، وبهذا فإن كتابه لم يقف عند حد تلك العلوم التى أفرد لها « فنونًا » مختلفة فحسب بل يعالج « الأدب » فى معظمه(١٣) . وينعكس هذا بصورة أوضح فى طريقة عرضه للمادة فى كل باب ، فهو يصدّر مواضع بحثه بالقول النقلى من آيات قرآنية وأحاديث نبوية ومذاهب فى التفسير ثم يعقب على ذلك بآراء العلماء من اليونان والعرب . ويلى هذا فى العادة توضيح لغوى تصحبه أمثلة

---

(٩) شرحه ، ص ٧٨٦ – الغزى مجلة المعهد العلمى العربى بدمشق ، المجلد التاسع ، ص ٦٨٥ – ٦٨٦ –
(١٠) مناش ، المشرق ، المجلد العاشر ، ص ٧٢٦
(١١) شرحه ، ص ، ٧٢٧
(١٢) شرحه ، ص ، ٧٨٦
(١٣) شرحه ، ص ، ٧٢٧

من مجال الأدب بمفهومه الواسع كالنوادر والأمثال والشعر[١٤] ؛ وهو يستشهد بعدد كبير من الشعراء من مختلف العصور[١٥] كما يذكر أسماء عدد وافر من الكتب[١٦] .

والكتاب فى جوهره مؤلف نقلى بالطبع ، غير أن هذه الظاهرة يجب ألا تدهشنا فى محيط
الأدب العربى ابتداء من القرن الثانى عشر ؛ / وعلى أية حال فإن واحداً من الباحثين القلائل الذين 402
فحصوا هذا المصنف فحصًا دقيقًا يثبت أنه أكثر جدية وأحفل مادة من كوزموغرافيا القزوينى[١٧] وأنه لا يعكس ذلك الميل الواضح إلى العجائب كما هو الحال مع الكتاب الآخر . ومما يزيد فى صعوبة التعرف على هذا المصنف أنه لم يطبع إلى الآن ، وليس هذا فحسب بل أيضًا لأن مجموعات المخطوطات المختلفة لا تحتوى منه إلا على أجزاء متفرقة[١٨] ؛ والنسخة التامة الوحيدة المعروفة حتى الآن هى تلك التى بالمكتبة المارونية بحلب والتى لفت إليها الأنظار منذ القرن الثامن عشر أحد كبار ممثلى النهضة الأدبية فى الشام جرمان فرحات (١٦٧٠ – ١٧٣٢)[١٩] الذى وضع لها عناوين شاملة فى عام ١٧٢٧[٢٠] ؛ ثم قام بوصف هذه النسخة بالكثير من الدقة والتفصيل عالمان مختلفان من حلب[٢١] أحدهما هو الذى يجب الاعتماد عليه اعتمادًا تامًا فى التعرف على الكتاب .

ونظرًا لأنه مصنف نقلى متأخر لم يقتصر على الجغرافيا وحدها فإن « مباهج الفكر » لا يمثل خطوة هامة فى تطور الأدب الجغرافى ؛ غير أنه لا يخلو من أهمية بالنسبة لنا لا فى وصفه لذلك العصر وذلك الوسط فحسب بل لأنه يسوقنا إلى التاريخ المبكر للموسوعات فيمكننا من تبين الصلة التى تربطها بالكوزموغرافيا وبالمصنفات الأدبية الأخرى . فهذا المصنف قد لعب بلا شك

---

(١٤) شرحه ، ص ، ٧٢٨

(١٥) شرحه ، ص ، ٧٢٨ – ٧٢٩

(١٦) شرحه ، ص ، ٧٢٩

(١٧) شرحه ، ص ٧٨٠ – ٧٨٣

(١٨) الجزء الثانى – الجغرافيا فى برلين . راجع (Ahlwardt, V, p. 371, No 6045)
والرابع – النبات (راجع ، شرحه : (p. 486 No 6207)

(١٩) -Kratschkovsky, EI, EB, p. 79-80 —Brockelmann, GAL, SB II, p. 389, No 53ª

(٢٠) مناش ، المشرق ، المجلد العاشر ، ص ٧٧٤ ، ٧٧٦

(٢١) شرحه ، ص ٧٢١ – ٧٢٩ ، ٧٧٤ – ٧٨٦
الغزى ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، المجلد التاسع ، ص ٦٨١ – ٦٨٧ ، والمجلد العاشر ص ٢٥٠ – ٢٥١

دورًا كبيرًا فى تطوير هذا النمط ويرتبط ارتباطًا مباشرًا بموسوعة النويرى ؛ وبرهان ذلك ليس فقط فى أن هذا الأخير ينقل عنه مرارًا بل لأنه من المحتمل أن يكون النويرى قد استعار عنه طريقة التبويب إلى « فنون » محتفظًا أحيانًا بمحتويات الكتاب نفسها ؛ ففى القسم الخاص بالنبات مثلا يعيد النويرى تصنيف النبات كما دونه الوطواط(٢٢) ؛ ومن هذا نجد أن التفاصيل من ناحية والتبويب من ناحية أخرى يشيران إلى ارتباط وثيق بين الكتابين . *

ويعتبر شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكرى النويرى (٦٧٧ هـ - ٧٣٢ هـ = ١٢٧٩ - ١٣٣٢(٢٣)) خير ممثل للوسط الذى عملت فيه ومن أجله الموسوعات ؛ وهو مصرى الأصل أخذ اسمه من اسم محلة غير كبيرة فى مصر العليا ، وقد اكتسب أبوه الشهرة ككاتب فى مختلف دواوين الحكومة وكان الابن من المقربين إلى السلطان الناصر الذى شمل أبا الفدا برعايته. وشغل النويرى لبعض الوقت منصب رئيس الكتبة لإدارة الجيش بطرابلس الشام ثم فيما
بعد منصب رئيس الكتبة/فى عدد من المقاطعات المصرية . ويرتبط على السواء بالأعمال الإدارية 403
وبالإنشاء الأدبى مصنفه الأساسى الكبير الذى رفعه إلى الملك الناصر . وعنوانه « نهاية الأرب فى فنون الأدب » يشير على وجه التحديد إلى المضمون الأدبى للمصنف والدور الحاسم الذى يلعبه فى هذا المقام لفظ « فن » . ويبين لنا المؤلف نفسه الطريق الذى سلكه فى تنفيذ فكرته فهو يذكر أنه فى بداية نشاطه الأدبى قد أولى كل جهده إلى « الكتابة » ، ثم تحول إلى « الأدب » بمفهومه العام عقب ذلك . وقد جعل هدف موسوعته تلخيص جميع العلوم الاجتماعية مما يحتاج إليه كبار الكتّاب ؛ وهذا الوضوح فى الهدف يتفق تمامًا مع ما هو ملحوظ فى كتابه من الانتظام الشديد فى العرض ولو أنه يقوم على أسس شكلية .

وإلى جانب الفنون الأربعة التى لدى الوطواط يضيف النويرى « فنًا » خامسًا ويعدل كثيرًا فى مادة « الفن » الثانى . وينقسم كل فن عنده إلى خمسة « أقسام » يحتوى كل واحد منها على عدد من الفصول يختلف مقدارها باختلاف الأقسام . فالفن الأول مفرد للسماء والأرض (ويشمل الجزء الأول من الطبعة المصرية) ، أما الفن الثانى فعن الإنسان (الأجزاء من الثانى إلى التاسع)

---

(٢٢) -Wiedemann, Beiträge, LI, p. 153

* نشر الجغرافى المصرى الدكتور عبد العال الشامى الباب السادس من الفن الثانى المتعلق بمصر من « مباهج الفكر » ، الكويت ١٩٨١ . (المترجم)

(٢٣) -Krachkovski, Al-Nuwairi, p. 1045-1047 —Brockelmann, GAL, II, p. 139-141, No 1; SB II, p. 173-174 —Mieli, p. 262, 264

والثالث للحيوان (الجزآن التاسع والعاشر) والرابع للنبات (الجزآن الحادى عشر والثانى عشر) والخامس للتاريخ . ولا تتفق الفنون فى أحجامها فالقسم التاريخى الذى يصل به المؤلف إلى العام السابق لوفاته (٧٣١ هـ = ١٣٣١) يشغل بالتقريب نصف الكتاب ، أى أنه يمثل فى الطبعة ما يقرب من تسعة آلاف صفحة من القطع الكبير ؛ وإلى جانب التقسيم إلى فنون ينقسم الكتاب إلى أجزاء يصل عددها إلى واحد وثلاثين جزءًا . وكان المؤلف خطاطًا كتب بخط يده أربع أو خمس نسخ تامة من مصنفه هذا قدرت قيمة كل واحدة منها بألفى درهم ؛ وكان بمقدوره أن يخط ثمانين صفحة فى اليوم .

والجانب الجغرافى من الموسوعة يشغل القسمين الرابع والخامس من الفن الأول، وفيه نلتقى بكل المعلومات المعروفة لنا عن خلق العالم والظواهر الجوية (meteorological) والعناصر وقياس الوقت والفصول ، وكذلك عن الأرض وأبعادها والأقاليم السبعة والجبال والبحار والجزر والأنهار والبحيرات والبلدان المختلفة والمدن وسكانها وآثار المنازل والمحال[٢٤] ؛ وهكذا نجد هنا أيضًا توافقًا ملحوظًا فى المضمون مع الوطواط . ومعطياته فى الجغرافيا الأقليمية (regional) بوجه عام طفيفة للغاية عند مقارنتها بالمعلومات ذات الطابع العام ؛ وكما هو الحال مع الأقسام الأخرى من الكتاب فإن النويرى لا يدعى لنفسه أصالة خاصة بل يذكر بالتحديد أنه إنما يقتفى أثر السابقين له ويلقى بجميع المسئولية على عاتقهم . وتبدو أصالته الأساسية فى معالجته الأدبية لمادته وينعكس هذا بوضوح تام فى القسم الذى يفرده للنبات مثلا فهو يعالج الكلام على النبات من وجهة نظر الأدب
ويورد عنه/ما هو ضرورى فقط للتثقيف الأدبى ، فالنبات نافع للإنسان كغذاء أو عطر أو أدوية 404
طبية ولكن توضيح ذلك لديه يجريه فى الغالب عن طريق إيراد الأشعار ولهذا فإن القزوينى مثلا يفوقه فى وصفه لعدد أكبر من النباتات[٢٥] رغمًا من أن القسم النباتى لدى النويرى أكبر منه حجمًا .

وقد أخذ النويرى وقتًا طويلا فى تأليف كتابه يصل إلى عشرين عامًا ، وهو أمر ليس بالغريب إذا أخذنا فى الاعتبار حجم الكتاب الهائل . وهذا يفسر لنا تفسيرًا كافيًا السبب الذى جعل الأقسام المبكرة من الكتاب تضم زيادات ترجع إلى تاريخ متأخر وأن المؤلف ظل يضيف إلى القسم التاريخى على هيئة حوليات من عام لآخر إلى قرب وفاته . وكتاب النويرى مصدر من الدرجة الأولى

---

(٢٤) -Reinaud, Introduction, p. CLI—CLII

(٢٥) Wiedemann, Beiträge, LI, p. 154

بالنسبة للتاريخ والجغرافيا التاريخية المعاصرة له أو القريبة العهد منه ، أما بالنسبة للفنون الأخرى فإن أهميته تختلف باختلاف نوع المادة التى يعالج الكلام عليها فى كل فن .

وبفضل العدد الكبير من أجزائه المختلفة الذى وجد طريقه إلى مجموعات المخطوطات بأوروبا فقد بدأ الاهتمام بموسوعة النويرى منذ القرن الثامن عشر واجتذب الأنظار بصورة خاصة الجزء التاريخى منها . وقد بالغ العلماء أحيانًا فى تقدير الأقسام المفردة لتاريخ الأزمنة السالفة ولكن لم يلبث أن تبين فى القرن العشرين أن النويرى مصدر ذو أهمية ثانوية فى هذا المجال بعد أن أصبحت فى متناول الأيدى معظم المصادر التى اعتمد عليها فى كتابة تلك الأقسام . وعلى النقيض من هذا فإن كتابه سيظل على الدوام مصدرًا ذا أهمية كبرى بالنسبة للفترة التاريخية القريبة من عهد المؤلف سواء كان ذلك عن شمال افريقيا والأندلس وصقلية[٢٦] أم عن أقطار مثل دولة الأوردو الذهبى ؛ وقد بين أهمية النويرى بالنسبة لتاريخ تلك الدولة **بحوث** تيزنهاوزن Tiesenhausen ثم وكدت ذلك **البحوث** الأخيرة التى ظهرت فى الاتحاد السوفيتى . أما الأجزاء الأخرى من موسوعة النويرى فإنها لم تجتذب كثيرًا أنظار الباحثين على الرغم من أن القسم الذى يحتوى على سير مشاهير الرجال يمكن أن يقدم مادة لبعض الدراسات ؛ وتحليل كل من فيدمان[٢٧] وفيران[٢٨] للفصول التى تبحث فى العطور والأدوية والنباتات بوجه عام يبيّن أن الكتاب لا يخلو من مادة قيمة تهم الجغرافى كما تهم عالم النبات ومؤرخ الحضارة .

ومما كان يعوق التقييم العام لموسوعة النويرى هو عدم وجود طبعة كاملة للكتاب ؛ ولقد كان من أفضل خدمات العلامة المصرى أحمد زكى باشا (توفى فى الخامس من يوليو عام ١٩٣٤) هو ما بذله من جهد فى سبيل جمع نسخة كاملة من هذا الكتاب فى واحد وثلاثين جزءًا بعض منها فى الأصل والآخر مصور من مخطوطات استنبول والمكتبات الأوروبية[٢٩] . هذا وقد وصلت الطبعة التى بدأتها دار الكتب المصرية فى عام ١٩٢٣ إلى الجزء الثانى عشر * الذى ينتهى به الفن الرابع ؛ أما الأجزاء الباقية فتحتوى على القسم التاريخى . وبهذا أصبح من/الممكن تقدير هذا الأثر الجليل 405

---

(٢٦) -Amari (-Nallino), I, p. 82-83, No 57

(٢٧) -Wiedemann, Beiträge, XLIX, p. 16-52; —Beiträge, LI, p. 151-176

(٢٨) -Ferrand, Relations, I, p. 50-52; II, p. 394-397, 614-625

(٢٩) -Ahmed Zeky, Mémoire, p. 8-10

* كان ذلك فى اللحظة التى دون فيها المؤلف هذه السطور ، أما الآن أى فى عام ١٩٦٣ فإن الطبعة قد وصلت إلى الجزء الثامن عشر (١٩٥٥) . (المترجم) [تم الآن ظهور الطبعة الكاملة (المترجم)]

لعهد المماليك تقديرًا أساسيًا يتفق مع أهمية الكتاب الكبرى بالنسبة للأدب الجغرافى ولجميع تاريخ حضارة ذلك العهد .

ويظفر بأهمية أكثر منه بالنسبة لنا مصنف معاصره العمرى (٧٠٠ هـ - ٧٤٩ هـ = ١٣٠١ - ١٣٤٩) وإن لم تبلغ سمعته فى الدوائر العلمية سمعة النويرى [٣٠] . واسمه الكامل وهو شهاب الدين أحمد بن يحيى ابن فضل الله العمرى الدمشقى يدلنا على أنه خلافًا للنويرى لا ينتمى من ناحية الميلاد إلى مصر ؛ ويرتفع نسب أسرته إلى عمر بن الخطاب وهو أمر تشكك فى صحته أحيانًا بعض من لا يحبون الخير للناس ؛ أما أجداده الأقربون فقد استقروا منذ بعض الوقت فى البرلس بمصر السفلى [٣١] ولكنهم كانوا يحسون على الدوام بأنهم أكثر ارتباطًا بدمشق [٣٢] منهم بمصر فاحتفظوا باسم الدمشقى كنسبة أساسية ؛ وبدمشق ولد العمرى ولكنه شب وتعلم بمصر . وقد ربطته تقاليد أسرته كما هو الحال مع النويرى بعمل الدواوين ؛ وكما يذكر المقريزى فإن أسرته قد تولت رئاسة ديوان الإنشاء بمصر مدة قرن من الزمان تقريبًا [٣٣] . وإلى جانب ممارسته للكتابة يوميًا فقد تتلمذ العمرى على أساتذة مبرزين فى مختلف فروع العلوم ومعروفين بسعة الأفق نذكر من بينهم برهان الدين بن الفركاح الذى يتصل نشاطه العلمى بالجغرافيا أيضًا والذى سيرد ذكره حين الكلام على جغرافيا فلسطين فى ذلك العهد ؛ كما تتلمذ على أحد علماء البلاغة وهو شهاب الدين الحلبى [٣٤] . وعلى أية حال فإن العمرى لم يتخذ العلم مهنة له وقد شغل حينًا من الوقت وظيفة قاض بمصر وخلف أباه فى رئاسة ديوان الإنشاء فى عهد السلطان الناصر ؛ وفى عام ٧٣٨ هـ = ١٣٣٨ كان عضوًا فى بعثة الحج المصرية [٣٥] . ولم تلبث حدة طباعه أن ساقته إلى النزاع مع ولى نعمته فأمضى الأعوام الأخيرة من حياته بدمشق أشبه بالمغضوب عليه [٣٦] وبها توفى فى سن مبكرة لا بسبب الوباء الذى وقع بالشام آنذاك بل من حمى الربع [٣٧] .

---

(٣٠) -Brockelmann, GAL, II, p. 141, No 3; SB II, p. 175-176 —Al-'Omari, p. 38
— زيدان ، الجزء الثالث ، ص ٢٢٦ - ٢٣٨ — Ahmed Zeki, Mémoire p. 10-12
—Blachère, p. 301-302 — حسن حسنى عبد الوهاب ، وصف

(٣١) -Hartmann, ZDMG, 70, p. 1

(٣٢) شرحه ، p.2

(٣٣) شرحه ، p. 3-4

(٣٤) شرحه ، p. 4-5

(٣٥) -Taeschner, Al-'Umari's Bericht, I, p. 100-101

(٣٦) راجع عن سيرة العمرى Hartmann, ZDMG, 70, p. 2-3

(٣٧) شرحه ، p. 3

ولما كان العمرى يتمتع بثقافة عريضة وذوق أدبى مرهف فقد وقاه هذا من ضيق الأفق الذى يسوق إليه الوسط الدواوينى الذى أمضى فيه كل حياته . وهو لم يكن ناثرًا فحسب بل شاعرًا أيضًا ؛ وتنسب إليه المصادر المختلفة ما يقرب من أحد عشر مصنفًا[٣٨] . وإلى جانب موسوعته الكبرى العديدة الأجزاء يمثل أهمية خاصة بالنسبة للأدب الجغرافى/سفر جامع متوسط الحجم 406
قصد به العمرى عرض كل ما يحتاج إليه فى عمل الدواوين وذلك بالمعنى الضيق لهذا اللفظ . وعلى الرغم من أنه قد قصد به أن يكون أنموذجًا فى فن الكتابة فقد أصبح بفضل المنهج الذى اتبعه المؤلف مصدرًا هامًا بالنسبة للتاريخ والجغرافيا التاريخية . ويرجع تأليفه إلى الفترة التالية لعام ٧٤١ هـ = ١٣٤٠ يوم كان المؤلف يتمتع بخبرة واسعة فى فن الإنشاء ؛ وعنوانه « التعريف بالمصطلح الشريف » يحدد بدقة الغرض الرئيسى من الكتاب . وينقسم الكتاب إلى سبعة أقسام الأول منها فى رتب المكاتبات والثانى فى عادات العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم والمناشير والثالث فى نسخ الايمان والرابع فى الأمانات والدفن والهدن والمواصفات والمفاسخات والخامس فى نطاق كل مملكة وما هو مضاف إليها من المدن والقلاع والرساتيق والسادس فى مراكز البريد والحمام ومراكز هجن الثلج والمراكب المسافرة به فى البحر والمناور والمحرقات والسابع فى أوصاف ماتدعو الحاجة إلى وصفه[٣٩] . والعلماء الذين توفروا بصورة خاصة على دراسة هذا الأثر مثل هارتمان Hartmann وغودفروا ديمومبين G. Demombynes يقدرونه تقديرًا كبيرًا سواء فى تفاصيله أو فى مجموعه . وتحليل المقالتين الخامسة والسادسة المفردتين لمصر والشام ولوسائل المواصلات فى دولة المماليك يبين بجلاء الأهمية الكبرى لهذا الأثر من الناحية العملية ودقة المعلومات التى يشتمل عليها ، وهو أمر يجب ألا ندهش له إذ أن معظم هذه المعلومات لا تستند على الوثائق الرسمية فحسب بل على معرفة المؤلف المباشرة بمعظم الوقائع . ومما يسترعى النظر أن المؤلف استطاع فى مثل هذا المصنف الجاف بطبيعته أن يرتفع إلى مستوى راق فى العرض الأدبى من غير أن يفقد فى الوقت ذاته النظرة الشاملة إلى موضوعه . وقد كان لمعرفته الجيدة بأسرار البلاغة وتملكه بجدارة لناصية اللغة العربية أن تجنب بمهارة فائقة الإطالة والإسهاب وحصر اهتمامه فى الجوهرى ، الأمر الذى يميزه عن الكثيرين ممن كتبوا فى العصور التالية لذلك رغمًا من أن أسلوبه لم يكن يتصف على

---

(٣٨) شرحه ، p. 6

(٣٩) شرحه ، p. 7

الدوام بالسهولة . والترتيب المنطقى لمادة كتابه يجعل من هذا المصنف مصدرًا حافلا لدراسة شتى الموضوعات [٤٠] خاصة الجغرافية والتاريخية؛ وبعد أن نفحص مصنف خليل الظاهرى الذى ألف كتابه بعد قرن من هذا سيستبين لنا بجلاء البون الشاسع الذى يفصل بين العمرى وبين أولئك الذين اقتفوا أثره فعالجوا الموضوعات نفسها التى كتب فيها . ويبدو أن كتابه كان مرغوبًا فيه للغاية ففى نهاية القرن الثامن الهجرى (الخامس عشر الميلادى) قام بتنقيحه والزيادة عليه اثنان من أفراد أسرة المحبى الشامية المعروفة باشتغالها بالعلم وذلك بعنوان « تكثيف التعريف
407 بالمصطلح الشريف »[٤١] ./وبفضل المخطوطة التى لدينا بمعهد الدراسات الشرقية فقد أصبحت هذه الرواية المعدّلة للكتاب معروفة لدى المستشرقين الروس ولفت تيزنهاوزن الأنظار إلى أهميتهما بالنسبة لتاريخ الأوردو الذهبى[٤٢] .

أما موسوعة العمرى فإنها تعادل من حيث الضخامة موسوعة النويرى ويبلغ عدد أجزائها السبعة والعشرين جزءًا موزعة بين دور المخطوطات المختلفة ؛ ولكن الموسوعة فيما يبدو كانت تتألف من اثنين وثلاثين جزءًا كما أثبت ذلك أحمد زكى باشا الذى استطاع بمجهوده الشخصى أن يجمع نسخة كاملة منها بالقاهرة . وفى الواقع أن هذه النسخة التى جمعها أحمد زكى باشا والتى تعتمد أساسًا على مخطوطات استنبول تحتوى على ستة عشر جزءًا مزدوجًا وتقع فى تسعة آلاف وثمانمائة وإحدى وثمانين صفحة خطية ؛ وعلى الرغم من ضخامة هذا الحجم فإن مضمون الموسوعة أضيق بكثير من مضمون موسوعة النويرى إذ أن مادتها تقتصر على الجغرافيا والتاريخ وحدهما ؛ وينعكس هذا فى العنوان نفسه الذى يذكرنا بمذهب قديم فى الجغرافيا العربية وهو « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ؛ وقد يحمل الكتاب أحيانًا عنوانًا مختصرًا بعض الشىء ولكنه يفتقر إلى الدقة وهو « أخبار الملوك » . وينقسم المصنف إلى قسمين أحدهما مكرس للأرض والآخر لسكانها من مختلف الشعوب ، وينقسم القسم الأول بدوره إلى قسمين يطلق العمرى عليهما مصطلحًا لا يجرى عادة فى الاستعمال وهو « النوع » ، ولعله أراد من ذلك أن يجعله مقابلا لاستعمال النويرى للفظ « الفن » . ويحمل « النوع الأول » عنوانًا موجزًا هو « فى ذكر المسالك » ويجب أن يؤخذ هذا العنوان بمفهومه العريض ليشمل فى الواقع الجغرافيا العامة ؛ أما الباب الأول منه فيبحث فى أبعاد الأرض و « حالها » والثانى فى الأقاليم السبعة وهنا يرد استطراد

(٤٠) شرحه ، p. 6

(٤١) راجع إلى جانب المصادر الأخرى أيضا – Gaudefroy —Demombynes, La Syrie, p. XII-XIII

(٤٢) -Tizengauzen, Sbornik materialov. I, p. 331-350

طريف بعنوان « ممالك عُبَّاد الصليب » الذى سنعود إلى الكلام عليه . أما الباب الثالث ففى البحار وكل ما يتعلق بها وهنا يرد ذكر « القنباص » (معرب كومباس compass وهو البوصلة) ؛ ويبحث الباب الرابع فى القبلة والأدلة عليها ، أما الخامس ففى الطرق . هذا فيما يتعلق بالنوع الأول فإذا ما انتقلنا إلى النوع الثانى فهو يحمل أيضًا اسما مقتضبًا هو « فى ذكر الممالك » وينقسم إلى خمسة عشر بابًا تصف على التوالى الدول والبلاد الآتى ذكرها ابتداء من الشرق فى اتجاه الغرب : الهند والسند ، ممالك بيت جنكيز خان ، الجيل (كيلان) ، الجبال ، الأتراك بالروم (آسيا الصغرى) ، مصر ومعها الشام والحجاز ، اليمن ، المسلمون بالحبشة ، السودان ، مملكة ملىّ ، جبال البربر ، افريقيا ، مملكة بر العدوة (مراكش) ، الأندلس ، العرب البدو المعاصرين وأماكن سكناهم . والقسم الثانى من الكتاب الذى يبحث فى سكان الأرض من طوائف الأمم ينقسم إلى خمسة أنواع ؛ أما النوع الأول منها الذى يبدو وكأنه يمثل مرحلة انتقالية فإنه يحوى مفاخرة بين المشرق والمغرب تمس الطبيعة والحيوان بل وطوائف العلماء مما يذكرنا بعض الشيء بالنمط القديم فى « الفضائل » ، أى مزايا البلدان والأشياء المختلفة وإن صاغه بالطبع فى صورة مختصرة وفى قالب أدبى . ويبحث النوع الثانى فى الديانات المختلفة بينما يبحث الثالث فى طوائف المتدينين ، أما الرابع/فمكرس للتاريخ ويتضمن بابين أحدهما فى ذكر الدول 408
التى وجدت قبل الإسلام والثانى فى ذكر الدول الكائنة فى الإسلام .

هذا هو مضمون كتاب « مسالك الأبصار » كما يعرضه المؤلف نفسه بإسهاب فى مقدمة الكتاب (الجزء الأول ، الصفحات من ٦ إلى ١٣) . والحكم على حجم كل قسم من أقسام الكتاب المختلفة وكذلك البحث فى مطابقة هذا التبويب لمضمون الكتاب الواقعى أمر عسير إذ أنه لما ير النور منه سوى الجزء الأول (عام ١٩٢٤) ؛ غير أنه بفضل ما تم نشره من أقسامه المختلفة سواء من المتن نفسه أو فى ترجمات (افريقيا الشمالية وأوروبا الغربية والأناضول ودولة الأوردو الذهبى والصين) فقد صار من المستطاع تكوين فكرة عن الهدف الأساسى للمؤلف وهو أن يضع موسوعة تاريخية جغرافية جامعة لا تقوم على أساس علمى صرف بل على أساس أدبى عريض .

والمؤلف رجل نقالة جامع لصنوف العلوم وموسوعى (encyolopaedist) ولكنه يتميز بالقليل من الأصالة ؛ وهو يعوض هذا النقص باطلاعه الواسع . وقد هيأ له عمله الحكومى الاطلاع على الوثائق كما أن مصادر أخباره ومعلوماته متعددة للغاية مما مكنه من إخراج لوحة مفصلة فى وصف العالم المعاصر له . وهو قد قصد من مؤلفه هذا قبل كل شيء إلى وضع مرجع جامع من أجل كتبة الدواوين كما هو الشأن أيضًا مع كتابه « التعريف » ، إلا أن هذا الأخير لا يرتفع من

الناحية الأدبية إلى درجة « المسالك » ؛ كما أن الاختلاف بين المصنفين لا يقوم فى جوهره على أساس أن « التعريف » إنما يحوى أرقامًا أكثر فحسب أو أن « المسالك » يتضمن مادة جغرافية أكثر كما دلل على ذلك هارتمان[٤٣] ، بل أيضًا فى أن منهج العرض فى الكتابين مختلف للغاية . « فمسالك الأبصار » يمكن أن يسد مسد كتاب عام للمطالعة لا من أجل الكتّاب وحدهم بل وأيضًا من أجل الأدباء بوجه عام ؛ ووضع كتاب كهذا يستلزم وفرة فى الذوق الأدبى وقدرًا معلومًا من الملكة النقدية ، وهما شيئان ضرب فيهما العمرى بسهم كبير وإن وجب ألا يدهشنا منه تصديقه للمعتقدات السائدة فى عصره والتى لم تكن قد أطرحت بعد . وقد يطبق أحيانًا المنهج العلمى بطريقة بدائية ولكنه على أية حال يفعل ذلك بالكثير من الأصالة ، ففى موضع من كتابه يقول : « ونأخذ فى هذا الباب على التحرير فى أكثر ما عرفنا ، والتحقيق لأكثر مما نعرف بتكرار السؤال واحدًا بعد واحد عما يعلمه من أحوال بلاده وما فيها وما اشتملت عليه فى الغالب نواحيها ، وكنت أسأل الرجل عن بلاده ثم أسأل الآخر والآخر لأقف على الحق . فما اتفقت عليه أقوالهم أو تقاربت أثبته ، وما اختلفت فيه أقوالهم أو اضطربت تركته ، ثم إنى أترك الرجل المسئول مدة أناسيه فيها عما قال ثم أعيد عليه السؤال عن بعض ما كنت سألت ، فإن ثبت قوله الأول أثبت مقاله وإن تزلزل أذهبت فى الريح أقواله ، كل هذا لأتروى فى الرواية وأتوثق فى التصحيح[٤٤] » .

409 وقد أحس العمرى بالمطالب الأدبية لعصره إحساسًا مرهفًا لذا فإن كتابه لا يمثل موسوعة تاريخية جغرافية فحسب بل وأيضًا مجموعة كبيرة من المنتخبات الشعرية تضم بوجه خاص الأشعار المرتبطة بالمواضع المشهورة[٤٥] ؛ وكما هو معروف فإن هذا العنصر قد لعب دورًا ليس بالضئيل فى المعاجم الجغرافية المختلفة خاصة معجم ياقوت . وإذا كانت موسوعة العمرى لا تخلو من الطرافة كمصنف أدبى قائم بذاته فهى أيضًا معين لا تنضب مادته فيما يتعلق بمختلف الأقطار ، ولا يسعنا فى هذا المجال إلا أن نكتفى بإيراد نماذج معينة منه . فأمارى Amari عند فحصه للقسم الخاص بصقلية وإيطاليا قد أثبت أن المادة التاريخية فيه هى بوجه عام تكرار لما جاء فى مصنف أبى الفدا ، هذا بينما تمثل المادة الجغرافية أهمية خاصة لأن المؤلف استقاها من المؤلفين السابقين كما استقاها أيضًا من الوثائق الرسمية وروايات المعاصرين له[٤٦] . وهو بوجه عام على

---

(٤٣) -Hartmann, ZDMG, 70, p. 6

(٤٤) حسن حسنى عبد الوهاب ، وصف ، ص أ — ب

(٤٥) -Amari (-Nallino), I, p. 59 No 25

معرفة جيدة بمجريات الأحداث فى حوض البحر المتوسط ، فمادته التى يقدمها مثلا عن مسلمى جزيرة بانتيللريه Pantelleria قد أيدتها الوثائق الدبلوماسية التى تم الكشف عنها فى القرن التاسع عشر ؛ أما فيما يتعلق بجزيرة صقلية فإن العمرى لم يقف عند مصنف الإدريسى وحده بل رجع أيضًا إلى مصنف مجهول بالنسبة لنا عن عهد النورمان[٤٧] . وأما إيطاليا كما وردت فى « مسالك الأبصار » فإن وصفه لها يعتمد فى الغالب على الإدريسى ، وهو يورد تعدادًا للمدن الرئيسة بإيطاليا موزعة وفقًا للأقاليم والمناطق ويتناول بعضها بالوصف[٤٨] . وإلى جانب هذا فقد تسرب إلى كتابه الوصف الأسطورى القديم لمدينة رومه والذي يتكرر فى صورته التقليدية الأدبية عند عدد كبير من الكتّاب على ممر القرون[٤٩] . وفى هذا الصدد تجدر الإشارة إلى مصدر آخر من مصادر العمرى فريد فى نوعه وهو شخص من أهل جنوا يدعى دومينيك دوريا Dominic Doria كان قد سيق أسيرًا إلى الشرق وعرف هناك باسم بلبان الجنوى وكان من مماليك الأمير المملوكى بهادور المعزى (توفى فى عام ٧٣٩ هـ = ١٣٣٩)[٥٠] ؛ أما فى الوسط العلمى الروسى فقد اجتذب هذا الجنوى اهتمام العلامة سرزنفسكى Srezneveski فذكره فى كتابه الذى أفرده لرحلة افناسى نيكتين Afanasi Nikitin (١٨٥٦)[٥١] . ويبدو أنه كان شخصًا واسع المعرفة لأن العمرى قد أخذ عنه فكرة جيدة عن عدد من البلاد والشعوب الأوروبية ؛ وهو يذكر مثلا أن الدور الرئيس فى ذلك العصر كانت تلعبه فرنسا وأن ملك اسبانيا كان أشبه بنائب لملك فرنسا ؛ وهو يعلم أن الألمان أقوياء فى البر وحده . ولا شك أن هذا الجنوى قد زار بروفنس أيضًا كما أنه يورد معلومات وافرة عن لومبارديا وصقلية والبندقية وبيزا وفلورنسه وقطلونيا ، وعن جنوه بشكل خاص لأنه يفصّل القول عن تجارتها مع المشرق /بصورة تدل على معرفته العميقة بهذا الموضوع . 410
هذا وقد ألقت به الأقدار فى ظروف معينة إلى آسيا الصغرى التى يعتبر وصفه لها من أقيم فصول كتاب العمرى[٥٢] خاصة تلك التفصيلات التى يوردها عن بلاد القرمان وطربيزون[٥٣] ؛ ويبدو

---

(٤٧) شرحه ، p. 60

(٤٨) -Schiaparelli, Al-'Umari, p. 304

(٤٩) شرحه ، p. 305

(٥٠) -Amari, Al-'Umarī, p. 306

(٥١) -Sreznevski, Khojenie A.Nikitina, p. 246 et sui
معتمدًا فى ذلك على مادة كاترمير (Quatremère, Not. et Extr, XIII, p. 347)

(٥٢) -Taeschner, Al-'Umari's Bericht, p. VII, 18 ٧٣

(٥٣) -Amari (-Nallino) I, p. 59

أنه لم يزر القسطنطينية لأن وصف العمرى لها لا يرد بألفاظه[٥٤] . أما روايته عن القاهرة والشام فإنها تحمل على الاعتقاد بأن ذلك الجنوى الذى جاب الآفاق قد عرفهما معرفة مباشرة ؛ وفيما يتعلق بالصليبيين فإن العمرى كان إلى جانب ما زوده به الجنوى من معلومات يتصرف أيضًا فى مادة غنية ومتنوعة .

وفى مقابل هذه الروايات التى يوردها عن الغرب فإن من الطريف أن نقدم مثالا لما يقوله عن الشرق الأقصى . فقد أثبتت الدراسة التى عملها شيفير للأقسام المتعلقة بالصين[٥٥] أنه يجب ألا نعتبر العمرى بالنسبة لهذه الأصقاع نقالة فحسب يكتفى بتسجيل ما وصل إليه عن طريق الصدفة ؛ وهو يقدم لنا فيما يتعلق بشمال الصين وحدها معلومات جمة مروية بألفاظ عدد ممن التقى بهم[٥٦] ؛ وكان هذا الضرب من الرحالة ينتمى إلى مجموعتين من الناس هما التجار ثم الفقهاء الذين ساقهم إلى تلك الجهات فى أغلب الظن حاجة الأقليات المسلمة المهاجرة إلى قضاة وأئمة . وكان من بين هؤلاء الرحالة عدد من أهل العراق وإيران وما وراء النهر ؛ وتوكد جميع قصصهم أن الصين قد فتحت أبوابها فى عهد المغول للتجار ولمن دفع بهم حب الاستطلاع إلى الضرب فى الأرض[٥٧] . وكان التجار العرب يحملون إليها الخيل وطيور الصيد والحلى الثمينة بل حتى الآنية المطلية بالميناء من حلب[٥٨] ؛ وتمس معلوماتهم[٥٩] مختلف أوجه الحياة فى الصين ولكن ليس فى عرض منتظم إلا أنه يتميز على الأقل بالإحاطة والشمول . وقد اهتموا اهتمامًا خاصًا بوصف نظام الإدارة وطرق المواصلات والتجارة بالطبع وبما يتصل بذلك من حرف ومهن ؛ ولم تقف معرفتهم بحياة أهل الصين عند حد الجوانب المتعلقة بالنظام النقدى وحده بل تجاوزته إلى موضوعات شتى كمهارة الصينيين فى عمل الأسنان الصناعية .

هذان المثالان من الغرب والشرق يقفان دليلا على الأهمية الكبرى لموسوعة العمرى كمصدر لدراسة ذلك العصر ؛ وليس ثمة حاجة إلى القول بأنها لا تقل أهمية عن بقية موسوعات عهد المماليك بوصفها مصدرًا من مصادر تاريخ الأوردو الذهبى ؛ إلا أنه تجدر الإشارة فى هذا المقام
411 ولو عرضًا إلى أن ترجمة تيزنهاوزن لمادته عن الأوردو الذهبى/وما يرتبط بذلك من استنتاجات

---

(٥٤) -Amari, Al-'Umarî, p. 308

(٥٥) -Schefer, Notice, p. 16-23

(٥٦) شرحه ، p. 23

(٥٧) شرحه ، p. 16

(٥٨) شرحه ، p. 16, note 2

(٥٩) راجع الترجمة لدى Schefer, Notice p. 16-22

يتطلب الآن إعادة النظر فى نقاط معينة وتحقيق النصوص من جديد استنادًا على المصادر التى تم الكشف عنها منذ ذلك الوقت وعلى الطبعات العلمية التى أصبحت فى متناول الأيدى فى الستين عامًا التى انقضت على ظهور هذا الأثر الذى يمثل فاتحة عهد جديد بالنسبة لدراسة تاريخ تلك الدولة . وإذا كان هذا هو مبلغ أهمية موسوعة العمرى بالنسبة للبلدان التى لم يزرها بنفسه فحرى أن تزداد قيمتها بالنسبة لبلاد دولة المماليك أى مصر والشام اللتين عرفهما المؤلف عن كثب ؛ وفى الواقع أن كلا مصنفيه يعدان من أهم آثار عصرهما فى هذا المجال . والعمرى رغمًا من اتباعه للمذهب التاريخى التقليدى عرف كيف يحتفظ بشخصيته كمؤلف ، وقد لقيت مصنفاته تقديرًا عاليًا من الأجيال التالية التى تدين له بالكثير فى سبيل تطوير هذا الاتجاه .

ويرتبط بالعمرى ارتباطًا مباشرًا مؤلف آخر موسوعة كبرى لعصر المماليك وهو القلقشندى؛ ورغمًا من أن نشاطه يدخل فى نطاق بداية القرن الخامس عشر إلا أن الفرصة مواتية للكلام عنه فى هذه اللحظة . والقلقشندى اسم معروف فى ميدان التأليف التاريخى بمصر الإسلامية بل وفى العالم الإسلامى بأجمعه لذلك العصر ؛ وإلى جانب معرفة العرب الجيدة به فقد عرفه جيدًا أيضًا العلماء الأوروبيون منذ القرن التاسع عشر إلا أنه لم يكن من المستطاع إعطاء فكرة عن مجهودة العلمى بصورة شاملة إلا بعد ظهور كتابه فى طبعة مرضية تشمل أربعة عشر جزءًا وذلك فى الفترة بين عامى ١٩١٣ و ١٩٢٠ ؛ ويرجع الفضل فى ظهور هذه الطبعة إلى مجهود ذلك العلامة المصرى الذى لم يعرف الكلل إلى نفسه سبيلا وهو أحمد زكى باشا . وثمة دراسة هامة لهذا الكتاب تستند على تلك الطبعة هو البحث الخاص الذى قام به بيوركمان **Björkman** عن مصنف القلقشندى ؛ وبالرغم من أنه يعالج موضوعه من وجهة نظر تاريخ تطور النثر الدواوينى بمصر الإسلامية إلا أنه يقدم لنا أساسًا متينًا لتحليل المصنف من كافة نواحيه وذلك فى دراسة لم تتمتع بها أية موسوعة أخرى من موسوعات عهد المماليك .

وكما هو الشأن فى حالات مماثلة مرت بنا فإنه ليس هناك اتفاق تام بين المصادر فيما يتعلق باسم القلقشندى ، ولعل مرد ذلك إلى الخلط بينه وبين ابنه الذى كان من رجالات الأدب أيضًا . ويتفق رأى الغالبية على أن اسمه هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على ؛ وقد ولد فى عام ٧٥٦ هـ = ١٣٥٥ بمحلة صغيرة قرب قليوب بمصر وإليها نسب إلا أنه من أصل عربى صرف فهو ينتمى إلى قبيلة فزارة التى استقرت بمصر عقب الفتح . وقد تلقى العلم بالإسكندرية وأصبح منذ عام ٧٧٨ هـ = ١٣٧٦ مدرسًا للحديث والفقه، غير أن ميوله الشخصية ذهبت به إلى اتجاهات أخرى فقد اهتم اهتمامًا بالغًا بنسب القبائل العربية وله فى هذا الصدد مصنف لقى انتشارًا واسعًا عند القراء العرب فأكمله وزاد عليه فى مستهل القرن التاسع عشر (فى عام ١٢٢٩ هـ = ١٨١٤) العلامة

العراق السويدى . ولم يبق القلقشندى طويلا فى مهنته التدريسية فقد التحق منذ عام ٧٩١ هـ = ١٣٨٩ بديوان الإنشاء الذى كان يرأسه آنذاك أحد أفراد أسرة العمرى من أقرباء مؤلف الموسوعة المعروف لنا ؛ هذا وقد ترك العمل بديوان الإنشاء أثره الخاص على نشاط المؤلف وهو قد ظل مرتبطًا
412 به على ما يبدو إلى وفاته فى عام ٨٢١ هـ = ١٤١٨ ، /أى بعد سبعين عامًا من وفاة العمرى . وكان القلقشندى معاصرًا لشخصيات كبرى وأحداث عظمى ففى عصره عاش بمصر ابن خلدون المشهور ، وشهد القلقشندى مثله زحف التتار على الشام تحت قيادة تيمور لنك .

هذا وقد حفزه عمله بديوان الإنشاء على وضع المصنف الأدبى الأكبر لحياته ، فقد بدأ العمل فى سفره الضخم فور انتقاله للعمل بديوان الإنشاء فى عام ٧٩١ هـ = ١٣٨٩ ؛ وهو قد وضعه فى الأصل من أجل كتّاب الدواوين وأطلق عليه اسم « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » ؛ وقد أتم الجزء الرابع عشر منه فى عام ٨١٤ هـ = ١٤١٢ وظل يزيد عليه إلى حين وفاته . ولعله قد أحس بنفسه كبر حجم المصنف فدفعه هذا إلى اختصاره فى مجلد مكتنز بعنوان « ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر »(٦٠) ؛ وبعض الصيغ الإنشائية التى عالجها فى هذا المصنف الأخير تعتبر أكثر تفصيلا مما جاء فى مؤلفه الضخم .

إن موسوعة القلقشندى تعتمد اعتمادًا كبيرًا على مصنفى العمرى كليهما ولكنها تتميز بدقة التبويب وبأن غرضها الأساسى هو أن تكون مرجعًا من أجل كتاب الدواوين أى عمال ديوان الإنشاء . وفيها يلخص المؤلف جميع المعارف التى يحتاج إليها الكاتب المثالى ابتداء من التوجيهات الفنية بالكلام على المداد والقلم والورق والخط إلى المعطيات الواسعة فى محيط الجغرافيا والتاريخ والأدب والبلاغة . وهو يقدم وصفًا لنواحى مصر والشام بل ولجميع الدول التى لها أدنى علاقة بمصر موليًا اهتمامًا خاصًا لنظامها السياسى والإدارى وأساليب « المعاملات » بين السكان ؛ وهو يوضح الأسس التى يقوم عليها نشاط الدواوين ويفرد عددًا من أجزاء كتابه لنماذج المكاتبات الدبلوماسية وقرارات تعيين الممثلين الرسميين وللوثائق الحكومية الرسمية من كل صنف . ولا يكتفى القلقشندى بإيرادها فى صيغها الكتابية الخاصة فحسب بل يسوق نماذج من الوثائق الأصلية الموجودة « بالمحفوظات » archives مما يجعل من كتابه مصدرًا أساسيًا بالنسبة للتاريخ والإدارة والحياة الاجتماعية للعالم الإسلامى والأقطار المتصلة به فى أوائل القرن الخامس عشر(٦١) .

---

(٦٠) -Björkman , Beitråge, p. 73; cf. Brockelmann, GAL, SB, II, p 165

(٦١) -Gaudefroy —Demombynes, Là Syrie, p. V

وتنقسم الموسوعة من حيث التبويب إلى عشرة أقسام كبيرة فى هيئة مقالات غير متساوية الحجم ولا تتفق مع تقسيم المصنف إلى أجزاء ؛ وفى المقدمة تحليل دقيق لمهنة الكتابة وفضلها فى المجتمع البشرى . وفى المقالة الأولى من الكتاب (الأجزاء من الأول إلى الثالث) يعالج المؤلف الكلام فى ما يحتاج الكاتب إلى معرفته من المعلومات المتعلقة بالخط واللغة والنحو والبلاغة ومختلف العلوم ذات الفائدة العملية بالنسبة له . ويفرد المقالة الثانية/(الأجزاء من الثالث إلى الخامس) 413
للمعلومات من محيط الجغرافيا والتاريخ وهى تمثل بالنسبة لنا أهمية خاصة . أما المقالة الثالثة (الجزآن الخامس والسادس) فتعالج المسائل العامة التى تشترك فيها كل المكاتبات والولايات فيعرض للناحية الشكلية المتعلقة بالورق والكتابة ويبحث فى الأسماء والكنى والألقاب ومواضع ذكرها واستعمال الصيغ المختلفة . وتتناول المقالة الرابعة (الأجزاء من السادس إلى التاسع) المكاتبات وأنواعها ومصطلحها مع إيراد عدد كبير من الوثائق الرسمية برمتها ؛ وتمثل هذه الوثائق سواء فى هذا القسم أو فى الأقسام الأخرى عنصرًا جوهريًا فى أهمية هذا المصنف ؛ أما المقالة الخامسة (الأجزاء من التاسع إلى الثانى عشر) فتقدم لنا بعض المعلومات النظرية ونماذج للولايات والعهود والبعثات وطريقة تفويضها ، وتحتل هذه المقالة مكانة هامة فى هذا الكتاب وذلك لأنها تلقى ضوءًا على النظام الإدارى المعقّد الذى ساد فى عصر المماليك ؛ والنماذج التى يسوقها فى هذه المقالة حافلة بشكل غير معهود . أما بقية المقالات فإنها صغيرة الحجم بمقارنتها بالسابقات عليها فالمقالة السادسة (الجزء الثالث عشر) تقدم صورًا من المكاتبات مما لا يخضع للتصنيف ، كما تحلل المقالة السابعة (من ذلك الجزء نفسه) الوثائق المتعلقة بالإقطاعات ؛ أما المقالة الثامنة (فى الجزء نفسه أيضًا) فتبحث فى الأيمان وصور الأقسام المختلفة واليمين بينما تتحدث التاسعة (الجزآن الثالث عشر والرابع عشر) عن عقود الصلح والفسوخ والهدنة بين المسلمين والكفار ؛ وتتناول المقالة العاشرة والأخيرة (الجزء الرابع عشر) فنونًا من الكتابة تختلف باختلاف الظروف الداعية إليها .

أما خاتمة الكتاب فتحتوى على أبواب تبحث أساسًا فى وسائل النقل والمواصلات ؛ فهنا يرد الكلام على البريد العادى وبريد الحمام كما يبحث فى طريقة نقل الثلج من الشام إلى مصر على ظهور الجمال وعلى السفن ، وفى استعمال الإشارات النارية . وليس من العسير أن نبصر فى هذا التبويب اقتفاء القلقشندى لأثر كتاب « التعريف » للعمرى بل إنه يطبق فى بعض الأحيان ترتيبه وتبويبه بحذافيره ، وسيزداد اقتناعنا بقوة الصلة التى تربط بين هذين المصنفين فى جوانب أخرى كلما أوغلنا فى دراسة المصادر التى استقى منها القلقشندى .

ونلتقى على طول هذا الكتاب بمعلومات جغرافية متنوعة للغاية وتختلف باختلاف

الموضوعات التى يتناولها بالبحث . وإلى جانب هذا فإن المؤلف قد أفرد المقالة الثانية من كتابه بأجمعها للجغرافيا وحدها ؛ وهى تمثل فى الحقيقة عرضًا تاريخيًا جغرافيًا مستقلا[٦٢] تحتل مركز الصدارة فيه مصر المملوكية ويدور العرض جميعه حولها . وفى بداية هذه المقالة ترد المعلومات التقليدية التى لا تتغير عن شكل الأرض على سبيل الإجمال ، ويلى هذا عرض تاريخى قصير للخلافة مع اهتمام بالجوانب التى انتعشت بشكل خاص فى مصر المملوكية كشعائر الخلافة ونظمها ومراسيمها . أما القسم الخاص بالجغرافيا بمفهومها الضيق من هذه المقالة والذى يبدأ بوصف مفصل للديار المصرية (الجزء الثالث ابتداء من صفحة ٢٨٢ وكذلك الرابع إلى صفحة
414 ٧١) فيعد من أهم أقسام الكتاب ولايزال يقف حتى الآن فريدًا فى بعض/نواحيه[٦٣] . وكان المستشرق فستنفلد **Wüstenfeld** قد قام بعرضه بطريقة موجزة فى عام ١٨٧٩ إلا أن ذلك العرض الذى يعد مجهودًا مقدرًا بالنسبة لعصره والذى لعب آنذاك دورًا لا ينكر قد أصبح الآن فى حاجة إلى فحص جديد على ضوء الطبعة التى ظهرت للمتن وبسبب ما تجمع من مواد علمية فى خلال هذه الفترة[٦٤] . والقلقشندى يولى أهمية خاصة فى هذا القسم لمصر الفاطمية والأيوبية كما أنه قد اهتم بالطبع بالعصر المملوكى الذى عاش فيه . وبطريقته المفصّلة نفسها يعالج الحديث فى وصف الشام ؛ ووصفه هذا معروف لنا جيدًا بفضل الدراسة المتقنة التى ندين بها لغودفر واديموبين (١٩٢٣) . ويلى هذا وصف الحجاز لوقوعه آنذاك فى دائرة نفوذ مصر .

وتبرز فى المكانة الأولى من بين البلاد التى لا تخضع لسلطان المماليك « ممالك بيت جنكيز خان » أى أراضى إمبراطورية المغول التى يقسمها إلى مملكتين كبيرتين هما مملكة إيران ومملكة توران ؛ وفى القسم الخاص بالمملكة الثانية يقدم لنا معطيات هامة عن دولة الأوردو الذهبى ، وقد أصبح قسم منها فى متناول الإيدى منذ عهد تيزنهاوزن[٦٥] . ثم يعود القهقرى للكلام عن بلاد العرب فى أجزائها شبه المستقلة أى التى لا تمثل قسما من الإمبراطورية المصرية ، فيتكلم عن اليمن والساحل الشرقى بما فى ذلك عمان ويضم إلى هذا وصفًا مفصلا للهند (الجزء الخامس ، الصفحات من ٦١ إلى ٩٨) حدث وأن أفرد له المستشرق اشبيس **Spies** بحثًا خاصًا منذ عهد

---

(٦٢) عن محتويات هذا راجع : Björkman, Beiträge, p. 96-109

(٦٣) -Björkman, Beiträge, p. 96

(٦٤) شرحه ، p. 96, note 1

(٦٥) -Tizengauzen, Sbornik materialov, I, p. 395-416

غير بعيد (١٩٣٦)[٦٦] . ثم يلي هذا وصف منظم للبلدان الواقعة إلى الغرب من مصر وإلى الجنوب والشمال منها ؛ فالمجموعة الأولى تبدأ بتونس ويليها المغرب « الأوسط » وقصبته تلمسان ثم المغرب «الأقصى» المسمى ببر العدوة والذى تمثله الآن المملكة المغربية ؛ ثم يتكلم فى صورة مفصلة عن «جبال البربر» بالأندلس*. أما البلاد الواقعة إلى الجنوب من مصر فتدخل تحت اسم عام هو « بلاد السودان » وتشمل ستة ممالك آخرها الحبشة . وإلى الشمال من مصر يصف بلاد الروم (آسيا الصغرى) فى ذلك الجزء الذى كان لا يزال فى أيدى البيزنطيين ؛ وهو يغتنم هذه الفرصة ليقدم عرضًا تاريخيًا عن اليونان القدماء وعن البيزنطيين الذين خلفوهم مشيرًا كمرجع له إلى كاتب من القرن الرابع الميلادى يدعى هروشيش الذى نقل عنه على ما يبدو فى رواية العمرى . ومن بين الشعوب والبلدان الأوروبية يدور الكلام على التوالى عن « الألمان » والبنادقة والجنويين و« رومية » وبلاد الفرنج (فرنسا) والجلالقة (غاليسيا) واللنبردية (لمبارديا) . وإلى الشمال من القسطنطينية يرد ذكر شعوب القوقاز خاصة الجركس الذيـن كانـوا يمدون مصر عادة بالمماليك ، وأيضًا الآس وغيرهم . أما من سكان جنوب شرقى أوروبا فيرد ذكر البلغار والصرب والصقالبة والروس والباشقرد والبرجان ؛ وتتسم معلوماته عن هذه الشعوب الأخيرة بالإيجاز كما وأنها لا تخلو من الاضطراب فى بعض مواضعها ، وبها ينتهى القسم الجغرافى .

ومن الواضح أن قيمة هذا القسم الجغرافى ، شأنه فى هذا شأن بقية الكتاب ، إنما تعتمد على المصادر التى يستعملها القلقشندى أكثر من اعتمادها على طريقة تبويبه/للمادة . وكما أشرنا إلى 415
ذلك أكثر من مرة فإن هذا المصنف يمثل قبل كل شىء مصنفًا نقليًا إلا أنه يجب أن نستدرك على هذا بقولنا إنه يضم مادة ضخمة جديرة بكل ما يليق بها من تقدير ؛ فهو بهذا يعد إلى حد ما مصنفًا فريدًا فى نوعه[٦٧] . ويمكن تقسيم مصادره إلى مجموعتين كبيرتين تنتميـان إلى مختلـف المجالات والوثائق الرسمية ، وهو يشير إلى مصادره بالكثير من الدقة وكلما استدعت الحال ذلك[٦٨] ، كما أنه يعتمد عليها اعتمادًا كليًا لا من حيث المادة فحسب بل ومن حيث تبويبه لكتابه

---

(٦٦) -Spies

* يبدو أن ثمة خلطًا وجد طريقه إلى المتن الروسى فقد جاء فى كتاب القلقشندى ما نصه : « المملكة الخامسة من بلاد المغرب جبال البربر ؛ المملكة السادسة من ممالك المغرب جزيرة الأندلس » . أى أنه لم يدخل « جبال البربر » فى الأندلس كما يفهم من المتن الروسى . (المترجم)

(٦٧) -Björkman, Beiträge, p. 75

(٦٨) -Gaudefroy —Demombynes, La Syrie, p. X

مقتفيًا فى أغلب الأحيان أثر « التعريف » للعمرى . ويعتمد القلقشندى قبل كل شيء على آثار السابقين له فى المضمار الذى سلكه ، ونعنى بهذا أولئك الخبيرين بالإنشاء والعمل الدواوينى من جهة ورجالات الأدب من جهة أخرى . وبفضل كتابه هذا أصبح من اليسير تقصى مدى تطور هذا الفن فى الأدب العربى الأمر الذى أسهم فيه المستشرق بيوركمان ببحثه الذى أشرنا إليه . بيد أن القلقشندى قد أفاد إلى حد كبير أيضًا من جميع فروع الأدب الأخرى الحافلة التى اعتبرها ذات أهمية بالنسبة للكاتب . وقد تبين أن عدد مصادره فى هذا الصدد كبير بشكل ملحوظ ، قام بتلخيصها لنا بيوركمان[٦٩] بدرجة تقرب من الكمال وليس ثمة ما يدعو إلى الوقوف عندها بالتفصيل ؛ غير أن العرض السريع لمصادر القسم الجغرافى أمر هام بالنسبة لنا لما يلقيه من ضوء على تطور الأدب الجغرافى ويساعد بذلك على تحديد تلك الآثار التى ظلت تتمتع بالحيوية فى العصر الذى عاش فيه المؤلف ؛ ولمّا لم يكن القلقشندى نفسه منقطعًا للجغرافيا فإن هذا العرض لا يخلو من أهمية خاصة . وبالرغم من أن العمرى يحتل المكانة الأولى لديه[٧٠] إلا أنه لم يعتمد عليه وحده فى جمع مادته الضخمة ، فمن بين ممثلى الجيل « الأول » من الجغرافيين نلتقى فى « صبح الأعشى » بأسماء ابن خرداذبه وابن حوقل والمسعودى والهمدانى والمهلبى والسمعانى ؛ ومن بين ممثلى القرن « الفضى » بأسماء البكرى والإدريسى والغرناطى وابن سعيد وياقوت وأبى الفدا . وإلى جانب هؤلاء المؤلفين البارزين نلتقي بمروجى المادة الأسطورية مثل ابن وصيف شاه ؛ وإلى جانب مصنفات ممثلى الجغرافيا الوصفية نلتقى أيضًا بمصنفات ممثلى الجغرافيا الرياضية ولكن بصورة أقل ، وعلى كل حال فإن القلقشندى كثيرًا ما ينقل عن الزيجات المختلفة وعن « المجسطى » لبطلميوس ؛ ومن مراجعه الأساسية فى هذا المجال البيرونى[٧١] خاصة فى كتابه « القانون المسعودى » . والقلقشندى يعتمد فى القسم الخاص بالجغرافيا الرياضية من كتابه اعتمادًا كاملا على المذاهب القديمة ويخضع للنظريات الكوزموغرافية لبطلميوس بحيث ينعكس جيدًا من مثاله كيف كانت دوائر الإنشاء فى القاهرة تتأرجح بين النظريات العلمية القديمة التى فى بطون الكتب وبين الحقائق الجغرافية المحدثة[٧٢] التى كانت
معروفة لديهم جيدًا/والتى وكدتها آنذاك التجربة المباشرة لمختلف الشعوب . وهكذا يرفع رأسه مرة 416

---

(٦٩) -Björkman, Beiträge, p. 75-86

(٧٠) شرحه ، p. 80-81

(٧١) شرحه ، p. 81-82

(٧٢) -Gaudefroy —Demombynes , La Syrie p. XIV

أخرى ذلك الفاصل الذى تحدثنا عنه أكثر من مرة والذى يفصل بين النظرية والواقع فى الأدب الجغرافى .

ويجب ألا يغيب عن ذهننا أن الأهمية الكبرى فى المادة الجغرافية لدى القلقشندى تحتلها معلوماته عن تلك الأقطار التى عرفها معرفة مباشرة ، وقد رأينا مثال ذلك عند الكلام على مصر والشام . ولا تقل أهمية عن ذلك تلك المعلومات التى يوردها عن البلاد التى ربطتها صلات دبلوماسية منتظمة كانت أم متقطعة بدولة المماليك . وفيما يتعلق بممالك النصارى فقد تعرض الأب لامنس Lammens لتحليل مادته فى عدد من المقالات بالطريقة نفسها التى حلل بها تيزنهاوزن مادته عن الأوردو الذهبى وجورجيا(٧٣) أو كما حللها كانار Canard بالنسبة لبيزنطة(٧٤) . غير أنه حتى بالنسبة للبلاد التى لم يكن لديه عنها معلومات باستثناء المادة الأدبية وقصص الرحالة فإنه يجب ألا نطرح سلفًا هذه المادة بوصفها خالية من كل قيمة ؛ وخير مثال لهذا ما كتبه عن الهند فإن المصادر التى اعتمد عليها فى هذا الصدد(٧٥) ابتداء من العمرى إما أن تكون قد طبعت أو عرفت فى مخطوطاتها بحيث أضحت مادته عنها ليست من الأهمية فى المكان الذى يعتقد من قبل . وعلى الرغم من كل هذا فإن القلقشندى قد وفق فى تقديم عرض مزود بالتفاصيل يمكن أن يستدل منه على أنه كان للعرب فى ذلك العصر فكرة لا بأس بها عن الهند(٧٦) .

كل هذا يوكد لنا صحة النتيجة التى وصلنا إليها من قبل وهى أن مصنف القلقشندى يمثل ظاهرة مبرزة فريدة فى نوعها فى مجال الأدب الجغرافى أيضًا ويختتم بجدارة سلسلة موسوعات عهد المماليك التى تكاد تكون أكثر آثار ذلك العهد أصالة فى محيط الأدب . وزيادة على هذا فإنه يمكن إلى حد ما القول بأن « صبح الأعشى » يختتم عصرًا معينًا فى تاريخ الأدب الجغرافى إذ أن عهد الجغرافيا العامة (General Geography) الذى بلغ أوجه فى نمط الكوزموغرافيات والموسوعات للقرنين الثالث عشر والرابع عشر قد انتهى وحل محله نمط الجغرافيا الإقليمية (Regional Geography) ؛ كما يمكن أن نضيف إلى هذا أنه قد ظهرت مصنفات محلية

---

(٧٣) -Tizengauzen, ZVO, I, p. 208-216

(٧٤) -Canard, AIÉO, p. 27-52

حيث يرد الخطاب باللغة اليونانية الحديثة مع التعليق عليه من مادة القلقشندى .

(٧٥) -Spies, p. 9-13

(٧٦) شرحه ، p. 8

باللغتين الفارسية والتركية[٧٧] كما حدث مثلا بإيران وآسيا الوسطى والهند ثم بالدولة العثمانية فيما بعد . أما نمط الرحلات فقد استمر حافلا ومزدهرًا حتى النهاية ، وليس هذا فحسب بل إن مما يسترعى الانتباه حقًا هو أن آخر رحالة كبير انتظم محيط رحلاته العالم الإسلامى بأجمعه إنما ينتمى إلى القرن الرابع عشر أيضًا .

ذلكم هو ابن بطوطة المشهور وهو ذلك الرحالة نفسه الذى كانت أسفاره تطالع بالمدارس الثانوية بالبلاد العربية إلى عهد قريب والذى يردّ المثقفون العرب حين التساؤل عنه بابتسامة لا تخلو
417 من بعض/الاستخفاف ؛ وهو ذلك الرحالة نفسه الذى لا يستغنى عن الرجوع إليه أى باحث يود الخوض فى تاريخ الأوردو الذهبى وآسيا الوسطى والذى رغمًا من هذا تقف رواياته عن الصين والهند فى مستو واحد مع « أسفار السندباد » و« عجائب الهند » . ومهما اختلفت الآراء فيه فإن من المستحيل إنكار أنه كان آخر جغرافى عالمى من الناحية العملية ، أى أنه لم يكن **ناقلا** اعتمد على كتب غيره بل كان رحالة انتظم محيط أسفاره عددًا كبيرًا من الأقطار . وقد جاوز تجواله مقدار مائة وخمس وسبعين ألف ميل[٧٨] ، فهو بهذا يعد منافسًا خطيرًا لمعاصره الأكبر منه سنًا ماركو بولو البندقى[٧٩] . ولعل المقارنة بين الاثنين قد بولغ فيها أحيانًا وإن كانت لا تخلو من الطرافة فى بعض جوانبها فالصياغة الأدبية لكلا الرحلتين مثلا لا ترجع إلى صاحب الرحلة نفسه بل إلى شخص آخر ؛ كما أن كلا المصنفين يكمل أحدهما الآخر بالنسبة لمعلوماتنا عن آسيا فالرحالة البندقى عرف الشرق الأقصى خيرًا مما عرفه المغربى ، وفى مقابل هذا فمن الطبيعى أن نجد أن هذا الأخير كان لديه إحساس ذاتى بظروف حضارة العالم الذى يصفه أكثر مما كان لدى البندقى . ومما يقرب بين الاثنين أنهما لا ينتميان فى المحيط الجغرافى إلى الجغرافيين العلماء وإن وجب الاعتراف **بأن** وصف المواطن المسلم لخط سير رحلته أدعى إلى الثقة مما عليه الحال مع معاصره المسيحى . غير أن هذا يجب ألا ينسينا شطحاته ، فمما لا شك فيه أن وصفه « لأرض الظلمات » الواقعة خلف أراضى بلغار الفلجا إنما يرجع فيه إلى فكرة غير موثوق بها أو إلى مصدر أدبى أساء فهم روايته[٨٠] ؛ كما أن وصفه لبلاد طوالسى الواقعة فى مكان ما من كوشين صين Cochin-China يضم أساطير سمعها عن بلاد أخرى حتى اختلط الوصف لديه اختلاطًا

---

(٧٧) Kramers, EI, EB, p. 70

(٧٨) Gibb, Ibn Battüta, p. 9 —Arnold, Arab Travellers, p. 101

(٧٩) Ruska GZ, XXXIII, p. 597

(٨٠) **جميع مقارنة [ما جاء لدى ابن بطوطة مع مصدره] راجع Brockelmann, GIV, p. 199 - 200**

كليًا . إلا أنه كلما تعرضت الأجزاء المختلفة من وصف رحلته لدراسة دقيقة مفصلة زادت الثقة في صدق روايته يومًا عن آخر .

واسمه الكامل هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجي وتشير النسبة الأخيرة إلى علاقته بطنجة التى رأى النور فيها لأول مرة فى يوم ٢٤ فبراير ٧٠٣ هـ = ١٣٠٤ ؛ أما النسبة السابقة لها فتشير إلى أن أصله من قبيلة لواتة البربرية (ايلواتن بلغة البربر) التى انتشرت بطونها على طول ساحل افريقيا حتى مصر [٨١] . وبالبربر أيضًا يرتبط اسم أسرته بطوطة الذى أثبت صحة نطقه بتشديد الطاء بصفة قاطعة المستشرق فيشر A. Fischer [٨٢] فى عام ١٩١٨ وإن كان هذا لم يجد طريقه إلى الدوائر العلمية إلا بصورة بطيئة . ولا علم لنا بسنى حياته الأولى ولا بسيرة حياته بوجه عام بخلاف ما ذكره هو عرضًا فى سياق رحلته ؛ ويبدو أنه قد حصل على ما تيسر من العلم بمسقط رأسه مع ميل واضح إلى الفقه وفقًا للمذهب المالكى السائد بشمال افريقيا ؛ ولا شك أنه قد تمتع ببعض المعرفة فى هذا المجال فقد حدث له أن شغل فى خلال رحلته منصب القضاء وهو فى ريعان
شبابه ./غير أنه لا يخلو من غرابة أنه لم يخلف وراءه أى إنتاج أدبى ، إذ لم يرد فى كتاب الرحلة أو فى 418
المصادر الأخرى ذكر ما لمؤلفات أدبية منسوبة إليه . وكان لابن بطوطة كغيره من المثقفين شعر جيد وكان يحب رفع قصائده إلى من شملوه برعايتهم . وقد كان الحافز له على الخروج فى تجواله هو ذلك الحافز نفسه الذى لعب دورًا كبيرًا فى الأقطار الإسلامية وأعنى به الرغبة فى أداء فريضة الحج . وهو يروى ذلك بقوله :

« قال الشيخ أبو عبد الله كان خروجى من طنجة مسقط رأسى فى يوم الخميس الثانى من شهر الله رجب المفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمدًا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام منفردًا عن رفيق آنس بصحبته وركب أكون فى جملته لباعث من النفس شديد العزايم وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كان فى الحيازيم فحزمت أمرى على هجر الإناث من الأحباب والذكور وفارقت وطنى مفارقة الطيور للوكور وكان والدَىَّ بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصبًا ولقيت كما لقيا نصبًا وسِنِّى يومئذ ثنتان وعشرون سنة » [٨٣] .

ويغلب على الظن أن ابن بطوطة كان ينوى أداء فريضة الحج فحسب ولم يدر بخلده أن عصا الترحال ستلقى به فى مختلف البلاد فلم يكتب له العودة إلى وطنه إلا بعد أكثر من ربع قرن . وخط

---

(٨١) -Colin, EI, III, p. 21

(٨٢) -Fischer, Battūta, p. 289

(٨٣) ابن بطوطة ، طبعة Defrémery, I, p. 12-13

سير رحلته معروف لنا منذ اللحظة الأولى لتحركه إلا أنه ليس من النادر أن ينقطع خيط الرواية أو
يضطرب سياق العرض ، وهو على أية حال يسوقنا إلى لحظة عودته إلى أرض الوطن . ولعل الإطار
العام لقصة الرحلة يصف بصورة أبلغ من أى شيء آخر المدى الواسع الذى بلغه تجواله[٨٤] ؛
فقد بدأ تحركه من طنجة مارًا فى طريقه على جميع المدن الكبرى بشمالى افريقيا حتى بلغ
الإسكندرية ثم غادرها إلى دمياط فركب النيل إلى القاهرة التى كانت آنذاك تمر على فترة من
الازدهار أيام عصر المماليك وأحدثت فى نفسه أثرًا يماثل الأثر الذى أحدثته فى وقتها مصر
الفاطمية على ناصر خسرو . ومن القاهرة تابع ابن بطوطة النيل إلى أسوان ومنها اتجه شرقًا مخترقًا
الصحراء حتى بلغ مرفأ عيذاب على البحر الأحمر وهى الفرضة التى كانت تتجه منها السفن عادة
إلى جدة ؛ غير أن سير السفن المصرية بالبحر الأحمر كان متوقفًا آنذاك بسبب الحرب التى
اشتعلت بين قبائل البجه والمماليك مما اضطر معه ابن بطوطة إلى العودة إلى القاهرة . وهناك واتته
فكرة زيارة الشام لينضم إلى قافلة الحاج من دمشق ، واغتنم هذه الفرصة فزار فى طريقه فلسطين
مارًا على بيت المقدس كما زار الشام فبلغ أنطاكية واللاذقية . وعقب زيارته لحلب أمضى فترة من
الوقت بدمشق ثم انضم إلى /قافلة الحاج فزار مكة والمدينة . وأعقب هذا زيارته لمشاهد الشيعة وقبر 419
على بالنجف ثم مر بالبصرة فى طريقه إلى فارس فزار شيراز وأعقبها بالموصل وديار بكر من مدن
الجزيرة ثم رجع إلى الكوفة وغادرها إلى بغداد . وكان العام قد انصرم مما يسر عليه فرصة تأدية الحج
مرة ثانية ، وهنا أقام بمكة الفترة من عام ٧٢٩ هـ إلى ٧٣٠ (من نهاية عام ١٣٢٨) حتى عوفى
من مرض شديد كان قد ألم به وتعرّف خلال ذلك على عدد من العلماء والمتصوّفة المقيمين بها . ولم
يلبث أن غادرها إلى جدة ومنها عبر البحر الأحمر إلى الساحل الشرق لافريقيا ثم رجع منه إلى اليمن ثم
عاد مرة ثانية إلى افريقيا التى غادرها إلى الساحل الشرقى لبلاد العرب على الخليج الفارسى ، وقد مر
فى طريقه على عمان وهرمز والبحرين . وزار مكة للمرة الثالثة فمر فى طريقه إليها على اليمامة ثم اجتاز
البحر الأحمر إلى عيذاب ومنها إلى القاهرة . أما الدورة الثانية من أسفاره فكانت وجهتها الأقطار
الشمالية فقد اجتاز الشام حتى دخل آسيا الصغرى ؛ وفيما يتعلق بهذه البلاد الأخيرة فإن خط
سيره يعتوره خلط شديد فقد اجتاز ابن بطوطة آسيا الصغرى حتى وصل إلى سينوب
(« صنوب ») على البحر الأسود ثم عبر البحر فنزل بشبه جزيرة القريم عند ميناء كفا وهى
فيودوسيا حاليًا وكانت إذ ذاك من المستعمرات الجنوية بالبحر الأسود ، وفيها ولأول مرة فى حياته

---

(٨٤) عن تواريخ تحركات ابن بطوطة : Hennig, II, p. 174

سمع ابن بطوطة صوت نواقيس الكنائس . أما ميناء القريم الرئيسة فكانت سوداق التى يعتبرها ابن بطوطة أحد المرافىء العالمية الخمسة الكبرى (إلى جانب الإسكندرية بمصر وكلم وقاليقوت بالهند والزيتون بالصين)(٨٥) . وفى طريقه مر ابن بطوطة على سلخات (القريم القديمة) فجال فى جميع أنحاء القريم وروسيا الجنوبية ومن هناك بلغ أرض بلغار الفلجا(٨٦) . ثم خرج من استراخان (« حاجى طرخان ») مع قافلة أميرة بيزنطية هى إحدى زوجات الخان أوزبك فبلغ القسطنطينية ومن هناك رجع مرة ثانية إلى مملكة الأوردو الذهبى فوصل إلى مقر الخان بمدينة سراى ، ثم عبر الفلجا فوصل إلى خيوه وغادرها إلى بخارى فأفغانستان ودخل الهند فى غرة المحرم من عام ٧٣٤ هـ = ١٢ سبتمبر ١٣٣٣ ؛ ومنذ هذه اللحظة يبدأ الجزء الثانى من وصف الرحلة .
وفى دهلى حظى ابن بطوطة بدرجة عالية من النفوذ لدى السلطان محمد بن طغلق الذى عينه فى منصب القضاء لمدة خمس سنوات(٨٧) . وفى تلك الأثناء جهز السلطان سفارة إلى الصين كان من أعضائها ابن بطوطة ؛ ولم يوفّق ابن بطوطة فى محاولته الوصول إلى الصين برًا عن طريق قندهار فأبحر من قليقوت إلى جزر الملديف (« جزائر ذيبة المهل ») Maldives وهناك أمضى زهاء عامين شغل خلالهما مرة أخرى منصب القضاء وزار سيلان والبنغال (« بنجالة ») والهند الشمالية واندونيزيا ، ومن هناك اتجه إلى كانتون بالصين . وفى طريق العودة أخذ السفينة من سومطرة إلى ظفار فى جنوبى الجزيرة العربية فبلغها فى عام ٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ . ومرة أخرى نراه ضاربًا فى فيافى إيران والعراق والشام ومصر ؛ ثم أدى فريضة الحج للمرة الرابعة ؛ وبعد ذلك ذهب
إلى فلسطين وشهد بها الوباء المخيف الذى اجتاحها عام ٧٤٩ هـ = ١٣٤٨ ./وعقب ذلك 420
بقليل فى أبريل من عام ٧٥٠ هـ = ١٣٤٩ ألحت عليه رغبة جامحة فى الرجوع إلى وطنه ، ولعل تواتر الأخبار بازدهار مراكش فى عهد السلطان أبى عنان من بنى مرين قد مكن من هذه الرغبة فى نفسه فأخذ طريق العودة مارًا على مصر وتونس ؛ وهناك واتته فكرة زيارة جزيرة سردينيا (« سردانية ») . وفى أثناء هذه الرحلة تعرض مرتين لهجوم لصوص البحر(٨٨) ؛ وعلى الرغم من هذا فقد حالفه التوفيق فتقدم فى طريقه إلى فاس مارًا على تنس وتلمسان وتازا ، التى علم فيها بخبر

---

(٨٥) **رحلة ابن بطوطة، طبعة Defrémery, I, p. 28**

(٨٦) **-Janicsek, Ibn Battūta, p.791-800; cf. Brockelmann, GAL, SB. II, p. 365- 366**
مع الإشارة إلى : Markwart

(٨٧) **-Agha Mahdi Husain, p. 89-91**

(٨٨) **-Gibb, Ibn Battūta, p. 9**

وفاة أمه ، حتى بلغ بلاط السلطان أبى عنان فى نوفمبر من عام ٧٥٠ هـ = ١٣٤٩ وهناك انتهى به المطاف وقوبل بما هو أهل له من التقدير والإجلال . بيد أن تجواله لم يقف عند هذا الحد فقد بقى قطران إسلاميان لم يكن قد زارهما بعد ، أحدهما دولة غرناطة التى لم تستغرق زيارته لها وقتاً طويلاً . وفى طريقه إليها زار قبر أمه بطنجة[٨٩] ثم عبر مضيق جبل طارق إلى رنده فمالقه وأقام مدة أطول بعض الشيء بغرناطة ، ومن المحتمل أنه تعرف فيها بمحمد بن جزى وهو الرجل الذى كتبت له الأقدار أن يدون أخبار أسفار ابن بطوطة ؛ ثم رجع ابن بطوطة إلى المغرب عابرًا مضيق جبل طارق للمرة الثانية . غير أنه لم يلبث أن خرج فى غرة المحرم من عام ٧٥٣ هـ = ١٨ فبراير ١٣٥٢ فى رحلة أطول من تلك بكثير كان قد كلفه بها السلطان أبو عنان وكانت وجهتها جوف افريقيا ؛ وقد ظل وصف هذه الرحلة الأخيرة لا يفضله شيء إلى عهد الرحلات الأوروبية فى القرن التاسع عشر . مر ابن بطوطة بسجلماسة فى طريقه إلى تمبكتو بمملكة مالى القوية[٩٠] التى لم يكن قد مر على اعتناقها الإسلام عهد طويل . وفى طريق العودة بعد أن زار معادن النحاس بتكدا بدأ فى ٧٥٤ هـ = ١٢ سبتمبر ١٣٥٣ رحلة شاقة استغرقت بضعة أشهر فى صحبة قافلة من تجار الرقيق اجتاز خلالها هضبة « هكار » Ahagger بعد أن مرّ فى طريقه على واحة أغدس Agdes ثم عبر جبال أطلس شتاء فى ظروف قاسية من الشظف الشديد إلى أن بلغ فاس فى نهاية عام ٧٥٤ هـ = ١٣٥٣ ؛ وفى هذه المدينة أمضى البقية الباقية من حياته وهى نيفًا وعشرين عامًا لم يقم خلالها بأى تجوال حتى وافته منيته فى عام ٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ * .

وقد كان عهد المرينيين ، خاصة فى أثناء حكم أبى الحسن (٧٣١ هـ - ٧٤٩ هـ = ١٣٣١ - ١٣٤٨) وأبى عنان (٧٤٩ هـ - ٧٥٩ هـ = ١٣٤٨ - ١٣٥٨) عهدًا ازدهرت فيه الثقافة فى جميع أنحاء المغرب الإسلامى ، وعد بنو مرين أنفسهم ورثة الحضارة الأندلسية على الرغم من أن الدولة العربية بالأندلس كانت لا تزال على قيد الحياة وإن تقلصت رقعتها بشكل ملحوظ ؛ لذا فقد اهتم بنو مرين بتشجيع الأدب والأدباء كأسلافهم عرب الأندلس . وقد حفظت لنا الآثار المعمارية لعصرهم نماذج فنية عظيمة كما اجتذب بلاطهم عددًا كبيرًا من الأسماء اللامعة فى مجالى الأدب والعلم فعاش فى كنفهم ابن خلدون وابن الخطيب وكلاهما كان معاصرًا لابن بطوطة[٩١] . ويبدو أنه كان للسلطان أبى عنان الفضل فى ظهور كتاب وصف رحلة ابن

---

(٨٩) ابن بطوطة ، الروائع ، ص ١٥٠

(٩٠) كانت مملكة مالى على نهر النيجر؛ راجع عنها Hennig, III, p. 256 - 260

* هذا التاريخ غير صحيح ، وكما أثبت جب Sir Hamilton Gibb فإن التاريخ الصحيح لوفاته هو عام ٧٧٠ هـ = ١٣٦٨ - ١٣٦٩ (راجع Selections, p. 2) . (المترجم)

(٩١) -Marçais, Meriniden, p. 537

بطوطة فهو الذى عثر له على «محرّر أدبى» إن صح هذا القول ؛ وتشير قرائن الأحوال إلى أن رحالتنا/على ولعه بالقصص فإنه لم يحس انجذابًا شديدًا نحو الكتابة . أما كيف خرجت فكرة 421
الكتاب إلى الوجود فيتضح ذلك جليًا من ألفاظ المحرّر، فهو فى كلامه عن ازدهار فاس فى عهد السلطان أبى عنان يقول :

« وكان ممن وفد على بابها السامى وتعدّى أوشال البلاد إلى بحرها الطامى الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدُوق جوّاب الأرض ومخترق الأقاليم بالطول والعرض أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد ابن إبراهيم اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطة المعروف فى البلاد الشرقية بشمس الدين وهو الذى طاف الأرض معتبرًا وطوى الأمصار مختبرًا وباحث فِرَق الأمم وسبر سِيَر العرب والعجم ثم ألقى عصا التسيار بهذه الحضرة العليا[٩٢] ... ونفذت الإشارة الكريمة بأن يملى ما شاهده فى رحلته من الأمصار وما علق بحفظه من نوادر الأخبار ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر من كل غريبة أفاد باجتلائها وعجيبة أطرف بانتحائها وصدر الأمر العالى لعبد مقامهم الكريم المنقطع إلى بابهم المتشرّف بخدمة جنابهم محمد بن محمد بن جزى الكلبى ... بأن يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله من ذلك فى تصنيف يكون على فوائده مشتملا ولنيل مقاصده مكملا متوخيًا تنقيح الكلام وتهذيبه معتمدًا إيضاحه وتقريبه ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ويعظم الانتفاع بدُرِّها عن تجريده عن الصدف فامتثل ما أمر به مبادرًا وشرع فى منهله ليكون بمعونة الله عن توفية الغرض منه صادرًا ونقلت معانى كلام الشيخ أبى عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التى قصدها موضحة للمناحى التى اعتمدها وربما أوردت لفظه على وضعه فلم أخِلّ بأصله ولا فرعه وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار على أنه سلك فى إسناد صحاحها أقوم المسالك وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك وقيدت المُشْكِل من أسماء المواضع والرجال بالشّكْل والنقط ليكون أنفع فى التصحيح والضبط وشرحت ما أمكننى شرحه من الأسماء الأعجمية لأنها تلتبس بعجمتها على الناس ويخطىء فى فك مُعمّاها معهود القياس »[٩٣] .

من هذا يتضح لنا أن وصف رحلة ابن بطوطة المعروف باسم « تحفة النظّار فى غرائب الأمصار

---

(٩٢) رحلة ابن بطوطة، طبعة Defrémery, I, p. 8

(٩٣) شرحه p. 9-12

422 وعجائب الأسفار» ليس من تدوين ابن بطوطة نفسه بل يمثل / صياغة أدبية لروايته عملها الكاتب ابن جزى ، ولا يزال بالمكتبة الأهلية بباريس قسم من الكتاب بخط يد الكاتب نفسه . ويمكن الحكم على الطابع العام للكتاب من ألفاظ ابن جزى التى استشهدنا بها فى سياق هذا الفصل ومن تحليل شخصيته كأديب ، فهو على ما يبدو من أدباء عصر التدهور وقد بقى لنا من آثاره ترجمة لسيرة حياته (autobiography) ومصنف فى نسب النبى[٩٤] . وقد ولد ابن جزى بغرناطة وشغل منصب الكاتب لدى السلطان أبى الحجاج يوسف من بنى نصر (٧٣٣ هـ - ٧٥٥ هـ = ١٣٣٣ - ١٣٥٤) ثم لم يلبث أن اختلف معه فرحل عنه ليشغل المنصب نفسه فى بلاط السلطان أبى عنان الذى عرف كيف يجتذبه إلى شخصه . وأتم ابن جزى عمله فى ثلاثة أشهر فقد انتهى من « تقييد » ألفاظ ابن بطوطة فى ديسمبر من عام ٧٥٦ هـ = ١٣٥٥[٩٥] وفى فبراير من العام التالى كان قد أكمل صياغتها[٩٦] ؛ ولم يعش طويلا بعد هذا فقد وافته المنية فى العام نفسه[٩٧] . وعلينا أن نأخذ دائمًا فى اعتبارنا جميع الظروف التى تم فيها تدوين الرحلة بحيث إننا إذا ما قسونا فى حكمنا على ابن بطوطة فيجب ألا ننسى أن كثيرًا من اللوم الموجه إليه يمكن أن يكون ناشئًا عن ابن جزى .

ويمس هذا قبل كل شىء الإطار العام للكتاب الذى هو من وضع ابن جزى فهو يفتقر فى كثير من الأحيان إلى التناسب والتناسق ؛ ويمكن من خلال الشذور التى اقتطفناها أن نحكم على الأسلوب المتكلف الذى لجأ إليه ابن جزى وميله الواضح إلى السجع والإطناب وهى على أية حال من سمات عصر التدهور . ومن حسن الحظ أن أسلوب الكتاب لا يسير فى جميع صفحاته على وتيرة واحدة إذ كثيرًا ما تتخلل العرض لغة ابن بطوطة القصصية البسيطة التى تميل أحيانًا نحو لغة المحادثة محتفظة فى الوقت ذاته برزانتها وغناها بالتفاصيل فوق ما تتميز به من الحيوية الدفاقة والعاطفة الجياشة . وإلى جانبها يبدو أسلوب ابن جزى ثقيلا يغلب عليه الحشو والتكلف كما تنعكس فيه على الدوام محاولة واضحة إلى جمع قصص ابن بطوطة المتفرقة فى وحدة متماسكة وتزويقها بصورة تجعلها أقرب إلى النصوص الأدبية[٩٨] . وهو يقتطف من أشعار مختلف الشعراء ، أحيانًا دون

---

(٩٤) Brockelmann, GAL, SB II, p. 366-

(٩٥) رحلة ابن بطوطة طبعة Defrémery, IV, p. 448 - 449

(٩٦) شرحه، p. 451

(٩٧) Pons Boigues, p.328-329, No 284-

(٩٨) Blachère, p. 350-

مناسبة تستوجب ذلك وبلا أدنى صلة تربطها بموضوع كلامه ؛ وغرضه من هذا أن يكسب كلام ابن بطوطة حيوية أكثر . وأغلب الظن أن ابن جزى قد لجأ إلى الطريقة القديمة فى تضمين الأوصاف المأخوذة من المؤلفين السابقين فى سياق عرضه دون أن يهتم بالإشارة إلى أسمائهم ؛ ومن الإجحاف اتهام ابن بطوطة بادّعاء المعرفة والعلم بالكتب فهو رجل يحب القصص ولكنه يفضل حكايتها بألفاظه هو ومن المشكوك فيه أن يكون هو المسئول عن تضمين قطع كبيرة من كلام ابن جبير فى وصف الشام وبلاد العرب دون أن يشير إلى المؤلف ، إلا أنه من الطبيعى أن يكون ابن جزى الغرناطى الأصل على معرفة جيدة بالأسلوب المصقول لمواطنه الأندلسى ابن جبير خاصة
وأن الأخير كان بوجه عام محببًا إلى قلوب أهل بلده/فلا غرو أن أراد ابن جزى تحلية مؤلفه بإضافة 423
تلك القطع إليه .

إن دور ابن جزى فى تحرير الكتاب كانت له آثار بعيدة فقد جهد فى أن يضفى على المصنف طابعًا فنيًا متماسكًا لعله لم يعرف فى الأصل إطلاقًا . ومن الواضح أن ابن بطوطة نفسه لم يكن ليستحى من الاعتراف بأنه قد نسى اسم موضع ما أو اسم شخص ، مثل ذلك القاضى الذى نزل عليه بالشام أو تلك المدينة التى مر عليها فى طريقه إلى تمبكتو(٩٩) ؛ وأغلب الظن أنه لم يدون مذكرات منظمة وإذا كان قد دون شيئًا ما فلا ريب فى أنه قد أضاعه خلال تجواله أضف إلى هذا أنه لم يهدف إخراج صورة متكاملة الجوانب لوصف أسفاره بل اكتفى بأن يقص على سامعيه أحداثا معينة وقطعًا متفرقة منها . لذا فحين دعت الحاجة إلى الربط بينها فى رواية متتابعة فإن المحرر بذل جهدًا ليس بالقليل ليخرج من القصة بأكثر مما استطاع المؤلف أن يتذكره ، سواء كان ذلك عن طريق توجيه الأسئلة أو ربما استحثه بوسائل أخرى . ولم يكن ابن جزى على معرفة بالبلاد التى تحدث عنها ابن بطوطة لذا فليس غريبًا أن يقع فى أخطاء عديدة عندما حاول أن يجمع بين هذه القصص المتفرقة فى وحدة متماسكة ، ويصدق هذا بصورة خاصة على افريقيا الشمالية عندما أخذ ابن بطوطة لأول مرة طريقه إلى مصر. فقرائن الأحوال تشير إلى أن ابن بطوطة كان قد نسى وصف طريقه تمامًا وذلك لبعد الزمن الذى ينيف على ربع قرن ؛ ومن الملاحظ أن وصف هذا الطريق مختصر للغاية لدى مقارنته ببقية وصف الرحلة . أما الخلط الشديد المتعلق بوصف آسيا الصغرى(١٠٠) فيمكن رده إلى ابن جزى الذى حاول بلا شك أن يستخلص صورة متكاملة

---

(٩٩) ابن بطوطة ، الروائع ، يد

(١٠٠) -Brockelmann, GAL, SB II, p. 366

الجوانب بإزاء العدد الكبير من أسماء الأماكن التى يذكرها ابن بطوطة . وكان ابن بطوطة قد قطع على نفسه عهدًا بألا يأخذ طريقًا ما أكثر من مرة[١٠١] ومن ثم فإن تحديد طريق سيره بدقة يستلزم معرفة جيدة بالأقطار التى سلكها . وعلى نحو ما أراد المحرر فإن ابن بطوطة قد أسبغ على روايته فى بعض الأحايين دقة خيالية لا تمت للحقيقة بسبب وذلك فيما يتعلق بتحديده للمسافات والأماكن مما كان قد أسدل عليه الزمن ستار النسيان بالنسبة له ؛ كما أنه من الصعب مثلا التصديق بأن عددًا من رحلاته الكبيرة قد بدأ على وجه التحديد فى غرة المحرم من كل عام .

ومن المحتمل أن ابن جزى لم يمس جوهر القصص نفسها لذا فلا يزال ينتظر إجابة شافية حتى الآن سؤال حائر هو إلى أى حد يمكن الاعتماد على صدق رواية ابن بطوطة حتى ولو وضعنا فى اعتبارنا مدى فعالية العنصر الذاتى (subjective) فى هذا المجال . ولقد بدأ هذا التساؤل يأخذ بخناق ابن بطوطة منذ لحظة رجوعه إلى أرض الوطن تمامًا كما حدث مع ماركو بولو ، بل إنه يمكن استشفاف لون من الحذر حتى عند ابن جزى نفسه وذلك فى قوله « وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار » . ولقد سارت هذه الشكوك قدمًا تارة تفيض وطورًا تغيض ولكنها لم تصل بالطبع فى الأدب العربى إلى مرتبة الحدة أو تثير مثل
424 ذلك الاهتمام الذى ترجّع صداه فى الأوساط العلمية/الأوروبية . ولعله لم يكن من قبيل الصدفة المجردة أن يسير التأرجح بين اليقين والشك فى شأن ابن بطوطة بالتتابع الزمنى نفسه الذى ساره موقف العلماء المحدثين من الجغرافيين العرب الآخرين ؛ فالباحثون الأول الذين تعرفوا على المتن الأصلى لابن بطوطة بصورة مباشرة مثل كوزغارتن Kosegarten ولى Lee قد وثقوا ثقة تامة فى صدق روايته ثم أعقب ذلك فترة من التشكك بلغت غايتها فى موقف النقد المتطرف الذى وقفه يول Yule من ابن بطوطة ؛ وأخيرًا وفى القرن العشرين نلحظ بداية عهد من الاعتراف بقيمته من جديد (مجيك وجب) أخذ يكتسب الأنصار يومًا بعد يوم . وتتمثل وجهة النظر الأخيرة فى أن ابن بطوطة يعكس بدقة وإخلاص العصر والوسط اللذان عاش فيهما وذلك على ضوء الظروف الحضارية السائدة آنذاك .

وبالطبع فابن بطوطة رجل مسلم قح من أهل القرن الرابع عشر ولكنه كان أكثر قربًا إلى المعتقدات الشعبية منه إلى العقيدة الرسمية ، أعنى المعتقدات السائدة فى المغرب ؛ وهو لم يلق بالا لجوانب الحياة التى تهم عصرنا نحن . وقد احتلت المكانة الأولى بالنسبة له المسائل المتعلقة بالعبادة

---

(١٠١) -Gibb, IbnBattuta, p. 5

والأولياء والمتصوفة فاعتقد فى صحة الكرامات التى حكيت له أو التى حدثت له هو نفسه، ولعله من اليسير تفسيرها على ضوء الانخداع النفسانى والسلوك الجماعى (mass hypnosis) الذى شهده بنفسه فى الهند أو ردّها ببساطة إلى المبالغة التى ينساق إليها بسهولة جميع الرحّالة فى كل العصور. فإن أسقطنا من حسابنا هذه العوامل فإن روايته بوجه عام جديرة بالثقة أو أنه على الأقل قد روى ما اعتقده الحق . أما الأخطاء التى وقع فيها فليست بالقليلة ويجب ألا يغيب عنا أنه لم يكن على معرفة بلغات البلاد العديدة التى زارها ، وهو فيما عدا العربية كان ملما ببعض الفارسية وربما التركية كذلك إلا أن معرفته بلغات الهند وقفت فى الواقع عند حد ألفاظ معدودة كان يُحبّ أن يعرضها من حين لآخر ولكن التوفيق جانبه فى معظم الأحوال . وفى اتصالاته بالسكان المحليين لم يكن من النادر أن يلجأ إلى الاستعانة بمترجم ما ، ولا يخفى بالطبع النتائج التى تترتب على هذا إذ كثيرًا ما تسرب الخطأ إلى أسماء البلاد الأجنبية التى يذكرها أثناء سيره كما أنه ليس من المستبعد أن يختلط لديه ترتيبها ، زد على هذا أن التتابع الزمنى للرحلة غير منتظم وأن التواريخ تبدو كأن المحرر قد وضعها خبط عشواء ؛ وهذه المجموعة نفسها من الأخطاء وجدت طريقها إلى الاستطرادات التاريخية . لكل هذا فإنه يجب ألا يغرب عن الذهن أن ابن بطوطة لم يكن عالمًا نقّالة بل اعتمد اعتمادًا مطلقًا على ذاكرته ، وهو كان يتمتع حقًا بذاكرة ممتازة شأنه فى هذا شأن جميع ممثلى الثقافة العربية لذلك العهد . وبعد فيجب الاعتراف بأن مقدار الأخطاء الزمانية (أى فى التواريخ chronological) والمكانية (أى فى المواضع الجغرافية topographical) ضئيل لديه عند مقارنة ذلك بالعدد الكبير من الوقائع التى يوردها(١٠٢) .

وقد وجهت حملات النقد بصورة خاصة إلى أقسام معينة من رحلته كوصفه للقسطنطينية وحكاياته عن الصين ؛ أما عن الأولى فقد كان اضطراب التواريخ سببًا فى حدوث بعض الخلط لديه ولكن على الرغم من هذا تم الاعتراف فى الآونة الأخيرة بأن وصفـه للمدينة نفسها يتسم
425 بطابع الصحة/ولا يمكن أن ينتج إلّا عن معرفة مباشرة بها فضلًا عن أنه يكشف فى هذا الصدد كما
هو الحال دائمًا عن قوة ملاحظة خارقة(١٠٣) . ولا تزال مستعصية على الحل مسألة حقيقة زيارته للصين ، وكما قال مجيك Mzik فإنها لم تنضح بعد للحل(١٠٤) ويجب أن يترك الباب مفتوحـا

---

(١٠٢) -Mzik, Ibn Batūta, p. 15 — Gibb, Ibn Battūta, p. 12, 13

(١٠٣) شرحه، p. 13

(١٠٤) -Mzik, Ibn Batūta, p. 15

لها[١٠٥] ؛ ولايزال إجماع الآراء أكثر ميلا إلى القول بأن ابن بطوطة لم يزر الصين . ويقرر شيفير Schefer أن القليل من رواياته عن الصين يستأهل الاهتمام[١٠٦] ؛ وإن لزم الاستدراك على هذا بأن رواياته عن الصين ليست بالقليلة العدد[١٠٧] . وقد وصل فيران Ferrand وهو خير خبير فى الأدب الإسلامى عن الشرق الأقصى إلى نتيجة مؤداها أن ابن بطوطة لم يزر الهند الصينية ولا الصين بل لفق روايته عنهما دون توفيق يذكر من مصادر مختلفة[١٠٨] . وكما بيّنا من قبل فإن ابن بطوطة لا يكشف بوجه عام عن معرفة جيدة بالأدب الجغرافى ، وإذا ما سلمنا جدلا بالفرض القائل بأن ابن بطوطة إنما اعتمد فى وصفه على القصص التى سمعها من الآخرين فثمة تفاصيل معيّنة تجعل من العسير علينا التسليم التام بهذا الفرض ؛ فمثلا من الصعب القول بأن ابن بطوطة من غير أن يزور الصين قد وجد أن هناك ما يضطره إلى القول بأنه قد التقى فيها برجل من أهل سبتة ثم يذكر اسمه بالتفصيل كما يذكر أيضًا أنه قابل أخًا لذلك الشخص نفسه بالسودان الغربى[١٠٩] . ومما لا ريب فيه أن الكلام يدور ها هنا عن شخصيات حقيقية كانت معروفة للكثيرين بمراكش عند رجوع ابن بطوطة إليها فلم يكن بوسعه إذن أن يفكر فى تعريض سمعته للثلب من أجل دافع تافه كهذا . ومنذ عهد ليس بالبعيد توصل البحاثة اليابانى ياماموتو Yamamoto إلى رأى حول رحلة ابن بطوطة فى الشرق الأقصى لا يبلغ فى شدته الرأى الذى خرج به فيران . فهو يقول :

« إنه لمن العسير القول بأن جميع حكايات ابن بطوطة عن الصين هى من نسج الخيال وحده . حقًا إن وصفه المفصل لتلك البلاد يشمل عددًا من النقاط الغامضة ولكنه لا يخلو أحيانًا من فقرات معينة تعتمد على ملاحظة مباشرة عن الصين ، فضلا عن أنه من المستحيل القول بأن رواياته التى وجدت توكيدًا فى المصادر الصينية وفى أسفار ماركو بولو قد كانت من تلفيق مخيلته »[١١٠] . ولاعتبارات ذات طابع عام أخضع ياماموتو رواية ابن بطوطة عن بلاد طوالسى الغامضة لتحليل دقيق ؛ ولنذكر عرضًا أن رواية ابن بطوطة عنها قد جرّت عليه سخرية بعض الباحثين ، فالعلامة يول Yule مثلا قال عنها فى زمنه « يجب البحث عن تلك البلاد فى صفحات

---

(١٠٥) شرحه، p. 413 sui

(١٠٦) -Schefer, Notice, p. 23

(١٠٧) شرحه، p. 23 - 24

(١٠٨) -Ferrand, Relations, II, p. 432-433

(١٠٩) رحلة ابن بطوطة، طبعة Defrémery, IV, p. 281 - 282

(١١٠) -Yamamoto, p. 103

426 الأطالس التى تحتوى الخارطات البحرية مما رسمته يد الطيب الذكر القبطان جليفر »[١١١] ./وعلى الرغم من هذا فإن عددًا من الباحثين ممن لم يصل بهم التشكك إلى الدرجة التى بلغها عند يول قد حاولوا العثور على هذه الجزر فبحثوا عنها فى جزيرة بورنيو[١١٢]، وفيما بين جاوه وشامبا الواقعة فى كوشين صين[١١٣] ، وأخيرًا وضعوها فى تونكين[١١٤] ؛ وقد ساق ياماموتو حججًا قوية للتدليل على أن طوالسى إنما هى شامبا[١١٥] بعينها التى كانت تقع بلا شك على الطريق بين الهند والصين[١١٦] . ولعل ابن بطوطة كان ضحية القصص الخرافية التى رواها له المترجمون المحليون[١١٧] عن تلك البلاد وذلك لجهله باللغات المحلية . لكل هذا فإن رواية ابن بطوطة حتى فى حالات قصوى مثل هذه لم تعد تثير الشكوك فى نفس الباحثين المعاصرين كما كان الحال عليه من قبل ، خاصة وأن رواياته عن مواضع مجاورة كجزر ملديف مثلا قد وكّد الرحالون المتأخرون صحتها برمتها[١١٨] .

ومن الطريف أن نسوق ملاحظة لابن خلدون فى هذا الصدد ، خاصة وأن ابن خلدون من المؤلفين العرب القلائل الذين ذكروا اسم ابن بطوطة بل والتقى به شخصيًا . ففى « مقدمته » المشهورة ، وفى الفصل منها الذى يبحث « فى أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها فى أصلها » يذكر فيما يذكر :

« ورد بالمغرب لعهد السلطان أبى عنان من ملوك بنى مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتقلّب فى بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلى حاضرة ملك الهند وهو السلطان محمد شاه واتصل بملكها لذلك العهد وهو فيروز جوه وكان له منه مكان واستعمله فى خطة القضاء بمذهب المالكية فى عمله ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبى عنان وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتى من أحواله بما يستغربه السامعون ، مثل أن ملك

---

(١١١) -Yule, Cathay, II, p. 520, عن مجيك (Mzik, Ibn Batūta, p. 411, note 17)

(١١٢) -Mzik, Ibn Batūta. p. 411, note 17

(١١٣) شرحه ، note 17 and p. 412

(١١٤) شرحه ، p. 411, note 17 and p. 413

(١١٥) -Yamamoto, p. 116

(١١٦) شرحه ، p. 133

(١١٧) -Mzik, Ibn Batūta, p. 15, والترجمة p. 408-411; التحليل p. 411-413

(١١٨) شرحه ، p. 15

الهند إذا خرج إلى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر تدفع لهم من عطائه وأنه عند رجوعه من سفره يدخل فى يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد ويطوفون به وينصب أمامه فى ذلك الحقل منجنيقات على الظهر ترمى بها شكائر
427 الدراهم والدنانير على الناس إلى أن يدخل إيوانه ؛ وأمثال هذه الحكايات فتناجى الناس/بتكذيبه ولقيت أيامئذ وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت ففاوضته فى هذا الشأن وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض فى الناس من تكذيبه فقال لى الوزير فارس إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تَرَه فتكون كابن الوزير الناشىء فى السجن وذلك أن وزيرًا اعتقله سلطانه ومكث فى السجن سنين رَبَى فيها ابنه فى ذلك المحبس فلما أدرك وعقل سأل عن اللحم الذى كان يتغذى فقال له أبوه هذا لحم الغنم ؟ فقال وما الغنم ، فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها ؟ فيقول يا أبت تراها مثل الفار ، فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفار ! وكذا فى لحم الإبل والبقر إذ لم يعاين فى محبسه من الحيوانات إلا الفار فيحسبها كلها أبناء جنس الفار وهذا كثيرًا مما يعترى الناس فى الأخبار كما يعتريهم الوسواس فى الزيادة عند قصد الإغراب كما قدمناه أول الكتاب فليرجع الإنسان إلى أصوله وليكن مهيمنًا على نفسه ومميزًا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل فى نطاق الإمكان قبله وما خرج عنه رفضه وليس مرادنا الإمكان العقلى المطلق فإن نطاقه أوسع شىء فلا يفرض حدًا بين الواقعات وإنما مرادنا الإمكان بحسب المادة التى للشىء فإنا إذا نظرنا أصل الشىء وجنسه وصنفه ومقدار عظمة قوته أجرينا الحكم من نسبة ذلك على أمواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه وقل رب زدنى علمًا وأنت أرحم الراحمين والله سبحانه وتعالى أعلم »(١١٩) .

من هذا يتبين أن عالمين ، أحدهما ابن خلدون فى القرن الرابع عشر والآخر ياماموتو فى القرن العشرين ، قد وصلا فى الحقيقة إلى استنتاج واحد مؤداه أنه من المستحيل رفض رواية ابن بطوطة على أساس أنها تتناقض مع الواقع ؛ ويميل العلم الأوروبى الحديث إلى أن يقف هذا الموقف نفسه من ابن بطوطة .

ووضع ابن بطوطة فى تاريخ الأدب الجغرافى واضح للعيان فهو لم يكن جغرافيًا **نقّالة** أو من

---

(١١٩) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة القاهرة ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤ ، ص ١٤٣ — ١٤٤

Prolégomènes المتن I, p. 327 - 328 **والترجمة** I, p. 370 - 371

ابن بطوطة، الرحلة، طبعة Defrémery, III, p. 464 - 465 **(المتن)؛** 467 - 466 **(الترجمة)**

cf منتخبات ابن بطوطة ، الروائع ، الكراسة الأولى ، يا — يب

أصحاب الموسوعات أو من الأدباء بل كان شخصًا عاديًا للغاية لا يتمتع بأية مواهب خاصة ولا تنعكس فى رواياته أفكار عميقة أو ملاحظات دقيقة وكثيرًا ما نلتقى لديه بأمثلة لتصديق أكثر الروايات إغرابًا فى/الخيال . وعلى الرغم من كل هذا فهو شخص شاهد الكثير وعرف كيف 428
يصور ما شاهده بدقة وبساطة[١٢٠] ؛ وقد جعلت منه الأقدار جغرافيًا على الرغم منه إن صح هذا التعبير وصنعت منه لونًا من الرحالة نادرًا عند العرب ذلك هو الرحالة الذى يستهدف الرحلة لذاتها ويضرب فى مجاهل الأرض استجابة لعاطفة لا تقاوم ورغبة جارفة للتعرف على الأقطار والشعوب . وهو على نقيض الغالبية العظمى من الجغرافيين العرب لم يجمع مادته من صفحات الكتب بل جمعها عن طريق التجربة الشخصية وعن طريق محادثاته مع شخصيات تعرّف عليها عرضًا فى خلال رحلاته . وقد شغل اهتمامه بالمواضع الجغرافية مكانة ثانوية بالنسبة لاهتمامه بالبشر ، وهو بالطبع لم يفكر فى أن يجرى أى نوع من البحث والتحقيق فى مجال الجغرافيا ولعله نتيجة لهذا قد أصبح كتابه نسيج وحده كوصف للمجتمع الإسلامى والشرق عامة فى القرن الرابع عشر . فهو خزانة تحفل بمادة غنية لا فى مجال الجغرافيا التاريخية أو تاريخ عصره فحسب بل عن جميع حضارة ذلك العهد ، فتراه يعرض لجميع الظواهر الاجتماعية بالسرد حتى تلك التى يهملها المؤرخون عادة فتمر أمام أنظارنا مراسيم البلاطات الأجنبية وأزياء الشعوب المختلفة وتقاليدها وحرفها وأصناف الأطعمة والأغذية . فهو بهذا ليس كتابًا نظريًا جافًا بل على العكس من ذلك يفيض بالإنسانية والحيوية ولا يبخل فيه المؤلف بملاحظاته وتعليقاته فى أية مناسبة تعرض ؛ وهو لا يمثل وثيقة ممتازة لتجربة فردية فحسب بل يقدم كذلك نموذجًا صادقًا لأفكار وتصورات مواطن إسلامى من أهل القرن الرابع عشر[١٢١] .

ولما كان للنثر الفنى الغلبة فى الأدب العربى فلم يكن من الغريب ألا يتمتع مصنف ابن بطوطة فى القرون التالية بالرواج ، فقد وقف منه العلماء المتزمتون موقف التحفظ وطرحوه جانبًا على أنه ضرب من الحكايات والأساطير الشعبية ، بل ليس فى علمنا أن أحدًا من المؤلفين المتأخرين قد أشار إليه مجرد إشارة إذا استثنينا الموجز الذى وضعه للكتاب فى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) شخص يدعى البيلونى وتعرفت عليه أوروبا قبل أن يتعرف عليه العالم العربى . وفى العصر الحديث فقط ، وذلك بفضل الطبعة الأوروبية للمصنف والتى أعيد طبعها

---

(١٢٠) -De Goeje, Selections, p. 8 —Devic, Littérature arabe, p. 397-398

(١٢١) -Gibb, Ibn Battūta, p. 12 —Mzik, Ibn Batūta, p. 14

مرارًا بالشرق ، بدأ أصل الكتاب يجد طريقه شيئًا فشيئًا إلى الأوساط العربية المثقفة فى صورة مختارات مدرسية وكتب للمطالعة فى أغلب الأحيان . وخير مثال لها تلك الكتيبات الثلاثة التى أخرجها فى سلسلته المعروفة فؤاد افرام البستانى (عام ١٩٢٧) . أما بالنسبة للأتراك العثمانيين فى القرن التاسع عشر فلم يكن من السهل أن يمر ابن بطوطة هكذا دون أن يثير اهتمامهم ، إن ليس لشيء فلوصفه المفصل لآسيا الصغرى على أقل تقدير ؛ ناهيك عما يحفل به كتابه من تفاصيل هامة تتعلق بموضوعات شتى . وقد ظهرت محاولات لترجمته إلى اللغة التركية منذ الستينيات الأولى للقرن الماضى وذلك فى صحيفة « تقويم وقائع » التى كان يحررها كمال افندى[١٢٢] ؛ أما الترجمة الكاملة للكتاب التى قام بها الداماد محمد شريف فقد ظهرت فى ثلاثة أجزاء فى نهاية ذلك القرن (١٣١٥ هـ - ١٣١٩ هـ = ١٨٩٧ - ١٩٠١)[١٢٣] . وللعلامة التركى محمد جودت (توفى فى عام ١٩٣٥)/تعليق واف على رواية ابن بطوطة عن تقاليد « الأخى » بآسيا الصغرى 429
ومقارنته لذلك مع تقاليد « الفتيان » عند العرب[١٢٤] .

وعلى أية حال فيجب القول بأن معرفة الاستعراب الأوروبى بابن بطوطة جاءت متأخرة ومتأخرة بكثير عن معرفته بالإدريسى بل وحتى بأبى الفدا ؛ ومن العبث البحث عن اسمه فى موسوعة دربلو d'Herbelot المعروفة التى جمعت خلاصة المعارف فى ميدان الاستعراب حتى القرن الثامن عشر ، أو عند اشنورر Schnurrer الذى سجل أسماء جميع المؤلفات التى ظهرت فى عالم الاستعراب إلى عام ١٨١٠ . وفى بداية القرن التاسع عشر فقط تم الكشف عن ابن بطوطة لأول مرة ، ولم يتم ذلك بواسطة العلماء ولكن بواسطة اثنين من الرحالة هما زيتسن Seetzen (١٨٠٨) وبوركهارت Burckhardt اللذين استطاعا بحق أن يقدرا زميلهما المغربى حق قدره وإليهما يرجع الفضل فى وصول مخطوطات موجز البيلونى إلى أوروبا لأول مرة (بمكتبتى غوطا Gotha وكمبردج Cambridge) وبهذا أصبح المتن فى متناول أيدى العلماء . وكان أول من تناوله بالبحث العلامة كوزغارتن Kosegarten وتلميذه ابتز Apetz فقدم الأول تحليلا عامًا للرحلة وثلاث مقتطفات من المتن تصحبها الترجمات والتعليقات بعنوان : « الرحلة الفارسية » Iter Persicum و « الرحلة الملديفية » Iter Maldivicum

---

(١٢٢) خطاب بوشا من استنبول فى مايو ١٨٦٢ ، راجع :
ZDMG, 16, 1862, p. 756

(١٢٣) -Brockelmann, GAL, SB II, p. 366

(١٢٤) —Gordlevski, Gos. Selj, p. 106, note 1 —Margoliouth, JRAS, 1939, p. 623 — جودت ، الأخى

و «الرحلة الإفريقية» Iter Africanum (١٨١٨)؛ أما الثانى فقد قام بالمهمة نفسها فيما يتعلق بوصفه لساحل ملبار Malabar (١٨١٩). وتمثل خطوة إلى الأمام فى دراسة ابن بطوطة تلك الترجمة الكاملة للموجز التى قام بها العلامة الإنجليزى لى Lee الأستاذ بجامعة كمبردج (١٨٢٩)؛ وعلى النقيض من هذا فإن الترجمة البرتغالية التى قام بها مورا Moura (١٨٤٠ – ١٨٥٥)[١٢٥] معتمدًا فى ذلك على مخطوطة حصل عليها بفاس فى حوالى عام ١٧٩٧ لم تحظ بالعناية الكافية[١٢٦]. أما أصل الكتاب فإنه لم يتم العثور عليه إلا بعد فتح الفرنسيين للجزائر واستيلائهم على قسنطينة، وأعقب هذا أن وجدت طريقها إلى المكتبة الأهلية بباريس Bibliothèque Nationale نحو من خمس مخطوطات اثنتان منها كاملتان وأبعاض منهما بخط يد ابن جزى نفسه. وبهذا تمكن العلماء الفرنسيون، بعد محاولات عديدة لنشر وترجمة أقسام من الكتاب، من أن يخرجوا أول طبعة كاملة للرحلة مصحوبة بترجمة فرنسية فى أربعة أجزاء بقلم المستشرقين دفريمرى Defrémery وسانغنتى Sanguinetti (١٨٥٣ – ١٨٥٨)؛ وقد قوبل ظهور الجزء الأول بحماس شديد من قبل العلامة رنان Renan الذى نشر بهذه المناسبة دراسة عن ابن بطوطة وكتابه تتسم بالكثير من الحيوية. ولا تزال الطبعة الفرنسية فى جوهرها إلى أيامنا هذه تمثل الأساس الذى قامت عليه جميع البحوث عن رحلة ابن بطوطة، وقد أعيد طبعها أكثر من مرة ولكنها لم تخضع فى مجموعها لفحص منظم على الرغم من أنه لا يمكن بالطبع أن ترضى فى الوقت الحاضر متطلبات البحث العلمى المعاصر. غير أن الدراسات المستقلة التى تناولت بحث فصول مختلفة من الرحلة أو عالجت مسائل متعلقة بذلك قد زاد عددها بصورة ملحوظة؛ ويمكن إعطاء فكرة عامة عن الرحلة بأجمعها من خلال الترجمات التى عملت لأقسام مختلفة من الكتاب، أعنى بذلك ترجمات/مجيك Mzik (١٩١١) وجب Gibb (١٩٢٩) المزودة بتعليقات 430
موجزة والتى يمكن أن تعد القول الفصل إلى يومنا هذا فى دراسة «منافس ماركو بولو»[١٢٧] *. وإن

---

(١٢٥) -Mzik, Ibn Batūta, p. 16 —Brockelmann, GAL, SB II, p. 366

(١٢٦) -Moura, Viagens, p. V.

(١٢٧) راجع أيضا الكتاب الذى ظهر أخيرًا:
Mahdi Husain, The Rehla of Ibn Battūta, Gaekward's Oriental Series, No CXXII, Baroda, 1953;
ففيه أول ترجمة وافية بالإنجليزية لرحلة ابن بطوطة فى الهند وجزر الملديف وجزيرة سيلان.
راجع أيضا تقريظه: C. Collin Davis, JRAS, parts 1, 2, 1957, p. 126-128

* استدرك الناشرون السوفيت على المؤلف ذكرهم لظهور بحث لعلامة هندى هو مهدى حسين عالج فيه الكلام عن أسفار ابن بطوطة فى الهند وجزر ملديف وسرنديب (١٩٥٣). ونحن نستدرك بدورنا عليهم فنذكر أن المستعرب =

الاهتمام الذى قابلته به أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ليقف برهانًا قاطعًا على صدق قول ابن جزى فى خاتمة الكتاب :

« ولا يخفى على ذى عقل أن هذا الشيخ هو رحّال العصر ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد »(١٢٨) .

ونحن إذ نودعه الآن فإنما نفارق بذلك آخر رحالة عربى كبير ؛ كما أننا بمفارقتنا لموسوعات عهد المماليك قد فارقنا آخر المصنفات الكبيرة التى تقدم عرضًا عامًا للأدب الجغرافى العربى .

= الكبير جب Sir Hamilton Gibb قد شرع فى نشر ترجمته الإنجليزية الكاملة للرحلة التى كان قد وعد بها والتى ظهر منها حتى كتابة هذه السطور جزآن . كما نضيف إلى هذا أن للكتاب ترجمة تشكية بقلم هربك Ivan Hrbek (براغ ١٩٦١) وإيطالية بقلم **غبرييلى** Fr. Gabrieli (فلورنسة ١٩٦١) وأخرى موجزة باليابانية ؛ ويجرى حاليًا العُمل فى تحضير ترجمات باللغات البولندية والمجرية والروسية . (المترجم)

(١٢٨) **الرحلة، طبعة** Defrémery, IV, p. 449

الفصل السادس عشر
ابن خلدون والجغرافيا فى المغرب فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر

431 لعل من المناسب ونحن ننتقل من القرن الرابع عشر إلى القرن الخامس عشر فى تحليلنا للأدب الجغرافى العربى أن نقف قليلا لنلقى نظرة على الآراء الجغرافية لدى ابن خلدون ، ليس ذلك فقط لأن ابن خلدون قد ولد فى عام ٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ وأكمل مصنفه الأساسى فى الربع الأخير من القرن الرابع عشر حوالى عام ٧٨٠ هـ = ١٣٧٨ وظل يضيف إليه إلى وفاته فى عام ٨٠٨ هـ = ١٤٠٦ وبهذا يقف على الحد الفاصل بين قرنين ؛ أقول ليس لهذه الأسباب فحسب بل لأن « مقدمة » كتابه فى التاريخ تستهدف وضع علم جديد فى الحضارة البشرية وتعرض لنا خلاصة لجميع معارف العصور السالفة فى مختلف الميادين ؛ وهى تعطى فكرة جلية عن المستوى الذى بلغه العلم فى العالم الإسلامى فى بداية القرن الخامس عشر وذلك على يد واحد من أبرز علماء الإسلام ، زد على هذا أن ابن خلدون إنما يمثل من ناحية أصله وسيرة حياته مزيجًا طريفًا لحضارة ذلك العصر (١) * .

فأبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ينتمى إلى فرع من كندة كان يقيم قبل الإسلام بحضرموت ، وقد دخل أجداده الأندلس مع الفتح واستقروا بقرمونه وإشبيلية وظهر من بينهم على ممر القرون عدد من رجال الإدارة والفقهاء ؛ وفى الأندلس اتخذ أول أجداده الاسم المغربى ابن خلدون . وبسقوط إشبيليه فى عام ١٢٤٨ انتقل بنو خلدون إلى شمال إفريقيا واستقروا نهائيًا بتونس وبها توفى فى عام ٧٤٩ هـ = ١٣٤٨ والده ، الذى كان بدوره فقيهًا وإداريًا ، وذلك بالطاعون الذى اجتاح العالم آنذاك والذى شهده ابن بطوطة فى موضع آخر . ولد ابن خلدون بتونس فى عام ٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ وبدأ وهو فى سن مبكرة حياته المستقلة التى أحاط بها الكثير من القلق

---

(١) Brockelmann, GAL, II, p. 242-245; SB II, p. 342-344 —Bel, EI, II, p. 419-420 —Arendonk, Ibn Khaldūn, p. 94 —Gibb, EI, EB, p. 257- Pnos Boigues, p. 350-362, No 302- Carra de Vaux, Les Penseurs, I, p. 278-293 —Margoliouth, Lectures, p. 156-158 — البستانى ، الروائع ، ١٣ — ١٥ —Krachkovski, Arabskia Literatura, p. 30 —Bartold, Mus. mir, p. 63-65 —Bartold, Kult. mus., p. 53-55 —Amari (-Nallino), I, p. 84-85, No 60 —Ferrand, Relations, II, p. 459-461

* عما ظهر عن ابن خلدون من دراسات وبحوث راجع كتاب عبد الرحمن بدوى « مؤلفات ابن خلدون » القاهرة ١٩٦٢ ؛ وراجع أيضًا « أعمال مهرجان ابن خلدون » ، القاهرة ١٩٦٢ . (المترجم)

والاضطراب . وعلى الرغم من ميله الشديد إلى الدراسة فإن هذا لم يحل بينه وبين **التقلّب فى**
432 **المناصب الحكومية طوال حياته تقريباً فشغل عدداً من الأعمال الإدارية / والكتابية قربته إلى حياة** البلاط والدسائس السياسية التى شارك فيها أحيانًا بنصيب وافر . وقد عاش ابن خلدون فى جميع الإمارات التى تقاسمت المغرب آنذاك فإلى جانب تونس أقام بفاس متمتعًا بعطف السلطان أبى عنان من بنى مرين وهو ذلك السلطان نفسه الذى عاش فى كنفه ابن بطوطة ، وقد مرت بنا قبل قليل إشارة ابن خلدون إلى هذا الأخير . وكان من بين أصدقاء ابن خلدون حين إقامته بغرناطة **الوزير المشهور والأديب الكبير ابن الخطيب الذى أصبح فيها بعد عدواً لدوداً له ؛ وفى عام ٧٦٥ هـ = ١٣٦٣ اختاره أمير غرناطة ليكون سفيره إلى ملك قشتالة. ولم يقدر لابن خلدون أن يستقر** طويلا فى موضع ما فعند رجوعه إلى افريقيا أخذ يتنقل بين عدد من المدن مثل بجايه وبسكره وتلمسان وفاس ثم رجع إلى الأندلس . وقد استطاع مرة أن يخلو إلى نفسه بضعة أعوام وذلك ابتداء من عام ٧٧٦ هـ = ١٣٧٥ فى بقعة شبه بدوية هى قلعة ابن سلامة من أعمال وهران[٢] انقطع فيها للقراءة والتأليف عاملا دون كلل فى تحضير مقدمة تاريخه . وفى خلال زيارة له إلى تونس بهدف جمع المادة العلمية لتاريخه تبين له أن الإقامة بالمغرب لم تعد فى مصلحته بسبب الاضطرابات **السياسية ، فقرر مغادرة تونس إلى المشرق متعللاً بالحج وخرج من المغرب إلى غير رجعة فى عام** ٧٨٤ هـ = ١٣٨٢ . وبعد أن أقام بعض الوقت بالإسكندرية غادرها إلى القاهرة التى كانت تعد بحق مركز الثقافة الإسلامية فى ذلك العصر ؛ وهنا تمتع ابن خلدون برعاية السلطان المملوكى برقوق وشغل فى عهده وعهد ابنه السلطان فرج منصب قاضى قضاة المالكية لمرات عديدة ابتداء من عام ٧٨٦ هـ = ١٣٨٤ ؛ وأدى فريضة الحج لأول مرة فى عام ٧٨٩ هـ = ١٣٨٧ . وقد لاحقته الدسائس فى مصر فأعفى من منصبه القضائى ست مرات وأمضى بضعة أعوام انقضت عام ٧٩٧ هـ = ١٣٩٤ فى عزلة بالفيوم كان من أسبابها الحزن العميق الذى أصابه بسبب نكبة أسرته فى حادث غرق سفينة . وفى بداية القرن الخامس عشر عرفته الشام أيضًا فقد كان فى معية **السلطان فرج عام ٨٠٣ هـ = ١٤٠٠ عند خروجه لصد التتار وكان بدمشق حين حاصرها تيمورلنك ؛ وقد أخذ ابن خلدون طرفاً فى الوفد الذى خرج للتفاوض فى تسليم المدينة وأغلب الظن أن** قصة مقابلته لتيمور وحديثه معه ، تلك القصة التى يرويها بين عدد من المؤرخين ابن عربشاه أيضًا ، قد أخذت نصيبها من المبالغة والتزويق وإن كان ذلك لا ينفى إمكان حدوثها[٣] . وقد أذن

---

(٢) -Prolégomènes, I, p. LXVII, note 3

(٣) المغربى ، محمد ، ص ٣٨ – ٨٣ .

له تيمور فى الرجوع إلى مصر فى مارس من عام ٨٠٣ هـ = ١٤٠١ فأمضى الأعوام الأخيرة من حياته بالقاهرة تارة يقال من منصبه كقاض وطورًا يعاد إليه ؛ وأمام هذه اللوحة المتعددة الألوان لسيرة حياته لم يكن غريبًا أن تحمل بعض مخطوطات ترجمته لسيرة حياته **(autobiography)** عنوان « رحلة ابن خلدون فى المغرب والمشرق »[٤] * . وعلى الرغم من هذا فإن الكتاب فى الحقيقة لا يمثل مصنفًا جغرافيًا من نمط الرحلة المعروف لنا جيدًا بل هو ترجمة لسيرة حياته بقلمه بكل ما يحمل هذا اللفظ من معنى ؛ وفيها يعرض ابن خلدون لجميع تنقلاته والحوادث التى مرت به دون
433 أن يحاول إظهار شخصيته فى ضوء ملائم لها ، مما يشهد له حقًا بالأمانة وشرف الضمير ./وقد عرفت هذه السيرة من وقت طويل فى أوروبا بفضل ترجمة دى سلين De Slane[٥] ؛ وهى توجد فى معظم الأحوال ملحقة بمصنفه التاريخى وتساق فى جميع المخطوطات تقريبًا إلى عام **٧٩٧** هـ = ١٣٩٤ ، وهذا التاريخ يتفق مع فترة انقطاعه بالفيوم . غير أن طه حسين تمكن من الرجوع إلى مخطوطة موجودة بالقاهرة تسوق العرض إلى عام ٨٠٧ هـ = ١٤٠٤ أى إلى العام السابق لعام وفاة ابن خلدون[٦] ** .

ومن هذا يتضح لنا أن الآراء الجغرافية لابن خلدون يجب استجلاؤها لا اعتمادًا على « الرحلة » بل من مؤلفه التاريخى الضخم الذى يحمل عنوانًا تغلب عليه الصنعة هو « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر »[٧] . وقد ظهر حول هذا الكتاب عدد كبير من البحوث لا تخص فى الواقع مؤلفه التاريخى نفسه بقدر ما تتعلق بمقدمته المشهورة التى تبلغ فى واقع الأمر ثلث حجم الكتاب . وجميع هذه البحوث تتفق فى جوهرها على أن ابن خلدون لا يرتفع فى القسم التاريخى من مصنفه إلى مستوى تلك النظريات التى

---

(٤) -Mahmassany, p. 38; cf حاجى خليفة III, p. 350, No 5881-

* تحمل الطبعة المصرية لهذا الكتاب (١٩٥١) عنوانًا مغايرًا هو « التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا » . (المترجم)

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ـ De Slane, Histoire des Berbères — Prolégomènes, I,

(٦) — **Taha Hussein, Étude, p. 15, 21 - 22**

** تناول ابن خلدون النسخة الأولى بالتعديل والتنقيح والزيادة وأضاف إليها تاريخ حياته إلى نهاية ٨٠٧ هـ أى إلى ما قبل وفاته ببضعة أشهر . وقد حفظت لنا من هذه الرواية الأخيرة مخطوطتان قيمتان بمكتبات استنبول ومنهما تفرعت نسخة دار الكتب المصرية التى يشير إليها المؤلف وهى التى طبعت مؤخرًا بالقاهرة كما أشرنا فى الملاحظة السابقة هذه . (المترجم)

(٧) صوّر رايت قسمًا من « كتاب العبر » بخط يد المؤلف يرجع إلى عام ١٤٠١
(W. Wright, Palaeographical Society, No 84)

يعرض لها فى المقدمة . أما الأقسام المختلفة لتاريخه فليست متساوية بالطبع من حيث القيمة فقد لاحظ أمارى مثلا وذلك فى كلامه عن صقلية أن ابن خلدون يكتفى بنقل المادة التاريخية دون أن يمحصها شأنه فى هذا شأن المؤرخين الآخرين ولكنه يقدم لنا فى مقابل هذا مادة وفيرة فى تاريخ البربر لم تكن معروفة قبله[٨] ، كما أن الفصل الذى أفرده لتاريخ الدويلات النصرانية فى أسبانيا يشرّف الأدب العربى بأجمعه كما قال دوزى Dozy[٩] . وإذا كان من المستحيل كما رأينا اتخاذ موقف سلبى تام من مصنفه التاريخى فإن مقدمة كتابه تمثل فى مجموعها أثرًا لا مثيل له لا بالنسبة لعصره فحسب بل وبالنسبة للأدب العربى بأجمعه . وفيها يفسر ابن خلدون التاريخ لا على ضوء تطور النظم السياسية كما فعل اليونان بل على ضوء تطور الأوضاع الاقتصادية للمجتمع البشرى فى صوره البدوية والحضرية والمدنية . ولا يخلو من الطرافة من وجهة النظر الجغرافية أن نلاحظ أنه يوزع مادته التاريخية لا على أساس الترتيب الزمنى الذى سار عليه المؤرخون بل على أساس الدول الحاكمة فى كل قطر مراعيًا فى ذلك الترتيب الجغرافى[١٠] .

أما فيما يتعلق بالجغرافيا خاصة فإن « المقدمة » مخيبة للأمل شيئًا ما ، ففيها نبصر ذلك
434 الانفصام المعهود فى الأدب العربى/بين المادة الجغرافية الواقعية من ناحية والاستنتاجات النظرية المبنية عليها من ناحية أخرى ؛ وحتى فى هذا المجال الأخير فإن ابن خلدون يبدو ناقلا متبعًا بصورة لم تكن متوقعة من شخص فى مثل ذكائه . ولعله مما يسترعى النظر حقًا أن الفصل السادس من المقدمة المكرس للعلوم وتصنيفها والذى يشغل بالتقريب ثلث المقدمة لا يرد فيه أى ذكر للجغرافيا ، بل وأكثر من ذلك لا يرد فيه أى ذكر للتاريخ أو لذلك العلم « الجديد » فى « العمران » الذى وضع ابن خلدون مقدمته قصدًا لتفصيل القول فيه[١١] . وابن خلدون فى تصنيفه للعلوم يفتقر إلى الأصالة[١٢] فهو تارة يسير على النمط اليونانى فى صورته العربية[١٣] وطورًا يتبع تصنيف « إخوان الصفاء »[١٤] . وهو يقسم العلوم إلى مجموعتين كبيرتين هما « العلوم النقلية الوضعية » و« العلوم الحكمية الفلسفية » ؛ فالمجموعة الثانية تشارك فيها جميع الشعوب

---

(٨) -Amari (-Nallino) I, p. 84

(٩) -Bartold, Mus. mir, p. 64-65

(١٠) شرحه ، p. 63-64

(١١) -Van den Bergh, p. 13-14

(١٢) -Cf. :Mahmassany, p. 92-93

(١٣) -Van den Bergh, p. 13

(١٤) -Kamil Ayad, p. 43-49

وهى تراث البشرية بأجمعها أما الأولى فهى خاصة بالمسلمين وحدهم وأداتها هى اللغة العربية وهو يقصد بها أساسًا ما يمكن أن يطلق عليه اسم العلوم الشرعية . ويتفق تقسيمه بوجه عام مع التصنيف « الثلاثى » trivium و « الرباعى » quadrivium للعلوم السائد فى العصور الوسيطة وينطبق فى واقع الأمر على نفس ذلك التصنيف الذى نجده فى معجم المصطلحات المشهور « مفاتيح العلوم »[١٥] . وبما أن ابن خلدون يختتم قسم الرياضيات بالكلام على الفلك (« الهيئة ») فهو يضم إلى هذا الأخير « علم الأزياج »[١٦] الذى يتضمن المعلومات فى الجغرافيا الرياضية ؛ وعلى هذا فلا يوجد مجال للكلام على الجغرافيا الطبيعية والوصفية فى تصنيف ابن خلدون . وعلى الرغم من ذلك فلم يكن فى مقدور ابن خلدون أن يعارض الواقع ومن ثم فقد اضطر إلى أن يفرد قسما فى مقدمته ليعرض فيه المذهب التقليدى عند الجغرافيين العرب .

وهذا القسم بدوره مثار لخيبة أمل لا تقل عن سابقتها لأن مادته لا تخرج عن نطاق المعلومات المعروفة لنا جيدًا ، وهو يمثل « المقدمة الثانية » من « الفصل الأول » من « الكتاب الأول » من مصنفه فى التاريخ[١٧]* . ولهذه « المقدمة الثانية » فى الجغرافيا « تكملة »[١٨] يليها « تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا[١٩] » ./والفصل الأول من مقدمة ابن خلدون مكرس برمته لمسائل 435
« العمران » عامة[٢٠] ؛ وتبحث « المقدمة الأولى » من هذا الفصل « فى أن الاجتماع الإنسانى ضرورى »[٢١] ، ثم تليها « المقدمة الثانية » فى الجغرافيا بعنوان « فى قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من البحار والأنهار والأقاليم » . ويبدأ ابن خلدون كلامه عن الجغرافيا بالوصف المعتاد لشكل الأرض ، وهو يعتبرها كرة يمثل اليابس نصف سطحها فقط ويمثل المعمور مقدار الربع من هذا اليابس وينقسم بدوره إلى سبعة أقاليم ؛ وكل واحد من هذه الأقاليم ينقسم بدوره أيضًا إلى عشرة أجزاء . ويبدو من كلامه أن مصدريه الأساسيين هما بطلميوس

---

(١٥) Van den Bergh, p. 9-12-

(١٦) شرحه ، p. 12

(١٧) p. 90-99 الترجمة p. 73-81 المتن Prolégoménes, I, – ابن خلدون ، طبعة بيروت ، ص ٣٥ –

* مما لا شك فيه أن ابن خلدون لم يطلق اسم « المقدمة » على الكتاب المعروف لدينا تحت هذا الاسم ولم يعتبره مطلقًا كتابًا مستقلا بل اعتبره دائمًا « الكتاب الأول » من مصنفه التاريخى « العبر » . (المترجم)

(١٨) p. 99-105 الترجمة p, 82-87; المتن Prolégomènes, I, – ابن خلدون ، طبعة بيروت ، ص ٣٨ –

(١٩) p. 106-168 الترجمة – p. 88-148 المتن Peolégomènes, I, — ابن خلدون ، طبعة بيروت ، ص ٤١ – ٦٥ –

(٢٠) ابن خلدون ، طبعة بيروت ، ص ٣٣

(٢١) شرحه

والإدريسى ، وهو يشير بصراحة إلى ذلك[٢٢]. ففى سرده للبحار والأنهار الذى سبق لنا معرفته جيدًا يقول ابن خلدون مانصه : « وقد ذكر ذلك كله بطلميوس فى كتابه والشريف فى كتابه رجار وصوروا فى الجغرافيا جميع ما فى المعمور من الجبال والبحار والأودية واستوفوا من ذلك ما لا حاجة لنا به لطوله ولأن عنايتنا فى الأكثر إنما هى بالمغرب الذى هو وطن البربر وبالأوطان التى للعرب من المشرق[٢٣] * » .

ويلى « المقدمة الثانية » « تكملة لهذه المقدمة الثانية » بعنوان « فى أن الربع الشمالى من الأرض أكثر عمرانًا من الربع الجنوبى وذكر السبب فى ذلك » . وفى هذه التكملة[٢٤] يعرض ابن خلدون للنظرية التى انتشرت فى الأدب الجغرافى العربى ومؤداها خلو البلدان الواقعة إلى الجنوب من خط الاستواء من السكان لإفراط الحر ، فيقف منها موقف المتشكك محاولا أن يوفّق بين تفكيره المتسم بالواقعية والنظريات المتوارثة عن العلم اليونانى فيقول : « ومن هنا أخذ الحكماء خلاء خط الاستواء وما وراءه . وأورد عليهم أنه معمور بالمشاهدة والأخبار المتواترة فكيف يتم البرهان على ذلك ؟ والظاهر أنهم لم يريدوا امتناع العمران فيه بالكلية[٢٥] إنما أداهم البرهان إلى أن فساد التكوين فيه قوى بإفراط الحر والعمران فيه إما ممتنع أو ممكن أقلى . وهو كذلك فإن خط الاستواء والذى وراءه وإن كان فيه عمران كما نقل فهو قليل جدًا »[٢٦] . ويختتم ابن خلدون هذه « التكملة » بالألفاظ الآتية : « ولنرسم بعد هذا الكلام صورة جغرافيا كما رسمها صاحب كتاب
436 رجار ثم نأخذ/فى تفصيل الكلام عليها ... إلخ »[٢٧] . ويجب أن نبادر إلى القول بهذه المناسبة أنه

---

(٢٢) -Prolégomènes, I, المتن p. 75; الترجمة p. 92-93

(٢٣) شرحه p. 99 الترجمة p. 81 المتن I,

* لم يلبث ابن خلدون أن عدل عن ذلك وأكمل هذه النبذة بتفصيلات كثيرة تحت عنوان « تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا ».وكان من الواجب عليه حذف هذه الألفاظ ولكن يلوح أنه غفل عن ذلك فظلت مثبتة فى جميع النسخ الخطية . ومن الملاحظ أن ابن خلدون قد تناول المسودة الأولى لمصنفه بالتنقيح والإضافة ، وفاته أحيانًا أن يحذف أو يعدل ما يتعارض مع هذه الإضافات فى المسودة الأولى فجاءت المسودات التالية مشتملة فى بعض المواطن على الأصل والزيادة معًا مع تعارضهما فيما يقررانه . وهذا ما حدث فعلا عند كلامه فى الجغرافيا . (المترجم)

(٢٤) شرحه p. 99 الترجمة p. 82 المتن I,

(٢٥) ابن خلدون ، طبعة بيروت ، تقرأ « يريدوا » بدلا من « يردو »

(٢٦) -Prolégomènes, I, المتن p. 86-87 والترجمة p. 104-105

(٢٧) -Prolégomènes, I, المتن p. 87 والترجمة p. 105

لم يتم العثور فى أية واحدة من مخطوطات كتابه على هذه الخارطة المزعومة(٢٨) * .

أما « تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا » فيقدم وصف الأرض بتقسيمها إلى أقاليم سبعة وتقسيم كل إقليم إلى عشرة أجزاء . وبعد أن يوضح ابن خلدون القاعدة الفلكية لهذا التقسيم ويصف الأقاليم بإيجاز يشير مرة أخرى إلى مصدره الأساسى وذلك بقوله :

« ونحن الآن نوجز القول فى ذلك ونذكر مشاهير البلدان والأنهار والبحار فى كل جزء منها ونحاذى بذلك ما وقع فى كتاب « نزهة المشتاق » الذى ألفه العلوى الإدريسى الحمّودى لملك صقلية من الأفرنج وهو رجار بن رجار عندما كان نازلا عليه بصقلية بعد خروج صقلية من إمارة مالقة . وكان تأليفه للكتاب فى منتصف المائة السادسة وجمع له كتبًا جمة . »(٢٩) .

ثم يسرد ابن خلدون عقب هذا مباشرة أسماء الكتب التى أشار إليها الإدريسى بألفاظه محتفظًا بنفس الترتيب الذى وردت به فى « نزهة المشتاق » ؛ ومن العسير القول بأنه عرفها جميعها معرفة مباشرة . أما وصفه للأقاليم فلا يمثل شيئًا جديدًا بالنسبة لنا إذ أنه يقدم مقتطفات فقط من مصنف الإدريسى المذكور . وهو قد يغتنم الفرصة أحيانًا ليضيف شيئًا ما كمعلوماته عن جزر المحيط الأطلنطى(٣٠) وعن جوف إفريقيا(٣١) ، هذا على الرغم من أن مادته كانت دون شك أحفل وأكثر تفصيلا فى مجالات كثيرة من معلومات الإدريسى . وقد رجع ابن خلدون أحيانًا إلى مصادر أخرى غير الإدريسى مثل ابن سعيد(٣٢) أو « كتاب المشترك » لياقوت(٣٣) ، غير أن هذا لا يحدث إلا نادرًا زد على ذلك أن ما ينقله منهم يرد عادة عن طريق الإدريسى نفسه . ولإعطاء مثال جيد لهذا نذكر موقفه من قصة رؤيا الواثق التى كانت سببًا فى رحلة سلام الترجمان ، فهو يقول إن هذه الرواية موجودة « فى حكاية طويلة ليست من مقاصد كتابنا هذا »(٣٤) .

---

(٢٨) -Prolégoènes, I, الترجمة p. 105, note 2

* لقد تم العثور عليها وهى موجودة فى مخطوطة واحدة فقط من المخطوطات العديدة لكتاب « العبر » هى المخطوطة رقم ٢١٠٦ طلعت بدار الكتب المصرية (راجع ص ٥٧ من كتاب « مؤلفات ابن خلدون » لعبد الرحمن بدوى ، القاهرة ١٩٦٢) . (المترجم)

(٢٩) ابن خلدون ، طبعة بيروت ، ص ٤١

(٣٠) شرحه ، ص ٤٢

(٣١) شرحه ، ص ٤٢ ، ٤٣

(٣٢) شرحه ، ص ٤٣

(٣٣) شرحه ، ص ٤٢

(٣٤) شرحه ، ص ٦٤

كل هذا يضطرنا إلى الاعتراف بأن القسم المكرّس لتصنيف العلوم ووصفها فى « المقدمة » والقسم الخاص بالجغرافيا لا يقدمان شيئًا ذا أهمية بالنسبة لتاريخ الأدب الجغرافى . ولحسن الحظ فإن هذين القسمين لا يستنفذان جميع المادة الجغرافية عند ابن خلدون ذلك أن كتابه يعد مصدرًا
437 **جغرافياً مهماً[٣٥]، ففى فصول أخرى من «المقدمة» تتناثر أفكار تتميز بالأصالة والجدة/ حتى** بالنسبة للأدب الجغرافى العربى نفسه . وفى هذا المجال فإن « المقدمات » الأخرى التى تلى « المقدمة الثانية » المتضمنة للقسم الجغرافى تمثل أهمية لا ريب فيها . « فالمقدمة الثالثة » مثلا **تبحث «في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء فى ألوان البشر»[٣٦]، وتبحث الرابعة «فى أثر الهواء فى أخلاق البشر»[٣٧]، والخامسة «فى اختلاف أحوال العمران فى الخصب والجوع وما** ينشأ عن ذلك من الآثار فى أبدان البشر وأخلاقهم »[٣٨] .

كل هذه المسائل التى تبحث فى أثر الإقليم[٣٩] والوسط الجغرافى[٤٠] فى حياة البشر لم يحدث أن أخضعت قبل ابن خلدون لفحص منظم ، فهو فى هذا المضمار يجب أن يعد **مجدّداً** بلا ريب ومثل أفكاره هذه لم تظهر فى أوروبا إلا بعد مضى عدة قرون وذلك ابتداء من مونتسكيو Montesquieu[٤١] .

أما بالنسبة للجغرافيا الاقتصادية فإن عددًا من أقسام « المقدمة » يمتاز أيضًا بقيمة لا تجارى وهذا يصدق مثلا على الفصل الثانى « فى العمران البدوى والأمم الوحشية والقبائل[٤٢] » ، وعلى الفصل الرابع « فى البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض فى ذلك من الأحوال[٤٣]» ، ويصدق كذلك على الفصل الخامس « فى المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال »[٤٤] . واهتمام ابن خلدون بالأمم شبه المتحضرة يمثل واقعة نادرة فى الأدب

---

(٣٥) Kramers, EI, EB, p. 71-
(٣٦) ابن خلدون ، طبعة بيروت ، ص ٦٥ — ٦٨ .
(٣٧) شرحه ، ص ٦٨ — ٦٩ .
(٣٨) شرحه ، ص ٦٩ — ٧٣
(٣٩) Cf : T. Hussein, Étude, p. 85-91 —Mahmassany, p. 169-170-
(٤٠) Cf. : T. Hussein, Étude, p. 92-93-
(٤١) Mahmassany, p. 171-
(٤٢) ابن خلدون ، طبعة بيروت ، ص ٩٥
(٤٣) شرحه ، ص ٢٧٢ — ٣٠١
(٤٤) شرحه ، ص ٣٠٢ — ٣٠٤

الجغرافى العربى، وبوسع علماء الاثنوغرافيا المعاصرين أن يجدوا مادة قيمة فى تصنيفه للأعراق البشرية كما وأن القسم المفرد للبربر من تاريخه قد تم الاعتراف به بحق كأقيم ما فى مصنفه. ويمكن القول بأنه لا علماء الأعراق البشرية ولا علماء الاقتصاد ولا علماء الاجتماع قد فرغوا من دراسة ابن خلدون من وجهات نظرهم المختلفة، كما أن كلا من المؤرخ وعالم الجغرافيا يستطيع الكشف عن الكثير المهم لدى ابن خلدون. وعلى الرغم من ذلك فإنه يجب القول مرة ثانية بأن ابن خلدون لا يحتل مكانة ممتازة فى التطور العام للأدب الجغرافى العربى، كما أنه لم يترك أى أثر فى هذا الميدان على الأجيال التالية له.

أما من ناحية أسلوبه الكتابى فإن ابن خلدون أبعد من أن يعد نموذجًا يحتذى ؛ وكما هو الحال مع جميع معاصريه فإنه تنعكس فيه بوضوح آثار عصر التدهور التى تبدو فى غلبة السجع والمحسنات البديعية والتشبيهات والاستعارات المبالغ فيها ، بل إن لغة ابن خلدون نفسها لم تسلم أحياناً من الألفاظ العامية والإفراط في استعمال الألفاظ المحدثة كما لا تخلو من الأخطاء النحوية؛ وليس من النادر أن يحيط الغموض ببعض ألفاظه من وقت لآخر. وإذا حدث وأن عُدّ ابن خلدون يومًا ما مؤلفًا كلاسيكيًا بمصر وسوريا فإن مرد/هذا إلى التدهور الذى بلغه الأدب 438
العربى حينما ظهرت الطبعة الأولى « للمقدمة » . وقد كفلت له أفكاره الجديدة التى عبر عنها فى لغة مغايرة للغة عصره نجاحًا أدبيًا دام حينًا من الدهر[٤٥] ، ولكن هذه المكانة أخذت تهبط منذ بداية القرن العشرين حينما اتفق العلماء العرب المعاصرون مع الرأى القديم لدى سلين[٤٦] وأمارى[٤٧] القائل بعدم اعتباره كاتبًا كلاسيكيًا وذلك رغمًا من الطرافة الكبرى التى تتمتع بها نظرياته[٤٨] .

ومن خلال سيرة حياة ابن خلدون نستطيع أن نتبين إلى أى حد ظلت الروابط الثقافية قائمة بين المغرب ومصر فى القرن الخامس عشر رغمًا من انقسام العالم الإسلامى إلى عدد من الوحدات السياسية ؛ ويبدو أنه كان باستطاعة العلماء أن ينتقلوا دون أى جهد من بلد إلى آخر وأن يقيموا أمدًا طويلا أو قصيرًا فى مختلف الأماكن دون الإحساس بتغير كبير فى الوسط . وما يصدق على العلماء يصدق أيضًا على الرحالين العاديين فقد ظل الاتصال مع الأندلس مثلا قائمًا طوال القرن الخامس عشر وإلى آخر أيام دولة غرناطة، فاتجه عدد من الرحالين من المشرق صوب الأندلس

(٤٥) T. Hussein, Étude, p. 28-29

(٤٦) -Prolégomènes, I, p. CXII

(٤٧) -Amari (-Nallino), I, p. 84

(٤٨) ابن خلدون ، الروائع ، رقم ١٥ ، ص ح – د -Mahmassany, p. 43

يدفعهم إلى ذلك مجرد حب الاستطلاع أو كما كان عليه الحال من قبل « طلب العلم » الذى كانت مراكزه لا تزال مضيئة هناك * .

وإحدى تلك الرحلات التى اتجهت من مصر صوب المغرب والأندلس فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر قام بها عبد الباسط بن خليل الملطى (٤٩) ، ووالده هو خليل الظاهرى (٥٠) أحد كبار عمّال دولة المماليك ومؤلف المدخل الإدارى الجغرافى الذى سيأتى الكلام عليه فى موضعه . وإذا أمكن أن نستدل من نسبته على أنه ولد بالشام ، وذلك فى عام ٨٤٤ هـ = ١٤٤٠ (٥١) ، إلا أنه نال تعليمه بمصر وأحس وهو فى سن مبكرة بميل خاص إلى دراسة الطب . ولما كان المغرب فى ذلك العهد لما يزل محتفظًا بشهرته فى مجال دراسة الطب فقد عقد عبد الباسط العزم وهو لا يزال فى ريعان شبابه على السفر إليه لتوسيع معارفه . وتحت ستار التجارة غادر الإسكندرية على ظهر سفينة جنوية فى عام ٨٦٦ هـ = ١٤٦٢ فزار تونس وطرابلس وتلمسان ووهران . ومن وهران أخذ سفينة جنوية أيضًا فى ديسمبر من عام ١٤٦٥ فنزل بمالقة وغادرها إلى بلش Veles فالحمّة حتى بلغ غرناطة التى كانت تمثل منذ عهد طويل المركز الوحيد الذى تبقى للإسلام باسبانيا . ويبدو أن الطريق الذى سلكه قد أصبح منذ وقت طويل الطريق الوحيد إلى
غرناطة فقد سلكه قبله ابن بطوطة منذ أكثر من قرن وذلك فى عام ٧٥٢ هـ =/ ١٣٥١ (٥٢) — 440
١٣٥٢ ؛ كما سلكه بعد ثلاثين عامًا من عبد الباسط وذلك فى عام ١٤٩٤ — ١٤٩٥ ، أى عقب سقوط غرناطة ، الرحالة الألمانى هيرونيم مونتسر H. Muntzer ووصفه فى كتابه « الرحلة الإسبانية » Iter Hispanicum (٥٣) . ولم يقدر لعبد الباسط أن يحقق حلمه بزيارة قرطبة على الرغم

---

* بمناسبة انتهاء كلام المؤلف على ابن خلدون أرى أن ألفت النظر إلى أن ابن خلدون قد ذكر فى ترجمته لسيرة حياته « التعريف » أن تيمور لنك كلفه بأن يكتب له وصفًا دقيقًا لبلاد المغرب ففعل ذلك « فى مختصر وجيز يكون قدر ثنتى عشرة من الكراريس المنصفة القطع » (ص ٣٧٠) ؛ غير أن هذا الأثر لم يصل إلينا . وعلى أية حال فإن القصة فى حد ذاتها تقف دليلا جديدًا على اهتمام ابن خلدون بالجغرافيا . (المترجم)

(٤٩) Wüstenfeld, Die Geschichtschreiber, p. 234, No 508 —Brockelmann, GAL, II, p. 54, No 17; SB II, p. 52-53 —Mieli, p. 274, No 7 —

وممن يخلطون [بينه] وبين شخص آخر (عاش فى الفترة ٧٨٤ هـ — ٨٥٤ هـ = ١٣٨٢ — ١٤٥٠) : السوكانى ، الجزء الأول ، ص ٣١٥ — ٣١٧ ، رقم ٢٨٢ ؛ Wiet ، المنهل الصافى ، ص ١٩٣ رقم ١٣٤٦

(٥٠) Lévi della Vida, Al-Andalus, I, p. 308, note 2

(٥١) ابن اياس ، الجزء الرابع ، ص ٣٧٤

(٥٢) Lévi della Vida, Al-Andalus. I; p. 320, note 1

(٥٣) شرحه ، p. 334

من أن التجار المسيحيين والمسلمين كانوا ينتقلون من منطقة إلى أخرى بحرية تامة ؛ وكان السبب الذى حال دون ذلك هو أن رحالتنا قد أصيب بجراحة بالغة(٥٤) فى معركة شخصية وحين برىء من جرحه أخذ طريق العودة فبلغ وهران فى فبراير من عام ١٤٦٦ ثم مصر فى مايو من عام ٨٧١ هـ = ١٤٦٧ . وقد عمر عبد الباسط طويلا وتوفى قبل وقت قصير من فتح العثمانيين لمصر وذلك فى عام ٩٢٠ هـ = ١٥١٤ متمتعًا بتقدير الجميع له كفقيه من فقهاء الحنفية وبسمعة واسعة كخبير فى الطب(٥٥) . ومن بين المؤلفات العديدة التى خلفها لنا يحتل أهمية خاصة كتابه فى التاريخ « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » الذى يعالج تاريخ الفترة من عام ٨٤٤ هـ = ١٤٤٠ إلى زمن المؤلف ، والذى يولى فيه اهتمامًا خاصًا لسير مشاهير الرجال خاصة العلماء الذين التقى بهم(٥٦) . وقد كشف المستشرق ليفى ديلافيدا **Levi della Vida** منذ عهد غير بعيد بمكتبة الفاتيكان(٥٧) عن قطعتين من تاريخه هذا إحداهما بخط يد المؤلف نفسه ؛ وفيهما يروى المؤلف بعض قصص أسفاره والأحداث المعاصرة له . وقد نشر ليفى ديلافيدا بعض الشذور المتعلقة بالأندلس(٥٨) ومن مراجعتها يستطيع القارىء أن يخرج بنتيجة مؤداها أن مادته ليست بذات قيمة كبيرة بل إنها فقيرة ، كما أن أسلوبه يغلب عليه الجفاف . وعلى الرغم من أن المؤلف كان يشغل أثناء وضعه لمصنفه مركزًا رفيعًا وكان قد نال درجة من الثقافة تفوق المتوسط فيما يبدو إلا أنه لم يكن عالمًا كبيرًا أو ذا نظر ثاقب فى تحليل المسائل السياسية وإن تمتع بدرجة فائقة من قوة الملاحظة فى شبابه ؛ ويبدو من أسلوبه أنه سريع الدهشة سريع التصديق ، مع ميل واضح إلى الغريب والنادر شأنه فى هذا شأن معظم معاصريه . وهو يعبر عن نفسه بجمل عامة ؛ ومع أن ملاحظاته تتميز بالحيوية إلا أنها تتصف بالضحالة ولا تنفذ إلى أعماق ما شاهده أو تذكره . أما غرناطة فتذكره قبل كل شىء بدمشق التى عرفها فيما يبدو جيدًا ؛ وهو كثيرًا ما يعود إلى هذه المقارنة بين المدينتين دون أن يورد أمثلة ملموسة لأوجه الشبه بينهما . وعلى الرغم من كل هذا فإن سرده يتصف بالأمانة وبالبساطة بل ويكتسب قيمة كبيرة لأنه يترجم عن أحاسيسه المباشرة ، تلك الأحاسيس التى يستشعرها أى عربى قادم من المشرق حين يجد نفسه أمام جمال الطبيعة فى/ 441

---

(٥٤) شرحه ، p. 324, note 2

(٥٥) ابن إياس ، الجزء الرابع ، ص ٣٧٣ - ٣٧٤

(٥٦) Lévi della Vida, Al-Andalus, I, p. 308-309-

(٥٧) Lévi della Vida, Elenco, p. 69, No 728-729-

(٥٨) Lévi della Vida, Al-Andalus, I, p. 307-334-

الأندلس وأمام آثارها الفنية القيّمة . ويمكن من خلال عرضه أن يستشف ذلك الشعور بالأسى الذى يستولى على قلب كل مسلم مخلص وهو يبصر تقدّم « الكفار » التدريجى نحو الجنوب ويستشعر فى دخيلة نفسه أن أيام العرب فى تلك البلاد قد أصبحت معدودة[٥٩] . أما ميزة المصنف الأساسية فتكمن فى البساطة الشديدة التى غلبت على لغته ، فعبد الباسط يميل أحيانًا إلى التعبيرات العامية ويذكّر بوجه عام بمؤرخى مصر المعاصرين له خاصة ابن إياس[٦٠] .

وقبل قليل من رحلة عبد الباسط وذلك فى عام ٨٦٦ هـ = ١٤٦١ وبمدينة جدة[٦١] أتم مغربى معجمًا جغرافيًا يكاد يكون الحلقة الأخيرة فى تلك السلسلة من المعاجم الجغرافية التى بلغت أوجها فى اسم ياقوت ؛ ذلكم هو كتاب « الروض المعطار فى خبر الأقطار » لعبد الله محمد بن عبد المنعم الحميرى[٦٢] الذى كشف عنه منذ فترة غير بعيدة ونشره ليفى بروفنسال Levi - Provençal[٦٣] . وعلى الرغم من أن اسم الكتاب واسم مؤلفه قد ثبتا بصورة قاطعة إلا أنه يرتبط بالتاريخ الأدبى لهذا الأثر لغز كبير لا يزال ينتظر الحل المقنع الشافى . وتاريخ إتمام هذا الأثر كما يظهر فى إحدى مخطوطات الكتاب يؤكده تاريخ وفاة المؤلف الذى يرجعه حاجى خليفة إلى عام ٩٠٠ هـ = ١٤٩٤[٦٤] ؛ غير أن حاجى خليفة يذكر إلى جانب هذا المصنف مصنفًا آخر يحمل العنوان نفسه ويكاد يتفق مع المصنف الأول فى اسم مؤلفه ولكنه خلو من الإشارة إلى أى تاريخ . ومما يزيد فى تعقيد المسألة وجود إشارات إلى كتاب يحمل ذلك العنوان لدى مؤلفى القرنين الرابع عشر والخامس عشر مثل القلقشندى والمقريزى ؛ ومن الملاحظ أن الشذور التى اقتبسوها منه تتفق مع المواضع المعينة فى المخطوطات التى كشف عنها ليفى بروفنسال . واعتمادًا على أن أسرة الحميرى قد تمتعت بنفوذ كبير على ممر قرون طويلة بمدينة سبتة وأن اسم عبد المنعم كان من الأسماء المفضلة إلى الأسرة[٦٥] فإن ليفى بروفنسال قد جنح إلى افتراض وجود مسودتين للمعجم تتلو إحداهما الأخرى من الناحية الزمنية وترجعان إلى شخصين من أسرة واحدة يحملان فى ذات الوقت

---

(٥٩) شرحه، p. 307

(٦٠) شرحه، p. 310

(٦١) Lévi —Provençal, La Péninsule, p. XI-

(٦٢) Pons Boigues, p. 175, No 139 —Gaudefroy —Demombynes, La Syrie p. XI-XII- —Brockelmann, GAL, SB II, p. 38, No 11 —Mieli, p. 272-273

(٦٣) Lévi-Provençal, La Péninsule-

(٦٤) حاجى خليفة III, p. 490, No 6597

(٦٥) Lévi-Provençal, La Péninsule, XVI-

اسما واحدًا . والمسودة الموجودة فى متناول الأيدى ترجع إلى نهاية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ويمكن من مقارنة الشذور المتبقية منها الجزم بأنها تعيد بلا تغيير يذكر مسودة سابقة عليها ترتفع فيما يغلب على الظن إلى نهاية القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ؛ ومما يوكد صحة هذا الفرض أن مادتها كما يبدو من مراجعة الفهارس المعروفة لنا لا تعالج الحوادث التالية لذلك التاريخ[٦٦] . أما المؤلف نفسه فلا توجد لدينا عنه أية معلومات ، ويمكن الافتراض بأنه قد
ولد بمدينة سبتة كبقية أفراد أسرته وأن وجوده بجدة/كان بغرض الحج . وفى إحدى مخطوطات 442
الكتاب أضيف إلى اسم المؤلف نعت « عدل »[٦٧] مما يشير إلى أنه كان يعمل فى توثيق العقود (notary) .

أما هدف الكتاب بل وجميع طابع المعجم فإنه ينعكس بصورة واضحة فى مقدمته التى بدأها بالاستهلال البديعى المعهود فيقول :

« قال أبو عبد الله محمد بن أبى محمد عبد الله بن عبد المنعم الحميْرِىُّ : الحمد لله الذى جعل الأرض قرارًا ، وفجَّر خلالها أنهارًا ، وجعل لها رواسى ألزمتها استقرارًا ، ومنعتها اضطرابًا وانتثارًا ، جعلها قسمين فيافى وبحارا ، وأودع فيها من بدائع الحكم وفنون المنافع ما بهر ظهورًا وانتشارًا ، وأطلع فى آفاقها شموسًا وأقمارًا ؛ جعلها ذلولا ، وأوسعها عرضًا وطولا ، وأمتع بها شيبًا وشبابًا وكهولا ، وعاقب عليها غُيُوثًا وقبولا ، وأغرى بالمشى فى مناكبها تسويغًا للنعمة الطولى ، وتتميمًا لإحسانه الذى نرجوه فى الآخرة والأولى ، إن فى ذلك لعبرة لمن صار له قلب وسمع وبصر وفهم منقولا ومعقولا ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ؛ أحمده على جزائل آلائه التى والى إمدادها ، وأحصى أعدادها ، وعم بها البرية وبلادها ؛ وصلى الله على نبيه الكريم الذى زُوِيَت له الأرض فرأى غايتها ، وأبصر نهايتها ؛ وأخبر أن ملك أمته سيبلغ ما رآه ، وينتهى إلى حيث قدره الخالق وأنهاه .

وبعد فإنى قصدت فى هذا المجموع ذكر المواضع المشهورة عند الناس من العربية والعجمية ، والأصقاع التى تعلقت بها قصة ، أو كان ذكرها فائدة ، أو كلام فيه حكمة ، أولها خبر طريف ، أو معنى يستملح أو يستغرب ويحسن إيراده ، أما ما كان غريبًا عند الناس ، ولم يتعلق بذكره فائدة ، ولا له خبر يحسن إيراده ، فلا ألم بذكره ، ولا أتعرض له غالبًا استغناءً عنه واشتغالا لذكره ؛

---

(٦٦) شرحه ، p. XV

(٦٧) شرحه ، p. XII

ولو ذهبت إلى إيراد المواضع والبقاع على الاستقصاء لطال الكتاب ، وقلّ إمتاعه ؛ فاقتصرت
لذلك على المشهور من البقاع وما فى ذكره فائدة ونكتفى عما سوى ذلك ، ورتبته على حروف
المعجم لما فى ذلك من الإحماض المرغوب فيه ، ولما فيه من سرعة هجوم الطالب على اسم الموضع
443 الخاص من غير تكلف عناء ولا/تجشم تعب ؛ فقد صار هذا الكتاب محتويًا على فنين مختلفين :
أحدهما ذكر الأقطار والجهات ، وما اشتملت عليه من النعوت والصفات ؛ وثانيها الأخبار
والوقائع والمعانى المختلفة بها ، الصادرة عن مجتليها ؛ واختلست ذلك ساعات زمانى ، وجعلته
فكاهة نفسى؛ وأنصبت فيه فكرى وبدنى ؛ ورصنته حتى انقاد للعمل ، وجاء حسب الأصل ،
فأصبح طاردًا للهموم ، ملقيًا للغموم ، وشاهدًا بقدرة القيوم ؛ مغنيًا عن مؤانسة الصَّحْب ،
منبهًا على حكمة الرب ؛ باعثًا على الاعتبار ، مستحضرًا لخصائص الأقطار ؛ مشيرًا لآثار الأمم
وأحداثها ، مشيرًا إلى وقائع الأخبار وأنبائها ؛ ثم إنى قِسته بالكتاب الأخبارى المسمى بنزهة
المشتاق فوجدته أعظم فائدة وأكثر أخبارًا وأوسع فى فنون التواريخ وصنوف الأحداث مجالا حتى
فى وصف البلاد فإنه إنما ذكر نبذةً منها وشيئًا قليلا فى مواضع مخصوصة معدودة ، بل إنما عظم
حجمه بما اشتمل عليه من قوله : « من فلانة إلى فلانة خمسون ميلا أو عشرون فرسخًا ، ومن
فلانة إلى فلانة كذا وكذا » ، أما الخبر عن الأصقاع مما يحسن إيراده ويلذُّ سماعه ، من خبر
ظريف ، أو وصف يستغرب أو يستملح ، فإنما يوجد فيه فى مواضع قليلة معدودة ، إلى غير ذلك
من عسر وجدان الناظر فيه بمطلوبه بأول وهلة بل بعد البحث والتفتيش .

وجعلت الإيجاز فى هذا الكتاب قصدى ، وحرصت على الاختصار جَهْدى ؛ حتى جاء
نسيج وحده ، مليحًا فى فنه ، غريبًا فى معناه ، مبهجًا للنفوس المتشوِّقة ، ومذهبًا للأفكار
المحرقة ؛ مؤنسًا لمن استولى عليه الانفراد ورغب عن معاشرة الناس ، ومع هذا فقد لُمْتُ نفسى على
التشاغل بهذا الوضع الصادِّ عن الاشتغال بما لا يغنى عن أمر الآخرة والمهمِّ من العلم المُزْلف عند
الله تعالى وقلت ؛ هذا من شأن البطَّالين وشغل من لا يهمُّه وقته ، ثم رأيت ذلك من قبيل ما فيه
ترويحٌ لهذه النفوس ، ومن حسن تعليلها بالمباح لمن ينشط إلى ما هى به أعْنَى ؛ ثم هو مَهْيَعٌ يسلكه
الناس ، وأعتنى به طائفة من العلماء ، وقيده جماعة من أهل التحصيل ، فلا حرج فى الاقتداء
444 بهم بل أقول : أعوذ بالله من علم لا ينفع ، وأستغفره وأستقيله وأسأله التجاوز عن الهفوات ،/
والصفحَ عن الاشتغال بما لا يفيد فى الآخرة ، فياربِّ عفوًا عن اقتراف ما لا رضى لك فيه فأنت
على كل شىء قدير ! »[٦٨]

---

(٦٨) Lévi-Provençal, المتن p. ج – ح ؛ وترجمة القسم الثانى p. XIX-XX -

ولا يخلو من طرافة أن نلاحظ من سياق عبارة المقدمة كيف أن مؤلفًا من أهل القرن الخامس عشر يجد من الضرورى بالنسبة له أن يبرر اشتغاله بالمسائل الجغرافية مستشهدًا فى ذلك بالآيات القرآنية شأنه فى هذا شأن مؤلفى القرنين التاسع والعاشر ، بل وأن نلاحظ كذلك كيف يحاول هذا المؤلف عن طريق الخشية غير المستترة أن يبرر اشتغاله بالعلوم « الدنيوية » شأنه فى هذا شأن ياقوت تمامًا . ويشبه « الروض المعطار » معجم ياقوت فى أنه يمثل مجموعة من التعليقات التى تتفاوت طولا وقصرًا وتعالج الكلام عن المدن والمواضع والجبال والأنهار والأقطار مرتبة وفق حروف المعجم ؛ وهو يمثل فى ذات الوقت رسالة فى الجغرافيا الوصفية ومجموعة من « العجائب » mirabilia وتاريخًا سياسيًا لفترة معينة من الزمان وخزينة أدبية تحوى مجموعة كبيرة من النثر والشعر . ورواياته عن المشرق العربى مع أنها كبيرة العدد إلا أنها لا تبلغ حجم مادته عن افريقيا والمغرب والأندلس .

ونظرًا لما وجهه من نقد شديد للإدريسى فمن العسير الاعتقاد بأنه يعتمد كثيرًا على مصنف الأخير ، غير أن الفحص والتحليل أثبتا أن مؤلفنا قد نقل من « نزهة المشتاق » القسم الذى يعالج الكلام على اسبانيا برمته ؛ وهذا أمر له أهميته إذ أننا نجد أنفسنا والحالة هذه أمام متن جديد للإدريسى يمكن أن يمثل أهمية كبرى عند تحقيق كتاب « نزهة المشتاق » وإعداده للنشر . وبنفس القدر نقل الحميرى من « كتاب المسالك والممالك » للبكرى ، وإذا وضعنا جيدًا فى اعتبارنا أنه لم يتم حتى الآن الكشف عن القسم الذى يعالج الكلام عن الأندلس من ذلك الكتاب فإن قيمة الشذرات من كتاب الحميرى التى تعالج هذا الموضوع ترتفع بشكل ملحوظ . أما المصدر الثالث الذى اعتمد عليه الحميرى اعتمادًا أساسيًا فى هذا المجال فهو رسالة مجهولة المؤلف من القرن الثانى عشر معروفة لنا جيدًا ، أعنى « كتاب الاستبصار » . هذا وتمثل المادة التاريخية لدى الحميرى فى كثير من الأحايين أهمية ليست بالضئيلة ، وقد دلل ليفى بروفنسال على أن روايته عن معركة الزلّاقة الفاصلة فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى تعتبر من أوفى وأفضل ما دوّن فى هذا الصدد[٦٩] ؛ كما حدث وأن أشرنا فى حينه إلى فضل الحميرى فى حل المشكلة المتعلقة برحلة إبراهيم بن يعقوب الطرطوشى إلى بلاد الصقالبة . والحميرى بالطبع كاتب نقالة شأنه فى هذا شأن بقية المؤلفين العرب وإليه يرجع فضل كبير فى حفظ عدد من الروايات لمؤلفين مختلفين لولاه لكانت فى حكم المفقودة .

---

(٦٩) Lévi Provençal, Al-Zallāka, p. 1304 — p. XXIII-XXVI شرحه

وقد نال مصنف الحميرى* حظوة كبيرة لدى المؤلفين المتأخرين وإن وقف هذا بالطبع عند حد بلاد المغرب وحدها بالتقريب ، فإلى جانب من ذكرناهم فى سياق الحديث ممن استعملوا مسودته الأولى نقل عنه أيضًا فى القرن السابع عشر المقّرى ، وفى القرن الثامن عشر مقديش[٧٠]؛ بل وحتى فى القرن التاسع عشر /الناصرى السلاوى[٧١]؛ وكل هذا يقف بالطبع دليلا على قيمة 445
المادة التى جمعها الحميرى . ولا يفوتنا أن نشير فى خاتمة كلامنا عنه إلى أن ليفى بروفنسال الذى يدين له العلم بتعريفنا بهذا الأثر قد جمع القسم الخاص بالأندلس ونشره مع ترجمة فرنسية وتعليقات علمية جعلت من هذه الطبعة مرجعًا قيمًا لا يمكن الاستغناء عنه فى دراسة الأندلس ، بحيث يلعب بالنسبة لتلك البلاد نفس الدور الذى يلعبه معجم ياقوت بالنسبة للعالم الإسلامى .

وإذا أمكن اعتبار الحميرى آخر مؤلف لمعجم جغرافى كبير فإن ثمة مغربيًا آخر هو ليون الإفريقى المشهور يكاد يعد بوجه عام آخر المؤلفين الكبار فى محيط الجغرافيا العربية ببلاد المغرب . وإذا تناولنا المسألة من الناحية الشكلية فحسب فلعل الكلام عنه لا يدخل فى دائرة موضوع بحثنا ، ذلك أن مصنفه الأساسى معروف فقط فى ترجماته الأوروبية فى حين أن أصله العربى مفقود تمامًا ولكنه فى أغلب الظن قد وجد بالفعل ، وبهذه الصفة فهو ينتمى إلى الأدب العربى ؛ وقد كشف الآن عن المؤلف مواطنوه المغاربة واعترفوا به بل إن مغربيـاً معاصرًا أفرد له منذ وقت غير بعيد دراسة خاصة[٧٢] .

وفى سيرة حياته شبه بعيد بسيرة حياة الإدريسى غير أن اسمه الغريب يشير إلى ما أحاط بها من تعقيد كبير[٧٣] ؛ فهو معروف فى الأقطار العربية باسم الحسن بن محمد الوزّان الزياتى ولكن اسمه يرد فى مصنفاته التى وضعها بأوروبا على أنه يوحنا الأسد الغرناطى معربًا بهذا الاسم الذى أطلق عليه هناك وهو **Iohannes Leo Eliberitanus** أو **Africanus** أى يوحنا ليون (الأسد) الإيبيرى أو الإفريقى[٧٤] . وقد ولد فيما يبدو بغرناطة وذلك قبل أمد قصير من سقوطها فى أيدى

---

* ظهرت طبعة جديدة وكاملة « للروض المعطار » من عمل العلامة الفلسطينى الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ . (المترجم)

(٧٠) Nallino, Centenario, I, p. 327-328; II, p. 640-641-

(٧١) Lévi-Provençal, Hist. des Chorfa, p. 361, note 2, 396-

(٧٢) Collin, Hespéris, XX, p. 94-98 : تقريظه لدى ؛ محمد المهدى الحجوى —

(٧٣) Massignon, Maroc, p. 32-34-

(٧٤) Brockelmann, GAL, SB II, p. 710, No la —Massignon, Leo Africanus, p. 24 —Mieli, p. 276, 279-280, note 6-9 —Amari (Nallino) I, p. 361-363 —Schefer, Description de l'Afrique —Massignon, Maroc.-

النصارى عام ١٤٩٢ ؛ وكما هو الحال مع عدد كبير من الأسر المسلمة فقد انتقل أهله عقب ذلك إلى مراكش فشب مؤلفنا بمدينة فاس التى أخذ منها نسبته أى الفاسى . ومنذ نحو عام ١٥١١ صحب عمه فى رحلة دبلوماسية ساقته إلى تمبكتو عن طريق درعه[٧٥] .

ومن المؤكد أنه نال حظًا جيدًا من التعليم وتمرّس فى فنون الكتابة الدواوينية ، كما أنه قد اضطلع لا أقل من ثلاث مرات بأعباء سفارات هامة فى جنوبى مراكش لأسرة بنى وطّاس[٧٦] الحاكمة بفاس ، وهى واحدة من آخر فروع أسرة بنى مرين وعرفت بتشجيع الثقافة والارتفاع بمستوى الحضارة فى المغرب الأقصى وإلى عصرهم الذى يمكن أن يعد فترة انتقال بين تاريخ مراكش الوسيط وتاريخها الحديث يرجع الوصف الدقيق المفصل لمدينة فاس الذى دونه يراع ليون الإفريقى[٧٧] . وفيما بعد قام بأعباء مماثلة لهذه/لدى الشريف محمد[٧٨] ؛ وقد استطاع خلال 446 رحلاته العديدة أن يتعرف بصورة جيدة على افريقيا الداخلية والشمالية[٧٩] ولا تزال الدوافع التى حفزته لمغادرة مراكش فى عام ٩٢١ هـ = ١٥١٥ والضرب فى نواحى الأرض غير واضحة ، شأنها فى هذا شأن جل التفاصيل المتعلقة بسيرة حياته[٨٠] . ولعل الدافع الأساسى من بينها كان رغبته فى أداء فريضة الحج ، أو ربما ساقه إلى ذلك اعتبارات أخرى ، ومهما يكن من شىء فإنه يجب الاعتراف بأن عدد البلاد التى زارها أمر لم يعهد من قبل فهو قد زار على حد قوله مصر وبلاد العرب وإيران والشام وأرمينيا و« بلاد التتار » ؛ والأرجح أنه يقصد بهذه الأخيرة منطقة تبريز . وكان بمكة ومصر فى عام ٩٢٣ هـ = ١٥١٧ ، وهو عام يمثل لحظة حاسمة فى تاريخ تلك الأقطار هى لحظة فتح السلطان سليم العثمانى لمصر ؛ ولكن مؤلفنا لا يذكر شيئًا عن ذلك[٨١] . وقد بلغ الوزان فى تجواله استنبول التى أخذت منذ ذلك الحين تجتذب إليها بشكل مطرد أنظار العرب الذين أخذت أوطانهم تدور فى فلك الدولة العثمانية بطريق مباشر أو غير مباشر . ومن المستحيل تحديد تواريخ تحركاته بصورة دقيقة ، وهى على أية حال قد انتهت نهاية محزنة فبينما هو فى طريق العودة إذ وقع عند

---

(٧٥) Massignon, Maroc, p. 33 —Schefer, Description de l'Afrique, I, p. VI-

(٧٦) Massignon, Leo Africanus, p. 24-

(٧٧) Lévi-Provençal, Wattâsiden, p. 1228-

(٧٨) Schefer, Description de l'Afrique, I, p. VII-

(٧٩) شرحه ، I, p. VII-XII

(٨٠) شرحه ، p. XII

(٨١) شرحه ، p. XIII-XIV

جزيرة جربه فى أسر قراصنة من جزيرة صقلية ساقوه إلى نابلى فى حوالى عام ١٥٢٠ ثم إلى رومه حيث أهدوه مع زرافة إلى البابا ليون العاشر (١٥١٣ = ١٥٢١)[٨٢] ؛ وكان هذا البابا يحمل فى حياته العادية اسم جيوفانى مديتشى Giovanni Medci وهو ابن لورنسو الفاخر أمير فلورنسه وقد عرف لا باعتناقه لمذهب النزعة الإنسانية المستنيرة (einlightened humanism) كما فهمته أفضل عقليات إيطاليا لذلك العهد فحسب ، بل عرف أيضًا باطلاعه على المسألة الشرقية (la question d'Orient) حتى إنه بحث مع فرنسوا الأول ملك فرنسا فى عام ١٥١٥ مشروع حملة صليبية ضد الترك[٨٣] ؛ وقد كان من جراء هذا أن زاد الاهتمام بالشرق فى إيطاليا بحيث لم يكن فى المستطاع ألا يسترعى العلامة المغربى نظر البابا ليون العاشر . وقد اضطر المغربى إلى أن يعتنق المسيحية ويتخذ لنفسه اسم ولى نعمته وهو جيوفانى ليونى ؛ ويسّر له البابا سبل الاشتغال بتدريس اللغة العربية والتفرغ للنشاط العلمى برومه وبولونيا .

وكان لإلمامه الجيد باللغة الأسبانية التى كانت أشبه ما تكون بلغته القومية[٨٤] أن عاونه هذا سريعًا فى التعرف على بيئته الجديدة وإجادة الإيطالية واللاتينية بصورة مرضية. ومنذ عام ٩٣٠هـ = ١٥٢٤ نجده يؤلف معجمًا عربيا – عبريًا – لاتينيًا من أجل طبيب يهودى لا تزال مخطوطته محفوظة بالاسكوريال[٨٥] . وفى العاشر من مارس عام ١٥٢٦ أتم الترجمة الإيطالية
447 لكتابه الذى وضعه أصلا باللغة العربية والذى/يسترعى اهتمامنا بوجه خاص وهو « وصف إفريقيا »[٨٦] . وفى عام ١٥٢٧ ألف باللاتينية كتابًا جامعًا فى سير ثلاثين من مشاهير العرب فى الفلسفة والطب Libellus de viris quibusdam illustribus apud Arabes[٨٧] نشره هوتينغر Hottinger فى عام ١٦٦٤ ، وكان أول سفر من نوعه يقدم معلومات ذات أهمية بالنسبة لأوروبا فى تاريخ تطور العلوم عند العرب . وعقب هذا بقليل ، وربما كان ذلك فى عام ١٥٢٨ ، تمكن بطريقة ما من الإفلات راجعًا إلى إفريقيا[٨٨] وما لبث أن اطرح المسيحية إلى دينه

---

(٨٢) -Amari (-Nallino), I, p. 361

(٨٣) -Atiya, The Crusade, p. 477

(٨٤) -Schefer, Description de l'Afrique, I, p. XIV

(٨٥) شرحه p. XVI —Massignon, Leo Africanus, p. 24 —Massignon, Maroc, p. 10

(٨٦) -Massignon, Leo Africanus, p. 24

(٨٧) -Giovanni Leone, cf.: Massignon, Leo Africanus, p. 24

(٨٨) -Schefer, Description de l'Afrique, I, p. XVI

القديم ؛ وقد توفى الوزان على ما يبدو بتونس فى عهد آخر بنى حفص وذلك فى عام ١٥٥٢ [٨٩] .

هذا وقد وجدت مزاعم تقول بأن الأصل العربى « لوصف إفريقيا » كان موجودًا لدى المؤلف عندما وقع فى الأسر ، وقيل فيما بعد بأن مخطوطته قد وجدت طريقها إلى أحد محبى الكتب (bibliophile) وهو بنلى V. Pinelli ولكنها فقدت فى الطريق إلى نابلى عند هجوم القراصنة [٩٠] . وعلى الرغم من كل ذلك فإن القول بأنه قد وجد مصنف تام فى يد ليون الإفريقى عند وصوله إلى إيطاليا قول ضعيف وأغلب الظن أن الأمر اقتصر على قطع متفرقة وتخطيط ذى طابع عام . وماسينيون Massignon بوجه عام لا يعتقد فى وجود مخطوطة عربية للكتاب ويعتبر القول بذلك محض خطأ [٩١] بل إنه يرى خلافًا لذلك أن ليون الإفريقى لم يدوّن الكتاب باللغة العربية وإنما صاغ مذكراته وملاحظاته باللغة الإيطالية رأسًا [٩٢] . ولعل هذا أقرب إلى الواقع خاصة وأن المؤلف نفسه يذكر على وجه التحديد فى المسودة الإيطالية أنه قد دون مصنفه من الذاكرة وذلك بعد مضى عشرة أعوام لم تقع فيها عينه على مصنف لمؤرخ عربى واحد [٩٣] . ولم تكن ذاكرته تسعفه دائمًا ، وعلى الرغم من أن الوصف الجغرافى عنده يتميز بالدقة الشديدة إلا أن مادته التاريخية وتواريخه ليست فى المستوى المرجو [٩٤] ، وربما كان مرد ذلك إلى أنه لم يكن بمقدوره أن يراجعها فى مظانها .

ولعل إقامة المؤلف بأوروبا قد انعكست فى طابع الكتاب نفسه إذ ليس من اليسير ضمه إلى النمط المعروف فى « المسالك » كما فعل ماسينيون [٩٥] أو إلى نمط « الرحلة » الذى نال الحظوة لدى أهل المغرب [٩٦] ، فهو فى الواقع قد كُتب من أجل الأوروبيين وإن كان مؤلفه علامة عربيًا ويعتمد على مادة عربية [٩٧] ؛ ولعل معرفة المؤلف بعدد من اللغات قد مكنته من الاطلاع على مؤلفات

---

(٨٩) -Alemany, p. 169

(٩٠) -Schefer, Description de l'Afrique, I, p. XXIII

(٩١) -Massignon ,Maroc, p. 23

(٩٢) شرحه ، p. 26

(٩٣) -Schefer, Description de l'Afrique, I, p. XXXVI

(٩٤) -Amari (-Nallino), I, p. 362

(٩٥) -Massignon, Maroc, p. 43

(٩٦) -Colin, Hespéris, XX, p. 97

(٩٧) -Massignon, Maroc, p. 43-45

العالم الكلاسيكى ومؤلفات العصور الوسيطة الأوروبية ، وربما عاونه فى ذلك علماء النزعة الإنسانية من بين الإيطاليين (Italian Humanists) ؛ وتشير الدلائل إلى أنه قرأ لبعض المؤرخين اللاتينيين[٩٨] .

448 ومن الطريف إشارته إلى بلينيوس Plinius فى الكتاب التاسع من « وصفه » الذى يتحدث فيه عن المعادن والنبات والحيوان * ؛ فهو يذكر فى مطلعه بأنه سيتكلم عما يوجد منها بإفريقيا « باستثناء كثير من الأشياء التى أوردها بلنيوس الذى كان بحق رجلا ممتازًا ذا مذهب فريد . وهو كثيرًا ما وقع فى الخطأ عند معالجته الكلام على أشياء بسيطة تتعلق بافريقيا ، غير أن مرد ذلك ليس لعيب فى نفسه بل لما حصل عليه من معلومات خاطئة ولرغبته فى أن يقلد من كتبوا قبله . وعلى أية حال فإن الخطأ فى أمر صغير لا يكفى لمحو الصفات الطيبة التى من شأنها أن تضفى رونقًا وبهاءً على ما يتصف به المجموع من جمال وزينة[٩٩] » .

أما الأهداف التى وضعها المؤلف نصب عينيه فيمكن استجلاؤها من خاتمة مصنفه حيث يقول :

« هذا على وجه العموم ما أبصرته من الأشياء الغريبة التى علقت بذهنى أنا ، جيوفانى ليونى ، عن جميع افريقيا التى عبرتها من أقصاها إلى أقصاها . وقد دونت بجد واجتهاد ومن يوم لآخر تلك الأشياء التى رأيتها بعينى رأسى وبدا لى أنها تستحق الذكر . وما لم أره بنفسى بسبب ضيق الوقت أو صعوبة الطريق فقد جهدت فى الحصول عليه من أهل الثقة ممن شاهدوه بأنفسهم . ثم بذلت جهدى فى جمع شتات هذه المادة وصياغتها فى شكل كتاب انتهيت من تدوينه أثناء وجودى بروما وذلك فى اليوم العاشر من شهر مارس لسنة ١٥٢٦ من ميلاد المسيح »[١٠٠] .

وينقسم المصنف وفقًا للمتن الإيطالى إلى تسعة كتب يعالج الأول منها الكلام على إفريقيا بصورة عامة وعن سكانها من العرب الرحّل ؛ أما الثانى فيصف نواحى مراكش ومدنها وجبالها بينما أفرد الثالث للكلام على مدينة فاس والرابع لتلمسان والخامس لبجايه وتونس والسادس لطرابلس ، أما السابع فلدول السودان والثامن لمصر بينما يقدم التاسع وصفًا موجزًا للأنهار والحيوان والأسماك

---

(٩٨) شرحه ، p. 36, 40

* نقل مؤلف الكتاب هذه الفقرة عن كتاب مييلى Mieli ولكن سقط سهوًا لفظ « الأنهار » الذى يرد قبل لفظ « المعادن » (راجع ص ٥٣٨ من الترجمة العربية لكتاب الدومييلى « العلم عند العرب ») . (المترجم)

(٩٩) -Mieli, p. 279 (فى آخرها) —Schefer, Description de l'Afrique, III, p. 428

(١٠٠) -Mieli, p. 279, Note 7 at the end —Schefer Desciption de l'Afrque. III, p. 469

والطيور والمعادن والنباتات الموجودة بإفريقيا(١٠١) . وقلما يشير ليون الإفريقى إلى مصادره وهو حين يفعل ذلك يوردها فى أغلب الظن من الذاكرة ؛ ومن بين المؤلفين المعروفين لنا يرد لديه ذكر المسعودى والبكرى والإدريسى وابن الخطيب وابن بشكوال(١٠٢) ؛ ومن الجلى أن معرفته بالمؤلفين المغاربة كانت أقرب وهذا أمر طبيعى . وأكثر نقوله من مؤلف يدعى ابن الرقيق دون سائر المؤرخين والجغرافيين وإليه يدين ليون الإفريقى بتصنيفه الأصيل للقبائل العربية والبربرية وبقدر كبير من المعطيات المختلفة بل بالإطار العام لمصنفه وذلك من الناحيتين التاريخية والاثنوغرافية . ومن
المؤسف أن/هذا المؤلف لم يتم التعرف عليه حتى الآن على وجه اليقين(١٠٣) ؛ ويفترض ماسينيون 449
أنه عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر(١٠٤) ؛ وعلى كل حال فإن قيمة كتاب ليون الإفريقى لا تكمن فى ما ينقله عن الغير بل فى ملاحظاته الشخصية التى تشكل القسم الأساسى من مصنفه . وهو قد احتفظ فى مصنفه الأوروبى بروحه العربية التى تتمثل فى القصص المنحولة التى يسردها ليستخرج منها الموعظة والعبرة شأنه فى هذا شأن مؤلفى المجموعات الأدبية التى اشتهر بها الأدب العربى(١٠٥) ؛ أما منهجه فى التأليف الذى فصّل الكلام عليه فى الفقرة الختامية من الكتاب فيوكده فى الواقع جميع من انقطعوا لدراسة مصنفه . وكتاب ليون الإفريقى هو البحث الوحيد فى جغرافيا مراكش المتميز بالأصالة والترتيب الذى ظهر بأوروبا فى القرن السادس عشر ؛ وكان فى الحقيقة فتحًا جديدًا بالنسبة لذلك العصر حتى ولو بسبب تقديمه لما يقرب من أربعمائة اسم لمواضع جغرافية مع معطيات دقيقة وجديدة(١٠٦) .

وقد لقى المصنف انتشارًا واسعًا فقد أعقب ظهور الطبعة الإيطالية فى عام ١٥٥٠ ظهور الترجمتين اللاتينية والفرنسية فى عام ١٥٥٦ ، ثم ترجم فى حوالى عام ١٦٠٠ إلى الإنجليزية وتلى هذا ترجمته إلى لغات أخرى وظهور عدد كبير من الطبعات استمر إلى القرن التاسع عشر حين تُوِّج ذلك المجهود بطبعتى شيفير **Schefer** الفرنسية (١٨٩٦ – ١٨٩٨) وبراون **Brown**

---

(١٠١) -Cf: Schefer, Description de l'Afrique, I, p. XXIV

(١٠٢) -Massignon, Maroc, p. 36-39 —Schefer, Description de l'Afrique, I, p. XXVI-XXVII

(١٠٣) -Cf.: Brockelmann, GAL, SBI, p. 252, No 9

(١٠٤) -Massignon, Maroc, p. 41-42

(١٠٥) شرحه ، p. 44

(١٠٦) شرحه ، p. 63

الإنجليزية (١٨٩٦) العلميتين[١٠٧] * . ولا يزال البحث الرئيسى فى دراسة ليون الإفريقى هو ذلك البحث الممتاز الذى دونه قلم لويس ماسينيون Louis Massignon منذ عام ١٩٠٦ بعنوان « مراكش فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر كما وصفها ليون الإفريقى » Maroc dans les premières années du XVI^e siècle. Tableau Géographique d'après Léon l'African, Alger, 1906 . وقد كان لليون الإفريقى تأثير قوى على العلم الأوروبى[١٠٨] فمنذ بداية النصف الثانى من القرن السادس عشر على وجه التقريب ، وعلى ممر ثلاثة قرون بعد ذلك لم يستطع أن يتجاهله كاتب أو عالم يودّ الكلام على إفريقيا وإن لم يعتمدوا دوامًا بكل أسف على متن الكتاب الإيطالى بل على الترجمة اللاتينية التى لا يمكن بأية حال الاطمئنان إليها بصورة تامة[١٠٩] . أما تقديرهم للمؤلف فقد كان على الدوام تقديرًا عاليًا[١١٠] ، ففى القرن الثامن عشر كتب عنه مؤلف أول بحث جدى عن الإدريسى وهو المستشرق الألمانى هارتمان Hartmann يقول : « إن ما يتصف به مصنفه من ميزات أمر معروف للجميع ؛ ولن أتردد فى تكرار ما قاله الباحثون قبلى من أن كتابه كنز من الذهب ولولا وجوده بين يدى لخفيت علىَّ أشياء كثيرة »[١١١] . وهذا القول نفسه ردّده بعد قرنين من ذلك واحد من خيرة العارفين بالجغرافيا التاريخية ومحرر الطبعة العلمية « لوصف إفريقيا » Description de l'Afrique المستشرق الفرنسى شيفير Schefer فقال « إن ما يورده ليون الإفريقى من تفاصيل
450 فى وصف المغرب يتميز بالدقة الشديدة/ ، بل ولقد أثبتت البحوث الأخيرة صدق قوله حتى فى تلك المواضع التى أثارت بعض الشك فيما مضى »[١١٢] .

غير أن ما قيل فى الثناء عليه لم يمنع العلماء من الوقوف موقف النقد من نقاط معينة منه استلزمتها ظروف العمل ؛ فمثلا يفترض المستشرق الإيطالى أمارى أن ما أملاه ليون الإفريقى قد تم جمعه بعد

---

(١٠٧) شرحه ، p. 4-9

* إن أحدث طبعة لمصنف ليون الإفريقى هى الترجمة الفرنسية الحديثة بقلم أيبولار Epaulard التى ظهرت بباريس فى جزئين فى عام ١٩٥٦ ؛ هذا وتوجد للكتاب ترجمة أسبانية ظهرت فى عام ١٩٥٢ . (المترجم)
[ظهرت له الآن ترجمتان باللغة العربية . (المترجم)]

(١٠٨) -Schefer, Description de l'Afrique, I, p. XXX-XXXV

(١٠٩) -Massignon, Maroc, p. 65

(١١٠) -Schefer, Description de l'Afrique, I, p. XXXV

(١١١) شرحه ، p. XXXV

(١١٢) شرحه ، II, p. V

رجوعه إلى إفريقيا[١١٣] بحيث لم يستطع تنقيح المسودة النهائية ؛ وإلى جانب هذا اضطر أمارى إلى الاعتراف بأن ليون الإفريقى لم يعرف تاريخ صقلية معرفة جيدة[١١٤] . أما شيفير فيتفق مع عدد كبير من العلماء فى القول بأن ليون الإفريقى « لم ير كل ما وصفه ولم يكن دائمًا شاهد عيان لما يحكيه »[١١٥] . ورغم كل هذا فيجب الموافقة على أنه « آخر الجغرافيين العرب المشهورين فى تلك البلاد[١١٦] » . وسنلتقى بالطبع بعدد كبير من المؤلفين المغاربة فى محيط الجغرافيا غير أن مصنفاتهم تعالج نقاطًا منفردة أما المصنفات الجامعة من طراز مصنف ليون الإفريقى فإن هذا كان آخر العهد بها .

ومن العسير القول بأن القرن السادس عشر فى إفريقيا الشمالية كان فقيرًا فى مصنفاته وإن لزم الاعتراف بأن مستواها لا يتجاوز الحد الأوسط بأية حال ، ويكفى فقط أن نشير فى هذا الصدد إلى ظاهرة فى محيط الكارتوغرافيا (فن رسم المصورات الجغرافية) تقف دليلا على أن مذهب الإدريسى كان لا يزال حيًا ومعمولا به ، على الأقل فيما يتعلق بالاحتياجات العملية .

كان نمط الخارطات السائد إلى القرن العاشر هو النمط الذى غلب عليه توزيع المناطق وفقًا للأقاليم ؛ ثم أعقب هذا ظهور الخارطات البحرية التى كانت تبين عليها أحيانًا خطوط الطول والعرض ، مما يثبت وجود تأثير غربى بل ويشير إلى المحاكاة الصرفة . ولقد كانت الخارطات من هذا النوع فى الحقيقة أمرًا غريبًا على العرب[١١٧] ولا يخلو من مغزى أن تظهر لأول مرة فى حوض البحر المتوسط وبعض مناطق البحر الأسود ، أى فى ذات المنطقة التى وجدت فيها نماذجها الأولى ؛ هذا على حين أنها لا تقابلنا إطلاقًا فى الأقطار الساحلية الأخرى التى نفذ إليها العرب كسواحل المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج الفارسى على الرغم من أن هذه السواحل الأخيرة كما سنرى قد شهدت فى هذا العصر بالذات انتعاشًا غير معهود لنمط جديد فى الأدب الجغرافى هو الجغرافيا الملاحية .

وأقدم الخارطات البحرية المعروفة لنا محفوظة بمكتبة الأمبروزيانا **Ambrosiana** بميلانو[١١٨]

---

(١١٣) -Amari(-Nallino), I, p. 362

(١١٤) شرحه ، p. 363

(١١٥) -Schefer, Description de l'Afrique, I, p. XXXVI

(١١٦) -Kramers, EI, EB, p. 71

(١١٧) -Miller, V, p. 173

(١١٨) شرحه ، p. 173-175 ؛ عن الصورة راجع : Beiheft, V, taf. 82b

وتمثل قطعة مكونة من ثلاث ورقات لخارطة للبحر المتوسط[١١٩] ؛ ويمكن الحكم من الكتابة المغربية على أنها قد عملت فى الجزء الغربى من شمالى إفريقيا لعله بسبته أو بجايه حيث وجد الملاحون من مختلف الشعوب . وليست بهذه الخارطة أية إشارات خارجية تبين التاريخ الذى عملت فيه ؛
ومن المحتمل أنها ترجع إلى القرن الرابع عشر . ومما يزيد فى توكيد/اختلافها عن بقية الخارطات 451
العربية هو أن أبعادها مقدرة بالأميال مما ينهض دليلا جديدًا على أنها إيطالية الأصل . وتبدو صلابة مقاومة الطابع العربى فى الخارطات المغربية فى احتفاظها بالأسماء العربية[١٢٠] ؛ وفيما يتعلق بهذه الخارطة بالذات فيبدو أنها تعتمد فى الأصل على خارطة عربية أما الأخطاء الموجودة بها فيمكن إرجاعها إلى طبيعة الكتابة العربية . وبهذا يمكن القول بأن الخارطة تنتمى إلى النمط الإيطالى من حيث الرسم وتخطيط السواحل ولكنها من جهة أخرى تحمل تسميات ذات طابع مستقل فيما يتعلق بساحل إفريقيا وبجنوبى اسبانيا وشرقيها[١٢١] . ولم تكن هذه الخارطة هى النموذج الوحيد الذى قدمه لنا العرب فى فن الكارتوغرافيا على سواحل البحر المتوسط .

فابتداء من منتصف القرن السادس عشر ازدهر بتونس اسم أسرة الشرفى الصفاقسى التى قدمت فى غضون جيلين عددًا من مصورى الخارطات (cartographers) ؛ وقد وفق نالينو فى أن يتتبع دراسة ثمانية أو تسعة أجيال من هذه الأسرة إلى نهاية القرن الثامن عشر ولدوا جميعهم بصفاقس وعاش معظمهم بها وبالقيروان والقاهرة أحيانًا ، مشتغلين وفق تقاليد الأسرة بفن رسم المصورات الجغرافية ثم اشتغلوا فيما بعد بدراسة الرياضيات والفلك . وقد أخرج لنا هذا « المصنع » (workshop) ، إن صح هذا التعبير ، فى الفترة ما بين عامى ١٥٥١ و ١٦٠١ أربعة نماذج لخارطة كبيرة للعالم تمثل فى جوهرها صورة منقحة لخارطة الإدريسى (وذلك فى السنوات ١٥٥١ و ١٥٧٢ و ١٥٧٩ و ١٦٠١)[١٢٢] . وهناك اختلاف بين من بحثوا فى النشاط العلمى لهذه الأسرة حول أسماء واضعى هذه الخارطة خاصة وأن بحث نالينو[١٢٣] ظل لمدة طويلة بعيدًا عن متناول الأيدى ولم تعرف نتائجه إلا بطريق غير مباشر . وأكبر هؤلاء سنًا هو على بن أحمد بن محمد الذى وضع فى عام ٩٥٨ هـ = ١٥٥١ أطلسًا فى ثمانى ورقات تصور فى

---

(١١٩) شرحه ، p. 173
(١٢٠) شرحه ، p. 174
(١٢١) شرحه ، p. 175
(١٢٢) شرحه
(١٢٣) -Nallino, BSGI, IX, p. 721-736

الغالب سواحل البحر المتوسط ولا تزال مخطوطته محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس ؛ ولعل خارطة العالم للشرفى الموجودة بأكسفورد والتى يرجع تاريخها إلى عام ٩٧٩ هـ = ١٥٧١ – ١٥٧٢[١٢٤] ذات صلة بهذا الأطلس على نحو ما. هذا وقد اختلف الباحثون فى وصف الخارطات المختلفة ولكن تركيب الأطلس العام واضح بالنسبة لنا[١٢٥]، فيتلو التقويم الشمسى خارطة للقبلة[١٢٦] مبين عليها مواقع جميع البلدان بالنسبة للكعبة، ويلى هذا خارطة عامة للعالم[١٢٧]. وفى هذه الخارطة الأخيرة يبصر كرامرس تأثيرًا ما لخارطة البيرونى[١٢٨] ، غير أن المؤلف نفسه يصرح بأنه قد خضع لتأثير الإدريسى[١٢٩] وهو أمر مفهوم بالنسبة لنا . ثم يتبع هذا خارطات للمناطق المختلفة كسواحل اسبانيا وجزر البليار وجنوبى فرنسا وأجزاء من سواحل إيطاليا تضم قورسيقا وسردينيا ، والساحل المقابل لإفريقيا . ويلى هذا مجموعة من الخارطات تبين سواحل/البحر الأسود وبحر آزوف ثم 452
الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى فالشام ومصر إلى برقة . وثمة خارطة منفصلة تبين بلاد اليونان وجزر الأرخبيل وكريت وساحل إفريقيا المقابل لها . أما الخارطة الأخيرة فتصور برقة وطرابلس وتونس . وقد أضيف إلى الأطلس كملحق جدول يبين التقويم الزراعى (agricultural calender) لكل شهر .

إن تركيب هذا الأطلس البورتولان Portulan ليشير بوضوح إلى أنه قد عمل من أجل قبطان كان يشتغل بالملاحة الساحلية فى البحرين المتوسط والأسود إلى سواحل القريم ؛ ثم إن ذكر الشهور بأسمائها الأوروبية والسريانية إلى جانب العربية يسمح لنا بالافتراض بأن هذا الملاح كان يمر على موانى أوروبا المسيحية وموانى الشام على السواء ؛ ومما يوكد أن الأطلس قد عمل من أجل أهداف التجارة لا من أجل أهداف عسكرية أن التحصينات الساحلية غير مبينة عليه كما هو الحال مع الخارطات العثمانية لذلك العصر والتى سيمر بنا الكلام عليها فى حينه[١٣٠] . هذا وقد تم رسم الأطلس فى عام ١٥٥١ أى فى العصر الذى كانت تمخر فيه السفن الأوروبية عباب المحيط فى

---

(١٢٤) -Miller, V, p. 176

(١٢٥) -Brockelmann, GAL, SB II, p. 710, No 1b —Blochet, L, Étude, p. 19 —Miller, V, p. 176

(١٢٦) V, Beilage, No 7 توضيحها ؛ من اليسار Miller, VI, Taf 78 عن الصورة راجع –

(١٢٧) V, p. 175 = من اليمين VI, Taf. 78 شرحه

(١٢٨) -Kramers, EI. EB, p. 72

(١٢٩) -Blochet, L'Étude, p. 19

(١٣٠) شرحه، p. 20

حرية كاملة وهى فى طريقها إلى الصين وأميريكا ، وكذلك حين نجح عدد من الملاحين فى الدوران حول الأرض ؛ غير أن هذه الحقائق الهامة لا تجد انعكاسًا ما فى خارطة العالم الموجودة بهذا الأطلس[١٣١] . والتأثير الغربى الوحيد على مؤلف الأطلس يبدو فقط فى إطلاقه لفظ « طبله » على أطلسه ، وهو مأخوذ من اللاتينية الدارجة Tabula أى اللوحة[١٣٢] ؛ ويبدو أنه قد استعاره من اللغة الدارجة المتداولة آنذاك فى جميع أنحاء حوض البحر المتوسط (lingua franca)

ولعل مؤلفنا هذا هو المسئول عن وضع صورة منقّحة لخارطة العالم آنفة الذكر نفسها ، وترجع هذه الأخيرة إلى عام ١٥٧٩ وقد كشف عنها نالينو فى مجموعة شخصية برومه؛ ويرى ميلر K. Miller أن المؤلف قد جهد فى هذه الخارطة ليجمع بين الخارطة البحرية القطلونية (Catalonian) وخارطة الإدريسى ويخرج من الاثنين خارطة بحرية عربية جديدة[١٣٣] .

وقد ترسم خطاه على ما يبدو ابنه محمد بن على الشرفى الصفاقسى الذى تنسب إليه خارطة للعالم معروفة فى نسخة واحدة ترتفع إلى عام ١٠٠٩ هـ = ١٦٠١[١٣٤] ، ولكن حدث لسهو ما أن صوّرها ميلر Miller فى قطعتين نسب إحداهما إلى عام ١٥٩٢ والأخرى إلى عام ١٦٠١[١٣٥] . وتكاد أهمية هذه الخارطة تنحصر أساسًا فى أنها مصورة على قطعة واحدة من جلد شاة تنقصها الأرجل فقط ، وهى الطريقة نفسها المتبعة فى رسم الخارطات الإيطالية والفرنسية لذلك العهد[١٣٦] . ووصف أمارى لهذه الخارطة بأنها « بديعة » (chiarmante)[١٣٧] لا يقوم على أساس لأن بلوشيه Blochet الذى درسها عن كثب لا يجد فيها ما يستحق الاهتمام ؛ وهى تعتمد على الإدريسى فيما يتعلق بنصفها الشرقى وإن كانت لا تورد جميع أسماء المواضع ، هذا بالإضافة إلى نقصها الفنى الملحوظ ؛ وبهذا فهى لا يمكن أن تصلح « كبورتولان » Portulan[١٣٨] . أما فيما يتعلق بنصفها الغربى الذى يبين حوض البحر المتوسط مع
سواحل/الأطلنطى والبحر الأسود فإنه يبدو عليه بوضوح تأثير الخارطات البحرية 453

---

(١٣١) -Reinaud, Introduction. p. CLXX

(١٣٢) - Blochet, L'Étude, p. 18

(١٣٣) -Miller, V, p. 176

(١٣٤) -Reinaud, Introduction, p. CLXX

(١٣٥) عن الصورة راجع : Miller, VI, Taf. 79-80; توضيحاتها : V, p. 176 شرحه : ملونة راجع : V, p. 177

(١٣٦) -Blochet, L'Étude, p. 21

(١٣٧) -Amari (-Nallino), I, p. 293, note 1

(١٣٨) -Blochet, L'Étude, p. 21

القطلونية(١٣٩) مما يقف دليلا جديدًا على أن الخارطة قد نشأت فى وسط ملاحى مختلط . ومن دراسته لهذه الخارطة يستنتج كونراد ميلر الخبير الكبير فى الكارتوغرافيا العربية أن خارطة الإدريسى الأولى قد وجدت ليس فقط على شكل سفر من سبعين ورقة بل وأيضًا على شكل خارطة حائطية كبرى تم جمعها بصورة عملية بعد مرور أربعمائة سنة على ظهورها(١٤٠) . وقد يكون هذا الاستنتاج صحيحًا ولكنه يقف دليلا فى رأى بلوشيه على تدهور المدرسة الكارتوغرافية التونسية(١٤١) التى زاولت نشاطها لبعض الوقت بجد كى تستطيع أن تفى بحاجة عملائها من قباطنة السفن المختلفة التى كانت تمخر عباب البحر المتوسط(١٤٢) .

ونشاط فن الكارتوغرافيا بالمغرب حينذاك لم يكن بطبيعة الحال أمرًا غريبًا ؛ ورغما من الأمثلة التى سقناها فإن التأثير الأوروبى قد وجد طريقه إليها بصورة لا تقبل الشك . ولنقدم مثالا طريفًا لهذا التأثير فى شخص عالم مغربى ، وهو إن لم يمس كثيرًا علم الجغرافيا إلا أنه يقف دليلا صريحًا على نشاط التبادل الثقافى فى ذلك العصر(١٤٣) ؛ ذلك العالم هو حاجى أحمد التونسى الذى يبدو من نسبته أنه تونسى الأصل ؛ ولكنه درس بفاس واهتم منذ صباه بالعلوم خاصة الجغرافيا ، ثم سقط أسيرًا فى أيدى المسيحيين واشتراه رجل فاضل من أهل البندقية سمح له بالاستمرار فى دراساته فتعمق فى تفهم الجغرافيين الأوروبيين.وفحص خارطاتهم بدقة ومن ثم واتته فكرة وضع خارطة للعالم المعروف آنذاك يجمع فيها بين معطيات أبى الفدا وقواعد المساقط الكارتوغرافية (projection) للرياضى والكوزموغرافى أورونتيوس فينايوس Orontius Finaeus (١٤٩٤ – ١٥٥٥) التى طبقها فى وضع خارطته للعالم عام ١٥٣٦(١٤٤) . ونزولا على رغبة مولاه فقد سجل الأسماء الجغرافية باللغة التركية التى لم تكن لغته الأصلية ، غير أن عددًا من الألفاظ العربية وجدت طريقها إليها(١٤٥) . وقد أتم التونسى عمله فى عام ٩٦٦ هـ – ٩٦٧ هـ= ١٥٥٨ – ١٥٦٠ فى عصر السلطان سليمان القانونى وكان مهيئًا للطبع فى عام ١٥٦٨ ، ولكن لظروف معينة لم يتم طبعه(١٤٦) . ويوجد بمكتبة القديس مرقص بالبندقية كليشيه لهذا الرسم

---

(١٣٩) -Miller, V, p. 177

(١٤٠) شرحه I, 2, p. 52

(١٤١) -Blochet, L'Étude, p. 21

(١٤٢) -Nallino, BSGI; IX, p. 721-736

(١٤٣) -D'Avezac, cf.:Kramers, EI, EB, p. 72

(١٤٤) -D'Avezac, p. 77

(١٤٥) شرحه

(١٤٦) شرحه p. 72

محفور على أربع لوحات (أو ست على وجه الدقة[١٤٧]) من خشب التفاح ؛ وفقط فى عام ١٧٩٥ أنجزت على أساسه أربـــع وعشرون نسخـــة (un tirage de vingt-quatre épreuves)[١٤٨] ظهرت مع رسالة توضيحية موجزة بقلم العالم المارونى الشهير السمعانى S. Assemani (١٧٥٢ - ١٨٢١) الأستاذ بجامعة بادوا Padua[١٤٩] .

454 ونظرة عاجلة إلى المصور تبيّن لنا أن التونسى قد استعار من فنايوس ليس فقط طريقة المساقط والشكل الأصيل للخارطة على هيئة قلب وكذلك خط الزوال الأساسى الذى يمر بجزر الكنارى بل استعار منه أيضًا الجزء الأكبر من تخطيطه لسواحل القارات والجزر . ومع هذا فيجب إقرارًا للحق الاعتراف بأن عدد المصطلحات الجغرافية لديه أغنى بكثير كما وأنه أجرى عددًا من التصحيحات على سلفه بعضها هام للغاية مثال ذلك تصحيحه لسواحل أمريكا خاصة الأجزاء الشمالية منها[١٥٠] ؛ وهكذا يقف التونسى فى محيط الكارتوغرافيا العربية نسيج وحده لا سلف له ولا خلف . ويكمن عيبه الأساسى فى استعماله للأصل الذى اعتمد عليه بصورة آلية تغلب عليها الشكلية ، وسنرى عند انتقالنا للكلام على الخارطات التركية المعاصرة له أنه قد قامت لدى الأتراك مدرسة مستقلة استعارت مادتها بصورة أوسع وعرفت كيف تهضمها وتتمثلها بأصالة واضحة .

وفى القرن السادس عشر اتسعت وقويت صلات المغرب بالدولة العثمانية بصورة نشيطة ؛ وكان من جراء خضوع الجزائر لسلطان العثمانيين (١٥١٩) أن أحست مراكش بخطر مباشر يهدد حريتها خاصة وأن أفراد أسرة الشرفاء قد طلبوا العون من الأتراك منذ أن استولوا على مقاليد الأمور بمراكش ، وذلك لوضع حد للتطاحن من أجل العرش بين أفراد الأسرة نفسها وللقضاء على دسائس البلاط . ونتيجة لهذا فقد دخل الطرفان فى علاقات دبلوماسية ونشطت السفارات الذاهبة إلى استنبول حتى أخذت طابعًا منتظما فى بعض الأحايين[١٥١] ؛ ومن المحتمل جدًا أن ليون الإفريقى نفسه قد قام برحلته إلى استنبول لأغراض سياسية وإن كانت تعوزنا الوقائع لإثبات ذلك . وبعض هذه السفارات تردد صداه فى الأدب خلال قرون متتالية حتى القرن التاسع عشر

---

(١٤٧) شرحه ، p. 63

(١٤٨) شرحه ، p. 65-66, 75

(١٤٩) -Brockelmann, GAL, I, p. 5, 349; SB I, p. 7, 867

(١٥٠) -D'Avezec, p. 77.

(١٥١) -de Castries, IV-VI

فعرف بهذا نمط الرحلة انتعاشًا كبيرًا وظهر إلى جانب وصف الحج ضرب جديد من الرحلة إلى عاصمة « سلطان الأرضين وخاقان البحرين » .

ومن المؤلفات المعروفة لنا من هذا الضرب الأخير مصنف التمجروتى الذى يرجع إلى نهاية القرن السادس عشر ويحمل عنوانًا طنّانًا هو « النفحة المسكية فى السفارة التركية » . ومعلوماتنا عن المؤلف نزرة(١٥٢)، فقد ولد أبو الحسن على بن محمد التمجروتى * حوالى عام ٩٦٧ هـ = ١٥٦٠(١٥٣) بقرية تمجروت الصغيرة من أعمال وادى درعه بجنوبى مراكش(١٥٤) ونال حظه من التعليم المعهود لذلك العصر ثم التحق على ما يبدو كاتبًا ببلاد الشريف أحمد المنصور السعدى (٩٨٦ هـ - ١٠١٢ هـ = ١٥٧٨ - ١٦٠٣) بفاس . ونظرًا لأن الشريف اعتلى العرش بمعاونة الأتراك فقد دخل فى مغامرات دبلوماسية واسعة النطاق حاول أن يقحم فيها بعض دول أوروبا الغربية ؛ وهو وإن لم يخضع خضوعًا رسميًا للأتراك إلا أنه ارتبط معهم بعلاقات وثيقة حتى اتخذت السفارات بين الجانبين صورة منتظمة . وإحدى تلك السفارات بعث بها المنصور فى عام ٩٩٨ هـ - /١٠٠٠ هـ = ١٥٨٩ - ١٥٩١ إلى السلطان مراد الثالث (٩٨٢ هـ - ١٠٠٣ هـ = ١٥٧٤ - ١٥٩٥) ، وكان على رأسها التمجروتى(١٥٥) الذى ضم إليه الشريف أحد كتاب الدولة وهو الشاعر الفشتالى (توفى فى عام ١٠٢١ هـ - ١٦١٢)(١٥٦) الذى كثيرًا ما نوّه به التمجروتى فى وصف رحلته هذه بضروب الإستحسان والتمجيد لتفوقه فى فنون الأدب . واختيار التمجروتى لرئاسة هذه السفارة لم يحدث اعتباطًا فقد ذهب أخوه من قبله إلى استنبول(١٥٧) فى مهمة مماثلة على مايبدو .

والكتاب لا يزال معروفًا إلى الآن فى ترجمته الفرنسية التى عملها على أساس مخطوطة واحدة(١٥٨) هنرى دى كاسترى Henri de Castries وظهرت عقب وفاته التى حدثت فى عام

---

(١٥٢) -Brockelmann, GAL, II, p. 679-680, No 2c. —Lévi-Provençal, Al- Tamgrûti, p. 696 —Lévi-Provençal, Hist. des Chorfa, p. 98-99 —De Castries, p. IV

* النسبة إلى تمجروت وهى مقر الزاوية الناصرية فى جنوبى المغرب قرب وادى درعه ؛ والاسم بربرى والتاء فيه مزيدة لذا فإن النسبة إليها تمجروتى ومجروتى . (المترجم)

(١٥٣) -De Castries, p. IV

(١٥٤) -Lévi-Provençal, Al-Tamgrûti, p. 696

(١٥٥) -Brockelmann, GAL, SB II, p. 679-680, No 2c.

(١٥٦) -Lévi-Provençal, Hist. des Chorfa, p. 97-98

(١٥٧) -De Castries, p. 45

(١٥٨) شرحه p. XVI

١٩٢٧ ؛ وكان على معرفة جيدة بهذا العصر وهذه الموضوعات . ويجب القول بصراحة أن رأيه
عن المؤلف يتسم بالتعسف الشديد فهو يقول « فالرحلة فى مجموعها ليست سوى سرقة على
نطاق واسع مع إضافة مئات من الأبيات الشعرية لا يربطها فى أغلب الأحيان أى رباط بمحتويات
الكتاب »(١٥٩) « وهو لا يجهد فى التعريف بخط سير الرحلة بقدر ما يحاول إظهار علمه
ومعرفته »(١٦٠) . وجميع هذه العيوب والمناقص التى يشير إليها دى كاسترى موجودة بالطبع لدى
التمجروتى كما وجدت لدى غيره من أدباء « الرحلة » فى عصر التدهور ؛ غير أنه لا يمكن موافقته
فى أن قيمة الرحلة إنما تقتصر على هذا وحده . وتشير قرائن الأحوال إلى أن ثمة تقريرًا كان من
المفروض أن يرفعه المؤلف إلى الشريف عن هذه الرحلة(١٦١) ، لهذا فلا مناص من أن تجد قصائد
المديح مكانًا لها فى وصف الرحلة . وهو يعبر فى هذه القصائد عن شكره وامتنانه لولى نعمته
وتعظيمه له حتى قارنه بسلاطنة آل عثمان وفضّله عليهم أحيانًا . ورغمًا من ذلك فإن تمجيده
لسلطانه قد ساق إلى إيراد تفاصيل قيمة عن بلاد مراكش فى أواخر القرن السادس عشر(١٦٢) وعن
استقبالات ملوك مراكش ومواكبهم واستعراض الجند وعن الدوائر الأدبية بالبلاط ؛ بل إن الرحلة
نفسها لا تخلو من معطيات واقعية قيمة خاصة إذا أخذنا فى حسابنا أنها كبقية الرحلات المشابهة
لها لم يكن الغرض منها وصف تحركاته بل وضع مصنف أدبى قبل كل شىء . ويحفل الكتاب بعدد
من القصائد للمؤلف يتعلق بعضها بموضوع الرحلة والبعض الآخر يمدح فيه شخصيات مختلفة
من بينها صديقه الشاعر الفشتالى . وإلى جانب هذا فالكتاب لا يخلو من شذور عديدة نقلها
عن مؤلفين آخرين واستطرادات مختلفة ، مثال ذلك ما نقله من أحد المؤرخين فى فتح إفريقيا وعن
دولة الأغالبة ، أو ذلك الفصل الطويل ذو الطابع الأخروى (eschatological) الذى يورد فيه
بصدد الكلام على مدينة المهدية عددًا من الأحاديث فى المهدى المنتظر(١٦٣) . أما فى صلب
الرحلة نفسها فتحتل مكانة خاصة « الزيارات » العديدة/إلى قبور الأولياء والصالحين المنتثرة على 456
طول طريقه ، وزيارة العلماء ومدّعى الصلاح (sanctimonious) ؛ وهو يغتنم هذه الفرصة كما
فعل السابقون له فيستطرد فى الكلام على سير حياتهم . والتمجروتى فى وصفه للمواضع الجغرافية

---

(١٥٩) شرحه ، p. I
(١٦٠) شرحه ، p. II
(١٦١) شرحه ، p. IV
(١٦٢) -Lévi-Provençal, Al-Tamgrūti, p. 696 —De Castries, p. XI
(١٦٣) -De Castries, p. X

كثيرًا ما يلجأ إلى نقل كلام المؤلفين السابقين[١٦٤] خاصة الأندلسيين ، ويبدو هذا بصورة جلية عندما يقف للكلام على المدن الكبرى المأهولة . وأقرب المؤلفين إلى نفسه ثلاثة هم ابن عبد ربه (من القرنين التاسع والعاشر) والبكرى (من القرن الحادى عشر) وأبو البقاء البلوى (من القرن الخامس عشر)[١٦٥] ؛ وهو ينقل عنهم كما فعل الجغرافيون قبله دون أن يعنى بالتتابع الزمنى أو يشير إلى أن معلوماتهم تنتمى إلى عصر سابق للعصر الذى يعالج الكلام عليه .

والتمجروتى لا يتعرض لوصف طريق رحلته داخل مراكش ، ولا ريب أنه قصد بذلك عدم تكرار أشياء مألوفة لبنى وطنه[١٦٦] . وقد خرج التمجروتى من فاس متجهًا إلى تطوان حيث بقيت السفارة لمدة ثلاثة أشهر فى انتظار وصول سفينة من الجزائر . ثم أبحروا على طول الساحل الإفريقى مارين فى طريقهم على وهران وتنس والجزائر وبجايه وبون وبنزرت وتونس وسوسه ومنستير والمهدية وصفاقس وجزيرة جربه إلى أن بلغوا طرابلس . والمؤلف يفصّل القول فى وصف المراكز المأهولة كتونس وبجايه ويمكن أخذ فكرة عن مدى استعانته بالمؤلفين السابقين له حين نقرأ وصفه لتونس فهو ينقل عن ابن عبد ربه والبلوى ما يقرب من خمس وعشرين صفحة . وابتداء من طرابلس تظهر شخصية المؤلف بوضوح فى القصة[١٦٧] لأنه أعوزته المصادر المكتوبة فاضطر إلى الاعتماد على نفسه وهو أمر لم يخل من الفائدة بالنسبة للكتاب .

وقد اضطر التمجروتى وصحبه إلى البقاء بطرابلس لمدة شهر واثنى عشر يومًا قبل أن يغادروها إلى استنبول مع الأسطول العثمانى الذى كان قد انتهى من إخماد ثورة نشبت بطرابلس ضد سلطان العثمانيين . ويصف لنا التمجروتى بتفصيل كبير رحلته عبر البحر المتوسط وما أحدثته فى نفسه من أثر ؛ وكانت هذه أول مرة يعبر فيها البحر ومن ثم فقد أحدث البحر تأثيرًا كبيرًا عليه ، وهو يرجع إلى الكلام على ذلك فى مواضع عديدة من كتابه واصفًا الهلع الذى استولى عليه من تقاذف الأمواج للسفينة والمخاطر التى تعرض لها أكثر من مرة . وهذه الاستطرادات الأدبية بما يصحبها من عدد كبير من القصائد بعضها له وبعضها لشعراء غيره تشغل جزءًا من كتابه غير يسير . وقد عرّفته الرحلات البحرية بالبوصلة (compass) « بيت الإبرة » وبالخارطات الجغرافية ، وهو يقول فى صدد هذا « والمصور الجغرافى للبحر مرسوم على جلد بينت عليه أسماء

---

(١٦٤) شرحه p. VIII
(١٦٥) شرحه
(١٦٦) شرحه
(١٦٧) شرحه

جميع المدن الساحلية والجزر ، وهو يعين اتجاهات الرياح المختلفة كما يبين المسافات التى قطعتها
457 السفينة وما/ستقطعه بالأميال . وهم يسمونها القمباص[١٦٨] » . والسهو الأخير الذى وقع فيه التمجروتى يبين بصورة جلية كم كان البحر والمصطلحات البحرية أمرًا غريبًا على مؤلفنا .

وهو يقدم وصفًا مفصلا لاستنبول[١٦٩] سواء حين الكلام على مقابلته للسلطان أو فى وصفه لخطط المدينة التى يولى اهتمامًا خاصًا فيما بينها الجامع أيا صوفيا ومساجد أخرى أو عند حديثه على التجارة والحرف وحياة أهل المدينة . كما يبدى اهتمامًا خاصًا لما أبصره من انتعاش العلوم الإسلامية بها ويعترف بأنها تقف على مستو واحد مع البلاد العربية ؛ وقد اجتذبت أنظاره بصورة خاصة كمية المخطوطات الهائلة سواء الموجودة بالمساجد أو بالأسواق والتى كانت تجد طريقها إلى استنبول من جميع البلدان بحيث كان بوسع أى قارىء أن يحصل على المراجع فى جميع فروع العلوم[١٧٠] .

وفى عودته إلى وطنه أخذ التمجروتى الطريق نفسه الذى جاء به إلى استنبول معتمدًا فى وصفه للمدن الكبرى مثل طرابلس وسوسه إلخ[١٧١] على المؤلفين السابقين له ؛ وهو يتحدث فى القسم الأخير من كتابه عن استقبال السلطان لهم بفاس مع وصف مفصل لمراسيم البلاط المراكشى . وفى الخاتمة يوجد عدد من قصائد المؤلف يرتبط بعضها بمناسبات لا علاقة لها بالرحلة . وقد توفى التمجروتى بعد هذا بقليل بمراكش وذلك فى عام ١٠٠٣ هـ = ١٥٩٤ – ١٥٩٥[١٧٢] ؛ وكان كتابه معروفًا جيدًا بوطنه ، وفى بداية القرن الثامن عشر أدخل المؤرخ الوفرانى (توفى حوالى عام ١١٥١ هـ = ١٧٣٨) وصفه لمراكش فى مصنفه التاريخى المعروف عن سلاطنة السعديين[١٧٣] . هذا وقد استمر التأليف التاريخى (historiography) منتعشًا بالمغرب لمدة أطول مما هو عليه الحال فى البلاد العربية الأخرى ، كما وأن نمط الرحلة التقليدى بقى حيًا إلى القرن التاسع عشر*.

وإلى العصر الذى عاش فيه التمجروتى ينتسب مصنف آخر لا يسعنا إلا أن نجعله خاتمة لهذا

(١٦٨) شرحه، p. 84

(١٦٩) شرحه، p. VIII-IX, 47-69

(١٧٠) شرحه، p. 68

(١٧١) شرحه، p. IX

(١٧٢) -Lévi-Provençal, Al-Tamgrüti, p. 696

(١٧٣) شرحه

* إن استعمال المؤلف وغيره من المستشرقين لاسم مراكش Maroc إنما يريدون به جميع مملكة المغرب الحالية (وهى ما عرفه العرب باسم المغرب الأقصى)، لا مدينة مرّاكش Marrakech بالذات الواقعة فى جنوب البلاد؛ فوجب التنويه. (المترجم)

الفصل وإن كان فى واقع الأمر غير عربى لأنه مدون باللغة الإسبانية ولكن بحروف عربية. . هذا المصنف يمثل نموذجًا لما يعرف بأدب الألخميـادو * Aljamiado أى أدب الموريسكـيين Moriscos وهم العرب المتنصرون الذين تخلفوا باسبانيا عقب سقوط غرناطة فى عام ١٤٩٢ ومغادرة المسلمين لشبه الجزيرة الايبرية نهائيًا . وقد تم العثور على مخطوطة هذا الأثر ضمن مجموعة من المصنفات العربية الألخميادوية كُشف عنها فى عام ١٨٨٤ مسورة داخل جدار منزل عتيق بمدينة المناسد Almonasid ، وأغلب الظن أنه قد أخفاها أحد الموريسكيين عندما اضطروا إلى مغادرة ديارهم فقبعت محفوظة حوالى ثلاثة قرون حتى أصبحت بالتالى كنزًا علميًا لا يقدّر .

ومن بين هذه المصنفات الألخميادوية تحتل مكانة خاصة بالنسبة لنا « قصيدة » فى وصف 458
الحج إلى مكة بعنوان Las Coplas del Alichonte de Puey Monzon (« قصيدة الحاج القادم من بوى منسون » . ورغمًا من جهلنا بشخص مؤلفها إلا أن موضع إقامته الذى بدأ منه رحلته معروف بوجه التحديد وهو محلة صغيرة على بعد ستة عشر كيلو مترًا إلى الجنوب من مدينة منسون الأرغونية فى وادى نهر سنكا Sinka ، وكانت هذه المحلة تسمى قديمًا بوديوم مونتسونى Podium Montsoni ولكنها عرفت فيما بعد باسم بويـو دى موروس Pueyo de Moros ثم أخذت اسم بويو دى سنتا كروز Pueyo de Santa Cruz ؛ وكان جميع سكانها من الموريسكيين ومن ثم تعرضت لاضطهادات شديدة فى عام ١٥٩١ . وإلى عهد قريب من هذه الفترة ، أى نهاية القرن السادس عشر أو بداية القرن الذى يليه ، ترتفع رحلة الشاعر المجهول التى تقف شاهدًا على ما أبداه الموريسكيون من صلابة فى تمسكهم بعقيدتهم الإسلامية حتى إلى ما بعد مائة عام من سقوط غرناطة وذلك بالرغم مما تعرضوا له من ألوان الاضطهاد والتعذيب .

خرج مؤلفنا من أراغون إلى بلنسية وأخذ من هناك سفينة لأحد البنادقة وجهتها تونس ؛ وقد وقفت بهم السفينة على موانى تونس الأخرى وجزيرة جربه حتى بلغت الإسكندرية بعد أن تعرضت لأكثر من عاصفة قاسية . وفى القاهرة انضم المؤلف إلى قافلة الحج فأدى فريضة الحج بطريق البر ولكنه لم يوفق أثناء عودته فى تحقيق حلمه بزيارة طورسينا والقدس ولو أنه لا ينسى أن يفرد لهما بعض الأبيات فى قصيدته معتمدًا على المعلومات التى سمعها من الآخرين ؛ أما عن بقية الطريق إلى اسبانيا فيلتزم الصمت .

---

* تحريف أسبانى للفظ العربى « الأعجمية » . (المترجم)

هذه القصيدة الوصفية الفريدة فى نوعها تضم تسعة وسبعين مقطعًا فى ثمانيات (octaves) ؛ وإذا كانت بحسب رأى المتخصصين لا تكشف عن ميزات أدبية ذات بال إلا أنها على أية حال مفعمة بعاطفة صادقة ، وتقدم مادة طريفة قيمة عن ذلك الوسط الغريب الذى عاش فيه المؤلف. وقد لاحظ بعض الباحثين تأثير المسيحية فى بعض زوايا القصيدة فمثلاً يوم القيامة قد عرض فى صورة شعرية لا يقبلها أهل الورع من المسلمين . والقصيدة بأجمعها سهلة الفهم ويرتفع أسلوبها أحيانًا إلى درجة عالية من الحماس والانفعال . أما الوصف فيتميز فى معظم الأحوال بالحيوية ؛ فهى فى مجموعها أنموذج جيد لأدب الموريسكيين . أما بالنسبة لنا فتكتسب أهمية خاصة نقطة معينة فيها وهى أن المؤلف قد زود القصيدة بتعداد نثرى للبلاد الإسلامية موزعة بحسب غلبة كل مذهب من المذاهب الإسلامية الأربعة على سكانها ؛ وبهذا نجد أنفسنا أمام ثبت كامل لبلاد الإسلام كما عرفها آخر ممثلى الحضارة العربية فى اسبانيا قرب بداية القرن السابع عشر ؛ ومما يبعث على الأسف أن القائمة قد حرفتها أيدى النساخ تحريفًا كبيرًا يجعلها تحتاج إلى بحث خاص مستقل .

الفصل السابع عشر
المقريزى وجغرافيو مصر إلى الفتح العثمانى

أصبحت مصر فى القرن الخامس عشر كما رأينا مثابة للأدب العربى بأجمعه ، وظلت تشغل هذه 459
المكانة إلى الفتح العثمانى . وفيما يتعلق بالتأليف الجغرافى فإن الأمر الجدير بالملاحظة هو أن جميع الأنماط الجغرافية المعروفة لنا بالتقريب قد نمت وترعرعت بها ؛ ويصدق هذا بصورة خاصة على نمط الموسوعات الذى بلغ الأوج فى بداية القرن الخامس عشر وكان أكثر آثار ذلك العهد إبداعاً وأصالة . وتسترعى النظر كما هو الحال من قبل الجغرافيا الإقليمية الإدارية (Administrative-regional Geography) التى نمت نمواً مطرداً فى أوساط عمال دولة المماليك ، أما الجغرافيا الإقليمية فتقدم لنا نمط « الخطط » التاريخى الطوبوغرافى الذى بلغ ذروته فى مصنف المقريزى المشهور . وإلى جانب هذا فإن المؤرخين أنفسهم لم يكتفوا بضم مادة جغرافيـة كبيرة إلى مصنفاتهم فى التاريخ العام أو التاريخ المحلى بل وعالجوا أحياناً الكتابة فى الأنماط الجغرافية المختلفة .

وخير ممثل لهذا الصنف من المؤلفين فى بداية ذلك العصر هو صارم الدين إبراهيم بن محمد بن دقماق المصرى الذى غلب عليه اسم ابن دقماق [1] ؛ وقد شغل لبعض الوقت أثناء سلطنة الناصر محمد منصب الوالى بدمياط ، غير أن اهتمامه الأكبر كما يبدو كان منصرفاً إلى كتابة التاريخ ، كما وأنه كان يعد فى مجال الفقه من غلاة الحنفية وهو أمر جر عليه بعض المتاعب فى مصر التى غلب عليها مذهب الشافعى . ومن مصنفاته سفر ضخم فى التاريخ فى اثنى عشر جزءاً وصل به إلى عام ٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ وأتمه فى عام ٧٨٤ هـ = ١٣٨٢ ، ولم يتبق منه سوى بضعة أجزاء بخط يد المؤلف نفسه موجودة بمكتبة غوتا Gotha بألمانيا ؛ كما عهد إليه الظاهر برقوق (توفى فى عام ٨٠١ هـ = ١٣٩٨) بكتابة تاريخ ولاة مصر فوصل به إلى عام ٨٠٤ هـ = ١٤٠٢ . أما مصنفه الجغرافى فكان على ما يظهر من أواخر آثاره العلمية ولعله لم يكمله ؛ ومن المحتمل أنه حاول تحت
تأثير نمط « الفضائل » القديم من جهة والجغرافيا الإقليمية الإدارية / من جهة أخرى أن يصف 460
الأمصار العشرة الكبرى فى العالم الإسلامى مولياً اهتمامه الأكبر إلى مدن مصر ومبيناً فضلها على بقية المدن ، ولهذا فقد أطلق على كتابه اسم « كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار » [2] . وقد حفظ لنا من هذا الكتاب الجزآن الرابع والخامس فى مخطوطة بدار الكتب المصرية بخط يد المؤلف

---

(١) -Wüstenfenfeld, Geschichtschreiber, p.199-200, No457-Brockelmann, GAL., II, p.50, No10; SBII, p. 49-50 No 10a-Pedersen, EI, 11, p. 397 - Wiet, Manhal, p. 10, No 63 - Sarkis, p. 103-104-Vollers, Ibn Doukmak

راجع فى الفهرس : محمد البلاوى

(٢) -Vollers, Ibn Doukmak, p.5

ولم يكن قد انتهى من صياغتها فى صورتها النهائية . هذان الجزآن يعالجان الكلام على القاهرة والإسكندرية ويحملان فى بعض الأحيان عنواناً منفصلا أبعد من أن يرجع إلى المؤلف نفسه وهو « الدرة المضية فى فضل مصر والإسكندرية » .

والمصنف لا يتمتع بأية ميزات أدبية بل يقتصر على تعداد جاف لمعالم المدينة الهامة مع الاكتفاء بتعليقات تختلف طولا وقصراً ، وهو يبدأ بالكلام على مدينة الفسطاط مفصلا القول على أحيائها وأسواقها وبركها ومساجدها ومعاهدها وأبنيتها وأديارها وكنائسها الخ . وابن دقماق يستشهد من وقت لآخر بالأشعار التى يرد فيها ذكر المواضع التى يعالج الكلام عليها ولم يبالغ فى ذلك كما هو الشأن مع المؤلفين الآخرين ؛ ومن الطبيعى ألا تتساوى من حيث الأهمية جميع الموضوعات التى يتكلم عنها فجزيرة الروضة مثلا تحتل أهمية خاصة لديه وذلك لارتباطها بذكريات أدبية معينة . وهو يطبق الطريقة التى لجأ إليها فى وصف الفسطاط على بقية حواضر مصر فيبدأ بالقريبة من القاهرة مثل اطفيح وأسيوط الخ ويعقبها بالبعيدة ؛ ثم يرجع إلى الكلام مرة أخرى على القاهرة قبل أن ينتقل إلى الإسكندرية ، ومن الملاحظ أن القسم الذى أفرده لهذه المدينة الثانية لا يبدو أنه قد أتمه إذ يقتصر فى حقيقة الأمر على سرد للأساطير المتعلقة بها دون أن يتعرض لوصفها .

والكتاب يوحى بصورة عامة أنه لم يتمم إذ كثيراً ما نلتقى فى النسخة التى بخط يد المؤلف ببياض فى الأصل يمس الأرقام بشكل خاص ، ومن حقنا أن نفترض أنه لم يقدر للمؤلف أن ينفذ خطته بالتمام لذا فلم يتمكن إلا من تدوين جزأين[٣] من العشرة التى كان ينوى كتابتها ؛ وقد وصل إلى النتيجة نفسها هذه ناشر الكتاب العلامة فولرز **Vollers** عند فحصه لمسألة استعمال المقريزى لمصنف ابن دقماق فى كتابه فى « الخطط » . وكان المقريزى من تلامذة ابن دقماق[٤] فلا عجب أن عرف مؤلفاته جيداً ، غير أن الغريب فى الأمر هو أنه لا يشير فى أى موضع إلى « كتاب الانتصار » بل ويصرح عند تعداده لمصادره أن آخر من كتب فى الخطط هو ابن المتوج المعروف[٥] . وبما أن المقريزى بدأ نشاطه العلمى بدراسة العلوم الشرعية فقد دفع ذلك فولرز إلى الافتراض بأنه اشتغل بالتاريخ عقب وفاة ابن دقماق[٦] وبذلك لم يتعرف على / مصنفاته هذه ؛ 461

(٣) شرحه ، ص ٦

(٤) Pedersen, EI, II, p. 397-

(٥) Vollers, Ibn Doukmak, p. 6-

(٦) شرحه

ومن الممكن أنه قد أغفل ذكره عن عمد لأن المقريزى كان شافعياً متطرفاً . ووجود الكتاب فى مخطوطة وحيدة يدفع إلى الاعتقاد بأن نسخة المؤلف قد وقعت فى وقف أحد مساجد القاهرة وظلت مجهولة من الجميع[٧] ؛ وعلى أية حال فإن تاريخ تدوينه يقع بعد عام ٧٩٣ هـ = ١٣٩١[٨] .

وكان ابن دقماق رجلا واسع الاطلاع إذا حكمنا من مصنفاته التاريخية ، وهو يستقى مادته الجغرافية من مؤلفين معروفين لنا فينقل عن الحوقلى (ابن حوقل) والمؤلفين الذين يعالجون الكلام بصورة خاصة على مصر كالكندى وابن عبد الحكم والقضاعى وابن زولاق كما ينقل أيضاً عن ابن سعيد والإدريسى[٩] . ويقرر فولرز أن ابن دقماق قد استعان بمصادر أفضل من تلك التى لجأ إليها المقريزى وأنه وقف منها موقفاً أكثر جدية فلم تجتذبه الغرائب والعجائب كما حدث مع الأخير[١٠] . هذا وتتعارض المصادر حول تاريخ وفاته ولكن أقربها إلى الواقع هو عام ٨٠٩ هـ = ١٤٠٧[١١] .

وعلى نقيض ابن دقماق كان إدارياً أكثر منه عالماً خليل بن شاهين الظاهرى (المتوفى فى عام ٨٧٢ هـ = ١٤٦٨)[١٢] أحد كبار رجال دولة المماليك ؛ وكان أبوه من مماليك السلطان الظاهر سيف الدين وإليه نسب الابن[١٣] . وقد ولد خليل الظاهرى بالقدس فعرفها معرفة مباشرة[١٤] ولكنه تلقى تعليمه بمصر وشغل منذ السنوات الثلاثينات للقرن الخامس عشر عدداً من المناصب الهامة فى حكومة المماليك فكان والياً على الإسكندرية لبعض الوقت وأميراً للحج لعام ٨٤٠ هـ = ١٤٣٦ ، وأصبح فيما بعد والياً على نواح من فلسطين مثل الكرك وصفد وأخيراً تولى منصباً هاماً بدمشق . وكان لتقلبه فى مناصب الدولة المختلفة أن مكنه هذا من التعرف عن كثب على ولاياتها الكبرى وهى مصر والشام والحجاز أيضاً التى كانت تعترف بالتبعية السياسية لدولة المماليك ؛ ولعل نشاطه الإدارى هو الذى دفعه فى عهد السلطان جقمق (٨٤٢ هـ -

---

(٧) شرحه ، ص ٧

(٨) -Sarkis, p. 104

(٩) -Vollers, Ibn Doukmak, p. 4

(١٠) شرحه

(١١) شرحه ، ص ٣ - Pedersen, E1, 11, p. 397

(١٢) - Brockelmann, GAL, II, p. 135, No 6; SBII, p. 165 - 166 - Hartmann, Halil - Ravaisse

(١٣) -Sarkis, p. 133

(١٤) -Hartmann, Halil, p. 1

٨٥٧ هـ = ١٤٣٨ - ١٤٥٣)[١٥] إلى التفكير فى وضع مدخل من أجل عمال الدولة فبدأ عمله بكتابة مجلدين ضخمين فى أربعين باباً ولكنه لما أبصر ضخامة مؤلفه اختصره فى اثنى عشر باباً بعنوان « زبدة كشف الممالك فى بيان الطرق والمسالك[١٦] » . ومن العبث أن نحاول
462 الاستقراء / من عنوان الكتاب أن المؤلف أراد أن يضع مصنفاً من نمط « المسالك » المعروف لنا جيداً ، فالأمر ليس كذلك ؛ ووجود لفظ « المسالك » اقتضاه العنوان المسجوع للكتاب وبخلاف هذا فإن الكتاب فى واقع الأمر يمثل شيئاً أقرب إلى تقويم حكومى لأراضى دولة المماليك الغرض منه أن يكون مرجعاً لعمّال الدولة وللمهتمين بالمسائل السياسية والدبلوماسية[١٧] ؛ وأقرب شبيه له فى هذا المضمار هو كتاب « التعريف » للعمرى ؛ وعلى فقدان الصلة المباشرة بين الكتابين[١٨] إلا أن الشبه بينهما لم يأت عفواً كما أثبت ذلك هارتمان Hartmann الذى أخضعهما لتحليل دقيق .

ومما لاشك فيه أن المقارنة بين هذين الأثرين ليست فى صالح الظاهرى بأية حال ؛ وسبب ذلك أن الظاهرى لم يقصد بكتابه الفائدة والمعرفة فقط بل أراد به أيضاً المتعة والتهذيب[١٩] فخرج الكتاب كما يقول هارتمان مليئاً بالهراء من حيث أراد صاحبه التسلية والمتعة ومفعماً بالغث من حيث أراد منه التهذيب والتوجيه . ومن ثم فلا يمكن مقارنته فى أى شىء بكتاب العمرى[٢٠] لأن هذا الأخير جمع بجد واهتمام كل ما هو ضرورى من أجل كتاب الإنشاء ببلاط السلطان على عكس خليل الظاهرى الذى استهدف الإمتاع[٢١] وأراد من وقت لآخر إشباع نزعاته الأدبية على افتقاره التام إلى الذوق الأدبى . وهو يورد فى كتابه عدداً كبيراً من الأقوال المأثورة وقصص التقى والورع[٢٢] ولكنه يسبغ على مضمونها طابعاً مميزاً من سماته الشخصية التى من بينها على حد تعبير هارتمان المغالاة فى إظهار التدين وفى الاهتمام بالدين وهى صفة تقرب كثيراً بين خليل الظاهرى

---

(١٥) شرحه، ص ١ ، ٣ Ravaisse, p. ٣ – ٤

(١٦) -Ravaisse, p. ٤

(١٧) -Hartmann, Halil, p. 3

(١٨) شرحه ، ص ٦

(١٩) شرحه ، ص ٣

(٢٠) -Hartmann, ZDMG, 70, 1916, p. 8

(٢١) -Hartmann, Halil, p. 6

(٢٢) شرحه ، ص ٣

وعدد من الكتاب المتأخرين كالرحالة المعروف عبد الغنى النابلسى ، وتدفعه إلى سرد أخبار لا تحصى عن المواضع المقدسة[٢٣] . كذلك من سماته الرضى عن النفس ويتمثل هذا فى الاقتباسات التى ينقلها من قصائد المدح التى قيلت فيه وأيضاً فى العدد الضخم من قصائده هو التى أضافها فى آخر الكتاب هذا بالرغم من افتقارها البيّن إلى الجودة[٢٤] . وهو لم يجهد فى استيعاب مادته الخبرية أو يتوخى الدقة فى روايتها[٢٥] ، مثال ذلك أنه لا يفصّل الكلام على نظام الإدارة فى دولة المماليك وأنه كثيراً ما ينقل إحصائياته لا من الوثائق الرسمية المعاصرة بل من مؤلفات قديمة طال عليها العهد[٢٦] ؛ وعلى خلاف العمرى فإنه لا يقدم نماذج لصيغ المكاتبات الرسمية من ذلك الضرب الذى حفل به كتاب « التعريف »[٢٧] .

وأمام هذا التحليل القاسى فإن الحكم على مؤلفنا قد يبدو سلبياً للغاية ، غير أن خليل الظاهرى لحسن الحظ لا يفتقر إلى بعض / الميزات فهو قد جهد فى تقديم صورة متكاملة الجوانب 463 للنظام الإدارى بمصر كما أن الباب الأول من كتابه الذى يعد أوسع فصوله جميعاً يعرض لنا تحليلا جغرافياً عاماً للحجاز وبعض فلسطين ومصر وسوريا ، وفى الباب الثانى ينتقل إلى الكلام على نظام السلطنة وما يتحلى به السلطان من الصفات ويصف الموكب الشريف والملبوس .. وفى الباب الثالث والأبواب التى تليه وهى أصغر بكثير من سابقتها من حيث الحجم يرد الكلام بالتوالى على الخليفة « أمير المؤمنين » وقاضى القضاة وأئمة الدين وعلى الوزارة وما يرتبط بها من مناصب ودواوين . وقد أفرد بعض الأبواب القصيرة للكلام على أولاد الملوك وعلى الأمراء ، كما يتعرض فيها لبعض المناصب مما لم يعالجه فى الأبواب السابقة . وفى الباب السابع يصف بعض دور الحكومة على حين يفرد الثامن لملحقات الدور السلطانية والتاسع لصيانة الجسور والطرق ولتقسيم الولايات . وأغلب الظن أن الأبواب الثلاثة الأخيرة للكتاب قد أضيفت بالتدريج وهى تسوق العرض وفقاً لمنهج مغاير بعض الشىء ، فالباب العاشر أشبه بوصف لنظام الجيوش عند المماليك هذا بينما يعالج الحادى عشر الكلام على العربان والتركمان والأكراد بخاصة من زاوية تزويدهم مصر

---

(٢٣) شرحه ، ص ٢

(٢٤) شرحه

(٢٥) شرحه ، ص ٤ Hartmann, ZDMG, 70, 1916, p. 11-

(٢٦) Hartmann, Halil, p. 3-4

(٢٧) شرحه ، ص ٦

بالمماليك . أما الباب الثانى عشر فيحمل طابعاً يسوده الخلط والصدفة إذ يضم أساطير عن شداد وفرعون ، كما يضم قصائد للأمراء المعاصرين للمؤلف . ورغما من التلون الذى يغلب على مادة الكتاب وعدم تمسك المؤلف بخطته فى الأبواب الأخيرة منه فإنه لا يمكن بأية حال إنكار أن المادة التى تحتويها الأبواب الأولى ضخمة ومهمة وإن لزم الاعتراف بأنها تتراوح من حيث أهميتها . وعلى أية حال فقد استطاع خليل الظاهرى بفضل منصبه الحكومى أن يفيد أحياناً من الوثائق الحكومية[٢٨] ، ويلاحظ هارتمان هذا بصورة خاصة فى القسم الذى للبريد وهو أقيم ما فى الكتاب بأجمعه[٢٩] ؛ ويكتسب أهمية خاصة تعداده لمنازل البريد ومحطاته لا لأنه يذكر أسماء مواضعها الرئيسية فحسب كما فعل معظم المؤلفين قبله بل لأنه يقدم لنا تفاصيل ذات أهمية كبرى ؛ ومما يؤسف له حقاً أن متن الكتاب فى هذا الموضع ليس فى حال تبعث كثيراً على الرضى[٣٠] . وإلى جانب المادة الاخبارية التى يوردها والتى كما رأينا لا تخلو من القيمة فإنه يجب الاعتراف بأن الكتاب لا يخلو من أهمية فى حد ذاته لأنه ينتمى إلى عصر لم تصلنا منه مادة جغرافية وافرة ، أضف إلى هذا أن المطبوع منها فى صورة مرضية أقل من ذلك بكثير[٣١] . وهو معروف حتى الآن فى الملخص الذى عمله المؤلف والذى أشرنا إليه فى حينه ؛ وأغلب الظن أن المسودة الأصلية قد فقدت . وقد ظهر أكثر من مرة الرأى القائل بأنها هى التى رجع إليها فى القرن الثامن عشر الرحالة المعروف فولنى Volney فى وصف رحلته بمصر وسوريا (١٧٨٧) ، غير أن التحليل الذى قام به هارتمان أثبت / أن المسودة التى وجدت بين يدى الرحالة هى الملخص نفسه المعروف لنا[٣٢] . 464

لقد سبق وأن أشرنا إشارة عابرة أثناء كلامنا عن مصر فى القرن الرابع عشر إلى أحد معاصرى خليل الظاهرى ، وهو سليل أسرة من تلك الأسر القبطية التى اعتاد حكام مصر استخدامها فى أعمال الدولة آنذاك[٣٣] واسمه الشيخ أبو البقاء ابن الجيعان[٣٤] ؛ وقد ساق التشابه فى الأسماء

---

(٢٨) شرحه ، ص ٧

(٢٩) شرحه

(٣٠) شرحه ، ص ٦٨

(٣١) شرحه ، ص ٨٨

(٣٢) شرحه ، ص ٣

(٣٣) -Devonshire, BIFAO, XX, p. 5-6, Note 5

(٣٤) راجع : Brockelmann, GAL, II, p. 30, No 9; SB II, p. 26, No 9

ولكن قارن Brockelmann, GAL, II, p. 131, No 5 and SB II, p. 163, No 10a — Moriz

Ibn al - Gian, p. III - Kramers, EI, EB, p. 71 — Devonshie BIFAO, XX,

إلى الخلط بينه وبين سميه السابق له والذى كان من موظفى الديوان أيضاً[٣٥] . وحمل صاحبنا لقب « مستوفى ديوان الجيش »[٣٦] أى أشبه ما يكون برئيس لكتبة الإدارة العسكرية ؛ ومن المحتمل أنه قد وضع مصنفه فى البداية ليكون مرشداً للعاملين فى تلك الإدارة ؛ وهو كتاب جاف للغاية ولكنه لا يخلو من الفائدة وعنوانه « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » . ويقول المؤلف فى مقدمة كتابه «**فهذا كتاب أذكر فيه ما بإقليم مصر من البلدان وعبرة* كل بلد وكم مساحتها من** فدان ، أولا بذكر الإقليم على وجه الإجمال وأذكر عبرة الأقاليم المذكورة على ما استقر عليه الحال فى أيام الأشرف شعبان ، وإن تغيرت عبرة بلدة عما كانت عليه ذكرت عبرتها الآن »[٣٧] . والمؤلف كما يبصر من ألفاظه يستدرك بقوله إن مادته ترجع إلى عهد السلطان شعبان ، وكما رأينا من قبل فإن المرجع الرئيسى فى هذا الصدد هو « تقويم البلدان المصرية فى الأعمال السلطانية » الذى تم تأليفه بالديوان السلطانى حوالى عام ٧٧٧ هـ = ١٣٧٥ ؛ ومما يقف دليلا على الأهمية العملية لكتاب ابن الجيعان فيما يتعلق بإدارة مصر هو أنه نقل إلى التركية[٣٨] .

ولابن الجيعان مؤلف آخر ذو طابع جغرافى يمثل بالنسبة لنا أهمية كبرى ، ففى عام ٨٨٢ هـ = ١٤٧٧ قام السلطان قايتباى برحلة فجائية إلى الشام أخفى الغرض من زيارتها حتى على من أخذوا طرفاً فيها ويلوح أن المقصود منها كان التأكد من أن التحصينات القائمة على الحدود مع آسيا الصغرى فى حالة جيدة تستطيع معها الوقوف ضد العثمانيين إذا ما فكروا فى مهاجمة الشام[٣٩] . وكان من بين رجال حاشيته ابن الجيعان الذى ترك لنا وصفاً لهذه الرحلة فى كتاب صغير بعنوان « القول المستظرف فى سفر مولانا الأشرف » أخرجه فى طبعة حجرية المستشرق
الإيطالى لانتزونى R. Lanzone فى عام ١٨٧٨ وله ترجمة إنجليزية / بقلم ديفونشير 465
R. Devonshire (١٩٢٢)؛ هذا وقد نسب الناشر سهواً تأليف الكتاب إلى ناسخه[٤٠] إبراهيم

---

(٣٥) عالم الدين شاكر القبطى المصرى بن جيعان ولد بعد عام ٧٩٠ هـ = ١٣٨٨ .
راجع : Wiet, Manhal, p. 166, No 1102

(٣٦) - Moritz,Ibn al- Gian, p. III

* عبر البلد أو عبرتها خراجها وغلتها . (المترجم)

(٣٧) شرحه ، المتن ، ص ٢

(٣٨) -Taeschner, GLO,p.40-41,note I

(٣٩) -Devonshire,BIFAO,XX,p.2

(٤٠) -Lanzone,p.4

الطيّى [٤١] . وابن الجيعان يذكر نفسه ضمن الحاشية وقد جاء بألفاظه أنه وجد بينها « العبد أبو البقاء ابن الجيعان »[٤٢]، ومما يؤكد مشاركته فى هذه الرحلة أن المؤرخ ابن إياس يذكر ذلك بل ويضيف إلى هذا أن قايتباى قد حفظ أمرها سراً[٤٣] .

وتكمن الميزة الأساسية لهذا الأثر فى بساطته وفى معلوماته المباشرة ، ويلوح أن ابن الجيعان قد دوّن الجزء الأكبر منه دون أن ينقّحه لذا فقد كثرت فيه الألفاظ والعبارات المكررة مما يحمل على الاعتقاد بأنه قد كتبه فى الأصل على شكل يوميات لم يلبث أن ضم بعضها إلى بعض دون إضافات أو تعديلات ذات بال . وعلى نقيض كتابه « التحفة » فقد كان هدفه هنا وضع أثر أدبى إن لم يكن فى أسلوب رفيع على الدوام فهو قريب منه على الأقل ، لذا فإنه تقابلنا فى مواضع عديدة منه جمل مسجوعة وأشعار متكلّفة ليست بذات قيمة تذكر . ونظراً لأنه قد شغل فى هذه الرحلة وضعاً أشبه بوضع مؤرخ للبلاط فقد وجد نفسه بطبيعة الحال خاضعاً لالتزامات معينة فكان من الضرورى عليه مثلا أن يفسح المجال لمدح ولى نعمته ولعل هذا هو السبب فى اختتامه الكتاب بمقارنة بين قايتباى والظاهر بيبرس (٦٥٨ هـ = ١٢٧٧) بصدد ما قام به كل منهما بالشام ، أخرج منها الأخير بصفقة المغبون[٤٤] وهو أمر لا يقره عليه أحد . غير أن أسلوب الكتاب يجب ألا يقف حائلا دون الاعتراف بقيمته وبصحة معطياته ، فوصفه للطريق بين مصر والشام كان ذا فائدة كبرى للمستشرق هارتمان فى بحثه الخاص الذى أفرده لهذا الموضوع[٤٥] .

وقتل ابن الجيعان عام ٩٠٢ هـ = ١٤٩٧ فى أحد شوارع القاهرة بيد مملوك مجهول وهو فى سن الستين بحسب رواية ابن إياس[٤٦] . وكتابه « المستظرف » لا يمثل بطبيعة الحال النموذج الوحيد لتدوين رحلة أمير كبير بقلم أحد رجال حاشيته إما بتكليف منه أو لنيل عطفه ؛ وقد استمر هذا الضرب من الرحلات مزدهراً لعدة قرون بل إننا نلتقى به فى القرن العشرين فى مصنف مشابه ولكنه يقوم على أساس مخالف كل المخالفة أعنى رحلة البتانونى التى رفعها إلى خديو مصر عباس حلمى .

---

(٤١) شرحه ، المتن ، ص ٤٨

(٤٢) شرحه ، المتن ، ص ٤

(٤٣) -Devonshire, BIFAO, XXV, p. 2

(٤٤) راجع شرحه ، ص ١

(٤٥) -Hartmann, Die Strasse, p. 694-696

(٤٦) - Kahle, Ibn Ijas, 111, p. 354 - Devonshire BIFAO, XX, p. 5-6, note 5

لقد شهد عصر المماليك كما أبصرنا انتعاش وازدهار نمط الموسوعات ، ولكنه إلى جانب هذا بلغ فيه المقريزى القمة بنمط آخر هو نمط « الخطط » . وسنرى فيما يلى أن المقريزى وإن لم يكن آخر المؤلفين فى هذا الباب إلا أنه أعظمهم مكانة .

والمقريزى بوجه عام شخصية ضخمة بين مؤرخى مصر الإسلامية ليس فقط لدقة روايته التى 466
لا تقف دائما فوق مستوى النقد بل قبل كل شيء لنشاطه الجم الذى لايعرف الكلل ، ولا تساع أفق دراساته واهتمامه الكبير بالجانب الاجتماعى والديموغرافى (demographic) للتاريخ(٤٧) . ويمكن إلى حدما اعتباره أبا لتلك المدرسة التاريخية التى ازدهرت بمصر فى ذلك العصر وقدّمت لنا أسماء لامعة كمعاصِرَيْه العينى وابن حجر وتلميذه ثم منافسه أبِىْ المحاسن(٤٨) ، ومن ممثلى الأجيال التالية السخاوى الذى كان يضمر له بعض السوء ثم العلامة الكبير السيوطى ، وأخيراً المؤرخ ابن إياس الذى شهد الفتح العثمانى(٤٩) . وسنلتقى ببعضهم ممن عالجوا الكلام فى موضوعات جغرافية فى سياق هذا الفصل .

والمقريزى(٥٠) أو ابن المقريزى كما يدعى أحيانا هو تقى الدين أحمد بن على ، ولد بالقاهرة فى عام ٧٦٦ هـ = ١٣٦٤ وأحس من نفسه دائماً مواطناً مصرياً غيوراً كما سنبصر هذا من مقدمته لكتابه « الخطط » . وكان من أساتذته ابن خلدون ؛ وقد بدأ دراسته على ما يبدو بالتخصص فى العلوم الشرعية وكان من غلاة الشافعية على عكس أحد أساتذته وهو ابن دقماق الحنفى ؛ وكما لاحظ أحد معاصريه وهو أبو المحاسن(٥١) فإن بغضه للحنفية قد انعكس فى مؤلفاته . وقام المقريزى بتدريس الحديث فى سن مبكرة بالقاهرة ثم تقلب فى الوظائف فشغل منصب القضاء بها وولى الحسبة بعد ذلك . وانتقل إلى دمشق عام ٨١١ هـ = ١٤٠٨ فى مهام مشابهة جمع إليها التدريس وإدارة الوقف ؛ ورجع إلى القاهرة بعد عشرة أعوام ومنذ تلك اللحظة كرّس حياته كلية للكتابة فى التاريخ الذى شعر دائماً بميل شديد نحوه كما سنرى من مقدمة كتابه . وقد أدى المقريزى فريضة الحج مع أسرته فى عام ٨٣٤ هـ = ١٤٣٠ واغتنم هذه الفرصة فأقام بعض الوقت بالحجاز وهناك استطاع أن يتعرف عن طريق الحجاج لا على بلاد العرب الجنوبية فحسب بل

---

(٤٧) Gibb, EI, EB, p. 258-

(٤٨) Quatremère, خطط المقريزى ، ص ٣٢٣-

(٤٩) عنان ، ص ٤٤

(٥٠) ترجمة حياته راجع :
Brockelmann, GAL, 11, p. 38-41, No 7; SBII, p. 36-37, No 7–Brockelmann, Al- Makrisi, p. 190-191

(٥١) Carra de Vaux, Les Penseurs, I, p. 147. -

والحبشة أيضاً ؛ مما تردد صداه بالتالى فى مصنفاته التاريخية . ورجع من الحجاز فى عام ٨٣٩ هـ = ١٤٣٥ واستقر نهائياً بالقاهرة إلى وفاته بها فى عام ٨٤٥ هـ = ١٤٤٢ .

ويبدو أن التاريخ قد تملك على المقريزى فعلا شغاف قلبه ، وهو على نقيض غالبية العلماء العرب لم يترك بالتقريب مصنفاً فى ميدان آخر بخلاف التاريخ . ولكنه فى مقابل هذا فإن عدد مصنفاته التاريخية كبير للغاية ، أضف إلى هذا أن قسما كبيراً منها قد حفظ لنا أحياناً بخط يد المؤلف نفسه(٥٢) . ورغماً من مرور قرن من الزمن فلا نستطيع إلا أن نوافق كاترمير
467 Quatremère فى حكمه الأساسى على المقريزى حينما قال : « إنه لمن دواعى / الدهشة حقاً أن نتصور مدى وأهمية إنتاج المقريزى فهو قد ألقى ضوءاً ساطعاً فى بحوثه الواسعة التى لا تعرف الكلل على كل ما يمس التاريخ السياسى والأدبى للشرق وبوجه خاص مصر »(٥٣) . وإذا ألقينا نظرة إلى ثبت مؤلفاته العديدة بان لنا هدفه واضحاً تمام الوضوح ، فمركز الصدارة بالنسبة له يحتله تاريخ مصر الطبوغرافى (الخطط) والمحلى ولكنه فى الوقت ذاته لا يهمل جيرانها إلى حدود المغرب والحبشة وبلاد العرب الجنوبية ، كما يولى أهمية خاصة للمسائل التاريخية والحضارية المتصلة بالموازين والنقود(٥٤) ؛ ولعل هذا الموضوع الأخير يعكس تأثير وظيفة المحتسب التى شغلها لبعض الوقت . ولمصر كرّس المقريزى سلسلة كبيرة من المصنفات تشمل جميع الأنماط التاريخية بالتقريب ، فقد كتب فى تاريخ الفاطميين وفى تاريخ الأيوبيين والمماليك (ساقه إلى عام ١٤٤٠) ووضع معجماً كبيراً فى السيَر لم يتمه هذا بخلاف عدد من الرسائل فى موضوعات مختلفة .

أما الموضوعات الجغرافية فقد مسها بطبيعة الحال فى مؤلفاته التاريخية ولكنه أفرد لها إلى جانب هذا مجهوداً خاصاً ، فنحن نعلم مثلا أنه قام بتعديل وتنقيح المسودة الأولى للمعجم الجغرافى للحميرى « الروض المعطار »(٥٥) الذى مر بنا الكلام عليه . بيد أن هذا ليس هو السبب الذى يجعلنا نقف للكلام عليه فى عرض عام للأدب الجغرافى ، بل إن السبب فى ذلك هو مصنفه الرئيس الذى يكاد يكون الأثر الأكبر فى مجهود حياته العلمية أعنى كتابه المشهور « الخطط » الذى يرتبط بالتاريخ وبالجغرافيا التاريخية على حد سواء .

---

(٥٢) راجع أنموذج خط المقريزى لدى :
(W.Wright, Paleographical Society, No 72; 1420-1421 ويرجع لعام)

(٥٣) خطط المقريزى، ص ٣٢٥ ,Quatremère -

(٥٤) -Brockelmann, Al-Makrisi, p. 190.

(٥٥) شرحه ، ص ١٩١ .

نشأ نمط الخطط بمصر وكان له فيها تاريخ مجيد معروف لنا جيداً بل وحدث أن لمسنا أكثر من مرة لحظات معينة فى تطوره الخلاّق . ويقدم لنا المقريزى فى كتابه حصيلة هذا المجهود ويدفعه إلى الأمام بصورة ملحوظة محدّداً فى ذات الوقت أهدافه وأغراضه وموقفه هو منه ؛ وقد عرض المقريزى أفكاره هذه فى مقدمة كتابه . فبعد أن حدّد الدوافع التقليدية المعهودة التى كأنما يوردها « دفاعاً » عن نفسه أو ربما خضوعًا منه للالتزامات الأدبية المعمول بها ، يأخذ المقريزى فى توضيح الاعتبارات والعوامل الشخصية التى حدت به إلى تأليف الكتاب ويعكس خلال هذا حباً عميقاً لوطنه مصر وشغفاً كبيراً بتخليد آثارها(٥٦) . وأقل طرافة من هذا تلك الأقسام من مقدمته التى يسوق فيها(٥٧) الكلام المعهود فى تبرير الاشتغال بالعلوم التاريخية وبالجغرافيا وذلك عن طريق الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية . وبعد أن يورد الصيغ المعروفة والتى نلتقى بها عادة لدى جميع المؤلفين ينتقل المقريزى إلى جوهر موضوعه فيقول :

« وبعد فإن علم التاريخ من أجل العلوم قدراً ، وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطراً ، لما يحويه من المواعظ والإنذار ، بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار ، والاطلاع على مكارم الأخلاق ليُقتدى بها / ، واستعلام مذامّ الفعال ليرغب عنها أولو النُّهَى ، لا جرم أن كانت الأنفس الفاضلة به 468
وامقة ، والهمم العالية إليه مائلة وله عاشقة ، وقد صنف الأئمة فيه كثيراً ، وضمّن الأجلة كتبهم منه شيئاً كبيراً .

وكانت مصر هى مسقط رأسى وملعب أترابى ومجمع ناسى ، ومغنى عشيرتى وحامتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجوّى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعشّ مأربى فلا تهوى الأنفس غير ذكره ، لا زلت مذ شدوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الكثير من آثارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها ، فقيدت بخطى فى الأعوام الكثيرة من ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب ، أو يحويها لعزتها وغرابتها إهاب ، إلا أنها ليست بمرتّبة على منوال ، ولا مهذبة بطريقة واحدة ومثال ، فأردت أن ألخص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية ، عن الأمم الماضية والقرون الخالية ، وما بقى بفسطاط مصر من معاهد غيَّرها أو كاد البلى والقدم ، ولم يبق إلا أن يمحو رسمها الفناء والعدم وأذكر ما بمدينة القاهرة ، من آثار القصور الزاهرة ، وما اشتملت عليه من الخطط والأصقاع ، وحوته من المبانى البديعة الأوضاع ، مع

---

(٥٦) ترجمة المقدمة ص ٣٢٧ – ٣٣٧ ؛ خطط المقريزى - Quatremère,

(٥٧) -Wiet, El-Maqrisi, Khitat, 1, p. 1-3

التعريف بحال من أسّس ذلك من أعيان الأماثل ، والتنويه بذكر الذى شادها من سراة الأعاظم والأفاضل ، وأنثر خلال ذلك نكتاً لطيفة ، وحكماً بديعة شريفة ، من غير إطالة ولا إكثار ، ولا إجحاف يخلّ بالغرض ولا اختصار ، بل وسط بين الطرفين ، وطريق بين بين ، فلهذا سميته كتاب المواعظ والاعتبار ، فى ذكر الخطط والآثار .

وإنى لأرجو أن يحظى إن شاء الله عند الملوك ، ولا ينبو عنه طباع العامىّ والصعلوك ، ويجلّه العالم المنتهى ، ويعجب به الطالب المبتدى ، وترضاه خلائق العابد الناسك ، ولا يمجّه سمع الخليع الفاتك ، ويتخذه أهل الرفاهية والبطالة سمراً ، ويعده أولو الرأى والتدبير موعظة وعبراً ، يستدلون به على عظيم قدرة الله تع فى تبديل الأبدال ، ويعرفون به عجائب صنع الله سبحانه من تنقل الأمور من حال بعد حال »[٥٨] .

470 من هذا يبدو جلياً كيف عمل المقريزى حساباً لاعتبارات تثقيفية تعليمية وسط المادة العلمية التى يصوغها وكيف يفسح عرضه العلمى أحياناً الطريق إلى اتجاهات بلاغية ، فعقب القطعة التـى مرت بنـا يجتذبـه الدافـع الأدبى قدمًـا فيحـاول استـدرار عطـف القـارىء (captatio benevolontiae) باصطناع التواضع والمذلة وذلك بتصوير ضعفه والظروف القاسية التى تم فيها تأليف الكتاب[٥٩] ؛ وهو فى أثناء كلامه هذا يستشهد بأشعار معروفة على وجه العموم ولا تمثل بأية حال أهمية خاصة بالنسبة لنا ؛ ولكن يتلو هذا عبـارات تكتسب أحياناً أهمية جوهرية ، من ذلك قوله :

« اعلم أن عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب وهى ، الغرض ، والعنوان ، والمنفعة ، والمرتبة ، وصحة الكتاب ، ومن أى صناعة هو ، وكم فيه من الأجزاء ، وأى أنحاء التعاليم المستعملـة فيـه .

فنقول ، أما الغرض فى هذا التأليف فإنه جمع ما تفرق من أخبار أرض مصر وأحوال ملكها كى يلتئم من مجموعها معرفة جمل أخبار إقليم مصر وهى التى إذا حصلت فى ذهن إنسان اقتدر على أن يخبر فى كل وقت بما كان فى أرض مصر من الآثار الباقية والبائدة ويقص أحوالها من ابتدأها من حلّها وكيف كانت مصاير أمورهم وما يتصل بذلك على طريق الاتباع لها بحسب ما تحصل منه الفائدة الكلية بذلك الأثر .

---

(٥٨) شرحه ، ص ٣ – ٥ .

(٥٩) شرحه ، ص ٥ – ٧ .

وأما عنوان هذا الكتاب أعنى الذى وسمته به فإنى لما فحصت عن أخبار مصر وجدتها مختلفة متفرقة فلم يتهيأ لى إذا جمعتها أن أجعل وضعها مرتباً على السنين لعدم ضبط وقت كل حادثة لا سيما فى الأعصر الخالية ولا أن أضعها على أسماء الناس لعلل أُخَر تظهر عند تصفح هذا التأليف فلهذا فرقتها فى ذكر الخطط والآثار فاحتوى كل فصل منها على ما يلائمه ويشاكله وصار بهذا الاعتبار قد جمع ما تفرق وتبدد من أخبار مصر ولم أتحاش من تكرار الخبر إذا احتجت إليه بطريقة يستحسنها الأريب ، ولا يستهجنها الفطن الأديب ، كى يستغنى مطالع كل فصل منه بما فيه عما فى غيره من الفصول فلذلك سميته كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار .

وأما منفعة هذا الكتاب فإن الأمر فيها يتبين من الغرض فى وضعه ومن عنوانه أعنى أن منفعته هى أن يُشرف المرء فى زمن قصير على ما كان فى أرض مصر من الحوادث والتغييرات فى الأزمنة المتطاولة والأعوام الكثيرة فتتهذب / بتدبر ذلك نفسه وترتاض أخلاقه فيحب الخير ويفعله ويكره الشر ويتجنبه ويعرف فناء الدنيا فيحظى بالاجتناب عنها والإقبال على ما يبقى . 471

وأما مرتبة هذا الكتاب فإنه من جملة أحد قسمىْ العلم اللذَيْن هما العقلى والنقلى فينبغى أن يُتفرّغ لمطالعته ويُتدبّر مواعظه بعد إتقان ما تجب معرفته من العلوم النقلية والعلوم العقلية فإنه يحصل بتدبره لمن أزال الله أكنّة قلبه وغشاوة بصره نتيجة العلم بما صار إليه أبناء جنسه بعد التخوّل فى الأموال والجنود ، من الفناء والبيود ، فإذا مرتبته بعد معرفة أقسام العلوم النقلية والعقلية ليُعرف منه كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبل .

وأما واضع هذا الكتاب ومرتبه فاسمه سيدنا الشيخ الإمام العالم العلامة تقى الدين أحمد بن على ابن عبد القادر بن محمد ويُعرف بابن المقريزى رحه ولد بالقاهرة المعزية من ديار مصر بعد سنة ستين وسبعمائة من سنى الهجرة المحمدية ورتبته من العلم ما يدل عليه هذا الكتاب وغيره مما جمعه وألفه .

وأما من رأى علم هذا الكتاب فإنه من علم الأخبار وبها عُرفت شرائع الله التى شرعها وحفظت سنن أنبياء الله ورسله ودُوّن هديهم الذى يقتدى به من وفقه الله إلى عبادته وهداه إلى طاعته وحفظه من مخالفته وبها نُقلت أخبار من مضى من الملوك والفراعنة وكيف حل بهم سخط الله لما أتوا ما نُهوا عنه وبها اقتدر الخليقة من أبناء البشر على معرفة ما دونوه من العلوم والصنائع وتأتّى لهم علم ما غاب عنهم من الأقطار الشاسعة والأمصار المتباينة وغير ذلك مما لا ينكر فضله ولكل أمة من أمم العرب والعجم على تباين آرائهم واختلاف عقائدهم أخبار معروفة عندهم مشهورة ذائعة بينهم ولكل مصر من الأمصار المعمورة حوادث قد مرت به يعرفها علماء ذلك المصر فى كل عصر ولو

استقصيت ما صنف علماء العرب والعجم فى ذلك لتجاوز حد الكثرة وعجزت القدرة البشرية عن حصره .

وأما أجزاء هذا الكتاب فإنها سبعة ، أولها يشتمل على جمل من أخبار مصر وأحوال نيلها
472 وخراجها وجبالها[٦٠] ، وثانيها يشتمل على كثير من مدنها وأجناس / أهلها[٦١] ، وثالثها يشتمل على أخبار فسطاط مصر ومن ملكها[٦٢] ، ورابعها يشتمل على أخبار القاهرة وخلائفها وما كان لهم من الآثار[٦٣] ، وخامسها يشتمل على ذكر ما أدركت عليه القاهرة وظواهرها من الأحوال[٦٤] ، وسادسها يشتمل على ذكر قلعة الجبل وملوكها[٦٥] ، وسابعها يشتمل على ذكر الأسباب التى نشأ عنها خراب إقليم مصر ، وقد تضمن كل جزء من هذه الأجزاء عدة أقسام .

وأما أى أنحاء التعاليم قصدت فى هذا الكتاب فإنى سلكت فيه ثلاثة أنحاء ، وهى ، النقل من الكتب المصنفة فى العلوم ، والرواية عمن أدركت من مشْيَخة العلم وجلة الناس ، والمشاهد لما عاينته ورأيته ، فأما النقل من دواوين العلماء التى صنفوها فى أنواع العلوم فإنى أعزو كل نقل إلى الكتاب الذى نقلت منه لأخلص من عهدته وأبرأ من جريرته فكثيراً ممن ضمنى وإياه العصر واشتمل علينا المصر صار لقلة إشرافه على العلوم وقصور باعه فى معرفة مقالات الناس يهجم بالإنكار على ما لا يعرفه ولو أنصف لعَلم أن العجز من قِبَله وليس ما تضمنه هذا الكتاب من العلم الذى يُقْطع عليه ولا يُحتاج فى الشريعة إليه وحسبُ العالم أن يعلم ما قيل فى ذلك ويقف عليه ، وأما الرواية عمن أدركت من المشايخ والجلة فإنى فى الأكثر والغالب أصرح باسم من حدثنى إلا أن لا يُحتاج إلى تعيينه أو أكون قد أنسيته وقلّ ما يتفق مثل ذلك ، وأما ما شاهدته فإنى أرجو أن أكون ولله الحمد غير متهم ولا ظنين ، وقد قلت فى هذه الرؤوس الثمانية ما فيه مقنع وكفاية ولم يبق إلا أن أشرع فيما قصدت به وعزمى أن أجعل الكلام فى كل خط من الأخطاط وفى كل أثر من الآثار على حدة ليكون العلم بما يشتمل عليه من الأخبار أجمع وأكثر فائدة وأسهل تناولًا والله يهدى من يشاء

(٦٠) خطط المقريزى ، طبعة ١٢٧٠ هـ ، الجزء الأول ، ص ٥ – ١٢٨ .
(٦١) شرحه ، ص ١٢٨ – ٢٨٥ .
(٦٢) شرحه ، ص ٢٨٥ – ٣٤٧ .
(٦٣) شرحه ، ص ٣٤٨ – ٤٩٨ .
(٦٤) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ٢ – ٢٠١ .
(٦٥) شرحه ، ص ٢٠١ – ٢٣٠ .

إلى صراط مستقيم وفوق كل ذى علم عليم »[٦٦] .

وإذا ما تركنا جانباً العبارات البلاغية المتناثرة فى هذه المقدمة فإن المؤلف يوضّح بجلاء كاف موقفه من فن التاريخ وآراءه الشخصية حول مصنفه والأهداف التى وضعها نصب عينيه ، / ثم مضمون الكتاب . وبهذا يوفر علينا الكلام على هذه النقاط بحيث نقتصر على إيراد زيادات طفيفة ونركز بهذا اهتمامنا على سؤال أساسى هو إلى أى درجة وفق المقريزى فى تحقيق أهدافه ، وهل يوجد لديه اختلاف كبير بين النظرية والتطبيق كما حدث وأن لاحظنا ذلك لدى مفكر ممتاز كابن خلدون ؟ 473

والمقريزى لا يذكر فى مقدمته شيئًا عن تاريخ تدوينه للكتاب ولكن نستطيع أن نستنتج من خلال فصوله أن ذلك أخذ وقتًا طويلا وأن المؤلف لم يتوقف عن الإضافة إليه على ممر الزمن . وتشير الدلائل على أن البدء فى تدوين المصنف قد حدث بين عامى ٨٢٠ هـ = ١٤١٧ و ٨٢٥ هـ = ١٤٢٢[٦٧] ؛ أما نهايته فيجعلها غست Guest عام ٨٤٠ هـ = ١٤٣٦[٦٨] ، ولكن كما بين محمد عبد الله عنان فإن المقريزى ظل يضيف إلى كتابه إلى عام ٨٤٣ هـ = ١٤٣٩[٦٩] أى إلى ما قبل وفاته بنحو عامين .

ومحتويات الكتاب خاصة قرب نهايته تختلف بعض الشىء عن خطة المؤلف الأولى كما فصل الكلام عليها فى المقدمة[٧٠]، فهناك يذكر المقريزى أنه رتبه على سبعة أجزاء ولكننا نبصر فى الواقع أن الجزء السادس الذى أفرده للكلام عن القلعة يتداخل فى الجزء الخامس الذى يعالج فيه الأحداث المعاصرة له ؛ ويلى هذا قسم ليس بالكبير يتحدث فيه عن الأيوبيين والمماليك[٧١] ثم يفصل فيه الكلام على تاريخ المساجد والمنشآت الأخرى بمدينة القاهرة[٧٢] وكأنه بمثابة تتمة للجزء الخامس . ثم يختتم الكتاب بفصول فى تاريخ اليهود والقبط مع تعداد الأديرة وكنائس هؤلاء الأخيرين[٧٣] .

---

(٦٦) -Wiet, El-Maqrisi, Khitat, 1, p. 7-11

(٦٧) عنان ، ص ٤٧ — ٤٨ .

(٦٨) -Guest, El-Maqrisi, p. 103.

(٦٩) عنان ، ص ٤٨ — ٤٩ .

(٧٠) راجع : Guest, p. 104-105 ؛ وعنان ، ص ٤٩

(٧١) المقريزى ، الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٣٢ — ٢٤٤ .

(٧٢) شرحه ، ص ٢٤٤ — ٤٦٣ .

(٧٣) شرحه ، ص ٤٦٤ — ٥١٩ ؛ قارن : عنان ، ص ٤٩ — ٥٠ .

وإذا كان ترتيب الجزأين الخامس والسادس فى صلب الكتاب يختلف بعض الشيء عما وعد به المؤلف فى المقدمة فإن الجزء السابع الذى يشير إليه هناك والذى وعد بأن يعالج فيه أسباب « خراب إقليم مصر » لاوجود له البتة مع أن المؤلف قد مس هذا الموضوع فى مواطن كثيرة من كتابه(٧٤) وتناوله من وقت لآخر فى شذور موجزة؛ ومن ثم فيجب الافتراض بأن هذا الجزء إما أنه لم يكتبه إطلاقاً أو فضّل عدم ضمه إلى مصنفه . ومهما يكن من شيء فإن هذا يقف دليلا على أن المقريزى لم ينقّح مقدمة كتابه بصورة نهائية ، كما يجب أن نضيف إلى هذا أن المقريزى لم ير من الضرورى أن يشير فى المقدمة إلى بعض الأقسام الصغرى من كتابه مثل ذلك العرض القصير الذى يلى المقدمة مباشرة والذى يعالج فيه الكلام على من سبقوه فى ميدان التأليف فى خطط مصر(٧٥) ، وكبحثه القصير فى علم الجغرافيا الذى جعله بمثابة مدخل إلى الطوبوغرافيا
474 التاريخية(٧٦) والذى يتبع فيه المنهج القديم المعروف / لنا جيداً ولا يكشف عن أية أصالة .

وعلى التزامه للتواضع كما هى شيمة المؤلفين المسلمين فإن للمقريزى فكرة عالية عن كتابه . وفى الواقع أن قيمة المادة التى جمعها بين دفتى هذا السفر قد نالت تقدير العلماء الأوربيين الذين اتخذوا فى مقابل هذا موقفاً صارماً من منهجه . وفى عام ١٨٥٦ كتب واحد من خيرة العارفين بالمقريزى وهو المستشرق الفرنسى كاترمير Quatremère ، وذلك بمناسبة ظهور الطبعة الأولى (editio Princeps) « للخطط » فى عام ١٢٧٠ هـ = ١٨٥٣ ، يقول إن المقريزى قد جعل هدفه التعريف تعريفاً مفصّلا بكل ما يتصل بمسقط رأسه القاهرة وأنه قد حقق هذا الهدف فلم يترك أثراً أو مؤسسة إلا ووصفه بدقة متناهية وحكى بإسهاب تاريخ بنائه والتوسيعات التى زيدت عليه ، وإلى جانب هذا يروى سير حياة الأمراء والكبراء الذين باشروا بناءه أو أقاموا فيه كما يدون أيضاً الأحداث المهمة التى اقترنت بهذه الدور والتقاليد والعادات والمراسم المتعلقة بها فى صورة أو أخرى . وقد بين بحق كل من كاترمير والعلامة المعاصر مرجليوث Margoliouth أنه ليس هناك مدينة شرقية يمكن أن تفخر بمؤلف يبلغ مرتبة كتاب « الخطط » من حيث الاكتمال والطرافة كما هو الحال مع القاهرة(٧٧) ؛ غير أن كاترمير يستدرك على هذا بقوله إن وصف المقريزى

---

(٧٤) عنان ، ص ٥٠ .

(٧٥) -Wiet, El-Maqrisi, Khitat, 1, p. 11-14.

(٧٦) شرحه ، ص ١٥ — ٥٠

(٧٧) -Quatremère, خطط المقريزى ، ص ٣٢٦

قارن : Margoliouth, p. 158

لمصر كان بمثابة مقدمة لوصفه للقاهرة وأن المدن الأخرى لا تتمتع بمادة قيمة كالتى أفردها لمسقط رأسه . وكثيراً ما يبدو وصفه جافاً ويعكس مادة أسطورية صرفة ؛ حقاً إنه يورد مادة حافلة عن العصور القديمة ولكن معظمها من نسج الخيال(٧٨) وترجع كما رأينا من مثال ابن وصيف شاه لا إلى مصادر عربية بل إلى ذلك التاريخ الأسطورى الذى عرف فى الأوساط القبطية بمصر ونما وترعرع فى تربة « شعوبية » على ما يبدو .

وعندما أخذ المستشرق غست على عاتقه فى أواخر القرن التاسع عشر فحص مسألة مصادر « الخطط » اضطر إلى موافقة كاترمير فى رأيه مع بعض التحفظات ؛ وهو يعتقد أن نصيب الكوزموغرافيا والجغرافيا لدى المقريزى لا قيمة له وأن مادته فى التاريخ القديم أسطورية بأكملها . أما أكثر الأقسام قيمة فى الجزء الأول فهو وصف نظام الضرائب وجميع القسم الخاص بالفاطميين ؛ ويمكن أن يعتبر كلاسيكياً وصفه لخطط القاهرة ولآثار الفسطاط(٧٩) . ويجب أن نستدرك بهذه المناسبة أن مدينة الفسطاط التى درست آثارها بسرعة فى عهد المقريزى لم تحظ منه سوى بوصف موجز ناقص ، كما وأن وصفه لحوادث عصره يسوده خلط شديد ويهمل فيه ذكر تفاصيل مهمة ؛ وأحد عيوبه الخطيرة هو إشارته إلى الجهات بصورة مشوّشة تجعل من تحديد مواقع
الأماكن بشكل دقيق أمراً عسيراً / بل وضرباً من المستحيل أحياناً(٨٠) . ورغما من جميع هذه 475
التحفظات فيجب موافقة هؤلاء العلماء فى أن اجتهاد المقريزى ومعرفته الواسعة شيء مذهل حقاً ، كما أن جانباً كبيراً من المادة التى حفظها لنا كان فى حكم المفقود لولا نقله إياه ؛ وهو فى العادة دقيق فى سرد مادته ويجهد ما أمكن فى نقلها عن الشخصيات المعاصرة للأحداث ، أما أسلوبه فيمتاز بالبساطة والوضوح وبأنه مقبول للنفس ، كما يتحاشى الإسهاب والعاطفية فى كتابته(٨١) .

أما من حيث المنهج فإن الكتاب أشبه ما يكون بمجموعة من المقالات المتفرقة منه بمصنف متماسك ، وفيه يختلط التاريخ بعلم الآثار (archaeology) بحيث لا يمكن أحياناً كما يقول غست معرفة ما إذا كان الكتاب مؤلفاً فى التاريخ أم مصنفاً فى الطبوغرافيا . وكما هو الحال مع معظم المؤلفين العرب فإن روح النقد ضعيفة لديه كما يفتقر افتقاراً بيّناً إلى الإحساس بالتناسق

---

(٧٨) شرحه ، ص ٣٢٦ – ٣٢٧ .

(٧٩) -Guest, El-Maqrisi, p. 105

(٨٠) شرحه ، ص ١٠٦

(٨١) شرحه

فهو يولى اهتمامه أحياناً بنسب متعادلة إلى الكلام على الهرم الأكبر ومقبرة صغيرة . وعندما تتناقض مصادره فى روايتها فإنه يترك الحكم للقارىء ، أما رواياته فإنه فى كثير من الأحيان لم يمحصها بما فيه الكفاية بحيث تمثل فى مجموعها موادًا فى تاريخ مصر وطوبوغرافيا مدينة القاهرة وليس تاريخاً أو طوبوغرافيا فى حد ذاتها(٨٢) . ورغما من كل هذا فيجب أن نعترف له ببعض الأصالة ، وقد أبصرنا من خلال مقدمته أنه يطرح المنهج الزمنى (chronological) التقليدى تفادياً للخلط فى التواريخ ، ويوزع مادته بحسب « الخطط » والآثار المختلفة متبعاً فى ذلك منطقاً قائماً بذاته . ولا يمكن أن نحرمه من قدر معين من حب الاستطلاع فهو يبدى أحياناً اهتماماً غريباً بمسائل شتى من بينها مسائل جيولوجية(٨٣) فيعتقد مثلا أن النيل كان يغطى جميع أرض مصر فى الأزمنة الغابرة وأن أهلها قبل إنشاء مدينة ممفيس كانوا يعيشون داخل الكهوف . والمقريزى يمتاز بمنهج واسع فى معالجته لتاريخ الشعوب التى قطنت مصر ، ولم يحدث أن جمع مؤرخ إسلامى قبله مادة مسهبة كالتى جمعها القزوينى عن القبط الذين يفرد لهم ثمانية فصول فى الجزء الثالث من كتابه . وهو يعالج فى هذه الفصول أيضاً تاريخ الكنيسة القبطية منذ أول بطريرك إلى حملة الاضطهاد التى تعرضوا لها فى عام ١٣٥٤ ويورد تعداد ستة وثمانين ديراً قبطياً واثنتين وسبعين كنيسة مسيحية مع سرد معلومات تاريخية وجغرافية وافرة عنها(٨٤) . وحتى فى هذا الصدد تنعكس بجلاء شخصيته الفريدة فهو عندما يتحدث مثلا عن عيد الشهداء الذين يربط القبط بينهم وبين فيضان النيل لا يستطيع أن يمنع نفسه من قدر معين من التهكم « جدير » كما يقول كارا دافو Carra da Vaux « بأفضل مؤلفى عصر النهضة الإيطالية »(٨٥) . ولا يخلو من الطرافة أن نذكر أن المقريزى قد رجع فى صياغة هذا القسم من كتابه ليس فقط إلى كتاب معروف لنا جيداً هو « كتاب الديارات » للشابشتى بل وأيضاً إلى مؤلفات مؤرخ عربى مسيحى هو المكين .

لكل هذه الاعتبارات فقد اتفق الجميع بما لا يدع مجالا للتنازع على أن كتاب المقريزى كتاب 476
قيم جداً بالنسبة للمادة التى يحويها بين دفتيه . وقد استطاع المقريزى الرجوع إلى جميع المصادر

---

(٨٢) شرحه ، ص ١٠٧
- Carra de Vaux, Les Penseurs, 1, p. 153

(٨٣) - Bolotov, Lektsii, p. 205

(٨٤) Strothmann, Kopt. Kirche, p. 106 : قارن

(٨٥) - Carra de Vaux. Les Penseurs, 1, p. 151

السابقة له والتى هلك أكثر من ثلاثة أرباعها بالنسبة لنا ؛ وهو فى العادة ينقل منها بدقة[٨٦] ولكن فى حدود المنهج الذى سار عليه المؤلفون العرب عامة . غير أننا إذا فحصنا هذه المسألة عن كثب فسنصطدم بصورة جدية بمشكلة عويصة تتعلق بأمانة المقريزى فى استعماله لمصادره ؛ إذ يقع عليه عبء الاتهام بالسرقة الأدبية من طرفين مختلفين . أحدهما مؤرخ عربى يكاد يكون من بين معاصرى المقريزى ويعبر عن اتهامه بصورة عنيفة ، أما الآخر فهو مستشرق أوروبى معاصر يعد من خيرة المتخصصين فى دراسة المقريزى . وأمام هذا فلا محيص لنا من الوقوف بالتفصيل أمام هذه المسألة ذات الأهمية الجوهرية .

أما صاحب الاتهام الأول فهو المؤرخ المصرى السخاوى (٨٣١ هـ-٩٠٢ هـ=١٤٢٧-١٤٩٧) الذى بالإضافة إلى وضعه معجمًا ضخمًا فى السير ومؤلفات تاريخية أخرى عرف أيضًا بمحاولة أصيلة لا تخلو من الفائدة لوضع مقدمة فى فن التوريخ عند العرب . وهو يشير فى مؤلفاته إلى المقريزى أكثر من مرة ولكن دائما مع ميل لم يفلح فى إخفائه بمهارة للتقليل من شأنه ونسبة السرقة إليه . ففى معجمه المذكور يختتم الكلام عن المقريزى بقوله :

« وأقام ببلده عاكفًا على الاشتغال بالتاريخ حتى اشتهر ذكره وبعد فيه صيته وصارت له فيه جملة تصانيف كالخطط للقاهرة ، وهو مفيد لكونه ظفر بمسودة الأوحدى فأخذها وزادها زوائد غير طائلة »[٨٧] .

ويكرر السخاوى هذه التهمة فى مصنفه فى فن التوريخ الذى أشرنا إليه فيقول :

« وكذا جمع خططها المقريزى وهو مفيد . قال لنا شيخنا إنه ظفر به مسودة لجاره الشهاب أحمد بن عبد الله بن الحسن الأوحدى ، بل كان بيض بعضه فأخذها وزاد عليه زيادات ونسبها لنفسه »[٨٨] .

وأخيرًا فى ترجمته للأوحدى فى ذلك المعجم نفسه يرجع السخاوى مرة أخرى إلى هذه التهمة مع إضافة زيادات طريفة فيقول :

« وبرع فى القرآن والأدب وجمع مجاميع واعتنى بالتاريخ وكان لهجًا به وكتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة تعب فيها وأجاد وبيّض بعضها فبيضها التقىّ المقريزى ونسبها لنفسه مع

---

(٨٦) -Guest, El-Maqrisi, p. 107

(٨٧) عنان ، ص ٥٢ .

(٨٨) شرحه ، ص ٥٣

477 زيادات .. وفى ترجمته فى عقود المقريزى / فوائد واعترف بانتفاعه بمسوداته فى الخطط ... »[٨٩]

والملاحظة الأخيرة التى ترد الإشارة فيها إلى معجم السير الذى وضعه المقريزى تخفف كثيرًا من حدة التهمة التى وجهها إليه السخاوى إذ من الواضح أن المقريزى لم يحاول إخفاء ما يدين به للأوحدى وبهذا يضحى من العسير أن نبصر أين يقع الاتهام بعدم الأمانة هاهنا . بقيت الشذرتان الأوليان للسخاوى ؛ ولا يتضح منهما هل يحاول السخاوى التعبير عن آرائه الشخصية أو أنه يعتمد على شهادة شيخه الذى يشير إليه . وهو عادة عندما يتحدث عن شيخه فإنما يقصد بذلك ابن حجر العسقلانى (٧٧٣ هـ - ٨٥٢ هـ = ١٣٧٢ - ١٤٤٩) المحدث والمؤرخ الكبير ، معاصر المقريزى وصديقه . وهذا الرأى الذى ينسبه السخاوى إلى ابن حجر لم نعثر عليه فى مؤلفات هذا الأخير مع أنه تحدث عن المقريزى مرارًا عبّر فى كل واحدة منها عن احترامه وإجلاله له[٩٠] . ومن الواضح أن المقريزى لا يولى حقيقة استعماله للأوحدى أهمية أكبر مما يوليها لاستعماله للمصادر الأخرى ؛ ومما يخفف من حدة اتهام السخاوى اعتبار خاص ذو طابع زمنى . فالأوحدى (٧٦١ هـ - ٨١١ هـ = ١٣٦٠-١٤٠٨) الذى لا نعلم شيئًا عن وجود مصنفه إلا من هذه الشذرات قد توفى قبل المقريزى بزمن طويل ومن ثم فلم يكن بوسعه أن يسوق مصنفه إلى الفترة التى ساق فيها الأخير « الخطط » ، أضف إلى هذا أنه معلوم لدينا جيدًا أن وصف أحوال مصر المعاصرة له يشغل أكثر من نصف كتاب المقريزى بحيث يضحى من غير المعقول أن يكون قد استعاره من الأوحدى[٩١] . ثم إن أخلاق السخاوى نفسه تجعلنا نقف موقف الحذر من كلامه عن المؤرخين الآخرين ؛ وقد تبين لنا من الشذرات التى سقناها عنف مهاجمته للمقريزى . وفى الواقع أن مهاجمة السخاوى لأكابر عصره وانتقاصه لأقدارهم لم يقف عند المقريزى ؛ وقد جر هذا إلى معارك قلمية مع معاصره السيوطى تبادلا فيها الحملات والاتهامات[٩٢] . هذا وقد وجد رأى السخاوى عن المقريزى بعض التعضيد لدى غولد زهر Goldziher[٩٣] وبروكلمان Brockelmann[٩٤]؛ بيد أن هذا لا يعنى بأية حال اعتبار كتاب

---

(٨٩) شرحه ، ص ٥٣ – قارن أيضًا ص ٥٨

(٩٠) شرحه ، ص ٥٧ – ٥٨

(٩١) شرحه ، ص ٥٥ – ٥٦

(٩٢) شرحه ، ص ٥٧

(٩٣) -Goldziher, Muh. Studien, 11, p. 269

(٩٤) -Brockelmann, GAL, 11, p. 39. note-Brockelmann, Al-Makrisi, p. 190

« الخطط » اختلاسًا لكتاب الأوحدى . وقد أخضع جميع تلك المسألة لتحليل دقيق وفريد العلامة المصرى المعاصر محمد عبد الله عنان(٩٥) وخرج من ذلك بنتائج حازت القبول لدى الجميع .

ومما لاشك فيه أن طريقة تناول المقريزى لمصادره أبعد من أن تستوفى مطالب البحث العلمى المعاصر ، ورغما من ذلك فإننا لا نستطيع موافقة غاستون فييت G. Wiet فى نقده المتشدد للمنهج الذى اتبعه المقريزى فى كتاب الخطط . وقد كتب فييت يقول « إن كل فصل من الخطط عبارة عن / أمشاج من النقول ألصقت جنبًا إلى جنب دون أى تمحيص ؛ ولعل المؤلف لم يكلف 478
نفسه مؤونة تبييضها من جديد »(٩٦) . لقد سنحت الفرصة لفييت ليدرس جيدًا عددًا من مخطوطات مصنفات المقريزى التى وصلتنا بخط يد المؤلف نفسه ، غير أن هذا لا يعطيه الحق ليرى فيها مسودات نهائية بدلا من تدوينات لم يكن قد جرى فيها بعد قلم المؤلف بالتصحيح والتبييض ؛ ونحن نعلم تمام العلم أن معظم مؤلفات المقريزى تكاد تكون غير تامة أى أن مؤلفها لم يعطها صورتها النهائية . ولا شك أيضًا أن طريقة استعمال المقريزى لمصادره قد أثارت بعض الشىء سخط فييت ، وهو فى تحليله المفصل لعلاقة المقريزى بمؤرخ وجغرافى مصر المبكر الكندى الذى وقفنا عنده فى حينه قد خرج برأى يسترعى الانتباه حقًا حين يقول : « ولكنه أعمل يد النهب بصورة خاصة فى كتاب ولاة مصر ، ويتضح هذا بصورة جلية فى أن المقريزى قد نقل أكثر من نصف الكتاب حرفًا حرفًا أى ما يقرب من ثلاثين صفحة من القطع الكبير من طبعة بولاق دون أن يشير فى معظم الأحايين إلى اسم الكندى ... ومن بين أربعة الآلاف وثمانمائة وست وستين سطرًا التى تحتويها دفتا كتاب تاريخ ولاة مصر ... أسقط المقريزى ثمانمائة وأربع وتسعين سطرًا فقط ذات مضمون تاريخى صرف »(٩٧) * .

---

(٩٥) عنان ، ص ٥٢ – ٥٩

(٩٦) - Wiet, BIFAO, XII, p. 62

(٩٧) شرحه ، ص ٦٣

* ولكن راجع مثلا قول فييت : "Ya - t- il malhonnêteté, plagiat dans le vrai sens du mot? Je ne le crois pas: les auteurs Arabes écrivalent pour un nombre très restreint de lettrés. qui n'étaient pas susceptibles d'être trompés. Maqrizi se croit quitte envers un auteur en le citant une fois, même s'il doit lui emprunter des pages entières."

(راجع مقال Kindi et Maqrizi: G. Wiet الذى ظهر بصحيفة BulletindeL'Institut Français d'Archéologie Orientale, Tome XII, p. 63. Le Caire, 1915) (المترجم)

ومما يقف دليلا على أن هذه الحالة حالة استثنائية هو ضخامة حجم كتاب المقريزى والكمية الهائلة من النقول التى ضمنّها إياه ، فلو كان قد سار على هذا النهج الذى طبقه على كتاب الكندى مع كل مؤلف آخر لنما كتابه بالتالى فبلغ العشرين جزءًا على الأقل .

لا مناص من التسليم بأن بعض أقسام « الخطط » تمثل فى بعض الأحايين نقلا صريحًا عن مؤلفين أخر ، غير أن هذه المواد المنقولة قد تم التأليف بينها بصورة لا تخلو من المهارة والإبداع ، واستخرجت من عدد هائل من الآثار الأدبية فُقد بعضها تمامًا بالنسبة لنا ، أضف إلى هذا أن المقريزى فى العادة لا يهمل الإشارة إلى مؤلفيها . وخير مثال لهذ الفصل القصير الذى أفرده لأهرامات مصر والذى أخضعه لبحث خاص غريفه Graefe ، ففيه يشير المقريزى إلى أكثر من عشرين مؤلفًا بخلاف من استشهد به من الشعراء[٩٨] ؛ ومن بين أولئك نلتقى بعدد من الجغرافيين ممن حدث وأن تعرفنا عليهم فيما مر من هذا الكتاب ، ولكن إلى جانب هذا نلتقى أيضًا بأسماء مؤلفات لم تصل إلينا مثل « أخبار الزمان » للمسعودى أو الكتاب المجهول المؤلف بعنوان « عجائب البنيان » الذى لا يخلو من صلة ما « بوصف مصر » لعبد اللطيف البغدادى المعروف لنا جيدًا .

وعدد المصادر التى يذكرها المقريزى هائل حقًا ولا شك أن دراستها تحتاج إلى بحث خاص فى المستقبل لن يخلو من الأهمية ، وإلى حين تحقيق هذا يمكننا الاعتماد بصورة مؤقتة على الخطوط العريضة التى بينها روفن غست R. Guest فى مقاله المسهب عن مصادر المقريزى ؛ ويشغل ثبت أسماء المؤلفين والمصنفات التى يشير إليها المقريزى أكثر من خمس عشرة صفحة من هذا المقال[٩٩] . فإذا ما اقتصرنا على محيط المادة الجغرافية ، فإننا نلتقى فى قائمة غست بما لا يقل عن ثلاثين مؤلفًا سبق وأن عالجنا الكلام على غالبيتهم العظمى . وإذا ما صنفناهم فى مجموعات بحسب العصور فيمكن أن نقرر أن المقريزى قد استعان فيما يخص الفترة الأولى من تاريخ مصر
الإسلامية / بابن عبد الحكم فى مجال التاريخ والمسعودى فى مجال الجغرافيا والكندى فى مجال 479
الطبوغرافيا[١٠٠] ، هذا إذا ما قصرنا أنفسنا على ذكر الأسماء الرئيسة . أما فيما يخص العهد الفاطمى فقد كان مرشده فى التاريخ ابن زولاق وفى الآثار القضاعى[١٠١] ؛ ولكن حتى فيما

---

(٩٨) -Graefe, p. XII-XIII

(٩٩) -Guest, El-Maqrisi, p. 108-121, 121-125

(١٠٠) شرحه ، ص ١٢٣ – ١٢٤

(١٠١) شرحه ، ص ١٢٤

يتعلق بنقاط معينة فإن المقريزى عرف كيف يحصل على مواد ذات قيمة كبرى تقتصر معرفتنا بها فى أحايين كثيرة على ما حفظه لنا هو منها . وقد نال الشهرة منذ أمد طويل ذلك الفصل الذى أفرده لكنوز الفاطميين[١٠٢] بما يتصل به من تفاصيل حول مراسيم البلاط الفاطمى ؛ وقد كتب المستشرق الروسى اينوسترانسف Inostrantsev بحثًا قيّما فى هذا الموضوع . ورواية المقريزى فى هذا الصدد تعتمد بصورة خاصة على مصنف آخر لم يصل إلينا لابن الطوير القيسرانى[١٠٣] . ويذكر المقريزى أن آخر من كتب فى نمط الخطط هو ابن المتوج المعروف[١٠٤] ، وقد حدث وأن توقفنا عند هذا حينما تساءلنا لماذا لم يستعن المقريزى بمصنف ابن دقماق . والمقريزى يفرد فصلا خاصًا للكلام على المؤلفين الذين عالجوا الكتابة فى الخطط قبله ويؤكد علاقته القوية بهم . ولا نستطيع إلا أن نوافقه فى هذا لأن المقريزى وإن كان مؤرخًا واقتصاديًا وعالمًا فى الآثار ومتخصصًا فى الآداب الشعبية (folklorist) إلا أن المكانة الأولى فى مصنفه هذا إنما تحتلها الجغرافيا التاريخية ، وهذا هو السبب الذى حدا بنا إلى إدخاله فى عرضنا للأدب الجغرافى بوصفه أكبر ممثل لنمط الخطط ، ذلك النمط الذى يمس الدين كما يمس الطوبوغرافيا والتاريخ والذى تمتع بحيوية فائقة فى مصر الإسلامية . وفى خلال القرن السابع عشر اختصر مصنف المقريزى بما لا يقل عن مرتين وزيد عليه[١٠٥] ، بل إننا نلتقى حتى فى القرن التاسع عشر بمصنف يسير على منهج المقريزى ويتمم مذهبه أعنى بذلك كتاب « الخطط التوفيقية » لعلى باشا مبارك .

ولم يخل الأمر بين ممثلى المدرسة التاريخية المصرية من معاصرى المقريزى من اهتمام معين بالجغرافيا وإن لم يبلغ المدى الذى بلغه لديه . ويمكن أن نسوق على سبيل المثال منافسه فى منصب الحسبة بدر الدين العينى (٧٦٢ هـ - ٨٥٥ هـ = ١٣٦٠ - ١٤٥١)[١٠٦] . وفى الحقيقة ليس لدينا الكثير لنقوله عنه فيما يتعلق بالأدب الجغرافى ولكن شخصيته فى الواقع لا تخلو من بعض الطرافة لأنها توحى إلينا باقتراب عهد جديد وميلاد علاقات ثقافية جديدة تربط الأدب العربى باستنبول النائية . ولد مؤلفنا بعينتاب وهى مدينة صغيرة تقع بين حلب وأنطاكية ، وقد

---

(١٠٢) شرحه

(١٠٣) -Inostrantsev, p. 34,47 — Guest, p. 117

(١٠٤) - Guest, p. 125

(١٠٥) عنان ص ٦٢ — ٦٤ - Brockelmann, Al - Makrisi, p. 191

(١٠٦) -Brockelmann, GAL, II, p. 52-53, No 14; SBII, p. 50-51 — Marçais, EI, I, p. 225-226

480 ساعده قرب مسقط رأسه من الحدود التركية على إجادة اللغة التركية / منذ سن مبكرة وكان لها بالتالى تأثير غير يسير على مجرى حياته . وقد أقام العينى بالقاهرة مايقرب من الثلاثين عامًا مرت عليه فيها لحظة من التصوف ، واشتغل لبعض الوقت بالتدريس وشغل مرة منصب القضاء ومرة أخرى كان محتسبًا وطورًا ثالثا ناظرًا للأوقاف ؛ وهى مناصب نافسه عليها معاصراه الشهيران المقريزى وابن حجر . وقد أفاد العينى كثيرًا من معرفته بالتركية ؛ وهو قد أجاد الكتابة بالعربية والتركية على حد سواءفقرّبه هذا إلى سلاطنة المماليك الذين كانت معرفتهم بالعربية لا ترتفع إلى المستوى المطلوب وكانوا يفضلون الإنصات إليه وهو يترجم لهم بمهارة إلى التركية تاريخه الذى وضعه آنذاك ، ولو أنه من المستبعد أن يكون بمقدورهم تقدير القصائد العربية التى رفعها إليهم . ولعل معرفته بالتركية كانت من أقوى الأسباب التى أدت إلى تكليفه ذات مرة برئاسة سفارة إلى استنبول .

واكتسب العينى الشهرة كمؤلف لعدد من الآثار التاريخية يشغل مكان الصدارة بينها « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » الذى يمثل فى جوهره كتابًا فى التاريخ العام يقع فى أربعة أجزاء ضخمة ويعالج تاريخ البشرية منذ بداية الخليقة إلى عام ٨٥٠ هـ = ١٤٤٦ . والكتاب مبوّب على الطريقة التقليدية للمصنفات التاريخية مع عرض متناسق للمادة ولكنه لا يتمتع بأهمية ذات بال سواء من حيث الشكل أو الأسلوب وإن كانت مادته الحافلة قد استرعت الأنظار منذ وقت طويل فأفاد منها كاترمير فى بحثه فى تاريخ المماليك كما وضّح تيزنهاوزن Tiesenhausen قيمتها بعد ذلك بالنسبة لتاريخ الأردو الذهبى Golden Horde وبين روزن Rosen أهميتها بالنسبة لتاريخ الخلافة ؛ وإلى هذه اللحظة لم يهتم علماؤنا بشكل جدى بدراسة الأجزاء الثلاثة الأخيرة من تاريخه الموجودة لدينا بمعهد الدراسات الشرقية بلنينجراد . وقد رأى العينى لزامًا عليه أن يكتب مقدمة جغرافية قائمة بذاتها فى بداية الجزء الأول من تاريخه ؛ ومن العسير علينا أن نصدر حكمًا مرضيًا على هذه المقدمة أو حتى على الجزء الأول بأكمله وذلك لأن مخطوطته ليست فى متناول أيدينا . ويتضح من الخلاصة التى عملها أحمد زكى باشا لهذه المقدمة أنها تضم دراسة عن الأندلس مع تعداد لمدنها حسب حروف المعجم ، ويرجع العينى فى مادته إلى ابن عبد الحكم والرازى وابن عبد البر وابن سعيد(١٠٧) ؛ ويقف مثال العينى شاهدًا على الاهتمام الكبير الذى أولاه المؤرخون فى ذلك العصر للموضوعات الجغرافية(١٠٨) . وثمة دليل على اهتمام الأتراك بالعينى أن الداماد إبراهيم باشا قد كلف لجنة كبيرة فى عهد السلطان أحمد (سنة ١١٣٨ هـ = ١٧٢٥) بترجمة تاريخه إلى

(١٠٧) - Ahmed Zaki, Homenaje, p. 462

(١٠٨) مخطوطة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية رقم C 350

اللغة التركية .

ويستحق مكانه بجدارة أكثر من العينى فى عرض عام للأدب الجغرافى العلامة الذى ضرب بسهم فى كل فرع من فروع العلم / جلال الدين عبد الرحمن السيوطى (٨٤٩ هـ - ٩١١ هـ = 482 ١٤٤٥-١٥٠٥) [١٠٩] ، أكبر أدباء عصر التدهور قاطبة ؛ وهو إن كان لا يمثل أهمية تذكر من وجهة نظر الجغرافيا إلا أن شخصيته تعتبر مثالا لطراز العلماء فى ذلك العصر . وسيرة حياته التى كتبها بقلمه [١١٠] لا تحوى شيئًا ذا أهمية ؛ ويمكن أن نذكر من فضل القول إن أسرته من أصل فارسى عاشت طويلا ببغداد ثم استقر بها المطاف بأسيوط منذ عهد قريب . وإذا استثنينا فريضة الحج فإن السيوطى لم يغادر مصر على الإطلاق وأمضى حياته فى القاهرة تقريبًا مشتغلا معظم وقته بالتدريس ؛ وتوفى السيوطى بالقاهرة ولا تزال مقبرته قائمة بها ووصفها لنا العلامة أحمد تيمور باشا فقضى بذلك نهائيًا على أسطورة وجودها بموطنه أسيوط . بدأ السيوطى التأليف منذ سن السابعة عشر [١١١] ولم تلبث مقدرته أن تفتحت فى هذا المجال فاكتسب الشهرة سريعًا حتى أصبح أكثر المؤلفين قربًا إلى جمهرة القراء لأكثر من ثلاثة قرون ، لا فى البلاد العربية وحدها بل وفى العالم الإسلامى أجمع . وبلغ عدد مصنفاته ، التى وضع لها فهرسًا بنفسه ، الستمائة تقريبًا ، معروف لنا منها أكثر من ثلثمائة وخمسين ؛ من بينها بالطبع مقالات قصيرة لا تتجاوز بضعة صفحات ولكن إلى جانب هذا نلتقى لديه أيضًا بمصنفات ضخمة من عدة أجزاء . ومن العسير تعيين فرع من العلوم لم يدون فيه السيوطى شيئًا فقد كان هذا بالنسبة له رياضة فريدة وموضعًا للاعتزاز ؛ وقد جهد عن قصد فى أن يترك فى كل فرع من فروع العلوم خلاصة من ذلك النوع الذى تطلبه العصر والذى خلد اسمه لدى الأجيال التالية ؛ ويجب الاعتراف بأنه حقق ذلك على وجه العموم وبلغ شأوًا بعيدًا فى بعضها . ولا تزال مؤلفاته تدرّس حتى الآن بالشرق كما استرعى البعض منها انتباه العلماء الأوروبيين كمداخل مفيدة بالنسبة للعلوم التى تعالجها ، مثال ذلك مصنفاته فى علوم القرآن (« تفسيره » ومقدمته « الإتقان ») والحديث (« الجامع ») فى مختلف مسوداتها ، ودراساته اللغوية والأدبية (« المزهر ») والتاريخية (« تاريخ الخلفاء ») . وبما أن

---

(١٠٩) -Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p.226-232, No506-Brockelmann, GAL, II, p143-158, No7; SBII, p.178-198-Brockelmann, Al-Suyuti, p.626622- عنان ، ص ٦١

(١١٠) السيوطى ، حسن المحاضرة ، الجزء الأول ، ص ١٨٨ — ١٩٥

(١١١) صورة شمسية لخط السيوطى لدى تيمور ، ص ٢٤

الجغرافيا لم تكن من ضمن العلوم التى يمكن أن تحظى باهتمام دوائر واسعة من القراء فإن السيوطى لم يولها اهتمامًا خاصًا ولم يترك لنا فيها مدخلا أو كتابًا جامعًا . غير أن هذا لا يمنع وجود مصنفات جغرافية لديه لا تخلو من بعض الأهمية ، نذكر مثالاً لها أنه عمل ملخصاً لمعجم ياقوت تم الكشف عن مسودته منذ وقت غير بعيد .

واثنتان من مقالات السيوطى مكرستان للحبش[١١٢] وتمسان بعض الشىء علم الأعراق البشرية (الاثنوغرافيا) ويجب ألا يفهم من هذا بأية حال أن مقصده كان وضع دراسة اثنوغرافية إذ فى الواقع أن السيوطى أراد أن يسير على منوال تلك الآثار الأدبية التى دونت فى « فضائل » الشعوب البسيطة التى لم تبلغ درجة عالية من الحضارة؛ ومثل هذه الرسائل قد اعتمد على
483 الأحاديث النبوية/فى المساواة بين الشعوب جميعها تحت راية الإسلام، وخير مثال لهذا الحديث الذى ساوى فيه محمد بين « سيد قرشى » و « عبد حبشى » . وقد استطاع الكتاب ذوو الموهبة أن يطوّروا هذا الموضوع بصورة ممتعة للغاية خاصة الجاحظ فى القرن العاشر وذلك فى رسائله عن الترك والسودان؛ وفيما بعد لم ترتفع أمثال هذه الرسائل إلى المستوى الذى بلغه الجاحظ وانحصرت بصورة خاصة فى المصادر الفقهية . بيد أن سلسلتها لم تنقطع كما يبدو من خلال البحث الذى عمله فى هذا الصدد المستشرق فيسفيلر **Weisweiler** ؛ وقد خمّن السيوطى بحق شوق الجماهير إلى هذا الضرب من الأدب فقرر أن يستجيب لرغبتهم بتدوين هذه الرسائل ذات الطابع النقلى الصرف . وقد حازت هاتان الرسالتان فعلا إقبال الجمهور ، بل إن مؤلفًا مجهولا أفاد منهما فى القرن السابع عشر وذلك فى رسالة له تعالج الموضوع نفسه باللغة التركية وإن كانت ترتفع فى أغلب الظن إلى أصل عربى ؛ وهى فى مخطوطة فريدة بقصر كاترينا بيوشكين **Pushkin**[١١٣]* .

ويودّ بعض العلماء أن يبصر فى أحد مؤلفات السيوطى الكبرى علاقة ما « بخطط » المقريزى ، ذلك هو كتابه المعروف « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة »[١١٤] . غير أن هذا الرأى لن يثبت طويلا على محكّ النقد . والسيوطى قد أفاد بالطبع من كتاب « الخطط » وهو

---

(١١٢) -Weisweiler, p.7-10

(١١٣) -Krachkovski, DAN, V, 1929, p. 166-168

* على مقربة من لنينجراد وكانت تدعى قبل الثورة تسارسكوى سيلو Tsarskoe Sielo ، ثم أطلق عليها اسم بوشكين تخليدًا للشاعر الكبير الذى تلقى العلم بمدرستها الشهيرة . (المترجم)

(١١٤) عنان ، ص ٦١

يذكره ضمن المراجع الثلاثين الأساسية التى قرأها من أجل تاريخه[١١٥] ؛ حقًا ان بعض أقسام كتاب السيوطى تحمل طابعًا جغرافيًا ولكن أهداف الكتاب مغايرة لأهداف كتاب المقريزى فضلا عن أن مضمونه غير مترابط ويفتقر إلى الترتيب أكثر من كتاب « الخطط » . ويكفى فى هذا الصدد أن نقارن بين مقدمة المقريزى العميقة المفصّلة وبين تلك الألفاظ الباهتة التى يقدم بها السيوطى عرضه التاريخى حيث يقول « أوردت فيه فوائد سنية وغرائب مستعذبة مرضية تصلح لمسايرة الجليس وتكون للوحيد نعم الأنيس » . وكان من المتوقع بعد قراءة هذه العبارة أن نجد بين أيدينا مصنفًا من طراز المنتخبات الأدبية ، غير أن الكتاب مفعم بروح الجدية وأقل إمتاعًا من أن يصلح لهذا الغرض . وهو يبدأ بعرض عام لجغرافيا مصر وتاريخ فتحها ويلى هذا قسم السير[١١٦] الذى يمثل من ناحية الحجم القسم الرئيس من الكتاب. وفى عرض موجز للغاية تمر أمام أعيننا سير من دخل مصر من الصحابة والتابعين ثم سير الفقهاء والعلماء والأمراء، كذلك يرد سرد موجز للقضاة[١١٧] والوزراء[١١٨] والكتّاب[١١٩] ؛ وفقط عقب هذا يبدأ القسم الطوبوغرافى الخاص بالمساجد[١٢٠]/والمدارس والخانقات[١٢١] . ولا يخلو من بعض الطرافة رغما من مضمونه 484
التاريخى الصرف ، الفصل الذى يفرده للكلام عن « الحوادث الغريبة »[١٢٢] من قحط وغلاء ووباء وزلزال . والكتاب يفتقر إلى الترتيب حتى فى آخره . فبعد وصفه للطريق بين مصر ومكة[١٢٣] يأتى فصل فى حمام الرسائل[١٢٤] وعندئذ فقط يبدأ كلامه عن مصر دون التزام لترتيب أو نظام ، فبعد أن يتحدث عن «لطائف» مصر[١٢٥] ينتقل إلى الكلام على النيل[١٢٦]وجزيرة

---

(١١٥) السيوطى ، حسن المحاضرة ، الجزء الأول ، ص ٢
(١١٦) شرحه ، ص ٩٩ – ٣٣٤ ؛ والجزء الثانى ، ص ١ – ١٠٨
(١١٧) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ١١٣ – ١٤٦
(١١٨) شرحه ، ص ١٤٧ – ١٧١
(١١٩) شرحه ، ص ١٧١ – ١٧٥
(١٢٠) شرحه ، ص ١٧٦ – ١٨٤
(١٢١) شرحه ، ص ١٨٤ – ١٩٤
(١٢٢) شرحه ، ص ١٩٥ – ٢١٩
(١٢٣) شرحه ، ص ٢١٩
(١٢٤) شرحه ، ص ٢٢٠
(١٢٥) شرحه ، ص ٢٢٨ – ٢٣٦
(١٢٦) شرحه ، ص ٢٣٨ – ٢٦٣

الروضة[١٢٧] ومواضع متفرقة من القاهرة[١٢٨] ؛ وقرب النهاية تغلب المادة الأدبية تمامًا على العرض فيقدم لنا المؤلف مختارات شعرية فى الأنهار والأشجار[١٢٩] والزهر[١٣٠] والفواكه[١٣١] والخضروات[١٣٢] المعروفة بمصر . وليس من العسير أن نبصر من خاتمة الكتاب أنه لا ينتمى بأية حال إلى نمط الخطط ، فهو ينضم من ناحية إلى نمط تواريخ المدن التي تتحول أحيانًا إلى مجموعة أدبية فى سير مشاهيرها وعلمائها ومن ناحية أخرى إلى المنتخبات الأدبية المقصود بها الإمتاع لا الفائدة . و « حسن المحاضرة » لا يعتبر من كتب السيوطى الجيدة فالعرض فيه يغلب عليه الإيجاز ولا يقدم شيئًا جديدًا فى معظم الأحوال[١٣٣]، كما وأن قيمته كتاريخ لا يمكن مقارنتها بمصنفات مؤرخين كالمقريزى وابن تغرى بردى . ولا يخلو الحال بالطبع من أن يورد لنا السيوطى معلومات قيمة ترتفع إلى عهد سابق ولكن ذلك يحدث فى صورة مغايرة وموجزة للغاية ومع خروج واضح على المذهب القديم . وهو يميل فى أسلوبه إلى تبسيط المادة بحيث لا يخلو الأمر من حالات يعطى فيها فكرة مخالفة للأصل مما حدا بالمستشرق بيكر Becker إلى أن ينصح[١٣٤] بالتزام الحيطة والحذر عند استعمال « حسن المحاضرة » حينما ينقل مؤلفه أقوال المؤلفين الآخرين . ومن الملاحظ أن السيوطى عاد إلى معالجة بعض الموضوعات التى مسها فى كتابه هذا فى صورة رسائل منفصلة فلديه رسالة عن النيل وأخرى عن جزيرة الروضة وثالثة عن الأهرامات[١٣٥] ، وهى تتلخص فى العادة فى إيراد نقول مختارة من ميدانى النثر والشعر لا تمس الجغرافيا إلا بصورة غير مباشرة .

485 وقد خلف لنا أحد تلامذة السيوطى[١٣٦] مصنفًا عامًا فى الجغرافيا يمثل بالنسبة لنا أهمية خاصة لأن مؤلفه أتمه فى سبتمبر من عام ٩٢٢ هـ = ١٥١٦ ، أى قبل عام من فتح العثمانيين لمصر وبهذا

---

(١٢٧) شرحه ، ٢٦٣ – ٢٧٠

(١٢٨) شرحه ، ص ٢٧١ – ٢٧٢

(١٢٩) شرحه ، ص ٢٧٣ – ٢٨٠

(١٣٠) شرحه ، ص ٢٨١ – ٢٩٧

(١٣١) شرحه ، ص ٢٩٧ – ٣٠٤

(١٣٢) شرحه ، ص ٣٠٤ – ٣٠٨

(١٣٣) عنان ، ص ٦١

(١٣٤) -Becker,p.82

(١٣٥) -Brockelmann,GAL,SBII,p.196,No280-283,p.198, No320

(١٣٦) - Kahle, Ibn Ijas, IV, p. 24

يمكن اعتباره حصيلة لإنتاج ذلك العصر بأجمعه . أما المؤلف فهو محمد بن أحمد بن إياس الحنفى (٨٥٢هـ - حوالى ٩٣٠هـ = ١٤٤٨ - ١٥٢٤)[١٣٧] الذى عرف عادة فى الأوساط العلمية الأوروبية بابن إياس فقط ؛ والاسم يمكن نطقه على طريقتين كلاهما صحيحة فهو إما بكسر الهمزة أو فتحها غير أن النطق الأخير أى بفتح الهمزة أقرب إلى الدارجة ولو أنه من الممكن أن المؤلف نفسه قد فضل استعماله فى مخطوطات تاريخه التى وصلتنا بخط يده ؛ وعلى أية حال فإن الشكل الأول هو الشكل المستعمل فى كتب الأدب ومن المستحسن أن نتمسك به[١٣٨] . وابن إياس سليل أسرة من المماليك الجراكسة ، وكان بمقدوره أن يستمر فى نشاطه العلمى دون أن تدفعه الحاجة ليشتغل بالتدريس أو بوظيفة حكومية يرتزق منها كما هو الحال مع بقية علماء ذلك الوقت[١٣٩] . وقد سمح له هذا الوضع إلى حد ما بالتزام الحياد فى تأليفه ولم يضطره إلى أن يعكس وجهات نظر الدوائر الرسمية وإن حرمه من الوصول إلى الوثائق الحكومية ؛ بيد أن النتائج الإيجابية لهذا قد رجحت كفتها فى آخر الأمر فنال ابن إياس بجدارة الشهرة كمؤرخ كبير .

وصل ابن إياس بتاريخه إلى عام ٩٢٨هـ = ١٥٢٢ ، وهو يمتاز فى الأقسام الأخيرة بالإسهاب والإفاضة بحيث يتحول إلى حوليات تاريخية (chronique) بل وإلى سجل للأحداث اليومية فى بعض مواضعه ؛ وبصرف النظر عن محتوياته فإن الكتاب يكتسب أهمية خاصة لأن ابن إياس هو المؤرخ العربى الوحيد الذى دون أخبار الفتح العثمانى وآخر مؤرخ لمصر المملوكية فهو بهذا يختتم سلسلة الآثار التاريخية المجيدة التى تقف شاهدًا على انتعاش هذا الفرع من الأدب فى تلك العهود . وتاريخ مسودات ابن إياس حافل بما فيه الكفاية ، فقد وصلنا عدد كبير من الأجزاء بعضها بخط يد المؤلف نفسه وبعضها منقول من النسخ التى بخط يده ، كما وصلنا أيضًا ثلاث مسودات مختلفة لتاريخه هى المطولة والوسطى والمختصرة . ونتيجة لنشر الأقسام الأخيرة من تاريخه ، وهى أقيمها ، على يد باول كاله Paul Kahle فإن بين أيدينا الآن أساسًا متينًا لدراسة تاريخ ابن إياس دراسة دقيقة تشمل لغته الكتابية التى تعكس أسلوب الكلام البسيط بل ولا

---

(١٣٧) -Reinaud, Introduction, p. CLXIV-CLXV-Brockelmann, GAL, 11, p. 295, No I; SBII, p. 405 - 406 - Sobernheim, p. 414 - 415 - Amari (-Nallino), 1, p. 62, No 29- عنان ص ٦١ - ٦٢ Margoliouth, Lectures, p. 158 - 159 - Kahle, Ibn Ijas, IV, p. 1 - 29 - Langlès, Cosmographie Kremer, SBAW, V, p. 77 sui - Ferrand, Relations, 11, p. 475-483 - F. A. Arnold, Chrestomathia, 1, Ch. V, p. 54-76.
- Kahle, Ibn Ijas, IV, p. 22 - 23

(١٣٨) - Kahle, Ibn Ijas, Iv, p. 22 - 23

(١٣٩) شرحه، ص ٢٥ - ٢٦

486 تخلو من تأثير العامية أحيانًا(١٤٠) . / وقد اعتمد الناشر فى طبعه لهذا القسم من تاريخ ابن إياس على المخطوطة الفريدة التى بمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية .

وكما ذكرنا من قبل فإن ابن إياس قد انتهى من تدوين سفره فى الجغرافيا قبل سفره التاريخى وذلك فى الرابع عشر من شهر شعبان سنة ٩٢٢ هـ = ١٢ سبتمبر ١٥١٦(١٤١) ، وهو يحمل عنوان « نشق الأزهار فى عجائب الأقطار » ولا يمكن بأية حال مقارنته بكتابه فى التاريخ . وتحدث قراءته خيبة أمل كبيرة لولا أنه يجب أن نأخذ فى حسابنا الأهداف التى وضعها المؤلف نصب عينيه والتى وضحها كما هى العادة فى مقدمة كتابه حيث ترتسم بوضوح أمام ناظرنا هذه الأهداف المشوّشة التى يختلط فيها التاريخ بالجغرافيا دون نظام . فهو يقول فى مقدمته إنه سيتحدث فى كتابه عن « عجائب مصر وأعمالها وما صنعت الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة ، وطرف يسير من سير ملوكها القدماء وما صنعوا من الأبنية المحكمة فى مصر وغيرها من البلاد .. وأخبار النيل والأهرام وعجائب البلاد التى من أعمال مصر وخططها وأقطارها » ؛ وتضيف نسخة خطية موجودة بالقاهرة إلى هذا فى صفحة العنوان ما يلى : « وأخبار البلدان والبحار والأشجار والجزائر والجبال والعيون والأبيار والدور والكنائس والقصور »(١٤٢) . ولا يقتصر الأمر على مصر وحدها وإن أفرد لها المكانة الأولى في الأقسام المختلفة من الكتاب ؛ غير أن الخلط فى العرض يتفق اتفاقًا تامًا مع الخلط الذى يسود مادة الكتاب . والكتاب يبدأ وفقًا للتقاليد بعرض موجز للجغرافيا الفلكية وتقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم ؛ ويبدأ وصف المناطق من المغرب الأقصى متدرجًا نحو المغرب الأوسط فالمغرب الأدنى . وهو يولى اهتمامًا خاصًا للإسكندرية وخراج مصر والنيل والسودان . وفى وسط الكتاب يقحم نفسه وصف للطريق من مصر إلى الشام ؛ ويلى هذا محاولة من المؤلف ليلتزم بعض الترتيب حينما يأخذ فى الكلام على الشام تليها أرمينيا فأرض الجزيرة فالعراق ، ثم ينقطع حبل التسلسل عقب هذا . وحتى فى هذه الأقسام يرد ذكر المواضع الجغرافية تارة وفقًا لحروف المعجم وطورًا تتكرر داخل الأقسام المختلفة عدة مرات . بعد هذا يعالج المؤلف موضوعات مختلفة ومتنوعة مثل المدن والأقطار والبحار والجزر والأنهار والجبال والأهرامات والأديرة والأعياد والتقويم القبطى . ولا يتناول ابن إياس فى كتابه طرفًا من أخبار اليمن والحجاز والهند والأندلس ورومة التى يتحدث عن بعض آثارها وصروحها فحسب ، بل لا ينسى الكلام عن الروس والبلغار . وبهذا نجد أنفسنا أمام مصنف يمثل أنموذجًا جيدًا

---

(١٤٠) -Devonshire, BIFAO, XXV, 1925, p. 117

(١٤١) - Langlès. p. 5

(١٤٢) عنان ، ص ٦١ - ٦٢ ؛ وقارن : حاجى خليفة ، الجزء السادس ، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ ، رقم ١٣٧٩٣

لذلك الضرب من التأليف الذى قصد به إمتاع الأدباء ، فهو بذلك ينتمى إلى تلك السلسلة التى بدأها ابن الفقيه بل ويختتمها فى واقع الأمر .

ومصنف ابن إياس فى الجغرافيا لم يطبع إلى الآن ولكن يمكن الحكم عليه بصورة وافية من القطع التى نشرها في بداية القرن التاسع عشر لانجليه L. M. Langlès وارنولد F. A. Arnold ، ثم من مقال كريمر A. von Kremer . وقد وصفه أمارى Amari فى منتصف القرن الماضى بأنه مصنف «نقلى ثانوى للغاية» una mediocrissima compilazione (١٤٣) ، / هذا مع 488
اعترافه بأن ابن إياس ربما رجع إلى مسوّدة للإدريسى غير معروفة لنا. وهذا الحكم نفسه يصدق على بقية أقسام الكتاب فمادته نقلية صرفة ولكن تجد طريقها إليه من آن لآخر ومضات مشرقة ؛ فهو مثلا فى وصفه لبلاد النوبة يرجع كالمقريزى إلى مصنف من القرن العاشر مفقود بالنسبة لنا هو كتاب الأسوانى (١٤٤) ، كما أنه يقدم لنا فى القسم الذى أفرده لمصر قائمة بمقاييس فيضان النيل على مرّ السنين تعتبر من أوسع ما عرف فى هذا المجال ؛ وقد لفت لانجليه الأنظار إلى هذه القائمة ونشرها فى كتابه المومأ إليه. بيد أن هذا لا يمنعنا بالطبع من أن نسلم بأن ابن إياس يعتمد فى جميع الأقسام الأخرى من مصنفه على مصادر كتابية لا يظهر مهارة خاصة فى اختياره لها. وطريف فى هذا الصدد القسم الذى يفرده للروس والبلغار، فعلى الرغم من أنه تجمعت معلومات جمة عن جنوبى روسيا فى عهد دولة المماليك نتيجة لتوطد العلاقات مع دولة الأوردو الذهبى وأن عددًا من المؤلفين المصريين قد أفاد منها كالعمرى والقلقشندى والعينى فإن ابن إياس يأبى إلا أن يورد معلومات قديمة ترجع إلى القرن العاشر مضيفًا إليها رواية الأقليشى ، أى أبى حامد الغرناطى ، عن البلغار دون أن يرى لزامًا عليه أن يستدرك على ذلك بقوله إنها ترجع إلى فترة تاريخية سابقة ؛ وهو كبقية المؤلفين السابقين عليه يقسم الروس إلى ثلاث طوائف (١٤٥) ويصل بحر قزوين بالمحيط المتجمد الشمالى (١٤٦) . ولإعطاء فكرة عن تصور ابن إياس والوسط الذى عاش فيه للعالم آنذاك قوله بأن المحيط الأطلنطى لا يُعلم عنه شيء «لأن أحدًا لم يجرؤ على الضرب فيه» (١٤٧) . هذه الملاحظة قد تم تدوينها بعد قرن من كشف كولومبس للعالم الجديد وبعد مدة

---

(١٤٣) Amari (-Nallino), 1, p. 62, No 29-

(١٤٤) F. A. Arnold, Chrestomathia, p. 54-

(١٤٥) شرحه ، ص ٧٤

(١٤٦) Peschel-Ruge, p. 109, Note 2-

(١٤٧) Reinaud, Introduction, p. CLXV-

طويلة من طواف فاسكو داغاما حول الطرف الجنوبى للقارة الإفريقية وتمكنه من الوصول إلى الهند مستعينًا فى ذلك بملاح عربى . ويلوح أن ابن إياس قد فاته أيضًا إلى جانب هذا معلومات أقرب عهدًا إليه كرواية المقريزى عن وصول سفارة صينية إلى مصر بطريق البحر فى عام ١٣٣٨ - ١٣٥٢ [١٤٨] .

كل هذا يضطرنا بطبيعة الحال إلى ضم مؤلفه إلى الاتجاه القديم فى الجغرافيا العربية الذى يعتبر امتدادًا للمذهب القديم الذى ساد من القرن العاشر إلى القرن الثانى عشر ؛ وليس فى مصنفه ما يشير إلى أنه كان على علم بما حدث من اتساع كبير فى الأفق الجغرافى لدى أهل الغرب ، مما تردد صداه لدى بعض المشارقة أحيانًا . وقد أخذ يظهر إلى جانب الجغرافيين من طراز ابن إياس طراز جديد ممن يمكن اعتبارهم متممين للنماذج الغربية فى الجغرافيا وحدث أن التقينا ببعضهم من بين الجغرافيين المغاربة ؛ ويلوح أن نشاط الملاحة فى حوض البحر المتوسط قد عاون كثيرًا فى إيصال
489 هذا التأثير من أوروبا . كما وأننا سنبصر فى الفترة التالية لهذه / كيف نشطت الجغرافيا الملاحية بين العرب حتى أصبحت أكثر فروع الأدب الجغرافى تقدمًا وإبداعًا ، وفى هذا الميدان الأخير ترتبط الآثار الجغرافية باللغتين العربية والتركية ارتباطًا وثيقًا بحيث يصعب أحيانًا فصل بعضها عن بعض دون إحداث خلل فى متابعة التطور العام لهذا الاتجاه . وسنبصر أيضًا من نشاط هذه الفترة كيف أنه إلى جانب المذهب التقليدى فى الأدب الجغرافى الذى ظلت جذوره ممتدة إلى القرن العشرين قد بدأ يرفع رأسه اتجاه جديد أخذ يسير بموازاة الاتجاه القديم ، ذلكم هو الاتجاه التجديدى الذى عكس التغيرات البعيدة المدى التى مرت عليها الحضارة البشرية فى تلك الآونة . ولكن قبل أن نلج هذا الموضوع يجدر بنا أن نلقى نظرة على حالة الأدب الجغرافى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر بالشام ، ثم أبعد من ذلك إلى الشرق فى الأقطار التى تستعمل اللغة الفارسية .

---

(١٤٨) -Hennig, 111, p. 187-190

الفصل الثامن عشر

الجغرافيا الإقليمية بالشام وفلسطين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر

لم ينتعش الأدب الجغرافى بصورة تسترعى النظر فى الأقطار الواقعة إلى الشرق من مصر فى 490
القرون التى سبقت الغزو العثمانى مباشرة ؛ ومن بين المصنفات ذات الطابع العام يمكن للشام أن تشير إلى مصنف واحد فى الكوزموغرافيا اكتسب فى الحقيقة رواجًا منقطع النظير وإن كان يمثل فى واقع الأمر تدهورًا لهذا النمط أكثر مما يمثل تقدمًا له . أما العدد غير القليل من المصنفات الذى ظهر فى هذا العصر فيدخل فى مجال الجغرافيا الإقليمية (regional) ويعالج الكلام بصورة خاصة على المدن الكبرى ؛ ويمكن لنا فى هذا الصدد أن نتتبع وجود سلسلة يكمل بعضها بعضًا لا بصورة آلية بل بتميز بعضها عن بعض فى اختلاف أغراضها . أما الأقطار الواقعة إلى الشرق من الشام فإنها لم تترك فى هذا العصر أى أثر فى الأدب العربى يستحق أن نقف عنده .

وبالرغم من أن المصنف الكوزموغرافى الذى أشرنا إليه يوجد فى عدد من الطبعات والمخطوطات وأنه لم يختلف أحد حول عنوانه وهو « خريدة العجائب وفريدة الغرائب[١] » إلّا أن بعض الإبهام يحيط بشخص مؤلفه . وتتفق معظم الآراء فى الوقت الحاضر على أنه سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردى (توفى فى عام ٨٦١ هـ = ١٤٥٧[٢] ؛ وفى رواية أخرى حوالى عام ٨٥٠ هـ = ١٤٤٦)[٣] . وقد نسب تأليف الكتاب لمدة طويلة إلى سميه زين الدين ابن الوردى الذى عاش قبل ذلك بقرن من الزمان (توفى عام ٧٤٩ هـ = ١٣٤٩)[٤] . ونشأ هذا الخلط فى الوسط العربى نفسه وتردد صداه فى بعض المخطوطات والمصنفات الببليوغرافية ومنها نفذ إلى الأوساط العلمية بأوروبا . وفيما يتعلق بابن الوردى الأول فإن معلوماتنا مفصلة أكثر ، من ذلك
أنه عاش بالشام / وكان لبعض الوقت قاضيًا بحلب وخلف عددًا من المؤلفات فى مجال الفقه 491

---

(١) Brockelmann, GAL, II, p. 131-132, No 8; SBII, p. 162-163 - Mohammed Ben Cheneb Ibn al-Wardi, p. 455 - Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 175-176, No 412 - Girgas, Ocherk, p. 212 - Kramers, EI, EB, p. 70 - Reinaud, Introduction, p. CLIV-CLV - Amari (Nallino), I, p. 60, No 26 - Mieli p. 278-279 - Ferrand, Relations, II, p. 40B-425 - Mednikov, Palestina . Translation, p. 611-612, 1189-1193

(٢) Mohammed Ben Cheneb, Ibn al-Wardi, p. 455

(٣) Brockelmann, GAL, II, p. 131, No 8

(٤) شرحه

والأدب كما نال الشهرة كشاعر ؛ ولعل ذيوع صيته هو المسئول أحيانًا عن نسبة المصنف الكوزموغرافى إليه . وفى مقابل هذا فإننا لا نعرف شيئًا عن ابن الوردى الأصغر ويلوح أنه سليل الأسرة نفسها ، وبما أن المصنف مرفوع إلى قائد قلعة حلب شاهين المؤيدى(٥) فيوجد أساس متين للقول بأن المؤلف كان شاميًا من أهل حلب(٦) .

وينضم المصنف من حيث النوع إلى نمط الكوزموغرافيات المعروف لنا من مثال كوزموغرافيا القزوينى والدمشقى وغيرهما . وهو يورد فى البداية خارطة مستديرة للعالم مع وصف لها مفصل بما فيه الكفاية ؛ بعد هذا ينقسم العرض إلى أربعة عشر فصلا (خمسة عشر أحيانًا)(٧) ، وهذه الفصول وما بداخلها من تقسيمات لا تتفق فى جميع مخطوطات الكتاب ولكن التركيب العام للكتاب لا يتغير فى العادة ويشبه فى حقيقة الأمر تركيب معظم المؤلفات الكوزموغرافية الأخرى . ففى الفصل الأول وهو أوسع الفصول ويشغل أكثر من ثلث الكتاب بأجمعه يرد الكلام عن الأقطار والبلدان مع تعداد مدنها المختلفة ، وفى الفصل الثانى يتحدث عن الخلجان والبحار ، وفى الثالث عن الجزر(٨) ، وفى الرابع عن العجائب التى يراد بها العبرة ، وفى الخامس عن الأنهار المشهورة ، وفى السادس عن العيون والآبار ، وفى السابع عن الجبال الشاهقة . وابتداء من الثامن الذى يتحدث فيه عن خواص الأحجار الكريمة يدخل الكتاب فى بعض التخصص فيتحدث الفصل التاسع فى المعادن والجواهر ، والعاشر عن النبات والفواكه مع ذكر خواصها ، فالحادى عشر عن البقول ، والثانى عشر عن الحشائش المختلفة . وفى الفصل الثالث عشر يتكلم عن البذور ، ويفرد الرابع عشر للحيوانات والطيور . وفى مخطوطات الكتاب ومسوداته المختلفة كثيرًا ما يلى هذا الفصل الأخير زيادات متنوعة لعلها من عمل النساخ ، مثال ذلك المسائل المشهورة التى سأل عنها عبد الله بن سلام النبى محمدًا عليه الصلاة والسلام . وقد أضيف إلى الكتاب قسم كبير يبحث فى أصل العالم ويوم القيامة وتختتمه قصيدة طويلة لشاعر مغمور يصف فيها نهاية العالم(٩) . ولا شك أن المؤلف قد اعتمد فى هذا القسم الكوزمولوجى **cosmological** على

---

(٥) De Guignes, Ebn al-Ouardi, p. 20 - Fraehn, Ibn al-Vardi, p. 17

(٦) قارن : Freund, p. 11

(٧) قارن مثلا : Freund, p. 12, note 1

(٨) لدى تورنبرج (Tornberg, Ibn el-Vardi) يرد ترتيب الفصول كالآتى : القسم الأول ، الفصل الأول ، الثانى ، الخامس ، السادس ، السابع .

(٩) نشر Freund

« كتاب البدء » للمقدسى بل إنه يشير إليه فى خلال كلامه . وهو يتحدث فى هذا القسم عن الزمان الذى انقضى منذ خلق العالم ومدته وعن الخلق الذى وجد قبل آدم ، وعن عدد العوالم وحساب الوقت من آدم إلى لحظة تأليف الكتاب . وبعض فقرات هذا القسم ينقل مادة المقدسى بحذافيرها وبعضها يدخل عليها تعديلات كبيرة أو صغيرة(١٠) .

492 ومحتويات الكتاب بوجه عام لا تختلف عما نجده فى الكوزموغرافيات ولكن لعله ليس من باب الصدفة أن يهتم العنوان بإبراز عنصر العجائب والغرائب فهى التى تجتذب منذ البداية اهتمام المؤلف وتترك طابعها المميز على الكتاب بأجمعه ، بل وهى المسئولة قبل غيرها عما تمتعت به كوزموغرافيا ابن الوردى من رواج فى الشرق وعن تسرب العدد الكبير من مخطوطات الكتاب إلى الغرب . ولنذكر بهذه المناسبة أنه ابتداء من منتصف القرن الثامن عشر وإلى ما بعد قرن من ذلك كانت كوزموغرافيا ابن الوردى مقرّبة إلى نفوس المستشرقين الأوروبيين أيضًا ولكنها لم تلبث أن فقدت سحرها شيئًا فشيئًا وتراجعت إلى الصف الثانى مفسحة المجال لمؤلفات من هذا الطراز أكثر جدية منه . هذا وقد أحاطت الريبة بقيمة هذا الكتاب قبل ذلك بعهد طويل وفى محيط الأدب العربى نفسه ، ولا يخلو من أهمية فى هذا الصدد رأى مؤرخ الكتب والعالم الببليوغرافى المشهور حاجى خليفة الذى كان له باع طويل فى الجغرافيا أيضًا . ففى تعليقه الطويل عن هذا المصنف نراه يخرج بعض الشيء عما عهدنا فيه من التحفظ والاعتدال ويعبر عن رأيه فيه بحدّة وببعض التهكم فيقول :

« وهو مجلد نصف أوله فى ذكر أقاليم وبلدان والباقى فى بعض أحوال المعدن والنبات والحيوان ولكنه أورد فى أوله دائرة مشتملة على صور الأقاليم والبحار زعما منه أنه كذلك فى نفس الأمر وهو الضلال البعيد عن الحق المطابق للواقع فإن الرجل ليس أهل فن جغرافيا وتصويره لا يقاس على سائر النقوش والتصاوير ومع ذلك أورد أخبارًا واهية وأمورًا مستحيلة كما هو دأب أهل العربية والأدباء الغافلين عن العلوم العقلية ان هذا الكتاب متداول بين أصحاب العقول القاصرة كأمثاله أوله الحمد لله غافر الذنب وقابل التوب الخ ، ولعلّ المصنف أشار إلى هذا التأليف وأمثاله من الذنوب »(١١) .

---

(١٠) -Huart, le livre de la créatian, II, p. VIII

(١١) حاجى خليفة ، الجزء الثالث ، ص ١٣٢ – ١٣٣ ، رقم ٤٦٨٨ ؛ وقد استعملت مخطوطة برلين لدى :
Tornberg, Ibn el - Vardi. Pars Posterior, p. V - VI, (Text), p. IV - V (translation)

ولا نستطيع إلا أن نوافق حاجى خليفة فى تقديره العام للكتاب فهو مدخل عادى للغاية فى الجغرافيا والتاريخ الطبيعي ولكن غفل من أية قيمة علمية ذات بال[١٢] . ثم إن ميله الصريح إلى الخرافات والعجائب[١٣] تجعل منه شبيهًا لحكايات « القصّاص » ، تلك الحكايات التى كسبت لنفسها سمعة سيئة منذ الأيام الأولى للحضارة العربية وإن لم يحل ذلك دون رواجها بين
493 العامة . ويغلب على القسم الأكبر من الكتاب القصص الخيالية/والعجائب والغرائب المختلفة[١٤] بينما لا تجد فيه الأخبار الواقعية سوى مجال محدود[١٥] . وهو يحتل مكانته لا بين الآثار الجغرافية الكبيرة بل بين المتوسطة العادية وإن لزم ألا ننفى بصورة كلية كما فعل حاجى خليفة[١٦] وجود بعض الفائدة لديه .

فابن الوردى رغما من كل هذا قد حفظ لنا أحيانًا موادًا لم تصلنا فى مصادرها الأولى[١٧] ؛ وتعتبر « خريدة العجائب » فى العادة انتحالا لمصنف الحرانى من أهل القرن الرابع عشر[١٨] والذى حدث أن توقفنا عنده فيما مر من هذا الكتاب ، غير أن الفحص الدقيق للمسألة يحول دون قبول هذا الرأى على علاته . وابن الوردى نفسه يسرد مراجعه التى نجد من بينها بطلميوس والبلخى والمسعودى والمراكشى ونصير الدين طوسى وآخرين غيرهم[١٩] ؛ ونحن قد تعودنا بالطبع أن نبصر أحيانًا فى الإشارات إلى المؤلفين المختلفين ضربًا من الدفاع عن النفس ، وهذا يصدق بدوره على ابن الوردى . فمن الملاحظ أن اسم الحرانى لا يوجد فى ثبت مصادره بينما يدين له ابن الوردى فى واقع الأمر بالكثير وإن كان لا يدين له وحده ؛ ومما يؤسف له حقاً أننا لسنا فى وضع يسمح لنا بمقارنة المتنين . ولعب دورًا ليس أقل من هذا تأثير القزوينى عليه[٢٠] . وقد عرف ابن الوردى مصنفه

---

(١٢) - Mohammed Ben Chedeb, lbn al - Wardi, p. 455

(١٣) - Fraehn, lbn al - Vardi, p. 20-21- Tornberg, lbn al - Vardi. Pars Posterior, p. I - 111

(١٤) - Freund, p. 18-19

(١٥) - Taeschner, Bericht, p. 85

(١٦) - Tornberg, lbn al - Vardi, Pars Posterior, p. V1

(١٧) شرحه ، ص ٧ – ٨

(١٨) - Mohammed Ben Cheneb, lbn al - Wardi, p 455 - Brockelmann, GAL, II, p. 131. Mzik, Ptolemaeus, p. 168, Note 30 راجع أيضاً:

(١٩) - De Guigres, Ebn al - Ouardi, p. 21 - Fraehn lbn al - Vardi, p. 23-24
- Brockelmann, GAL, II, p. 131 - Kramers, El, EB, p. 70

(٢٠) - Tornberg, lbn al - Vardi. Pars Posterior p. III - Freund, p. 19-22

معرفة جيدة ولا شك، ويؤكد هذا بالتالى المستشرق الروسى مدنيكوف N. A. Mednikov(٢١) فى فحصه للأقسام الخاصة بفلسطين. وبالدرجة نفسها يمكن أن نبصر تأثير الدمشقى والإدريسى عليه ، والأخير قد استعمله ابن الوردى عند كلامه على مواضع متباعدة كصقلية(٢٢) وفلسطين(٢٣) ؛ كذلك عرف جيدًا مؤلفين أقل شهرة من أولئك كالمقدسى صاحب « كتاب البدء »(٢٤) . كل هذا يضطرنا إلى التسليم بأن محيط اطلاعه كان واسعًا بما فيه الكفاية ولم يقتصر بأية حال على الحرانى وحده .

ونادرًا ما نلتقى على صفحات كتابه بذكر لأوروبا أو آسيا الشمالية أو الهند ، أما أكثر مادته طرافة فهى تلك التى تخص إفريقيا وبلاد العرب والشام(٢٥) . وهو يعتمد فى كلامه عن الروس وأوروبا الشرقية على المسعودى وسلاّم الترجمان(٢٦) ، ويلوح أن معرفته بابن فضلان كانت عن
494 طريق مصدر آخر / . ونظرًا لما يتميز به مصنفه من تنوّع كبير فى المادة فإنه يمكن العثور على تفاصيل قيمة وسط أقسامه المختلفة ، وقد أثبت مؤرخ صقلية أمارى أنه الوحيد الذى يورد الرواية المتعلقة بوجود جسر كبير طوله مائة وخمسون مترًا يصل ترابانى Trapani بأرض صقلية(٢٧) ؛ كما وأن تيشنر Taeschner فى دراسته عن القسطنطينية قبل الفتح العثمانى يبين أن أكمل رواية لوصف المدينة الذى تناقلته المصادر الإسلامية منذ عهد الإسلام الأول هى التى حفظها لنا ابن الوردى بالذات(٢٨) . ومن هذا نبصر مرة أخرى أنه حتى مثل ذلك الكتاب الذى تكونت لدينا عنه بوجه عام انطباعات سلبية لا يمكن اطراحه ظهريًا بشكل نهائى .

ويمكن أن نستشف بعض التحيز فى موقف حاجى خليفة من خارطة ابن الوردى ، وهى معروفة منذ بداية القرن التاسع عشر عندما نشرها يوهانسن Johanssen اعتمادًا على مخطوطة باريس وتورنبرج Tornberg اعتمادًا على مخطوطة ابسالا ، ثم تلاهما مجيك Mzik فنشر صورة

---

(٢١) -Mednikov, Palestina. Translation, 1189, 1192-1193

(٢٢) -Amari(-Nallino), I, p. 60, No26

(٢٣) شرحه -Mednikov, Palestina. Translation,

(٢٤) - Huart, le livre de la création, II, p. VIII et sui

(٢٥) - Fraehn, Ibn al - Vardi, p. 22

(٢٦) شرحه ، ص ٤٧

(٢٧) -Amari(-Nallino), I, p. 60, No26

(٢٨) -Taeschner, Bericht, p. 85

فوتوغرافية لها عن مخطوطة بغوتا[٢٩] . وفى الآونة الأخيرة نشر ميلر Konrad Miller سبعة عشر نموذجًا لهذه الخارطة فى مؤلفه الضخم معتمدًا على عشرين مخطوطة[٣٠] . وجميع هذه النماذج تعكس خارطة العالم المستديرة المعروفة لنا جيدًا وهى تلك الخارطة التى ثبتت صورتها فى ما اصطلح على تسميته « بأطلس الإسلام » والتى ترتفع بالتوكيد إلى طراز خارطة الاصطخرى[٣١] ؛ أما من الناحية الفنية فإن خارطة ابن الوردى ليست بأردأ من غيرها من الخارطات من النوع نفسه ومن ثم فإن الحكم القاسى الذى أصدره عليها حاجى خليفة غير مفهوم لنا تمام الفهم . ويرى ميلر أن وجود عدد هائل من المخطوطات قد ساق إلى تنويع صور هذه الخارطة بحيث يمكن تصنيفها على مجموعات[٣٢] ، وهو محق فى افتراضه أن الاختلاف فيما بينها يرجع فى أغلب الظن لا إلى المؤلف نفسه بل إلى الناسخ[٣٣] الذى يستطيع بحسب ما أوتى من الخبرة أن يجرى فى الخارطة ما يعن له من إضافات أو تعديلات لا وجود لها فى النموذج الأصلى . هذا وقد حازت الخارطة الرواج والانتشار نفسهما الذى حازه المتن وزحمت جميع الخارطات الأخرى ، كما وأن النزعة إلى الموضوعات الأسطورية قد انعكست بدورها فى بعض التسميات التى بها ولكن هذه الظاهرة ليست وقفًا على ابن الوردى وحده . ونحن نلتقى لديه بموضع جبل قاف وعرش إبليس وينبوع الحياة[٣٤] ، ولكن هناك أيضًا إلى جانب هذا حالات أغنى فيها المصطلح الجغرافى ، ففى أوروبا تظهر البلقان و « الألمان وغيرهم من شعوب النصرانية » وذلك لأول مرة على خارطة عربية[٣٥] ؛ ولنستدرك على هذا بقولنا إن تحليل ميلر لا يخلو فى بعض نقاطه من الإبهام ويحتاج إلى التثبّت . وبخلاف خارطة العالم المستديرة فإن معظم مخطوطات مصنف ابن الوردى

495 تحتوى على / « خارطة للقبلة » مبين عليها اتجاهات القبلة باختلاف مواقع البلاد[٣٦] .

وقد تجاوز صيت « خريدة العجائب » نطاق العالم العربى بحيث يمكن أن تنازع فى هذا

---

(٢٩) -Mzik, Ptolemaeus, Taf, VII, cf. p. 168, note30

(٣٠) -Miller, V, p. 134-139; Beiheft, Taf. 73-79

(٣١) - Kramers, El, EB, p. 70

(٣٢) -Miller, V, p. 135

(٣٣) شرحه ، ١٣٥ – ١٣٦

(٣٤) شرحه ، ص ١٣٨

(٣٥) شرحه ، ص ١٣٩

(٣٦) شرحه ، ص ١٥٠ – ١٥٤ مع صورتين

الميدان « عجائب المخلوقات » للقزويني ، وهى معروفة فى ترجمة فارسية(٣٧) غير أن الرواج كان على ما يظهر من نصيب ترجماتها التركية(٣٨) التى يذكر تيشنر الخبير فى تاريخ الجغرافيا عند الأتراك ليس أقل من خمس منها(٣٩) ؛ ومما يلفت النظر أن أقدمها قد ظهرت بعد قليل من ظهور الأصل العربى وذلك قبل استيلاء الأتراك على القسطنطينية(٤٠) أما الترجمات الباقية فيرجع معظمها إلى القرن السادس عشر(٤١) ؛ وقد ضمن محمد عاشق فى حوالى عام ١٠٠٦ هـ-١٥٩٨ الأخيرة منها فى سفره الجغرافى الكبير « مناظر العوالم »(٤٢) الذى سنقف عليه طويلا فيما سيأتى من هذا الكتاب .

وكان من جراء العدد الكبير من مخطوطات ابن الوردى الذى وجد طريقه إلى أوروبا أن لفت إليه هذا أنظار العلماء الأوروبيين فى وقت مبكر خاصة المبتدئين من بينهم الذين اضطروا حين لم يجدوا موادًا أخرى إلى استخراج موضوعات بحوثهم منه . وهم بالطبع لم تجتذبهم تلك الجوانب التى عملت على رواج الكتاب فى الشرق ، فالعلامة المشهور سلسيوس **Celsius** قد وجه الأنظار إلى أهمية قسم التاريخ الطبيعى خاصة الجزء منه الذى يعالج الكلام على النبات ؛ ومنذ اللحظة التى ترسم فيها خطاه أوريفليوس **Aurivillius** فنشر فى عام ١٧٥٢ الفقرة عن النخيل فإن دراسة « فريدة العجائب » أصبحت إلى حد ما من تقاليد العلم السويدى فنشر عددًا من فصوله هيلاندر **Hylander** (١٧٨٤ - ١٨٢٣)(٤٣) وفكس **Faks** (١٧٨٦)(٤٤) وتورنبرج **Tornberg** (١٨٣٥-١٨٣٩)(٤٥) ؛ غير أن علماء الأقطار الأخرى أدلوا أيضًا بدلوهم فالعلامة كولر **Koehler** الذى وضع دراسة قيمة عن أبى الفدا نشر الجزء من مصنف ابن الوردى

---

(٣٧) - Brockelmann, GAL, SBII, p. 163

(٣٨) - Tornberg, Ibn el-Vardi. Pars Posterior, p. XI - XIII - Brockelmann, GAL, II, p. 132; SBII, p. 163 - Taeschner, Geogr. Lit., p. 39

(٣٩) - Taeschner, Bericht, p. 86-87

(٤٠) شرحه ، ص ٨٦

(٤١) شرحه ، ص ٨٦ – ٨٧

(٤٢) شرحه ، ص ٨٧

(٤٣) - Hylander, Ibn el Vardi

(٤٤) راجع : Fraehn, Ibn al-Vardi

(٤٥) - Tornberg, Ibn al-Vardi - Brockelmann, GAL, II, p. 131, No 8

المتعلق بالشام (١٧٦٦[٤٦] و ١٧٨٦) وقدم لنا دى غين De Guigne فى عام ١٧٨٩ تحليلا عامًا للكتاب[٤٧] ساعد إلى حد ما فى تدعيم صيته . ومن الملاحظ أن علامتنا الكبير فرين Frähn بدأ نشاطه العلمى بابن الوردى بالذات فقد ظهر أول بحث علمى له فى سنة ١٨٠٤ وهو عبارة عن متن ابن الوردى عن مصر مع ترجمة وتعليقات[٤٨] . وعندما تم فى أوروبا اكتشاف المصنفات
496 الكبرى القيمة بدأ نجمه فى الأفول منذ منتصف القرن التاسع عشر / بحيث اقتصرت أهميته بالنسبة لنا فى الوقت الحاضر فى أنه يمثل آخر نموذج لنمط الكوزموغرافيا فى الأدب العربى ، ذلك النمط الذى بلغ الأوج فى كتاب القزوينى وبدأت تظهر عليه علامات التدهور إن ليس السقوط فى كتاب ابن الوردى .

لقد ظل التأليف فى مجال الجغرافيا الإقليمية مزدهرًا بغزارة فى الشام وفلسطين طوال هذا العصر ولكن نماذجه اختلفت بعض الشىء من حيث الشكل عما عهدناه بمصر فلم يهتم بمسائل الإدارة ونشاط الدواوين الحكومية بالقدر الذى اهتم به المؤلفون المصريون ؛ ولا غرو فقد بقيت مصر على الدوام مقر الدولة أضف إلى هذا أن جميع المراجع الإدارية التى ظهرت فيها قد وجهت اهتمامًا ليس بالضئيل للشام أيضًا . ونادرًا ما ترسمت الآثار التى صنفت بالشام خطو « الخطط » المصرية أى وصف المدن والحواضر بحسب أحيائها ، وكانت نقطة التقائهما الوحيدة هى أنه بقدر ما ركزت الخطط اهتمامها قبل كل شىء على القاهرة فإن المصنفات الشامية قد ركزت بدورها اهتمامها الأساسى على المدن الكبرى كدمشق والقدس وحلب بعض الشىء . وهى ترتبط أكثر مما ترتبط الخطط بذلك النمط القديم نمط « الفضائل » و « المحاسن » الذى تمتد جذوره إلى القرنين الثامن والتاسع ؛ ولم تكن هذه الصلة قد انفصمت بالطبع ولكن ظهور الأنماط الأخرى وازدهارها قد دفع أحيانًا إلى تناسيها ولكننا نراها الآن لأسباب عديدة تجمع قواها من جديد بل وتحتل مركز الصدارة . وتكمن طرافة هذا النمط فى تشبثه الشديد بتقاليده الأدبية فهنا يتمم المصنفُ المصنفَ السابق عليه بل قد يقتصر أحيانًا على مجرد إدخال تجديدات بسيطة عليه . وفى القرن السادس عشر أى تحت سلطان العثمانيين كان هذا النمط أكثر أنماط الأدب الجغرافى قربًا إلى نفوس القراء .

وقد أبصرنا من قبل ، وذلك خلال فحصنا للآثار المحلية المرموقة ، كيف انعكس هذا الاهتمام

(٤٦) Koehler, Tabulae Syriae... ex Ibn el Vardi-

(٤٧) De Guignes, Ebn al -(-

(٤٨) Fraehn, Ibn al-Vardi-

بالجغرافيا الإقليمية لدى مؤرخ الشام فى القرن الثالث عشر عز الدين بن شداد الذى يحمل الجزء الثانى من مصنفه فى بعض الأحيان عنوانًا قائمًا بذاته هو « محاسن إقليم دمشق » كأنما ينوه بذلك إلى محور اهتمامه الرئيس . ويمثل هذا النمط فى القرن الخامس عشر بصورة أكثر جلاء مصنف أبى البقاء عبد الله بن محمد البدرى الدمشقى(٤٩) وإن كانت قيمته الأدبية ليست بالكبيرة ؛ ونحن لا نعلم شيئاً عن المؤلف نفسه سوى أنه أتم مصنفه حوالى عام ٨٨٧ هـ = ١٤٨٢(٥٠) وأن له مصنفات أخرى يرجع تأليفها إلى الربع الأخير من القرن الخامس عشر وأن تاريخ وفاته ينسب أحياناً إلى عام ٩٠٩ هـ = ١٥٠٣(٥١) ؛ وهناك أساس قوى للاعتقاد بأنه أمضى شطراً طويلاً من حياته بدمشق وعرفها معرفة جيدة لأن هذا ينعكس بجلاء من تضاعيف مصنفه «نزهة الأنام فى محاسن الشام»/ الذى اجتذب أنظار العلماء منذ عهد دى ساسى(٥٢) وكاترمير(٥٣) بفضل 497
مخطوطته الباريسية ، كما أن المستشرق الفرنسى سوفير Sauvaire نشر مقتطفات منه مترجمة إلى الفرنسية(٥٤) . وقد ظهر الكتاب فى طبعة قاهرية منذ عهد ليس بالبعيد(٥٥) ؛ وله مخطوطة جيدة بمكتبة معهد الدراسات الشرقية(٥٦) التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية .

يقدم لنا المؤلف فى كتابه هذا وصفًا لمشاهد دمشق الجديرة بالاهتمام ، أو كما يعبر هو بلفظه الخاص « محاسن » دمشق ، وللمواضع القريبة منها ؛ وفيه يعالج الكلام على مساجدها المختلفة وحماماتها ومتنزهاتها كما لا يهمل الحديث عن قراها ومواضعها المشهورة بأزهارها ونباتها وأشجار فاكهتها . وفيما يتعلق بالمجموعة الأولى فهو يورد بعض التفاصيل التاريخية والمعمارية أما فيما يتعلق بالثانية فيفصل أحيانًا الكلام على طرق جمعها ووسائل تسويقها . ويختتم المؤلف كتابه بالكلام عمن

---

(٤٩) -Brockelmann, GAL, II, p.132, No II; SBII, p.163

(٥٠) -Ahlwardt, V, p.394-Brockelmann, GAL, II, p.132, No II

(٥١) -Brockelmann, GAL, SBII, p.163,
ولكن يشير إلى عام ٨٤٧ هـ = ١٤٤٣ (!) على أنه عام ميلاده . قارن : سركيس، ص ٥٤٢

(٥٢) - De Sacy, Relation, p. 574 - 580

(٥٣) - Quatremère, Histoire d. Sultans Mamlouks, II, p. I, p. 277 - 285

(٥٤) - Sauvaire, JA, 9, III, p. 254; VII, p. 425 - 453; note p. 454 - 459

(٥٥) - Brockelmann, GAL, SBII, p. 163 (سنة ١٣٤١ هـ)
عنخورى ، ص ٣٢٧ – ٣٣٠ ، ٣٩٢ – ٣٩٩

(٥٦) - Rosen, Notices Sommaires, p. 185 - 187, No 239, 2

عاش بدمشق من الصحابة ومشاهير الرجال وعن مقابرها وما بها من قبور معروفة . أما توزيع مادة الكتاب فغير متجانس ويلو ح أن المؤلف قد افتتن بصورة خاصة بالأشجار والأزهار والبقول والثمار التى تنمو بدمشق ونواحيها فخصص لهذا ثلاثة أرباع الكتاب تقريبًا ، وهو ينقل عن مصنفات مختلفة فى الطب والنبات ويقدم لنا من وقت لآخر من التفاصيل مما قد يكون ذا أهمية للمتخصصين(٥٧) . أما أسلوبه الكتابى فلا يخلو أحيانًا من التكلف وتنتثر فيه الاستشهادات الشعرية وفقًا للموضو ع الذى يعالجه ؛ وأما تبويبه للمادة فبدائى للغاية وهو يبدأ كلامه دائمًا بالصيغة الآتية تقريبًا : « ومن محاسن (دمشق) الشام كذا وكذا .... »(٥٨) . ولإعطاء فكرة عن منهجه فى التأليف بل ومنهج غيره نذكر أنه رغمًا من إقامته بدمشق ومعرفته الجيدة بها على ما يبدو فإن هذا لم يمنعه فى وصفه لمسجدها الجامع من أن يفضل الرجو ع إلى رواية الرحالة الأندلسى ابن جبير(٥٩) التى ترتفع إلى القرن الثانى عشر ؛وهى كما نعلم ظاهرة معهودة لدى جميع الجغرافيين العرب . ويلوح أن مصنف أبى البقاء قد اكتسب بعض الشهرة بالشام ففى القرن السادس عشر أفاد منه البصروى(٦٠) عند معالجته الموضوع نفسه ، وسنلتقى بهذا الأخير فيما سيأتى من هذا الكتاب .

وإذا حدث أن لاحظنا بعض الحيوية فى ميدان الجغرافيا الإقليمية فيما يتعلق بدمشق والشام
عامة فإنه لا يمكن / مقارنة ذلك بأية حال بالنشاط المفعم فيما يخص فلسطين والقدس بصورة 498
خاصة ، فمن السهل علينا أن نعد فى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ليس أقل من عشرة مؤلفين تركوا أحيانًا مؤلفات ضخمة فى هذا الميدان . وهذه الظاهرة بطبيعة الحال ليست وليدة المصادفة لأنها تتصل فى الواقع بتقاليد موغلة فى القدم ترتبط بالاتجاهين الحديثى واللغوى للقرنين التاسع والعاشر ، وإلى جانب هذا فقد وجدت فيما يتعلق بفلسطين أسباب خاصة جعلتها فى فترات معينة من التاريخ محط أنظار العالم الإسلامى بأجمعه ؛ وهذا هو السر فى أن مؤلفى هذه المصنفات لم يكونوا من أهل فلسطين أو الشام وحدهما بل كانوا أيضًا من المصريين .

ويجب ألا يغيب عن الذاكرة أن مصر والبلاد المرتبطة بها كانت تقف فى القرون الأخيرة السابقة

---

(٥٧) شرحه ، ص ١٨٧

(٥٨) راجع : Ahlwardt, V,p. 393-394, No 6079-6080.

(٥٩) -De Sacy, Relation, p. 577

(٦٠) شرحه ، ص ٥٧٤

لخضوعها للعثمانيين على رأس الحركة الرامية إلى تحرير فلسطين والمناطق المجاورة لها من أيدى الصليبيين . وتاريخ هذه الحركة قد تردد صداه فى عدد هائل من الآثار الأدبية ، ويستحق من وجهة النظر هذه بحثًا خاصًا يعالج الفترة بأجمعها منذ عهد صلاح الدين الأيوبى إلى عهد محمد الفاتح . ووجهة النظر الإسلامية فيما يتعلق بفلسطين كانت مشابهة كل الشبه لوجهة النظر المسيحية التى تشكلت وأخذت قالبها فى عهد الصليبيين فقد انبعث أدب دعاية ذو أصالة كبرى انصبت فكرته فى أن فلسطين بل وجميع أرض الشام إنما هى أرض المعاد بالنسبة للمسلمين لا ينازعهم فى شرعيتها أى منازع . ولم تلبث مقابر الأنبياء القديمة بها وأيضًا المعابد والمساجد العتيقة أن اكتسبت قداسة لا تفوقها سوى قداسة مكة والمدينة ؛ وفى العصور المتوسطة الأخيرة أصبح الحج إليها فريضة كالحج إلى مكة ودفع هذا بدوره إلى ازدهار المؤلفات المرتبطة بها والتى احتيج إليها لأغراض الدعاية من جهة وأغراض تعريف المسلمين بتلك البلاد نفسها من جهة أخرى .

وكان الدعاة يشيرون دائمًا إلى أنه يجب ابتغاء مرضاة الله بزيارة تلك البلاد و إنفاق الصدقات على المؤسسات بها كمؤسسات العبادة وفعل الخير والعلم .

ولم تقم الدعاية على استثارة العواطف الدينية فحسب بل إن العلماء قد اهتموا أيضًا بتوضيح جانب آخر دنيوى يتعلق بفلسطين فأخذت تتشكل وتنمو الفكرة القائلة بأن الشام تمتلك تسعة أعشار ثروة العالم بأجمعه ؛ ولا يخفى ما تسوق إليه مثل هذه الأفكار من التزامات نفسية معينة فقد أحس المسلمون بأن عليهم أن يرتحلوا إلى تلك البلاد لا خضوعًا لتلك العواطف الدينية وحدها بل أيضًا ليستغلوا خيراتها لأنفسهم ولغيرهم سواء فى مجال التجارة أو الزراعة . ولعله لم يكن من قبيل الصدفة أن يولى أبو البقاء مثل ذلك الاهتمام لأزهار وفاكهة وادى دمشق مبينًا فى ذات الوقت ما يلقاه كل منها من إقبال فى البلدان الأخرى وفى أى صورة كان ذلك .

وجميع هذا الأدب الجغرافى ذو الطابع الدعائى وما اصطبغ به من أغراض دينية أو دنيوية/ قد 499
ارتبط ارتباطًا وثيقًا على جميع مراحل تطوره بنمو الحركة التى أطلقنا عليها اسم حركة « التحرير » . وترجع بداية هذه الحركة إلى عهد صلاح الدين الأيوبى أو إلى ما قبل ذلك بقليل حينما مر ما يقرب من مائة عام على وجود بيت المقدس فى أيدى الصليبيين (٤٩٢ هـ - ٥٨٣ هـ = ١٠٩٩ - ١١٨٧)[٦١]؛ وتنتهى الفترة الأولى لهذه الحركة باسترداد المسلمين لعكا وطرابلس فى عام ١٢٩١ .

---

(٦١) راجع : Mednikov, Palestina. Issled. p. 239

أما الفترة الثانية منها فتصل إلى عام ١٣٧٥ عندما قضى المماليك على مملكة أرمينيا وضموها إلى مصر فوجدوا بذلك أنفسهم وجهًا لوجه مع الأتراك العثمانيين الذين كما اكتشف المماليك بالتالى لم يكونوا أقل حماسًا دينيا منهم أو ضراوة فى القتال . وقد كانت أنظار المماليك معلقة بحوض البحر المتوسط حيث توقعوا على الدوام خطر الغزو من أوروبا يهدد سواحل مصر والشام لذا فإن الفترة الثالثة والأخيرة لحركة « التحرير » الإسلامى ضد الصليبيين تبدأ بالعمليات الحربية الموجهة ضد جزيرة قبرص فى عام ١٤٢٤ والتى ربما كانت بمثابة انتقام من الصليبيين لتخريبهم الإسكندرية فى عام ١٣٦٥ ، وتنتهى هذه الفترة بحملة المماليك الفاشلة للاستيلاء على جزيرة رودس حيث التقوا هناك بالأتراك العثمانيين الذين كان يحدوهم الأمل نفسه. وحتى هؤلاء الأخيرون لم يحالفهم التوفيق بالإستيلاء على الجزيرة إلا فى عام ١٥٢٢ بالرغم عن أن عملياتهم العسكرية ضدها ترجع بصورة جدية إلى منتصف القرن الخامس عشر[٦٢] .

أمام هذه التحديدات الزمنية التى بيناها بوضوح كاف يضحى أكثر فهمًا لنا سبب النمو غير العادى الذى تمتع به الأدب الجغرافى عن فلسطين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر بالذات . ولا يجب بأية حال الاعتقاد بأن هذا الأدب يرجع فى نشأته إلى هذين القرنين إذ أنه يرتبط فى الواقع بتقاليد أدبية ضاربة فى القدم سنضطر إلى الوقوف على لحظات معينة منها ؛ وقد كشفت هذه التقاليد عن استعداد غريب للاستمرار والتماسك وسنرى كيف اشترك أحيانًا علماء من أسرة واحدة أو من مدرسة واحدة فى معالجة موضوع واحد ، كما سنتبين كذلك النزعة للاحتفاظ بعنوان واحد لعدد من المصنفات . ومما يؤسف له أن ما يتميز به هذا الأدب من ناحية الكم لا تعادله ميزاته من ناحية الكيف فهو أدب نقلى بكل ما يحمله هذا اللفظ من معنى ، وبهذا نرى لزامًا علينا الاقتصار على تلك المصنفات المبكرة التى هى بمثابة الأساس فى بنائه والتى تعتبر أنموذجًا للمؤلفات التى أعقبتها . وسنرى فيما يلى كيف أن هذا الطابع النقلى يغلب تمامًا بحيث نلتقى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر بمصنفات متشابهة يكرر بعضها بعضًا بصورة يمكن اعتبارها معها مسودات متعددة لمؤلف واحد ؛ وتكمن قيمة هذه المؤلفات فى المادة التى تحويها والتى تنتظم أحيانًا مدى واسعًا فلا تقتصر على الموضوعات التى تمس الأغراض التى لفتنا النظر إليها بل تعالج إلى جانب ذلك مسائل هامة بالنسبة لنا من مجال التاريخ والجغرافيا بل ومن مجال الآثار والطبوغرافيا أحيانًا .

---

(٦٢) راجع ثبت المراجع ص ٥٤٥–٥٤٦ -Atiya, The Crusade, p. 468-476;

هذا الأدب الواسع المدى لم ينشر منه إلى الآن إلا جزء ضئيل للغاية ، كما أن ما أخضع منه للدراسة أقل من ذلك بكثير . وبالرغم من أن نقاطًا معينة منه قد اجتذبت أنظار العلماء الأوروبيين أكثر من مرة إلا أنه لم تعمل حتى الآن محاولة لتقديم عرض موجز له تأخذ فى حسابها الاعتبارات التى أشرنا إليها منذ قليل / ؛ وقد مس هذه المسائل فى بداية القرن التاسع عشر وذلك فى بحث له 500
عن مؤلف من أهل القرن الخامس عشر العلامة الدنمركى الشاب لمنغ Lemming (١٨١٧) ، وفى بداية القرن العشرين فقط تمكّن المستشرق الروسى مدنيكوف Mednikov (١٨٩٧-١٩٠٣) وذلك فى تحليله لآثار ثلاثة من مؤلفى القرنين الرابع عشر والخامس عشر من أن يلقى ضوءاً ساطعًا على المسألة المتعلقة بمصادرهم وبعلاقة بعضهم ببعض[٦٣] . وقد تجمعت منذ ذلك الوقت مادة ضخمة فى هذا الميدان، وإن لم يتقدم تحليلها فى جوهره بأبعد من النتائج التى وصل إليها مدنيكوف.

ومن خصائص هذا الأدب « الفلسطينى » ، وذلك فى الفترة الأولى التى ترتفع إلى عهد سابق لعهد صلاح الدين ، أن فلسطين نفسها لا تنال فيه أهمية مستقلة بل تدخل ضمن الشام التى احتلت فيه المكانة الأولى . ومصنف أبى الحسن على الربعى الذى تم تأليفه حوالى عام ٤٣٥ هـ = ١٠٤٣ يحمل عنوان « الاعلام بفضائل الشام ودمشق وذكر ما فيها من الآثارات والبقاع الشريفة »[٦٤] ؛ وإذا لم يكن من المعروف لنا أنه قد رجع إليه المتخصصون فى الأدب « الفلسطينى » كبرهان الدين الفزارى من أهل القرن الرابع عشر أو كشمس الدين السيوطى من أهل القرن الخامس عشر[٦٥] لما استبان لنا من عنوانه أن الكلام يدور فيه عن فلسطين كذلك . وفى الفترات التالية من تطور هذا الأدب تبدأ القدس فى التمتع بحقوقها كاملة من حيث العناوين شأنها فى هذا شأن دمشق ؛ وخير مثال لهذا مؤلف نال الصيت فيما بعد وهو أبو المعالى المشرف بن المرجى بن إبراهيم المقدسى[٦٦] . وليس لنا علم بالزمن الذى عاش فيه وقد حاول عبثًا

---

(٦٣) راجع على الأخص :
Mednikov, Palestina, Issled., p. 236-237, Note with corrections to Lemming

(٦٤) -Lemming, p. XXVII-Brockelmann, GAL, I, p. 330-331; SBI, p. 566

(٦٥) -Mednikov, Palestina. Issled, p. 237

(٦٦) - Brockelmann, GAL, SBI, p. 567, NO la = p. 876, No 2a; cf: Sauvaire, Histoire de Jéusalem, p. 65

مجير الدين(٦٧) فى القرن الخامس عشر أن يثبت تاريخ الفترة التى عاش فيها ولكنه لم يوفق فى ذلك ؛ غير أنه من الممكن إرجاعه إلى نهاية القرن الخامس الهجرى أى الحادى عشر الميلادى لأن ثمة إشارة وردت لدى ياقوت تفيد بأنه كان معاصرًا لمكى بن ريّان الذى قتل عند استيلاء الصليبيين على بيت المقدس(٦٨) . ويحمل مصنف المقدسى عنوان « فضائل البيت المقدس والشام » ، ولا يزال معروفًا إلى هذه اللحظة فى مخطوطة فريدة بتيبنغن Tübingen . ويبدأ العرض بتاريخ موجز لبيت المقدس القديمة وفتح العرب لها فى عهد عمر وبناء عبد الملك فى الحرم(٦٩) ؛ ويلى هذا الكلام على فضائل القدس وفضل الصلاة فيها ؛ وينصب العرض فى جوهره على سرد الأحاديث النبوية التى قيلت فى فضل القدس وهو منهج اكتسب رواجًا كبيرًا لدى المؤلفين التالين فنسج على منواله
501 برهان الدين الذى مر ذكره للتووابن عساكر (الابن)(٧٠) وأحمد / المقدسى(٧١) . وأخيرًا نلتقى بالعنوان منفردًا قائمًا بذاته على هيئة « فضائل بيت المقْدِس » ، وذلك فى حوالى عام ٥٠٠ هـ = ١١٠٦ لدى أبى بكر بن محمد بن أحمد الواسطى وهو أيضًا من المؤلفين الذين ورد ذكرهم لدى مجير الدين الذى لم يستطع التثبّت من الزمن الذى عاش فيه على وجه الدقة(٧٢) .

هذا وقد حافظ الأدب « الفلسطينى » لأسباب مفهومة لنا كل الفهم على ازدهاره الأول إلى ما بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس واسترجاعها على يد صلاح الدين ، وأخذت طرفًا فيه أحيانًا شخصيات كبرى كالمؤرخ الداعية المشهور أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى (توفى فى عام ٥٩٧ هـ = ١٢٠٠)(٧٣) . وإن نشاط دعوته التى نالت الحظوة لدى الجماهير حتى خرجت أحيانًا إلى الشوارع ليساعدنا على تفهم الأسباب التى حدت بمثل هذا الرجل ليجعل من فلسطين موضوعًا لخطبه ولماذا اعتبرت أحيانًا رسالته « فضائل القدس » مجرد فصل من مصنفه الكبير « مثير الغرام إلى ساكنى الشام(٧٤) » . ومما يثبت أن الأدب الجغرافى من هذا الطراز كان

---

(٦٧) - Mednikov, Palestina. Issled., p, 234

(٦٨) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٧٧٩

(٦٩) - Buhl, Al - Kuds, p. 1179

(٧٠) - Mednikov, Palestina, Issled. p. 234-235

(٧١) - Koenig, p. 15, No 28

(٧٢) شرحه ، ص ١٦ – ١٧ ، رقم ٣٢

(٧٣) - Brockelmann, GAL, I, p. 499-506, No 5; SBI p. 914-920

(٧٤) شرحه ، الجزء الأول : ص ٥٠٥ – ٥٠٦ ، رقم ٧٨ ، ٧٩ ؛ SBI, p. 920

يرتبط ارتباطًا فعليًا بالدعوة « التحريرية » التى لم تقف عند حد القول فقط بل خرجت أحيانًا إلى حد الفعل حادث صغير فى حياة حفيده وتلميذه الذى نال الشهرة أكثر منه أعنى المؤرخ سبط ابن الجوزى (توفى عام ٦٥٤ هـ = ١٢٥٧) ؛ فهو لم يكتف بدعوة أهل دمشق إلى جهاد الفرنجة بل اشترك بنفسه على رأس حملة عسكرية موفّقة على مدينة نابلس(٧٥) . وبعد قرن ونصف من هذا كان مصنف ابن الجوزى من مصادر رسالة مماثلة لكاتب كبير هو تاج الدين عبد الوهاب السبكى(٧٦) .

وفى وقت واحد مع ابن الجوزى وذلك فى الحد الفاصل بين القرنين الثانى عشر والثالث عشر يأخذ طرفًا فى الأدب « الفلسطينى » اثنان من أسرة دمشقية اشتهرت بمؤرخيها هى بنو عساكر . وأحدهم وهو القاسم بن عساكر (توفى فى عام ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣) ابن لصاحب معجم السير المشهور(٧٧) وقد سلك سبيل والده فاشتغل بالوعظ بدمشق وزار القاهرة والقدس حيث قرأ فى عام ٥٩٦ هـ = ١٢٠٠ مصنفه عن المسجد الأقصى(٧٨) . ومن الممكن أن نتصور ما تمتعت به مثل هذه الموضوعات من رواج ولمّا ينقضِ على تحرير المدينة من أيدى الصليبيين أكثر من عشرين
502 عامًا . واسم مصنفه هو « الجامع المستقصى فى فضائل / المسجد الأقصى » ؛ وكان من مراجعه أبو المعالى المشرّف(٧٩) الذى مر ذكره توًا ؛ كما أنه ليس هناك شك فى أن ابن عساكر أفاد من مؤلفات أبيه وهذا من شأنه أن يرفع من قيمة كتابه لأن الأب اشتهر بأمانته العلمية(٨٠) . هذا المصنف لابن عساكر الابن الذى لم يصلنا حتى فى المخطوطات قد تمتع بانتشار واسع وساعدت شهرة الأب فى أنه لم يكن من النادر نسبة المصنف إليه فى الأدب العربى ولدى الدوائر العلمية الأوروبية المبكرة ، ولكن يلوح أن اسم المؤلف الحقيقى قد ثبت الآن بصورة نهائية . ويوشك هذا المصنف أن يكون المصدر الأساسى لجميع من عالجوا الكتابة عن القدس إلى جمال الدين المقدسى

---

(٧٥) -Brockelmann, GAL, SBI., p.589

(٧٦) -Mednikov, Palestina. Issled., p.237, cf. also p. 236, 239

(٧٧) -Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p.105, No292 - Lemming, p.XXVI
- Brockelmann, GAL, I, p. 331, No 1, SBI, p. 567-568 - Brockelmann, Ibn Asakir, p. 386
- Wüstenfeld, Stammtafel, p. 5-7, No 78

(٧٨) - Koenig, p. 13, No 19 - Mednikov, Palestina. Issled., p. 232

(٧٩) شرحه ، ص ٢٣٤ – ٢٣٥

(٨٠) شرحه ، ص ٢٣٨ – ٢٣٩

فى القرن الرابع عشر [٨١] ؛ وقد استعمله على حد سواء كل من الفزارى [٨٢] والسبكى [٨٣] . وكما هو تقليد أسرتهم فقد شغل بالموضوع نفسه أيضًا ابن عمه أمين الدين أحمد بن محمد الذى تقتصر معرفتنا بمصنفه « كتاب الأنس بفضائل القدس [٨٤] » أيضًا على ذكر الآخرين له ونقلهم منه . وهو قد قرأ مصنفه بدمشق فى عام ٦٠٣ هـ = ١٢٠٦ [٨٥] ويبدو من النقول أنه قد اعتمد فيه اعتمادًا أساسيًا على مصنف ابن عمه المشار إليه [٨٦] ، كما كان هو بدوره مصدرًا للسبكى [٨٧] .

وإذا كانت الفترة الأولى لازدهار هذا الأدب الدعائى بفلسطين والشام ترتبط كما رأينا بمصير بيت المقدس وحروب صلاح الدين فإن الفترة الثانية الواقعة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر والتى تعتبر أكثر إنتاجًا فى هذا الميدان يمكن أيضًا تحليلها على ضوء وقائع من تاريخ حركة « التحرير » ، فتحرير الشام جميعها باستيلاء المسلمين على عكا وطرابلس فى عام ١٢٩١ قد خدم كثيرًا قضية هذا الأدب ؛ ومما يثبت وجود صلة لهذا الأدب بمسائل الجدل الأدبى (polemics) ضد الفرنجة أن بداية القرن الثالث عشر قد شهدت وصول الرسالة المسماة « بالمسائل القبرصية » إلى الشام وهى التى أخذ طرفًا فى تفنيدها لا الفقيه المشهور ابن تيمية وحده بل وأيضًا الكوزموغرافى الدمشقى كما نذكر جيدًا [٨٨] . ومما يقف دليلا على حيوية هذا
503 الاهتمام / أن مخطوطات بعض مصنفات ذلك العصر قد حفظت إلى أيامنا هذه .

وأول مؤلفى القرن الرابع عشر من الناحية الزمنية هو برهان الدين إبراهيم بن الفركاح (توفى عام ٧٢٩ هـ-١٣٢٩ [٨٩]) الذى مر بنا اسمه أكثر من مرة ، وقد اشتغل بالتدريس بدمشق وزار مصر

---

(٨١) شرحه ، ص ٢٣٥ – ٢٣٨ - Koenig, p. 13, No 19

(٨٢) -Brockelmann, GAL, II, p. 130, No2; SBII, p. 161

(٨٣) -Mednikov, Palestina. Issled., p. 237

(٨٤) - Lemming, p. XXVI, A - Mednikov, Palestina. Issled., p. 233,235-237,239,508 - Wüstenfeld, Stammtafel, p. 8, No 7

(٨٥) - Mednikov, Palestina. Issted., p. 234,237,508 - Wüstenfeld , Stammtafel, p. 8

(٨٦) -Mednikov, Palestina. Issled., p. 235-236

(٨٧) شرحه ، ص ٢٣٧

(٨٨) -Fritsch, p. 28sui, 33sui

(٨٩) -Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 160, No394-Brockelmann, GAL II, p. 130, No 2; SBII, p. 161 - Mednikov, Palestina, Issled., p. 236, 237,239,332 - 334,341 - 342.

وتخصص إلى حد ما فى هذا الأدب الذى كرس لفلسطين كما يبدو من اثنين من كتبه حازا رواجًا لدى الجمهور أكثر من غيرهما . وأحد هذين الكتابين على ما يلوح ليس سوى تنقيح لكتاب الربعى الذى مر بنا الكلام عليه بل ويحمل عنوانه نفسه وهو « الإعلام بفضائل الشام »[٩٠] ، وأما الكتاب الثانى والذى نال انتشارًا أكثر من سابقه فيحمل عنوان « باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس » ويوجد فى عدد كبير من المخطوطات ؛ وقد قام دى غين De Guignes بتحليل محتويات المخطوطة الباريسية منذ عام ١٧٩٠[٩١] . ويبدو لنا من عنوان الكتاب نفسه أن الأمر لا يتعلق بمصنف فى تاريخ القدس أو جغرافيتها بل بضرب من الدعاية الصريحة إلى زيارة ذلك المركز الدينى حتى يفوز العبد بحسن المثوبة والمكافأة فى الدار الأخرى ؛ ولهذا السبب فإن الكتاب يحمل طابعًا شاعريًا لا يمكن إنكاره هذا إلى جانب فقرات معيّنة من تاريخ تغلب عليه الأسطورة[٩٢]، وإن كان لا يخلو من معطيات ذات قيمة من مجالى الجغرافيا التاريخية والآثار المختلفة . وهو يقع فى ثلاثة عشر فصلا[٩٣] تبدأ من لحظة بناء المسجد الأقصى ويتخلل العرض شواهد دينية فى فضل الحج إلى المسجد الأقصى والصلاة فيه وما فى الحج من بيت المقدس إلى مكة من مزايا وفى أهمية الزكاة فى بلد كبيت المقدس . وبعض فصول الكتاب تتناول الكلام على تفاصيل معينة من المسجد وبعض مواضع القداسة الأخرى بالمدينة ، أما الفصل الأخير فيعالج الكلام على فضائل الخليل (حبرون) التى ستنال كما سنرى اهتمامًا خاصًا بها ومفردًا لها . ومما لا شك فيه أن الكتاب لا يتمتع بأية أصالة فقد اعتمد المؤلف اعتمادًا أساسيًا على ابن عساكر وأبى المعالى[٩٤] ، بل هو نفسه لا يخفى ذلك إذ يصرح فى مقدمة الكتاب بأنه قد اعتمد قبل كل شيء على المؤلف الأول وأقل من ذلك على الثانى[٩٥] . وقد أصبح مصنفه بالتالى مصدرًا لعدد من المؤلفين الآخرين نخص بالذكر منهم السبكى[٩٦] .

ومن بين جميع الجغرافيين الذين تخصصوا فى المسألة الفلسطينية من منتصف القرن الرابع عشر

---

(٩٠) - Lemming, p. XXVII, E - Brockelmann, GAL, I, p. 330-331

(٩١) - De Guignes, Bourhaneddin, p. 605-609

(٩٢) شرحه ، ص ٦٠٥

(٩٣) عن محتوياته راجع : شرحه ص ٦٠٥ – ٦٠٨

(٩٤) - Mednikov, Palestina. Issled., p. 236, 237

(٩٥) - Steinschneider, p. 181

(٩٦) - Mednikov, Palestina. Issled., p. 237

إلى نهاية القرن الخامس عشر يسترعى النظر بشكل خاص ثلاثة هم المقدسى والسيوطى ومجير
504 الدين العليمى ، وهؤلاء الثلاثة بالذات هم الذين رأى / أن يوجه إليهم عناية خاصة فى مصنفه الكبير لنهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين المستشرق الروسى مدنيكوف N. A. Mednikov؛ ومما يؤكد صواب مدنيكوف فى هذا الاختيار أن واحداً من خيرة المتخصصين فى جغرافيا فلسطين وهو المستشرق الألمانى هارتمان R. Hartmann(٩٧) قد وصل إلى هذه النتيجة نفسها مستقلا عنه ؛ ونحن بدورنا لا نستطيع إلا أن نترسم خطاهما . غير أن هناك إلى جانب هؤلاء الثلاثة مؤلفون من الدرجة الثانية (dii minorum gentium) ، وهؤلاء بدورهم لا نستطيع إسقاطهم فى عرض عام كهذا يتوخى الشمول ولكننا سنقف عندهم بإيجاز شديد . ومما يزيد فى صعوبة دراسة هؤلاء المؤلفين أنه لم يطبع من بين مؤلفاتهم سوى مصنف مجير الدين وذلك فى طبعة لا ترضى مطالب النقد العلمى .

وأول هؤلاء الثلاثة يدعى أحمد بن محمد المقدّسى (توفى فى عام ٧٦٥ هـ = ١٣٦٤)(٩٨) ، ولقبه مختلف عليه ولكن مدنيكوف يفضل جمال الدين(٩٩) . وهو لم يكن فلسطينى الأصل فحسب بل إنه يسوق نسبه إلى صحابى جليل هو تميم الدارى(١٠٠) بطل واحدة من أغرب الرحلات الأسطورية فى الأدب الجغرافى العربى ، وقد حدث أن عالجنا الكلام عليه فى الفصل الأول من كتابنا هذا ؛ ولعل مؤلفنا اعتمد على ما تواتر لدى أسرته من أخبار تميم فوضع كتابًا بعنوان « إفحام الممارى بأخبار تميم الدارى »(١٠١) ، ويبدو من هذا العنوان أن المؤلف قصد بالكتاب إثبات حقيقة تلك الرحلة . وقد اشتغل المقدسى بالتدريس لمدة طويلة بالقدس ولكنه توفى بالقاهرة ، ويحمل مصنفه الذى أتمه فى عام ٧٥٢ هـ = ١٣٥١(١٠٢) عنوان « مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام » وهو معروف إلى الآن من مخطوطاته فقط ومن المقتطفات التى نشرها

---

(٩٧) - Hartmann, Halil, p. 8

(٩٨) - Brockelmann, GAL, II, p. 130-131, No 4; SBII, p. 162 - Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 180, No 425 - Mednikov, Palestina, Issled., p. 225-230 - Steinschneider, p. 168-169, No 1 - Koenig

(٩٩) - Mednikov, Palestina, Issled., p. 225

(١٠٠) - Koenig, p. 24

(١٠١) حاجى خليفة ، الجزء الأول ، ص ٣٧١ ، رقم ١٠٠٨ -Bassst, Temim. p. 6

(١٠٢) - Koenig, p. 23.

لى استرانج Le Strange[١٠٣] والتى اعتمد عليها مدنيكوف فى وضع ترجماته الروسية[١٠٤] ؛ ومما يؤسف له أن الدراسة المسهبة التى قام بها كنيغ König « لمثير الغرام » لم تر النور بأكملها . والكتاب ينقسم إلى قسمين الأول فى فضائل الشام وفلسطين عامة والثانى فى فضائل المسجد الأقصى خاصة وفى سير بعض الشخصيات التى ارتبط اسمها به . وتقدم ترجمات مدنيكوف فكرة واضحة عن القسم الثانى بإيرادها لقطع مهمة من الفصول الخامس والسادس والسابع ، ويتضح من مضمون الكتاب أن المقدسى قد سار على تقاليد المصنفات التى تجمع فى مجال واحد بين فلسطين والشام بحسب ما بينا هذا فيما سبق من كلامنا . والكتاب بالطبع ليس مصنفًا تاريخيًا جغرافيا / بالمعنى الذى يفهم عادة من هذا بل هو مصنف لرجل من رجال الدين كان هدفه 505
الأول كما بين كنيغ[١٠٥] هو الدعوة إلى الحج ، وهو فى هذا لا يختلف عن بقية المؤلفات التى نعالج الكلام عليها الآن بل يمثل حلقة فى سلسلة تطورها . وأهميته ضئيلة من ناحية المصادر التى اعتمد عليها لأنه يستقى مادته من مصادر ثانوية[١٠٦] هى مصنفات المؤلفين الذين مر بنا الكلام عليهم للتو ؛ وهو يرتبط ارتباطًا أوثق بابن عساكر الذى يعتبر مصدره الأساسى[١٠٧] ولكنه ينقل أيضًا بشكل ملحوظ من أبى المعالى المشرف[١٠٨] وأبى بكر الواسطى[١٠٩] . وبهذا القدر نفسه اعتمد عليه الأدباء التالون له فعرض السيوطى يتفق معه فى معظم الأحوال[١١٠] بينما ينقل مجير الدين تسعة أعشار مادته عن المقدسى بالحرف الواحد[١١١] . وقد نال المصنف بوجه عام بعض الرواج ، وله مختصر يرجع إلى نهاية القرن الرابع عشر ومعروف فى إحدى المخطوطات[١١٢] .

وابتداء من النصف الثانى للقرن الرابع عشر نبصر أن المسائل الفلسطينية لم تعد وقفًا على أهل الشام وحدهم أو أصحاب الجغرافيا والطبوغرافيا ، ويمكن أن نقدم مثالا لقولنا هذا الفقيه الكبير

---

(١٠٣) -LeStrange, JRAS, XIX, p. 258-305 - Mednikov, Palestina. Transl., p. 613

(١٠٤) -Mednikov, Palestina - Issled., p. 613-627

(١٠٥) -Koenig, p. 27

(١٠٦) شرحه ، ص ١٠ ، رقم ٩ Mednikov, Palestina - Issled., p. 225-229

(١٠٧) -Koenig, p. 13, No 19 - Mednikov, Palestina. Issled., p. 230, 235

(١٠٨) -Koenig, p. 15, No28; cf: Sauvaire, Hist. de Jéruslalem, p. 65

(١٠٩) -Koenig, p. 16-17, No32

(١١٠) شرحه ، ص ١٨ - ١٩ ؛ Mednikov, Palestina. Issled, p. 237. note

(١١١) -Koenig, p. 20

(١١٢) -Brockelmann, GAL, II, p. 131; SBII, p. 162

محمد بن بهادور التركى المصرى الزركشى (توفى فى عام ٧٩٤ هـ = ١٣٩٢)[١١٣] الذى يمكن الاستدلال على أصله وموطنه من اسمه هذا . وقد تلقى تعليمه بالقاهرة ودمشق وحلب ، ولعل إقامته بالشام هى التى أثارت فى نفسه الاهتمام بالمسائل المحلية ولكن يبدو أن فهمه لها كان قائمًا على إلمامٍ واسع . وإلى جانب مؤلفاته الفقهية العديدة له رسالة بعنوان « إعلام الساجد بأحكام المساجد » ؛ وهى معروفة فى عدد قليل من المخطوطات[١١٤] ولكن بما أن معاصره السبكى قد رجع إليه كثيرًا فى مصنفه عن فلسطين[١١٥] فمن الجلى أن القدس قد فازت بمكانة كبرى فى تلك الرسالة .

والسبكى هو تاج الدين عبد الوهاب من مواليد القاهرة ، ولكنه اشتغل بالتدريس بدمشق وبها
توفى فى عام ٧٧٦ هـ = ١٣٧٠[١١٦] . وقد نال كسابقه شهرة عريضة كفقيه مع ميل واضح إلى
التاريخ ، / انعكس فى مصنفه الكبير عن طبقات الشافعية . أما مؤلفه عن فلسطين فيمكن 506
تحديد موضوعه من العنوان وهو « الروض المغرس فى فضائل البيت المقدّس » ؛ ولا علم لنا بوجود
أية مخطوطات له ، كما أن حاجى خليفة يشير إليه إشارة عابرة فى كلامه عن « الاتحاف »
(لشمس الدين السيوطى)[١١٧] . بيد أن العدد الهائل من الاقتباسات المنقولة عنه فى أدب
« فلسطين » يسمح لنا دون تردد بتحديد موضعه فى سلسلة المؤلفات التى نعالج الكلام عليها فى
هذه اللحظة . أما مصادره فأوسع إذ نلتقى لديه من بين المؤلفين الذين مر ذكرهم بابن الجوزى
وابن عساكر وأمين الدين والفزارى والزركشى[١١٨] ؛ كما كان بدوره مصدرًا من مصادر
« الاتحاف »[١١٩] المار ذكره ومنه وجد طريقه بالطبع إلى مجير الدين وغيره من المؤلفين . وهكذا
فبالرغم من أن الكتاب غير معروف لنا معرفة مباشرة إلا أنه لعب دون شك دوره فى هذا الأدب
المختص « بفلسطين » ويجب أن يحتل مكانه فى هذه السلسلة من المصنفات .

---

(١١٣) شرحه ، ص ٩١ – ٩٢ ، رقم ١٨ ؛ SBII, p, 108

(١١٤) شرحه ، ص ٩٢ ، رقم ٧

(١١٥) - Mednikov, Palestina. Issled., p. 237

(١١٦) - Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 182, No 431 - Brockelmann. GAL, II, p. 89-90, No 14; SBII, p. 105-107 - Mednikov, Palestina. Issled., p. 236, 237,239.

(١١٧) حاجى خليفة ، الجزء الثالث ، ص ٤٩١ ، رقم ٦٥٩٩ .

(١١٨) - Mednikov, Paléstina. Issled., p. 236-237.

(١١٩) شرحه ، ص ٢٣٧

وهذا الحكم نفسه يصدق على المؤلفين التاليين له من الناحية الزمنية رغما من أن مخطوطات مصنفاتهم فى متناول الأيدى. وكان أحدهما مصريًا أيضًا وهو شهاب الدين أحمد بن محمد الأقفهسى المصرى (توفى فى عام ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥) واشتهر كذلك بمؤلفاته الفقهية كالزركشى وإن لم تبلغ شهرته شهرة الأخير . ومؤلفه عن فلسطين ذو طابع عام على ما يبدو ويحمل عنوان « تسهيل المقاصد لزوار المساجد » وقد أتمه فى عام ٧٨٦ هـ = ١٣٨٤ وتقابل مخطوطاته فى الشرق بين آن وآخر ولكنها نادرة بأوروبا[١٢٠] ؛ وهو معروف لنا بشكل خاص بوصفه مصدرًا
507 من مصادر / « الإتحاف » التى يذكرها السيوطى فى مقدمة كتابه[١٢١] وهذا يجعلنا نفترض أن فلسطين قد احتلت أهمية خاصة لديه . أما المؤلف الثانى فكان أيضًا من بين المتخصصين فى المسائل الفلسطينية وعاون على ذلك مكان إقامته ، فإسحاق بن إبراهيم التدمرى الخطيب الخليلى (توفى فى عام ٨٣٣ هـ = ١٤٢٩)[١٢٢] أصله من تدمر كما تشير نسبته ولكنه عمل خطيبًا بمسجد الخليل وهى حبرون القديمة التى اشتهرت بين المسلمين بمقام إبراهيم الخليل . ويحمل مصنفه العنوان التقليدى « مثير الغرام فى زيارة الخليل عليه السلام » ، وفيه يتحدث المؤلف عن هذا المقام المعروف له جيدًا والذى كان على ما يبدو موضوعًا لخطبه ومواعظه بالمسجد . ومن الجلى أن الكتاب ينتمى إلى طراز أدب الدعاية القائم على أساس تاريخى جغرافى مع قدر معين من التخصص ؛ ولا شك أن مكانة حبرون الخليل لدى المسلمين تبرّر بوضوح تام السبب فى احتلالها مركزها إلى جانب بيت المقدس . وهذا الأثر الذى تم تأليفه فى عام ٨١٤ هـ = ١٤١١ قد تمتع بشهرة كافية فى أوساط المتخصصين فى الشئون الفلسطينية ، إذ أمكن القول بهذا ؛ فقد ذكره السيوطى بين مصادره[١٢٣] كما عرفت مخطوطات له تضم زيادات إلى القرن السابع عشر[١٢٤] ؛ أما فى أوروبا فإن مخطوطاته نادرة للغاية ولهذا السبب فإن استعمال العلماء الأوروبيين له قد اقتصر على الشذور المتفرقة التى نقلها منه المؤلفون التالون له .

واثنان من بين هؤلاء الأخيرين اللذين ارتأينا أن نختتم بهما هذه السلسلة قرب نهاية القرن

---

(١٢٠) - Brockelmann, GAL, II, p. 93-94, NO 22; SBII, p. 110-111

(١٢١) - Mednikov, Palestina. Issled., p. 237.

(١٢٢) - Brockelmann, GAL, II, p. 131, No 7; SBII, p. 162.

(١٢٣) - Mednikov, Palestina. Issled., p. 237

(١٢٤) - Brockelmann, GAL, SBII, p. 162

الخامس عشر كانا أغزر مادة من غيرهما وأوسع ذكرًا فى الأدب الأوروبى عن فلسطين ؛ وقد التقينا مرارًا بمصنف أحدهما فى الصفحات السابقة لهذه لما له من فضل فى حفظ معلومات ذات أهمية نقلها عن كتب لم تصل إلينا وعنوانه الكامل هو « إتحاف الأخصّا بفضائل المسجد الأقصى » ؛ وعلى وضوح العنوان ودلالته ووجود عدد من مخطوطات الكتاب إحداها بمعهد الدراسات الشرقية لدينا (رقم B 1037)(١٢٥) فقد ثار جدل كبير حول شخص مؤلفه(١٢٦) . فقد نسب الكتاب أحيانًا ، كما لدى حاجى خليفة وفى بعض المخطوطات ، إلى كمال الدين محمد بن أبى شريف
508 (توفى فى عام ٩٠٦ هـ = ١٥٠٠) ، وأحيانًا أخرى ، / وذلك بسبب اختلاط الأسماء إلى العلّامة الكبير جلال الدين السيوطى . غير أنه اعتمادًا على أقدم مخطوطاته المؤرخة فإن هناك أساسًا قويًا لنسبة الكتاب إلى شمس الدين محمد بن أحمد السيوطى ؛ وقد مال إلى هذا الرأى مدنيكوف ويمكن القول بأنه ثبت نهائيًا فى الآونة الأخيرة(١٢٧) . ولا نعلم عن سيرة حياته إلا ما يمكن استجلاؤه من صفحات كتابه ، أما نسبته فتشير إلى أنه من مصر التى أمضى فيها سنى شبابه يحلم بالضرب فى الآفاق ؛ وكانت أسهل وسيلة فى ذلك الزمان لتحقيق هذا الهدف هى أداء فريضة الحج ففى عام ٨٤٨ هـ = ١٤٤٤ نراه بمكة حيث أمضى تسعة أعوام رجع بعدها إلى مصر . وقد اضطر مرارًا إلى تأجيل حجته إلى فلسطين التى كانت تشوقه بصورة خاصة ، وأخيرًا فى عام ٨٧٤ هـ = ١٤٦٩ تمكن من السفر إلى بيت المقدس وما كاد يجد نفسه بها حتى بدأ مباشرة فى تدوين مؤلفه الذى فرغ منه فى عام ٨٧٥ هـ - ١٤٧٠ . ويمكن إرجاع الاختلاف الواضح بين مخطوطات كتابه إلى أن المؤلف قد أجرى قلمه فيه بالتعديل حوالى عام ٨٨٠ هـ = ١٤٧٦ فكان ذلك بمثابة إخراج طبعة ثانية للكتاب إذا جاز هذا التعبير الحديث . وهو وإن كان فى جوهره تاريخًا ووصفًا لمسجد القدس كما يوكد ذلك عنوانه إلا أن فصوله الثمانية أبعد من أن تقتصر على ذلك الموضوع الضيق وحده(١٢٨) ؛ وكما هو الحال مع غيره فإن به فصولًا فى الدعاية

---

(١٢٥) - Rosen, Coll. scient., III, p. 21-22, No 42

(١٢٦) - Wüsténfeld, Geschichtschreiber, p. 224 - Steinschneider, p. 170-173,180
- Koenig; p. 18, note 1 - Mednikov, Palestina. Transl., p. 1194-1195

(١٢٧) - Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 223-224, No 496 - Brockelmann, GAL, II, p. 132-133, No 13; SBII, p. 163-164 - Koenig, p. 29-30 - Mednikov, Palestina. Issled., p. 283-290; Transl. p. 1194-1216 - Steinschneider. p. 169-176, No 2.

(١٢٨) المحتويات لدى : De Guignes, Bourhaneddin, p. 611-614

الصرفة تدعو إلى زيارة فلسطين وإلى إنفاق الصدقات فى المواضع المقدسة بها ، كما أن به أقسامًا مخصصة للقصص الإسلامية المرتبطة ببيت المقدس كالإسراء والمعراج . وهو يتحدث بإسهاب عن الرسل المختلفين أو مشاهير الرجال الذين أقاموا بفلسطين ، كما وأنه يولى عناية خاصة لتاريخ إبراهيم الخليل وإقامته ببلاد العرب مع ابنه إسماعيل ، ولا شك أن معرفته بالحجاز قد أعانته على اختيار مادته لهذا الموضوع . أما أنبياء التوراة (العهد القديم) فيعرض تاريخهم عن طريق توضيح الأسطورة من الناحية الجغرافية ومن ثم فإنه يفرد أقسامًا مسهبة للكلام على حبرون وقبر موسى ومسجد دمشق كما لايهمل الكلام عن آثار ومواضع الشام المشهورة فى الفصل الثانى عشر والأخير من كتابه . من هذا يتضح لنا أنه حتى فى مصنف مثل هذا ترتبط فلسطين ارتباطًا وثيقًا بالشام خلال جميع صفحات هذا الأدب الجغرافى الذى يفيض بالدعاية .

ومما يكتسب أهمية خاصة بالنسبة لنا من وجهة نظر التأليف التاريخى (historiography) هو أن المؤلف قد أعطى فى المقدمة تحليلا عامًا لمصادره وعرضًا سريعًا لكل الأدب « الفلسطينى » السابق له ؛ وقد حدث وأن أفدنا من عرضه هذا مرارًا فى تدوين هذا الفصل ، كما وأن لمنغ نقل لعهده معلومات من هذه المقدمة / صححها بالتالى مدنيكوف بعناية تامة[١٢٩] . 509
ويتضح من ألفاظ السيوطى نفسه أن المصادر الرئيسية « للإتحاف » هم المؤلفون الخمسة المعروفون لنا بمؤلفاتهم ، أعنى الربعى والمقدّسى بكتابه « مثير الغرام » والسبكى والأقفهسى والتدمرى . غير أن الفحص الدقيق لمصنفه قد أحدث تعديلا أساسيًا فى ألفاظه هذه إذ اتضح أن مصدره الرئيسى كان المقدسى قبل غيره ؛ وقد استطاع كنيغ عند مقابلته للفصل العاشر من « الإتحاف » الذى نشره لمنغ مع متن « مثير الغرام » أن يثبت أنه من بين الصفحات الاحدى والأربعين تتفق سبع عشرة صفحة اتفاقاً حرفياً[١٣٠] . وإلى هذه النتيجة نفسها بالتقريب ساقته أيضًا مقابلته مع الترجمة القديمة من عمل رينولدز Reynolds[١٣١] ؛ وإذا حدث وأن امتنع عن إصدار حكم نهائى فى هذا الصدد بسبب رداءة تلك الترجمة فإن بحوث مدنيكوف[١٣٢] قد ساقت إلى نتائج ليست أقل إدهاشًا من تلك ، فقد اتضح أن جميع القطع

---

(١٢٩) - Mednikov, Palestina. Issled, p. 236-237, note 4

(١٣٠) - Koenig, p. 18-19

(١٣١) شرحه ، ص ١٩

(١٣٢) - Mednikov, Palestina. Issled. p. 283,286,288

التى ترجمها مدنيكوف من « الإتحاف » قد نقلت حرفيًا من « مثير الغرام » . وليس من السهل بالطبع القول بأن هذا كله كان من قبيل المصادفة أو وقوع الحافر على الحافر ، ومن ثم فيجب الاعتراف بأنه فى حالات التطابق بين الاثنين فإن السيوطى لم يفعل شيئًا سوى أن قدم لنا نسخة ثانية من كتاب المقدّسى . وكما لاحظنا غير مرة فإن مثل هذه الظاهرة تتكرر كثيراً فى سلسلة هذا الأدب عن فلسطين وهى من بعض النواحى لا تخلو من الفائدة لأنها تقدم فرصة طيبة لتصحيح أصول المؤلفات الكبرى عندما يكون متنها فى حال غير جيدة . ومصنف السيوطى رغماً من أنه لا يزال فى المخطوطات إلا أنه معروف لنا بصورة مرضية عن طريق الدراسات القديمة العهد التى قام بها دى غين De Guignes (١٧٩٠) ولمنغ Lemming (١٨١٧) ورينولدز Reynolds (١٨٦٣). ثم الأجد منها التى قام بها لى استرانج Le Strange (١٨٨٧) وكنيغ König ومدنيكوف Mednikov. أما المؤلف الوحيد الموجود مصنفه فى طبعة شرقية وإن كانت ترتفع فى الواقع إلى عهد قديم (١٢٨٣ هـ = ١٨٦٦) فهو آخر مؤلف عرفته هذه السلسلة، أعنى بذلك مجير الدين عبد الرحمن بن أحمد العُلَيْمى العمرى (توفى فى عام ٩٢٨ هـ = ١٥٢٢)[١٣٣] الذى يحمل مصنفه عنوان « كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » .

وكما حدث مرارًا فى تاريخ الأدب العربى فقد زحمت الآثار المتأخرة الآثار المتقدمة عليها وطردتها ووصلت إلى متناول الأيدى قبلها ، وهذا القول نفسه يصدق على مصنف العليمى ، غير أنه مما أعان على ذلك فى هذه الحالة الأخيرة هو أن المصنف الذى نحن بصدده يعتبر أوسع وأحفل وصف تاريخى طوبوغرافى يعالج الكلام على القدس وحبرون وبقية مدن فلسطين . وهو من حيث
510 طابعه النقلى لا يختلف كثيرًا عن المصنفات السابقة ، / أما مؤلفه العليمى فأصله من القدس ، ولكنه تلقى تعليمه بالقاهرة ثم تولى منصب القضاء بمدن فلسطين المختلفة . وقد بدأ تأليف كتابه فى عام ٩٠١ هـ = ١٤٩٦ وأتمه فى خلال أربعة أشهر بالتقريب وذلك فى العام نفسه ؛ ومثل هذه السرعة فى تصنيف مؤلف كبير الحجم كهذا تدعو إلى الوقوف موقف التحرز من المنهج الذى اتبعه فى التأليف ؛ وهو قد اهتم فيما بعد باكمال القسم التاريخى فساقه إلى عام ٩١٤ هـ =

---

(١٣٣) - Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 235, No 512 - Brockelmann, GAL, II, p. 43, No 43;
- SBII, p. 41-42 - Steinschneider, p. 177-181, No 3
- Mednikov, Palestina. Issled., p. 239, 290-291; Transl., p. 1217-1304
- Brockelmann, Al- Olaimi, p. 1052-1053 - Buhl, Al- Kuds, p. 1182.

١٥٠٨[١٣٤] . والكتاب بوصفه مصنفًا نموذجيًا فى هذه السلسلة يمكن تقسيمه إلى أربعة أقسام : الأول منها فى وصف القدس ، والثانى فى وصف المسجد الأقصى والكلام على مدارس وأديرة فلسطين ومدنها ، والثالث يحوى تراجم السلاطين والعلماء بحسب المذاهب الأربعة ومشاهير القضاة والوعاظ والفقهاء ، أما القسم الرابع فيعالج الكلام على تاريخ الولاة ويختتمه بتاريخ سلطنة قايتباى . ومن هذا يتضح لنا أن الكتاب لا يخلو من بعض المزج من حيث موضوعه فهو فى جوهره يرتبط بالجغرافيا الدينية وذلك على طراز الكتب التى تدعو إلى الحج ولكنه من ناحية أخرى يفسح المجال لتاريخ الشعوب على أساس معالجة سير مشاهير رجالها ؛ أما هيكله العام فيعتمد قبل كل شيء على ما نقله من مؤلفين اثنين هما المقدسى صاحب « مثير الغرام » والسيوطى صاحب « إتحاف الاخصّاء » . ويلعب الدور الرئيسى بالنسبة له المؤلف الأول حيث تبلغ نقوله عنه فى بعض المواضع إلى ما يمثل تسعة أعشار المتن الأصلى[١٣٥]

ونظراً لوجوده فى عدد هائل من المخطوطات ولأنه من المؤلفات القليلة المطبوعة فقد اجتذب هذا الكتاب أنظار المستشرقين، وهناك مخطوطتان له بمعهد الدراسات الشرقية السوفيتى[١٣٦] . وهو معروف فى أوساط المستشرقين منذ منتصف القرن الثامن عشر، وقد قدم هامر Hammer مقتطفات منه منذ بداية القرن التاسع عشر لا تتميز كما هو الحال دائمًا مع أعمال هذا المستشرق بأية قيمة ذات بال وإن كنا لا نستطيع أن نغمطه حقه فى الأسبقية . ومجير الدين هو المؤلف الوحيد من بين جميع حلقات هذه السلسلة الفلسطينية الموجود كتابه ولو بصورة مختصرة فى ترجمة أوروبية كاملة (١٨٧٦) ندين بها العالم النُّميّات (numismatics) والمؤرخ المشهور سوفير Sauvaire الذى أثبت فى غضون عشرة أعوام من ذلك أنه خبير كبير بالأدب الطوبوغرافى (الخطط) لمدينة دمشق وذلك فى مؤلف آخر له اعتمد فيه كثيرًا على معرفته بالأدب الفلسطينى .

وتقدم فكرة جلية عن جميع هذه السلسلة فى أشخاص ممثليها الثلاثة الكبار تلك المقتطفات التى نقلها إلى الروسية وعلق عليها مدنيكوف . ومما لا شك فيه أن هذه السلسلة من المؤلفات لا

---

(١٣٤) - Brockelmann, Al - Olaimi, p. 1052

(١٣٥) - Koenig, p. 20 - Mednikov, Palestina. Transl., p. 1217 - Hartmann, Halil. p. 15

(١٣٦) - Rosen, Notices sommaires, p. 124, No 180

تمثل حدثًا مرموقًا أو جديدًا من وجهة نظر التطور العام للأدب الجغرافى العربى ولكنها تعتبر من وجهة نظر التاريخ الحضارى شيئًا طريفًا خاصة على ضوء ظروف الحروب الصليبية ؛ وهى تمثل فى
511 ضخامة عددها / واتساع مداها شيئًا متفردًا ترك طابعه الخاص على الأدب الجغرافى لهذه البلاد إلى الفتح العثمانى . وسنبصر فيما بعد تأثير جوانب معينة من هذا الأدب على أدب العصور التالية لذلك .

هذا وقد استمرت الجغرافيا الإقليمية عائشة بالطبع فى الأقطار الأخرى ولكنها حملت فى كل مكان طابعًا فقيرًا شاحبًا عند مقارنة ذلك بما كان عليه الحال مع الشام وفلسطين . ومن الطريف فى هذه المناسبة أن نذكر أن المعجمى المعروف الفيروزابادى (توفى عام ٨١٧ هـ = ١٤١٤)، الذى ينتمى أصلا إلى شيراز ولكن ضرب فى الآفاق حتى توفى بزبيد فى اليمن[١٣٧] ، قد ترك رسالتين معروفتين من عنوانهما فقط هما « أحاسن اللطائف فى محاسن الطائف »[١٣٨] و « الوصل والمنى فى فضل منى »[١٣٩] ينتميان دون شك إلى النمط المعروف لنا جيدا وهو نمط « الفضائل »، وإن كان من الممكن أن اهتمام المؤلف بالمسائل اللغوية قد ترك طابعه عليهما وأن وجود رباط بينهما وبين نمط المعاجم الجغرافية غير مستبعد . وسيبدو لنا هذا بوضوح كبير عند الكلام على « تاج العروس » وهو شرح لقاموس الفيروزابادى يرجع إلى القرن الثامن عشر .

ولم تقدم الأقطار الواقعة إلى الشرق من الشام وفلسطين أية مصنفات ذات قيمة فى مجال الجغرافيا باللغة العربية على مدى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وثمة مسودة معدلة لجغرافيا
512 القزوينى / ترجع إلى تاريخ متأخر ويمكن ربطها بمدينة باكو النائية ، هذا فى حالة إذا ما وجدت أسس قويمة تبرر ذلك بما فيه الكفاية بخلاف اسم المؤلف الذى لا يمكن القول بأن قراءته قد ثبتت بصورة يقينية . ففى حوالى عام ٨٠٦ هـ = ١٤٠٣ وضع عبد الرشيد بن صالح بن نورى الباكوى مصنفه « تلخيص الآثار وعجايب الملك القهار »[١٤٠] . ويبدو أنه يختبىء وراء هذا العنوان

---

(١٣٧) Brockelmann, GAL, II, p. 181-182; SBII, p. 234-236 - Brockelmann, EI, II, p. 119-120 -

(١٣٨) حاجى خليفة ، الجزء الأول ، ص ١٦٣ ، رقم ١١٣
= Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 203, No 8

(١٣٩) حاجى خليفة ، الجزء الثانى ، ص ١٥٢ ، رقم ٢٣١٧ = الجزء الرابع ، ص ٤٤٦، رقم ١٤٢٧٢
= Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 203, No 9

(١٤٠) - Wüstenfeld, Erdbeschreibung, p. 36 (59), No 109 - Brockelmann, GAL. I, p. 481, No 12, a: II, p. 213; SBI, p. 883, a - Reinaud, Introduction, p. CLXI - CLXII - Streck, Al- Kazwini, p. 903 - Ferrand, Relations, II, p. 462-465 - Amari (- Nallino), I, p. 61-62, No 28

إشارة خفية إلى مصدره الأساسى « آثار البلاد » للقزوينى . ولا نعلم عن المؤلف شيئًا وإن كانت نسبته تشير إلى أنه هو أو أسرته على علاقة بمدينة باكو ؛ وكان فرين[١٤١] قد لفت الأنظار إلى أن إحدى مخطوطات مصنف حاجى خليفة تحدد بأنه توفى بالقاهرة ولكن لمّا كان تاريخ الوفاة الذى تورده وهو عام ١٠١٢ هـ = ١٦٠٣ غريبًا للغاية فإن هذا يحول دون إعطاء الرواية بأجمعها أى وزن . هذا وقد احتفظ الباكوى بمنهج القزوينى فى توزيع المواضع الجغرافية بحسب الأقاليم ثم توزيعها داخل كل إقليم وفقًا لحروف المعجم ؛ أما مادته فمستقاة بأجمعها تقريبًا من القزوينى وهو يخالفه فقط فى إيراده لخطوط الطول والعرض وإن فعل هذا دون انتظام واتبع المذهب القديم فى ابتداء حسابه من جزر الكنارى[١٤٢] . وفى مقدمته القصيرة يعرض المؤلف المادة الجغرافية العامة بالطريقة التى عهدناها من قبل فيتكلم عن شكل الأرض والأقاليم السبعة وتوزيع المحاصيل فى عالم الطبيعة[١٤٣] . وفى حوالى عام ١٧٩٠ قدم لنا دى غين **De Guignes** ترجمة موجزة لجميع محتويات الكتاب معتمدًا فى ذلك على المخطوطة الباريسية ، هذا بالرغم من أنه لم يكن آنذاك فى وضع يسمح له بالتعرف على المؤلف . وليس بمقدورنا الآن أن نوافق على تقديره المبالغ للكتاب والذى يمكن تفسيره بعدم معرفة علماء ذلك العهد معرفة كافية بالمصنفات الجغرافية الأخرى للعلماء العرب ؛ مثال ذلك أنه يزعم أن الباكوى يقدم تفاصيل كثيرة عن محصولات البلاد المختلفة وعن سلع التجارة وعن المعادن مما لا يوجد فى مصنفات أخرى[١٤٤] . وعلى أية حال فإن دى غين لم يتنكب الصواب حينما ذكر أن أهمية المصنف هى فى أنه يعطى فكرة عامة عن مدى المعلومات الجغرافية التى كانت تحت تصرف الطبقة الوسطى من القراء فى ذلك العهد[١٤٥] . وفى بحثه عن ابن فضلان الذى رجع فيه مرارًا إلى الباكوى بيّن فرين أنه يمكن استخراج بعض الفائدة من مصنفه حتى وإن اضطر القارىء إلى الرجوع إلى ترجمة غير مرضية كالتى يقدمها دى غين والتى تستلزم بعض الحذر عند استعمالها[١٤٦] . وقد أثبتت الدراسات التى قام بها ياكوب

---

(١٤١) توجد الملاحظات التى دونها فرين على هامش مقال دى غين (De Guignes, Notices et Extraits, II) فى نسخة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية .

(١٤٢) De Guignes, Notices et Extraits, II, p. 388 -

(١٤٣) شرحه ، ص ٢٩١

(١٤٤) شرحه ، ص ١٨٦

(١٤٥) شرحه ، ص ٣٩١

(١٤٦) راجع فهرس Frähn, Ibn-Foszlan, p. 269:

513 Jacob فيما بعد/ أن هناك تفاصيل ذات قيمة لدى الباكوى حتى مع وجود متن القزوينى، بل إنه يمكّن من تصحيح بعض القراءات المغلوطة فى مخطوطات الأخير أو التيقن من صحة المشكوك فيها(١٤٧) . ورغمًا من هذا فيجب الاعتراف بأن كتابه ليس سوى حلقة فى سلسلة مختصرى القزوينى ولا يمكن له فى الوقت الحاضر أن يدّعى لنفسه أهمية مستقلة ؛ وهو بلا شك قد نال بعض الرواج فى الشرق بل ومن الملاحظ أن عدد مخطوطات ترجمته الفارسية(١٤٨) لا يقل عن عدد مخطوطات الأصل العربى المعروفة لنا .

وجدير بنا ونحن بسبيل وضع خاتمة لهذا الفصل أن نلفت النظر ، كما حدث وأن فعلنا مع بقية الفصول ، إلى أنه توجد إلى جانب ما تورده لنا المصنفات الجغرافية مادة جغرافية متناثرة لدى المؤرخين ؛ ولعلنا لن نتنكب الصواب لو اختصصنا بالذكر من بين هؤلاء أحد أبناء دمشق وهو ابن عربشاه المشهور (توفى فى عام ٨٥٤ هـ = ١٤٥٠) صاحب سيرة تيمور . فهو فى اقتفائه المتواصل لأثر حياة بطله يسوق مادة ليست بالضئيلة عن مختلف الشعوب والبلدان ؛ ومما يجعل مادته ذات أهمية بالنسبة لنا أنها تمس بلاداً وشعوباً تدخل الآن ضمن الاتحاد السوفيتى . ومادة ابن عربشاه تعتمد فى معظم الأحوال على انطباعاته الشخصية كشاهد عيان وتتمتع بقيمة كبرى كما اتضح من البحوث ؛ ولا شك أن أسلوبه المنمق المتكلف هو المسئول الأول على ما يبدو عن عدم وجود ترجمة جديرة به . ويجب بالطبع ألا يغيب عن الذهن أن ابن عربشاه مؤرخ أديب وليس بجغرافى ؛ هذا وسيتبين لنا بعد برهة أن عددًا من أهم المصنفات الجغرافية للقرن الخامس عشر لم يحفظها لنا الأدب العربى بقدر ما حفظها لنا الأدب الفارسى .

---

(١٤٧) - Jacob, Studien, II, p. 43-44

(١٤٨) - Brockelmann, GAL, SB, I, p. 883, a.

الفصل التاسع عشر
الأدب الجغرافى الفارسى من القرن الخامس عشر إلى الآونة الحاضرة

514 سبق أن بينا مرارًا أن المصنفات الجغرافية التى كتبت باللغة الفارسية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالخطوط الرئيسية لتطور الأدب الجغرافى العربى بل وتسير فى نفس اتجاه ذلك الأدب وتتم مهمته ، فهى تارة تحفظ لنا موادًا لم تصلنا فى أصولها العربية وطورًا تكوّن فى ذاتها مصدرًا لآثار مدونة باللغة العربية . وبعد الغزو المغولى بدأ خط تطور الأدب الجغرافى الفارسى يسير فى اتجاه مستقل تمامًا فلم يكد القرن الخامس عشر يشارف الانتهاء حتى انتهت به سلسلة الآثار التى كانت تمثل لأسباب عديدة أهمية خاصة بالنسبة لنا . وبالطبع فإن تطور هذا الأدب لم يتوقف عقب ذلك ، غير أن تتبعه فى جميع خطوات تطوره كما حدث أن فعلنا مع الأدب العربى لا يخدم أى غرض لأن هذا الأمر يحتاج إلى بحوث خاصة يجب أن تخرج من أوساط المشتغلين بالدراسات الإيرانية. لذا فإنه فيما يخص العصور التالية وذلك ابتداء من القرن السادس عشر فسنكتفى بالإشارة العابرة إلى نماذج أدبية معينة ، لا لأنها تمثل أهمية خاصة فى حد ذاتها بل لمشابهتها لظواهر مماثلة نلتقى بها فى تلك اللحظات نفسها فى الأدب العربى.

وقد ظل المذهب العربى فى الجغرافيا متمتعًا بكامل قوته فى القرن الخامس عشر نفسه ويبدو هذا بجلاء من تأثيره على مصنف المؤرخ النابه حافظ آبرو[1] ؛ واسمه كما أورده بارتولد[2] هو شهاب الدين عبد الله بن لطف الله الخوافى . ولد حافظ آبرو بهرات وتعلم بهمدان وتوفى بزنجان عام ٨٣٣ هـ = ١٤٣٠ ، وكان من رجال البلاط منذ عهد تيمور واكتسب بعض الشهرة أيضًا
كلاعب للشطرنج ؛ وقد جعل منه حفيد تيمور شاهرخ الذى أخذه فى معيته خلال حملاته / 515

---

(١) - Bartold, Khafizi Abru, p. 1 - 28 - Bartold, ZVO, XVIII, p. 0138 - 0144
Bartold, Turkestan, p. 56 - 57 (= Barthold, Turkestan, p. 55 - 56)
Barthold, Hafizi Abru, p. 225 - 226 - Bartold, Iran, p. 81 - 83
Krymski, Istoria Persii, III, 1, p. 55 - 60 (Geography - P. 56, note 1)
- Romaskevich, MITT, I, p. 56 - 57 - Volin, Orda, II, p. 104 - 105
- Browne, Literary History, III, p. 424 - 426

(٢) - Barthold, Hafizi Abru, p. 225 (cf. Bartold, Khafizi Abru, p. 2, note 1;
Krymski, Istoria Persii, III, 1, p. 55.)

العسكرية[٣] بمثابة مؤرخ رسمى لدولته وكلفه بمهام علمية مختلفة ، وإحدى هذه المهام ارتبطت بوضع مصنف جغرافى[٤] لا علم لنا بعنوانه ولكنه يمثل أهمية خاصة بالنسبة لنا .

ففى عام ٨١٧ هـ = ١٤١٤ حُمل إلى شاهرخ كتاب فى الجغرافيا باللغة العربية لم يبيّن اسمه بتفصيل كاف فكلف حافظ آبرو بنقله إلى الفارسية وإتمامه من المصادر الأخرى المعروفة له . وقد سار العمل ببطء ملحوظ فى البداية إلى أن اتخذ الكتاب صورته النهائية فى قسمين ؛ ويمكن أن نحكم على هذا من التواريخ الدقيقة الواردة فى آخر الاقسام فمنها يتبين لنا أن المقدمة قد فرغ منها فى عام ٨٢٠ هـ = ١٤١٧ والقسم الأول فى عام ٨٢٢ هـ = ١٤١٩ هذا فى حين انتهى القسم الثانى فى عام ٨٢٣ هـ = ١٤٢٠ . ومن المحتمل أن المؤلف لم يتمه لانشغاله بتآليف أخرى فقد كلفه شاهرخ منذ عام ٨٢٠ هـ = ١٤١٧ بمهمة وضع مصنف تاريخى مفصل وصلنا قسم كبير منه ، وأغلب الظن أنه هو أيضًا لم يتم . ولعل العمل فى مصنفين فى وقت واحد هو السبب فى أن مقدمة كتابه فى التاريخ بل وعناوين الكتاب نفسها قد وجدت سبيلها إلى مخطوطات مصنفه الجغرافى[٥] .

وليس هناك ما يشير إلى الأثر الجغرافى الذى اعتمد عليه حافظ آبرو بالذات فى وضع مصنفه الجغرافى ، غير أنه لا يحوم شك فى أنه كان من آثار المدرسة الكلاسيكية فى الجغرافيا من طراز البلخى - الاصطخرى . ومما يوكد هذا طريقة ترتيب البلاد لديه التى تذكرنا بما سار عليه جغرافيو القرن العاشر ، فهو يبدأ كلامه ببلاد العرب فالمحيط الهندى فافريقيا فالأندلس ، ويلى هذا جزر البحر المتوسط فمصر فالشام فالشرق الأدنى وإيران ؛ ويسير الترتيب من الغرب إلى الشرق[٦] ؛ كما تبدو واضحة لنا بما فيه الكفاية المصادر الإضافية التى نقل عنها والتى يشير إلى بعضها فى خلال العرض . ويمكن أن نتبين لديه فكرة واضحة ليقدم مصنفًا تركيبيًا ، واهتمامًا بالتقاليد الجغرافية السائدة فى الأدبين العربى والفارسى سواء بسواء ، ومن الطريف أن نلاحظ أن حافظ آبرو عرف الجغرافيين العرب المغاربة مثل الإدريسى[٧] وابن سعيد[٨] . وهو قد حفظ لنا شذرات من

(٣) - Barthold, Hafizi Abru, p. 225

(٤) - Bartold, Iran, p. 82

(٥) - Bartold, Khafizi Abru, p. 3, 24 - Bartold, ZVO, XVIII, p. 0138

(٦) - Bartold, Iran, p. 82

(٧) - Miller, V, p. 112

(٨) - Bartold, Khafizi Abru, p. 3

مؤلف مفقود يرجع إلى العصر الفاطمى هو « الكتاب العزيزى » للملهبى[٩] . أما من بين المؤلفين الفرس فيرد لديه بانتظام محمد نجيب بكران ومحمد بن يحيى فى كتابه « صور الأقاليم »[١٠] . ويرى كريمسكى Krymski أن حافظ آبرو قد ألف كتابه على غرار حمد الله قزوينى[١١] ، غير أن هذا الرأى محصور للغاية وإن كان اعتماد حافظ آبرو على قزوينى إلى جانب اعتماده على المصادر الفارسية الأخرى أمر ليس فى الوسع إنكاره[١٢] ؛ وهو يقترب كثيرًا فى بعض
أقسامه / من رشيد الدين[١٣] . من كل هذا يبدو لنا أن محيط مصادره واسع ومتين ، وهو إن دل 516
على شىء فإنما يدل على أن تأثير الأدب الجغرافى العربى لم يقتصر على الغرب والعلم الأوروبى وحدهما بل ضرب أيضاً فى الأقطار الإسلامية الواقعة إلى الشرق.

أما من حيث مضمونه فإن مصنف حافظ آبرو يعتبر مكمّلا لتقاليد الأوصاف العامة فى الجغرافيا المعروفة لنا جيدًا ؛ ففى البداية مقدمة ذات طابع كوزموغرافى تحوى التفاصيل المعهودة فى شكل الأرض والأقاليم والبحار والبحيرات والأنهار والجبال ، ويلى هذا القسم الأول الذى يعالج فيه وصف الأقطار المختلفة من الغرب إلى الشرق مبتدئًا من بلاد المغرب ومنتهيًا بمقاطعة كرمان بإيران ، هذا بينما يحتوى الفصلان الأخيران المفردان لفارس وكرمان على إضافات تاريخية تصل إلى عصر المؤلف . أما القسم الثانى فكان من المفروض أن يشمل وصفًا أكثر تفصيلا لخراسان ولبلاد ما وراء النهر ولكن لم يتم الكشف عنه بتمامه[١٤] ؛ وينتهى العرض فى أكثر مخطوطات الكتاب عند عام ٨٢٣ هـ= ١٤٢٠ بخراسان ، وفى مخطوطة اكسفورد يلى هذا وصف لبلاد ما وراء النهر ووعد من المؤلف بأنه سيقدم عرضًا موجزًا لتاريخها . ولكن غير معروف لنا أقام فعلا بكتابة هذا القسم التاريخى أم لم يفعل[١٥] .

ورغمًا من أن مصنف حافظ آبرو فى الجغرافيا كان معروفًا فى مخطوطاته لعدد من العلماء أهل التخصص منذ النصف الأول للقرن التاسع عشر[١٦] إلا أن المسئول عن كشف النقاب عنه

---

(٩) شرحه ، ص ٣ – ٤

(١٠) شرحه

(١١) - Krymski, Istoria Persii, III, 1, p. 56

(١٢) - Validi, GZ, XL, p. 366, note 1

(١٣) - Romaskevich, MITT, I, p. 57

(١٤) شرحه ، ص ٥٦

(١٥) - Bartold, Iran, p. 82

(١٦) - Bartold, Khafizi Abru, p. 2 - 3

بصورة شاملة من أجل العلم هو المؤرخ الكبير بارتولد Bartold ، فقد وضع الأساس لدراسة جدية لهذا المصنف فى مقاله الذى نشره ضمن مجموعة المقالات التى قدمت إلى فكتور روزن V.Rosen (١٨٩٧)[١٧]؛ ورجع بارتولد مرارًا إلى الكلام عن هذا الأثر فى بحوث تالية ووضّح باستيفاء كاف أهمية هذا الكتاب وأهمية المادة التى يحويها بين دفتيه . هذا وقد أولى بارتولد عناية خاصة لروايات حافظ آبرو التى توكد أن نهر آموداريا (جيحون) كان يصب فى بحر قزوين فى الأزمنة التاريخية[١٨] . وبالإسهاب والتفصيل أنفسهما يلقى ضوءًا على وصفه لبلاد ما وراء النهر ويقتطف شذرات هامة من المتن مع ترجمتها إلى اللغة الروسية[١٩] . ومع اعتراف بارتولد فى حالات عديدة بقيمة مادته التى لا يضارعها شىء إلا أنه اضطر إلى التسليم بأن حافظ آبرو ليس غريبًا على العيوب والنقائص المعهودة فى الأدب الجغرافى العربى ؛ فوصفه مثلا لغرائب بلاد ما وراء النهر ومعادنها ومنتجاتها مستعار بحذافيره بالتقريب من مؤلفى القرن العاشر[٢٠] ونادرًا ما ينطبق مع واقع الأحوال فى العصر الذى عاش فيه المؤلف .

وصلة مصنف حافظ آبرو بتقاليد المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب ترجع علاوة على ما سبق ذكره إلى عامل إضافى ، وهو أنه كان من المفروض أن يحتوى الكتاب على خارطات تصور
517 بلاد الإسلام المختلفة كما وردت الإشارة إلى ذلك أكثر من مرة / بالمتن . وأغلب الظن أن جميع الخارطات المعروفة « لأطلس الإسلام » قد وجدت لديه بأكملها غير أنه لم يعثر فى المخطوطات التى بين أيدينا إلا على خارطتين للعالم واثنتين أخريين لبعض الأقاليم وذلك فى مخطوطة بالمتحف البريطانى[٢١] . والخارطتان الأوليان[٢٢] تمثلان تعديلا طفيفا لما يسمى « بخارطة العالم المستديرة » التى ترتفع إلى البلخى ، غير أن خارطتى حافظ آبرو تتميزان بخاصية غريبة على الخارطات الجغرافية العربية فقد بين عليهما فى الحالتين ولو بطريقة بدائية شبكة لخطوط الطول والعرض[٢٣] . والمدقق فى صورة الخارطة يتبين له أن هذه العملية قد عملت بصورة آلية بحتة عقب الفراغ من رسم الخارطة

---

(١٧) شرحه
(١٨) شرحه ، ص ٤ – ١١
(١٩) شرحه ، ص ١٢ – ٢٤
(٢٠) شرحه ، ص ١٣
(٢١) - Miller, V, p. 111 - 112, 122 - 123, 178
(٢٢) شرحه Beiheft, tabl.72, 1 and 82, 1 ; legends on them: Ibid, V, p. 122 - 123
(٢٣) شرحه ، ص ١٧٨

وربما لا تتصل فى شىء بالنموذج الأوّلى لها . غير أنه لإصدار حكم نهائى على هذه المسألة فإن الأمر يحتاج إلى دراسة باليوغرافية (paleographic) دقيقة للمخطوطة وإن كان هذا لا يمنع من القول منذ الوهلة الأولى بأن توضيح خطوط الطول والعرض فى هذه الحالة أبعد من أن يكون من عمل حافظ آبرو أو الرسام الكارتوغرافى الذى خطط الأصل الأول للخارطة . أما فيما يتعلق بالخارطات الإقليمية للأقطار فنحن نعرف حتى هذه اللحظة / اثنتين فقط إحداهما للبحر 518
المتوسط والأخرى للخليج الفارسى[٢٤] ، وهما أيضًا بدورهما ترتفعان إلى أنموذجين من خارطات « أطلس الإسلام » غير أنه يلاحظ فى رسمهما تدهور واضح إن ليس سقوطًا تامًا . ومما يثبت أن الخارطات الأخرى قد وجدت فعلا أن ثمة إشارة إلى خارطة لما وراء النهر فى القسم الخاص بها غير أن هذه الخارطة لا وجود لها فى الموضع المخصص لها من مخطوطة أكسفورد ، وهى المخطوطة الوحيدة التى حفظ لنا متنها القسم المخصص لبلاد ما وراء النهر من مصنف حافظ آبرو[٢٥] .

ولم يقتصر ما تركه لنا حافظ آبرو من آثار أدبية على مصنفه الجغرافى وحده بل له أيضًا آثار تاريخية ليست أقل شهرة ؛ غير أن بارتولد يقف منها موقفًا أكثر صراحة مما فعل مع المصنف الجغرافى ويعتبرها « أقل قيمة منه وأكثر طابعًا نقليا »[٢٦] ، وهو يقرر بوجه عام وبما عرف به من ميل إلى الإيجاز والتركيز أن حافظ آبرو قد حفظ لنا بوصفه مؤلفًا نقالة كثيرًا من المادة المفقودة وأنه يعد مصدراً من الدرجة الأولى بالنسبة لتاريخ عصره[٢٧]. وأحد الباحثين المعاصرين يعبر عن رأيه بحماس أكثر[٢٨] عندما يقرر أن حافظ آبرو يفوق رشيد الدين من حيث استكمال المادة حتى وإن اعتمد اعتماداً تاماً على منهجه وآرائه . ولعله من الضرورى أن نوكد بصورة خاصة أن عباراته بوجه عام بسيطة للغاية وهذا ما أعطاه ميزة على بقية المؤلفين الآخرين ، كما يصدق هذا أيضاً على الأقسام التى نقلها عنه عبد الرزّاق[٢٩].

ونتيجة لنشاطه المزدوج فى مجال التاريخ والجغرافيا فقد عاون هذا فيما يبدو على تسرب كمية كبيرة من المعطيات التاريخية بل وأحيانًا أقسام بحالها إلى مصنفه الجغرافى ، كما يمكن أيضًا أن نلحظ

---

(٢٤) شرحه Beiheft, Tabl. 72, 2 - 3

(٢٥) - Bartold, Khafizi Abru, p. 13

(٢٦) - Barthold, Hafizi Abru, p. 226

(٢٧) شرحه

(٢٨) - Romaskovich, MITT, 1, 57

(٢٩) شرحه

الظاهرة المضادة وهى أن تاريخه قد حفظ لنا كمية كبيرة من المادة الجغرافية . وبحسب المنهج الذى اتبعناه فإننا لن نقف عندها ولكننا نستثنى قسما طريفًا منها هو وصفه للسفارة التى بعث بها شاهرخ إلى الصين فى عام ٨٢٢ هـ - ٨٢٥ هـ = ١٤١٩ - ١٤٢٢ .

هذا الوصف معروف من قبل عهد كاترمير[٣٠] ، فقد ضمنه المؤرخ الفارسى عبد الرزّاق السمرقندى تاريخه المعروف وأصبح فى متناول الأيدى بفضل ترجمة فرنسية منذ عام ١٨٤٣[٣١] . غير أنه كما لاحظ بارتولد من قبل فإن عبد الرزّاق قد نقل هذا القسم بحذافيره كغيره من الأقسام عن كتاب حافظ آبرو[٣٢] ؛ وإنه لمما يدعو إلى الأسف أن عدم وجود طبعة لمصنف هذا الأخير قد اضطر الباحثين إلى الرجوع إلى الوصف الذى حفظته لنا رواية عبد الرزاق[٣٣] كما كان عليه
519 الحال من قبل ، رغما من أن مخطوطة اكسفورد / لمصنف حافظ آبرو تحوى تفاصيل قيمة أسقطها عبد الرزاق . ومما يضيف إلى طرافة هذه السفارة التى بعث بها شاهرخ وأحفاد تيمور فى صحبة الصينيين العائدين إلى بلادهم أن بايسنغر أدخل ضمن جماعتها نقاشًا يدعى غياث الدين كلّفه بأن[٣٤] « يقيد على هيئة يوميات وذلك منذ لحظة مغادرته لعاصمة الدولة هرات إلى يوم رجوعه إليها كل ما يقع عليه بصره فى جميع المدن والولايات التى يمر بها مما يستحق التسجيل كطريق الرحلة ووصف البلاد والعمارات ونظم المدن وعظمة الملوك وطريقة حكمهم لبلادهم وسياستهم وعجائب تلك البلاد والديار ورسوم هؤلاء الملوك » .

غادرت السفارة هرات فى الرابع من ديسمبر عام ٨٢٢ هـ = ١٤١٩[٣٥] ووجهتها سمرقند ، ثم خرجت من سمرقند فى فبراير عام ٨٢٣ هـ = ١٤٢٠ فوصلت إلى خانبالق فى ديسمبر من العام نفسه وأقامت بعاصمة الصين خمسة أشهر ثم أخذت طريق العودة فى مايو عام ٨٢٤ هـ = ١٤٢١ ، وبعد عام من هذا أى فى يوليو سنة ٨٢٥ هـ = ١٤٢٢ بلغت سواحل نهر سرداريا

---

(٣٠) - Reinaud, Introduction, p. CLXII - CLXIII, CDXXXII - CDXXXIV - Quatremère, Notices et Extraits XIV, p. 308 - 341 (text), 387 - 426 (transl.)

(٣١) - Rehatsek, p. 75 - 83 - Yule - Cordier, Cathay, IV2, p. 271 - 289 - Hennig, IV, p. 23 - 28

(٣٢) - Bartold, Khafizi Abru, p. 26 - 27 - Barthold, EI, I, p. 68

(٣٣) - Schefer, Notice, p. 26 - 28 - Browne, Literary History, III, p. 397

(٣٤) - Quatremère, Notices et extraits, XIV, p. 308 (text), 287 (transl.)

(٣٥) - Browne' Literary History, III, p. 397

(سيحون) ووصلت إلى هرات فى اليوم الثانى من سبتمبر[٣٦] من العام نفسه . والأمد الطويل الذى استغرقته الرحلة والطريق الطويل الذى قطعته يقف دليلا على أن غياث الدين قد وجد فرصة ذهبية لتدوين ملاحظاته ، وهو بخلاف ملاحظته للغرائب والعجائب يورد لنا كثيرًا من الأشياء القيمة عن الصين وسكانها ويسوق تفاصيل عن أخلاقهم وعاداتهم ويصف لنا أيضًا نظام ومراسيم البلاط الإمبراطورى[٣٧] . ولا يخلو من أهمية بالنسبة لنا وصفه للمكانة الرفيعة التى نالها فى عهد حكم بغديخان القاضى حاجى يوسف أحد كبار العسكريين فى حكومة الصين ورئيس المجلس الاستشارى بها[٣٨] ، وليس بأقل أهمية من ذلك ما يذكره عن وضع المسلمين الصينيين الذين كان عددهم كبيرًا فى ذلك الوقت .

هذا وقد أصبحت قصة غياث الدين معروفة للدوائر العلمية الأوروبية بفضل الرواية التى نقلها عبد الرزاق عن حافظ آبرو . ويرتبط اسم ذلك المؤرخ ارتباطًا وثيقًا بهذه القصة ولكنه يستحق أيضًا الذكر فى كتابنا هذا لما أورده من معلومات جغرافية فى مصنفه التاريخى ؛ واسمه الكامل هو كمال الدين عبد الرزّاق بن إسحق السمرقندى[٣٩] . وقد ساق التشابه فى الأسماء إلى الخلط بينه وبين الفليسوف والفقيه المشهور كمال الدين عبد الرزاق القاشانى الذى عاش قبل قرن ونصف منه (توفى عام ٧٣٠ هـ = ١٣٣٠)[٤٠] ووضع رسالة فى الجبر والاختيار نشرها / المستشرق غويار 520
Guyard . أما عبد الرزاق الذى نعنيه فإنه ولد بهرات (فى سنة ٨١٦ هـ =١٤١٣) وتوفى بها فى عام ٨٨٧هـ = ١٤٨٢ ، ونسب إلى سمرقند لأنه أقام بها طويلا . وكان أبوه من المقربين إلى بلاط شاهرخ كإمام وقاض ، أما الابن الذى لم يبلغ ما بلغه أبوه من نفوذ فى البلاط فقد وجد الرعاية هناك

---

(٣٦) شرحه

(٣٧) - Schefer, Notice, p. 27 - 28

(٣٨) شرحه ، ص ٢٧

(٣٩) - Reinaud, Introduction, p. CLXII - CLXIII - Quatrémère, Notice et extraits, XLV, p. 1 - 13 - Bartold, Abd al - Razzak, p. 67 - 68 - Bartold,Iran, p. 83 - Krymski, Istoria Persii, III, 1, p. 62 - 65 - Romaskcvich,MITT, I, p. 59 - 60 - Volin, Orda, II, p. 190 - Schefer, Notice, p. 26 - 28- Browne, Literary History, III, p. 389 - 390, 428 - 430

(٤٠) -Brockelmann,GAL,II,p.204,No. 1;SBII,p.280-281;cf.:Macdonald,Abd al - Razzak, p. 65

بفضل معارفه العلمية والأدبية وإن كان لم يتميز بشخصية تلفت النظر . وقد ظهر منه بلا شك استعداد للدبلوماسية فكلفه شاهرخ بمهام دبلوماسية فى الأقطار الأجنبية ، مثال ذلك أنه بعث به فى عام ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ إلى الهند فأمضى بها حوالى ثلاث سنوات[٤١] ، وفى عام ٨٥٠ هـ = ١٤٤٦ نجده بكيلان[٤٢] ، وفى العام التالى أرسل به إلى مصر . غير أن وفاة شاهرخ غيّرت من هذا الوضع[٤٣] ، وابتداء من عام ٨٦٧ هـ = ١٤٦٢ إلى آخر أيام حياته تولى عبد الرزاق الإشراف على خانقاه شاهرخ بهرات[٤٤] .

واكتسب عبد الرزاق شهرته العلمية من مصنفه التاريخى الكبير الذى يقع فى جزأين وهو «مطلع السعدين ومجمع البحرين» الذى أتم تأليفه فى حوالى عام ٨٧٢ هـ-٨٧٥ هـ = ١٤٦٧-١٤٧٠ والذى كرّسه بصورة خاصة لتاريخ المغول وتيمور وشاهرخ . وليس واضحا تمام الوضوح الغرض الذى استهدفه من هذا العنوان ، وأغلب الظن أنه يشير بذلك إلى بطلى روايته الرئيسين ؛ ويرى البعض أن الإشارة ترتبط ببداية الكتاب ونهايته حيث يدور الكلام عن اثنين من الملوك حملا اسم أبى سعيد[٤٥] ، والمقدمة التى تعالج الكلام عن المغول يتلوها عرض منظم ومتناسق لتاريخ الفترة من عام ٧١٧ هـ = ١٣١٧ إلى عام ٨٧٥ هـ = ١٤٧١ ؛ وهو يصل بالجزء الأول فى سرده التاريخى إلى وفاة تيمور فى عام ٨٠٧ هـ = ١٤٠٥ بينما يفرد الجزء الثانى بصورة خاصة للكلام على شاهرخ ، وهذا هو المعروف منذ أكثر من مائة عام فى ترجمة كاترمير . وتاريخ عبد الرزّاق من الناحية الزمنية (chronological) ينضم إلى كتاب رشيد الدين وكأنما يكمله ابتداء من عام ٧٠٤ هـ = ١٣٠٤ ، أما خاتمة الكتاب فتقف فى عهد الأمير التيمورى التاسع الذى ظل عبد الرزاق متمتعًا تحت ظله بالرعاية نفسها التى لقيها فى عهد شاهرخ .

وفى تلك الأقسام عن الكتاب التى تعزى إلى المؤلف نفسه يسير العرض فى أسلوب منمق للغاية فيغلب عليه السجع وتنتشر فيه الاستشهادات الشعرية ، ومن الطريف فى هذا الصدد إيراد رأى عالم لا ينتسب إلى فئة المستشرقين بل يعد من المتخصصين فى الأدب الروسى القديم وهو

---

(٤١) - Krymski, Istoria Persii, III, 1, p. 60

(٤٢) - Quatremère, Notices et extraits, XIV, p. 6

(٤٣) شرحه ، ص ٦

(٤٤) شرحه ، ص ٧

(٤٥) - Krymski, Istoria Persii, p. 61 - Browne, Literary History, III, p. 429

سرز نفسكى Sreznvski الذى درس بالتفصيل الأقسام التى كتبها عبد الرزاق عن الهند وذلك أثناء تحضير تعليقاته على رحلة افناسى نيكتين Afanasi Nikitin . فالمؤلف كما يبدو واضحًا من ألفاظه « لم يفكر فى إفادة قارئيه وسامعيه بقدر ما فكر فى إمتاعهم »، وهو فى محاولته لإثارة حب الاستطلاع فى نفوسهم يجهد فى الوقت ذاته ليستولى على ألبابهم بعباراته / المنمقة من مجالى الشعر 521
والنثر ؛ ولا شك أن هدفه الأول هو التأثير على « الخاقان السعيد » شاهرخ(٤٦) .

وفى أقسام كتابه التى نقلها عن مصادر أخرى يجهد عبد الرزاق عادة فى أن يورد لنا الأصل كما هو، وتكتسب هذه الحقيقة أهمية جوهرية إذا ما علمنا أن مصدره الرئيس لتاريخ الفترة السابقة لعام ٨٣٠هـ=١٤٢٦ هو حافظ آبرو(٤٧)؛ وبهذا فإن أقسامًا معينة من تاريخ حافظ آبرو لم تعرف إلى أيامنا هذه إلا عن طريق عبد الرزاق(٤٨)، أما فيما يتعلق بتاريخ الفترة من عام ٨٣٠هـ=١٤٢٦ إلى ٨٧٥هـ=١٤٧١ فإنه يعتبر واحدًا من أهم مصادرها الأولية. وعدم وجود طبعة كاملة لهذا الأثر* حالت بالطبع دون إمكان الحكم على المؤلف بصورة جامعة وإن لزم ألا يفهم من هذا مطلقًا أن عبد الرزاق مؤلف مغمور. أما مادته الجغرافية فموزعة بحسب الموضوعات التى تمسها فى الأقسام المختلفة من الكتاب؛ ولبعض الأقسام صلة مباشرة بتاريخ شعوب الاتحاد السوفيتى مثل روايته عن حملة تيمور فى سهوب القبجاق فى عام ٧٩٣هـ=١٣٩١، وهى معروفة منذ أكثر من مائة سنة بفضل بحث شارموا Charmoy (١٨٣٥)(٤٩). ومن الممكن القول بأن أسفاره الشخصية قد شحذت من انتباهه إلى الأدب الذى من هذا الطراز ولعله لهذا السبب ضمّن كتابه قصة غياث الدين عن سفارة الصين بأجمعها؛ كما لا يقل أهمية عن ذلك وصفه هو لرحلته إلى الهند. وقد بدأ عبد الرزاق هذه الرحلة فى يناير من عام ٨٤٦هـ=١٤٤٢ فعبر ولاية كرمان حتى وصل إلى جزيرة هرمز بالخليج الفارسى فأقام بها لمدة شهرين وترك لنا وصفًا يفيض بالحماس عن حياتها التجارية التى كانت

---

(٤٦) - I. I. Sreznevski, Khojenie Afanasia Nikitina, p. 254, note 73

(٤٧) - Bartold, Khafizi Abru, p. 26 - Barthold, Abd al - Razzak, p. 68 - Minorsky, Les études, p. 287

(٤٨) - Bartold, Iran, p. 83

* نشر البروفسور محمد شفيع الجزء الثانى من « مطلع السعدين » بلاهور فى قسمين (١٩٤١ – ١٩٤٩) . وهى طبعة لا أعتقد أن قيمتها العلمية كبيرة. كما ظهرت أجزاء من الكتاب بطهران (المترجم)

(٤٩) - Volin, Orda, II, p. 190

آنذاك فى عنفوان نشاطها . وتعداده للأمم التى يمكن الالتقاء بها هناك وللسلع التجارية التى تجلب إليها يقف دليلاً على أن هرمز كانت بحق إحدى مراكز التبادل التجارى العالمية فى ذلك العصر[٥٠] . ومن هرمز عبر البحر إلى الساحل الشرقى لبلاد العرب وأخذ السفينة من مرفأ قلهات فبلغ كاليكوت بعد ثمانية عشر يومًا فى أكتوبر من عام ٨٤٦ هـ = ١٤٤٢ وكانت آنذاك أكبر موانى الساحل الغربى للهند (« مليبار »)، وهو يصفها لنا بالحماس نفسه الذى وصف به هرمز؛ ثم غادرها إلى بجانكر Bijanagar بجنوبى الهند فبقى بها إلى ديسمبر من عام ٨٤٧ هـ = ١٤٤٣ ومنها ارتفع بطريق البحر إلى منكلور Mangalor متحاشيًا مرفأ بندران Pandaran الذى حط به فيما بعد فاسكودا غاما . ولم يغادر الهند نهائيًا إلا فى مارس من عام ٨٤٨ هـ = ١٤٤٤ فوصل مرة أخرى إلى مسقط[٥١] على شبه الجزيرة العربية ومنها إلى هرمز التى بلغها فى العشرين من أبريل عام ١٤٤٤[٥٢]؛ ووصفه هذا على الرغم مما يحفل به من محسنات بديعية يعتبر من أهم أقسام كتابه
522 من وجهة النظر الجغرافية/فهو يقدم وصفا مفصلا بما فيه الكفاية لنواحى الهند فى ذلك العصر يفيض بالحيوية فى بعض نقاطه ويعد جديرًا بالثقة على وجه العموم . ويمثل القسم عن الهند أهمية خاصة بالنسبة لنا لأن عبد الرزاق زار الهند قبل فترة ليست بالبعيدة من رحلة التاجر الروسى افناسى نيكيتين Afanasi Nikitin (١٤٦٦ - ١٤٧٢) من أهل تفر Tver *؛ وعلى الرغم من أن كلا منهما قد سلك طريقًا لا يتفق تماما مع الطريق الذى سلكه الآخر إلا أنهما يساعدان فى فهم بعضهما بعضًا . ويعود الفضل إلى سرزنفسكى Sreznevski الذى استطاع فى بحث له رجع فيه إلى الترجمة الفرنسية لهذا القسم من كتاب عبد الرزاق[٥٣] أن يثبت جوانب الشبه بين الاثنين ويوكد أن وصف عبد الرزاق للهند يقارب وصف نيكيتين أكثر مما يقارب تلك الملاحظات المقتضبة التى دونها معاصرهما نيقولا كونتى Niccola Conti[٥٤] .

---

(٥٠) - Ferrand, Relations, II, p. 473 - 474 - Browne, Literary History, III, p. 397 - 398

(٥١) - Reinaud, Introduction, p. CLXIII, note 3

(٥٢) - Browne, Literary History, III, p. 397

* رغمًا من أن المعلومات الأولى التى حصلت عليها أوروبا عن الهند قد جلبها الإيطاليان ماركوبولو Marco Polo ونيقولا كونتى Niccola Conti إلا أن يوميات التاجر الروسى افناسى نيكيتين Afanasi Nikitin من أهل تفر Tver التى دونها بعنوان « رحلة وراء البحار الثلاثة » Khojenie za tri moria تتميز بالتفصيل وعمق الملاحظة وبما تحفل به من وصف للأحوال الاجتماعية بالهند . هذا ولها طبعة علمية جديدة قام بنشرها العلامة الروسى غريكوف Grekov. (المترجم)

(٥٣) - I. I. Sreznevski, Khojenie Afanasia Nikitina, p. 254, note 73

وعلى أية حال فيجب الاعتراف بأن أكثر أقسام كتاب عبد الرزاق السمرقندى شهرة ورواجًا يكاد يكون وصف الصين لغياث الدين الذى استعاره مؤلفنا من حافظ آبرو ، وعنه أخذه المؤرخ الفارسى خواندمير وانتقل منه إلى عدد من الكتاب الأتراك ومنهم إلى أوروبا الغربية حيث عرف منذ القرن الثامن عشر[٥٥] . وقد ترجم هذا الوصف بأكمله إلى التركية فى سنة ١١٤٠ هـ = ١٧٢٧ المؤرخ إسماعيل عاصم جلبى زاده (المتوفى فى سنة ١١٧٣ هـ= ١٧٦٠) بعنوان « عجائب اللطائف »[٥٦] ونشر هذه الترجمة فى القرن العشرين العلامة التركى على أميرى (توفى فى ٢٣ يناير ١٩٢٤)[٥٧] . ومما عاون على رواجه بين الأتراك أن ثمة مصنفا فارسيًا آخر فى وصف الصين لمؤلف يدعى على أكبر تم تدوينه بعد مدة من ذلك قد اعتبر أحيانًا مجرد تعديل لهذا القسم من كتاب عبد الرزاق مع أنه مستقل تماما عنه .

وقد ظهر هذا المصنف الأخير فى وسط يختلف تمامًا عن وسط عبد الرزاق ويرتبط ببلاد أخرى من العالم الإسلامى كانت قد بدأت فى ذلك الوقت تلعب دورًا رئيسًا فى مصير الشرق الأدنى أعنى بهذا الدولة العثمانية . والمؤلف على أكبر[٥٨] شخصية مغمورة وكان يريد رفع مصنفه الذى أتمه فى حوالى عام ١٥١٦ إلى السلطان سليم ولكنه بعد وفاة الأخير قدمه إلى السلطان سليمان القانونى (الذى ارتقى العرش فى عام ٩٢٦هـ= ١٥٢٠)[٥٩] ؛ وقد دون على أكبر مصنفه معتمدًا على انطباعاته المباشرة عن الصين التى أقام بها مدة ليست بالقصيرة حوالى عام ١٥٠٦[٦٠] ، واستعمل فى تأليفه اللغة الفارسية وهو أمر يجب ألا ندهش له إذا ما تذكرنا دورها

---

(٥٤) شرحه ص ، ٢٨١

(٥٥) - Quatremère, Notices et extraits, XIV, p. 10, 11 - 13 - Krymskii, Istoria Persii, III, 1, p. 64
- Babinger, GOW, p. 293 - 294

(٥٦) - Babinger, GOW, p. 293 - 294

(٥٧) اسماعيل عاصم جلبى زاده ، عجائب – Deny, JA, CCIV, p. 378 - Babinger, GOW, p. 404

(٥٨) - Fleischer, Chatai - name - Zenker, Das chin. Reich - Schefer, Khitay - Nameh
- Schefer, Notice, p. 29 - 30 - Ali Akbar, Khitai, p. 305

(٥٩) - Kahle, Khitayname, p. 94

(٦٠) شرحه ، ص ١٠١

كأداة للثقافة الرفيعة بالدولة العثمانية وما تمتعت به من تقدير خاص بين سلاطنة آل عثمان أنفسهم . غير أن لهذا المصنف ترجمة تركية[٦١] ترجع إلى عهد السلطان مراد وعملت على ما يبدو
523 فى عام ٩٩٠ هـ = ١٥٨٢ ؛ / ومن الملاحظ أن معرفة الدوائر العلمية بهذا الكتاب ظلت حتى الآونة الأخيرة قائمة على أساس الترجمة التركية لا عن طريق الأصل الفارسى .

وذكره حاجى خليفة فى معجمه للكتب تحت عنوان « قانون نامه جين وخطا* »[٦٢] ؛ وكما سنرى فإن هذا العنوان أبعد من أن يحيط بكل موضوع الكتاب . ولعل حاجى خليفة بذكره لاسم على القوشجى تحت هذه الملاحظة قد لعب أكبر دور فى إشاعة الزعم القائل بأن على القوشجى كان وراء تأليف هذا الكتاب وأنه هو الذى قدم بعض المعلومات للمؤلف على أساس ملاحظاته الشخصية[٦٣] ؛ وهذا الزعم يستحيل تمامًا من الناحية الزمنية ولكنه لا يخلو على أية حال من طرافة مرجعها فى أنه يعكس ذكريات بعض أهل العلم عن العلاقات الثقافية فى ذلك العصر . وقد حدث أن ذكرنا من قبل أن على القوشجى (المتوفى عام ٨٧٩ هـ = ١٤٧٤)[٦٤] كان من أكبر معاونى ألو غ بيك فى مرصده بسمرقند وأنه عقب وفاة الأخير استقر فى آخر الأمر بالدولة العثمانية وهناك أسهم مساهمة فعّالة فى تدعيم النشاط العلمى فى مجالى الرياضة والفلك . أما رحلته إلى الصين التى ربط بعضهم أحيانًا بينها وبين « قانون نامه » فليس لدينا أية معلومات بصددها ، غير أن اهتمامه بتلك الأقطار ليس موضعًا للتشكك ولعله هو مؤلف كتاب « تاريخ ختاى » الذى يشير إليه حاجى خليفة[٦٥] ؛ ويعتقد بابنجر **Babinger** أن مخطوطة هذا

---

(٦١) شرحه ، ص ٩٢ - Taeschner, GLO, p. 40, note 3

* يطلق على الصين فى المصنفات باللغة الفارسية اسم چين ولعله هو المسئول عن انتشار الرسم الأوروبى لاسم الصين Chin ؛ كما عرفت الصين لفترة ما من العصور الوسيطة فى المصادر الإسلامية باسم بلاد الخطا أو ختاى وهو فى الأصل اسم لقبيلة من آسيا العليا استولت على مقاليد الأمور بالصين لبعض الوقت . وقد لاقى هذا الاسم الأخير رواجًا كبيرًا فى العصور الوسيطة فى الشرق والغرب ولا يزال يقابلنا فى الآثار الشعرية فى صورة كاثاى Cathay . ومن الطريف أن الصين لا تزال معروفة لدى الروس باسم كيتاى Kitay . (المترجم)

(٦٢) حاجى خليفة ، الجزء الرابع ، ص ٥٠١ — ٥٠٢ ، رقم ٩٣٦٠ — Kahle, Khitayname, p. 59, note 2

(٦٣) - Fleischer, Chatai-name, p. 216 - Kahle, Khitayname, p. 95

(٦٤) - Brockelmann, GAL, II, p. 234 - 235; SB II, p. 329 - 330

(٦٥) حاجى خليفة ، الجزء الثانى ص ١٢٧ ، رقم ٢٢٠٩

المصنف موجودة بين مخطوطات استنبول[٦٦] . ويلوح أن القوشجى حمل معه هذا الاهتمام والولع بالصين إلى أراضى الدولة العثمانية التى خرج منها فى رحلته إلى تلك البلاد رحالتنا المجهول على أكبر . وعلى أكبر يطلق على نفسه اسم قلندر (أى الصوفى المتجول) ، ولا نعلم شيئًا عن الظروف التى تمت فيها رحلته هذه ؛ وإقحام اسم على قوشجى فى هذه الرحلة يستند فى أغلب الظن على سوء فهم لألفاظ المؤلف نفسه كما عبر عنها فى مقدمة كتابه على ما سنرى . وقد خرج ياكوب Jacob فى الآونة الأخيرة برأى مؤداه أن على أكبر قد بعث به إلى الصين السلطان سليم نفسه الذى اهتم بالأوضاع السياسية السائدة فى شرقى آسيا وأراد أن يحصل على معلومات وثيقة عن أحوالها العسكرية[٦٧] .

أما معرفة حاجى خليفة بالمصنف فهى معرفة واقعية ، أضف إلى هذا أن معلوماته عنه لا يستقيها من مصادر أخرى كما يحدث أحيانًا فى كتابه ؛ وإلى جانب هذا فهو ينقل عنه مرارًا فى مصنفه الجغرافى « جهاننما »[٦٨] . ومعرفة الدوائر العلمية الأوروبية مبكرًا بهذا الكتاب ترجع إلى ما تمتع به من رواج فى الدولة العثمانية نفسها ، وقد رجع إليه منذ القرن الثامن عشر المستشرق السويدى نوربرج M.Norberg (١٧٤٧-١٨٢٦) فى بحثه عن « بلاد الصين » De Regno Chataja الذى / يتكون من خمسة فصول عالج فيها الكلام على العاصمة خانبالق Kambalu 524
وعن رونق البلاط الإمبراطورى وفخامته ، وعن الدين والأدب ، وعن القوانين ، وأخيرًا الأحوال العسكرية ؛ وهو قد أفاد فى هذا من وصف غياث الدين . وقد عاون وجود مخطوطتين للترجمة التركية بأوروبا (بدرسدن وبرلين)[٦٩] فى التعرف منذ منتصف القرن التاسع عشر على بعض أقسامه بصورة دقيقة فقدم لنا فليشر Fleischer إلى جانب معلومات ذات طابع عام ترجمة للفصل الرابع الذى يبحث فى الحاميات الموزعة على المدن المختلفة (١٨٥١)[٧٠] وتلاه تسنكر Zenker الذى أفاد من نسخة فليشر المأخوذة عن المخطوطة ليقدم عرضًا موجزًا للمادة على أكبر عن تلك البلاد وحكومتها وديانتها وحضارتها (١٨٦١) . وفى حوالى ذلك الوقت (١٢٧٠ هـ =

---

(٦٦) - Babinger, GOW, p. 29, note 1

(٦٧) -Kahle, Columbuskarte, p. 5

(٦٨) - Fleischer, Chatai- name, p. 216 - Schefer, Khitay - Name, p. 37 - 38

(٦٩) - Fleischer, Chatai - name, p. 214 - 215 - Kahle, Khitayname, p. 92

(٧٠) - Fleischer, Chatai - name, p. 220 - 225

= ١٨٥٣) ظهرت طبعة حجرية للكتاب باستنبول ، وقد أصبحت نادرة للغاية ولم تجتذب الاهتمام بصورة خاصة[٧١] ؛ أما العلماء الأوربيون فقد استمروا رغما من ذلك فى الاعتماد على الترجمة التركية . ولم ينشر شيفير Schéfer الترجمة الفرنسية لثلاثة فصول (هى الأول والسابع والخامس عشر) إلا فى عام ١٨٨٣ معتمدًا فى ذلك على الأصل الفارسى الموجود فى مخطوطة فريدة باستنبول اعتقد المستشرق الفرنسى خطأ[٧٢] أنها بخط يد المؤلف[٧٣] . هذا ولم يقدر لشيفير بالتالى أن يحقق مشروعه[٧٤] بإخراج طبعة كاملة للكتاب[٧٥] ، ولكن إلى جانب هذا أثبتت الدراسة الدقيقة التى عملها كاله Kahle للأصل فى الثلاثينيات من هذا القرن صحة ما ذهب إليه شيفير من قبل[٧٦] ، وهو أن الترجمة التركية لا تتصف بعدم الدقة فحسب بل إنها أيضًا عرضة لتصحيحات كثيرة[٧٧] ، أضف إلى هذا أنها تحتوى على تواريخ أضافها المترجم سهوًا مما أدى إلى بعض الخلط فيما يتعلق بتاريخ الكتاب[٧٨] . ومن هذا تتضح ضرورة الحاجة إلى الرجوع إلى الأصل الفارسى الذى لم ير النور إلى الآن[٧٩] فى كل ما يتعلق بدراسة هذا الأثر دراسة جدية ؛ غير أن المواد التى تحت تصرفنا حالياً تساعد على تكوين فكرة عامة عن هذا الأثر الذى لا يخلو بأية حال من الأصالة .

ويجب قبل كل شيء أن نلاحظ أن هذا الأثر ليس بقصة رحلة كما يفهم عادة من هذا اللفظ بل هو عبارة عن وصف منتظم لبلاد الصين فى عشرين فصلا[٨٠] تعالج الكلام على أقسامها الأربعة وهى الخطا وختن وجين وماجين ، أى بلاد الصين الشمالية والجنوبية الغربية (طرفان)

---

(٧١) - Schefer, Khitay - Nameh, p. 37 - Kahle, Khitayname, p. 92

(٧٢) - Schefer, Khitay - Nameh, p. 34 - 35

(٧٣) - Kahle, Khitayname, p. 93 - 94

(٧٤) - Schefer, Khitay - Nameh, p. 41

(٧٥) راجع : Schefer, Notice, p. 30

(٧٦) - Schefer, Khitay - Nameh, p. 37

(٧٧) - Kahle, Khitayname, p. 93

(٧٨) شرحه ، ص ١٠٠ ، رقم ١

(٧٩) المخطوطات الأخرى بكيل Kiel ترتبط بالأولى ، راجع : Schefer, Khitay - Nameh, p. 92, note 1; 100

(٨٠) - Kahle, Khitayname, p. 94 - 95

والوسطى والجنوبية[٨١] . ويبدو من محتويات / الفصول العشرين ، حتى فى الترجمة التركية ، أن موضوع الكتاب متكامل الجوانب فعلا ومتنوع ، وهو باستثناء فصوله الأخيرة منتظم وفقا لترتيبه الخاص به فالفصل الأول يبحث فى الحدود والتحصينات وطرق المواصلات من طبيعية وممهدة ، بينما يبحث الفصل الثانى فى الديانة وطقوس العبادة ، أما الثالث فعن الأبنية والمدن والقلاع والإدارة الداخلية والبريد واستقبال الأجانب، ويبحث الرابع عن الجيش، والخامس عن الخزينة والمستودعات الأميرية ، والسادس فى الإدارة العليا وشئون البلاط الإمبراطورى والإدارة المركزية للمقاطعات الاثنى عشر ، والسابع فى السجون ، والثامن فى الأعياد القومية ، والتاسع فى تقسيم البلاد إلى اثنتى عشرة مقاطعة ، والعاشر فى الاعتناء بالحدائق والمتنزهات ، والحادى عشر فى المطاعم وبيوت اللهو ، والثانى عشر فى العلوم والفن والحرف والألعاب ووسائل التسلية ، والثالث عشر فى أصل نظام الحكم لدى أهل الصين ومجتمعهم ، والرابع عشر فى مدارسهم ، والخامس عشر فى علاقتهم بالغرب وفى بلوغ الإسلام أرض الصين ، والسادس عشر فى علاقات الصين بأهل السهوب وبالتبت والهند ، والسابع عشر فى زراعة الأرض وما يتخذونه من احتياطات لمكافحة الجوع والحريق وفى الحصول على حجر المطر وفى طواحينهم كما يبحث فى معابدهم وحججهم وطرائق أهل الزهد فيما بينهم ، والثامن عشر فى سكنهم واستعمالهم لأوراق النقد وفى ألعابهم النارية ، والتاسع عشر فى قوانين التحفظ وفى عقاب المجرمين بالإشراف المتبادل ، والعشرون فى صورهم ومجموعاتها وفى الدعوات من أجل الجمهور والترويح عنهم وفى أناقتهم فى الملبس وتزيينهم لقبورهم وفى حساب الوقت عندهم وعصور تاريخهم وفى سكان الصين وحرث الأرض لديهم وحروبهم مع سكان السهوب الغربية وموافقة المؤلف لأهل الصين فى اعتقادهم بتفوقهم على غيرهم فى القانون والنظم[٨٢] . 525

من هذا السرد يتبين لنا فى يسر ووضوح أن الفكرة الأساسية بالنسبة لعلى أكبر لم تكن ملاحظة الأحوال العسكرية فى الصين فحسب ، ومن ثم فمن العسير القول بما قاله البعض من أن الهدف الرئيس من وصفه كان إقناع سلاطنة آل عثمان بضرورة غزو بلاد الصين ونشر الإسلام فيها . إن هدفه كان بلاشك أوسع من ذلك وهو التعريف ببلاد مشهورة من حيث الاسم ولكن مجهولة من حيث الواقع وأن يدلل من وراء ذلك التعريف على أنها يمكن أن تصبح قدوة لنظام الحكم

---

(٨١) - Fleischer, Chatai-name, p. 215

(٨٢) شرحه ، ص ٢١٨ – ٢١٩

عند العثمانيين فى نواح معينة كالقانون والإدارة كما نستبين ذلك من الفصل الأخير فى كتابه(٨٣) . والمؤلف يشير إشارة صريحة فى موضع فى مقدمة كتابه إلى أن هدفه الرئيس هو الإعلام ؛ ويكتسب هذا الموضع من المقدمة أهمية بالنسبة لنا لسبب آخر ، ففيه يقول :

« أما الدافع الآخر (الذى حدا بى لوضع الكتاب) فهو أن المرحوم السلطان ألو غ بيك كان قد بعث إلى خطاى العالم مولانا على قوشجى وأرسل معه أسدًا (هدية) وقال لهم دونوا كل ما ترونه وتعرفونه من غرائب أحوال تلك البلاد لأن ناقل الكفر ليس بكافر . وهذا العبد الفقير يذكر ما رآه رأى العين وجميعه فى الحقيقة من الغرائب »(٨٤) .

وتشير جميع الاحتمالات إلى أن هذه السطور بعينها هى التى أوحت بالزعم القائل بأن رحلة على
526 أكبر كانت من وحى على قوشجى ، / غير أن الأمر الآن وبعد توضيح التواريخ يجعلنا نجزم بأن هذه الفكرة مستحيلة تمامًا . وشيفير يميل إلى الاعتقاد بأن رحلة على قوشجى إلى الصين قد وقعت فعلا وأنه ترك وصفًا لها عرفه على أكبر وأفاد منه فى تدوين كتابه(٨٥) ، وهو رأى غير مقبول لأنه من المستبعد ألا يوجد خبر عنها فى مصادر أخرى . أما الإشارة إلى ألو غ بيك فإنها تدل على أية حال على أن لعلى أكبر علاقة ما بآسيا الوسطى ولعل شيفير لم يتنكب الصواب فى هذه المرة حينما افترض أنه كان فى الأصل تاجرًا من آسيا الوسطى استقر فيما بعد بالقسطنطينية(٨٦) ؛ ومما يوكد وجاهة افتراضه هذا أن لغة المؤلف الفارسية ليس فيها ما يجتذب النظر ولعلها تعكس اللغات التركية لآسيا الوسطى التى اعتاد عليها المؤلف(٨٧) . أما أسلوبه فليس بالرفيع(٨٨) وهو يحمل طابعًا علميًا رغم أن المقدمة تغلب عليها الاستعمالات البلاغية المعروفة لنا ورغم أننا نلتقى فى الكتاب باستشهادات شعرية ليست من النوع الجيد(٨٩) ، هذا بالإضافة إلى أن المؤلف يختتم كتابه بمدح مسجوع فى حق السلطان سليمان القانونى(٩٠) .

---

(٨٣) شرحه ، ص ٢١٧

(٨٤) - Schefer, Khitay-Nameh, p. 39
قارن : Kahle, Khitayname, p. 96

(٨٥) - Schefer, Khitay-Nameh; p. 39 - 40

(٨٦) شرحه ، ص ٣٤ . قارن: Fleischer, Chatai-Name, p. 215

(٨٧) - Schefer, Khitay-Nameh, p. 40

(٨٨) شرحه ، ص ٤١

(٨٩) - Fleischer, Chatai-name, p. 217

(٩٠) - Schefer, Khitay-Nameh, p. 36 - 37

أما القول بعد التعرف على الأصل الفارسي بأن وصف على أكبر ليس سوى نقول من المصادر الأخرى للقرنين الثالث عشر والرابع عشر ولا يعتمد على ملاحظة واقعية ، كما افترض ولو ببعض الحذر فليشر[٩١] وتبعه فى ذلك تسنكر[٩٢] ، فهو قول مردود فى الوقت الحاضر لأنه يتعارض مع الاستقراءات الباطنية والمقارنات التى أجريت مع مصادر أخر . والمؤلف يروى أساسًا ما أبصره بعينه أو علمه من أهل البلاد ، وقد استغرقت رحلته داخل الصين أكثر من ثلاثة أشهر[٩٣] . ووصفه لمقابلته مع الإمبراطور يحمل جميع علامات الصحة شأنه فى هذا شأن وصفه لسجون الصين التى سنحت له فرصة التعرف عليها فى ظروف مؤلمة فقد أمضى ستة وعشرين يومًا فى الحبس مع بقية رفاقه فى الرحلة وعددهم إحدى عشر لأن واحدًا منهم قتل فى مشاجرة رجلا من أهل التبت[٩٤] . وكمسلم فلم يكن من الممكن ألا يثير دهشته مشاركة النساء فى الأعياد[٩٥] وفى الحياة الاجتماعية بل وفى الجهاز الحكومى حيث شغلن وظيفة « المراجعات » للشئون المتعلقة بالمقاطعات الاثنتى عشرة للدولة فى الإدارة المركزية . وقد دفعه أحيانًا شوقه إلى معرفة وضع المرأة فى
527 المجتمع الصينى إلى حد بعيد بحيث يشعرنا / فى الفصل الحادى عشر الذى أفرده للكلام على
المطاعم وبيوت اللهو أن مادته إنما تعتمد على تجربة شخصية .

وكان لعلى أكبر من بين السكان المحليين من يمده بالأخبار والمعلومات ، ويبدو أن هؤلاء كانوا على معرفة جيدة بالأوضاع ؛ ويفترض كاله أنه يدين بالكثير لإخوانه فى الدين من بين الخصيان الذين كانوا يلعبون دورًا كبيرًا فى إدارة الدولة[٩٦] . وهذا أمر ممكن للغاية سواء اعتمادًا على القصة التى يحكى فيها عن نفوذهم فى الجهاز الحكومى[٩٧] أو مما يذكره عن انتشار الإسلام فى الصين حتى أن العاصمة خانباليق وحدها كان بها أربعة مساجد . وأحياناً توكد مصادر أخرى صحة رواياته ، فقصته عن دور زعيم القالموق* المدعو اسان تايشى Esen Taichi فى أسر بغديخان فى

---

(٩١) - Fleischer, Chatai -name, p. 217

(٩٢) - Zenker, Das chin. Reich, p. 785

(٩٣) - Kahle, Khitayname, p. 96

(٩٤) شرحه ، ص ٩٧

(٩٥) شرحه

(٩٦) شرحه ، ص ٩٧ – ٩٨

(٩٧) - Schefer, Notice, p. 30

* قبيلة من المغول الغربيين تقطن حاليًا الأراضى الروسية على حوض الفلجا الأدنى . (المترجم)

عام ٨٥٤ هـ = ١٤٥٠ قد وكدته المصادر الصينية تمامًا بما فى ذلك توافق التواريخ[٩٨] . أما اهتمام على أكبر بالمسائل التجارية فيبدو جليًا فى تركيز انتباهه على تجارة الصين مع البلدان الإسلامية ، وهو يفرد أهمية خاصة من بين السلع التى يذكرها للخيل والأنسجة والجوهرات[٩٩] . وقد اجتذب أنظاره بصورة خاصة الخزف الصينى الذى يصفه بالتفصيل ويقدره تقديرًا عاليًا ؛ ولعل هذا لم يكن من قبيل الصدفة إذ بدأت المصنوعات الخزفية الصينية فى هذه الآونة بالذات تظهر بكميات كبيرة فى قصور السلاطين باستنبول[١٠٠] .

ويمكن استنادًا على أقسام كتابه التى فى متناول الأيدى ، وأيضًا على الدراسات التى كرست له أن نقرر بثقة تامة أن العلم يدين له بوصف مفصل وهام للغاية لبلاد الصين فى عهد أسرة المنغ Ming عندما تولى العرش تشنغ - ته Cheng-te حوالى عام ١٥٠٦ ، أو بمعنى آخر فى ذلك العصر بالذات الذى ينفرد بعدم وجود أى شيء بصدده فى مصادر غير صينية . والوصف يعتمد من جهة على ملاحظات المؤلف الشخصية التى يمكن الاعتماد عليها ، أما من جهة أخرى فهو يعتمد على المعلومات التى جمعها داخل الصين ؛ ويمكن مقارنته من حيث سعة المادة وقيمتها بأفضل وأحفل ما عرف من أوصاف الصين[١٠١] .

وعلى الرغم من كل ما حظى به الأدب الفارسى من رعاية فى كنف سلاطين آل عثمان فإن مصنف على أكبر يمثل بالنسبة للأدب الفارسى فى حد ذاته حالة عرضية . أما إحدى المراكز الكبرى للأدب الفارسى فى القرن السادس عشر فكانت الهند حيث نلتقى فى أواخر ذلك القرن بأثر لا يتمتع فقط بحق الانضواء إلى الآثار التى تعالج الجغرافيا بل إنه يحتل مركزًا ليس بالضئيل وسط المؤلفات ذات السمعة العالمية من الطراز نفسه ، ذلكم هو « آئين أكبرى » المشهور لأبى الفضل .

كان أبو الفضل العلامى (٩٥٨ هـ - ١٠١١ هـ = ١٥٥١ - ١٦٠٢)[١٠٢] كاتمًا 528

---

(٩٨) - Kahle, Khitayname, p. 99

قارن : Barthold, El, II, p. 750

(٩٩) - Schefer, Notice, p. 29

(١٠٠) - Kahle, Khitayname, p. 106

(١٠١) شرحه ، ص ١٠٩

(١٠٢) - Reinanud, Introduction, p. CLXII - CLXIX - Beveridge, p. 89 - 90 - Carra de Vaux, Les Penseurs, I, p. 318-330 - Krymski, Istoria persii, III, 1, p. 186 - 192 - Blochmann and Jarrett.

لأسرار السلطان أكبر (١٥٤٢ – ١٦٠٥) ووزيره الأول ، وهو ينحدر من أسرة عريقة اشتغلت بالأدب والعلم أصلها عربى ولكنها سكنت الهند منذ وقت بعيد . وقد اكتسب أخوه فيضى الشهرة كشاعر باللغة الفارسية ، وكانت له هو نفسه صلة وثيقة بالأدب وترك لنا ترجمة «لكليلة ودمنة » بالفارسية بعنوان « عيار دانش »[١٠٣] . غير أن اهتمامه اتجه منذ سن مبكرة إلى البحوث الدينية ؛ وفى عام ٩٨١ هـ = ١٥٧٣ قُدّم إلى السلطان أكبر على أنه أديب شاب يرجّى منه الكثير فأصبح على الفور معاونه وشريكه الغيور فى تثبيت قواعد عقيدة شاملة ، بل إن المصادر الشرقية وبعض الباحثين الأوروبيين ينسبون إليه دوراً رئيساً فى هذه الحركة أحياناً.

وبشخص أكبر يرتبط مؤلفه الأساسى وهو تاريخ « أكبر نامه » الذى يقع فى ثلاثة مجلدات كبيرة ؛ والمجلد الأول منها أتمه فى عام ١٥٦٥ وينقسم إلى قسمين أحدهما يعالج تاريخ الأسرة التيمورية خاصة بالهند كما يعالج أيضًا تاريخ سلاطنة الأسرة السابقين لأكبر خاصة بابر وهمايون . والمجلد الثانى خصصه لتاريخ السلطان أكبر ، وقد ساقه المؤلف إلى لحظة تأليفه للكتاب أى أنه يشتمل على أخبار ستة وأربعين عامًا . أما المجلد الثالث فيحمل عنوانًا مستقلا هو « آئين أكبرى » وقد أتمه قبل وفاته بقليل ، أى فى حوالى عام ١٠١١ هـ = ١٦٠٢ ويمثل فى جوهره عرضًا كاملا لأحوال الهند فى ذلك العصر يعالج فيه مسائل الإدارة والإحصاء والاثنوغرافيا فى أوسع مفاهيمها . وأبو الفضل باستعماله للمنهج الإحصائى بصورة جدية قد سبق بهذا كما يرى بعض الباحثين العالم الفيلسوف ليبنتز Leibniz[١٠٤] . وفى نهاية هذا المجلد ترجمة لحياة المؤلف بقلمه تمثل فى حد ذاتها أهمية ليست بالضئيلة . أما أهمية المصنف فى مجموعه فتكمن فى أن المؤلف قد استطاع أن يضم إلى المراجع الأدبية العديدة الوثائق الرسمية أيضًا والذكريات الشخصية ، هذا وقد أضاف أكبر نفسه زيادات خاصة إلى الكتاب الذى كانت تقرأ عليه فصوله كلما فرغ منها أولًا بأول .

وينقسم « آئين أكبرى » من حيث تبويبه إلى خمسة كتب متنوعة للغاية من حيث محتوياتها بصورة لا يمكن معها الإحاطة بها من مجرد ذكر العناوين القصيرة داخل كل كتاب . والكتاب الأول مخصص لشخص السلطان وداره وبلاطه والمراسيم المتعلقة بذلك وكيفية تطبيقها وذلك بطريقة مسهبة للغاية ؛ أما الكتاب الثانى فيبحث فى الجهاز الضخم للحكومة بما فيه من عمال عسكريين ومدنيين كما يتحدث عن الأدباء والموسيقيين المقربين إلى البلاط ، هذا بينما يبحث

---

(١٠٣) - Horn, p. 215

(١٠٤) - Carra de Vaux, 'les penseurs, I, p. 330

529 الكتاب الثالث فى النظم القانونية / ويعطى جدولا بالدخل ، وفى الكتاب الرابع يتحدث عن الوضع الاجتماعى للهندوس وفلسفتهم وقانونهم وعن أشهر الغزاة وعن الرحّالين والطوائف بالهند ، هذا بينما يخصص الكتاب الخامس للكلام على تعاليم السلطان أكبر وأقواله المأثورة . وجميع هذه العناوين لا تكفى لإعطاء فكرة متكاملة عن مضمون هذا المصنف المتنوع فى مادته ، ولعلنا نوفق فى إعطاء فكرة أدق عن الكتاب إذا أوردنا حكم رينو Reinaud عليه(١٠٥) عندما وصفه بأنه سفر جامع يقدم وصفًا شاملا للدولة من النواحى الجغرافية والطبيعية والتاريخية تصحبها جداول إحصائية مسهبة . ويقدم لنا المؤلف وصفًا مفصلا لكل واحدة من المقاطعات الست عشرة فيحدد مواضع المدن والأماكن المختلفة ويعطى قائمة بالمحاصيل الطبيعية والصناعية كما يورد أسماء الجماعات الوثنية والمسلمة ؛ وهو يولى اهتماماً خاصاً كما رأينا للوضع العسكرى للدولة ونظام بلاطها الخ . وفى الخاتمة يفرد قسما للكلام على البراهمية Brahmanism وفلسفة الهندوس والفرق المحلية المختلفة . ويمكن إعطاء فكرة من تنوع مادة الكتاب من أقسامه تلك التى أدخلها فيران Ferrand فى مصنفه الجامع عن الشرق الأقصى(١٠٦) مثل تحضير العطور والمسائل البحرية ووصف بلاد البنغال وتوزيع المقاطعات بحسب الأقاليم .

أما من وجهة نظر المادة الجغرافية الصرفة فمن الملاحظ أن « آئين أكبرى » يقدم لنا جدولا مفصلا للأقاليم السبعة مع الإشارة إلى خطوط الطول والعرض فيما يتعلق بمواقع النقاط الجغرافية الرئيسة(١٠٧) وهو يعتمد فى هذا اعتمادًا أساسيًا على البيرونى(١٠٨) ؛ ولعله ليس دون تأثير هذا الأخير يرد لدى أبى الفضل ذكر قلعة كنكدز الأسطورية الواقعة فى الطرف الشرقى للمعمورة والتى مر بنا الكلام عليها من قبل(١٠٩) . وعلاقة أبى الفضل بالبيرونى لم تأت عرضًا فهو قد أفاد منه كثيرًا وبصورة منتظمة(١١٠) ، بل إن كتاب « الهند » للبيرونى هو أقرب النماذج « لآئين أكبرى » ، هذا إذا تركنا جانبًا موسوعات عهد المماليك التى ربما لم يكن له علم بها . ويرى أحد المتخصصين

(١٠٥) - Reinaud, Introduction, p. CLXVII - CLXIX

(١٠٦) - Ferrand, Relations, II, p. 542 - 555

(١٠٧) - Blochmann and Jarrett, III, p. 46 - 105

(١٠٨) - Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 183

(١٠٩) - Blochmann and Jarrett, III, p. 20, 49 - Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 140, note 3

(١١٠) - Blochmann and Jarrett, III, p. V - VII

فى دراسة « آئين أكبرى » ، وهو جاريت Jarrett ، أن أبا الفضل قد أخذ فكرة كتابه عن كتاب البيرونى بل واستعار منه طريقة تبويبه للمادة[١١١] ، غير أنه من الصعب فى الحقيقة المقارنة بين المؤلفين ناهيك بما بينهما من اختلاف هائل . ولا يكمن هذا الاختلاف فقط فى أن أبا الفضل على خلاف البيرونى لم يكن يعرف السنسكريتية[١١٢] أو لم تكن له معرفة البيرونى العميقة بالعلم اليونانى ؛ كلا بل إن الاختلاف بين الاثنين يتركز بصورة خاصة فى أن مؤلف كتاب « الهند » كان / بحاثة بمعنى الكلمة وقام شخصيًا بفحص جميع المسائل التى كتب عنها هذا على حين كان 530
أبو الفضل فى معظم الأحوال نقالة وإن لزم الاعتراف بأنه كان أمينًا ودقيقًا فى نقله[١١٣] ، وحفظ لنا إلى جانب ذلك كمية من المعلومات من مصادر مفقودة[١١٤] .

هذا وقد تم الاعتراف بأهمية هذا الأثر منذ القرن الثامن عشر كمصدر مهم لا تقتصر أهميته بالنسبة لعصره وحده ، ولا يزال يتمتع إلى أيامنا هذه بتقدير كافة العلماء رغمًا مما وجه إليه من نقد لا يخلو من الصحة . ويرى ناشر الكتاب ومترجمه إلى الانجليزية بلوتشمان Blochmann أن « أكبر نامه » فريد فى أهميته من بين جميع تواريخ الهند الإسلامية[١١٥] ويمتاز بالصدق والأمانة ويكشف عن معرفة متينة بالوثائق وبكافة فروع الإدارة الحكومية[١١٦] ؛ وفضلا عن هذا فإن الكتاب لا نظير له بين المؤلفات الأخرى لأنه يعكس بصورة جلية صادقة حياة الشعب الهندى فى تلك الآونة التاريخية[١١٧] . وقد أضر بأبى الفضل بعض الشىء أسلوبه المتكلف المصنوع الذى يذكّر بأسلوب النثر الفارسى المتأخر هذا إلى جانب ما يعتريه أحيانًا من غموض يجعل فهمه عسيرًا فى بعض الحالات ؛ ويعتقد جاريت أن ميزات أبى الفضل ككاتب قد بولغ فيها[١١٨] وجاء على لسانه ما نصه حرفيًا : « إن الميزة بل والميزة الوحيدة لآئين أكبرى تكمن فى المادة التى يرويها لا فى أسلوب عرضه لها الذى لا يرتفع إلى درجة عالية . وهو جدير بالتخليد بين الأجيال التالية بسبب

---

(١١١) شرحه ، ص ٥
(١١٢) شرحه ، ص ٤
(١١٣) شرحه ، ص ٦
(١١٤) - Validi, GZ, XL, p. 369
(١١٥) - Blochman and Jarrett, I, p. V
(١١٦) شرحه ، ص ٥
(١١٧) شرحه ، ص ٤ – ٥
(١١٨) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ٤

منهجه الفريد فى جمع ما يتعلق بنظم الإدارة والإشراف فى دواوين الحكومة المختلفة فى دولة كبرى مسجلا إياها بأمانة فى أدق تفاصيلها ومدعمًا عرضه بمجموعة هائلة من الأمثلة الواقعية التى تبين ضخامة هذه الدولة وسعة امكاناتها وأحوال سكانها وصناعاتها الخ »(١١٩) .

ويمكن القول بكثير من الثقة أن قيمة « آئين أكبرى » لا تقتصر حتى فى أيامنا هذه على جانبه التاريخى وحده ، وقد عبر واحد من كبار مؤرخى التطور الحضارى للشرق الأدنى وهو كارا دى فو عن رأيه فى هذا الكتاب بما يأتى : « وبالاختصار فهذا أثر لا مثيل له ، وهو يفيض بالحياة والحركة وبالأفكار والمعرفة الجمة فقد بحثت فيه جميع مظاهر الحياة الاجتماعية وتم تنظيمها وتصنيفها بصورة مدهشة. وبهذا فهو يمثل وثيقة هامة يحق للحضارة الشرقية أن تفخر بها »(١٢٠).

وبعد استماعنا لهذه الآراء السديدة فلسنا بحاجة إلى تبرير إدخال « آئين أكبرى » فى عرض عام للجغرافيا ؛ ولن يكون السبب الوحيد لذلك بالطبع علاقته بمؤلف البيرونى العظيم .

وثمة أثر آخر باللغة الفارسية ظهر فى حوالى ذلك الوقت وارتبط بعض الشيء بالوسط الذى ظهر
فيه كتاب أبى الفضل يمكن أن يجتذب أنظارنا / بعنوانه وهو « هفت إقليم » (أى الأقاليم 531
السبعة) رغما من أنه ليس مصنفًا فى الجغرافيا العامة كما يمكن الاستنتاج بسهولة من عنوانه بل يمثل معجما فى السير وزعت مادته على أساس جغرافى ، فليس غريبًا إذن أن يطغى عنصر السيِّر على الكتاب(١٢١) . غير أن هذا الكتاب يحتوى على مادة جغرافية ضخمة جعلت الباحثين المعاصرين يعترفون بأهميته بالنسبة للسير وللجغرافيا على السواء(١٢٢) . ومؤلفه أمين أحمد رازى(١٢٣) غير معروف لنا جيدًا ؛ وأصله من الرى وينحدر من أسرة غنية من أهل المناصب كان لبعض أفرادها صلة بالهند أيام السلطان أكبر ، ويلوح أن مؤلفنا نفسه قد زار الهند فى تلك الآونة . وقد أتم مؤلفه الضخم * فى عام ١٠٠٢ هـ = ١٥٩٤(١٢٤) بعد عمل دام ستة أعوام ، وهو يحتوى على ألف

---

(١١٩) شرحه ، ص ٧

(١٢٠) - Carra de Vaux, Les penseurs, I, p. 329

(١٢١) - Browne, Literary History, IV, p. 448

(١٢٢) - Minorsky, Les études, p. 292

(١٢٣) - Reinaud, Introduction, p. CLXIX - Browne, Literary History, IV, p. 448
- Berthels, Razi, p. 1228 - 1229 - Abdul Muqtadir, p. IV - V

* ظهر فى ثلاثة أجزاء بطهران فى طبعة غير علمية . (المترجم)

(١٢٤) - Browne, Literary History, IV, p. 448

التاريخ : ١٠٢٨ هـ = ١٦١٩ غير صحيح

وخمسمائة وستين ترجمة لسير مشاهير الصوفية والكتاب والشعراء وعظماء التاريخ موزعة بحسب أماكن ميلادهم على المناطق المختلفة للأقاليم الجغرافية السبعة المشهورة ؛ ونحن نعلم جيدًا أن كل إقليم كان يرتبط وفقًا للمذهب القديم بكوكب سيّار[١٢٥] . ويوجد فى البداية جدول يبين مواقع الأماكن الجغرافية فى الأقاليم المختلفة[١٢٦] ، ثم إن كل إقليم على حدة يحتوى على مقدمة تمهيدية موجزة ذات طابع جغرافى تاريخى ، فبلاد هندستان مثلا يصحبها ملخص تاريخى عن فتوح المسلمين بها . ولا يخلو الحال مع مدينة أو منطقة من إيراد تاريخها وعجائبها ومحاصيلها الرئيسية[١٢٧] . ويبدأ العرض بالطبع بالإقليم الأول الذى يضم اليمن وبلاد الزنج والنوبة والصين (چين) وسرنديب (سيلان) وجابلسا ، وينتهى بالإقليم السابع الذى يضم بلغار وصقلاب وباطك وباطن الروم وجابلقا ويأجوج ومأجوج . ومن هذا السرد يتبين لنا أن ذكر البلاد الأسطورية ما زال باقيًا ، مثل جابلسا أو جابلقا التى ورد ذكرها عند المفسر والمحدث المشهور ابن عباس فى القرن الثامن الميلادى اعتمادًا على أساطير مرتبطة بالكتاب المقدس ، كما لا يزال المذهب القديم فى توزيع البلاد الذى رسخ وثبتت جذوره لدى ممثلى الجغرافيا الكلاسيكية والرحالين منذ القرن العاشر محتفظًا بكامل قوته . وبالطبع فأحمد أمين رازى لم يورد أية سير لشخصيات ترتبط بهذه البلاد الأسطورية ؛ كما أن قائمة البلاد فى الأقاليم الأخرى تحمل طابعًا أكثر واقعية فالإقليم الثانى مثلا يرد فيه ذكر البلاد الآتية مع تقسيمها أحيانًا إلى أجزاء أصغر : مكة والمدينة واليمامة وهرمز والدكن (بنواحيها السبع) وأحمد أباد وكنبال وسورات وسومنات وناكور والبنغال (مع عدد من النواحى) وأوريسا . وهكذا تشغل الهند مكانة جوهرية تقتسمها مع إيران فى بقية الأقاليم
/ . وإلقاء نظرة على القائمة الكاملة للبلدان[١٢٨] خير دليل على ما تمتعت به النظرية القديمة 532
للجغرافيا التقليدية من تماسك ومقاومة فى جميع تفاصيلها إلى نهاية القرن السادس عشر ، وذلك على الاتساع غير المعهود الذى طرأ آنذاك على الأفق الجغرافى من وجهة النظر العملية .

هذا وترد السير داخل الأقاليم المختلفة وفقًا للتتابع الزمنى ، فتمر أمام ناظرينا أسماء من ولدوا فى كل منطقة من الشعراء والعلماء والمشايخ والأمراء الذين تولوا الحكم فى نقاطها المختلفة ؛ ويولى

---

(١٢٥) - Reinaud, Introduction, p. CLXIX

(١٢٦) - Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 183

(١٢٧) - Abdul Muqtadir, p. IV

(١٢٨) -Berthels, Razi, p. 1229 (غير صحيح) -Abdul Muqtadir, p. IV-V

المؤلف اهتمامًا خاصًا لكبار الصوفية ويحتل مركز الأهمية فى الكتاب بالطبع ممثلو الثقافة الفارسية، وبما أن الكتاب تغلب عليه المادة الأدبية فإننا نجد أنفسنا بحسب ألفاظ باربييه دى مينار Barbier de Meynard[(١٢٩)] أمام «ضرب من الجغرافيا الأدبية يخلو من أية قيمة علمية ولكنه يحفل بتفاصيل هامة عن كبار الكتاب الفرس». وفى الحقيقة فإن لكتاب أحمد أمين رازى أهمية غير عادية بالنسبة لتاريخ الأدب الفارسى خاصة الشعر[(١٣٠)]؛ غير أن المؤلف لا يكشف بصدد الموضوعات الأخرى عن أية معرفة كبيرة ويسوق فى معظم الحالات قصصًا عادية للغاية استقاها من مصادر متداولة[(١٣١)]. ورغما من هذا فإنه يمكن العثور لديه حتى فيما يخص موضوعات جغرافية صرفة على تفاصيل غير متوقعة، ويميل أحمد زكى وليدى إلى الاعتقاد بأن المؤلف كانت فى متناول يده جغرافيا رشيد الدين التى لم يعثر عليها حتى الآن*[(١٣٢)]. غير أنه يجب الاستدراك على هذا بقولنا إن إشارة أحمد أمين رازى إلى كتاب يرتفع إلى العصر المغولى بعنوان «صور الأقاليم» وهى التى استند عليها أحمد زكى وليدى فى استنتاجه هذا، ليس هناك ما يجعلها تقتصر بالضرورة على مؤلف رشيد الدين بالذات. ومهما يكن من شىء فإن مصنف أحمد أمين رازى ذو أهمية كبرى بالنسبة لموضوع دراستنا لأنه يقف دليلا على الحيوية الفائقة التى تمتعت بها نظرية قديمة هى نظرية تقسيم الأرض إلى أقاليم سبعة بما يتبعها من تقسيمات داخلية، هذا بالرغم من أن وقائع الأحوال أخذت تتعارض مع مضمون هذه النظرية. وللبرهنة على هذا يجب ألا يعزب عن بالنا أن كتاب «هفت إقليم» قد تم تدوينه بعد مائة عام من اكتشاف أمريكا.

بل إنه بعد قرن من هذا عندما وجدت المادة الجديدة طريقها عرضًا إلى الجغرافيين الفرس، فإنها لم تترك أثرها لا على مادة المؤلفات أو نمطها ولا على مضمونها العام؛ وخير مثال لهذا مصنفان صغيران لميرزا أحمد صادق الأصفهانى الآزادانى (توفى حوالى عام ١٠٩١ هـ = ١٦٨٠)[(١٣٣)]، وكلاهما معروف فى ترجمة إنجليزية منذ عام ١٨٣٢ يرجع الفضل فى ظهورها إلى أوزلى V. Ouseley[(١٣٤)]. ويبدو من نسبة الآزادانى أنه ينتمى إلى محلة صغيرة قرب

---

(١٢٩) - Barbier de Meynard, Dictionnaire, p. XX

(١٣٠) - Berthels, Razi, p. 1229

(١٣١) - Reinaud, Introduction, p. CLXIX

(١٣٢) - Validi, GZ, XL, p. 369 and note 3

* من الأفضل مراجعة ملاحظتنا بصدد كلام المؤلف على مصنف رشيد الدين الجغرافى. (المترجم)

(١٣٣) - Reinaud, Introduction, p. CLXXIII, note 1, CDLIV - Ferrand, Relations, II, p. 559 - 562

(١٣٤) راجع Ouseley

اصفهان[١٣٥] / ولكن يلوح أن لديه معرفة مباشرة بالهند[١٣٦] لأن مواضعها الجغرافية تكثر فى مصنفيه لدى مقارنة ذلك بالأقطار الأخرى باستثناء إيران بالطبع . وتنسب إليه مؤلفات أخرى معظمها فى مجال التاريخ نذكر من بينها مؤلفًا كبيرًا فى التاريخ العام[١٣٧] يرجع تأليفه إلى حوالى عام ١٠٤٥ هـ = ١٦٣٥[١٣٨] . 533

ومصنفاه الجغرافيان ينتميان إلى طراز الجداول الفلكية ويبدو أنهما يرتبطان بعضهما ببعض ارتباطًا وثيقًا . وعنوان أولهما وهو « تقويم البلدان »[١٣٩] يذكرنا بأبى الفدا ، وهو يعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا فى حقيقة الأمر[١٤٠] . والكتاب عبارة عن قائمة أبجدية لمختلف البلدان والمدن والأنهار وغير ذلك من الظواهر الجغرافية ، ويصحب هذا توضيحات موجزة مع الإشارة إلى خطوط الطول والعرض مبتدئا حسابها كما هى العادة من جزر الخالدات . أما الكتاب الثانى الذى كما يبدو قد حمل عنوان « تحقيق الإعراب فى أسماء البلاد »[١٤١] فإنه يقدم لنا بالتقريب مادة الكتاب الأول نفسها وهدفه على ما يبدو هو ضبط الأسماء الجغرافية الموجودة بالقائمة الأولى ، وتوضيحاته فى هذا الصدد مفصلة بعض الشىء وإن كان يخلو بطبيعة الحال من أى ذكر لخطوط الطول والعرض . وكما بين أوزلى Ouseley[١٤٢] فإن محمد صادق يضيف أحيانًا إلى قائمته أسماء غير موجودة فى مصادر أخرى ، ولكن غير مفهوم قصده من إقحام لأسماء شخصيات تاريخية من وقت لآخر فى قائمة جغرافية (كاسم مزدك وططش)[١٤٣] .

ومن الملاحظ أن كلا الكتابين يخلو من مقدمة أو أية إشارة إلى المصادر ؛ غير أن مصادرهما واضحة بالنسبة لنا . فإلى جانب أبى الفدا يعتمد المؤلف اعتمادًا أساسيًا على الجداول الفلكية لنصير الدين طوسى ولألوغ بيك[١٤٤] ومن وقت لآخر على مصنف حمد الله قزوينى[١٤٥] . وقد

---

(١٣٥) Quseley, p. VI -

(١٣٦) شرحه - Ferrand, Relations, II, p. 559

(١٣٧) Quseley, p. V - VI -

(١٣٨) شرحه ، p. VI

(١٣٩) شرحه ، ص ٦٠ – ١٤٧

(١٤٠) Reinaud Introduction, p. CDLIV -

(١٤١) Quseley, p. 1 - 57 -

(١٤٢) شرحه ، p. VIII

(١٤٣) شرحه ، p. X

(١٤٤) Reinaud, Introduction, p. CDLIV -

(١٤٥) Quseley, p. V, VII -

اعتقد أوزلى عند نشره لترجمة الكتابين أن قائمتى محمد صادق تستطيعان من حيث الأهمية أن تقفا جنبًا إلى جنب مع جداول طوسى وألو غ بيك ، غير أن هذا الرأى لم يكتب له القبول ، فقد كتب رينو بعد ذلك بسنوات قليلة يقول بأن هذين الأثرين ليسا على أهمية تذكر من الوجهة الجغرافية[١٤٦] لأن معلومات المؤلف فى مجال الجغرافيا الرياضية غير شاملة كما أن آراءه فى هذا الصدد لا تتمتع بقيمة ذات بال[١٤٧] .

534 ويمكن أن تحظى ببعض الطرافة بالنسبة لنا ملاحظة صغيرة وردت لديه ، فالموضع الأخير فى قائمة « تحقيق الإعراب » يحتلها لفظ « ينكى دنيا »[١٤٨] (أى الدنيا الجديدة ،يريد بذلك أميريكا) ؛ وهذه التسمية التى ترجع إلى أصل تركى وأيضًا الأسطر التى يعالج فيها الكلام عليها تبين لنا من أين وقع هذا الاسم الجديد إلى هذه القائمة العتيقة فى مجموعها . وهو يعلم تمام العلم عن اكتشاف ذلك الجزء الجديد من العالم المدعو أميريكا ، ولكن متى تم هذا وكم مضى عليه من القرون فإن محمد صادق ليس بمقدوره أن يشبع رغبتنا فى هذا الصدد وإن كان على علم بأن الأوروبيين أبحروا مرارًا إلى تلك الجهات وأن خبر ذلك وصل إلى الأتراك العثمانيين . وعن هؤلاء الأخيرين بالطبع أخذ المؤلف هذا الخبر ؛ وسنرى فيما يلى من الكتاب أن الجغرافيا لدى الأتراك العثمانيين قد تفوقت بكثير على الجغرافيا عند الفرس فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ليس ذلك فحسب بل لقد تفوقوا فى نواح معينة على الجغرافيين العرب أنفسهم . هذا وقد ظلت الجغرافيا الفارسية حتى بعد عهد محمد صادق مقيدة إلى النظريات القديمة بحيث لم تستطع المعلومات الجديدة التى وجدت طريقها عرضًا إليها أن تخرجها من إطارها البالى . غير أن هذا لم يمنع من ظهور مؤلفات كبيرة فى خلال القرن السابع عشر نفسه ، وإن تم ذلك خارج حدود إيران فى مناطق أخرى انتعشت فيها الفارسية أيضاً . ولنقدم مثالاً لهذا مؤلفاً عاش ببخارى هو محمود بن أميرولى الذى ألف كتابًا فى التاريخ العام فى ستة أجزاء بعنوان « بحر الأسرار فى (معرفة) مناقب الأخيار » . وقد كلفه بذلك أمير بخارى من آل جانى وهو نادر محمد (١٠٥١ هـ-١٠٥٥ هـ=١٦٤٢-١٦٤٥) ، وبدأ تأليفه فى عام ١٠٤٤ هـ = ١٦٣٤ . والجزء الأول منه ينقسم إلى أربعة « أركان » ويعالج بإسهاب مسائل الكوزموغرافيا وذلك بحسب الطريقة التقليدية المعروفة لنا

---

(١٤٦) - Reinaud, Introduction, p. CLXXIII, note 1

(١٤٧) شرحه ، ص CDLIV

(١٤٨) - Quseley, p. 56 - 57

جيدًا ؛ وأهم مصادره رشيد الدين وحافظ آبرو[١٤٩] . أما أهميته كمصدر تاريخى فقد انعكست بوضوح كاف فى بحوث بارتولد وزكى وليدى .

وقد تم اطراح المذهب القديم السائد فى الأدب الجغرافى الفارسى شيئًا فشيئًا خلال القرن التاسع عشر فقط ؛ وبعض ظواهره تمثل طرافة معينة لدى مقارنتها بما سنقوله عن الأدب العربى فى ذلك العصر نفسه*

ولكن حتى فى خلال تلك الفترة يمكن أن نلتقى أحيانًا بعدد من الآثار التى تحتل أهمية بالنسبة للأدب الجغرافى لا من وجهة نظر الوقائع التى توردها فحسب بل أحيانًا لمحاولتها الأصيلة فى الجمع بين الأنماط المختلفة . وبما أن القول بالقول يذكر فمن الملاحظ أن عددًا كبيرًا من أوصاف الرحلات إلى الخارج قد ظهر بالفارسية خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجرى (أى الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى) ؛ وكان اتجاه معظم هذه الرحلات كما كان الحال قديمًا إلى الهند ، غير أن عددًا منها ليس بالضئيل اتجه إلى أوروبا بأغراض دبلوماسية أو تجارية ، وبعضها مس روسيا سواء
بطريق مباشر أو غير مباشر[١٥٠] . / ومما يؤسف له أن جميعها معروف إلى أيامنا هذه فى مخطوطات 535
متفرقة لم تمسها يد البحث إطلاقا بالرغم من أن جميع الدلائل تشير إلى أن إخضاعها لدراسة خاصة سيعود بفوائد جمة سواء بالنسبة لدراسة الجغرافيا التاريخية للبلدان التى زارها هؤلاء المؤلفون أو بالنسبة لتحليل العصر الذى عاشوا فيه .

وتشهد بداية القرن التاسع عشر نفسه (١٢١٥ هـ-١٢١٦ هـ= ١٨٠٠ - ١٨٠١) ظهور أثر طريف عرف قسم منه فى طبعة حجرية ظهرت ببمباى فى عام ١٨٤٧ ، وهو ينتمى إلى طراز من المؤلفات سنلتقى به من وقت لآخر فيما بعد هو طراز من الجغرافيا الإقليمية المشوبة بوصف للرحلة مع معطيات عن حياة المؤلف وأسرته . وعنوانه « تحفة العالم »[١٥١] قد أفسح

---

(١٤٩) - Bartold, ZVO, XV, p. 232 - 260 - Validov, ZVO, XXII, p. 306 - Validov, ZVO, XXIII, p. 255 - 257 - Validi, GZ, XL, p. 369

* مما يؤسف له حقًا أن الأجل لم يفسح للمستعرب الكبير ليتم مصنفه بعرض تاريخ تطور الأدب الجغرافى العربى الحديث والمعاصر ، فكتابه يقف عند الفصل الرابع والعشرين الذى يعالج الكلام على القرن الثامن عشر . (المترجم)

(١٥٠) - Rieu, Catalogue of the Pers. Manuscripts, I, p. 381, No Or. 1119; p. 387 - 388, No Add. 22, 034

(١٥١) راجع عنه : شرحه ، p. 383 - 384, No Add. 23, 533

المجال لبعض الخلط لما يرتبط به من لعب بالألفاظ ؛ فاللفظ الثانى من العنوان فيه إلى جانب معناه الأصلى إشارة إلى لقب « العَلَم » وكان يحمله وزير نظام حيدر أباد مير علم الذى رفع المؤلف مصنفه إليه .

ومؤلف هذا الكتاب عبد اللطيف الشسترى (أو الششترى) ولد كما تشير النسبة بمدينة شُشتر فى عام ١١٧٢ هـ = ١٧٥٨ وينتمى إلى أسرة محلية عريقة ؛ وقد ترحل كثيرًا فزار أجزاء من إيران مثل شيراز وكرما نشاه كما زار بغداد أيضًا . وفى عام ١٢٠٢ هـ = ١٧٨٨ أخذ سفينة من ميناء البصرة فنزل بأرض البنغال وأمضى فترة طويلة بالهند ؛ ومما يثبت هذا تاريخ تصنيف الكتاب والشخص الذى رفعه إليه . ويبدأ المصنف بوصف مسهب لمسقط رأس المؤلف ششتر موردًا تفاصيل عديدة عن إنشائها ووصفًا مهمًا لنظام الرى بها . وتحظى بالوصف المفصل نفسه المدن القريبة منها ومنطقة الأهواز ودزفول والمدائن ؛ ويلى هذا استطراد مسهب يحتوى تراجم لأفراد أسرة نورى سيد التى ينتمى إليها المؤلف نفسه ، وفى القسم المضاف إلى هذا والذى يعالج الكلام على سيرة مؤلف الكتاب يرد الكلام عن تاريخ الهند ووصف لكلكتا والبنغال ولحيدر أباد والدكن . وفى خلال هذا يقدم لنا المؤلف معلومات مفصلة بما فيه الكفاية عن توطيد بريطانيا لأقدامها بالهند وعن الإنجليز أنفسهم كما يعالج الكلام عن أميريكا وبعض دول أوروبا معتمدًا فى ذلك على المعلومات التى جمعها أثناء رحلته من أناس مختلفين كان من بينهم بعض الأوروبيين . وهكذا فالكتاب يقترب إلى حد ما من الأوصاف الجغرافية العامة للعالم ، مبررًا بهذا اختيار المؤلف للعنوان الذى أعطاه إياه . ومن المؤكد أن أهمية أقسامه الأخيرة تتركز فيما تقدمه لنا من معلومات عن المؤلف نفسه أكثر مما تقدمه عن الموضوعات التى يطرقها ؛ أما الأقسام الأولى التى تعالج الكلام بصورة خاصة على منطقة إيران الغربية فإنها تحتوى على مادة لا بأس بها من مجال الجغرافيا التاريخية لتلك المنطقة .

وفى وقت واحد بالتقريب مع ظهور « تحفة العالم » ظهر بالهند وصف لرحلة إلى أوروبا اكتسب بالتالى رواجًا نسبيًا فى الغرب بفضل الترجمات التى عملت له ؛ أما مؤلفه ميرزا أبو
طالب خان بن حاجى / محمد بيك خان فهو تركى الأصل ولكنه ولد بلكنو بالهند فى سنة 536
١١٦٥ هـ = ١٧٥٢ واتصل منذ وقت مبكر بالإنجليز وشغل معهم عدة أعمال فى الفترة ما بين ١٧٩٥ و ١٨٠٢ . ثم صحب أحد هؤلاء وهو الكابتن ريتشاردسون D. Richardson الذى

أقام فترة طويلة بالهند فى رحلة إلى أوروبا فزار انجلترا وغيرها من البلاد ورجع إلى وطنه عن طريق القسطنطينية حيث تعرف فيها بفون هامر Hammer ؛ ومن المؤسف أن الأخير لا يذكر عنه شيئًا فى « ذكرياته » (Erinnerungen) باستثناء حكاية تافهة[١٥٢] . وعقب رجوعه إلى كلكتا وضع فى عام ١٨٠٣ وصفًا لرحلته بعنوان « مسير طالبى فى بلاد افرنجى » ، طبع بكلكتا فى عام ١٨١٢ وذلك بعد وفاة المؤلف (توفى فى حوالى عام ١٨٠٦) . ويرجع الفضل إلى الإنجليز فى تعريف أوروبا سريعًا بهذه الرحلة ، فقد ظهرت ترجمة إنجليزية لها حوالى عام ١٨١٤ بلندن بقلم استوارت Stewart تلتها ترجمة أخرى مختصرة فى عام ١٨٢٧ بكلكتا بقلم ماكفرلين Macfarlane نقلها إلى الفرنسية منذ عام ١٨١٩ مالو Malo[١٥٣] .

ويقترب المصنف من حيث طرازه من أوصاف الرحلات التركية العديدة المعروفة باسم « سفار تنامه » التى ظهرت فى القرن الثامن عشر ، وهى أوصاف للسفارات التى بعث بها الباب العالى إلى مختلف الحكومات الأوروبية . ويقدم لنا المؤلف فى مواضع من مصنفه لوحة حية لما رآه من البلاد ولمن قابلهم من الشخصيات وإن كان الوصف لا يخلو فى العادة من بعض السطحية ؛ وكما يحدث مرارًا فى مثل هذه الأحوال فإن الكتاب أكثر قيمة لتفهم شخصية المؤلف نفسه مما بالنسبة للموضوعات التى يطرقها ؛ أما اهتمام أوروبا المعاصرة له بمثل هذه الأشياء فأمر مفهوم للجميع .

وأكثر أهمية من تلك الرحلة بل وأوسع مدى من وجهة النظر الجغرافية مع ميول أدبية واضحة وصف لرحلة بعنوان « بستان السياحة » تم تأليفه فى عام ١٢٤٧ هـ = ١٨٣١ - ١٨٣٢ ويوجد فى طبعة حجرية ترجع إلى عام ١٣١٠ هـ = ١٨٩٢ - ١٨٩٣[١٥٤] ؛ وأول من عرّف الدوائر العلمية الأوروبية بهذه الرحلة (وذلك تحت عنوان « رياض السياحة ») هو المستشرق الروسى خانيكوف Khanikov وذلك فى خطاب بعث به إلى المستشرق دورن Dorn من نعمتاباد

---

(١٥٢) - Hammer, Erinnerungen, p. 138 - 139

(١٥٣) - References: EI, I, p. 115 - 116, with reference to: Elliot and Dowson, Hist. of India, VIII, p. 298 sui; Rieu, Catalogue of Pers. Manuscripts, I, p. 384, No. Add. 8145 - 8147. Transl.: Stewart, London. about 1814; D. Macfarlane, Calcutta, abridged, 1827, Malo, Mirza Aboul Taleb Khan

(١٥٤) - Browne, Literary History IV, p. 450 - 452

يحمل تاريخ ٤ – ١٦ سبتمبر ١٨٥٦ (١٥٥) وكانت بين يديه مخطوطة تضم القسم الأول وحده . ومؤلفه زين العابدين الشروانى يمثل طرازًا من الناس نلتقى به كثيرًا بين الفرس فى جميع العصور ، وهو الباحث عن الحقيقة المجردة الذى يدفعه شوق لا يكبح جماحه ليصير صوفيًا متجولا يضرب فى الآفاق . والرجل يمثل أهمية خاصة بالنسبة لنا فى الاتحاد السوفيتى لأنه ولد فى عام ١١٩٤ هـ = ١٧٨٠ بشماخة ولكن والده أخذه معه وهو فى سن الخامسة عندما قرر مغادرة القوقاز سنوات المحنة ليقيم بكربلاء معقل الشيعة . وهناك عاش زين العابدين إلى أن بلغ سن السابعة عشرة يدرس
537 خلال ذلك العلوم الإسلامية المعهودة ؛ / ولكنه فى تلك السن ساوره الشك حول موضوع دراسته ووقع فريسة لقلق فكرى شديد فبدأ تجواله الذى امتد لسنوات طويلة كان يبحث فى خلالها عن العلم الصحيح والحقيقة . فزار العراق (بغداد) وعاش طويلا بكيلان وزار مسقط رأسه شروان ومر فى طريقه على مناطق عديدة فى القوقاز وآذربيجان ، ثم ضرب صوب الشرق فمر على خراسان فى طريقه إلى أفغانستان ثم إلى الهند فكشمير فبدخشان ، ومن هناك انتقل إلى تركستان وبلاد ما وراء النهر ومنها اتجه جنوبًا صوب الخليج الفارسى ثم زار اليمن والحبشة والحجاز ومصر وسيناء وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى ؛ ويلوح أنه زار أيضًا جزر البحر المتوسط ومراكش . ورجع عقب هذا إلى إيران مارًا فى طريقه على أرمينيا وأقام بعض الوقت بطهران وهمدان واصفهان وشيزار وكرمان . واختار فى آخر الأمر مقرًا له فى محلة صغيرة على مقربة من اصفهان تسمى قومش وهناك وافاه أجله فى الثلاثينيات من القرن الماضى . وهو بالطبع لم يعثر على الحقيقة التى كان يجرى وراءها ، لذا فإن خاتمة قصته التى دونها لسيرة حياته تفيض بالتشاؤم التام ويطغى عليها شعور بالحسرة وخيبة الأمل (١٥٦) ؛ إزاء هذا فلم يتبق له كما يقول هو سوى رغبة واحدة هى تدوين جميع ما مر به خلال خمس وعشرين سنة وإعطاء فكرة عن العدد الهائل من الناس الذين حادثهم فى المسائل التى أقلقت باله (١٥٧) . ويلوح أنه كان مخلصًا فى هذا الشعور ؛ وعلى أية حال فهو لم يتحرج عن التعبير بصراحة عن رأية فى الفرق الإسلامية المختلفة الذى حدث له وأن التقى بها (١٥٨) . فهو إذن صوفى متشكك جعل هدفه قبل كل شىء مقابلة العلماء والمتصوفين الذين كان ينهى محادثته معهم عادة

---

(١٥٥) - Khanikov, Mél.As., III, p. 50 - 59

(١٥٦) متن ترجمة زين العابدين الشروانى لسيرة حياته لدى : Khanikov, Mél.As,. III, p. 56 - 58

(١٥٧) شرحه ، ص ٥٦ – ٥٧

(١٥٨) شرحه ، ص ٥٨

بجدل وخصومة شديدين .

وكتابه بالطبع لا يمثل سردًا متتابعًا للرحلة ، كما أن ميله إلى الصنعة والتنميق قد خيّم على روح القصة خاصة استعماله لعناوين متكلفة مثل « سير »(نزهة)و « كلشن »(بستان الورد) و « بهار »(الربيع) . ويمكن أن نستبين من مادة الكتاب أنه ينقسم إلى أربعة فصول ، أحدها عن الأنبياء وأئمة الشيعة الاثنى عشر ، والثانى عن العلماء والمتصوفين والشعراء ، والثالث عن الطوائف والتعاليم الدينية المختلفة ، والرابع عن المدن التى زارها مع توزيعها بحسب حروف المعجم إلى ثمان وعشرين مجموعة . أما من وجهة النظر الجغرافية فإن المادة الأخيرة التى تتضمن إلى جانب الوصف الجغرافى عرضًا قصيرًا لتاريخ كل مدينة فهى ذات أهمية كبرى خاصة وأنه استقى مادته فى كثير من الأحايين من مصادر غير معروفة لنا . وتكتسب روايته أهمية خاصة عندما تعالج الكلام عن تلك المناطق التى تعد بحسب تعبير خانيكوف « أراض مجهولة » terrae incognitae مثل كوهستان وزابلستان من جهة وجوف الجزيرة العربية والسودان والحبشة من
538 جهة أخرى(١٥٩) . والمؤلف يتمتع بدرجة عالية من حب الاستطلاع / ويخلو من الميل إلى التعصب الدينى على عكس غالبية المتصوّفة . وهو قد التقى فى طريقه ببعض الرحالة الأوروبيين وسألهم عن بلادهم . ومؤلفنا يقصد بلفظ افرنجى ثلاث مجموعات هم الفرنسيون والنمساويون والإنجليز ؛ وليس من النادر أن نلتقى لديه بآراء سطحية بالية مثال ذلك أنه يرى الروس مهرة كبقية الفرنجة (« صور تكَرى ») ولكنهم يفتقرون تمامًا إلى الروح (« جان ندارند »)(١٦٠) . وليس ثمة ما يدعونا إلى التوكيد بصورة خاصة أن كتابه يحفل إلى جانب المادة الجغرافية الخالصة بمعلومات ذات قيمة كبرى عن الأدباء والطوائف الدينية المختلفة بآسيا(١٦١) ؛ وكتاب الشروانى وإن اعتبر وثيقة إنسانية طريفة إلا أنه ينتمى بأجمعه إلى العصور الوسيطة للأدب الإسلامى .

ويمكن اعتبار الفترة الطويلة التى رقى فيها عرش إيران لمدة تقرب من نصف قرن الشاه ناصر الدين (١٨٤٨ - ١٨٩٦)(١٦٢) بمثابة فاتحة عهد جديد انتعش فيه التأليف الجغرافى بصورة

---

(١٥٩) شرحه ، ص ٥٩

(١٦٠) - Minorsky, Rus, p. 1278

(١٦١) - Browne, Literary History, IV, p, 452

(١٦٢) - Jukovski, ZVO, II, p. 280 - 281 - Bertels, Ocherk Ist. pers. lit., p. 107 - 108, 201 (bibliography) - Horn., p 213, 216 - 222

منقطعة النظير ؛ حقًا إن الأنماط القديمة كالرحلة والمعجم والوصف الإقليمى (regional) لم يقل الاهتمام بها ولكن أسلوب الكتابة قبل كل شىء طرأ عليه ولو بالتدريج تغير جوهرى فقد اطرح النثر المتكلف المشحون بالمحسنات البديعية الذى غلب على القرون السابقة وحلت محلة لغة مبسطة ذات طابع عملى سادت بدورها على المجالات الأدبية والعلمية الأخرى وعلى المؤلفات التى قصد بها دوائر أوسع من القراء .

وواحد من أوائل هذه المصنفات التى بشرت بميلاد عهد جديد ندين به إلى قلم رجل من كبار رجالات هذا العصر وهو المؤرخ الأديب الشاعر رضاقلى خان (١٨٠٠ - ١٨٧١) أحد كبار معاونى الشاه ناصر الدين ومن المقربين له ، وأول مدير لأول معهد عال بإيران « دار الفنون »(١٦٣) . وقد بعث به الشاه فى عام ١٨٥١ بسفارة إلى خيوه لتسوية بعض الخلافات الناشبة بين إيران وخانات خيوه فخلف لنا وصفًا لرحلته على هيئة يوميات تحفل بالكثير من الاستطرادات . وقد نشر الأصل والترجمة الفرنسية المستشرق شيفير Schefér وبهذا دخل الكتاب منذ السبعينيات من القرن الماضى فى مجال تدريس اللغة الفارسية بالقارة الأوروبية .

ولا تقتصر مادة الكتاب على خيوه وحدها لأن رضاقلى خان يقدم إلى جانب هذا وصفًا عامًا لطبرستان ومازندران ، كما يصف فى القسم الأخير من كتابه بخارى وفرغانه وتركستان الصينية وهرات ومرو . ولكن خيوه تحتل بالطبع مركز الصدارة لديه فهو يتكلم عن المدينة والمقاطعة على السواء بمحالها والشخصيات الكبرى التى أقامت بها ، كما يولى عناية خاصة لتاريخ خانات خيوه بالذات ، ولكنه ليس أقل اهتمامًا بعادات أهلها المعاصرين بل وبكل ما هو جدير بالاهتمام فيها ؛
539 وله فى هذا الصدد محادثات طويلة / مع الخان فى مسائل مختلفة تمس التاريخ الإسلامى . وفى الخاتمة يدون المؤلف بعض الحوادث التى تمس تاريخ العلاقات بين خيوه وإيران وجرت بعد حدوث الرحلة .

والكتاب إلى جانب أهميته بالنسبة لسيرة حياة مؤلفه يعتبر وثيقة ذات أهمية كبرى بالنسبة لتاريخ خانات خيوه استقى منه المؤرخون المتأخرون وبالذات تلميذ رضاقلى خان المدعو محمد حسن خان الذى سيمر بنا الكلام عليه بعد لحظة وجيزة . وفضلا عن هذا فهو لا يقل قيمة فيما

---

(١٦٣) - Schefer, Relation, IV, p. XVI - XIX (biography) ; same, p. XIX - XXI (opera)
- Bertels, Ocherk Ist. pers. Lit., p. 110 - 113 - Massé, EI, III, p. 1245 - 1246

يتعلق بمعطياته التاريخية والجغرافية والأثرية ، كما أنه يساعد كثيرًا على تفهم أخلاق وعادات تلك الفترة التاريخية بأجمعها ولا يقتصر على ما لاحظه المؤلف أثناء الرحلة فحسب . وفيه يرسم المؤلف لوحات واضحة للحياة المحلية بل يعطى أوصافًا جميلة لمناظر الطبيعة[١٦٤] ؛ ويتخلل القصة جميعها أمانة شديدة فى السرد وميل إلى عدم التحيز عند إصدار حكمه ، أضف إلى هذا قوة ملاحظته النافذة . أما أسلوبه فبسيط وطبيعى ولكنه يتصف بالرشاقة ولا يخلو أحيانًا من اتجاه واضح نحو القديم ، ويمكن أن نتبين إعجابه بهذا القديم فى العدد الهائل من الاقتباسات الشعرية التى تنتثر فى كتابه والتى استقى معظمها من آثار سعدى أو من شعره هو[١٦٥] . وأما من حيث المنهج فإن الكتاب يمثل أنموذجًا جيدًا الطراز محبب إلى الجمهور هدفه المزج بين الجغرافيا الإقليمية التى تستند على قاعدة تاريخية ، وبين وصف الرحلة الذى تتخلله ترجمة شخصية لحياة المؤلف .

ومن العسير القول إلى أية درجة يمكن أن تنسب إلى الشاه ناصر الدين شخصيا تلك المؤلفات الجغرافية المرتبطة عادة باسمه[١٦٦] ؛ هذا وإن كان اهتمامه بالجغرافيا ، ولو فى مفهومها البدائى ، ليس موضعاً للشك . وينعكس هذا قبل كل شىء فى رحلاته العديدة التى قام بها فى إيران نفسها حيث زار مازندران[١٦٧] وخوزستان وكربلاء وخراسان ، كما ينعكس أيضًا فى رحلاته الثلاث إلى أوروبا(١٨٧٣ ، ١٨٧٨[١٦٨] ، ١٨٨٩[١٦٩]) وهو شىء لم يكن ليفكر فيه أحد من حكام الشرق فى العهود السابقة . وكل رحلة من هذه الرحلات بالتقريب لها وصفها الخاص بها ، وقد كان وصف الرحلة الأولى أول كتاب يخرج من المطبعة الأميرية الجديدة وذلك فى عام ١٢٩١ هـ = ١٨٧٤[١٧٠] ؛ وجميعها طبع أكثر من مرة بالحجر بإيران وتحمل اسم الشاه كمؤلف كما أن عدداً منها ترجم إلى اللغات الأوروبية ؛ البعض فى ترجمات كاملة والآخر على شكل نصوص مختارة . ومن المعروف بوجه التحديد أن بعضها « حرّرته » أقلام شخصيات أخرى مثل رحلته إلى كربلاء التى ينسب تدوينها إلى محمد حسن خان / أحد معاونى الشاه المقربين إليه والذى صحبه فى 540

---

(١٦٤) - Massé, EI, III, p. 1246

(١٦٥) - Schefer, Relation, IV, p. XXIV

(١٦٦) - Bertels, Ocherk ist. pers, lit., p. 108

(١٦٧) طبعة طهران ، ١٢٩٤ هـ – الترجمة : Koriander, 1887

(١٦٨) الترجمة الانجليزية فى عام ١٨٧٤ و ١٨٧٩ ؛ راجع : Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 201

(١٦٩) طبعة حجرية عام ١٨٩١ ؛ شذور منه لدى : Horn, p. 213, 216 - 222

(١٧٠) - Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 286

أكثر من رحلة . وقد لعبت هذه الشخصية دورًا ليس بالضئيل فى تطور التأليف الجغرافى فى العصر الحديث بإيران وسنقف للكلام عليه بعد لحظة وجيزة، ومن الممكن القول بأنه لعب دورًا مشابهًا فى تحضير مسودات الأوصاف الأخرى لرحلات الشاه أو استعان فى هذا بمعاونيه العديدين.

ومهما يكن من شيء فإن أوصاف رحلات الشاه ناصر الدين من الظواهر المهمة فى الأدب الفارسى للقرن التاسع عشر ، وهى من وجهة النظر هذه قد استحقت تقدير الدوائر العلمية الأوروبية منذ عهد طويل . أما بالنسبة لنا فيهمنا قبل كل شيء رحلاته داخل إيران التى بدأت بها هذه السلسلة ؛ ويغلب على أسلوبها الرتابة والجفاف بعض الشيء ولكنها تقدم كمية هائلة من مختلف المعلومات فى محيط الاثنوغرافيا والحياة الاجتماعية والآثار والجغرافيا الطبيعية مصحوبة بملاحظات المؤلف الشخصية . وأغلب عنايته موجه بالطبع إلى مجالى الجغرافيا والطبوغرافيا فهو يبين بالتفصيل الطرق والمسافات بين المنازل وأسماء القرى والمحال والجبال والأنهار ، وكثيرًا ما ترد لديه معلومات عن مواضع كان بلوغها مستحيلا على أى شخص بخلاف الزائر العظيم(١٧١) . ويتفق المتخصصون فى الدراسات الإيرانية بالإجماع على أن أسلوب هذه الأوصاف يتمتع بميزات عديدة فهى مكتوبة بلغة منتقاة تتصف بالبساطة والوضوح وتطرح المحسنات البديعة التى كانت ما تزال غالبة فى ذلك الوقت على لغة أدباء البلاط(١٧٢) ، كما أنها تخلو من آثار الصنعة فلا توجد بها التشبيهات والاستعارات بل يحس من خلالها ميل واضح إلى التعابير المتداولة وإلى الوضوح المطلق بحيث لا تفسح مجالا للغموض أو الإبهام(١٧٣) وجميع هذه الأوصاف مكتوبة باللغة المتداولة فى الحياة اليومية(١٧٤) وبهذا فقد أسهمت بنصيب وافر فى تبسيط النثر الفارسى فى القرن التاسع عشر(١٧٥) .

وجميع ما ذكرناه فى هذا الصدد يصدق بدوره على يوميات الشاه المتعلقة برحلاته إلى القارة الأوروبية . وقد كانت هذه الرحلات شيئًا جديدًا بالنسبة للفرس فى ما يتعلق بمضمونها ، فدورها

---

(١٧١) - Jukovski, ZVO, II, p. 281

(١٧٢) - Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 108

(١٧٣) - Horn, p. 216

(١٧٤) شرحه ، ص ٢١٣

(١٧٥) شرحه ، ص ٢١٦

فى تعريفهم بأوروبا كان كبيرًا للغاية ؛ أما بالنسبة لنا فإنها تنضم إلى سلسلة طريفة أعنى رحلات ملوك الشرق إلى أوروبا التى سنلتقى بعدد كبير منها عندما نعالج الكلام على الأدب العربى فى هذا العصر . وأهميتها بالنسبة لنا ليست بالطبع فى وصفها للدول التى تتكلم عنها بقدر ما فى تصويرها للانطباعات التى حدثت فى نفسية مؤلفيها ؛ وبهذا فإن اليوميات تقدم لنا مادة حافلة وصلت إلى أيدى غير المتخصصين بفضل الترجمات المختلفة التى عملت لها باللغات الأوروبية(١٧٦) .

وقد لعب دورًا ليس أقل من هذا إن لم يكن أكبر فى تطوير الأدب الجغرافى الفارسى محمد حسن 541
خان (توفى فى ٢١ مارس ١٨٩٦)(١٧٧)، رغمًا من أن الشك أحاط أحيانًا بحقيقة تأليفه للمصنفات التى تحمل اسمه(١٧٨) . وهو قد شغل مناصب هامة فى الدولة وحمل ألقابًا مشرفة مثل « صنيع الدولة » و « اعتماد السلطنة » ، كما كان بلا شك القوة الدافعة المحركة وراء عدد من المؤلفين والمصنفات بل إن اسمه قد ظهر تحت عناوين مؤلفات ذات طابع جماعى . هذا وقد ترك لنا عالم الإيرانيات الروسى جوكوفسكى **Jukovski** الذى عرفه جيدًا تحليلا لنشاطه الأدبى لا يخرج منه بصفقة المغبون، أما مكانته الأدبية فلا يرقى إليها بالطبع أدنى شك .

كان محمد حسن خان بمثابة أول خرّيج لأعلى معهد بإيران وهو « دار الفنون » الذى تم افتتاحه فى عام ١٨٥٢ والذى التحق به محمد خان منذ السنة الأولى ؛ وقد لعب هذا المعهد دورًا كبيرًا فى تطور الثقافة الإيرانية الحديثة وارتبط اسمه بنشاط أول مدير له وهو رضاقلى خان . ثم أمضى مؤلفنا بعد هذا ثلاثة أعوام ونصف يعمل بسفارة إيران بفرنسا(١٧٩) ، وعقب رجوعه إلى وطنه صحب

---

(١٧٦) عن ترجمات اليوميات راجع : Bertels, Ockerk ist. pers. lit., p. 201
نماذج لدى : Horn, p. 216 - 222

(١٧٧) - Jukovski, ZVO, X, p. 187 - 191 - Horn, p. 216 - Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 113 -115 - Browne, press, p. 156, 164 - 166 (numbering 12 works; with Jukovski, ZVO, X, p. 189 - 190, rising to 15 works) - Browne, Literary History, IV, p. 453 - 456 - Minorsky, Muhammed Hasan Khan, p. 741 - 742

(١٧٨) - Browne, Press, p. 156 - Bertels, Ocherk ist. pers, lit., p. 114 - Browne, Literary History, IV, p. 454 - Minorsky, Muhammed Hasan, Khan, p. 741

(١٧٩) - Browne, Press, p. 156 - Bertels, Ocherk ist. lit., p. 114 - Minorsky, Muhammed Hasan Khan, p. 741

الشاه فى رحلته إلى خراسان وفى زيارته الأولى إلى أوروبا[١٨٠] ؛ وكما ذكرنا فى حينه فهو الذى يقف
وراء تدوين وصف رحلة الشاه إلى كربلاء[١٨١] . وفى مؤلفاته العديدة تتجه عنايته الكبرى إلى
المسائل المتعلقة بالجغرافيا التاريخية ، وقد كان لمعرفته باللغات الأجنبية واطلاعه على بعض
المؤلفات الأوروبية[١٨٢] أن يسّر عليه ذلك مهمة تبسيط الأفكار الجغرافية لبنى وطنه من ناحية
ووضع دراسات خاصة لجغرافيا بلاده من ناحية أخرى . ومما تجدر الإشارة إليه مثلا أنه قد نشر فى
عام ١٢٨٨ هـ = ١٨٧١ كتابًا فى تاريخ اكتشاف أميريكا[١٨٣] ، وفى عام ١٣١٧ هـ =
١٨٩٩ - ١٩٠٠ كتابًا فى وصف رحلات استانلى Stanley فى جوف افريقيا[١٨٤] ، كما أخذ
طرفًا فى ترجمة حكاية أسفار الكابتن هتراس **Le Capitaine Hatteras** إلى القطب
542 الشمالى[١٨٥] وملحمة أسفار روبنسون كروزو Robinson Crusoe[١٨٦] . وترتبط باسمه /
أيضًا رسالة تاريخية طوبوغرافية عن جبال شروين (سوادكوه) بمازندران (« التدوين فى جبال
شروين » ظهرت فى طبعة حجرية فى عام ١٣١١ هـ = ١٨٩٣ - ١٨٩٤)[١٨٧] . أما مؤلفاته
الأكثر جدية فإنها كثيرًا ما تعتمد على مواد لم تصل إلى متناول أيدى العلماء الأوروبيين[١٨٨] ؛ وهو
يستعمل عددًا من الوثائق الأصلية[١٨٩] التى استطاع أن يصل إليها بفضل منصبه الحكومى . ومما
يرفع من قيمة مؤلفاته أن محمد حسن خان يتمتع بأسلوب سهل للغاية، وإن كانت آثاره المختلفة،
سواء العلمية منها أو تلك التى عملها من أجل جمهرة القراء ، لا تعكس لغة الحياة اليومية بالدرجة
التى نلتقى بها فى يوميات الشاه[١٩٠] .

---

(١٨٠) - Jukovski, ZVO, X, p. 188

(١٨١) شرحه ، ص ١٩٠

(١٨٢) شرحه

(١٨٣) شرحه ، ص ١٨٩

(١٨٤) ألفاظ A. A. Romaskevich بصدد طبع كتاب محمد حسن خان عن رحلة استانلى

(١٨٥) - Jukovski, ZVO, X, p. 189, No 6

(١٨٦) شرحه ، ص ١٨٩ ، رقم ٧

(١٨٧) - Browne, Press, p. 165, No 159 - Minorsky, Muhammed Hasan Khan, p. 741

(١٨٨) - Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 115

(١٨٩) - Jukovski, ZVO, X, p. 190

(١٩٠) - Horn, p. 216

ومن بين مؤلفاته التى تهمنا والتى كانت لها قيمة كبيرة بالنسبة لعصره ومازالت محتفظة إلى حدما ببعض هذه القيمة إلى أيامنا هذه ، يجب أن تفرد مكانة خاصة لاثنين منها كلاهما يتمم سلسلة أنماط قديمة معروفة لنا جيدا . أحدهما وهو « مرآة البلدان »[١٩١] عبارة عن معجم جغرافى ضخم يقوم أساسًا على فكرة واسعة وتوزع المادة فيه وفقًا لحروف المعجم ؛ وهدف هذا المعجم ليس تقديم معلومات جغرافية فحسب بل وتاريخية أيضًا عن أهم الولايات والمدن والقرى الوارد ذكرها فيه . غير أن المؤلف لم يستطع تحقيق هذا المشروع الضخم ، وكأنما طغت المادة فانفجرت من الإطار الذى أحاطه بها فتوقف نشر الكتاب فى أواخر السبعينيات من القرن الماضى عند الجزء الرابع[١٩٢] ولمّا يتجاوز الحروف الخمسة الأولى من الأبجدية[١٩٣] . ولعل من العوامل التى تسببت فى تعطيل سير الكتاب أن المؤلف عند بلوغه إلى مدينة « تهران » فى الجزء الثانى من معجمه رأى من الضرورى أن يفرد المجال للكلام على تاريخ إيران فى السنوات المائة الأخيرة خاصة فى عهد ناصر الدين فشغل بذلك القسم الأساسى من الجزأين الثانى والثالث ، هذا إذا أغضينا النظر عن التقويم الذى ذيل به هذين الجزأين وأيضًا عن قائمة بحوادث الأعوام الأخيرة . وكمرشد عام فإن الكتاب فيما نشر منه يقف على مستوى رفيع من حيث القيمة العملية خاصة فيما يتعلق بإيران وإن اعتمد المؤلف فى ذلك اعتمادًا أساسيًا على المادة التقليدية المعروفة لنا ، سواء استقاها من مصادرها العربية أو الفارسية . وهو فى حالات معينة يوسع من نطاق مادته بإضافة ملاحظاته الشخصية وبعض المعطيات المختلفة عن الوضع فى زمانه ؛ ولا يخلو من الطرافة فيما يتصل بالطابع العام للكتاب أن نلاحظ أن المؤلف يدخل فى إضافاته / للجزء الرابع معلومات عن الدول الأوروبية 543
والأمريكية موزعة بدورها وفقًا للطريقة الأبجدية . وهو يذكرنا فى هذا بما فعله أحد الناشرين العرب المعاصرين عندما أضاف ذيلا مشابهًا إلى طبعته التى أصدرها لمعجم ياقوت .

وفى منتصف السنوات الثمانينات[١٩٤] وذلك عقب الرحلة التى قام بها الشاه إلى خراسان نشر

---

(١٩١) - Browne, Press, p. 165, No 152 - Bertels, Ocherk its. pers. lit., p. 114 — Browne, Literary History, IV, p. 454 - 455 - Minorsky, Muhammed Hasan Khan, p. 741

(١٩٢) محمد حسن خان ، مرآت البلدان ، الجزء الأول ، ١٢٩٣ هـ = ١٨٧٦ ؛ الجزء الرابع ، جمادى الأولى ١٢٩٦ هـ = مارس ١٨٧٩ .

(١٩٣) أضيف كذيل للكتاب جدول مواقيت (calendar)، لا فهرس (!) . راجع :
Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 114 - Browne, Press, p. 165, No 152

(١٩٤) ١٣٠١ هـ - ١٣٠٣ هـ = ١٨٨٤ - ١٨٨٦

محمد حسن خان أثرًا ضخمًا فى ثلاثة أجزاء بعنوان « مطلع الشمس »(١٩٥) ، وهو « مصنف أساسى » كما وصفه جوكوفسكى(١٩٦) ويمكن اعتباره إلى حد ما تتمة لمعجمه الجغرافى « مرآة البلدان » . وبما أنه من المفروض أن تشغل خراسان مكانًا مهمًا فى الأحرف الأولى للأبجدية فقد أفرد لها المؤلف جانبًا خاصًا اعتمد فيه على رحلة الشاه إلى مزار مشهد(١٩٧) ، ونتيجة لهذا نجد أمامنا أثرًا من طراز الجغرافيا الإقليمية يرتبط من ناحية بوصف الرحلة ومن ناحية أخرى بنمط المعاجم ويحوى وصفًا مفصلا لخراسان وتاريخها مع الاهتمام بصورة خاصة بمدينة مشهد التى تشغل الجزء الثانى بتمامه . أما المادة فيعالجها بالطريقة المعروفة لنا جيدًا من المصنفات العربية المشابهة ، فيتلو وصف وتاريخ كل موضع جغرافى الكلام على مشاهير رجاله ، وأحيانًا قد يفسح هذا المجال لاستطرادات مطولة تتحول إلى مختارات أدبية إذا ما تعلق الأمر بشاعر ما(١٩٨) . ولقد أصبح هذا الكتاب مصدرًا من الدرجة الأولى عن خراسان فى القرن التاسع عشر وذلك لاقتصاره على موضوع محدد عند مقارنته « بمرآة البلدان » ولإيراده لعدد من الانطباعات المباشرة والحية عن رحلة الشاه القريبة الأمد ، أضف إلى هذا أنه يقدم معلومات عن مواضع ليس فى مقدور الرحّالين بلوغها؛ وينعكس تأثير المنهج الجديد على المؤلف فى تزويده كتابه برسوم وتخطيطات للآثار التى يتحدث عنها كما نبصر من مثال مشهد ؛ وهو يصف فى الجزء الأول الطريق إلى مشهد مارًا بدماوند وفيروزكوه وبسطام وبجنرد Budjnurd وكوشان مع ذكر جميع المنازل الواقعة بينها . أما الجزء الثانى فمكرس لوصف مفصّل للغاية لمدينة مشهد وآثارها وتاريخها ابتداء من ٤٢٨ هـ = ١٠٣٦ إلى ١٣٠٢ هـ = ١٨٨٥ ومشاهير رجالها وقائمة بأسماء الكتب التى بمكتبتها ، ويشمل هذا الجزء إلى جانب ذلك جميع سيرة حياة الشاه طهماسب التى كتبها بنفسه والتى يسوقها إلى عام ٩٦٩ هـ = ١٥٦١ . أما الجزء الثالث فيصف طريق عودة الشاه وهو طريق الحج المعهود الذى يمر بنيشابور وسبزور وشاهرود ودامغان وسمنان ؛ والمؤلف يترك لنا وصفًا مفصلا لجميع الأماكن المأهولة وسير الشخصيات التى ارتبطت بها(١٩٩) . وعلى الرغم من جميع العيوب التى

---

(١٩٥) - Browne, Literary History, IV, p. 455 - 456 - Minorsky, Muhammad Hassan Khan, p. 741

(١٩٦) - Jukovski, ZVO, X, p. 189

(١٩٧) - Browne, Literary History, IV, p. 455

(١٩٨) - Bertels, Ocherk ist. pers lit, p. 115

(١٩٩) - Browne, Literary History, IV, p. 455 - 456

ترتبط بهذا الكتاب من جهة / تبويبه فإنه لا يمكننا إلا أن نوافق جوكوفسكى فى تقييمه للمادة التى 544
يحويها .

ولا شك أن نمو الاهتمام بالأدب الجغرافى فى إيران خلال هذه السنوات العشر يرجع إلى حد كبير إلى تأثير مؤلفات محمد حسن خان . وقد اشتد الطلب بصورة ملحّة على المؤلفات الجغرافية من كل نوع بما فى ذلك التقاويم ، ففى عام ١٣٠٥ هـ = ١٨٨٧ - ١٨٨٨ نشر محمد تقى خان تحت عنوان « كنج دانش » شيئًا أشبه بدائرة معارف للأسماء الجغرافية الفارسية فى خمسمائة وأربع وسبعين صفحة ، ويمكن أن يحسّ بعض تأثير المذهب التجديدى من أن المؤلف قد ذيّل كتابه بقائمة تشمل أسماء المؤلفين الذين رجع إليهم[٢٠٠] .

وبعد عشرة أعوام من تأليف وصف خراسان لمحمد خان ظهر بإيران ثانى كتاب فى الجغرافيا الإقليمية لا يقل قيمة عن الكتاب السابق له ، وهو مخصص لوصف ولاية فارس بعنوان « فارسنامه ناصرى » لحاجى ميرزا حسن شيرازى فسائى . وقد وصف براون **Browne** هذا الأثر الضخم الذى يقع فى أكثر من سبعمائة صفحة[٢٠١] بقوله إنه « وصف مفصّل ومهم »[٢٠٢] . وهو ينقسم إلى قسمين ، الأول منهما يعالج فى جوهره التاريخ والثانى الجغرافيا . ويمكن أخذ فكرة عن أسلوبه فى العرض من الأوصاف المعهودة للمدن والولايات التى التقينا بها ، فيرد فيه فى البداية معلومات من محيط الجغرافيا العامة ويعقب ذلك ملاحظات مدخلية يليها وصف مفصل لمدينة شيراز يكاد يحظى بالنصيب الأوفر من الكتاب ؛ وبعد الوصف يترجم لعدد من علمائها وكتابها وشعرائها و « الأعيان » عامة ؛ وهو يطبق هذا المنهج نفسه فى كلامه على مدن الولاية وأقسامها الأخرى . وإذا صرفنا النظر عن المظهر العام للكتب المطبوعة التى ظهرت بإيران فى ذلك العهد والتى خرجت من مطابع حجرية فإن هذا الكتاب يبدو عليه بوضوح تأثير المنهج الأوروبى ، فهو مزوّد بعدد كبير من الرسومات وإن كانت فى الحقيقة بدائية بعض الشىء ومزود بفهارس مفصّلة ومتنوّعة للغاية . وقد ذيل الكتاب بخارطة فارسية كبيرة تبين النقاط المأهولة ومجارى المياه، قدرها تقديرًا كبيرًا لى استرانج **Le Strange** واقتنع أثناء دراسته « لفارسنامه » لابن البلخى بأن مجهود شيرازى يعد مجهودًا قيما ولا يقتصر على دراسة الأحوال

---

(٢٠٠) شرحه ، ص ٤٥٦ – ٤٥٧

(٢٠١) شرحه ، الجزء الثالث ، ص ٣٥٧ ، رقم ١ – ٣٧٢ صفحة !

(٢٠٢) شرحه ، الجزء الثالث ، ص ٣٥٧ ، رقم ١

المعاصرة بالولاية بل يعاون أيضًا فى تحديد وتصحيح المواضع الجغرافية الواردة « بفارسنامه » ، سواء الموجودة حاليًا أو التى اختفت بمرور الأيام وكر العصور(٢٠٣) . والكتاب يحدث أثرًا قويًا بالنسبة لما يحفل به من مادة تاريخية ، وقد لاحظ المستشرق براون أكثر من مرة أنه يحتفظ بمعطيات هامة عن تاريخ المظفرية بكرمان(٢٠٤) .

545 من كل هذه الأمثلة يتضح لنا على وجه التحديد كيف أن الأدب الجغرافى لإيران الحديثة رغما من اتباعه للأنماط القديمة المعهودة فى الأدب الجغرافى العربى قد حفظ لنا مادة قيمة تكمل بعض نواحى النقص التى فى الأخير ، بل إنه أسهم من ناحية أخرى بعض الشىء فى استكمال المناهج التى سار عليها الأدب الجغرافى العربى . ولم يلبث أن أرغمته قوانين التطور التى أرغمت الأدب العربى كذلك على اطراح هذه التقاليد القديمة وإفساح الطريق لدخول المنهج الأوروبى الحديث ؛ ويمكن ملاحظة بداية هذا التغير فى بعض مؤلفات القرن التاسع عشر ولكنه ما لبث أن غلب نهائيًا فى القرن العشرين . ولعبت دورًا هامًا فى هذا المجال المعاهد الدراسية المختلفة التى احتاجت إلى الكتب الدراسية لمناهجها الحديثة ، وما مثال « دار الفنون » ببعيد عن أذهاننا ؛ وقد خرجت من أقلام المدرسين مؤلفات أساسية لعبت دورًا هامًا فى دراسة إيران لا يقل عن دور المؤلفات الأوروبية المماثلة . ويمكن لإعطاء فكرة عن هذا الاقتصار على مثال واحد ، فعندما بدأ أحد مدرسى « دار المعلمين العالى » وهو مسعود كيهان ينشر فى عام ١٣١١ هـ = ١٩٣٣ مؤلفه الكبير « جغرافياى مفصل إيران »(٢٠٥) تبين لأول وهلة أن الأنموذج الذى سار عليه لم يكن تلك المؤلفات المرتبطة بالمذهب العربى القديم بل المؤلفات الأوروبية الحديثة . فأجزاء الكتاب الثلاثة التى يتجاوز عدد صفحاتها الخمسمائة تعرض لنا فى تسلسل منطقى مكتمل الجغرافيا الطبيعية والسياسية والاقتصادية لإيران ، وجميعها مزوّد بعدد هائل من الرسوم والتخطيطات والخارطات والجداول الاقتصادية . وإذا كانت رسومها لا ترتفع إلى مستوى المؤلفات الأوروبية من النوع نفسه من حيث القيمة الفنية فإن غناها بالتفاصيل وطريقة تبويبها ووضوح عناوينها لا يقل فى شىء عن مستوى أرفع المداخل والكتب المنهجية التى باللغات الأوروبية .

---

(٢٠٣) - Le Strange, Description of the Province of Fars, p. 16 - 17

(٢٠٤) - Browne, Literary History III, p. 162; 165, note; 168, note; 274, note; 275, note; 357

(٢٠٥) - Kramers, El, EB, p. 74

وبالكلام على هذا المصنف الأخير نختتم الحديث عن الأدب الجغرافى الفارسى فى القرون الأخيرة، وقد كانت أهمية هذا الأدب بالنسبة لنا أهمية جانبية (auxiliary) لأنها مكنتنا من إلقاء ضوء على جوانبه التى وقعت تحت تأثير المذهب العربى ، ولم يكن هدفنا بالطبع تقديم قائمة مكتملة بأسماء المؤلفات الفارسية فى هذا الميدان إذ من الضرورى ابتداء من القرن الخامس عشر الاكتفاء بالإشارة إلى بعض نماذجه الهامة فحسب . وإذا حدث أن لوحظ فى وسطها بعض الفجوات فلعل مرد هذا من ناحية إلى أنه لا يوجد بين أيدينا الآن بحث جامع فى هذا الصدد أو حتى عرض تخطيطى عام مثل الذى عمله بالنسبة للأدب التركى المستشرق الألمانى تيشنر Taeschner . وبالإضافة إلى هذا فإن العصر الحديث للأدب الجغرافى الفارسى يحتاج إلى بحث منهجى قائم بذاته لا يمثل بالنسبة لنا أهمية جوهرية ويجب أن يعمل فيه حساب لدراسة تأثير العامل الجغرافى فى مؤلفات أدبية صرفة مثل « سياستنامة إبراهيم بيك » (فى ثلاثة أجزاء ظهرت فى عام ١٩٠٥ و ١٩٠٩)*، وهى قطعة فى الهجو (satire) يسخر فيها المؤلف من النظم الإدارية والأوضاع الاجتماعية السائدة بإيران وذلك على / لسان مواطن إيرانى نشأ بمصر وقام بزيارة لإيران ؛ 546
وتدور وقائع القصة الأساسية بمصر. ومؤلفها زين العابدين المراغى توفى عام ١٩١٦وصاغ مؤلفه فى أسلوب سهل قوى، وهو يعدّ من أوائل الكتب فى الأدب الفارسى المعاصر المشبعة بروح الثورة على التقاليد والأوضاع . والكتاب موجود فى ترجمة ألمانية غير كاملة ، ويمكن إجراء مقارنة طريفة بينه وبين المصنفات الأدبية المشابهة له فى الأدبين الأوروبى والعربى من طراز المذكرات والمقامات والأدب التى تستند على قاعدة جغرافية[٢٠٦] . غير أن فحص دور أثر الأدب الجغرافى على المؤلفات الأدبية من هذا الطراز يحتاج إلى دراسة قائمة بذاتها يقوم بها أحد المتخصصين فى الدراسات الإيرانية .

---

* «The Persian text was printed in three volumes, the first at Cairo without date, the second at Calcutta in 1323/ 1905, though publication was apparently delayed until 1907; the third at Constantinople in 1327/1909. The name of the author appears only on the title page of Vol. III. A German version of the first volume by Dr. Walter Schulz was published at Leipzig in 1903 with the title «Zustände im heutigen Persien wie sie das Reisebuch Ibrahim Begs enthüllt». (Browne, A Literary History of Persia, IV, p. 469 - 468). (المترجم)

(٢٠٦) - Browne, Literary History IV, p. 467 - 468 - Browne, Press, p. 22, 164, No 44
- Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 139 - 140.

الفصل العشرون

الجغرافيا الملاحية لدى العرب والترك فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر

547 استنفد الأدب الجغرافى العربى طاقته الخلاقة بشكل نهائى خلال القرن الخامس عشر ؛ والرأى القائل بإرجاع تلك الظاهرة إلى القرن الثالث عشر وفترة الغزو المغولى لا يستند على أسس وجيهة إذ لا يمكن القول بأية حال إن الإنتاج الأدبى قد ضعف من حيث الكم بعد ذلك التاريخ ؛ فقد ظل متمتعًا خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر بقوة كافية جعلته يرتقى إلى القمة بفن الكوزموغرافيا بل ويقدم نمطًا جديدًا هو نمط الموسوعات الأدبية . ولكن كأنما قد جفت بهذا ينابيعه واستنفذ قواه فلا يقابلنا بعد ذلك انتعاش لأنماطه كما كان عليه الحال من قبل ؛ وقد مرت عهود اقتصرت فيها النماذج على الجغرافيا الإقليمية ووصف الرحلات وحدهما وظل هذان النمطان يتمتعان على الدوام بمقاومة وصلابة شديدتين وبالرواج بين جمهرة القراء . وأكثر من هذا نلاحظ أن الأفق الجغرافى قد تجمد فى إطارته التقليدية ولم تستطع أن تخرجه من ذلك النطاق تلك الأحداث التاريخية العظمى وتلك التطورات الهائلة التى كان مسرحها العالم الغربى فى ذلك العصر . وليس ثمة ما يدعو بصورة خاصة إلى التذكير بأن أواخر القرن الخامس عشر قد شهدت نجاح البرتغاليين فى الطواف حول القارة الإفريقية وكشفهم الطريق البحرى إلى الهند ، هذا إلى جانب كشف كولومبس الطريق إلى أميريكا . وجميع هذه الأحداث إما جرت دون علم العرب على الإطلاق أو أنهم لم يقدروها حق قدرها ؛ وفى هذه المرة أيضًا نلحظ ذلك النقص الجوهرى فى أدبهم الجغرافى وهو وجود فارق هائل يفصل بين النظرية والواقع ؛ ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يحدث فيها ذلك لديهم .

غير أن التجربة العملية التى كانت تحت تصرفهم فى تلك اللحظة ، أى لحظة انتقال السيطرة من الشرق إلى الغرب ، قد وقفت على مستو عال ، وهو شىء اضطر إلى الاعتراف به أهل الغرب أنفسهم عندما قدر لهم أن يتصلوا اتصالا مباشرًا بمظاهر هذا النشاط . وعندما وضع فرا مورو Fra Mauro مصوره الجغرافى فى عام ١٤٥٧ ذكر أن ملاحًا عربيًا أبحر حوالى عام ١٤٢٠ من المحيط الهندى حول القارة الإفريقية فظهر بالمحيط الأطلنطى[١] ؛ وقد أبصر فاسكو دا غاما Vasco da Gama فى عام ١٤٩٧ - ١٤٩٨ سفنًا عربية إلى الشمال من موزمبيق تحمل

---

(١) Hennig, IV, p. 41 -

البوصلة « بيت الإبرة » وخارطات بحرية ، وهو يذكر ذلك حرفيا بقوله « ويحمل الربابنة بوصلاتٍ لتوجيه السفن وآلات للرصد وخارطات بحرية » ؛ وعلى إحدى هذه السفن وجد فاسكو دا غاما مخطوطات عربية بعث بها إلى الملك مانويل Manoel . أما مواطنه / الشهير 548
البوكرك Albuquerque فإنه يدين بفتوحاته فى منطقة عمان والخليج الفارسى ليس بالقليل إلى خارطة بحرية من عمل ربان عربى يدعى عمر[٢] ، فهو يقول فى مذكراته Commentarios إن ملاحًا مسلما وقع فى أسر البرتغاليين عند جزيرة سقطرى « كان ربانًا عظيما ذا معرفة جيدة بهذا الساحل وقد أعطاه مرشدًا للطرق البحرية (Routier) مبينة عليه جميع موانى مملكة هرمز وهو من وضع ربان آخر يدعى عمر كان قد صحبه ذلك الربان فى البحر »[٣] . ومن تقرير للبوكرك رفعه إلى ملك البرتغال بتاريخ أول أبريل ١٥١٢ نعرف أنه قد بعث إلى الملك « بصورة منقولة عن خارطة كبيرة عملها ربان أصله من جاوه ويظهر فيها رأس الرجاء الصالح وأملاك البرتغال ... والبحر الأحمر وبحر فارس وجزائر الملوكاس والطرق البحرية لأهل الصين وأهل فورموزا وقد بينت الخطوط والطرق التى تسلكها السفن كما بين عليها أيضًا الأجزاء الداخلية لتلك البلاد ... وكتبت الأسماء بالحروف الجاوية وقد أرسلت فى طلب رجل من أهل جاوه يعرف القراءة والكتابة ليفسرها لى ... »[٤] .

وسنبصر بعد وهلة أن فاسكو دا غاما نفسه قد وفق فى الإفادة من تجربة العرب العملية ، فالمؤرخ البرتغالى باروش Barros يذكر فى كتابه « آسيا البرتغالية » Asia Portugueza أن فاسكو دا غاما التقى فى ملندى Malindi « بمسلم من كجرات يدعى المعلم كانا Malem Cana » وُجد لديه عدد كبير من الخارطات والآلات[٥] ، هذا وقد تمكن الباحثون فى بداية القرن العشرين من الكشف عن شخصية « المعلم كانا » هذا ، الذى دل فاسكو دا غاما على الطريق من ملندى إلى قاليقوت Calicut بالهند . هذا ما كان عليه الوضع فى أواخر القرن الخامس عشر عندما تم الاتصال بين تينك الحضارتين .

غير أنه مضت مائة سنة على ذلك قبل أن يفطن أهل الشرق جيدًا إلى أن السيادة قد انتقلت

---

(٢) - Reinaud, Introduction, p. CLXVII

(٣) - Ferrand, Introduction, p. 235

(٤) شرحه ، ص ٢٣٦ (مع الإحالة إلى المقالة عن الخارطة)

(٥) - Reinaud, Introduction, p. CDXXXIX - CDXLIV

نهائيًا من أيديهم إلى أهل الغرب الذين فاقوهم من الناحية النظرية ؛ وقد أرسل السلطان العثمانى مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) إلى المستعرب الهولندى المشهور غوليوس Golius ، الذى عرفه العثمانيون من زيارته لبلادهم ، يعرض عليه القيام بمسح جغرافى لأراضى الدولة ووضع خارطة لها[٦] . من هذا يتضح لنا أن الخلاف الضخم بين النظرية والخبرة العملية كان فى غير صالح العلم والأدب الجغرافى الإسلامى وأن أوروبا عرفت كيف تستغل هذا الموقف لصالحها .

وفى القرن الخامس عشر بالذات تغير الوضع بصورة جوهرية بحيث نجد أنفسنا أمام لوحة جديدة تمامًا ، فقد تمكن علماء أوروبا بفضل الرحلات البحرية والطواف حول العالم من التحرر سريعًا من النظريات التقليدية البالية للعصور الوسيطة التى كانت تعتمد إلى حد كبير على ترجمات عملت فى القرن الثانى عشر لمصنفات عربية من محيط الجغرافيا الرياضية كمصنفات الفرغانى والبتانى . وفى العصر الذى نعالج الكلام عليه بالذات ظهرت أولى الخارطات البرتغالية والإيطالية مما أطلق عليه اسم « البورتولانات » Portolans* . وكان لاتساع الأفق الجغرافى بأوروبا والذى بخلاف ما عليه الحال فى العالم العربى قد انعكس فى الجانبين العملى والعلمى أن
549 وضح سريعًا / أن معظم الآثار الجغرافية سواء الموضوعة منها بأوروبا أو المدونة بالشرق لم تعد تفى بالمطلوب ؛ ولعل هذا كان من الأسباب التى دعت فى ذلك العصر بالذات إلى التوقف بشكل نهائى عن وضع مؤلفات فى الفلك والجغرافيا العامة تقوم على المذهب القديم[٧] ، ذلك أن الحاجة إليها قد سقطت فى الشرق والغرب معًا خاصة وأن الغرب لم يعد تلميذًا للشرق كما كان عليه الحال من قبل بل أخذ يسير فى اتجاهه الخاص به .

ورغمًا من ذلك فقد وجد ميدان آخر فى هذا العصر بالذات ، أى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، أبرز لنا فيه الأدب الجغرافى العربى مؤلفين كبارًا ومصنفات ذات شهرة أعنى بذلك ميدان الجغرافيا الملاحية . ونظرًا لأنها ظهرت فى المنطقة الجغرافية للمحيط الهندى والبحار والخلجان المتفرعة منه وذلك فى تلك اللحظة بالذات التى حدث فيها الاتصال بين أوروبا وآسيا

---

(٦) قارن : Juynboll, Arabisch in Nederland - Kramers, EI, EB, p. 72

* بورتولان Portolan أو Portulan اسم يطلق على الأطالس الملاحية التى كانت تستعمل فى العصور الوسطى فى مقابل استعمال القدماء للبريلوس Periplus ، وكانت تشمل وصفًا للسواحل ومداخلها والتيارات والشعب . وقد أجمع البحاثة على أن اللفظ إيطالى الأصل . (المترجم)

(٧) - Kramers, EI, EB, p. 71

فإنها تعكس ظروفًا مغايرة لتلك التى تم فيها الاتصال بين الغرب والشرق فى أزمنة سابقة على هذه . وفيها تتشابك المصنفات العربية بالمصنفات التركية فى وحدة متماسكة بحيث يضحى من المستحيل فصلها بعضها عن بعض دون أن يحدث ذلك خللا فى سير تطورها العام . ويجب ألا ندهش للازدهار الكبير فى هذا الميدان إذا ما تذكرنا إلى أى حد ارتبط ذلك بواقع الأحوال فى ذلك العصر وبطبيعة الحياة نفسها آنذاك ، بيد أن هذا لا يعنى إطلاقا أن الجغرافيا الملاحية قد برزت فى تلك الظروف التاريخية فجأة وكأنها من العدم إذ على العكس من ذلك نجد لها جذورًا ممعنة فى القدم فى الأدب العربى وإن كانت حلقات تطورها لم تحفظ لنا جميعها . وينبغى أن نبين باختصار الخطوط العريضة لهذا التطور حتى نتمكن من تقدير هذه الظاهرة تقديرًا صحيحًا فهى تكاد تكون أهم ظاهرة فى الأدب الجغرافى للقرنين الخامس عشر والسادس عشر .

550 وفى خط من خطوط تطورها لا ترتبط هذه الجغرافيا الملاحية بالمدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب التى غلب عليها الطابع العلمى بعض الشىء بقدر ما ترتبط بتلك المجموعة من القصص والأسفار البحرية للقرنين العاشر والحادى عشر من أمثال قصص التاجر سليمان وأبى زيد السيرافى بل وحتى « عجائب الهند » لبزرج بن شهريار مما حدث وأن وقفنا عنده بالتفصيل . غير أن هذه كانت فى واقع الأمر مجرد حكايات ذات أهداف أدبية فنية فى بعض الأحيان ولم تكن مداخل علمية أو عملية مثل التى سيرد الكلام عليها ؛ ذلك أنه وجد فى وسط ملاحى الخليج الفارسى والمحيط الهندى والبحر الأحمر إلى جانب هذه القصص والأسفار أدب المرشدات البحرية وهى ما أطلق عليها اسم « الراهنامج » أو « الرهمانى » ، وكانت تحوى خبرة الربابنة فى جميع المسائل الملاحية بما فى ذلك دون ريب مرشدات الطرق البحرية (**Routier**).

ولا يمكن القول بأن هذا الضرب من الأدب كان فقيرًا ، فابن ماجد الذى سيمر بنا الكلام عليه يشير مثلا إلى ثلاثة مؤلفين من العصر العباسى من السابقين له فى هذا المضمار وهم محمد بن شاذان وسهل بن أبان والليث بن كهلان[٨] . غير أنه لم يصلنا من هؤلاء المؤلفين أثر ما ، كما وأن معرفتنا بالفترة الأولى لهذا الأدب إنما مستقاة بأجمعها تقريبًا من الآثار التى دونّت فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . أضف إلى هذا أن تأثير ذلك الأدب الأول على المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا وعلى الأدب الكوزموغرافى فيما بعد لم يكن شيئًا مذكورًا ؛ غير أنه لا يمكن

---

(٨) - Ferrand, EI, IV, p. 394 - Sarton, II, p. 221 - Ferrand, Introduction, p. 223, 225 - 227

إرجاع هذا إلى الجهل به بقدر ما يمكن إرجاعه إلى عامل جوهرى هو أن النظريات التجريبية لهؤلاء الملاحين قد سارت فى وجهة مضادة تماما لوجهات النظر العلمية التى سادت فى تلك الأزمنة والتى ترتفع أساسًا إلى المذهب اليونانى أو إلى التصورات الموجودة بالتوراة . فكبار الجغرافيين قد عرفوا هؤلاء الملاحين وعرفوا آثارهم ،وهم لم يستطيعوا موافقتهم فى أحوال معينة على أهمية المعلومات التى يوردونها أو الاستقراءات الكارتوغرافية التى ينبغى استخراجها منها . ويقص علينا المقدسى بحيوية فائقة عن ملاحظاته على سواحل جزيرة العرب من القلزم إلى عبّادان وعن آثار مدونة كان يستعملها الملاحون وعن محادثة له مع شيخ عارف بصورة البحر (٩) ؛ ثم يخرج من كل هذا بنتيجة مؤداها أن هذه المعلومات مخالفة للتصورات الجغرافية المعروفة آنذاك . ولنستمع إليه يقول :

« وأما أنا فسرت فيه نحو ألفى فرسخ ودُرت على الجزيرة كلها من القلزم إلى عبادان سوى ما توّهت بنا المراكب إلى جزائره ولججه وصاحبت مشايخ فيه وُلدوا ونشئوا من ربّانيين وأشاتمة ... ووكلاء وتجار ورأيتهم من أبصر الناس به وبمراسيه وأرياحه وجزائره فسألتهم عنه وعن أسبابه وحدوده ورأيت معهم دفاتر فى ذلك يتدارسونها ويعوّلون عليها ويعملون بما فيها فعلّقتُ من ذلك صدرًا
551 صالحًا بعدما ميزت وتدبرت ثم قابلته بالصور التى ذكرت وبينا أنا يومًا جالس مع أبى / على ابن حازم أنظر فى البحر ونحن بساحل عدن إذ قال لى مالى أراك متفكرًا ؟ قلت أيد الله الشيخ ، قد حار عقلى فى هذا البحر لكثرة الاختلاف فيه والشيخ اليوم من أعلم الناس به لأنه امام التجار ومراكبه أبدًا تسافر إلى أقاصيه فإن رأى أن يصفه لى صفة أعتمد عليها وأرجع من الشك إليها فعل ، فقال على الخبير بها سقطت ثم مسح الرمل بكفه ورسم البحر عليه لاطليسان (١٠) ولا طير (١١) وجعل له معارج متلسنة وشعبًا عدّة ثم قال هذه صفة البحر لا صورة له غيرها . وأنا أصوره ساذجًا وأدع الشعب والخلجان إلا شعبة ويْلَة لشهرتها وشدة الحاجة إلى معرفتها وكثرة الأسفار فيها وأدع ما اختلفوا فيه وارسم ما اتفقوا عليه » (١٢) .

وهو يذكر عن قصد ولكن ليس دونه سخرية أن هذا الشيخ العارف بالبحر قد صوّر له البحر

---

(٩) المقدسى ، BGA, III 2 ، ص ١٠ – ١١

(١٠) قارن خارطات الخوارزمى

(١١) قارن صورة الأرض على شكل طائر

(١٢) المقدسى ، BGA, III ,1906 ، ص ١٠ – ١١ . الترجمة لدى : Ranking and Azoo, p. 14
– التعليقات لدى : Ferrand, Introduction, p. 234 - 235

دون « طيلسان » أو « طير » ولعله لم يغب عن ذاكرتنا أن اللفظ الأول أى « طيلسان » كان يستعمل فى مصورات الخوارزمى التى تطورت عن بطلميوس ، هذا فى حين ينبغى أن نبصر فى لفظ « الطير » إشارة إلى نظرية وجدت عند الأمم السامية وسردها عدد من الجغرافيين العرب وهى تصور الأرض فى صورة طائر ؛ وقد حدث وأن وقفنا عند ذلك فيما مر من هذا الكتاب . ونفس موقف المقدسى هذا يقفه المسعودى أيضًا الذى و إن اعترف بأهمية المعرفة العملية فى هذا المجال إلا أنه يقرر أن معلومات « ربابنة » سيراف وعمان عن المحيط الهندى لا تتفق مع نظريات « الفلاسفة » ، بل ويضيف إلى ذلك أن هذا الحكم يصدق أيضًا على البحر المتوسط وذلك وفقًا لما سمعه من ملاحى الشام الذين عرفوه جيدًا والذين يذكر من بينهم اثنين . ونص متنه كالآتى[١٣] :

« ووجدت نواخذة بحر الصين والهند والسند والزنج واليمن والقلزم والحبشة من السيرافيين والعمانيين عن البحر الحبشى فى أغلب الأمور على خلاف ما ذكرته الفلاسفة وغيرهم ممن حكينا عنهم المقادير والمساحة وأن ذلك لا غاية له فى مواضع منه وكذلك شاهدت أرباب المراكب فى البحر الرومى من الحربية والعمالة والنواتية وأصحاب الأرجل والروسا ومن يلى تدبير المراكب والحرب فيها مثل لاوى المكنى بأبى الحارث غلام زرافة صاحب طرابلس الشام من ساحل دمشق وذلك بعد الثلاث ماية [= ٩١٢] يعظمون / طول البحر الرومى وعرضه وكثرة خلجانه وتشعبه 552
وعلى هذا وجدت عبد الله بن وزير صاحب مدينة جبلة من ساحل حمص من أرض الشام ولم يبق فى هذا الوقت وهو سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة أبصر منه بالبحر الرومى ولا أسن منه وليس فيمن يركبه من أرباب المراكب من الحربية والعمالة إلا وهو ينقاد إلى قوله ويقر له بالبصر والحذق وما هو عليه من الديانة والجهاد القديم فيه »[١٤] .

وأغلب الظن أن آراء المقدسى والمسعودى إنما تمثل فى هذا الصدد شيئًا أقرب إلى الاستثناء منه إلى قاعدة عامة يتفق عليها الجغرافيون أصحاب الكتب . وفى الواقع أن الاختلاف الهائل بين النظرية والتطبيق العملى يبدو جليًا هاهنا بصورة قاطعة ولم يكن فى صالح الأخير ؛ وجميع الأدب الذى ينتمى إلى هذا الميدان أى ميدان الجغرافيا الملاحية لم يجد طريقه إلى الأدب الواسع المدون ولهذا السبب فإنه لم يصل إلى أيدينا .

---

(١٣) المسعودى مروج الذهب ، الجزء الأول ، ٢٨١ – ٢٨٣

(١٤) شرحه .

ويمكن القول بالكثير من الدقة أن موطن نشأة أدب المرشدات البحرية « الراهنامجات » ، بل وأيضًا موطن القصص البحرية التى سبق وأن أشرنا إليها ، هو سيراف وعمان ؛ ويشير إلى هذا بوضوح من بين عوامل أخرى ورود ذكر « السيرافيين » و « العمانيين » فى نص المسعودى الذى مر بنا قبل قليل . ومن المعلوم جيدًا أن سيراف كانت لعهد طويل مركزًا للتجارة البحرية ومنها كانت تخرج السفن إلى جنوبى آسيا والجزر الشرقية وإلى سواحل افريقيا الشرقية ؛ ولما بدأ دور سيراف يضمحل بابتداء سيادة البويهيين (حوالى عام ٣٢٠ هـ = ٩٣٢) رحل جانب من سكانها إلى عمان خاصة عقب نكبة الزلازل الكبرى فى عام ٣٦٦ هـ - ٣٦٧ هـ = ٩٧٧*- ٩٧٨[١٥] .

وتواريخ المصنفات الأولى من طراز « الراهنامجات » غير معروفة لنا بطبيعة الحال ولكن يغلب الظن بأنها ظهرت فى وقت واحد مع القصص البحرية فى القرنين التاسع والعاشر . ومعروف لنا إلى جانب هذا وصف رحلة خواشير بن يوسف الأركى الذى أبحر على سفينة دَبَوْكَره الهندى فى بداية القرن الحادى عشر[١٦] ، كما يمكن أن نرجع إلى نهاية ذلك القرن أو بداية القرن الثانى عشر تاريخ حياة المعلمين الثلاثة المشهورين[١٧] الذين يدعوهم ابن ماجد بأشياخه ؛ وقد وقع بصر هذا الأخير على « راهنامج » فى مخطوطة يمتلكها حفيد أحدهم يرجع تاريخها إلى عام ٥٨٠ هـ = ١١٨٤[١٨] . ولفظ « راهنامج » الذى أطلق على هذا النمط من المؤلفات قد اكتسب فى ذلك العهد انتشارًا واسعًا خرج به من الحدود الضيقة للأوساط الملاحية ، فهو يظهر فى صورة « راهنامه » لدى الشاعر الفارسى نظامى وذلك فى ملحمته المشهورة « اسكندرنامه » حوالى عام ٥٧٨ هـ = ١١٩١[١٩] . وكان ابن المجاور وهو مؤلف معروف لنا بما يقدمه / من معلومات قيمة عن سكان 553
جنوبى الجزيرة العربية (حوالى عام ٦٣٠ هـ = ١٢٣٣) على معرفة جيدة بالجغرافيا الملاحية بل ويورد لنا شذرة نقلها عن « مؤلف كتاب الرهمانج » يدور فيها الكلام عن بعض طيور البحر التى

---

* هذه القراءة أفضل من عام ٩٧٦ التى وردت فى الأصل الروسى . (المترجم)

(١٥) Ferrand, L'Element persan, p, 250 - 257 : Le port de Siraf -

(١٦) شرحه ، ص ٢٠٧ و Ferrand, Introduction, p. 225

(١٧) Ferrand, Introduction, p. 226 -

(١٨) Ferrand, L'Element persan, Text, p. 196, 208 - Ferrand, Introduction, p. 223 -

(١٩) Ferrand, Iranica, p. 124 -

تشير إلى قرب الساحل(٢٠) ؛ ولم يلبث هذا اللفظ أن تم الاعتراف به فى اللغة العربية نفسها وظل معمولا به إلى الوقت الحاضر ، وفى أواخر القرن السابع عشر يشرحه لنا إلى جانب اصطلاحات ملاحية أخرى مؤلف « تاج العروس »* (٢١) الذى يرجع أصله كما نعلم جيداً إلى زبيد فى جنوب الجزيرة العربية وعرف عنه ميل شديد إلى البحر . هذا وقد وضح المستشرق الفرنسى فيران(٢٢) بالتفصيل الأشكال المختلفة التى ورد فيها هذا اللفظ وبين أصلها ؛ وهو يرتفع أساسًا إلى الفارسية الوسطى (البهلوية) « راهنمك » التى تحولت فى الفارسية الحديثة إلى « راهنامه » . أما فى الوسط العربى فإلى جانب الشكل العادى « راهنامج » يقابلنا أيضًا الشكل المقلوب (métathétique) «رهمانج» (وجمعه «رهمانجات»)، والشكل الذى تطور عنه فيما بعد وهو « رهمانى » بل وحتى أيضًا « رمانى » . وجميع هذه الألفاظ كان يقصد بها فى عهد ابن ماجد ضرب من « المرشدات البحرية » أشبه « بالبورتولانات » Portulans(٢٣) .

إن هذه التسميات تقف خير دليل يشير إلى الوسط الذى ظهرت فيه هذه المرشدات البحرية وإلى أى حد كانت مشحونة بالألفاظ الفارسية فيما يتعلق بالاصطلاحات البحرية أو المتصلة بالبحر ؛ وعدد هذه المصطلحات كبير للغاية بحيث نجد أنفسنا مضطرين إلى الاكتفاء بنماذج معينة منها . فإلى جانب « الراهنامج » يقابلنا بنفس المعنى « راهدان » أو « راهدار »(٢٤) (أى «المرشد» أو «الدليل»)، ثم لفظ نال رواجاً كبيراً هو «ناخذا» ** (وجمعها «نواخذه»،

---

(٢٠) - Ferrand, L'Element persan, p. 213 - 214, 257

* جاء فى « تاج العروس فى شرح القاموس » للسيد مرتضى الزبيدى (ص ٥١ من الجزء الثانى) ما نصه : « الراهنامج بسكون الهاء وفتح الميم فارسية استعملها العرب وأصلها راه نامه ومعناه كتاب الطريق لأن راه هو الطريق ونامه الكتاب وهو الكتاب الذى يسلك به الربابنة جمع الربان كرمان العالم فى سفر البحر ويهتدون به فى معرفة المراسى وغيرها كالشعب ونحو ذلك » . بل إن القاموس نفسه يورد هذا اللفظ فقد جاء فيه « الراهنامج كتاب الطريق وهو الكتاب يسلك به الربابنة البحر ويهتدون به فى معرفة المراسى وغيرها » . (المترجم)

(٢١) - T'A, II, p. 51, sui - Hess, p. 31 - Ferrand, L'Element person, p. 212

(٢٢) - Ferrand, L'Element persan, p. 209 - 215, 234 - Ferrand, Iranica, p. 123 - 124

(٢٣) - Ferrand, Introduction, p. 237

(٢٤) - Ferrand, Iranica, p. 125 - 126

** ناخذا وصورها المتعددة الأخرى ناخذاه وناخوذا وناخوذة وناوخذا بالذال أو الدال معرب الفارسية ناوخذا أى رب السفينة . (المترجم)

أى « رب السفينة » أو « صاحبها »)[٢٥] الذى وجد إلى جانبه لفظ عربى ذو صيغة فريدة وهو « ربّان » (وجمعها « ربابنة » . أى « القبطان » أو « قائد السفينة » [٢٦]) ولفظ آخر مجهول الأصل هو « إشْتِيام » (جمعها « أشاتمة »)[٢٧] . ويكثر عدد هذه الألفاظ عند التعرف على الاصطلاحات الفلكية فى مؤلفات ابن ماجد الذى سيرد الكلام عليه للتو ، وأهمها لفظ « خَنّ » (وجمعها « أخنان » ، ويقصد بها منازل البوصلة أو أجزاؤها (les rumbs de vent)[٢٨]) ، ولفظ « الجاه » (أى النجم القطبى)[٢٩] و « باشى » (أى ارتفاع النجم)[٣٠] الخ . وجميع هذه الألفاظ تقف دليلا قاطعًا على أن العرب قد استعاروا من الفرس جميع
554 اصطلاحات الجغرافيا الملاحية تقريبًا . وفى العصور القديمة عندما / اقتصرت الملاحة عند العرب على الملاحة الساحلية[٣١] فإنه لم تكن لهم معرفة بهذه الاصطلاحات ولكنهم ما لبثوا أن أخذوا شيئًا فشيئًا من الفرس « وردة الرياح » (rose de vent) التى عرفناها من قبل فى صورتها المعربة فقط ، كما أخذوا أيضًا « الراهنامجات » المختلفة التى مكنتهم بالتدريج من أن يصبحوا منافسين خطيرين للفرس فى الملاحة بالمحيط الهندى بأجمعه[٣٢] .

وتوجد بالطبع أسباب أخرى غير التى ذكرناها حالت دون بقاء هذه « المرشدات البحرية » إلى أيامنا هذه رغمًا من عددها الكبير . وعلى أية حال فواقع الأمر هو أننا نلتقى لأول مرة بمصنفات فى هذا الصدد فى حدود القرنين الخامس عشر والسادس عشر وندين بها على وجه التحديد لاثنين من المؤلفين ، وهى التى فتحت أنظارنا لأول مرة على هذا الأدب فى مضمونه الواسع .

وقد ورد اسما هذين المؤلفين من وقت لآخر لدى العلماء الأوروبيين من قبل وذلك اعتمادًا على المصادر التركية ، غير أن معرفة الدوائر العلمية بآثارهما معرفة مباشرة إنما تدين بها إلى المستشرق

---

(٢٥) - Ferrand, L'Element persan, p. 238 - 239 - T'A, II, p. 581, 7 infra - Hess, p. 30 - 31

(٢٦) - T'A, II, p. 51, 13 - Hess, p. 30 - 31

(٢٧) - Ferrand, Introduction, p. 235 - Ferrand, Sayabidja, p. 215 (المقدسى والجواليقى)

(٢٨) - Ferrand, L'Element persan, p. 221 - 222

(٢٩) شرحه ، ص ٢١٨

(٣٠) - Ferrand, Introduction, p. 259

(٣١) - Ferrand, L'Elément persan, p. 235

(٣٢) شرحه ، ص ٢٤٧

الفرنسى غابرييل فيران G.Ferrand وهو عالم ممتاز تركز نشاطه العلمى فى الثلث الأول من القرن العشرين ويعد من كبار المتخصصين فى الجغرافيا التاريخية للمحيط الهندى والجزائر الشرقية المنتشرة من ساحل افريقيا الشرقى إلى سواحل الصين . ويعتمد نشاطه العلمى فى هذا المجال على تدريب بعيد المدى وسعة فى الأفق العلمى لا مثيل لها ؛ وقد كان فيران فى بادىء الأمر من تلامذة رينيه باسيه R. Basset وتخرج عليه فى محيط الدراسات العربية والافريقية ثم أمضى جميع حياته بالتقريب فى الخدمة الدبلوماسية بالمستعمرات الفرنسية بالمحيط الهندى من مدغشقر إلى الهند الصينية ؛ وتمثل أهمية كبيرة فى هذا الصدد دراساته عن اللغة الملغاشية وآثار مدغشقر القديمة . ولم يلبث أن اجتذبه هذا الاتجاه إلى الاهتمام بأرخبيل الملايو ودفعه لا إلى دراسة لغة الملايو وحدها بل ولغات الشرق الأقصى الأخرى وإلى التعرف على تاريخ تطور علم الفلك فى تلك النواحى ؛ ولم يكتف بهذا بل ألم بجميع ما يمت بصلة إلى ذلك العالم القائم بذاته ، أعنى ذلك المحيط الحضارى الذى امتزجت فيه الحضارة العربية بالحضارتين الهندية والملايوية . وقد توج جانبًا من مجهوده فى هذا الصدد بإخراج مؤلفه الأساسى الذى جمع فيه المادة العربية والفارسية والتركية المتعلقة بالجغرافيا التاريخية للهند والشرق الأقصى بعنوان « قصص الرحلات والنصوص الجغرافية العربية الفارسية والتركية المتعلقة بالشرق الاقصى من القرن الثالث عشر إلى القرن الثامن عشر ، ترجمها وألف بينها وعلق عليها غ . فيران ، جزآن . باريس ١٩١٣ – ١٩١٤ »
Relations de voyages et textes géographiques arabes,persans et turks relatifs à l'Extrême - Orient du XIIIe au XVIIIe siècles, traduits, revus et annotés par G.Ferrand, I - II, Paris. 1914 - 1914.

وهو ذلك السفر الضخم الذى رجعنا إليه مرارًا فيما مر من هذا الكتاب . وقد حالف التوفيق فيران أثناء جمعه لمادة هذا الكتاب فى أن يكشف عن مصنفات لمؤلفَينْ عربيَينْ من الذين دونوا فى محيط الجغرافيا الملاحية هما أحمد بن ماجد وسليمان المهرى . وإذا كان الكشف عن هذه المؤلفات وليد الصدفة البحتة إلا أن توضيح الأهمية الكبرى لهذه النصوص وإلقاء الضوء على محتوياتها ما كان ليتأتى إلا لعالم متعدد النواحى من طراز فيران الذى كرس جميع حياته العلمية لهذا الميدان ، بل إن آخر خطوة فى نشاطه العلمى كانت ترتبط ارتباطًا وثيقًا بهذه المصنفات الأخيرة / 555
التى كشفت عن آخر صفحة مشرقة فى تاريخ الأدب الجغرافى العربى .

وكما يحدث عادة مع الاستكشافات الكبرى فإن هذه أيضًا قد أحاط بها صعوبات ليست بالضئيلة ، بل إن تحديد شخصية المؤلف الأول استدعى تطبيق مناهج فى البحث معقدة ولا تخلو

من الطرافة ؛ ولم يتحقق هذا إلا بعد مقارنة المصادر البرتغالية والعربية والتركية بعضها ببعض .

لقد حدث وأن سقنا قبل لحظة روايات لبعض المؤلفين البرتغاليين تبين كيف دار فاسكو دا غاما حول الطرف الجنوبى لافريقيا عند رأس الرجاء الصالح إلى أن وصل فى اليوم الخامس عشر من شهر مارس عام ١٤٩٨ إلى ملندى على الساحل الشرقى لافريقيا ، وهى تقع إلى الجنوب من خط العرض الثالث جنوبى خط الاستواء[٣٣] ؛ وفى خلال الشهر الذى أمضاه هناك تعرف فاسكودا غاما بربان « مسلم من كجرات (بالهند) » يدعى « المعلم كاناكا » Malemo Canaqua ، وفى بعض الروايات « كانا » Cana[٣٤] ، دلّه على طريق الهند وأوصل سفنه فى اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل من نفس العام إلى ميناء قليقوت[٣٥] على ساحل مليبار[٣٦] .
وقد أخذ الكشف عن هذه الأسماء الغامضة بعض الوقت ، إذ ثبت أنها تشير إلى ألقاب احترام لا إلى أسماء أعلام . وقد أثبت فيران أن لفظ Malemo ليس سوى تحريف للفظ العربى « معلِّم » باللغة السواحلية Swahili السائدة بافريقيا الشرقية[٣٧] ؛ وقد دخل هذا اللفظ فى الاصطلاح الملاحى وأطلق فى الأدب الكلاسيكى على الشخص الذى نال خبرة عملية ونظرية فى المسائل البحرية (وجمعه « معالمة ») . وفى شكل مقارب لهذا هو Malim دخل هذا اللفظ فى لغة الملايو[٣٨] ، وهو منتشر فى جميع بقاع المحيط الهندى[٣٩] بل وعرف منذ ذلك العهد فى اللهجة البرتغالية المستعملة فى آسيا[٤٠] . أما لفظ « كاناكا » فهو الشكل الذى استعمل فى ملبار[٤١] وفى لغة التامل[٤٢] ليؤدى اللفظ السنسكريتى ganika ويقصد به « الحاسب » و « المنجم » .
وإلى بداية القرن السادس عشر نرى المؤلف البرتغالى دورات باربوسا Duarte

(٣٣) - Ferrand, Introduction, p. 183, 191 - Ferrand, Annales, p. 289, note 1

(٣٤) - Ferrand, Introduction, p. 183 - 184

(٣٥) شرحه ، ص ١٩٢

(٣٦) شرحه ، ص ١٩٤

(٣٧) - Ferrand, Annales, p. 292, note 2 - Ferrand, Introduction, p. 182

(٣٨) - Ferrand, Introduction, p. 179. 182

(٣٩) - Ferrand, Annales, p. 292, note 2

(٤٠) - Ferrand, Introduction, p. 182

(٤١) - Ferrand, Annales, p. 292

(٤٢) - Ferrand, Introduction, p. 196

Barbosa يتحدث عن طبقة (caste) الكاناكا بملبار الذين كانت مهنتهم التنجيم ويوكد أن الملوك لم يكونوا ليتصرفوا فى شىء قبل معرفة رأيهم وأن التجار كانوا يستشيرونهم فى طالع تجاراتهم ورحلاتهم(٤٣) . أما فى ذلك النص الذى يتعلق برحلة فاسكودا غاما / فيبدو أن المقصود بهذا 556
اللفظ هو « الخبير بالشئون الملاحية والفلكية » ؛ وبهذا يمكن الجزم بأنه لا توجد فى هذا اللفظ أية إشارة إلى اسم علم . غير أن الشخص الذى يختفى وراء هذه التسمية أمكن الكشف عنه بالرجوع إلى نص لمؤلف عربى واتضح أنه ملاح عربى معروف .

فقطب الدين النهروالى (٩١٧ هـ - ٩٩٠ هـ = ١٥١١ - ١٥٨٢) الذى مر بنا الحديث عنه كخبير بخطط مكة ، وسيمر بنا اسمه فيما بعد بصدد رحلته إلى استنبول ، والذى ترجع تآليفه إلى ما بعد خمسين عاما بالتقريب من ذلك الحادث الخطير أى كشف البرتغاليين لطريق الشرق ، أقول إن قطب الدين هذا قد حفظ لنا فى كتابه عن فتح العثمانيين لليمن « البرق اليمانى فى الفتح العثمانى » رواية مهمة عن ظهور البرتغاليين فى المحيط الهندى* ؛ وكان هذا الحادث الخطير لا يزال عالقًا بأذهان المتقدمين فى السن فى عهد قطب الدين . وقد عُرف نص هذه الرواية منذ عهد طويل فى دراسة لسلفستر دى ساسى (١٧٩٤) ثم فى ترجمة أحدث من ذلك باللغة البرتغالية للعلامة دافيد لوبيز David Lopes (١٨٩٢)(٤٤) ؛ غير أن فيران وحده هو الذى تمكن من تقديم ترجمة دقيقة لهذ النص وتزويده بتعليقات وافية . كتب قطب الدين يقول : « وقع فى أول القرن العاشر [ابتداء من عام ١٤٩٥] من الحوادث الفوادح النوادر دخول الفرتقال اللعين من طايفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند وكانت طايفة منهم يركبون من زقاق سبتة [مضيق جبل طارق] فى البحر ويلجّون فى الظلمات [أو بحر الظلمات وهو المحيط الأطلنطى] ويمرون خلف جبال القمر بضم القاف وسكون الميم جمع أقمر أى أبيض وهى مادة أصل بحر النيل ويصلون إلى المشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل فى مضيق أحد جانبيه جبل والجانب الثانى فى بحر الظلمات فى مكان كثير الأمواج(٤٥) لا تستقر به سفاينهم وتنكسر ولا ينجو منهم أحد واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون فى ذلك المكان ولا يخلص من طايفتهم أحد إلى بحر الهند إلى أن خلص

---

(٤٣) - Ferrand, Annales, p. 292 - Ferrand, Review in: JA, CCIV, p. 114 - Ferrand, Introduction

* لا بد وأن ذكر الخليج الفارسى بدلا من المحيط الهندى لدى المؤلف كان من قبيل السهو . (المترجم)

(٤٤) - Ferrand, Introduction, p. 184

(٤٥) بحسب كتاب : Ferrand, Introduction, 187, note 4, فإن المقصود فى أغلب الظن رأس الرجاء الصالح

منهم غراب [سفينة صغيرة Caravelle] إلى (بحر) الهند فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر إلى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد صاحبه كبير الفرنج وكان يقال له الأملندى [الشكل العربى للفظ البرتغالى Almirante أى الأميرال] وعاشره فى السكر فعلمه الطريق فى حال سكره وقال لهم لا تقربوا الساحل من ذلك المكان [أى الساحل الأفريقى] وتوغلوا فى البحر ثم عودوا [أى إلى ساحل الهند] فلا تنالكم الأمواج ، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم فكثروا فى بحر الهند وبنوا كوة بضم الكاف العجمية وتشديد الواو بعدها هاء [Goa] اسم لموضع من ساحل الدكن هو تحت الفرنج الآن (و) من
557 بلاد الدكن قلعة يسمونها كوتا(٤٦) ثم أخذوا هرموز وتقووا هناك وصارت الأمداد تترادف عليهم / من البرتقال فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسرًا ونهبًا ويأخذون كل سفينة غصبًا إلى أن كثر ضررهم على المسلمين وعم أذاهم على المسافرين فأرسل السلطان مظفر شاه بن محمود شاه ابن محمد شاه سلطان كجرات يومئذ [٩١٧ هـ - ٩٣٢ هـ = ١٥١١ - ١٥٢٥] إلى السلطان الأشرف قانصوه الغورى [٩٠٦ هـ - ٩٢٢ هـ = ١٥٠١ - ١٥١٦] يستعين به على الافرنج »(٤٧) .

يجب أن نطّرح من هذا المتن الحكاية الخاصة «بغلبة الخمر» على الربان المسلم إذ من الواضح أن المؤلف إنما أراد بها على ما يبدو إيجاد تبرير لموافقة ذلك الملاح على أن يرشد سفينة للفرنجة ، كما ويجب أيضًا أن نطّرح الأخطاء الصغيرة فى الوقائع التاريخية مثال ذلك أن هرمز قد فتحها البوكرك عام ١٥٠٧ أى قبل بناء جوا البرتغالية (NovaGoa)(٤٨) ؛ أما بخلاف هذا فإن الرواية تعكس بحق الوقائع التاريخية كما تصورها سكان سواحل المحيط الهندى والبحار المتفرعة منه . وتجتذب الأهمية بالنسبة لنا نقطتان ، فلفظ « الملندى » كما أثبت فيران إنما هو تحريف للفظ البرتغالى « الميرانتى » Almirante وهو اللقب الذى كان يحمله على ما يظهر فاسكو دا غاما . ومن الطريف أن نذكر فى هذا الصدد أن ذلك اللفظ قد ورد بهذا الشكل العربى لدى ابن خلدون من قبل(٤٩) ؛ ثم أهم من ذلك كله أن المتن يقدم لنا دليلا ذا قيمة كبرى إذ يعطى اسم الربان على أنه

---

(٤٦) Ferrand, Introduction, p. 186, note 2 : القلعة بالسنسكريتية

(٤٧) - Ferrand, Introduction, text, transl. and commentary, p. 185 - 190

(٤٨) شرحه ص ١٩٠ ، حاشية ٢ — Stübe, p. 346

(٤٩) - Ferrand, Introduction, p. 188 - 189, note 3

أحمد بن ماجد[٥٠] . وقد دفع هذا العلماء بالتالى لأن يتذكروا أن مصنفات شخص بهذا الاسم ذاته هى التى كانت المصدر الأساسى لمصنف فى الجغرافيا الملاحية وضعه أمير البحر التركى سيدى على ريس الذى قذف به مصيره إلى الخليج الفارسى والهند بعد خمسين عامًا بالتقريب من الأحداث التى نتكلم عنها . فهذا الأميرال التركى يذكر فى مقدمة كتابه الذى أشرنا إليه عددًا من مصنفات أحمد ابن ماجد بعناوينها[٥١] ، وبفضل هذا وجد اسم ابن ماجد طريقه إلى الدوائر العلمية الأوروبية منذ بداية القرن التاسع عشر ؛ غير أن الكشف عن الأصول العربية لمصنفاته تأخر إلى عام ١٩١٢ .

وقد تم هذا الكشف بين جدران المنزل نفسه إذا جاز هذا التعبير ، وهو أمر ليس بالنادر فى تاريخ العلم . فبينما كان المستعرب المعروف غودفروا ديمومبين يبحث فى مخطوطات المكتبة الأهلية بباريس عن مواد لزميله فيران وذلك من أجل مؤلفه الضخم عن الشرق الأقصى كشف عن مخطوطتين تضمان مصنفات لأحمد بن ماجد ولسليمان المهرى[٥٢] . وقد بقى لغزًا حتى ذلك الوقت كيف أن حافظ المخطوطات بالمكتبة الأهلية المستشرق رينو **Reinaud** لم يفطن لوجودهما على الرغم من أنه يتكلم عن سليمان المهرى فى مؤلفه الجامع « مقدمة عامة لدراسة الجغرافيا عند المشارقة » **Introduction Générale à la Géographie des Orientaux** مستقيًا معلوماته فى هذا الصدد من المصنف التركى لسيدى على ريس . ولعله يمكن تفسير هذا بأن
إحدى المخطوطتين / قد اشترتها المكتبة الأهلية من أستاذ عربى كان يقيم بفرنسا هو سليمان 558
الجزائرى[٥٣] فى عام ١٨٦٠[٥٤] أى فى السنوات الأخيرة من حياة رينو ؛ بيد أن المخطوطة الأخرى كانت موجودة بالمكتبة الأهلية منذ القرن الثامن عشر[٥٥] ؛ هذا وقد تم العثور بالتالى على مذكرة موجزة بخط يد رينو تشير إلى معرفته بهذه المخطوطة ولكن لم يقدر لتلك السطور أن ترى النور[٥٦] .

---

(٥٠) كان أول من أثبت أن أحمد بن ماجد هو المرشد الذى تتكلم عنه المصادر البرتغالية هو أحمد زكى باشا ، وذلك فى عام ١٩١٧ . قارن : Ferrand, Le Kouen - Louen, p. 492, note

(٥١) Ferrand, Introduction, p. 196 - 198 -

(٥٢) Gaudefroy - Demombynes, Muhit, p. 547 - 550 - cf. Ferrand, Relations, II, p. 485, note 2 -
- Ferrand, Introduction, p. 255, note 1

(٥٣) عن سليمان الجزائرى ، راجع : طرازى ، صفحة ١١٩ : و
Cheikho, La Littérature, 12, p. 103 - 104

(٥٤) Ferrand, Introduction, p. 199, 246 -

(٥٥) شرحه ، ص ٢٥٤ (نسخة ا . عسكرى عام ١٧٣٢)

(٥٦) Gaudefroy - Demombynes, Muhit, p. 549 - Ferrand, Introduction, p. 247 -

ومن الغريب حقًا أن ذلك الكشف الضخم كان عليه أن ينتظر إلى عام ١٩١٢ رغمًا من أن كلا المخطوطتين قد ورد ذكرها فى فهرس المكتبة الذى عمله دى سلان De Slane وتم طبعه فى عام ١٨٩٥ [٥٧] . هذا وقد ساق الكشف عن هاتين المخطوطتين الفريدتين إلى الكشف شيئًا فشيئًا عن مخطوطات أخرى ومواد مماثلة ؛ ففى أوائل السنوات العشرينات من هذا القرن عُرفت مخطوطة دمشق[٥٨] التى اجتذبت بالتالى أنظار فيران ، كما ظهرت إشاعة بوجود مخطوطة أخرى بجدة[٥٩] . وتم الكشف فيما بعد عن مصنفات أخرى لابن ماجد لا وجود لها بمخطوطات باريس وذلك بالموصل[٦٠] وبمعهد الدراسات الشرقية بلنينجراد ؛ ولم يكتب لفيران أن يفحص هذه الكشوف الأخيرة ، كما وأن بعض أقسام مخطوطة الموصل يحتاج إلى فحص دقيق للتوكد من صحتها . هذا وقد عاجل الموت فيران دون أن يكمل دائرة البحث الذى بدأه وذلك بترجمة المصنفات التى نشرها والتعليق عليها ؛ ورغمًا من ذلك فإن الطبعة المصورة للمتن التى نشرها فيران وأيضًا سلسلة البحوث والمقالات التى دبجها يراعه حول نقاط عامة وخاصة تتعلق بهذه المؤلفات ، كل هذا يمكننا من تكوين فكرة واضحة للغاية عن أهمية هذا الكشف بالنسبة لتاريخ الأدب الجغرافى العربى . ويمكن أن تمثل حصيلة لجميع دراساته فى هذا الصدد تلك البحوث المفصلة التى أسهم بها فيران فى « دائرة المعارف الإسلامية »[٦١] ، وبصورة خاصة أيضًا كتابه « مقدمة فى الملاحة الفلكية عند العرب » Introduction à I'Astronomie Nautique Arabe (١٩٢٨)[٦٢] الذى يحوى إلى جانب هذا بحوثًا مستقلة تعالج مسائل ذات طابع تخصصى ندين بها إلى قلم العلامة السويسرى ليوبولد دى سوسير Léopold de Saussure (١٨٦٦-١٩٢٥)[٦٣] الخبير فى الفلك لدى الصينيين وفى المسائل البحرية ، وهو أخ للعالم

---

(٥٧) Brockelmann, GAL, II, p. 179 -

(٥٨) سعيد الكرمى ، ص ٣٣ – ٣٥ – Ferrand, Introduction, p. 199 - 200

(٥٩) Ferrand, EI, IV, p. 396, note 2 -

(٦٠) د . الجلبى ، مخطوطات ، ص ٢٨٠ – ٢٨٢ ، رقم ٦٧ – د . جلبى ، لغة العرب ، المجلد التاسع ، ١٩٣١ ، ص ٤٠١ – ٤١٢ – Brockelmann, GAL, SB II, p. 231 No No 7 - 8

(٦١) Ferrand, Madagaskar, p. 68 - 80 - Ferrand, Sayabidja, p. 214 - 215 - Ferrand, Sofala, p. 507 - 510 - Ferrand, Zabag, p. 1279 - 1281 -

(٦٢) Ferrand; Introduction, -

(٦٣) Saussure, Commentaire -

اللغوى المشهور*.

هذا ولم يمكن العثور على أية معلومات عن سيرة حياة هذين المعلمين اللذين حفظت لنا مصنفاتهما مخطوطتا باريس فى أى مصدر آخر حتى الآن، وكل ما استطاع أن يجمعه الباحثون عنهما كانت معلومات نزرة أمكن استقراؤها من اسميهما / ومن بعض الإشارات النادرة فى مؤلفاتهما 560
نفسها . فالأول يدعى شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدى النجدى فهو بهذا ينتمى إلى نجد وهى حالة نادرة لأن الملاحين كانوا فى عهد ازدهار الحضارة العربية من بين الفرس عادة ؛ غير أنه ولد بجلفار على الساحل العربى لخليج عمان . وعندما تصفه المصادر البرتغالية بأنه « مسلم من كجرات » فينبغى أن نبصر فى هذا انعكاسًا لصلته بالهند ليس إلا ، وربما كانت مركزًا لعملياته البحرية ؛ ويلوح أنه كان من الشيعة وهو أمر مفهوم على ضوء علاقاته الدائمة مع الفرس(٦٤) . وغير معروف لنا عام ميلاده أو عام وفاته ، ويمكن أن نستدل من تاريخ تأليف مصنفاته على أن نشاطه يقع فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ؛ وهو يذكر فى إحداها أن له تجربة أربعين عامًا فى الملاحة الشىء الذى دفع فيران إلى الافتراض بأن تاريخ ميلاده يرجع إلى السنوات الثلاثينات من القرن الخامس عشر(٦٥) . ومن هذا يتضح لنا أن إرشاده لسفن فاسكو دا غاما كان فى الغالب من أواخر أعماله الملاحية الكبرى .

وينحدر ابن ماجد من صلب أسرة اشتغل أفرادها بقيادة السفن(٦٦) ، فجده وأبوه كانا « مُعَلِّمَيْن »(٦٧) أيضًا وخلفا اسميهما فى عالم الملاحة وفى الأدب بل وفى الأسطورة كذلك . ويقص علينا الرحالة المشهور برتون Sir Richard Burton أن ملاحى عدن كانوا إلى منتصف القرن التاسع عشر ينسبون اختراع البوصلة إلى ولى من أهل الشام يدعى الشيخ ماجد ويقرءون الفاتحة على روحه قبل ركوبهم البحر(٦٨). ويحكى لنا ابن ماجد نفسه أن اسم « ظهرة** ابن

---

* يقصد فردينان دى سوسير Ferdinand de Saussure (١٨٥٧–١٩١٣) العلامة اللغوى الشهير صاحب كتاب « دروس فى علم اللغة العام » Cours de linguistique Générale (١٩١٦) الذى لعب دورًا كبيرًا فى نشأة علم اللغة المعاصر. (المترجم)

(٦٤) - Ferrand, Introduction, p. 228 - Ferrand, L'Elément persan, p. 194

(٦٥) - Ferrand, Introduction, p. 220

(٦٦) شرحه ، ص ٢٢١ – ٢٢٢

(٦٧) - Ferrand, L'Element persan, p. 197 - 209

(٦٨) - Ferrand, Introduction, p. 227 - 228

** لم أستطع العثور على هذا المعنى الاصطلاحى للفظ «ظهرة» حتى فى معجم محدث كمعجم الزبيدى؛ غير أن اشتقاق اللفظ واستعماله فى هذا المعنى فيه الكثير من الصواب والتوفيق. وقد جاء فى لسان العرب أن الظهرة السلحفاة وأن الظواهر هى أشراف الأرض، فليس ثمة ما يحول دون استعماله فى معنى الصخور التى لا يكاد يسترها الماء والتى تمثل خطرًا كبيرًا بالنسبة للملاحين. والإدريسى يستعمل فى هذا المعنى لفظ تروش . (المترجم)

ماجد » (reef) كان يطلق على موضع بالساحل الشرقى للبحر الأحمر قريبًا من جزيرة المرما وذلك لأن أباه كان يربط سفينته فى ذلك الموضع[٦٩] ؛ وكان أبوه يلقب « بربّان البرين » (أى ساحلى البحر الأحمر)[٧٠] . ويذكر ابن ماجد فى موضع آخر كيف حدث وأن كتبت له السلامة أثناء ركوبه البحر الأحمر عند ساحله الغربى فى عام ٨٩٠ هـ = ١٤٨٥ لاعتماده على قول أبيه بأنه لايوجد ممر بين جزيرتى أسما ومسند (إلى الجنوب من خط ١٧ درجة شمالا) وذلك على خلاف زعم بقية الربابنة[٧١] . هذا وقد دوّن الأب تجاربه البحرية فى مصنف ضخم هو « الأرجوزة الحجازية » التى كانت تضم أكثر من ألف بيت فى وصف الملاحة على سواحل البحر الأحمر[٧٢] ؛ وقد أمكن للابن أن يستدرك بعض التصحيحات على أبيه اعتمادًا على ملاحظاته الشخصية ويضيف إليه بطريقة منتظمة[٧٣] .

561 غير أن الذى يستحق الفضل الأكبر من بين جميع أفراد هذه الأسرة هو بلا شك أحمد بن ماجد ، أو كما دعى نفسه « ناظم القبلتين مكة وبيت المقدس » و « حاج الحرمين الشريفين » و « أسد البحر الزخار » و « خلف الليوث » و « المعلم العربى »[٧٤] ، و « رابع الثلاثة » و « رابع الليوث »[٧٥] ؛ ويمكن أن نوكد الآن بأن مصنفاته تمنحه الحق لأن يفخر بنفسه بمثل هذه الطريقة . ورغمًا من ندرتها فإن مخطوطات مصنفاته على جانب كبير من الجودة ، فالمخطوطة الرئيسية بباريس تمثل نسخة مأخوذة من الأصل وترجع إلى عام ٩٨٤ هـ = ١٥٧٦[٧٦] ؛ أما مخطوطة دمشق فقد نسخت بمكة فى سنة ١٠٠١ هـ = ١٥٩٢[٧٧] ، كما وأن نسخ المصنفات الثلاث الموجودة بمعهد الدراسات الشرقية لدينا ترجع إلى منتصف القرن السادس عشر[٧٨] .

---

(٦٩) - Ferrand, L'Element persan, p. 207

(٧٠) شرحه ، ص ٢٠٥

(٧١) Ferrand, Annales, p. 299 - 300

(٧٢) - Ferrand, L'Elèment persan, p. 205 - Ferrand, Annales, p. 299

(٧٣) - Ferrand, Annales, p. 299

(٧٤) - Ferrand, Introduction, p. 220 - 221

(٧٥) قدرى حافظ طوقان ، ابن ماجد ، ص ٦٣٣ – ٦٣٦ - Ferrand, Introduction, p. 224 -

(٧٦) - Ferrand, Introduction, p. 199, 246

(٧٧) شرحه ، ص ١٩٩ – ٢٠٠

(٧٨) -I.Iu.Krachkovski, Nad arabskimi rukopisiami, Izbrannye Sochinenia, I, p. 74-78

[- Shumovski, tri neizvestnye Iotsii Akhmada ibn Madjida]

وآثار ابن ماجد كثيرة ويبلغ عدد الموجود منها فى الآونة الحاضرة الأربعين ، ومعظمها قد تمت صياغته شعراً وفقاً للمنهج الاستظهارى (mnemotechnique) القديم . غير أن واحداً من مصنفاته الكبرى الهامة قد كتب بالنثر ويحمل عنوان « كتاب الفوايد فى أصول علم البحر والقواعد » وفيه يفصل المؤلف الكلام على الجانبين النظرى والعملى للمسائل الملاحية معتمدًا من جهة على من سبقوه فى هذا المضمار ومن جهة أخرى على تجاربه الشخصية بصورة خاصة . وميدان هذا الكتاب الرئيسى هو البحر الأحمر والخليج الفارسى والمحيط الهندى وأرخبيل الهند الشرقية (الملايو) ، أما تاريخ تدوينه فيتأرجح بعض الشىء أثناء العرض مما يستدل منه على أن المؤلف قد أضاف إليه مرات عديدة وأعاد تنقيحه بصورة يمكن القول معها بأن الكتاب قد خضع لثلاث مسودات، وذلك فى الأعوام ٨٨٠ هـ = ١٤٧٥ و ٨٨٢ هـ = ١٤٧٨ و ٨٩٥ هـ = ١٤٨٩ بالتعاقب(٧٩) ؛ وهو ينقسم بحسب تبويبه إلى اثنى عشر قسما يطلق المؤلف على كل منها اسم « فائدة » ، كأنما يريد بهذا التذكير بعنوان الكتاب . فالفائدة الأولى تبحث فى نشأة الملاحة مع إيراد تفاصيل يغلب عليها الطابع الأسطورى كما يعالج فيها أيضًا الكلام على الإبرة المغنطة ؛ أما الفائدة الثانية ففى ما يجب معرفته من الشئون البحرية « للمعلم » الأصيل ، هذا بينما تعرّف الفائدة الثالثة بمنازل القمر والرابعة بمنازل وردة الرياح الاثنين والثلاثين التى تظهر على البوصلة وتسمى « بالأخنان » (مفردها « خن »)(٨٠) ؛ ولعله لا يخلو من الفائدة لو أضفنا إلى هذا أن تلك الطريقة نفسها لا تزال مستعملة إلى الآن فى تلك النواحى نفسها فملاحو البحر الأحمر لا يطبقون على البوصلة الأوروبية الحديثة نظام التقسيم المعهود بل / يقسمونها إلى اثنين وثلاثين قسما 562
ترتبط بطلوع ومغيب نجوم معينة وتبينها هذه « الأخنان »(٨١) . وأما الفائدة الخامسة فتعالج الكلام على الجغرافيين والفلكيين الأول ، بينما تفصل السادسة الكلام فى الطرق البحرية والسابعة فى الأرصاد الفلكية ؛ وكانت هذه تتم فى الغالب عن طريق قياس المسافات بين النجم القطبى (الجاه)(٨٢) واثنين من نجوم الدب الأصغر (الفرقدين) والنعش أ من نجوم الدب

---

(٧٩) - Ferrand, Introduction, p. 201 - 202 - Taeschner, review of: G. Ferrand, Introduction, DI, XIX, 1930, p. 35 - 38 - Ferrand, L'Element persan, p. 195, 197, 208- 209

(٨٠) قارن : Ferrand, L'Elment persan, p. 221 - 222

(٨١) - Gobbée, p. 144, 150

(٨٢) راجع : Ferrand, L'Elment persan, p. 218

الأكبر(٨٣) ، وهى نفس النجوم التى لا تزال تلعب الدور نفسه لدى ملاحى البحر الأحمر حاليا(٨٤) . ولا تقاس العروض فى مصنفات ابن ماجد بالدرجات بل بواسطة ما يسمى فى مصطلحه « بالإصبع » ، ولعل هذه التسمية تشير إلى الطريقة البدائية للراصدين الأوائل ؛ وقد تمكن دى سوسير من أن يحدد مقاسه بالكثير من الدقة بما يعادل درجة واحدة وسبع وثلاثين دقيقة(٨٥) . وكانت هذه الطريقة واسعة الانتشار ويبدو أنه وجدت اصطرلابات مقسمة لا بالدرجات بل بهذه الأصابع(٨٦) . وأصل هذه الطريقة غير معروف وفيران لم يستطع أن يتتبعه سواء بين اليونان أو بين الفرس أو لدى أهل الصين أو الهند أو فى اندونيزيا . وأحمد بن ماجد ومدرسته هو الجغرافى العربى الوحيد الذى لم يتبع مذهب بطلميوس فى تقسيم خطى الاستواء والزوال إلى ثلاثمائة وستين درجة ، فلديه يوجد مئتان وأربعة وعشرون* إصبعًا يمكن الوصول إليها عن طريقتين إحداهما أن كل بيت من بيوت وردة الرياح يحتوى على سبعة أصابع والأخرى هو أن كل منزل من المنازل القمرية الثمانية والعشرين به ثمانية أصابع ؛ ويشير الحاصل فى كلا الحالتين إلى أن الإصبع يعادل درجة وسبعًا وثلاثين دقيقة(٨٧) . أما القسم الباقى من « كتاب الفوائد » فيغلب عليه الطابع العملى التطبيقى ، فالفائدة الثامنة تبحث فى العلامات التى تشير إلى اقتراب اليابس وفى توجيه السفينة وقيادتها وفى مرافىء كجرات** التى شغلت مكانًا رئيسيًا على ما يبدو فى نشاط ابن ماجد الملاحى . والفائدة التاسعة تعالج الكلام على السواحل ابتداء من رأس الحد فى الجزيرة العربية ، والعاشرة فى « الجزر الكبار المشهورات المعمورات وهى جزيرة العرب وجزيرة القمر وهى مدكسكر وشمطرة وجاوة والجور [فورموزا] وسيلان وزنجبار والبحرين وجزيرة ابن جاوان وسقطرة » . أما فى الفائدة الحادية عشرة فيرد الكلام على المواسم والسفر فى البحر ؛ ثم يختتم كتابه بالفائدة الثانية عشرة « فى صفة بحر القلزم [البحر الأحمر] وجزره وشعبانه »(٨٨) .

---

(٨٣) - Saussure, p. 129 - 152 - Ferrand, Annales, p. 303

(٨٤) - Gobbée, p. 145

(٨٥) - Saussure, p. 152 - 153

(٨٦) شرحه ، ص ١٥٩ – ١٦٠ ، حاشية ١ (مع المراجع)

* ورد فى الكتاب سهوًا مئتان وأربعون بدلا من مائتين وأربعة وعشرين . (المترجم)

(٨٧) - Ferrand, Gèographes arabes p. 132

** يكتبها ابن ماجد دائمًا جوزرات . (المترجم)

(٨٨) - Ferrand, Annales, p. 294 - Ferrand, Introduction, p. 202

أما بقية مصنفات أحمد بن ماجد فمنظومة شعرًا وتحمل عادة اسم « الأراجيز » رغما من أنها لم تنظم فى كل الحالات ببحر الرجز ؛ وتتراوح أحجامها بين عشرين وثلاثمائة بيتًا . وفى معظم / 563
الأحوال تعالج كل واحدة منها الكلام على طريق بحرى معين ، أى أنها أشبه ما تكون بمرشدات بحرية بالنسبة لعصرها وأحيانًا قد تمس الكلام على مسائل تخصصية ترتبط بالملاحة وعلم الفلك البحرى[٨٩] . وإحدى هذه الأراجيز قد تم تأليفها قبل « كتاب الفوائد » فهى بهذا أشبه ما تكون بمسودة مبدئية لمادته ؛ تلك هى أرجوزته الكبرى الواقعة فى ألف بيت بالتقريب والتى تحمل عنوان « حاوية الاختصار فى أصول علم البحار »[٩٠] التى فرغ منها بمسقط رأسه جلفار فى عام ٨٦٦ هـ = ١٤٦٢[٩١] . وهى تقع فى إحدى عشر فصلا يبحث الأول منها فى العلامات التى تشير إلى اقتراب اليابس ، والثانى فى منازل القمر وبيوت البوصلة وفى الأصابع و « الترفا » . وهذا اللفظ الأخير وفقًا لتحقيق دى سوسير[٩٢] هو المعادل (équivalent) الجغرافى للفظ الإصبع ويساوى سبعة وتسعين ميلا بحريًا بالتقريب ، أى رحلة يوم بحرى وذلك بمعدل سرعة يساوى أربعة أميال بحرية فى الساعة أو بعبارة أخرى أربع عقد (noeud) . ويعالج الفصل الثالث الكلام على مسائل التوقيت والرابع فى المواسم ؛ ومن الخامس إلى الثامن يرد وصف طرق الملاحة المختلفة فى المحيط الهندى وبحاره وخلجانه ؛ ثم يلى هذا الفصل التاسع فى الأرصاد والعاشر والحادى عشر فى مسائل مختلفة تتعلق بالملاحة من بينها تفسير لفظ يستعمل فى القياس هو « زام » (وجمعها أزوام) كان قد ورد من قبل فى كتاب « عجائب الهند » ؛ وكما وضح حاليًا فهو يساوى ثُمنَ يوم بحرى بليلته أى ما يعادل ثلاث ساعات بالتقريب .

هذان المصنفان ، المنثور والمنظوم ، أعنى « كتاب الفوايد » و « حاوية الاختصار » ، هما أهم ما دونه يراع ابن ماجد من بين جميع مصنفاته الموجودة بين أيدينا سواء من حيث الحجم أو المضمون . وبعض مصنفاته الصغرى تعالج أحيانًا مسائل متفرقة تتعلق بالملاحة أو توضح مصطلحات فنية خاصة ، غير أن غالبيتها تقدم لنا أوصافًا مفصلة للطرق البحرية ، أى أنها تمثل « مرشدات بحرية » . وخير مثال لهذا ثلاث أراجيز محفوظة بين مخطوطات معهد الدراسات

---

(٨٩) المحتويات لدى : Ferrand, Introduction p. 208 - 218

(٩٠) - Ferrand, Annales, p. 294 - 295 - Ferrand, Introduction, p. 203 - 206

(٩١) - Ferrand, Annales, p. 295 - Ferrand, Introduction, p. 206 - 207

(٩٢) - Saussure, p. 171

الشرقية [لدينا] ولم تجد مكانها بالتالى بين المادة التى وصلت إلى يد فيران*، إحداها (فى حوالى ستمائة بيت) تصف الطريق من مليبار إلى «سفالة الزنج» على الساحل الشرقى لافريقيا فى حين تصف الثانية (فى مائتين وثمانين بيتاً) الطريق بين الهند وسيلان وجاوه، أما الأخيرة وهى أصغرها (فى حوالى خمسة وخمسين بيتاً) فتتناول وصف الطريق فى البحر الأحمر بين جدة وعدن. وبهذا فإن تلك الأراجيز الثلاث ترسم لنا صورة حية لذلك الميدان الذى نشط فيه بشكل خاص «المعلم العربى»(٩٣).

وبين التاريخين اللذين أتم فيهما تأليف « حاوية الاختصار » و « كتاب الفوايد » أى بين عامى
564 ١٤٦٢ و ١٤٩٠ يمكن توزيع بقية / مصنفات ابن ماجد الأخرى التى أمكن معرفة تواريخ تأليفها على وجه التحديد(٩٤)، وتبقى أرجوزة واحدة فقط من بينها يرجع تاريخها إلى عام ٩٠٠ هـ = ١٤٩٤ - ١٤٩٥(٩٥)، فهى تقف بذلك دليلا آخر على أن نشاط حياته الملاحية لم يتجاوز حدود القرن الخامس عشر فيما يبدو. ونتيجة لهذا يمكن القول بأن « كتاب الفوايد » يتوّج معرفته النظرية وتجاربه العملية ويمثل الأوج الذى بلغته خبرته فى الملاحة وتطبيقه العملى لنظرياتها.

وابن ماجد يقدر السابقين له فى هذا المضمار تقديرًا عاليًا خاصة الثلاثة الذين ذكرهم بأسمائهم(٩٦) مضافًا إليهم والده وجده؛ ولكن هذا لم يمنعه على أية حال من توجيه النقد إليهم فهو يقول ما نصه(٩٧):

« وقد عظمنا علمهم وتأليفهم وجللنا قدورهم رحمة الله عليهم بقولنا أنا رابع الثلاثة وربما فى العلم الذى اخترعناه فى البحر ورقة واحدة تقيم فى البلاغة والصحة والفايدة والهداية والدلالة بأكثر ما صنفوه ...

---

* نشر أحد تلامذة كراتشكوفسكى وهو شوموفسكى هذه الأراجيز الثلاث مع ترجمتها إلى الروسية وتزويدها بتعليقات وافية بعنوان «ثلاث مرشدات بحرية غير معروفة لأحمد بن ماجد الدليل العربى لفاسكو دا غاما، فى مخطوطة فريدة بمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية، موسكو - لنينجراد، ١٩٥٧».

T.A. Shumovski, Tri neizvestnie lotsii Akhmada ibn Madjida arabskogo lotsmana Vasko da Gami, v unikalnoi rukopisi Instituta Vostokovedenia AN SSSR, M - L., 1957 (المترجم)

(٩٣) راجع: Krachkovski, ArabskieGeografy, p. 760, مع الصورة p. 759

(٩٤) - Ferrand, L'Elèment persan, p. 193 - Ferrand, Introduction, p. 219

(٩٥) - Ferrand, Introduction, p. 212 (No VI)

(٩٦) شرحه، ص ٢٢٣ - ٢٢٧

(٩٧) راجع: شرحه، ص ٢٢٤ - ٢٢٥

« وهم مولفين لا مجربين ولم أعلم لهم رابع غيرى وقد وقرتهم بقولى إنى رابعهم لتقدمهم فى الهجرة فقط وسيأتى بعد موتى زمانًا ورجالا يعرفون لكل أحد منزلته ولما اطلعت على تأليفهم ورأيته ضعيف بغير قيد ولا صحة بالكلية ولا تهذيب هذبت ما صح منه وذكرت الاختراعات التى اخترعتها وصححتها وجربتها عام بعد عام فى نظم الأراجيز والقصايد .... »*[٩٨].

وابن ماجد قارىء مطّلع فى مجال الأدب ولا يقتصر محيط قراءته على أهل الجغرافيا الملاحية « كالليوث الثلاثة »[٩٩] وغيرهم من ممثلى هذا الاتجاه الذين لم يكن عددهم بالقليل رغمًا من أن « راهنامجاتهم » لم تصل إلينا وأن معرفتنا بمعظمهم ترجع إلى مصنفات ابن ماجد وحدها[١٠٠]. ومعرفة ابن ماجد بالأدب الجغرافى عامة ليست أقل من معرفته بالأدب الملاحى ، وتحتل المكانة الأولى بالنسبة له بطبيعة الحال الجغرافيا الرياضية فيرد لديه ذكر المجسطى والبتانى وعبد الرحمن الصوفى والمراكشى والطوسى وألو غ بيك[١٠١] ، أى بالتقريب جميع حلقات تلك السلسلة التى عالجنا الكلام عليها من قبل . ومن ناحية أخرى تقابلنا لديه أسماء ابن حوقل وابن سعيد وياقوت[١٠٢] ، أضف إلى هذه أنه لا يهمل إيراد أسماء مصنفات أدبية صرفة[١٠٣] كما يستشهد بأبيات لعدد من الشعراء ابتداء من العصر الجاهلى إلى القرن الخامس عشر[١٠٤] .

واطلاع ابن ماجد الواسع وتجربته العريضة يبرران إلى حد كبير الفكرة الرفيعة التى كونها عن 565
نفسه وعن مصنفاته ؛ ولهذا السبب فإن فيران وهو خير خبير فى هذا النمط من الأدب لم يبالغ حين رأى فى « كتاب الفوايد » « أثرًا يدعو إلى الإعجاب » (I'oeuvre est admirable) واعتبره ذروة التأليف الفلكى الملاحى لعصره ، كما اعتبر ابن ماجد أول مؤلف للمرشدات البحرية InstructionsNautiques الحديثة . ووصفه للبحر الأحمر لم يفقه بل ولم يعادله ،

---

*نقلنا النص حرفيا دون أن نجرى فيه أى تصحيح، ولن يخفى على القارىء العربى أن ابن ماجد لم يحفل كثيرا لقواعد اللغة أو النحو . (المترجم)

(٩٨) - Ferrand, L'Elèment persan, p. 197

(٩٩) - Ferrand, Introduction, p. 223, 225 - 227

(١٠٠) شرحه ، ص ٢٢٣ – ٢٢٦ – Ferrand, L'Elèment persan, p. 196, 208

(١٠١) - Ferrand, Introduction, p. 230 - 232

(١٠٢) شرحه ، ص ٢٣٢

(١٠٣) شرحه ص ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣

(١٠٤) شرحه ، ص ٢٢٩ – ٢٣٠

باستثناء بعض التصحيحات فى العروض ، أى مرشد أوروبى فى الملاحة الشراعية (marine à voile) كما وأن معلوماته عن الرياح الموسمية والرياح المحلية وطرق الملاحة الساحلية (au cabotage) والبعيدة المدى تتميز بأقصى درجة من الدقة والتفصيل يمكن أن نتوقعها فى ذلك العصر . ومن الملاحظ أن معرفته بأندونيزيا كانت أقل من معرفته بسواحل المحيط الهندى وجزره ، ولسبب لا ندرى كنهه تصور ابن ماجد جزيرة جاوة ممتدة من الشمال إلى الجنوب على نقيض اتجاهها الفعلى ، وتتكرر هذه الغلطة نفسها لدى المؤلف التالى له سليمان المهرى بل ووجدت طريقها إلى الترجمة التركية لسيدى على ريس ، وهذا كما يعتقد فيران هو التصحيح الوحيد الهام الذى يمكن إجراؤه فى مؤلفاته[١٠٥] .

أما علاقته بالمذهب الهندى فكانت قوية للغاية وليست أقل من علاقته بالأدب العربى . وفى تحليله للصفات التى يجب أن يتحلى بها المعلم الماهر يسوق ابن ماجد فى هذا الصدد وفى القرن الخامس عشر نفس الألفاظ تقريبًا التى وردت فى المصنف الهندى المشهور للقرن الأول للميلاد « جاتكا مالا » Jàtaka - Màla[١٠٦] . وبعد قرن من ابن ماجد عندما عالج أبو الفضل العلامى وزير أكبر الكلام على المسائل البحرية فى مصنفه « آئين أكبرى » عبر عن نفس تلك الآراء فيما يتعلق بصفات « المعلم » بل وبالأسلوب نفسه تقريبًا[١٠٧] . وبهذا نبصر أمام أعيننا كيف اندمجت عناصر مختلفة من الحضارات العربية والإيرانية والهندية على مر قرون طويلة لتخرج لنا مزيجًا مركبًا فى مجال الجغرافيا الملاحية[١٠٨] . وقد حفظت ذكرى ابن ماجد إلى عصرنا هذا ، ففى الثلاثينيات من القرن الماضى وجد فى يد أحد النواخذة سفر بعنوان « ماجد كتاب » محلى ببعض التصاوير ويمثل فى الغالب أحد مصنفاته . ولم يكن بوسع ذلك الملاح أن يستغنى عنه فى رجعته[١٠٩] .

أما الممثل العربى الثانى للجغرافيا الملاحية الذى أصبح معروفاً لنا بفضل بحوث فيران فإنه لم يكن على ما يبدو فى نفس القدر من الأصالة والإبداع كزميله السابق له . وأصل سليمان المهرى

---

(١٠٥) شرحه ، ص ٢١٩ – ٢٢٠

(١٠٦) شرحه ، ص ١٨٠ – ١٨١

(١٠٧) شرحه ، ص ١٨١ – ١٨٢

(١٠٨) راجع على وجه العموم : شرحه ، ص ١٧٧ – ١٨٣

(١٠٩) Prinsep, p. 10 - Ferrand, Introduction, p. 227 -

من بلاد العرب أيضًا فهو من مدينة الشحر على الساحل الجنوبى لحضر موت ، وقد اشتهر سكان هذه المواضع منذ القدم بالمهارة فى الملاحة وكانت لهم صلات عن طريق البحر بسواحل افريقيا الشرقية / وأرخبيل الهند الشرقية على السواء . ومن المؤسف أنه لا توجد لدينا أية تفاصيل تتعلق 566
بسيرة حياة هذا الملاح العربى حتى فى مصنفاته نفسها ، وبهذا فإننا لا نستطيع تحديد الفترة التى عاش فيها إلا اعتمادًا على تعليلات ثانوية ، فإحدى مصنفاته يرجع تاريخ تأليفه إلى عام ٩١٧ هـ = ١٥١١[١١٠] ولكن عندما صنف سيدى على ريس كتابه « محيط » فى عام ٩٦١ هـ = ١٥٥٤ فإن سليمان المهرى لم يكن فى عداد الأحياء[١١١] . لهذا فإن فترة نشاطه تقع على ما يبدو فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، أى بعد مضى بعض الوقت على رسوخ قدم البرتغاليين بالمحيط الهندى .

وعلى نقيض الحال مع ابن ماجد فإن جميع المصنفات الخمسة التى تبقت لنا عن سليمان المهرى مكتوبة نثرًا ومحفوظة بأجمعها فى إحدى مخطوطتى باريس المشار إليهما (رقم ٢٥٥٩)[١١٢] . وهى من حيث مضمونها تكرر إلى حد كبير مادة ابن ماجد ، وليس ثمة ما يدعو إلى الكلام عليها جميعها بالتفصيل ؛ وينقسم أكبرها وهو « العمدة المهرية فى ضبط العلوم البحرية »[١١٣] الذى يرجع تاريخ تأليفه إلى عام ٩١٧ هـ = ١٥١١[١١٤] إلى سبعة أبواب تنقسم بدورها إلى فصول . فالباب الأول يبحث فى أصول الفلك البحرى مع التعريف بمعظم المصطلحات التى مرت بنا ؛ وفى الباب الثانى يتحدث عن النجوم وجميع ما يتعلق بها من شئون الملاحة ؛ أما الباب الثالث ففى الطرق البحرية الواقعة « فوق الريح وتحت الريح » أى إلى الغرب والشرق من رأس كومورين Comorin . ويبحث الباب الرابع فى الطرق المارة على الجزر الكبرى المختلفة ، بينما يبحث الخامس فى القياسات (latitudes) التى مرت بنا من قبل مثل قياس النجم القطبى (الجاه) والفرقدين (ب و ج من الدب الأصغر) والنعش (أ و ب و ج و د من الدب الأكبر) . وأما الباب السادس فيفصّل فيه الكلام على الرياح الموسمية السائدة بالمحيط

---

(١١٠) - Ferrand, Introduction, p. 243

(١١١) شرحه ، ص ٢٣٧ .

(١١٢) شرحه

(١١٣) شرحه ، ص ٢٣٩ – ٢٤٣

(١١٤) شرحه ، ص ٢٤٣

الهندى بينما يفرد السابع لوصف البحر الأحمر ويشفع ذلك بإعطاء وصف لحوالى الثلاثين من طرق الملاحة مبينًا فى ذات الوقت المخاطر التى ينبغى أن يتجنبها الملاحون .

وأما المصنف الثانى الكبير لسليمان المهرى فيحمل عنوان « كتاب المنهاج الفاخر فى علم البحر الزاخر » وينقسم هو أيضًا إلى سبعة أبواب[١١٥] تسبقها مقدمة يفسر لنا فيها معنى الاصطلاحين «زام» و «ترفا». فالباب الأول يصف فيه السواحل القارية للمحيط الهندى ، بينما يفرد الثانى للكلام على عروض الموانى الموجودة على السواحل المشهورة والمعمورة ، والثالث لوصف الجزر الكبار المعمورة المشهورة ، والرابع فى المسافات بين بلاد العرب وساحل الهند الغربى وموانى خليج البنغال من ناحية ، وبين ساحل أفريقيا الشرقى وموانى سومطرة وجاوة وبالى من ناحية أخرى . أما الباب الخامس فمفرد لذكر الرياح والعواصف والمخاطر التى تتعرض لها السفن ، والسادس يعالج الكلام على العلامات التى تشير إلى اقتراب الأرض على السواحل الغربية للهند
567 وجزيرة العرب وافريقيا الشرقية ، هذا بينما يبحث الفصل السابع فى حلول الشمس والقمر / منطقة البروج (signes du zodiaque) ؛ وفى الخاتمة يقدم مرة أخرى وصفًا لخمس طرق ملاحية .

ويلوح أن الرقم « سبعة » كان محببًا إلى سليمان ، وواحد فقط من مصنفاته وهو رسالة غير كبيرة فى حساب التقويم (القمرى والشمسى والرومى والقبطى والفارسى) ينقسم إلى ستة أبواب[١١٦] . وله رسالة أخرى غير كبيرة أيضًا ذات مضمون عام بعنوان « تحفة الفحول فى تمهيد الأصول » عمل لها شرحًا وافيًا[١١٧] على طريقة العلماء القدامى فى مختلف فروع العلوم ؛ وتتداخل مادتها بوجه عام مع مضمون المصنفات السابقة ؛ فالباب الأول فى صفة الأفلاك والنجوم وفى المغناطيس وبيت الإبرة ، والثانى فى تقسيم الدائرة إلى اثنين وثلاثين جزءًا هى « الأخنان » ، والثالث يورد تحديدًا مفصلا للفظ « زام » مع وصف لاستعماله ؛ أما الباب الرابع ففى الطرق البحرية الساحلية منها والتى فى عرض البحر ، والخامس فى تحديد ارتفاع النجوم ، والسادس فى المسافات بين الموانى ونقاط أخرى ، ويختتم ذلك بالباب السابع فى الرياح خاصة الموسمية بالمحيط الهندى .

وسليمان المهرى يصل فى نهاية الشوط إلى النتيجة نفسها التى وصل إليها ابن ماجد بالتقريب

---

(١١٥) شرحه ، ص ٢٤٣ – ٢٤٤ .
(١١٦) شرحه ، ص ٢٣٧ – ٢٣٨ .
(١١٧) شرحه ، ص ٢٣٨ – ٢٣٩ ، ٢٤٤ – ٢٤٦

وهى أن المعرفة بالشئون البحرية إنما تقوم على أساس مزدوج من سلامة التفكير والخبرة العملية(١١٨) .

وقد زاول سليمان نشاطه بعد نصف قرن بالتقريب من أحمد بن ماجد ، ورغمًا من ذلك فإنه لا ينعكس فى تآليفه أى أثر لنفوذ البرتغاليين الذين حدث له وأن التقى بهم دون شك خلال أسفاره البحرية ، لأن السيادة على المياه الغربية للمحيط الهندى كانت قد انتقلت إلى أيديهم منذ بداية القرن السادس عشر كما رأينا . وقد ظلت مصنفاته عربية صرفة(١١٩) ولكنها تقدم لنا بالطبع مزيجًا مركبًا (synthesis) من تجربة عدد كبير من الشعوب إن لم يذكر من بينهم ممثلى العلم الغربى فقد ذكر على الأقل أهل التجربة العملية منهم ؛ ففى كلام له عن بعض المعالمة نراه يشير إلى « معالمة البحر الهندى وهم العرب والهرامزة وأهل الهند والشوليان [cholas سكان ساحل كروماندل] والزنوج وكذا معالمة الغرب كالمغاربة والفرنج والروميين »(١٢٠) ؛ وذكر الأخيرين يقف دليلا على أن محيط تجربته العملية كان واسعًا للغاية رغما من أن مصنفاته تبدو قاحلة وفقيرة إذا ما قورنت بمصنفات ابن ماجد من وجهة نظر الاطلاع الأدبى والمستوى الثقافى العام .

ودراسة آثار ابن ماجد وسليمان لا تخلو من صعوبات معينة، وقد أعرب دى سلان De Slane ، وهو أول من وصف هذه المخطوطات، عن ريبته الشديدة فى إمكان فهم مادتها يوماً ما؛ وهو يقول ما نصه «إن أسلوبها يحفل بالكثير من الحوشى الغريب وتكثر به المصطلحات
الفنية / التى لا يتسنى فهمها إلا لملاحى المحيط الهندى دون غيرهم »(١٢١) . ويجب فى البداية أن 568
نقف موقف المعارضة من الشطر الأول لهذه القضية ذلك لأن لغة ابن ماجد وسليمان بسيطة على وجه العموم ، هذا إذا أخذنا فى حسابنا الحدود الضيقة التى أملاها الالتزام بالوزن الشعرى فى معالجة موضوع فنى كهذا ؛ وقد يلاحظ أحيانًا لدى ابن ماجد رغمًا من اطلاعه الواسع فى محيط الأدب وجود بعض الألفاظ العامية بل والخروج على الفصيح ؛ بيد أن هذه ظاهرة عادية بالنسبة للعصر والوسط الذى عاش فيه وأولى بنا أن نعجب لارتفاع مستوى أسلوبه فى الكتابة . وقد رأى

---

(١١٨) شرحه ، ص ٢٣٩ .

(١١٩) - Ferrand, Annales, p. 312

(١٢٠) -Ferrand, L'Element persan, p. 215 - 216 - Ferrand, Introduction, p. 39, note 2

(١٢١) - De Slane, Catalogue, 1883 - 1895, p. 401

فيران لزامًا عليه أن يصحح أيضًا الشطر الثانى من حكم دى سلان تصحيحًا جوهريًا[١٢٢] فهو يعتقد بأن هذه المرشدات والتعليمات الملاحية والفلكية إنما عملت بواسطة ملاحين من أجل ملاحين فلا محيص من أن تكتب باللغة الملاحية الفلكية الخاصة بذلك الوسط الملاحى ، وبما أن هذه اللغة قد بقيت إلى الآونة الحاضرة مجهولة تمام الجهل ولم تخضع بعد لدراسة دقيقة فمن المنطقى أن يحتاج عدد من ألفاظها إلى إعمال الجهد وإلى البحث والتقصى ؛ وكما يبدو من مجهودات فيران ودى سوسير فإن هذه المهمة وإن كانت عسيرة للغاية إلا أنها أبعد من أن تكون مستحيلة بل كان نصيبها التوفيق فى حالات عديدة وأسهمت بهذا فى غنى المعجم العربى .

ومهما يكن من شيء فإن الكشف عن مصنفات ابن ماجد وسليمان وإن تم للأسف فى عهد متأخر إلا أنه يعتبر حدثاً كبيراً ليس بالنسبة لموضوع دراستنا وحده ، أعنى الأدب الجغرافى العربى الذى ظهرت لنا فيه صفحة مشرقة لم تكن معروفة من قبل ، بل وأيضاً لأن هذه المصنفات تحتل مكانة مرموقة فى تاريخ الحضارة البشرية جمعاء . فهى تصور لنا بدقة كبرى طبيعة الأوضاع الملاحية الأوقيانوسية فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر وذلك فى المجال البحرى الممتد بين ساحل افريقيا الشرقى ابتداء من رأس الرجاء الصالح بالتقريب وبين ميناء الزيتون الشهيرة بالصين ، وهو يشمل البحر الأحمر والخليج الفارسى وجميع جزر المحيط الهندى وأرخبيل آسيا الشرقية باستثناء الفلبين واليابان وحدهما . وإلى جانب هذا فهى تمثل أهم مصدر للمعلومات الجغرافية التى كانت تحت تصرف العصور الوسيطة المتأخرة عن البحار الجنوبية ؛ وكما اعترف ابن ماجد نفسه فهى تعتمد إلى حد ما على تلك المرشدات البحرية التى وصفها أبوه وجده من قبل وأيضًا على معلومات لملاحين عاشوا فى عهود سابقة لذلك ثم صححها وأضاف إليها ابن ماجد من أجل ملاحى القرن الخامس عشر . فهذه المصنفات يمكن اعتبارها إلى حد كبير جماعًا للمعارف التى وجدت تحت تصرف جميع ملاحى بحر الهند بما فيهم العرب والزنوج والهنود الغربيون والشوليان والاندونيزيون بل وحتى الصينيون ، وعلى هذا فهى تمثل أهم مصدر / لتاريخ الملاحة والتجارة فى 569
البحار الجنوبية فى الفترة السابقة للفتح البرتغالى مباشرة[١٢٣] .

ومن الواضح أن ابن ماجد وسليمان المهرى قد اقتصرا فى مادتهما على المذهب الشرقى وحده ولا يوجد أى أثر للنفوذ البرتغالى عليهما البتة رغما من أن الثانى قد وقع نشاطه الملاحى فى عهد

---

(١٢٢) - Ferrand, Introduction, p. 246 - 247 - Ferrand, Annales, p. 294

(١٢٣) - Ferrand, Introduction, p. 247

سيطرة البرتغاليين ؛ وعلى النقيض من هذا فإن النفوذ العربي يبدو قويًا على البرتغاليين الذين تعرفوا على التجربة العربية فى الملاحة منذ لحظة دورانهم حول رأس الرجاء الصالح ، بل إن أقدم ما دونوه فى هذا المجال يحمل آثار النفوذ العربى بوضوح؛ أضف إلى هذا أن بعض الاصطلاحات الفنية البرتغالية ليست سوى ترجمة صرفة لمثيلاتها العربية(١٢٤). وإذا كان تأثير أدب الجغرافيا الملاحية العربية على أهل الغرب فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر جليًا بهذا القدر فقمين أن يكون تأثيره على أهل المشرق أوسع وأعمق ؛ ويمكن تتبع هذا بصورة خاصة على الجغرافيا الملاحية فى الأدب التركى التى مرت فى القرن السادس عشر على فترة من الازدهار والانتعاش تدين بها ليس قليلا إلى هذه المصنفات العربية التى فرغنا للتو من الكلام عليها .

لقد حدث وأن ذكرنا أن اسمى ابن ماجد وسليمان قد وجدا طريقهما إلى الدوائر العلمية الأوروبية فى بداية القرن التاسع عشر بفضل كتاب ألفه الملاح والشاعر والكاتب التركى سيدى على ريس ؛ فمصنفه فى « الأوقيانوغرافيا » **oceanography** إذا جاز هذا التعبير ، قد اعتمد إلى حد كبير على آثار هذين المؤلفين العربيين بصورة يضحى معها من العسير فى الظروف الحاضرة موافقة رأى القائلين بأصالة كتابه هذا . وعلى مر الزمن الذى ظلت فيه هذه الآثار منزوية فى طى النسيان فإن مصنفه بقى متمتعًا بالإعجاب والتقدير الشديدين اللذين هو جدير بهما ؛ غير أنه حدث تبدّل جوهرى فى الصورة بمجرد اكتشاف تلك الأصول إذ وضح أن جميع ذلك الثناء الذى أغدق عليه إنما ينبغى أن يكون فى الحقيقة من نصيب تلك المصادر العربية التى اعتمد عليها . ومن ثم فقد حدث نتيجة لهذا الكشف رد فعل معين ، إذ سقطت قيمته بعض الشىء ووضع فى المكان اللائق به كناقل فحسب ؛ وسنرى فيما يلي أن هذا الحكم الأخير أبعد من أن يكون مقبولا من الجميع .

وقد حمل سيدى على بن حسين إلى جانب رتبته « كريّس » أو « قبودان » لقب « جلبى » ، كما عرف أيضًا بمخلصه « كاتب رومى » أو « كاتبى » أو « رومى »(١٢٥) وكان يمهر بها أشعاره التى نالت بعض الشهرة فى الأدب الفنى العثمانى . وينسب إليه إلى جانب هذا ترجمة لرسالة فى الفلك أتمها بحلب فى عام ٩٥٦ هـ = ١٥٤٩ وهى من تأليف أحد معاونى ألوغ بيك العلامة على قوشجى المعروف لنا جيدًا والذى لعب فى النصف الثانى / من حياته العلمية دورًا كبيرًا فى 570

(١٢٤) - Ferrand, Annales, p. 312

(١٢٥) - Süssheim, Ali (Sidi Ali), p. 301

نشر العلوم الدقيقة بين الأتراك العثمانيين ؛ ويمكن الالتقاء بمخطوطة هذه الترجمة من آن لآخر مما يشير إلى أنها قد تمتعت يومًا ما بقدر من الرواج[١٢٦] . غير أن ما ناله سيدى على ريس من شهرة كبرى إنما يرجع فى الواقع إلى الدور الذى لعبه فى تاريخ الدولة العثمانية من ناحية وإلى ما دونه من آثار تجريبية ونظرية فى الشئون البحرية من ناحية أخرى . .

وقد بلغ الاهتمام بالشئون البحرية والملاحية فى الدولة العثمانية درجة رفيعة فى ذلك العصر ، وسنلتقى فى هذا الفصل من كتابنا بعدد هائل من الشخصيات الكبرى التى لعبت دورًا آخر فى هذا المجال . ويرجع أصل سيدى ريس إلى أسرة من عمال الدولة لذا فإنه نال خبرة عملية جيدة فى شبابه واشترك فى عدد من الحملات البحرية فى أرخبيل بحر إيجه وفى الحملة العسكرية التى انتهت بإخضاع جزيرة قبرص فى عام ١٥٢٢ ، ثم أخذ طرفًا لبعض الوقت فى العمليات العسكرية التى قام بها خير الدين بربروسا الشهير على الساحل الشمالى لافريقيا . وبعد أن اكتسب الشهرة اشترك فى حملة السلطان سليمان الثانية على بلاد الفرس وهى الحملة التى عبرت القوقاز وآذربيجان فى عام ١٥٤٨ ، كما شارك أيضًا فى حملته الثالثة التى أمضى السلطان فى خلالها بعض الوقت بمدينة حلب وهناك أكمل مؤلفنا ترجمته لرسالة قوشجى التى أشرنا إليها . وفى حلب بالذات كلفه السلطان بأن يذهب لإحضار الأسطول العثمانى المصرى من البصرة إلى السويس بعد أن نكبه البرتغاليون[١٢٧] .

وكانت تلك آخر محاولة بالتقريب للعثمانيين لوضع حد لتفوق البرتغاليين فى الخليج الفارسى والمحيط الهندى ، فقد أبحر الأسطول العثمانى إلى تلك المياه لأول مرة فى عام ١٥٣٨ بهدف كسر شوكتهم ولكن لم يكتب له التوفيق وكان المكسب الوحيد للعثمانيين من تلك المحاولة العسكرية هو أن ميناء جدة قد أصبحت منذ تلك اللحظة فى قبضتهم . وفى عام ١٥٥١ أبحر الأسطول العثمانى المصرى من السويس إلى عمان فاستولى على مسقط ولكن محاولته الاستيلاء على هرمز ناءت بالفشل فلم يوفق فى الرجوع إلى مصر سوى سفينتين على حين التجأت خمس عشرة سفينة أخرى إلى ميناء البصرة ، وكانت تلك هى التى كلف على ريس بقيادتها من البصرة إلى السويس . وعلى الرغم مما أظهره من البطولة فقد منى هو أيضًا بالفشل إذ هزم البرتغال بتفوقهم الواضح الأسطول العثمانى شر هزيمة ففقد عددًا من سفنه ولم تنجح فى الإفلات سوى تسع سفن وصلت إلى سورات

---

(١٢٦) -Taeschner, GLO, p. 40, note 2

(١٢٧) - Ferrand Introduction, p. 248 - 250 - Tomaschek, SBAW, VIII, p. 3

بكجرات فى حال يرثى لها ؛ وهناك اشتراها أمير سورات ووعد بإرسال ثمنها إلى القسطنطينية . ثم تم تسريح بحارتها واختار على ريس من بينهم خمسين فقط ليصحبوه فى العودة إلى أرض الوطن بطريق البر ؛ وقد قوبل على ريس باحترام كبير فى أحمد أباد عاصمة كجرات وأفاد من وقت فراغه هناك ، وذلك بعد ثمانية أشهر أمضاها فى كفاح عنيف فى البحر ، فأنهى كتابه الرئيس فى المحرم من سنة ٩٦٢ هـ = ١٥٥٤ وهو الكتاب الذى يهمنا هاهنا والذى عرف بعنوانه المختصر « محيط »[١٢٨] ، أو فى صورته الكاملة كما يبدو من مخطوطة فينا « المحيط فى علم الأفلاك والأبحر »[١٢٩] . / غير أن مسودته النهائية تم تدوينها عقب ذلك لأن المؤلف ذكر فيها وصفًا لطريق 571
عودته إلى أرض الوطن ، ويرجع هذا إلى عام ٩٦٤ هـ= ١٥٥٦[١٣٠] . وهذا الكتاب لم ير النور إلى الآن فى صورته الكاملة . غير أن كلا مخطوطتيه المعروفتين لنا تتمتع بقيمة كبيرة ، فإحداهما وهى مخطوطة فينا نقلت عن أصل الكتاب بديار بكر فى عام ٩٦٦ هـ= ١٥٥٩ أى والمؤلف لا يزال على قيد الحياة ؛ أما الثانية المحفوظة بنابلى فيرجع تاريخ تدوينها إلى عام ٩٧٩ هـ = ١٥٧١[١٣١] . هذا وقد نشر قسما كبيرًا من كتاب « محيط » فى ترجمة إنجليزية وذلك فى النصف الثانى من السنوات الثلاثينات للقرن التاسع عشر المستشرق همر Hammer[١٣٢] وظلت هذه الترجمة إلى آخر ذلك القرن المصدر الوحيد للتعرف على الأثر وعلى مصادره العربية . ويمثل خطوة هامة فى دراسته ما تم نشره وترجمته من أقسامه على يد بونيللى Bonelli وبتنر Bittner فى منتصف السنوات التسعينات من القرن الماضى ، وأيضًا بشكل خاص ذلك البحث الجغرافى الجدى الذى ندين به لقلم الخبير الكبير بالجغرافيا التاريخية توماشك Tomaschck[١٣٣] . وكان كتاب على ريس قبل اكتشافات فيران يعد بالإجماع أتم وصف للبحار الجنوبية ، وليس هذا فحسب بل الأثر الوحيد حتى تلك اللحظة الذى يقدم لنا فكرة عما بلغته الجغرافيا الملاحية لدى المسلمين فى نهاية العصور الوسيطة ؛ وإلى جانب هذا فقد وضح أن المؤلف لم يكن جاهلا

---

(١٢٨) -Tomaschek, Mohit, p. 2-3-Ferrand, Introduction, p, 251 - Bonelli, p. 751

(١٢٩) - Bittner, WZKM, X, p. 21

(١٣٠) - Bonelli, p. 752

(١٣١) شرحه Ferrand, Introduction, p. 251

(١٣٢) - Hammer, Geschichte

(١٣٣) تعدادها لدى : Ferrand, Introduction, p. 251 - 254

بأخبار اكتشاف الاسبان والبرتغاليين للعالم الجديد كما تبين أن أبعد موضع يذكره فى الشرق الأقصى هو جور (كوريا أو فورموزا)[١٣٤] . وإن نظرة عاجلة إلى فهرس موضوعات كتابه لتبين لنا دون حاجة إلى برهان أو دليل مدى اعتماده على مصادره العربية[١٣٥] .

ينقسم كتاب « محيط » إلى مقدمة وعشرة أبواب تنقسم بدورها إلى عدد من الفصول يختلف عددها من باب لآخر ؛ ففى المقدمة القصيرة يتكلم المؤلف عن الظروف التى وضع فيها كتابه ويذكر أنه اعتمد فى تأليفه على محادثات مثمرة طيلة ثمانية أشهر مع « المعالمة » المهرة الذين التقى بهم فى الخليج الفارسى ، وعلى تلك المصنفات العربية الخمس التى يذكرها بعناوينها ؛ واثنان من هذه المصنفات لابن ماجد أما الثلاثة الأخرى فلسليمان[١٣٦] وهى الموجودة غالبًا فى متناول الأيدى فى الأصل الذى نشره فيران . ويبحث الباب الأول من كتاب « محيط » فى الجهات الأصلية وتقسيم القبة السماوية وأبعاد النجوم وارتفاعها ، وهنا يرد لأول مرة بالنسبة للعلم الأوروبى تفسير لفظ « إصبع » . أما فى الباب الثانى فيعالج الكلام على حساب الوقت فيبحث فى أسس السنين الشمسية والقمرية كما يبحث أيضًا فى السنين البيزنطية والقبطية والفارسية . وفى الباب الثالث يتناول الكلام على تقسيم بيت الإبرة وعلى منازلها وعلى « الترفا » ؛ ولم يصبح معنى هذه
572 الألفاظ مفهومًا بتمامه إلا بعد تحليل المصادر / العربية . أما الباب الرابع فيصف الطرق البحرية الساحلية إلى الغرب والشرق من رأس كومورين ، كما يتحدث فيه المؤلف عن « الدنيا الجديدة » أميريكا ؛ وهو يدين بمعلوماته فى صددها[١٣٧] إلى مسيحى من الذين دخلوا حظيرة الإسلام[١٣٨] ؛ وفى حديثه عنها يوكد على ريس أن « الدنيا الجديدة » ليست من ضمن « الربع المعمور» من الأرض أو من «الأقاليم السبعة»، كما أنه على علم باكتشاف البرتغاليين لها «منذ أكثر من خمسين عاما »[١٣٩] . ويفرد الباب الخامس خاصة للكلام على الحساب والمصطلحات الفنية المستعملة بين الملاحين ، على حين يفرد الباب السادس للكلام على ارتفاع بعض النجوم

---

(١٣٤) - Süssheim, Ali (Sidi Ali), p. 301

(١٣٥) - Timaschek, Topographie, p. 7 - 8 - Ferrand, Introduction, p. 251 - 254

(١٣٦) - Tomaschek, Topographie, p. 5 - Bittner, Mohit, p. 53 - Ferrand شرحه ، ص ١٩٧ – ٢٥٢ .

(١٣٧) - Bonelli, p. 753 - 777 - Bittner, Mohit, p. 75 - 76

(١٣٨) - Conti Rossini, p. 447

(١٣٩) - Bittner, Mohit, p. 75 - 76

التى تستعمل فى قياس (عرض) الموانى والجزر (كالنجم القطبى والفرقدين ونعش) ، والمقياس الرئيسى لديه هو الإصبع . ويبحث الباب السابع فى المسافات بين الموانى والطرق المستعملة فى تحديدها خاصة مقياس « الزام » ، ويليه الباب الثامن فى الرياح الموسمية مع تحديد مواقيت هبوبها ، ثم الباب التاسع فى وصف ثلاثين طريقًا بحريًا (القسم الجنوبى من البحر الأحمر والسواحل الافريقية والأسيوية للمحيط الهندى) ؛ وأخيرًا يأتى الباب العاشر الذى يتحدث فيه عن المخاطر التى يتعرض لها الملاحون خاصة الأعاصير (cyclones) . من هذا التعداد يتضح لنا إلى أى حد ارتبط « محيط » بمصادره العربية ارتباطًا وثيقًا ، وإلى أى حد كان بمستطاعه قبل الكشف عن تلك المصادر أن يحدث أثرًا بالغًا فى نفس كل من قرأه بما يحفل به من مادة قيمة وما يمتاز به من طرافة وأصالة .

ويمكننا لتكوين فكرة عن هذا أن نكتفى بالتحليل الذى عمله له توماشك ، وهو علامة اشتهر بمعرفته الواسعة بالجغرافيا والتاريخ ولكنه لم يكن من المتخصصين فى الاستشراق بل كان بحاثة يهتم بفحص المسائل من وجهة نظر تاريخ الجغرافيا العامة . وهو يعتبر « محيط » أثرًا نادرًا بل يرى فيه الأثر الوحيد من نوعه فى الشرق الذى يبحث فى المسائل البحرية فى القرون الأخيرة من العصور الوسيطة ، كما يعتقد أيضًا أنه يجمع بين دفتيه مادة نقلية لا مثيل لها بحيث يمكن مقارنته بأفضل الآثار البرتغالية من هذا الطراز[١٤٠] . أما مضمونه فحافل للغاية وهو أشبه ما يكون بمرشد شرقى للملاحة (Sailing Directory) فريد فى نوعه يفوق بكثير جميع ما عرف إلى تلك اللحظة ولا يبلغ مرتبته إلا بضعة مصنفات أوروبية مثل مرشدات الملاحة (Seespiegel) التى كانت تصدرها مدن الهانزا[١٤١] . وتتركز أهميته بصورة خاصة فى أنه يعاون على رسم خارطة لسواحل المحيط الهندى وجميع الأرخبيل الشرقى تفوق بشوط بعيد من حيث الدقة والصحة تلك الخارطات الخيالية لمصنفات العصر الكلاسيكى ولا تقل شأنًا من خارطات البرتغاليين المعاصرة لها ، ويميل توماشك إلى الاعتقاد بأن هذه الأخيرة قد خضعت بعض الشىء لتأثير الخارطات الشرقية وهو أمر
573 يوافقه عليه كونتى روسينى Conti Rossini[١٤٢] . وكتاب « محيط » يمثل إلى حد ما / انتقالا جوهريًا من مجال الملاحظات المتناثرة والإرصادات المبعثرة للعهود السابقة إلى مجال المعرفة

(١٤٠) -Tomaschek, Topographie, p. 6

(١٤١) شرحه ، ص ٨

(١٤٢) - Conti Rossini, p. 450

المدروسة للعصور الحديثة ، ويتدارك النقص فى معلوماتنا عن بلاد كبيرة وهامة كالهند ؛ هذا وينتظم مجال بحثه جميع السواحل والجزر الممتدة من جدة إلى كوريا(١٤٣) . ومما يدعو إلى الدهشة حقًا أن تسجيل جميع تلك التفاصيل قد تم بتطبيق مناهج بدائية فى الرصد الفلكى ورثت عن العهود الأولى لنشأة علم الفلك ولكن اعتمدت من ناحية أخرى على تجارب حافلة وخبرة طويلة لأجيال عديدة من الملاحين الفرس والعرب والهنود . ويمكن القول بأنه لم يصلنا من العهود السابقة للعهد البرتغالى أى شبيه لهذه الأرصاد التى تعتمد على مراقبة النجم القطبى ونجوم الدبين الأكبر والأصغر ، ولهذا السبب فإن الخارطة التى تم تصويرها بناء على ملاحظات كتاب « محيط » تكتسب أهمية كبرى لأنها تمثل ذروة ما بلغه فن الكارتوغرافيا فى الشرق . أما نقطة التحول التالية لهذه فى ذلك الميدان فيبصرها توماشك فى الخارطات البرتغالية ، وهى تلك الخارطات الممتازة التى ظلت المرشد الأول للملاحة فى بحر الهند حتى عام ١٦٤٨(١٤٤) .

وباكتشاف المصادر العربية « لمحيط » فقد ثبت أن ذلك التقدير والإطراء الذى تمتع به الكتاب وكان له ما يبرره إنما ينبغى أن يتجه إلى ناحية أخرى ؛ وفى بحوثه العديدة حول هذه المسألة ابتداء من عام ١٩١٣ يصر فيران إصرارًا شديدًا يصل به أحيانًا إلى حد التطرف على أن « محيط » بأجمعه لا يمثل سوى ترجمة ، بل وترجمة حرفية فى بعض الأحايين ، لمصنفات أحمد بن ماجد وسليمان المهرى حيث لم يفعل سيدى على ريس شيئًا سوى أن نقل كلا منهما بحذافيره(١٤٥) . وفى خاتمة بحث من بحوثه الأخيرة يصرح بما نصه « لم يعد «محيط» يمثل بالنسبة لنا تلك الأهمية التى أثارها فى القرن الماضى ، وذلك منذ اللحظة التى تم فيها الكشف عن أصوله العربية . وفى الواقع أن سيدى على ريس لم يفعل شيئًا سوى أن ترجمها ترجمة حرفية مع إضافات تافهة أتت بنتيجة عكسية أحيانا »(١٤٦) .

إن رأى فيران هذا لا يخلو من التعسف ؛ وقد لاحظ توماشك أن سيدى على ريس قد أضاف إلى مادة مصادره الكثير من معلوماته الشخصية ، مثال ذلك ملاحظاته عن المحاصيل الرئيسية

---

(١٤٣) - Tomaschek, Topographie, p. 31

(١٤٤) شرحه

(١٤٥) - Ferrand, Relations, II, p. 485, note 2 - Ferrand, Introduction, p. 116, note 2, 198, 248

(١٤٦) - Ferrand, Introduction, p. 255

للأقطار المختلفة وعن الجهات المقابلة من الكرة الأرضية (antipodes) وعن اكتشافات الأسبان والبرتغاليين فى « الدنيا الجديدة »[١٤٧] . وإلى هذا يضيف كاله P. Kahle زيادات هامة بفحصه لأوصاف الآلات الفلكية الملاحية (Nautische Instrumente) التى يعرضها بوضوح كتاب « محيط » وكانت غير معروفة لدى العرب[١٤٨] ، ثم يبين كيف كان يعرفها المؤلف[١٤٩] / وكيف كان يجيد استعمالها[١٥٠] . وكاله لا ينفى أن كتاب « محيط » قد فقد 574
بوجه عام أهميته عقب العثور على مصادره العربية ، غير أن الملاحظات التى بيّناها تدل على أننا بإزاء ملاح ماهر استطاع الإفادة من مصادره بالكثير من الذكاء . أما تلك الأقسام من كتابه التى لا توجد فى المصادر العربية فستحتفظ على الدوام بأهميتها كاملة غير منقوصة ، وبهذا فإن كتاب « محيط » لا يستحق فى هذه النقطة بالذات تلك الإدانة الشديدة التى وجهها إليه فيران ، وإن وجد ثمة ما يبررها .

وكتاب « محيط » لم يظفر برواج ما بين الأتراك أنفسهم ، ولعل مرد ذلك إلى أن مادته ذات لون تخصصى يحول دون تداولها إلا بين المتخصصين فى الشئون البحرية أو المهتمين بدراسة المسائل الجغرافية . وقد بدا هذا الاتجاه التخصصى فى الأسلوب نفسه فغلب عليه نتيجة لذلك طابع تقنى (technical) صرف لا يمكن أن يحس منه اطلاقًا أن المؤلف كان كاتبًا كبيرًا على حد سواء ، ويصف توماشك لغته بأنها «مرهقة ومطنبة» (schleppened und weitschweifig). أما من عنوا بتلك المسائل التى يعالجها فقد عرفوه جيدًا ، فحاجى خليفة مثلا ينقل عنه فى كتابه فى الجغرافيا « جهاننما » جميع القسم من الباب الرابع الذى يعالج الكلام على جاوه وسومطره وسيلان ، كما ينقل عنه بالحرف الواحد تقريبًا وصفه لجزر نيكوبار وملديف[١٥١] .

وباسم سيدى على ريس يرتبط مصنف آخر ذو طابع جغرافى هو « مرآت الممالك » ؛ ولعله يمثل أهمية أكبر بالنسبة لجمهرة القراء . وفيه يعرض المؤلف لوصف تجواله على مدى أربعة أعوام

---

(١٤٧) - Tomaschek, Topographie, p. 6 - 7

(١٤٨) - Kahle, Nautische Instrumente, p. 176

(١٤٩) شرحه ، ص ١٨٢

(١٥٠) شرحه ، ص ١٨٣

(١٥١) - Tomaschek, Topographie, p. 7

فى طريق عودته من الهند إلى وطنه بطريق البر حين حدث له أن اجتاز عددًا من الأقطار ومر بعدد كبير من المدن . فمن كجرات عبر سيدى على نهر السند إلى لاهور ومن هناك اتجه إلى دهلى حيث بلاط السلطان همايون ، وقد استقبله السلطان بالكثير من العطف فى نوفمبر من عام ١٥٥٤ بل وجهد فى إقناعه بالبقاء فى خدمته ، غير أنه رغما من جميع عروضه المغرية فإن سيدى على غادر دهلى إلى بلاده حاملا رسالة من همايون إلى السلطان سليمان القانونى لا يزال أصلها محفوظًا إلى أيامنا هذه[١٥٢] ، ووصل سيدى على إلى كابل ثم اجتاز بدخشان وختلان وبلاد ما وراء النهر وخوارزم وكان قصده أن يجتاز سهوب (دشت) قبجاق ليصل إلى استراخان ، غير أن العمليات العسكرية لجنود دولة المسكوف فى تلك الأصقاع اضطرته إلى الرجوع القهقرى إلى خراسان ؛ وزاد فى تعقيد سير الرحلة وإبطائها اشتعال نيران الحرب آنذاك بين الدولة العثمانية وبلاد الفرس . وفى قزوين تشرف على ريس بمقابلة الشاه طهماسب ولكنه لم يشأ الانضمام إلى سفارته التى بعث بها إلى السلطان سليمان بل حمل منه هو أيضًا رسالة خاصة إلى السلطان لا يزال أصلها محفوظًا إلى اليوم[١٥٣] . وبلغ سيدى على ريس القسطنطينية فى أبريل عام ٩٦٤ هـ = ١٥٥٧ ، ثم غادرها إلى أدرنه حيث رفع تقريره إلى السلطان سليمان ؛ وقد حظيت توضيحاته بالقبول لدى
575 السلطان الذى لم يلبث أن عينه / دفتر دار لولاية دياربكر ؛ وقد توفى سيدى على ريس فى عام ٩٧٠ هـ = ١٥٦٢[١٥٤] .

وبفضل الترجمة القديمة الموجزة التى ندين بها للمستشرق الألمانى ديتس **Dietz** فإن هذا المصنف الذى كان معروفًا فى مخطوطته فقط قد اجتذب أنظار أوروبا منذ عام ١٨١١ ، ثم نقل موريس **M. Morris** الترجمة الألمانية إلى الفرنسية فى عام ١٨٢٦ - ١٨٢٧ ؛ بيد أن الأصل التركى لم يطبع إلا فى عام ١٣١٣ هـ = ١٨٩٥[١٥٥] ، وذلك على يد الأديب التركى المعروف أحمد جودت . واعتمادًا على هذه الطبعة نقل فامبيرى **A. Vambery** الكتاب إلى الإنجليزية

---

(١٥٢) - Schefer, Chrestomathie persane, II, p. 222 and Text, p. ٢٠٩ – ٢٠٧

(١٥٣) شرحه ، ص ٢٢٣ و ص ٢٠٩ – ٢١٢

(١٥٤) -Ferrand, Introduction p. 249-250 (= Schefer, شرحه) -Tomaschek Topographie, p. 7 sui

(١٥٥) - Barbier de Meynard, review: JA, 9 Série, VII, p. 367 - 368

ملاحظات عامة فقط

(١٨٩٩) ؛ وحتى هذه الترجمة الأخيرة لا تقف عند المستوى المطلوب[١٥٦] . و « مرآت الممالك » هو النموذج الوحيد لوصف رحلة يصلنا عن العهد الكلاسيكي للأدب العثماني[١٥٧] ، ويمكن الحكم من وصفه القصير على العدد الكبير من البلاد التى عبرها المؤلف والشخصيات الكبرى لعصره التى التقى بها . وأسلوبه فى هذا الكتاب يختلف اختلافًا أساسيًا عن أسلوب مصنفه الآخر « محيط » ، فنحن هاهنا بإزاء مصنف حاول فيه مؤلفه أن يظهر نفسه كأديب بكل ما يحمل هذا اللفظ من معنى ، ولعل هذا الاتجاه الأدبى للكتاب لم يكن فى صالح السرد الجغرافى من وجهة نظرنا إذ تتناثر فيه المقتطفات الشعرية من شعره هو ومن شعر الغير وتغلب على أسلوبه المحسنات البديعية والتشبيهات الشعرية مما يولد الإحساس بأن المادة الجغرافية إنما تشغل المكانة الثانية لدى المؤلف ؛ ولكن لا يمكن بأية حال إنكار أن الكتاب يتمتع فى بعض جوانبه بحيوية كبيرة ويقدم على وجه العموم تفاصيل كثيرة قيمة ذات طابع واقعى . أما بالنسبة للمناطق الواقعة على المجرى الأعلى لنهر أموداريا (جيحون) فإن معلوماته تتميز بأهمية خاصة كما وضح ذلك من دراسات فتشنكو Fedchenko[١٥٨] ومينايف Minaev[١٥٩] .

ويمكن أن نلاحظ لدى على ريس ظاهرة طريفة تقف دليلا على بقاء النظريات الجغرافية القديمة وصلابة مقاومتها من جهة وعلى استمرار الاختلاف القديم بين النظرية والتطبيق من جهة أخرى ، وهو شيء كان من العسير أن نتوقع وجوده لدى رجل ذى خبرة بالجغرافيا الملاحية كعلى ريس . فهو مثلا عندما وضح للسلطان همايون فى عام ١٥٥٦ السبب فى تلقيب السلطان العثمانى « بسلطان الأقاليم السبعة » نراه يفسر هذا بقوله إن سلطانه يمتد على مدن وأقطار تقع فى نطاق الأقاليم السبعة ففى الإقليم الأول توجد اليمن وفى الثانى مكة وفى الثالث مصر وفى الرابع حلب وفى الخامس استنبول وفى السادس كفا (فيودوسيا Feodosia) وفى السابع بودا Buda وفينا[١٦٠] . إزاء هذا التقسيم الذى يرتفع إلى العصور الوسطى والذى أضحى مجردًا من كل صلة بالواقع / فإنه لا يمكننا إلا أن نوافق توماشك فى ألفاظه وإن كان قد أصدرها فى مناسبة أخرى ، فهو 576
يقول « لقد بلغ الأمر مع العلماء آنذاك حدًا جعلهم يرون من الأفضل أن يحنوا هاماتهم للعلماء

---

(١٥٦) - Ferrand, Introduction, p. 250

(١٥٧) قارن : - Taeschner, GLO, p. 43; cf. Kramers, EI, EB, p. 73:

(١٥٨) - Fedchenko, Ocherk geografii

(١٥٩) - Minaev, p. 80 - 81

(١٦٠) - Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 108, نقلا عن : Vambery, Travels of Sidi Ali Reis, p. 52

الأوائل بدلا من أن يفيدوا من التجارب العملية التى تجمعت فى عصرهم وبين ظهرانيهم ، ذلك أن العنجهية العلمية قد دفعت بأتباع مذهب بطلميوس إلى الاعتقاد بأنه من العار عليهم أن ينزلوا إلى مستوى الجماهير فيأخذوا العلم من تجارب الملاحين »[١٦١] . وكما أبصرنا من قبل فقد اهتم على ريس بدور التجربة في كتابه «محيط» وانعكس ذلك في المصنف، غير أن النظرية القديمة قد استطاعت ولو بطريقة غير شعورية أن تسيطر عليه وتبعث فيه أحيانًا ضربًا من الإصرار على التمسك بالقديم وتكرار النظريات البالية . ورغما من اعترافنا بما يدين به لمصادره العربية فلنا الحق كل الحق فى القول بأن كتاب على ريس يمثل ظاهرة كبرى فى الجغرافيا الملاحية لدى الأتراك، هذا مع اعتقادنا أن تقدير العلامة التركى المعاصر ع . عدنان (اديفار) له مبالغ فيه بصورة كبيرة[١٦٢] .

وما قام به سيدى على ريس بالنسبة للمحيط الهندى قام به بالنسبة للبحر المتوسط وبحر إيجه معاصر له لم تنته حياته نهاية سعيدة وهو بيرى ريس الذى استند مجهوده العلمى على قاعدة أوسع مما كان عليه الحال مع سيدى على ريس . وإذا كان الأخير قد اعتمد اعتمادًا كليًا على النظرية والتجربة الشرقيتين فإن بيرى ريس قد أفاد من المادتين الشرقية والغربية على السواء ، زد على هذا أنه لم يكتف بالجمع بينهما جنبًا إلى جنب بل مازج بينهما وتمثلهما فى تأليف عضوى متناسق . أما من حيث المنهج فهو قد فاق على ريس بشوط بعيد ، وتعتبر آثاره التى ظهرت فى القرن السادس عشر أقصى ما بلغته الجغرافيا والكارتوغرافيا الملاحية بين الأتراك فى عهد ازدهار قوتهم وسلطانهم .

وشخصية بيرى ريس نموذج جيد (typical) لجميع هذه الفترة فى تاريخ الملاحة العثمانية ، فهو لا يقف نسيج وحده بل يكمل حلقات تلك السلسلة من الشخصيات الكبرى التى تولت قيادة الأسطول العثمانى آنذاك ، وهو كمعاصره الشهير خير الدين بربروسا أو كخاله كمال ريس الذى تدرب عليه فى الشئون البحرية لم يفرق دائمًا فى نشاطه البحرى بين دور القرصان الغاشم وأمير البحر التركى الذى يعمل فى خدمة الدولة العثمانية ، ويلوح أن الدولة نفسها لم تستطع أن تفصل بدقة بين هذين الدورين . وخير مثال لهذا خير الدين بربروسا Barbarossa (حوالى عام ١٤٨٣ - ١٥٤٦) بكلربك الجزائر وواضع أسس السيادة العثمانية على شمالى افريقيا ، فإنه قد رجع إلى القرصنة أكثر من مرة[١٦٣] .

---

(١٦١) - Tomaschek, Topographie, p. 27

(١٦٢) - Mieli, p. 281

(١٦٣) - Yver, Khair al - Din, p. 934 - 936

واسم بيرى ريس غير معروف لنا فى أصله على وجه الدقة ، ويبدو أنه كان يدعى محى الدين بن محمد لأن بيرى كان مخلصه الأدبى[١٦٤] ، وهو كخاله كمال ريس الذى غرق فى ينايـر من عام ٩١٦ هـ = ١٥١٠[١٦٥] / والذى عرفته وثائق وحوليات جمهورية البندقية[١٦٦] باسم Camalli 577
كان على ما يبدو مسيحيًا فى الأصل وربما من أصل يونانى[١٦٧] ؛ ويلوح أنه شارك فى المغامرات البحرية الكبرى لخاله فى الحوض الغربى للبحر المتوسط عندما أرسله السلطان العثمانى فى عام ٨٩٢ هـ = ١٤٨٧ لتقديم العون إلى آخر أمراء غرناطة من دولة بنى نصر ، غير أن محاولاته لم تسفر عن أية نتائج إيجابية[١٦٨] . ومما لاشك فيه أن بيرى ريس قد شهـد استسلام الأسطـول البندقى للأتراك عند ليبانتو Lepanto فى عام ٩٠٥ هـ = ١٤٩٩[١٦٩]* ؛ وإلى حوالى هذا العهد ترجع بعض المصادر مغامرة معينة فى تاريخ حياته وهى نشاطه كجاسوس بالبندقية حوالى عام ١٥٠٢[١٧٠] . وهو يدين بالكثير لمدرسة كمال ريس ، وهذا الأخير لم يكن قائدًا بحريًا من الطراز المقاتل ولكنه كان يتمتع فى مقابل ذلك ببراعة سياسية كبيرة حتى اضطر جمهورية البندقية إلى التراجع مرارًا[١٧١] ومتّن صله الدولة العثمانية بشمالى افريقيا بشكل ملحوظ[١٧٢] ، فلا غرو أن أشاد الشعراء الأتراك بأعماله المجيدة فى قصائـد خاصة تحتـوى إحداهـا على عشرة ألـف مثنوى[١٧٣] . ويلاحظ مؤرخ سيرة حياته (biographer) أن ما قام به بيرى ريس لم يكـن ليتأتى دون رحلات كمال ريس وخبرته وأثره الكبير عليه ، بل إن القول نفسه يصدق على ما ناله بيرى ريس من مكانة مرموقة[١٧٤] .

---

(١٦٤) - Babinger, Piri Reis, p. 1156 - Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XVI

(١٦٥) - Burski, p. 83; cf. p. 9, note 2 and p. 75

(١٦٦) شرحه ، ص ٧٦ وما يليها

(١٦٧) شرحه ، ص ١٥ ، ٢٠ - Babinger, Piri Reis, p. 1155

(١٦٨) - Burski, p. 21 - 23

* هذه ليست واقعة ليبانتو البحرية المشهورة لعام ١٥٧١ التى هزم فيها الأسطول المسيحى أسطول العثمانين . (المترجم)

(١٦٩) - Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. VI

(١٧٠) - Burski, p. 39 - 40, note 1

(١٧١) شرحه ، ص ٧٧ – ٧٩

(١٧٢) شرحه ، ص ٨٠ .

(١٧٣) - Babinger, GOW, p. 49, No. 29

(١٧٤) - Burski, p. 82, note 2

ولعل الفضل يرجع إليه أيضًا فى معرفة بيرى ريس الواسعة بمصر ، إذ أن صلة كمال ريس بها ترجع إلى عام ١٤٩٨ [١٧٥] عندما قام بمهمة من أجل الدولة ؛ غير أن الحظ لم يبسم هناك بالتالى لابن أخته فقد حدث بعد ذلك بمدة طويلة أن شغل منصب قبودان مصر ثم كلفه السلطان بالمهمة التى أشرنا إليها من قبل وهى قيادة الأسطول العثمانى المصرى من السويس إلى الخليج الفارسى لقتال البرتغاليين . وفى طريقه أخضع بيرى ريس عدن فى عام ٩٤٥ هـ = ١٥٣٨ وانتهب مسقط فى عام ٩٥٩ هـ = ١٥٥١ ثم حاصر هرمز بيد أنه فشل فشلا كاملا أمام البرتغاليين الذين هزموه شر هزيمة فلم يستطع الإفلات إلا بثلاث سفن وصل بها إلى السويس . ثم قُدِّم إلى المحاكمة فى القاهرة ولعب دورًا ليس بالضئيل فى إدانته شكوى والى البصرة مما جرى على يده من سبى ونهب على طول سواحل الخليج الفارسى ، فحكم عليه بالإعدام وتم تنفيذ ذلك فى حوالى عام ٩٦٢ هـ = ١٥٥٤ أو قبل ذلك بقليل [١٧٦] .

هذه الحياة المتقلبة المليئة بالأحداث لم تمنعه على أية حال ، وذلك على النقيض من خاله ، أن
578 يخلف صيتًا واسعًا فى الأدب الجغرافى يستند / بصورة خاصة على أطلس ملاحى كبير يعرف باسم « بحرية » وخارطة كبيرة للعالم ينعكس فيها بعض الشيء تأثير خارطة كولومبس التى لم تصل إلى أيدينا [١٧٧] .

ويحيط بالتاريخ الأدبى لوضع المصنف الأول تعقيد شديد لا يقتصر سببه فى أنه وجدت للكتاب مسودتان كما اتضح فى الآونة الأخيرة ، بل لأن المؤلف نفسه قد أحاطه ببعض الغموض . فهو يذكر أن الدافع إلى تأليف الأطلس كان مناسبة اعتلاء السلطان سليمان للعرش عندما حاول أهل كل مهنة أن يقدموا إليه هدية من مجال فنهم ، لهذا فقد بدأ المؤلف عمله فى عام ٩٢٧ هـ (ابتداء من ديسمبر عام ١٥٢٠) ورفع الأطلس كاملا إلى السلطان سليمان فى عام ٩٣٠ هـ = ١٥٢٣ [١٧٨] . غير أنه يبدو من أقسام معينة فى المقدمة أن بيرى ريس قد بدأ عمله فى الأطلس قبل ذلك بمدة طويلة أى فى عهد السلطان سليم وكان يريد رفعه إليه ولكن لما وافته منيته رفعه إلى السلطان سليمان القانونى [١٧٩] . وتشير جميع القرائن إلى أن العمل قد سار جنبًا إلى جنب فى كل

---

(١٧٥) شرحه ، ص ٢٨ – ٣٢

(١٧٦) - Babinger, Piri Reis, p. 1156

(١٧٧) - cf: Krachkovski, Kolumbovskia Karta, p. 184 - 186

(١٧٨) - Babinger, Piri Reis, p. 1156

(١٧٩) - Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XVI - XVII

من الأطلس والخارطة المشار إليها وذلك بمدينة غليبولى التى كانت المركز الإدارى للأسطول العثمانى آنذاك ووجدت بها المادة اللازمة التى استعان بها المؤلف فى شكل واسع . وإلى جانب هذا فقد كانت وراء المؤلف تجربة عشرين أو ثلاثين عاما(١٨٠) من المران العملى فى الشئون البحرية بحيث تردد صدى ذلك فيما تميز به المصنف من نضج واكتمال .

وكتاب « بحرية » وإن كان يمثل فى أساسه أطلسًا ملاحيًا إلا أنه كان يستهدف ولو بقدر متواضع أن يكون دليلاً للملاحة الشراعية ببحر إيجه والبحر المتوسط(١٨١) وأن يخدم فى نفس الوقت كمرشد فى معرفة المواضع المبيّنة على الخارطات ؛ ولهذا السبب فإن المصنف يقدم وصفًا مفصلا بما فيه الكفاية لجميع السواحل مع بيان التيارات والشعب والمراسى والخلجان والمرافىء والمضايق ومنابع المياه العذبة والمواضع المحصنة والقلاع والمبانى والأطلال(١٨٢) ، كما يتعرض خلال ذلك للحديث عن الجغرافيا السياسية والوضع الإدارى للأماكن المختلفة . ولا يخلو من طرافة فى هذا الصدد أن نلاحظ أن تعليقاته البدائية على الآثار القديمة تمثل رغمًا من سذاجتها أهمية كبيرة فى بعض الأحايين(١٨٣) ، ولنذكر على سبيل المثال أن البحوث الأثرية الحديثة التى أجريت فى منطقة ملطه وفى الجزر والسواحل المجاورة قد أثبتت أن بيرى ريس محل للثقة فمن بين جميع التفاصيل التى يوردها لا توجد واحدة لم تدعّمها البحوث المعاصرة(١٨٤) .

وتشمل المسودة الأولى لكتاب « بحرية » مائة وثلاثين فصلا يعالج كل واحد منها الكلام على 580
موضع جغرافى أو ناحية غير كبيرة وذلك بحسب ترتيب معين لا تتفق فيه جميع مخطوطات الكتاب . وكل قسم من هذه الأقسام تصوره فى العادة خارطة ويقف أشبه ما يكون مستقلا بنفسه بحيث يُفتقد أى رباط عام داخل الكتاب باستثناء التتابع الجغرافى على طول سواحل البحر المتوسط ابتداء من غليبولى .

أما المسودة الثانية للمصنف فقد بدأ فيها بعد قليل من الأولى ، وكانت المناسبة التى دعت إلى ذلك هو أن السلطان سليمان القانونى كان قد بعث بالصدر الأعظم إبراهيم باشا إلى مصر فى

---

(١٨٠) شرحه ، p. VI

(١٨١) شرحه ، p. XIII

(١٨٢) - Babinger, Piri Reis, p. 1156 - Menzel, OLZ, 4, 1928, review, p. 286
- Herzog, cf: Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. V - VI

(١٨٣) - Herzog, cf: Kahle, شرحه ,p. VI

(١٨٤) - Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. VI

أكتوبر عام ٩٣٠ هـ = ١٥٢٤ ، وكان يقود الأسطول بيرى ريس الذى حمل معه نسخة من كتابه «بحرية» الذى انتهى من تأليفه قبل ذلك بقليل ولكنه كان يمثل «أوراقاً مبعثرة»(١٨٥) على حد قول مؤلفه. وقد رجع بيرى ريس أثناء اللحظات الحرجة من الرحلة إلى كتابه أكثر من مرة بحيث استطاع إبراهيم باشا أن يقدّر قيمته ومن ثم فأشار عليه أن يؤلف بين هذه الأوراق على صورة كتاب كامل فاستجاب بيرى ريس لرغبته وبدأ يعيد النظر فى المتن والخارطات(١٨٦) حتى انتهى من المسودة فى خلال عامين من ذلك ، أى فى عام ٩٣٢ هـ = ١٥٢٦(١٨٧) .

والتغيرات الأساسية التى طرأت على الكتاب والتى يمكن تتبعها من التحليل الذى قام به تيشنر Taeschner معتمدًا فى ذلك أساسًا على مخطوطات استنبول(١٨٨) قد قبلها فى جوهرها كاله Kahle رغمًا من أنه أظهر فى البداية بعض التردد حول نسبة المسودة الثانية إلى المؤلف نفسه . ولا تزال بعض النقاط التى تمس تفاصيل معينة غير واضحة ولن يتم توضيحها إلا بعد دراسة دقيقة منظمة لجميع الأثر خاصة النماذج الموجودة باستنبول والتى لم تفحص بعد بصورة وافية .

والتعديل الذى أجرى فى المسودة الثانية للمصنف يمس قبل كل شيء الخارطات التى زيد فى عددها بشكل كبير ؛ ففى المسودة الأولى حظى كل قسم من الأقسام المائة والثلاثين بخارطته الخاصة به ، أما الآن فإن عدد الخارطات ارتفع إلى مائتين وعشرة خارطة بخلاف خارطات أخرى ذات طابع مستقل(١٨٩) . وينمو عدد الخارطات فى المخطوطات التى ترجع إلى تاريخ متأخر عن ذلك ولعلها لا تقتصر فى هذا على مادة بيرى ريس وحده ، ويتضح هذا بصورة خاصة من مثال البحر الأدرياتيكى حيث تنفرد الفصول الستة المكرسة له (من الثامن والخمسين إلى الثالث والستين) باثنين وأربعين خارطة ، لعلها هى التى تبقت من أربع وأربعين(١٩٠) . وتبدو هذه الزيادة أيضًا فى أقسام أخرى ، فالنيل مثلا (الفصلان الثامن والتسعون والتاسع والتسعون) يفوز هنا بما

---

(١٨٥) - Kahle, Piri Reis, p. 61, 63

(١٨٦) شرحه ، ص ٦٣

(١٨٧) شرحه ، ص ٦٢ – cf: review: Taeschner, DI, XVII, p. 115

(١٨٨) - Review: Taeschner, DI, XVII, p. 114 - 115

(١٨٩) - Kahle, Piri Reis, p. 63

(١٩٠) - Bräunlich, Islamica, p. 296

لا يقل عن عشر خارطات[١٩١] .

ولم يقتصر التعديل الذى أجرى فى المسودة الثانية على المادة الكارتوغرافية وحدها بل امتد إلى المتن أيضًا ، فالمقدمة تغيّرت معالمها تمامًا / لأن المؤلف أضاف إليها رسالة منظومة فى خمسين 581 فصلا تعالج موضوعات شتى مما يحتاج إليه الملاحون[١٩٢] كالخبرة والاستعداد الفطرى فى هذه المهنة واستعمال البوصلة والخارطات والمعرفة بالجغرافيا الملاحية ، كما يرد عرض لبعض الأقسام مثل منابع النيل وزنجبار وبحر عدن والمحيط الهندى وبحر الصين والمحيط الأطلنطى والاكتشافات البرتغالية وتوضيح خطوط الزوال وخطوط العرض[١٩٣] . وتنتهى المقدمة بقصيدة طويلة أشبه بخاتمة فى مائة بيت يعرض فيها المؤلف للأسباب التى حدت به لوضع المسودة الثانية للكتاب[١٩٤] .

والتنوع الذى طرأ على هذه المسودة الثانية ، التى ترد بعض مادتها نثرًا وذلك عند توضيحه للخارطات وبعضها شعرًا ، يرجعه المؤلف إلى عوامل خارجية صرفة ؛ مثال ذلك أن الحاجة إلى استعمال الأطلس قد تطرأ ليلا فى لحظات خطر ماثل لذا فمن الضرورى أن تكون المعلومات فى متناول اليد سريعاً وهو أمر عسير بالنسبة لمتن شعرى[١٩٥]. وهذا القول لا يخلو بالطبع من وجاهة ، غير أننا إذا أمعنا النظر فى محتويات الفصول المنظومة شعرًا فإنه لن يفوتنا ملاحظة الشبه فى بعض النقاط بين هذه المقدمة ورسائل أحمد بن ماجد بحيث يدعو الأمر إلى التساؤل أليس من الممكن أن يكون بيرى ريس قد اطلع خلال الفترة الزمنية بين المسودتين على أراجيز الربان العربى وأنه قد صاغ بالتالى مقدمته على منوالها . وبالطبع فإن الشبه بين الاثنين يقف عند هذا الحد ، ومن المستحيل تصور وجود علاقة أيا كانت بينهما لأن بيرى ريس ينتمى إلى مجموعة أخرى لا تمت بصلة ما إلى وسط سيدى على ريس . ويرى المتخصصون أن لغة « بحرية » سهلة وإن كانت لا تخلو من وقت لآخر من استعمال بعض الصيغ المهجورة مما يرفع من قيمتها لدى المشتغلين بفقه اللغات التركية[١٩٦] .

---

(١٩١) - Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XXXIII

(١٩٢) - Kahle, Piri Reis, p. 60 - 61

(١٩٣) - Bräunlich, Islamica, p. 297

(١٩٤) - Kahle, Piri Reis, p. 61

(١٩٥) شرحه ، ص ٦٤

(١٩٦) - Bräunlich, Islamica, p. 299

أما فيما يتعلق بمصادره الكارتوغرافية فإن أطلس بيرى ريس يرتبط ارتباطًا كليًا بالمادة الغربية ، ويكفى مجرد إلقاء نظرة على أية واحدة من خارطاته ليقتنع المرء فورًا بعدم وجود أى أثر للتقاليد العربية المعروفة لنا جيداً. هذه الانطباعة الأولى قد وكدها بالتالى عدد من البحوث المتعلقة بالأقسام المختلفة والتى ساقت إلى نتائج ملموسة فى هذا الصدد ، وإن لزم الاعتراف أن بعضها لا يخرج بطبيعته عن محيط الافتراضات نسبة لأن الأصول التى اعتمد عليها بيرى ريس لم تصل إلينا . وقد ثبت بوجه عام أنه قد سار فى الغالب على منوال النماذج التى عملها البنادقة والتى كانت تحت تصرفه بغليبولى ؛ وتمثل هذه النماذج خارطات مستقلة وهى التى عملت على أساسها البورتولانات
582 الغربية ولكنها أكثر قيمة منها بفضل أحجامها الكبيرة . / وبيرى ريس لم يكتف بالطبع بتقليدها تقليدًا أعمى ، فمثلا نراه يجرى تصحيحًا جوهريًا فى رسم بحر إيجه معتمدًا فى ذلك على ملاحظاته الشخصية(١٩٧) . ونظرًا لأن هذه الخارطات الخاصة لم تحفظ لنا فإن كتاب « بحرية » يكتسب بهذا أهمية مضاعفة بصفته مصدرًا لا مثيل له للتعرف على الكارتوغرافيا الأوروبية المبكرة(١٩٨) . ويمكن أحيانًا تتبّع المادة التى استقى منها بيرى ريس بالكثير من اليقين فقد ثبت أن لرسومه الجغرافية التى تصور بحر الأرخبيل علاقة بالأثر المعروف باسم « ايزولاريو » Isolario للإيطالى بارتولوميو دا لى سونتىّ Bartolomeo da li Sonetti المطبوع بالبندقية فى عام ١٤٨٥ أو بعد ذلك بقليل ؛ وتبدو صلة الرحم بين الاثنين واضحة بما لا يدع مجالا للشك بمجرد وضعهما جنبًا إلى جنب(١٩٩) . ويرتفع أصل الاثنين على ما يبدو إلى الخارطات القديمة التى كان يستعين بها ربابنة السفن فى الملاحة ، ولكن مع فارق بسيط هو أن بيرى ريس يقدم لنا مجموعة كاملة من الخارطات لجميع سواحل البحر المتوسط على حين يقتصر بارتولوميو على بحر إيجه وحده(٢٠٠) . ولعله يجب إبصار اسمه فى « بورتولوميه » الذى يذكره بيرى ريس فى الفصل السابع والأربعين من مقدمته الشعرية ؛ ومن الطريف أن كاله Kahle لسهو وقع فيه هاهنا قد جهد فى أن يرى فى هذا الشكل رسم بطلميوس(٢٠١) رغمًا من أن الأخير يرد لدى بيرى ريس فى الشكل الذى استعملته العرب .

---

(١٩٧) -Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. V, words of Herzog

(١٩٨) - Taeschner, GLO, p. 42

(١٩٩) -Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. VII

(٢٠٠) شرحه ، p. VIII

(٢٠١) - Kahle, Piri Reis, p. 66

ومن المحتمل أنه قد وجدت بين يديه مرشدات الملاحة الشراعية التى نالت انتشارًا واسعًا آنذاك والتى لم يصلنا شيء عنها من العصور الوسيطة الأوروبية[٢٠٢] . ونظرًا لأن مصنفه يعكس إلى حد ما المرشدات الإيطالية ، لا فى الخارطات وحدها بل وفى المتن أيضًا ، فإنه يمكن القول بأنه لم يحفظ لنا سر فرع واحد من الملاحة فقط بل قد حفظ لنا جميع علم البحار تقريبًا[٢٠٣] .

ومما لاشك فيه أن بيرى ريس قد جمع معلومات شفوية من عدد من الملاحين ذوى التجربة ، فقد التقى بملاحين برتغاليين عرفوا الصين[٢٠٤] ، كما يغلب أنه التقى بأحد الذين أخذوا طرفًا فى رحلة ماجلان حول الأرض وهو المدعو انتونيو بيغافتّا F. A. Pigafetta[٢٠٥] . وقد ثبت أن روايته عن مختلف الشعوب الغريبة فى بحار الشرق الأقصى إنما ترتفع إلى مصدر صينى وصله فى أغلب الظن عن طريق البرتغاليين[٢٠٦] .

واعتمادًا على هذه المادة المتشاكلة المصادر والتى دُوّن بعضها على ما يبدو بالإغريقية والإيطالية ، وهما لغتان عرف إحداهما جيدًا بحكم مولده[٢٠٧] ، فقد استطاع بيرى ريس أن يخرج لنا مؤلفًا باللغة التركية مستقلا بذاته . ونظرًا لمعرفته الجيدة بالبحر المتوسط فقد عرف كيف يستعمل مصادره بالكثير من الذكاء وحسن الفهم وأن يضيف إليها الكثير / مما حصل عليه عن 583
طريق تجربته الشخصية . وتتميز بأهمية خاصة وقيمة كبرى تلك الأقسام من كتابه التى تعتمد على معرفته المباشرة بنقاط جغرافية معينة ؛ وعلى أية حال فإنه لا يمكن الإحساس من تصفح المصنف بأنه مصنف نقلى بل يغلب أن يكون أثرًا مستقلا قائمًا بذاته[٢٠٨] . وكما لاحظ بلوشيه Blochet بالكثير من الصواب فإنه لا يمكن بأية حال مقارنة خارطاته بمدرسة الصفاقسى الذى لم يكن فى هذا المضمار سوى ملاح تافه اقتصر فى وصفه على السواحل[٢٠٩] . ويقف كتاب « بحرية » فى جميع الأدب التركى فريدًا فى نمطه ، بل إن المؤلف نفسه يذكر فى فاتحة كتابه أنه يمثل

---

(٢٠٢) - Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. IX

(٢٠٣) شرحه ، p. X

(٢٠٤) - Kahle, Piri Reis, p. 68, 71

(٢٠٥) شرحه ، ص ٧٦

(٢٠٦) شرحه ، ص ٦٨ – ٦٩ ، ٧٢ – ٧٣ ، ٧٥

(٢٠٧) شرحه ، ص ٦٥

(٢٠٨) - Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. X

(٢٠٩) - Blochet, L'Etude, p. 25

بالنسبة لمواطنيه شيئًا لم يعهدوه من قبل ، كما وأن حاجى خليفة الذى كان خبيرًا فى الجغرافيا الملاحية يوكد بالتالى أنه لم يُدوّن بعده شىء شبيه به فى هذا المضمار(٢١٠). أما فى الأوساط العلمية الحديثة فقد قيل أحياناً فى وصف « بحرية » إنه « أهم ما دونه الأتراك فى محيط الجغرافيا »(٢١١).

وخير دليل على تفوق بيرى ريس على معاصريه ومن خلفوه فى هذا الفن أنه لم يوجد بعده من يستطيع أن يجرى أى تجديد فى متنه ؛ وإذا كانت الخارطات كما لاحظنا قد زيد فى عددها وأضيف إليها الكثير فإن المتن لم تضف إليه سوى معلومات ضئيلة ليتفق مع الأوضاع السائدة فى عهود متأخرة هذا بينما بقيت مادته الأساسية كما هى لم يعتريها أى تغيير . ولعل هذا قد عاون بدوره على احتفاظ الترك بمرشداتهم البحرية المستعملة فى الملاحة الشراعية ، وذلك على عكس رصيفاتها الغربية التى لم تكن سوى توضيحات للجوانب العملية ولم يلبث أن بطل استعمالها سريعًا وطوتها زوايا النسيان ؛ أما « بحرية » فكان أثرًا أدبيًا مرموقًا كتب له البقاء(٢١٢) . وأما بالنسبة للمتخصصين فقد كان الوضع على النقيض ، إذ أن الخارطات لعبت بالنسبة لهم دورًا جوهريًا على حين كانت أهمية المتن ثانوية(٢١٣) ؛ وهو لم يعتريه تغيير كبير وكان يُدوّن تارة على المساحات الشاغرة فى الخارطات أو يهمل تمامًا طورًا آخر(٢١٤) . وقد أثبت البحث أن الخارطات التركية للبحر المتوسط التى ترجع إلى القرن السابع عشر إنما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعمل بيرى ريس(٢١٥) .

هذا وقد قدر العثمانيون المصنف حق قدره وأفادوا منه بصورة أوسع بكثير مما فعلوا مع كتاب سيدى على جلبى ، وهو أمر مفهوم بالنسبة لأهمية المنطقة التى يعالجها . وقد ورد ذكره لدى حاجى خليفة فى مرجعه الضخم « كشف الظنون » وفى مصنفه الجغرافى الكبير « جهاننما » وفى كتابه فى تاريخ الأسطول العثمانى « تحفة الكبار »(٢١٦) ؛ كما وأن أوروبا قد تعرفت عليه منذ

---

(٢١٠) - Kahle Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. VII - XII - Kahle, Piri Reis, p. 65

(٢١١) - Kahle, Columbus - Karte, p. 13

(٢١٢) - Kahle, Piri Reis, Bahriye, II Einleitung, p. X

(٢١٣) شرحه ، p. XII

(٢١٤) - Bräunlich, Islamica, p. 297

(٢١٥) - Taeschner, ĎI, XVII, p. 116, note 2

(٢١٦) - Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XIV - XV

بداية / القرن التاسع عشر وذلك بفضل مجهود المستشرق ديتس Diez، وهو البحاثة نفسه 584
الذى قدم أول معلومات عن كتاب سيدى على ريس[٢١٧] ؛ ففى عام ١٧٨٩ وذلك عند ارتقاء السلطان سليم الثالث للعرش تمكن ديتس من الحصول على مخطوطة أنيقة ذات قيمة كبرى لأنها كانت ملكًا لسلاطنة آل عثمان أنفسهم ولعلها رفعت كهدية إليهم ، ثم انتقلت بمرور الزمان إلى الحرملك لتسلية الجنس اللطيف لأن خارطاتها قد تم تصويرها بمهارة فائقة وفى ألوان متعددة . وانتقال هذا الأثر القيم من يد إلى أخرى لم يكن من شأنه أن يؤدى إلى الحفاظ عليه ، فلما انتهى إلى يد ديتس لم يكن فى صورته الكاملة بل على شكل خارطات منفردة ومنزوعة ، فضلا عن أنه لم يكن معروفًا له لا اسم المؤلف ولا شكل المصنف العام . ورغمًا من ذلك فإن مقاله الذى حلل فيه المصنف بشكل عام يمثل أهمية لا شك فيها بالنسبة لعصره ويلقى الضوء على دور الأتراك فى ميدان الكارتوغرافيا ، وهو أمر كانت المعرفة به ضئيلة آنذاك . ولا يخلو من الطرافة اختياره للمصوّر الذى يبين جزيرة رودس مع وصفها ، وهو الذى تبدأ به المخطوطة فى الهيئة التى وجدها عليها ديتس الذى نشر متنه مع ترجمة ألمانية . هذا وقد فتح العثمانيون رودس فى عام ١٥٢٢ أى بعد بضعة أعوام من وضع بيرى ريس لأطلسه ويعتقد ديتس أن عمله هذا ربما ساعد بعض الشىء فى إنجاز تلك المهمة[٢١٨] . ولقد كان مقال ديتس بمثابة حجر الأساس لدراسات متفرقة لأقسام الأطلس فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، أما المخطوطة نفسها فقد وجدت طريقها فى آخر الأمر إلى المكتبة الأميرية بتركيا[٢١٩] . وليست أقل قيمة من ذلك المخطوطة الموجودة ببولونيا Bologna من مجموعة مارتشيللى Marcelli والتى وصفها لنا روزن V. R. Rosen ، ويرجع تاريخها إلى عام ٩٧٧ هـ = ١٥٧٠[٢٢٠] . ووجود عدد من مخطوطات هذا الأطلس ضمن مجموعات المخطوطات الكبرى مثل باريس[٢٢١] وبصورة خاصة درسدن التى ترتفع نسختها إلى عام ٩٦١ هـ = ١٥٥٤ ، أى والمؤلف على قيد الحياة[٢٢٢] ، قد عاون كثيرًا على دراسة عدد من

---

(٢١٧) - Diez, Denkwürdigkeiten,I, p. 33 - 71 = Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XXX - XXXIII

(٢١٨) - Diez, Denkwürdigkeiten, I, p. 66 - 68

(٢١٩) - Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XXX - XXXIII

(٢٢٠) شرحه ، p. XXIV - XXVII

(٢٢١) لوصف مخطوطة باريس لبيرى ريس راجع : Blochet, L'Etude p. 21 - 26

(٢٢٢) - Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XXII - XXIV

فصول الكتاب المختلفة المتصلة بمسائل معينة ، فمثلا تم نشر وترجمة الأوصاف والخارطات ، إما قسما منها أو بتمامها ، الخاصة بأثينا ولسبوس وديلوس وملطـه ولمنوس وبيروت وقبرص واستنبول وصقلية وألبانيا والبندقية(٢٢٣) هذا إلى جانب رودس كما ورد فى أعلاه . وقد تم من وقت لآخر فحص أقسام أخرى من الأطلس مع تحقيق فريد يستند على التجربة الواقعية ؛ فبلوشيه مثلا قد قام مستعينًا بخارطاته برحلة بحرية صغيرة على ساحل فرنسا الجنوبى ، ومن الطبيعى أنه كشف أثناء ذلك عن بعض الأخطاء فى الأطلس(٢٢٤) . وكان ما أحاط بتركيب المصنف من
586 تعقيد / أن لم يجرؤ أحد على إخراج طبعة كاملة له أو ترجمته إلى لغة أجنبية إلا فى السنوات العشرينات من هذا القرن . وقد تم ذلك على يد باول كاله **Paul Kahle** الذى اعتمد على مخطوطة بولونيا فنشر المتن فى عام ١٩٢٦ مع ترجمة ألمانية مزودة بالتعليقات وذلك لثمانية وعشرين فصلا منه ، أى ما يعادل ربع الكتاب بالتقريب ؛ ومما يؤسف له حقًا أن الطبع وقف عند هذا .

وإذا كان كتاب « بحرية » قد عرف بهذه الطريقة مدة تقرب من القرن ونصف القرن للدوائر العلمية الأوروبية فإن الأثر الثانى لبيرى ريس لم يتم الكشف عنه إلا منذ عهد قريب وأثار ما يستحقه من تجديد الاهتمام بالمؤلف فظهر فى هذا الصدد عدد من البحوث لا باللغات الأوروبية وحدها بل وباللغتين التركية والعربية أيضًا(٢٢٥) . وتوجد فى كتاب « بحرية » إشارة لبيرى ريس نفسه يفهم منها أنه قد أكمل رسم خارطة كبيرة للعالم بغليبولى فى عام ١٥١٣ ورفعها بعد أربعة أعوام من هذا إلى أعتاب السلطان سليم فى عام ١٥١٧ وذلك أثناء وجوده بمصر . هذه الإشارة قد قفزت إلى الأذهان فى عام ١٩٢٩ عندما كشف عالم الآثار التركى المشهور خليل أدهم والبروفسور ديسمان **Deissmann** بمكتبة السراى باستنبول عن نصف منتزع من خارطة للعالم رسمت بدقة وزوقت بالألوان على رق (pergame) ؛ وهى تمثل القسم الغربى من العالم شاملة للمحيط الأطلنطى وأميريكا والقسم الغربى من العالم القديم ومبينة عليها سواحل أوروبا الغربية وأميريكا ؛ أما التفاصيل الجغرافية فمكتوبة فيها بالتركية ولكن نطق الأسماء يرد

---

(٢٢٣) - Krachkovski, Kolumbovskia Karta, p. 185 - Babinger, Piri Reis, P. 1156

(٢٢٤) - Blochet, L'Etude, p. 25 - 26, note 2

(٢٢٥) - Babinger, Piri Reis, p. 1157 - Krachkovski, Kolumbovskia Karta, p. 184

على الطريقة الإيطالية وربما يمكن تفسير هذا بأنه استقى مادته الأساسية من مصادر إيطالية، مكتوبة أو شفوية[٢٢٦] . وقد تتحول البيانات الجغرافية أحياناً إلى قوائم مفصلة فى أجزاء مختلفة من الخارطة مكنت البحاثة بالتدريج من إثبات تاريخها بالكثير من اليقين، ويرجع الفضل الأكبر فى هذا المجال إلى الخبير الكبير بالكارتوغرافيا التركية بول كاله الذى عرّف فى عدد من المقالات بهذا الكشف وقدم دراسة جامعة له فى عام **١٩٣٣**؛ وقد ترجّع صدى هذا الكشف بين عدد من الدوائر العلمية فى جميع أنحاء العالم ومن بينها الجمعية الجغرافية السوفيتية[٢٢٧]. ولم تلبث الخارطة أن أصبحت فى متناول أيدى الجميع عندما تم نشرها فى صورة فوتوغرافية ملوّنة أنيقة بواسطة الجمعية التاريخية التركية (**١٩٣٥**).

هذا وقد تمكن باول كاله فى بحوثه الدقيقة من أن يدلل بسرعة فائقة، آخذاً فى حسابه إشارة بيرى ريس التى ترتفع إلى عام ٩١٩ هـ = ١٥١٣ ، على أن هذا النموذج يمثل تلك الخارطة نفسها التى رفعها بيرى ريس إلى السلطان سليم عام ١٥١٧ . ويتضح من الطرف الممزق من الجانب الأيمن أن هذا القسم من الخارطة قد فصل بطريقة آلية وحشية عن القسم الشرقى الذى لم يلبث أن فقد بالتالى . ومن العسير بالطبع التخمين عن الدافع الذى جر إلى هذا ، / ويرى البعض أن 587
السلطان سليم نفسه هو الذى انتزع ذلك القسم من الخارطة الذى يضم الصين ليتمكن من استعماله بسهولة . إذ من المعلوم أن السلطان سليم كان يولى اهتمامًا خاصًا لتلك البلاد يتفق مع أطماعه السياسية فيما يتعلق بالجزء الشرقى من آسيا ؛ ولنعد إلى الأذهان مرة أخرى أن البعض قد ربط بين هذا وبين رحلة على أكبر كما بينا فى حينه[٢٢٨] . ومهما يكن من شىء فإن هذا الاكتشاف قد لعب دورًا هامًا للغاية فى إلقاء ضوء على شخصية بيرى ريس وعلى جميع الوضع الثقافى لذلك العصر . وتحليل العلماء للمصادر التى اعتمد عليها فى رسم خارطته قد أسبغ على هذه المسألة أهمية عالمية ، فبيرى ريس يذكر فى إحدى قوائم خارطته أنه قد أفاد من أربع عشر خارطة من بينها ثمانية بطلميوسية « يسميها العرب « جغرافيا » وواحدة عربية تبين الهند وأربع برتغالية تبين السند والهند والصين وواحدة كولومبسية »[٢٢٩] . والملاحظة الأخيرة تكفى فى حد ذاتها لإثارة قدر

---

(٢٢٦) - Babinger, Piri Reis, p. 1156 - 1157 - Brockelmann, GIV, p. 282 - Bräunlich, Zwei türkische Weltkarten, p. 24

(٢٢٧) - Krachkovski, Kolumbovskia Karta

(٢٢٨) - Jacob, in: Kahle, Columbus - Karte, p. 5

(٢٢٩) - Bräunlich, Zwei türkische Weltkarten, p. 19

كبير من الاهتمام ، بيد أن وجود عامل آخر قد رفع من قيمتها إلى حد يفوق العادة ؛ فقد وضح بالتالى أن بيرى ريس اعتمد على أقدم خارطة لأميريكا كان قد عملها كولومبس نفسه أو أشار بعملها ليبين مسير الاستكشافات فى تلك النواحى وأرسل بها فى عام ١٤٩٨ من جزيرة هايتى إلى اسبانيا . وتوجد تفاصيل محددة عن هذه الخارطة فى الأدب الأوروبى القديم ، إلا أن نسختها نفسها قد اختفت تمامًا ولا يوجد أثر لها إلا فى عمل الكارتوغرافى التركى الذى وقع أصل خارطة كولومبس فى يده عند نهب سفينة مسيحية بالبحر المتوسط عام ١٥٠١ ، فاستغل الخارطة فى رسم خارطته عام ١٥١٣ [٢٣٠] ؛ ولا شك أن هذا الظرف يكفى فى حد ذاته ليضمن لاسم بيرى ريس مكانة مرموقة فى تاريخ الكارتوغرافيا العالمية . ويبدو أن بيرى ريس قد ظل مهتمًا « بالدنيا الجديدة » إلى ما بعد هذا التاريخ ، بل ويوجد أساس للافتراض بأنه ترجع إليه خارطة أخرى رفعها إلى سليمان القانونى فى عام ٩٣٥ هـ = ١٥٢٩ ، أى بعد ثلاثة أعوام من إتمامه لمصنف « بحرية » ، ومبينة عليها الاستكشافات البرتغالية الجديدة فى أميريكا الجنوبية والوسطى وفى نيوفوندلاند ؛ وهى أيضًا بدورها محفوظة بالسراى وفى شكل ممزق أيضًا للأسف[٢٣١] .

وهكذا فالجغرافيا الملاحية عند الأتراك فى القرن السادس عشر قد ساقتنا فى آخر الأمر لا خارج حدود الشرق وحده بل وحدود أوروبا أيضًا ، ولا شك أن ارتباطها بالمذهب العربى قد ضعف بالتدريج ولكنه لم ينفصم كلية كما يمكن أن نتبين من مصادر الخارطة العالمية لبيرى ريس . غير أن ذلك الارتباط يختلف اختلافًا تامًا عن ارتباط الآثار العربية للقرن الخامس عشر بذلك المذهب ، فابن ماجد كما رأينا قد اعتمد اعتمادًا كاملا على المذهب العربى وترسّم خطاه فى هذا كل من سليمان المهرى والملاح التركى سيدى على جلبى رغم معرفتهما بالبرتغاليين واحتمال استفادتهما من التجربة العملية لهؤلاء الأخيرين . أما بالنسبة لبيرى ريس فإن هذا المذهب العربى لا يمثل سوى
588 عنصر من العناصر العديدة فى مؤلفاته ، بل وعنصر من الدرجة الثانية إلى جانب ذلك ؛ / ولعل مرجع هذا إلى حد كبير هو المناطق التى وجه إليها بيرى ريس اهتمامه الرئيس . وقد أفاد بيرى ريس بمهارة من المراجع الأوروبية التى ارتفعت قيمتها فى ذلك العصر بالذات ، وبذل جهده فى أن يتمثلها بشكل عام حتى غدت جزءًا من تجربته الشخصية . ورغمًا من الاختلاف الضخم بينهما من حيث المنهج والمادة فإن ابن ماجد وبيرى ريس يتبوءان عن جدارة مركز الصدارة فى الأدب

---

(٢٣٠) - Krachkovski, Kolumbovskia Karta, p. 186

(٢٣١) - Bräunlich, Zwei türkische Weltkarten, p. 24

الجغرافى الملاحى لدى العرب والترك فى عصرهما بصورة تجعلنا نقول إن ما بلغه هذا الأدب من عظمة ومجد إنما يرجع إليهما شخصيًا .

ومن الطبيعى أن نتتبع فى هذا الفصل تطور الأدب الجغرافى الملاحى لدى العرب بتفصيل أكثر بحيث يمكن القول بأنه قد تم توضيح خطوطه الجوهرية بصورة متكاملة ؛ وهو يحتل المكانة الأولى فى الأدب الجغرافى العربى للقرنين الخامس عشر والسادس عشر ويمثل آخر تيار أصيل فى هذا الميدان إلى القرن العشرين . ومما لاشك فيه أنه بالنسبة للأدب التركى فى ذلك العصر أيضًا فإن الجغرافيا الملاحية تمثل صفحة من أنصع صفحاته ؛ وهى بالطبع لا يمكن فصلها عن التطور العام للأدب الجغرافى التركى . ذلك الأدب الذى بدأ ينتعش قبل قليل من هذا فى القرن الخامس عشر والذى يقدم لنا فى القرن السابع عشر شخصيات كبرى فى ميدان الجغرافيا . وفى تتبعنا لهدفنا العام الذى جعلناه نصب أعيننا فى هذا الكتاب فإنه ليس بوسعنا أن نغض النظر عن هذا الأدب فى خطوطه العامة ، إذ من الضرورى بالنسبة لنا أن نبين أى الجوانب من المذهب التقليدى العربى تركت عليه أكبر الأثر ، وكيف تم تعديل وتحوير هذه الجوانب ، وفى أى مجال بالذات انتعشت وازدهرت الأصالة المستقلة للأتراك أنفسهم ، وأى الأنماط بالذات نال الرواج لديهم فى الغالب . وسنبصر بالتدريج كيف أخذ هذا الأدب يتجه أكثر فأكثر نحو المنهج والمراجع الأوروبية وكيف تم الانفصال نهائيًا بينه وبين المنهج العربى بحيث لم يعد يلعب أى دور بالنسبة لعرضنا هذا باستثناء آثار منفصلة منه . وعندما نبلغ تلك النقطة فسنجد أنفسنا مضطرين إلى تركه نهائيًا ، ولكن قبل هذا يجدر بنا أن نكرّس الفصل التالى بأجمعه للكلام على الأدب الجغرافى لدى الأتراك العثمانيين مبينين العلاقة الحيوية التى ربطت بين الأدبين الجغرافى التركى والجغرافى العربى فى تلك العهود*.

---

*بمناسبة انتهاء المؤلف من هذا الفصل المبدع عن الجغرافية الملاحية لدى العرب أرى لزامًا علىّ أن أنوه بدراسات ملّاح عالم من الجنوب العربى نشط فى التأليف مؤخرًا وهو حسن صالح شهاب الذى كشف فى بحوثه القيمة عن أن تقاليد ابن ماجد ورصفائه ما زالت حيّة إلى أيامنا هذه بين ملاحى الجنوب العربى والخليج . راجع بالأخص بحثه بعنوان **«علوم العرب البحرية من ابن ماجد إلى القطامى»**. الكويت ١٩٨٤ . (المترجم)

الفصل الحادى والعشرون
الأدب الجغرافى التركى من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر

589 تحت يدنا بحث قيم جدير بالثقة يمكّننا من تتبع سير تطور الأدب الجغرافى لدى الأتراك العثمانيين بصورة يصعب توفرها لا بالنسبة للأدب الفارسي وحده بل وحتى بالنسبة لجوانب معينة من الأدب العربى نفسه . ففى عام ١٩٢٢ وقع اختيار الأستاذ فرانتس تيشنر F. Taeschner على هذا الموضوع ليحاضر فيه تلامذته ، ثم لم يلبث أن أجرى فيه قلمه بالتعديل وأضاف إليه زيادات هامة ونشره على هيئة مقال كبير يقع فى خمسين صفحة[١] . وقد كان هدفه الأساسى بالطبع هو أن يبين الخطوط العامة لتطور الأدب الجغرافى عند الأتراك ولكنه جهد فى ذات الوقت ليستوعب ما استطاع أسماء أهم المؤلفين وأهم الآثار وأن يجمع ثبتًا بأسماء المراجع الهامة فى هذا الصدد . ومجهوده من هذه الناحية بل ومن نواح أخرى يفوق بمدى كبير المحاولة القديمة المماثلة التى قام بها فستنفلد فيما يتعلق بالأدب الجغرافى العربى ، ويقدم لأول مرة عرضًا متتابعًا يمكن الاطمئنان إليه ويغنى الباحث عن فحص كل مسألة على حدة . وقد اعتمد كرامرس اعتمادًا كبيرًا على بحثه هذا حين معالجته الكلام على الجغرافيا لدى العثمانيين فى مقاله الذى ظهر « بدائرة المعارف الإسلامية » ، ذلك المقال الذى لا يخلو من أهمية كبرى بوصفه عرضًا عامًا لتطور الأدب الجغرافى فى الشرق الأدنى بأجمعه .

وقد تجمعت بالطبع خلال العشرين عامًا الأخيرة مادة جديدة وظهرت طبعات ودراسات جديدة حتى أصبح الأمر يستدعى قدرًا ليس بالقليل من الزيادات إلى مقال تيشنر المذكور ؛ وفى هذا الصدد لا يخلو من فائدة عامة بالنسبة لتاريخ الأدب الجغرافى العثمانى كتاب بابنجر Babinger الضخم عن مؤرخى آل عثمان Die Geschichtsschreiber der Osmanen ، فقد كان من الطبيعى أن يعالج فيه المؤلف الكلام عن آثار جغرافية فى جوهرها[٢] . وفى معرض الدراسات المستقلة المكرسة لمعالجة موضوعات خاصة يلفت النظر بشكل خاص عدد من المقالات لتيشنر نفسه الذى ظل يعمل بجد وإخلاص فى هذا الميدان لإلقاء

---

(١) - Taeschner, GLO

(٢) - Babinger, GOW

الضوء على مسائل جغرافية تمس هذا العهد بالذات . والأدب الجغرافى التركى كما بينه تيشنر فى خطوطه العامة لن يحتل بالطبع مركز الصدارة فى بحثنا هذا إذ أن ما يهمنا فى هذا الصدد هو توضيح علاقته بالأدب الجغرافى العربى وتبيان الأنماط التى حظيت فيه بازدهار خاص . وتيشنر قد مس هذه المسائل بالطبع ونحن أيضاً قد فصلنا القول فيها أحياناً بصورة وافية / ، كما أننا 590
سنعرض فيما يلى من هذا الفصل بالإيجاز لأهم نقاط ذلك الأدب .

لقد سبق وأن عالجنا الكلام فى الفصل السابق لهذا على ما حظيت به الجغرافيا الملاحية من ازدهار بين الأتراك العثمانيين فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، ولكن من الملاحظ انبعاث ضرب من الحيوية والانتعاش فى ميدان الأدب الجغرافى بوجه عام حتى قبل تلك الفترة ؛ ويمكن ربط هذا بحركة تاريخية فريدة هى « إحياء العلوم الكلاسيكية » (Revival of classical learning) . وإذا كانت الثقافة اليونانية قد لعبت ذلك الدور بالنسبة لأوروبا اللاتينية فإن هذا الدور نفسه قد لعبته الثقافة العربية بالنسبة للأتراك ، حيث برزت هذه النهضة لديهم قبل كل شىء فى الاهتمام الخاص بالآثار الجغرافية ونقلها إلى التركية بصورة منتظمة .

ولقد تجدد الاهتمام بالمصادر الجغرافية العربية لدى الأتراك العثمانيين منذ النصف الثانى للقرن الخامس عشر وذلك فى عهد السلطان محمد الفاتح (٨٥٥ هـ - ٨٨٦ هـ = ١٤٥١ - ١٤٨١) ؛ فترجمت جغرافيا بطلميوس فى ذلك العهد مرتين . وأغلب الظن أن اللغة التركية لم تكن قد اكتسبت مرونة كافية بعد ، لذا فقد نقل الكتاب إلى اللغة العربية وفقاً للمذهب القديم الذى كان سائدًا فى القرنين الثامن والتاسع . ويمكن تكوين فكرة جيدة عن إحدى هاتين الترجمتين من الطبعة المصورة (facsimile) التى نشرها البحاثة المصرى الأمير يوسف كمال (١٩٢٩) المشهور بخبرته فى ميدان الجغرافيا التاريخية[٣] . وقد حظيت بنفس هذا القدر من الاهتمام أيضًا « المدرسة الكلاسيكية » للجغرافيين العرب للقرن العاشر ، ففى عهد محمد الثالث فى نهاية القرن السادس عشر ترجم شريف أفندى إلى اللغة التركية كتاب الإصطخرى المعروف[٤] ؛ وفى الوقت ذاته فإن المؤرخ على جلبى الذى سيمر بنا الكلام عليه فى هذا الفصل قد ضم إلى كتابه « كنه الأخبار » ترجمة تركية مختصرة ومصلّحة للنسخة الفارسية لكتاب الاصطخرى « صور الأقاليم »[٥] . أما فى محيط الجغرافيا الرياضية الفلكية فإن هذه النهضة ترتبط ارتباطًا قويًا

---

(٣) - Kramers, EI, EB, p. 72

(٤) - Taeschner, GLO, p. 39 - 40 - Kramers, EI, EB, p. 72

(٥) - Taeschner, GLO, p. 40

بنشاط عالم من علماء النصف الثانى للقرن الخامس عشر أيضًا وهو على القوشجى (توفى فى عام ٨٧٩ هـ = ١٤٧٤) الذى عرفناه كواحد من معاونى ألو غ بيك فى مرصده بسمرقند والذى التجأ إلى أراضى الدولة العثمانية عقب مصر ع ولى نعمته ؛ وقد تمتعت رسالته فى الجغرافيا الرياضية والفلكية برواج كبير هناك من بين جميع المصنفات التى على شاكلتها ونقلت إلى التركية أكثر من مرة ؛ وإحدى ترجماتها كما رأينا ندين بها لسيدى على ريس المعروف بينما قام بالترجمة الثانية بعد ذلك بثلاثين عامًا ملّا برويز (المتوفى عام ٩٨٧ هـ = ١٥٧٩)[٦] . من هذا يتبين لنا أن انبعاث الاهتمام بالجغرافيا لم يقف عند حد الجغرافيا الكلاسيكية وحدها بل تجاوزه إلى الاهتمام بالجغرافيا المعاصرة فى مختلف أنماطها . وفى عهد السلطان مراد الثالث فى نحو عام ٩٦٠ هـ = ١٥٨٢ تمت
591 كما سبق أن / ذكرنا ترجمة الوصف الفارسى للصين الذى دوّنه على أكبر[٧] ، كما ترجم فى القرن الخامس عشر إلى اللغة التركية الوصف الجغرافى لمصر ذو الطابع التخصصى وهو من عمل ابن الجيعان وذلك اعتمادًا على المسودة التى ترجع إلى عام ٧٧٧ هـ = ١٣٧٥ ؛ وقد حدث أن بيّنا فى حينه أن هذا الكتاب لا يتمتع فى الواقع بأهمية كبرى وأغلب الظن أن هذه الترجمة التركية التى توجد فى مخطوطة بفينا بعنوان « ذكر أقاليم ديار مصرية » كان مبعثها هو اهتمام العثمانيين بمصر فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

ومن بين جميع فروع الأدب الجغرافى التى ازدهرت فى الفترة التالية للعصر الكلاسيكى أحس الترك كما أحس العرب من قبلهم بميل خاص نحو الكوزموغرافيا ، وهى تلك الأوصاف العامة لجميع العالم التى أفرد فيها مكان معيّن للجغرافيا إلى جانب الفلك والانثروبولوجيا والحيوان والنبات والمعادن وجميع ضروب الأساطير[٨] . وقد حظى القزوينى بمكانة خاصة فى هذا المجال ونقل مصنفه « عجائب المخلوقات » عدة مرات إلى التركية[٩] ولخصه المؤلف التركى أحمد بيجان منذ عام ٨٥٧ هـ = ١٤٥٣ ، وسنلتقى بهذا الأخير كمؤلف مستقل فى خلال هذا الفصل ؛ أما الترجمات الكاملة للكتاب فترجع إلى القرن السادس عشر[١٠] . و قد أثار أهمية أكثر من ذلك كتاب « خريدة العجائب » لابن الوردى فترجم إلى التركية لا أقل من خمس مرات ترجع أولاها إلى القرن

---

(٦) شرحه ، ص ٤٠ ، الحاشية ٢
(٧) شرحه ، ص ٤٠ – ٤١ ، الحاشية ٣
(٨) شرحه ، ص ٣٥
(٩) شرحه ، ص ٣٨
(١٠) - Kramers, EI, EB, p. 72

الخامس عشر وتمت قبل استيلاء العثمانيين على القسطنطينية(١١) ؛ أما الترجمات الأخرى فيرجع معظمها إلى القرن السادس عشر وتحمل إحداها تاريخ ٩٦٣ هـ = ١٥٥٦(١٢) . ومحمود عاشق الذى سيرد الكلام عليه بعد قليل ، وهو أول مؤلف لأثر جامع فى الجغرافيا باللغة التركية ، قد ضمن مصنفه ترجمة ملخصة لمؤلف ابن الوردى فى الكوزموغرافيا وذلك حوالى عام ١٠٠٦ هـ = ١٥٩٨(١٣) . وعلى غرار نمط الكوزموغرافيا تمتع بنفس هذه الدرجة من الرواج بين الأتراك العثمانيين مصنف أبى الفدا فى الجغرافيا ، وقد ذكرنا فى حينه أن سباهى زاده (المتوفى عام ٩٩٧ هـ = ١٥٨٨) قد أعاد صياغته بالعربية على هيئة معجم وزاد عليه إلى العصر الذى عاش فيه ، ثم لم يلبث أن عمل له ترجمة موجزة باللغة التركية(١٤) . أما مصنف أبى الفدا فى التاريخ فقد نقل إلى التركية منذ القرن الخامس عشر(١٥) كما أن الترجمات التركية العديدة لتاريخ الطبرى ، وهى تستند فى معظم الأحوال على ترجمته الفارسية من عمل البلعمى ، قد بدأت فى الظهور منذ السنوات العشر الأولى للقرن الخامس عشر(١٦) .

إن هذه الأسماء العديدة التى مرت سريعًا أمام ناظرينا تكفى لإعطاء فكرة عن النشاط الجم الذى قام به العثمانيون لتمثّل التراث العربى فى محيط الأدب الجغرافى القديم والحديث ، ولم يكن ليقدّر لهذا النشاط أن يبلغ ذلك المدى لولا أن وجدت المخطوطات العربية طريقها فجأة فى ذلك العصر / إلى الدولة العثمانية خاصة إلى العاصمة استنبول حتى أصبحت مجموعاتها فى المخطوطات 592
تضارع ، إن لم تفق ، مثيلاتها فى البلدان العربية الأخرى . هذا وقد بدأت تركيا تمارس منذ القرن السادس عشر حقها كبلد فاتح فتم نقل المخطوطات بصورة منتظمة من مصر ، وبهذا وجدت طريقها إلى استنبول مجموعات كاملة من مختلف « الأوقاف » الحكومية والمخطوطات الشخصية لعدد من أمراء المماليك خاصة أولئك الذين حاق بهم لسبب ما سخط الدولة العثمانية . وقد سار هذا السيل من المخطوطات فى صورة منتظمة وسريعة حتى أنه توجد حالات تم فيها الكشف بعد قرون طويلة عن وجود مجموعات كاملة من المصنفات التى ألفت بمصر والتى افتقدها الباحثون

---

(١١) - Babinger, GOW, p. 15 - 16 note 3 - Taeschner, Bericht, p. 86 - 87

(١٢) - Taeschner, GLO, p. 39

(١٣) - Taeschner, Bericht, p. 87, note 21

(١٤) - Taeschner, GI O, p. 39

(١٥) - Babinger, GOW, p. 15, note 3

(١٦) شرحه ، ص ٦٦ – ٦٧ ، الحاشية ٢

عقب الغزو العثمانى لها ، مثال ذلك الموسوعات الكبرى لعهد المماليك التى أبنا عن أهميتها بالنسبة للأدب الجغرافى العربى فيما مر من الكتاب . ويرجع معظم المخطوطات التى وجدت طريقها إلى استنبول إلى عهد المماليك ، ومن بينها عدد ليس بالقليل من النسخ التى رفعت هدايا إلى السلاطين والأمراء وكتبت بخط أنيق وزينت برسوم فنية رفيعة ، كما يوجد بينها أيضًا عدد من المخطوطات الأولى التى كتبت بيد المؤلفين أنفسهم والتى ترجع إلى عهود سابقة . ولم يقتصر وجود المخطوطات على المجموعات العامة الموجودة بالمساجد الكبرى بل وجدت أيضًا فى المجموعات الشخصية وبدكاكين الوراقين ؛ ونحن نذكر جيدًا كيف تحدث الرحالة العربى التمجروتى فى حماس بالغ عما حفل به سوق الوراقين باستنبول من مخطوطات عربية متنوعة . ومنذ ذلك التاريخ نافست استنبول بمحتوياتها فى المخطوطات العربية أمهات الحواضر العربية الكبرى كالقاهرة ودمشق بل وفاقتها فى بعض الأحايين ؛ وكما عاون وصول المخطوطات اليونانية إلى إيطاليا على إحياء الثقافة الكلاسيكية القديمة فقد نشأ عن وصول المخطوطات العربية إلى تركيا قيام حركة مشابهة فى الأدب التركى خاصة فى ميدان الجغرافيا . وقد ظلت هذه المخطوطات لعهد طويل مجهولة لدى الدوائر العلمية الأوروبية باستثناء القليل منها الذى وصل علمه إليها عن طريق المصادفة البحتة فى الغالب ؛ غير أن السنين العشرة الأخيرة وكدت احتمال العثور على مخطوطات مختلفة فى شتى فروع العلوم بين مجموعات المخطوطات هناك ، ويرجع الفضل الأكبر فى إلقاء الضوء على هذا إلى مجهودات المستشرق الألمانى ريتر Ritter . وكما وضح فيما بعد فإن عددًا كبيرًا من هذه المخطوطات يدخل فى محيط الأدب الجغرافى بل إن بعضًا منها مما يتعلق بالعصر الكلاسيكى قد دفع إلى التفكير فى إعادة طبع بعض أجزاء « مكتبة الجغرافيين العرب » Bibliotheca Geographorum Arabicorum[١٧] ؛ أما فيما يتعلق بالعصور التالية لذلك فقد تم الكشف عن مواد فى غاية الأهمية فيما يتصل بالإدريسى ، كما أن الكوزموغرافيات المختلفة تجد مكانها بصورة حافلة للغاية بين هذه المجموعات من المخطوطات . هذه النهضة الفريدة للأدب العربى التى دعّمها ترجمة عدد كبير من آثاره إلى التركية ووصول عدد هائل من المخطوطات إلى أراضى الدولة العثمانية كان من شأنها أن تساهم فى خلق ونمو أدب أصيل باللغة التركية نفسها ، بالرغم من أن هذا الأدب لم يقدم لنا فى عهده الأول أية آثار ذات قيمة .

---

(١٧) راجع : BGA

ويعد أول مؤلف لأثر من هذا النوع يازجى أوغلو أحمد بيجان الذى كما أسلفنا القول قد قام فى 593
عام ٨٥٧ هـ = ١٤٥٣ بعمل مختصر « لعجائب المخلوقات » للقزوينى ؛ ومخطوطات هذا المختصر ليست بالنادرة[١٨] بل إن الكتاب نفسه قد طبع بقازان فى عام ١٨٨٨ ، وهى طبعة من العسير الحصول عليها الآن[١٩] ولكن مجرد الاهتمام بطبعه يقف دليلا واضحًا على انتشار هذا المختصر فى الماضى حتى بين شعوب الاتحاد السوفيتى . ومن المحتمل أن تكون معرفته بالمذهب الجغرافى هى التى دفعته لوضع رسالة مستقلة بعنوان « در مكنون » كثيرًا ما نلتقى بمخطوطاتها هى أيضًا ؛ وعلى الرغم من هذا فإن صلته بالآثار الكلاسيكية العربية ضعيفة ، وهو يعالج موضوعه فى الغالب من الوجهة الأسطورية الشعبية وتحتل العوامل الدينية لديه مكانة واضحة كما أنه لا يعنى كثيرًا بما يدور على الأرض بقدر عنايته بالآثار السماوية وجهنم وأدوار الخليقة وسير الأنبياء ويوم القيامة والإرهاصات التى تشير إلى اقتراب الساعة ؛ أما فى كلامه على الظواهر الأرضية فهو يفرد أهمية خاصة لكل أصناف الغرائب والخوارق[٢٠] . ولمصنف أحمد بيجان هذا ذيل على هيئة رسالة صغيرة مجهولة المؤلف بعنوان « مرآت العوالم » تنسب فى مخطوطة فينا إلى المؤرخ المشهور على (توفى عام ١٠٠٨ هـ = ١٥٩٩) وهى تنتمى إلى تلك السلسلة نفسها من الكوزموغرافيات التى لم تكن غريبة على عالم الواقع فحسب بل وغلبت عليها المادة الأسطورية تمامًا[٢١] .

وبعد فيجب القول بصورة عامة بأن الأدب الجغرافى التركى لم يقدم لنا خلال القرن الذى تلى أحمد بيجان سوى عدد قليل من الآثار التى يمكن أن توصف بالأصالة ؛ والاستثناء الوحيد فى هذا الصدد تمثله كما رأينا الجغرافيا الملاحية التى تقف برهانًا ساطعًا على النتائج القيمة التى يمكن الوصول إليها عن طريق مزج التجربة العملية بالأسس العلمية المستمدة من الاتجاهات النظرية القديمة[٢٢] ، وفيما عدا هذا فإن الأنماط الجغرافية الأخرى تبدو شديدة الهزال وشاحبة فالجغرافيا العلمية لم يكتب لها نجاح كبير بل اكتفت فى العادة بتلك الرسائل من طراز مؤلف على القوشجى

---

(١٨) - Taeschner, GLO, p. 37

(١٩) - Orientalische Bibliographie, 3, (1889), 1890, p. 11, No 213

(٢٠) - Taeschner, GLO, p. 37 - 38 - Kramers, EI, EB, p. 72

(٢١) - Taeschner, GLO, p. 38

(٢٢) قارن : Taeschner, GLO, p. 41 - 43

الواسع الانتشار . ولم توجد إلى جانبه سوى بضع قوائم جافة تحدد المواقع الجغرافية للمدن المختلفة وأوصاف الطرق العديدة التى تربط بين مختلف الأماكن ، كما وجدت فى بعض الأحايين رسائل صغرى تبحث فى تقسيم الأقطار أو فى الإحصائيات الحكومية المختلفة.

ويجب أن نولى عناية خاصة لليوميات السلطانية العديدة التى تتضمن وصف تنقلات سلاطنة آل عثمان وسير حملاتهم العسكرية وتحركاتهم فى أنحاء الامبراطورية ؛ وقد أخذ عددها يزداد منذ عصر السلطانين سليم الأول(٢٣) وسليمان(٢٤) ، ويوجد قدر كبير منها فى ترجمات غير كاملة
594 وملخصات / باللغات الأوروبية المختلفة (خاصة الفرنسية والألمانية) منذ القرن السابع عشر ؛ ويمكن لهذه اليوميات أن تقدم مادة هامة بالنسبة للأوصاف الطبوغرافية والجغرافيا السياسية للدولة العثمانية ولكن لا يمكن بالطبع أن تعد أدبًا جغرافيًا(٢٥) . وليس ثمة ما يدعو إلى الزيادة فى القول بأن الآثار التاريخية العثمانية الأولى مثل « بهجة التواريخ » لشكر الله (توفى عام ٨٩٤ هـ = ١٤٨٩) لا تخلو أحيانًا من بعض الأهمية بالنسبة للجغرافيا(٢٦) .

وقد نالت رواجًا خاصًا فى العهد الأول للأدب العثمانى تلك المصنفات التى تقف على الحد الفاصل بين الجغرافيا والتاريخ ، بل وفى كثير من الأحيان لا تخلو من عنصر الشعر والأسطورة ، وهى المتعلقة بوصف المدن والمواضع المختلفة . وهذه المصنفات تذكّرنا أحيانًا بنمط « الفضائل » القديم ، بل وأكثر من ذلك بتلك الأوصاف الأدبية لمدينة رومه التى نجدها عند الجغرافيين العرب القدامى والتى قام بتحليلها المستشرق عويدى Guidi ، أو بوصف القسطنطينية الذى ورد بتفصيل أكثر فى كوزموغرافيا ابن الوردى ؛ وإلى هذه المدينة الأخيرة وإلى آثارها القديمة اتجهت بطبيعة الحال عناية المؤلفين والمترجمين العثمانيين . والمصنفات التى تحمل عنوان « تاريخ قسطنطينية » أو « تاريخ أيا صوفيا » والتى توجد فى المخطوطات يبلغ عددها حدًا بعيدًا ، وهى نادرًا ما تشابهت فى تبويبها وتمثل فى العادة تاريخًا أسطوريًا للمدينة ووصفًا لخططها قبل الفتح العثمانى . بل إن أحد المصنفات من هذا الطراز يرتبط باسم على القوشجى المعروف لنا جيدًا (توفى فى عام ٨٧٩ هـ = ١٤٧٤)(٢٧) ؛ وبعض هذه المصنفات كما بين موردتمان

---

(٢٣) - Babinger, GOW, p. 50, No 31

(٢٤) شرحه ، ص ١٧٧ ، رقم ٥٩

(٢٥) - Taeschner, GLO, p. 43 - 44

(٢٦) - Babinger, GOW, p. 20

(٢٧) شرحه ، ص ٢٨ – ٢٩

Mordtmann(٢٨) لا يمثل فى واقع الأمر سوى تعديل طفيف للحكايات البيزنطية وعلى العكس من هذا يرتفع بعضها إلى مصادر أبعد من ذلك. وخير مثال للمجموعة الثانية مسودة بعنوان « تاريخ قسطنطينة » موجودة فى مخطوطة بالمتحف البريطانى كان قد نشر قسما منها ودرسها ف . اسمير نوف V. Smirnov فى عام ١٨٩٨ ؛ وكلا المخطوطة والمصنف يرجعان إلى ما قبل القرن الخامس عشر أو كما يفترض ريو Rieu إلى بداية القرن السادس عشر(٢٩) . وقد أعرب الناشر عن أمله فى أن يقدم الكتاب بعض المادة بالنسبة للتاريخ الطوبوغرافى للمدينة وآثارها فى العصر القريب من عصر المؤلف ؛ غير أن التحليل الدقيق الذى قام به روزن Rosen(٣٠) والذى يكشف عن عمق وذكاء كما هو شأن هذا العالم دائمًا قد أثبت أن هذا الأثر منقول برمته عن مؤلفات سابقة وأن أهميته لا تتعدى مجال التاريخ الأدبى حتى أنه لا يمثل أهمية بالنسبة للعصر الذى تم تدوينه فيه . وينبغى أن نلاحظ منذ البداية أن الكتاب لا يتميز بالأصالة وأنه كما تم الافتراض من قبل إنما يرتفع إلى مصنف فارسى للقرن العاشر تم تدوينه فى عهد السامانيين(٣١) ؛ أما مادتـه الأساسية فمأخوذة من / أوصاف نصف أسطورية لمؤلفين عرب من طراز ابن الفقيه وابن رسته 595 كما يمكن أن تكون قد وجدت طريقها إليه تفاصيل ترجع إلى مصادر سريانية بيزنطية ، ولعلنا نذكر جيدًا كيف أمكن لغويدى Guidi أن يكشف عن هذا عند تحليله للمادة المشابهة لهذه فى المصادر العربية فى وصف أنطاكية ورومه . ومن الأوفق أن نضرب صفحًا عن أى أمل فى العثور على معلومات بيزنطية ذات قيمة ترجع إلى عهود متأخرة فى هذه المصنفات التركية فى « تاريخ قسطنطينية » .

وقد ظهرت شيئًا فشيئًا آثار مشابهة وبنفس هذا الأسلوب عن حواضر ومواضع أخرى إما لأنها ارتبطت بنمو سلطان العثمانيين أو تقليداً للمذهب العربى القديم ، ويصدق هذا على بروسه المهد الذى نشأت فيه دولة آل عثمان ، أو دمشق حيث يشير عنوان الرسائل « فضائل الشام » إلى ارتباطها الوثيق بنمط سابق معروف لنا جيدًا ، أو على مصر والنيل . وعدد الرسائل التى تحمل عنوان « فضائل الشام » كبير للغاية فى اللغة التركية ، وهى تعرض لفضائل ذلك القطر خاصة

---

(٢٨) شرحه ، ص ٢٩ – ٣٠

(٢٩) - Rozen, ZVO, XI, p. 370, 37

(٣٠) قارن : Babinger. GOW, p. 30 - 31

(٣١) - Rozen, ZVO, XI, p. 369, 402

مدينة دمشق بنفس الأسلوب المعروف لنا من النماذج العربية؛ ويحظى بعناية خاصة فى هذا الصدد وصف المسجد الأموى والكلام عن الأنبياء والعلماء والمتصوفين الذين توفوا ودفنوا بالشام ثم ذكر المواضع المشهورة بدمشق . وجميع المصنفات من هذا الطراز على وجه التقريب ترتفع إلى أصول عربية ولكن علاقتها بعضها ببعض غير واضحة لأنها لا تزال محفوظة فى العادة على هيئة مخطوطات[٣٢] . وهذا الطابع نفسه تحمله أوصاف المدن المقدسة وهى مكة والمدينة والقدس التى تحتل مكانة كبيرة فى الأدب التركى الطبوغرافى والتاريخى لكافة ذلك العهد ؛ وهى ترتبط أحيانًا بالعدد المتزايد من الحجيج التركى وقد صيغ وصفها فى أسلوب خاص سنعرض لتحليله فيما سيأتى من هذا الكتاب . وهذه المصنفات تحمل فى معظم الأحايين عنوان « الفضايل » وتوجد فى عدد كبير من المخطوطات التى تهمل أحيانًا ذكر اسم المؤلف ، كما وأنه من العسير استجلاء مصادرها دون القيام ببحث خاص فى هذا الميدان . ولإعطاء فكرة عن رواج هذا النمط من الأدب نذكر أن هناك ثلاثة آثار متشابهة من حيث الصيغة ترجع إلى مؤلف واحد هو محمد يحيى أفندى (حوالى عام ١٠١٠ هـ= ١٦٠١) وهى « فضائل مكة مكرمة » و « فضائل مدينة منورة » و « فضائل قدس شريف » ؛ وهذه الآثار الثلاثة موجودة فى عدد كبير من المخطوطات إلا أنها ليست بذات أهمية كبيرة على وجه العموم من الناحيتين التاريخية والجغرافية[٣٣] .

ويلى هذا فى نحو عام ١٠٤٦ هـ= ١٦٣٦ ظهور رسالة مماثلة عن مدينة أدرنة بعنوان « أنيس المسامرين » تتمتع على النقيض من ذلك بأهمية لا مثيل لها بالنسبة للجغرافيا المحلية ؛ ومؤلفها وهو عبد الرحمن بن حسين حبرى ، الذى يخلط اسمه أحيانًا بأسماء مؤلفين آخرين مثل جورى وخيرى بل وحتى برورى[٣٤]، وأصله من أدرنه واشتغل فيها بعد بالتدريس بها/ وكان يحمل لمسقط رأسه 596
حبًا عميقًا . ويقدم لنا مصنفه تاريخ هذه المدينة ، التى كانت ذات يوم عاصمة للدولة العثمانية ، بين عامى ٧٦٠ هـ= ١٣٥٩ و ١٠٤٣ هـ= ١٦٣٣ فى أربعة عشر فصلا يطرق جزء كبير منها موضوعات جغرافية . فالفصل الأول يعالج الكلام على فتح أدرنة بواسطة العثمانيين يليه الفصل الثانى الذى يتحدث عن قلعتها وشوارعها وميادينها ، ثم الفصل الثالث عن مساجدها

---

(٣٢) - Babinger, GOW, p. 118 - 119, No 101 and note 2

(٣٣) شرحه ، ص ١٢٠ – ١٢١ ، رقم ١٠٤ ، ملاحظة ٢

(٣٤) - Taeschner, GLO, p. 45 - 46, and note 8 - Babinger, GOW, p. 213, note 1

ومؤسسات البر فيها، والرابع فى مدرستها وزوايا المتصوفة بها، والخامس فى منازل القوافل وأماكن الضيافة ، بينما يبحث الفصلان السادس والسابع فى الأنهار وفى بساتينها وجسورها وعيونها وآبارها . أما الفصل الثامن فيتحدث عن تحصينات أدرنه وضواحيها والريف المحيط بها ، بينما يتحدث التاسع عن مقابرها . وبهذا فإننا نلتقى إلى جانب الموضوعات التاريخية بدراسة نموذجية لحاضرة كبيرة تشبه إلى حد كبير نمط « الخطط » العربى ؛ هذا وقد أفاد حاجى خليفة من هذه الرسالة وأشاد بها كثيرًا . وفى القرن التاسع عشر ظهر مواطن آخر من أهل أدرنه يكمل حبرى ذلك هو بادى أحمد (توفى عام ١٣٢٦ هـ=١٩٠٨) الذى يقدم لنا وصفًا تاريخيًا جغرافيًا قيما لمدينته فى ثلاثة أجزاء بعنوان « رياض بلده ادرنه » لا يزال معروفًا من مخطوطاته فقط . ولا يزال الغموض يكتنف حقيقة وضع « تاريخ » آخر ينسب لشخص اسمه « جورى جلبى » يتفق مع كتاب « أنيس المسامرين » من حيث مادته التاريخية والجغرافية(٣٥) .

وقد تلى المحاولات الأولى لوضع مصنفات كبرى ذات طابع دينى أسطورى فى الكوزموغرافيا ظهور مصنفات كوزموغرافية صغرى فى عهد السلطان سليمان يغلب على مضمونها الجانب العلمى وتتميز عن تلك ببعض الرزانة . وإحدى هذه الكوزموغرافيات الصغرى وهى « تحفة الزمان وخريدة الأوان » قام بتأليفها شخص يدعى مصطفى بن على وصلتنا عنه بعض رسائل فى الرياضة والفلك وكان يعمل « موقتًا » بمسجد سليمية باستنبول ، ولا تزال تقابل فى المخطوطات شذور من كتابه « تحفة المجالس » الذى يعالج فيه الكلام على مائة مدينة ومواقعها الجغرافية وذلك من بين المدن المحيطة باستنبول(٣٦) . وأغلب الظن أنه يرتبط بهذا الاتجاه مخطوطة موجودة بفينا لرسالة بعنوان « إعلام العباد بأعلام البلاد » تقدم قطعة موجزة فى الجغرافيا الرياضية والوصفية ، وهى بدورها تم تأليفها فى عهد السلطان سليمان إلا أن اسم مؤلفها لا يزال مجهولا(٣٧) .

وربما ظفر بعناية أكبر ذلك العرض للجغرافيا الوصفية وفقًا للمذهب القديم الذى نلتقى به فى مقدمة تاريخ « كنه الأخبار » لمؤرخ لا يفتقر إلى بعض الشهرة هو على مصطفى بن أحمد جلبى (توفى عام ١٠٠٨ هـ= ١٥٩٩)(٣٨) . / وقد أضاف هذا المؤلف إلى القسم الأول من كتابه 597

---

(٣٥) - Babinger, GOW, p. 212 - 214, No 184

(٣٦) - Taeschner, GLO, p. 46 - Kramers, EI, EB, p. 72

(٣٧) - Taeschner, GLO, p. 46 - 47, note 3 = Kramers, EI, EB, p. 72 - 73

(٣٨) - Süssheim, Ali, p. 295 - 296 - Babinger, GOW, p. 126 - 129, No 110

p. 128 خاصة

« تذنيبًا » يعرض فيه سريعًا لوصف الأرض معتمدًا أساسًا على ثلاثة مؤلفين معروفين لنا جيدًا هم أبو الفدا ، وسباهى زاده التركى الذى قام بعمل مسودة جديدة لجغرافيا أبى الفدا كما سبق أن رأينا ، ثم كتاب « صورة الأرض » الذى يمكن أن نبصر فيه الترجمة الفارسية المصلّحة لمصنف الإصطخرى . ومؤلفنا يوافق المؤلفين العرب فى فكرتهم التى تقول بأن الأوضاع الجغرافية القديمة التى عرضها لنا المؤلفون السابقون لما تزل صحيحة فى أسسها إلى القرن السادس عشر ؛ أما عرضه الجغرافى هذا الذى احتوته المقدمة والذى يعد أشبه بالمدخل لمصنفه التاريخى الكبير فهو عرض موجز للغاية ولا يتعدى إيراد ملاحظات ذات طابع عام دون أن يدخل فى تفصيلات ما ، وهو بهذا لم يلعب أدنى دور فى التطور العام للأدب الجغرافى التركى(٣٩) .

إلا أننا فى نهاية هذا القرن السادس عشر نفسه نواجه بأهم مصنف جغرافى باللغة التركية يعرض لنا لأول مرة خلاصة عامة للمذهب العربى القديم وهو « مناظر العوالم » الذى فرغ مؤلفه محمد عاشق من تأليفه بدمشق عام ١٠٠٦ هـ = ١٥٩٨ معتمدًا فى ذلك على مواد أدبية وعلى معلومات جديدة جمعها أثناء تجواله بمناطق نائية(٤٠) . والكتاب يتوّج تاريخ الفترة الشرقية ، إن جاز هذا التعبير ، للأدب الجغرافى التركى ؛ بل إن المؤلف نفسه قد عبر عن أمله فى أن يكون مصنفه فاتحة عهد جديد فى ازدهار هذا الضرب من الأدب لدى الأتراك . وأول من حلل هذا المصنف وبين طابعه الأساسى على ضوء التطور العام للأدب الجغرافى هو المستشرق تيشنر الذى وإن قدّر الكتاب حق قدره(٤١) إلا أنه قلل من أهميته حين اعتبره « آخر مسودة شرقية لبطلميوس » ؛ ذلك أن تيشنر فى الواقع لا يرى فى جميع الجغرافيا الوسيطة (medieval) سوى حلقات متتابعة لتعديلات جديدة لبطلميوس(٤٢) . ومما لا شك فيه أن محمد عاشق كان يحس بارتباطه الوثيق ببطلميوس فهو يعترف بأنه قد وزع القسم الجغرافى من « كوزموغرافيته » بحسب « الأقاليم الحقيقية » لبطلميوس ؛ ثم وزع مادة هذه الأخيرة بحسب « الأقاليم العرفية » (أى المناطق الجغرافية geographical regions) وفقًا لطريقة أبى الفدا(٤٣) . ولعل حاجى خليفة لم

---

(٣٩) - Taeschner, GLO, p. 47 - Kramers, EI, EB, p. 73

(٤٠) - Babinger, GOW, p. 138 - 139, No 115

(٤١) - Taeschner, GLO, p. 48 - 56

(٤٢) شرحه ، ص ٤٩

(٤٣) - Honigmann, Die sieben Klimata, p. 108, according to: Taeschner, Das anatolische Wegenetz, p. 5, note 2

يتنكب الصواب عندما ذكر أنه قد أتم مسودة كتابه ولكنه لم يبيضها ؛ ومخطوطات الكتاب فى الواقع نادرة للغاية ولم تعرف فى أوروبا إلى عهد قريب سوى مخطوطة واحدة موجودة بفينا[٤٤] زد على هذا أن الكتاب لم ينشر منه سوى مقتطفات موجزة . أما المؤلف نفسه فإن معلوماتنا عنه لا تتعدى تلك الإشارات العارضة التى وردت فى مصنفه .

ولد محمد عاشق ابنا لمدرس بطربيزون فى نحو عام ٩٦٢ هـ = ١٥٥٥ فيما يبدو[٤٥] ، وغادر مسقط رأسه منذ بلوغه سن العشرين / فبدأ تجواله الطويل الذى دام عدة أعوام وكان هدفه فيما 598
يغلب على الظن أن يجمع المادة من أجل كتابه ؛ وقد تخللت هذا التجوال الطويل زيارات متقطعة إلى مسقط رأسه .

وهو قد أقام فى بعض المواضع فترات طويلة شغل خلالها عادة وظيفة كاتب صغير فى الشئون القضائية ؛ واستغرقت إقامته بالروملى والأناضول فترة أطول وكان هدفه من ذلك كما يفترض تيشنر أن يستكمل معلوماته عنها بالملاحظة المباشرة لأن المصادر المكتوبة عنها كانت قليلة ، خاصة فى اللغة العربية . وبلغ محمد عاشق فى تجواله مدينة دربند وذلك فى عام ٩٩٠ هـ = ١٥٨٢ ، وابتداء من عام ١٠٠٥ هـ = ١٥٩٦ استقر بدمشق نهائيًا ؛ وليس فى كتابه أدنى ذكر لأدائه فريضة الحج . وقد أتم كتابه خلال عامين فى أثناء وجوده بدمشق ؛ ويبدو أنه قد توفى بعد ذلك بقليل ، هذا إذا ما أخذنا برأى حاجى خليفة من أن الكتاب ظل فى شكل مسودة[٤٦] .

وكتاب « مناظر العوالم » يمثل من حيث تبويبه نموذجًا جيدًا لنمط الكوزموغرافيا كما عرفناه لدى القزوينى والدمشقى وحمد الله مستوفى قزوينى ، فالقسم الأول وهو قصير بعض الشىء إذ لا يزيد على العشرين صفحة يبحث فى « العالم العلوى »[٤٧] ويتضمن الكلام على السماء وسكانها والأجسام السماوية وعلى الجحيم . وباستثناء بعض المادة الفلكية فإن مضمون القسم الأول ليس فى واقع الأمر سوى مقدمة للقسم الثانى الذى يبحث فى « العالم السفلى » ، فالأرض وسكانها تشغل أكثر من نصف المصنف أى نحو مائتين وخمسين صفحة . ووفقًا للطريقة المتبعة عادة فى المصنفات الكوزموغرافية فإن المؤلف يقدم لنا وصفًا عامًا للأرض فيتحدث عن البحار والجزر

(٤٤) - Taeschner, CLO, p. 49, but cf: Babinger, GOW, p. 139

(٤٥) - Taeschner, GLO, p. 49

(٤٦) - Taeschner, GLO, p. 50; but cf: Babinger, GOW, p. 138, note 1

(٤٧) - Taeschner, GLO, p. 50

والبحيرات والأنهار ومنابع المياه والجبال وأخيرًا عن المدن التى يفرد لها أهمية خاصة . ويلى وصف الأرض الكلام على التاريخ الطبيعى وهو يشغل حيزًا يقرب من ذلك إذ يصل إلى نحو المائتى صفحة . ومعالجته لأقسامه يذكرنا بدوره بالكوزموغرافيات العربية فهو يتحدث عن المعادن فى صورها الصلبة والمائعة والغازية ثم عن الطيب والنباتات والحيوان والإنسان(٤٨) .

وجميع المادة الجغرافية موزعة لديه كما ذكرنا من قبل على الأقاليم السبعة البطلميوسية أو « أقاليم حقيقية » كما يدعوها المؤلف نفسه ، ثم إلى ثمانية وعشرين إقليما « عرفية » وفقًا لتقسيم أبى الفدا(٤٩) ؛ ومحمد عاشق يتبع هذا التقسيم الأخير حرفيًا(٥٠) باستثناء حالات قليلة يعالج فيها الكلام على مواضع لم ترد عند أبى الفدا . وفى مقابل هذا فإن مصادره عديدة وتكاد تشمل الأسماء الرئيسية من بين مصنفات الأدب الجغرافى العربى المعروفة لنا ؛ وأكثر ما يقابلنا لديه أسماء ابن خرداذبه وابن الوردى والقزوينى وياقوت وحمد الله مستوفى . غير أن المكانة الأولى عنده يحتلها
599 « تقويم البلدان » لأبى الفدا / فهو لم يستق منه نظام تقسيم البلدان فحسب بل ومعظم مادته الجغرافية التى ضمنها جميع كتابه بحيث يمكن اعتبار مصنف محمد عاشق من هذه الناحية «مسودة موسّعة باللغة التركية لأبى الفدا» كما يقول تيشنر (eine erweiterte türkische Ausgabe des Abulfida)(٥١) . ولكنه إلى جانب هذا لا يهمل المصادر الأخرى بل يشير إليها بمنتهى الدقة ويضمّن المادة المأخوذة عنها داخل الأقسام المختلفة التى أخذ تبويبها عن أبى الفدا كما رأينا ؛ وأما تلك المواضع التى لم يرد ذكرها لدى أبى الفدا فإنه يضيفها إلى داخل كل قسم « كذيل » قائم بذاته ، ومعظمها بالطبع يعالج الكلام عن المواضع الجغرافية الكائنة بالأناضول والروملى .

ويكمل المؤلف المادة النقلية بمعلوماته الشخصية التى تتميز بدورها بالتفصيل والدقة ويصحبها فى العادة ذكر الشخص الذى استقى منه هذه المعلومات ؛ وهى تمس فى الغالب تواريخ مدن معينة والكلام على أبنيتها وسكانها(٥٢) . ومن الملاحظ اختفاء أى أثر للنفوذ الأوروبى على

---

(٤٨) شرحه ، ص ٥١

(٤٩) شرحه ، ص ٥١ – ٥٣ راجع : Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 108

(٥٠) Taeschner, GLO, p. 53, note -

(٥١) شرحه ، ص ٥٣ – ٥٤

(٥٢) شرحه ، ص ٥٤ – ٥٥

كتاب محمد عاشق ، وكل ما يورده عن أوروبا ضحل للغاية ولا يتجاوز فى العادة ما عرفه الجغرافيون العرب فى العصور الوسيطة . وبنفس الطريقة نفتقد لديه أية إشارة إلى الاكتشافات الجغرافية الكبرى والرحلات الأوروبية التى تمت فى العهد القريب منه[٥٣] ، ولا يمكن بالطبع إرجاع هذا إلى محض المصادفة لأن قرائن الأحوال تشير إلى أنه قد فعل ذلك عن قصد ؛ ويقف مثال بيرى ريس دليلا بينًا على توفر المادة والمعلومات عن ذلك بقدر واف فى نطاق الدولة العثمانية وذلك فى فترة تسبق الفترة التى عاش فيها محمد عاشق بعشرات السنين . ولم يكن بوسع مؤلف « مناظر العوالم » بما عهد فيه من سعة الاطلاع وتعدد الميول أن يجهل هذا ، غير أن كتابه على ما يبدو يمثل رد فعل ما ضد الاتجاهات الجديدة الوافدة من الغرب فهو يحاول معارضتها بالتراث القديم الذى جهد فى جمعه فى مؤلف شامل يلم بجميع أطراف الموضوع . ونتيجة لهذا فإنه على الرغم من كل ما يتمتع به هذا الكاتب من مكانة بوصفه آخر ممثل للأدب الجغرافى للعصور الوسيطة فى الشرق فى صورته العربية ، وعلى الرغم أيضًا من الأهمية التى تتمتع بها روايته فى بعض الأحيان ، فإن المصنف فى مجموعه أشبه ما يكون بشىء متقادم لا يتفق مع واقع الأحوال التى وجد فيها بل يعكس عصورًا تاريخية سابقة (anachronism)[٥٤] ، وبهذا فلم يكن بمقدوره إرضاء مطالب معاصريه ولعل هذا هو السبب فى عدم انتشاره فى الشرق نفسه . والشخص الوحيد الذى عرفه جيداً هو حاجى خليفة ومن المحتمل أنه من آثار تلك المعرفة ودوافعها أن شرع هذا الأخير فى وضع مؤلفه « جهاننما » وإن لم يكن يرجع إلى محمد عاشق بصورة منتظمة[٥٥] .

لقد وجد النفوذ الأوروبى طريقه إلى الدولة العثمانية فى عهد محمد عاشق دون أن يواجه أية مقاومة
تذكر وحمل معه أخبار الاكتشافات الجغرافية الجديدة بحيث لم يكن / من المستطاع تجاهلها أو 600
ضرب صفح عنها . ففى نحو عام ٩٤٧ هـ = ١٥٤٠ ، وعقب وفاة خير الدين بربروسا التى حدثت فى عام ٩٥٣ هـ = ١٥٤٦ ، ظهر كتاب بعنوان « تاريخ الهند الغربى » كان الدافع إليه على ما يظهر الاستجابة للمطالب المتزايدة من جانب القراء . وبالطبع فهو لا يمثل فى واقع الأمر تاريخًا ما بل حكاية مشحونة بتفاصيل خرافية عن كشف الأوروبيين لجزر الهند الغربية مع وصف لعادات وطبائع سكانها[٥٦] ؛ وهو فى الحقيقة ترجمة لمصنف « فرنجى » قصد به تعريف الجمهور

---

(٥٣) شرحه ، ص ٥٥

(٥٤) قارن : Taeschner, GLO, p. 56

(٥٥) - Babinger, GOW, p. 139

(٥٦) شرحه ، ص ٣٦٥ ، ملاحظة ١

فى أوروبا باكتشاف العالم الجديد أميركا(٥٧)، وتشير قرائن الأحوال إلى أن الدولة العثمانية استطاعت أن تعرف خبر هذه الواقعة بعد لحظة وجيزة من انتشاره بين جيرانها الأوروبيين وذلك على يد أحد المسيحيين ممن دخلوا حظيرة الإسلام (renegade). وقد ظل هذا المصنف متمتعاً بالرواج بين جماهير القراء حتى القرن الثامن عشر وكان من أوائل الكتب التى خرجت من مطبعة مؤسس الطباعة بتركيا ابراهيم متفرقة المشهور وذلك فى عام ١١٤٢ هـ = ١٧٢٩ ؛ وتمثل هذه الطبعة فى الآونة الحاضرة شيئاً نادراً وتعد من أشهر آثار الطباعة بالحروف العربية فى الدولة العثمانية. هذه الطبعة من قطع الثمن (octavo) تضم إحدى وتسعين صفحة من الحجم المزدوج وهى مزودة بأربع خارطات وبجدول يبين النجوم ، هذا إلى جانب عدد من اللوحات المنقوشة (engraved) التى تصور سكان أميركا وحيوانها ونباتها(٥٨). وتاريخ تدوين هذا المصنف لم يثبت بصورة قاطعة فأحيانًا يرجع إلى عهد السلطان مراد الثالث وذلك فى نحو عام ٩٩٠ هـ = ١٥٨٢ وينسب تأليفه إلى شخص غير معروف تمامًا يسمى محمد بن يوسف الهروى(٥٩). وقد وقع كارا دى فو Carra de Vaux فى خطأ كبير حين نسب تأليف هذا الكتاب إلى حاجى خليفة(٦٠) ، ووجد هذا الخطأ طريقه إلى مؤلفات أخرى حتى أيامنا هذه. ذلك أن المسألة المحيطة بشخص المؤلف الحقيقى لهذا الكتاب يجب أن تظل مفتوحة ؛ ومخطوطة ليدن لمصنف حاجى خليفة الببليوغرافى الضخم والتى ترجع إلى عام ١٧٢٩ وتختلف أحيانًا فى قراءتها مع النسخة المطبوعة(٦١) تضم زيادة كبيرة عند معالجتها الكلام على هذا المصنف(٦٢) ، فتحت عنوان واحد يرد ذكر كتابين أحدهما باللغة العربية لمؤلف يدعى محمد بن يوسف الهروى نقله إلى التركية وزاد عليه شخص غير معروف أيضًا هو أبو المخلف محمود بن يوسف المصرى ويرد فيه الكلام عن رحلات الهنود أولا إلى أميريكا ثم عن رحلات الأسبان. أما الرسالة الثانية والتى ترجع إلى عهد تال لهذا فقد ترجمها أحد الأتراك من اللغة « الفرنجية » وأضاف إليها تعليقاته من « تذكرة » ما. وإزاء هذا الخلط الواضح فإن من العسير أن نخرج بنتيجة ملموسة عن شخص

---

(٥٧) - Taeschner, GLO, p. 57

(٥٨) - Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 14 - Babinger, GOW, p. 365, note 1

(٥٩) - Taescher, GLO, p. 57

(٦٠) - Carra de Vaux, Les Penseurs, I p. 245, note 1

(٦١) حاجى خليفة ، الجزء الثانى ، ص ١٥٩ ، رقم ٢٣٤٠

(٦٢) - Gildemeister, Orientalische Literatur, p. 303 - 304

المؤلف ، ليس ذلك فحسب بل ومن العسير أيضًا أن / نوضح طبيعة علاقة هذين المصنفين 601
اللذين عرفهما حاجى خليفة بذلك المصنف الذى خرج فى طبعة قشيبة منذ الفترة الأولى لظهور فن الطباعة بالدولة العثمانية .

ويمكن أن نعتبر نهاية القرن السادس عشر خاتمة فترة معينة فى تاريخ الأدب الجغرافى التركى عندما قدم لنا محمد عاشق خلاصة المذهب العربى القديم . وقد رأينا كيف استطاعت الجغرافيا الملاحية فى بداية ذلك القرن أن تشق لنفسها مسالك جديدة وصل علمها إلى أهل الغرب وساقت شيئًا فشيئًا إلى ظهور فروع جديدة فى ميدان الجغرافيا . غير أن هذا بالطبع لا يعنى أن المذهب القديم قد اختفى بدوره تمامًا إذ أن اثنين من كبار ممثلى الأدب التركى فى المحيط الجغرافى فى القرن السابع عشر قد مزجا بين الاتجاهين القديم والجديد بصورة واضحة وأعنى بهما العالم الكبير ومؤرخ الأدب والجغرافيا حاجى خليفة ، ثم الرحالة الشهير أوليا جلبى .

ولقد تردد اسم الأول منهما مرارًا عديدة على جميع صفحات كتابنا هذا بالتقريب وذلك لأهمية سفره الببليوغرافى الضخم الذى طبقت شهرته الآفاق والذى لا يستطيع الاستغناء عنه من يريد الغوص فى الأدب العربى بل وفى الأدبين الفارسى والتركى إلى حدما . ونرى لزامًا علينا أن نوليه عناية مزدوجة فهو لم يكن جغرافيًا تركيًا فحسب بل وكان كاتبًا باللغة العربية دوّن بعض مصنفاته الجغرافية بهذه اللغة الأخيرة . ونحن عندما نصفه بأنه جغرافى تركى كبير ينبغى ألا نغالى من هذه الناحية فهو أبعد من أن يكون بحاثة أصيلا كبعض من ورد ذكرهم خلال صفحات هذا الكتاب ، إذ يحول دون ذلك انغماسه التام فى الثقافة الأدبية المدونة بحيث لا تجد الخبرة العملية أو التجربة الشخصية سبيلها إلى مصنفاته . ولكنه يعوّض هذا باطلاع واسع المدى فقد تشرب الثقافة الإسلامية فى جميع فروعها الثلاثة وهى الأدب العربى والفارسى والتركى . وقد أحس حاجى خليفة بعاطفة جياشة نحو العلم فأولاه مخلصًا كل جهده ونشاطه ؛ ومنعته أمانته من أن يغمض عينيه عن التأثيرات والحقائق التى قدمت من الغرب فجهد دائمًا فى أن يفيد منه ولم يخش فى ذلك الاتهام بالبدعة أو الإدانة بالزيغ . وعلى الرغم من اعتماده الأساسى على الثقافة الشرقية فهو لم يرفض المصادر الغربية أو يطرحها ظهريًا بل كان على أتم استعداد ليتفهم ما وقع إليه منها عرضًا عن طريق الآخرين وذلك وفقًا لمنهجه الخاص ولمفهومه الثقافى . وهو وإن انتسب إلى عصر يعد بحق عصر تدهور إن لم يكن عصر سقوط تام بالنسبة للثقافة العربية إلا أنه ينهض دليلا واضحًا على أن تلك الثقافة لم تمت فى ذلك العصر بل على العكس من ذلك تطلبت من ممثليها بذل مجهود مضاعف لا مكان فيه للكلل والملل ولو لطرفة من الزمان ؛ ولا تخلو سيرة حياة حاجى خليفة من عبرة فى هذا

الصدد لأنه لم يستطع أن يقتطع للعلم خالصًا وفقًا لمفهومه سوى فترات قصيرة من حياته .
ومعرفتنا بسيرة حياته تعتمد على مصادر جديرة بالثقة ، فهى من ناحية مستقاة من ترجمة حياته
التى كتبها بقلمه (autobiography) وألحقها بأحد مصنفاته / الذى يحمل عنوان « ميزان 602
الحق فى اختيار الأحق[٦٣] » وتسوق تاريخ حياته إلى العام السابق لوفاته ؛ ومن ناحية أخرى على
مواد جمعها الناشر لأحد كتبه فى عام ١١٤٦ هـ = ١٧٣٣ (« تقويم التواريخ »)[٦٤] .

ولد حاجى خليفة بالقسطنطينية عام ١٠١٧ هـ = ١٦٠٩ فى أسرة كاتب صغير يعمل بديوان العسكرية ؛ واسمه فى الأصل هو مصطفى بن عبد الله لكن غلب عليه على الدوام لقبا كاتب جلبى وحاجى خليفة . وبعد أن حصل على التعليم الأولى المعهود آنذاك سلك خطو أبيه فالتحق منذ عام ١٠٣٢ هـ = ١٦٢٣ بالديوان ليتدرب على الأعمال الكتابية ولم يلبث أن شغل وظيفة كتابية متواضعة هى وظيفة « محاسب » بوحدات الجيش بالأناضول وبهذا أخذ طرفًا فى الحملة العسكرية على بلاد الفرس التى لم توفق فى حصارها لبغداد فى عام ١٠٣٥ هـ = ١٦٢٦ ، وحضر حصار أرضروم عام ١٠٣٦ هـ - ١٠٣٧ هـ = ١٦٢٧ - ١٦٢٨ عند قتال آبازه باشا للانكشارية[٦٥] ؛ وبعد أعوام من هذا رجع إلى القسطنطينية ليشغل وظيفة رئيس للكتبة ولذلك لقب بكاتب جلبى . هذا وقد أيقظت فى نفسه دروس شيخ العلماء قاضى زاده الشوق نحو العلم ووجد فى هذا تشجيعًا من أبيه فاتجه فى بادىء الأمر إلى دراسة العربية ، غير أن اندلاع نيران الحرب مع الفرس اضطره إلى إيقاف تلك الدراسة فى عام ١٠٣٩ هـ = ١٦٢٩ فتبع القوات العثمانية إلى همدان وبغداد ولم يرجع إلى موطنه إلا فى عام ١٠٤١ هـ = ١٦٣٠ حيث شغل نفسه بدراسة التفسير وتعمق فى فهم البيضاوى والغزالى على قاضى زاده المذكور . وفى عام ١٠٤٣ هـ = ١٦٣٣ - ١٦٣٤ ذهب إلى سوريا مع جيش الصدر الأعظم محمد باشا واشترك فى الحملة الكبرى على بلاد الفرس لعام ١٠٤٣ هـ - ١٠٤٥ هـ = ١٦٣٣ - ١٦٣٥ التى قادها السلطان مراد الرابع بنفسه . وعندما عسكر الجيش بحلب لتمضية فصل الشتاء اغتنم حاجى خليفة هذه الفرصة فأدى فريضة الحج ثم اشترك فى حصار اريفان (روان) Erivan عام ١٠٤٤ هـ =

---

(٦٣) نقلا عن كتاب .Wickerhauser ، ص ١٥٩ – ١٦٧ (المتن) و ص ١٦٦ – ١٧٥ (الترجمة)

(٦٤) -Nallino, Al- Falak, p. 73 - Babinger, Stambuler Buchwesen p. 16b - Babinger, GOW, p. 197

(٦٥) -Huart, Abaza, p. 6 - Mordtmann, Hadjdji Khalifa, p. 217

١٦٣٥[٦٦] . وكان شوقه وتشوفه إلى العلم قد قوى لديه عقب إقامته بحلب التى كانت لا تزال محتفظة بمكانتها الثقافية آنذاك ، ودفعه هذا إلى المطالبة بإحالته إلى الاستيداع ورجع إلى القسطنطينية حيث انصرف انصرافًا تامًا لمدة عشرة أعوام إلى دراسة التفسير والحديث والمنطق واللغة ، ثم تحول بعد ذلك إلى دراسة الرياضيات والفلك والجغرافيا والطب . وقد عاونه على أن يتفرغ للدراسة ثروة ورثها عن بعض قرابته ؛ وهو يفصل لنا فى ترجمته لسيرة حياته كيف كان يصرف مبالغ طائلة لاقتناء الكتب[٦٧] ؛ ثم لم يلبث أن اتسعت شهرته وبدأ يخطو شيئًا فشيئًا فى مجال التدريس . وقد هرع إلى مدّيد العون إليه قائد الجيش العثمانى الذى كان يعرفه شخصيًا وهو محمد باشا فعينه فى عام ١٠٥٨ هـ = ١٦٤٨ نائبًا ثانيًا بالإدارة المالية لديوان الجيش (« باش محاسبه ده ايكنجى خليفه ») / وبهذا ثبت عليه بالتالى لقب حاجى خليفة* ؛ وكان هذا 603
المنصب اسمياً فقط فقد كلف بالحضور إلى الخدمة مرتين فى الأسبوع. غير أن خبرته فى الشئون المالية لم تكن بأقل شهرة من سمعته العلمية فدعى فى عام ١٠٦٣ هـ = ١٦٥٣ إلى الاشتراك فى لجنة خاصة برئاسة السلطان محمد الرابع لبحث الوسائل الناجعة لإجراء التحسينات على ميزانية الدولة . وقد وضع حاجى خليفة بهذه المناسبة مذكرة رفعت بعد أعوام إلى المفتى الأكبر[٦٨] ، وترجمها إلى الألمانية فى القرن التاسع عشر برناور Bernauer بوصفها مصدرًا هامًا للمسائل التى تتناول الكلام عليها[٦٩] ؛ ثم نشرها فى عام ١٢٨٠ هـ = ١٨٦٣ الكاتب التركى أحمد وفيق (توفى عام ١٣٠٨ هـ = ١٨٩١) الذى عرف عنه بوجه عام الاهتمام بمثل هذه المسائل[٧٠] .

وظل حاجى خليفة مدة أربعة أعوام بعد هذا يعمل فى البحث والتدريس إلى أن وافاه الأجل

---

(٦٦) - Hartmann, EI, II, p. 31

(٦٧) حاجى خليفة ، سيرة حياته بقلمه راجع : Wickerhauser, p. 168 - 169

* «لقبوه بذلك بعد أن حج وترق بين الكتاب إلى رتبة النيابة عن رئيس القسم على مصطلح العثمانيين ، وذلك أن صغار الكتاب يسمون فى مصطلحهم الملازمين وفوقهم الخلفاء وفوقهم الرئيس الأعلى للكتاب . ومؤلف الكشف معروف بين المستشرقين باسم « حاجى قالفه » على طبق ما يلهج به العوام فى عاصمة الخلافة» [عن مقال للشيخ محمد زاهد الكوثرى] (المترجم) .

(٦٨) - Smirnov, Ocherk, p. 497 - 498

(٦٩) - Babinger, GOW, p. 201, No 11

(٧٠) شرحه ، ص ٣٧٤

بمسقط رأسه فى سبتمبر من عام ١٠٦٧ هـ = ١٦٥٧[٧١] نتيجة لتوعك طارىء ألم به ؛ وقد يرجع البعض تاريخ وفاته إلى عام ١٠٦٨ هـ = ١٦٥٨[٧٢] وهو أقل دقة من سابقه ؛ ولم يكن حاجى خليفة قد جاوز الخمسين من عمره حين وافته منيته[٧٣]*.

ومن الواضح أن بابنجر Babinger لم يتنكب الصواب حين عد حاجى خليفة « أكبر موسوعى (polyhistor) بين العثمانيين ، انتظمت معرفته جميع فروع العلوم المعروفة آنذاك »[٧٤] . غير أننا إذا قارنا تراث حاجى خليفة الأدبى بآثار كاتب من نفس الطراز كالسيوطى مثلا لظهر الاختلاف الجوهرى بين الاثنين بصورة جلية سواء من حيث الأهداف أو الكم . وينعكس تملكه لناصية جميع العلوم المعروفة لعصره قبل كل شىء فى مصنفه الضخم « كشف الظنون » ، وهو أشبه ما يكون بدائرة معارف وسجل عام فى تواريخ المصنفات المختلفة ؛ غير أن حاجى خليفة على نقيض السيوطى لم ير البتة ما يستوجب وضع مؤلف خاص فى كل فرع من فروع العلم المعروفة له . أما من حيث الكم فإن إنتاجه العلمى أقل بكثير من إنتاج السيوطى وإن كانت ميوله الشخصية تنعكس فيه بصورة أكثر جلاء . وكما رأينا فإن لديه فى الواقع مصنفات تعالج المسائل المالية والاقتصادية ؛ وهو قد عالج التأليف أيضًا فى الموضوعات الأدبية والفقهية كما هو الشأن عادة مع المؤلفين الإسلاميين ، بيد أن الغالبية العظمى من تآليفه إنما تعنى قبل كل شىء بالتاريخ بل وبالجغرافيا أيضًا بنفس القدر . فحاجى خليفة قد أحس بميل خاص نحو هذين الفرعين من الأدب ، ولا غرابة فى ذلك فإن أثرهما فى مجال الأدب كان أكثر دوامًا واستمرارًا

---

(٧١) - Brockelmann, GAL, SB II, p. 636 (1067 = 1657) = Mordtmann, Hadjdji Khalifa, p. 217 - Babinger, GOW, p. 195 - Taeshner, GLO, p. 57

(٧٢) - Taeschner, GLO, p. 57, note 2

(٧٣) - Nallino, Al - Falak, p. 73 - 75 (= Racc, p. 144 - 146), biography of Hadjdji Khalifa - Cf. Hammer, Encycl. Ubersicht, I, p. 3 - 15

* احتفل بتركيا فى عام ١٩٥٧ بمرور ثلاثمائة عام على وفاته ، وظهر بهذه المناسبة كتيب يضم مجموعة من المقالات عن حياته ومصنفاته وذلك بعنوان :

Katip Celebi, Hayati ve Eserleri hakkinda Incelemeler, Türk Tarih Kurumu Yayinlarindan, VII Seri, No 33 -Ankara, 1957. (المترجم)

(٧٤) - Babinger, GOW, p. 196

بل إنهما ما زالا محتفظين بمكانتهما العلمية إلى أيامنا هذه/ . والتباين الكبير بين عدد مصنفات 604
حاجى خليفة الذى يتراوح بين العشرين والثلاثين وبين مصنفات السيوطى التى تقارب الخمسمائة يمكن رده إلى حدما إلى أن فترة النشاط التأليفى الفعّال لحاجى خليفة لم تكن طويلة ، فهو قد انتهى من تدوين أول مؤلف له ، وهو مصنف ذو طابع تاريخى كتبه باللغة العربية ، فى عام ١٠٥١ هـ = ١٦٤١[٧٥] ؛ أما مؤلفه الأخير والذى يمس أحيانًا سيرة حياته فقد انتهى منه قبل عام من وفاته وذلك فى نوفمبر من عام ١٠٦٧ هـ = ١٦٥٦[٧٦] . من هذا يتبين لنا أن حاجى خليفة قد استطاع أن يدوّن عددًا من المؤلفات الكبرى التى قفزت إلى أجزاء عديدة فى فترة لا تتجاوز الخمسة عشر عامًا ؛ ولعله يمكن تفسير هذا بأن المؤلف قد بدأ فى جمع مادته بلا شك قبل ذلك بعهد طويل أى منذ سنى شبابه الأولى ثم ظل يزيد فيها على مر الأيام غائصًا فى مختلف فروع العلم ، زد على هذا أنه قد اضطر مرات عديدة إلى عمل مسودات جديدة لتحل محل القديمة .

أما بالنسبة لنا فتشغل المكانة الأولى بالطبع مؤلفاته المخصصة للجغرافيا أو المتصلة بها اتصالا مباشرًا ، وعددها أربعة هى : معجمه البيليوغرافى الضخم الذى وضعه باللغة العربية والذى يحيط بجميع فروع العلم والأدب ؛ ثم سفره الأساسى فى الجغرافيا العامة باللغة التركية ؛ وأخيرًا مصنفان باللغة التركية يحملان طابعًا أكثر تخصصًا أحدهما صياغة معدّلة لأطلس أوروبى للعصر القريب منه والآخر مصنف تاريخى يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالجغرافيا الملاحية . وقد اكتسب شهرة واسعة النطاق معجمه البيليوغرافى الكبير أو **Lexicon Bibliographicum** وهو العنوان اللاتينى الذى أعطاه إياه ناشره الأوروبى . وأهمية هذا السفر كبيرة بالنسبة لجميع فروع العلوم ومن ثم فإننا لن نبحث صلته بالجغرافيا وحدها بل سنمس أيضًا بعض المسائل المتصلة بأهدافه العامة وبالمادة التى يحتويها بين دفتيه .

ويتبين لنا من ترجمة المؤلف لسيرة حياته أنه قد بدأ يجمع المادة لمصنفه هذا منذ عام ١٠٤٥ هـ = ١٦٣٥ أى عقب رجوعه من الحملة العسكرية التى أمضى وقتًا منها بمدينة حلب حيث أدهشه غنى دكاكين الوراقين والكتبيين بالكتب فبدأ فى فحص محتوياتها وتدوين عناوين المخطوطات

---

(٧٥) سيرة حياة حاجى خليفة بقلمه . راجع : Wickerhauser, p. 169 - Babinger, GOW p. 196, No 1 - Brockelmann, GAL, SB II, p. 636

(٧٦) - Wickerhauser, p. 174 - Babinger, GOW, p. 202 - 203, No 15 - Brockelmann, GAL, SB, II, p. 637

ومضمونها[٧٧] ؛ ولا غرو فقد كانت حلب من أكبر المراكز الثقافية بالبلاد العربية منذ عهد
الحمدانيين فى القرن العاشر وظلت محتفظة بهذه المكانة إلى عهد حاجى خليفة . وإذا كان
العثمانيون كما رأينا قد سلبوا القاهرة كنوزها المخطوطية وأن عددًا ضخمًا من هذه الكتب قد وجد
طريقه إلى القسطنطينية فإن مصير سوريا كان أفضل من ذلك بكثير . وعلى النقيض من دمشق
فإن حلب قد امتازت بخاصية أخرى ، هى أنها لم تقف عند حد كونها مركزًا للثقافة العربية القديمة
605 بل / فتحت أبوابها أيضًا للتأثيرات الجديدة حتى أصبحت فى بعض الأحيان مهدًا لحركات أدبية
مجددة ، ولنذكر فى هذا الصدد أنه قبل أعوام من زيارة حاجى خليفة لها عاش بهذه المدينة لفترة
طويلة المستشرقان بوكوك **Pococke** وغوليوس **Golius** مؤسسا الاستعراب فى أوروبا . ويتبين
من مجموعة مخطوطات الأخير الموجودة بليدن أن القسم الأهم منها قد جمعه بحلب ؛ كما نذكر أيضًا
أنه بعد عشرين عامًا من حاجى خليفة خرج من مدينة حلب فى طريقه إلى بلاد « المصكوف »
النائية البطريرك مكاريوس الأنطاكى الذى وإن انتمى إلى وسط مغاير تمامًا إلا أنه جهد بقدر
استطاعته فى أن يوقظ الميل نحو الثقافة بين مواطنيه من العرب النصارى ؛ وبعد قرون من هذا عاش
بحلب جرمان فرحات الذى يعد من القوى المحركة التى أدت إلى انبعاث النهضة الأدبية العربية فى
القرن التاسع عشر . وظلت حلب محتفظة بأهميتها كمركز ثقافى حتى القرن التاسع عشر ، ومن
الملاحظ أن أفضل مخطوطات مجموعة روسو **Rousseau** التى تزين معهد الدراسات الشرقية
لأكاديمية العلوم السوفيتية قد جاءت من حلب ، بل إن حلب كان ينظر إليها فى استنبول على عهد
هامر **Hammer** على أنها أنسب مركز للتمكن فى دراسة اللغة العربية والأدب العربى ، ويصدق
هذا على الفارسية أيضًا[٧٨] .

فليس غريبًا إذن أن يدهش غناها بالمخطوطات فى القرن السابع عشر شخصًا كحاجى خليفة ، بل وليس بعيدًا أن تكون الجالية الأوروبية المقيمة بها هى التى أطلعته على المؤلفات الأوروبية فى ميدان الجغرافيا ، تلك المؤلفات التى لعبت بالتالى دورًا كبيرًا فى نشاطه العلمى . وليست المادة العلمية التى أمدته بها استنبول بأقل أهمية من تلك التى حبته بها حلب ؛ فقد أصبحت استنبول منذ بداية القرن السادس عشر كما رأينا سوقًا حافلا للمؤلفات العربية .

---

(٧٧) - Wickerhauser, p. 168 - Flügel, Lexicon Bibliographicum, I, p. XI - Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 275

(٧٨) - Hammer, Erinnerungen, p. 36, 38, 43

ويتضاءل بصورة واضحة إلى جانب هذين المركزين الكبيرين دور المراكز الأخرى خاصة وأن إقامته بها كانت على أغلب الظن قصيرة الأمد، ولو أنه يتبين من دلائل متفرقة أن حاجي خليفة قد جهد دائمًا فى الاتصال بالعلماء المحليين فى كل موضع زاره كما جهد فى ذات الوقت فى الاطلاع على جميع مجموعات المخطوطات التى مر عليها محاولا على الدوام أن يستكمل مادته إلى آخر أيام حياته .

وقد سار العمل فى تأليف هذا الكتاب ببطء شديد فأكمل الجزء الأول بعد خمسة عشر عامًا ، أى فى سنة ١٠٦٤ هـ = ١٦٥٣ (٧٩) . ويبدو أن الكتاب لم يأخذ صيغته النهائية إلى لحظة وفاة المؤلف شأنه فى هذا شأن جميع المؤلفات التى من هذا القبيل ؛ كما وأنه يقابلنا فيه من لحظة لأخرى بياض بالأصل .

والكتاب لا يمثل فى طابعه مرجعًا ببليوغرافيا مكرسًا لوصف الكتب فحسب بل إنه يقدم لنا بنفس الدرجة عرضًا جامعًا للعلوم . لا على طريقة موسوعات عهد المماليك الكبيرة بل على أسلوب المراجع الموجزة فى العلوم التى يشغل مصنفه بينها مركزًا هامًا ويتمم سلسلة موغلة فى القدم وإن كان أبعد من أن يمثل آخر حلقاتها . / ومقدمة هذا الكتاب تعطينا فكرة جيدة عن أهدافه 606
وقيمته الخاصة بل وعن المصادر التى اعتمد عليها ؛ وهو بعد أن يورد الألفاظ المعهودة فى بدء الكلام لدى علماء المسلمين كحمد الله وشكره والصلاة على نبيه الخ يلج موضوعه مباشرة فيقول :

« أما بعد لمّا كان كشف دقائق العلوم وتبيين حقائقها من أجلّ المواهب وأعز المطالب قيّض الله سبحانه فى كل عصر علماء قاموا بأعباء ذلك الأمر العظيم وكشفوا عن ساق الجد والاهتمام بالتعليم والتفهيم سيما الأئمة الأعلام من علماء الإسلام الذين قال فيهم النبى عليه الصلوة والسلام علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل فإنهم سبّاق غايات وأساطين روايات ودراسات فمنهم من استنبط المسائل من الدلائل فأصّل وفرّع ومنهم من جمع وصنف فأبدع ومنهم من هذّب وحرّر فأجاد وحقّق المباحث فوق ما يراد رحم الله أسلافهم وأيد أخلافهم غير أن أسماء تدويناتهم لم تدوّن بعد على فصل وباب ولم يرد فيه خبر كتاب .

ولا شك أن تكحيل العين بغبار أخبار آثارهم على وجه الاستقصاء لعمرى أنه أجدى من تفاريق العصاء إذ العلوم والكتب كثيرة والأعمار عزيزة قصيرة والوقوف على تفاصيلها متعسر بل

---

(٧٩) - Mordtmann, Hadjdji Khalifa, p. 217 - Babinger, GOW, p. 198.

متعذر وإنما المطلوب ضبط معاقدها والشعور على مقاصدها وقد ألهمنى الله تعالى جمع أشتاتها وفتح عليّ أبواب أسبابها فكتبت جميع ما رأيته فى خلال تتبع المؤلفات وتصفح كتب التواريخ والطبقات ولما تم تسويده فى عنفوان الشباب بتيسير الفياض الوهاب أسقطته عن حيز الاعتداد وأسبلتُ عليه رداء الابعاد غير أنى كلما وجدت شيئًا ألحقته إلى أن جاء أجله المقدر فى تبييضه وكان أمر الله قدرًا مقدورًا فشرعت بسبب من الأسباب وكان ذلك فى الكتاب سطورًا ورتبته على الحروف المعجمة كالمغرب والأساس حذرًا من التكرار والالتباس . وراعيت فى حروف الأسماء إلى الثالث والرابع ترتيبًا فكل ما له اسم ذكرته فى محله مع مصنفه وتاريخه ومتعلقاته ووصفه تفصيلا وتبويبًا وربما أشرت إلى ما روى عن الفحول من الرد والقبول وأوردت أيضًا أسماء الشروح والحواشى لدفع الشبهة ورفع الغواشى مع التصريح بأنه شرح كتاب فلانى وأنه سبق أو سيأتى فى فصله بناء على أن المتن أصل والفرع أولى أن يذكر عقيب أصله وما لا اسم له ذكرته باعتبار الإضافة إلى الفن
607 أو مصنفه فى باب / التاء والدال والراء والكاف برعاية الترتيب فى حروف المضاف إليه كتاريخ ابن أثير وتفسير ابن جرير وديوان المتنبى ورسالة ابن زيدون وكتاب سيبويه وأوردت القصائد فى القاف وشروح الأسماء الحسنى فى الشين و ما ذكرته من كتب الفروع قيدته بمذهب مصنفه على اليقين وما ليس بعربى قيدته بأنه تركى أو فارسى أو مترجم ليزول به الإبهام وأشرت إلى ما رأيته من الكتب بذكر شيء من أوله للإعلام وهو أعون على تعيين المجهولات ودفع الشبهة وقد كنت عينت بذلك كثيرًا من الكتب المشتبهة أما أسماء العلوم فذكرتها باعتبار المضاف إليه فعلم الفقه مثلا فى الفاء وما يليه كما نبهت عليه من سرد أسماء كتبه على الترتيب المعلوم وتلخيص ما فى كتب موضوعات العلوم كمفتاح السعادة ورسالة المولى لطفى الشهيد والفوائد الخاقانية وكتاب شيخ الإسلام الحفيد وربما ألحقت عليها علومًا وفوائد من أمثال تلك الكتب بالعزو إليها وأوردت مباحث الفضلاء وتحريراتهم بذكر ما لها وما عليها وسميته بعد أن أتممته بعون الله وتوفيقه كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . وأهديته إلى معشر أكابر العلماء وزمرة الفحول والفضلاء وما قصدت بذلك سوى نفع الخلف وإبقاء ذكر أثر السلف وقد ورد فى الأثر عن سيد البشر من ورّخ مؤمنًا فكأنما أحياه والله الميسّر لكل عسير نعم المبشر ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وهو على مقدمة وأبواب وخاتمة »[٨٠] .

---

(٨٠) حاجى خليفة : الجزء الأول ، ص ٢ – ٥

قارن : Nallino, Al - Falak, p. 75 - 76 (= Racc., p. 145 - 146)

وتمضى المقدمة بعد هذا مكوّنة فى حد ذاتها رسالة مستقلة تتحدث عن ماهية العلم وقيمته وتقسيم العلوم ومراتب العلم وشرفه وما يلحق به وما يجب أن يتصف به المؤلفون ، وعن الشروط اللازمة لنجاح البحث العلمى والالتزامات التى يتطلبها . وهى تنقسم إلى خمسة أبواب وينقسم كل باب بدوره إلى عدد من الفصول تحمل عناوين مرهقة على الطراز القديم واستطرادات شتى . وليس ثمة ما يكشف عن أصالة فى هذا القسم من كتاب حاجى خليفة لأن المؤلف يعتمد فيه اعتمادًا كبيرًا على المراجع السابقة له فى هذا المضمار . وتتّبع هذه المصادر لا يمثل شيئًا عسيرًا خاصة وأنها جميعًا ترجع إلى العصر السابق لعصر المؤلف مباشرة وتنتمى إلى فئة المراجع فى العلوم التى أشرنا إليها / من قبل . ويحتل المكانة الأولى من بينها لدى حاجى خليفة كتاب « مفتاح 608
السعادة » لطاشكبرى زاده الشهير وهو مؤلف عاش قبل ذلك بقرن من الزمان (توفى فى عام ٩٦٨ هـ = ١٥٦١) وضرب بسهم وافر فى جميع فروع العلم (polyhistor) ؛ والكتاب موجود الآن فى متناول أيدى القراء فقد طبع أصله العربى وترجمته التركية بل وترجمة جزئية إلى اللغة الألمانية بقلم ريشر Rescher . وقد وضح من فحص هذا المصنف إلى أى مدى اعتمد عليه حاجى خليفة اعتمادًا جوهريًا لا من حيث المادة فحسب بل ومن حيث تصنيفه للعلوم وتبويبه العام[٨١] ؛ بل إن عرضه فى بعض الأحايين لا يمثل سوى إعادة لصياغة الأقسام المقابلة من مصنف طاشكبرى زاده . أما المؤلفون الثلاثة الأخر الذين يشير إليهم فى مقدمة كتابه فأولهم المولى لطفى الشهيد أو بصورة أدق لطف الله الطوقاتى (توفى فى عام ٩٠٠ هـ = ١٤٩٤)[٨٢] ، وهو يسبق طاشكبرى زاده بخمسين عامًا . وينقسم مؤلفه فى العلوم إلى قسمين كبيرين أحدهما فى « علوم العربية » والآخر فى « علوم الشريعة » ، وهو يعالج فى القسم الأول الكلام على واحد وثلاثين علما وفى الثانى على أربع وأربعين علمًا . وقريب من عهده عاش « شيخ الإسلام الحفيد » أحمد بن يحيى التفتازانى (توفى فى عام ٩١٦ هـ = ١٥١٠)[٨٣] وهو أيضًا يعالج العلوم على مجموعتين الشرعية والفلسفية . أما أقرب الثلاثة إليه من الناحية الزمنية فهو مؤلف « الفوائد الخاقانية » محمد أمين الشروانى الذى أتم كتابه عام ١٠٢٩ هـ = ١٦١٤[٨٤] وأقام

(٨١) - Flügel, Lexicon Bibliographicum, I, p. XV - XVI - Wiedemann, Beiträge, LVII, p. 3

(٨٢) - Brockelmann, GAL, II, p. 235, No 5; SB II, p. 330

(٨٣) - Brockelmann, GAL, II, p. 218 - 219, No 5; SB II, p. 309

(٨٤) - Brockelmann, GAL, II, p. 453, No 5; SB II, p. 673.

تصنيفه على رقم مصطنع هو رقم ثلاثة وخمسين ، وهو مجموع حروف اسم أحمد ؛ والمؤلف يصف العلوم على التتابع مبتدئًا بالعلوم الشرعية ثم اللغوية فالفلسفية .

ومما لا شك فيه أن حاجى خليفة قد رجع إلى أصحاب الموسوعات الأولى فى تصنيف العلوم كالأكفانى مثلا (توفى فى عام ٧٤٩ هـ = ١٣٤٨)[٨٥] ولكنه لم يعبأ بالإشارة إلى أسمائهم ؛ غير أنه اتبع منوال طاشكبرى زاده فى تصنيفه الواسع للعلوم حتى وصل بعددها إلى أكثر من ثلثمائة ؛ ومرد هذا كما سنرى إلى ذكره أحيانًا لعلم واحد تحت عناوين مختلفة وإيراده أحيانًا لأقسام مختلفة لعلم واحد على أنها علوم مستقلة . وعلى الرغم من تقسيمه للعلوم على خمس مجموعات داخل رسالته العامة فإنه لم يقتصر فى الكلام عليها فى هذا القسم من كتابه وفقًا للخطة التى عرض لها فى المقدمة بل عاود الكلام عليها من جديد داخل القسم الأساسى من مصنفه مفردًا لكل منها فقرات ليست بالطويلة فى ثنايا ملاحظاته الجمة عن أسماء الكتب . وهو فى هذا المجال يعيد بوجه عام ما قاله فى المقدمة ولكنه يضيف فى العادة إلى هذا تقسيم العلم إلى فروعه المختلفة مع ذكر أهم المؤلفات فى كل ميدان . هذه الفقرات التى أفردها للكلام على العلوم المختلفة تتفاوت من حيث
609 الحجم والأهمية تبعًا لمكانة كل علم بالنسبة للعصر الذى عاش فيه حاجى خليفة نفسه ، / ونتيجة لهذا فإن بعض تلك الفقرات قد تتحول إلى رسائل قصيرة قائمة بذاتها بينما لا يوجد تحت العنوان فى بعض الحالات سوى مكان شاغر بالأصل . ومهما كان موقف البحاثة من أصالة هذه الرسالة الفذة فى تصنيف العلوم وما يجب أن يتصف به العلماء فإنه مما لا شك فيه أنها تستحق اهتمامًا جديًا من وجهة النظر التاريخية الأدبية لأنها تقدم لنا خلاصة للخبرة النظرية والعملية التى تجمعت لدى المسلمين فى هذا المجال على مدى الفترة التاريخية الطويلة التى تمتد من القرن التاسع إلى القرن السابع عشر .

وقد كان هامر Hammer موفقًا فى محاولته التى ترجع إلى ما يقرب من قرن ونصف القرن عندما وضع فى عام ١٨٠٤ « موسوعة فى العلوم الشرقية » Encyclopädische Übersicht der Wissenschaften des Orients فى أكثر من سبعمائة صفحة معتمدًا فى ذلك اعتمادًا أساسيًا على سفر حاجى خليفة . وهو يقدم لنا ترجمة مشطّرة للرسالة التى تحويها مقدمة حاجى خليفة[٨٦] ضامًا إليها الأقسام المختلفة فى وصف العلوم التى يحتويها صلب الكتاب[٨٧] ، ويردف

---

(٨٥) - Wiedemann, Beiträge, LVII, p. 3

(٨٦) - Hammer, Encycl. Übersicht, p. 41 - 196

(٨٧) شرحه ، ص ١٩٧ – ٦٩٦

على هذا بضم خاتمة المصنف[٨٨] التى سنقف عندها فيما سيمر من هذا الفصل . وكما هو الحال دائمًا مع دراسات هذا المستشرق الكبير فإنه لمما يؤسف له حقًا أن تنفيذ هذا المشروع الذى يعد فى الحقيقة أول مجهود علمى له والذى بدأه منذ عام ١٧٩٤[٨٩] لم يرتفع إلى مستوى الغرض الذى أراده ؛ وستكون مهمة مشكورة لو فكر أحد الباحثين فى أن يعيد الكرة على أسس جديدة تضع فى حسابها من جهة تطور العلم منذ أيام هامر ومن جهة أخرى المسائل المتعلقة بإخراج متن علمى موثوق به لهذا الأثر الكبير . ومنذ عهد ليس بالبعيد (١٩١٩) قدم فيدمان Wiedemann عرضًا دقيقًا للغاية ولكن يغلب عليه الإيجاز لتصنيف حاجى خليفة للعلوم الطبيعية والرياضية وضم إلى ذلك مادة طاشكبرى زاده وغيره من المؤلفين فى هذا الميدان . غير أن فيدمان حصر نفسه فى سرد الأسماء وترجمة بعض التعريفات[٩٠] وإن لزم الاعتراف بأن مجهوده يمثل خطوة مفيدة فى سبيل تفهّم الفكرة الأساسية التى يقوم عليها هذا التصنيف العام .

وموقف حاجى خليفة من الجغرافيا داخل تصنيفه هذا معروف لنا بعض الشىء فيما مر بنا من هذا الكتاب ، ففى الفصل الذى أفردناه للكلام على الجغرافيا الرياضية أوردنا القسم الذى يعالج فيه هذا الموضوع من صلب مصنفه[٩١] ومنه يتبين لنا أن حاجى خليفة يعد الجغرافيا قبل كل شىء علمًا « بطلميوسيًا » ، فضلا عن أنه يبدى اهتمامًا خاصًا بالجغرافيا الفلكية بل ويعتبر جميع تطور الجغرافيا عند العرب بمثابة امتداد لمذهب بطلميوس . وهو يفرد داخل علم الفلك مكانًا خاصًا « لعلم الزيجات والتقاويم[٩٢] » ويثبّت بهذا استعمال / هذين اللفظين اللذين مرا بنا 610
كثيرًا ؛ كما يوجد لديه داخل قسم « الهندسة » قسم خاص « للملاحة »[٩٣] يقرب كثيرًا من الجغرافيا الملاحية ، وفيه يعرّف الملاحة تعريفًا خاصًا ربما يرجع فى الأصل إلى محرر كتابه عربه جى

---

(٨٨) شرحه ، ص ٦٩٧ – ٦٩٩ (حاجى خليفة ، الجزء السادس ، ص ٥١٩ – ٥٢١)

(٨٩) - Hammer, Erinnerungen, p. 29

(٩٠) - Wiedemann, Beiträge, LVII, No 4, 14 - 30

(٩١) حاجى خليفة الجزء الثانى ، ص ٦٠١ – ٦٠٣ – قارن :
Hammer, Encycl. Übersicht, p. 375 - 377 - Wiedemann, Beiträge, LVII, No 4, p. 17

(٩٢) حاجى خليفة ، الجزء الأول ، ص ٣٥ – ٣٦ (قارن الجزء الثالث ص ٥٦٦ ، رقم ٦٩٣٠) –
Wiedemann, Beiträge, LVII, No 4, p. 17

(٩٣) حاجى خليفة ، الجزء الأول ، ص ٣٥

باشي . ونصه كالآتى :

« هو علم باحث عن كيفية صنعة السفن وكيفية ترتيب آلاتها وكيفية إجرائها فى البحر ويتوقف على معرفة سموت البحار والبلدان والأقاليم ومعرفة ساعات الأيام والليالى ومعرفة مهابّ الرياح وعواصفها ورخائها وممطرها وغير ممطرها ومن مبادية علم الميقات وعلم الهندسة »[٩٤] .

ومن هذا المثال يتضح لنا أن حاجى خليفة قد عدّل كثيرًا من موقفه النظرى إزاء الجغرافيا ، ولعل السبب فى ذلك هو اتساع أفق معرفته بالتالى عندما تعرف على الجوانب العملية فى محيط الأدب الجغرافى باللغة العربية . فهو لم يعد يقتصر على الكلام على الجغرافيا « الرياضية » وحدها بل ويتكلم عن الجغرافيا « التاريخية » أيضًا[٩٥] ؛ وأهم من ذلك بكثير هو اعترافه بالأهمية المستقلة لعدد من كبير من الأقسام والفروع التى اكتسبت فى الوسط العربى وجودًا مستقلا نتيجة لاحتياجات عملية معينة مما سبق أن عالجنا الكلام عليه فى حينه . فمثلا نراه يفرد أقسامًا خاصة لموضوعات شتى مثل « علم مسالك البلدان »[٩٦] و « علم خواص الأقاليم والبلدان »[٩٧] و « علم خواص البر والبحر »[٩٨] و « علم البرد ومسافاتها »[٩٩] مع أن ذلك يدخل تحت موضوع الفلك ؛ وفى هذا الصدد نبصر أحيانًا فى تعريفاتها ضربًا من الصراع بين الآراء النظرية ونتائج التجربة العملية . ويصلح نموذجًا لهذا تعريفه للقسم الأخير ، أى الخاص بالبريد والمسافات ، ففيه يقول :

« وهو علم يتعرّف منه كمية مسالك الأمصار فراسخ وأميالا وأنها مسافة شهرية أو أقل أو أكثر ذكره أبو الخير من فروع علم علم الهيئة وذلك أولى بأن يسمى علم مسالك الممالك مع أنه

---

(٩٤) شرحه ، الجزء السادس ، ص ١٠١ — Wiedemann, Beiträge, LVII, No 4, p. 21

(٩٥) - Hammer, Encycl. Übersicht, p. 384 - 386

(٩٦) حاجى خليفة ، الجزء الخامس ، ص ٥٠٧ ، رقم ١١٨٦٢
Hammer, Encycl. Übersicht, p. 387 - Wiedemann, Beiträge, LVII, No 4p. 18.

(٩٧) حاجى خليفة ، الجزء الثالث ، ص ١٨٠
Hammer, Encycl. Übersicht, p. 392 - Wiedemann, Beitrage, LVII, No 4, p. 18

(٩٨) حاجى خليفة الجزء الثالث ، ص ١٨٠

(٩٩) حاجى خليفة الجزء الثانى ، ص ٤٢ ، رقم ١٧٦٩
قارن : « من جهاننا » Hammer, Encycl. Übersicht, p. 387 - 390
مع اضافات لإبراهيم p. 390 - 392

من مباحث جغرافيا »(١٠٠) .

611 وليس من العسير أن نبصر من هذا المثال كيف أن الأقسام النظرية من كتاب حاجى خليفة لا تقدم أية مادة جديدة فى إيضاح تاريخ تطور الأنماط الجغرافية لدى العرب ؛ ومن الجائز ألا يكون هو نفسه قد قصد إلى ذلك بل اكتفى كما هو الحال مع بقية الأقسام الأخرى بعرض أمين للآراء المشهورة أو المتعارفة فى عصره .

وعلى الرغم مما تتمتع به مقدمة الكتاب من أهمية بالنسبة للتاريخ الثقافى عامة ، وعلى الرغم أيضاً من قيمة آرائه النظرية فيما يتعلق بالعلوم المختلفة التى عبر عنها فى تلك المقدمة ، فإن الحيوية الكبرى التى يتميز بها مصنفه والتى يحتفظ بها إلى أيامنا هذه لا يرجع الفضل فيها إلى تلك المقدمة العامة فى العلوم بل إلى القسم الببليوغرافى الذى يمثل صلب الكتاب . ففيه يقدم لنا حاجى خليفة وفقًا للمنهج الذى عرضه فى المقدمة واحدًا وخمسمائة وأربعة عشر ألف عنوان للمصنفات والعلوم سائرًا فى هذا على النظام الأبجدى . وهو عدد لا يستهان به بالنسبة لذلك العصر خاصة إذا ما وضعنا فى حسابنا أن عدد الكتب والرسائل التى يسجلها يتجاوز هذا بكثير فهو يسوق تحت رقم ما أسماء عدد من الشروح والتعليقات بصدد مصنف ما ، كما أنه حين يتكلم عن أحد العلوم تظهر لديه مجموعة من أسماء المراجع الأساسية فى ذلك العلم . وتفوز بنصيب الأسد بطبيعة الحال المصنفات المدونة باللغة العربية ، غير أن أهمية المصنفات فى مجال الأدب الفارسى والتركى لا تقل عن ذلك كثيرًا . وقد رأينا خلال دراستنا هذه كيف أننا اضطررنا إلى الالتجاء إلى مصنف حاجى خليفة بصدد كل أثر تقريبًا يمس المسائل الجغرافية ؛ ومن الملاحظ أن كتاب فستنفلد Wüstenfeld الذى طال عليه الأمد والذى يمثل أول محاولة لتقديم بحث جامع فى « الأدب الجغرافى لدى العرب » (١٨٤٢) Die Literautur der Erdeschreibung bei den Arabern لا يمثل فى الواقع سوى نقول غير كاملة من كتاب حاجى خليفة . ومن الثابت أن الكتاب يتمتع بنفس القدر من الأهمية بالنسبة لجميع فروع الأدب والعلم العربى الأخرى بحيث لا يوجد فرع منها لم يكن هذا الكتاب هو المرجع الأول فيه . وهذه المكانة الكبرى للمصنف قد تم الاعتراف بها بين الأوساط العلمية الأوروبية ولمّا يمض على وفاة المؤلف بضع عشرات من السنين ، فعليه يعتمد كل الشطر الببليوغرافى تقريبًا لكتاب « المكتبة الشرقية » Bibliothèque

---

(١٠٠) حاجى خليفة الجزء الثانى ، ص ٤٢ (Wiedemann, Beiträge, LVII, No 4, p. 29 - 30 =)

Orientale لدربلو d'Herbelot (١٦٢٥ - ١٦٩٥) ، وهو ذلك المرجع الشهير الذى نال صيتًا واسعًا فى القرن الثامن عشر وظهرت طبعته الأولى عقب وفاة المؤلف وذلك فى عام ١٦٩٧ عنى بنشرها وزاد عليها المستشرق الفرنسى غالان A. Galland (١٦٤٦ - ١٧١٥) المشهور بترجمته « لألف ليلة وليلة » إلى الفرنسية ؛ ولم يلبث أن أعيد طبعه خمس مرات خلال مائة عام (١٧٧٦ ، ١٧٧٧ - ١٧٧٩ ، ١٧٨٠)، ثم طبع بالألمانية عام ١٧٨٩ - ١٧٩٠[١٠١] . وقد خلف المستشرق الفرنسى بتى دى لاكروا Petis de la Croix عند وفاته (فى عام ١٧١٣) مسودة ترجمة تقع فى ثلاثة أجزاء لكتاب حاجى خليفة ترجع إلى الفترة ١٦٩٨ - ١٧٠٥[١٠٢] . أما المتن العربى الكامل للكتاب فقد نشره مع ترجمة لاتينية المستشرق الألمانى فليغل G. Flügel (١٨٠٢ - ١٨٧٠) فى الفترة ١٨٣٥ - ١٨٥٨ فى خمسة أجزاء من المزدوج in folio ، ومنذ تلك اللحظة أصبح المرجع الذى لا يستغنى عنه جميع المشتغلين بدراسة الحضارة الإسلامية[١٠٣] . والطبعتان اللتان تلتا طبعة فليغل وهما طبعتا بولاق
612 (١٢٧٤ هـ = ١٨٥٧ - ١٨٥٨) واستنبول (١٣١١ هـ = ١٨٩٣ - ١٨٩٤) لا تمثلان أية خطوة إلى الأمام عند مقارنتهما بالطبعة الأوروبية ولا يُرْجع إليهما إلا فى حالة افتقاد الأولى ، زد على هذا أنهما لا ترتفعان إلى مستوى طبعة فليغل بأية حال من الأحوال[١٠٤]* . ويجب ألا يغيب عن البال أنه بالنظر للمادة الضخمة المتنوعة التى يحتويها الكتاب بين دفتيه فإن المتن أبعد من أن يعتبر قد ثبت بصورة علمية نهائية إذ أن هذا يتطلب فى واقع الأمر دراسة مستقلة لكل حالة على حدة .

ونحن بوجه عام إزاء مصنف قيم لا تقف أهميته كما ذكرنا من قبل عند محيط الأدب الجغرافى وحده بل تمتد لتشمل جميع الأدب والحضارة العربية . ولهذا يصبح فى مقدورنا أن نفهم ذلك الشعور بالفخر والزهو الذى ختم به حاجى خليفة مصنفه فى تعابير بلاغية رفيعة ؛ وهذه الخاتمة وإن لم تأت بجديد إلا أنها لا تخلو من بعض القيمة سواء من ناحية الأسلوب أو من ناحية رأيه

---

(١٠١) - Babinger, GOW, p: 199 - Krymski, Khamasa

(١٠٢) - Babinger, GOW, p. 199

(١٠٣) - Flügel, Lexicon Bibliographicum

(١٠٤) - Nallino, Al- Falak, p. 79 (= Racc., p. 149); turkish edition 1941 - 1942

* ظهرت باستنبول طبعة جديدة فى جزئين (١٩٤١ - ١٩٤٣) تعتمد على نسخة المؤلف نفسه ، وذلك بعناية محمد شرف الدين يالتقايا ورفعت بيلكه الكليسى . (المترجم)

الشخصي في نفسه ؛ وهو رأى لا نستطيع القول بأنه قد جاوز فيه الحد . قال :

« قد انتهى القول بنا فيما قررناه وانتجز الغرض الذى انتحيناه واستوفى الشرط الذى شرطناه مما أرجو أن يكون فيه فى كل نوع من العلوم للطالب مقنع وفى كل باب منهج إلى بغيته ومنزع وقد سفرت فيه عن نكت وفوائد تستغرب وتستبدع وأوردت من النوادر مالم يرد لها قبل فى أكثر التصانيف مشرع ووددت لو وجدت من بسط قبل الكلام فيه أو مقتدى يفيدنيه عن كتابه أو فيه لاكتفى بما أرْوِيه عما أُرَوِّيه وإلى الله عز وجل جزيل الضراعة فى المنة فى قبول ما منه لوجهه والعفو عما تخلله من تزيُّن وتصنع لغيره وأن يهب لنا بجميل كرمه وعفوه ما أودعناه من الكلام على بعض الكتب والمصنفين ومن ذكر كتب الأوائل وأصحاب الأديان وما يتعلق بالمجون والخلاعة والخذلان ويحمى أعراضنا من ناره الموقدة بحرمة أمين وَحْيِه ويجعلنا ممن لا يُزَادُ إذ زيد عن حوضه ويجعله لنا ولمن تهمّم باستكتابه سببًا يصلنًا بأسبابه وذخيرة نجدها يوم تجد كل نفس ما عملت من خير[١٠٥] محضرًا الحزر بها رضاه وجزيل ثوابه ويحشر نا فى أصحاب اليمين / من أهل شفاعته ونحمده سبحانه 613
تعالى على ما هدانى إليه من جمعه وألهم وفتح البصيرة لدرك حقائق ما أودعناه وفهّم ونستعيذه جل اسمه من دعاء لا يسمع وعلم لا ينفع وعمل لا يرفع فهو الجواد الذى لا يخيب من أمله ولا ينتصر من خذله ولا يردّ دعوى القاصدين ولا يصلح عمل المفسدين وهو حسبنا ونعم الوكيل وصلواته على نبيه محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين »[١٠٦] .

وبالطبع فقد أولى العلماء الأتراك والعرب هذا الكتاب اهتمامًا لا يقل بأية حال عن اهتمام العلماء الأوروبيين به وأصبح مرجعًا من المراجع الأساسية بالنسبة لهم كذلك ، وقد استدرك عليه البعض وزاد عليه واختصره البعض الآخر أكثر من مرة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ناهيك عن الحالات التى لا يحصيها العد فيما يتعلق بالإفادة منه فى مختلف البحوث والدراسات . ويمكن تكوين فكرة عامة عن ذلك من طبعة فليغل التى ضاعف من قيمتها بالنسبة للطبعات الشرقية أن الناشر استغل بانتظام المسودة المنقّحة التى عملها بعد أكثر من قرن من ذلك ابراهيم

---

(١٠٥) القرآن ، ٢٨٣

(١٠٦) حاجى خليفة ، الجزء السادس ، ص ٥١٩ – ٥٢١ ؛ قارن :

Hammer, Encyl, Ubersicht, p. 392

افندى عربه جى باشى (المتوفى عام ١١٩٠ هـ = ١٧٧٦)[١٠٧] ؛ لهذا ينبغى ألا يغيب عن ذهننا أننا إنما نستعمل مصنف حاجى خليفة فى رواية عربه جى باشى وأنه من الضرورى فى حالات معينة أن نميز بين الأصل والزيادة . والخاتمة التى وضعها عربه جى باشى تقدم لنا فكرة عن مجهوده كما تبين لنا فى ذات الوقت أن حاجى خليفة لم يكن قد أجرى قلمه بتصحيح التفاصيل بشكل نهائى ، وهو أمر طبيعى فيما يتعلق بالمصنفات الببليوغرافية من هذا الطراز . هذه الخاتمة كما نشرها فليغل تمس جوهر الموضوع مباشرة على النحو الآتى :

« قد اتفق الفراغ عن تصحيح هذا الكتاب بعون عناية الملك الوهاب المشتهر بأسماء الكتب لدى أعيان الأفاضل والكتاب وقد أمرنى بتصحيحه من هو ولى للعلماء الأعلام وصدر للفضلاء والنبلاء الفهام والحال أن النسخ من هذا الكتاب قد تطرق فيها التحريف والتصحيف بكثرة الاستكتاب فامتثلت أمره بين الإقدام والإحجام لعلمى بما انطوى عليه من الإعجام مع ما فىّ من العجز والقصور والعى والفتور واشتغال الأفكار ومصابرة الأقدار فاعتمدت على عوائد مولاى
الجليل فى أقداره الجميل / فشمرت ساعد الاجتهاد وأخذت فى تحرير ما به قد أشاد بعد أن حصلت 614
مسودة المؤلف لتكوّن الغلط من النساخ إذ الغالب عليهم أن يكونوا للكتب مسّاخ فتتبعت كل ما فيه من كتب ورسائل وحواش وشروح ومراسل بمراجعة كتب الطبقات والتواريخ التى تنوف عن أربعمائة مجلد حتى جعلت كل كتاب بربه مؤيد وجررت وفيات المصنفين الأمجاد بعد أن كانت متفاوتة الأعداد وربما كان بعضهم خاليًا عن ذكر زمن الوفاة فذكرته ليكون مكملا غير مفتقر لما سواه وأدرجت على ترتيب ما صنّف بعده مما يُعدّ وما فاقه من الكتب والحواشى مما يوجد وكل ما ذكر فيه من بعد تاريخ وفاته فهو مضموم وما فات مصنفه مما ألّف قبله وهو مفهوم حتى أشرق تمامه فى وقت الإشراق من يوم الأحد الرابع عشر من شهر ربيع الآخر لسنة سبعين ومائة بعد الألف السابع [= ٢٧ ديسمبر ١٧٥٦] فنسأل الله سبحانه أن يجيزنا عليه من كرمه العميم وأن يجزل صلتنا برحمته إنه البرّ الرؤوف الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين »[١٠٨]

وبقدر ما يمكن الحكم لا من ألفاظ المؤلف نفسه فحسب بل ومن آراء العلماء الذين تعمقوا فى

---

(١٠٧) حاجى خليفة ، الجزء الثانى p, VI, III, p. III, note 4
Nallino, Al - Falak, p. 78 (= Racc., p. 148 - 149)

(١٠٨) حاجى خليفة ، الجزء السادس ، ص ٥٢٢ — ٥٢٣

دراسة هذه المسألة كفليغل ونالينو[١٠٩] فإن كتاب عربه جى باشى أهل للثقة ويتصف بالدقة ، وذلك وفقًا لمفهوم العصر الذى عاش فيه . وقد سار العلماء الأتراك الذين اهتموا بتاريخ تأليف الكتب على هذا النهج فذيلوا الكتاب وزادوا عليه زيادات قيمة ، ففى أواخر القرن السابع عشر* أضاف إليه أحمد طاهر حنيف زاده (توفى فى عام ١٢١٧ هـ = ١٨٠٢) خمسمائة عنوان جديد فى مصنفه « آثار نو » (الآثار الجديدة) فبلغ بالرقم سبعة وخمسة عشر ألف عنوان (١٥٠٠٧)[١١٠] تتعلق فى معظم الحالات بأزمنة متأخرة وتمس أساسًا المصنفات المدونة باللغتين الفارسية والتركية ، وينبغى عند الرجوع إليه أن يميز القارىء بين معطيات حنيف زاده وبين المتن الأصلى لحاجى خليفة . وقد ظلت التذييلات من هذا الضرب تتعاقب إلى أيامنا هذه بالتقريب ، ففى منتصف القرن التاسع عشر قام بذلك عارف حكمت (توفى فى عام ١٢٧٥ هـ = ١٨٥٨) ، وفى بداية القرن العشرين قام به بغدادى اسماعيل باشا (توفى فى عام ١٣٣٨ هـ = ١٩٢٠) الذى وصل بالرقم إلى تسعة عشر ألفًا . غير أنه[١١١] من العسير علينا الحكم على هذه التذييلات وذلك لسبب بسيط هو أنها لم تطبع حتى أيامنا هذه** .

وقبل فترة طويلة من انتهائه من الجزء الأول من مصنفه الببليوغرافى أخذ ميل حاجى خليفة نحو الجغرافيا يتّضح بصورة جليّة فبدأ فى وقت واحد يعالج التأليف فى عدد من المصنفات فى ذلك المجال . وهو يعترف أن من الأسباب التى دفعته إلى ذلك كانت حملة كريت (« اقريطش ») لعام ١٠٥٥ هـ = ١٦٤٥ التى حفزته إلى التهام جميع ما وصل إلى متناول يده فى الجغرافيا ، أعنى باللغات الشرقية المعروفة له[١١٢] . ولما اتسعت معارفه فى هذا المجال بدأ فى حوالى عام ١٠٥٨ هـ = ١٦٤٨ فى وضع مصنفه الذى اكتسب بالتالى شهرة ليست بالضئيلة وهو « جهاننما »[١١٣] (وصف العالم)[١١٤] ؛ وأغلب الظن أن النموذج الأدبى الذى حذا حذوه فى هذا الصدد كان

---

(١٠٩) - Nallino, Al - Falak, p. 78 (= Racc., p. 148 - 149)

* من الجلى أن المؤلف إنما يريد القرن الثامن عشر . (المترجم)

(١١٠) - Flügel, Lexicon Bibligraphicum, VI, p. 525 - 646 - cf: Babinger, GOW, p. 198

(١١١) - Babinger, GOW, p. 198, 402, No 373

** طبع مصنف بغدادى إسماعيل باشا فى جزئين باستنبول (١٩٤٥ – ١٩٤٧) . (المترجم)

(١١٢) - Wickerhauser, p. 170

(١١٣) - Babinger, GOW, p. 197 - 198, No 3

(١١٤) - Taeschner, GLO, p. 57

كتاب محمد عاشق « مناظر العوالم » المعروف ، فهو قد اعتمد كثيرًا على متنه على الرغم من أن كتابه يختلف اختلافًا جوهريًا من حيث المنهج عن كتاب محمد عاشق[١١٥] . وقد دون حاجى خليفة مصنفه منذ البداية باللغة التركية ، أما الزعم القائل بأنه قد دونه فى الأصل باللغة العربية فيرجع إلى رينو[١١٦] ؛ وعلى الرغم من أن فستنفلد[١١٧] قد أثبت منذ عهد طويل خطل هذا الزعم إلا أنه ما فتىء يتجدد إلى أيامنا هذه وبتفاصيل مغربة فى الخيال كقول بلوشيه[١١٨] مثلا إن « جهاننما » قد كتب فى الأصل باللغة العربية ثم نقله إلى التركية هنغارى من الذين دخلوا حظيرة الإسلام .

وقد بقيت المسودة الأولى للمصنف غير مكتملة رغمًا من أن المؤلف رفعها إلى السلطان محمد الرابع[١١٩] ؛ وحال دون إتمامها اشتغال حاجى خليفة بوضع مؤلفات أخرى ذات طابع جغرافى أيضًا ولكنها تنتمى إلى اتجاه آخر يرتبط بتعرفه على الأدب الجغرافى الأوروبى فى تلك الآونة . ولقد أحس حاجى خليفة من نفسه حاجة ملحة إلى التعرف على هذا الأدب لأسباب معينة أولها رغبته فى أن يضم إلى مصنفه الجغرافى بعض الخارطات وكانت وسيلته الوحيدة إلى ذلك هو نسخها من المصنفات الأوروبية[١٢٠] ؛ وثانيها أنه كان يريد الحصول على مادة أكثر وفرة عن العالم الغربى ؛ وهو قد ذكر هذا بوضوح فى ترجمته لسيرة حياته (autobiography) وفى مقدمته لترجمة كتاب أوروبى لم يلبث أن ضمنه بالتالى المسودة الثانية « لجهاننما »[١٢١] . وبالطبع فقد كان من العسير عليه أن يقتحم هذا الميدان اعتمادًا على مجهوده الفردى ، غير أنه وفق فى حوالى عام ١٠٦٤ هـ = ١٦٥٤ كما يذكر فى ترجمته لسيرة حياته[١٢٢] فى الحصول على معاون نشط فى
616 شخص راهب فرنسى متفقّه اعتنق الإسلام وتسمى الشيخ محمد الإخلاصى ، فدرس على / يده المؤلفات الأوروبية الكبرى فى مجال الجغرافيا والكارتوغرافيا كالأطالس والمؤلفات المختلفة لعلماء

---

(١١٥) شرحه

(١١٦) - Reinaud, Introduction, p. GLXXII

(١١٧) - Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 277, note

(١١٨) - Blochet, l'Etude, p. 26

(١١٩) - Babinger, GOW, p. 197 - 198, No 3

(١٢٠) - Wickerhauser, p. 173

(١٢١) - Taeschner, GLO, p. 58, note 4

(١٢٢) - Wickerhauser, p. 173

ذلك العصر مثل أورتلى Ortelius (انتورب ١٥٧٠) ولورنزو دانانيا J. L. d'Anania (البندقية ١٥٨٢) وكلوفريوس Cluverius (امسنردام ١٦٣٥)[١٢٣] وانعكس معظم هذا فى المسودة الثانية ، أو « الأوروبية » إن صح القول بذلك ، لكتابه « جهاننما » . وهو لم يكتف بالرجوع إليها كمصادر أو بالنقل عنها فحسب بل نراه يخرج فى عام ١٠٦٤ هـ - ١٠٦٥ هـ = ١٦٥٤ - ١٦٥٥ بمساعدة محمد الإخلاصى المذكور ترجمة كاملة « للأطلس الأصغر » Atlas Minor لجيرارد مركاتور Gerard Mercator تحت عنوان « لوامع النور فى ظلمات أطلس مينور » ؛ وقد أمكن للباحثين أن يثبتوا على وجه التحديد أنه اعتمد فى ذلك على المسودة المصلحة للأطلس التى نشرها هوندس J. Hondus فى أرنهيم Arnheim عام ١٦٢١[١٢٤] . ويوجد باستنبول عدد هائل من مخطوطات هذا الأطلس الفريد فى نوعه والذى خرج نتيجة لمجهود مشترك لعالمين ، بل إن النسخة الأصلية التى ترتفع إلى حاجى خليفة[١٢٥] لا تزال موجودة أيضًا باستنبول ؛ وفيما عدا هذا فإننا بكل أسف نفتقر إلى أى لون من المعلومات عن هذا المجهود العلمى لحاجى خليفة .

وعندما بلغ حاجى خليفة بالأطلس الثلثين ، أى قبل أن يفرغ منه نهائياً ، بدأ فى تحضير المسودة الثانية لكتابه « جهاننما » ؛ وأغلب الظن أنه لم يتمم الأطلس[١٢٦] شأنه فى هذا شأن المسودة الأولى « لجهاننما » . ويمكن بوجه خاص الحكم على المسودة الثانية « لجهاننما » من فحص مخطوطة بفينا تحوى إلى جانب قسم كامل بتمامه تخطيطات غير كاملة للأقسام التالية بقلم حاجى خليفة نفسه[١٢٧] ، كما تحوى أيضًا تصحيحات وملاحظات أجريت على نفس هذه المسودة الثانية ولكنها بقلم شخص آخر لعله فيما يغلب على الظن مكمل حاجى خليفة المدعو أبو بكر ابن بهرام[١٢٨] . ويكفى لتكوين فكرة عن الطابع العام لهذه المسودة إلقاء نظرة على القسم المفرد للروملى والبوسنه والذى قام بدراسته هامر Hammer منذ عام ١٨١٢ . وقد ساد الاعتقاد وقتًا

(١٢٣) - Taeschner, GLO, p. 59, note 4

(١٢٤) - Taeschner, GLO, p. 59, note 2 - Atlas minor Gerardi Mercatoris

(١٢٥) - Babinger, GOW, p. 199, No 6

(١٢٦) - Taeschner, GLO, p. 59

(١٢٧) - Taeschner, Die Vorlage, p. 309 - 310

(١٢٨) - Babinger, GOW, p. 198 من أعلى

طويلا بأن المخطوطة التى اعتمد عليها هامر قد فقدت بالتالى(١٢٩) غير أن الفحص الدقيق الذى أجراه تيشنر Taeschner أثبت أنها هى مخطوطة فينا نفسها التى مر ذكرها(١٣٠) .

ولم يكن مصير المسودة الثانية « لجهاننما » بأفضل من مصير السابقات عليها فهى أيضًا بدورها لم تكمل ؛ وبقدر ما يمكن الحكم عليها ، وذلك اعتمادًا على القسم المفرد لآسيا والذى نشره فى عام ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢ مؤسس فن الطباعة بتركيا إبراهيم متفرّقة ، فإنه يحيط بهذه المسودة عدد من المسائل الشائكة / المرتبطة بتاريخها الأدبى ؛ وكما قال تيشنر فإن مصيرها يحيط به ظلام
617 كثيف وذلك منذ اللحظة التى بدأ فيها المؤلف تدوين ألفاظه إلى اللحظة التى تم فيها طبع ذلك القسم من المسودة(١٣١) . وفوق هذا فإن الطبعة تحتوى على زيادات كبيرة ذكر الناشر أنها ليست من عمل حاجى خليفة ، زد على ذلك أنه يهمل الإشارة إلى أقسام معينة لا يشك فى أنها ليست لحاجى خليفة . ولعل التفسير الوحيد لهذا هو أنه قد وجدت بين يدى الطابع مسودة مصلحة غير معروفة لنا وأنه قد قنع بالإشارة إلى الزيادات التى أضافها هو نفسه(١٣٢) على حين عجز عن التمييز بين المواد المختلفة التى وقعت فى يده أو لم يجد حاجة إلى تبيان ذلك .

وعلى الرغم من كل هذه التفاصيل المعقدة فإن الفكرة العامة للكتاب وتركيبه واضحة كل الوضوح ، وينحصر الاختلاف الأساسى بين المسودتين الأولى والثانية فى أن هذه الأخيرة قد استقت مادتها لا من المصادر الشرقية وحدها كما كان عليه الحال من قبل بل ومن المصادر الأوروبية أيضًا بحيث يبدو تأثير هذه الأخيرة واضحًا للعيان(١٣٣) ؛ ثم إن تبويب المادة نفسه يختلف اختلافًا جوهريًا مع أسلوب المدرسة القديمة فى الأدب الجغرافى العربى بحيث لا تظهر أقاليم بطلميوس السبعة وأقاليم أبى الفدا « العرفية » الثمانية والعشرون إلا عرضًا إذ يبرز هاهنا تقسيم جديد للمادة بتوزيعها وفقـا للقارات أطلق على الخامسة منها اسم القارة « الماجلانية » ، أما فى داخل القارات نفسها فإن التقسيم يسير وفقـا للوحدات السياسية وهذه بدورها تفسح المجال للأقسام الإدارية

---

(١٢٩) - Mordtman, Hadjdi Khalifa, p. 217, No 10 - Taeschner, Die Vorlage, p. 308

(١٣٠) من أعلى - Taeschner, Die Vorlage, p. 309 = Babinger, GOW, p. 198

(١٣١) - Taeschner, GLO, p. 60, note 1 - Babinger, Stambuluer Buchwesen, p. 16

(١٣٢) - Taeschner, GLO, p. 61 - 62

(١٣٣) راجع المصادر الأوروبية الأساسية لدى فستنفلد :

Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 277, note

(وهى « الإيالات » و « الألوية » بالنسبة للدولة العثمانية) . ويوجد بالمقدمة عرض للخطوط العريضة للجغرافيا الرياضية والفلك وفقًا للمذهب الأوروبى ، وهو يعتمد فى هذا أساسًا على كلوفريوس ويحاول من آن لآخر إجراء مقارنة بين المذهبين الأوروبى والشرقى[١٣٤] ؛ وعلى أية حال فإن حاجى خليفة لم يكن من هدفه لا فى هذا المصنف ولا فى مصنفاته الأخرى أن يقوم ببحث علمى أصيل فى ميدان الفلك والرياضيات . وقد قيل فى حقه أكثر من مرة إنه ليس بعالم بحاثة بل هو ناقل قبل كل شىء ؛ وتتمثل مكانته بالنسبة للأدب الجغرافى العربى التركى فى أنه أول من حاول الإفادة من نتائج البحوث العلمية الأوروبية الحديثة إلى جانب استعماله المصادر الشرقية القديمة وأن ذلك لم يحدث لديه عرضًا بل حدث بصورة منظمة ، زد على هذا أن اختياره لمادته يتسم بالكثير من التوفيق ويكشف عن فطرة سليمة . ويرى بارتولد فى نشاطه فى هذا المجال أول محاولة للمزج بين معطيات العلم الأوروبى ومعطيات العلم الإسلامى ويؤكد أنه لم يحدث أن قام أحد بمثل هذه المحاولة فى الأدب الجغرافى الأوروبى لذلك العهد[١٣٥] . وكان هدفه الثابت هو تأليف « مدخل » (Handbuch) جديد من أجل القارىء العادى فى القرن السابع عشر يبين فيه النتائج العملية التى سادت فى ذلك العصر ، أى أنه لم يكن من غرضه البتة أن يقوم ببحوث علمية مستقلة[١٣٦] .

618 وكما نبصر من مقدمة « جهاننما » فإن حاجى خليفة قد اعتمد فى وضع كتابه على عدد من المصادر باللغة العربية[١٣٧] ، فهو قد رجع إلى المؤلفين الكلاسيكيين من طراز المقدسى كما أفاد إلى مدى بعيد من جميع ضروب كتب « المسالك » كمصنفات البلخى وابن حوقل والمسعودى والبكرى وابن سعيد والمهلبى والعذرى . وهو على معرفة جيدة بمعجم ياقوت وبمصنفاته الأخرى فى مسوداتها وتنقيحاتها المختلفة كما عرف جيدًا الإدريسى وأبا الفدا ومعجم الحميرى ، على الرغم من أن المعرفة بهذا الأخير كانت أمرًا نادر الحدوث ؛ وهو لا يكتفى بالنقل من أصحاب المصنفات ذات الطابع العام كالهروى والقزوينى وابن الوردى بل أخذ أيضًا من « المتخصصين » كخليل الظاهرى ، ولمعرفته بالأدب الملاحى نجده يشير إلى عدد من مصنفات سليمان المهرى . وهو

---

(١٣٤) - Taeschner, GLO, p. 62

(١٣٥) - Bartold, Kult. mus. p. 104

(١٣٦) - Taeschner, GLO, p. 62

(١٣٧) حاجى خليفة ، جهاننما ، المتن ، ص ٨ – ١٤ – - Hammer, Encycl. übersicht, p. 377 - 384

يسلك نهج المذهب القديم باستعماله لترجمات بطلميوس ولكنه لا يهمل المؤلفات الحديثة سواء كانت باللغة الفارسية مثل « هفت إقليم » أو بالتركية مثل مصنف سباهى زاده و « بحرية » و « تحفت الزمان » و « مناظر العوالم » الذى يحتل بالطبع المكانة الأولى من بين مصادره الرئيسة .

وأول ما يجب على الباحث الذى يتفرغ لفحص متن « جهاننما » هو أن يميز بين المادة التى ترتفع إلى حاجى خليفة نفسه، أى إلى فترة سلطنة مراد الرابع وإبراهيم ومحمد الثانى (منتصف القرن السادس عشر) ، وبين المادة التى استقاها من السابقين له . وتحيط بمثل هذا العمل صعوبات جمة لأن حاجى خليفة وقف من مصادره موقفًا مغايرًا لموقف محمد عاشق فلم يشر إليها فى صلب الكتاب بل اكتفى بالإشارة إليها فى المقدمة وحدها ؛ وفى حالات نادرة قد يحدث الضد كما هو الحال مع « أنيس المسافرين » الذى يعالج الكلام على أدرنة فإن حاجى خليفة لم يشر إليه فى المقدمة(١٣٨) . ولهذا السبب فإن على الباحث أن يتجنب خطأ شائعًا يرتبط بمتن حاجى خليفة كما يرتبط بالمتون الجغرافية السابقة له ، وهو الاعتقاد بأن جميع ما لم يرد على هيئة اقتباسات من مؤلفين آخرين إنما هو لحاجى خليفة وحده(١٣٩) .

وهو قد استقى مقدارًا كبيرًا من مادته فى واقع الأمر من « مناظر العوالم » ، غير أن عرضه فى جميع نقاطه أوسع من ذلك بكثير . وفيما يتعلق بالدولة العثمانية فإن مصنفه يمتاز بالكثير من التفصيل والسعة حتى أنه يمكن أن يعد فى الحقيقة الوصف الجغرافى الأول والوحيد للإمبراطورية الذى ندين به لقلم مؤلف عثمانى . وحاجى خليفة لم يتجول بطريقة منتظمة كمحمد عاشق بهدف جمع المادة الجغرافية من أجل مصنفه ولكننا نعلم تمام العلم أنه سافر كثيرًا وشارك فى عدد من الحملات العسكرية وأن منصبه الحكومى قد ساعده كثيرًا فى الإفادة من الوثائق الرسمية . ولا تزال الحاجة ماسة للغاية لعمل دراسة لمتن « جهاننما » وفقًا للمنهج النقدى فى دراسة النصوص ، ذلك أن هذه المهمة لا تزال فى بداية شوطها . ويرجع فضل كبير فى هذا المضمار إلى مجهودات
619 تيشنر الذى ألقى الضوء فى عدد من مقالاته على مسائل ذات أهمية بالغة تتعلق / بالتاريخ الأدبى لهذا المصنف ، غير أن هناك الكثير مما لا يزال ينتظر البحث فى هذا الصدد . وقد أصبح « جهاننما » المصنف الجامع الأول بالنسبة للأجيال التالية ، وكما هو الشأن مع عدد من المؤلفات التى لقيت الرواج والانتشار بين القراء فإن الحد الفاصل بين الرواية الأولى للمؤلف والزيادات التى

---

(١٣٨) - Taeschner, GLO, p. 63, note 1

(١٣٩) شرحه ص ٦٣

أدخلت عليها قد انمحى تمامًا وساق هذ بدوره إلى تعقيد مهمة الباحث بشكل ملحوظ[١٤٠] .

ولا تقل عن هذا تعقيدًا المسألة المتعلقة بالخارطات والرسوم التى يتراوح عددها وفقًا للنسخ بين التسعة والثلاثين والأربعين والواحد والأربعين . وتوجد هذه الخارطات مع اختلافات ضئيلة فى نسخ متفرقة من الطبعة التى أخرجها إبراهيم متفرقة فى عام ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢ للقسم الخاص بآسيا من « جهاننما » ؛ وهى لا ترتبط من قريب أو بعيد بالمذهب العربى لذا فقد كان من الطبيعى ألا تجد لها مكانًا فى المجموعة الضخمة التى نشرها كونراد ميلر K. Miller ، زد على هذا أن المخطوطات نفسها لم تفحص فحصًا دقيقًا من وجهة نظر الكارتوغرافيا . ويقدم لنا بلوشيه Blochet معطيات طريفة بصدد المخطوطة الباريسية التى لم يتعرف عليها بابنجر Babinger[١٤١] والتى ترتفع إلى عام ١١٤٢ هـ = ١٧٢٩[١٤٢] ؛ وقد قام بنسخها شخص يدعى محمود بن عبد الله ولكن الرسم على ما يبدو من عمل شخص آخر . ومعظم خارطاتها وأشكالها الكوزموغرافية ليست سوى تقليد صرف لنظيراتها الأوروبية ، وهذا يمس بصورة خاصة « شكل العالم » و « وردة الرياح » اللذين تم تخطيطهما بطريقة محكمة . أما الجهات فتشبه الحال التى عليها الأطالس الأوروبية أى بوضع الشمال فى أعلى الخارطة ، وكذلك تم تبيان المدن وفقًا للمذهب الأوروبى السائد آنذاك برسم مجموعة من المنازل حيث يمكن تمييز المدن الإسلامية بظهور مآذن المساجد . ومن بين الخارطات ذات الطابع العام خارطة مزدوجة للعالم وخارطات لأوروبا وآسيا وأميريكا والمناطق القطبية الشمالية والجنوبية ؛ وقد بين على جميع الخارطات شبكة خطوط الطول والعرض مما يشير مرة أخرى إلى تأثير النماذج الأوروبية . وعلاقة هذه المخطوطة الباريسية بالمتن الأصلى لحاجى خليفة ومصوراته لا تزال تحتاج إلى دراسة دقيقة ؛ ويدعونا ضيق الحد الزمنى الذى يفصل بين تاريخ المخطوطة وهو عام ١١٤٢ هـ = ١٧٢٩ وتاريخ الطبعة وهو عام ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢ لأن نفترض أن هذه الأخيرة قد اعتمدت على الأولى أو أنها على الأقل إحدى المسودات الأخيرة لهذا المصنف ولا يمكن بأية حال أن ترتفع إلى عصر حاجى خليفة .

وكما ذكرنا من قبل فإن حاجى خليفة لم يكمل أيضًا المسودة الثانية « لجهاننما » وقد قام بهذا العمل أبو بكر بن بهرام (توفى عام ١١٠٢ هـ = ١٦٩١) وذلك فى غضون القرن الذى عاش

---

(١٤٠) قارن : شرحه ص ٦٣ – ٦٤

(١٤١) - Blochet, L'Etude, p. 27 - 28

(١٤٢) - Babinger, GOW, p. 200

فيه حاجي خليفة نفسه . وجميع الدلائل تشير إلى أنه هو الذى أعطاها صورتها النهائية ، وعلى أية حال فإنها هى التى اعتمدت عليها طبعة عام ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢ التى تنسب الزيادات العديدة الواردة فى المتن إلى هذا الشخص بعينه(١٤٣) . ولأبى بكر بن بهرام مصنف ضخم فى ستة أجزاء بعنوان « جغرافياى كبير » أتمه قبل ذلك ، أى فى عام ١٠٨٦ هـ = ١٦٧٥ وسنعالج الكلام عليه فى مكانه من هذا الفصل . ولم يخل القرن الثامن عشر من مكملين ومقلدين
« لجهاننما » فالمصادر تربط به / مصنفًا لمحمد سعيد شهرى زاده (توفى فى عام ١١٧٨ هـ = 620
١٧٦٤) بعنوان « روضة الأنفس فى تاريخ » وتصفه بأنه تتمة « لجهاننما » ؛ ويرجع تاريخ تأليفه إلى عام ١١٥٣ هـ = ١٧٤٠(١٤٤) . ولعل تحت تأثيره أيضًا الذى ينعكس فى العنوان نفسه ظهر مصنف لمحمد بن حسن شيخى بعنوان « جهاننماى أوروبا » الذى تم تأليفه فى عام ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢(١٤٥) ؛ ومما يعزّز هذا الافتراض أن ذلك المؤلف كان بوجه عام ذا معرفة جيدة بمؤلفات حاجّى خليفة ووضع تذييلا لمصنفه التاريخى « تقويم البلدان » تناول فيه تاريخ الفترة بين عامى ١٠٥٩ هـ = ١٦٤٩ و ١١٤٤ هـ = ١٧٣١(١٤٦) .

وجميع هذه المحاولات تتضاءل أمام الطبعة الجزئية التى نشرها إبراهيم متفرقة عام ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢ والتى تعد بحق مجهودًا ممتازًا بالنسبة لذلك العصر حتى من وجهة النظر التقنية (technical) وتذكرنا فى هذا بالمطبوعات العربية التى أخرجتها مطبعة المديتشى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وهذه الطبعة تحتوى على القسم المخصص لآسيا مضافًا إليه التكملة التى عملها أبو بكر بن بهرام والزيادات التى وضعها الناشر نفسه وهى تمثل أكثر من ثلث الكتاب الذى ظهر فى ثمان وتسعين وستمائة صفحة من القطع الكبير . والطبعة مزودة بتسع وثلاثين خارطة فاخرة بعضها ملون ، وقد أثار ظهور هذه الطبعة كبقية نشاط هذه المطبعة اهتمام أوروبا وإعجابها نتيجة لما أغدقه عليها الرحالة والدبلوماسيون والعلماء من ثناء عاطر وتقدير عال .
ويبدو من ألفاظ الراهب تودرينى Toderini الذى عاش باستنبول فى أواخر القرن الثامن عشر وعرف بتفقهه فى الأدب التركى أن الأتراك كانوا يرون فيها آنذاك خير ما أخرجته مطبعة

---

(١٤٣) شرحه ، ص ١٩٩ – ٢٠٠ ، ٢٢٥ – ٢٢٥ ، متن بهرام ابتداء من ص ٤٢٢

(١٤٤) Babinger, GOW, p. 227-228 -

(١٤٥) شرحه ، ص ٢٦٨

(١٤٦) شرحه

إبراهيم متفرقة(١٤٧) . وهى تعد فى الوقت الحاضر شيئًا نادرًا للغاية إلا أنه يوجد منها لحسن الحظ نسخة بمعهدنا الشرقى .

هذه الطبعة التى تبرز جانبًا فقط من كتاب حاجى خليفة كانت فى حقيقة الأمر المصدر الرئيسى للعلماء الأوروبيين فى جميع بحوثهم المتعلقة «بجهاننما» إلى أيامنا هذه، ولكن بعد كل الذى ذكرناه فإنها لم تعد وافية بالغرض إذ يجب لمواصلة البحث فى هذا المصنف الاستعانة ببقية المادة الموجودة فى مخطوطات الكتاب العديدة التى تحفل بها دور المخطوطات باستنبول والتى أبعد من أن تكون قد فحصت فى مجموعها(١٤٨) . واعتمادًا على الطبعة ظهر فى القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر عدد من الترجمات الجزئية ؛ أما مشروع إخراج ترجمة كاملة لها فقد وقف عند حد محاولة فريدة لعالم التركيات السويدى الكبير نوربرج M. Norberg (١٧٤٧-١٨٢٦) الذى بدأ فى تنفيذ ذلك المشروع منذ عام ١٧٨٤ ثم نشر جزئين من ترجمته اللاتينية فى عام ١٨١٨ فيما يقرب من ألف ومائتى صفحة . وتقتصر الترجمة على المتن الرئيسى للكتاب أى أنها
أسقطت المقدمة ، ويبدأ الجزء الأول باليابان / أما الثانى فيبدأ بالعراق(١٤٩) . وبالرغم مما تمتع به 621
كتاب نوربرج من مكانة بالنسبة للعصر الذى ألفه فيه فمن الطبيعى أنه لم يعد ذا قيمة كبيرة بالنسبة للعصر الحاضر . وعلى أية حال فإن دراسة « جهاننما » قد توقفت منذ منتصف القرن التاسع عشر لأن الباحثين انصرفوا إلى دراسة العهود السابقة فى تاريخ الأدب الجغرافى ؛ ولكن لم يلبث أن تجدد الاهتمام به فى العشرينيات من القرن العشرين بفضل أبحاث تيشنر التى تمخضت عن اهتمامه بدراسة محمد عاشق فقد أثار هذا المستشرق طائفة من المسائل التى تتعلق فى جوهرها بمتن الكتاب وسار قدمًا فى طريق حلها ، ولا تزال بحوث تيشنر العديدة فى هذا الصدد تمثل آخر ما وصل إليه العلم فى دراسة « جهاننما » .

أما المصنف الرابع لحاجى خليفة الذى يجتذب اهتمامنا من وجهة النظر الجغرافية فإنه يرتبط بميدان أنجز الأتراك فيه أعمالا مجيدة ، أعنى ميدان الجغرافيا الملاحية . وقد حزّت فى نفس حاجى خليفة الهزائم التى منى بها الأسطول العثمانى فى زمنه فرأى لزامًا عليه أن يذكّر مواطنيه بماضيهم المجيد فوضع فى هذا مصنفًا كبيرًا أتمه فى نوفمبر عام ١٠٦٧ هـ = ١٦٥٦ بعنوان « تحفة الكبار فى

---

(١٤٧) - Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 16

(١٤٨) - Babinger, GOW, p. 201

(١٤٩) - Norberg, Gihan numa

أسفار البحار »[١٥٠] . والكتاب فى أساسه مصنف تاريخى ولكنه يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالجغرافيا ، وهو ينقسم إلى قسمين غير متجانسين يقع الأكبر منهما فى تسعة فصول ويبحث فى تاريخ الأسطول القديم وانتصاراته مركزًا اهتمامه على الحروب مع البندقية وجنوا وغيرهما من دول النصرانية . وإلى جانب هذا فهو لا يهمل تفصيل الكلام على ما قام به العثمانيون فى البحر الأسود والبحر الأحمر والخليج الفارسى والمحيط الهندى . أما العرض فيرد فى صورة تراجم لقادة الأسطول الكبار وفقًا للتتابع الزمنى ، وهكذا يمر أمام ناظرينا واحدًا تلو آخر قبودانات البحر العثمانيون ممن سطروا صفحات مجيدة فى تاريخ الكفاح البحرى واكتسبت شخصياتهم لونًا أسطوريًا بالنسبة للأجيال التالية ابتداء من خير الدين بربروسا وعروج إلى كمال باشا المعروف لنا من قبل ثم الملاحان العالمان بيرى ريس وسيدى على جلبى ومعاصروهما الذين يصغرونهما سنًا وخلفوهما فى قيادة الأسطول وهم بياله باشا وطرغود وعلى باشا وغيرهم . وبهذا تنكشف أمام أبصارنا لوحة حافلة متنوعة تتميز بالكثير من الحيوية ويمتزج فيها وصف الحملات البحرية بالآراء الجغرافية السائدة فى ذلك العصر .

أما القسم الثانى والأصغر من الكتاب فيقع فى سبعة فصول تتسم بالقصر ويتناول فيها المؤلف الكلام على ديوان البحرية (admiralty) والأسطول على أيامه ، وهنا يقدم لنا المؤلف قائمة بجميع قادة الأسطول مع تحليل لنظامه الإدارى ووصف مفصل لأنواع السفن المختلفة ولأساليب القتال البحرى . هذا ويبدأ الكتاب بمقدمة موجزة ذات طابع جغرافى عام تعالج الكلام على البحار وسواحل أوروبا مع وصف مفصل تفصيلا وافيًا لجمهورية البندقية والأراضى التابعة لها . ويجب ألا يغيب عنا أن البندقية كانت تحتل آنذاك المكانة الأولى بين الدول التى تقيم لها الدولة العثمانية وزنًا خاصًا .

622 ويتبين لنا بجلاء من سيرة حاجى خليفة أنه كان بصفة دائمة شخصًا « بريًّا » ، أى أنه لم يكن على معرفة جيدة بالبحر ؛ بيد أنه يبرهن فى كتابه هذا على معرفة عريضة بالجغرافيا الملاحية وبالأدب البحرى هذا فيما عدا معلوماته الواسعة فى كل ما يتصل بهذا الموضوع . وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن ذكرى ماضيهم المجيد كانت لا تزال حية فى مخيلة جميع الأتراك وأن التعرف على هذا الماضى كان مما يعتز به علماؤهم . وأغلب الظن أن عددًا من أهل جيله كانوا معاصرين لأحداث ذلك الماضى المجيد إذ أن جانبًا من قصصه قد دون عن طريق المشافهة .

---

(١٥٠) - Babinger, GOW, p. 202, No 14

وليس ثمة ما يدعو بالطبع لأن نذكر بصورة خاصة أن المصادر الكتابية لحاجي خليفة كانت حافلة للغاية بالنسبة لموضوعه هذا، فقد انتظمت في الواقع مجالات عديدة وكان من بينها على سبيل المثال « غزوات خير الدين باشا » وهي ذكريات أمير البحر التركي والقرصان المشهور التي أملاها على سنان جاوش في عهد السلطان سليمان القانوني[١٥١] . ومن الثابت أيضًا أن مادته المتعلقة ببقية أبطال الكتاب قد اعتمدت على مصادر مماثلة .

والعدد الكبير لمخطوطات « تحفة الكبار » يشير إلى أن هذا المصنف قد نال رواجًا كبيرًا وهو يوجد في مجموعات المخطوطات المختلفة بأوروبا واستنبول بل إن مخطوطة المؤلف التي كتبها بخط يده موجودة بهذه المدينة[١٥٢] ، غير أن الذي أكسب الكتاب شهرة خاصة هي الطبعة التي أخرجها إبراهيم متفرقة في ثلاثة أجزاء في عام ١١٤١ هـ = ١٧٢٩ ، أي قبل ثلاثة أعوام من ظهور طبعته « الجهاننما » ؛ وهي مشابهة لتلك من حيث الجودة والإتقان ولكنها تتسم بالروعة والنفاسة في حد ذاتها[١٥٣] . فهي تضم خمسًا وسبعين صفحة من القطع المزدوج (in folio) إلى جانب سبع صفحات على هيئة مقدمة وصفحتين لتصويب الأخطاء الواردة في صلب الكتاب ؛ وقد ألحقت بها خمس خارطات تصور نصف الكرة (hemisphere) والبحرين المتوسط والأسود والجزر التابعة للدولة العثمانية وبحر الأدرياتيك وجزره ثم قمباص (بيت الإبرة) مزدوج من النوع الذي تعرفنا عليه في الفصل المعقود للجغرافيا الملاحية . والذي قام بتصوير رسوم هذه الطبعة رسام أصله من فينا وعمل ذلك تحت إشراف راهب اسباني من أهل العلم ، على حد قول أوروبي عاصر ظهور طبعة الكتاب .

أما أوروبا فقد تعرفت على المصنف عن طريق مخطوطات متفرقة وقبل أن يخرج من المطبعة . ولاهتمام الأوروبيين بتركيا وبالنزاع من أجل سيادة البحار فقد ظهرت له ترجمات عديدة منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر وإن كانت لا تزال على شكل مخطوطات؛ وإحدى هذه الترجمات ندين بها لقلم المستشرق الفرنسي بتي دى لاكروا Pétis de la Criox (توفي في عام ١٧١٣)[١٥٤] . وبعد قرن من هذا ظهرت الترجمة الإنجليزية التي اعتمدت على النص المطبوع

---

(١٥١) - Babinger, GOW, p. 78

(١٥٢) شرحه ، ص ٢٠٢ رقم ١٤

(١٥٣) - Babinger, Stambuler Buhwesen,

(١٥٤) - Babinger, GOW, p. 202

وهى من عمل متشل J. Mitchell (١٨٣١) ولكنها لا تتجاوز الأربعة فصول ، أى ما يقرب من نصف القسم الأول للكتاب[١٥٥] . وترجم المستشرق كاله Kahle فصلين من القسم الثانى هما الخامس والسادس (ويشملان الصفحات ١٦٩ - ١٧٢ من الطبعة الأولى و ١٥١ - ١٥٨ من
623 الطبعة الثانية) فى تجهيز السفن ومعداتها وتكاليفها ، وقد زوّد كاله ترجمته هذه بالتعليقات / ونشرها فى مقدمة مؤلفه عن كتاب « بحرية » لبيرى ريس[١٥٦] . أما بين الأتراك أنفسهم فقد تمتع « تحفة الكبار » بنفوذ طويل الأمد دام إلى القرن العشرين تقريباً .

وفى القرن الثامن عشر وضع محمد سعيد شهرى زاده (توفى عام ١١٧٨ هـ = ١٧٦٤) مصنفين فى تاريخ مشاهير قادة الأسطول العثمانى[١٥٧] ؛ وقد ظل هذا التقليد حيًا فى الأدب التركى إلى القرن التاسع عشر[١٥٨] حينما أخرج على رضا سيفى مؤلفاته فى سير حياة كمال ريس وعروج (١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧ - ١٩٠٨) وطرغـود ريس (١٣٢٧ هـ = ١٩٠٩) وبربروسا (١٣٢٨ هـ = ١٩١٠)[١٥٩] . ويمكن أن نلاحظ فى القرن العشرين تجدّد الاهتمام بمصنف حاجى خليفة وذلك بفضل مجهود اثنين من ضباط البحرية العثمانية كرّسا نشاطهما بصورة خاصة لدراسة تاريخ الأسطول العثمانى ؛ أما أحدهما وهو صفوت بك (توفى عام ١٣٣٢ هـ = ١٩١٣)[١٦٠] فقد اهتم بإخراج طبعة ثانية للطبعة الأولى (incunabula) لكتاب حاجى خليفة فى عام ١٣٢٩ هـ = ١٩١١[١٦١] وزودها بعدد من الخارطات والرسوم نقلها عن الطبعة الأولى للكتاب وعن مصادر أخرى ، إلا أنه يلاحظ أحيانًا أنه لا علاقة لبعضها بمادة الكتاب . وأما الثانى وهو محمد شكرى (توفى عام ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠)[١٦٢] فإنه إلى جانب بعض المؤلفات فى تاريخ الأسطول العثمانى قد فكر فى إخراج سفر ضخم بعنوان « أسفار بحرية عثمانية » (« الحملات البحرية العثمانية ») ولكن لم ير النور منه سوى الجزء الأول الذى

---

(١٥٥) - Mitchell

(١٥٦) - Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XXXIV - XLIV

(١٥٧) - Babinger, GOW, p. 296, No 4 - 5

(١٥٨) - Cf: anonym: Babinger, GOW, p. 296, note 2

(١٥٩) - Babinger, GOW, 388, note 1

(١٦٠) شرحه ، ص ٣٩٧ - ٣٩٨ ، رقم ٣٦٦

(١٦١) شرحه ، ص ٢٠٢ ، رقم ١٤

(١٦٢) شرحه ، ص ٣٨٨ ، رقم ٣٥٦

ظهر فى عام ١٣٠٦ هـ = ١٨٨٧ فى أكثر من خمسمائة صفحة ؛ وهو أيضًا يشمل عددًا كبيرًا من الرسوم . ونصف هذا الكتاب بالتقريب مكرس للكلام على تاريخ الحقبة السابقة للعثمانيين وذلك منذ العصور القديمة ، وهو يعتمد فى هذا القسم على مصادر تتفاوت من حيث القيمة ؛ أما الفصل الرابع الطويل (الصفحات ٥٩ - ١٣١) فيعالج الكلام بصفة خاصة عن العرب وعن الأسطول العربى . وعلى الرغم من وجود بعض الخلط ومن انصراف المؤلف إلى الاهتمام بمسائل أخرى تتعلق بالحضارة العربية فإن هذا الفصل لا يخلو من بعض الأهمية بالنسبة لموضوع دراستنا . أما تاريخ الأسطول العثمانى فيبدأه منذ لحظات نشاطه الأولى عند حصار القسطنطينية ثم يعرض للمعارك البحرية من عهد بربروسا فيفصّل القول فى ذلك أكثر مما فعل حاجى خليفة ويسوق عرضه إلى العهد الذى انتهى عنده الأخير على وجه التقريب . ولا يمكن إنكار الصلة المباشرة بين الكتابين بحيث يمكن القول بأن « تحفة الكبار » يمثل مصدرًا من المصادر الأساسية للمؤلف فى الجزء الأول من كتابه ؛ ومن هذا يتبين لنا أن اهتمام الأتراك بالجغرافيا الملاحية ظل محتفظًا بحيويته إلى أيامنا هذه وأن تأثير حاجى خليفة لعب دورًا كبيرًا فى هذا المجال ؛ وكندرمان Kindermann الذى يعد من خيرة العارفين بتاريخ الشئون البحرية لدى المسلمين يلاحظ بالكثير من الصواب أنه وإن لم يوجد حتى الآن عرض عام لتاريخ الملاحة عند العثمانيين إلا أنه يوجد فى متناول أيدينا بحوث تحضيرية جيدة للقيام بمثل هذا العمل. ويمكن أن ننسج على منوال
كندرمان فنضيف إلى ما ذكرناه أو لم نذكره من المصنفات التركية / فى هذا الميدان تلك المواد 624
الحافلة (articles) التى ازدانت بها صفحات « دائرة المعارف الإسلامية » والتى ندين بها فى معظم الأحوال لقلمى بابنجر Babinger ودنى Deny(١٦٣) .

لقد أدى بنا تحليلنا للمصنفات الأربعة الأساسية لحاجى خليفة والتى تمس الجغرافيا إلى الإقرار بأن جامعه الضخم « جهانما » ، وسفره الخاص فى محيط الجغرافيا الملاحية « تحفة الكبار » ، ومرشده الببليوغرافى العظيم « كشف الظنون » قد ظل كل منها محتفظًا بنفوذ كبير وتأثير فعال على سير تطور الأدب الجغرافى العربى التركى ، كما وأن العلم الأوروبى لم يهمل تقديرها حق قدرها وبهذا نستطيع القول ونحن مطمئنون بأن حاجى خليفة يستحق عن جدارة أن يعترف به كأكبر جغرافى ظهر بالشرق الأدنى فى القرن السابع عشر .

---

(١٦٣) - Kindermann, Safina, p. 208,المراجع - Bowen Jr., Arab Dhows - Zayat, Al - Mashrik, p. 321 - 364 - Ritter, Flussfahrzeuge, p. 121 - 143

أما الشخصية الثانية التى برّزت فى محيط الجغرافيا فى نفس ذلك القرن فقد كان الرحالة الأكبر أوليا جلبى ، أو «ابن بطوطة التركى»[(١٦٤)] كما يروق للبعض أن يدعوه . وكما هو الشأن دائماً فإن هذه المقارنة لا تخلو من جانب من الصحة ولكنها تتطلب من ناحية أخرى بعض الحذر ، فأسفاره لم تبلغ المدى الذى بلغته أسفار ابن بطوطة كما أنها لم تمتد فى اتجاه الشرق إلى أبعد من العراق ولهذا فمن العسير الموافقة على لقب « سياح عالم »[(١٦٥)] الذى ما زال الأتراك يطلقونه عليه أحيانًا إلى أيامنا هذه . أما من حيث ثقافته الجغرافية فقد كان بلا شك أكثر قراءة واطلاعًا من ابن بطوطة ولجأ أكثر منه إلى استعمال المصادر الأدبية .

والمادة التى يقدمها أوليا جلبى عن سنى حياته الأولى من خلال وصفه الضخم لرحلته مادة متفرقة للغاية ويعوزها التماسك ؛ ولكنه يسوق فى مقابل ذلك معلومات طريفة عن أسلافه وهى على الرغم من أنها لا تخلو من عنصر الخرافة إلا أنها تعين على تفهّم الوسط الذى نشأ فيه « ابن بطوطة التركى » . فقد كان جده حاملا للواء السلطان محمد الثانى الفاتح واشترك فى فتح القسطنطينية ، وقد بلغ أفراد أسرته فى العادة أعمارًا طويلة فجده عاش ليبلغ سن المائة وسبع وأربعين أما والده درويش محمد فقد كان جواهرى « قويومجى باشى » البلاط السلطانى وكان فى معيّة السلطان سليمان القانونى فى أكثر من حملة عسكرية وخدم عشرة من السلاطين وتوفى عام ١٠٥٨ هـ = ١٦٤٨ عن مائة وسبعة عشر عامًا . ولا شك أن مركزه كان مشرّفًا بما فيه الكفاية لأن أم ولده أوليا جلبى كانت أختًا للصدر الأعظم ؛ أما رحالتنا فقد ولد عام ١٠٢٠ هـ = ١٦١١ ولكن على الرغم من أصله الرفيع فإنه لم يلتحق لا بالجيش الذى كان قريبًا منه طول حياته ولا بالبلاط ؛ ولا شك فى أنه قد ظهرت لديه منذ البداية ميول علمية ومن المعروف أنه كان يحب أحيانًا عرض معارفه على الرغم من أنها لم تكن عميقة الجذور . ومهما يكن من شىء فإننا نلتقى به
625 منذ عام ١٠٤٥ هـ = ١٦٣٦ « حافظًا » بمسجد أيا صوفيا / وهناك اجتذب اهتمام السلطان مراد الذى ضمه إلى حاشيته فى عمل يتعلق فى أغلب الظن بالبلاط (« مصاحب ») . غير أننا نراه بعد هذا يلتحق بالجيش النظامى برتبة « سباهى » ؛ ومن الملاحظ أنه لم يرتفع عاليًا فى سلك الرتب العسكرية ولعل ذلك يرجع من ناحية إلى أن اتجاهاته كرحالة بدأت تتبلور منذ تلك اللحظة ولم تلبث أن لعبت الدور الرئيس فى مجرى حياته بأجمعه .

---

(١٦٤) - Babinger, GOW, p. 220

(١٦٥) شرحه

ونستطيع القول بأن أسفاره بدأت منذ عام ١٠٤١ هـ = ١٦٣١ وذلك عندما أخذ يتجول بانتظام فى نواحى القسطنطينية والمواضع المحيطة بها ؛وقد كرس لهذا فيما بعد الجزء الأول من وصفه الضخم الذى يقع فى عشرة أجزاء والذى يفصّل فيه القول عن أسفاره التى انتظمت واحدًا وأربعين عامًا والتى دونها فى الغالب على شكل يوميات[١٦٦] . وقد صاغ وصفه للرحلة على هيئة قصص مسهبة يصف فيها ما عاناه من مصاعب وما مر به من تجارب ، وهى لا تخلو من تأثير عامل الخيال مما يذكرنا من بعيد بالبارون منشاوزن Baron Münchausen*، ولكنها تتسم من ناحية أخرى بدقة منقطعة النظير بحيث تمكننا من تتبع خط سير هذا التركى الذى لم يقر له قرار فأخذ يجوب الآفاق مرة فى لبوس إمام أو مؤذن فى الحملات العسكرية ومرة ككاتب للسر فى معية شخصيات من كبار رجالات الدولة وطورًا كمبعوث خاص لهم إلى العاصمة . وقد ساقته أسفاره إلى بلاد الفرس والقوقاز وبغداد وسوريا ومكة ومصر وجنوبى روسيا والأفلاق Wallachia والبوسنه والنمسا والمجر بل وإلى أعماق بلاد ألمانيا وربما إلى الأراضى الواطئة والسويد وبولندا . وآخر تاريخ يذكره فى وصف أسفاره هو عام ١٠٨٩ هـ = ١٦٧٨ ولهذا فيفترض أنه توفى عقب ذلك بقليل وذلك فى عام ١٠٩٠ هـ = **١٦٧٩** ، ولم تتقدم به السن كثيرًا كأسلافه القريبين منه .

وأفضل وسيلة لتتبع طريق رحلته هو أن نساير حكايته لها لأنه جهد بوجه عام فى أن يحتفظ بالتتابع الزمنى لتحركاته[١٦٧] ، فالجزء الأول مخصص للكلام على استنبول والنواحى المحيطة بها وكان قد بدأ فى جمع مادته منذ عام ١٠٤١ هـ = ١٦٣١ . أما الجزء الثانى فيتناول فيه الكلام على بروسه (١٠٥٠ هـ = ١٦٤٠) وازميد (نيقوميدية) ورحلته إلى باطوم وطربيزون وبلاد الأبازة Abkhazia (١٠٥٠ هـ - ١٠٥٤ هـ = ١٦٤٠ - ١٦٤٤) والحملة على كريت (١٠٥٥ هـ = ١٦٤٥) ورحلته إلى أرضروم وآذربيجان وكرجستان Georgia وأماكن أخرى (١٠٥٦ هـ - ١٠٥٨ هـ = ١٦٤٦ - ١٦٤٨) . وفى الجزء الثالث يصف رحلته إلى دمشق وسوريا وفلسطين وأرميه وسيواس وكردستان وأرمينيا (١٠٥٨ هـ - ١٠٦٠ هـ = ١٦٤٨ -

---

(١٦٦) - Taeschner, GLO, p. 64

* اشتهر باللغة الإنجليزية كتاب تم تأليفه فى القرن السابع عشر باسم رحلات البارون منشاوزن نال بالتالى شهرة عريضة وترجم إلى عدد من اللغات ؛ وهى بالطبع رحلات من صنع الخيال تضم أمشاجًا من مواد ترجع إلى عصور تاريخية مختلفة . (المترجم)

(١٦٧) - Mordtmann, Ewliya celebi, p. 35 = حرفيًا : Babinger, GOW, p. 220 - 221 = Tveritinova, BV, 10. p. 203 - 204, No 33 وبأخطاء

١٦٥٠) والروملي ، خاصة منطقتي بلغاريا ودوبروجه (١٠٦١ هـ - ١٠٦٢ هـ = ١٦٥١ - ١٦٥٢) . وفي عام ١٠٥٩ هـ = ١٦٤٩ أدى أوليا جلبي فريضة الحج ولكنه أرجأ وصفها إلى الجزء التاسع من مصنفه . وفي الجزء الرابع يصف لنا وان وتبريز وبغداد والبصرة (١٠٦٥ هـ - ١٠٦٦ هـ = ١٦٥٥ - ١٦٥٦) ، أما الخامس فيحوى خاتمة وصف رحلته السابقة من وان إلى البصرة ووصف رحلته إلى أوتشاكوف Ochakov (قره كرمان) والحملة ضد راكوتشي
626 Rakoczi والغارة على روسيا وذلك في عام ١٠٦٦ هـ - ١٠٦٨ هـ = ١٦٥٦ - /١٦٥٨ ، ثم الحملة على العصاة بالأناضول ورجوعه من بروسه عن طريق الدردنيل إلى أدرنه (١٠٦٩ هـ - ١٠٧٠ هـ = ١٦٥٩) ؛ ويلي هذا وصفه للسفارة إلى البغدان Moldavia والحملة على ترانسلفانيا Trasylvania* والبعثة إلى البوسنة والحملة على دلماسيا ثم رجوعه إلى صوفيا (١٠٧٠ هـ - ١٠٧١ هـ = ١٦٦٠) . والجزء السادس تشغله الحملة على ترانسلفانيا والبعثة إلى ألبانيا ورجوعه إلى استنبول (١٠٧١ هـ - ١٠٧٢ هـ = ١٦٦١ - ١٦٦٢) ، والحملة ضد المجر ومحاصرة ايوار (Ersekujvar أو Neu Häusel) ، ورحلته في النمسا وألمانيا وهولندا حتى بلوغه بحر الشمال . ويحتوى هذا الجزء على تفاصيل مغربة في الخيال عن جيش من التتار عدده أربعون ألف جندى وعن الاستيلاء على ايوار وبعض قلاع المجر الأخرى وتمضيتهم الشتاء بقشلاق بلغراد (١٠٧٣ هـ - ١٠٧٤ هـ = ١٦٦٣ - ١٦٦٤) ، ثم البعثة إلى بلاد الهرسك ورحلته إلى راغوزه Ragusa والحملة على الجبل الأسود Montenegro وكانجه Kaniza بالمجر وكرواتيا . أما الجزء السابع فمخصص لوصف النمسا والمجر والبغدان والأفلاق والقريم وداغستان وغيرها من نواحي القوقاز ودشت قبجاق واستراخان والطريق إلى ازاق Azov ؛ وفي الجزء الثامن يصف القريم ابتداء من ازاق Azov ، ثم كريت وسلانيك والروملي بما في ذلك أدرنة ؛ والجزء التاسع أفرده لوصف حجته في عام ١٠٥٩ هـ = ١٦٤٩ منذ بدايتها من استنبول وفيه يرد وصف مفصل للأناضول وسوريا والحجاز ؛ أما العاشر والأخير فيحوى وصف مصر مع

---

* استعمل المؤلف للتعبير عن هذا الإقليم اسم « المدن السبع » Semigrad مترجمًا بهذا التسمية الألمانية للمنطقة وهى Siebenbürgen ، وذلك إشارة إلى مدنه السبع الكبرى التى أنشأها المهاجرون الألمان . أما اسم ترانسلفانيا ومعناه باللاتينية « الأرض الواقعة وراء الغابة » فهو الذى شاع فى الفرنسية والإنجليزية وانتقل منهما إلى بقية اللغات . وقد عرف الترك المنطقة باسم « اردل » ، وهو من التسمية الهنغارية Erdely أى « وراء الغابة » ومنها انتقل إلى الرومانية Ardel . والمنطقة الآن تكون جزءًا من جمهورية رومانيا . (المترجم)

استطرادات تاريخية مسهبة ، ثم الكلام على السودان وبلاد الحبش . هذا ويضم الجزء السابع وصفه لفينا وأوربا الوسطى حيث بلغ أوليا جلبى مدينة دنكرك ؛ ويبدو أنه كان فى بداية الأمر ضمن حاشية السفير قره محمد باشا عام ١٠٧٥ هـ = ١٦٦٤ التى كانت تضم مائة وخمسين شخصًا ، ثم لم يلبث أن أتم تجواله منفردًا ولم يرجع إلى استنبول إلا بعد ثلاثة أعوام ونصف وذلك فى سنة ١٠٧٩ هـ = ١٦٦٨ مجتازًا فى طريقه بلاد السويد وبولندا وروسيا والقريم[١٦٨] . وفى العام التالى لهذا أى فى سنة ١٠٨٠ هـ = ١٦٦٩ اشترك أوليا جلبى فى حملة ضد كريت ، ثم فى الحملة ضد المَيْنا (les Mainotes) وقد تردد صدى هذا فى الجزء الثامن من كتابه .

ومصنف أوليا جلبى الذى يقع فى عشرة أجزاء بعنوان « تاريخ سياح » أو « سياحتنامه » يعد من أهم الوثائق التى تصف العصر الذى عاش فيه ، فهو مصدر تاريخى فى المكانة الأولى بالنسبة لتلك الفترة ويقدم لنا فى الوقت ذاته وصفاً للبلاد والشعوب التى رآها بما لا يدانيه فيه أحد ؛ وهو معين لا ينضب فى تفاصيله التى تمس جميع مظاهر الحضارة البشرية[١٦٩] . والمتخصصون لا يغضون النظر عن عيوبه ولكنهم فى الوقت نفسه لا يتناسون مزاياه الساطعة ، وعنه يقول موردتمان Mordtmann الذى يعد من خيرة العارفين بتركيا :

« لقد كان أوليا جلبى كاتبًا خصب الخيال مع جنوح واضح إلى الغريب وإلى المخاطر ؛ وهو يفضل الأسطورة على الوقائع التاريخية الجافة ويلذ له الدخول فى المبالغات بحيث يبلغ فى ذلك حد الاسفاف . فإذا ما وضعنا فى حسابنا هذه النقائص فإنه يجب الاعتراف من جهة أخرى بأن كتابه ذخيرة لا تنفذ فى جميع ما يمس الحياة الاجتماعية / والأدب الشعبى والجغرافيا وأنه يعرض كل 627
هذا فى أسلوب يمتاز بالبساطة والحيوية معًا »[١٧٠] .

أما بارتولد مع ما عهد فيه من صراحة فإنه لم يستطع إلا أن يوفيه حقه حين قال : « ومن الآثار ذات الأصالة التى دونت باللغة التركية وصف رحلة أوليا جلبى الذى يفوق كثيرًا آثار الجغرافيا العربية الكلاسيكية فى غزارة مادته (الجغرافية والاثنوغرافية واللغوية) على الرغم من أنه قد أعمل فيه خياله بصورة كبيرة »[١٧١] . وقد كرر بارتولد هذا الحكم على أوليا جلبى بإيجاز فى كتابه

---

(١٦٨) - Cf: Babinger, GOW, p. 324 - 325, No 1

(١٦٩) - Taeschner, GLO, p. 67 - 68

(١٧٠) - Mordtmann, Ewliya Celebi, p. 35

(١٧١) - Bartold, Ist. izuch. Vostoka 2, p. 114.

معلومات عن القيتاق مع مواد لغوية لدى :

Bartold, Etnograficheskoe obozrenie, 1910, No 1-2, p. 37-45; No 3-4, p. 283-284

« الحضارة الإسلامية » Kultura Musulmanstva فقال : « أوليا جلبى الذى يفوق من حيث وفرة المادة وغزارة المعلومات مصنفات خيرة الجغرافيين العرب ، على الرغم من جنوحه الواضح إلى الخيال »(١٧٢) .

وإلى مدرسة الجغرافيين العرب يجب أن نضم اسم أوليا جلبى ، فمصنفه الفذ الذى يقف نسيج وحده ينتمى بأجمعه إلى المذهب الإسلامى القديم ولا يكشف عن أية معرفة بالأفكار الجغرافية الأوروبية(١٧٣) ، وهو فى هذا يقف على طرف نقيض مع معاصره الذى يكبره سنًا حاجى خليفة .

ومما لا ريب فيه أن أوليا جلبى الذى كان يزهو من وقت لآخر بما ناله من معرفة واسعة قد وجد تحت تصرفه مصادر شرقية من جميع الألوان ، بيد أن وصف رحلته يعتمد أساسًا على ملاحظاته الشخصية الدقيقة كرحّالة يتميز بذهن صاف ودرجة عالية من حب الاستطلاع . ومن الطبيعى أنه أخذ بعض وصف الرحلة من مصادر أخرى ، ويصدق هذا مثلا بصورة خاصة على الإحصائيات والمداخل التاريخية التى ضمّنها بعض فصول كتابه . وكثير من الحكايات التى يرويها عن كرامات الأولياء والصالحين ، وهو أمر أحس على الدوام بميل شديد نحوه ، قد أخذه عن مختلف كتب « المناقب » و « الزيارات » كما أن بعض معطياته التاريخية التى ترجع إلى عهود مبكرة قد نقلها عن « تواريخ آل عثمان »(١٧٤) .

وليس من اليسير الجزم بأنه استعار مادته بطريق مباشر عندما يعالج الكلام على المسائل التى تمس الجغرافيا المحلية بصفة خاصة ، وإن كان هذا لا ينفى من جهة أخرى أن ما دوّنه فى هذا المجال ربما كان صدى لقراءاته فى الماضى لمؤلفين جغرافيين أو لحصوله على معلومات ذات طابع جغرافى . وقد أثبت تيشنر بما لا يدع مجالا للشك أن أوليا جلبى لم يكن على معرفة « بجهاننما » لمعاصره حاجى خليفة الذى يكبره فى السن ، ولكنه فى مقابل هذا عرف عن كتب « مناظر العوالم » لمحمد عاشق الذى كان أقرب إليه فى روحه . وتنعكس معرفته بهذا الأخير فى أنه عرف جيدًا نظام توزيعه الجغرافى للأقاليم إلى أقاليم بطلميوسية « أقاليم حقيقية » من جهة ؛ / وإلى أقاليم وفق منهج أبى 628
الفدا « أقاليم عرفية » ، أى مناطق جغرافية (geographical regions) ، من جهة أخرى(١٧٥) . ولعل معرفته بالجغرافيين العرب والفرس التى تنعكس فى بعض صفحات كتابه قد

---

(١٧٢) - Bartold, Kult. mus., p. 140

(١٧٣) - Cf: Kramers, EI, EB. p. 73

(١٧٤) - Taeschner, GLO, p. 68

(١٧٥) - Taeschner, GLO, p. 68 - 69, note 2

جاءته عن طريق « مناظر العوالم » المذكور ؛ وتكثر هذه المعلومات بوجه خاص عندما يعالج الكلام على المناطق الإسلامية القديمة مثل العراق(١٧٦) التى يقدم لنا مجموعة وافرة من المعطيات عن تاريخها القديم . أما ذكر المصادر الغربية لديه فإنه عند المقارنة بالمصادر الشرقية إنما يأتى عرضًا ولا يلعب دورًا ذا أهمية سواء من حيث الكم أو من حيث مكانة المصدر نفسه ، ولا يتجاوز ذلك « أطلس مينور » Atlas Minor (الأطلس الصغير) الذى قد عرفه بلا شك عن طريق مسودة حاجى خليفة ، ثم خارطة للعالم Mappa Mundi يحيط بها الشك ويبدو أنها ذات طابع عام يجعل من العسير التثبت من أصلها(١٧٧) .

من كل هذا يتضح لنا أن المصادر المكتوبة لا تعلب دورًا كبيرًا فى مصنف أوليا جلبى وأن وصفه للموضوعات الجغرافية فى جميع الأقطار التى زارها إنما يعتمد فى معظم الأحوال على ملاحظاته الشخصية المباشرة . ولهذا فإن مادته تتميز بالأصالة والشخصية أكثر من مادة محمد عاشق وحاجى خليفة وتعد مصدرًا قائمًا بذاته فيما يتعلق بالأقطار والشعوب التى تناول الكلام عليها هؤلاء المؤلفون الثلاثة . ومع ذلك فإنه يجب الاحتراز من الإفراط فى الثقة بروايته ، خاصة وأنه ليس من عادة أوليا جلبى أن يشير إلى المصادر التى قد يحدث أن تتسرب إلى المتن فى بعض الأحايين دون أن يلتفت القارىء إلى ذلك . كما يجب أن نضيف إلى هذا أن المؤلف لا يخلو من بعض العجب بنفسه ومن الميل إلى المبالغة ، وأسوأ من ذلك أنه يعمد أحيانًا إلى العبث بالحقائق ومن ثم فليس غريبًا أن تجد طريقها إلى الكتاب بعض الأخطاء وبعض الأحكام المتعسفة . لهذا كله فإن دراسة المصنف والإفادة منه فى البحث العلمى يحتاج دائمًا إلى إعمال التحفظ وبذل العناية الشديدة ؛ ولا شك فى أن النتائج التى يمكن الحصول عليها بعد ذلك ستكون ذات قيمة كبرى بالنسبة للباحث(١٧٨) . وكما هو الشأن مع العلماء الذين أوردنا رأيهم فى أوليا جلبى فإن تيشنر بدوره لم يتنكب الصواب حينما عد أوليا جلبى جغرافيا كبيرًا بل وبوأه مركز الصدارة فى الجغرافيا الوصفية بين الأتراك العثمانيين . وإذا كان محمد عاشق قد اختتم المذهب القديم فى الجغرافيا التقليدية الذى ساد فى العصور الوسيطة فإن أوليا جلبى يختتم هو الآخر أيضًا سلسلة الجغرافيين الرحالين من أهل الشرق الذين جابوا الآفاق ودوّخوا البلاد(١٧٩) .

---

(١٧٦) شرحه ، ص ٦٩ ، حاشية رقم ١

(١٧٧) شرحه ، ص ٦٨ – ٦٩ ، حاشية رقم ٢

(١٧٨) شرحه ، ص ٦٩ – ٧٠

(١٧٩) شرحه ، ص ٧٠

ولا يمكن القول بأن المجهودات التمهيدية التى بذلت فى دراسة أوليا جلبى ومتنه ، أو البحوث التى أجريت فى هذا الصدد ، تتناسب مع ما هو عليه من أهمية ؛ وقد عقّد من المسألة تلك الأوضاع التى أحاطت بالطباعة فى تركيا أو على الأصح بالرقابة على المطبوعات بحيث لم ير النور
629 منذ عام ١٢٥٨ هـ = ١٨٤٣ سوى مختارات من الجزء الأول ومقتطفات ضئيلة من الأجزاء التالية وهذه لم يكن من شأنها أن تقدم أية فكرة عن الكتاب فى مجموعة . فقط وفى عام ١٣١٤ هـ - ١٣١٥ هـ = ١٨٩٦ - ١٨٩٧ بدأ نجيب عاصم فى إخراج طبعة كاملة تعتمد على مخطوطة محفوظة باستنبول ولم تلبث الطبعة أن توقفت لفترة طويلة بعد صدور الجزء السادس فى عام ١٣٠٨ هـ = ١٩٠٠ ؛ وفى عام ١٩٢٨ ظهر الجزآن السابع والثامن(١٨٠) ثم تلاهما فى عام ١٩٣٥ التاسع وأخيرًا الجزء العاشر فى عام ١٩٣٨ ؛ وقد ظهر الأخيران بالأحرف اللاتينية . وإلى جانب ما يسود هذه الطبعة من تباين واختلاف مرده إلى أنها استغرقت نصف قرن بالتقريب لتخرج كاملة فإنه لا يمكن بأية حال القول بأنها طبعة علمية أو أنها ترضى مطالب البحث العلمى الحديث ، فالمتن من ناحية لم يتم إعداده بطريقة نقدية منهجية زد على هذا أن الرقابة قد ناخت بكلكلها على الأجزاء الستة الأولى(١٨١) فأحدثت بها الكثير من التشويه ، لكل هذا فإن الحاجة ماسة للغاية إلى ظهور طبعة علمية جديدة تأخذ فى حسابها جميع المخطوطات العديدة التى تم الكشف عنها إلى الآن(١٨٢). وفى بداية القرن التاسع عشر ترجم هامر Hammer بعض مواد لغوية جمعها أوليا جلبى عن اللغتين الكردية والتتارية(١٨٣) وأتبع ذلك بترجمة للجزئين الأول والثانى من الكتاب وذلك فى الأعوام ١٨٣٤ و ١٨٤٦ و ١٨٥٠ معتمدًا فى هذا على مخطوطة فى حوزة الجمعية الأسيوية الملكية البريطانية The Royal Asiatic Society. وكما هو الحال دائماً مع هذا المستشرق فقد قام هنا أيضاً بدور الرائد الذى يكشف عن طريق جديد ولكنه جمع إلى ذلك العيوب المعهودة فى تآليفه. وفى خلال القرن الذى تلا هذا لم يظهر أى إنتاج بالتقريب بخلاف الترجمة الهنغارية للجزء السادس المكرّس فى معظمه لبلاد المجر ؛ أما الأجزاء الأخرى فلم يظهر منها فى الترجمة سوى شذرات متفرقة داخل بحوث شتى وهذا يصدق مع الأسف على الأقسام التى

---

(١٨٠) - Tveritinova, BV, 10, p. 203

(١٨١) [يوجد الآن مختصر جديد ولكن متنه لا بأس به ، وندين به لشخصية تركية معروفة :
Reşad Ekrem Koçu, Evliya Celebi seyahetnamesi]

(١٨٢) - Taeschner, GLO, p. 66, note 1; 70 - Babinger, GOW, p. 222, note 1

(١٨٣) - Cf: Babinger, شرحه

تناول فيها الكلام على جنوبى روسيا وشعوب الاتحاد السوفيتى بوجه عام خاصة وأن المادة التى جمعها عنهم أوليا جلبى ليست بالقليلة ولم تدرس إلى الآن إلا فى بحوث ومقالات قليلة ومتفرقة بحيث يمكن القول بأن هذه المادة لا تزال تنتظر البحث. كذلك لا تزال فى حاجة إلى الدراسة المسائل المتعلقة بالتاريخ الأدبى «لتاريخ سياح»، ولعل البحث الوحيد الذى مسها بصورة عامة وعاجلة هو دراسة رتشارد هارتمان R. Hartmann عن رحلة أوليا جلبى فى أرض الجزيرة [شمالى العراق][١٨٤].

وقد ركز هارتمان اهتمامه بصورة رئيسية على نقاط معينة فى وصف أوليا جلبى كخط سير الرحلة ومجارى الأنهار وموقفه من الآثار التاريخية والمعتقدات الشعبية. وجميع هذه المسائل بلا شك ذات مغزى كبير بالنسبة للمصنف فى مجموعه وبالنسبة للمنهج العام الذى اتبعه المؤلف. ومن الطريف أن نلتقى بمؤلف / متأخر مثله تكون لرواياته أهمية كبرى بالنسبة للجغرافيا التاريخية 630
القديمة، فطرق المواصلات قد احتفظت فى حالات عديدة بنفس اتجاهها على مر قرون طويلة. مثال ذلك أن الطريق من سيواس إلى ملطية يتفق فى جوهره مع الوصف القديم الموجود فى «وصف طريق انطونينوس» Itinerarium Antonini بحيث يقدم لنا أوليا جلبى أفضل تعليق على وصف الطريق القديم[١٨٥]؛ وفى حالات أخرى لا تخلو معطياته من الطرافة فهى فى ذلك أشبه ما تكون بتعليقات بلينى Plinius[١٨٦]. ووصفه للطرق بوجه عام يوكد وجهة النظر الغالبة والتى مؤداها أن أوليا جلبى لم يعمد إلى الخداع بل إن روايته توحى بالثقة منذ اللحظة الأولى[١٨٧]. وإذا حدث أن وقف القارىء موقف الحذر من مادته فإن هذا لا يمس سوى ناحية تناوله لمصادره وموقفه ممن زودوه بالمعلومات. ففكرته مثلا عن روافد دجلة ليست سوى هراء وهى غير جديرة بالثقة لدى مقارنتها بمادة حاجى خليفة التى تنم عن معرفة جيدة بهذا الموضوع[١٨٨]؛ وعلى الرغم من هذا فلا ينبغى أن تغطّى عيوبه على محاسنه لأنه كان شاهد عيان لكثير مما وصفه وإن وجدت لديه بلا شك نقاط عديدة اتبع فيها مصادر غير جديرة بالثقة. وهو عندما يقف عند حد تدوين ما شاهده بعينى رأسه فإنه يستحق ثقتنا إلى درجة كبيرة على الرغم

---

(١٨٤) - Taeschner, GLO, p. 66, note 2

(١٨٥) - Hartmann, Ewlija Tschelebi, p. 195

(١٨٦) شرحه، ص ٢٠٨

(١٨٧) شرحه، ص ٢٠٥

(١٨٨) شرحه

من أخطائه ومبالغاته[١٨٩] ، أما حين يتبع رواية الآخرين فإنه يتردى بسهولة فى الخطأ نتيجة لسرعة تصديقه ولكن ينبغى ألّا يدان فى صرامة على هذا الموقف[١٩٠] .

وأوليا جلبى يتمتع بدرجة كبيرة من حب الاستطلاع ، مثال ذلك أنه أولى اهتمامًا خاصًا للآثار « الكلدانية » القديمة بالعراق وآسيا الصغرى ، وهى نفس تلك الآثار التى أخذت تلعب دورًا هامًا فى العلم الأوروبى فى القرن العشرين[١٩١] ؛ ولقد أثارت عجبه أكثر من مرة هذه الآثار المنحوتة فى الصخور كما أثارت من بعد عجب الرحالة فى العصور التالية[١٩٢] ، كذلك اجتذبت اهتمامه الأبنية ذات السراديب التى تكثر فى تلك النواحى[١٩٣] . ولا شك أن المسافر الذى جال كثيرًا فى تلك البقاع سيدهش لدقته الكبرى فى وصف الجسور التى مر عليها أو التى وردت فى روايته[١٩٤] بحيث يتضاءل أمام وصفه لها وصفه للخانات (الفنادق) التى نزل بها[١٩٥] .

وتكمن الصلة الحقيقية بين ابن بطوطة وأوليا جلبى بصورة قوية فى أن كليهما يجعل الآدميين محور اهتمامه . ورحالتنا يولى اهتمامًا شديدًا لتفصيل الكلام على الأوضاع السياسية فى البلاد التى
631 زارها / ويقدم نماذج للغاتها ولهجاتها ، الأمر الذى لا يتوفر لدى معظم الرحّالين . ومما لا شك فيه أنه لا يفتقر إلى المقدرة فى وصف أخلاق وعادات الجماعات التى مر عليها ، زد على ذلك أن مادة ضخمة ذات طابع حضارى وتاريخى قد تناثرت خلال صفحات كتابه الضخم . ولكن مما يؤسف له حقًا أنه قد استقى معلوماته فى هذا الصدد من شتى ألوان الخرافات التى اعتقد فى صحتها بمنتهى السهولة وإن لم يتخل أبداً عن مقدرته فى الملاحظة . وهو كثيراً ما يعالج خلال كلامه على المدن الكبرى الحديث على الأطعمة وعلى حرف الأهالى ، ويصف ذلك فى العادة فى خطوط حية ومعبّرة تقدم لنا لوحة واضحة متعددة الجوانب والألوان لحياة السكان المحليين .

وكما هو أمر طبيعى بالنسبة لشخص من وسطه وعصره فإن أوليا جلبى يولى اهتمامًا خاصًا

---

(١٨٩) شرحه ، ص ٢٠٦
(١٩٠) شرحه ، ص ٢١١
(١٩١) شرحه ، ص ٢١٢
(١٩٢) شرحه ، ص ٢١٣
(١٩٣) شرحه ، ص ٢١٥
(١٩٤) شرحه ، ص ٢١٥ – ٢٢٢
(١٩٥) شرحه ، ص ٢٢٢

للكلام على الدين وطقوس العبادة فى الأماكن التى زارها . وفى كلامه على القرى فإنه يلاحظ دائمًا بالكثير من الدقة أحوال سكانها وما إذا كانوا مسلمين أم نصارى أم من الأرمن[١٩٦] ؛ كما أنه فى وصفه للمدن يقف بانتظام للكلام على مواضع الزيارات فيها ويقص معجزات الأولياء وبركات المواضع المقدسة[١٩٧] مما يقرب كثيرًا بينه وبين على الهروى السابق عليه فى هذا المضمار . وحتى فى روايته هذه أيضًا فإنه يتصف بالصدق من وجهة النظر الذاتية بل ويستحق الثقة على الرغم من أنه يقف موقف غير الناقد من كل هذه المعجزات والغرائب التى عدّها حقائق واقعية[١٩٨] . وهو يولى أحيانًا اهتمامًا ليس بالقليل للمعتقدات الدينية بين النصارى[١٩٩] ، ومما هو جدير بالثناء أنه لا يركز اهتمامه فى المعتقدات الرسمية السائدة بين صفوة النصارى والتى يعرفها جيدًا بقدر ما يجهد فى تصوير معتقدات الكتل الشعبية[٢٠٠] . وكل هذا يعطى الحق الكامل للدوائر العملية المعاصرة لتعترف به كآخر رحالة كبير يختتم بحق الرحّالين الكبار للشرق الأدنى*.

---

(١٩٦) شرحه ، ص ٢٢٢ – ٢٢٣

(١٩٧) شرحه ، ص ٢٢٤

(١٩٨) شرحه ، ص ٢٢٧

(١٩٩) شرحه ، ص ٢٣٠

(٢٠٠) شرحه ، ص ٢٣٣

* بمناسبة انتهاء كلامه على أوليا جلبى ، يجب أن نوافق المؤلف على رأيه فى الطبعة التركية (والوحيدة) لمصنفه ، ولا شك أن الحاجة لا تزال ماسة إلى خروج طبعة علمية منقحة ومزودة بالتعليقات بقلم المتخصصين . ويجب أن نعترف بالفضل لبعض العلماء الأوروبيين ممن عالجوا جوانب مختلفة من المصنف . وفى هذا الصدد أشير إلى الدراسات التى ظهرت فى الآونة الأخيرة :

١ – عن رحلته فى الاتحاد السوفيتى :

- Evliya Celebi, Kniga Puteshestvia, Izvlechenia iz Sochinenia Turtskogo Puteshestvennika 17 veka. Perevod i Kommentarii, Sostavitel A. D. Jeltyakov, red. A. S. Tveritinova. Vypusk I, Zemli Moldavii i Ukrainy, Moskva, 1961.

٢ – عن رحلته فى يوغوسلافيا :

- Evlija Celebija, Putopis Odlomici o Jugoslobenskim Zemljama. Preveo, Uvod i Kommetar Napisae Hazim Shabanovic, 2 vols, Sarajevo, 1957.

٣ – عن رحلته إلى فينا :

- Im Reiche des Goldenen Apfels. Das tükischen Weltenbummlers denkwürdige Reise. In das Giauerenland und in die Stadt und Festung Wien anno 1665. Übers., eingeleitet u. erklärt von R. Kreutel. Graz, 1957. (المترجم)

لقد كان القرنان السادس عشر والسابع عشر عهد ازدهار وانتعاش بالنسبة للأدب الجغرافى التركى ، ففى البداية يقابلنا التطور المزدهر فى محيط الجغرافيا الملاحية ، أما فى نصفه الثانى فيقدم لنا ثلاث شخصيات متباينة كل التباين ولكن كل واحدة منها تمثل أهمية خاصة وتشغل مكانة كبيرة وتتصف بالأصالة ، أعنى بذلك محمد عاشق وحاجى خليفة وأوليا جلبى . فهم قد برّوا غيرهم فى هذا المجال ولا يمكن بأية حال مقارنة الآخرين بهم. ومن الطبيعى أن تستحق شخصيات أخرى من القرن السابع عشر اهتماماً معيناً، كما أنه من الممكن أن تكشف الدراسة العميقة بمرور الزمن عن دورهم بصورة أكثر جلاء مما عليه الحال الآن.

ومثل هذا الحكم يصدق على متمم حاجى خليفة ومكمل عمله الذى غطى عليه أيضًا هذا
632 الأخير رغمًا مما يتمتع به من قدر معين من الأصالة / لا يرقى إليه الشك ، ذلك هو أبو بكر بن بهرام (توفى عام ١١٠٢ هـ = ١٦٩١) الدمشقى مولدًا والذى أمضى معظم أيام حياته باستنبول وحلب[٢٠١] . فهو قد امتاز باطلاعه الواسع ، وإذا حدث أن كان اسمه غير معروف بالتقريب إلى أيامنا هذه فإن مرد ذلك إلى حد كبير على ما يبدو إلى أن مؤلفاته ظلت باقية على هيئة مخطوطات ولكن عددها كبير بشكل ملحوظ . وإلى جانب تتمته « لجهاننما » التى ذكرناها فى موضعها فقد وضع فى عام ١٠٨٦ هـ = ١٦٧٥ بتكليف من السلطان محمد الرابع مصنفًا فى ستة أجزاء بعنوان « جغرافياى كبير » ، اختصره فيما بعد فى جزئين . وكلا المصنفين معروف فى نسختين فاخرتين رفعتا إلى الأعتاب السنية وفى مسودات لم يبيضها المؤلف . ويرى بعض المؤلفين الأتراك فى مصنفه هذا ترجمة مصلّحة لمؤلف كتب أصلا باللاتينية ، وقد استطاع بابنجر أن يدلل أن هذا المصنف نفسه يحمل عنوانًا آخر هو « نصرة الإسلام والسرور فى تحرير أطلس ميور » وأن يرى مصدره فى « الأطلس الكبير » **Atlas Major** للعلامة الهولنـدى بلاى **W. J. Blaeu** (١٥٧١ - ١٦٣٨) الذى نال رواجًا كبيرًا فى أوربا لذلك العصر ؛ وهو فرض مغر خاصة وأن السفير الهولندى قد رفع نسخة من هذه الطبعة اللاتينية بالذات كهدية إلى السلطان العثمانى فى عام ١٦٦٨ ولهذا فمن حقنا أن نضع ابن بهرام فى عداد الجغرافيين ذوى المكانة ممن نحوا فى الجغرافيا منحى حاجى خليفة بل وربما ترسم خطاه فى هذا الميدان[٢٠٢] .

ويقف دليلا على الرباط الوثيق الذى ربط فى ميدان الجغرافيا بين النواحى المختلفة للإمبراطورية

---

(٢٠١) - Kahle, China

(٢٠٢) راجع عنه : Babinger, GOW, p. 222 - 227, No 197

العثمانية فى تلك الآونة مصنف ينتمى إلى نمط الجغرافيا الإقليمية من جهة وإلى نمط الخطط من جهة أخرى . وصفىُّ الدين عيسى القادرى أحد كبار رجال طائفة النقشبندية ، وأصله من مندلى بإيران ، وضع مصنفًا باللغة التركية عام ١٠٧٧ هـ = ١٦٦٦ بعنوان « جامع الأنوار فى مناقب الأخيار » وهو عبارة عن تاريخ من دفنوا ببغداد ونواحيها من الأولياء والصالحين ؛ وقد أكمله المؤلف بنفسه إلى عام ١٠٩٢ هـ = ١٦٨١ (٢٠٣) . وإذا كان المؤلف قد اعتمد أساسًا فيما يتعلق بتاريخ الأزمنة السالفة على المؤلفات المشهورة لابن خلّكان وبصورة خاصة للكاتبين الفارسيين جامى وميرخواند فإنه يمكن أن يعد فيما يتعلق بالأزمنة المتأخرة مصدرًا من الدرجة الأولى فى مجالى الطبوغرافيا والاثنوغرافيا ، وينعكس هذا جليًا فى الأبحاث التى كتبها عن بغداد المستشرقان الفرنسيان هوار **Huart** وماسينيون **Massignon** اللذان أفادا كثيرًا من مادته . ومن الطبيعى أن يثير مصنف صفى الدين اهتمام العلماء العرب ببغداد فنقله إلى العربية فى القرن التاسع عشر بعض أفراد أسرة الآلوسى المشهورة التى قدمت لنا عددًا من العلماء .

وتقدم لنا الآثار التاريخية التى دبجتها أقلام المؤلفين الأتراك فى القرن السابع عشر مادة جغرافية حافلة ؛ ويجب ألا يدهشنا هذا فى شىء فقد كان ذلك أمرًا معتادًا فى / العصور الأدبية المختلفة بل 633
وحدث أن أشرنا فى خلال عرضنا إلى أمثلة عديدة من هذا القبيل . ولكننا سنقتصر فى هذه المرة على مثالين أحدهما مصنف معروف جيداً للمؤرخ حسين هزارفن (٢٠٤) بعنوان «تلخيص البيان فى قوانين آل عثمان» الذى توجد أفضل مخطوطاته بمعهد الدراسات الشرقية السوفيتى (٢٠٥) وترتفع إلى عام ١٠٨٠ هـ = ١٦٦٩ ؛ وينقسم الكتاب إلى ثلاثة عشر فصلاً وهو أشبه ما يكون بعرض عام للتشريعات القانونية الكبرى لعهد السلطان محمد الرابع وللنظم الحكومية فى ذلك العصر . ومن البديهى أن فصولا منه تدخل بأجمعها فى نطاق الجغرافيا ، فالفصل الثانى مثلا مفرد لبناء القسطنطينية وآثار الأباطرة البيزنطيين وللأبنية التى شيدت فى العهد العثمانى ووصف القصر السلطانى وكنوز السلاطنة العثمانيين . ويتناول عدد من فصوله الكلام على الضرائب وإدارة الأراضى مع تحليل مفصّل لأشكالها المختلفة . ويعالج الفصل العشرون الكلام على التعدين والملاّحات وتخطيط بعض المدن الخ . وأقرب المؤلفات شبهًا إلى كتاب هزارفن هى تلك المداخل

---

(٢٠٣) - Babinger, GOW, p. 215, No 185; cf: Brockelmann, GAL, SBII, p. 574 No 7

(٢٠٤) - Babinger, GOW, p. 228 - 230, No 199

(٢٠٥) - Smirnov, Manuscrits turks, p. 21 - 26

الإدارية الدواوينية لعصر المماليك من نوع كتاب خليل الظاهرى التى وقفنا عندها حينًا من الوقت ؛ ومثل هذه الأخيرة فإن كتاب هزارفن يمثل أهمية كبيرة بالنسبة للجغرافيا السياسية وبوجه خاص الجغرافيا الاجتماعية والاقتصادية .

أما المثال الثانى الذى وقع عليه اختيارنا فهو المؤرخ منجّم باشى (توفى عام ١١١٣ هـ = ١٧٠٢) الذى عالج التأليف عن منطقة تتصل اتصالا مباشرًا بوطننا السوفيتى . وهو تركى أصله من سلانيك وكما يبدو من اسمه فقد شغل وقتًا ما وظيفة منجّم بالبلاط ولكنه أمضى الأعوام الأخيرة من حياته بمكة والمدينة مغضوبًا عليه ؛ وهو قد دون مصنفه الأساسى « جامع الدول » باللغة العربية ولكنه اعتمد فيه على مصادر باللغات الثلاث العربية والفارسية والتركية ، ويشمل الكتاب تاريخ الفترة السابقة لعام ١٠٨٣ هـ = ١٦٧٢ . ولم يترجم الكتاب إلى اللغة التركية إلا عقب وفاته ، وذلك فى الأعوام ١١٣٢ هـ - ١١٤٢ هـ = ١٧٢٠ - ١٧٣٠ ، بعنوان « صحائف الأخبار » ، ثم طبعت هذه الترجمة فى عام ١٢٨٥ هـ = ١٨٦٨ فى ثلاثة أجزاء تضم نحوًا من ألفين ومائتى صفحة(٢٠٦) . ومنذ عهد ليس بالبعيد أثبت أحمد زكى وليدى اعتمادًا على المخطوطة العربية الموجودة باستنبول أن منجم باشى قد رجع إلى مصنف تاريخى جغرافى مشهور تم تدوينه باللغة العربية هو « دربند نامه » الذى يبحث فى تاريخ باب الأبواب وما وراء القوقاز(٢٠٧) . ويكتسب هذا الرأى أهمية خاصة إذا ما أخذنا فى حسابنا أن المؤرخ الكبير بارتولد قد نفى نفيًا باتًا وجود الأصل العربى لهذا المصنف الأخير(٢٠٨) ؛ ويبدو أن البحث الخاص الذى وعد زكى وليدى بكتابته حول هذه المسألة لم ير النور إلى لحظة تدوين هذه السطور .

634 وعلى الرغم من هذين المثالين اللذين وقفنا عندهما فإن من المستحيل أن ينكر أحد أن المذهب العربى ، والإسلامى عامة ، قد خبا نوره بين الأتراك العثمانيين بعد حاجى خليفة وأوليا جلبى فقد أخذ تأثير الأدب الأوروبى ونفوذه يزداد شيئًا فشيئًا حتى بلغ فى بعض الأحايين درجة من القوة استطاع معها أن يطرد المؤلفات الأدبية الأصيلة ويرجع بها إلى الصف الخلفى(٢٠٩) ؛ غير أن فن

---

(٢٠٦) - Kramers, EI, III, p. 779 - 780 - Babinger, GOW, p. 234 - 235, No 205 - Brockelmann, GAL, II, p. 443, No 10; SBII, p. 637, No 9

(٢٠٧) - Validi, GZ, XL, p. 369 and note 3

(٢٠٨) - Bartold, Iran, I, 1927 p. 52; خطأ لدى وليدى Validi, شرحه II, 1930

(٢٠٩) - Kramers, EI, EB, p. 73

التاريخ وحده هو الذى أبدى مقاومة عنيفة أمام هذا التأثير وذلك لارتباطه الوثيق بنظام الدولة نفسها ، ويتمثل هذا من جهة فى وجود المؤرخين الرسميين للبلاط الذين بقوا يشغلون هذا المنصب ما بقى نظام الحكم العثمانى العتيق أى حتى عهد ثورة «تركيا الفتاة» Yeni Osmanlilar بالتقريب؛ وليس ثمت داع إلى أن نضيف أن معظم أولئك المؤرخين قد قنعوا بتقليد النماذج القديمة[٢١٠] . وقد أخذت أوروبا بما بلغته من شأو وتقدم تجتذب أنظار العثمانيين فى جميع مجالات الحضارة الروحية والمادية بشكل مضطرد ووجدت الاتجاهات الحضارية القادمة من أوروبا فى ذلك العهد مدخلا سهلا إلى العثمانيين فى أثناء فترة الانتفاضة التى حاولوا فيها استعادة مجدهم القديم أثناء سلطنة أحمد الثالث ووزيره الداماد إبراهيم باشا عندما حدث ما اصطلح البعض على تسميته «استعادة المجد القديم فى زى جديد»؛ وتتمثل إحدى مظاهر هذه الحركة التجديدية فى إدخال فن الطباعة بالحروف العربية فى عام ١١٤١ هـ= ١٧٢٩[٢١١] . ولعلنا نرى لهذا السبب أن من حقنا أن نقول إن أهم ظاهرة فى محيط الأدب الجغرافى للقرن الثامن عشر لم تكن تلك المصنفات المختلفة أو المؤلفين المختلفين الذين عالجوا التأليف فى هذا المجال بقدر ما تمثلت فى قيام فن الطباعة بتركيا الذى ساهم منذ اللحظة الأولى تقريبًا فى نشر وترويج عدد من أهم الآثار الجغرافية القديمة والحديثة .

ويرتبط ميلاد هذه الفكرة بل وإخراجها إلى عالم الوجود ارتباطًا وثيقًا باسم إبراهيم متفرّقة (حوالى عام ١٦٧٤ - ١١٦٠ هـ= ١٧٤٧)[٢١٢] ، وهو مجرى الأصل وكان يتهيأ فى صباه ليكون من رجال الدين ولكنه وقع فى أسر الأتراك منذ عام ١٦٩٣ ودخل فى الإسلام ؛ وقد عاونه ميله إلى الدراسات التاريخية والجغرافية وموهبته التى لا يتطرق إليها الشك فى مجال التنظيم فى أن يصبح من كبار رجالات العلم والأدب فى الدولة العثمانية ومن أكثرهم نشاطًا وحيوية[٢١٣] . وتاريخ إدخال فن الطباعة إلى الدولة العثمانية مدروس فى جميع جوانبه بفضل عدد من البحوث الجادة التى ظهرت فى الآونة الحاضرة ، وإن ظروف ذلك العهد لتكشف لنا بوضوح تام لماذا كان من شروط السماح بدخول آلة الطباعة هو أن تقلع تمامًا عن طبع أى كتاب له علاقة بالقرآن والحديث . وقد كان هذا نعمة كبرى بالنسبة للعلوم «الدنيوية» خاصة التاريخ والجغرافيا اللذين اجتذبا عناية

---

(٢١٠) - Taeschner, GLO, p. 70

(٢١١) - Smirnov, Ocherk, p, 517 - 518 - Taeschner, GLO, p. 71

(٢١٢) - Krachkovski, Ibrahim Mutafarrika, p. 120 - 126

(٢١٣) - Mordtmann, Ibrahim Muteferrika, p. 467 - Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 10 (المراجع note 2), 17 - 18

635 إبراهيم متفرقة بشكل خاص(٢١٤) حتى أنه لا يوجد أقل من ستة كتب / ترتبط بموضوعات ذات طابع جغرافى من بين السبعة عشر كتابًا التى تقع فى ثلاثة وعشرين جزءًا التى أخرجتها مطبعته. ففى العام الأول لنشاطها أخرجت المطبعة (١١٤١ هـ= ١٧٢٩) « تحفة الكبار » لحاجى خليفة(٢١٥) ؛ وفى العام الذى تلاه (١١٤٢ هـ= ١٧٢٩) خرجت الترجمة التركية لمصنف باللاتينية من وضع علامة يسوعى عاش طويلا بإيران هو الأب كروزينسكى Krusinski بعنوان « ترجمة تاريخ سياح » ، وهو يبحث فى الحرب مع الأفغانيين وسقوط دولة الصفويين(٢١٦) . وبالنسبة لظروف العلاقات السائدة آنذاك بين العثمانيين وإيران فإن هذا الموضوع كان يهم بصورة خاصة الدوائر الرسمية العثمانية ، كما أن الكتاب فى حد ذاته لم يكن خلوًا من الأهمية فى تفاصيله الجغرافية والتاريخية . وفى عام ١١٤٢ هـ= ١٧٣٠ ظهر « تاريخ الهند الغربى »(٢١٧) ، ثم ظهرت خلال عامين من هذا رسالة موجزة فى ثلاث وعشرين صفحة من القطع الكبير من تأليف إبراهيم متفرقة نفسه بعنوان «فيوضات مغنطيسية » وبالنسخة مصوران منقوشان يمثلان « الوردة المغناطيسية » ؛ ولم يمكن التثبت من مصدره حتى الآن . ويذكر تسلسيوس Celsius أن المؤلف قد جمع معطياته من كتاب عربى ، غير أن افتتاحية الكتاب نفسه تتحدث عن « كتب لاتينية »(٢١٨) . ولعل أكبر خدمة قدمتها هذه المطبعة هى نشرها لكتاب « جهاننما » لحاجى خليفة فى عام ١١٤٥ هـ= ١٧٣٢(٢١٩) . أما آخر السلسلة الجغرافية فيمكن أن نعده مصنف علامة بوسنوى من أهل نوفى Novi يدعى عمر ويحمل عنوان « أحوال غزوات درديار بوسنه »، وقد تم طبعه فى عام ١١٥٤ هـ = ١٧٤١(٢٢٠)؛ وهو رواية ممتعة للغاية من وجهة نظر التاريخ الحضارى مكتوبة بأسلوب سهل يتميز بالحيوية(٢٢١) ومسرودة على لسان حكيم أوغلو على

---

(٢١٤) - Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 18

(٢١٥) شرحه ، ص ١٢ – ١٣

(٢١٦) شرحه : ص ١٣ – ١٤ ؛ قارن : Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 14

(٢١٧) - Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 14

(٢١٨) شرحه ، ص ١٥

(٢١٩) شرحه ، ص ١٦

(٢٢٠) شرحه ، ص ١٧

(٢٢١) - Babinger, GOW, p. 276 - 277, No 247

باشا للأحداث التى جرت فى البوسنة بين عام ١١٤٩ هـ = ١٧٣٦ ومارس ١١٥٢ هـ = ١٧٣٩ أثناء الحرب مع النمسا. وكان المؤلف معاصراً لهذه الأحداث وأخذ طرفاً فيها، ولأهمية روايته فقد ترجمت إلى الألمانية (١٧٨٩) والإنجليزية (١٨٣٠). ومن هذا يتضح لنا أن المطبعة قد دفعت بمطبوعاتها إلى رواج المؤلفات الكبرى القديمة من جهة وإلى استيفاء المطالب المعاصرة من جهة أخرى، وكانت خدماتها بالنسبة لأدب التاريخ ليست بأقل مما هو عليه الحال مع أدب الجغرافيا؛ ويكفى أن نذكر فى هذا المجال «تقويم التواريخ» لحاجى خليفة (١١٤٦ هـ = ١٧٣٣)[٢٢٢]، ثم طبعتها الأساسية لتواريخ آل عثمان الكبرى (١١٤٧ هـ - ١١٥٣ هـ = ١٧٣٤ - ١٧٤١)[٢٢٣]. ومما يؤسف له حقًا أن نشاط المطبعة قد توقف منذ عام ١١٥٥ هـ = ١٧٤٢ عقب نشرها للمعجم الفارسى التركى الضخم لشعورى[٢٢٤]؛ وليست واضحة لنا تمام الوضوح الأسباب التى تقف وراء هذا.

وفيما يتعلق بالجغرافيا فإنه يجب ألا نغفل ذكر أن إبراهيم متفرقة قد طبع بضع خارطات متفرقة ليس من السهل دائمًا تحديد زمنها بدقة. ومن الطريف أن كلا النقاشين اللذين قاما برسم الخارطات من أصل شرقى على ما يبدو، فأحدهما كان يدعى أحمد القريمى أما الآخر فأرمنى يدعى مغردج الغلطوى؛ ومن الواضح أن الخارطات الثلاث التى بقيت قد عملت بأهداف تتصل بسياسة الدولة العثمانية فى ذلك العصر فإحداها تمثل خارطة لبلاد الفرس مع جزء كبير من الأناضول وبعض أراضى الدولة العثمانية أما الثانية فخارطة للبحر الأسود مبينة عليها الموانى وبعض الأراضى المتاخمة من القارتين[٢٢٥] الأوروبية والأسيوية على حين أفردت الثالثة لمصر وحدها. هذه الخارطات على ما يبدو لا ترتبط فى شىء بالخارطات التى تزين طبعة «جهاننما» وإن وجدت بين هذه الأخيرة خارطات قصد بها أن تكون منفصلة؛ وهذا يدفعنا بدوره مرة ثانية إلى الرجوع إلى المسألة المتعلقة بمصورات مصنف حاجى خليفة إذ لا يوجد ثمة شك فى أنها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بنشاط إبراهيم متفرقة وليست لها علاقة بحاجى خليفة نفسه. وفيما عدا هذا فإن جميع المسائل الأخرى يجب أن تبقى مطروحة على بساط البحث.

---

(٢٢٢) - Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 16

(٢٢٣) شرحه، ص ١٧

(٢٢٤) شرحه

(٢٢٥) شرحه، ص ١٢ ب، الحاشية ١

ونسخ هذه الطبعة تمثل شيئًا نادرًا للغاية ، وأكثر ندرة من ذلك أن تحتفظ النسخ بالمجموعة الكاملة للرسوم التى تبلغ الأربعين فى عددها ؛ ومما يزيد فى صعوبة دراستها افتقارها إلى الترقيم زد على هذا أن الملازم قد اختلطت عند جمعها ووقعت فى غير مواضعها المعينة لها . وفى نسخة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية والتى رقّمها المستشرق فرين Frähn يبلغ عدد المصورات وفق ترقيمه الأربعين ، أو التسعة والثلاثين مصورًا على الأصح[٢٢٦] لأن فرين أعطى الرقمين الرابع والخامس لخارطة العالم المرسومة على ورقة مطوية . وتحفل المقدمة بشكل خاص بعدد من الرسوم من بينها رسوم تخطيطية وجداول، ثم يلى هذه الخارطات التى تتعاقب الواحدة الواحدة تلو الأخرى إلى آخر الكتاب . وهذه الخارطات هى الآتية : (١) الدائرة السماوية (أمام عنوان الكتاب) ، (٢) نماذج لأشكال هندسية (ص ٨) ، (٣) رسوم توضح كروية الأرض (ص ١٩)، (٤) و (٥) العالم وفقًا لبطلميوس (ص ٢١)، (٦) مصور آخر للعالم (ص ٢٥)، (٧) خارطة السماء (ص ٢٧) ، (٨) القباب السماوية وفقًا لبطلميوس (ص ٣٣)، (٩) توزيع اليابس والماء (ص ٤٩) ، (١٠) « الربع » المعمور وجداول الأقاليم (ص ٥١) ، (١١) جدول الأقاليم والمسافات (ص ٥٧) ، (١٢) « وردة الرياح » (ص ٥٩) ، (١٣) بيت الإبرة « البوصلة » (ص ٦٥) ، (١٤) نصف الكرة (ص ٧١) ، (١٥) البحر المتوسط والبحر الأسود (ص ٧٥)، (١٦) البحر الأدرياتيكى (ص ٧٧)، (١٧) سواحل تركيا على البحر المتوسط (فى نفس الصفحة)، (١٨) خارطة مسطحة لنصفى الكرة (ص ٩١) ، (١٩) أوروبا (ص ٩٩) ، (٢٠) افريقيا (ص ١٠١) ، (٢١) آسيا (ص ١٠٣)، (٢٢) أميريكا (ص ١١٣)، (٢٣) القطبان الشمالى والجنوبى (ص ١١٩)، (٢٤) اليابان (ص ١٢٥)، (٢٥) غينيا (فى نفس الصفحة)، (٢٦) جزر الهند الصينية (ص ١٣١)، (٢٧) خارطة أخرى لها، (٢٨) خارطة جزر «ملوكه» Moluccas (ص ١٣٥) ، (٢٩) سومطرة (ص ١٤٣) ، (٣٠) أرخبيل الملايو وجزر
الفلبيين (ص ١٤٥) / ، (٣١) الصين (ص ١٥٣) ، (٣٢) دول السهوب الكبرى 637
«ممالك دشت كبير» (أى سيبريا ـ وآسيا الوسطى، ص ١٦٥)، (٣٣) الهند (ص ١٩٣)، (٣٤) إيران فى عهد الصفويين (ص ٢٨٩)، (٣٥) ما وراء النهر (ص ٣٢٧)، (٣٦) القوقاز (ص ٤٣١)، (٣٧) جزيرة العرب (ص ٣٨٤)، (٣٨) آذربيجان (ص ٤٨٧)،

---

(٢٢٦) شرحه، ص ١٦

(٣٩) آسيا الصغرى (ص ٦٢٩)، وأخيراً (٤٠) البوسفور «خليج القسطنطينية» (ص ٦٧١).

وجميع هذه المصوّرات ترتفع إلى أصل أوروبى صرف ولا يوجد بها من العنصر التركى سوى التسميات الجغرافية ؛ غير أن بعضها يستحق أن نقف عنده بوجه خاص فمثلا مصور العالم (رقم ٦ على الصفحة ٢٥) المرسوم على ورقة مطوية يحمل عنواناً خاصاً لا بالتركية وحدها بل وبالعربية أيضًا وذلك على عكس ما هو عليه الحال مع بقية الخارطات ، وفوق هذا فقد بيّن عليه تاريخ منفصل بالعربية نصه كالآتى : « رسمت وطبعت هذه الصورة المرغوبة بدار الطباعة العامرة فى البلدة الطيبة قسطنطينية سنة اثنا وأربعين ومائة وألف » ؛ وقد أضيفت أسفل هذا عبارة بالعربية أيضًا نصها « على يد الحقير إبراهيم الجغرافى من متفرقكان دركاه عالى » . وإذا كان المقصود من ذكر هذا التاريخ الذى يسبق فى الواقع تاريخ الطبعة بثلاثة أعوام هو الإشارة إلى أن إعداد الطبعة قد أخذ وقتًا طويلا فإن أسلوب هذا التوقيع كله ليقف دليلا على أن المصوّر ذو طابع مستقل وأنه قد نشر فى أغلب الظن منفصلا ثم ضم بالتالى إلى « جهانِنما » . أما المصوّر الذى يبين « بيت الإبرة » (الرسم رقم ١٣ بالصفحة ٦٥) فقد نُص بالتحديد على أنه يرتبط بالكتاب الآخر لإبراهيم متفرقة بعنوان « فيوضات مغنطيسية » الذى ظهر قبل عام من هذا فى سنة ١١٤٤ هـ = ١٧٣٢ ؛ ومن الواضح أن الرسم قد استعمل فى الحالتين .

أما عبارة « على يد ... إبراهيم » التى وردت فى الفقرة السابقة فليس هناك ما يدفعنا إلى أخذها أخذًا حرفيًا وأن نعد المصور من عمل يده شخصيًا ، فقد كان معاوناه الأولان فى هذا المجال رسامَيْن أو نقاشَيْن مشهورَيْن مر بنا اسماهما منذ لحظات ؛ وعدد الرسوم التى تحمل توقيع أحمد القريمى أحد عشر رسما هى الأول والثالث والثامن والعاشر والحادى عشر والرابع عشر والخامس والعشرون والثامن والعشرون والرابع والثلاثون والسادس والثلاثون والسابع والثلاثون ، وتلك التى تحمل توقيع مغردج الغلطوى سبعة هى السابع والثانى عشر والسابع والعشرون والثانى والثلاثون والثالث والثلاثون والخامس والثلاثون والتاسع والثلاثون . وهذا الأخير يعطى اسمه مرة على شكل مغردج « غلطة » كما فى الرسمين السابع والثانى عشر ، ومرة على شكل مغردج « غلطوى » وذلك فى بقية الرسوم ؛ وكلاهما يستعمل لفظ « عمل » ولو أنه ليس من الممكن أن نحدد بدقة أكثر ما الذى يجب فهمه من هذا اللفظ . وفى المصور رقم ٣٩ (ص ٦٢٩) يوجد إلى جانب التوقيع

العادى « عمل مغردج غلطوى » توقيع آخر هو « رسمه إبراهيم طوبخانوى » ؛ ويجب أن يفهم من هذا أن الأولين كانا نقاشين(٢٢٧) بينما كان الأخير رسامًا . وعلى الخارطتين الختاميتين لآسيا الصغرى والبوسفور (الرقمان ٣٩ و ٤٠ بصفحتى ٦٢٩ و ٦٧١) يبرز فجأة وبطريقة غير متوقعة على الإطلاق المذهب القديم وذلك بوضع الجنوب فى أعلى الخارطة مما يحمل على الاعتقاد أن إبراهيم قد اعتمد فى هذه الحالة بالذات على مصادر مغايرة . وكل هذه المسائل لا تزال تحتاج إلى
638 الفحص وهى تقف دليلاً جديداً على أن كلاًّ من «جهاننما» / وطبعة إبراهيم متفرّقة برسومها العديدة لم يدرسا بعد دراسة علمية جادة .

من كل ما تقدم يتبين لنا بصورة لاتقبل الشك أن إبراهيم متفرّقة لم يكن ذلك الطابع (printer) الكبير فحسب بل كان فى ذات الوقت جغرافيا مبرّزاً يقف فى مستوى واحد مع علماء الجغرافيا الأوروبيين المعاصرين له ؛ وينعكس هذا بصورة واضحة فى مجهوده العلمى الشخصي الذى أشرنا إليه كما ينعكس أيضاً فى إعداده لطبعة «جهاننما» وفيما زاده عليها من تذييلات ؛ وهو يقدم لنا فى هذه التذييلات معلومات قيمة عن الجغرافيا والكوزمولوجيا لدى الشعوب الأوروبية كما وأنه يقدم عرضاً عاماً لتاريخ الكوزمولوجيا وفق المصادر الأوروبية يمكن أن يعد أول محاولة لتعريف القارىء التركى بصورة العالم لدى الجغرافيين والفلكيين الكبار مثل بطلميوس وكوبرنيك وتيخوبراهى(٢٢٨) . أما عن الفترة التى تلى توقّف نشاط المطبعة فلعل مما يجتذب اهتمامنا بصورة خاصة واقعة معينة من تاريخ سيرة حياة إبراهيم ، ففى عام ١١٥٦ هـ = ١٧٤٣ بعث به الباب العالى إلى داغستان لتنصيب أحمد خان أوسمى على القيتاق*(٢٢٩) .

إن إدخال فن الطباعة إلى الدولة العثمانية والذى كان يُعدّ فاتحة عهد جديد فى تاريخ الثقافة التركية الحديثة قد أحدث رد فعل عظيم فى أوروبا لذلك العهد وفى الأوساط العلمية المعاصرة ؛ بل وحتى قبل ظهور الطبعات المختلفة فإن نبأ قيام المطبعة تردد صداه فى الصحف وتلى ذلك أن حظيت كل طبعة بإشارة خاصة كحدث هام قائم بذاته ؛ ومعظم الطبعات التى كانت تمثل أهمية خاصة قد تم تحليلها بتفصيل مستفيض أو ترجمت إلى اللاتينية أو إلى إحدى اللغات الأوروبية

---

(٢٢٧) شرحه ، ص ١٦ ب ، الملاحظة

(٢٢٨) - Taeschner, GLO, p. 62, note 3

* أوسمى لقب أمير القيتاق ويعتقد البعض أن أصل اللفظ هو مسمى العربى . (المترجم)

(٢٢٩) - Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 17b, note 1

الحديثة . وفى عام ١٧٥١ قدم سلسيوس فى تاريخه لمكتبة استكهولم تحليلا خاصًا لجميع ما نشرته المطبعة(٢٣٠) ، ومنذ ذلك التاريخ تعاقبت المؤلفات والبحوث عن المطبعة وعن مؤسسها أحيانًا وظل عددها يطرد إلى أيامنا هذه حتى توجت بالبحث المركّز الذى ندين به لقلم بابنجر (١٩١٩)*.

ولم تكن روسيا فى ظروف ذلك العهد على علم بظهور هذه الحركة الثقافية الجديدة فى الدولة العثمانية ، إلا أن اسم إبراهيم على الرغم من ذلك لم يكن مجهولا هناك فقد نقل إلى الروسية اثنان من الكتب التى طبعها وذلك فى عهد الإمبراطورة كاترينا رغما من أنهما فى حقيقة الأمر لم ينتميا إلى محيط الجغرافيا أو إلى المؤلفات التى تناولنا الكلام عليها ؛ ومن الطريف أن كلاهما ظهر فى عام ١٧٧٧ وربما كان ذلك نتيجة للحرب التى اندلعت منذ زمن غير بعيد بين الدولتين وانتهت بصلح كوجوك قينارجى (١٧٧٤) . أما الكتاب الأول فيحمل فى ترجمته الروسية عنوان « شرح التكتيك أو فن قيادة الجيش ، نشره وطبعه بالقسطنطينية باللغة التركية إبراهيم أفندى متفَرقة ونقله إلى الروسية الكسى لفاشيوف سان بطرسبورغ ١٧٧٧ » .

Izobrajenie Taktiki, ili iskusny obraz pravlenia voiskogo, obnarodovano i napichatano v Konstantinopole na turetskom iazyke Ibrakhimom Efendiem Mutteferikom. Perevedeno Alekseem Levashevim. SPb., 1777.(٢٣١)

639 ولا يترك العنوان أدنى شك فى أن / هذه الترجمة إنما اعتمدت على الترجمة الفرنسية التى ظهرت بفينا فى عام ١٧٦٩ لرسالة باللغة التركية نشرت عام ١١٤٤ هـ = ١٧٣٢ بمطبعة إبراهيم متفرقة بعنوان « أصول الحكم فى نظام الأمم » . ومؤلفها هو البارون بونيفال Bonneval (١٦٧٥ - ١٧٤٧) الذى اعتنق الإسلام واتخذ اسم أحمد باشا وشغل فى ذلك الوقت منصب قائد الطوبجية العثمانية(٢٣٢) ؛ وقد اقتضت عوامل عسكرية معينة ترجمة الرسالة أولا إلى الفرنسية ثم بالتالى إلى

(٢٣٠) شرحه ، ص ٣٢

* مما لاشك فيه أن كلام كراتشكوفسكى عن إبراهيم متفرقة فى هذا الفصل يعتبر خطوة إلى الإمام فى دراسة نشاط إبراهيم متفرقة وذلك لدى مقارنته بمقال موردتمان الذى ظهر « بدائرة المعارف الإسلامية » . (المترجم)

(٢٣١) - Mejov, 1, p. 249, No 5613

(٢٣٢) - Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 15

الألمانية التى تلتها الترجمة الروسية .

أما الأثر الثانى من بين مطبوعات إبراهيم متفرقة الذى وجد طريقه إلى البلاد الروسية فقد كان الأجرومية التركية لهولدرمان التى ظهرت باللغة الفرنسية فى القسطنطينية سنة ١٧٣٠ ؛ وكانت أول كتاب يطبع هناك بالفرنسية بالحروف المسبوكة. وكان طبع إبراهيم متفرقة لهذا الكتاب بمثابة استجابة لحاجة «الافرنج» المقيمين بالدولة العثمانية. أما ما ثار من نزاع حول شخص المؤلف فيمكن القول بأنه قد سُوّى الآن إذ ثبت أنه المبشر missionary الجزويتى هولدرمان J.B. Holdermann (١٦٩٤-١٧٣٠) من أهالى استراسبورج، واعتمد فى أجروميته على الأجرومية المشهورة من تأليف منسكى F. Meninski (١٦٢٣ - ١٦٩٨) ؛ وقد توفى المؤلف بعد ثلاثة أشهر من خروج مصنفه من المطبعة . هذا وقد قوبل الكتاب بحماس شديد من الصحافة العلمية لذلك العهد[٢٣٣] وظهرت له طبعتان فى روسيا فى وقت واحد بالتقريب[٢٣٤]. فالطبعة الأولى أخرجتها مطبعة أكاديمية العلوم فى عام ١٧٧٦ أما الثانية فظهرت فى عام ١٧٧٧ بمناسبة إدخال تدريس اللغة التتارية بجامعة موسكو ، وندين بهذه الترجمة الأخيرة لطالب يدعى غابليتزل Gablitzl وهى لا تختلف عن الترجمة الأولى إلا من حيث العنوان والافتتاحية ولعلها هى نفس تلك الترجمة ولكن تحت غلاف جديد . وثمة حقيقة أخرى لا تخلو من مغزى وهى أنه إذا كانت أجرومية هولدرمان هى أول كتاب فرنسى يطبع فى القسطنطينية بالحروف الفرنسية المحلية فقد كانت الترجمة أيضًا بالنسبة لروسيا أول كتاب تستعمل فى طبعه حروف الطباعة العربية المتحركة لا النقش على المعدن (gravure) .

ولقد كان بمقدور القراء الروس فى عهد كاترينا أن يكوّنوا فكرة عامة عن نشاط إبراهيم متفرقة وعن الطبعات التى خرجت من مطبعته ، فكتاب « قراءات من أجل الذوق والذهن والشعور » Chtenie dlia v kusa i razuma i chustvovanii الذى ظهر عام ١٧٩١[٢٣٥] يحتوى على « قطوف من الأدب التركى » Izvlechenia iz turetskoi literature مأخوذة عن كتاب « الأدب التركى » Letteratura Turchesca لتوديرينى المطبوع بالبندقية عام

---

(٢٣٣) شرحه : ص ١٤ — ١٥ ، ١٩

(٢٣٤) - Mejov, I, p. 277 - 278, No, 6294 - 6295 - Piatnitski, p. 138 - 140

(٢٣٥) القسم الثانى ، ١٩٥ — ٢٤٦

١٧٨٧[٢٣٦] . وقد أقام الأب توديريني G. Toderini (١٧٢٨ - ١٧٩٩) لمدة خمس سنوات بالقسطنطينية (١٧٨١ - ١٧٨٦)، ووضع مؤلفًا عامًا فى ثلاثة أجزاء يعرض فيها تاريخ الأدب العثمانى/بل وجميع جوانب الثقافة لدى العثمانيين. وكان الكتاب يعد بالنسبة لعصره 640
المؤلف الأساسى فى هذا الموضوع ، ولم يلبث أن ترجم سريعًا إلى الفرنسية (١٧٨٩) والألمانية (١٧٩٠)[٢٣٧] ؛ والمؤلف يولى أهمية خاصة فى كتابه هذا للطبعات الأولى التى ظهرت بتركيا[٢٣٨] . من كل هذا يستبين لنا أن « المتشوفين إلى المعرفة من بين الروس » فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر كان بمقدورهم أن يتعرفوا لا على اسم إبراهيم متفرقة فحسب بل وأيضًا على مطبوعاته الجغرافية وعلى نشاطه كجغرافى ذى مكانة .

ونشاط هذه الشخصية التى جهدت كثيرًا فى إدخال فن الطباعة إلى الدولة العثمانية ونشر المعارف الجغرافية بين رعاياها ، الأمر الذى يعد بحق أهم ظاهرة فى الأدب الجغرافى التركى للقرن الثامن عشر، يجب ألا يخفى عن ناظرنا جوانب جديدة فى مؤلفات ذلك العصر لا يمكن القول بأنها كانت فقيرة فى مادتها . وبالطبع فإنه لم تظهر أنماط جديدة لم تكن معروفة لنا من قبل ، كما أن الأنماط السابقة قد تبلورت واكتسب بعضها أهمية خاصة بل ورواجًا خاصا فى بعض الأحايين . فإلى عهود قريبة جدًا ظلت تظهر الأوصاف الطبوغرافية والمنطقية (regional) وفقًا للمنهج القديم فى مختلف بلاد الدولة العثمانية ، إلا أن النمط الذى اكتسب الرواج والذيوع لدى القراء كان نمط الرحلة فى أشكاله المتعددة . فإلى جانب الترجمات (translations) التى ربما كان مبعثها دوافع شخصية ، والرحلات التى اتجه معظمها إلى الشرق ، اتسعت بشكل ملحوظ حلقة الحجيج الذى كان يخرج من مختلف بلدان الدولة وانعكس ذلك فى مختلف الصور الأدبية . كما نما بصورة خاصة طراز ما يسمى «سفارتنامه»، وهى أوصاف للسفارات التى بعث بها الباب العالى إلى الحكومات الأجنبية . هذا وقد تمخض النشاط الدبلوماسى للدولة العثمانية فى ذلك العهد عن قيام علاقات قوية مع عدد كبير من الدول فى الشرق والغرب ، غير أن ما دوّن من آثار فى هذا الصدد يمس بصورة خاصة دول أوروبا التى كانت تمثل بالنسبة للأتراك طرافة الشىء الجديد . وبفضل نمط « سفارتنامة » هذا الذى ظل يصدر فى سلسلة لا تنقطع وفى أشكال متنوعة فإنه

---

(٢٣٦) - Mejov, I, p. 279, No 6327

(٢٣٧) - Babinger, Stambules Buchwesen, p. 5, 15

(٢٣٨) شرحه ، ص ١٣٢

وجدت تحت تصرفنا أوصاف متعددة لبلدان مختلفة يمثل بعضها أهمية خاصة كبولندا وروسيا . أما أدب الترجمة ، أعنى ترجمة الآثار الجغرافية الأوروبية وصياغتها بصورة تلائم عقلية القارىء التركى فقد أخذ ينمو بصورة ملحوظة فى القرن الثامن عشر [٢٣٩] بحيث يستطيع كل نمط من الأنماط المعروفة لنا أن يقدم فى هذا الصدد نماذج جديرة بالاهتمام .

وفى محيط الطبوغرافيا (أى تخطيط المدن) والجغرافيا التاريخية بوجه عام فإن المكانة الأولى يحتلها بالنسبة لنا أثر لا يزال محتفظًا بكل قيمته كمدخل عام إلى أيامنا هذه وهو « حديقة الجوامع » لحسين بن إسماعيل الإيوانسرائى (توفى عام ١٢٠١ هـ = ١٧٨٦) ، والذى ولد بضاحية من ضواحى القسطنطينية ومنها أخذ نسبته [٢٤٠] . وهو يقدم لنا فى مصنفه هذا وصفًا
641 لكل «الجوامع» و «المساجد» / و «المعابد» وزوايا الصوفية والمدارس وتكايا المساكين والمستشفيات والمقابر المشهورة سواء كانت باستنبول أو بالنواحى القريبة منها ، ذاكرًا فى الوقت نفسه أسماء وأخبار مؤسسيها وبناتها . وهو يعدد هذه المنشآت وفق حروف المعجم مع تواريخ بنائها إلى عام ١١٩٣ هـ = ١٧٧٠ ، وقد يصل بذلك فى بعض المواضع إلى عام ١١٩٥ هـ = ١٧٧٢ وهو العام الذى انتهى فيه من تدوين كتابه إذا استندنا فى ذلك على خاتمة الكتاب . هذا المصنف الذى يرتفع إلى نمط « الخطط » القديم المعروف لنا جيدًا يمثل أهمية لا نظير لها بالنسبة لتاريخ المعمار والفن بوجه عام خاصة وأن عددًا كبيرًا من المبانى التى وصفها قد اندرس فيما بعد ، كما أن المادة التى يضمها بين دفتيه من مجالى التاريخ الاجتماعى والاقتصادى لا تقل أهمية عن ذلك ؛ وفوق هذا فهو كتاب موثوق به فيما يتعلق بجميع مسائل الجغرافيا التاريخية [٢٤١] . وقد قدر الأتراك قيمته فى القرن التاسع عشر فظهر عدد من المختصرات والتتمات بل ومصنفات جديدة من الطراز نفسه يمثل بعضها تقليدًا صرفًا لهذا الكتاب [٢٤٢] . وأشهر ذيوله مصنف لعلى ساطع أفندى (توفى عام ١٢٥٨ هـ = ١٨٤٢) الذى امتاز بمعرفته العميقة بخطط استنبول وقد وصل بالكتاب إلى عام ١٢٥٣ هـ = ١٨٣٧ ؛ وطبعت هذه النسخة المصلحة فى جزئين عام ١٢٨١ هـ = ١٨٦٤ . وإلى جانب هذا فإن هناك ذيلا آخر لا يزال على هيئة مخطوطة ويصل إلى

---

(٢٣٩) - Kramers, EI, EB, p. 73 - Taeschner, GLO, p. 71 - 78

(٢٤٠) - Babinger, GOW, p. 315 - 316, No 292

(٢٤١) - Taeschner, GLO, p. 71 - 72

(٢٤٢) - Babinger, GOW, p. 316 and note 1

عام ١٢٧٦ هـ = ١٨٥٩ . من هذا يتبين لنا أن النمط القديم « للخطط » قد ظل يتمتع بالحيوية إلى العصر الحديث لا فى الوسط العربى وحده بل وبين الأتراك العثمانيين أيضًا .

ويصدق هذا الحكم بصورة أدق على الرحلات التى تكاثر عددها بشكل واسع فى القرن الثامن عشر والتى يمكن توزيعها على الأنواع المختلفة التى ذكرناها . ومن بين الرحلات التى اتجهت شرقًا إلى إيران نكتفى بذكر اثنتين فقط حدثتا فى وقت واحد حوالى منتصف ذلك القرن . فمؤلف الرحلة الأولى التى إلى جانب هذا تعكس سيرة حياته الطريفة بالنسبة لنا هو نعمان أبو سهل صالح زاده[٢٤٣] ، وأصله من الأناضول الشرقية ولكنه عاش طويلا ببلاط منكلى كراى خان القريم وشغل منصب قاضى عسكر بكفا (فيودوسيا) ، وعقب صلح بلغراد مع النمسا فى عام ١١٥٤ هـ = ١٧٤١ عين مندوبًا فى لجنة تخطيط الحدود ؛ ثم نجده فيما بعد ضمن أفراد سفارة أحمد باشا كسر يلى إلى نادر شاه فى عام ١١٦٠ هـ = ١٧٤٧ . وقد تردد صدى جميع هذه الخطوات الثلاث لتاريخ حياته فى كتابه « تدبيرات پسنديده » (« التدبيرات المستحسنة ») الذى ينقسم إلى ثلاث مقالات ، فيلى الافتتاحية المقالة الأولى التى يتناول فيها الكلام على رحلاته بالقريم وإقامته ببلاط منكلى كراى ، أما الثانية فتتحدث عن نشاطه كمندوب للجنة الحدود بالنمسا ، بينما تعالج الثالثة ، وذلك بعد افتتاحية جديدة تمس الأحداث السابقة ، رحلته الإيرانية التى بلغ فيها همدان . ومن هذا يبدو لنا أن أفق رحلته متسع بما فيه الكفاية من الناحية الجغرافية ومتنوع ، كما أن مادته حافلة وتتميز بالطرافة فى كل جانب من / جوانبها . ولكن مما يؤسف له أن 642
المصنف ما زال معروفًا إلى الآن فى مخطوطاته فقط .

وقد شارك فى نفس هذه السفارة إلى إيران زميل آخر له ترك لنا وصفًا لها هو مصطفى رسمى (توفى عام ١١٦٤ هـ = ١٧٥١) الذى تتركز أهميته بالنسبة لنا قبل كل شىء فى أن أصله من بغجه سراى بالقريم . وقد شغل بالتالى عددًا من المناصب الكتابية بعاصمة الدولة نفسها ثم ضم إلى هذه السفارة فى مهمة « مؤرخ رسمى » . غير أن مصنفه « سفارتنامه إيران » غير معروف إلى الآن بصورة مباشرة ، ويبدو أن ذكرى مسقط رأسه قد ترددت لديه فى مصنف بعنوان « تاريخ تتار » لعله يمس تاريخ خانات القريم[٢٤٤] .

وكما ذكرنا قبل قليل فقد حظى بازدهار خاص بين نمط الرحلة فى ذلك العهد وصف الحج

---

(٢٤٣) شرحه ، ص ٢٧٥ – ٢٧٦ ، رقم ٢٤٦

(٢٤٤) Babinger, GOW, p. 285, No 259; cf, p. 328, No 10 -

الذى يسير على نهج تقليد ضارب فى القدم فى البلاد العربية ؛ وليس ثمة ما يبرر تقديم قائمة بهذه الأوصاف ويجدر بنا كما حدث فى حالة سابقة مماثلة أن نكتفى بالإشارة إلى بعض النماذج إما لأنها معروفة بصورة أفضل لدى الدوائر العلمية أو لأنها تنفرد لسبب ما بصفات تميزها عن غيرها . ومن أكثر هذه الأوصاف تفصيلا كتاب « مناسك الحج » لمحمد أديب الذى يرجع إلى عام ١١٩٣ هـ = ١٧٧٩ ، وهو معروف فى طبعة استنبولية قديمة ترجع إلى عام ١٢٣٢ هـ = ١٨١٦ - ١٨١٧ وفى ترجمة فرنسية غير كاملة بقلم بيانكى Bianchi (١٨٢٥)[٢٤٥] . هذا الكتاب يتميز على بقية أوصاف الحج بأنه لا يقنع بوصف مناسك الحج التى تتكرر إلى ما لا نهاية مع تغيرات طفيفة فى عدد لا يحصى من المؤلفات بل يفضل الكلام فى وصف الرحلة نفسها وبذا يصلح كمرشد لمن يريدون زيارة بيت الله مبينًا لهم جميع معالم الطريق خاصة تلك التى ترتبط بتاريخ السيرة النبوية[٢٤٦] ؛ ويمكن أن نتبين أحيانًا تأثير المصادر الأدبية فى هذا الكتاب فقد ثبت أنه يعتمد فى بعض أقسامه على « جهانما »[٢٤٧] .

وأكثر من هذا نلتقى بين مجموعات المخطوطات الحافلة بما يسمى « وصف طريق الحج » الذى يكتفى بسرد جاف لمنازل الطريق[٢٤٨] ؛ وهذه الأوصاف لا تخلو فى ذاتها من بعض الأهمية أحيانًا بالنسبة لطبوغرافيا وتاريخ بعض المواضع التى يرد ذكرها فيه ، غير أن الوصف يتكرر على الدوام فى هذه الكتيبات المختلفة ولا يعتريه أدنى تغير ملحوظ . ولما كان العرض تغلب عليه العجلة وعدم الاكتراث فإن الأخطاء كثيراً ما وجدت سبيلها إليه ، كما وجدت طريقها إليه فوق ذلك النقول والاقتباسات من المؤلفين السابقين[٢٤٩] .

643 ويمكن أن نميز من بين هذه الأوصاف مجموعة خاصة ذات أهداف أدبية ، أى تلك التى تهدف بجانب أغراض الإفادة والتعليم تقديم وصف ذى طابع أدبى ؛ وخير مثال لهذا مؤلف أصله من أورفا (الرها) ولكنه عاش طويلا بحلب ثم شغل فيما بعد منصبًا كبيرًا بالعاصمة استنبول

---

(٢٤٥) - Bianchi, p. 81 sui. - the error of Bianchi in the date by a margin of 100 years noticed by Taeschner (Taeschner, GLO, p. 72).

(٢٤٦) - Taeschner, GLO, p. 72

(٢٤٧) شرحه ، ص ٧٣ ، الحاشية ١

(٢٤٨) شرحه ، ص ٧٢ – ٧٣ ، الحاشية ٣

(٢٤٩) شرحه ، ص ٧٣

واسمه يوسف نابى (توفى عام ١١٢٤ هـ = ١٧١٢)[٢٥٠] ؛ وله عدد من المصنفات التاريخية المكتوبة بأسلوب معتنى به يجمع بين النثر والشعر، كما أن له أيضاً ملحمة تهذيبية نالت رواجاً كبيراً كان قد وضعها من أجل ابنه وصاغها فى وزن شعرى معقّد[٢٥١]. وجميع هذه المصنفات كسبت فى عصره وفى العصور التالية شهرة واسعة حتى أصبحت أنموذجًا أدبيًا يحتذى وجعلت المؤلف يفوز بلقب « ملك الشعراء » . وفى أسلوب مصنوع أيضًا صاغ وصف رحلته إلى الحجاز فى عام ١٠٨٩ هـ = ١٦٧٨ الذى يحمل عنوان « تحفة الحرمين » ، وقد بدأها من اسكدار مارًا بقونيه واورفا وحلب ودمشق والقدس ، وأتم تدوينها حوالى عام ١٠٩٣ هـ = ١٦٨٢ وطبعت باستنبول عام ١٢٥٦ هـ = ١٨٤٩ . أما مضمونها وإن جرت صياغته فى أسلوب رشيق فإنه كما يقول تيشنر غير مستساغ بالنسبة لنا[٢٥٢]، ويصدق هذا بشكل أكبر على الأوصاف الأخرى التى صيغت نظماً والتى يمكن القول بأن معظمها لا قيمة له من أجل البحوث الطبوغرافية والجغرافية بوجه عام[٢٥٣].

ويمكن لأوصاف السفارات « سفارتنامه » المختلفة أن تنافس من حيث الكم أوصاف الحج إن لم تفقها ، وهى على وجه العموم تعتبر من أكثر ما يميز هذا العهد بل إنها تركت طابعها الخاص على جميع / الأدب الجغرافى التركى للقرن الثامن عشر بنفس القدر الذى ترك به حاجى خليفة 644
وأوليا جلبى طابعهما على القرن السابع عشر . ويعدد لنا تيشنر من بينها ثمانية عشر مصنفاً[٢٥٤] ارتفع بها بابنجر إلى ستة وعشرين مصنفًا[٢٥٥] ؛ وهى فى الواقع أكثر من هذا[٢٥٦] بل إن من بينها عددًا غير قليل يمس روسيا مسًا مباشرًا . ويوجد عدد منها فى ترجمات وتعديلات قديمة وحديثة باللغات الأوروبية ، بل إن بعضها قد نقل إلى البولندية والروسية فى النصف الأول من القرن الماضى .

وتقفز إلى مقدمة السفارات التى تركت أثرها فى الأدب سفارة قره محمد باشا فى عام

---

(٢٥٠) - Babinger, GOW, p. 237 - 239, No 209 - Babinger, Nabi, p. 867 - 868

(٢٥١) - Smirnov, Ocherk, p. 511 - 513

(٢٥٢) - Taeschner, GLO, p. 73

(٢٥٣) شرحه

(٢٥٤) شرحه ، ص ٧٥ — ٧٨

(٢٥٥) - Babinger, GOW, p. 323 - 332, No 299

(٢٥٦) - Cf. : Hammer, Geschichte, IX, p. 303 - 334

١٠٧٥ هـ = ١٦٦٥ إلى فينا ؛ وقد أحاط بهذه السفارة الكثير من مظاهر العظمة والأبهة وضمت حاشيته مائة وخمسين شخصًا كان من بينهم كما ذكرنا فى حينه الرحالة أوليا جلبى الذى واصل بمفرده فيما بعد رحلته فى أوروبا الوسطى . والوصف الذى حفظه لنا أوليا جلبى عن هذه السفارة والذى ضمنه الجزء السابع من مؤلفه الضخم يمكن أن يعد فى هذه الحالة أقدم « سفارتنامه » مفصلة باللغة التركية[٢٥٧] .

هذا وكانت الصلة بين الأدبين التركى والعربى وثيقة للغاية فى بعض الأحايين داخل هذا النمط ، وينعكس هذا بصورة خاصة فى سفارة محمد سعيد المشهورة إلى فرنسا التى بعث بها السلطان أحمد فى عام ١١٣٢ هـ - ١١٣٣ هـ = ١٧٢٠ - ١٧٢١ إلى بلاط لويس الخامس عشر[٢٥٨] . وقد أثارت زيارته لباريس اهتمامًا كبيرًا وتردد صداها بقوة فى الصحافة الفرنسية المعاصرة بل وحتى فى فن التصوير[٢٥٩] . ومصنفه « سفارتنامه » معروف فى روايتين إحداهما مفصلة والأخرى مجملة ، وقد طبع عدة مرات وترجم أكثر من مرة إلى الفرنسية منذ منتصف القرن الثامن عشر . وقد وصف المبعوث بتفصيل كبير طريق رحلته من طولون إلى باريس ومشاهد العاصمة المشهورة واستقبال الملك له وما لقيه من تقدير وإكرام[٢٦٠] ؛ وقد اكتملت لنا من كل هذا لوحة فنية حية طريفة بالنسبة للأتراك والأوروبيين على السواء . هذا وكان وصفه ، وأكثر من هذا دعاية ابنه سعيد الذى صحبه فى هذه الرحلة ، عاملا كبيرًا فى إدخال فن الطباعة إلى تركيا[٢٦١] . ولا يخلو من مغزى أن يجتذب هذا الأثر أنظار العرب بصورة خاصة ؛ ونصه العربى موجود فى عدد كبير من المخطوطات[٢٦٢] توجد من بينها واحدة بمعهد الدراسات الشرقية السوفيتى ضمن / مجموعة 646
روسو[٢٦٣] ، ولا يزال الأمر يتطلب بحثاً خاصاً لتحديد العلاقة بين هذه المخطوطات بعضها مع

---

(٢٥٧) - Babinger, GOW, p. 324 - 325, No 1

(٢٥٨) - Taeschner, GLO, p. 76, No 4 - Babinger, GOW, p. 326 - 327, No 5 - Carra de Vaux, Les Penseurs, I, p. 253 - 259

(٢٥٩) - Martino, L'Orient, p. 95 - 101

(٢٦٠) - Cheikho, Catalogue raisonné, p. 17 (229)

(٢٦١) - Taeschner, GLO, p. 78 - Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 9a.

(٢٦٢) - Gotha, No 1548 (Pertsch, III, p. 178 - 179); Beyrouth (Cheikho, Catalogue raisonné, p. 16 - 17 (228 - 229), No 293).

(٢٦٣) - Rosen, Notices sommaires, p. 196 - 197, No 243

بعض بل وبين النصوص التركية والفرنسية والعربية المعروفة لنا ؛ ولا شك أن مثل هذا البحث سيؤكد مرة أخرى الطابع التركيبى (synthetic) للأدب الجغرافى فى ذلك العصر.

ويمكن أن نختتم سلسلة السفارات العديدة إلى فرنسا والتى سارت متتابعة الحلقات على ممر القرن الثامن عشر بالوقوف عند بعثة عبد الرحيم محب التى أرسلت عام ١٢٢٠ هـ = ١٨٠٦[٢٦٤] ؛ وكان الغرض منها حمل هدايا إلى نابليون وتهنئته وأن تبذل قصارى جهدها فى ذات الوقت لإقناعه بالدفاع عن مصالح تركيا عند عقد الصلح مع روسيا . وفى ذلك المصنف الضخم الذى يقع فى ٣٦١ ورقة من القطع المزدوج أدرج عبد الرحيم أيضًا تقاريره إلى الصدر الأعظم التى تنتظم مدى ستة أعوام كما ضمنه جميع تعليقات سفراء الدول الأجنبية فيما يتصل بوضع الدولة العثمانية ووصف فيه محادثاته مع تاليران Talleyrand ومع الكونت روميانتسف Rumiantsev وتلستوى Tolstoy ، كذلك عرض فيها خواطره الشخصية ؛ ومما يسبغ على الكتاب أهمية أكثر هو أن المؤلف ضمّنه الإجابات والتعليمات التى تسلمها من قبل حكومته . وفى مقابل هذا تقتصر الرواية المجملة بصورة خاصة عند حد تحليل الأوضاع الداخلية بفرنسا ووصف المعالم المشهورة مما يمكن من إجراء مقارنة طريفة مع وصف محمد سعيد الذى يرجع إلى عام ١١٣٢ هـ = ١٨٢٠ والذى مر بنا الكلام عليه قبل قليل ، بحيث يمكن ملاحظة التغيرات التى طرأت منذ تلك الزيارة الأولى . والمؤلف يكشف دائمًا عن مقدرة فائقة فى الملاحظة الدقيقة وعن معرفة جيدة بقواعد السلوك الدبلوماسى . أما أهمية وصفه بالنسبة للجغرافيا فى مفهومها الواسع فلا يحتاج إثباتها إلى عناء فهو يقدم لنا لوحة للرحلة نفسها وفى ذات الوقت يقدم تحليلا عميقًا للأوضاع السائدة بأوروبا لذلك العهد مما كان يمثل إلى جانب غيره من الأهداف إحدى المهام الأساسية للبعثة[٢٦٥] . وبالنظر إلى أننا بسبيل تحليل آثار حافلة غنية كهذه فإنه لا يمثل سوى عنصر من الطرافة إشارتنا إلى أنه قد وجدت أيضًا أوصاف سفارات منظومة بالشعر ، أى بالأسلوب والطريقة التى التقينا فيها ببعض أوصاف الحج المنظومة . وخير مثال لذلك سفارة حاجى على أغا زشتولى المتوفى عام ١١٧٤ هـ = ١٧٦١ وتشير النسبة إلى أنه من زشتوه أى مدينة سستوفا Sistova البلغارية ، فقد بُعث به إلى بولندا فى عام ١١٦٨ هـ = ١٧٥٤ لينقل خبر ارتقاء السلطان عثمان الثالث عرش آبائه[٢٦٦] . وفى المصنفات التى من هذا الضرب الأخير

---

(٢٦٤) - Babinger, GOW, p. 341 - 342, No 300

(٢٦٥) - Cf: Taeschner, GLO, p. 77 - 78

(٢٦٦) شرحه ، ص ٧٨ ، الحاشية – Babinger, GOW, p. 329, No 14

يغلب الشكل على المضمون تمامًا ، كما أنها قليلا ما تقدم مادة جغرافية يؤبه لها .

وقد شغلت بولندا وروسيا على مر هذه القرون مكانة هامة فى نشاط الدبلوماسية التركية ، لهذا فليس من الغريب أن اتجه عدد كبير من هذه السفارات إلى تلك البلاد بأهداف متعددة . وبعض هذه السفارات حفظ لنا أوصافًا متشابهة نقل بعضها إلى لغات تلك البلاد فى صورة ترجمات / 648
كاملة أو معدّلة . وعند هذه الأخيرة فقط نسمح لأنفسنا بالتوقف للحظة قصيرة ، خاصة وأن ذيول النسيان كادت أن تغطى عليها ؛ ويرجع فضل كبير فى دراستها إلى المستشرق سنكوفسكى Senkovski وذلك فى الفترة المبكرة لنشاطه العلمى فقد لفت النظر منذ عام ١٨٢٥ فى الجزء الثانى من مجموعة مقالاته Collectanea باللغة البولندية إلى ثلاث من هذه السفارات مع إيراد ترجمة مختصرة لها تعتمد فى أغلب الأحيان على المتن الموجود بتاريخ أحمد واصف أفندى (توفى عام ١٢٢١ هـ = ١٨٠٦)[٢٦٧] . وأول هؤلاء الثلاثة من الناحية الزمنية هو درويش محمد الذى سافر مبعوثًا إلى روسيا فى عام ١١٦٨ هـ = ١٧٥٥[٢٦٨] لينقل خبر اعتلاء السلطان الجديد العرش ؛ وإلى جانب وصفه للطريق من استنبول إلى بطرسبرغ يصف لنا بتفصيل كاف استقباله فى مختلف المدن الروسية وزياراته للمستشار بستوجف Bestujev ولنائب المستشار ، ولا يخلو وصفه أحيانًا من تفاصيل تفيض بروح الفكاهة ، كما لا تخلو من الطرافة ملاحظاته عن كييف ونوفغورود وعن الحفل التنكرى الذى شهده بالبلاط الامبراطورى وعن مرفأ كرونشتات Kronstadt وقصر بيترهوف Peterhof اللذين أجال فيهما النظر بصورة خاصة[٢٦٩] . وفى عام ١٨٢٦ نشر سنكوفسكى ترجمة لوصفه باللغة الروسية فى « الأرشيف الشمالى » Severnii Arkhiv[٢٧٠] ؛ وفى ذات الوقت ظهرت الترجمة الفرنسية بقلم ديموريه Dumoret فى « المجلة الأسيوية » الفرنسية Journal Asiatique[٢٧١] . وتقرب منه من الناحية الزمنية رحلة محمد أغا إلى بولندا عام ١٧٥٧ التى نقلها سنكوفسكى إلى البولندية معتمدًا على تاريخ واصف أيضًا[٢٧٢] ؛ ومن الملاحظ أن بابنجر لا يذكر عنها شيئًا عند كلامه على السفارات[٢٧٣] .

---

(٢٦٧) - Sekowski, Collectanea, II, p. 290 - 304

(٢٦٨) - Babinger, GOW, p. 335 - 337 No 301

(٢٦٩) - Mejov, I, p. 275, No 6233

(٢٧٠) - Senkovski, Dervish Mukhammed, p. 3 - 18

(٢٧١) - Babinger, GOW, p. 328, No 11

(٢٧٢) - Sekowski, Collectanea, II, p. 211 - 221

(٢٧٣) - Babinger, GOW, p. 328

أما أهم هؤلاء المؤلفين الثلاثة الذين عرّف بهم سنكوفسكى القراء فى بولندا ثم فى روسيا فقد كان دون نزاع أحمد رسمى أفندى (توفى عام ١١٩٧ هـ = ١٧٨٣) ، وهو دبلوماسى كبير وكاتب مؤرخ موهوب[٢٧٤] إلى جانب إجادته التامة للغة العربية التى ترك لنا بها « مقامات » وتآليف أخرى من مجال الأدب المصنوع[٢٧٥]. وفى عام ١١٧١ هـ = ١٧٥٧ رحل أحمد رسمى أفندى إلى فينا كسفير ، وفى عام ١١٧٦ هـ = ١٧٦٣ اجتاز بولندا فى طريقه إلى بلاط ملك بروسيا ببرلين وخلف لنا وصفًا مفصلا لانطباعاته عن السياسة البروسية وعن مدينة برلين وعن سكانها وعن كل ما يتصل برحلته فى بولندا . وفى خلال إقامته ببرلين فى عام ١٧٦٤ تبادل معه المستشرق المكلنبرجى Mecklenburg الشهير تيخسن O. G. Tychsen أستاذ فرين عددًا من المكاتبات باللغة العربية لم يلبث أن نشرها هذا الأخير فيما بعد ضمن مختاراته العربية (١٧٩٢)[٢٧٦] .

649 هذا وقد تعرف القراء الأوروبيون على هاتين السفارتين منذ عهد هامر (١٨٠٩) ، كما أن سنكوفسكى قدم فى مجموعته المذكورة ترجمة بولندية لوصف الرحلة الثانية[٢٧٧]. وبعد أعوام طويلة من هذا وبمناسبة اندلاع حرب القريم نشر تلميذه غريغورييف Grigoriev الذى صار فيما بعد الأستاذ الأول لتاريخ الشرق بجامعة بطرسبرغ الترجمة الروسية فى مجلة « موسكفتيانين » Moskvitianin (١٨٥٥)[٢٧٨] ؛ وقد ظل هذا الأثر يجتذب الأنظار فى الأدب الأوروبى فى القرن التاسع عشر . وبفضل مجهود سنكوفسكى تعرف القراء الروس على أثرثان لأحمد رسمى أفندى يرتبط ارتباطًا مباشرًا بروسيا هو رسالته « خلاصة الاعتبار » التى تكشف عن ذكاء وفطنة وتتعلق بنتائج الحرب الروسية التركية ١٧٦٩ - ١٧٧٥ . هذا الأثر الذى لا يخلو أسلوبه من الفكاهة ولكنه يفيض بسخرية مريرة قد صيغ فى لغة بسيطة للغاية أقرب إلى لغة الكلام اليومية ويعد أنموذجًا من النماذج الكلاسيكية الكبرى فى الأدب العثمانى[٢٧٩] . وهو إلى جانب هذا يقدم لنا لوحة حية لتطور الأحداث التاريخية على مدى عشرة أعوام بالتقريب ؛ والكتاب فى مجموعه يحفل

---

(٢٧٤) شرحه ، ص ٣٠٩ - ٣١٢ ، رقم ٢٨٨

(٢٧٥) - Brockelmann, GAL, II, p. 430, No 7

(٢٧٦) - Hartmann, Tychsen, II, 1. p. 351 - 352, 353 - 358 - Tychsen, p. VI. IX (dates - 1205 !)

(٢٧٧) - Sekôwski, Collectanea, II, p. 222 - 289

(٢٧٨) - Mejov, I, p. 275, No 6236 - Veselovski, Grigoriev, p. 95 - Grigoriev, Zapiska

(٢٧٩) - Smirnov, Ocherk, p. 498 500

بتفاصيل جغرافية وافرة صيغت فى نفس الأسلوب الساخر . وقد ظهرت أول ترجمة له بالألمانية فى عام ١٨١٣ وقام بها المستشرق المشهور ديتس Diez الذى كان يمد جيته Goethe بالمعلومات عن الشرق ، وهو يعد من أوائل المشتغلين بالدراسات التركية فى أوربا . ولم يكن بوسع الكتاب ألا يجتذب نظر سنكوفسكى خاصة وأن أسلوبه تربطه به رابطة الرحم ، ففى عام ١٨٤٢ قدم ترجمة كاملة أو على الأصح معدّلة بطريقته الساحرة الجذابة ونشرها فى مصنفه « مكتبة القراءة » Biblioteka dlia chtenia ؛ وقد اعتمد سنكوفسكى فى ترجمته على مخطوطتين كانتا بمكتبة جامعة بطرسبرغ ليس لهما الآن من أثر[٢٨٠] . وبمناسبة اندلاع حرب القرم أعيد طبع الترجمة فى عام ١٨٥٤ ، ثم نشرها فيها بعد تلميذ سنكوفسكى المستشرق ب. سافيليف B. Saveliev مزودة بملاحظاته ضمن «مجموعة مصنفات سنكوفسكى» Sobranie Sochinenii[٢٨١] . ولا شك فى أن هذه الترجمة تدخل فى عداد أفضل ما سطره يراع ذلك المستشرق الأديب . غير أن رسالة أحمد رسمى تمثل فى ذاتها مصنفًا طريفًا فيما يتعلق بتوضيحها للمادة الجغرافية ومعالجتها لها وهذا هو السبب الذى جعلنا نفرد لها سطورًا فى عرضنا هذا إلى جانب سفارته البرلينية .

هذه النماذج الثلاثة للسفارات التى وجدت طريقها إلى الأدب الروسى بفضل مجهود سنكوفسكى وغريغورييف لا تستوعب جميع السفارات « سفارتنامه » التى تتصل بروسيا ؛ ولا يزال أمام علماء التركيات الروس مهمة قومية لدراسة هذه المادة فى المستقبل وإلقاء الضوء على جوانبها الغامضة . وهى ترجع بأكملها تقريبًا إلى القرن الثامن عشر ولا نعرف عن بعضها شيئًا ما بخلاف وجود أوصافها بين مجموعات المخطوطات ؛ وإذا ما حاولنا أن نرتبها ترتيبًا زمنيًا فسنلتقى
650 بالأسماء الآتية : محمد أمين (توفى عام ١١٦٣ هـ = ١٧٥٠) الذى / ذهب سفيرًا إلى روسيا
فى عام ١١٥١ هـ = ١٧٣٨[٢٨٢] ؛ وعثمان شهدى الذى زار بلاط كاترينا عام ١١٧١ هـ = ١٧٥٧ وخلف لنا وصفًا للعاصمة يفيض بالحيوية وتحليلا لشخصيات كبار رجال الدولة[٢٨٣] ؛ ومحمد أمين نحيفى الذى وصف سفارة عبد الكريم باشا الذى عقد الصلح مع روميانتسف وكان سفيرًا ببطرسبرغ عام ١١٨٥ هـ = ١٧٧٢[٢٨٤] ؛ ونجاتى الذى ترك لنا وصف السفارة التالية

---

(٢٨٠) - Senkovski, Sobr. Soch., VI, p. 234, note

(٢٨١) شرحه ، ص ٢٣٤ – ٢٤٣

(٢٨٢) - Babinger, GOW, p. 328, No 8

(٢٨٣) شرحه ، ص ٣٢٨ – ٣٢٩ ، رقم ١٣

(٢٨٤) شرحه ، ص ٣٢٩ ، رقم ١٥

التى وصلت بعد ثلاثة أعوام من هذا وذلك فى سنة ١١٨٩ هـ = ١٧٧٥ [٢٨٥] . ويختتم سلسلة هؤلاء الرحالة المعروفين لنا مصطفى راسخ (توفى عام ١٢١٨ هـ = ١٨٠٣) الذى بعث به الباب العالى عقب صلح ياسى (فى عام ١٢٠٥ هـ = ١٧٩٠) إلى العاصمة الروسية فى عام ١٢٠٧ هـ = ١٧٩٣ والذى رجع إلى استنبول فى العام التالى لهذا؛ ومما يسبغ على وصفه أهمية خاصة هو تحليله لعدد كبير من شخصيات البلاط الروسى معتمدًا فى ذلك على ملاحظاته الشخصية[٢٨٦] كما وأنه لا يهمل إلى جانب هذا الكلام عن البلاد نفسها . وبجانب هذه الشخصيات التى ذكرناها فستكون من مهمة المتخصصين فى الدراسات التركية أن يبينوا بوجه التحديد المصادر التى اعتمد عليها كتاب صدر بالروسية هو « رحلة التركى قره بولاد الذى كان يعمل كاتمًا للسر لدى السفير العثمانى بروسيا » Puteshestvie turka Karabulata byvshego sekretaria posolstva pri turetskom posle v Rosii . ويقال إن هذا الكتاب قد نقله عن التركية شخص يدعى يرميا شبينكوفسكى Y. Shpynkovski فى عام ١٧٨٢ [٢٨٧] ، ومن الملاحظ أنه لم يرد ذكر له فى كتاب بابنجر .[٢٨٨]

إن سلسلة السفارات المتتابعة الحلقات والتى لم تنقطع ولو لمدة خمسة أعوام متتالية ، لتقف دليلاً على ما تمتع به هذا النمط من ذيوع ورواج فى ذلك العصر وتوكد مرة أخرى أنه قد ترك طابعه المميز على جميع الأدب الجغرافى التركى لتلك العصور . وبهذا النمط نستطيع الآن أن نختتم فحصنا للآثار الأصيلة فى محيط الجغرافيا التى ترتبط فى أساسها بالمذهب الشرقى التقليدى ، ذلك أن الترك المتعطشين إلى المعرفة قد بدأوا منذ القرن الثامن عشر بل ومنذ القرن السابق عليه يتجهون بأبصارهم إلى أوروبا ؛ وكما كان عليه الحال من قبل فقد نشطت بصورة خاصة حركة الترجمة من اللغات الأوروبية وكانت تضم بطبيعة الحال مؤلفات من ميدان الجغرافيا . ونحن نذكر جيدًا عن العصر السابق لهذا ظهور ترجمات مثل « تاريخ الهند الغربى » أو « أطلس مينور » Atlas Minor ، أما الآن فقد نشطت بصورة أوسع ترجمة أوصاف الأقطار الأوروبية وأميريكا إلى

(٢٨٥) شرحه ، رقم ١٦

(٢٨٦) شرحه ، ص ٣٣١ ، رقم ٢١

(٢٨٧) - Mejov, I, p. 264, No 5967

(٢٨٨) عن الحروب الروسية التركية وعن روسيا فى الأدب التركى راجع :

Babinger, GOW, p. 310 and Index, p. 473.

وعن الضابط التركى ببلاط كاترينا راجع : Smirnov, Obrazts. proizv., 1 ed., p. 228 - 243

جانب الأوصاف فى الجغرافيا العامة التى تعتمد على مصادر أوروبية(٢٨٩) .

فمن بين أوصاف أميريكا نشير إلى مصنف ظهرت طبعته فى السنوات الثلاثينات للقرن
651 الثامن عشر(٢٩٠) تحت عنوان « حديث نو » (« حكاية / جديدة ») ، وهو وإن ظهر بصدده عدد من البحوث ذات طابع ببليوغرافى إلا أن العلاقة بينه وبين الآثار التى من نفس هذا الطراز لم توضح بعد(٢٩١) ؛ وأغلب الظن أنه يرتبط ارتباطًا وثيقًا بأطلس مركاتور Mercator كما أن بعض تفاصيله مستعار من مصنف فى الكوزموغرافيا من طراز مؤلفات مونستر S. Münster(٢٩٢) ؛ ومن المستحيل قبول الزعم القائل بنسبة الكتاب إلى حاجى خليفة(٢٩٣) . وثمة مصنف آخر قامت فكرته على قاعدة واسعة ، وربما حدث ذلك تحت تأثير « جهاننما » ، ذلكم هو السفر الضخم بعنوان « فننما جام جم از فن جغرافيا » الذى وضعه فى عام ١١٤٤ هـ = ١٧٣١ أرمنى من أهل قيصرية يدعى بترو بارونيان Petro Baronian(٢٩٤) . وكما وضح فى الوقت الحاضر فإن هذا المصنف يمثل ترجمة معدلة لكتاب « الجغرافيا الملوكية » من تأليف جاك روب J. Robbe (١٦٤٣ - ١٧٢١) الذى طبع لأول مرة بباريس فى عام ١٦٧٨ ، وقد استعمل بارونيان الطبعة الرابعة للكتاب التى ظهرت بلاهاى عام ١٦٩١(٢٩٥) . ومن الطريف أن نلاحظ أن هذه الطبعة قد وقعت فى يد المترجم من تركة سفير هولندا باستنبول كولييه Colier* الذى عاش لأعوام عديدة بتركيا منذ عام ١٦٦٨ وعاون كما أبصرنا فى حينه على نشر المعارف الجغرافية بالدولة العثمانية ؛ وكان بارونيان المذكور يعمل كاتباً لديه(٢٩٦) . ومن الملاحظ أن هذا الأخير قد اقتصر فى ترجمته على الفصول الأولى من الكتاب التى تمس الجغرافيا العامة ، وهى ترجمة تقرب كثيرًا من الأصل(٢٩٧) .

---

(٢٨٩) - Taeschner, GLO, p. 74

(٢٩٠) شرحه ، ص ٧٤ ، الحاشية ٣ – لا وجود له لدى بابنجر (Babinger, Stambuler Buchwesen)

(٢٩١) - Cf. : Harrisse, p. 137 - 138

(٢٩٢) - Harrisse, p. 133

(٢٩٣) - Cf: Gildemeistor, Qrientalische Literatur, p. 305

(٢٩٤) - Taeschner, GLO, p. 74 and note 5

(٢٩٥) شرحه ، ص ١٤٤ ، Nachtrag

* ورد هذا الاسم مغلوطًا فى المتن الروسى . (المترجم)

(٢٩٦) شرحه ، ص ٧٤ ، الحاشية ٥

(٢٩٧) شرحه ، ص ١٤٤ ، Nachtrag

وفى نهاية القرن الثامن عشر بدأت خطوة جديدة فى استيعاب الأتراك للعلم الأوروبى ترتبط إلى حد ما باستئناف المطبعة لنشاطها من جديد حوالى عام ١١٩٨ هـ = ١٧٨٤ [٢٩٨] . ويمكن أن ينهض دليلا على هذا عناوين المصنفات التى وقع الاختيار عليها والتى تحتل الجغرافيا من بينها مكانة مرموقة ؛ ومن بين المصنفات الهامة فى هذا المجال يجب أن نشير على سبيل المثال إلى الترجمة التركية لأطلس فادن Faden الإنجليزى التى طبعت فى عام ١٢١٩ هـ = ١٨٠٤ [٢٩٩] .

ولم يكن بوسع الأدب التركى أن يقدم مؤلفات جغرافية مستقلة باللغة التركية إلى تلك اللحظة ، ويجب ألا يدهشنا هذا فى شىء بإزاء افتقارهم التام إلى منهج علمى دقيق وفق مفهوم هذا اللفظ بين الأوروبيين [٣٠٠] . وليس معنى أن المنهج الأوروبى فى الجغرافيا قد توغل شيئًا فشيئًا فى الأدب التركى الحديث بل وفى الأدب الإسلامى عامة أن الأفق الجغرافى حتى بين الطبقات المثقفة والمسئولة قد تغير فى لمح البصر ابتداء من القرن السابع عشر بصورة جذرية ، فالنظريات القديمة ظلت حية فى بعض الأحايين على الرغم / من كل التغيرات التى طرأت . وثمة مثال نسوقه فى هذا 652
الصدد قد لا يخلو من المبالغة والتهويل وإن ثبتت صحته من الوثائق المعاصرة ، ففى عام ١٧٦٩ عندما أصدرت الإمبراطورة كاترينا الأمر إلى أسطولها بالإبحار من بطرسبرغ إلى بحر إيجه فإن الأتراك لم يتخذوا التدابير اللازمة على الرغم من أنه قد سبق تحذيرهم من هذا فى اللحظة المناسبة ؛ ذلك أن وزراء السلطان لم يكن ليدور بخلدهم حتى فى عام ١٧٧٠ أن فى استطاعة الأسطول الروسى أن يعبر من بحر البلطيق إلى البحر المتوسط [٣٠١] ، فلما ظهر الأميرال سبيريدوف Spiridov بأسطوله فعلاً فى بحر إيجه احتج الباب العالى لدى حكومة البندقية لسماحها له بالمرور من بحر الأدرياتيك ، محتفظاً بالفكرة القديمة للعصور الوسطى عن وجود «خليج» يربط بين هذين البحرين [٣٠٢] .

وعلى أية حال فإن المادة الجغرافية الضخمة التى احتواها عدد من الآثار المتنوعة الكبرى لم تكن وقفًا على الباحثين الأوروبيين وحدهم بل إن العلماء المحليين فى تركيا وفى أقطار أخرى من العالم الإسلامى برهنوا على أنهم لم يتناسوا المادة الجغرافية القديمة المدونة عن بلادهم وأنهم يريدون أن

---

(٢٩٨) - Babinger, Stambul. Buchwesen, p. 19, 22

(٢٩٩) - Taeschner, GLO, p. 78 and note 2

(٣٠٠) شرحه ، ص ، ٧٩

(٣٠١) - Reinaud. Notice, p. 14

(٣٠٢) - Kramers, EI, EB, p. 73

يدعموا أوصافهم الحديثة بخير ما خلفته لهم الأجيال السالفة فى هذا المجال . وقد نشط ذلك الاتجاه بتركيا فى أواخر القرن التاسع عشر بصورة محسوسة بحيث يمكننا من أن نختتم هذا الفصل من كتابنا بتقديم أمثلة من إنتاج هذا العهد « الجديد » .

وأول ما يجب ملاحظته هو أن التناسب بين الأنماط قد تغير بعض الشيء فاحتلت مركز الصدارة مرة أخرى المعاجم الجغرافية متممة بهذا سير التراث القديم ومعدلة فى ذات الوقت من نفسها بما يلائم الظروف المعاصرة وذلك بإدخال المادة الجديدة الوافدة من الغرب بمقادير كبيرة . وكثيرًا ما يحدث تحت تأثير النفوذ الأوروبى أن تتجاوز المادة إطارها فتتحول لا إلى معاجم تاريخية جغرافية فحسب بل إلى دوائر معارف عامة . وكمثال لهذا نسوق محاولة لأحمد رفعت يغلقجى زاده (توفى عام ١٣١٢ هـ = ١٨٩٤) ، الذى إلى جانب مصنف ضخم فى التاريخ العام ساقه إلى عام ١٢٩٥ هـ = ١٨٧٨ وليست له أهمية فى ذاته ، يقدم لنا معجمًا تاريخيًا جغرافيا فى سبعة أجزاء تضم ألفين ومائة وعشرين صفحة بعنوان « لغت تاريخية وجغرافية » تم طبعه فى القسطنطينية عام ١٢٩٩ هـ - ١٣٠٠ هـ = ١٨٨٢ - ١٨٨٣ . ويعتقد بابنجر أنه مرجع مفيد يضم معطيات كثيرة لا وجود لها فى المصادر الأخرى ويستحق اهتمامًا أكثر مما خص به حتى الآن(٣٠٣) .

هذا وهناك مصنف متأخر شيئًا ما للصحفى والأديب والمعجمى الألبانى المشهور شمس الدين سامى بك فراشرى (١٨٥٠ - ١٩٠٤)(٣٠٤) ، قد اكتسب صيتًا واسعًا سواء بين
653 الدوائر المثقفة فى تركيا أو الدوائر العلمية الأوروبية التى قدرته حق التقدير ؛ والمؤلف قد نال / حظه من التعليم بيانينا Janina ولكنه أمضى معظم حياته بالقسطنطينية هذا إذا ما استثنينا عامين قضاهما فى المنفى بطرابلس [الغرب] ، سيبريا السلطان عبد الحميد . وقد خلف سامى بك أثراً كبيراً فى الأدب التركى ، غير أن الصيت الواسع والانتشار الكبير كان من حظ مؤلفاته المعجمية (lexical) . ويندرج فى هذه السلسلة معجمه الكبير « قاموس الأعلام » وهو أشبه بدائرة معارف تاريخية جغرافية ، وطبع فى الفترة ما بين عامى ١٣٠٦ هـ = ١٨٨٩ و ١٣١٦ هـ = ١٨٩٨ فى ستة أجزاء يحوى كل واحد منها ثمانمائة صفحة . وقد استقى المؤلف مادته من مصادر شرقية وغربية ، ويحتل المكانة الأولى من بين هذه الأخيرة المصادر المدونة بالفرنسية . وينعكس

---

(٣٠٣) - Babinger, GOW, p. 376, No 347

(٣٠٤) شرحه ، ص ٣٨٧ ، الحاشية ١ - Kramers, Sami, p. 144 - 145 - Kramers, EI, EB - p. 73
Tveritinova, BV, 10, p. 211, No 182 a - Gordlevski, Ocherki, p. 57 - 63

بوضوح فى طريقة العرض ثقافة المؤلف الأوروبية لذا فليس من الغريب أن أطلق العلماء على هذا المعجم أحيانًا اسم « لاروس التركى » ؛ وهو لا يزال إلى أيامنا هذه أفضل مرجع فى بابه[٣٠٥] .

ولم تزحمه المؤلفات التالية أو تحل محله غير أنه ظهرت إلى جانب ذلك معاجم من ذات النمط ولكنها أكثر تخصصًا ، فالمؤلف التركى على جواد (توفى فى عام ١٣٣٢ هـ=١٩١٣) ، وهو ضابط سابق كرس نفسه للتأليف فى التاريخ والجغرافيا ، قد أخرج إلى جانب عدد من المصنفات الجغرافية معجمًا فى أربعة أقسام يضم نحو ألف ومائتى صفحة بعنوان « ممالك عثمانينك تاريخ وجغرافيا لغتى » تم طبعه فى الفترة ١٣١٣ هـ-١٣١٧ هـ= ١٨٩٥-١٨٩٩ . ومما يزيد فى قيمته أنه مزود برسوم متخيرة تبين خارطات وتخطيطات المدن ، الأمر الذى يوكد أكثر من ذى قبل تأصل المنهج الأوروبى فى نشر المصنفات التى من هذا الصنف[٣٠٦] .

وفى الواقع فإن الباب قد انفتح على مصراعيه أمام المناهج والطرق الحديثة حتى انتهت بالقضاء قضاء مبرمًا على مناهج التأليف القديمة ؛ ولا يخلو من مغزى فى هذا الصدد مثال عبد الرحمن شرف (١٢٦٩ هـ-١٣٤٣ هـ=١٨٥٣-١٩٢٥)[٣٠٧] الذى كان آخر مؤرخ رسمى لآل عثمان وشغل هذا المنصب إلى لحظة سقوط دولتهم (١٩٠٩-١٩١٨) ، فهو إلى جانب منصبه الرسمى هذا كان رئيسًا للجمعية التاريخية العثمانية (التركية فيما بعد) التى أنشئت حديثًا كما كان أول محرر لمجلتها التى صدر العدد الأول منها عام ١٩١٠ . وهو يختلف فى منهجه التاريخى اختلافًا بعيدًا عن السابقين له ويميل إلى تطبيق المنهج التجريبى (pragmatic) فى التأليف ، كما أنه قد جهد فى إدخال مناهج البحث الأوروبية بين أبناء وطنه وعاون إلى جانب هذا فى نشر الآراء الحديثة من محيط الإحصاء ومحيط الجغرافيا . وفى هذا المجال الأخير الذى يهمنا بصورة خاصة بدأت مصنفاته تظهر مبكرة شيئًا ما وذلك منذ السنوات الثمانينيات للقرن الماضى وأولها هو مصنفه الضخم « جغرافياى عمومى » الذى يقع فى جزئين والذى طبع فى عام ١٣٠٦ هـ= ١٨٨٨ ؛ وفيه تنعكس بصورة قاطعة ميوله التى أشرنا إليها ، وتبدو هذه الميول بشكل أكثر دقة فى
654 مصنفه « استاتستيق / وجغرافياى عمومى » الذى ظهر بعد ذلك بعدة أعوام فى سنة ١٣١٤ هـ =١٨٩٦ . وعقب هذا انصرف شرف انصرافًا تامًا إلى التأليف التاريخى حتى اكتسب فيه شهرته

---

(٣٠٥) - Gordlevski, Ocherki, p. 61

(٣٠٦) - Babinger, GOW, p. 398, No 367

(٣٠٧) شرحه ، ص ٤٠٤ - ٦٠٤ ، رقم ٣٧٥

الأساسية ، غير أنه فيما يتعلق بالميادين التى أشرنا إليها قبل هذا فإنه يمكن أن نعده إلى حد ما رائدًا وداعية لمناهج جديدة .

كذلك أخذت الجغرافيا الطوبوغرافية والإقليمية تغير أشكالها بالتدريج ويمكن أن نتابع تحت أبصارنا تطور تلك الحركة فى العصر الذى نعالج الكلام عليه ؛ فأحمد حلمى خوجه زاده (توفى عام ١٣٣٢ هـ = ١٩١٣) رئيس طائفة النقشبندية يقدم لنا فى كتابه « زيارات أوليا » الذى طبع عام ١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧ مرشدًا على الطريقة القديمة يبين مواضع الزيارة بمدينة استنبول ونواحيها(٣٠٨) مفعمًا إياه بسير الأولياء الذين يصف أضرحتهم وفقًا للمنهج القديم المعروف لنا إلى عهد على الهروى . وفى وقت واحد معه ترك لنا محمد رئيف (توفى عام ١٣٥٥ هـ = ١٩١٦) ، وهو أيضًا ضابط سابق لم يلبث أن اجتذبه علم الآثار ، عددًا من المصنفات مكرسة بشكل خاص لتاريخ استنبول وعماراتها . ففى كتابه « مرآت استنبول » الذى ظهر عام ١٣١٤ هـ = ١٨٩٦ يقدم لنا وصفًا دقيقًا لأهم أبنية استنبول وضواحيها ؛ والذى يهمنا بصورة خاصة هو تسجيله للنقوش المكتوبة تسجيلا وافيًا . وإلى جانب هذا المصنف الضخم فقد ألف عددًا من الرسائل الموجزة تنعكس موضوعاتها من عناوينها، مثل «تاريخ قصر طوب قابو ومنتزهه» Top qapu serayi humayun ve parginin tarikhi (١٣٣٢ هـ = ١٩١٤) و «منتزه السلطان أحمد وآثاره القديمة » Sultan Ahmed parqi ve asari atiqesi (١٣٣٢ هـ = ١٩١٤) ؛ وكل هذا إن دل على شىء فإنما يدل على ظهور ضرب جديد من المؤلفات وعلى أن المذهب الأوروبى قد تم تمثله بصورة نهائية(٣٠٩) .

أما فى محيط الجغرافيا الإقليمية (regional) التى تعالج الكلام عن ولايات الدولة العثمانية فقد شغلت اليمن مكانة خاصة(٣١٠) ، ويرجع اهتمام الأتراك بتلك البلاد إلى عهد بعيد ؛ وقد تبين لنا من كتاب قطب الدين النهروالى « البرق اليمانى » شدة اهتمام الأتراك باليمن منذ بداية فتحهم لها فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وانبعاث هذا الاهتمام فى الفترات التاريخية التالية كان فى معظم الحالات نتيجة لحملات عسكرية وجهت إلى تلك البلاد ، كما أن تجدد القتال ضد أئمتها فى القرن التاسع عشر قد أدى إلى ظهور عدد كبير من المؤلفات عنها . وكان الدافع المباشر لظهور

---

(٣٠٨) - Babinger, GOW, p. 396 - 397, No 364

(٣٠٩) شرحه ، ص ٤٠٠ ، رقم ٣٧٠

(٣١٠) - Cf: Kramers, EI, EB, p. 73 - 74

مصنف ما بوجه عام هو اشتراك مؤلفه الذى كان فى معظم الأحوال من طبقة العسكريين فى حملة عسكرية على اليمن . وهذا هو السر فى أن مادة معظم هذه المؤلفات كانت تنصب على وصف العمليات الحربية ، غير أن بعضها كان يحمل طابعًا جديًا يحس فيه محاولة لوضع مقدمة تاريخية تتضمن على الدوام معلومات جغرافية وافرة ، بل إن الكتاب قد يحتوى أحياناً على عرض جغرافى عام قائم بذاته . وإلى جانب تنوعه الكبير فإنه مما يزيد فى أهمية هذا الأدب المتعلق باليمن أنه لم يدخل حتى الآن فى البحوث الأوروبية عن تلك البلاد.

655 وبعض هذه المصنفات معروف إلى أيامنا هذه فى مخطوطاته فقط ، مثل « يمن تاريخى » (« تاريخ اليمن ») لإبراهيم آكَاه الذى يرجع إلى أواخر القرن التاسع عشر[٣١١] . غير أن عددًا من هذه المصنفات تم طبعه فى عشر السنوات الأولى من القرن العشرين وصحب عددًا من هذه الطبعات كمية من الرسوم والخارطات ، ويمكن أن نشير من بينها إلى « يمن تاريخى » (« تاريخ اليمن ») الذى يقع فى جزأين لعاكف باشا (١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨) و «يمن وحياتى» (« اليمن وحياتها ») لحسن قدرى (١٣٢٨ هـ = ١٩١٠) و « يمن خاطره سى » (« ذكريات اليمن ») لرشدى (١٣٢٧ هـ = ١٩٠٩)[٣١٢] ، وجميعها ترتبط بحملة عام ١٨٩٦[٣١٣] . غير أن أهم المصنفات التى من هذا الضرب كتاب يرجع إلى تاريخ أسبق من هذا وضعه قائد عثمانى موهوب هو أحمد رشيد باشا (توفى عام ١٣٠٩ هـ = ١٨٩١) وكان قد أمضى شطرًا كبيرًا من حياته فى حملات عسكرية بجنوبى الجزيرة العربية[٣١٤] . وقد أثار فيه الاهتمام بتلك البلاد إقامته الطويلة هناك والتى بدأت بحملة عام ١٨٧٠ فدفعه هذا إلى استيعاب الكتب العربية التى عالجت الكلام عليها والتى يوجد من بينها عدد لا نعرف عنه شيئًا ، ثم اعتمد على مادتها وعلى ملاحظاته الشخصية فأخرج لنا كتابه « تاريخ يمن وصنعاء » (« تاريخ اليمن وصنعاء ») فى جزأين (١٢٩١ هـ = ١٨٧٤) . وينقسم الجزء الأول إلى ثلاثة أقسام تعالج تاريخ الفترة الأولى لمحاولات الأتراك إخضاع تلك البلاد ابتداء من عام ٩٠١ هـ = ١٤٩٥ إلى انتهاء سيادتهم عليها فى عام ١٠٤٥ هـ = ١٦٣٥ ، ثم تاريخ اليمن فى عهد الأئمة مع تفصيل

---

(٣١١) - Babinger, GOW, p. 399, No 368

(٣١٢) شرحه ، ص ٣٩٩ ، الحاشية ١

(٣١٣) - Tveritinova, BV, 10, p. 210, No 150

(٣١٤) - Babinger, GOW, p. 374 - 376, No 346

الكلام على طوائفها ، ثم أخيرًا فتح العثمانيين الجديد لليمن فى عهد السلطان عبد المجيد . أما الجزء الثانى فيتناول الكلام على الحملة العسكرية لعام ١٨٧٠ على العسير واليمن وتنظيم إدارتها على وضع جديد ويقدم عرضًا وافيًا لجغرافيتها يهتم فيه بالكلام بصورة خاصة على محاصيلها وسكانها وصناعتها وآثارها القديمة . ولا يزال هذا الكتاب محتفظًا إلى أيامنا هذه بأهميته كمرجع قيم عن تاريخ تلك البلاد تحت السيادة العثمانية وعن جغرافيتها بشكل خاص . ويبدو أن مصنف أحمد رشيد باشا هو الكتاب الوحيد فى سلسلة المراجع اليمنية الذى تعرف عليه العلم الأوروبى وذلك بفضل مقال باربييه دى مينار Barbier de Meynard(٣١٥) الذى يقدم لنا ترجمة كاملة لكل القسم الجغرافى من الكتاب(٣١٦) .

ويختتم بابنجر مصنفه عن مؤرخى آل عثمان Die Geschichtsschreiber der Osmanen بالكلام عن محمد طاهر البروسلى (١٢٧٨ هـ - ١٣٤٤ هـ = ١٨٦١ - ١٩٢٥) الذى يقدم لنا فى مصنفاته الببليوغرافية حصيلة ذلك الفرع من الأدب أى التاريخ ؛ ونحن بدورنا أيضًا نجد لأنفسنا الحق فى أن نختتم به عرضنا للأدب الجغرافى التركى(٣١٧) . ففى سفره الضخم المعروف الذى ظهر فى ثلاثة أجزاء فى الفترة ١٣٣٤ هـ - ١٣٤٣ هـ = ١٩١٥ - ١٩٢٥ يترجم محمد طاهر لكبار علماء الدولة العثمانية من المشايخ والفقهاء والشعراء والأدباء
656 والمؤرخين والأطباء وعلماء الرياضيات والجغرافيين . / وهو يولى هؤلاء الأخيرين عناية خاصة ؛ فقد استشعر اهتمامًا معينًا بذلك الفرع من الأدب وحدث أن وضع ترجمة لسيرة حياة حاجى خليفة . ومن المستحيل القول بأنه من ممثلى النزعة العلمية الجديدة فهو قد اقتفى أثر القدماء ، من أصحاب معاجم السير ومؤلفى « التذكرات » ، بل إن كتابه يعد خاتمة لسلسلة المؤلفات من هذا الضرب . وميله إلى هذه الموضوعات أمر لا يرقى إليه الشك ، كما أن محاولته لإثبات أن الأتراك لم يكونوا شعباً محروماً من الثقافة تنطوى على عواطف نبيلة ، ويمكن القول بأنه قد وفق فى التدليل على ذلك بطريقة مقنعة ؛ ولكن من ناحية أخرى قد لوحظ أكثر من مرة أن إشاراته إلى أسماء الكتب لا تخلو من الخطأ وأن كتابه من هذه الزاوية لا يرقى إلى مرتبة المؤلفات الببليوغرافية الكبرى وإن كان هذا لا يحول دون اعتباره المرجع الوحيد فى سير ومصنفات كبار المؤلفين العثمانيين . ومن الطريف

---

(٣١٥) شرحه (غير مذكور)

(٣١٦) - Barbier de Meynard, Notice, p. 94 - 123

(٣١٧) - Babinger, GOW, p. 406 - 409, No 376

بالنسبة لنا أن نلاحظ أن مذهبه فى عرض الأدب الجغرافى فى القرن العشرين لا يرتبط فقط بمذهب حاجى خليفة فى القرن السادس عشر أو ياقوت فى القرن الثالث عشر بل كذلك بمذهب ابن النديم فى القرن العاشر الميلادى .

من هذا يتضح لنا أنه على الرغم من دخول المادة الجديدة واعتناق العلماء الأتراك لمناهج البحث الحديثة فإن المذهب العربى القديم قد ظل حيًّا بين العثمانيين حتى السنوات العشرينات من القرن العشرين ؛ وهذه الظاهرة الأخيرة تبرر لنا مرة أخرى ضرورة معالجة الأدب الجغرافى التركى فى عرض عام للأدب الجغرافى العربى لا فى تلك القرون وحدها فحسب حين كانت الصلة بين الاثنين واضحة للعيان بل كذلك فى العهد الذى حدث فيه الانفصام التام عن المنهج الشرقى فى كافة الاتجاهات وحين بدا أن التأثير الغربى الأوروبى قد طرده نهائياً من مسرح الأحداث . ويلوح أن الأمر لم يكن بمثل هذه البساطة ، إذ بمقدورنا أن نلاحظ ظهور براعم جديدة لهذه المذاهب القديمة حتى فى أيامنا هذه تعلن عن حقها فى البقاء ولا تفتقر فى واقع الأمر إلى بعض القيمة العلمية . وهذا هو السبب كما ذكرنا الذى حدا بنا لأن نفرد قسما خاصًا فى عرض عام للأدب الجغرافى العربى نعالج فيه الكلام على الأدب الجغرافى التركى كما فعلنا من قبل مع رصيفه باللغة الفارسية .

الفصل الثانى والعشرون
المصنفات الجغرافية للقرن السادس عشر بسوريا والأقطار المجاورة

657 رأينا لزامًا علينا ونحن بسبيل الكلام على الأدب الذى انتعش نتيجة لازدهار الجغرافيا الملاحية بين العرب والترك فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر أن نتابع الحديث عن الأدب الجغرافى التركى إلى القرن العشرين . والآن إذا ما رجعنا القهقرى وأمسكنا بخيط التطور التاريخى للأدب الجغرافى حيثما تركناه فى القرن السادس عشر فسنقرر للوهلة الأولى أنه باستثناء اللحظات التى ألقينا عليها بعض الضوء فإن هذا الأدب يبدو فى الغالب شاحب اللون عقيما . وقد حدث أن تناولنا الكلام على حالات معينة من الأدب المغربى لذلك العهد وكانت لا تخلو من بعض الطرافة وترتبط ارتباطًا وثيقًا فى الوقت نفسه بالكارتوغرافيا والرحلات ؛ ولهذا السبب فستنصب عنايتنا فى هذا الفصل على البلاد العربية فى المشرق وفى المكانة الأولى سوريا التى تبرز لنا فى هذا العصر عددًا ممتازًا من الآثار المعروفة التى تفوق ما أنتجته الأقطار الأخرى . ولعله ليس من قبيل الصدفة أن مجموعة من أكبر وأهم مجموعات المخطوطات الشرقية الموجودة لدينا بالاتحاد السوفيتى والتى تضم عددًا من المخطوطات اليتيمة لهذا العهد إنما مصدرها سوريا بالذات .

ولا يمكن القول على وجه الدقة بأنه قد وجدت بينها مؤلفات ذات قيمة أدبية عامة ؛ وقد نال رواجًا ملحوظًا أكثر من غيره نمطان هما الجغرافيا الإقليمية من طراز « الفضائل » ، ثم « الرحلات » . هذا وقد كشفت سوريا عن إصرار شديد فى تمسكها بتقليد قديم هو وصف دمشق فلم تقف به عند القرن السادس عشر بل استمرت تنمّيه إلى ما بعد هذا .

وإلى هذا العصر بالذات ينتمى مصنف يكاد يعتبر أكثر المصنفات العربية شهرة بين الأوروبيين وذلك بفضل الترجمة الفرنسية التى ندين بها للمستشرق سوفير **Sauvaire**(١) . ومؤلفه عبد القادر بن محمد النعيمى (توفى عام ٩٢٧ هـ = ١٥٢١) أصله من دمشق وغرف بحبه لمسقط رأسه الذى تولى فيه لبعض الوقت منصب القضاء(٢) . وتتضح فكرة الكتاب بجلاء

---

(١) - Sauvaire, JA, 9 série, III, p. 251 - 318, 385 - 501; IV, p. 242 - 331, 460 - 503; V, p. 269 - 315, 377 - 411; VI, p. 221 - 313, 409 - 484; VII, p. 185 - 285, 369 - 459.

(٢) - Brockelmann, GAL, II, p. 133, No. 16; SB II, p. 164.

من / عنوانه المطوّل الذى قد يتنوع أحياناً بتنوع المخطوطات[٣]، وهو «تنبيه الطالب وإرشاد الدارس لأحوال مواضع الفوائد بدمشق كدور القرآن والحديث والمدارس » . هذا وقد لخص الكتاب تلميذه ابن طولون الذى سنعالج الكلام عليه للتو ، غير أن معرفتنا الأساسية به تعتمد على مسودة من عمل دمشقى آخر من أهل الجيل التالى لهما هو عبد الباسط العلماوى (توفى عام ٩٨١ هـ=١٥٧٣)[٤] ؛ وهذه المسودة هى التى اعتمد عليها سوفير أساساً فى نقله الكتاب إلى الفرنسية . ولم تقل العناية بالكتاب بعد هذا العصر فقد اعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا مؤلف دمشقى من أهل القرن السابع عشر هو محمود بن محمد العدوى (توفى عام ١٠٣٢ هـ= ١٦٢٣) وذلك فى مصنفه بعنوان « الإشارات فى أماكن الزيارات »[٥] ، ويمكن القول بقدر كبير من الصحة إن كتاب النعيمى هو الذى تمتع من بين جميع أوصاف دمشق العديدة بأكبر حظ من الشهرة بين الجماهير . 658

والواقع أن الكتاب لا يقدم لنا شيئًا جديدًا سواء من ناحية المضمون أو ناحية الشكل عند مقارنته بالعدد الهائل من المصنفات من الطراز نفسه التى فحصناها إلى هذه اللحظة ، أضف إلى هذا أن هدفه يبدو لنا واضحًا من طبيعة الوضع الذى شغله المؤلفان ، فإذا كان النعيمى بوصفه قاضيًا قد اهتم بالموضوعات التى تتعلق بمهنته فإن العلماوى عمل فى البداية مؤذنًا بالمسجد الأموى ثم خطيبًا بإحدى مساجد دمشق ومن ثم فقد مس هذه الموضوعات أمام مستمعيه . لهذا فإن أصل الكتاب وأيضًا المسودة المتأخرة كانا يستهدفان الإعلام والدعاية مما لاحظناه من قبل فى حالات مماثلة .

وليس ثمة حاجة إلى التوقف بصورة خاصة عند مصادر الكتاب ، فمما لا شك فيه أن كلا من النعيمى والعلماوى كان على معرفة جيدة بآثار السابقين عليهما ؛ وقد رجع النعيمى إلى عدد من المؤلفات معظمها آثار تاريخية[٦]، هذا على حين يلاحظ أن العلماوى قد اعتمد كثيراً على ابن شداد الذى مر بنا وإن كان لا يشير إليه فى كل مرة يفعل ذلك ؛ كما أنه أفاد أيضًا من كتاب ابن خلكان المشهور[٧] .

---

(٣) محمد كرد على ، الخطط ، الجزء الأول ، ص ١٥ ، رقم ٨٦

(٤) - Brockelmann, GAL, II, p. 360, No 2; SB II, p. 488.

(٥) - Brockelmann, GAL, II, p. 290, No 5, SB II, 964, No. 9

- Sauvaire, JA, 9 série, VII, p. 252 - محمد كرد على ، الخطط ، الجزء الأول ، ص ١٦ ، رقم ٩٨

(٦) - Sauvaire, JA, 9 Série, III, p. 253

(٧) شرحه ، ص ٢٥٢ – ٢٥٢

والنعيمى وإن كان من أشهر من كتبوا عن فضائل دمشق إلا أنه لم يكن الأخير من بينهم ، ففى نهاية القرن السادس عشر وبوجه الدقة فى عام ١٠٠٣ هـ = ١٥٩٤ وضع شمس الدين أبو العباس أحمد بن الإمام البصروى كتابًا بعنوان معهود لنا هو « تحفة الأنام فى فضائل الشام »[٨] .
659 / ورغمًا من تعدد مخطوطاته فإن معرفتنا به هو أيضًا ترجع إلى حد كبير إلى سوفير الذى يرجع إليه[٩] وينقل منه[١٠] . وقد أفاد البصروى بصورة خاصة من مصنف لمؤلف سابق معروف لنا فى هذه السلسلة هو أبو البقاء البدرى[١١] ، لهذا فلعله ليس من قبيل الصدفة المحضة أن وجد المصنفان جنبًا إلى جنب فى مجموعة حلبية محفوظة لدينا بمعهد الدراسات الشرقية وأن نسخهما تم فى عام ١٠٦٠ هـ = ١٦٥٠ و ١٠٦١ هـ = ١٦٥٠ على يد ناسخ يدعى درويش محمد بن حسين البوسنوى[١٢] ؛ ويتضح من اسم الناسخ نفسه على أنه من البوسنة وهذا يقف دليلاً على العلاقة الوثيقة التى ربطت بين الأدبين الجغرافى العربى والتركى فى العصر الذى ندرسه .

ومن بين جميع هذا العدد الهائل للمؤلفين ومصنفاتهم ، والذين يجب أن نشير إلى أنهم كانوا عاديين للغاية ، يكاد يكون أكثرهم أصالة دون منازع فى ميدان الجغرافيا الإقليمية أحد مواطنى دمشق وهو محمد بن على بن طولون (توفى فى عام ٩٥٣ هـ = ١٥٤٦)[١٣] الذى ينحدر من صلب الطولونيين من فرع خمارويه[١٤] . وهو وإن كان دمشقيًا أصيلا إلا أن والدته رومية وكانت تجيد الكلام بلغتها الأصلية[١٥] ؛ وباستثناء سنى الدراسة التى أمضاها بالقاهرة فهو قد ظل طول حياته مقيما بمسقط رأسه دمشق . ولا يوجد سبب يدعو إلى ضمه إلى زمرة الجغرافيين فقد كان مؤلفًا فى جميع فروع العلوم (polyhistor) ويذكرنا فى مصنفاته الصغرى بالسيوطى الذى كان يعتبره شيخًا له[١٦] ؛ ومن العسير الإحاطة بعدد مؤلفاته فثبتها الذى عمله بنفسه والمرفق

---

(٨) - Brockelmann; GAL, II, p. 361, No 7; SB II, p. 489
محمد كرد على ، الخطط ، ص ١٥ (تاريخ التأليف ١١٥٩ هـ ؟)
(٩) - Sauvaire, JA, 9 série, III, p. 254
(١٠) شرحه ، VII, p. 422 - 424
(١١) - De Sacy, Relation, p. 574 - Sauvaire, JA, 9 série, VII, p. 425 - 454
(١٢) - Rosen, Notices Sommaires, p. 185, No. 239, I and p. 185 - 187, No 239, 2
(١٣) - Brockelmann, GAL, II, p. 357 - 368, No. I. SB II; p. 494 - 495
(١٤) الفلك ، ص ٦
(١٥) شرحه ، ص ٦
(١٦) الغزى ، الكواكب ، ص ٢ — الفلك ، ص ٦

بسيرة حياته التى سطرها بقلمه يشغل اثنين وعشرين صفحة بالخط الدقيق تضم حوالى سبعمائة وعشرين عنوانًا[١٧] . وقد عالج ابن طولون الكتابة فى أكثر الموضوعات تباينًا ؛ ونظرًا لاشتغاله بتدريس النحو والحديث والفقه بالصالحية إحدى ضواحى دمشق فمما لا شك فيه أن هذه الموضوعات قد شغلت الجانب الأكبر من اهتمامه ، ولكن محيط اهتمامه كان أوسع من ذلك بكثير ويقف دليلا على هذا أن واحدة من المخطوطات النادرة لتلك الرسالة الغريبة وهى « رسالة الملائكة » للمعرى قد حفظت لنا بخط يده[١٨] .

وكان له ولع خاص بالتاريخ وترك لنا مؤلفًا فى سيرة جده الأعلى أحمد بن طولون[١٩] ؛ وبفضل مصنفاته التاريخية نفذ اسمه فى الآونة الأخيرة إلى / الدوائر العلمية الأوروبية . كما حفظت لنا أيضًا 660
يومياته بخط يده وهى تمثل سجلاً لأحداث دمشق أثناء حملة السلطان سليم العثمانى ؛ وكان أول من لفت الأنظار إلى هذا المصدر القيم بارتولد ولكن اسم المؤلف كان لا يزال مجهولا آنذاك حتى حالف التوفيق هارتمان فى التعرف عليه ونشر القطعة التى تبقت من مصنفه هذا[٢٠] . وتلى ذلك أن ألقى يانسكى H. Jansky المتخصص فى فترة فتح العثمانيين لمصر ضوءًا على بعض مسائل هامة تتعلق بالتأليف التاريخى لذلك العهد وتبين أهمية مصنفه بالنسبة لأحداث تلك الفترة[٢١] .

وقد استطاع ابن طولون أن يكشف عن بعض الأصالة أيضًا فيما يتعلق بالجغرافيا التى اهتم لها اهتمامًا لا يقل عن اهتمامه بالتاريخ . وكان تلميذًا للنعيمى[٢٢] الذى طلب منه أن يترجم لنفسه ويذكر أسماء مؤلفاته وشيوخه فامتثل ابن طولون لذلك[٢٣] ؛ ولا شك أن صلته به هى التى تفسر أيضًا السبب فى أن ابن طولون قد عمل ملخصًا لكتاب النعيمى وهذبه وزاد عليه[٢٤] ؛ كما توجد له

---

(١٧) الفلك ، ص ٢٦ – ٢٨

(١٨) - Krachkovski, Abu - l - Ala, p. 12 - 13.[= Krachkovski, Izbr.soch., II, p. 402 - 403]

(١٩) الفلك ، ص ٣٥

(٢٠) - R. Hartmann, Ibn Tulun

(٢١) - Janski, Ibn Tulun, p. 24 - 33

(٢٢) الغزى ، ص ٢ – الفلك ، ص ٦

(٢٣) الفلك ، ص ٥

(٢٤) شرحه ، ص ٤٦

مؤلفات خاصة عن مساجد دمشق[٢٥] ومدارسها[٢٦] ودور القرآن[٢٧] والحديث[٢٨] بها . وإلى نفس هذا الطراز على ما يظهر تنتمى أيضًا مؤلفاته مثل « بهجة الأنام فى فضل دمشق الشام »[٢٩] أو « نزهة الأفكار فيما قيل فى دمشق من الأشعار »[٣٠] وهى معروفة لنا من أسمائها فقط ؛ والمرجح أنها تنتمى إلى ذلك الطراز الذى يقرب من الأدب أكثر مما يقرب من الجغرافيا كالرسائل المماثلة للسيوطى . غير أن ابن طولون كان إلى جانب هذا يشعر بميل خاص إلى الرسائل الموجزة المفردة لموضوعات جغرافية محددة وأحيانًا للمواضع الجديرة بالذكر فى دمشق . ومعرفتنا بهذه الرسائل ترجع إلى قائمة كتبه التى مر بنا ذكرها وأيضًا إلى أن بعض هذه الرسائل قد نشر بدمشق فى الأعوام الأخيرة ، وهى غفيرة العدد متنوعة المادة يعالج بعضها الكلام على مواضع معينة من المدينة كالقلعة[٣١] وباب جيرون المشهور[٣٢] والمقابر القريبة من باب الفراديس[٣٣] ؛
662 كما يعالج البعض الآخر الحديث عن القصص الدينية / المرتبطة بدمشق ونواحيها مثل قبر موسى[٣٤] أو « مغارة الدم »[٣٥] . وبعض هذه الرسائل مكرس لأحياء معينة أو ضواح وقرى قريبة من المدينة يحتل المكانة الأولى بينها بالطبع موطن المؤلف وهو ضاحية الصالحية[٣٦] ، والبساتين المحيطة بالمدينة و « غوطة الشام »[٣٧] وقرية الربوة[٣٨] التى عاش فيها كما ذكرنا الدمشقى

---

(٢٥) شرحه ، ص ٢٨

(٢٦) شرحه ، ص ٢٨

(٢٧) شرحه ، ص ٣٥

(٢٨) شرحه ، ص ٢٨

(٢٩) شرحه ، ص ٣٠

(٣٠) شرحه ، ص ٤٧

(٣١) شرحه ، ص ٣٨ – Brockelmann, GAL, SB II, p. 494, No 27, Edition of 1348 -

(٣٢) الفلك ، ص ٤٣

(٣٣) شرحه ، ص ٣٢

(٣٤) شرحه ، ص ٣٤ - Brockelmann, GAL, SB II, p. 494, No 26, the manuscript in Leyden

(٣٥) الفلك ، ص ٣٢

(٣٦) شرحه ، ص ٤٣

(٣٧) شرحه ، ص ٤٠ – Brockelmann, GAL, SB II, p. 495, No 34; مخطوطة المؤلف بليدن ، نشرها محمد كرد على ، الخطط .

(٣٨) الفلك ، ص ٤٧

الكوزموغرافى وقريتا[٣٩] داريًا والمزة[٤٠] . كما امتد محيط اهتمامه إلى البساتين « النيربية »[٤١] المحيطة بالمدينة والتى يجب عدم الخلط بينها وبين الموضع القريب من حلب والذى اشتهر حاليًا فى الدوائر العلمية بنقوشه الأرامية . ومن الطبيعى ألا نتوقع فى هذه الرسائل الموجزة أية أصالة من حيث المنهج أو الصياغة الأدبية ولكنها تقدم لنا فى مقابل ذلك مادة وافرة تربط بينها بطريقة فريدة ؛ وبهذا فقد استطاع ابن طولون أن يدخل روحًا جديدة فى أدب قديم متواتر فيما يتعلق بالجغرافيا الإقليمية للشام . ولقائمة مصنفاته جانب آخر طريف فهى تمكننا من تثبيت الأنماط والموضوعات الجغرافية التى عالج الكتابة فيها لذلك العصر مؤلف جغرافى عادى لا بحاثة أصيل . ويقابلنا من بينها مثلا وصف لطريق الحج من الشام إلى الحجاز (« منازل الحج الشامى »)[٤٢] وعدد من الرسائل من طراز الفضائل المعروف مكرسة للمواضع المقدسة كمكة (« معالم مكة المشرفة »)[٤٣] والمدينة (« معاهد المدينة »)[٤٤] والقدس (« فضائل بيت المقدس »)[٤٥] ؛ ويوجد من بينها مقال خاص عن مقام إبراهيم المشهور بالكعبة (« مقام الخليل »)[٤٦] . وابن طولون يتمم فى نقاط معينة سلسلة المؤلفين المعروفين لنا ، فهو كالمقدسى (الأصغر) قد كتب فى تاريخ تميم الدارى[٤٧] ، وهو كالسيوطى قد كتب عن فضائل الأحباش على البيض[٤٨] . وليس واضحًا بالنسبة لنا ، نتيجة للخلط فى التعليقات ، ما هو / المقصود 663
بمصنفه الذى يحمل عنوان « لقط المرجان من معجم البلدان »[٤٩] ولكن من المحتمل أنه ملخص لمعجم ياقوت الجغرافى . وبوجه عام فإن مراجعتنا لثبت مصنفات ابن طولون توكد جيدًا استنتاجاتنا السابقة فى أن الأنماط والموضوعات الجغرافية قد ثبتت بصورة نهائية فى ذلك العهد .

---

(٣٩) شرحه ، ص ٣٤
(٤٠) شرحه ، ص ٤٦ – Brockelmann, GAL, II, p. 494 - 495, No 29, ed. of 1348
(٤١) الفلك ، ص ٢٧
(٤٢) شرحه ، ص ٣٠
(٤٣) شرحه ، ص ٣٣
(٤٤) شرحه ، ص ٤٦
(٤٥) شرحه ، ص ٤١
(٤٦) شرحه ، ص ٤٧
(٤٧) شرحه ، ص ٤٣
(٤٨) شرحه ، ص ٣١
(٤٩) شرحه ، ص ٤٥

وكمعاصرين لابن طولون يقابلنا بالطبع فى البلاد الأخرى علماء محليون عالجوا التأليف فى الجغرافيا الإقليمية لبلادهم . وخير مثال لهذا أحد أبناء الدوحة الهاشمية المدعو محمد بن عبد العزيز ابن فهد القرشى الهاشمى (توفى عام ٩٥٤ هـ = ١٥٤٧)[٥٠] والذى عمل خطيبًا بأحد مساجد جدة لأعوام طويلة ثم لقب جار الله لإقامته الطويلة بمكة . وعن جدة وضع مصنفه المعروف لنا فى بعض المخطوطات تحت عنوان « السلاح والعدة فى فضائل بندر جدة »[٥١] والذى يتبع فيه الطراز المعروف لنا جيدًا أى طراز الفضائل ، ولا شك أنه وجد لديه ميل إلى مثل هذا الضرب من الموضوعات فى الجغرافيا التاريخية المحلية لأنه عمل فى عام ٩١٥ هـ = ١٥٠٩ مختصرًا لكتاب « تحفة اللطائف فى فضائل ابن عباس ووج والطائف »[٥٢] . وهو قد تناول أحيانًا كابن طولون موضوعات تقليدية للغاية من نوع « التحفة اللطيفة فى أنباء المسجد الحرام والكعبة الشريفة »[٥٣] ، ولكنه عالج الكتابة بعض الأحايين فى موضوعات جغرافية صغرى كرسالته مثلا بعنوان « اقتطاف النور مما ورد فى جبل ثور »[٥٤] .

إزاء هذا فلا يسعنا إلا الاعتراف بأن الجغرافيا الإقليمية كانت حافلة للغاية فى ذلك العصر من حيث الكم ، وقد تضاءلت إلى جانبها المصنفات فى الجغرافيا العامة بشكل بيّن حتى اقتصرت معرفتنا ببعضها على العنوان فقط ؛ فمن المعلوم لنا مثلا أن أحد كبار مؤرخى الفتح العثمانى لمصر وهو أحمد بن على بن زُنبل الرمّال[٥٥] قد وضع إلى جانب مؤلفه التاريخى الكثير التداول[٥٦]
مصنفًا آخر فى الجغرافيا بعنوان « تحفة الملوك / والرغائب لما فى البر والبحر من العجائب والغرائب». ونظراً لأنه محفوظ فى مخطوطة فريدة بالمكتبة البودلية بأكسفورد[٥٧] فإن تحليلنا له 664

---

(٥٠) - Brockelmann, GAL, II, p. 393, 12, No 1 = SB II, p. 538

(٥١) مخطوطات محمد ... بن فهد القرشى كرسها لجدة : برلين ٦٠٦٣ ؛ فينا ٨٩١ – Brockelmann, GAL, II p. 393, No 1

(٥٢) حاجى خليفة ، الجزء الثانى ، ص ٢٣٧ ، رقم ٢٦٤٨

(٥٣) شرحه ، رقم ٢٦٤٩

(٥٤) مخطوطة تونس ؛ راجع : Brockelmann, GAL, SB II, p. 538, No 1

(٥٥) - Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 239 - 240, No 523 - Brockelmann, GAL, II, p. 298 - 299, No 1; SB II, p. 409 - 410 - Babinger, GOW, p. 56 - 58, No 38

(٥٦) - Jansky, At - Tuhfa, p. 173,

(٥٧) مخطوطة « تحفة الملوك والرغائب لما فى البر والبحر من العجائب والغرائب » لأحمد بن زنبل الرماح : Bodl., I, 892 = Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 240 = Brockelmann, GAL, II, p. 298, No 1 = Babinger, GOW, p. 135 No 111.

سيقف عند حد التخمين إلى حين إخضاعه لدراسة علمية دقيقة ؛ ويمكن أن نستدل من عنوانه على أنه ينتمى إلى نمط الكوزموغرافيا المعهود مع الاهتمام بجميع صنوف العجائب mirabilia . أما عن المؤلف نفسه فإن معلوماتنا تقف عند حد أنه كان شاهدًا لحملات قنصوه الغورى وعمل منجمًا للبلاط وكان حيًا يرزق إلى عام ٩٥١ هـ = ١٥٤٤ .

وقد نجد أنفسنا فى وضع أفضل عند فحص مصنف جغرافى لمؤلف آخر هو بدوره أيضًا غير مغمور ولكن أحاط بسيرة حياته ظلام دامس ؛ فقد وضع عبد الله بن صلاح الدين الدائر فى عام ١٠١٠ هـ = ١٦٠٢ مصنفًا تاريخيًا فى أسلوب تغلب عليه المحسنات البديعية من أجل السلطان مراد الثالث وهو تاريخ للعالم منذ بدء الخليقة إلى عام ١٠٠٤ هـ = ١٥٩٥ أولى فيه اهتمامًا خاصًا للفتح العثمانى لليمن[٥٨] وهو موضوع قد نال كما ذكرنا عناية الأتراك على الدوام . وله إلى جانب هذا مصنف جغرافى معروف أيضًا فى مخطوطة فريدة باستنبول[٥٩] ويحمل عنوانًا مألوفًا للغاية هو « أسنى المطالب وأنس اللبيب الطالب » ؛ غير أن العنوان الإضافى الذى يلى هذا يكشف لنا بوضوح عن مضمون الكتاب وعن العلاقة التى تربطه بالمذهب القديم ، ونصه كالآتى « فى معرفة الأقاليم الحقيقية والعرفية وتحديدها بالجهة الشمالية والجنوبية والأرجاء الغربية والشرقية وما عليها من المدن والممالك والمناهج والمسالك » . ويمكن أن نتبين من هذه الألفاظ ضربًا من تلك المحاولة القديمة للمزج بين الجغرافيا الرياضية والوصفية . ويوكد هذا بصورة محددة محتويات الكتاب نفسه فهو يعالج فى المقدمة الكلام على كروية الأرض بينما تبحث المقالة الأولى فى تقسيمها إلى سبعة أقاليم وتوضيح مفهوم « الربع المعمور » ؛ أما المقالة الثانية ففى تحديد الأقاليم ومساحة الأرض ، على حين تعالج الثالثة الكلام على المدن الكبرى من وجهة نظر الجغرافيا الرياضية وتحديد أبعادها من مكة وخط الاستواء وعن تحديد القبلة وطول اليوم . ويلى هذا وصف تخطيطى « للأقاليم العرفية » الثمانية والعشرين مع تفصيل الكلام على بلاد العرب ومصر والمغرب والأندلس (التى كانت قد خرجت آنذاك عن نطاق العالم الإسلامى) وجزر « البحر الغربى » وسوريا والعراق ؛ ثم يفرد فى الخاتمة ثلاثة مقالات للكلام على البحار[٦٠] . ويمثل هذا المصنف / أنموذجًا 665
جيدًا بالنسبة لعصره ، وهو يقف دليلا آخر على العلاقة الوثيقة التى ربطت الجغرافيا العربية بالجغرافية التركية فى ذلك العهد .

---

(٥٨) - Brockelmann, GAL, II, p. 427 No 7; SB II, p. 635 - Babinger, GOW, p. 135 No 111.

(٥٩) - Brockelmann, GAL, II, p. 427, No 7 - Babinger, GOW, p. 135, No III = Tauer, p. 107 - 108

(٦٠) - Tauer, p. 107 - 108

وعلينا أيضًا أن نمس مسألة ببليوغرافية تقع من الناحية الزمنية فى القرن السادس عشر ولا تتعلق بمخطوطة ما بقدر ما تتعلق بنص مطبوع ، أضف إلى هذا أن ذلك النص قد تم طبعه برومه فى عام ١٥٨٥ . هذه الواقعة أى واقعة طبع المصنف فى أوروبا لذلك العهد وأنه إنما يمثل بذلك فى حقيقة الأمر أول كتاب عربى ذى طابع علمى[٦١] يخرج من المطبعة تجعل منه شيئًا طريفًا للغاية لولا أن ندرة نسخه قد جعلت الوصول إليه أمرًا يقرب من الاستحالة[٦٢] . والمتفق عليه إلى الآن هو أن الكتاب كان معروفًا فى نسختين إحداهما بالمكتبة اللورنتية Laurentian بفلورنسة وهى مكتبة آل المديتشى والأخرى بمكتبة آل ننى Nani بالبندقية[٦٣] ؛ ولا يمكن الجزم هل لا تزال هذه النسخة الثانية موجودة هناك إلى هذه اللحظة[٦٤] . وقد تم وصف هاتين النسختين فى القرن الثامن عشر كل على حدة بواسطة اثنين من أفراد أسرة مارونية أقامت بإيطاليا وانصرفت إلى الدراسات الشرقية، وهما أسطفان عواد السمعاني Stephanus Evodius Assemanus (١٧١١ - ١٧٨٢)[٦٥] وشمعون السمعانى Sim. Assemanus (١٧٥٢ - ١٨٢١)[٦٦] . ومن الغريب أنهما فى وصفهما للكتاب يختلفان حول اسم المؤلف ، هذا بخلاف تفصيلات أخرى تجعل مسائل عديدة من الكتاب لا تزال محتاجة إلى الحل .

أما عنوان المصنف وهو « البستان فى عجائب الأرض والبلدان » فيوكده وجود مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس تحمل العنوان نفسه[٦٧] وإن كانت مسألة علاقتها بالنسخة المطبوعة لا تزال تحتاج إلى دراسة أعمق ؛ هذا ويرجع بروكلمان تاريخ تأليفه إلى القرن العاشر الهجرى[٦٨] . واعتمادًا على نسخة البندقية يصف شمعون السمعانى هذا المصنف بأنه ذو طابع كوزموغرافى وأنه يحتوى على مائتين وأربع وثمانين صفحة[٦٩] موزعة على سبعة أقسام ويعالج فى معظمه الكلام على

---

(٦١) راجع : شيخو ، المشرق ، الثالث ، ص ٨١ (مطبعة دومينيك باس ـ Dominic Bas).

(٦٢) -Wustenfeld, Erdbeschreibung, p. 18 (41), No 66

(٦٣) - Rossi, Dizionario, p. 163 (Salamesc)

(٦٤) - Gabrieli, Manoscritti, p. 54

(٦٥) - Schnurrer, p. 175

(٦٦) شرحه ، ص ١٧٤ - ١٧٥ ، ٤٦٦ - ٤٦٧

(٦٧) - De Slane, Catalogue, No 2212

(٦٨) - Brockelmann, GAL, SB II, p. 489, No 8 b (ed. 1585)

(٦٩) سركيس ، ص ١٠٣٧ ، يشير إلى ١٠٦ من الصفحات

مصر غير أن مادته تغلب عليها الموضوعات الخرافية . أما اسم المؤلف فيورده فى شكل غريب وهو سلامش بن كندغدى الصالحى(٧٠) ، وهو غير معهود لنا فى أى واحد من المراجع ؛ بل إن إسطفان عواد السمعانى فى وصفه لنسخة مكتبة المديتشى يقدم لنا الاسم فى صورة أبسط من هذه على أنه أبو العباس أحمد بن خالد الصالحى(٧١) . وقد عاش المؤلف حسب اعتقاد اشنورر Schnurrer ، والذى يعتمد فى أغلب الظن على معجم روسى J. B. Rossi لعام ١٨٠٧ ، بالشام حوالى عام ٥٤٥ هـ = ١١٥٠ فى عهد خليفة « القاهرة وبغداد » / المستنصر(٧٢) ؛ وهو 666 يقصد بذلك الخليفة الفاطمى المعروف (٤٢٧ هـ - ٤٨٧ هـ = ١٠٣٦ - ١٠٩٤) ، ومن ثم فإن هذا المصنف كان يجب أن يتخذ مكانه من الناحية الزمنية فى موضع مختلف من عرضنا هذا ولكن يجب أن نقرر بأنه لم يرد أى ذكر لهذا المصنف أو ذلك المؤلف فى المصادر العربية سواء فى القرن الحادى عشر(٧٣) أو القرن السادس عشر ؛ غير أنه مما يوكد أنه قد عاش فى فترة تالية للقرن الحادى عشر هو أنه ينقل عن ابن خلكان وأبى الفدا(٧٤) . ومن ثم فمهما كان حكمنا على هذا الكتاب فيجب أن نترك تلك المهمة للباحثين القادمين ؛ وهذا ينطبق بدوره على عدد من المسائل المهمة المتعلقة بهذه الطبعة والتى تلقى ضوءًا على تاريخ تطور طباعة المصنفات العربية(٧٥) .

وسنجد أنفسنا مستندين على قاعدة أكثر ثباتًا ومادة أكثر وفرة وطرافة إذا ما تحولنا إلى الكلام على الرحّالين العرب فى القرن السادس عشر . وعدد هؤلاء الرحالة كبير جدًا غير أننا نرتطم بصعوبة هائلة إذا ما حاولنا معالجة الحديث عليهم فى عرض عام كهذا إذ سنجد أنفسنا مضطرين فى هذه الحالة إلى الاعتماد اعتمادًا يكاد يكون كاملا على مصادر مخطوطة وذلك لانعدام الطبعات . وإزاء هذا فسنقتصر بالطبع فى كلامنا على نقاط معروفة لنا إما عن طريق مباشر أو عن طريق مصادر ثانوية مرتبطة بها .

ويرتبط عدد كبير من رحلات هذا العصر بالدولة العثمانية التى كانت تلعب آنذاك دورًا رئيسـاً فى جميع العالم الإسلامى ، وقد حدث أن لاحظنا هذا فيما يتعلق بالمغرب فى أحد الفصول

---

(٧٠) Schnurrer, p. 174 -

(٧١) شرحه ، ص ١٧٥

(٧٢) شرحه ، ص ١٧٥

(٧٣) راجع عن المصنف الآخر : Brockelmann, GAL, SB II, p. 934, No 41

(٧٤) Wüstenfeld, Erdbeschreibung, p. 18 (41), No 66 -

(٧٥) راجع : شيخو ، المشرق ، الثالث ، ص ٨١ Schnurrer, p. 174 - 175 -

السابقة ؛ والآن نلتقى بنفس هذه الظاهرة فى سوريا أيضًا وهذا أمر جد مفهوم بالنسبة لقرب هذه الولاية من عاصمة الخلافة . ويمكن القول بأن العدد الغالب من الرحلات التى سنتناول الكلام عليها قد خرج من سوريا بالذات . غير أن هذه الظاهرة قد شملت فى واقع الأمر جميع الأقطار العربية الأخرى . وإذا ما أجلنا النظر جنوبًا فسنلتقى فى هذا النمط بواحد من معارفنا القدامى بدأ رحلته من مكة وهو قطب الدين النهروالى .

لقد التقينا بهذا المؤلف فيما مر من الكتاب كمتخصص فى الطبوغرافيا التاريخية لمكة ومؤرخ للفتح العثمانى لليمن الذى حفظ لنا بصدده روايته ذات المغزى الكبير عن دليل فاسكو دى غاما . وهو خير مثال للطبقة المثقفة بمكة فى ذلك العهد والعهود التالية له(٧٦) ؛ وأصل والده من كجرات أما الابن فقد ولد بمكة عام ٩١٧ هـ = ١٥١١ وتوفى بها فى عام ٩٩٠ هـ = ١٥٨٢ وهو يشغل منصب الإفتاء. وقد زار النهروالى استنبول مرتين ، ففى المرة الأولى خرج بقصد استكمال دراسته وذلك فى عام ٩٤٣ هـ = ١٥٣٦ فأقام بالقاهرة واستنبول وحظى فى غضون
667 هذه الزيارة الأولى / بمقابلة السلطان سليمان الذى ولاه العناية بالمدارس الأربع(٧٧) التى أنشأها بمكة . أما الزيارة الثانية لاستنبول فقد تمت بعد عشرين عامًا من تلك وذلك فى سنة ٩٦٥ هـ = ١٥٥٧ ووصفها فى مصنف خاص بعنوان « الفوائد السنية فى الرحلة المدنية والرومية »(٧٨) ؛ وهذا المصنف الأخير لم يضح معروفًا إلا فى الآونة الأخيرة جدًا وذلك عقب التعرف على نسخة خطية بيد المؤلف نفسه محفوظة بإحدى مكتبات استنبول(٧٩) . ويرجع تاريخ تأليف الكتاب إلى عام ٩٦٥ هـ = ١٥٥٧ ويلوح أنه قد دونه عقب الانتهاء من رحلته مباشرة أو ربما فعل ذلك أثناء إقامته بعاصمة الخلافة ؛ ونظرًا لأنه قد رفعه إلى أحد الخاصة من أهل استنبول فلعل هذا هو سر بقاء الكتاب فى مخطوطة واحدة وعدم وصوله إلى البلاد العربية . وأول من عرّف به كان أحد العلماء الأتراك المعاصرين وهو أكرم كامل وذلك فى مقال خاص(٨٠) نوه فيه بأهمية مادته فى التعريف

---

(٧٦) - Brockelmann, GAL, II, p. 381 - 382, No 3; SB II, p. 514 - 515

(٧٧) سركيس ، ص ١٨٧١

(٧٨) قطعة من مصنف قطب الدين النهروالى عن مخطوطة درسدن رقم ٢٠٤ كانت : - Schier, p. 444 - 445 لفليشر Fleischer (غير مذكورة فى الفهرس) تذكر مقابلته مع السلطان بايزيد فى عام ٩٠٤ هـ ؛ ص ٤٤٥ - ٤٤٨ ترجمة القطعة .

(٧٩) - cf.: Brockelmann, GAL, SB II, p. 515, Welieddin, No 2440

(٨٠) - Ekrem Kamil, Tarih, p. 5 - 90

بأحوال دار الخلافة فى ذلك العصر .

وإلى هذا العلامة التركى نفسه يدين العلم بمعرفته بأولى رحلات القرن السادس عشر التى اتجهت من سوريا إلى الدولة العثمانية ؛ ومؤلفها هو بدر الدين محمد الغزى العامرى المعروف بعدد كبير من التصانيف على المذهب القديم(٨١) ، وهو قد أمضى معظم حياته يشتغل بالتدريس فى موطنه دمشق وبها توفى عام ٩٨٤ هـ=١٥٧٧ . وفى رمضان من عام ٩٣٦ هـ=مايو ١٥٣٠ توجه إلى القسطنطينية فى صحبة « قاضى القضاة » ليرفع مظلمته عن عزله من عمله دون وجه حق . وقد وصل إليها فى أول ذى القعدة (يوليو) بعد أن اجتاز آسيا الصغرى . وهو يقدم لنا وصفًا موجزًا للمدن التى مر عليها فى طريقه مثل بعلبك وحمص وحماة والمعرة وحلب والمصيصة وأدنه واركلى وقونيه وآق شهر وقره حصار وينكى شهر وازنيق (نيقيه) وازميد (نقوميديه) واسكودار وأخيرًا القسطنطينية . وجميع هذا الوصف لا يتمتع بأهمية كبيرة من وجهة النظر الجغرافية فالرحلة تمثل أنموذجًا جيدًا لنمط « الرحلة » كما عرفناه فى المغرب والمكرس بوجه خاص لذكر العلماء الذين أراد المؤلف محادثتهم فى كل مكان ؛ وهو نفسه ينتمى إلى هذا الطراز من الرجال فقد ترك لنا عددًا من المؤلفات فى الفقه والأدب يقول عنها بكل بساطة إنها « لا مثيل لها » . وقد تمتعت أسرته فى دمشق بمكانة مرموقة وكان والده الذى توفى قبل ابنه بقليل يحمل لقب « شيخ الإسلام » . وهو نفسه قد قوبل بالكثير من العطف والرعاية أثناء وجوده بالقسطنطينية من جانب شخصيات ذات نفوذ مثل إياس باشا الذى تولى لبعض الوقت منصب بكلربك سوريا ، وقد أهدى إليه رحالتنا عددًا من المخطوطات القيمة ورفع / إليه بعض مؤلفاته الصغرى . 668

هذا وقد حالت الاحتفالات بقصر السلطان دون فحص شكواه ، وفى أول ذى الحجة (سبتمبر) رفع شكواه مكتوبة غير أن سفر السلطان فى تلك اللحظة بالذات إلى بروسه يصحبه الصدر الأعظم جعله ينتظر إلى أواخر المحرم ، ولكن الظروف قيضت له صديقًا عالمًا فى شخص عبد الرحيم العباسى (توفى عام ٩٦٣ هـ=١٥٥٦)(٨٢) وهو مؤلف لعدد من المصنفات فى البلاغة والشعر لا تزال متمتعة بالشهرة إلى أيامنا هذه . وبمعاونة هذا الأخير استطاع أن يجد لنفسه مسكنًا مجاورًا لمنزل صديقه وكانا يمضيان معًا جميع وقتهما بالتقريب وقرآ على بعضهما البعض تآليفهما وتناشدا كمية هائلة من الأشعار وشرحا الحديث وجميع «المسائل» ثم أجاز كل

---

(٨١) - Brockelmann, GAL, II, p. 360 - 361, No 3; SB II, p. 488

(٨٢) - Brockelmann, GAL, I, p. 296

منهما الآخر برواية مؤلفاته[٨٣] ؛ ومما يوكد هذا وجود مسودة لأحد مؤلفات العباسى المشهورة فى البلاغة مبيّن عليها أن الغزى قد انتهى من تحريرها فى عام ٩٣٧ هـ = ١٥٣٠[٨٤] بمنزل المؤلف باستنبول . وفى منتصف المحرم (سبتمبر) رحل مؤلفنا إلى ازميد وأمضى بها حوالى الشهر فى ضيافة أحد أصدقاء صاحبه العالم ، وكان السلطان قد رجع فى تلك الآونة إلى القسطنطينية فأخذ مؤلفنا بدوره الطريق إليها ولكنه لم يستطع الوصول إليها لعوائق اعترضته بالطريق إلا فى أول ربيع الأول (العشرة الأخيرة من نوفمبر) ؛ وهو فى هذه المرة أيضًا يقدم لنا قائمة طويلة بأسماء الشخصيات الأدبية المعروفة التى التقى بها . وقد تمكن بفضل عدد كبير من أصدقائه ذوى النفوذ أن يفوز باستجابة مطالبه ضد الشانئين عليه وأن يأخذ طريق العودة إلى بلاده فى أول شوال (منتصف مايو ١٥٣١) على ما يبدو ؛ وفى هذه المرة أيضًا اجتاز آسيا الصغرى ووصل سليما معافى إلى دمشق فى آخر ذى القعدة من عام ٩٣٧ هـ = منتصف يوليو ١٥٣١ بعد رحلة استغرقت الشهرين بالتقريب ولم تخل من جميع ضروب الصعاب ؛ وهو يورد لنا أسماء عدد كبير من المنازل فى طريقه وإن كان هذا القسم من الرحلة بأجمعه يغلب على وصفه طابع العجلة . ويشير التاريخ المدرج فى آخر الكتاب إلى أن وصف الرحلة تم تدوينه فى ذى الحجة من عام ٩٤٠ هـ = يونيو ١٥٣٤[٨٥] . ويكفى لتكوين فكرة عن أسلوبه المتكلف عنوان الرحلة نفسه وهو «المطالع البدرية فى المنازل الرومية» ؛ وقد دُوّن الكتاب أجمع فى نثر مسجوع تغلب عليه الصنعة والتكلف ويحفل بالاقتباسات الشعرية ومختلف ضروب المحسنات البديعية ؛ وهو بهذا يمثل أنموذجاً طريفاً لنمط «الأدب» بمدلوله الخاص مستنداً على قاعدة جغرافية كما يقدم مادة هامة لتصوير جميع ظروف ذلك العصر بما فى ذلك الجغرافيا بمفهومها العام .

669 هذا وقد عرّف بوصف الرحلة[٨٦] كما عرف أيضًا بوصف رحلة النهروالى العلامة التركى أكرم كامل معتمدًا فى ذلك على مخطوطة استنبول[٨٧] ؛ على أن مما يعيب تحليله أنه لم يستعن بالمخطوطة التى كتبها المؤلف بخط يده والمحفوظة بالمتحف البريطانى[٨٨] ، أو بمخطوطة معهد الدراسات

---

(٨٣) - Rosen, Notices sommaires, p. 189

(٨٤) - Brockelmann, GAL, I, p. 296

(٨٥) - Rosen, Notices sommaires, p. 190

(٨٦) - Köprulu, No 1390, cf: Ekrem Kamil, Tarih, p. 5 - 30

(٨٧) شرحه ، ص ٥ – ٣٠

(٨٨) - Brockelmann, GAL, II, p. 361, No 3, 1

الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية إن ليس في أصلها فعلى الأقل من الوصف المفصل الذى دبجه يراع فكتور روزن(٨٩). ومن الجلى أن هذا النمط الجغرافى كان محببًا إلى الغزى فقد حفظت لنا مخطوطة بدمشق لا تخلو من السقط تتضمن وصفاً لرحلته إلى مكة والمدينة(٩٠)، غير أن معرفتنا بها تقتصر على هذه الإشارة الغامضة إليها.

وإلى هذا النمط نفسه ينتمى مصنف معاصره الأصغر ومواطنه محمد بن أحمد سكيكر الدمشقى (توفى عام ٩٨٧ هـ = ١٥٧٩)(٩١) الذى سافر إلى استنبول بذات الهدف تقريباً وترك لنا وصفًا لرحلته بعنوان « زبدة الآثار فيما وقع لجامعه فى الإقامة والأسفار ». ويمكن القول بأن الكتاب مجهول لدى الدوائر العلمية لأنه لا توجد منه سوى مخطوطة واحدة بخط يد المؤلف محفوظة لدينا بمعهد الدراسات الشرقية، غير أن الوصف الذى تركه لنا عنها البارون روزن يقدم على أية حال فكرة ناصعة عن المصنف(٩٢)؛ ويبدأ المؤلف كلامه بوصف رحلته من حماة حيث كان يقيم إلى حلب فيتحدث عن إقامته بها وعمله هناك خطيباً بأحد مساجدها، ثم يصف رحلته
إلى القسطنطينية. وكتابه أقرب ما يكون إلى يوميات تتضمن تصويراً دقيقاً لحياة / المؤلف من ١٦ 670
ربيع الثانى عام ٩٧٣ هـ = ١٠ نوفمبر ١٥٦٥ إلى ١٣ محرم عام ٩٧٦ هـ = ٨ يوليو ١٥٦٨. وفى افتتاحية كتابه يذكر المؤلف فيما يذكر العوامل المباشرة التى حفزته على تصنيف كتابه الذى يغلب عليه أيضًا الطابع الأدبى(٩٣)؛ وقد غادر مؤلفنا حلب فى صحبة أحد مواطنيه من العلماء (هو أحمد بن محمد بن الملا الشهابى المتوفى عام ١٠٠٣ هـ = ١٥٩٤)(٩٤)، وكان هذا الأخير يحمل معه معجمًا تاريخيًا لمشاهير أهل حلب من تأليف معاصر لهما هو محمد بن إبراهيم بن الحنبلى (المتوفى عام ٩٧١ هـ = ١٥٦٤)(٩٥) بعنوان « در الحبب فى تاريخ أعيان حلب ». وفى أثناء

---

(٨٩) مخطوطة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية رقم ف ٧٩٩ –
Rosen, Notices sommaires, p. 187 - 191, No 240 (1066 h.)

(٩٠) حبيب الزيات، صيدنايا، ص ٨٢، رقم ٥٩

(٩١) - Brockelmann, GAL, II, p. 351 No 5; SB II, p. 489

(٩٢) مخطوطة معهد الدراسات الشرقية التابع لاكاديمية العلوم السوفيتية رقم ف ٨٠١ –
Rosen, Notices sommaires, p. 190 - 193, No 241

(٩٣) - Rosen, Notices sommaires, p. 190 - 192

(٩٤) - Wüstenfeld, Muhibbi, p. 63.65, No 44

(٩٥) - Brockelmann, GAL, II, p. 368, No 2; SB II, p. 495 - 496

استنساخه لهذا الكتاب فى طريق الرحلة عثر فى سيرة شيخ الإسلام عمر بن الشماع على ذكر لمصنفه بعنوان « عيون الأخبار فيما وقع لجامعه فى الإقامة والأسفار » ؛ وقد أثر فيه هذا تأثيرًا كبيرًا صوره فى قوله : « فتحركت الهمة لمضارعته وجمع ما يقع لكاتبه فى سفره وإقامته فاستفسرت فى ذلك مولانا الشهابى أحمد المذكور أعلاه بلّغه الله فى الدارين مناه بمحمد ومن والاه فأجاب بأنه لا ضرر فى ذلك بل إن هذا يكون تاريخًا وكتابًا أدبيًا فاستخرت الله واقتفيت تلك المسالك وسميته زبدة الآثار الخ ... وهاأنا أبتدىء بذكر رحيلى من مدينة حماة المحروسة ورياضها الأنيقة المأنوسة فى يوم الأحد سادس عشر ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وسبعين وتسعماية هجرية من هجرة المظلل بالغمام وسيد البرية وإنما أضربت عما تقدم من السنين لأننى لست فى ذلك على اليقين فإن قدر
671 الله بعد ذلك التأمل فيما مضى تأملته وأثبته / وإلا نأيت عنه وبقيت على ما ابتدأت به واخترته »[٩٦] .

من هذا يتضح لنا أن كتابه ينتمى إلى طراز معروف هو طراز الرحلة « فى طلب العلم » ، مع اتجاه واضح إلى الترجمة لسيرة حياته (autobiography) وذكر لحظات سابقة منها . وبعض ما ذكره فى افتتاحية كتابه قد وجد التأييد من جانب المواد الموجودة لدينا بمعهد الدراسات الشرقية ، فالمؤلف بوجه عام كان ذا اهتمام واسع بمختلف فنون الأدب وتوجد من بين المجموعات الأدبية بمعهد الدراسات الشرقية مخطوطة بنسخ يده[٩٧] ، كما عرفت أيضًا نسخة بخط يده للترجمة العربية « للشاهنامه »[٩٨] . أضف إلى هذا أن آثار نشاطه كناسخ للكتب تقابلنا كثيرًا ، ففى عام ٩٧٨ هـ = ١٥٧٠ أهدى إلى صديقه الذى أشرنا إليه قبل قليل وهو أحمد بن الملا مخطوطة من نسخ يده لأحد مؤلفات عالم مصرى مشهور من معاصريهم هو الشعرانى وهى محفوظة أيضًا لدينا بمعهد الدراسات الشرقية[٩٩] ، وفى ٩٨١ هـ = ١٥٧٣ استنسخ سيرة تيمور المشهورة لابن عربشاه وهى محفوظة الآن بغوتا[١٠٠] ؛ وجميع هذا يشير بلا شك إلى اتساع أفق نشاطه الأدبى .

---

(٩٦) مخطوطة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية رقم ف ٨٠١ ، الورقتان ٢ ا و ٢ ب — Rosen, Notices sommaires, No 241, p. 192

(٩٧) مخطوطة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية رقم س ٦٧٩ « نثر الدر » الجزء الثانى ، الورقة ٢٣٣ ا

(٩٨) راجع عن هذا : الفردوسى ، الشاهنامه . نشر عبد الوهاب عزام ، الجزء الأول ، ص ١٣ — ١٤

(٩٩) - Rosen, Notices sommaires, p. 31 - 32, No 70

(١٠٠) - Pertsch, III, p. 399, No 1841

ولا يخلو من طرافة فى هذا الصدد أن نشير عرضًا إلى أن رفيق سفرته قد ترك بدوره وصفًا للرحلة إلى القسطنطينية لم يصل إلى أيدينا(١٠١) .

ولم يستغرق طريقه إلى حلب أكثر من أربعة أيام فقد وصلها فى العشرين من ربيع الثانى عام ٩٧٣ هـ = ١٤ نوفمبر ١٥٦٥ ونزل أولا بدار صديقه القديم حجيج الواحدى الذى سنلتقى به بعد قليل كمؤلف رحلة أيضًا . ويفصل لنا سكيكر بما فيه الكفاية عن إقامته بحلب وعن مكائد أعدائه ويورد لنا بعضًا من خطبه وأشعاره وشذورًا من رسائله وألغازه . وبعد هذا شغل منصب الإمام بمسجد العادلية كما اشتغل فى الوقت ذاته بالتدريس بالمدرسة الأتابكية ، غير أن دسائس أعدائه نجحت فى إقصائه عن هاتين الوظيفتين فى أواخر شعبان من عام ٩٧٥ هـ = فبراير ١٥٦٨ فقرر الذهاب إلى استنبول لرفع مظلمته إلى الأعتاب السنية . وقد غادر حلب فى الثالث والعشرين من شوال عام ٩٧٥ هـ = ٢١ مارس ١٥٦٨ سالكًا بالتقريب نفس الطريق الذى سلكه الغزى قبله حتى بلغ دار الخلافة فى أواخر ذى القعدة (مايو) من العام نفسه ، أما بقية الكتاب فقد أفرده بصورة خاصة للكلام على إقامته بالقسطنطينية وهو يقص فيه أخبار الأحداث يومًا بعد يوم بالتقريب إلى ١٣ محرم عام ٩٧٦ هـ = يوليو ١٥٦٨ . وهذا القسم إلى جانب وصف الرحلة نفسه يمثل أهمية كبيرة لأنه يحتوى على عدد من التفاصيل الدقيقة مما يساعد كثيرًا على
تكوين فكرة عن حياة رجال / العلم في ذلك العصر ، كما يحتوى أيضاً على رواياته لمختلف الأحداث 672
التاريخية المعاصرة كارتقاء السلطان سليم الثانى لعرش الخلافة فى عام ٩٧٤ هـ = ١٥٦٦ وهو يروى هذا على لسان أحمد بن داود الحموى(١٠٢) الذى التقى به فى دار الخلافة ؛ ولعل هذا الأخير كان أخًا لأحد الرحالة ممن سيرد بنا الكلام عليهم فيما يلى من هذا الكتاب . وإلى جانب تسجيله للوقائع المختلفة فإن الكتاب كما هو الشأن دائمًا مع الرحلات « العلمية » يفيض بالأشعار والألغاز والمعميات (charades) وغير ذلك من ضروب البديع ، سواء للمؤلف نفسه أو لأصدقائه .

وكان المؤلف شخصًا ذا جوانب متعددة فى نشاطه نذكر من بينها أنه كان شطرنجيًا مرموقًا فى عصره نال الشهرة فى الشطرنج لا كلاعب فحسب بل وأيضًا كصاحب نظريات وصلتنا عنه رسائل فى هذا الفن ؛ وقد احتل اسمه مكانة رفيعة فى تاريخ الشطرنج العام حتى قال عنه أحد كبار المتخصصين فى هذا الفن وهو فون درلازا Von der Laza « آخر من يستحق الذكر بين

---

(١٠١) حاجى خليفة ، الجزء الثالث ، ص ٥١٣ ، رقم ٦٦٩٦

(١٠٢) - Rosen, Notice Sommaires, p. 193

لاعبى » المدرسة القديمة للشطرنج فى القرن السادس عشر[١٠٣] . ونظرًا لأن مخطوطة إحدى رسائله النظرية فى الشطرنج كان قد جلبها إلى اكسفورد فى القرن السابع عشر المستعرب بوكوك Pococke الذى عاش لبعض الوقت بحلب فقد أصبحت معروفة لدى الشطرنجيين الغربيين منذ عهد هيد Heyd (١٦٩٤)[١٠٤]، ويرد ذكرها على الدوام فى المصنفات المفردة لهذا الفن[١٠٥].

وصديقه الذى نزل عليه بحلب وهو حجيج بن قاسم الواحدى عرف كرحالة أيضًا ولكن لا إلى استنبول بل إلى مكة. فقد أدّى فريضة الحج فى عام ٩٩٢ هـ = ١٥٨٤[١٠٦]؛ ووصف رحلته
673 الذى يحمل العنوان المعهود لنا « الرحلة » محفوظ أيضًا / فى مخطوطة فريدة بمعهد الدراسات الشرقية ضمن مجموعة روسو الحلبية ووصفها لنا روزن بدقته المعهودة[١٠٧] . وهى بوجه عام تنتمى إلى طراز من المؤلفات يختلف عن مصنفى الغزى وسكيكر ؛ ورغمًا عن أنها أقل أهمية منهما إلا أنها لا تخلو من بعض الأصالة . وقد كان وصفه لرحلة الحج ذريعة لهدفه الأساسى وهو الكلام عن العلوم المعروفة لدى المسلمين وإعطاء فكرة عن معرفته الواسعة بجميع فروعها . وهو يذكر فى مقدمة كتابه أنه عزم على أداء فريضة الحج فى عام ٩٩٢ هـ على الرغم من أنه قد حج قبل ذلك ، ثم يستمر فى قوله :

« ومن عادتى أنى كلما سافرت سفرةأن أضع رحلة أذكر فيها المنازل وما يقع فى كل منزلة من النوادر ممن للأدب ينازل بل أذكر ما يقع من العوام ولو كان من مهمل الكلام وأضيف إلى ذلك أشعارًا رايقة وحكايات فايقة ونكت لسماعها الأسماع شايقة والأرواح وامقة تشتمل على ألفاظ أرق من النسيم وأحلى من التسنيم وتكون تذكرة لى فى حياتى وبعد مماتى »[١٠٨] .

---

(١٠٣) - Von der Laza, Schachspial, p. 20 - Von der Laza, Sokeikir, p. 320 - 322

(١٠٤) يوجد عرض لمحتوياتها وفقًا له (ص ١٥٤ – ١٥٥) فى كتاب :
Von der Linde , Geschichte, I, p. 5 - 6, 107

(١٠٥) - Cf: Von der Linde, Quellenstudien - Murray, JRAS, p. 170 - Brockelmann, GAL, SB II, p. 489, No 5

(١٠٦) - Brockelmann, GAL, SB II, p. 361, No 6

(١٠٧) - Rosen, Notices Sommaires, p. 193 - 196, No 242.
مخطوطة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية رقم ف ٨٠٠

(١٠٨) مخطوطة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية رقم ف ٨٠٠ الورقة ١٦ –
- Rosen, Notices Sommaires, p. 194, No 242

أما تفاصيل حجته فإنه يرويها باقتضاب شديد كأنما ترد عرضاً ، هذا بينما يدخل فى استطرادات مسهبة بصدد الكلام على العلوم متذرعًا فى هذا بمختلف المناسبات فأحيانًا يلقى عليه أحد زملائه فى السفر أسئلة ليجيب عليها وتارة يلقيها المؤلف نفسه على صديقه وطورًا آخر يكشف أحد معارفه العابرين ، فارسى أو مصرى ، عن معرفته العميقة بمسائل من ميدان الفقه والنحو أو / 674
يستفسر لدى مؤلفنا عن بعض المسائل المغلقة . ومن النادر ألا تحفزه مناسبة ما حتى وإن كانت قليلة الأهمية إلى الاستطراد ، فهو مثلا ينتهز فرصة ارتدائه لملابس الإحرام فيتحدث بتفصيل واف عن شعائر الحج ؛ ثم يرجع مرة أخرى إلى سرد رحلته ملتجئًا فى العادة إلى عبارة مألوفة لديه هى « رجعنا إلى ما كنا فى صدده من ذكر الرحلة والاجتماع بكل فاضل ورُحْلَـة » . وهذه الجملة لا يطرأ عليها تغيير كبير ولكنه ما يكاد يرجع إلى موضوعه الأساسى ، أى سرد الرحلة ، حتى نراه بعد أسطر قليلة يدخل فى استطراد جديد على هيئة « فصل » أو « مطلب » . ويوجد فى أول المخطوطة ثبت بهذه الاستطرادات كما أن روزن قد أفرد جدولا مفصلا للعناوين الداخلية بحيث نستطيع أن نتبين من بينها عددًا من الموضوعات الجغرافية المعروفة لنا والتى تمثل القاعدة الأساسية التى عالج الكلام فيها المؤلفون الجغرافيون لذلك العهد ؛ ففى البداية يوجد قسم عن « فضل حلب » يليه قسم « فى مدح دمشق وتغزل الشعراء بها » وفى « خصوصيات دمشق وبناء مسجدها » وفى « حمام دمشق وما اتفق له مع صانعها والأشعار والفوائد الجليلة فى الحمام » و « فى الرياح » وفى « ذكر أخلاق أهل البلد » و « فى علم الهيئة » و «فى الشهور» الخ ، كما يوجد استطراد خاص « فى البحث عن السفليات والأقاليم السبعة » . وبهذا فإن الوصف رغمًا من طابع الأصالة والطرافة الذى يتميز به لا يخلو كما أبصرنا من كمية كبيرة من المادة الجغرافية ، وهو يدخل سمة جديدة فى نمط الرحلة من أجل العلم بمحاولته المزج بينه وبين عرض عام لفروع العلوم المختلفة وإن تم ذلك لديه بصورة بدائية . ولا شك أن مصنف حجيج هذا ومصنفات مواطنيه تثبت بصورة جلية أن نمط الرحلة قد لقى ازدهارًا ملحوظًا بسوريا الشمالية فى ذلك العصر ، ليس ذلك فحسب بل ووجدت درجة معينة من التنافس بين المؤلفين أنفسهم . وهذا بدوره يقف دليلا على انتعاش الحياة الأدبية آنذاك ويفسر لنا السبب فى أن حاجى خليفة قد بدأ فى جمع مادة معجمه البيبليوغرافى فى القرن السابع عشر بمدينة حلب بالذات .

هذا وقد ذكرنا من قبل أن سكيكر قد التقى فى استنبول بأحمد بن داود الحموى الذى تشير 675
قرائن الأحوال إلى أنه أخ لمحب الدين محمد بن داود الحموى الدمشقى (ولد عام ٩٤٩ هـ =

١٥٤٢)[١٠٩] أحد ثلاثة يعدون أكبر علماء أسرة المحبى المشهورة بعلمائها وهو جد المؤرخ المعروف . وأصل صاحبنا من حماة وقد نال قسطه من التعليم بمسقط رأسه وبحمص وحلب ، وتلى هذا قيامه فى رحلته الأولى إلى استنبول . ولدى رجوعه اشتغل بالتدريس بدمشق ثم صحب شيخ الإسلام فى زيارته للقدس والقاهرة عام ٩٧٨ هـ = ١٥٧١ ، وبهذه المدينة الأخيرة تولى منصب القضاء لبعض الوقت . وأعقب هذا رجوعه إلى دمشق (حوالى عام ٩٨١ هـ = ١٥٧٣) ورحلته الثانية إلى استنبول التى شهد فيها اعتلاء السلطان مراد الثالث عرش السلطنة (٩٨٢ هـ = ١٥٧٤) ثم عودته إلى سوريا حيث شغل عدداً من المناصب كقاض وإمام حتى انتهى الأمر بتعيينه مفتيًا ووفاته عام ١٠١٦ هـ = ١٦٠٨ بمدينة دمشق . وبخلاف مصنفاته العديدة فى الحديث والأدب التى لا تتجاوز المألوف عادة فإننا ندين له بمصنفين معروفين فى المخطوطات يصف فيهما رحلاته ؛ واعتمادًا على مخطوطات كل منهما[١١٠] فيمكن القول بأن الأول منهما نال رواجًا أكثر من الآخر وهو معروف بعنوان « حادى الأظعان النجدية إلى الديار المصرية » وقد ألفه عندما شغل منصب القضاء بمعرة النعمان وكان بدأ رحلته كما ذكرنا فى عام ٩٧٨ هـ = ١٥٧١ فى صحبة شيخ الإسلام ومفتى دمشق إلى القدس للتحقيق فى مسألة الأبنية التى سمح النصارى لأنفسهم بإقامتها بضريح المسيح ، ولما تبين لهم صحة ذلك أمروا بوضع حد له . ثم تابعوا طريقهم إلى القاهرة مارين بحبرون الخليل وغزه وبلبيس ؛ ويصف لنا المؤلف أثناء ذلك مشاهد الطريق التى تستحق الذكر ومن التقوا بهم من كبار الشخصيات لحين عودتهم إلى دمشق . ويحمل الوصف كما جرت العادة طابعًا أدبيًا أكثر منه جغرافيًا ويحفل بالاقتباسات العديدة من الرسائل والأشعار التى عملها المؤلف نفسه أو أصدقاؤه . وقد تركت أثرها أيضًا على الإنتاج الأدبى للحموى انطباعاته عن آسيا الصغرى إذ لديه مصنف بعنوان « بوادى الدموع العندمية بوادى الديار الرومية » ؛ ولكنه معروف فى مخطوطة واحدة بكمبردج[١١١] لا يمكن تكوين فكرة عنها من مجرد ذكرها المقتضب فى فهرس مكتبتها ؛ وأغلب الظن أنها من طراز الرحلة العلمية الذى يجنح نحو الأدب .

---

(١٠٩) - Brockelmann, GAL, II, p. 351, No 4; SB II, 448 - Brockelmann, AI - Muhibbi, p. 755 - Wüstenfeld, Muhibbi p. 5 - 9 No 1

(١١٠) - Brockelmann, GAL, II, p. 351, No 4
وأيضا فى بيروت ، راجع : Cheikho. Catàlogue raisonné, p. 111 - 112, No 182

(١١١) - Brockelmann, GAL SB II, p. 488, No 4

ولعلنا سنلجأ أكثر وأكثر إلى التخمين فيما يتعلق برحلة خرجت من سوريا فى اتجاه تركيا على أغلب الظن وهى أيضًا ترتبط / بمؤلف معروف بما فيه الكفاية ، فقد حفظت لنا المكتبة الأهلية 676
بباريس[١١٢] مخطوطة لرحلة شخص يدعى أحمد بن محمد الطالوى الدمشقى الذى لا نعرف عنه شيئًا ما ؛ غير أن هذا الاسم يقرب كثيرًا من اسم شخص معروف جيدًا هو درويش محمد بن أحمد الطالوى الدمشقى (توفى عام ١٠١٤ هـ = ١٦٠٥)[١١٣] وهو صاحب مجموعة من المختارات الشعرية المشهورة (anthology) التى تنضوى تحت التتمات العديدة « ليتيمة الدهر » للثعالبى التى ترتفع إلى القرن الحادى عشر الميلادى . ومن الممكن بطبيعة الحال أن يكون مؤلف الرحلة ابنًا له ، غير أنه يوجد اعتبار ضئيل يجعلنا نتساءل ألم يحدث هنا خلط فى الأسماء وأليس من الجائز أن مؤلف الرحلة هو الأب نفسه ؛ ونحن نعلم من سيرة حياته أنه صحب قاضى القضاة فى عام ٩٢٢ هـ = ١٥٨٤ إلى استنبول وأنه عمل مدرسًا بها لبعض الوقت لذا فمن الممكن جدًا أن يكون قد ترك لنا كمعاصريه السوريين الأخر وصفًا لرحلته أيضًا . وتبدو ميوله الأدبية واضحة للعيان حتى بدون الكلام على مختاراته الشعرية ، فهو واحد من مثقفى ذلك العصر ونحن ندين له بحفظ مخطوطة نادرة بخط يد الأمير أسامة بن منقذ موجودة لدينا بقسم المخطوطات بمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية[١١٤] . ويوجد ميل إلى الاعتقاد بأن وصف رحلته قد حمل ذات الطابع «العلمى الأدبى» الذى حملته بقية المصنفات الأخرى الشبيهة فى ذلك العصر ، وإن لم يخرج هذا عن حدود التخمين والافتراض .

ويمكن اعتبار آخر حلقة من الناحية الزمنية فى هذه السلسلة من الرحلات السورية التى اتجهت فى القرن السادس إلى استنبول مصنف محمد بن أحمد بن حافظ الدين القدسى (المتوفى عام ١٠٥٥ هـ = ١٦٤٥)[١١٥] الذى اشتغل بالقضاء والتدريس وزار استنبول أكثر من مرة ، وشغل منصب القضاء لا فى وطنه القدس وحده بل بدمشق وطرابلس والقاهرة أيضًا ثم بالبوسنه وتوفى وهو قاض بصوفيا . وقد خلف لنا عددًا من قصائد المدح التى قالها فى حق رعاته

---

(١١٢) - Blochet, Catalogue, p. 53, No 5048 = Brockelmann, GAL, SB II, p. 489, No 7

(١١٣) - Brockelmann, GAL. II, p. 273, No 11, SB, 384 -
زيدان ، الجزء الثالث ، ص ٢٧٥ – ٢٧٦

(١١٤) - Salie, Usama, p. 13 - 14

(١١٥) زيدان ، الجزء الثالث ، ص ٢٧٦ ، رقم ١٢ - Brockelmann, GAL, II, p. 275, No 23 -

باستنبول[١١٦] ، كما ترك لنا أيضًا وصفًا لرحلة معروف فى مخطوطة يتيمة بمكتبة برلين[١١٧] يتحدث فيها عن زياراته للقاهرة والقدس ودمشق ويصف بتفصيل واف رحلته البحرية من القاهرة إلى استنبول فى عام ١٠١٣ هـ = ١٦٠٤ ؛ وهو كالتمجروتى يهتم بوصف العواصف والأنواء البحرية . ويغلب على وصفه طابع التكلف الشديد فقد صاغه بالسجع الذى ينعكس فى عنوان
677 الكتاب نفسه وهو « إسفار الأسفار / فى أبكار الأفكار » ؛ ولا شك أن المؤلف كان شخصًا واسع الثقافة خبيرًا فى الأدب .

وإلى جانب هذه المصنفات الجغرافية ذات الطابع الأدبى نلتقى فى هذا العصر ، وباللغة العربية أيضًا ، بجميع تلك الأنماط التى تربطها رابطة الرحم بأوصاف الرحلات والتى عرفناها عن ذلك العصر نفسه باللغة التركية . وكما حدث مع المؤلفات التركية المشابهة لها فإن مجرد سرد أسمائها لا يخدم أى غرض لأن هذا من مهمة الفهارس المكتبية والمصنفات الببليوغرافية المنظمة ؛ غير أننا سنكتفى من باب المثال بتقديم أنموذج واحد لها . فقد وضع مصرى لا علم لنا بتفاصيل حياته ويدعى محمد بن أحمد السنهورى، وذلك فى عهد السلطانين مراد الثالث (٩٨٢ هـ - ١٠٠٣ هـ = ١٥٧٤ - ١٥٩٥) ومراد الرابع (١٠٣٢ هـ - ١٠٤٩ هـ = ١٦٢٣ - ١٦٤٠) ، تعدادًا لمنازل البريد بين مكة والقاهرة[١١٨] أقرب ما يكون إلى طراز دليل الطريق من أجل الحاج مما مرت بنا أشكاله المختلفة فى فصل سابق ؛ وعلى أية حال فإن مصنفه لا يخلو من الفائدة لأن المؤلف قد جهد فى تحديد المسافات بين المنازل بدقة كبرى معتمدًا فى ذلك على طريقة خاصة[١١٩] .

ومما يضفى أهمية على هذا النموذج بالنسبة لنا فى صدد آخر هو أنه يوكد مرة أخرى الصلة الوثيقة التى ربطت الأدب العربى بالأدب التركى فى ذلك العصر وأثر القوة المركزية التى اجتذبته إلى عاصمة الخلافة التى احتلت مكان الصدارة بالنسبة للبلاد العربية فلم تدانيها القاهرة نفسها . وفى هذا الصدد لم تلعب اللغة دورًا جوهريًا ، فقد لاحظنا حالات دوّن فيها مؤلفون عرب

---

(١١٦) - Ahlwardt, VII, p. 131 , 132, No 7980 = Brockelmann, GAL, II. p. 275, No 23

(١١٧) - Ahlwardt, V, p. 433, No 6134; Contents see: Brockelmann, GAL, II, p. 362, No 8
Brockelmann, GAL, p. 382, No 8

(١١٨) - Brockelmann, GAL, SB II, p. 489, No, 8 - Flügel ZDMG, 18, p. 523 - 537

(١١٩) - Flügel, ZDMG, 18, p. 524 - 525

مصنفاتهم الجغرافية باللغة التركية ؛ وأكثر من هذا وجد مؤلفون أتراك دونوا مصنفاتهم باللغة العربية . وإذا ما أخذنا فى حسابنا أن انتعاش الجغرافيا الملاحية إنما يقع فى نفس هذه الفترة للنصف الأول من القرن السادس عشر وأن بعض ممثليها كالمؤلف التركى سيدى على ريس لا يمكن فصلهم عن الأدب العربى ، أضف إلى هذا أن المؤلف المغربى أحمد التونسى قد كتب أسماء خارطته بالتركية ، فإن جميع هذا يضطرنا إلى تسمية هذا العصر فى الأدب الجغرافى بالعصر « العربى التركى » . ويسمح لنا اسم حاجى خليفة بمد هذه التسمية على القرن السابع عشر ، بل إن اللوحة لا تختلف كثيرًا حتى فى القرن الثامن عشر نفسه وإن أمكن ملاحظة تعديلات معينة فيها . أما الأنماط فقد ظلت كما هى ؛ ومن الملاحظ أن نمط الرحلة بقى يشغل مركز الصدارة إلى العصر الحديث ولكنه لم يقتصر كما هو الحال من قبل على العالم القديم بل شمل العالم الجديد أيضًا .

ولقد ظلت الدولة العثمانية تلعب الدور الأول فى اجتذاب الرحلات إليها غير أنها لم تعد تمثل الحلقة الأساسية التى تربط بين غالبية الأقطار العربية ، فقد أخذت تظهر فى هذه الأخيرة اتجاهات
مستقلة/عن مركز الجاذبية . ولا يعنى هذا أن مصر وسوريا قد احتكرتا ولو من حيث الكم المكانة 678
الأولى فى التصنيف الجغرافى ؛ وكما حدث فى عصور تاريخية سابقة فقد ظهرت هذه المصنفات فى أقطار أخرى أيضًا ظلت العربية متمتعة فيها بقيمتها الثقافية كالعراق وإيران وحتى الهند . وهى وإن اعتبرت بوجه عام ذات قيمة بالنسبة لنا من زاوية خاصة ، إذ أنها فى الواقع مؤلفات ذات قيمة ثانوية فى معظمها ، إلا أنه بمقدورنا على أية حال أن نشير فى القرن السابع عشر بل وحتى فى القرن الثامن عشر إلى اسم أو اسمين يجب أن يحتلا مكانيهما فى عرض عام للأدب العربى . ومثل هذا القول لا يصدق على القرن السادس عشر لأن جميع آثاره باستثناء الجغرافيا الملاحية تمثل أهمية محلية فحسب وإن كانت أهمية جوهرية فى حد ذاتها أحيانًا ؛ لكل هذا فإننا لم نتنكب الصواب حينما وصفنا هذا القرن فى أول الفصل بأنه قرن شاحب من وجهة نظر الأدب الجغرافى .

الفصل الثالث والعشرون
القرن السابع عشر

679 يشابه القرن السابع عشر القرن الثامن عشر فى أنه لا يقدم شيئًا جديدًا فى تطور الأدب الجغرافى باللغة العربية لدى مقارنته بالعصور السابقة لذلك؛ وإذا كنا قد أفردنا له فصلاً خاصاً فإن مرد ذلك إلى اعتبارات ذات طابع عملى بحت لا علاقة لها البتة بالمادة الجغرافية . وقد ظلت معظم البلاد العربية فى هذا الوقت أيضًا ولايات تابعة للدولة العثمانية ، تربطها بها روابط نائية أحيانًا وثانوية غالبًا ولكنها احتفظت بمراكز الثقافة المحلية التى انتعشت فيها التقاليد الأدبية وفقًا للمذهب القديم للعصور الوسيطة. فالمغرب ، وعلى وجه الخصوص مراكش ، الذى تمتع كما كان عليه الحال من قبل بقدر كبير من الاستقلال السياسى قد حافظ بشدة على ميله القديم إلى التأليف فى مجال التاريخ وأخرج لنا فى هذا الميدان عددًا هائلا من المصنفات إلى القرن التاسع عشر تنتمى كلها إلى النماذج المعروفة لنا . وبصدد الاهتمام بأدب التاريخ يمكن أن يلفت النظر بصورة خاصة الرواج المنقطع النظير الذى تمتع به نمط الرحلة والذى ظل محتفظًا به إلى القرن التاسع عشر أيضًا .

ويمكن القول بوجه عام إن الأدب الجغرافى فى جميع البلاد العربية فى هذا العصر قد اقتصر اقتصارًا تامًا على نمطين فقط هما نمط الأوصاف الجغرافية المنطقية ونمط الرحلات . أما المجموعة الأولى فقد غلب عليها بصورة واضحة طراز « الفضائل » ، ونلتقى بها مرة ثانية وفى كمية غزيرة بسوريا أو مكرسة « للمدن المقدسة » بالجزيرة العربية مع ميل واضح للتخصص ولتضييق أهدافها . وأما الرحلات فقد ظلت تجتذبها كما هى العادة العاصمة السياسية للخلافة أعنى استنبول التى اتجهت إليها كما كان الحال من قبل البعثات الدبلوماسية أو رعايا الدولة العاديين الذين رحلوا إليها ليرفعوا ظلاماتهم من الولاة المحليين ؛ كذلك استمر الحج يلعب دورًا مذكورًا فى الرحلة ولم يقتصر على المراكز الإسلامية وحدها بل ضم إليها المواضع المسيحية كالقدس وطور سيناء . وقد انبعث فى هذا الصدد أدب مستقل بين أوساط العرب المسيحيين بسوريا خاصة ، كان من الممكن أن نعتبره ظاهرة جديدة لولا جهلنا بخطوط تطوره التاريخى الأولى .

680 ومما يميز الأدب الجغرافى للقرن السابع عشر لدى مقارنته بالقرون السابقة لذلك هو أننا نلتقى فيه على الأقل بمصنفين كبيرين يفوقان بجلاء غيرهما من مصنفات ذلك العصر ، سواء من حيث المضمون أو من حيث الصياغة الأدبية . وكلا المصنفين ينتميان إلى النصف الأول من القرن السابع عشر ويرتبطان بسوريا ولكنهما ظهرا فى وسطين مختلفين تمام الاختلاف . أولهما هو

وصف رحلة مكاريوس الأنطاكى إلى البغدان (مولدافيا Moldavia) والأفلاق (ولاخيا Wallachia) والأوكراين (أوكراينا Ukraina) وبلاد المسكوف Moscovy ، وهو يمثل من ناحية موضوعه أهمية منقطعة النظير بالنسبة لتاريخ بلادنا وقد قدره المتخصصون بما هو أهل له من تقدير ولم يخضع حتى الآن لدراسة وافية . وصاحب هذا المؤلف عربى مسيحى رضع لبان تقاليد تختلف عن تلك التى شغلنا بها حتى هذه اللحظة فى الأدب الجغرافى ؛ وهو من الناحية الأدبية ليس بذى قيمة تذكر ولهذا السبب فمن العسير أن يجد مكانه فى عرض عام لتاريخ الأدب العربى .
أما المصنف الآخر فإنه ذو طابع مخالف تمامًا وأعنى به كتاب المقّرى المشهور عن الأندلس الذى يتمتع بالأهمية من وجهتى نظر الأدب والجغرافيا ؛ وهو أثر بارز فى محيط النثر الفنى المنمق ولكن مؤلفه يذهب بعيدًا فى هذا الصدد إلى درجة المبالغة ، وعلى أية حال فهو مصنف كلاسيكى وليس من المبالغة فى شىء أن اعتبره البعض أحيانًا خاتمة لتطور الأدب العربى عامة . وأصل المؤلف من تلمسان بشمال افريقيا ولكنه ألف كتابه بالقاهرة بعد إلحاح وتشجيع من أصدقائه الدمشقيين الذين كانوا يمثلون بالنسبة له السند الوحيد فى هذا الصدد كما يعترف هو نفسه . هذه الصلة بين المغرب وسوريا لم تكن بالطبع وليدة المصادفة وهى توكد مرة أخرى استمرار وحدة التقاليد الثقافية والأدبية بين الأقطار الإسلامية المختلفة حتى فى هذا العصر ؛ كما أنه من العسير أن ينسب إلى المصادفة أن العدد الأكبر من المصنفات الجغرافية التى ظهرت فى هذا العصر ينتمى إلى سوريا والمغرب بالذات .

والآن وقد وجدنا لأنفسنا الحق فى الابتداء بسوريا فلنتحول إلى معالجة الكلام على تلك المصنفات التى انبعثت فى وسط عربى مسيحى والتى لم تسنح لنا الفرصة من قبل لكى نقف عندها بصورة خاصة فيما مر من هذا الكتاب . والأدب الجغرافى لدى المسيحيين الشرقيين فقير على وجه العموم وقد أمكننا أن نتبين هذا إلى حد كبير عند كلامنا على السريان وإلى حد ما عن الحبش أو عن أولئك الذين دونوا مؤلفاتهم باللغة العربية . وهؤلاء الأخيرون قد ارتبطوا بحسب عقائدهم لا بالتقاليد الهلنستية فى شخص بطلميوس بقدر ما ارتبطوا بالفترات المتأخرة لتطور الاتجاهات المماثلة فى بيزنطه ورومة . وقد لاحظنا خلال كلامنا على العهود السابقة ظاهرة لا تخلو من الطرافة وهى أن عددًا من أوصاف رومة (وأحيانًا القسطنطينية وأنطاكية) التى وجدت عند بعض المؤرخين والجغرافيين المسلمين ترتبط بمصادر مسيحية شرقية ؛ وهذه الأوصاف منحولة فى العادة / ويغلب عليها الطابع الأسطورى وقد وقعت إلى الأدب العربى فى معظم الأحايين عن طريق 681
السريان ، ويمكن القول بصورة قاطعة بأن أصحابها قد زاروا تلك المواضع غير أن حكاياتهم عنها

مشحونة بعنصر الخيال وليست سهلة الفهم بالنسبة للقارىء . أما فى العصر الحديث الذى نعالج الكلام عليه الآن فإن جميع الأدب الجغرافى للمسيحيين العرب يقتصر فى جوهره على أوصاف الحج إلى « الأرض المقدسة » (فلسطين) وإلى سيناء ؛ وأقدم الآثار فى هذا المجال غير معروفة لنا ومن المحتمل أنها لم تعش ؛ وهو شيء يجب ألا يدهشنا بإزاء الظروف التى حفظ فيها هذا الأدب العربى المسيحى .

وإلى فترة قريبة من هذا العهد تنتمى رحلة إلى طور سيناء قام بها شماس يدعى افرام لا نعرف عنه شيئًا بخلاف اسمه هذا ، والرحلة معروفة لنا بفضل الترجمة اللاتينية التى عملها المستشرق الإيطالى اغناطيوس غويدى I . Guidi[1] معتمدًا فى ذلك على مخطوطة الفاتيكان التى كان قد جلبها السمعانى Assemani من الشرق ، وأيضًا بفضل الطبعة العربية التى نشرها فى نفس الوقت العلامة شيخو اليسوعى[2] معتمدًا على مخطوطتين بيروتيتين ترجعان إلى أوائل القرن التاسع عشر . ويسمح لنا المصدر الأول بالافتراض بأن الرحلة إنما ترجع فى الغالب إلى أواخر القرن السادس عشر أو بداية السابع عشر ؛ ولعل الفحص الدقيق لبعض التفاصيل التاريخية والأثرية قد يمكّن البحاثة من تحديد تاريخها بصورة أكثر دقة . وفى تلك التفاصيل المعمارية الأثرية بالذات تكمن الأهمية الرئيسة لهذا المصنف الضئيل الحجم الذى لا يزيد عدد صفحاته المطبوعة عن خمس عشرة صفحة ؛ وهو فى أساسه مكرس لوصف مفصل لدير القديسة كاترينا المعروف جيدًا للبعثات العلمية الروسية فقد أسهمت بدورها فى فحص عدد من مخطوطاته المدونة بلغات شتى . وقد اتجهت عناية الشماس افرام بطبيعة الحال إلى جانب آخر ، وهو يقدم لنا أحيانا معلومات مفصلة عن جميع الكنائس السبع والعشرين[3] التى وجدت لعهده موجهًا عناية خاصة إلى المسائل المعمارية ومسائل فنية أخرى ينطوى فهمه لها على السذاجة[4] . وهو يصف جبل طور

---

(١) - Guidi, RB, p. 433 - 442

(٢) شيخو ، وصف ، ص ٧٣٦ – ٧٤٣ ، ٧٩٤ – ٧٩٩ . راجع أيضًا مصنفه :
Catalogue raisonné, I, p. 23, No 35; p. 79, No 133, 3 and p. 80, No 134;
Catalogue, p. 37, No 112 : وأيضا مصنفه - VV, XIII, 1906, p. 711 -
Benshevich, p. XXVII, No 312

(٣) شيخو ، وصف ، ص ٧٤١

(٤) شرحه ، ص ٧٣٩ – ٧٤٢

سيناء موليًا عناية خاصة للكنائس الموجودة به وأيضًا للأساطير المحلية المتعلقة بالدين والعبادة[٥]؛ وإلى جانب هذا فهو لا يهمل الكلام عن حياة سكان الدير خاصة فى علاقاتهم مع البدو المحليين[٦] . ومعظم مادته تجد سندًا لها فى المصادر الأوروبية التى تعرضت لوصف تلك المواضع.

وأغلب الظن أنه خرج فى رحلته من مصر لأنه يبدأ بوصف الطريق من القاهرة مع تعداد مفصل بما فيه الكفاية لجميع / المحال[٧]، بما فى ذلك تلك التي حفظت أهميتها إلى القرن العشرين. 682
أما طريق العودة فيرد وصفه فى النهاية[٨] ، حيث يوجد إلى جانب ذلك وصف أقل تفصيلا للطريق من القدس إلى سيناء مارًا بغزة[٩] . وجميع العرض يغلب عليه أسلوب لا أثر للفن فيه وقد صيغ فى لغة بسيطة ولكن لم تغلب عليها العامية التى تحفل بها فى العادة آثار الأدب العربى المسيحى ؛ والمؤلف يكشف عن معرفة بتقاليد الأدب المسيحى الشرقى مما يشير إلى أنه شخص « مثقف » وإن لزم بطبيعة الحال أن نفهم مدلول هذا اللفظ وفقًا للوسط الذى عاش فيه . وعلى أية حال فإن أهمية الوصف الذى دونه لا تتركز فى قيمته الأدبية بل فى المادة الواقعية التى سجلها والتى يجب الاعتراف بأنها لم تدرس بعد دراسة كافية بواسطة المتخصصين .

ومن هذا الوسط المسيحى نفسه ولكنه ينتمى إلى طبقة أخرى ظهر الرحالة الثانى لأواخر القرن السابع عشر والذى يتميز بطرافة أكثر سواء فيما يتعلق بطريق رحلته الذى لم يكن معهودًا للعرب وذلك فى أميريكا الجنوبية ، أو فيما يتعلق بشخصيته نفسها . ومما لا شك فيه أن « الشماس افرام » كان شخصًا بسيطًا اقتصرت صلاته على الطبقات المسيحية الشعبية ، أما إلياس بن حنا الموصلى فينتمى إلى تلك الأوساط المسيحية التى خرج منها « أمراء الكنيسة »[١٠] لأنه من بيت عمون الذى ينتسب إليه عدد من بطاركة النساطرة والذى ارتبط عقب الاتحاد مع رومة فى عام ١٥٥٣ ارتباطًا وثيقًا « بالمدينة الأزلية » (the eternal city) وبممثلى مختلف الطوائف الدينية فى الشرق والغرب . هذا وقد استقرت أسرته ببغداد[١١] وله إخوة معروفون من أسمائهم لعبوا دورًا مله-

---

(٥) شرحه ، ص ٧٤٢ – ٧٤٣ ، ٧٩٤ – ٧٩٧

(٦) شرحه ، ص ٧٩٧ – ٧٩٨

(٧) شرحه ، ص ٧٣٧ – ٧٣٩

(٨) شرحه ، ص ٧٩٨ – ٧٩٩

(٩) شرحه ، ص ٧٩٩

(١٠) Cheikho, Catalogue, p. 99, No 120 - Cheikho, Catalogue raisonné, I, p. 16 - 17, No 29 -

(١١) سركيس ، لغة العرب ، الجزء التاسع ، ص ٥٠٨ – ٥١٠

فى الموصل وحلب[١٢] ، كما أن ابن عمه يونان أتم دراسته فى عام ١٦٥٠ برومه ، ربما « بكلية الدعوة إلى الإيمان » Collegia de propaganda fide . وإن مجرد تفكير إلياس فى القيام برحلته إلى أميريكا إنما يقف دليلا على سعة أفقه وإمكانياته ؛ ولا نستطيع التكهن بصورة دقيقة عن طبيعة الأغراض التى هدف إليها من ذلك وإن وجب أن يحتل المكانة الأولى من بينها بالطبع جمع التبرعات من أجل كنيسته كما نعلم جيدًا من أمثلة رجال الدين الذين زاروا روسيا الموسكوفية ؛ غير أن معاونة البابا والسلطات الإسبانية له فى هذه الرحلة يقف دليلا على أنه قد ذهب فى مهمة خاصة من المحتمل أنه قصد عدم الإشارة إليها . وهو قد زار رومه أكثر من مرة ؛ وأشار إلى إحدى زياراته لها فى عام ١٦٥٩ راهب كرملى ذو مكانة عمل بمليبار بالهند وذلك فى كتاب له باللغة الإيطالية ، وكان إلياس قد التقى بهذا الراهب أكثر من مرة سواء خلال سفره بالعراق أو أثناء زياراته لرومه[١٣] .

683 ومر إلياس برومه فى طريقه إلى أميريكا الجنوبية ؛ فقد خرج من بغداد فى عام ١٦٦٨ فى رفقة طوبجى باشى المدفعية التركية بالشرق الأدنى ميخائيل كوندوليو[١٤] M. Condoleo وأصله من قبرص ، وحملا معهما خطابات من الآباء الكرمليين ببغداد الذين كانوا يلعبون آنذاك دورًا كبيرًا فى تلك المدينة[١٥] ؛ ويقف هذان المثالان دليلا على اتساع علاقات إلياس . وبعد أن أدى فريضة الحج إلى القدس زار فى طريقه حلب والإسكندرونة ثم أخذ طريق البحر إلى البندقية متوقفًا لمدد قصيرة بقبرص وكريت وزانتى Zante (« زانطية ») ؛ وابتداء من إيطاليا تأخذ الرحلة طابعًا أكثر تفصيلا . وفى رومة تشرف بمقابلة البابا كلمنت التاسع ، ثم ركب البحر من جنوه إلى مارسيليا فأقام لبعض الوقت بفرنسا واسبانيا ؛ ورجع عقب ذلك إلى إيطاليا لأسباب مالية ، ولنفس هذه الأسباب زار صقلية ثم رجع إلى اسبانيا ومنها سافر إلى البرتغال وهناك عقد العزم بصورة جازمة على زيارة أميريكا . ولكى يحصل على تصريح من السلطات العليا بهذا فقد اضطر إلى الذهاب إلى مدريد إلى بلاط كارلوس الثانى ، وفى فبراير من عام ١٦٧٥ أقلعت بهم السفن من قادس إلى أميريكا ؛ وقد مروا فى طريقهم على جزر الكنارى متجهين صوب كراكاس بفنزويله ؛ ثم بعد إبحار

---

(١٢) شرحه ، ص ٥٠٦ – ٥٠٨

(١٣) شرحه ؛ ص ٥١١ – ٥١٢

(١٤) رباط ، المشرق ، الجزءالثامن ، ص ٨٢٦ – Rabbath, Rihlat

(١٥) شرحه ، ص ٨٢٩

دام خمسة وخمسين يومًا وصلوا إلى قرطجنة (« كرتاخينا ») بكولومبيا وهنا توقفوا لأول مرة لبعض الوقت وبعد ذلك واصل المؤلف رحلته بطريق البحر والبر على طول ساحل أميريكا الجنوبية الغربى وكان يتخلل ذلك وقفات طويلة ، فمر على بنما ومنها إلى كولومبيا ثم إلى اكوادور حيث أقام مدة طويلة بمدينة كيتو . وقد أقام بليما عاصمة بيرو (« بلاد البيروه ») عامًا ونصف عام بالتقريب ؛ وأقصر من ذلك كانت زيارته لبوليفيا والأرجنتين وشيلى؛ أما البرازيل ومدينتى توكومان Tucuman وبوينس آيرس فإنه يورد وصفها اعتمادًا على رواية الغير . وفى عام ١٦٨٠ نراه مرة ثانية بليما حيث دون القسم الأول من وصف رحلته والذى أضاف إليه وأكمله بالتالى . وفى طريق الرجعة عزم على زيارة ذلك الجزء من أميريكا الوسطى الذى كان يحمل التسمية التركية المعروفة لنا جيدًا « ينكى دنيا » (أى «الدنيا الجديدة») والذى يقصد به أساسًا بلاد المكسيك (« ميخيكو ») ، فغادر ميناء كلخو (« الكلياو » El Callao) ببيرو فى ٢١ سبتمبر ١٦٨١ ومر على بنما ثم بسواحل كوستاريكا ونيكاراغوا وهوندوراس وغواتيمالا وزار نقاطًا متعددة من المكسيك من بينها العاصمة نفسها التى أمضى بها ستة أشهر وترك لنا وصفًا مفصلا لها . وتحت تأثير القصص التى سمعها عن الفلبين والتى يورد عددًا منها بتفصيل واف انبعثت لديه فكرة الرجوع إلى وطنه عن طريق تلك الجزر مارًا بالصين وبسورات (« سورط ») بالهند حيث وجد لديه بعض الأصدقاء . غير أنه اضطر بالتالى إلى الإقلاع عن هذه الفكرة فأخذ الطريق العادى من المكسيك خارجًا من ميناء فيراكروز (« ويراكروس ») إلى هافانا (« لاوانا ») ؛ وأثناء عبوره للمحيط فاجأتهم عاصفة هوجاء ولكنه وصل آخر الأمر سليما معافى إلى قادس ، وبعد زيارة قصيرة / لأشبيلية لأغراض مالية تجارية وصل إلى رومه فى عام ١٦٨٣ وقدم إلى البابا إنوسنت 684
الحادى عشر (« اينوسنسيوس الحادى عشر ») الهدايا التى جلبها من وراء البحار .

ويلوح أنه قد أمضى بقية سنى حياته برومه ؛ ومما يقف برهانًا على هذا أنه طبع على حسابه الخاص برومه وذلك فى عام ١٦٩٢ كتابًا « للصلاة » باللغة العربية فى عهد البابا إنوسنت الثانى عشر من أجل مواطنيه المشارقة(un livre de prière pour les orientaux)[١٦] ؛ وقد بين فى هذا الكتاب الألقاب العالية التى أنعم بها عليه لا البابا وحده بل وإمبراطور اسبانيا مما يحمل على الاعتقاد مرة أخرى أنه قدم خدمات ما لهاته الشخصيات الكبرى . ويبدو أن الكتاب وجد

---

(١٦) رياظ ، المشرق ، الجزء التاسع ، ص ٧٤٠ – ٤٧٤ – Schnurrer, p. 256 - 260, No 264 -

بعض الرواج عند الأوساط التى عمل من أجلها فقد أعاد طبعه برومه فى عام ١٧٢٥ أحد الموارنة دون أن يشير إلى المصدر الذى أخذه عنه .

هذا وقد طبعت رحلة إلياس الموصلى اعتمادًا على المخطوطة الوحيدة المعروفة آنذاك والموجودة بحلب وأيضًا على النسخة التى نقلت عنها ببيروت فى القرن التاسع عشر . وهى تتكون من قسمين مستقلين بعضهما عن بعض تمام الاستقلال يشمل أحدهما الوصف الأساسى للرحلة بعنوان «السياحة» ، على حين أفرد القسم الثانى الذى يقع فى نفس الحجم تقريبًا ويضم سبعة عشر فصلا للكلام على اكتشاف أميركا وتاريخها ؛ وهو يعتمد اعتمادًا أساسيًا فى هذا القسم الثانى على المصنفات المدوّنة باللغتين الإسبانية واللاتينية . هذا وقد تم نشر القسم الأول بعناية كبرى مع شرح مفصل لأسماء الأعلام وتعليقات مختلفة ودون أى حذف بواسطة ا . رباط[١٧] ؛ أما القسم الثانى الذى لا يمثل قيمة كبيرة فقد نشر منه رباط الفصل الحادى عشر فقط الذى يبحث فى « الآثار النصرانية فى أمركه المتوسطة والجنوبية» التى وجدها الإسبان عند اكتشافهم لتلك البلاد (les traditions chrétiennes en Amérique avant Colomb)[١٨] .

وموضوع هذه الرحلة يقف دليلا بما فيه الكفاية على أهمية المكانة التى تحتلها رحلة إلياس الموصلى فى الأدب العربى ؛ وهى لا تقل أهمية وطرافة من ذلك من حيث مضمونها . ويجب الاعتراف بأن قراءتها قد لا تخلو أحيانًا من تأثير مؤلم على نفس القارىء فهى أثر من الآثار التى تصور عهد الاستعمار الذى أناخ بكلكله على أهل البلاد الأصليين واستغلهم استغلالا مشينًا ؛ والمؤلف يعرض لنا وقائعه بالكثير من الهدوء دون أن يعكس أية انفعالات عاطفية إزاء ما يسرده . وفى هذا بالذات تكمن أهميته كمصدر تاريخى جغرافى ذى قيمة بالنسبة لذلك العصر بأجمعه . ولا شك أن المؤلف يتمتع باطلاع واسع ولكنه يجمع إلى ذلك سذاجة مذهلة (sancta simplicitas) تنعكس بوضوح فى طريقة سرده لقصة الرحلة . وبالطبع فقد اقتصر وسطه أساسًا على محيط رجال الدين والسلطات الإسبانية وكان ينزل أثناء أسفاره ضيفًا على رؤساء محاكم التحقيق (inquisition)* المحليين أو على حكام النواحى أو الأساقفة ، ولكنه كان على الدوام

---

(١٧) رباط ، المشرق ، الجزء الثامن ، ص ٨٢١ – ٨٣٤ ، ٨٧٥ – ٨٨٦ ، ٩٣١ – ٩٤٢ ، ٧٩٤ – ٩٨٣ ، ١٠٢٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٨٠ – ١٠٨٨ ، ١١١٨ – ١١٢٩ .

(١٨) شرحه ، الجزء التاسع ، ص ٧٥ – ٨٠

* وهو يطلق عليها: « ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكى الذى يسمى فى لسان السبنيولى الانكيجسيون Inquisicion » (المترجم)

685 يأخذ طرفًا فى الحياة اليومية المحيطة به ويتدخل فى النزاع بين / الطوائف المختلفة ويراقب عن كثب مجريات الأحوال ويدون الأحداث التى يجدها جديرة بالتسجيل . أما سكان البلاد الأصليين من بين الهنود فقد حدث له أن التقى بهم فى أثناء أسفاره التى قام بها أحيانًا مع دليل أو دليلين من الهنود المحليين ؛ وهو قد رأى المزارع والمناجم التى كان يعمل بها الأرقاء كما رأى الأهالى يشتغلون بسوق البغال (muleteers) . وروايته على العموم تتميز بالدقة والتفصيل فهو يسجل باهتمام كل ما يقع أثناء الرحلة بما فى ذلك الظواهر الطبيعية ؛ ونظرًا لأنه كان صيادًا ماهرًا فهو لم يهمل الوقوف عند هذا الجانب من النشاط البشرى . وقد ظهر لديه معارف فى كل موضع سواء برومه وبباريس أو اسبانيا ، وكان يحمل خطاب توصية لكل شخص حتى من الشرق نفسه . وهو يحكى بنفس « السذاجة المذهلة » كيف كان يقرض أصدقاءه النقود ، بل ويذكر من وقت لآخر قيمة الربح الذى كان يطالبهم به ، وكيف كان يدخر الفضة وبعض السلع القيمة ؛ ويبدو أن غرضه من هذا لم يكن تقديم الهدايا فقط بل القيام أيضاً بصفقات تجارية . غير أن هذا كله لم يمنعه من الاضطلاع فى كل مكان بالخدمات الدينية فى المسوح الذى باركه الباب ولكن بلغته السورية ؛ وهو لا ينسى أحياناً أن يذكر لنا قيمة الهدايا التى أغدقت عليه فى تلك المناسبات.

أما المادة الجغرافية الخالصة التى تحويها دفتا كتابه فتتسم عادة بالصحة كما أنه يمكن التثبت من أسماء المواضع التى يوردها دون كبير عناء ؛ وعدد هذه المواضع كبير ويقدم مادة لا بأس بها عن أحوال ذلك العصر . وهو فى وصفه للحياة الاجتماعية وأسلوب المعيشة لا يقتصر على الطبقات العليا للسكان الإسبان وحدهم بل يمس أيضًا السكان المحليين من الهنود الذين لا تختلف نظرة المؤلف إليهم بطبيعة الحال عن نظرة العصر والوسط الذى عاش فيه ؛ وهو يشارك هذا الوسط معتقداته فيدون قصصًا يمكن أن نجد لها مثيلا فى المصادر الإسبانية المعاصرة له ولكنها لا تعدو أن تكون من صنع مخيلة العصور الوسيطة كما أثبت البحث العلمى الحديث . ويجب أن نضيف إلى مزايا كتابه سلاسة الأسلوب وسهولته وخلوه من التنميق ، وذلك باستثناء المقدمة التى حاول أن يلتزم فيها أسلوبًا أدبيًا رفيعًا ويزينها بالاقتباسات والشواهد من محيط الأدب العربى المسيحى . أما فى بقية الكتاب فإنه لم يهتم كثيرًا للشكل بل ركز اهتمامه فى عرض الوقائع ؛ ورغمًا من أنه جهد فى استعمال اللغة الأدبية فكثيرًا ما وجدت طريقها إليه الألفاظ المحلية والكلمات التركية[١٩] بل

(١٩) - Cf : Gordlevski, ZKV, V, p. 277 - 278

وحتى أساليب لغة المخاطبة اليومية . غير أن هذا لم ينتج عنه تعقيد ما فى فهم الكتاب ، ومن الممكن أن نعتبر رحلة إلياس الموصلى أثرًا جغرافيا يتميز بالطرافة من نواح عدة وإن كان هذا لا يعطيه بطبيعة الحال حق الانضواء إلى الآثار « الكلاسيكية » المعروفة لنا . ورأى المستشرق الروسى غوردليفسكى V. A. Gordlevski وإن كان لا يخلو من التحفظ إلا أنه رأى صائب بوجه عام ، فهو يقول عنه « وهو قد دون فى يومياته جميع ما رآه واعتقده جديرًا بالذكر ولكن أفقه
686 الفكرى / محدود بصورة لا تسمح له بالدخول فى مجال الاستقراءات والتعميمات الواسعة ؛ وهو نادرًا ما يبدى ملاحظات تمثل أهمية ما من وجهة النظر العامة »[٢٠] .

وبعد مضى مدة طويلة على ظهور الطبعة تم الكشف عن مخطوطات أخرى لوصف رحلة إلياس الموصلى لا فى الموصل[٢١] وحدها بل أيضًا فى بغداد[٢٢] والقاهرة[٢٣] ، وحتى فى مكتبة « ديوان الهند » India Office بلندن[٢٤] ؛ وجميعها تسمح بإدخال تصحيحات على النص الذى نشره رباط . أضف إلى هذا أنه قد عرفت تفاصيل عنه وعن البيئة التى نشأ فيها بالعراق لذلك العصر ، غير أن معلوماتنا عن سنى حياته الأخيرة طفيفة كما هو الحال من قبل ويرجع آخر ذكر له إلى عام ١٦٩٣[٢٥] .

واستقراؤنا العام عن الأهمية الأدبية لرحلة إلياس الموصلى يمكن تكراره عن وصف رحلة أخرى خرج صاحبها من الوسط العربى المسيحى كذلك ولكن مع استثناء جوهرى هو أن الرحلة تمثل بالنسبة لنا أهمية لا مثيل لها لعلاقتها المباشرة والأساسية بروسيا الموسكوفية . هذا وقد تم تدوين هذا الأثر فى « مركز الثقافة المحلى » الذى كانت تمثله حلب آنذاك والذى تحدثنا كثيرًا عن أهميته فى هذه القرون المتأخرة، وفى ذات الوسط المسيحى نفسه أيضاً الذى لم تكن قد لمسته بعد النهضة الأدبية التى ارتبطت أساسًا بالقرن الثامن عشر . وكان وضع السكان الأورثوذكس من وجهة النظر الثقافية أسوأ بكثير من وضع الطوائف المسيحية الأخرى التى كانت على صلة برومة

---

(٢٠) - Gordlevski, Etnograficheskoe obozrenie, 1906, No 3 - 4, p. 323

(٢١) سركيس ، لغة العرب ، الجزء التاسع ، ص ٤٥٢ = الجلبى ، مخطوطات ، ص ٢٦٩ – ٢٧٠ ، رقم ٢٣

(٢٢) سركيس ، لغة العرب ، الجزء التاسع ، ص ٤٥٣

(٢٣) عن مجموعه اسبات راجع : Sbath, Catalogue, I, p. 62, No 108
= سركيس ، لغة العرب ، الجزء التاسع ، ص ٤٤٩

(٢٤) سركيس ، لغة العرب ، الجزء التاسع ، ٤٤٩ – ٤٥٢ = - Loth, Catalogue, p. 207, No 719

(٢٥) سركيس ، لغة العرب ، الجزء التاسع ، ص ٥١٨

وولت وجهها شطر الغرب . وقد كان بوسع هؤلاء الأخيرين أن يعتمدوا فى هذا على تقاليد ضاربة فى القدم ومعاونة فعالة سواء فى تزويدهم بالمدارس أو تطوير ثقافتهم الأدبية ، بل إن صلتهم برومة ظلت قائمة حتى قبل اتحادهم معها وبدأ يظهر من بينهم منذ القرن السادس عشر علماء وأدباء محليون لم يكن من النادر أن تلقوا تعليمهم برومه نفسها .

أما طبقة الإكليروس الأرثوذكسية فلم يوجد تحت تصرفها مثل هذه الإمكانيات فقد انفصمت التقاليد الأدبية لديها منذ عهد طويل ولم يتم إحياؤها إلا مؤخرًا جدًا . ونظرًا لأن اتجاهها الروحى كان صوب الأدب الإغريقى البيزنطى فإنه لم يوجد بالنسبة لها قطب تدور فى فلكه كدور رومه بالنسبة للطوائف الأخرى . فبطركية القسطنطينية كانت تحت وضع من التبعية لا يسمح لها بأن تلعب دور القاعدة الرصينة بالنسبة لغيرها أو تقدم توجيهات ترتبط بالتيارات الثقافية العربية ؛ أما دول البلقان فقد غلب عليها الضعف وعدم الاستقرار . إزاء هذا فقد أخذت الأنظار منذ القرن السادس عشر تتجه إلى روسيا . غير أن مستوى معرفتها آنذاك لم يكن بالقدر الذى يسمح لها بتكوين فكرة جلية عن احتياجات العرب المسيحيين رغمًا من أنه قد وجدت حالات مدت لهم فيها يد المساعدة المادية . وإذا حدث وأن أبصرنا بداية ظهور علاقة ثقافية فى ذلك
687 العصر فإن هذا قد تم أساسًا / بفضل مجهودات شخصيات منفردة احتلت مراكز كبرى أو أفراد تملكتهم روح التنوير بالقدر الذى فهمه عصرهم والوسط الذى عاشوا فيه . ولا يجوز أن نقف موقف الريبة من صدق عاطفة هؤلاء الأفراد وإن لزم الاعتراف بأن نطاق إمكانياتهم كان محدودًا وأن مجال معرفتهم كان أضيق من ذلك . وقد اقتصرت ثقافتهم على مجرد التمكن من القراءة باللغة العربية وهى لغتهم الكلامية ، وعلى معرفة طفيفة بمبادىء اللغة الإغريقية قد تسمح لهم فى أفضل الأحوال إن ليس بترجمة المصنفات البيزنطية المتأخرة فعلى الأقل بفهم محتوياتها .

وإلى هؤلاء الذين تشربتهم تلك العواطف النبيلة يمكن أن نضم مكاريوس بطريرك الكنيسة الأنطاكية الذى زار روسيا مرتين فى عهد القيصر ألكسى ميخايلوفتش (وذلك فى عام ١٦٥٤ - ١٦٥٦ وفى عام ١٦٦٦ - ١٦٦٨) والذى عرف عادة فى الوسط العربى باسم مكاريوس بن الزعيم الحلبى الأنطاكى [٢٦] . وأصله من شمالى سوريا وقد نشأ فى وسط دينى فقير وتم انتخابه فى عام ١٦٣٥ مطرانًا لحلب وفى ١٢ ديسمبر من عام ١٦٤٧ انتخب ليشغل منصب بطريرك الكنيسة الأنطاكية التى كان مقرها آنذاك بدمشق . وقد أحس منذ صباه كما

---

(٢٦) - Murkos, Puteshestvie Makaria, V

يذكر هو نفسه بميل خاص إلى المؤلفات التاريخية خاصة تلك التى لم تكن معروفة فى اللغة العربية ، ونظرًا لاهتمامه بتثقيف وتنوير أبناء جلدته فقد بذل جهده فى نقل فصول أو مقتطفات من اللغة الإغريقية إلى اللغة العربية ، إما بنفسه أو بمساعدة الغير . ومعظم المصنفات التى خلفها لنا ذات طابع نقلى بعضها معروف فى مخطوطات بخط يد المؤلف نفسه وبعضها فى شكل مسودات لم يبيضها . وله إلى جانب هذا تدوينات متفرقة أشبه ما تكون « بكشكول عام » سجل فيه المؤلف دون أى تنظيم جميع ما استرعى انتباهه من وقت لآخر على هيئة مقالات متفرقة أو اقتباسات موجزة . وكثير من هذه المادة يتعلق بتاريخ الكنيسة ، وعندما يدور الكلام فيها عن الشرق فإن مكاريوس يعتبر فى كثير من الأحيان مصدرًا من الدرجة الأولى ، أما فيما عدا ذلك فهى نقول من مواد إغريقية لم يحدد مصادرها على الدوام بصورة دقيقة . ونلتقى لديه فى بعض الأحايين بحكايات لوقائع شهدها بنفسه أثناء أسفاره أو سمعها ممن شهدوها ؛ وجميع هذا يوحى بأنه قد دوّن مادته على شكل مذكرات بالكثير من العجلة ودون أن يبيضها بحيث عكست انطباعاته الحية المباشرة ، ويلوح أنه فى كثير من الأحيان لم يعاود النظر فيها أو يعيد صياغتها(٢٧) .

وقد قدر لمكاريوس أن يتجول كثيرًا خاصة فيما يتعلق بمهام مطرانيته وبطركيته ، وفى عام
688 ١٦٤٢-١٦٤٣ حج إلى القدس(٢٨) وتجول قبل هذا وبعد هذا فى نواح عديدة / من سوريا ؛ وقد كانت بطركيته مثقلة بالديون مما دفعه إلى البحث عن مخرج من هذا عن طريق جمع التبرعات (الزكاة)* كما جرت العادة . ونظرًا لأن السكان المحليين أنفسهم كانوا يشكون العوز وضيق ذات اليد فقد اتجهت أنظار مكاريوس كما جرت العادة بين رجال الإكليروس الشرقيين إلى خارج حدود الدولة العثمانية وذلك إلى البلقان وأوكراينا وروسيا . هذا وقد حفظ لنا وصف رحلته الأولى فى كتاب مستقل نال من جرائه شهرة ليست بالضئيلة فى ميدان الأدب الجغرافى(٢٩) ولكن

---

(٢٧) -Cheikho,Catalogue, p. 51, No 162 -

[(توجد) فى المخطوطة ملاحظة لكراتشكوفسكى : «اضافاتى»]

(٢٨) الباشا ، ص ٤٦ - ٤٩ - حبيب الزيات ، صيدنايا ، ص ٧٦

* كان اللفظ المستعمل آنذاك بين المسيحيين العرب هو «نورية» ، ولم أعثر له على أثر فى المعاجم العربية مما يدل على أنه محدث وعامى ولعله مستعار من نفس استعمالهم اللفظ للكناية عن العذراء (« النورية ») . غير أن دوزى سجله فى معجمه الذى استدرك به على المعاجم العربية Dozy, Supplément aux Dictionnaires Arabes حيث يقول « النورية : La dîme qu'on paie à l'évêque» أى العشور التى تدفع للأسقف . (المترجم)

(٢٩) اقتبسها من قبل فستنفلد Wüstenfeld

الكتاب ليس من تصنيفه هو بل وضعه باللغة العربية ابنه الارشدياكون (archdeacon أى كبير الشماسة) بولس بن الزعيم الحلبى (ولد حوالى عام ١٦٢٧) الذى صحب أباه منذ سن مبكرة فى أسفاره العديدة وأصبح منذ عام ١٦٤٨ كبيرًا لشماسة البطركية[٣٠] ؛ وبفضل هذا فقد حصل بولس على نصيب معين من التعليم ولكن مستوى ثقافته لم يكن عاليًا ، وعلى أية حال فقد كان على العكس من أبيه خطاطًا ماهرًا ووصلنا منه عدد من المخطوطات بخط يده يقف دليلا على مهارته الفائقة فى هذا المجال . ولا تختلف مصنفاته الشخصية من حيث طبيعتها عن مصنفات مكاريوس فى كونها ترجمات ونقول من مصادر إغريقية[٣١] ؛ أما أهم مصنفاته على الإطلاق فهو الوصف الكبير والأصيل لرحلة البطريرك الأولى إلى تركيا وملدافيا وولاخيا وأوكراينا وروسيا الموسكوفية (المسكوف)*.

ولم يكن مكاريوس أول مواطن من بين العرب السوريين يزور بلاد الروس ، ففى عهد القيصر

---

(٣٠) - Murkos, Puteshestive Makaria, V, p. 196

(٣١) - Krachkovski, Ruk. sobr. Grigoria IV, p. 15 - 16, No 30

* جاء فى مقال للعلّامة العربى حبيب الزيات ما نصه : « اشتهر البطريرك مكاريوس الزعيم الحلبى وابنه الشماس بولس بالبحث عن أخبار الكنيسة الأنطاكية واستقراء حوادثها وشؤونها والتنقيب عن ماضى أسقفياتها والأعمال الراجعة إليها وتقييد تراجم كل من نشأ فيها وانتسب إليها من رجال الدين والنساك والقديسين . وللأول منهما فى كل ذلك كتب وأجزاء شتى جمعها فى حضره وسفره ، كانت طائفة منها محفوظة عند الطيب الذكر البطريرك غريغوريوس حداد . وكان رحمه الله حريصًا عليها أشد الحرص يضن على كل أحد بمطالعتها أو استنساخ شيء منها . ولذلك يجب أن يعد من حسناته إهداؤه إياها سنة ١٩١٣ لنقولا الثانى قيصر روسية ، بحيث سهل هناك لطلاب العلم مراجعتها عند الحاجة ونقل ما يراد منها . وللثانى مخطوط بقلمه جمع فيه أخبار أنطاكية وبطاركتها ولكنه لسوء الحظ مخروم ناقص من أوله وآخره . ولعله وقف فيه عند خراب أنطاكية على يد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى . وله فى ما سواه رحلة والده المشهورة إلى البلاد المسيحية . ومنها ثلاث نسخ فى لينغراد وموسكو ، ونسخة فى لندرة . وهى كلها لا تخلو من بعض النقص ، وإن لم ينبه أحد عليه ممن ترجم هذه الرحلة إلى الإنكليزية والروسية . وخير من هذه النسخة جميعها الأصل المحفوظ بباريس ، وهو فى اثنين وثلاثين كراسًا ، منها خمسة وعشرون بخط بولس نفسه ، وسبعة بقلم ناسخ آخر مجهول وفى أوله وآخره بعض صفحات جمع فيها الشماس ما وقف عليه من تاريخ البطاركة منذ انتقالهم من أنطاكية إلى دمشق ، وروى فى خاتمتها أخبار والده وأحوال الكرسى بعد رجوعهما لدمشق . وهذه الروايات والنقول التاريخية الواردة فى كتب البطريرك وابنه هى مصدر كل ما كتب عن الكنيسة الرومية الأنطاكية إلى اليوم . وعنها أخذ البطريرك اثناسيوس الدباس والخورى ميخائيل بريك ما دوناه فى تاريخهما . فهى المعول الوحيد والمرجع الأول لكل من تكلف الكلام على الكرسى الأنطاكى منذ القرن السابع عشر » . (حبيب الزيات ، المشرق ، ١٩٣٢ ، ص ٥٦١) (المترجم)

فيدور يوانوفتش قدم إلى روسيا بطريرك الكنيسة الأنطاكية يواكيم ضو (١٥٨٢ - ١٥٩٢) لبحث مسائل تتعلق بالبطركية ؛ وهو عربى أيضًا وقد أقام بموسكو لمدة شهرين وذلك منذ السابع عشر من يونيو إلى الحادى عشر من أغسطس عام ١٥٨٦ وسلك فى سفرته طريق البر المعهود مجتازاً آسيا الصغرى وملدافيا وولاخيا وأكرانيا ؛ وكما سنرى فى حينه فإنه وجد وصف مختصر لرحلته ولكنه للأسف لم يصل إلى أيدينا . وقد مكث هذا البطريرك طويلا بمدينة لفوف Lvov وهناك أصدر فى أول يناير من عام ١٥٨٦ وباللغة العربية منشوره إلى رعايا لفوف المعروف جيدًا لدى الدوائر العلمية[٣٢] ؛ هذا وقد أبصر مكاريوس وبولس صورة هذا البطريرك فى قصر المطرانية بكييف تحمل توقيعه باللغة الإغريقية[٣٣] . ويجب أن نضيف إلى هذا أنه لم يكن لبولس فكرة واضحة عن تاريخ تلك الرحلة فهو يذكر تارة أنها حدثت « قبل خمسة وتسعين عامًا فى عهد القيصر إيفان »[٣٤] وطورًا أنه قد « مر على ذلك اثنان وسبعون عامًا »[٣٥] ، وهذا الأخير أقرب
689 إلى الصحة . ويناقض بولس نفسه / عندما يقول بأنه « لم يسافر أحد بعد ذلك »[٣٦] إلى روسيا ؛ فقد أرسل البطريرك أفتيموس (١٦٣٥ - ١٦٤٨) ، وذلك فى عهد القيصر ميخائيل فيدوروفتش ، المطران ارميا (وأصله من حلب) مطران عكار* بسوريا لجمع التبرعات (pour faire des collectes) من أجل الكنيسة ، غير أن جشع حاكم بوتيفل (« بوتيبليا ») Putivl قد تسبب فى حجزه لدى الحدود وهناك توفى[٣٧] . وقد زار مكاريوس وبولس قبره بدير العذراء قرب بوتيفل[٣٨] .

ولا يبعد أن الدافع لزيارة مكاريوس لبلاد « المسكوف » كان شيئًا أشبه بدعوة شخصية ؛ ففى عام ١٦٥٢ مر بسوريا[٣٩] أرسينى سوخانوف Arseni Sukhanov الذى عرف فيما

---

(٣٢) - Krachkovski, Gramota Ioakima IV, p. 21 - 23 - Sukhanov, Letopis, p. 613, 615 - 616

(٣٣) - Murkos, Puteshestvie Makaria, IV, p. 187

(٣٤) شرحه ، الجزء الثالث ، ص ١٣

(٣٥) شرحه ، الجزء الرابع ، ص ١٨٧

(٣٦) شرحه ، الجزء الثالث ، ص ١٣

* **جاء فى المتن الذى** نشره رادو Radu : يوسف الحلبى مطران عكار ورحبه . (المترجم)

(٣٧) النعمة ، الجزء الرابع ، ص ٤٦ ، **الحاشية ٢** -

Makarii, rukopis Instituta Vostokovedenia AN SSSR, V 1230, leaf 115b

(٣٨) - Murkos, Puteshestvie Makaria, II, p. 112 - 115

(٣٩) - Krymski, Rikhlat Makariius, p. 6 a

بعد كأمين «كلارجى» (cellarer) لدير الثالوث المقدس باسم القديس سرجيوس (The monastery of the Trinity of St. Sergius)، وكان قد بعث به من موسكو بمهمة « وصف الأماكن المقدسة ومراسم الكنيسة الإغريقية »[٤٠] ؛ ولم تكن هذه أولى رحلاته فى الشرق . وفى طريق عودته الذى مر به على جورجيا أمضى اليوم الخامس من مايو عام ١٦٥٢ بدمشق حيث « نزل ضيفًا على البطريرك الأنطاكى » ، وفى التاسع عشر من الشهر نفسه وصل إلى حلب وأمضى حوالى الأسبوع « بقصر المطرانية » ؛ ولا شك أنه قد سنحت له الفرصة مرارًا للتحدث مع مكاريوس[٤١] ، وقد التقى به فيما بعد بولاخيا[٤٢] ودعاه لزيارة دير القديس سرجيوس[٤٣] . ولم تطأ قدم سوخانوف موسكو إلا فى يونيو من عام ١٦٥٣[٤٤] ، هذا على حين أن مكاريوس كان قد بدأ رحلته بعد شهرين من مقابلته معه بحلب ؛ وهى تلك الرحلة التى طال أمدها بصورة لم تكن فى الحسبان فاستغرقت سبعة أعوام (١٦٥٢-١٦٥٩) .

خرج البطريرك من حلب فى التاسع عشر من شهر يونيو وبعد جولات مختلفة فى نواحى بطركيته وصل إلى أنطاكية فى الثانى والعشرين من يوليو ، وقد مر فى طريقه بعد ذلك على اسكندرونة التى بلغوها فى الخامس من أغسطس ، ثم أدنه (١٤ أغسطس) ، وأعقب ذلك جولات محلية لجمع التبرعات ؛ ومروا بقونية (« ايقونيه ») (١١ سبتمبر) وببروسه (٢٨ سبتمبر) حتى بلغوا القسطنطينية فى العشرين من أكتوبر . ثم غادروها بعد نيف وشهرين وذلك فى السابع من يناير عام ١٦٥٣ عن طريق البحر إلى ميناء قسطانزا* التى بلغوها فى الثانى عشر من يناير ؛ وقد اضطروا إلى التخلف عامًا ونصف عام بالتقريب بمولدافيا (« البغضان ») وولاخيا (« الفلاخ ») نظرًا للتغير الذى حدث فى الحكام (hospodars) والعمليات العسكرية التى كانت تلك البلاد مسرحًا لها ؛ وفى خلال ذلك حدث لهم أن تعرفوا بابن بغدان خميلنتسكى Bogdan Khmelnitski المدعو تيموفى Timofi والذى قتل بعد قليل فى إحدى المعارك .

---

(٤٠) - Belokurov, p. 185

(٤١) شرحه ، ص ٢٩٥ - ٢٩٧

(٤٢) كان سوخانوف موجودًا بياسى منذ ٤ فبراير ١٦٥٤ : - Cf: Belokurov, I, p. 336

(٤٣) - Murkos, Puteshestvie Makaria, III, p. 163; IV, p. 35 - 36

(٤٤) - Belokurov, I, p. 305 - Russkii biog. slovar, II, p. 308

* جاء فى المتن العربى: «إلى مينا يقال لها ليمانيا قوصطانزا رومية وبالتركية كوستنجا» (Radu, p. 143) (المترجم)

وفى العاشر من يونيو عام ١٦٥٤ فقط تمكنوا من اجتياز حدود ملدافيا إلى الأوكراين* بعد أن عبروا
690 نهر الدنيستر عند بلدة راشكوف Rashkov / . وفى بوغوسلاف Boguslav (فى الثانى والعشرين من يونيو) قابلوا الآتامان Hetman خميلنتسكى الذين دعوه على الدوام باسم « خميل » ؛ وبتاريخ ٢٦ يونيو دخلوا كييف . وقد استبقاهم الأمير لمدة أسبوعين وذلك حتى العاشر من يوليو ، وفى العشرين منه بلغوا بوتيفل وكانت النقطة الوحيدة المسموح للقادمين من الشرق بالعبور منها إلى داخل حدود دولة المسكوف . وتحركوا منها فى الرابع والعشرين فبلغوا كالوغا Kaluga فى الثانى من أغسطس ، واضطرهم وصول خبر انتشار الطاعون بموسكو إلى تغيير خط سيرهم المرسوم لهم ونقطة التوقف التى اختيرت لهم قبل بلوغهم موسكو وهى مدينة كولومنه Kolomna . ففى الحادى عشر من أغسطس ، بعد أن أعدت لهم وسائل النقل النهرى ، قامت السلطات بتوجيه قافلة البطريرك على نهر أوكا Oka فمروا فى طريقهم على كاشيرا Kashira وغلوتفين Golutvin حتى وصلوا فى السابع عشر من أغسطس إلى الموضع الذى عين لهم . هذا وقد قسرهم الطاعون الذى استشرى آنذاك والذى يرسم لنا عنه بولس لوحة مخيفة إلى التخلف بكولومنا لمدة نصف عام بالتقريب فلم يستطيعوا مغادرتها إلا فى الثلاثين من يناير عام ١٦٥٥ وبلغوا موسكو فى الثانى من فبراير . وكان القيصر الكسى ميخايلوفتش متغيبًا عنها فى حملته على بولندا مما أدى إلى مد إقامتهم بالعاصمة ما يقرب من ستة عشر شهرًا . وفى خلال هذه الفترة زاروا الأديرة القريبة وعددًا من الأديرة البعيدة ، كما زاروا أيضًا دير الثالوث المقدس باسم القديس سرجيوس فى اليوم التاسع من يوليو وكان فى رفقتهم أرسينى سوخانوف(٤٥) . وفى شهرى أغسطس وسبتمبر زاروا نوفغورود ومروا على دير ايفرسكى Iverski على تلال فلداى Valdai . ورجعوا إلى موسكو فى العشرين من سبتمبر ولكن القيصر لم يرجع من حملته العسكرية إلا فى العاشر من ديسمبر ١٦٥٥ . وقد أمضوا كل وقتهم إما فى زيارة الكنائس وغيرها من المواضع الجديرة بالمشاهدة ، وإما فى تبادل الرأى مع البطريرك نيقون Nikon حول مسائل تصحيح الأسفار الكنسية ومسائل دينية أخرى .

---

* يطلق عليها بولس اسم « بلاد القزق» نسبة للقزاق (Cossacks) ؛ وهى تلك الجماعات من المقاتلين الذين رابطوا على ثغور روسيا الجنوبية والجنوبية الشرقية متخذين من الجندية مهنة لهم . (المترجم)

(٤٥) - Belkurov, I, p. 425 - 426

وفى الثالث والعشرين من مارس عام ١٦٥٦ غادروا موسكو أخيرًا متجهين صوب كالوغا فى طريق سيئة للغاية ، ولكنهم لم يكادوا يبلغوا بيليف Belev وبلخوف Bolkhov حتى لحق بهم رسول خاص من القيصر يرجوهم الرجوع إلى موسكو للاشتراك فى مؤتمر كنسى خاص لم يكن فى الوسع تأجيله ، وبهذا لم يستطيعوا مغادرة موسكو للمرة الثانية وبنفس الطريق إلا فى يوم الثامن والعشرين من مايو وبلغوا الحدود عند بوتيفل فى يوم ١٢ يونيو ١٦٥٦ ، وفى الثامن والعشرين من نفس الشهر دخلوا كييف . وبعد أن أمضوا بها أسبوعين تابعوا سيرهم فى بلاد الأوكراين بطريق آخر وقابلوا خميلنتسكى للمرة الثانية فى السابع والعشرين من يوليو ببلدة تشيغيرين Chigirin ، وفى الخامس عشر من أغسطس اجتازوا الحدود إلى ملدافيا عند بلدة راشكوف نفسها . وهنا امتدت إقامتهم فى ملدافيا وولاخيا فى هذه المرة إلى ما يقرب من عامين فلم يستطيعوا مغادرتها إلا فى الثالث عشر من أكتوبر عام ١٦٥٨ عندما أبحروا من غالاتز Galatz على نهر الدانوب فخرجوا إلى البحر الأسود ثم مروا على ورنة Varna ومضيق القسطنطينية إلى أن بلغوا سينوب بآسيا الصغرى بعد إبحار استغرق خمسة وثلاثين يومًا . ومروا على طوقات وسيواس ومرعش إلى أن بلغوا طريقهم الأول فسلكوه حتى دخلوا حلب أخيرًا فى اليوم الحادى والعشرين من شهر أبريل ١٦٥٩ ومنها إلى « كرسى البطركية » مدينة دمشق فدخلوها فى اليوم الأول من يوليو ١٦٥٩ .

691 وطريق سير رحلة مكاريوس الأولى معروف لنا جيدًا من الوصف المفصل الذى تركه لنا بولس الحلبى ، غير أن الوضع يختلف فيما يتعلق برحلته الثانية (١٦٦٤ ؟-١٦٦٩) ؛ وهى أيضًا قد شارك فيها بولس[٤٦] ولكنه توفى خلالها فى طريق عودتهم بجورجيا (بلاد الكرج) عام ١٦٦٩ . ولا شك أنه قد دون مذكرات عنها ولكن الأجل عاجله من أن يصوغها فى صورتها النهائية ، كما وأنه لم يعثر لها على أثر حتى الآن ؛ أضف إلى هذا أن مكاريوس نفسه قد ترك لنا كما هو ديدنه بضعة فصول متفرقة على شكل مسودة لم يبيضها . ولا علم لنا بالظروف التى استدعت هذه الرحلة الثانية إلى روسيا بخلاف الحاجة المعتادة إلى جمع التبرعات ؛ ومن المحتمل أنه قد وجهت إليه دعوة صريحة للاشتراك فى المجمع الذى عقد لبحث محاكمة البطريرك نيقون . هذا وقد ظل البطريرك مكاريوس على صلته الوثيقة بموسكو ، ونحن نعلم عن طريق المصادر الروسية أنه قد بعث فى عام ١٦٦٢ بأرشمندريته Archmandrite ناوفيطس Neophite الذى جمع من الهدايا

---

(٤٦) - Murkos, Puteshestive Makaria, III, p. 66, 85

ما يعادل خمسمائة روبل[٤٧] . وفى رحلته الثانية صحب مكاريوس بطريرك الإسكندرية بابيس .

وقد أخذت الرحلة فى هذه المرة الطريق الذى اعتاد المسافرون أخذه عندما يريدون تحاشى القسطنطينية وسواحل البحر الأسود الجنوبية والغربية ، أى طريق القوقاز وجورجيا إلى استراخان ثم يتجهون مصعدين على نهر الفلجا إلى موسكو ؛ وهذا هو الطريق نفسه الذى رجع منه أرسينى سوخانوف . وحتى فيما يتعلق بهذا الطريق فلم يكن مكاريوس أول من سلكه من العرب المسيحيين ، فقبل ثلاثين عامًا من هذا وذلك فى السنوات ١٦٣٠ - ١٦٤٠ أخذ هذا الطريق إلى جورجيا باخوم أسقف صيدنايا (قرب دمشق) كما يروى مكاريوس نفسه فى أحد مصنفاته[٤٨] . ويلوح أن العرب كانوا على معرفة جيدة بجورجيا ، وفى بداية القرن الثامن عشر عندما زارها مطران معلوله (بلبنان) لم يرغب فى الرجوع إلى وطنه « لكبر سنه » وذلك على الرغم من أن البطريرك الأنطاكى بعث وراءه برسولين خاصين كما يتضح لنا من منشوره لعام ١٧٢٤[٤٩] . ولسنا نعرف العام الذى بدأ فيه مكاريوس رحلته هذه المرة ؛ غير أنه كان بجورجيا على أية حال فى عام ١٧٧٣ (١٦٦٥) كما يذكر ذلك بولس فى إضافاته إلى وصف الرحلة الأولى[٥٠] ، بل وربما قبل ذلك فى عام ١٦٦٤ كما يتضح من كتابته على مخطوطة باللغة الكرجية تم الكشف عنها بتفليس منذ عهد غير بعيد . على أية حال فإنهم بلغوا استراخان فى ٢١ يونيو من عام ١٦٦٦[٥١] وشاركوا فى الاحتفالات بإقامة مطرانية بها . وفى السابع من يوليو غادرها مكاريوس مارًا فى طريقه على تشورنى يار Cherny Yar وتسارتسن Tsaritsyn* وساراتوف Saratov وسمبيرسك Simbirsk** ، وارزمس Arzamas ومورم Murom ؛ وفى الحادى والعشرين من أكتوبر مر على فلاديمير Vladimir إلى أن دخل موسكو فى اليوم الثانى من نوفمبر عام ١٦٦٦ . وفى ديسمبر من العام نفسه جرت محاكمة نيقون ، غير أن المجمع واصل نشاطه خلال عام

---

(٤٧) - Kapterev, p. 121, note

(٤٨) حبيب الزيات ، صيدنايا ، ص ١٧٢

(٤٩) شرحه ، ص ٢٠٤

(٥٠) - Murkos, Puteshestvie Makaria, III, p. 66, 85

(٥١) - Dmitrievski, p. 8

* هى التى أصبحت فيما بعد استالينجراد Stalingrad ذات الشهرة الكبرى فى الحرب العالمية الثانية ، ويطلق عليها حاليًا اسم فلجوجراد Volgograd . (المترجم)

** يطلق عليها الآن أوليانوف Ulyanov نسبة إلى اسم أسرة لنين Lenin ، لأن الزعيم السوفيتى من مواليد تلك المدينة . (المترجم)

١٦٦٧ [٥٢] فلم يتأت لمكاريوس مغادرة موسكو / قبل العشرين من يونيو عام ١٦٦٨ [٥٣] بعد إقامة استغرقت عامًا ونصف عام فى هذه المرة أيضًا ؛ وفى عودته أخذ الطريق نفسه الذى سلكه فى المجىء فبلغ استراخان [٥٤] فى العاشر من أغسطس وغادرها فى أوائل سبتمبر . وكانت رحلة العودة غير موفقـة فى هذه المرة فقد تعرض هو ومن معه فى شماخه لابتزاز أموالهم بل ونُهب الخان الذى كانوا يقيمون به ؛ وفى الرابع من فبراير عام ١٦٦٩ فقط أبلغ فى خطاب له بعث به إلى يوساف بطريرك موسكو عن وصولهم إلى ايفريا Iveria . وفى الثانى والعشرين من يونيو من نفس العام كتب إليه من تفليس [٥٥] قاصًا عليه تفاصيل الكوارث التى حلت به وفقدانه لجميع مقتنياته ووفاة ابنه بولس [٥٦] . ولم يحدد مكاريوس فى خطابه تاريخ وفاة ابنه على وجه الدقة ، وقد أخذ بعض البحاثة سهوًا تاريخ الخطاب على أنه تاريخ الوفاة [٥٧] ؛ وهو يختتم خطابه هذا بنغمة حزينة ودعوة إلى مديد المساعدة ، ولعل هذا يفسر الإشارة الموجودة بالمصادر الروسية عن إرسال هدايا إليه قيمتها مائتا روبل مع الهييروديا كون (hierodiacon) مليتى Meleti [٥٨] . ولكن أغلب الظن أن موسكو لم تكن قد علمت آنذاك بالكوارث التى حلت به فى القوقاز واعتقدت أنه عاد إلى وطنه سليما معافى ؛ وعلى أية حال فقد بلغ مكاريوس أرض الوطن فى عام ١٦٦٩ نفسه وليس بعد عام ١٦٧٠ بأية حـال إذ يوجد خطاب بعث به من دمشق إلى موسكو يحمل تاريخ ٣٠ أغسطس ١٦٧٠ [٥٩] . هذا وقد استمرت علاقته قائمة مع موسكو ، ففى عام ١٦٧١ أرسلت إليه مع مطران صور وصيدا الذى كان قد بعث به إلى هناك ثلاثمائـة قطعـة من الـذهب الخالص ومن فرو السمور ما تبلغ قيمته سبعمائة روبل [٦٠] ؛ وقد توفى مكاريوس الأنطاكى فى العام التالى لهذا وذلك فى الثانى عشر من شهر يونيو سنة ١٦٧٢ أى بعد ثلاثة أعوام من وفاة ابنه 692

---

(٥٢) - Sukhanov, Letopis, p. 661 - 662

(٥٣) - Dmitrievski, p. 36

(٥٤) شرحه ، ص ٣٧

(٥٥) شرحه ، ص ٣٨

(٥٦) شرحه ،ص ٣٩– - Djuze, Gruzia v 17 - m stol., p. 4 - Lebedew, p. 6

(٥٧) راجع مثلا : المشرق ، الجزء الثانى والعشرين ، ص ٣٥٢ رقم ٢٦

(٥٨) - Kapterev, p. 121, note

(٥٩) - Dmitrievski, p. 41

(٦٠) - Kapterev, p. 121, note

ومدون رحلته بولس الحلبى .

وكما رأينا فقد سبقهم إلى السفر إلى بلاد روسيا النائية نفر من مواطنيهم ، غير أن هذا لا يعنى فى شيء أن وصف بولس الحلبى لرحلتهم إلى روسيا له أدنى ارتباط بتقاليد الأدب الجغرافى . ومن الطبيعى أن خط الاتجاه الإسلامى فى هذا الميدان كان غريبًا عليه بل وأغلب الظن مجهولا منه على الإطلاق ، كما أن الاتجاه المسيحى كان يفتقر بدوره إلى نماذج مكتملة فى هذا الصدد تصلح لأن تكون قدوة لغيرها . ورغمًا من هذا فمن الملاحظ أنه قد ارتبط برحلة يواكيم المذكور مصنف ينقل عنه بولس مرارًا ولكنه ينتمى إلى طراز وموضوع مغاير تمامًا ، فقد صحب هذا البطريرك قس غير معروف لنا عن كثب يدعى عيسى وترك لنا قصيدة فى وصف تلك الرحلة . ومما يؤسف له أن معرفتنا بهذا الوصف تقتصر على إشارات بولس إليه وهى التى تعتمد عليها جميع الروايات التى
693 يوردها الآخرون(٦١) ؛ أما المؤلف نفسه فلا توجد بين أيدينا أية معلومات عنه / ، غير أن صياغة الموضوع نظمًا ثم وقوع ذلك فى النصف الثانى من القرن السادس عشر كل هذا يغرى بالافتراض بأن « القس عيسى » إنما هو نفس « القوّال [أى القاصّ] عيسى الهزار » الذى تمتع فى ذلك الحين بشهرة واسعة فى سوريا وذلك « بأناشيده » الدينية باللغة العامية(٦٢) . غير أنه حتى فيما يتعلق بهذا الأخير فإن معلوماتنا مضطربة للغاية ، فضلا عن أن إثبات مثل هذا الفرض يحتاج بدوره إلى مزيد من الوقائع والمواد التى يمكن الثقة فيها . لكن مخطوطات « قصائده » التاريخية التى تصف الرحلة والتى ترتفع على ما يبدو إلى مصدر واحد معروفة لنا ، وإن كانت التعليقات عليها فى فهارس المخطوطات المختلفة نزرة للغاية . واثنتان من هاته المخطوطات موجودتان ببيروت وتبدو عليهما الجدة ، وأصلهما من حلب وهو أمر لا يخلو من مغزى(٦٣) . والأب شيخو فى موقفه المعتاد من مؤلف ملكانى (Melkite) يصف المصنف بأنه « وصف عادى للغاية لكنائس وأديرة روسيا وبلاد الافلاخ » (description très banale des églises et des couvents de Russie et de Valachie)، ولا يعبأ بأن يضيف إلى هذا أنه قد نظم شعرًا. وفى مجموعة أخرى شبيهة لهذه من حيث مضمونها توجد « قصيدة » فى مخطوطة باريسية ، غير أن معلوماتنا عنها مع الأسف ليست أكثر من معلوماتنا عن تلك(٦٤) ؛ ووفقًا لملاحظة شيخو فإنها لا

(٦١) - Krachkovski, Gramota Ioakima IV, p. 22 - 23 - Cheikho, Catalogue, p. 151, No 571

(٦٢) شيخو ، شعراء النصرانية ، الجزء الرابع ، ص ٤٣٧ – ٤٤٠ – حبيب الزيات ، صيدنايا ، ص ٣٧ – ٣٨

(٦٣) - Cheikho, Catalogue raisonné, I, p. 78, No 133 and p. 79, No 134

(٦٤) - De Slane, Catalogue, p. 85, No 312, 3

تشغل أكثر من خمس صفحات أى أن حجمها ضئيل للغاية ، ولكن الاقتباسات التى نقلها عنها بولس ترجح أن شيخو قد جنح فى حكمه عليها نحو التشكك هذا على الرغم من أن بولس نفسه يقف من الأثر موقفًا لا يخلو من النقد ويقول إنه كان يحمل هذه القصيدة معه أثناء الرحلة ويستمطر « المغفرة » للشماس « كلما قرأنا قصيدته » . وهو محق فى ملاحظته التى يقول فيها « لا أستطيع أن أقول أنا العبد الفقير إننى فقت كثيرًا وصفه ، إذ أنه لم يضع أكثر من كراسة بينما وضعت أنا كتابًا ضخمًا »[٦٥] . وقد تتجه انتقاداته أحيانًا صوب التفاصيل ، فهو عند كلامه عن مجمع أوسبنسكى Uspenski يسوق فقرة منه يتحدث فيها عن « محاسن تلك الناحية » ، ويصفها بأنها مقتضبة للغاية مضيفًا فى ذات الوقت بطريقة لا تخلو من السخرية أنه « لم يبق عمود من عظام السلاحف أو غير ذلك لم يصفه بدقة حتى لا تفقد القصيدة وزنها »*. ولكنه لا يلبث أن يستدرك على هذا سريعًا بقوله إنه لا يريد توجيه اللوم إليه بل يريد أن يبين أنه « وصف جميع ما رآه بعينى رأسه وصفًا دقيقًا بحيث يستطيع القارىء أن يتصوره فى ذهنه وكأنما رآه بعينى رأسه » . أما الاختلاف فى الوصف بينهما فيرجعه بولس بكل بساطة إلى أن عيسى قد زار روسيا عندما كانت دولتها ضعيفة « أما نحن فقد وصلنا فى الوقت الحاضر الذى بلغت فيه دولتها أعلى مراتب الغنى والرفعة »[٦٦] .

694 ومما يقف دليلا على أن وصف عيسى كان فى بعض نقاطه مفصلا ومسهبًا بما فيه الكفاية تلك الشذرات التى نقلها عنه فى كلامه عن مجمع ارخانجلسك Arkhangelsk (اركانجل Archangel)[٦٧] وعن الجرس الكبير[٦٨] ، ولكن حتى فى هذه المواضع فإن بولس يسوق أحيانًا بعض التصحيحات فى الوقائع[٦٩] . ومما يقف دليلا على أنه لم يقصر كلامه كما يقول شيخو على وصف الكنائس والأديرة ملاحظاته عن سياسة التتار والليه** Leh ، الأمر الذى يبصر فيه

---

(٦٥) Murkos, Puteshestvie Makaria, III, p. 30 -

* مما يؤسف له أن المتن الأصلى غير موجود بين أيدينا بصورة تسمح لنا بإيراد ألفاظ المؤلف كما دونها حتى يمكن فهم هذه الإشارة الغامضة . (المترجم)

(٦٦) شرحه ، ص ١٠٢

(٦٧) شرحه ، ص ١٠٦

(٦٨) شرحه ، ص ١١٠

(٦٩) شرحه ، ص ١١٥

** الاسم الذى كان يطلق فى شرق أوروبا وفى الدولة العثمانية على البولنديين . (المترجم)

بولس ضرباً من التنبؤ فيما يتعلق بأحداث عصره[٧٠] . وبولس بوجه عام محق فى موقفه، ومن العسير مقارنة كتابه « بقصيدة » عيسى ليس من حيث الحجم فحسب بل وأيضًا من ناحية المادة التى يحتويها بين دفتيه ودقتها الكبرى . وقد أعانه على هذا طول المدة التى قضاها هناك . وشتان بين عامين وشهرين ، أضف إلى هذا أن بولس قد عرف اللغة الروسية معرفة لا بأس بها إبان هذه المدة بحيث لم يكن فى حاجة إلى مساعدة الغير . وفى العادة لجأ مكاريوس وبولس إلى التحدث باللغة الإغريقية التى تعودا على استعمالها بالتدريج أثناء رحلتهما ، وفى حالات نادرة استعملا اللغة التركية ولكن بطريقة مستترة مثال ذلك حين محادثتهما مع تتار سيبريا[٧١] ومن المحتمل مع أمير قاسموف* أيضاً وإن كان هذا الأخير يستطيع القراءة بالعربية كذلك[٧٢] ؛ وهما بوجه عام قد تحاشيا استعمال اللغة التركية التى كانت تثير الريبة والازدراء فى نفوس المسكوف لاقترانها على الدوام فى أذهانهم بالإسلام والأتراك .

ونادرًا ما حدث لرحالتينا أن تحدثا بلغتهما الوطنية باستثناء حالة واحدة تتميز بالكثير من الطرافة ؛ فقد بلغ أحد بنى وطنهم مرتبة الرئاسة فى دولة المسكوف حتى أصبح حاكمًا (فويفودا Voevoda**) على كاشيرا Kashira وكولومنه Kolomna وسربوخوف Serpukhov ؛ وأصل هذا الرجل من دمشق وكان قد أخذه معه وهو صبى أحد الباشوات إلى حلب ومنها إلى القسطنطينية وأهداه عبدًا رقيقًا إلى السلطان محمد الثالث . وفى أثناء الحملة على بلاد الفرس فى عام ١٦١٦ وقع فى الأسر ولكنه تمكن من الهرب ، ثم شغل مناصب مختلفة بالدولة العثمانية حتى أصبح حاكمًا لمنطقة حماة بسوريا ونابلس بفلسطين بل إنه ترأس فى إحدى اللحظات إمارة قافلة الحاج الدمشقية . وأثناء حملة العثمانيين على بولندا فى عهد السلطان عثمان الثانى (١٦١٨ - ١٦٢٢) وقع مرة ثانية فى الأسر ولكنه هرب إلى كييف فى بادىء الأمر ثم التجأ إلى القيصر ميخائيل فيدور وفتش واعتنق المسيحية والتحق بخدمته . ويذكر عنه بولس أنه كان يجيد العربية[٧٣]

---

(٧٠) شرحه ، ص ١٥٥

(٧١) شرحه ، الجزء الرابع ، ص ١٣٧ ، ١٣٨

* مدينة بولاية بنزا Penza كان أمراؤها من التتار الخاضعين لقياصرة المسكوف . راجع المقال المنشور بدائرة المعارف الإسلامية . (المترجم)

(٧٢) شرحه ، الجزء الثالث ، ص ٩٠

** وقد عربها بولس هكذا «فويفوضا»، وهو حاكم الولاية الذى يمثل القيصر. (المترجم)

(٧٣) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ١٣٩ - ١٤٠

وأنه عند نهاية رحلتهم كان قد تم تنصيبه حاكمًا على كاشيرا للمرة الثانية(٧٤) ، وكان معهودًا فيه العدل والصدق .

ولم يوجد بين المترجمين الذين عملوا بدولة المسكوف آنذاك شخص يعرف العربية ، ويقول بولس فى هذا الصدد إنه « كان يوجد ببلاط القيصر / سبعون مترجمًا يعرفون جميع اللغات ماعدا العربية »(٧٥) . غير أن الأمر لم يخل من حالات استثنائية « فلدى القيصر عدد من الأسرى يقومون بالترجمة . وأحد هؤلاء كان يعرف اثنتى عشر لغة من بينها العربية فى لهجة مصر والتركية واليونانية والإفرنجية ولكنه من أصل موسكوفى(٧٦) » . وقد استطاع بولس نفسه فى أواخر أيام إقامته أن يتخاطب باللغة الروسية بطلاقة حتى أن البطريرك ونائب القيصر وبقية « الوزراء » ، على حد تعبيره ، قد طلبوا إليه أن يبقى بين ظهرانيهم مترجمًا للغة العربية(٧٧) . وبالطبع فقد قيل هذا على أغلب الظن من قبيل المزاح ولكنه يبين على أية حال كيف برّ بولس جميع الأجانب بالتقريب الذين زاروا روسيا . 695

وإن ما تنفرد به معلومات بولس من استقلال وأصالة لا يقل شأنًا عما انفرد به هو نفسه من أصالة واستقلال من حيث الاتجاه الأدبى ، وقد عاون هذا إلى حد كبير فى أن يسبغ على وصف الرحلة طابعًا من الأصالة والحيوية والسلاسة . فهى تمثل تدوينات مباشرة لانطباعاته الشخصية يومًا عن يوم ولم يكن قد أعاد النظر فيها على الدوام ، ولعله يجب أن نبصر شيئًا من التحايل الأدبى لديه عندما يذكر فى مقدمة مصنفه أنه أخذ فى تدوين مذكراته تحت إلحاح وإصرار من جانب صديقه الشماس جبراييل قسطنطين رغمًا من إحساسه بما يحيط بهذه المهمة من عناء ومشقة(٧٨) ؛ وهو قد عاد إلى الكلام عن هذا أكثر من مرة خلال كتابه*. غير أنه لا سبيل إلى

---

(٧٤) شرحه ، الجزء الرابع ، ص ١٥٨

(٧٥) شرحه ، الجزء الثالث ، ص ٢١

(٧٦) شرحه ، ص ٨٠

(٧٧) شرحه ، الجزء الرابع ص ١٤٢

(٧٨) شرحه ، الجزء الأول ص ٢

* رأيت من الأفضل أن أسوق ألفاظ بولس فى هذا الصدد توضيحًا للمتن الروسى ورغبة فى إعطاء القارىء فكرة عن أسلوبه فى الكتابة العربية . قال :

« رغب إلى .... أن أجمع تاريخًا يتضمن حال سيرنا وذهابنا يوم فيوم كافة مدة غيابنا وأوصف محررًا جملة أمور البلاد التى نجوزها ليتحقق عند الكافة ما يسمع عنها من إشارات الأحاديث ورموزها فاعتذرت إليه أننى لست كفوًا لهذه الصناعة سيما وأنا معوزا مما يناسبها من البضاعة أعنى من ترتيب تنميق الأقوال وإعراب الكلام ومن حسن =

إنكار واقعة هذا الإلحاح من جانب صديقه ، خاصة وأن الشماس جبرابيل شخصية تاريخية عاشت فعلا فهو من أسرة الصايغ التى اكتسبت الشهرة فى ميدان الأدب[٧٩] . هذا وقد بدأ بولس فى تسجيل مدوناته منذ اليوم الأول للرحلة ولم ينقطع عن ذلك إلى لحظة رجوعه إلى أرض الوطن ، وأخذت هذه المدونات تتجمع بالتدريج كما وأن إقامته الطويلة فى بعض المواضع قد سمحت له لا بنسخ عدد من المخطوطات التى حفظ لنا بعضها بل وبتنظيم « الأوراق المبعثرة » أيضًا . أما تبييض المادة فقد بدأ فيه قبل قليل من مغادرته لموسكو فى فبراير من عام ١٦٥٦ وسار قدمًا فى هذا حتى بلغ فيه بالتقريب إلى ما قبل عام من ذلك التاريخ[٨٠] . وهكذا تشكل شىء أشبه ما يكون بمسودة أولية للرحلة يبدو أنها كانت موجزة بعض الشىء ؛ بل إن بولس نفسه كان رأيه فيها كذلك وكان يأمل أن يعيد صياغتها وتوسيعها عند رجوعه إلى أرض الوطن[٨١] . وقد حقق هذا الأمل فخرجت المسودة الثانية أوسع بكثير من الأولى ولا بد أنه أكملها قبل خروجه فى رحلته الثانية
696 إلى « المسكوف » / ، غير أن العمل فيها لم يتوقف عند ذلك الحد فقد ظل بولس يضيف زيادات إلى الكتاب فيما بعد حتى فى خلال رحلته الثانية وإقامته بالقوقاز كما يذكر هو بنفسه[٨٢] ، أى أنه بمعنى آخر كان يفعل ذلك إلى ما قبل وفاته عام ١٦٦٩ بقليل . وليس من العسير أن ندرك من هذا أن التاريخ الأدبى للأثر معقد بما فيه الكفاية ، فأمامنا على الأقل مسودتان للكتاب هما المسودة القصيرة أو الأولى والمسودة الكبيرة التى أضاف إليها بولس تعليقاته على مدى عشر سنوات . وإلى جانب هذا فمن الممكن بالطبع وجود مختصرات ومسودات وروايات مصلحة عديدة قام بها أشخاص آخرون ، إما أثناء حياة المؤلف أو بعد وفاته ؛ وبهذا فقط يمكن تفسير الاختلاف بين

=تركيب الألفاظ كأهل هذا الفن السادة الكرام وسألته أن يعفينى مما لا يستطاع سيما إذ نحن سايرين بكد وإسراع فلم يقبل منى هذا الاعتذار وألح على بالمطلوب وواظب التكرار فانتهزت حينئذ همتى الثائرة ومددت للمقصود يدى القاصرة لا لكى أنتظم فى جريدة المؤرخين ولكننى ابتغيت إثبات أمور كثيرة كانت تنكر على الناقلين ولم يكن أحد يصدقها ويظن أن كاتبها وناقلها لغوًا ينمقها إلى أن تحققت ما بالنظر شاهدته وسماعًا صحيحًا سمعته وثبتت عندى صحته ليس البعض منه لكن الجميع بجملته أى ما لاحظته رؤية العين حتى ذهبنا إلى بلاد المسيحيين واتضح لنا ساير ما سنذكره اعنى كلما ثبت عندنا فى مسافة الطريق وإقامتنا هناك إلى أن عدنا إلى بلادنا». (Radu, p. 21) . (المترجم)

(٧٩) الباشا ، ص ٨ ، رقم ١

(٨٠) - Murkos, Puleshestvie Makaria, III, p. 30

(٨١) شرحه

(٨٢) شرحه ، ص ٦٦ ، ٨٥ ؛ راجع الجزء الخامس ، الصفحة الثالثة

مخطوطات الكتاب المعروفة حتى الآن والتى لم يمكن حتى هذه اللحظة كما سنرى تحديد نوع العلاقة التى تربط كل واحدة منها بالأخرى .

ولغة بولس الكتابية لا يمكن أن نحكم عليها بالطبع إلا على ضوء المستوى العام للأدب العربى المسيحى فى ذلك العصر ؛ وهذا المستوى لم يكن فى الحقيقة عاليًا . ولقد أبصرنا من مثال إلياس الموصلى أنه حتى من بين المسيحيين المتكلمين باللغة العربية والذين ولوا وجوههم شطر الغرب وكانت لهم صلة أكبر بالمذهب العربى القديم بل ونالوا قسطًا من التعليم المدرسى المنتظم ، فإنه لم يوجد من بلغ شأوًا كبيرًا فى إجادة لغة الأدب. وفى الواقع أن « النهضة » الأدبية بين العرب المسيحيين لم تبدأ إلا بعد قرن من ذلك وارتبطت ارتباطًا كبيرًا بنشاط مارونى من أهل حلب هو جرمان فرحات الذى ولد (فى عام ١٦٧٠) بعد عام من وفاة بولس وقبل عامين من وفاة مكاريوس ، أما الوسط الذى ينتمى إليه الأخير فقد اعتمد على نفسه اعتمادًا تامًا ولم يتوقع أية معونة فى ناحية التعليم من أية جهة . واعتمادًا على عدد من القرائن نستطيع أن نفترض كما حدث من قبل أن بولس يقف من حيث ثقافته فى مستوى أعلى من مكاريوس، وإن لم يبلغ القدر الذى يسمح له بأن يحس من نفسه الانطلاق التام فى اللغة الأدبية . ومما لا شك فيه أنه اطلع على بعض مؤلفات الكتاب المسلمين إذ توجد لديه مثلا إشارات إلى تاريخ ابن تغرى بردى[٨٣] ، ولكن هذا الاطلاع لم يصل به أو بأبيه إلى تملك ناصية اللغة الأدبية المتداولة فى العالم العربى كما أنه هو نفسه لم يجهد فى أن يكتب بتلك اللغة الأدبية ، أما النموذج الذى اقتدى به فى كتابته فهو الأدب الدينى الذى ساد بين المسيحيين العرب فى ذلك العصر ؛ ويمكن القول بأنه التزم ذلك النموذج بصورة مرضية . ومن الملاحظ أنه عندما يكتسب لديه العرض حيوية أكثر وقربًا من الواقع فإن بولس لم يستطع التزام ذلك النموذج بل انتقل إلى لغة الحديث اليومية ، وينعكس هذا لديه لا فى تركيب الجمل وحدها بل وكثيرًا جدًا فى النحو . ولغته مشحونة بالألفاظ المحلية والعامية ، وفى هذا تكمن قيمته الكبرى لأنه يقدم لنا فكرة عن أسلوب لغة الكلام فى ذلك العصر ولو من خلال تدوينها بحروف الكتابة العربية على ما عهد فيها من عسر ووعورة ؛ ومن ناحية أخرى فإن هذا يتضمن عددًا
من الصعوبات ليس بالقليل إذ يجب لتفهم / لغته أن يكون القارىء على معرفة ما باللهجة العربية 697
السائدة بسوريا . وأسوأ من هذا فإن لغة بولس تعكس بعض علامات النثر المتكلف التى يعتبر

---

(٨٣) حبيب الزيات ، صيدنايا

مثلها الأعلى هو السجع ؛ وهو يلجأ إلى استعمال ذلك فى استطراداته العديدة أو فى المناسبات الخاصة بإصرار شديد ، مما يثير فى نفس القارىء أحيانًا الشعور بالسخط والميل إلى الضحك والتندر . وسجعه مزود بالصور المحلية ويقدم صورة لا تتفق مع الواقع فى شىء ، هذا فضلا عن أنه قد جنى على أسلوبه العادى ولم يبلغ ما أراده منه المؤلف . ويقدم لنا حبيب الزيات أمثلة ناصعة لهذا[٨٤]* ؛ ويجب أن نأسف من ناحيتنا لأن بولس لم يتقيد على الدوام بحدود الإطار العام للغة المتداولة آنذاك والتى تمثل بالنسبة لنا شيئًا له قيمته ، وعلى أية حال فإنه لم يكن الملوم فى هذا إذ غلبت عليه روح العصر الذى عاش فيه .

وليس هنا مجال الحديث عن قيمة الأثر من وجهة النظر الجغرافية بالمعنى العريض وذلك وفقًا لمحتوياته ومادته الواقعية إذ توجد فى هذا المجال دراسات عديدة ، خاصة باللغتين الروسية والرومانية ، ثم باللغة العربية أيضًا فى الأعوام العشرة الأخيرة . ومما يؤسف له أنه لا يوجد بحث يلخص لنا تلك البحوث ولو باللغة الروسية ، بل إن مصنف غولوصوف A. Golosov (١٩١٦) الذى ظهر بهذه اللغة الأخيرة لم يستكمل فضلا عن أنه لا يمكن اعتباره بحثًا علميًا جادًا[٨٥] . وقد تجول مكاريوس فى مناطق لم تجد فى هذا العصر صدى فى الأدب العربى المعاصر له ، وفيما عدا آسيا الصغرى التى لم تكن معرفة العرب بها ضئيلة فإن بلادًا كمولدافيا ولاخيا

---

(٨٤) حبيب الزيات ، مكاريوس ، ص ٥٦٥ — ٥٦٧

* جاء فى مقال حبيب الزيات المومأ إليه فى وصف أسلوب بولس مانصه: «وكان أقصى همه الإكثار من التزويق والتنميق كلما وجد إليهما سبيلا دون أقل مراعاة منه لمقتضى الحال. وكان ككثير من كتبة زمانه المتحذلقين يرى أن الفصاحة قائمة فى الاستزادة من المترادفات وتكرار المعنى الواحد بألفاظ مختلفة لغير حاجة سوى المباهاة بكثرة المحفوظ منها، وأن البلاغة الحقيقية منحصرة فى التزام الأسجاع فى كل معنى ولو بمخالفة كل ذوق وقياس . ولذلك جاء منها بالثقيل البارد ودسها بين كل سدى ولحمة وأطال بها ذيل رحلته بما كدر صفوها وجعل المطالع والناقل لها يتبرم منها ويحرج صدرًا بكثرة اللغو والتكرار والفارغ وغلبة اللحن والسقط فيها، فضلا عن اعتراض بعض الألفاظ العامية والمصطلحات الحلبية الدخيلة من التركية وهى مالا يتهيأ فهمها وإدراك معناها الصحيح لكل أحد ممن حاول ترجمتها لقلة ألفته بها وعدم ورودها فى المعاجم . وقد وقفنا على بعض صفحات نقلت إلى الفرنسية من الترجمة الروسية بقلم وطنينا المرحوم جرجى مرقص الدمشقى فوجدناها لا تتبرأ من الوهم والخطأ فى بعض مواضع تصحف فيها الأصل عليه أو أساء فهمها فأساء تأديتها. فما الظن بغيره من النقلة الأجانب؛ ومن بعض الأمثال على ولع الشماس بالمترادفات لغير طائل قوله فى كلامه..... وأما السجع فقد بلغ به أنه التزمه فى كل مقام ومقال حتى فى حكاية بعض الأخبار التافهة وسرد بعض الأرقام أو فى تاريخ الأيام مما لا محل لأقل تأنق فيه . وربما خالف من أجله كل قياس كقوله.... » (المترجم)

(٨٥) Golosov -

والأوكراين لا تجد فى موضع آخر وصفًا مفصلا كهذا يشمل أحيانًا استطرادات هامة من محيط الماضى . ونظرًا لسير الرحلة البطىء والأمد الطويل الذى استغرقته فقد مكن هذا رحالتنا من أن يتعرف عن كثب على الشخصيات الكبرى لعصره مثل الآتمان (Hetman) خميلنتسكى والقيصر الكسى ميخايلوفتش والبطريرك نيقون ، وذلك دون حاجة إلى ذكر عشرات الشخصيات الأقل أهمية من هؤلاء والتى كان لها دور كبير فى مختلف الميادين . كما وأنه كان شاهدًا لحوادث تاريخية خطيرة مثل اتحاد الأوكراين مع روسيا والحرب ضد بولندا وابتداء حركة « أهل العقيدة القديمة » Old Believers) واستشراء الطاعون (plague) . وبهذا يمكن القول بأن كتاب بولس الحلبى ليس أقل أهمية كمصدر تاريخى منه كمصدر جغرافى بالنسبة للتاريخ السياسى والروحى لعصره .

وبالطبع فيجب ألا يغيب عن أذهاننا أن هذا الجانب لم يشغل المكانة الأولى بالنسبة للمؤلف ، فهو قد كان محصورًا بشكل خاص فى وسط بلاطى وإكليروسى صرف لذا فقد تركز اهتمامه الرئيسى على الحياة الدينية ، أى بالذات ذلك الميدان الذى كان مقفلا وعسير الاتصال بل وأكثر من ذلك غير مفهوم بالكلية بالنسبة للرحالة العرب الذين زاروا روسيا . وفى هذا الصدد فإن « سفرة » أو « رحلة مكاريوس » أثر فريد فى نوعه بالرغم من مجاله الضيق المحدود الذى لا يضم جميع جوانب الحياة الكنسية نفسها . ولا يزال بعض المادة محتفظًا بقيمته إلى أيامنا هذه / ، مثال 698
ذلك رواية بولس المسهبة عن المسائل المتعلقة بالآثار الكنسية ، وهى فى هذا تمثل أهمية فى المكانة الأولى بالنسبة لتاريخ الفن الروسى القديم . وفى كلامه لا يقتصر بولس على المعمار وحده بل يقدم لنا وصفًا مفصلا للكنائس وأبراجها ، كما أن نفس القدر من الاهتمام يوليه أيضًا للكلام على الايقونغرافيا (iconography) فيحلل بالتفصيل الميزات الهامة لفن التصوير بروسيا الجنوبية ويبدى نفس هذه الدقة فى وصفه للرسوم المصورة على الجدران والتى سلبت لبه بشكل خاص ؛ ورواياته فى هذا المجال تمثل بالنسبة لآثار عديدة أهمية تاريخية عظمى بل وأحيانًا تعد الشاهد الوحيد على مجرد وجود تلك الآثار .

وتمثل روايات بولس المفصلة عن طقوس الخدمة الدينية (liturgy) فى الحياة الكنسية أهمية كبرى ، وهنا لا يقتصر كلامه على العبادة بالمعنى الضيق لهذا اللفظ بل يمس أحيانًا مسائل التلاوة والترتيل والإنشاد التى بدت لهم مختلفة تمام الاختلاف عما عهدوه بأرض الوطن . ولا شك أن إقامتهم الطويلة بروسيا كانت فى صالح الدقة واكتمال الوصف ؛ ففى أثناء وجوده بموسكو تمكن

بولس من أن يراقب بدقة لا الخدمات الدينية المعتادة كالعبادات التى تستمر الليل بطوله بل وأيضًا مجموعة الطقوس المتعلقة بالصيام الأكبر وعيد الفصح ، هذا إلى جانب عدد عديد من المناسبات الدينية النادرة ابتداء من الطقوس السرية إلى تتويج الملوك ؛ وقد أبصر هذه الأخيرة عند انتخاب أمير (Hospodar) ولاخيا (الأفلاق) الجديد . أما فيما يتعلق بالأناشيد الكنسية فقد عالج بولس الكلام عليها بالتفصيل ، أضف إلى هذا أنه كان لمكاريوس صلة مباشرة بها ؛ ذلك أن هذه كانت واحدة من المشاكل الدينية فى ذلك العصر التى أثارت الخواطر فى كل من دولة الموسكوف وأكراينا ؛ ويوجد توقيع مكاريوس على منشور إدخال الغناء الجماعى فى الأناشيد الكنسية بروسيا ، وهو ذلك المنشور الذى تم طبعه فى عام ١٩١٥ . ويرتبط هذا المنشور بالرحلة الثانية لمكاريوس إلى روسيا ، وهى الرحلة التى قام بها بمناسبة انعقاد مجمع عام ١٦٦٦ - ١٦٦٧[٨٦] .

ومما لاشك فيه أن عددًا من التفاصيل التى يوردها بولس ذات أهمية محدودة لا تهم سوى المتخصصين فى ميادين معينة ، وإذا حدث وأن لاحظنا لديه ميلا إلى المبالغة فى وصف جوانب معينة من الحياة فيجب ألا يغيب عن بالنا أن عرضه يقوم على قاعدة عريضة ويعكس جميع دلائل الواقعية وذلك فى نهج سلس لا محل فيه للتعسف والتشدّد ؛ وهو وإن أظهر بعض السذاجة إلا أن أسلوبه مباشر ولا يخلو أحياناً من أثر المرح. وفى هذا تكمن قيمة ذلك الأثر بوجه عام، الذى وإن لم يمثل مصنفاً ممتازاً من حيث القيمة الأدبية إلا أنه يشغل مكانة جديرة به ويمكن الاعتراف به كمصنف أصيل لا يفتقر إلى الأهمية بأي حال.

ودراسة هذا الأثر سواء من الناحية اللغوية أو من حيث تحليل مادته الواقعية أبعد بكثير من أن تكون قد استوفت حقها ، بل على العكس من ذلك فإنها لم تتجاوز فى الناحية الأولى خطواتها البدائية . ويمكن إرجاع هذا من جانب إلى أن أوروبا لم تتعرف على مخطوطات الأثر إلا مؤخرًا ، فقد عرفت أولى مخطوطاته فى السنوات العشرينات من القرن التاسع عشر وهى تلك المحفوظة
بالمتحف البريطانى / وتحمل تاريخ ١٧٦٥ ؛ وقد تم اقتناؤها بحلب فى عام ١٨٢٤[٨٧] ولعبت 700
بالتالى دورًا كبيرًا فى التعريف بالكتاب إذ اعتمدت عليها ترجمة بلفور F. C. Belfour التى

---

(٨٦) - Preobrajenski, p. 33 - 41

(٨٧) - Saveliev, Bibl. dlia Cht., XV, No 3, p. 2

ظهرت خلال الفترة ١٨٢٩ - ١٨٣٦[(٨٨)] والتى ترتبط بها جميع الدراسات بالتقريب التى ظهرت عن مكاريوس بما فى ذلك الدراسات الروسية المبكرة؛ هذا وقد نشر قطعًا من تلك الترجمة بالمر Palmer وريدنغ Ridding بانجلترا بعد مائة عام من ذلك ، أى سنة ١٩٣٦ . وإلى بداية العشرينيات من ذلك القرن نفسه ترجع معلوماتنا عن مخطوطة أخرى مكتوبة بالقلم الكرشونى (وهو كتابة اللغة العربية بالحروف السريانية) الذى كان يستعمله الموارنة ، وكان قد أبصرها سنكوفسكى فى عينطوره (بلبنان) مع أستاذه المارونى المعروف أنطون عريضة[(٨٩)] ؛ وليس فى الإمكان التثبت من صحة هذا الزعم إلى أيامنا هذه إذ لم يتم الكشف عن أى أثر لهذه المخطوطة حتى الآن . أما فى روسيا فقد بدأت مخطوطات الكتاب فى الظهور منذ السنوات الأربعينات من القرن الماضى وذلك بفضل مجهودات شخصيات مختلفة جذبت الأنظار إلى أهمية هذا الأثر بالنسبة لتاريخ بلادنا ؛ والنسخ الثلاث التى ترجع إلى تلك اللحظة قد نقلت عن أصل واحد يرجع تاريخه إلى عام ١٧٠٠ ووجد آنذاك بدمشق ، فالنسخة الأولى التى يرجع تاريخها إلى عام ١٨٤٧ كان يمتلكها القسم التدريسى بوزارة الخارجية الروسية وهى الآن بمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية وتحمل رقم C 751 ، أما الثانية التى ترجع إلى عام ١٨٤٩ فموجودة بالمكتبة العامة بلنينجراد ، هذا على حين تحتل نسخة عام ١٨٥٩ مكانها فى مكتبة الأرشيف الرئيسى لوزارة الخارجية السوفيتية وهى التى اعتمدت عليها أساساً الترجمة الروسية التى ندين بها القلم ج . ا . مرقص (١٨٩٦ - ١٩٠٠) . وفى نهاية القرن التاسع عشر وقعت إلى المكتبة الأهلية بباريس من مجموعة شيفير[(٩٠)] مخطوطة من هذا الكتاب غير مؤرخة وترجع دون شك إلى القرن السابع عشر ، وهى مكتوبة بخطين الرئيس منهما يرى فيه البعض خط بولس نفسه[(٩١)] وهو أمر ليس بمستبعد ولكن إثباته لا يزال فى حاجة إلى بعض أدلة نهائية يمكن إجراؤها عن طريق المقارنة مع مكاتيب من تدوينه لا يرقى الشك فى صحة نسبتها إليه . وهذه المخطوطة الأخيرة هى التى جعلها أساسًا لترجمته الفرنسية للكتاب العلامة الرومانى ن . رادو Radu الذى أخرج القسم الأول من هذا المصنف[(٩٢)] . وفى نهاية السنوات التسعينات من القرن الماضى جلب كريمسكى من سوريا

---

(٨٨) - Belfour, Travels of Macarius, 1829 - 1836

(٨٩) - Saveliev, Bibl. dlia Cht., XV, No 3 p. 2

(٩٠) - Derenbourg - Schefer, p. 7

(٩١) حبيب الزيات ، مكاريوس ، ص ٥٦٢

(٩٢) - Radu, Voyage - Cf: Radu, Etude, p. 1, 3

نسخة لا تخلو من السقط لمسودة مختصرة وذلك فى مخطوطة ترجع إلى القرن الثامن عشر . وهذه
المسودة المختصرة لا ترتفع إلى بولس نفسه بل إلى الجيل التالى له وقد قام أليسنتسكى Olesnitski
بعمل مقارنة جزئية بينها وبين المسودة الأكمل ، كما أنه توجد ترجمة لها من عمل كزما T. G.
Kezma محفوظة بأكاديمية العلوم الأوكرانية . وبعد ثورة أكتوبر (البلشفية) وجدت طريقها إلى
مكتبة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية مخطوطة عام ١٧٠٠ التى تحمل
رقم B 1230 وهى المخطوطة الأم التى ترجع إليها المخطوطات الثلاث الموجودة كما لاحظنا بروسيا ؛ ولم
تجر الاستفادة من هذه المخطوطة حتى الآن إلا بصورة ضعيفة بواسطة ب . رادو فى مقدمته
لطبعته التى أومأنا إليها (١٩٢٧) . ويرجع الفضل إلى العلامة السورى قسطنطين الباشا فى
701 التعريف بمخطوطة أخرى موجودة / بحلب يرجع تاريخها إلى عام ١٧٥٠[٩٣] ؛ وبحسب ألفاظه
فهى تتفق أكثر شىء مع مخطوطة باريس . وهكذا من بين جميع هذه المادة تظفر بأهمية خاصة
ثلاث مخطوطات فقط هى المخطوطة الباريسية ومخطوطة لنينجراد لعام ١٧٠٠ ومخطوطة لندن ،
ويعد رادو مخطوطة باريس أقيم هذه الثلاث وله بعض الحق فى هذا حتى وإن كانت مخطوطة لندن
هى أكمل مسودة لهذا الكتاب ؛ غير أن المشكلة المتصلة بعلاقة هذه المخطوطات بعضها ببعض
وأيضًا علاقة مخطوطتى كريمسكى وحلب بها تحتاج إلى دراسة لغوية تفحص جميع مادتها ؛ ولا يمثل
مجهود رادو Radu فى هذا الصدد سوى خطوة أولى فى هذا الاتجاه .

ونفس الحكم يصدق على دراسة الكتاب فى مجموعه إذ لا توجد حتى الآن ترجمة كاملة له
يمكن وصفها بأنها علمية ، كما لا يوجد أيضًا بحث موجز يقدم لنا صورة عما تم إنجازه حتى هذه
اللحظة فى دراسة الكتاب . وتعتبر ترجمة بلفور كما بينا أول محاولة لتعريف أوروبا بهذا الأثر ، وقد
اعتمدت عليها البحوث الروسية الأولى التى صدرت على هيئة ترجمات جزئية أو مقالات متفرقة .
وكان أول من عرّف بها الروس هو تلميذ سنكوفسكى ، الأثرى وعالم النّميات (numismatics)
المعروف ب . س . سافيلييف B. S. Saveliev الذى نشر قطعًا كبيرة منها فى « مكتبة
المطالعة » Biblioteka dlia chtenia عام ١٨٣٦[٩٤] ، أى قبل أن تكتمل طبعة بلفور ؛
وقد جعلت ملاحظاته النقدية وتعليقاته من هذه المقالة واحدة من أقيم المقالات بالنسبة لذلك

---

(٩٣) حبيب الزيات ، مكاريوس ص ٥٦٣

(٩٤) Saveliev, Bibl. dlia Cht, XV, No 3, p. 1 - 25; No 4, p. 60 - 112 - Golosov, p. 50 - 51 -

العصر المبكر . وانتعشت العناية بهذا الأثر فيما بعد فى السنوات السبعينات وظهر عدد من الترجمات والمقالات التى تعالج مسائل متفرقة ونددين بها لأقلام روشينسكى L. P. Rushinski (١٨٧١)(٩٥) وبلاغوفـــو D. Blagovo (١٨٧٥ - ١٨٧٦)(٩٦) ، وأبولنسكـــى Abolenski (١٨٧٦)(٩٧) ، وغير ذلك مما لا ترتفع أهميتـه إلى ما كتب هؤلاء(٩٨) ؛ ومـن الملاحظ أنهم اعتمدوا على ذات المصدر . وعلى أية حال فقد ظل بلفور المصدر الوحيد بالنسبة للمؤرخين الروس للتعرف على أسفار مكاريوس لحين ظهور بحوث وترجمة البروفسور ج . ا . مرقص G. A. Murkos فى التسعينيات من القرن الماضى . ونفس الوضع ينطبق على العلماء الرومانيين ؛ ومن الطريف أن نلاحظ أن الترجمة الجزئية الأولى التى ظهرت باللغة الرومانية وهى التى قام بها نغروتسى Negruzzi (١٨٦٢) إنما ترتفع إلى المقتطفات التى نقلها إلى الروسية سافيلييف(٩٩) ، هذا على حين أن ترجمتى الأكاديمى ب . ب . خجـــداى(١٠٠) B. P. Hasdeu (١٨٦٥) وتشوران(١٠١) Cioran (١٩٠٠) إنما تعتمد على بلفـور نفسه ؛ وفى السنوات الثمانينات ترجمت ثلاث قطع من العربية إلى الرومانية رأسًا بواسطة المستعرب الرومانى غاستر M. Gaster(١٠٢) ، وأغلب الظن أنه اعتمد فى ذلك على مخطوطة المتحف البريطانى .
702 وعلى وجه العموم فإن بولس يتمتع بمكانة كبرى كمصدر موثوق به لدى العلماء الرومانيين / ، وكما يقول يتزميرسكى A. I. Iatsimirski فإنه «من العسير أن نلتقى ببحث جاد فى تاريخ رومانيا لا توجد فيه إشارة إلى رحلة الشماس بولس »(١٠٣) .

ومنذ بداية السنوات التسعينات أخذت فى الظهور ملاحظات متفرقـة تمس مؤلفـات مكاريوس ، ومقتطفات مترجمة من رحلته بقلم الأستاذ جرجى ا . مرقص الدمشقى الأصل ،

---

(٩٥) - Golosov, p. 54, 290 - 292

(٩٦) شرحه ، ص ٥٢ - ٥٣

(٩٧) شرحه ، ص ٥٤

(٩٨) شرحه ، ص ٥٣ - ٥٤

(٩٩) - Radu, Étude, p. 38, 75

(١٠٠) - Golosov, (عن كتاب : Iatsmirski, p. 585), p. 63 - Radu, Ètude, p. 38

(١٠١) - Radu, Étude, p. 38(تحليل)

(١٠٢) - Golosov, p. 63 - 64

(١٠٣) - Iatsmirski, p. 587

وهى كأنما تفتتح عهدًا ثانيًا فى دراسة كتاب بولس الحلبى . وكان ما نشره أشبه ما يكون بخطوة تمهيدية لترجمة الكتاب ترجمة كاملة إلى الروسية؛ وقد ظهرت هذه الترجمة بالفعل فى خمسة أجزاء فى الفترة ١٨٩٦ - ١٩٠٠ وتضم إلى جانب ذلك موادًا إضافية مختلفة . ولكونه من أصل عربى وتلقى دراساته العليا بروسيا ، فكان بذلك يجيد العربية والروسية على قدم المساواة ، فإن مرقص كانت لديه جميع الميزات اللازمة لإنجاز هذه المهمة . وترجمته تقف دون أدنى ريب فى موضع لا تصل إليه ترجمة بلفور ، ولكن ضرّه الافتقار إلى منهج علمى فيلولوجى رصين ، ثم أيضًا اقتصاره على مخطوطة واحدة . وفى اللحظة الحاضرة بعد اكتشاف مخطوطة باريس ، بل ومخطوطة لنينجراد لعام ١٧٠٠ بالذات وهى التى تمثل أصل المخطوطة التى اعتمد عليها مرقص فى ترجمته ، فإن الترجمة فى مجموعها يجب أن تعد الآن غير مرضية من الناحية العلمية وبالية إلى حد كبير ؛ وهى قد حظيت بتعليقات عديدة فى الصحف الروسية والرومانية عند ظهورها وكان معظم تلك التعليقات فى صالحها. ولم يظهر أى أثر كبير حول الرحلة باللغة الروسية منذ ترجمة مرقص هذه ؛ ولا تخلو من الفائدة مقالات متفرقة لكريمسكى ظهرت فى عام ١٩١٣ ويعالج فيها لأول مرة الكلام عن المسودة المختصرة للكتاب الموجودة بمخطوطة تخصه . كما لا يخلو من الفائدة فيما يتعلق بالمسائل التى تمس الآثار والفنون والخدمة الدينية بحث بقلم غولوصوف A. Golosov (١٩١٦) اعتمد فيه على ترجمة مرقص ، غير أن بحثه هذا بقى غير تام فضلا عن أنه لدى مقارنته بالبحوث السابقة يبدو وكأن الباحث قد تناول موضوعه كهاو (dilettante) وأن معرفته على وجه العموم سطحية ، وربما كان مرجع ذلك إلى أن المؤلف كان يعمل بالأقاليم .

وفى القرن العشرين تزايد عدد البحوث باللغة العربية عن مكاريوس وبولس ، ويجب أن نفرد من بينها مكانة خاصة لعدد من المقالات والملاحظات المتفرقة بقلم حبيب الزيات . أما طبعة قسطنطين الباشا (١٩١٢)[١٠٤] لمقدمة الرحلة اعتمادًا على مخطوطة باريس ، ومع الاستعانة أيضًا بمخطوطة حلب ، فهى كما بيّن حبيب الزيات[١٠٥] ليست بالمرضية . وقد أحرز العلماء الرومانيون فى الأعوام الأخيرة للمرة الثانية تقدمًا محسوسًا فى دراسة المصنف ؛ وإذا كانت الترجمة الرومانية الأولى التى تعتمد على المخطوطة الباريسية والتى قام بها بوبسكو تشوكانيل Popescu

---

(١٠٤) الباشا

(١٠٥) حبيب الزيات ، مكاريوس ، ص ٥٦١ - ٥٧٤

Ciucanel (١٩٠٣) قد توقفت عقب صدور القسم الأول واقتصرت على وصف الرحلة فى آسيا الصغرى / ، أضف إلى هذا أنه لا يمكن اعتبارها وفقًا لرأى مواطنه ب . رادو ترجمة 703
جيدة[١٠٦] ، فإن هذا الأخير قد تهيأ لمهمته بصورة أكثر جدية . وقد مكنته إقامته الطويلة بباريس من التعرف جيدًا على مخطوطة باريس التى جعلها الأساس لعمله فى نشر المتن وترجمته إلى الفرنسية وهو قد استعان إلى جانبها بمخطوطتى لندن ولنينجراد لعام ١٧٠٠ . وفى عام ١٩٢٧ أخرج القسم الأول من مصنفه ، أشبه ما يكون « بمقدمة » لبقية الكتاب تحوى تفاصيل أساسية عن المخطوطات الثلاث الهامة ومحاولة من المؤلف لإثبات أفضلية مخطوطة باريس على مخطوطتى لندن ولنينجراد على أساس فحص دقيق للمتن ؛ ثم يلى هذا تحليل للترجمات التى ظهرت حتى ذلك الحين (بما فى ذلك ترجمة مرقص) على ضوء فحص للأقسام المتعلقة برحلتهم فى آسيا الصغرى وملدافيا وولاخيا . وهو قد بين فيما يتعلق بالقسم الخاص بآسيا الصغرى السقط الموجود عند بلفور نتيجة لاعتماده على مخطوطة المتحف البريطانى وحدها (ولدى مرقص أيضًا إذا افتقدت تلك المواضع فى مصدره المسكوفى) . وبهذا فإن عمل رادو يمثل دون شك خطوة إيجابية يجب البدء منها فى المستقبل عند القيام بأية بحوث تتعلق بفحص متن الرحلة. ويكمن عيب رادو الرئيسى فى معرفته الضئيلة بالبحوث الروسية فى هذا المجال ، وربما أيضًا فى تقييمه المجحف لمخطوطة لنينجراد . وفى عام ١٩٣٠ ظهرت القطعة الأولى من المتن والترجمة وفقًا للقواعد التى عرض لها فى «المقدمة»؛ وعندما يكتمل عمله فإنه سيكون بلا شك خطوة جديدة فى دراسة مصنف بولس الحلبى*. ومن سبق الأحداث بالطبع أن نصدر حكمنا على ما ستكون عليه الأقسام الخاصة بالأوكراين وروسيا والتى ستمثل بالنسبة لرادو صعوبة أكبر ، غير أنه يمكن الافتراض سلفًا بأن الفرصة أكثر مواتاة بالنسبة لعلماء بلادنا للاضطلاع ببحث مستوعب عن مكاريوس وبولس يشارك فيه مؤرخونا ومستعربونا على قدم المساواة ويشمل هذا فى المكانة الأولى إخراج متن علمى محقق ولو لتلك الأقسام من الرحلة التى تمس وطننا مسًا مباشرًا .

ولتنفيذ مثل هذا العمل العلمى الضخم يجب أن نأخذ فى حسابنا أيضًا مصنفات أخرى تتعلق بالجغرافيا لا ندين بها لقلم بولس بقدر ما ندين بها لقلم مكاريوس . وعدد هذه المصنفات

---

(١٠٦) - Radu, Étude, p. 38

*لا أعتقد أنه قد ظهر من مؤلف رادو Radu ما يتجاوز هذه القطعة . (المترجم)

ليس بالكبير وهى تحمل فى أغلبيتها الطابع المعروف لنا جيدًا ، أعنى فى صورة نقول بدائية أو مسودات أولية على هيئة « كراسات عامة » . وأهمها هى ملاحظاته عن جورجيا (بلاد الكرج) التى دونها أثناء رحلته الثانية إلى البلاد الروسية ، وقد تم نشرها مرتين المرة الأولى فى المتن العربى والترجمة الفرنسية بقلم لبيبديفا O. S. Lebedeva (١٩٠٥)[١٠٧] والثانيـة فى ترجمة روسية بقلم ب . ك . جوزى (١٩٠٥)[١٠٨] ، واعتمد الاثنان على مخطوطـة الفاتيكان لعام
704 ١٧٥٦ / التى تضم عددًا من المؤلفات الصغرى لمكاريوس يوجد من بينها ترجمـات من الإغريقية ونقول شتى ومسودات تخطيطية لا يربط بينها أى رابط من ناحية المضمون ولكنها تحمل ترقيما متسلسلا ، وتشغل من بينها ملاحظاته عن بلاد الكرج الفصول من الثامن والعشرين إلى الحادى والثلاثين . وهذه الملاحظات تعالج الكلام بشكل خاص على المسائل المتعلقة بالحياة الكنسية الدينية ، غير أن كمية التفاصيل التى تمس الحياة الاجتماعية والمسائل الجغرافية الخالصة كبيرة بصورة لا تقل مما هو عليه الحال مع مصنف بولس الضخم . والحكم الذى أصدرناه من قبل على دراسة مرقص ينطبق بدوره على دراستى لبيبديفا وجوزى ، فهما وإن كانتا بالنسبة لعصرهما ذاتى فائدة كبرى ومكنتا فى الوقت نفسه من إعطاء صورة عن المعلومات التى يحتويها المصنف إلا أنه فى اللحظة الحاضرة وبعد أن وجدت طريقها إلى معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية المسودة الأصلية بخط يد المؤلف لجميع هذه التصانيف[١٠٩] ، فإن الحاجة ماسة إلى إصدار طبعة جديدة . ومثل هذه المهمة ينبغى أن يضطلع بها مستعرب يأخـذ فى حسابه أيضًا فحص المادة المدونة باللغة الكرجية ويولى عناية خاصة لدراسة لغة مكاريوس نفسه التى وجدت اللهجة الدارجة طريقها إليها أكثر مما حدث مع لغة بولس . ومن المأمول أن يسد هذا النقص البحث العلمى الذى يقوم بتحضيره العلامة التفليسى تسرتيلى G. V. Tsereteli والذى يجرى إعداده للطبع[١١٠] .

---

(١٠٧) - Lebedeva

(١٠٨) - Djuze, Gruzia v 17 - m Stol.

(١٠٩) - Krachovski, Ruk. sobr. Grigoria IV, p. 15, No 29 = Rukopis Inst. Vost. AN SSSR V 1227, leaves 93 a - 112 a

(١١٠) نشر شذرة من هذا المصنف :
G. V. Tsereteli, Arabskia Khrestomatia. Tbilisi, 1949, p. 82 sui.

ويمكن أن نستدل من نفس هذه المجموعة من تصانيف مكاريوس على أنه خضع فى تصوراته الجغرافية العامة لتأثير المصادر البيزنطية قبل غيرها ، فلديه مقالات بعناوين « فى الجزر الكبرى الموجودة بالبحر »[١١١] و « طبيعة عرائس البحر (sirens) والطيور المذكورة فى المزامير »[١١٢] الخ . واعتمادًا على تلك المصادر نفسها خلف لنا « وصفًا لرومة » لا يزال فى المخطوطات[١١٣] ، وهو ينتمى إلى ذلك الطراز نفسه لوصف رومه المعروف لنا من نماذج سابقة . غير أن الاعتماد على هذه المصادر الكتابية لم يضعف بأية حال اهتمامهم الحى المباشر بالبلاد التى زاروها بل أثار فى أنفسهم الرغبة لتعريف مواطنيهم بتاريخ وجغرافيا الشعوب الأخرى ؛ فبولس مثلا قد دون أثناء إقامتهم بكولومنه التى اضطرهم إليها انتشار الطاعون « تاريخ الملك باسيليوس ملك البغدان » وحملاته العسكرية وحروبه ، كما يذكر هو نفسه فى إحدى المخطوطات التى نقلها بخط يده آنذاك[١١٤] ؛ ثم إن مكاريوس نفسه قد ألف فى تاريخ الافلاخ[١١٥] أثناء إقامته الاضطرارية بجورجيا وكتب مقالة فى فتح القسطنطينية[١١٦] أثناء وجوده بتفليس . من كل هذا يتضح لنا أن كلا من مكاريوس وبولس كانا شخصين يفيضان بالحيوية والنشاط وتملكهما دافع شديد لتنوير القارىء العربى وتثقيفه بحسب ما تراءى لهما / فى ذلك الحين ، وهما يستحقان من هذه الناحية كل تقدير 705
واعتراف بالجميل من بنى وطنهما . أما « رحلة مكاريوس » فستظل على الدوام أثرًا ذا مكانة مرموقة بالنسبة للأجيال التالية .

ومثل هذا الحكم لم يمنع بالطبع بعض الباحثين من أن يقفوا موقفاً سلبياً بإزاء الدوافع الشخصية التى كانت وراء الرحلة ؛ فهم قد أبصروا فى سلوك الرحالتين ضربًا من الكدية والاتجار بالغفران (indulgence)[١١٧] ، وقد وصف أحد النقاد بولس بأنه « شاهد مرتش ، رشاه الشعب

---

(١١١) Rukopis Inst. vost. AN SSSR V 1227, Ch. 35, leaf 113 a -

(١١٢) شرحه ، Ch. 40 - 42, Leaves 115a - 116a

(١١٣) Krachkovski, Ruk. sobr. Grigoria IV, p. 13, No 24, V = Ruk. Inst. vost. AN SSSR, A 507, - leaves 85b - 103 a = Ruk. Brit. mus., Rieu, pars II, p. 43, No XXVIII, 30

(١١٤) النعمة ، الجزء الأول ، ص ٣٩٤

(١١٥) شرحه ، الجزء الثالث ، ص ٤٦

(١١٦) المشرق ، الجزء الحادى والثلاثون ، ١٩٣٣ ، ص ٩١٠ — ٩٢٠

(١١٧) Smirnov, Bogosl. vestn., p. 171 - 174 - Cf: Krymski, Rikhlat Makarius p. 6, v -

الروسى بالتبرعات الوافرة التى حملها أبوه من بلادنا »[١١٨] . ومثل هذه الجوانب يجب بالطبع أخذها فى الحساب عند درس الأثر من الناحية التاريخية والاجتماعية .

ونستطيع الآن من وجهة نظر دراستنا هذه أن نختتم كلامنا عن أوصاف الرحلات العربية التى خرجت من الوسط المسيحى فى القرن السابع عشر بقولنا إنها لا ترتفع من حيث تركيبها الأدبى إلى مصاف المصنفات المبكرة من هذا الطراز التى دونها مؤلفون مسلمون والتى تستند على تقاليد ضاربة فى القدم . ورغما من هذا فإن اثنين منهما على الأقل وهما لبولس الحلبى وإلياس الموصلى يقفان دون منازع فوق جميع أوصاف الرحلات الأخرى التى خرجت من نفس ذلك الوسط من حيث أصالة الموضوع وحقهما فى أن يعترف بهما كمصادر ذات أهمية استثنائية بالنسبة لجغرافيا البلاد التى يصفانها .

وقد ظلت الأوصاف الإقليمية (regional) فى القرن السابع عشر والأزمنة التالية له ممثلة بعدد من المؤلفات لطائفة من المقلدين، بحيث لا يمكن القول بأنها فاقت فى شىء غيرها من مؤلفات ذلك العصر . وبعض هذه الأوصاف يتعلق بسوريا وهى موجودة عادة فى المخطوطات ، أما المؤلفون فلم يكونوا فى أنفسهم من الشخصيات الهامة . مثال ذلك ناصر الدين السوائى الشفونى[١١٩] وكان خطيبًا بأحد المساجد كما يشير حمله للقب الخطيب ، وقد وضع فى حوالى عام ١٠٥٤ هـ = ١٦٤٤ رسالة بعنوان « الجوهر المكنون فى زيارة جبل قاسيون » عالج فيها الكلام كما يتبين من العنوان على موضع من أشهر مواضع الزيارة بدمشق . غير أنه من بين الفصول السبعة لهذا الكتاب الكبير الحجم فإنه لا تعالج سوى ثلاثة منها الكلام على جبل قاسيون و « مغارة الدم » ومسجد إبراهيم ، أما بقية فصول الكتاب فتتحدث عن دمشق عامة وعن فضائلها والدور الذى خصص لها عند قيام الساعة[١٢٠] ؛ ولعله لهذا السبب حمل المصنف فى مخطوطة أخرى عنوانًا مغايرًا بعض الشىء هو « الجوهر المكنون فى فضائل الشام وجبل قاسيون وفى فضل التين والزيتون »[١٢١] . وإلى هذا الوسط نفسه ينتمى محمد بن يحيى الحلبى الفرضى المتوفى فى عام 706

---

(١١٨) - Smirnov, Bogosl. vestn., p. 174

(١١٩) - Brockelmann, GAL, II, p. 362, No 9

(١٢٠) - Ahlwardt, V, p. 399 - 400, No 6086

(١٢١) شرحه ، ص ٤٠٠ ، رقم ٦٠٨٧

١٠٩٠ هـ = ١٦٧٩[١٢٢] والذى اشتغل بالتدريس لبعض الوقت بالمسجد الأموى بدمشق . وقد ترك لنا مصنفًا من نفس المضمون ، ليس فى ضخامة المصنف السابق ولكنه يفضله من ناحية التبويب ، ويحمل عنوان « الإشارات إلى أماكن الزيارات » ؛ وهو يعالج فيه من الزاوية المعهودة لنا جيدًا وفى نفس الصور التقليدية الكلام على « زيارات دمشق وما حولها من قبور الصحابة والتابعين والعلماء العاملين والأولياء والصالحين والمعابد المباركة والأماكن الشريفة »[١٢٣] . وقد حفظ هذا الضرب من الأدب / بعض السمات التى ثبتت فى عهود سابقة ؛ فمثلا يرتبط باسم 707
مؤلف غير معروف لنا عن كثب هو التمرتاشي الذى ألف حوالى عام ١١٠٦ هـ = ١٦٩٤ مصنف بعنوان «الخبر التام فى حدود الأرض المقدسة وفلسطين والشام»[١٢٤]؛ ويمكن أن نحسّ من العنوان نفسه بذلك الاتجاه القوى الذى عهدناه فى عصور سابقة للربط بين فلسطين وسوريا . ومن المؤسف أن هذا المصنف معروف فى مخطوطة واحدة بمجموعة تيمور بالقاهرة[١٢٥] ، مما يجعلنا نقتصر فى حكمنا عليه من العنوان وحده .

وثمة مؤلف آخر يمتاز بالطرافة والشهرة هو أحد مواطنى مكة وبها اشتغل لمدة طويلة بالتدريس وكان كاتبًا مثمرًا للغاية حتى لقبه معاصروه « سيوطى عصره » ؛ ومما لا شك فيه أن محمد بن علّان البكرى الصديقى (توفى فى عام ١٠٥٧ هـ = ١٦٤٨) يقرب كثيرًا من السيوطى فى طراز مؤلفاته فهى فى معظمها رسائل موجزة تعالج موضوعات مستقلة من مختلف الأنواع[١٢٦] . وسنقتصر فى هذه اللحظة على الكلام عن بعض رسائل له تعالج الجغرافيا الإقليمية وينعكس فيها حبه العميق لوطنه الحجاز ؛ وفيما يتعلق بها هى أيضًا نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نقنع بعناوينها فقط التى يوردها لنا حاجى خليفة . وأحد هذه المصنفات يحمل عنوان « فضائل مكة المكرمة » ، مكونًا بهذا حلقة فى سلسلة قديمة وحافلة من مؤلفات ذات طابع عام[١٢٧] ؛ والبعض الآخر منها يعالج موضوعات ذات طابع خاص ، مثال ذلك رسالة له فى تاريخ عمارة البيت الحرام كان الدافع إلى تأليفها حدوث سيل عنيف سقط بسببه البيت الحرام[١٢٨] . وثمة

---

(١٢٢) - Brockelmann, GAL, II, p. 362, No 11; SB II, p. 489

(١٢٣) - Ahlwardt, V, p. 427 - 428, No 6125

(١٢٤) - Brockelmann, GAL, SB II, p. 489, No 11 a

(١٢٥) - RAAD, III, 1923, p. 344, No 11 - 12

(١٢٦) Wüstenfeld, Gschictschreiber, p. 270 - 272, No 567

(١٢٧) حاجى خليفة ، الجزء الرابع ، ص ٤٥٢ ، رقم ٩١٤٤

(١٢٨) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ١٥٢

رسالة أخرى أكثر تخصصًا من تلك يعالج فيها الكلام عن فضل الحجر الأسود بعنوان « العلم المفرد فى فضل الحجر الأسود»[١٢٩]؛ وفى الأسلوب نفسه يفرد رسالة للطائف بعنوان «طيف الطائف بفضل الطائف » وهى بحسب قول حاجى خليفة « مختصر .... على مقدمة وبابين فرغ فى صفر سنة ١٠٤٨ هـ [= ١٦٣٨] »[١٣٠] . وإن مجرد ذكر عدد مصنفات هذا
« السيوطى المكى » / ليقف دليلا واضحًا على استمرار الرواج الذى تمتع به هذا الضرب من 708
المصنفات إلى العصر الذى عاش فيه ذلك المؤلف .

أما نمط الرحلات الذى انتشر فى هذاالعصر فلعل خير مثال نقدمه له هو مصنفات مواطن دمشقى ينتمى إلى أسرة المحبى التى اشتهرت بعدد من العلماء ، أعنى فضل الله بن محب الدين المتوفى سنة ١٠٨٢ هـ = ١٦٧١[١٣١] . وقد غادر فضل الله دمشق وهو فى سن الشباب لعدم رضاه بالمركز التدريسى الذى كان يشغله فسافر إلى حلب فى عام ١٠٤٨ هـ = ١٦٣٨ وهو فى سن السابعة عشر ولكنه لم يصب نجاحًا كبيرًا فرجع إلى دمشق حيث تنازل له والده عن مركزه التدريسى ؛ وفى عام ١٠٥١ هـ = ١٦٤١ سافر إلى القسطنطينية ، فاشتغل بالتدريس لمدة عام ثم رجع لبعض الوقت إلى دمشق وغادرها فى عام ١٠٥٩ هـ = ١٦٤٩ فى معية القاضى إلى مصر وكان نائبًا له فى القضاء وهناك اشتغل بالتدريس بالأزهر . وبعد أن أمضى أعوامًا طويلة بمسقط رأسه سافر إلى القسطنطينية للمرة الثانية فى عام ١٠٧٣ هـ = ١٦٦٢ وأقام بها فى هذه المرة لمدة أربعة أعوام بالتقريب ؛ أما السنوات الأخيرة من حياته فقد أمضاها بدمشق . وقد ترك لنا انطباعاته عن جميع رحلاته فى ثلاثة مؤلفات يدعوها فستنفلد « الرحلة الحلبية » Iter Halebenese و « الرحلة المصرية » Iter Aegyptiacum و « الرحلة إلى القسطنطينية » Iter Constantinopolitanum ؛ ولم تصلنا فى مجموعها[١٣٢] ولكن عناوينها تؤكد مرة أخرى ما ذكرناه من قبل عن دور مركز الجذب الذى أخذت تلعبه استنبول بالنسبة للبلاد العربية فى ذلك الوقت .

---

(١٢٩) شرحه ، الجزء الرابع ، ص ٢٤٧ ، رقم ٨٢٨٤

(١٣٠) شرحه ، ص ١٧٤ ، رقم ٨٠١١

(١٣١) - Wüstenfeld, Geschichtschreiber, 282 - 284, No. 578 - Brockelmann, Al - Muhibbi, EI, III p. 755 - 756, 2 - Wüstenfeld, Muhibbi, p. 15 - 19, No 9

(١٣٢) - Brockelmann, Al - Muhibbi, EI, III, p. 756

فهى قد اجتذبت أهل الأدب بصورة خاصة ومن مناطق مختلفة ، وكان بعض هؤلاء من « المدينتين المقدستين » مكة والمدينة ؛ وأحد سكان المدينة وممن نشأوابها كان محمد كبريت المدنى (توفى فى عام ١٠٧٠ هـ = ١٦٥٩) الذى قام برحلة فى عهد السلطان مراد الرابع (١٠٣٢ هـ - ١٠٤٩ هـ = ١٦٢٣ - ١٦٣٩) إلى عاصمة الخلافة عام ١٠٣٩ هـ = ١٦٢٩ - ١٦٣٠ ترك لنا وصفها فى مصنف بعنوان « رحلة الشتاء والصيف » معروف فى عدد كبير من المخطوطات[١٣٣] وفى طبعة قاهرية قديمة ليس من السهل الحصول عليها الآن[١٣٤] . هذا ويتسم وصف رحلته بالتنوع ، فهو قد غادر المدينة إلى العقبة ثم اجتاز سيناء إلى القاهرة وركب البحر من الإسكندرية إلى القسطنطينية ، أما فى طريق العودة فقد أخذ طريق البر مارًا على حلب وحماة ودمشق ومن هناك أخذ طريق الحاج الشامى إلى مكة . وأسلوبه على وجه العموم بسيط
ولكنه مفعم / بالاستشهادات الشعرية من مختلف العصور ، وهو ينقل أحيانًا عن المؤرخين 709
والجغرافيين بصدد المواضع التى يرد ذكرها لديه[١٣٥] .

أما معاصره وابن وطنه ابراهيم بن عبد الرحمن الخيارى المدنى (المتوفى عام ١٠٨٢ هـ = ١٦٧١)[١٣٦] فهو ابن لعلامة مصرى كان استوطن المدينة[١٣٧] ، وقد كان الابن خطيبًا بمسجد النبى[١٣٨] ثم حدث أن فقد وظيفته هذه بغير وجه حق إثر نميمة من طرف أحد العلماء لذا قرر
/ السفر إلى استنبول فى عام ١٠٨٠ هـ = ١٦٦٩ ليسترد حقه . واستغرقت الرحلة ما يقرب من 710
العامين . وقد غادر المدينة فى اليوم الحادى عشر من شهر يونيو عام ١٠٨٠ هـ = ١٦٦٩ ومر فى طريقه على تبوك ومعان سالكًا طريق الحاج الشامى حتى بلغ دمشق فى الرابع عشر من شهر يوليو . وبعد أسبوعين من هذا غادرها إلى القسطنطينية مارًا فى طريقه على حمص وأنطاكية والمصيصة حتى بلغ دار الخلافة فى التاسع من سبتمبر . وأخذ طريق العودة بعد عام بالتقريب

---

(١٣٣) مخطوطة مكتبة جامعة لننغراد ، رقم ٣٦٦ ف Indices, p. 40 = ZBO, III, p. 212

(١٣٤) - Brockelmann, GAL, II, p. 393, No 2; SB II, p. 538 -
محمد كرد على ، خطط ، الجزء الأول ، ص ٣٤ رقم ٢٥٤ – Sarkis, p. 1630 - 1631

(١٣٥) - Tuch, p. 1

(١٣٦) - Brockelmann, GAL, SB II, p. 538 - Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 285, No 579.

(١٣٧) - Wüstenfeld, Die Çufiten, p. 129, No 211.

(١٣٨) - Brockelmann, GAL, II, p. 393 - 394, No 3; SB II, p. 538 - Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 284 - 285, No 579 - Wüstenfeld, Die Çufiten, p. 129 - 132, No 212

وذلك فى سبتمبر من عام ١٠٨١ هـ = ١٦٧٠ سالكًا نفس الطريق إلى دمشق التى بلغها فى السابع عشر من نوفمبر ؛ وأعقب هذا زيارته لنواحى فلسطين فمر بالرملة وزار بيت المقدس وجبيل والخليل وغزة حتى وصل إلى القاهرة ، وفى مصر تخلف إلى الثالث والعشرين من شهر فبراير عام ١٠٨١ هـ = ١٦٧١ ثم أخذ طريق الحاج المصرى فاجتاز سيناء ومر بالعقبة فى طريقه إلى المدينة التى بلغها فى اليوم التاسع والعشرين من شهر مارس من العام نفسه وذلك قبل قليل من وفاته . وقد استغرقت الرحلة واحدًا وعشرين شهرًا ووصفها فى مصنف بعنوان « تحفة الأدباء وسلوة الغرباء » ؛[١٣٩] وهى تحمل فى بعض مخطوطاتها زيادات بقلم إبراهيم الجينينى الدمشقى (توفى عام ١١٠٨ هـ = ١٦٩٦)[١٤٠] وكان على معرفة جيدة بنواحى سوريا وفلسطين[١٤١] . وكان الخيارى فقيهًا متضلعًا وقد ألقى دروسًا فى الحديث أثناء زيارته لدمشق وكان ممن استمع إليه المؤرخ المحبى[١٤٢] ؛ ومن الطبيعى أن تنضم رحلته فى جوانب منها إلى نمط الرحلات العلمية المعروفة لنا جيدًا ولكن يجب أن نستدرك على هذا بقولنا إنه كان يفضّل إيراد ما أبصره بنفسه بدلا من الاعتماد على ألفاظ الغير . وقد اجتذب عنايته شيئان . فهو اهتم من ناحية « بالمواضع المقدسة » خاصة بفلسطين ويذكّر فى هذا بكتب « الفضائل » عن المدن الشامية ؛ ومن ناحية أخرى نراه يوجه اهتمامه إلى العلماء المحليين وأهل الأدب بوجه عام الذين جهد فى أن يدخل معهم فى علاقات . أما وصفه فقد صاغه فى أسلوب كلاسيكى تغلب عليه « الصنعة » وتنتثر فيه الاستشهادات والمقتطفات من القرآن والحديث و « مقامات » الحريرى وعدد كبير من الأشعار[١٤٣] . وهو يسوق أحيانًا مما دونته أقلام معاصريه فقد ضمن مثلا قطعًا من رسائل وجه بها إليه عالم دمشقى هو رمضان بن موسى بن عطيف الدمشقى (توفى عام ١٠٩٥ هـ = ١٦٨٤) وكان من المولعين بالشعر والتاريخ واشتغل بالتدريس هناك[١٤٤] ، وندين له بوصف رحلة إلى طرابلس الشام تم تدوينها فى عام ١٠٤٣ هـ = ١٦٣٣ وتم الكشف عن مخطوطها ببرلين منذ عهد
غير بعيد[١٤٥] . وعلى أية حال فإن المعطيات الجديدة / لدى الخيارى ليست بالقليلة ، ويتبين من 711

---

(١٣٩) - Seetzen, Al - Khiyari

(١٤٠) - Brockelmann, GAL, II, p. 314, No 16, 1, SB II, p. 432

(١٤١) - Tuch, p. 1

(١٤٢) - Wüstenfeld, Muhibbi, p. 21

(١٤٣) - Tuch, p. 2 - 3

(١٤٤) - Wüstenfeld, Muhibbi, p. 112, No 91

(١٤٥) - Brockelmann, GAL, SB II, p. 666, 10 a (section: Rumelien und Anatolien)

القطعة فى وصف رحلته من دمشق إلى الرملة التى نشرها توخ Tuch أنه من الممكن أن يفيد منها العلماء المشتغلون بدراسة آثار الكتاب المقدس (biblical archaeology) ومؤرخو الحروب الصليبية أيضًا(١٤٦) . وقد فحص رتشارد هارتمان R. Hartmann الذى شغل خاصة بدراسة الطريق بين سوريا ومصر(١٤٧) مصنف الخيارى إلى جانب عدد كبير من المؤلفين ممن مر بنا الكلام عليهم واستطاع أن يخرج بنتيجة هامة مؤداها أن الطريق بين دمشق والقاهرة فى ذلك العهد، أى حوالى عام ١٧٠٠ ، هى نفس الطريق المسلوكة فى عهد سلطنة قايتباى(١٤٨). وكان أحد أبناء الخيارى عالماً أيضاً وساح فى مصر وسوريا والقسطنطينية ولكن لا علم لنا بمصنفات له(١٤٩).

وبالطبع فإن الحجاز ومكة بصفتها مركزًا دينيًا مرموقًا قد اجتذبت إليها الرحّالين بقدر ليس أقل مما عليه الحال مع القسطنطينية مركز الحياة السياسية والإدارية للدولة . غير أنه من بين المصنفات المطبوعة فى هذا الميدان ليس فى إمكاننا أن نشير إلّا إلى واحد من المقلدين فقط وكان على صلة وثيقة بالدوائر الشيعية هو بدر الدين بن سالم الملقب بتابع الصديق . فهو قد دون فى حوالى عام ١٠٦٢ هـ= ١٦٥٢ قصة « رحلة » قام بها أحد شيوخه وتحمل عنوانًا تغلب عليه الصنعة ويشير بصراحة إلى موضوع المصنف وهو « المجاز فى حقيقة رحلة الشيخ محمد زين العابدين الصديقى إلى الحجاز » ؛ والكتاب طبع فى القاهرة دون ذكر لسنة الطبع ونادر للغاية كما أنه لم يفحص إلى الآن بطريقة علمية(١٥٠) .

أما من بين الرحلات التى اتجهت فى ذلك العصر إلى بلاد أخرى بخلاف القسطنطينية فيجب أن نفرد بالذكر بعضها إما لشخصية مؤلفيها أو لأهمية المواضع التى زاروها . وتقدم شخصية صدر الدين على بن أحمد بن محمد المعصوم الحسنى المدنى(١٥١) مثلاً طريفًا للوحدة الثقافية التى ربطت بين البلاد الإسلامية فى ذلك العهد ، فهو وإن كان أصلا من أهل المدينة (وبها ولد فى عام

---

(١٤٦) - Tuch, p. 11

(١٤٧) - Hartmann, Die Strasse, p. 699 - 702

(١٤٨) شرحه ، ص ٧٠٢

(١٤٩) - Wüstenfeld, Die Çufiten, p. 132, No 213

(١٥٠) - Brockelmann, GAL, II, p. 362, No 10; SB II, p. 489 - Sarkis, p. 542

(١٥١) - Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 289 - 290, No 589 - Brockelmann, GAL, II, p. 421; SB II, p. 627 - 628 - Sarkis, p. 244 - 245.

١٠٥٢ هـ = ١٦٤٢) إلا أنه ينحدر من أسرة من العلماء ورجال الحكومة ارتبطت بإيران والهند وبصورة خاصة بحيدر أباد . وقد غادر أبوه الهند إلى المدينة نتيجة للدسائس الحكومية ولكنه رجع
712 إلى الهند فى عام ١٠٥٤ هـ = ١٦٤٤ ولحقت به أسرته بعد اثنى عشر عاما / من ذلك بعد إلحاحه الشديد وذلك فى عام ١٠٦٦-١٠٦٩ هـ = ١٦٥٥-١٦٥٨ . هذه الرحلة الأخيرة من مكة إلى كلكنده بالهند والتى سارت ببطء شديد مجتازة إيران والهند هى التى وصفها لنا على خان اعتمادًا على ذكريات الأسرة فى عام ١٠٧٤ هـ = ١٦٦٣ تحت عنوان «سلوة الغريب وأسوة الأريب »[١٥٢] ، وهى معروفة إلى الآن فى مخطوطة يتيمة موجودة ببرلين[١٥٣] . وبعد وفاة والده فقد على خان عطف حكام حيدر أباد فالتجأ إلى كنف السلطان أورنكزيب فى برهانبور حيث شغل منصبًا كتابيًا ، وفيما بعد قام برحلة إلى إيران وزار مشاهد الشيعة ببغداد والنجف وكربلاء ؛ ثم استقر بشيراز يعمل بالتدريس إلى أن وافته منيته بها فى عام ١١٠٤ هـ = ١٦٩٢ أو فى عام ١١٢٠ هـ = ١٧٠٨ . وهو قد نال الشهرة بين معاصريه كأديب منشىء وما زال يتمتع ببعضها إلى الآن ، وإلى جانب رسائل له فى البلاغة والشعر نال رواجًا خاصًا مختارات شعرية ترجم فيها للشعراء وأتمها فى عام ١٠٨٢ هـ = ١٦٧١ بعنوان « سلافة العصر من محاسن أعيان العصر » ، وهى توجد فى عدد كبير من المخطوطات وظهر قسم منها فى طبعة قاهرية لا تبعث كثيرًا على الرضى (١٣٢٤ هـ = ١٩٠٦) . وهو ينضم فى هذا إلى المنهج القديم ويكمل مصنفًا مشابهًا للخفاجى الذى سبقه بقليل فيقدم مختارات لشعراء القرن الحادى عشر الهجرى موزعًا إياهم بحسب المناطق . وهذا المنهج الذى التقينا به عند بعض السابقين له منذ القرن الحادى عشر الميلادى لا يخلو أحيانًا من بعض الفائدة لأنه يتضمن معطيات جغرافية صرفة . والاتجاه العام لهذا المصنف يعاوننا على فهم السبب فى أن وصف رحلته كان كذلك ذا أهداف أدبية فى الغالب ويحمل طابع الرحلة « العلمية » التى تقوم على أساس ترجمة المؤلف لسيرة حياته وتستطرد أحيانًا فى موضوعات أدبية صرفة لا تخلو من بعض الطرافة وإن افتقرت إلى التنظيم .

وتمثل أهمية كبرى من وجهة نظر التاريخ العام والجغرافيا واحدة من الرحلات القليلة التى اتجهت من بلاد العرب الجنوبية إلى أرض الحبشة . أما المؤلف وهو الحسن بن أحمد الحيمى[١٥٤]

---

(١٥٢) - Griffini, Lista, RSO, III, p. 911; RSO, IV, p. 102

(١٥٣) - Ahlwardt, V, p. 434 - 435, No 6136

(١٥٤) هكذا النسبة ؛ غير أن غريفينى (Griffini, ZDMG, 69, p. 77, note 5) يعطيها صورة : الخيمى

الكوكبانى (توفى عام ١٠٧١ هـ = ١٦٦٠)(١٥٥) فينتمى إلى أسرة كبيرة وكان رجلا عالمًا استعان به الإمام المتوكل من أئمة الزيديين فى مهام دبلوماسية عديدة فبعث به إلى حضر موت ثم وجهه فى عام ١٠٥٧ هـ = ١٦٤٧ ، / وهو لما يكد يرجع من حجته الثالثة إلى مكة(١٥٦)، إلى فاسيلداس 713
ملك الحبشة (١٦٣٢ - ١٦٦٧) وكانت عاصمته غندر . وقد أشيع آنذاك عن رغبته فى اعتناق الإسلام؛ ورغما مما يحيط بهذه الرواية من عنصر الخيال إلا أنها تجد بعض التعضيد فى المصادر البرتغالية(١٥٧) . هذا وقد خرجت السفارة من قلعة شهارة الكبيرة الواقعة على مقربة من صنعاء وكان يقيم بها آنذاك إمام اليمن فبلغت مرفأ مخا وعبرت إلى الساحل الغربى للبحر الأحمر فنزلت بمحلة صغيرة تدعى بيلول بمنطقة قبائل الدناكلة وهناك أمضى الرحالة ما يقرب من شهرين . وقد مكنت هذه الإقامة المؤلف من أن يقف على عاداتهم البدائية التى كان من شأنها أن تسترعى أنظار رجل مسلم ينتمى إلى حضارة أرفع . ثم ضربوا بعد ذلك برًا فى أرض قبائل القالة Galla الذين يقول المؤلف عنهم إنهم كانوا يمثلون خطرًا كبيرًا لا على القوافل وحدها بل وأيضًا على السكان الحضر . ثم تخلفوا مرة ثانية لمدة أربعين يومًا بمدينة كبيرة تسمى أندرته ، وبعد ذلك اجتازوا أرض الفلاشة («الفلاسه») الذين يورد عنهم المؤلف تفاصيل شيقة ، حتى بلغوا مقر النجاشى بغندر .

ولم تكن إقامة السفارة اليمنية بالعاصمة هادئة على الدوام فقد تعرضوا للحريق مرتين من جانب السكان المحليين على ما يبدو ، والذين نقموا منهم تعضيدهم للمسلمين . ويقدم لنا المؤلف تفاصيل شيقة عن محادثاته مع قبطى كان يشغل مكانة رفيعة بين رجال الدين وكان مقربًا من مطران الحبشة « أبونا » الذى كان آنذاك منفيًا فى إحدى « جزر النيل » كما ذكر محدثه ؛ ومن **الطريف أن مترجم النجاشى كان رجلاً من بخارى دخل فى المسيحية وكان يجيد العربية إجادة** تامة(١٥٨) . هذا وامتدت إقامة السفارة بالعاصمة إلى مدة تقرب من تسعة أشهر(١٥٩) ورجعت بسلام إلى اليمن فى ربيع الأول سنة ١٠٥٩ هـ = مايو ١٦٤٩ سالكة طريقًا معروفًا مر بها

---

(١٥٥) الشوكانى ، الجزء الأول ، ١٨٩ – ١٩١ – Wüstenfeld, Jemen, p. 103, No 64 - Brockelmann, GAL, p. 402, No 7; SB II, p. 550 - 551 - Peiser : تقريظه لكتاب Nöldeke

(١٥٦) - Peiser; p. V, text, p. 7

(١٥٧) - Praetorius, p. 403 - 404

(١٥٨) - Peiser, text, p. 40 - 41, 47

(١٥٩) شرحه ، p. XII, p. 53, 75

على ميناء مصوع (« مسوع ») وجـزر دهلك حتى بلغت مرفأ اللّحية . ويذكر مترجم سيرة الحيمى أن السفارة قد أثارت فى نفوس الأهالى ذعرًا شديدًا لأن أفرادها كانوا يحملون معهم أسلحة نارية ، مما لم يكن آنذاك تحت أيدى القالة أو الأحباش . وكان ذلك العهد عهد انتصار للأحباش فى نضالهم مع جيرانهم المسلمين ، وإن لم يحل هذا دون وجود عدد كبير من المسلمين داخل أرض الحبشة . وقد أبصرت السفارة قريبًا من غندر نفسها بلدة جميع سكانها من المسلمين(١٦٠) ، كما وجد عدد كبير من أتباع مذهب الشافعى فى مواضع عديدة من تلك البلاد ؛ بل إن العاصمة نفسها كان بها حى خاص بالمسلمين(١٦١) . ونحن نعلم جيدًا أن ملك الحبشة قد أصدر فيما بعد ، وذلك فى عام ١٦٦٨ ، مرسومًا لم يلبث أن تجدد العمل به فى عام ١٦٧٨ يقضى بمنع
714 المسلمين من الإقامة / فى مكان واحد مع المسيحيين وهذا فى حد ذاته يقف دليلا على كثرة المسلمين فى تلك البلاد(١٦٢) .

ووصف هذه الرحلة الذى تم تدوينه بعد رجوعهم بقليل يحمل على ما يبدو عنوان « حديقة النظر وبهجة الفكر فى عجائب السفر »(١٦٣) . أما أسلوبه فقد صيغ فى لغة أدبية جيدة وعناية بالتنميق وتكلف للسجع ، كما يحوى من موضع لآخر مقتطفات شعرية . وقد ضمن المؤلف وصف رحلته قصيدتين وضعهما وهو بالحبشة يعبر فيهما عن شوقه وحنينه إلى أرض الوطن . وإلى جانب العرض الشيّق فإن وصف الرحلة مفعم بالتفاصيل الطريفة ، وكان أول من وجه إليه الأنظار هو بريتوريوس F. Praetorius وذلك منذ عام ١٨٨٥ ، ثم أصبح بفضل البحثين اللذين عملهما بيزر Peiser فى متناول أيدى المشتغلين بالدراسات الحبشية بوصفه مصدرًا هامًا للتعرف على عهد فاسيلداس الذى لا توجد مادة عنه فى التواريخ الحبشية*.

ومن العسير أن نلتقى فى مصر فى القرن السابع عشر بأسماء كبيرة أو طريفة فى ميدان الجغرافيا ، حتى ولا من بين الرحالة . ورغما من ذلك ترفع رأسها فى وسط الفقهاء من وقت لآخر أصداء ضعيفة للأنماط التقليدية ؛ وخير مثال لهذا شهاب الدين القليوبى (المتوفى عام

---

(١٦٠) شرحه ، Text, p. 35

(١٦١) شرحه ، p. 41

(١٦٢) Guidi, Abyssinien, p. 127 -

(١٦٣) Peiser, Translation, p. III -

* نشر هذا الكتاب بالقاهرة منذ أعوام الدكتور مراد كامل بعنوان « سيرة الحبشة » اعتمادًا على مخطوطة عثر عليها حديثًا فى اليمن ويرجع تاريخ كتابتها إلى عام ١٠٦٠ هـ ، وهى محفوظة بمكتبة أحد أحفاد المؤلف . (المترجم)

١٠٦٩ هـ = ١٦٥٨) وهو على وجه العموم شخصية متعددة الجوانب بالنسبة لعصره[١٦٤] ، فقد كان من رجال الحديث ولكنه تابع باهتمام أيضًا دراسة الطب وأطرف من هذا أنه اكتسب الشهرة عقب وفاته بين مواطنيه وبين المستعربين الأوروبيين بكتاب له فى « النوادر » لا يزال يطبع فى الشرق إلى أيامنا هذه . وقد خلف القليوبى تصانيف عديدة يتناول بعضها مناسك الحج[١٦٥] ومواضع العبادة بالحجاز[١٦٦] ، فهى تكمل بهذا طراز « فضائل » المدن المقدسة . وأهم من هذا رسالة له بعنوان « رسالة فى معرفة أسماء البلاد وأطوالها وانحرافها »[١٦٧] يقدم فيها جداول غير كبيرة فى تسع ورقات تتضمن تعدادًا لأهم المدن وفقًا لحروف المعجم مع تحديد أطوالها وعروضها وانحرافها ؛ وبهذا فإننا نقابل حتى فى القرن السابع عشر ترجيعًا لصدى « الزيجات » القديمة المعروفة لنا فى الجغرافيا الرياضية . ولم يقف القليوبى بالطبع بمفرده فى هذا الميدان إذ نلتقى من وقت لآخر « بالموقتين » الذين شغلوا نزولا على طبيعة أعمالهم بمعالجة أمثال هذه الموضوعات إلى منتصف القرن التاسع عشر . أما جداول القليوبى فلم تلق أى رواج ولا تزال معروفة حتى الآن فى مخطوطة وحيدة[١٦٨] .

715 وإلى جانب سوريا والجزيرة العربية أخرج لنا المغرب فى هذا العصر عددًا كبيرًا من المصنفات ذات الطابع الجغرافى ؛ ولقد حدث أن لاحظنا غير ذات مرة أن المجال قد انفسح هناك ابتداء من القرن الخامس عشر لانتعاش كبير فى كتابة التاريخ دون غيره من العلوم حتى فاق المغرب فى هذا بقية الأقطار العربية وظل ذلك الفن يشغل اهتمام علمائه المحليين إلى القرن العشرين ، ولعل السبب فى ذلك كما يذكر بروكلمان[١٦٩] هو أن الانقلابات العديدة فى الحكومات عاونت كثيرًا على إمدادهم بالمادة اللازمة . وإلى جانب هذا أيضًا يجب أن نضع وصف الرحلات التى كان الحج يمثل الدافع الأول بالنسبة لها ؛ ويغلب على هذه الرحلات فى العادة المادة المدوّنة فى التراجم وأيضًا الحكايات والقصص هذا على حين يقتصر وصف البلاد فى عديد من الأحيان على

---

(١٦٤) - Brockelmann, GAL, II, p. 364 - 365, No. 5; SB II, p. 492 - 493 - Brockelmann, EI. II, p. 753 - Sarkis, p. 1525 - 1526

(١٦٥) - Brockelmann, GAL, SB II, p. 493, 22

(١٦٦) - Brockelmann, GAL, II, p. 365, 11

(١٦٧) - Brockelmann, EI, II, p. 753, 3

(١٦٨) - Garrett, Catalogue, p. 249, No 756

(١٦٩) - Brockelmann, GAL, II, p. 455

الإطار العام الذى تستند عليه تلك المادة. وبالنسبة لمراكش، أى مملكة المغرب الحالية، فقد وجد إلى جانب رحلة الحج فى ذلك العصر، وفى العصور السابقة عليه والتالية له أيضاً، الرحلة الدبلوماسية التى اتجهت فى الغالب إلى تركيا وأوربا وكثيراً ما اشتملت على مادة جغرافية ذات قيمة لا تجارى. ويعترض ليفى بروفنسال Levi. Provençal على زعم بروكلمان بأن المغرب آنذاك لم يخرج مؤرخين صرفين باستثناء الزيانى وأن معظم المؤلفين فى ذلك الوقت كانوا من الموسوعيين (polyhistor) الذين أسهموا بالتأليف فى كل فروع العلم[١٧٠]؛ وبروكلمان محق فى حكمه هذا طالما حملت ألفاظه تلك على أن المقصود بها هو أن مصنفاتهم لم تخرج عن نطاق المنهج المعهود لدى المؤلفين المسلمين. غير أنه ليس بمقدور أحد أن ينكر أن انتشار التأليف فى مجالى التاريخ والجغرافيا التاريخية بالمغرب إنما يمثل ظاهرة تلفت النظر بالنسبة لذلك العهد بأجمعه عند مقارنة ذلك ببقية الأقطار العربية[١٧١].

والعصر الذى نعالج الكلام عليه فى هذا الفصل بالذات يقدم لنا رحالتين يمثلان كلا الاتجاهين، هما الحاج العياشى والدبلوماسى الوزير الغسانى. أما الأول وهو أبو سالم عبدالله بن محمد ابن أبى بكر العياشى[١٧٢] فمن البربر من قبيلة ايت عياش التى كانت تقيم بسجلماسة مركز واحة تفيللت بأطلس الوسطى. وقد ولد رحالتنا فى عام ١٠٣٧ هـ = ١٦٢٨، وهو كجميع معاصريه ممن دفعتهم الرغبة فى طلب العلم إلى الرحلة ارتحل وهو فى سن الشباب إلى مدينة فاس التى كانت تمثل آنذاك مركز الثقافة بافريقيا الشمالية، ووجه اهتمامه إلى ثلاثة فروع من علوم الدين هى الحديث والشريعة والتصوف. وفى عام ١٠٥٩ هـ = ١٦٤٩ أدى فريضة الحج لأول مرة فمر فى طريقه بتوات وورجله وطرابلس حتى بلغ مصر، ثم تابع دراسته لبعض الوقت فى كل من القاهرة ومكة كما أقام مرة ثانية ابتداء من عام ١٠٧٣ هـ = ١٦٦٢ مدة ليست بالطويلة بمكة
716 والمدينة، ولكنه توفى بموطنه / من الطاعون فى عام ١٠٩٠ هـ = ١٦٧٩. وقد دون مذكراته المتقطعة أثناء الحج، غير أن رحلته الأخيرة دفعته إلى تبييض المسودة النهائية لوصف رحلته المعروف لنا بعنوانين أحدهما تقليدى صرف هو « الرحلة العياشية » والآخر تغلب عليه الصنعة هو « ماء الموائد »؛ والكتاب موجود فى طبعة حجرية ظهرت فى جزأين بفاس فى عام ١٣١٠ هـ

---

(١٧٠) - Lévi - Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 23, note 1

(١٧١) - Brockelmann, GAL, SB II, p. 677, note

(١٧٢) - Brockelmann, GAL, II, p. 464, No 3; SB II, p. 711 - Mohammed ben Cheneb, Al - Aiyashi, p. 231 - 232 - Lévi - Provençal, Hist d. Chorfa, p. 262 - 264 - Blachère, p. 369 - 370

= ١٨٩٨ [١٧٣] ؛ ويبصر من مضمونه أن المؤلف وجه عنايته فى المكانة الأولى بالطبع إلى الكلام عن الأولياء والعلماء وأهل التصوف ويغلب على عرضه أحياناً طابع متعدد الألوان لمادة متنوعة من محيط الجغرافيا والعادات والدين وحياة المتصوفين وأهل الحديث ، كما أنه إلى جانب أهميته كمصدر جغرافى يجب ألا تغفل أهميته التاريخية بالنسبة لذلك العصر رغمًا من أن أوصافه على وجه العموم جافة وتنقصها الحيوية . أما أسلوبه الأدبى فتنعكس فيه بالطبع علامات عصر التدهور ولكنه يتميز بالبساطة باستثناء الحالات التى يعالج فيها المؤلف الكلام على الموضوعات الصوفية ويرى لزامًا عليه أن يلجأ إلى لغة مغلقة ومتكلفة . وأما تركيب الكتاب العام فقد أفسده إلى حد كبير ميل المؤلف المبالغ فيه إلى الاستطرادات المتتالية .

ويحتل أهمية خاصة فى مادته الواقعية وصفه لطرق القوافل من المغرب إلى مكة مع تبيان واف للمنازل المختلفة ؛ كما توجد لديه تفاصيل تمكن من تبيان الحد الذى يفصل بين الأراضى الصحراوية والأراضى الصالحة للزراعة ، وقد لفت الأنظار إلى هذا منذ الأربعينيات من القرن الماضى مترجم الرحلة بربروجه Berbrugger . غير أن المؤلف نفسه لم يعتبر كل هذا جديرًا باهتمام الرحالة الجاد ؛ فهو قد صرف اهتمامه قبل كل شيء إلى فحص مناهج العلوم الإسلامية فى البلاد التى زارها بحيث يمثل كتابه إلى حد ما دائرة معارف فريدة من نوعها فى العلوم والتصوف . وقد رأى لزامًا عليه أن يشير فى كل موضع إلى المخطوطات النادرة التى رآها فى الأماكن المختلفة ؛ والمؤلفون المتأخرون فى المغرب أفادوا كثيرًا من كتابه [١٧٤] وهو يحتل آخر موضع فى سلسلة المنتخبات الجغرافية التى نشرها بلاشير Blachère والتى كثيرًا ما رجعنا إليها فى تضاعيف كتابنا هذا ؛ ولا يوجد بالطبع ما يبرر ذلك لأنه وجد بعد العياشى عدد من الكتاب من نفس الاتجاه يتممون التقاليد الجغرافية وإن لم يأتوا فيها بجديد ، غير أنه يمكن على أية حال أن نعترف به كنموذج لجميع مؤلفى هذا العهد الأخير الذى لم يطرأ فيه أى تقدم فى هذا الميدان إلى العصر الحاضر ، أو على الأقل إلى القرن التاسع عشر .

أما الرحلة الأخرى التى قام بها الدبلوماسى فهى تمثل أهمية أكبر من وجهة نظرنا . وأبو عبد الله محمد الوزير الغسانى من أسرة أصلها من الأندلس ولكنها استقرت بمراكش ، وكان يعمل كاتبًا ببلاط الشرفاء العلويين بمكناس فى عهد مولاى اسماعيل الطويل الأمد (١٠٨٣ هـ-١١٣٩ هـ

---

(١٧٣) العياشى ، ماء الموائد

(١٧٤) - Lévi - Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 454

717 = ١٦٧٣ - ١٧٢٧) ؛ واكتسب الشهرة / كخبير بأسماء الكتب (bibliograph) وخطاط وناثرفنى[١٧٥] . وفى عام ١٦٨٩ عندما استرجع الشريف مدينة العرائش من الاسبان ووقعت حاميتهم فى يده فكر فى أن يعرض على ملك أسبانيا استبدال الحامية بخمسمائة أسير مراكشى ممن كانوا فى الأسر باسبانيا وخمسة آلاف كتاب من الاسكوريال ، ووقع اختياره على الوزير الغسانى ليضطلع بهذه المهمة . ومن العسير القول بصورة محددة عما إذا كانت تلك هى حقًا أهداف الرحلة ، إلا أن الرحالة على أية حال يتحدث عن ذلك كثيرًا فى خلال وصفه لرحلته . وهو فى الواقع يتكلم عن وجود أسرى مراكشيين بقادس وقرطبة ومدريد ولكنه لا يذكر شيئًا عن ترحيلهم إلى أرض الوطن[١٧٦] ؛ أما المخطوطات فقد كان للمراكشيين فكرة مضطربة بعض الشيء بصددها ، وهم قد افترضوا أن الأسبان نقلوا إلى مكتبة الاسكوريال « خزائن من قرطبة وأشبيلية وغيرهما[١٧٧] » . ومن المعلوم أن مجموعة الإسكوريال ترجع فى الواقع إلى عهد متأخر وتمثل فى جوهرها قسما من مكتبة مولاى الشريف زيدان (١٠١٢ هـ-١٠٣٨ هـ= ١٦٠٣-١٦٢٨) التى سطا عليها القراصنة أثناء رحلة للشريف من آسفى إلى أغادير[١٧٨] ، وعندما علم المراكشيون بخبر الحريق الذى تعرضت له مكتبة الإسكوريال فى عام ١٦٧١ لم يصروا كثيرًا على استرداد المخطوطات بل عرضوا أن يستبدلوها بخمسمائة أسير آخر . ونظرًا لأن وصف الرحلة لا يذكر شيئاً عما تم بصدد هذا العرض فإن بعض الباحثين يميل إلى الافتراض بأن هدفى الرحلة المشار إليهما لم يكونا إلا ذرًا للرماد فى العيون وأن الهدف الحقيقى كان على أغلب الظن محاولة عقد معاهدة صلح بين الطرفين[١٧٩] . وعلى أية حال فقد رأى المؤلف من الضرورى أن يظهر اهتمامه بالهدف الأول للرحلة بأن يعنون كتابه « رحلة الوزير فى افتكاك الأسير » . ومما يؤسف له أن جميع المخطوطات المعروفة حتى الآن ليست كاملة وتنقطع فى وصف طريق العودة عند طليطلة[١٨٠] ؛ واعتمادًا على إحداها قدم لنا سوفير Sauvaire ترجمة مختصرة للكتاب* .

---

(١٧٥) Brockelmann, GAL, SB II, p. 712, No 4a-Sauvaire, Voyageen Espagne - Lévi - Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 284 - 286 - Pérès, L'Espagne, p. 5 - 17 -

(١٧٦) Pérès, L'Espagne, p. 9 -

(١٧٧) Sauvaire, Voyae en Espagne -

(١٧٨) عن المراجع انظر : Pérès, L'Espagne, p. 7, note 1

(١٧٩) Pérès, L'Espagne, p. 8 -

(١٨٠) شرحه ، p. 6, note 1

* نشر متن هذا الكتاب الفريد البستانى مع ترجمة اسبانية فى عام ١٩٤٠ بطنجة . (المترجم)

خرجت السفارة من سبتة فى الخامس عشر من المحرم سنة ١١٠٢ هـ= ١٩ أكتوبر ١٦٩٠ متجهة إلى جبل طارق ، ومرت فى طريقها على طريف وقادس وشريش و « ايشكا » Ecija وقرطبة وليناريس Linares ومانسنارس Manzanares وموره Mora حتى بلغت مدريد فى اليوم السابع من ربيع الثانى من نفس العام= ٨ يناير ١٦٩١ . ثم غادرت مدريد فى طريق الرجعة فى أول رمضان = ٢٩ مايو إلى طليطلة ، وينقطع بعد هذا وصف الطريق بانقطاع المخطوطة . هذا ويكشف الرحالة عن قوة ملاحظة وانتباه غريبين بالنسبة لعصره[١٨١] ، كما وأن سعة أفقه وما اتسم به من روح التسامح الشديد الغريب بالنسبة لمراكشى من عصره قد سمح له بأن يتجاذب أطراف الحديث بيسر مع رجال الدين[١٨٢] الذين كانوا يلعبون دورًا خطيرًا فى اسبانيا لذلك العهد ، وأيضًا مع بقايا / العرب المتنصرين . ومن الطريف فى هذا الصدد أن نشير إلى محادثاته الطويلة فى 718
محلة اندوخر Andujar قرب قرطبة مع « أولاد السراج » ، وهم أحفاد بنى سراج المشهورين الذين انتقلوا إليها من غرناطة فى أواخر القرن الخامس عشر[١٨٣] . وهو يولى نفس القدر من الانتباه لتفهم أسلوب المعيشة فى أديرة الراهبات التى تعرف عليها بصورة مباشرة .

والمؤلف يتحاشى القصص فى عرضه ولا يثقل وصفه على عكس الكثيرين بالاستطرادات المنقولة عن مؤلفين آخرين ، بل إن مسجدًا مشهورًا كمسجد قرطبة لا يظفر لديه إلا بمكانة صغيرة . وفى مقابل هذا فهو يتحدث بتفصيل أكثر عن تاريخ اسبانيا الحديثة وعن آخر هجرة للموريسكيين منها ، كما يفصل الكلام بصورة خاصة عن سياسة أوروبا المعاصرة له . ومن اتجاهه العام يبدو كعالم اثنوغرافى واجتماعى أكثر منه مؤرخًا . فهو يهتم قبل كل شيء بوصف الأخلاق والعادات والنظم ؛ وفى هذا المجال قد تفوق معطياته أحيانًا الأوصاف الأوروبية المعاصرة له[١٨٤] . وهو على معرفة جيدة بنظام « ديوان التحقيق » Inquisition الذى تركز نشاطه فى ذلك العصر بصورة خاصة فى محاكمة المتهمين بالتهود ؛ وكان شاهدًا لمصارعة الثيران التى يرجع أول ذكر لها فى العادة إلى القرن السابع عشر وإن لم تكن اكتسبت فى تلك الآونة طابعها العنيف الذي تحيط به الطقوس الدينية بل كانت مناسبة شعبية لا تقتصر على المحترفين وحدهم إذ كان يأخذ طرفًا فيها

---

(١٨١) شرحه ، p. 8

(١٨٢) شرحه ، p. 9

(١٨٣) شرحه ، p. 10

(١٨٤) شرحه ، p. 11

كل من يدعى لنفسه الشجاعة ورباطة الجأش[١٨٥] . ورحالتنا يولى عناية خاصة لوصف الرقصات الشعبية التى عملت تكريمًا له[١٨٦] ويقدم لنا تحليلا لشخص الملك كارلوس الثانى آخر سلالة الهابسبرج على العرش الأسبانى (١٦٦٥ = ١٧٠٠) معتمدًا فى ذلك على انطباعاته الشخصية ؛ ويجب الاعتراف بأن هذا التحليل لا يخلو من بعض الزيادة على ما سرده الرحالة الأوروبيون فى هذا الصدد[١٨٧] . هذا وقد اقتصرت دائرة اتصاله بالطبع على الوسط الأرستقراطى ، وجهد رجال البلاط فى أن يحدثوا فى نفسه أثرًا طيبًا بأدبهم الجم وبشاشتهم وحسن معاملتهم ، كما بذلوا جهدهم فى أن يروه كل ما يمكن أن يكون ذا طرافة وأهمية بالنسبة له[١٨٨] . غير أن هذا لم يطغ على الجوانب الأخرى للحياة فهو يهتم بالجانب الاقتصادى ويوجه الكثير من انتباهه إلى طرق الزراعة وتربية الحيوان[١٨٩] ؛ أما فيما يتعلق بعالم الطبيعة فهو يقف موقف الملاحظ المهتم بنشاط الإنسان فيه ولا يولى اهتمامًا خاصًا بالمناظر الطبيعية أو جمال الطبيعة نفسها أو يكلف نفسه نقل الأوصاف الشاعرية التى صاغها الغير[١٩٠] . وفى مقابل هذا فقد كان فى موقف يمكنه من أن يتثبت من الأثر السىء الذى تركه كشف أميريكا على إسبانيا والإسبانيين رغما من الغنى الفاحش الذى عاد إلى البلاد نتيجة لذلك[١٩١] .

719 وبوجه عام فكتابه لا يخلو من الطرافة ومادته ذات أهمية فى العادة ، وهى تمس السكان والمدن والريف والطبقات العليا والدنيا ولا يوجد فى عرضه أى أثر للتحيزّ المقيت أو العصبية ضد الأجانب بل ينبض بالكثير من العاطفة الطيبة نحو الغير مما سمح له بتفهّم أشياء كثيرة تعد غريبة بالنسبة للمسلمين . وإن ما يمتاز به العرض من حيوية وقوة ملاحظة ليقف كفئًا لأحسن أوصاف الرحلات الأوروبية لذلك العهد فهو يقدم لنا لوحة دقيقة للحياة الإسبانية وعلى الأخص حياة البلاط الإسبانى فى عهد كارلوس الثانى[١٩٢] . ولعلنا نذكر جيدا كيف أنه قبل عشرين عامًا من الغسانى وجد الرحالة العربى المسيحى إلياس الموصلى فى نفس تلك الظروف ، ولعل عقد مقارنة

---

(١٨٦) شرحه

(١٨٧) شرحه ، p. 13 - 14

(١٨٨) - Lévi - Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 285 - 286

(١٨٩) - Pérès, L'Espagne, p. 15 - 16

(١٩٠) شرحه ، ص ١٦

(١٩١) شرحه ، ص ١٢–١٣

(١٩٢) شرحه ، ص ١٧

خاصة بين معطياتهما سيكشف لنا عن تفاصيل ليست بالقليلة من حيث طرافتها . ولنذكر عرضًا أن الغسانى يتحدث عن سفارة من « مسكوبيا » زارت اسبانيا قبل مجيئه بثلاثة أعوام(١٩٣) ، ومن المحتمل أنه إنما يشير بذلك إلى سفارة روسية زارت فرنسا واسبانيا فى عام ١٦٨٧ - ١٦٨٨ كما يستفاد من مصادر أخرى(١٩٤) . ولم تمر سفارة الغسانى هكذا دون أن تترك أثرها على سير الأدب ، وسنرى فى القرن التالى لهذا رحلة مماثلة إلى اسبانيا قام فيها بمهمة دبلوماسية رجل آخر من أهل مراكش يدعى الغزال يمكن أن نلمح فى تضاعيف وصفه لرحلته انعكاسًا معينًا لوصف رحلة الغسانى(١٩٥) . وأغلب الظن أن الشريف اعتبر رحلة الغسانى رحلة موفقة إذ نراه يبعث به فى العام التالى أى فى سنة ١١٠٣ هـ = ١٦٩٢ كاتمًا لأسرار سفارة أخرى وجه بها إلى الأتراك فى الجزائر ، ولم يحفظ لنا وصف لهذه الرحلة الأخيرة . هذا وقد توفى الغسانى بفاس فى سنة ١١١٩ هـ = ١٧٠٧ .

وكما هو الحال مع العهود السابقة فإن المغرب يقدم لنا فى القرن السابع عشر بعض المؤرخين الذين يلفتون النظر إما لميلهم الواضح نحو الجغرافيا أو لوجود معطيات جغرافية وافرة فى مؤلفاتهم . وقد اكتسب شهرة بينهم فى الأوساط العلمية الأوروبية محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى المعروف عادة بنسبته الأخيرة أو بكنيته الثانية « ابن أبى دينار »(١٩٦) ؛ ويوجد مصنفه « كتاب المؤنس فى أخبار افريقيا وتونس » فى طبعة تونسية قديمة ترجع إلى عام ١٢٨٦ هـ = ١٨٦٩ وأخرى أحدث منها ترجع إلى عام ١٣٥٠ هـ = ١٩٣١ ، وأيضًا فى ترجمة فرنسية قام بها بليسييه Pélissier ورموزا Rémusat على أساس إحدى مخطوطات الكتاب . أما الكتاب فقد تم تدوينه تبعًا لما جاء بالمخطوطة والطبعة فى عام ١١١٠ هـ = ١٦٩٨ أو فى عام ١٠٩٢ هـ = ١٦٨١(١٩٧) ، ولا يزال غير مفهوم على الإطلاق ذلك السهو الذى جعل كرامرس يرجع ذلك إلى عام ٨٥٠ هـ = ١٤٤٦(١٩٨) . / وينقسم المصنف إلى سبعة 720

---

(١٩٣) - Sauvaire, Voyage en Espagne, p. 88 - 89

(١٩٤) - Krylova, p. 328 - Alkseev, p. 361

(١٩٥) - Lévi - Provençal, Hist. de Chorfa, p. 329

(١٩٦) - Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 289, No 586 - Brockelmann, GAL, II, p. 457, No 4; SB, II, p. 682 - Sarkis, p. 30 - Basset, EI, II, p. 377 - Amari (- Nallino), I, p. 88, No 66

(١٩٧) - Pélissier, p. IV

(١٩٨) - Kramers, EI, EB, p. 71

أبواب وخاتمة فالباب الأول فى وصف تونس والثانى فى ولاية افريقية والثالث يعالج الكلام على فتح العرب لها على حين أفرد الباب الرابع للفاطميين والخامس للزيريين (من القرن العاشر إلى القرن الثانى عشر) والسادس للحفصيين (من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر) والسابع لعهد السيادة التركية . وتتضمن الخاتمة أربعة أقسام تحتوى على زيادات وتتمات بعضها ذو طابع عرضى ، مثل معلومات متفرقة عن تونس وما جرى فيها من تغيرات على ممر التاريخ وعما اكتسبه صحيح البخارى من رواج فى شمالى افريقيا الخ . وفى بعض أقسامه ، خاصة الأول والثانى ، يقترب المصنف من طراز الجغرافيا الإقليمية أحيانًا ومن نمط « الفضائل » أحيانًا أخرى ، ورغمًا من تاريخه المتأخر فإن الكتاب يظفر بتقدير عال ؛ وعنه يقول أمارى وهو خبير بمثل هذه المواد : « هذا مصنف نقلى دقيق للقرن السابع عشر جمع بين دفتيه عددًا كبيرًا من الملاحظات الطبوغرافية والتاريخية عن افريقيا منذ الفتح العربى لها إلى الفتح العثمانى . والمؤلف لا يفتقر إلى موهبة النقد وأفاد كثيراً من مواد جديدة لم تصل إلينا بطريق مباشر»(١٩٩). ولاحظ كوديرا Codera أن كتاب القيروانى لا يخلو من الأهمية حتى بالنسبة لتاريخ اسبانيا(٢٠٠).

ومهما يكن من شيء فإن أكبر شخصية فى محيط الأدب عامة فى القرن السابع عشر هو المقّرى ؛ وفى مؤلفه الرئيسى تنعكس قبل كل شيء شخصية المؤرخ أو مؤرخ الأدب ، بل وأصح من هذا شخصية الأديب وذلك وفقًا للمفهوم الدقيق لهذا اللفظ فى الوسط العربى . غير أن شخصيته تقف أنموذجًا جيدًا لجميع عصر التدهور ، كما أن المادة التى جمعها ذات فائدة بالنسبة لجميع المسائل المتعلقة باسبانيا الإسلامية بصورة تجعل من المستحيل علينا أن نتجاهله فى دراسة عامة كهذه تعرض لتاريخ الأدب الجغرافى . وهو لا يخلو من الطرافة من ناحية أخرى إذ يعد أيضًا أنموذجاً جيداً للصلات الوثيقة فى مجال الثقافة التى ربطت بين البلاد العربية فى ذلك العصر(٢٠١).

ولد أحمد بن محمد بن أحمد المقرى التلمسانى حوالى عام ١٠٠٠ هـ = ١٥٩١ بتلمسان كبقية

---

(١٩٩) - Amari (- Nallino), I, p. 88

(٢٠٠) - Codera, Decadencia, p. 317, note 1

(٢٠١) - Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 265 - 267, No 559 - Pons Boigues, p. 417 - 419 - Brockelmann, GAL, II, p. 296 - 297, No 6; SB II, p. 407 - 408 - Lévi - Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 93 - 94, Note 3 - Lévi - Provençal, Al - Makkari, p. 189 - 190 - Mohammed Ben Cheneb, Étude, p. 151 - 152, No 102 - Carra de Vaux, Les Penseurs, I, p. 158 - 172 - Mieli, p. 272, 274 - Sarkis, p. 1776 - 1778 - Dugat, Analectes, I, p. XIX - XXVI, XXVII - XCVI

أسلافه المباشرين ؛ أما نسبته الثانية التى تعطى أحياناً فى صورة المَقْرى فتشير إلى أن أسرته تنتسب
إلى محلة صغيرة تقع قريبًا من تلك المدينة ، وليس ثمة ما يدعو إلى أن نرى فيها تحريفًا للقب المُقْرىء
التى تشير إلى العمل بتلاوة القرآن أو تدريسه للصبية(٢٠٢) . وكان أحد أسلافه معلّمًا للأديب
الأندلسى المغربى المشهور فى القرن الرابع عشر ابن الخطيب ، ولعل تأثير هذه الصلة قد انعكس 721
بالتالى فى أن أصبح المقّرى قارئًا متحمسًا لهذا الكاتب والشاعر الكبير وخصص له مصنفه
الأساسى الذى سيرد بنا الكلام عليه . وتتلمذ المقّرى فى صباه على عمه الذى كان يشغل
منصب الإفتاء وأعاد عليه سبع مرات قراءة صحيح البخارى الذى أصبح بمرور الزمن الموضوع
المفضل لتدريسه حتى نال الشهرة فيه بين الناس . وكانت فاس فى ذلك العهد مركز الدراسات
الدينية بالمغرب واشتهر فيها بذلك مسجد القرويين المعروف ، وإليها رحل المقّرى وهو غلام فى عام
١٠٠٩ هـ = ١٦٠٠ ؛ وفى العام التالى لهذا زار مراكش ثم أغمات حيث يوجد قبر الأمير الشاعر
المعتمد . وقد زار المقّرى مسقط رأسه عدة مرات فى سنى حداثته ولكن نراه مرة ثانية بفاس فى عام
١٠١٣ هـ = ١٦٠٤ ، ثم ما لبث أن استقر بها لمدة طويلة ابتداء من عام ١٠٢٢ هـ = ١٦١٣
وشغل بها منصبًا محترمًا كإمام ومفت بجامع القرويين رغمًا من حداثة سنه . وكان موضوع
تدريسه الخاص طول حياته هو الحديث ودوّن فى ذلك عددًا من التصانيف اعتمد عليها فى
التدريس فى تلك الآونة وفيما بعد أثناء إقامته بالمشرق ؛ إلا أن ميوله الخاصة ، أو كما قال « غير
الرسمية » ، اجتذبته على ما يبدو منذ سن مبكرة نحو أدب الأندلس وتاريخها فليس غريباً إذاً أن
يهتم منذ أيام شبابه الأولى بالمعتمد وابن الخطيب . وثمة ظروف خاصة يمكن أن تكون قد تركت
أثرها عليه ، ذلك أن أيام صباه تتفق مع لحظة طرد الموريسكيين نهائيًا من اسبانيا فى عهد فيليب
الثانى فى عام ١٦٠٩ ؛ وقد انتقلت هذه الفئة النشطة إلى الشمال الافريقى بأعداد كبيرة واستقرت
بمدنه الكبرى مثل تونس وفاس وتلمسان(٢٠٣) . وكان فى مستطاع المقّرى أن يسمع منهم روايات
حية كما كان بمقدورهم أن يحملوا معهم من اسبانيا بقايا المصادر الأدبية لا باللغة الألخميادوية
وحدها بل وأيضًا بالعربية الخالصة ؛ ومهما يكن من شىء فلا يوجد ثمة شك فى أن المقّرى لم تفته فى
هذا العهد المبكر من حياته المواد المتعلقة بالحضارة العربية الإسبانية ، بل وربما يكون قد جمعها
بكميات كبيرة . وقد تمكن المقّرى من العثور على أشياء ذات أهمية بمكتبة سلاطنة السعديين

---

(٢٠٢) - Cf: Brockelmann, GAL, SB II, p. 407, note

(٢٠٣) - Dugat, Analectes, I, p. XCX

بمدينة مراكش ولا يخلو من مغزى أن إحدى المخطوطات التى اشتغل بدراستها موجودة حاليًا بالإسكوريال[٢٠٤]، وأغلب الظن أن هذا قد تم دون نظام محدد أو خطة مرسومة. وهذه الاتجاهات لم تجد انعكاسًا فى المؤلفات الأدبية للمقرى إلّا قريبًا من نهاية حياته عندما حمله أصدقاؤه على وضع أثر أدبى ميزه عن بقية المشتغلين بالعلوم الدينية.

وفى آخر رمضان من عام ١٠٢٧ هـ = سبتمبر ١٦١٨ غادر المقرى المغرب ووجهته
722 الأساسية حج بيت الله. وأغلب الظن أنه اعتقد أن غيبته لن تطول / لأنه ترك وراءه القسم الأساسى من مخطوطته ومادته بالمغرب؛ غير أنه لم يقدّر له الرجوع مرة ثانية إلى أرض الوطن. وخط سير رحلته معروف لنا جيدًا من إشاراته الشخصية فى مقدمة كتابه الذى يهمنا بصورة خاصة، فقد أخذ طريق البحر إلى مصر ولكنه لم يقم طويلا بالقاهرة فى هذه المرة الأولى إذ غادرها فى رجب من عام ١٠٢٨ هـ = يونيو ١٦١٩ إلى مكة. ولم يلبث أن رجع إلى القاهرة فى المحرم من عام ١٠٢٩ هـ = ديسمبر ١٦١٩ فتزوج بها، ويلوح أنه عقد العزم على الإقامة بها لمدة طويلة. ومن الجلى أن ظروف حياته لم تسر بحسب ما يهوى، وينعكس هذا فى شكايته التى نظمها شعرًا وفى القلق الذى استولى على نفسه حتى دفعه إلى الترحال مرة ثانية. ففى ربيع الأول من عام ١٠٢٩ هـ = فبراير ١٦٢٠ قام برحلة قصيرة إلى بيت المقدس ولكنه رجع بالتالى إلى القاهرة؛ وقد حج إلى عام ١٠٣٧ هـ = ١٦٢٧ خمس مرات زار خلالها المدينة سبع مرات وألقى دروسًا فى الحديث بها أكثر من مرة. وبعد رجوعه إلى القاهرة فى صفر من عام ١٠٣٧ هـ = أكتوبر ١٦٢٧ بدأ يدرّس بالأزهر، وفى رجب من العام نفسه = مارس ١٦٢٨ زار القدس ولكنه لم يمض بها أكثر من خمسة وعشرين يومًا؛ وفى شعبان (أبريل) زار دمشق لأول مرة واجتذبه إليها دعوة من معارف جدد له فقد التقى أثناء الحج بمفتى سوريا العلّامة العمادى (توفى عام ١٠٥١ هـ = ١٦٤١)[٢٠٥] الذى تولى لعدد من السنين امارة الحاج الدمشقى فدعاه لزيارة دمشق[٢٠٦] التى كانت تعتبر نفسها فى ذلك الوقت مركزًا ثقافيًا لا يقل قدرًا عن القاهرة. وبدمشق التقى المقرى بشخص حمل له إعجابًا شديدًا هو أحمد بن شاهين القبرصى (توفى عام ١٠٥٣ هـ = ١٦٤٣)، وهو معلم

---

(٢٠٤) - Lévi - Provençal, Al- Makkari, p. 189

(٢٠٥) - Brockelmann, GAL, II, p. 291, No 7; SB II, p. 402

ابن معصوم، السلافة، ص ٣٧٢ – ٣٧٥ (مراسلات شعرية مع المقرى)

(٢٠٦) المقرى، الجزء الأول، ص ٤٢، السطر الثانى من أسفل

وأديب من أهل البلاد[٢٠٧] . وبفضل علاقته به تيسرت له الإقامة بدمشق واستطاع أن يدرس الحديث بالمدرسة الجقمقية ؛ ومرة أخرى اضطلع المقرى بتدريس صحيح البخارى وختم ذلك فى هذه المرة خلال أربعين يومًا وذلك فى السابع عشر من رمضان من عام ١٠٣٧ هـ = ٢١ مايو ١٦٢٨ وسط جو من الحماس والاحتفال الشعبى . وقد وجد من بين تلامذته شخصيات نابهة يذكر معجم السير للمحبى عن أحدهم وهو يحى بن أبى الصفا المحاسنى (المتوفى عام **١٠٥٣ هـ = ١٦٤٣**) أنه «لزمه لزوم الظل»؛ وقد استمع هذا الشخص لجميع ما قاله المقرى ودون بالتالى ما أملاه عليهم الشيخ[٢٠٨] . وغادر المقرى دمشق فى الخامس من شوال عام ١٠٣٧ هـ= التاسع من يونيو ١٦٢٨ وأقام بالقاهرة حوالى ثلاث سنوات إلى شعبان من عام ١٠٤٠ هـ= مارس ١٦٣١ حينما غادرها فى زيارة ثانية لدمشق لم تطل أكثر من الأولى . هذا وقد سرّته كثيرًا دمشق كما سره أهلوها / ؛ ويبدو أنه قد نال هناك لأول مرة فى حياته التقدير والاعتراف الكامل 723
بمكانته العلمية ، وينعكس هذا فى الأشعار والمكاتبات التى تبادلها مع صديقيه الدمشقيين العمادى[٢٠٩] وأحمد بن شاهين[٢١٠] والتى ترد شذرات منها فى مؤلفه وفى مختلف المجموعات الأدبية . وقد ألف ابن شاهين كتاباً يتعلق خاصة بإقامة المقرّى بدمشق وما تركته تلك الإقامة من أصداء آدبية بها؛ ومخطوطة هذا الكتاب موجودة بمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية[٢١١] . وقد عنّت للمقرّى الفكرة بأن ينتقل للإقامة نهائياً بدمشق فرجع إلى القاهرة وبدأ فى تصفية أعماله بها ولكن الموت اختطفه فى مرض فجائى فى جمادى الثانية من عام **١٠٤١ هـ = يناير ١٦٣٢** ولم يتجاوز الأربعين إلاّ بقليل.

ويعود الفضل بلا شك إلى الدمشقيين فى تشجيع المقرى على إخراج أكبرآثاره الأدبية ، وهو

---

(٢٠٧) - Brockelmann, GAL, II, p. 275, No 21; SB II, p. 385

ابن معصوم ، **السلافة**، ص ٣٧٥ – ٣٨٥ (قصائده التى وجّه بها إلى المقرى ، ص ٣٧٦ – ٣٧٩) ، ص ٥٩٣ (قصائد المقرى اليه) – المقرى ، الجزء الأول ، ص ٤٣ –

Wüstenfeld, Muhibbi, p. 70 - 71, No 53

(٢٠٨) - Wüstenfeld, Muhibbi, p. 117 - 118, No 101

(٢٠٩) المقرى ، الجزء الأول ، ص ٧٣٤ – ٧٣٦ ، ٧٤٥ – ٧٤٩ ، ٧٦٣

(٢١٠) خطابه ، راجع : المقرى ، الجزء الأول ، ص ٦٦ – ٦٨ ؛ وقصائده : شرحه ص ٦٩ – ٧٠ ، ٧٣٦ – ٧٤٥ ، ٧٧٣ ، ٧٧٩

(٢١١) - Rosen, Notices Sommaires, p. 221, No 269, 1

نفسه يقول إنه فى محادثاته مع أصدقائه وخاصة مع أحمد بن شاهين[٢١٢] كان كثيرًا ما يتذاكر الأندلس[٢١٣] ؛ ويبدو أنه أثار فى نفس هذا الأخير تقديرًا وإعجابًا كبيرين لشخص وزيرها لسان الدين بن الخطيب ونبوغه فألح عليه بأن يصنف فى ذلك سفرًا خاصًا[٢١٤] . وامتنع المقرى طويلا عن الاستجابة لهذه الرغبة لعلل مختلفة ولكنه لم يلبث أن أذعن بعد ذلك[٢١٥] ، ويبدو أنه لم يكن بوسعه مقاومة ميوله الشخصية . ولما رجع المقرى إلى القاهرة ظل ابن شاهين يذكره فى خطاباته وقصائده بالوعد الذى قطعه على نفسه فبدأ المقرى العمل فى المصنف وفرغ منه فى أقل من عام وذلك بتاريخ ٢٧ رمضان من عام ١٠٣٨ هـ = ٢١ مايو ١٦٢٩ ، وأغلب الظن أنه أتم المسودة الأولى فقط دون أن ينقّحها[٢١٦] . وفى شكلها هذا كانت مكرسة لابن الخطيب وحده ومن ثم فقد حملت لهذا السبب عنوان « عرف الطيب فى التعريف بالوزير ابن الخطيب »[٢١٧] ، وتوجد نسخة من هذه المسودة القصيرة بمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية[٢١٨] .

غير أنه منذ بداية العمل فى الكتاب عنّت للمقرى فكرة ضرورة استكمال هذه الدراسة
724 بمعالجة الكلام على تاريخ الأندلس وأدبها عامة مؤرخًا للعهد المبكر / والعهد المتأخر[٢١٩] ؛ وهكذا نشأ بالتدريج خلال تحضيره للمسودة الثانية من الكتاب قسم جديد مستقل ذو طابع عام احتل المكانة الأولى من مصنفه وشغل بالتقريب ثلثى الكتاب كله . وفى هذه الصورة النهائية أتم المؤلف مصنفه فى اليوم الأخير من عام ١٠٣٩ هـ = التاسع من أغسطس ١٦٣٠[٢٢٠] وأعطاه عنوانًا يجمع بين الموضوعين هو « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان

---

(٢١٢) المقرى ، الجزء الأول ، ص ٤٣
(٢١٣) شرحه ، ص ٤٧
(٢١٤) شرحه ، ص ٤٨
(٢١٥) شرحه ، ص ٥٤
(٢١٦) شرحه ، ص ٦٥
(٢١٧) شرحه ، ص ٧٨
(٢١٨) مخطوطة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية رقم د ١٥٩ –
Rosen, Collect. scient., p. 29 - 30 I, No 57
(٢١٩) المقرى ، الجزء الأول ، ص ٧١
(٢٢٠) شرحه ، ص ٧٠

الدين بن الخطيب »[٢٢١] . والقسم الأول منه مفرد للكلام عن الأندلس عامة ، ويوجد فى طبعة أوروبية قديمة قام بتحضيرها دوزى Dozy وديغا Dugat وكريل Krehl ورايت Wright (١٨٥٥ - ١٨٦١) وجمعت إلى هذا ملاحظات قيمة لفليشر Fleischer فى نقد المتن[٢٢٢]؛ أما الكتاب فظهر فى طبعة كاملة غير علمية بمصر (بولاق ١٢٧٩ هـ = ١٨٦٢ - ١٨٦٣ ؛ القاهرة ١٣٠٢ هـ = ١٨٨٥) .

ويمكن القول بأن المقرى قد خلّد الدور الكبير الذى لعبه أصدقاؤه الدمشقيون فى خروج الكتاب[٢٢٣] ، فهو فى مقدمته العريضة يومىء أكثر من مرة وبالتفصيل إلى إلحاحهم الشديد وإلى محادثاتهم وتذكيراتهم الكتابية فى هذا الصدد إن نثراً وإن شعراً . وهو يوضّح أن مصنفه هذا المكرس لاسبانيا العربية يرتبط بالسوريين فى أربع نقاط ، أولاها أن الدافع الأول لظهوره يرجع إليهم ؛ ثم إن أهل الشام هم الذين افتتحوا اسبانيا ؛ أضف إلى هذا أن الشطر الأكبر من سكانها العرب كان ينتمى إليهم ؛ وبخلاف ذلك فإن غرناطة التى أصبحت بالتالى آخر ملاذ للعرب باسبانيا كان أول من استوطنها عند إنشائها جماعة تتكون فى معظمها من أهل دمشق[٢٢٤] . ولعل عواطف المقرى نحو أصدقائه السوريين هى التى توضح السبب فى أنه وضع مصنفًا تاريخيًا بعنوان « عرف النشق فى أخبار دمشق » تقتصر معرفتنا به حتى الآن على عنوانه فقط الذى ورد فى قائمة ببليوغرافية[٢٢٥] .

وإن الأمد الوجيز الذى أكمل فيه المقرى تأليف كتاب يضم ما يقرب من ثلاث آلاف صفحة مطبوعة ليقف بالطبع دليلا على أن موضوع الكتاب كان يشغل جانبًا من تفكيره على الدوام وأن مادته تم اختيارها منذ وقت طويل . وفى الواقع فهو يذكر فى مقدمة كتابه أنه جمعها وهو لا يزال بأرض الوطن[٢٢٦] ولكنه تركها وراءه بالمغرب باستثناء قسم ضئيل منها[٢٢٧] ؛ وفضلا عن هذا

---

(٢٢١) شرحه ، ص ٧٨

(٢٢٢) - Fleischer, Kleinere Schriften, II, p. 163 - 469

(٢٢٣) المقرى ، الجزء الأول ، ص ٧٥ ، ٧٧٩

(٢٢٤) شرحه ، ص ٧٨

(٢٢٥) المحبى – المقرى ، الجزء الأول ، p. XCVIII ؛ عن نيته فى تأليف الكتاب راجع : المقرى ، الجزء الأول ، ص ٧٩١

(٢٢٦) المقرى ، الجزء الأول ، ص ٧١

(٢٢٧) شرحه ، ص ٧٢

فهو يشير أكثر من مرة من خلال العرض إلى أسماء مصنفات معروفة كانت تحت تصرفه بالمغرب
726 ولكنه لم يعثر عليها اطلاقاً / بالمشرق[٢٢٨] . فمثلاً نراه يذكر بصدد الذخيرة لابن بسام ما نصه : « فإن الذخيرة غريبة فى البلاد المشرقية وقد كان عندى بالمغرب من هذا النوع ما أستعين به فخلفته هنالك والله يلم الشمل »[٢٢٩] . وعند اختتامه لأحد أبواب كتابه يضيف : « الوافدون من المشرق على الأندلس كثيرون جدًا إلا أن عدم المادة التى أستعين بها فى هذه البلاد تبين عذرى ولو اجتمعت على كتبى المخلفة بالمغرب لأتيت فى ذلك وغيره بما يشفى ويكفى ... »[٢٣٠] . وأمثال هذه الكتب كثير ، ولعل هذا كان هو العامل الأساسى الذى جعله يتردد فى البداية حول إمكان تحقيق هذا العمل الذى دفعه إليه أصدقاؤه. وكان الأمد الوجيز الذى استغرقه تأليف الكتاب هو السبب أيضًا للأسف فى أن هذا المصنف الذى وضع أساسًا اعتمادًا على الذاكرة وغلب عليه طابع العجلة يعكس بوضوح آثار هذا سواء فى الترتيب العام للكتاب أو فى تفاصيله . فهو يحفل بعدد غير قليل من الأخطاء كما يحفل بحالات عديدة للتكرار والسقط التى اعترف المؤلف نفسه أحيانًا بوجودها ، غير أن جميع هذه المناقص يرجح بها من الجهة الأخرى غنى الكتاب بمادته التى لا يعادله فيها أى مصدر من المصادر الموجودة بين أيدينا للتعريف باسبانيا العربية .

وينقسم الكتاب فى مجموعه إلى قسمين ويسود الانتظام توزيع مادته فى الداخل وفقًا للتبويب الذى وضعه المؤلف ، ولكن يلاحظ أن المادة لا تسير وفقًا لذلك فى العناوين المتأخرة . وكل من القسمين الأول والثانى يحتوى على ثمانية أبواب[٢٣١] ، وتسبقهما مقدمة طويلة[٢٣٢] يعرض فيها المقرى لتفاصيل من سيرة حياته ولجميع تاريخ تصنيف الكتاب . أما بالنسبة للأنماط الجغرافية فهو ينضم إلى النماذج المعروفة لنا جيدًا لنمط الرحلة « العلمية » ، ولكن إذا جاز هذا التعبير فهو إنما يمثل أنموذجًا لتدهور ذلك النمط . وتكاد معطياته الواقعية تقتصر على إيراد التواريخ التى يبدأ فيها تنقلاته من موضع إلى آخر أو يحدد وصوله إليه ، وهى فى العادة تتميز بالدقة رغمًا من جنوحها إلى الاقتضاب ، بل إن أسماء العلماء المحليين ممن يرد ذكرهم عادة فى الرحلات من هذا الطراز لا وجود

---

(٢٢٨) شرحه ، ص ١٠٢ ، ص ١١٦
(٢٢٩) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ٨١
(٢٣٠) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ١٠٣
(٢٣١) شرحه ، الجزء الأول ، ص ٧٥ — ٧٨
(٢٣٢) شرحه ، ص ٢ — ٧٩

لها لدى المقرى باستثناء أصدقائه الدمشقيين الذين يتحدث عنهم بالتفصيل ويسوق نقولا من رسائلهم النثرية والشعرية . وبخلاف هذا فإن المقدمة كلها تمثل على وجه التقريب مجموعة من الأشعار فى تصوير حالته النفسية أثناء الرحلة ، مثال ذلك وصفه لحالة الهلع الذى استولى عليه من ركوب البحر وهو موضوع نلتقى به لدى جميع الرحالين بالتقريب. والمقرى يربط بين هذه المنتخبات الشعرية بجمل قصيرة مسجوعة ، أما اختياره للقطع الشعرية فكثيرًا ما يغلب عليه طابع الصدفة كما أن العرض العام للكتاب يسوده الإطالة والإسهاب الشديدان ؛ ولا يخلو من
طرافة / فى هذا الصدد أن المؤلف يستشعر فى نفسه هذا العيب ولكنه يعجز عن توجيه تيار المادة 727
الأدبية الجارف ويقتصر على ملاحظات يُحس منها عجزه وسذاجته ، مثال ذلك قوله : « وكأنى بعاتب يقول ما هذا التطويل »[٢٣٣] ؛ أو « وربما يقول من يقف على سرد هذه الأمداح النبوية إلى متى وهذا الميدان تكل فيه فرسان البديهة والروية »[٢٣٤] ؛ أو « وقد امتد بنا الكلام وربما يجعله اللاحى ذريعة لزيادة الملام فلنرجع إلى ما كنا بصدده »[٢٣٥] .

غير أن جميع هذه المآخذ التى اعترف هو نفسه بوجودها لم تمنعه من إعادة الكرة ، فلدى أقرب فرصة تتكرر لديه نفس اللوحة دونما أى تغيير حتى فى الأقسام الداخلية من الكتاب . والباب الأول من القسم الأول (الجزء الأول ، الصفحات من ٨٠ إلى ١٤٠) مكرس فى أساسه لجغرافيا الأندلس وآثارها ومدنها ، الكبرى أولا ثم تتلوها تلك التى تعتبر من الدرجة الثانية . وهذا الباب ينتمى وفقًا لمصادره وصياغته إلى طراز الفضائل المعروف لنا ولكنه عرضة لنفس تلك المآخذ التى ذكرناها بصدد المقدمة ؛ وهو يمثل فى جوهره خليطًا من النقول تربط بينها ألفاظ المؤلف ولكن يلاحظ ها هنا أن المادة حافلة للغاية ومتنوعة وتدعو إلى الثقة ، وهذا يفسر أهميتها الكبرى من أجل دراسة المسائل التى تعالج الكلام عنها . ويبحث الباب الثانى (الجزء الأول ، الصفحات ١٤٠–٢١٠) فى فتح العرب للأندلس وحكم الأمراء ، أما الثالث (الجزء الأول ، الصفحات ٢١١–٢٩٦) فيعالج الكلام على ازدهار الأندلس فى عهد الخلفاء وملوك الطوائف ثم إخضاع المرابطين والموحدين لها وعن الملاذ الأخير للعرب بغرناطة فى عهد بنى نصر . ويقدم الباب الرابع (الجزء الأول ، الصفحات ٢٩٧–٤٦٢) وصفًا مفصلا لقرطبة خاصة فى

---

(٢٣٣) شرحه ، ص ٢٢
(٢٣٤) شرحه ، ص ٣٨
(٢٣٥) شرحه ، ص ٦٥

عهدى ازدهارها (تحت حكم الأمويين إلى عام ١٠١٣ ، وقبل استيلاء القشتاليين عليها فى عام ١٢٣٦) ؛ ويظفر بنصيب الأسد فى هذا الوصف كلامه عن جامعها المشهور وقصر الزهراء وغير ذلك من الآثار ؛ وهو يذكرنا بالنمط الجغرافى المعروف لنا أعنى نمط « الفضائل » . والباب الخامس الذى يحتل المكانة الثانية فى جميع الكتاب من حيث الحجم (الجزء الأول ، الصفحات ٤٦٣ - ٩٤٣) يقدم لنا أكبر كمية من المادة التاريخية الأدبية فقد أفرده المؤلف لذكر من رحل من الأندلسيين إلى المشرق ، وهو يورد فيه سير ثلاثمائة وأربعة لمثل هؤلاء الرحالة ولا يخلو كلامه أحيانًا من معطيات مفصلة للغاية ونقول كبيرة الحجم ؛ وفى هذا الصدد تقابلنا لديه استطرادات خاصة فى مدح دمشق . وهذه السير تختلف اختلافًا كبيرًا فى أحجامها فتتراوح بين بضعة أسطر وعشرات الصفحات ، وأكبرها هى التى كرسها للكلام عن ابن العربى المتصوف (الجزء الأول ، الصفحات ٥٦٧ - ٥٨٣ ، رقم ١١٣) ؛ وأبى حيان النحوى (الجزء الأول ، الصفحات ٨٢٩ - ٨٦٢ ، رقم ٢١٤) ، وعلى الأخص للرحالتين ابن سعيد (الجزء الأول الصفحات ٦٣٤ - ٧٠٧ ، رقم ١٦٦) وابن جبير (الجزء الأول ، الصفحات ٧١٤ - ٧٩٧ رقم ١٧٨) . وتفيض القطعة التى أفردها لابن سعيد بمقتطفات من ديوانه ومن كتابه « المغرب » حيث يرد وصفه الطريف للقاهرة . ومن بين الصفحات الثمانين التى أفردها للكلام عن ابن جبير
728 لا يشغل الكلام عن شخصه أو مصنفه / فى واقع الأمر أكثر من عشر صفحات ، أما بقية الصفحات فتقدم صورة حية عن منهج المقرى فى التأليف حيث تظفر دمشق كما هى العادة بمركز الصدارة . فهو بعد أن يسوق قطعًا من وصف ابن جبير لها ينتقل إلى الكلام عما قاله الآخرون فى مدح دمشق خاصة الشعراء (الجزء الأول ، الصفحات ٧١٩ - ٧٣٤) ، ثم عن المكاتبات والرسائل المنظومة والمنثورة التى تبادلها مع أصدقائه من أهل دمشق والتى تشغل القسم الأكبر من هذا الموضع (الجزء الأول ، الصفحات ٧٣٤ - ٧٨١) ، كما أن هذا يقدم له فرصة طيبة لإيراد قطع كبيرة من رسائله مع علماء المغرب (الجزء الأول ، ص ٧٨١ - ٧٩١) ؛ وأمام هذا المنهج الذى اتبعه المؤلف ينكشف لنا السر فى أن كتاب المقرى قد تضخم فى بعض مواضعه بصورة خرج بها من حد المألوف . ويماثل هذا الباب فى أسلوبه الباب السادس الذى كرسه للكلام عن الوافدين على الأندلس من المشرق (الجزء الثانى ، الصفحات ٢ - ١٠٣) والذى يقدم فيه ترجمات لسير اثنين وسبعين من القادة والإداريين والعلماء والرحالين . أما الباب السابع فيعرض فيه لموضوعات شتى وهو أكبر أبواب الكتاب (الجزء الثانى، الصفحات ١٠٤ - ٦٧٠)، وفيه يقدم المؤلف تحليلا لأخلاق أهل الأندلس وفضلهم فى مجال العلم والأدب ، ويمكن تكوين فكرة عن ضخامة المادة التى يسوقها فى هذا الصدد أنه ضمن فيه ثلاث رسائل بأجمعها فى فضل الأندلس

للشقندى وابن حزم وابن سعيد ؛ وتحتوى هذه القطعة على معلومات وافية عن الأدباء والشعراء يوجد من بينها ترجمات لما بين خمس وعشرين وثلاثين من شاعرات الأندلس. أما الباب الثامن والأخير من القسم الأول (الجزء الثانى، الصفحات ٦٧١ - ٨٣٥) فتغلب عليه المادة التاريخية وهو مفرد فى أساسه للكلام على الكفاح بين الإسبان والعرب ويسوق فيه العرض إلى سقوط غرناطة.

وأما القسم الثانى من هذا المصنف والذى كان يحمل فى البداية شكلا مستقلا فإنه يمثل فى ذاته دراسة واسعة عن الوزير والأديب الغرناطى المشهور للقرن الرابع عشر لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ هـ - ٧٧٦ هـ = ١٣١٣ - ١٣٧٤) ، ويبحث الباب الأول منه فى أصله وأسلافه ؛ أما الثانى فيسرد تاريخ حياته الخاصة هذا بينما يتحدث فى الباب التالى لهذا عن سير حياة شيوخه مع إيراد قطع مناسبة من مصنفاتهم . أما الباب الرابع فيورد فيه نماذج من أقواله فى مناسبات شتى ونقول من رسائله ، على حين ترد فى الباب الخامس منتخبات من نثره وشعره يغلب عليها السجع . ويوجد بالباب السادس ثبت تام لمؤلفاته فى جميع ميادين العلم والأدب ، الكاملة منها والتى لم يكملها هذا مع تحليل لمحتوياتها و إيراد نماذج منها . وقد أفرد الباب السابع للكلام على بعض من تلامذته ومن ساروا على نهج أسلوبه الأدبى ؛ وأخيرًا يبحث الباب الثامن فى أولاده وأحفاده وما حفظ عنه من صنوف المواعظ والأقوال المأثورة . وهذه المناسبة الأخيرة تقدم الفرصة للمؤلف لاختتام كتابه بسوق عدد من الأشعار التى قيلت فى مدح النبى .

إن هذا التحليل الذى أجريناه لمحتويات الكتاب ليوضح بجلاء مقدار علاقة المقرى بالأدب الجغرافى . وكما أبصرنا فإن المقدمة والبابين الأول والرابع من القسم الأول يمكن ضمهما دون أى اعتراض إلى أنماط جغرافية محددة ؛ وبنفس القدر يمكن القول بأن البابين الخامس والسادس يمثلان مقتطفات منقولة عن عدد كبير / من الرحلات . ومما لا شك فيه أن هذه الاعتبارات 729
الشكلية لا تكفى فى حد ذاتها لإدخال « نفح الطيب » فى عرض عام للأدب الجغرافى بل يجب أن نأخذ فى حسابنا إلى جانب هذا الأهمية الكبرى للمادة التى يحويها بين دفتيه بالنسبة للجغرافيا فى أوسع مفاهيمها . وكل النقص المحيط بهذا الكتاب إنما مرده فى واقع الأمر كما يقول ديغا **Dugat** فى تحليله العام له إلى أنه يمثل «مفازة دون دليل»[٢٣٦] خلال أكثر من ألفين من الصفحات ، غير أنه يجب ألا ننكر من ناحية أخرى أنه يعرض أمام أنظارنا جميع اسبانيا المسلمة

---

(٢٣٦) - Dugat, Analectes, I, p. XCI.

من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر وذلك فى ميادين التاريخ والأدب والعلم والفن والاجتماع . فهو بهذا إنما يمثل لوحة هائلة لا تخلو من نصيب معين من الحيوية والوضوح نلتقى فيها بالآدميين وبالمدن والآثار والأحداث والرحلات والمعارك ومناظر من مختلف الأنواع مما لا يوجد مثيل له فى جميع الأدب العربى.

ولا مشاحّة فى أن المقرى يفتقر افتقارًا تامًا للأصالة ، غير أنه ما لم يتم الكشف عن جميع المصادر التى استقى منها مادته ، وهو أمر بعيد الحدوث ، فسيظل محتفظًا على الدوام بأهميته وقيمته . والمقرى باعتباره أحد ممثلى الأسلوب « المتكلف » يكشف عن فقر كبير سواء فى ذوقه الأدبى أو فى مهارته ككاتب ، وذلك عند مقارنته بشخص كالعتبى مثلا بل وحتى بابن عربشاه ؛ ورغمًا من هذا فإن حماسه الفطرى للأدب الفنى وحبه الشديد للأندلس ليس من شأنه أن يترك القارىء دون أن يمس شغاف قلبه ويحرك من عواطفه ؛ ولهذا السبب فإن مصنفه يمثل قبسًا من الضوء فى فترة معتمة من تطور الأدب الجغرافى فى القرن السابع عشر .

الفصل الرابع والعشرون
القرن الثامن عشر

730 يقدم لنا القرن الثامن عشر لوحة للأدب الجغرافى معروفة لنا جيداً من العهود السابقة ، فقد انتعش فيه بصورة كثيفة نمطان فقط أحدهما هو الجغرافيا الإقليمية من طراز « الفضائل » والآخر نمط الرحلة . وكلا النمطين ارتبط ارتباطًا وثيقًا « بالأماكن المقدسة » الإسلامية والمسيحية على السواء ، إما على هيئة وصف لها أو رحلة إليها . وكما كان عليه الحال من قبل فإن الرحلة كثيرًا ما استندت على أساس ترجمة شخصية لحياة الرحالة نفسه قد تتحول أحيانًا إما إلى معجم للسير يترجم فيه لشيوخه وللعلماء الذين التقى بهم وإما إلى مختارات أدبية (anthology) تعطى فكرة جيدة عن الذوق الأدبى لعصره ولكن يحتل الجانب الجغرافى فيها مكانة ثانوية .

هذا وقد ظلت منتعشة فى ذلك العهد أيضًا سلسلة الرحلات التى خرجت من الوسط العربى المسيحى ؛ وكان القرن الثامن عشر بالنسبة لذلك الوسط عهد نهضة أدبية فقد بلغت فيه أوصاف الرحلات ، بعكس ما كان عليه الحال من قبل ، درجة رفيعة من الصياغة الفنية . وهذه الرحلات الأخيرة اتجهت فى جوهرها إلى رومة وفلسطين وسينا ، كما أن بعضها وجد طريقه إلى مصر ؛ أضف إلى هذا أنه كان ينعكس فى بعضها الآخر من وقت لوقت صدى الاهتمام بروسيا .

وكما حدث من قبل فقد ظلت كل من سوريا والمغرب المورد الرئيسى للأدب غير أنه يجب أن نشير بصفة خاصة إلى أن زيادة الاهتمام بسوريا دون غيرها من البلاد إنما مرده إلى أن عددًا كبيرًا من المصنفات التى تم تأليفها هناك موجود فى مجموعات المخطوطات بمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية وأيضًا بمدينة برلين ؛ ومما يميز عددًا كبيرًا من الرحالة السوريين هو معرفتهم الوثيقة بالقسطنطينية . أما فى بقية البلاد العربية فإن المصنفات الجغرافية يمكن تتبعها فى حالات منفردة ، والعراق مثلا تقدم لنا أثرًا طريفًا يكشف عن جانب من ظروف الصراع بين الفرس والأتراك فى عهد نادرشاه ؛ وأما مكة فقد ظلت محتفظة بأهميتها كمركز للدراسات الدينية ووجد بها عدد كبير من المؤلفين ممن مسوا الموضوعات الجغرافية ولومسًا رفيقًا ؛ وعلاقة هؤلاء
731 المؤلفين الوثيقة بالهند جعلت من مصنفاتهم فى بعض الأحايين مصادر / ذات قيمة بالنسبة لجغرافيا الهند أو إيران . أما المركز الثانى للعلوم الدينية الذى ظل يلعب دورًا كبيرًا فى العالم الإسلامى وهو الجامع الأزهر فإنه لم يهتم للجغرافيا إطلاقًا ؛ والاستثناء الوحيد فى هذا الصدد يمثله معجم ضخم يعكس صدى متأخرًا لطراز المعاجم الجغرافية الذى مر بنا .

وسار المغرب على نهج المذهب القديم، وتشير قرائن الأحوال إلى أنه كان فى الطليعة بين البلدان العربية فى إنتاجه الجغرافى . حقًا إن الأنماط هناك لم تكن كثيرة بطبيعة الحال ، بل يمكن القول بأنها كانت قاصرة على نمط الرحلة وحده ، ولكن فى مقابل هذا تنوعت أصنافه . وطبيعى أن تكون الكثرة الغالبة من بينها لرحلات الحج المختلفة ، ولكن وجدت إلى جانبها الرحلات فى داخل البلاد نفسها وكان الغرض من هذه الأخيرة فى الغالب كرحلات للتفتيش . وتتصف بالتنوع الطريف كما حدث من قبل السفارات الدبلوماسية التى اتجهت إلى اسبانيا والتى تقدم لنا مادة وافرة تساعدنا على فهم المؤلف نفسه والبلاد التى زارها ؛ أما المغرب فإنه يكاد يقدم لنا أكبر مؤرخ لهذا العصر ، وقد عرف عن هذا المؤرخ الاهتمام بالموضوعات الجغرافية وهو يسوقنا مع بعض المؤلفين الآخرين إلى القرن التاسع عشر بالتقريب . ومما يزيد فى صعوبة دراسة هذا العصر أن عددًا قليلا من بين آثاره قد رأى النور أضف إلى هذا أن المطبوع منها لم يكن دائمًا فى متناول اليد ، كالطبعات الحجرية التى عملت بفاس مثلا .

أما مُدّاح « المدن المقدسة » بفلسطين فقد كانوا فى هذا العصر أيضًا من بين السكان المحليين قبل كل شيء ، وكمثال لهذا نذكر اسم محمد بن محمد بن شرف الدين الخليلى المقدسى الذى تشير نسبته إلى مدينة حبرون الخليل وأغلب الظن أنه ولد بها ؛ وهو أمضى أيام الدراسة بمصر ولكنه عاش بالقدس وتوفى بها عام ١١٤٨ هـ = ١٧٣٥[١] ؛ وشغل منصب القضاء فى وطنه وارتبط بمسجد عمر وهذا يفسر بدوره اهتمامه بآثار فلسطين القديمة . أما رسالته الصغيرة الحجم والتى أتم تأليفها بعد عام ١١٢٢ هـ = ١٧١٠ فتحمل عنوانًا لا يخلو من الخلط هو « تاريخ بناء البيت المقدس » ، ذلك أن الكتاب يمثل فى الواقع أنموذجًا لما اصطلحنا على تسميته بأدب فلسطين الدعائى المعروف لنا جيدًا والذى يعالج الكلام على القدس[٢] . ويقول المؤلف فى مقدمة كتابه إن « المنصور المؤيد بالبرهان والسير فىساير الزمان » هو من يزور بيت المقدس وما حولها ؛ ويبين الباب الأول فضل الإقامة ببيت المقدس والعمارة فيه وما ينطوى على ذلك من الخير ، هذا على حين يبحث الباب الثانى فى العيون والآبار ومنابع المياه ، والثالث فقط يبحث فى تاريخ المدينة ولكنه يحفل بكمية من الأشعار فى مدح القدس وفلسطين ؛ أما الخاتمة فمكرسة بالطبع للكلام عن الأنبياء والصالحين ممن ارتبط اسمهم بالقدس وفلسطين . من هذا يتبين لنا أن المصنف يفتقر

---

(١) Brockelmann, GAL, II, p. 362 - 368, No 14; SB II, p. 409 -

(٢) Ahlwardt, V, p. 411 - 412, No 6101 = Cheikho, Catalogue raisonné, p. 103 - 104, No 171 -

افتقارًا تامًا إلى الأصالة ، بل إنه يعتمد اعتمادًا أساسيًا على مصنف مجير الدين المعروف لنا جيدًا من القرن السادس عشر هذا إلى جانب زيادات ليست بذات بال تتناول الكلام عن المبانى التى زيدت مؤخرًا وتتحدث عن بعض المتصوفين المدفونين بالقدس والمواضع المحيطة بها . وللمؤلف ميل واضح نحو الشعر ، / فإلى جانب أربع قصائد له ولغيره يحتويها هذا المصنف نجد أحيانًا فى 732
المخطوطات قصائد أخرى له فى مدح مسجد القدس[٣] .

وهناك مؤلفون من أقطار أخرى تشربوا حب فلسطين وتخصصوا فى دراسة تلك البلاد ؛ ومن بين هؤلاء مصطفى أسعد بن أحمد بن محمد الدمياطى اللقيمى الذى وإن حمل بالتالى لقب المقدسى إلا أنه ولد بدمياط عام ١١٠٥ هـ = ١٦٩٣ . وقد أدى فريضة الحج منذ شبابه الأول فى صحبة والده ثم تلقى تعليمه بمكة والمدينة والقاهرة ودمشق والمقدس ولكنه عاش معظم حياته بالقاهرة ، ثم بدمشق[٤] وهناك توفى فى عام ١١٧٣ هـ = ١٧٥٩[٥] أو عام ١١٧٨ هـ = ١٧٦٥[٦] . وينعكس اهتمامه بالقدس فى النمطين اللذين راجا فى ذلك العصر ، أعنى « الفضائل » و « الرحلة » ، فأول مصنفاته وهو « لطايف أنس الخليل فى تحايف القدس والخليل » مصنف كبير يقع فى ثمانية أبواب مع مقدمة وخاتمة[٧] . وهو يعالج فى البداية الكلام على حدود فلسطين ومدنها الكبرى ثم ينتقل إلى الكلام فى البابين الأولين على « أسماء البيت المقدس وشرفه » ويذكر أسماء ولاته ومن عاش فيه من الشخصيات البارزة . وبعد وصف المسجد الأقصى يرد الكلام على المدينة نفسها وآثارها الأخرى ، ثم على الخليل والمواضع الواقعة حول القدس . ووفقًا للتقليد المعروف لنا جيدًا فإن الأنبياء والصحابة وغيرهم من الشخصيات التاريخية المشهورة التى دفنت هناك يشغلون جانبًا بارزًا من اهتمامه ؛ وتلعب الأساطير فى هذا الصدد دورًا مرموقًا فالفصل الثامن مثلا مكرس بأجمعه للكلام على الخضر عليه السلام . وتبحث الخاتمة فى « ذكر الشام وفضلها وبهجتها وشرف محلها » ، وهو يتبع فى هذا نفس الطريقة القديمة فى وصف الأماكن

---

(٣) Ahlwardt, VII, p. 151, No 8019, 1 -

(٤) المرادى ، سلك ، الجزء الرابع ، ص ١٥٤

(٥) هكذا لدى الجبرتى (الجزء الأول ، ص ٢٤٢) ؛ أما لدى الفارت (Ahlwardt, V, p. 443) فيوجد : ١١٧٨ هـ = ١٧٦٥ ؛ ووفقًا لألفارت (Ahlwardt, V, p. 412) ١١٧٨ هـ = ١٧٣٥ ، ومع بعض الأخطاء : Brockelmann, GAL, II, p. 363, No 15; SB II, p. 490

(٦) المرادى ، سلك ، الجزء الرابع ، ص ١٦٦

(٧) Ahlwardt, V, p. 412 - 413, No 6102 -

المقدسة بفلسطين . ويحس خلال العرض بأجمعه اهتمام المؤلف الكبير بالجانب الأدبي ، فهو كان
شاعرًا ومن أصحاب « المقامات » ؛ وقد حاز هذا الفن الأخير تقديرًا عاليًا بين معاصريه[٨] .

هذا وترك لنا الدمياطي وصفاً لرحلته من دمياط إلى القدس في مصنف خاص يحمل عنوان
« موانح الأنس برحلتي لوادي القدس »[٩] ؛ واستغرقت الرحلة نفسها ستة أشهر من عام
١١٤٣ هـ = ١٧٣١ ولكن وصفه لها لم يدونه إلا بعد عشرين عامًا من ذلك التاريخ في عام
١١٦٤ هـ = ١٧٥١ معتمدًا في أغلب الظن على مذكرات سابقة . ويجهد المؤلف في وصف
733 مارآه / من غريب في طريقه ومن التقى بهم من العلماء وأهل التصوف ويسوق خلال ذلك مقدارًا
كبيرًا من الأشعار له ولغيره . ولتكوين فكرة عن عقليته ومشربه نذكر أنه إلى جانب وصف الرحلة
يوجد ما يشبه أن يكون ذيلا لها ، هو عبارة عن قصة ليست بالطويلة تدور حول زيارته لقبر نبي
أسطوري يدعى أبلوقيا انتشرت القصص حوله حتى تردد صداها في « ألف ليلة وليلة » ؛ وهذه
القصة أيضًا تحفل بدورها بالأشعار التي قيلت في بطل الرحلة . ولسنا في حاجة بالطبع إلى أن
نستدرك مرة أخرى بقولنا إن المصنفات من هذا الضرب ليست بذات أهمية بالنسبة للجغرافيا
بقدر ما هي مهمة بالنسبة لتصوير الوسط والعصر اللذين ظهرت فيهما .

أما فيما يتعلق بتصوير ذلك الوسط حقًا فإن مصنفات بعض المؤلفين السوريين التي ظهرت
في تلك الآونة تتمتع بأهمية قصوى ، إذ نجد بينهم عددًا من الشخصيات ذات الصلة الوثيقة
بالأدب بوجه عام كما نلتقي أيضاً برحّالة زار تلك الأقطار ويمكن اعتباره أكبر رحالة لذلك العصر
حركة ونشاطًا وإنتاجًا . وأحد هؤلاء المؤلفين هو عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد بن عبد الرزاق
الخطيب[١٠] ، وليس لدينا في الواقع ما نذكره عنه سوى اسمه هذا ؛ واللقب الأخير يشير إلى علاقته
بأحد المساجد الكبرى . وقد وضع هذا الرجل في عام ١١٤٠ هـ = ١٧٢٧ رسالة بعنوان
« حدائق الأنام في فضائل دمشق والشام » ، وهي معروفة إلى يومنا هذا في مخطوطة يتيمة[١١] .
ويمكن أن يستدل من اسم المصنف نفسه على ارتباطه الوثيق بتقليد معروف في الكلام عن فضائل
دمشق ، والكتاب في الواقع أنموذج جيد لنمط « الفضائل » الذي ظل باقيًا لقرون طويلة دون أن

---

(٨) الجبرتي الجزء الأول ، ص ٢٢١ – ٢٤٢ – Heyworth - Dunne, BSOS, IX, p. 686

(٩) - Ahlwardt, V, p. 443, No 6151

(١٠) - Brockelmann, GAL, SB II, p. 409, No 13

(١١) - Houtsma, Catalogue, No 268 = Garrett, Catalogue, p. 249, No 757

تمتد إليه يد التغيير . وينقسم الكتاب إلى ثمانية أبواب تسير على النهج المعهود لنا من قبل ؛ فالباب الأول يبحث فى حدود الشام وأسماء الشام ودمشق ، بينما يشير الثانى إلى الآيات القرآنية الواردة فى ذلك ويسوق الثالث الأحاديث المتعلقة بها ويحلل الباب الرابع ذكرها فى التواريخ القديمة . أما القسم الثانى من الكتاب والذى يعتبره المؤلف أهم القسمين فهو يسير أيضًا وفقًا للتقاليد القديمة ، فالباب الخامس يتحدث عن مسجد دمشق الجامع وما به من الآثار والسادس عمن توفى بسوريا من الأنبياء والصحابة والسابع عن الأولياء والصالحين الذين دفنوا بها هذا بينما يحتوى الباب الثامن والأخير على طائفة من الأشعار قيلت فى مدح دمشق . ومن هذا السرد المفصل يتبين لنا بدقة أن هذا النمط لم يأت بجديد حتى فى القرن الثامن عشر[١٢] .

وعلى النقيض من معرفتنا بالخطيب تقف معرفتنا بمؤلف آخر يدعى محمد بن عيسى بن محمد ابن كنّان الدمشقى المتوفى عام ١١٥٣ هـ = ١٧٤٠ والذى نال الشهرة لا كخطيب فحسب بل وكمؤرخ للأدب[١٣] . وكان مؤلفًا غزير المادة عالج الكتابة فى مختلف مسائل الحديث والأخلاق وفى تاريخ مدارس دمشق . وقد اجتذبه بصورة خاصة تاريخ موطنه دمشق ، سواء فى الماضى أوفى العهد المعاصر له وترك لنا مذكرات يومية طريفة سجل فيها أحداث / الفترة بين عامى 734
١١١١ هـ = ١٦٩٩ و ١١٥٣ هـ = ١٧٤٠ يمكن أن تصلح كمصدر قيم بالنسبة للتاريخ المحلى[١٤] . وإلى جانب هذا فإن مصنفه الجغرافى أيضًا يرتفع بعض الشيء فوق المستوى العام لذلك العصر ؛ وهو يحمل العنوان المعهود « المواكب الإسلامية فى الممالك والمحاسن الشامية »[١٥] . وعند تحليله يتبين لنا أنه مصنف يجمع بين الجغرافيا والأدب الفنى ، فالمؤلف يفيد من ملاحظاته الخاصة ويجمع إلى هذا المادة التى استقاها من عدد كبير من المصادر . وفيه يرد وصف للمدن الكبرى مثل دمشق وحلب وحماة وطرابلس وصفد ، ويتحدث أيضًا عن منازل الطريق إلى مكة ومراحل الطريق إلى مصر . وإلى جانب هذا توجد بالكتاب أشعار كثيرة قيلت فى الأزهار والنباتات والأشجار التى يستشعر ابن كنان ميلا شديدًا نحوها يذكرنا بأحد السابقين

---

(١٢) - Garrett, Catalogue, p. 249, No 757

(١٣) - Brockelmann, GAL, II, p. 299 - 300, No 6; SB II, p. 410 - 411

(١٤) - Babinger, GOW, p. 283 - 284, No 257 - Ahlwardt, IX, p. 86 - 87, No 9479 - 9480

(١٥) - Ahlwardt, V, p. 400 - 401, No 6088

له فى هذا المضمار ؛ كما لديه أيضًا أشعار فى الاحتفالات والمواكب ، الأمر الذى يشير إليه عنوان الكتاب نفسه ؛ وهو يختتم كتابه بالطريقة المعهودة فيتكلم عن فضائل الشام مع إيراد بعض الأشعار فى ذلك .

هذا وقد اشتهر معاصره أحمد بن على المنينى المتوفى عام ١١٧٢ هـ = ١٧٥٩ لا بمصنفه الجغرافى بل بشرحه المشهور على سيرة السلطان محمود الغرنوى المعروفة والتى ألفها العتبى فى بداية القرن الحادى عشر [١٦] . وأصله من منين وهى قرية من قرى منطقة دمشق ، إلا أنه عاش منذ أن بلغ
سن الثالثة عشرة / بدمشق نفسها وهناك اشتغل لفترة طويلة بالتدريس بالجامع الأموى . وقد دفعه 735
الاهتمام بمواضع دمشق إلى تأليف مصنف جغرافى يحمل العنوان التقليدى « الانعام بفضائل الشام » ويحتوى أيضًا على نفس المادة التقليدية ؛ وكان الأصل الذى دونه المؤلف بخط يده موجودًا بمكتبة جامعة القديس جوزيف ببيروت ولكنه فقد فى الحرب العالمية الأولى [١٧] . والكتاب يقع فى ثمانية فصول تبحث الموضوعات المعروفة لنا مثل سبب تسمية « الشام » والآيات أو الأحاديث الواردة فى فضلها والصحابة والتابعين الذين اتصل ذكرهم بها ؛ ويظفر بفصل خاص مسجدها وقبر يوحنا المعمدان ؛ أما الفصول الثلاثة الأخيرة فتعالج الكلام عمن دفنوا بدمشق وضواحيها من المشاهير ، وهى التى تمثل بالذات أهمية كبرى بالنسبة للطبوغرافية التاريخية كما أبان عن ذلك خبير كبير بماضى سوريا هو الأب لويس شيخو اليسوعى [١٨] . وعلى الرغم من أن المؤلفات من هذا الضرب قد اتبعت من حيث موضوعها ومحتوياتها تقليدًا معروفًا لم تحد عنه إلا أنها ظلت بصفة عامة مرغوبًا فيها من الجميع ؛ فمصنف المنينى هذا نقله إلى التركية شخص يدعى شريف محمد [١٩] وهذا بدوره يقف برهانًا جديدًا على الصلة الوثيقة التى ربطت بين الأدبين العربى والتركى والتى انتعشت بصورة خاصة فى ذلك العهد . ويمكن أن نضيف عرضًا أن المنينى وضع أيضًا فى عام ١١٥٨ هـ = ١٧٤٥ مصنفًا خاصًا عن الحرب التى دارت رحاها بين الأتراك ونادرشاه [٢٠] ؛ هذا وتردد صدى النضال بين الطرفين فى أقطار عربية عديدة وسنرى فيما يلى أنه ظهر فى

---

(١٦) - Brockelmann, GAL, II, p. 282, No, 64; SB II, p. 391 - 392

(١٧) - Cheikho, Catalogue raisonné, p. 106 - 107, No 176

(١٨) شرحه ، ص ١٠٧

(١٩) - Babinger, GOW, p. 291, No 265;

توجد مخطوطة (الترجمة التركية) المنينى بالمكتبة الأهلية بلنينجراد (Indices, p. 23, No 352)

(٢٠) - Brockelmann, GAL, SB II, p. 392

هذا الصدد مصنف بالعراق لا يخلو من بعض الأهمية بالنسبة للجغرافيا نفسها .

وكان من بين أساتذة المنينى بدمشق عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى (١٠٥٠ هـ - ١١٤٣ هـ = ١٦٤١ - ١٧٣١) الذى أوشك أن يكون أشهر صوفى ورحالة فى سوريا لذلك العهد والذى خلف وراءه عددًا هائلا من مختلف المصنفات[٢١] . وهو ينتسب إلى أسرة عرف أهلها على السواء بالتقوى وبالنشاط فى محيط الأدب ، ويرتبط اسم أبيه[٢٢] وعمه[٢٣] من وقت لآخر بمصنفات دينية . أما عبد الغنى نفسه فقد أصبح يتيما منذ سن مبكرة واشتغل وهو لا يزال صبيًا بدراسة مؤلفات اثنين من كبار المتصوفة هما ابن العربى / والتلمسانى . ولا شك أنه نتيجة 736
لتأثيرهما عليه حدث له أن أمضى فى العزلة سبعة أعوام ، ولم يقم بأولى رحلاته إلى بغداد إلا فى عام ١٠٧٥ = ١٦٦٤ ولكنه وهو فى سن الكهولة ملكت نفسه رغبة شديدة فى التجوال فأمضى ما يقرب من الأربعة أعوام ، ابتداء من سنة ١١٠٠ هـ = ١٦٨٨ ، مترحلا من موضع إلى آخر وزار فى خلال ذلك لبنان فى عام ١١٠٠ هـ = ١٦٨٨ ، وفى عام ١١٠١ هـ = ١٦٩٠ زار القدس والخليل ، وفى عام ١١٠٥ هـ = ١٦٩٣ قام برحلته الكبرى إلى مصر والحجاز التى امتدت مع بعض التوقف إلى ثلاثة أعوام حتى عام ١١٠٨ هـ = ١٦٩٦ ؛ وفى عام ١١١٢ هـ = ١٧٠٠ زار طرابلس . وأخيرًا ابتداء من عام ١١١٤ هـ = ١٧٠٢ استقر بموطنه وأمضى الثلث الأخير من حياته بدمشق .

وعلى الرغم من أن أربعة من مصنفات النابلسى الجغرافية التى يصف فيها تجواله معروفة لنا إلا أن شهرته فى الأقطار العربية لا تستند عليها ، كما وأن شخصيته كأديب لا تقوم عليها ؛ ذلك أن النابلسى كممثل نموذجى لعصره نال الشهرة قبل كل شىء كصوفى ومن ثم فقد احتلت المكانة الأولى بالنسبة له تجاربه الروحية الوجدانية التى ترتبط بالمسائل الدينية والاجتماعية التى واجهت أبناء جيله . وهو كثيرًا ما دخل فى جدال عنيف حول هذه المسائل ونال شيئًا فشيئًا تقدير الجميع واعترافهم به كحجة فى هذا الميدان ، وليس أدل على ذلك من أنه فى يوم وفاته خرجت دمشق على بكرة أبيها تشيّعه. وللنابلسى مؤلفات كثيرة فى التصوف صاغها نثرًا

---

(٢١) - Brockelmann, GAL, II, p. 345 - 348, No 49; SB II, p. 473 - 476 - Brockelmann, Abd al - Ghani, p. 39 - 40 - Sarkis, p. 1832 - 1834

(٢٢) - Wüstenfeld, Muhibbi, p. 29 - 30, No 13; cf: Brockelmann, GAL, SB II, p. 476, No 49

(٢٣) - Wüstenfeld, Muhibbi, p. 28 - 29, No 11 - 12; cf: Brockelmann, GAL, SB II, p. 476, No 49 b

وشعرًا ؛ وهو يحذو حذو أساتذته من الصوفية فى خروجه على النماذج الكلاسيكية فى الشعر ، وكثيرًا ما لجأ إلى استعمال الموشح . وقد لقيت رواجًا كبيرًا قصيدته « البديعية » فى مدح الرسول ، التى جرب فيها مختلف بحور الشعر وأوزانه ؛ ولا يزال متمتعًا بالشهرة إلى يومنا هذا شرحه لأشعار الشاعر الصوفى المصرى للقرن الثالث عشر عمر بن الفارض ؛ كما لا يخلو من مغزى أن مصنفه فى تفسير الأحلام الذى طبع مرات عديدة ، هو أكثر المصنفات فى هذا الباب انتشارًا فى الأقطار العربية . وأخيرًا نذكر أنه يرتبط باسمه عدد من التنبؤات عن مصير الدولة العثمانية ترجع إلى منتصف القرن الثامن عشر . وأمام هذه الاتجاهات العديدة فى نشاطه الفكرى فليس عسيرًا أن نتصور ما ستكون عليه أوصاف رحلاته بالنسبة للجغرافيا ؛ ومن حسن الحظ فإن النتيجة العامة جاءت أفضل بكثير مما كان يتوقع من كاتب فى مثل اتجاهه . وهو بالطبع أبعد بكثير من أن يقدم لنا وصفًا للأوضاع المعاصرة للبلاد التى زارها ، فقد تركز اهتمامه بوجه خاص فى التاريخ الأسطورى للمدن المقدسة والذى يستقيه من مؤلفين كالهروى والعليمى . والصورة التى ترتسم لشخصه فى مصنفاته بما يحيط بها من الزهو بالنفس وإظهار التدين (sanctimoniousness) ليس من شأنها أن تحبب القارىء فيها ، غير أن أسفاره فى مقابل هذا شغلت مجالا واسعًا بحيث لا يمكن تجريدها كلية من بعض المعطيات الإيجابية بالنسبة للطبوغرافيا التاريخية[٢٤] ، ومن ثم فإنها تحفل بكمية هائلة من المعلومات فى مجالى الحضارة والتاريخ
737 / تستحق معها فحصًا دقيقًا[٢٥] . ويمكن القول بأن هذه هى الفكرة العامة التى تكونت لدى العلماء الأوروبيين الأوائل الذين شغلوا فى منتصف القرن الماضى بدراسة رحلاته مثل كريمر Kremer وفليغل Flügel وغلدميستر Gildemeister ؛ وقد وكد هذه الصورة العامة فى الآونة القريبة منا ريتشارد هارتمان R. Hartmann عقب فحصه لمادة النابلسى فى دراسته للطريق بين دمشق والقاهرة فى الفترة التاريخية الممتدة من العصر الرومانى إلى القرن التاسع عشر .

ويبدو أن النابلسى نفسه قد صنف رحلاته الكبرى بطريقة منظمة فأطلق عليها على التوالى اسم الصغرى فالوسطى فالكبرى. أما الأولى فأفرد لها مصنفة « حلة الذهب الإبريز فى رحلة بعلبك والبقاع العزيز » التى وصف فيها فى ستين صفحة رحلته التى بدأها فى الثلاثين من أغسطس عام ١١٠٠ هـ = ١٦٨٨ وزار فيها المواضع التى يتبرك بها المسلمون بلبنان، خاصة

---

(٢٤) - Bröckelmann, Abd al - Ghani, p. 40

(٢٥) - Gildemeister, Abd al - Ghani, p. 388 sui

مقابر الأنبياء والأولياء المختلفين[٢٦] . أما الرحالة « الوسطى » فبدأها فى الثامن والعشرين من شهر مارس عام ١١٠١ هـ = ١٦٩٠ وكانت وجهتها بيت المقدس ، وأخذ فيها « طريق الماء» via maris المشهور فى العصور الوسيطة ماراً بطبرية ونابلس. ولم تطل إقامته بالقدس إلى أكثر من سبعة عشر يومًا ، وزار الخليل والمواضع القريبة ثم أخذ طريق الرجعة فى التاسع والعشرين من أبريل ماراً بنفس الطريق الذى جاء به حتى بلغ دمشق فى العاشر من مايو؛ وجعل عنوان هذه الرحلة « الحضرة الأنسية فى الرحلة القدسية »[٢٧] . أما تلك التى حازت الرواج أكثر فكانت رحلته « الكبرى » التى وصفها تحت عنوان « الحقيقة والمجاز فى رحلة الشام ومصر والحجاز »[٢٨] والتى بدأها فى الثانى من سبتمبر عام ١١٠٥ هـ = ١٦٩٣ واستغرقت ثلاثمائة وثمانية وثلاثين يومًا . ووفقًا للعنوان فإن وصف الرحلة ينقسم إلى ثلاثة أقسام تعالج الكلام على سوريا ومصر والحجاز . غادر عبد الغنى النابلسى دمشق متجهًا نحو الشمال فزار حمص وحماة واللاذقية وطرابلس ، ثم اجتاز جبال لبنان فزار بيروت ودير القمر وصيدة وصور وعكا والناصرة ونابلس والقدس . وكما حدث فى المرة الأولى فقد زار أيضًا المناطق المحيطة بالقدس ثم أخذ الطريق إلى الرملة ومنها إلى يافا وعسقلان ثم غزة ومنها إلى خان يونس حتى بلغ العريش ؛ ومما يقف دليلا على سعة اطلاعه إشارته بصدد هذه الرحلة إلى رحلة محمد كبريت الحافلة بالأشعار . ودخل النابلسى مصر عن طريق الصالحية وبلبيس حتى بلغ القاهرة وأقام بها اليوم الثانى عشر بعد المائة من بداية رحلته . أما مشاهد مصر المختلفة فإنه يعرضها لنا بالأسلوب المعهود عنه معتمدًا فى ذلك من جهة على ملاحظاته الشخصية ومن جهة أخرى على مؤلفات المقريزى والسيوطى وبصورة خاصة على مصنفات صوفى من القرن السادس عشر هو الشعرانى / . وبعد هذا أخذ طريق الحاج المصرى 738

---

(٢٦) Brockelmann, GAL, II, p. 348; SB II, p. 475 - Brockelmann, Abd al - Ghani, p. 40 - Flügel, ZDMG, 16, p. 651 - 658

(٢٧) Brockelmann, GAL, II, p. 348; SBII, p. 475 - Brockelmann, Abd al - Ghani, p. 40 - Kremer, SBAW, V, p. 316 - Gildemeister, Abd al - Ghani, p. 385 - 400 - Sarkis, p. 1833; Hartmann, Die Strasse, p. 700 - طبعة القاهرة ١٣٢٠ هـ

(٢٨) Brockelmann, GAL II, p. 348; SB, II, p. 474 - Brockelmann, Abd al - Ghani, p. 40 - Kremer, SBAW, V, p. 319 - Flügel, ZDMG, 16, p. 659 - 696 - Hartmann, Die Strasse, p. 699 - 700 والطريق : p. 700 - 702

الطبعات : دمشق ١٢٩٩ هـ ، والقاهرة ١٣٢٤ هـ ؛

فمر على ينبع وبلغ المدينة فى اليوم الثامن والثلاثين بعد المائتين من ابتداء الرحلة ؛ ثم دخل مكة فى اليوم الحادى والثلاثين بعد الثلاثمائة من ذلك ، ورجع إلى دمشق بطريق الحاج السورى .

وفيما عدا هذه الرحلات الثلاث التى يمكن وصفها بأنها رحلاته « الدينيـــة » (canonized) فإن للنابلسى مصنفات جغرافية أخرى غير معروفة كثيرًا ، أحدها تم تأليفه فى عام ١١١٢ هـ = ١٧٠٠ ويصف فيه رحلاته إلى طرابلس وهو بعنوان « التحفة النابلسية فى الرحلة الطرابلسية[٢٩] » ؛ أما ذوقه الشعرى فينعكس فى مدحه لدمشق الذى صاغه على هيئة موشح[٣٠] على نمط « الفضائل » المعروف لنا جيدًا . والعدد الكبير من المصنفات الذى وضع فى هذا الباب يفسر لنا لماذا نفذ الاهتمام بالمسائل الجغرافية إلى النابلسى من خلال دراساته الطويلة للمادة التصوفية ؛ ولا شك أن هذا الضرب من المصنفات كان على الدوام محل الإقبال والطلب حتى حازت أوصاف رحلاته رواجًا كبيرًا بسوريا فى القرن الثامن عشر .

وبالطبع لم تكن الدوافع إلى الترحال بين أبناء جيله هى تلك الدوافع السامية نفسها التى كانت وراء رحلات النابلسى ، فأحدهم وهو مرتضى بك بن مصطفى بن حسن الكردى غادر موطنه دمشق فى عام ١١٢٧ هـ = ١٧١٥ إلى القاهرة ، هربًا من دائنيه ، وهناك توفى بعد عام ١١٣٣ هـ = ١٧٢١[٣١] ، وكان الميل إلى الأدب قويًا عنده فصاغ وصف رحلته سجعًا ؛ وهى تحفل بعدد هائل من الأشعار وباستطرادات مسهبة تطغى أحيانًا على وصف الرحلة نفسه . ومصنفه « تهذيب الأطوار فى عجائب الأمصار »[٣٢] يقدم لنا وصفًا للرملة وغزة والقاهرة ومصر بأجمعها ، وهو يعالج فيه شتى الموضوعات فيتحدث عن الأهرامات والنيل والجامع الأزهر وعلمائه بل وحتى عن الاضطرابات الشعبية بالقاهرة . وقد زار مصر العليا أيضًا فمر على منفلوط ، غير أن عواطفه كانت موجهة دائمًا نحو دمشق التى أفرد لها عددًا من قصائد المدح .

وظل الحج بطبيعة الحال هدفاً لرحلات عدد كبير من أهل دمشق، ففى نحو عام ١١٢٠ هـ = ١٧٠٨ أدى فريضة الحج إلى مكة مرتضى بن على علوان[٣٣] . ونعلم من وصفه

---

(٢٩) - Brockelmann, GAL, II, p. 348 - Brockelmann, Abd al - Ghani, p. 40

(٣٠) - Brockelmann, GAL, II, p. 348 - Hartmann, Muwaşşah, p. 6 = Ahlwardt, VII, p. 224, No 8175, 1 - Mohammed Ben Cheneb Muwashshah, p. 860

(٣١) - Brockelmann, GAl, II, p. 362, No 13; SB II, p. 490

(٣٢) - Ahlwardt, V, p. 438, No 6142

(٣٣) - Brockelmann, GAL, II, p. 362, No 12

لرحلته الذى وصلنا بخط يده[٣٤] أنه أدى فريضة الحج لأول مرة قبل ثلاثين عامًا من ذلك أى فى
سنة ١٠٨٨ هـ = ١٦٧٧ ؛ وفى المرة الثانية صحب قافلة الحاج الشامى فأخذ طريق الحج
المعهود واصفاً لنا بدقة كاملة منازله المختلفة / . واستغرقت منه هذه الرحلة عشرة أشهر وكرس 739
لهذا الموضوع إلى جانب وصف الرحلة قصيدتين أيضًا .

والرحالة الذين خرجوا من سوريا معروفون لنا نسبيًا أكثر من غيرهم . غير أن هذا لا يعنى أن بلادًا عربية أخرى لم تسهم بنصيبها فى هذا إذ أن بعضها ترك أثرًا محسوسًا فى هذا الميدان . وأحد أهل مكة وهو العباس بن على بن نور الدين المكى الموسـوى الحسينى[٣٥] غادر مسقط رأسه بعد عام ١١٣٠ هـ = ١٧١٨ وظل يتجول لمدة اثنى عشر عامًا[٣٦] محتفظًا فى خلال ذلك بمذكرات منتظمة[٣٧] . وفى عام ١١٤٨ هـ = ١٧٣٦ عندما كان بمدينة المخادوّن أخبار رحلته فى كتاب بعنوان « نزهة الجليس وأمنية الأديب الأنيس » ، وهو واحد من المصنفات القليلة لذلك العهد التى وجدت فى طبعة قاهرية[٣٨] . وقد رفع المؤلف كتابه إلى شخص كان يقيم باليمن اسمه أحمد بن يحيى الخازندار ، ويبدو أنه كان من بين أولئك الذين شجعوه على القيام برحلاته[٣٩] . ويفتقر وصف الرحلة افتقارًا تامًا إلى التنظيم والترتيب هذا بالرغم من أن مادته موزعة وفقًا للنواحى الجغرافية والمدن التى زارها المؤلف ؛ وهو يبدأ بمكة فيتحدث عن حدودها وعيونها[٤٠] ، ويليها المدينة التى يفرد لها وصفًا مبالغًا فيه[٤١] ، وتليها نجد[٤٢] ؛ ويلى هذا دون اتباع لنظام معين الكلام على الكوفة وبقية مدن العراق (بغداد وسامرا) ثم مصر فخراسـان فالهند فاليمن . وهو يترجم خلال ذلك كله لعدد كبير من الشخصيات (خاصة بين أهل مكة) ؛ ويغلب على المصنف

---

(٣٤) Ahlwardt, V, p. 435 - 436, No 6137 -

(٣٥) Huart, Littérature, p. 392 - Sarkis, p. 1266 - Brockelmann, GAL, SB II, p. 512, No 17 a = p. 539, No 4 = p. 905, No 1 -

(٣٦) العباس الموسوى ، الجزء الأول ، ص ١٢ ، ١٥ ، ١٦

(٣٧) شرحه ، الجزء الأول ، ص ١٣

(٣٨) شرحه ، الجزء الأول والثانى ، ١٢٩٣ هـ و ١٣٢٣ هـ

(٣٩) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ٤١١ ؛ الجزء الأول ، ص ١٤

(٤٠) شرحه ، الجزء الأول ، ص ١٧ – ٣٣

(٤١) شرحه ، ص ٣٩ – ٤٩

(٤٢) شرحه ، ص ٦٠ – ٦١

كله الطابع المعروف لنا جيدًا للرحلة العلمية التى تشبه من ناحية المختارات الأدبية ومن ناحية أخرى معاجم السير ؛ ومن الملاحظ أن المادة الأدبية والسِّيَر تزحم فيه المعطيات الجغرافية بصورة واضحة ، غير أن هذه الأخيرة لا تخلو بدورها من بعض الطرافة والقيمة إذا ما عرضت لفحص دقيق خاصة من وجهة النظر التاريخية الحضارية .

هـذا وحفظـت لنا العراق عن هذا العهد مصنفًا محليًا ذا قيمة كبرى وإن اقتصرت معرفتنا به حتى هذه اللحظة على جانب فقط منه ؛ وهو من تأليف عالم ينحدر من دوحة عراقية ذات ماض هى أسرة السويدى ، واحدة من تلك الأسر العربية الفاضلة التى حفظت لنا تقاليد العلوم الإسلامية القديمة فى هذه العصور المظلمة بالنسبة للأدب العربى ومهدت الطريق لنهضة ذلك الأدب فى القرن التاسع عشر . ولد عبد الله حسين السويدى ببغداد فى عام ١١٠٤ هـ = ١٦٩٢ ونال حظه من التعليم بها وبالموصل عاصمة العراق الثانية ، ثم أمضى أعوامًا طويلة من حياته يعمل بالتدريس بمسقط رأسه إلى حين وفاته بها فى عام ١١٧٤ هـ = ١٧٦٠ (٤٣) . وقد
740 انعكست ميوله الأدبية / فى عدد من القصائد والمقامات التى شغل بتأليفها بشغف شديد فى أوقات فراغه من الدراسات الدينية . ويبدو أنه أدى فريضة الحج مرتين ، فى عام ١١٤٨ هـ - ١١٥٠ هـ = ١٧٣٥ - ١٧٣٧ وفى عام ١١٥٧ هـ = ١٧٤٤ ؛ ويرتبط بحجته الثانية بوجه عام وصفه لرحلته بعنوان « النفحة المسكية فى الرحلة المكية » الذى ترجع معرفتنا به إلى قطعة قائمة بذاتها فى مصنفه « كتاب الحجج القطعية لاتفاق الفرق الإسلامية » . وهو كتاب لقى رواجاً وذيوعاً واسعين، ويستبين هذا لا من مخطوطاته العديدة(٤٤) فحسب بل ومن أنه ظهر أيضاً فى طبعة قاهرية لعام ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٦ ثم من ظهوره فى ترجمة تركية بعد ثلاثة أعوام من ذلك(٤٥) . والكتاب يقف فى الطليعة بوصفه أثرًا يقدم لنا فكرة دقيقة عن تلك المحاولة التى قام بها نادرشاه (١١٤٨ هـ - ١١٦٠ هـ = ١٧٣٦ - ١٧٤٧) للتوفيق بين السنة والشيعة ؛ وقد

---

(٤٣) Brockelmann, GAL, II, p. 377; SB II, p. 508, No 2 - Sarkis, p.1066-1067-Cheikho, Littérature, I^{2}, p. 87-88; I^{1}, p. 92-93

(٤٤) - Ahlwardt, V, p. 442 - 443, No 6150 -
عن مخطوطة الموصل راجع الجلبى، مخطوطات، ص ٢١٦، رقم ٨٩، I؛ وعن مخطوطة بغداد راجع عز الدين علم الدين ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، الجزء الثامن ، ٤٥٠

(٤٥) - Shmidt, p. 7 - 8

أشار غولدزهر فى حينه إلى غرابة هذه الواقعة وإلى الشخصيات التى سجلت حوادثها[٤٦] ؛ هذا كما حلل ا . ا . شمت A. E. Shmidt بالتفصيل رواية السويدى عنها ونقل عنه قطعًا كبيرة[٤٧] . لقد عنت لنادر شاه فكرة إقامة مناظرة كبرى بين علماء الشيعة بالنجف وكربلاء وعلماء السنة من أهل أفغانستان وما وراء النهر ؛ واضطر مؤلفنا تحت ضغط التهديد إلى أن يشارك فيها بأمر من والى بغداد المشهور أحمد باشا (توفى عام ١١٦٠ هـ = ١٧٤٧)[٤٨] كممثل لعلماء السنة بالدولة العثمانية . وجرت هذه المناظرة قرب النجف بتاريخ اليوم الثانى عشر فى ديسمبر من عام ١١٥٦ هـ = ١٧٤٣[٤٩] ؛ وهى لم تترك أى أثر يذكر سواء فى ميدان التاريخ أو السياسة ولكن يرجع إليها الفضل فى ظهور مصنف طريف للغاية يحتوى على وصف ممتع لجميع هذه الأحداث ويقدم صورة تفيض بالحيوية للمناظرة نفسها . وقد قرر المؤلف أن يقوم بحج بيت الله[٥٠] شكرًا له لخروجه سالمًا من هذه المحنة ، وفى وصفه لحجته ضمن قصة تلك المناظرة .

وفى مقدمته لذلك الذيل يصف المؤلف الأحداث المعاصرة له والقريبة منه المتعلقة بتاريخ إيران والدولة العثمانية وظهور نادر شاه وحصاره لبغداد مرتين وانتخابه شاهًا لإيران بمرج مغان فى عام ١١٤٨ هـ = ١٧٣٦ ، ثم محاولته الدخول فى علاقات مع الدولة العثمانية لتعترف بالمذهب الشيعى كمذهب رسمى للإسلام . وتحتل المكانة الرئيسية قصته التى تفيض بالحيوية والتى يصف فيها
ظروف مقابلته / لنادر شاه الذى ترك فى نفسه أثرًا طيبًا للغاية منذ الوهلة الأولى ؛ وبطبيعة الحال 741
فإن المادة الجغرافية عنده جدّ شحيحة ، هذا إذا استثنينا وصفه الذى يفيض بالحيوية لرحلته التى خرج فيها من بغداد وبقائه بالنجف لمدة يومين . ويقابل هذا من الجانب الآخر أن التفاصيل التى أوردها فى مجالى التاريخ والثقافة لا تقل أهمية عن أسلوب الرحلة الذى يتسم بالوضوح والإبانة . والقطعة التى تبقت من وصف الرحلة تعطينا الحق الكامل فى الافتراض بأن وصف رحلة الحج الذى دونه يراع السويدى يرتفع فى مجموعه على المستوى العام ؛ ومما يؤسف له أن هذا

---

(٤٦) - Goldziher, Vorlesungen[1], p. 316 = (الترجمة الروسية) p. 271; Vorlesungen[2], p. 295 and 387

(٤٧) - Shmidt, p. 7 - 41

(٤٨) - Huart, EI, I, p. 213

(٤٩) - Shmidt, p. 17

(٥٠) شرحه ، ص ٩

الوصف معروف حتى الآن فى عدد محدود من المخطوطات التى من العسير الوصول إليها وبهذا فإنه لم يجتذب الأنظار بعد بصورة جدية. أما خط سير الرحلة فإنه لم يتجه إلى بلاد العرب رأسًا فقد أخذ العلامة فى البداية طريق الشمال إذ خرج من بغداد إلى الموصل ومنها إلى حلب فدمشق [٥١]، وأغلب الظن أن طريق الحاج المألوف لم يكن مأمونًا تمامًا أو أن المؤلف أراد فقط أن يزور الموصل التى أمضى فيها سنى دراسته؛ وفيما عدا هذا فإن بقية تفاصيل رحلته غير معروفة لنا.

والصورة العامة للمادة الجغرافية التى نلتقى بها فى البلاد العربية الواقعة إلى الشرق من سوريا فى هذا القرن فقيرة وشاحبة للغاية، بل إن سوريا نفسها تقتصر على اتجاه واحد فقط فى مجال الجغرافيا ولكنه تميز بالحيوية والنشاط ويمثل كلا متماسكًا على الرغم من تعدد العناصر المكونة له وتلونها. وأعنى بهذا وصف الرحلة، خاصة رحلة الحج التى خرجت هذه المرة من وسط النصارى العرب.

ولقد حدث أن تعرفنا على عدد ملحوظ منها فى الفصل السابق على هذا، غير أننا نلتقى فى الفترة التى نعالج الكلام عليها بشىء أشبه ما يكون بازدهار لهذا النمط. وخير دليل على هذا أنها بدأت تظهر فى أكثر الدوائر اختلافًا، بل إنها استهدفت الارتفاع بالمستوى الفنى نفسه مرسلة فى هذا أول خيط لفجر النهضة الأدبية الحديثة فى الوسط المسيحى.

واتجهت هذه الرحلات كما هو الحال من قبل إلى فلسطين وسوريا وروما قبل غيرها؛ وترجع علاقة بعض رجال الإكليروس الشرقيين ممن كانوا يتكلمون العربية بمدينة روما إلى القرن السادس عشر. وإلى هذه العلاقة يرجع السبب فى الأحداث التى تمت فى غضون القرن السابق لهذا مثل رحلة إلياس الموصلى إلى أميريكا. ويعد خضر الكلدانى الذى جاء بعده بمدة قرن من الزمان شبيهًا له إلى حد ما؛ وهو نسطورى الأصل ولد بمدينة الموصل فى عام ١٦٧٩ [٥٢] وتلقى دراسة دينية جيدة ثم أنشأ مدرسة بمسقط رأسه لم تلبث أن تمتعت بسمعة طيبة. وجنح به ميل ظاهر منذ سن مبكرة إلى العلم وإلى قرض الأشعار الدينية، كما ندين له أيضًا بمعجم كبير للغات الآرامية والعربية والتركية، وله كذلك خطب وأناشيد وتسابيح باللغتين السريانية والعربية [٥٣]. وبعد أن

---

(٥١) - Sarkis, p. 1066 - 1067

(٥٢) الكلدانى، المشرق، الجزء الرابع، ص ٨٥٢، رقم ٦ -

Cheikho, Catalogue raisonné, I, p. 87, No 149 - Cheikho, Catalogue, p. 94, No 332

(٥٣) عن نماذج من مصنفات خضر الكلدانى راجع، شيخو، المشرق، الجزء السابع، ص١٠٩٦ - ١٠٩٧ - شيخو، المشرق، الجزء الثالث عشر، ص ٥٨٣ وما يليها -

Cheikho, Catalogue, p. 94

تجاوز سن / الثلاثين اعتنق خضر الكلدانى تحت تأثير الرهبان الكبوشيين (capuccines) 742
المحليين العقيدة الكاثوليكية وتعرض من جراء ذلك لاضطهاد أهل عقيدته السابقة حتى اضطر آخر الأمر إلى الهرب من موطنه فى أغسطس من عام ١٧٢٤ . واتجه فى البداية إلى نصيبين ثم غادرها إلى ماردين ومنها إلى الرها ، وفى الرابع والعشرين من شهر فبراير عام ١٧٢٥ بلغ حلب ثم أبحر من ميناء الإسكندرونة فى السادس من شهر مايو . وقريبًا من تونس تعرضت سفينتهم لعاصفة بحرية شديدة ولم يبلغوا ميناء ليفورنو Livorno إلا فى السابع عشر من شهر يوليو ؛ وفى طريقه إلى رومه مر على بيزا Pisa وشفيته فكيا Civita Veccia حتى بلغوا أعتاب البابا بندكت الرابع عشر فى اليوم السابع عشر من شهر أغسطس . وبرومه استقر النوى بخضر الكلدانى ، وبها توفى حوالى عام ١٧٥٥[٥٤] .

ووصف هذه الرحلة وما سبقها من أحداث، مضافًا إليها فترة إقامته بإيطاليا ، سجلها خضر جميعها فى مصنف خاص نشره الأب لويس شيخو اليسوعى معتمدًا فى ذلك على مخطوطة فريدة يمتلكها أحد الأشخاص بالقاهرة[٥٥] ، وهى تشمل الفترة من عام ١٧١٩ إلى عام ١٧٣٤ وتقف فجأة بكل أسف عند اليوم السادس عشر من شهر يوليو من عام ١٧٣٤ . والمسائل التى شغلت بال المؤلف محدودة بالطبع ، فهو يروى بالتفصيل قصة اعتناقه الكاثوليكية واضطهاد أبناء جلدته له ، كما يصف لنا أعياد سنة اليوبيل برومه وطقوس « القنقلاوى »* والكنائس المختلفة وآثار القديسين والشعائر الدينية . ويجتذب اهتمامه بصورة خاصة المواكب والاحتفالات والألعاب النارية (fireworks) ؛ وكان يلفت نظره من حين لآخر بعض الظواهر الطبيعية كعاصفة غير مألوفة . وبالرغم من أنه زار بعض نواحى إيطاليا فكان مثلا فى عام ١٧٣١ على سواحل الأدرياتيك إلا أن الفاتيكان وحده وما يتعلق به هو الذى يمثل محور اهتمامه ؛ وهو يحكى عن جميع المنازل التى يقيم بها الرهبان ، بل إنه ليذكر خبر المبشرين الدينيين الذين أرسلوا إلى أميريكا ؛ ولعل أخبار رحلة إلياس الحلبى الموصلى لم تكن غريبة عليه . ومنشأ الأهمية التى نالتها رحلته يرجع إلى أنها ذات كفتين متعادلتين فى تصويرها للعلاقات التى تربط بين الشرق والغرب فى

---

(٥٤) شيخو ، المشرق ، الجزء الثالث عشر ، ص ٥٨٢ — الكلدانى ، المشرق ، الجزء الرابع ، ص ٨٥٢ ولكن راجع سركيس (لغة العرب ، الجزء التاسع ، ص ٤٥١ ، الملاحظة الأولى) الذى يعطى تاريخ ١٧٥١

(٥٥) شيخو ، المشرق، الجزء الثالث عشر، ص ٥٨١ — ٥٩٢ ، ٦٥٦ — ٦٦٨ ، ٧٣٥ — ٧٥٥ ، ٨٣٥—٨٤٣

* من الإيطالية conclave ومعناها المكان المغلق الذى يعتزل فيه الكرادلة لانتخاب البابا الجديد . (المترجم)

ذلك العهد وفى نطاق معين ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى فى أنها كشفت عن مشاعر وانطباعات رجل شرقى يزور أوروبا المعاصرة له .

ومبلغ علمنا برحلة خرجت من حلب إلى فلسطين وقام بها شخص يدعى إلياس الغضبان الحلبى(٥٦) يرجع إلى مجرد وصف لمخطوطتها الموجودة ببيروت ؛ وصاحب هذه الرحلة من طائفة الروم الكاثوليك Greek Uniates وكان من الشخصيات المرموقة بين أهل عقيدته فى حلب ؛ وقد خرج فى رحلة للحج فى صحبة راهبين بطريق البر فى الثالث عشر من شهر أبريل وعاد فى السابع والعشرين من مايو ، وذلك من عام ١٧٥٥ . وتشير مدة الرحلة القصيرة إلى أنها كانت رحلة خاطفة ، وعلى الرغم من هذا فإن وصفه لها كما بين شيخو يحفظ مقدارًا من المعلومات القيمة فى مجالى التاريخ والطبوغرافيا . والرحلة تنقسم إلى قسمين يعالج الأول منهما الكلام على الرحلة نفسها بينما يصف الثانى الأماكن المقدسة .

744 وقبل ذلك بقليل ، وعلى التحديد فى عام ١٧٥٣ ، زار سيناء خليل الصباغ ، وهو من طائفة الملكانيين Melkites ؛ وتوجد بالمكتبة الأهلية بباريس مخطوطة يصف فيها رحلته نشرها الأب لويس شيخو اليسوعى اعتمادًا على نسخة منقولة عنها وموجودة ببيروت(٥٧) . ووصف هذه الرحلة ليس بطويل ولا يشغل فى مجموعه أكثر من اثنتى عشر ورقة مخطوطة مكرسة كلها بالتقريب لمواضع سيناء المقدسة . وقد بدأ خليل الصباغ رحلته من مصر فى رفقة رئيس الدير الذى كان فى طريق عودته من القاهرة وكان بصحبته ستة وخمسون حاجًا مسيحيًا . وأخذوا فى طريقهم أحد عشر يومًا ؛ وهو يذكر فى آخر وصفه بأن سير الرحلة من القاهرة إلى طور سيناء يتطلب على وجه الدقة مائة ساعة . ويسبق وصفه الموجز لسير الرحلة وصفه المفصل لكنيسة طور سينا وخزانة الدير ومواضع القداسة الأخرى الموجودة حوله . وهو يقدم لنا معلومات وافية عن بستان الدير ومقبرته وكذلك عن حياة الرهبان والحجاج التى راقبها عن كثب ، سواء فى الأعوام العادية أو فى أثناء الاحتفالات الدينية الخاصة التى أقيمت فى يوم عيد القديسة كاترينا . وأسلوب قصته بوجه عام بسيط ومكتوب فى لغة لا تخلو أحيانًا من الألفاظ الدارجة ، غير أن الميل إلى الصنعة الأدبية كان

- Cheikho, Catalogue raisonré, II, p. 105 No 174 - Cheikho, Catalogue, p. 155 - 156, No 585(٥٦)

(٥٧) شيخو ، المشرق ، الجزء السابع ، ص ٩٥٨ – ٩٦٨ ، ١٠٠٣ – ١٠١٢

- Cheikho, Catalogue raisonné, I, p. 23, No 35 - Cheikho, Catalogue, p. 132, No 486 - Beneshevich, I, p. XXXI, No 357

يظهر لديه بين آونة وأخرى ولهذا كان يعمد إلى السجع بطريقة بدائية جانبها التوفيق . وإذا كان وصف خضر الكلدانى قد أثار فينا إلى حد ما ذكر كتاب إلياس الموصلى فإن خليل الصباغ من جهة أخرى يشابه كثيرًا من أهل الفترة السابقة الشماس افرام « الساذج » .

لقد أخذ مستوى الثقافة الأدبية بين العرب المسيحيين يرتفع قرب ذلك العصر بصورة ملحوظة ، ويستبين لنا هذا بصورة جلية من مثال نسوقه لشخص آخر من مواطنى حلب أيضًا ترك لنا وصفًا لزيارته لمصر هو إبراهيم الحكيم الحلبى (توفى حوالى عام ١٧٧٠) من طائفة الروم الكاثوليك Greek Uniate ؛ وكانت مهنته الطب ولكنه كان يشعر بميل شديد نحو قرض الشعر[٥٨] كما كان وثيق الصلة بدائرة أتباع جرمان فرحات (توفى فى عام ١٧٣٢) باعث النهضة الأدبية فى مدينة حلب مركز الثقافة القديم بسوريا الشمالية* . وكان إبراهيم الحلبى إلى حد ما تلميذًا لاثنين من أبناء عقيدته كانا أصغر سنًا منه ، أحدهما هو الشاعر نقولا الصائغ (توفى فى عام ١٧٥٦) والآخر هو عبد الله الظاهر مؤسس إحدى دور الطباعة الأولى بلبنان والذى عرف أيضًا بمناظراته الدينية (توفى فى عام ١٧٤٨)[٥٩] . هذا وقد اضطره إلى القيام برحلاته التزامات مهنته من جهة والاضطهاد الدينى الذى تعرض له من جهة أخرى ، ففى عام ١٧٤٠ كان بأدنة ، وفى عام ١٧٥٠ - ١٧٥٢ كان بحمص ، وفى عام ١٧٥٧ اضطر إلى الذهاب إلى سيواس[٦٠] فى معية الوالى التركى . غير أن حماية كبار رجال الدولة / الذين كانوا فى حاجة إلى 745
خبرته كطبيب لم تجده نفعًا أمام الاضطهاد الدينى من قبل بنى وطنه حين زادت حدة الخصومة بين الأورثوذكس والروم الكاثوليك ، لذا اضطر إلى الهرب إلى مصر فى عام ١٧٦٠ وأقام

---

(٥٨) نشر وصف رحلة إبراهيم الحلبى العلامة لويس شيخو بالمشرق ، المجلد العاشر ، ص ٥٥٩ - ٥٦٤ ، ٥٨١ - ٥٨٦ ، ٧٠٨ - ٧١٤ . أما أشعاره فنشرها عيسى المعلوف بالمشرق ، الجزء العاشر ٨٣٣ - ٨٤٤ ، ٨٩٠ - ٨٩٧ ، ١٠١٧ - ١٠٢٦ ، ١١٠٠ - ١١٢٠ - شيخو ، الشعراء ، ص ٤٧٨ - ٤٨٨ ، رقم ١٥

Cheikho, Catalogue raisonné, II, p. 112, No 183 - Cheikho, Catalogue, p. 92, No 325 - Krachkovski, VV, XIV, 1907, p. 650

* **المطران** جبرائيل بن فرحات مطر المارونى ، أديب سورى من الرهبان عاش بحلب (١٦٧٠ - ١٧٣٢) ، ودرس اللاهوت وترهب سنة ١٦٩٣ ودعى باسم جرمانوس وانتخب أسقفًا على حلب سنة ١٧٢٥ . كان يجيد عددًا من اللغات ، وله عدد من المؤلفات باللغة العربية (المترجم)

(٥٩) **- Krachkovski, EI, EB, p. 79**

(٦٠) شيخو ، الشعراء ، ص ٤٧٩

بالقاهرة مدة عامين . وفى رسالة طويلة له بعث بها إلى أحد أصدقائه وصف لرحلته التى اجتاز فيها لبنان ثم ركب السفينة من بيروت إلى دمياط ، كما يصف فيها أيضًا انطباعاته عن القاهرة . ولكونه شاعرًا معروفًا له عدد من الأشعار وكان من أتباع الأسلوب المتكلف فقد جهد فى رسالته هذه أن يبين مهارته فى السجع وأن ينثر فى خلالها قطوفًا متنوعة من أشعاره الخاصة حتى بدت الرسالة فى بعض المواضع وكأنها مصنف أدبى يعكس مشاعره وعواطفه أثناء الرحلة لا وصفًا للرحلة نفسها . غير أنه من الممكن بلا أدنى جهد استنباط التفاصيل المتعلقة بالظروف الواقعية والأوضاع السائدة ؛ ومادته الجغرافية فى هذا الصدد جديرة بأن تجد من العناية والاهتمام نفس القدر الذى ظفرت به محاولته الأدبية .

وقد حفظ لنا القرن الثامن عشر أثراً من ذلك الوسط نفسه يقف دليلاً على أن الاهتمام بروسيا ظل يتردد صداه حتى بعد رحلة مكاريوس الأنطاكى فى القرن السابع عشر . ففى مكتبة « ديوان الهند » India Office بلندن مخطوطة تضم مادة عن روسيا وضعها فيما يغلب على الظن أحد العرب الأورثوذكس من أهل سوريا لعله من رجال الدين وذلك فى عام ١٧٥٨ ، أى فى خلال حكم يليزافيتا (اليصابات) بتروفنا[٦١] Ielizaveta Petrovna ، وهذه النسخة التى تتكون من تسع وثمانين ورقة قد تم تدوينها فى عام ١٧٩٩ . ولا يوجد بالمخطوطة أى أثر سواء لاسم المؤلف أو لعنوان الكتاب ولكن ترد فى داخله الألفاظ الآتية : « ما قد احتوى عليه هذا الكتاب من أخبار المسكوف » . وبعد « مقدمة » ليست بالطويلة يعالج فيها الكلام على أوروبا عامة يفرد المؤلف خمسة عشر فصلا (« رأسًا ») للكلام على روسيا ؛ ومن هذه الفصول ستة خالصة للجغرافيا . ويلى هذا تحليل ووصف لسمة الروس وأخلاقهم وعاداتهم ، ينتقل بعده للكلام على الحكومة وعلى النظامين المدنى والعسكرى وعلى الدين ، ثم يتكلم بعد ذلك عن الأباطرة والبطاركة ويسوق بعض المعلومات عن المدارس بروسيا . وهذه الرسالة تمثل أهمية خاصة ولو من ناحية الكشف عن المصادر التى استقت مادتها منها . وقد أولاها بعض الاهتمام وذلك فى بداية نشاطه العلمى ف . ر . روزن الذى وجدت بين أوراقه بعض مقتطفات من هذه المخطوطة[٦٢] ؛ وحتى يحين الوقت لإخضاعها لفحص دقيق فإنه من العسير إصدار أى حكم على هذا الأثر الفريد فى نوعه والذى يرتفع فى أغلب الظن إلى مصدر كتب أصلا بالإغريقية .

---

(٦١) -Loth, Catalogue, p. 211, No 729

(٦٢) - Krachkovski, Opis, p. 1338, No 65

وينافس المغرب سوريا من حيث الكم فيما يتعلق بالمصنفات المتصلة بالجغرافيا ؛ وهنا أيضًا نجد أن الدافع الأول كان هو الرحلة إلى الأماكن المقدسة ، أى إلى الحج . ولم يخرج وصف الرحلة عن الإطار القديم ، وتم تدوينه فى الغالب على هيئة يوميات ؛ أما المؤلفون أنفسهم فإن أكثريتهم كانت تنتمى إلى الوسط الصوفى من بين العلماء المحليين .

ومن وسط هؤلاء الأخيرين خرج أبو العباس أحمد بن محمد ناصر بن الدرعى المتوفى على أغلب 746
الظن بتمجروت فى عام ١١٢٩ هـ=١٧١٧ ، وبها ولد فى عام ١٠٥٧ هـ=١٦٤٧[٦٣] . وكان أبوه شيخًا لإحدى الزوايا وترك أثرًا فى الأدب ؛ وخلفه الابن على تلك الزاوية ، وظهر منه فى خلال رحلاته الاهتمام بتنظيم طائفة الشاذلية . وينعكس ذوقه الأدبى بصورة واضحة فى وصفه لرحلة الحج ، ذلك الوصف الذى يحمل عنوان « الرحلة الناصرية » ؛ وتعتمد شهرة الكتاب لا على طبعته الفاسية لعام ١٣٢٠ هـ=١٩٠٢ فى جزأين والنادرة الوجود بقدر ما تعتمد على الترجمة المختصرة التى عملها بالفرنسية بربروجيه Berbrugger ؛ وقد اقتصر المترجم على الأقسام المتعلقة بشمالى إفريقيا إلى طرابلس[٦٤] ولكن ترجمته تعطى فكرة واضحة عن المؤلف وعن المصنف نفسه . ويقوم المصنف أساسًا على وصفه لحجته التى استغرقت اثنى عشر شهرًا بالتقريب ابتداء من أكتوبر حتى أكتوبر الذى يليه من عام ١١٢١ هـ-١١٢٢ هـ=١٧٠٩-١٧١٠ ؛ ويرد الكلام مرات عديدة خلال الكتاب عن حجاته السابقة إلى مكة فى عامى ١٠٩٦ هـ=١٦٨٤[٦٥] و ١١٠٩ هـ=١٦٩٧[٦٦] .

ولم يتنكب بربروجيه الصواب عندما وضع ترجمته لرحلة الدرعى فى كتاب واحد مع ترجمته لرحلة العياشى ؛ إذ أنه يذكّر بهذا الأخير سواء فيما يتعلق بطريق الرحلة الذى سلكه أو النهج الذى اتبعه فى التأليف على هيئة يوميات[٦٧] . وهذا النهج لم يكن بالطبع شيئًا جديدًا ، فالدرعى نفسه يذكرنا بعدد من السابقين له فى هذا المضمار من بنى وطنه مثل التجانى الذى وصف حجته فى القرن الرابع عشر . وقد خرج رحالتنا من مسقط رأسه مارًا فى طريقه على سجلماسة حتى بلغ

---

(٦٣) Brockelmann, GAL, II, p. 464, No 4; SB II, p. 711 -

(٦٤) Berbrugger, p. VIII, X - XV, p. 106 - 113, 165 - 344 -

(٦٥) شرحه ، ص ١٠٩ ، وراجع ص ١١٣ ، **الحاشية** ٢ ، ص ١٧٢ ، ١٨٢ ، ٢٠٣

(٦٦) شرحه ، ص ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٤

(٦٧) شرحه ، ص ١٧١

طرابلس ، ولكنه تخلّف فى طريقه عدة مرات لزيارة مواضع جانبية كزيارته لمضارب قبيلة لواته البربرية ولبسكره وقابس . وهو يفرد لهذه الأخيرة وصفاً وافياً ، أما بقية طريقه إلى مكة فكان طريق الحاج المغربى المعهود الذى يمر بمصر . ويتفق المؤلف كثيرًا مع العياشى من حيث الموضوعات التى استرعت انتباهه فهو يقص بالتفصيل وبانتظام أخبار مقابلاته مع العلماء المختلفين فى خلال رحلته ويتحدث عما رآه من المخطوطات فى المجموعات المختلفة . ولم يكن غريبًا عليه الاهتمام بالموضوعات التاريخية فهو يدخل فى استطراد خاص يتكلم فيه عن فتوحات عقبة بن نافع بافريقيا الشمالية كما أنه يعلق على الأحداث المعاصرة له فيصف مثلاً بالتفصيل قصف الفرنسيين لطرابلس الذى شهده بنفسه فى أثناء حجته عام ١٠٩٦ هـ = ١٦٨٤ .

هذ وقد ظل ذلك اللون من الرحلات الأدبية متمتعًا بالقوة والحيوية ، وخير مثال لهذا رحلة أحد تلامذة الدرعى(٦٨) وهو الشاعر واللغوى محمد بن الطيب نور الله المدنى الشراغى الفاسى . هذا وقد أعدت له الأقدار مصيرًا مختلفًا ، فهو ولد بفاس فى عام ١١١٠ هـ= ١٦٩٨ ولكنه توفى
عام ١١٧٠ هـ = ١٧٥٦ بالمدينة التى عاش بها أعوامًا طويلة / يشتغل بالتدريس(٦٩) ؛ وكان 747
تشوّقه إلى الرحلة قويًا وقام برحلة من المدينة إلى استنبول مارًا فى طريقه على سوريا ولكنه رجع منها عن طريق مصر(٧٠) . وكان ، إن صح هذا التعبير ، من كبار أنصار التسفار وحفظت لنا فى هذا الصدد إحدى قصائده التى يعدد فيها فوائد السفر ويمتدحها(٧١) ؛ وهذا الموضوع بالطبع ليس بجديد فى الأدب ولكنه يقف على أية حال دليلا على اتجاهات المؤلف . ومعروف فى إحدى المخطوطات وصفه لحجته فى عام ١١٣٩ هـ - ١١٤٠ هـ = ١٧٢٧ - ١٧٢٨ من فاس إلى مكة ذهاباً وإياباً(٧٢)، وقد خرج بتاريخ **٢٥ فبراير ١١٣٩ هـ = ١٧٢٧** واستغرقت منه هذه الرحلة خمسة عشر شهرًا وواحدًا وعشرين يومًا . والمصنف على هيئة يوميات ولكنه مزود بمقدمة منسّقة ؛ وكان هدفه كما يقول هو نفسه ثلاثة أشياء هى أن يبين منازل الطريق ، وأن يشير إلى جميع الشخصيات المهمة التى جاذبها أطراف الحديث حول أى موضوع ، وأن يسوق شواهد شعرية

---

(٦٨) المرادى ، سلك ، الجزء الرابع ، ص ٩١

(٦٩) - Brocklmann, GAL, II, p. 465, No 5; SB II, p. 522 - 523, No 6 c -

المرادى ، سلك ، الجزء الرابع ، ص ٩١ – ٩٤

(٧٠) المرادى ، سلك ، الجزء الرابع ، ص ٩١

(٧١) شرحه ، ص ٩١ – ٩٢

(٧٢) - Flügel, ZDMG, 18., p. 537 - 569 (بحسب مخطوطة ليبزغ)

تتعلق بالرحلة . ويتضح من فصول المقدمة ميله الواضح نحو التنظيم والتنسيق ، وهو يتحدث فيها عن أهمية الحج وزيارة البيت الحرام وأهمية زيارة قبر النبى وعن الأسفار وفوائدها وعما يقع على المسافر من التزامات وأعباء ؛ بل إنه يقدم فى الخاتمة بعض القواعد الصحية التى يجب أن يتبعها المسافر ويشير إلى بعض الأشياء الضرورية اللازمة له فى أسفاره . والمؤلف على معرفة جيدة بالرحالة الحجاج المغاربة قبله ، وهو كثيرًا ما يقتطف من العبدرى والعياشى ؛ أما مصنفه فلا يعتمد على ملاحظاته الشخصية فحسب بل وأيضًا على دراسة دقيقة للأدب فى هذا المضمار . وقد أثبت البحث إلى جانب هذا دقته الكبرى فى المعلومات التي يوردها من محيط الطبوغرافيا عن جميع المواضع التى تتصل بطريق رحلته ، هذا على الرغم من أنه لا يعطى المسافات بدقة على نحو ما فعل الكثيرون قبله .

وأوصاف « الرحلات » المغربية ليست معروفة لنا جميعها معرفة مباشرة ؛ وقد تقتصر معرفتنا بالبعض على مجرد ذكره فى فهارس المخطوطات أو من عناوين طبعات من العسير الوصول إليها . مثال ذلك أنه فى حوالى عام ١١٦٣ هـ = ١٧٥٠ وضع عبد الرحمن بن محمد بن خرّوب المجّاجى وصف « رحلة » إلى مكة محفوظًا لنا فى مخطوطة بالجزائر [٧٣] ؛ وبعد خمسة عشر عامًا من هذا وصف رحلته إلى الحجاز الحسين بن أحمد الورثيلانى (١١٢٥ هـ - ١١٩٢ هـ = ١٧١٣-١٧٧٨) [٧٤] الذى ينتسب إلى قبيلة تقيم قرب بجاية . وقد نال نصيبه من العلم بموطنه ثم بالقاهرة ؛ وفى سن متقدمة وذلك فى عام ١١٧٩ هـ = ١٧٦٥ أدى فريضة الحج ووصف ذلك فى كتابه « نزهة الأنظار فى فضل علم / التاريخ والأخبار » الذى اشتهر عادة بعنوان مختصر 748 هو « الرحلة الورثيلانية » . والكتاب يتمتع برواج كبير فى شمالى افريقيا إذ ظهرت له طبعة تونسية بالحجر فى عام **١٣٣١** هـ = **١٩١٣** هـ وطبعة أخرى جزائرية أيسر تناولا من تلك ظهرت فى عام ١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨ بعناية محمد بن شنب [٧٥] . والكتاب ليس بالكبير ولا يزيد حجمه عن مائة وتسع وثمانين صفحة .

وإلى جانب رحلات الحج وصل إلينا من المغرب عدد من أوصاف الرحلات التى يمكن أن نعدها « دنيوية » ؛ وهى تمثل أحيانًا أهمية كبرى فى مجالى التاريخ والحضارة كالرحلات إلى اسبانيا

---

(٧٣) - Brockelmann, GAL, II, p. 465, No 6

(٧٤) - Brockelmann, GAL, SB II, p. 713, No 8 - Sarkis, p. 1913 - 1914

(٧٥) محمد بن شنب ، الرحلة الورثيلانية

مثلا التى سيرد الكلام عليها فى حينها . ولا ينطبق هذا على مذكرات أحمد بن حسن المتييوى(٧٦) التى حفظت لنا بمحض الصدفة على ما يبدو ، إذ اهتم بدراستها المستشرق النمساوى للقرن الثامن عشر فون دومبى Von Dombay (١٧٥٥ - ١٨١٠) الذى اشتغل طويلا بدراسة تاريخ المغرب واللهجات المغربية ؛ ولعل دراساته التاريخية هى التى جعلته يقوم بإعداد ترجمة لهذه المذكرات التى كانت محفوظة فى مخطوطة بفينا(٧٧) يبدو أنه نقلها بخط يده . ويقدم لنا المؤلف بشكل موجز فى ورقتين وصف رحلته التى استغرقت أحد عشر يومًا من فاس إلى تفيللت بأمر من الشريف محمد بن إسماعيل وذلك فى جمادى الثانية من عام ١٢٠١ هـ = آخر مارس من عام ١٧٨٧ ؛ ويلوح أن الوصف تم تدوينه آنذاك لأن تاريخ إتمام المخطوطة هو اليوم السابع من مارس عام ١٧٨٩ .

وبعض المغاربة ممن تربطهم بالجغرافيا علاقة غير مباشرة يسوقنا تاريخ وفاتهم أحيانًا إلى القرن التاسع عشر . ويمثل أهمية معينة بالنسبة لموضوع دراستنا أحد المؤرخين القلائل الذين ظهروا فى ذلك العصر ، وأعنى به محمود بن سعيد مقديش الصفاقسى المتوفى بعد عام ١٢٣٣ هـ = ١٨١٨(٧٨) . وقد درس بمصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وكان من أساتذته الجبرتى والد المؤرخ المعروف ، وأمضى معظم حياته بمسقط رأسه صفاقس ولكنه فيما يبدو ساح كثيرًا وزار مواضع كالبندقية مثلا . ومصنفه الرئيسى هو كتاب فى التاريخ بعنوان « الدائرة » أو « نزهة الأنظار فى عجائب التواريخ والأخبار » المعروف فى طبعة حجرية ظهرت فى جزأين بتونس ولا تبعث كثيرًا على الرضى (١٣٢١ هـ = ١٩٠٣) . وقد أتم الجزء الأول من مصنفه فى عام ١٢١٠ هـ = ١٧٩٦ ، ويبدو أنه مس فيه مسائل معاصرة لأن حكومة تونس صادرته على الفور . وتحمل « المقالة » الأولى لهذا التاريخ طابعًا تغلب عليه الجغرافيا إذ تمثل وصفًا لأقطار
749 المغرب / وللأندلس . وكما يبدو من البحث الذى دونه يراع نالينو Nallino فإن الكتاب بأجمعه يغلب عليه طابع النقل والتجميع ، فالقسم الجغرافى مثلا يعتمد اعتمادًا تامًا بالتقريب على الإدريسى وابن الوردى والقزوينى والتجانى(٧٩) . وعلى النقيض من هذا فإن مصنفه فيما يتعلق

---

(٧٦) - Brockelmann, GAL, SB II, p. 713, No 9

(٧٧) - Flügel, Handschriften, II, p. 424, No 1270, 2 - 3

(٧٨) - Brockelmann, GAL, SB II, p. 877, No 14 - Sarkis, p. 1209

(٧٩) - Nallino, Centenario, I, p. 313, note 315 - 316

بعرض الأحداث القريبة العهد منه يمثل أهمية كبيرة، فهو مثلاً يلقى الضوء على حوادث الحرب بين تونس والبندقية فى عام ١٧٨٤ ـ ١٧٩٢.

وتكتسب المادة الجغرافية أهمية أكثر فى المصنفات المختلفة لأحد معاصرى مقديش ، أعنى أباراس (أبوراس) محمد بن أحمد الناصرى[٨٠] الذى يعد من أنشط كتاب المغرب فى ذلك الوقت وأحفلهم إنتاجًا ؛ ويبلغ مجموع تصانيفه فى مختلف العلوم مائة وأربعين مصنفًا وهو نفسه قد قارن شخصه فى شيء من الزهو والاعتزاز بشخص السيوطى الشهير . وقد تجول كثيرًا ، ويبدو أنه وجدت تحت تصرفه معطيات وافرة مكنته من تقديم معلومات جغرافية غير أنه بكل أسف غلبت عليه اتجاهات أدبية مهتزة وركبه غرور شديد جعله يدعى المقدرة على الكتابة فى جميع فروع العلوم . ولد أبوراس بجبال أطلس فى عام ١١٦٥ هـ = ١٧٥١ ومرت عليه فى صباه حياة قاسية تراوحت بين العوز الشديد واكتساب عيشه من وقت لآخر « كطالب » متجول ؛ وقد وفق آخر الأمر فى الاستقرار ببسكره حيث اشتغل فى البداية بالتدريس ثم أصبح قاضيًا وشغل فيما بعد منصب الإفتاء بها . وفى عام ١٢١٤ هـ = ١٨٠٠ حين بلغ الخمسين بدأ فى زيارة عدد من المدن لا فى افريقيا الشمالية وحدها فحسب كالجزائر وفاس بل إنه زار عددًا من المراكز العربية الكبرى كالقاهرة والقدس وذلك فى خلال رحلته إلى الحج . وهو قد حج مرتين على الأقل ، وذلك فى عامى ١٢٠٤ هـ = ١٧٩٠ و ١٢٢٦ هـ = ١٨١١ واستطاع فى أثناء حجته الثانية أن يتعرف بطريق مباشر على حركة الوهابيين ؛ وتوفى عام ١٢٣٨ = ١٨٢٣ . والتفاصيل الوافية المعروفة لنا عن حياته يرجع الفضل فيها إلى ترجمته لسيرة حياته التى دونها بعد عام ١٨١٨[٨١] . وعلى الرغم من أنها صيغت بالأسلوب الذى عرف به المتصوفة جيدًا وهو أسلوب التحدث بنعمة الخالق جل وعلا (« فتح الاله ومنته فى التحدث بفضل ربى ونعمته ») ، فجاءت لذلك حافلة بالعواطف الوجدانية وبالتحدث عن نفسه ، أقول على الرغم من كل ذلك فإنها تقدم لوحة تذخر بالحياة لمتطلبات ذلك الوسط الذى نشأ فيه أبو الراس . وهى تنقسم إلى خمسة فصول عالج فيها الكلام بالتوالى عن نشأته وأساتذته ورحلاته أو عن بعض المسائل الدينية التى شغل بحلها ، وأخيرًا أورد فى آخر ذلك ثبتًا لمؤلفاته . ويكفى لإعطاء فكرة عن اتجاهات المؤلف وميوله

---

(٨٠) - Brockelmann, GAL, II, p. 508 - 509, No 4; SB II, p. 880, No 18 - Sarkis, p. 1835

(٨١) - Faure - Biguet, p. 304 - 351, 388 - 420

(مقتطفات من سيرة حياة أبى راس الناصرى بقلمه)

الرئيسة أن نذكر أن الفصل المتعلق بالمسائل الدينية يشغل وحده خمسى الكتاب بأجمعه ، أما
الفصل المكرس لرحلاته والذى كان من المفروض أن يثير اهتمامنا قبل غيره فإنه / ضئيل للغاية ولا 750
يتجاوز الصفحتين أو الثلاث . وينطبق هذا القول نفسه على محتويات ذلك الفصل إذ لم يرد فيه
أى ذكر لبلاد زارها أو عادات رآها بل يدور الكلام فيه حول العلماء والمحادثات التى أجراها
معهم ، وذلك فى نفس الأسلوب الذى غلب على الفصل الذى أفرده للمسائل الدينية . ومن
الضروب المحببة إليه فى التأليف هى أن يضع شروحًا تاريخية جغرافية لقصائده ، وله شرح من هذا
النوع لقصيدته فى الاستيلاء على وهران عام ١٢٠٥ هـ - ١٢٠٦ هـ = **١٧٩١** ؛ ولقد أخذ
المؤلف نفسه طرفًا فى ذلك الحادث التاريخى . ويحمل هذا الشرح فى إحدى النسخ عنوان
« عجائب الأسفار ولطائف الأخبار » ، والعنوان يوحى بدوره بأن الموضوع يتضمن مقدارًا
وافرًا من المادة الجغرافية ، ولكن هذا لا يتفق مع الواقع لأن أبا الراس فى هذه النسخة وفى عدد كبير
غيرها من النسخ أبعد ما يكون عن جوهر موضوعه إذ ينسى نفسه تمامًا ويضرب فى متاهة من
الاستطرادات الجانبية التى لا يربطها فى معظم الأحوال أى رابط بجوهر موضوعه ، بل إنه يعمد
إلى المفاخرة والزهو بإظهار مدى معرفته حينًا ومهارته الأدبية حينًا آخر . فهو مثلا يستطرد فى الكلام
عن بونابرت وعن السامريين وعن لندن والفلاندرز[٨٢] دون أن يهتم كثيرًا لجوهر القصة بصورة
مباشرة . أما من حيث الموضوع فإن قصائده تمس فى كثير من الأحيان تاريخ إفريقيا الشمالية
واسبانيا وجغرافيتها، من ذلك وصفه لجزيرة جربه ؛ وأما شروحه ففقيرة بوجه عام . وبطبيعة
الحال فإنه يجب ألا نستنتج من هذا أنه يفتقر بصورة قاطعة إلى المعلومات ذات القيمة ، ومما يوكد
صحة ما ذهبنا إليه دراسة كوديرا Codera عن الأندلس[٨٣] ودراسة ماسينيون Massignon
عن مراكش[٨٤] . ومهما يكن من شيء فيجب الاعتراف بأنه على الرغم من كثرة مؤلفات أبى
راس محمد فإنه بالنسبة لعصره ينتمى إلى المجموعة الوسط من المؤلفين .

ويمكن أن نشير فى هذا العصر أيضًا إلى رحالتين من المغرب زارا الأقطار الأوروبية وخاصة
اسبانيا ، وإن كان أحدهما لم يحفل كثيرًا بتسجيل انطباعاته المباشرة عن زيارته لتلك البلاد . وهذا
الأخير هو أبو القاسم بن أحمد بن على الزيّانى أكبر مؤرخى المغرب قاطبة لذلك العهد[٨٥] والذى

---

(٨٢) شرحه ، ص ٣٤١

(٨٣) - Codera, Decadencia, p. 287

(٨٤) - Massignon, Maroc, p. 20

(٨٥) - Lèvi - Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 199 - 200

امتد عمره الطويل حتى بلغ مائة عام طوت معها الربع الأول من القرن التاسع عشر (١١٤٧ هـ - ١٢٤٩ هـ = ١٧٣٤ - ١٨٣٣)[٨٦] . وأصله من فاس وهو ينحدر من أسرة بربرية ؛ وعلى الرغم من أنه كان من كبار عمّال الدولة ودبلوماسييها إلا أنه لم يحاول إخفاء أصله البربرى بل على العكس من ذلك عمل أحيانًا على إبرازه وذلك على نقيض الغالبية من مواطنيه ممن تشربوا الثقافة العربية أو بلغوا مناصب عليا / فى الدولة . وهو على وجه العموم يكشف عن شخصية ذات أصالة 751
فى ذلك العصر الملىء بالأحداث فهو يتمتع بقدر من الاستقلال والوضوح ، سواء من حيث العقيدة أو من حيث آرائه الشخصية حول موضوعات شائكة مثل موضوع الأولياء ، ولهذا السبب لم يتمتع كثيرًا بعطف العلماء المعاصرين له والذين انتموا إلى مجموعة أخرى من الناس لا يلتزم هو لها بأدنى نوع من الولاء ؛ وكأنما لفه الصمت العميق فلم يرتفع له ذكر فى الوسط الذى عاش فيه ببلاده[٨٧] .

سافر الزيانى مرات عديدة ، وبدأ أسفاره فى سن مبكرة فقد أخذه والده معه إلى الحج فى عام ١١٦٩ هـ = ١٧٥٥ وكان الأب قد أزمع مغادرة المغرب إلى غير رجعة ليستقر بالحجاز ولكن غرق سفينتهم قرب ينبع حرمته من الأمتعة التى كان يود استعمالها فى الإقامة بموطنه الجديد ، لهذا اضطر إلى العودة إلى بلاده . غير أن نشوب الحرب بين انجلترا وفرنسا حال دون تمكنه من سلوك طريق البر المعهود إلى شمالى افريقيا لذا فقد ركب السفينة من الإسكندرية إلى إيطاليا ، وهناك بميناء ليفورنو Livorno اضطرته نفس ظروف الحرب إلى البقاء مدة أربعة أشهر ، ثم أخذ يسير ببطء على سواحل فرنسا واسبانيا وعند برشلونة فقط استطاع أن يستقل سفينة إلى جبل طارق ومن هناك بلغ تطوان فى عام ١٧٥٨ ؛ ولا شك أن مسيره البطىء على سواحل أوروبا الجنوبية مكنه من التعرف على بلاد الإفرنج بصورة أفضل مما أتيح لعدد كبير من الرحالة . أما رحلته الثانية فقام بها بعد ذلك بعهد طويل إذ كان عضوًا فى سفارة ذهبت إلى استنبول فى عام ١٢٠٠ هـ = ١٧٨٦ ، وسار فى طريقه من موغادور (الصويرة) إلى مالقة ثم بطريق البحر مارًا على تونس حتى بلغ القسطنطينية وفيها مكث مائة يوم وخلف لنا وصفًا مفصلا لعاصمة الدولة العثمانية

---

(٨٦) - Brockelmann, GAL, II, p. 507 - 508, No 1; SB II, p. 878 - 880, No 17 - Lévi - Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 142 - 199 (خاصة p. 188 - 190) - Lévi - Provençal, EI, IV, p. 1300 - 1301 - Lévi - Provençal, Extraits, p. 8, No XXII - Kramers, EI, EB, p. 73 - Pérès, L'Espagne, p. 18 - 19 - عن شكل الاسم راجع : Fischer, Ez - Zajani, p. 223 - 226

(٨٧) - Lévi - Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 142 - 145, 198 - 199

وطريق عودته إلى طنجة . وبعد ثمانية أعوام من هذا ، وبدافع شخصى فيما يبدو ، زار استنبول مرة ثانية فى عام ١٢٠٨ هـ = ١٧٩٣ مارًا فى طريقه على تونس أيضًا ؛ وفى تركيا انضم إلى قافلة الحاج التى عبرت سوريا ، ثم نراه بالقاهرة ولكنه سافر مرة أخرى إلى سوريا وآسيا الصغرى حيث ركب السفينة من ازمير إلى تونس ومنها إلى موطنه .

غير أن هذه الرحلات ، مضافًا إليها عمله المجهد فى الجهازين الحكومى والكتابى والذى لم يكنّ له حباما ، لم تحل دون اهتمام الزيانى بالمسائل العلمية فتمكن من وضع ما يقرب من خمسة عشر مصنفًا بعضها من الحجم الكبير . وكان جل اهتمامه منصبًا على التاريخ ، ففى عام ١٢٣٠ هـ = ١٨١٥ أكمل مصنفه الرئيسى والذى يتمتع بقيمة كبرى خاصة فى ميدان التاريخ الحديث ؛ والكتاب يقع فى قسمين غير متساويين من حيث الحجم ، الأول منهما بمثابة مقدمة موجزة يعرض فيها للتاريخ الإسلامى عامة أما الثانى فيعرض لتاريخ الأسر الحاكمة فى الإسلام حتى عهد العثمانيين فى المشرق ، ولتاريخ المغرب ابتداء من الأدارسة إلى عهد شرفاء سجلماسة . وكذيل
752 للكتاب يسوق عرضًا اثنوغرافيًا لمراكش ، ثم يختتمه بنظرة عاجلة لرحلاته . ولم يمنعه / تقدم السن من أن يشرع فى تأليف مصنفه الجغرافى الضخم الذى يقدم فيه عرضًا وافيًا لجميع رحلاته على ضوء الجغرافيا العامة واستطرادات أخرى عديدة[٨٨] ؛ وقد أتم هذا المصنف فى عام ١٢٣٣ هـ = ١٨١٨ وهو فى سن السادسة والثمانين وكان يضيف إليه حتى لحظة وفاته . والكتاب يحمل فى العادة عنوان « الترجمانة الكبرى التى جمعت أخبار (مدن) العالم براً وبحرا »، أما العنوان الكامل فهو أوسع من هذا بكثير[٨٩] ويعكس تلك التقاليد القديمة التى ارتبط بها الزيانى نفسه ، فهو يجرى كالآتى : « الترجمانة الكبرى التى جمعت أخبار العالم برًا وبحرا ، وما تخللها من الأمصار ، والمدن والقرى والقفار ، والبحار والجبال والأنهار ، والعيون والمعادن والآبار ، وغير ذلك من عجائب خواص الحيوانات والأحجار ، ويؤيد ذلك من التفسير والآثار ، ونوازل الفقه ولغة العرب وشواهد الأشعار » . من هذا يتضح لنا أن الزيانى إنما يسير على الطراز القديم المعروف لنا جيدًا لنمط « الرحلة » والأوصاف العامة . والقطب الذى يدور حوله هذا الكتاب هو رحلاته نفسها ولكنه لم يلتزم بالطبع فى هذا أى نظام .

---

(٨٨) (محتويات مخطوطة الزيانى) . - Salmon, AM, II, 1905, p. 330 - 340

(٨٩) - Lévi - Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 185

فأول ما يرد فى الكتاب هو وصف وطنه المغرب(٩٠) ، وتليه قصة رحلته إلى استنبول عام ١٢٠٠ هـ = ١٧٨٦ . ويغتنم هذه الفرصة ليصف الأندلس والقسطنطينية وآثارها ؛ ثم ينتقل بعد هذا إلى وصف طريق عودته مع عرض قصير للجزائر وتونس . وتلى هذا أوصاف متقطعة تسوق إلى عرض عام لنظام الأقاليم السبعة ، ويعقب هذا وصف مصر ووصف رحلته إلى الحجاز الذى يقترن به استطراد فى تاريخ ملوك الفرس القدماء . ويلى الوصف العام للبحار والجبال ثبت بمصنفات المؤلف واستطراد عن الأنبياء الأقدمين ويختتم كل هذا بتعداد لمدن العالم ابتداء من الغرب(٩١) . وليس من العسير أن ندرك من هذا العرض أن الزيانى يعيد لنا فى وضوح ذكرى معظم المؤلفين السابقين له ، بما فى ذلك مؤلفى القرنين التاسع والعاشر وأن الجذور التى تربطهم به ظاهرة للعيان. وحتى فى اتجاه الكارتوغرافيا يبدو أنه أراد إحياء تقليد قديم عفى عليه الزمن فى المغرب ، وبغرض الوصول إلى هذا فقد قام برسم خارطة الإدريسى بطريقة بدائية للغاية مع تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم ، هذا إلى جانب قطع عديدة أخرى ولكن دون أن يدخل على ذلك تعديلا يذكر(٩٢) . وهذه المحاولة تبدو لنا وكأنها مثقلة بالوهن بعيدة عن الإتقان ، غير أنها كانت بالنسبة للمغرب فى القرن التاسع ، كما يشهد ليفى بروفنسال ، النموذج الوحيد من نوعه(٩٣) بحيث لم تكن فى متناول الفهم حتى بالنسبة لمعاصريه(٩٤) .

والمادة الغنية التى أوردها تغفر له النقص فى النظام والترتيب ؛ وهى ظاهرة شملت عددًا غفيرًا 753
من المؤلفين آنذاك . وفى الواقع أنه حتى هذا المصنف من مصنفات الزيانى لا يمثل أهمية جغرافية فحسب بل يقدم لنا إلى جانب ذلك موادًا جمة من تاريخ الفترة التى عاش فيها . والزيانى هو المؤرخ الوحيد الذى شُغل بالجغرافيا خاصة ، واستطاع بفضل رحلاته أن يحصل على معلومات مباشرة عن بلاد البحر المتوسط، المسلمة وغير المسلمة، مما لا نجد مثيلاً له عند معاصريه. وقد دفعه حب الاستطلاع ليحتفظ بمذكرات ومدونات عن المناطق التى زارها ، وتعد معطياته فى هذا

---

(٩٠) عن الترجمة راجع : Coufourier, Az - Zyany, p. 436 - 456 –
قائمة مدن المغرب: Salmon AM, VI, p. 457 - 460

(٩١) - Lèvi - Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 186, note 2

(٩٢) - Kramers, EI, EB, p. 73

(٩٣) - Lévi - Provençal, Hist. de Chorfa, p. 188

(٩٤) شرحه ، ص ١٨١

الصدد أغنى بكثير مما جمعه السابقون أو حتى معاصروه مثل العياشي والغزال[٩٥] . وهو بالطبع على معرفة جيدة بالمصنفات السابقة له وينقل عنها الكثير ، ولكنه لا يبالغ فى هذا النقل بل يعتمد اعتمادًا رئيساً على ملاحظاته وانطباعاته الشخصية . ولا يستوقف اهتمامه الجغرافيا السياسية وحدها بل إنه يتحدث عن كل ما يراه جديدًا ، كما يتحدث عن الإصلاحات الاجتماعية ويورد المعلومات عن أى أثر يراه طريفًا ويقدم وصفًا طوبوغرافيًا دقيقًا لمدينة فاس مفصلا الكلام على مساجدها ومدارسها وقناطرها وتحصيناتها[٩٦] . وتلك الأقسام من مؤلفاته التى يتحدث فيها عن أوروبا تكشف عن معرفة جيدة بها[٩٧] ، وهى فى هذا المجال وفى غيره لا تكتفى بحفظ ما يمكن أن يطلق عليه مادة تاريخية فحسب بل وتمثل أيضًا أهمية جوهرية بالنسبة لدراسة هذه المادة وتحليلها ؛ ومن الملاحظ أن المؤلفين من هذا الطراز قليلون فى العصر التالى لعصر الزيانى . وللزيانى مؤلف آخر أشبه بجامع (compendium) فى الجغرافيا كما يبدو، وهو يحمل عنوان «رحلة الحذاق لمشاهدة البلدان والآفاق »[٩٨] . وهذا العنوان يمكن أن يعكس بعض الصدى لمصنف الإدريسى المشهور ، غير أننا لا نعرف عن الأثر نفسه شيئًا ما فيما عدا العنوان والذى حفظه لنا ثبت مؤلفات الزيانى .

أما المؤلف المغربى الثانى ومعاصر الزيانى الذى يكبره سنًا فإنه يربطنا بتقاليد أوصاف اسبانيا التى كان سابقه المباشر فيها هو الوزير الغسانى . واسم مؤلفنا هذا هو أحمد بن مهدى الغزال (توفى فى عام ١١٩١ هـ = ١٧٧٧)[٩٩] ويرجع أصل أسرته إلى الأندلس ، وكان أيضًا يشغل منصب كاتب أسرار مولاى محمد بن عبد الله الذى بعث به إلى اسبانيا فى عهد كارلوس الثالث عام ١١٧٩ هـ = ١٧٦٦ للبحث فى أمر تبادل الأسرى . وكانت ثمرة هذه الرحلة كتابه « نتيجة الاجتهاد فى المهادنة والجهاد » ؛ وهو غير مطبوع ولكنه معروف جيدًا لدى الدوائر العلمية بفضل العدد الكبير من مخطوطاته . وقد اتبع الغزال فى بداية رحلته نفس الطريق الذى سلكه الغسانى

---

(٩٥) شرحه ، ص ١٨٠ – ١٨١

(٩٦) شرحه ، ص ١٩٣ – ١٩٥

(٩٧) شرحه ، ص ١٩٥ – ١٩٨

(٩٨) راجع : شرحه ، ص ١٦٧

(٩٩) Brockelmann, GAL, II, p. 465, No 7; SB II, p. 712 - 713 - Lévi - Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 327 - 329 - Pérès, I, Espagne, p. 19 - 40

754 قبله ، بل ويبدو / أن وصف الرحلة وضع تحت تأثير مصنف الأخير*. وهو ينسج على منواله بإيراده وصفًا وافيًا لجميع مراحل طريقه(١٠٠) ، ولكنه على نقيضه يحدد بوضوح الهدف الذى قام من أجله بالرحلة وهو إطلاق سراح الأسرى المسلمين الموجودين باسبانيا عن طريق دفع الفدية ، ويسوق لنا فى خلال ذلك معطيات وافرة . ويعكس لنا الوصف بصورة جيدة جميع ما رآه وسمعه المؤلف .

غادر مؤلفنا مكناس مارًا فى طريقه بطنجة وسبتة التى بلغها فى آخر يوم من عام ١١٧٩ هـ = ٢٥ مايو ١٧٦٦ . ثم عبر البحر إلى الجزيرة الخضراء Algéciras ومنها أخذ الطريق إلى إشبيلية Seville مارًا بطريف Tarifa وشذونه Sidonia ، ومن إشبيلية أخذ الطريق إلى مدريد مارًا بقرمونه Carmona واندوخر Andujar ومنسنارس Manzanares وموره Mora . وقد أقام بالعاصمة قرابة ثمانية أشهر حظى فى أثنائها بمقابلة الملك فى قصره بلاجرانخا La Granja ورجع مصحوبًا بسفارة أسبانية ، غير أن كل فريق منهما أخذ طريقًا بريًا مغايرًا لطريق الآخر . وكانت مدينة قرطاجنة Carthagene الواقعة على ساحل البحر المتوسط هى إحدى نقاط تجمّع الأسرى وقد بلغها الغزال فى اليوم الأول من نوفمبر ١١٨٠ هـ = ١٧٦٦ مارًا فى طريقه على أرنخويس Aranjuez ومنها إلى طليطلة Toledo فموره Mora فالقصر Alcazar والبسيط Albacete ويكلا Yecla والجه Elche واريوله Orihuela ومرسيه Murcia . وحين فرغ من تسوية مشكلة الأسرى بمدينة قرطاجنة أرسلهم بطريق البحر إلى قادس وفضّل أن يسير هو نفسه بطريق البر فمر على لورقه Lorca ووادى آش Guadix وغرناطة Grenade ، ومنها فكر فى الذهاب إلى مالقة Malaga غير أن الأمطار حالت بينه وبين ذلك فاتجه إلى قادس مارًا فى طريقه على شنتفه Santa Fé ولوشه Loja وأرشيذونه Archidona وأسونه Osuna والبريجه Lebrija وشريش Jerez . وفى مدينة قادس التقى بالأسرى الذين بلغ عددهم ثمانمائة وستين شخصاً والذين تم إرسالهم إليها من نقاط التجمع الثلاثة ببرشلونة وقرطاجنة والكركى La Carraca القريبة من قادس، ثم رجع بهم إلى مراكش التى بلغها فى مايو من عام ١٧٦٧ . وفى خلال عام من هذا ، أى فى سنة ١١٨٢ هـ = ١٧٦٨ أرسل إلى الجزائر فى مهمة مشابهة ؛ وعلى

---

* لعل هذا من الأسباب التى دفعت عددًا من العلماء المعاصرين فى الغرب والشرق إلى الخلط بين السفارتين ونسبة السفارة الأولى خطأً إلى الفقيه الكاتب أحمد بن المهدى الغزال . (المترجم)

(١٠٠) - Lévi - Provençal, Hist. de Chorfa, p. 329 - Pérès, L'Espagne, p. 23 - 27

نحو ما فعل الغسانى فإنه يدو أن الغزال جلب معه من أسبانيا عدداً من المخطوطات العربية[١٠١] .

وانصرف اهتمامه منذ اللحظة الأولى إلى كل ما له علاقة مباشرة بغرض الرحلة نفسها ، ثم يلى هذا اهتمامه بالمسائل الدينية ؛ وهو قد أقلع منذ البداية عن تكرار ما دونه الآخرون قبله خاصة فى المسائل المتعلقة بالتاريخ[١٠٢] . ومؤلفنا يقف موقف المتشدد من الأخلاق والعادات والاحتفالات والأعياد كما أنه يتخذ موقفًا سلبيًا من مصارعة الثيران[١٠٣] ؛ وعلى النقيض من الغسانى فإنه لا يبدو عليه أى أثر لعالم الاجتماع أو المؤرخ ، ذلك أن نظرة الرحالة الفاحص المتأمل لما يراه شغلها لديه وجهة نظره بوصفه سفيرًا ومسلما صاحب عقيدة . ولقاء هذا فإن هناك فى مصنفه ناحية تكشف عن مادة طريفة عند مقارنته بالأوصاف الأخرى ، فهو يقدم لنا فى كل خطوة من خطوات رحلته معطيات هامة عن الآثار والنقوش التى رآها وتفاصيل عن الأبنية[١٠٤] . ولا يمكن
755 بالطبع أن يُعد عالمًا من علماء النقوش (epigraphist) / ولكن من شأن روايته أن تجتذب أنظار عالم الآثار . أما أسلوبه فهو فى العادة أسلوب متزن يتمتع بالكثير من الدقة التقنية (technical) مما يعاون على وضع معجم خاص للألفاظ من ميدانى الآثار (archaeology) والفنون التصويرية[١٠٥] (fine arts) ؛ ومن الملاحظ أنه يوجد من بينها عدد من الكلمات الإسبانية التى استعملت فى ذلك العصر[١٠٦] .

وهذا الوصف فى مجموعه ذو أهمية كبيرة، لأنه وثيقة تاريخية تقدم لنا لوحة جيدة لاسبانيا فى القرن الثامن عشر ، وهو يمثل مصدرًا هامًا للغاية للتعريف بها . ومعطياته عن المجتمع الإسبانى كيفتها بصورة قوية وجهة نظره الخاصة كمسلم ؛ وهى على أية حال لا تضيف كثيرًا إلى مادة الغسانى . ولكن إلى جانب هذا فإن تصويره لافتكاك الأسرى وتسلم المخطوطات يشكّل مادة أصيلة ذات قيمة قصوى لا وجود لها فى مصدر آخر سواه . ووصفه للآثار العربية باسبانيا يسبغ على مصنفه لونًا فريدًا لا يقابلنا فى الفترات التالية لهذا ، كما أنه ليس بمقدور مؤرخى الفن أن يلتقوا

---

(١٠١) - Pérès, L'Espagne, p. 28 - 29

(١٠٢) شرحه ، ص ٣١

(١٠٣) شرحه ، ص ٣٢ – ٣٣

(١٠٤) شرحه ، ص ٣٣ – ٣٤

(١٠٥) شرحه ، ص ٣٥ – ٣٨

(١٠٦) شرحه ، ص ٣٨ – ٣٩

بهذا القدر الكبير من التفاصيل التقنية (technical) فى محيط المعمار (architecture) ؛ وهو فى هذا الباب يحتل مكانة خاصة بين جميع الرحالين العرب الذين زاروا اسبانيا[١٠٧] ويمكن فى نقاط معينة مقارنة وصفه لاسبانيا فى القرن الثامن عشر بوصف فرنسا فى عهد لويس الخامس عشر الذى دوّنه محمد أفندى . وليس بعيدًا أن يكون قد ترك بعض الأثر على الأقسام المشابهة من مصنف الزيانى[١٠٨] . ولا يخلو من طرافة أن نلاحظ أن رحلة الغزال ربما كانت سببًا فى دفع الكاتب الأسبانى كادالسو Cadalso أو كاداهلسو Cadahalso (١٧٤١ - ١٧٨٢) لتأليف « الرسائل المراكشية » Cartas Marruecas التى يمكن مقارنتها من حيث الطرافة « بالرسائل الفارسية » Lettres Persanes لمونتسكيو ، ففيها يرد الكلام عن شخص يدعى غزال بن على Gazel ben Ali يقص على صديق له بمراكش ما رآه فى اسبانيا[١٠٩] .

ونستطيع أن نختتم عرضنا للأدب الجغرافى فى القرن الثامن عشر بالوقوف عند مؤلف يعد أنموذجًا مثاليًا لهذا العصر ؛ وهو لم يكن من أهل الجغرافيا بالمعنى الضيق لهذا اللفظ ولكن المادة الجغرافية وجدت طريقها إلى معجمة الضخم الذى لا يزال حتى هذه اللحظة المرجع الأول فى اللغة العربية لجميع المهتمين بدراستها ولا تخلو منه مكتباتهم . بل إن سيرة حياته تعد فى ذاتها أنموذجًا صادقًا لهذا العصر الذى يسبق مباشرة عصر النهضة العربية الجديدة ، فقد ولد محمد مرتضى الزبيدى بالهند فى عام ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢ ولكنه ينتمى إلى أسرة عربية أصلها من العراق ودرس فى شبابه بمكة وعاش طويلا باليمن ومنها أخذ لقب الزبيدى نسبة إلى مدينة زبيد باليمن . ومنذ عام ١١٦٧ هـ = ١٧٥٣ استقر بالقاهرة ومن ثم اقتصرت أسفاره بعد ذلك التاريخ على مصر وحدها فزار مضارب القبائل العربية بمصر السفلى / والعليا ، وتوفى بالقاهرة من الطاعون فى عام 756
١٢٠٥ هـ = ١٧٩١[١١٠] . وقد تمتع الزبيدى خلافًا لما كان عليه العلماء فى ذلك العهد باحترام كبير من معاصريه ومن السلطات الحاكمة لسعة اطلاعه ونشاطه الجم فى مجال التدريس ،

---

(١٠٧) شرحه ، ص ٣٩ - ٤٠

(١٠٨) - Lévi - Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 329

(١٠٩) - Pérès, L'Espagne, p. 40, note 1

(١١٠) - Brockelmann, GAL, II, p. 287 - 288, No 18; SB II, p. 398 - 399 - Brockelmann, Al - Zabidi, p. 343 - 744 - Sarkis, p. 1725 - 1728 -

تاج العروس ، الجزء العاشر ، ص ٤٦٩ - ٧٤٠ - الجبرتى ، الجزء الثانى ، ص ١٩٦ - ٢١٠ ؛ الترجمة :
El Djabarti, V, p. 102 - 127

وبسبب مصنفاته كذلك . وتلميذه المؤرخ الجبرتى قد بين فضله الكبير فى إحياء التراث التعليمى بالأزهر ، بل إن أحد المستعربين الإنجليز يرى فيه « أعظم علماء عصره لا فى مصر وحدها بل وفى العالم الإسلامى قاطبة[١١١] » . ولا يزال شرحه الكبير « لإحياء علوم الدين »[١١٢] للغزالى متمتعًا بالرواج فى الأقطار الإسلامية حتى هذه اللحظة ، كما وأن أشعاره تكشف عن مهارة كبيرة، وتشبه فيها بمجنون ليلى الذى بدأ به اتجاه جديد فى تطور الشعر الرومانسى عند العرب .

ورواية الجبرتى التى يقول فيها إن الزبيدى صنف بعض « رحلات » يصف فيها أسفاره بمصر وأنها ربما شغلت مجلدًا بأجمعه تكتسب أهمية كبيرة بالنسبة لنا ، ولكنها فى أغلب الظن قد فقدت . ويمثل أحد الآثار الأساسية فى حياته معجمه الكبير الذى أمضى فى تأليفه أربعة عشر عامًا وأكمله فى سنة ١١٨١ هـ = ١٧٦٧ - ١٧٦٨[١١٣] أو فى سنة ١١٨٨ هـ = ١٧٧٤[١١٤] ، وهو « تاج العروس من (شرح) جواهر القاموس « الذى يمثل فى جوهره شرحًا لمعجم الفيروزابادى للقرن الرابع عشر ؛ ولعل فكرة وضع المعجم قد واتته وهو ما زال بزبيد إذ من المعلوم جيدًا أن الفيروزابادى عاش بعض الوقت بها . وأهمية هذا المعجم من وجهة نظر موضوعنا ينصب فى أنه يحوى قدرًا من الأسماء الجغرافية وإن جاء ذلك بصورة أقل بالطبع مما هو عليه الحال مع المعاجم الجغرافية الخالصة مما مر بنا الكلام عليه . وفى معرض تعداده لمصادره يذكر الزبيدى بعض المصادر الجغرافية ، وهى رغم قلتها إلا أنها ذات أهمية بالنسبة لنا لأنها تبين أى المراجع بالذات فى ذلك الميدان وجد فى متناول أيدى الأوساط العلمية قرب نهاية القرن الثامن عشر . ومن بين المعاجم الجغرافية يذكر الزبيدى اثنين فقط هما ياقوت والبكرى[١١٥] ، ولا يخلو من مغزى فى هذا الصدد أنه لم يوجد بين يديه من مصنف ياقوت سوى ثلاثة أجزاء فقط هى الأول والثانى والعاشر . أما بقية مراجعه الجغرافية فترجع إلى عهود متأخرة ودونت بمصر بصورة خاصة ،

---

(١١١) Heyworth - Dunne, Introduction, p. 35 -

(١١٢) الزبيدى ، اتحاف السادة المتقين ، ١ - ١٣ ، فاس ١٣٠١ هـ - ١٣٠٤ هـ

(راجع Brockelmann, GAL, I, p. 422: 1302 - 1304)

؛ ١ - ١٠ ، القاهرة ١٣١١ هـ - Vollers, ZDMG,47, p. 538

(١١٣) الجبرتى ، الجزء الثانى ، ص ١٩٧ - Brockelmann, GAL, II, p. 288, 1

Sarkis, p. 1727 - Lane, I, p. XVII - XXIII

(١١٤) تاج العروس، الجزء العاشر ،ص ٤٦٥ -المسودة الثانية ١١٨٨ هـ=١٧٧٤ - الجبرتى، الجزء الثانى، ص ١٩٩

(١١٥) تاج العروس ، الجزء الأول ، ص ٤

وجميعهـا نماذج من الجغرافيـا « الإقليميـة » (regional) مثـل « الانس الجليـل » لمجير الدين[١١٦] ، /وابن مماتى ، وابن الجيعان ، وبالطبع « الخطط » للمقريزى[١١٧] ؛ وهى كلها قد 757
مرت علينا فى حينها . ويتضح من هذه القائمة أن المؤلفين القدامى قد طويت عليهم ذيول النسيان ، كما أن المحدثين لم يكونوا معروفين بالقدر الذى يبدو طبيعيًا بالنسبة لمصر أو بالنسبة لما وصل إلى أيدينا . وعلى الرغم من هذا فإنه تقابلنا فى المعجم معطيات تمثل قيمة لا شك فيها ، لا فيما يتعلق بتصحيحها لتسمية جغرافية ماوردت فى الشعر الجاهلى أو بتبيان اشتقاقها فحسب بل بالنسبة للعصور المتأخرة كذلك . ولنقتصر فى هذا الصدد بذكر مثال واحد ، فهو يسوق تحت لفظ « قسط » أسماء خمسة مواضع جغرافية[١١٨] وهى « قُسْطانة » (بإيران) و « قُسَنْطانة » (بالأندلس) و « قُسْطون » (قرب حلب) و « قُسَنْطينة » (بإفريقيا) و « قُسْطَنْطِينية » (بيزنطة = استنبول) ؛ وعن هذه الأخيرة يستفيض فى كلام طويل يمكن كما بين مقال تيشنر Taeschner[١١٩] أن يحتل مكانه بين الروايات الإسلامية الأخرى فى وصف هذه المدينة . من كل هذا يتبين لنا أنه حتى بالنسبة للنماذج التقليدية فى الأدب العربى ، وذلك فيما يتعلق بنمط المعاجم ، فإنه لا يمكن اطراحها جانبًا إذا ما عرضت لفحص دقيق .

هذا وقد كتب للمعجم حظ يشابه الحظ السعيد الذى كان من نصيب المؤلف ؛ فقد تسلم هذا الأخير مائة ألف درهم[١٢٠] على النسخة الأولى منه ، كما وأن تقديره لم يقف عند بنى جلدته وحدهم فالمستعرب لين E. W. Lane (١٨٠١ - ١٨٧٦) تعرّف عليه منذ فترة رحلته الأولى إلى مصر ووجدت تحت تصرفه فيما بعد نسخ جيدة من « تاج العروس » اعتمد عليها بالتالى اعتمادًا أساسيًا فى وضع معجمه العربى الإنجليزى Arabic - English Lexicon الذى طبقت شهرته الآفاق . غير أن القاموس لم يظهر كاملا فى طبعة عربية دفعة واحدة ، فالمحاولة الأولى فى هذا المجال كانت فى عام ١٢٨٦ هـ - ١٢٨٧ هـ = ١٨٦٩ - ١٨٧٠ ووقفت بصدور الجزء الخامس . وبعد عشرين عامًا من هذا ظهرت الطبعة الكاملة له فى عشرة أجزاء فى سنة

---

(١١٦) تاج العروس ، الجزء الأول ، ص ٤

(١١٧) تاج العروس ، الجزء الأول ، ص ٤

(١١٨) تاج العروس ، الجزء الخامس ، ص ٢٠٦

(١١٩) - Taeschner, Bericht, p. 85, note 10

(١٢٠) الجبرتى ، الجزء الثانى ، ص ١٩٩

١٣٠٦ هـ - ١٣٠٧ هـ = ١٨٨٩ - ١٨٩٠ بفضل اهتمام الأديب والمربى الكبير إبراهيم المويلحى (١٨٤٦ - ١٩٠٦) ؛ ولا يزال جميع المشتغلين بدراسة اللغة العربية يعترفون له بالفضل فى ظهور هذه الطبعة المهمة التى تعد أهم معين لهم فى أبحاثهم . إلا أن دور المعجم فى مجال الأدب الجغرافى ليس بكبير ، رغمًا من أن شخص المؤلف نفسه يقف أنموذجًا حيًا لذلك العصر فقد توفى الزبيدى قبل سبعة أعوام من حملة بونابرت على مصر ، وهى اللحظة التاريخية التى يبدأ بها تاريخ الأدب العربى الحديث*.

والمصنف لا يخلو من الفائدة فى مجال آخر ، فهو يقدم لنا فكرة عن تلك الآثار الجغرافية بالذات التى كانت معروفة لدى أحد كبار علماء ذلك العصر فى أعلى معهد علمى بالعالم الإسلامى ، كما يبين لنا ما كان يجتذب اهتمامه فى ميدان الجغرافيا بصورة خاصة . وبالطبع فإن الجغرافيا لم تجد طريقها إلى المنهج الدراسى آنذاك ؛ والمثال الوحيد الذى يمكن أن نسوقه لارتباطه
بالجغرافيا من حين لآخر هو دراسة بعض مجموعات الحديث حيث ارتبط توزيع المادة / ببعض 758
القواعد الجغرافية ، مثال ذلك « الأربعين البلدانية » لأحمد السلفى (توفى حوالى عام ٥٧٦ هـ = ١١٨٠)[١٢١] التى يرتبط كل حديث فيها من بين الأحاديث الأربعين ببلد ما ويقدم بذلك فكرة عن أسفار المؤلف[١٢٢] ؛ وكان يرد من وقت لآخر ذكر لتدريس هذه المجموعة بالأزهر فى القرن الثامن عشر . أما المدارس القبطية بمصر فى ذلك العهد فمن الجلى أنها هى أيضًا لم تول عناية ما للجغرافيا[١٢٣] .

---

* يقول المرتضى الزبيدى إن معجمه اشتهر أمره «حتى استكتبه ملك الروم نسخة وسلطان دارفور نسخة وملك المغرب نسخة». كل هذا يقف دليلاً على أن وحدة الثقافة الإسلامية فى تلك الأزمنة المتأخرة التى عدت أقصى ما بلغه العالم الإسلامى من تدهور لم تكن قد انفصمت بعد؛ وكان ذلك قبل أعوام فقط من الحملة الفرنسية على مصر والشام التى بدأت بها النهضة العربية الحديثة. ولنضيف أن دولة الكويت اهتمت أخيراً بإخراج طبعة محقّقة لتاج العروس فى عدد كبير من الأجزاء الجيدة الطبع لا تزال توالى الصدور. (المترجم).

(١٢١) - Brockelmann, GAL, I, p. 365, No 9; SB I, p. 624

(١٢٢) حاجى خليفة ، الجزء الأول ، ص ٢٣٣ ، رقم ٣٩٧

(١٢٣) - Heyworth - Dunne, p. 85, note 5

المستشرقون والجغرافيا العربيـة

صلاح الدين عثمان هاشم

المستشرقون والجغرافيا العربية

يحتل أدب الجغرافيا والتاريخ مكانة مرموقة بين خيرة ما أسهم به العرب في ميدان المعارف البشرية . هذا ولقد أحدث تراث العرب في هذين الفرعين من العلوم رد فعل شديد على المستشرقين الأوروبيين بمجرد تعرفهم عليه ، وأقروا منذ البداية أنه المصدر الوثيق لدراسة العالم الاسلامي في حدود الزمان والمكان وأن أوروبا الوسيطة لم تنتج شيئاً يمكن أن يضارع ماأنتجه العرب في هذين المجالين .

والأدب الجغرافي العربي لم يقتصر على وصف العالم الإسلامي وحده ، بل أمدنا بمعلومات من الدرجة الأولى عن جميع البلاد التي بلغها المسلمون أو التي تجمعت لديهم معلومات عنها ، وذلك بالصورة نفسها التي وصفوا بها بلاد الاسلام . وقد يحدث أحياناً أن تمثل المادة الجغرافية العربية المصدر الوحيد أو المصدر الأهم في معرفتنا بقطر ما خلال حقبة معيّنة من تاريخه .

وبوجه عام سار هذا الأدب في اتجاهين متميزين ، فهو من ناحية **يقترب من العلوم** الدقيقة وذلك عندما تعرّف العرب على التراث اليوناني في الجغرافيا والفلك ونقلوه إلى اللغة العربية . أما **الاتجاه الثاني فكان في مجال الجغرافيا الوصفية** التي يرتبط بها ارتباطاً وثيقاً قصص الرحلات والأسفار . وهذا الاتجاه الثاني هو الذي يغلب على الأدب الجغرافي العربي ويسبغ عليه طابعه المميّز ويعطيه شكله الخاص به مما يصعب معه ايجاد مثيل له في آداب الأمم الأخرى . وهذا أمر مفهوم إذا ماأخذنا في حسابنا اتساع رقعة العالم الاسلامي خاصة في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وحاجة الخلافة إلى إدارة الأقطار العديدة التي انضوت تحت لوائها . كذلك فإن مصالح الدولة

التي أصبحت أكبر قوة عالمية لذلك العهد ، حالت دون اكتفائها بمعرفة أراضيها وحدها ، بل كان من الضروري أن تحصل على معلومات عن الأقطار الأجنبية خاصة المتاخمة لحدودها مثل بيزنطة .

ومما عاون أيضاً على معرفة المسلمين بدار الإسلام حج البيت الذي هو فرض على كل مسلم ما استطاع إليه سبيلا . كذلك أسهمت التجارة في كشف الطرق البرية والبحرية التي ربطت أرض الخلافة أقاصيها بأدانيها، بل إن التجارة تجاوزت تلك الحدود فجذبت في فلكها مناطق بعيدة لم يكن الاسلام قد وصل إليها .

وتاريخ الأنماط المختلفة للأدب الجغرافي العربي مر بحقب مختلفة . فقبل القرن الثالث الهجري لم توجد مصنفات جغرافية قائمة بذاتها ، إنما تقابلنا من وقت لآخر معلومات جغرافية متناثرة حفظها لنا الأدب اللغوي فيما بعد أو تردد صداها في الرحلات الخيالية . ولقد كان القرن الثالث الهجري بحق هو عصر الانبثاق ، إذ تم فيه التعرف على آثار بطليموس وأدّى هذا بدوره الى ظهور الترجمات من اليونانية التي بدأت بها الجغرافيا العلمية . أما القرن الرابع فهو العصر الذي بلغ فيه الأدب الجغرافي العربي أوجه ، وذلك بظهور المؤلفات الكبرى في ميدان الجغرافيا بما تميزت به من اهتمامها بوصف «المسالك والممالك» وأيضاً بظهور المصورات الجغرافية أو الخارطات لدى المسلمين . وفي القرنين الخامس والسادس ظهرت المعاجم الجغرافية والأوصاف العامة للعالم اجمع .

ولما تعرّف المستشرقون على هذا الأدب هالهم بسعته وضخامته حتى قال احدهم وهو تيودور نولدكه : «إن الجغرافيا في اكثر من ناحية هي الجانب الأكثر إشراقاً في الأدب العربي» . ولقد وضح منذ البداية لهؤلاء المستشرقين مدى اتساع المعرفة الجغرافية لدى العرب عند مقارنة ذلك بما عرفه العالم القديم أو العالم الأوروبي **في العصور الوسيطة . فقد عرف العرب بخلاف العالم الاسلامي أوروبا بأجمعها باستثناء أقصى شماليها ، وعرفوا النصف الجنوبي من آسيا كما عرفوا افريقيا الشمالية الى خط عرض ١٠° شمالا وساحل أفريقيا الشرقي إلى قريب من مدار الجدي . وترك لنا العرب وصفاً مفصلا لجميع الأقطار من إسبانيا غرباً إلى تركستان ومصب نهر السند شرقاً مع وصف دقيق لجميع النقاط المأهولة وللمناطق المزروعة وأماكن وجود المعادن . ولم يجتذب اهتمامهم الجغرافيا الطبيعية والظروف المناخية فحسب بل أيضاً الحياة الاجتماعية والصناعية والزراعية واللغة والأديان .**

وكما ذكرنا فإن معارف العرب الجغرافية لم تقتصر على بلاد الاسلام **بل تجاوزت بصورة ملحوظة حدود العالم كما عرفه اليونان . ومعرفة هؤلاء الاخيرين بالبلاد**

الواقعة الى الشرق من بحر قزوين كانت ناقصة ، كما لم تكن لديهم فكرة ما عن الساحل الشرقي لآسيا الى الشمال من الهند الصينية . وعلى العكس من ذلك عرف العرب الطريق البري الذي يؤدي الى سيبيريا الغربية وعرفوا سواحل آسيا الشرقية إلى كوريا شمالا . ولا يزال موضع جدال معرفتهم باليابان ، ولكن ورد ذكرها في خارطة محمود الكاشغري للقرن الحادي عشر الميلادي التي تم الكشف عنها في بداية القرن العشرين . ومن المحتمل أنه حصل على معلومات بشأنها في آسيا الوسطى التي عرفها جيداً ، أما عن طريق البحر فمن الثابت أن العرب لم يبلغوا اليابان . وفيما يتعلق بمعرفتهم بأفريقيا فان أول مرة يظفر فيها جوف أفريقيا بوصف مفصل كان ذلك في مؤلفاتهم ، وقد ظلت معلوماتهم تمثل القول الفصل عن أفريقيا الى حين ظهور المستكشفين الجغرافيين الأوروبيين في القرن التاسع عشر . هذا وقد أثبت البحث العلمي المعاصر أهمية المعلومات التي جمعوها حتى عن أقطار نائية مثل ارخبيل الملايو واسكنديناوه وجنوب شرقي أوروبا .

ومن المتفق عليه أن خير عرض عام لمعرفة العرب بأقطار العالم في العصور الوسيطة المتأخرة هو الذي يقدمه لنا في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) **المؤرخ والجغرافي أبو الفدا عماد الدين اسمعيل بن الملك الأفضل الأيوبي** (٦٧٢ هـ ـ ٧٣٢ هـ = ١٢٧٣ م ـ ١٣٣١ م) وذلك في مقدمته لكتابه «تقويم البلدان» . ففيها يبين أنه على الرغم من دور العرب الكبير في وصف العالم المعروف آنذاك ، فان معرفتهم ببعض مناطقه كانت ناقصة ، ويحدد ذلك بالألفاظ الآتية : « فان اقليم الصين مع عظمته وكثرة مدنه لم يقع إلينا من أخباره إلا الشاذ النادر وهو مع ذلك غير محقّق ، وكذلك اقليم الهند فان الذي وصل الينا من أخباره مضطرب وهو غير محقق ، وكذلك بلاد البلغار وبلاد الجركس وبلاد الروس وبلاد السرب وبلاد الأولق (رومانيا حالياً) وبلاد الفرنج من الخليج القسطنطيني إلى البحر المحيط الغربي فانها بلاد كثيرة ، وممالك عظيمة متسعة إلى الغاية ومع ذلك فان أسماء مدنها وأحوالها مجهولة عندنا لم يذكر منها إلا القليل النادر ، وكذلك بلاد السودان في جهة الجنوب فانها أيضاً بلاد كثيرة لجنوس مختلفة من الحبش والزنج والنوبة والتكرور والزيلع وغيرهم ، فانه لم يقع الينا من أخبار بلادهم إلا القليل ا لنادر . وغالب كتّاب المسالك والممالك انما حققوا بلاد الاسلام ومع ذلك فلم يحصوها عن آخرها ولكن كما قيل مالم يعلم كله لايترك كله ، فان العلم بالبعض خير من الجهل بالكل» .

والمستعرب الروسي كراتشكوفسكي يحدد العيب الأساسي للأدب الجغرافي العربي في خضوعه للنظريات الموروثة عن الأوائل ، على الرغم من أن تجارب العرب كثيراً ماأدت الى استكمال النظريات وتعديلها ، بل وحتى الى صرف النظر عنها . فهم

تبعوا اليونان في زعمهم أن المعمور من الأرض هو ربعها فقط وذلك في النصف الشمالي منها وهو ما عرف باسم «الربع المعمور» ، كما اعتنقوا الرأي القائل باستحالة الحياة في البلاد الشديدة الحرارة أو القارسة البرودة . وإذا كان اعتناق اليونان وأوروبا الوسيطة لهذه النظرية الأخيرة له مايسوّغه في عدم إلمامهم بالبلاد الواقعة إلى الجنوب من خط الاستواء فان العرب بفضل رحلاتهم البحرية قد عرفوا جيداً تلك الجهات من أفريقيا مثل زنجبار ومدغشقر حيث رأوا رأي العين عدداً من النقاط المأهولة ، وعلى الرغم من هذا فقد استمرت تلك النظرية العقيمة عائشة بين ظهرانيهم دون أدنى تعديل .

وثمة فكرة أخرى عاقت تقدم النظرية الجغرافية لديهم ، هو اعتناقهم لرأي اليونان بتقسيم المعمورة إلى سبعة أقاليم ، وهي أحزمة عريضة مرتبة من الجنوب إلى الشمال في موازاة خط الاستواء ومبتدئة منه على وجه التقريب . هذا التقسيم وضعه اليونان على أساس الطول النسبي للنهار والليل أو ميل الشمس على خط الاستواء (باليونانية «كليما» وجمعها «كليماتا») .

وعلى الرغم من هذا فان المستعرب الروسي الكبير اضطر الى الاعتراف في نهاية الأمر بأن **الأدب الجغرافي العربي يدهش بقيمته العلمية والتنوع الكبير في فنونه وانماطه** . «ففيه تقابلنا الرسالة العلمية في الفلك والرياضيات ، كما تقابلنا الكتب العملية التي وضعت من أجل عمال الدواوين وجمهرة المسافرين . وهو يقدم متعة ذهنية كبرى إذ نلتقي فيه بنماذج أدبية فنية رائعة ، صيغت بالسجع أحياناً . والمصنفات الموضوعة من أجل جمهرة القراء يتراوح فيها العرض بين الجفاف والصرامة من جهة والامتاع والحيوية من جهة أخرى ، وهنا تبدو مقدرة العرب الفائقة وبراعتهم في فن القصص . ولقد أثار هذا الأدب اهتماماً بالغاً بسبب تنوعه وغنى مادته ، فهو تارة علمي وتارة شعبي ، وهو طوراً واقعي وأسطوري على السواء ، تكمن فيه المتعة كما تكمن فيه الفائدة لذا فهو يقدم لنا مادة دسمة متعددة الجوانب لايوجد مثيل لها في أدب أي شعب معاصر للعرب . وقد أثبت البحث العلمي المعاصر أن مادة الأدب الجغرافي العربي أبعد من أن تكون قد استوفت حقها من الدراسة والاستقصاء حتى في أيامنا هذه . بل الواقع أنها أخذت الآن فقط تدخل بعض الشيء في نطاق البحث العلمي المعاصر بصورة أوسع» . وسنبصر صدق هذا القول فيما سيلي من بحثنا هذا .

* * *

مرت معرفة العلم الأوروبي بالجغرافيا العربية على أطوار مختلفة وبمستويات سرعة متفاوتة ، كما خضعت لتغيرات وفقاً للمستوى العام للعلم ولحالة الاستعراب ، ولما بدأ المستعربون في أوروبا يوجهون اهتمامهم إلى الجغرافيا عند العرب كان مفهوم الجغرافيا لديهم آنذاك يختلف اختلافاً كبيراً عن مفهومه الآن . وإذا صحّ

القـول إن جميـع العلوم قد غيرت من منـاهجها وأهدافها في مائة العام الأخيرة فان هذا يصدق على الجغرافيا بصورة خاصة .

ولم يشتهـر المستشـرقـون كجغـرافيـين ، على الأقـل في الفتـرة الأولى من بداية الاستعراب . وهذا أمر طبيعي لأن علم الجغرافيا الحديث بدأ في منتصف القرن التاسع عشـر بفضـل مجهـودات العـالِمين الألمانيَين الكسندر همبولت (١٧٦٩ ـ ١٨٥٩) وكارل ريتـر (١٧٧٩ ـ١٨٥٩) . ومن المـلاحـظ أن ريتـر في وصفــه المفصّل لأفريقيا وآسيا قد اعتمد كثيراً على الترجمات التي عملها المستشرقون للمصادر الجغرافية العربية .

ولقـد اقتصـرت مجهودات المستشرقين آنذاك على نشر المتون وترجمتها والتعليق عليهـا . وكـان اهتمـامهم في أول الأمـر موجهاً الى كتب الهيئة (الفلك) والزيجات . وقد تعرفت أوروبا على الجغرافيا الفلكية عند العرب قبل زمن طويل من نشأة الاستعراب . ولمـا بدأ العلم الأوروبي اتصـالـه المبـاشر بالأصـول العربية أخذ الاهتمام بالجغرافيا الوصفية يعادل الاهتمام بالجغرافيا الفلكية . ففي عام ١٥٩٢ طبع بايطاليا أول متن في الجغرافيا الوصفية وهو موجز كتاب الشريف الادريسي ، وفي القرن السابع عشر نشر المستشـرق الهـولنـدي ياكـوب غوليس (١٥٩٦ ـ ١٦٦٧) الجداول الفلكية للفرغاني ، وبهـذا وضـع أول لبنـة في اساس دراسة الأدب الجغرافي العربي اعتماداً على مصادره الأصليـة . وفي بدايـة القـرن التـاسـع عشـر ظهـر بحثـان ممتازان لايزالان إلى اليوم محتفظـين بقيمتهمـا ، أحدهما ترجمة وصف مصر لعبد اللطيف البغدادي التي قام بها المستشـرق الفـرنسي الكبـير سلفستر دي ساسي (١٨١٠) ، والآخر ترجمة المستشرق الـروسي (الألمـاني الأصـل) كريستيـان فرين لرسـالـة ابن فضـلان (١٨٢٣) وقد عُدَّ البحثان حجر زاوية في بداية الدراسة العلمية للأدب الجغرافي العربي .

وفي منتصف القرن التاسع عشر اشتدت الحاجة الى مصنف عام يجمع شتات ما عرف إلى تلك اللحظـة ، لذا فقـد نال أهميـة غير عاديـة كتاب المستشرق الفرنسي رينو (١٨٤٨) الذي أراد به في الأصل وضع مقدمة من أجل طبعة علمية متكاملة لمصنف أبي الفـدا «تقـويم البلدان» . غير أن البحث مالبث أن استفـاض وتجـاوز حدود موضـوعه متخـذاً صورة عرض عام مستقـل لتطـور علم الجغرافيا وآدابها لدى المسلمين . ويمثل الكتاب سفراً في أكثر من اربعمائة وخمسين صفحة تنعكس خلالها معرفة المؤلف الجيدة بالجغـرافيـا الـوصفية والفلكية عند العرب . وكان خطوة كبرى في دراسة الموضوع ولم يأخذ مكانه مصنف آخر الى ظهور كتاب كراتشكوفسكي الضخم في منتصف القرن العشرين .

وفي تحليلنـا لإسهـام المستشرقين في مجال الجغرافيا العربية ، سنركز اهتمامنا على شخصيات أربع أوشكت أن تستغرق جوانب الموضوع ، اثنان منهم عاشا في القرن التـاسـع عشـر وركـزا اهتمامهما في نشر النصوص الجغرافية ، وهما الألماني فرديناند

فستنفلد والهولندي ميشيل دي خويه . أما الآخران فهما المستعرب الروسي الكبير اغناطيوس كراتشكوفسكي والمستعرب الفرنسي المعاصر اندريه ميكيل اللذان ركزا مجهودهما في دراسة تاريخ الأدب الجغرافي العربي وقدّما لنا في السنوات التالية للحرب العالمية الثانية سفرين ضخمين في هذا الصدد لايستغني عنهما من يود الخوض في أي مسألة تتعلق بالجغرافيا عند العرب .

* * *

(أ) فرديناند فستنفلد (١٨٠٨ ـ ١٨٩٩)

كان عدد المخطوطات العربية التي جلبت الى أوروبا من الشرق قد نما بصورة ملحوظة في القرن التاسع عشر ، مما حفز العلماء الى فهرستها ثم نشرها بالتالي . وممن كانت له يد طولى في هذا الميدان المستعرب الألماني فرديناند فستنفلد الذي درس اللغات السامية بجامعتي جوتنجن وبرلين . وقد تركزنشاط فستنفلد بصورة خاصة في نشر الأصول العربية لعدد من المصنفات الهامة في ميداني التاريخ والجغرافيا ، وكان أول من زوّد نشراته بالفهارس المفصلة مما سهل على الباحثين الخوض فيها دون عناء كبير ، كذلك بذل جهده في تحقيق أسماء الأعلام والأماكن وارجاع النقول والاستشهادات الى مصادرها الأصلية .

وفي مجال التاريخ ندين له بنشرسيرة ابن اسحاق (ابن هشام) في جزئين في عامي ١٨٥٨ و ١٨٦٠ ، كما ندين له أيضاً بنشر مجموعة تواريخ مكة ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وبعض مصنفات المقريزي . أما في مجال الجغرافيا فندين له بأعمال عظمى يأتي في مقدمتها نشره «لمعجم البلدان» لياقوت الحموي (٥٧٥ هـ ـ ٦٢٦ هـ = ١١٧٩ ـ ١٢٢٩) . ويرى البعض أن نشر فستنفلد لمعجم ياقوت في ستة أجزاء في الفترة من ١٨٦٦ الى ١٨٧٣ كان أكبر عمل يضطلع به مستشرق بمفرده وأنه قدم بهذا خدمة للعلم لاتقدر بثمن .

ذلك أن ياقوت الذي أتمّ تسويد معجمه عام ٦٢١ هـ (١٢٢٤) انما كان يهدف الى جمع المادة الجغرافية التي تراكمت منذ بداية التصنيف الجغرافي لدى العرب إلى منتصف القرن السادس الهجري ليوفر على القارىء البحث عن مظانها . ولقد كان ياقوت محقاً في هذا ، فقد حدث فعلا أن هلك قسم كبيرمن المادة التي وجدت تحت تصرفه وذلك في خضم الكارثة الكبرى التي اجتاحت العالم الاسلامي بعد أعوام قليلة من تأليفه للمعجم ، الا وهي كارثة الغزو المغولي للعالم الاسلامي .

ويتفق الباحثون على أن «معجم البلدان» هو أضخم عمل جغرافي يقوم به مؤلف اسلامي على الاطلاق . ولاعطاء فكرة عن حجمه يكفي أن نذكر أن المتن المطبوع يضم ثلاثة آلاف وثمانمائة وأربعاً وتسعين صفحة ، تمثل جماع المعرفة الجغرافية لدى المسلمين على ممر القرون الستة الأولى للهجرة .

وعلى الرغم من أن فستنفلد قد طوّق عنق الاستعراب العالمي بهذا المجهود الرائع ، إلا أن طبعته هذه وإن وقفت على مستوى عال بالنسبة لحاجة عصرها ليس من شأنها أن تستوفي جميع المطالب الحالية فيما يتعلق بتحقيق النصوص ونشرها . غير أن فستنفلد والحق يقال قد بذل كل ماأمكنه من جهد في سبيل تحقيق أسماء الشخصيات التاريخية الواردة بالمعجم ، كما حقق مايقرب من ثلاثة آلاف من الشواهد الشعرية من المصادر الاخرى والتي يبلغ عددها في المعجم بين صغيرها وكبيرها خمسة آلاف . ليس ذلك فحسب بل أفرد الجزء السادس بحاله للفهارس فقدّم بذلك خدمة أخرى جليلة للعلم بأن سهّل للباحثين الذين أتوا بعده الخوض في ذلك الخضم المترامي الأطراف الذي يمثله «معجم البلدان» لياقوت .

هذا وقد اضطلع السيد محمد أمين الخانجي صاحب دار النشر المعروفة بالقاهرة بنشر طبعة أخرى للمعجم في ثمانية أجزاء ظهرت في عام ١٣٢٣ هـ - ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦) .وراجع متنها العلامة الشهير أحمد أمين الشنقيطي المتوفى عام ١٣٣١ هـ (١٩١٣) . غير أن هذه الطبعة لم تأت بجديد ولا يمكن اعتبارها سوى طبعة ثانية لطبعة فستنفلد ، وإن كان يقابلنا فيها أحياناً قراءات أفضل . أما الطبعة البيروتية الأخيرة فهي خلو من أية قيمة علمية .

وأما العمل الثاني من حيث الأهمية في ميدان الجغرافيا العربية الذي اضطلع به فستنفلد فهو نشره للمعجم الجغرافي لأبي عبيد الله البكري (المتوفى عام ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤) « أكبر جغرافي أخرجته الأندلس قاطبة » كما قال دوزي ، والذي يحمل عنوان «معجم ماستعجم من أسماء البلاد والمواضع» . وعلى الرغم من هذا العنوان الذي أعطاه إياه المؤلف فان المعجم تنصب معظم مادته إن لم يكن كلها على الجزيرة العربية بوجه خاص ، لأن المؤلف أولى اهتمامه لأسماء المواضع الواردة في القرآن والحديث والشعر الجاهلي ومغازي الرسول ، ولهذا السبب قدم لمعجمه بمقدمة طويلة تعالج الكلام على حدود الجزيرة العربية ومناطقها ونواحيها مثل الحجاز وتهامة واليمن . وفي القسم الثاني من المقدمة يعالج الكلام على القبائل المستوطنة في الجزيرة وعن ترحالها .

هذا وقد اجتذب اهتمام فستنفلد ماأغدقه العلامة دوزي من ثناء على المعجم فتعمق في دراسته ، وأدهشته مقدمته فنقلها كلها إلى الألمانية ودبّج على أساسها بحثاً

هاماً عن قبائل الجزيرة العربية ظهر عام ١٨٦٩ . ثم اتجهت عنايته إلى نشر المعجم فشرع في مقابلة المخطوطات المختلفة وهي مخطوطات مكتبات ليدن وكمبردج ولندن وميلان ، واستخلص من هذه النسخ الأربع صورة كتبها بيده ونشرها في طبعة حجرية في مجلدين كبيرين من القطع المتوسط بلغ مجموع صفحاتها مع المقدمة والفهرس أكثر من تسعمائة صفحة ، صدر المجلد الأول منها عام ١٨٧٦ وتلاه الثاني عام ١٨٧٧ . ولقد بذل فستنفلد قصارى جهده في الضبط والتحري والاستقصاء عن الأصول . وأضاف إلى الكتاب فهرساً شاملا للمواضع التي وردت قصداً في أماكنها وعرضاً في غير أماكنها فشمل سبعاً وخمسين صفحة كما قدّم له بمقدمة في اثنتي عشرة صفحة .

غير أن النسخ التي اعتمد عليها فستنفلد لم تكن أفضل النسخ ، لذا وقع في مطبوعه الكثير من التصحيف والتحريف ، بل الزيادة والنقص . ولعله تعجّل في نشره حتى يستفيد منه أهل البحث لحين العثور على مخطوطات أفضل تسوّغ ظهور نشره مطبعية ، كذلك مما يعيبه أنه أبقى المعجم على ترتيبه الذي وضعه عليه المؤلف ، وهو أمر غير مألوف لدى المشارقة لاختلاف ترتيب الحروف الهجائية في المغرب عنها في المشرق .

وفي خلال الحرب العالمية الثانية اهتم العلامة المصري مصطفى السقا بالمعجم فتتبع مخطوطاته بمصر حتى عثر على ثلاث نسخ ، اثنتين بدار الكتب المصرية والثالثة بمكتبة الأزهر . وقد اتضح له بعد دراستها أنها أقدم زمناً وأحسن ضبطاً وأتم تفصيلا من النسخ التي اعتمد عليها فستنفلد ، فشمّر عن ساعد الجد وقام بتحقيق الكتاب وترتيبه حتى أخرجه في مجلدين في طبعة قشيبة عام ١٩٤٥ ـ ١٩٥١ .

ومن المعلوم أن فستنفلد قد أخرج قبل نشره للمعجمين ـ وذلك في عام ١٨٤٦ ـ طبعة لمصنف آخر لياقوت بعنوان « المشترك وضعاً والمفترق صقعاً » أي انه بمثابة معجم للمواضع التي تشترك في الاسم ، ويتضح من ألفاظ المؤلف في المقدمة أنه استخرجه من المعجم الكبير ليكون أسهل عند المراجعة . ومادته مقتضبة إلى أقصى حد ، كما أسقطت منه جميع تلك الاستطرادات التي تضفي أحياناً على مصادرها أهمية خاصة . ونظراً لأنه تم تأليفه عقب المعجم الكبير فقد أضحى في حيّز الإمكان إضافة تفاصيل صغيرة إليه غير موجودة بالمعجم ، الأمر الذي يجعل من المفيد الرجوع إليه في أمثال تلك الحالات . أما من ناحية الكم فمادته هو أيضاً واسعة جداً إذ يورد فيه ذكر ألف وواحد وتسعين اسماً تعالج الكلام على أربعة آلاف ومائتين وواحدٍ وستين موضعاً جغرافياً .

كذلك نشط فستنفلد قبل إخراجه للمعجم في نشر المصنفين المشهورين لزكريا القزويني (٦٠٠هـ ـ ٦٨٢هـ = ١٢٠٣ ـ ١٢٨٣م) وهما «آثار البلاد» وذلك في عام ١٨٤٨ ، و«عجائب المخلوقات» وذلك في عام ١٨٤٩ . ولقد تمتع كتابا زكريا القزويني

برواج كبير في العالم الاسلامي وكانا أكثر الكتب قرباً إلى قلوب الجماهير ، ذلك أن معرفة جمهرة القراء بالآثار الأدبية لم ترتبط دائماً بأسماء كبار العلماء بل كانت في أغلب الأحيان من نصيب تلك المصنفات المحببة إلى نفوسهم والتي تتجاوب مع رغباتهم ، مما يشابه إلى حد كبير الروايات والقصص على أيامنا هذه .

ولعل السبب في رواج مصنفات زكريا القزويني هو أنه كان أكبر كوزموغرافي ومبسّط للعلوم من بين مؤلفي المسلمين . والكوزموغرافيا هي ذلك الفرع من الجغرافيا الذي يهتم بالظواهر الطبيعية والغرائب فهي بهذا تقرب كثيراً من نمط العجائب . وقد عالج الكتابة فيه قبل القزويني أحمد طوسي وبعده الدمشقي وابن الوردي ، غير أن القزويني امتاز عليهم في أنه استطاع أن يصوغ مادته بالكثير من المهارة بحيث لاتنفّر القارىء العام . وقد كان القزويني في الواقع يتمتع بمقدرة فائقة في تبسيط أكثر الظواهر تعقيداً وذلك بطريقة جذابة واضحة ، كما أن اسلوبه بوجه عام جمع بين البساطة والتنوّع .

وشهرة القزويني كما ذكرنا تقوم على هذين المصنفين اللذين قد يخلط الناس بينهما في مصنف واحد ، وإن وجب الاعتراف بأنهما يرتبطان ارتباطاً وثيقاً . غير أن قرائن الأحوال تشير إلى أن طبعة فستنفلد «لعجائب المخلوقات» تستند على مخطوطة معدّلة ليست من عمل القزويني ، بل ترجع الى القرن الثامن عشر ، وقد زاد فستنفلد من تعقيد المسألة بإسقاطه لقطع منها واستعانته بمسودات أخرى للكتاب لملء الفجوات ، وبهذا يوجد بين أيدينا في الواقع متن يقوم على أساس تحكّمي ولا يعكس صورة مسودة الكتاب الأصلية . من هذا يتضح أن فستنفلد لم يتفهم منهج طبع النصوص ، وقد نجد له العذر في هذا لأن ذلك المنهج لم يجد طريقه الى عالم الاستشراق إلا بعد أعوام عديدة من ذلك عندما دقّقه وهذّبه المستعرب الهولندي الكبير دي خويه . لكل هذا فان الحاجة لاتزال ماسة إلى إخراج طبعة علمية لكتاب القزويني هذا .

أما مصنف القزويني الآخر والذي يطلق عليه تجاوزاً اسم «جغرافيا» فهو معروف في روايتين تحمل احداهما عنوان «عجائب البلدان» وترجع الى عام ٦٦١ هـ (١٢٦٣) ، بينما تحمل الأخرى عنوان «آثار البلاد وأخبار العباد» ويرجع تاريخها إلى عام ٦٧٤ هـ (١٢٧٥) وهي تختلف عن الأولى اختلافاً كبيراً وتضم زيادات هامة . وتعتمد طبعة فستنفلد على الرواية الثانية .

وعلى الرغم مما يدين به العلم لفستنفلد في نشر آثار القزويني فمما لاشك فيه أن الباحثين لايزالون في حاجة إلى نصوص جيدة منها تفوق طبعات فستنفلد التي لم تعد وافية بمطالب البحث العلمي الحديث . وقبل أن نختتم حديثنا عن فستنفلد ينبغي أن

نذكر أنه لم يكتف بالنشر والتحقيق فحسب وإن وجب الاعتراف بأن هذا ميدانه الرئيسي ، بل حاول أيضاً تدوين بحوث تاريخية وجغرافية ، ومن بين هذه الأخيرة بحثه عن «اليمامة والبحرين» (١٨٧٤) . وقبل ذلك في عام ١٨٤٢ حاول وضع موجز ببليوغرافي للأدب الجغرافي العربي ، معتمداً في هذا اعتماداً كلياً على كتاب «كشف الظنون» لحاجي خليفة . فأورد أسماء مائة وستة وعشرين مؤلفاً ، وهو عدد لايمكن اعتباره في الآونة الحاضرة وافياً بالغرض . وقد فقد هذا البحث قيمته العلمية قبل وقت طويل من كتابه الآخر عن المؤرخين العرب الذي فرغ من تأليفه في أواخر سني حياته العلمية (١٨٨٢) .

* * *

(ب) ميشيل دي خويه (١٨٣٦ ـ ١٩٠٩)

إن كان الألماني فردينـاند فستنفلد هو أول من اهتم بنشر طبعات جيدة للمصنفات العربية في ميداني التاريخ والجغرافيا فإن الهولندي ميشيل دي خويه قد بلغ القمة بهذا الفن ، ولا تزال طبعاته تمثل الأوج في مجال نشر النصوص العربية وطبعها .

ولد يان ميشيل دي خويه ثالث ثمانية أطفال لقس هولندي فقير ، اهتم بتعليم أطفاله وأشرب قلوبهم حب العمل والتعاون . وقد أجاد يان لغته القومية واللغة الفرنسية منذ نعومة أظفاره ، وفي صباه شرع في دراسة اللاتينية وقفاها بالانجليزية والألمانية . وكان من المزمع أن يدرس يان الصيدلة لذا بدأ يعمل منذ صباه لدى صيدلي بمدينتهم ، الأمر الذي لم يحل بينه وبين متابعة دراسته ـ التي انضم اليها في عام ١٨٥١ ـ اللغة اليونانية أيضاً . غير أن هذا الجهد المضني أضر بصحته ، خاصة وأنه كان ضعيف البنية بطبيعته ، لذا فقد تحول الى دراسة اللاهوت حتى يضمن لنفسه مستقبلا في الخدمة الدينية . والتحق دي خويه بجامعة ليدن في عام ١٨٥٤ وهو العام نفسه الذي مات فيه أبوه ، فانتقلت الأسرة بحالها إلى تلك المدينة . ولم يلبث الشاب أن اكتشف في نفسه عزوفاً عن اللاهـوت وأنه ليس لديه ميل لأن يصبح قساً ، فاختار التخصص في اللغات السامية حيث سحرته اللغة العربية دون غيرها .

وبعد عامين في الجامعة اتصل بالمستعرب الهولندي الكبير رينهارت دوزي ليتعمق في دراسة العربية التي استمر فيها عامين آخرين . وكان دوزي آنذاك في قمة مجده العلمي ، فقد حصل على سمعة علمية بدراساته عن مسلمي اسبانيا . وعندما تتلمذ عليه دي خويه كان يعمل في نشر نصوص عربية ويدّون مصنفه الكبير «تاريخ مسلمي اسبانيا» ، لذا فقد طالع مع تلامذته النصوص التي خدمت كمصادر لذلك المصنف التاريخي المشهور .

ومن الأحداث ذات الأهمية في حياة دي خويه كانت زيارة المستشرق الألماني الشهير تيودور نولدكه لمدينة ليدن حيث أمضى شتاء ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨ في دراسة مجموعة مخطوطات وارنر بتلك المدينة . ولم يكن نولدكه يكبر دي خويه إلا بأشهر معدودة ، ولكنه استطاع منذ ذلك الوقت أن يضع الأسس لسمعة عريضة في ميدان الدراسات السامية . وقد توطدت العلاقات بين الإثنين وظلا يتكاتبان من عام ١٨٥٨ إلى موت دي خويه .

هذا ولقد افتتن دي خويه منذ البداية بالدراسات العربية ـ ممثلة في اللغة العربية وما لقيته من تطور ونمو ، وفي التاريخ والأدب العربي اللذين لايضارعهما تاريخ وأدب شعب آخر في ثرائهما وتنوّع أنماطهما ، مما جعل الدراسات العربية حجر الزاوية في صرح الدراسات السامية ـ وكان اقتناعه هذا في مصلحة العلم ، فبدلا من أن يوزع مجهوده في دراسة اللغات السامية بدرجة واحدة ركز اهتمامه الأساسي على العربية وآدابها ، وكان لهذا نتائج رائعة في تاريخ الاستعراب الأوروبي .

ويجب ألّا يغيب عن الذهن أن الاستعراب الأوروبي لم يكن قد تقدّم كثيراً آنذاك ، لأن المتون لم تكن قد طبعت في الشرق بأعداد كافية لتصبح في متناول أيدي المتعلمين والدارسين . أضف إلى هذا أن مانشر منها في طبعات علمية على أيدي المستشرقين كان نزراً للغاية ، ولسبب ما لم تكن من المتون الجيدة ذات السمعة الأدبية العريضة . لهذا فان أي مستعرب كان ينوي القيام بعمل جدي اضطر إلى الإقامة حيث توجد مجموعات المخطوطات الكبيرة . كل هذا يوضح لماذا كان عدد المستعربين بأوروبا ضئيلا في ذلك العهد .

ومن حسن حظ دي خويه أن استاذه في العربية وهو يينبول قد سهل له مهمة الاطلاع على مجموعة مخطوطات وارنر الغنية التي حوت المراجع الضرورية لاستمراره في البحث ، ذلك أن يينبول ـ الذي كان يتولى هو والمستشرق دي يونغ مهمة ادارة المخطوطات الشرقية ـ استطاع أن يحصل لدى خويه على وظيفة مساعد هنالك . ويجب الاعتراف لدى خويه بالشجاعة وقوة العزم أن ظل يتابع دراساته العربية في ظروف مالية عسيرة ومستقبل لايبشر بالكثير .

ومن الغريب أنه عرضت له فرص عديدة ليشغل وظائف لابأس بها كان من شأنها أن تسوق إلى تحسين وضعه المالي ، غير انه لم يعبأ لها وظل سائراً في الطريق الذي انتهجه لنفسه . وكانت خسارة كبرى بالنسبة للدراسات العربية لو تحول عن ذلك الطريق . إزاء هذا لم يبق له إلا أن ينتظر خلو أحد كراسي الاستشراق بجامعة من جامعات هولندا ، فلما سنحت الفرصة عام ١٨٦٦ ليشغل وضعاً مثل هذا بجامعة اوترخت اجتمع بعض اهالي ليدن واقنعوا المسؤولين بتعيينه استاذاً مساعداً بجامعتها

بمرتب معقول حتى لايفقدوا مستعربهم النابه . وعلى الرغم من أن المرتب لم يكن كبيراً ، إلا أنـه مكّنـه منذ تلك اللحظة أن ينصرف نهائياً إلى ميدان الدراسات العربية بحيث لم يفكـر في هجـرهـا بالتـالي . وفي عام ١٨٦٩ عنـدما تم تعيينه استاذاً بالجامعة كتب الى نولدكه يقول إنه بلغ أقصى مراده .

هذا القلق فيمـا يتعلق بمستقبله والـذي لازمـه لأعوام عديدة من حياته لم يمنعه البتة من مداومة نشاطه العلمي بجد لم يعرف الكلل إلى آخر أيام حياته . ولم يكن النحو واللغـة همـا اللذان اجتـذبـاه بل الأدب والتـاريخ والجغرافيا . ولمّا كان الاهتمام آنذاك منصباً في معظم الوقت في البحث عن المصادر الموجودة بمجموعات المخطوطات فقد كان من الطبيعي أن يتـركـز النشـاط في تحقيق النصـوص وإعـدادهـا للطبـع ، حتى يجد البـاحثـون المـادة الـلازمة لدراساتهم . وقد عمل دوزي من قبل في نشر عدد من المتون المـزوّدة بالتعليقـات والحـواشي ، ولكنه فضلّ أن يقوم آخرون بهذا العمل الذي لم يكن بالنسبة له سوى أداة لتسهيل الدراسة والبحث .

وعـلى النقيض من ذلـك كان دي خويه الذي وجهته سجيته الى تحقيق النصوص ونشـرهـا ، ووجـد تذوقاً عميقاً لهذا الضرب من العمل فجودّه وكانت أعماله التالية أكثر دقـة واكتمـالا من أعمـاله الأولى . وقد ظل يكرس وقته ونشاطه في هذا المضمار حتى بلغ درجـة رفيعـة جعلتـه أكبـر محقق للنصـوص في زمـانـه بل ولايزال يعدّ إلى هذه اللحظة الاستاذ الأول لهذا الفن والقدوة التي يقتدي بها محققو النصوص في أيامنا هذه . وليس أفضـل في هذا الصـدد من أن نسـوق الفـاظ المستعـرب البريطاني شارلس ليال: «وقد أصبح وسيظل في هذا الميدان استاذ جميع المستشرقين في زمانه . ولذلك سببان ، الأول والأهم هو إيمـانـه بضرورة اثبات وتوفير خير النسخ الممكنة للمصادر الأصلية واتخاذها أسـاسـاً لكـل دراسة دقيقة . ذلك أن سجل الكشف عن التاريخ والأدب الشرقي يحفل بالأخطاء غير المصححة والاستنتاجات الزائفة والتعميمات العاجلة التي لم تنضج . وفي هذا الصـدد ينبغي ألا نغـالي في لوم من ارتكبـوا هذه الأخطـاء ، لأنـه لم يتـوفر لهم من النصوص سوى القليل المعيب . على أن دي خويه قد أحس بأن التخطيط لأي صرح في هذا السبيل وإقامته يجب أن يسبقه توفير مادة أفضل مما كان ميسوراً ، ومن ثم كرس لذلك نشاطه في أدوار حياته كلها .

وأول متن عمـل دي خويـه على نشـره كان قد اختـاره له استاذاه يينبول ودوزي اللذان نصحاه بأن يجعل موضوع أطروحته متن الجغرافي الشهير ابن حوقل غير أن ذلك الأثر الهام الذي كان يحتاج نشره في تلك الآونة إلى جهد طويل الأمد لم يكن من شأنه أن يصلح موضـوعـاً لأطروحة جامعية ، ولهذا السبب فقد اختار دي خويه جغرافياً آخر هو

اليعقـوبي الـذي يمثل واحداً من المصادر الأساسية لابن حوقل . وحتى في هذا الصدد اقتصر دي خويه في نشره «لكتاب البلدان» لليعقوبي على القسم الذي يعالج الكلام عن المغرب ، فقام بتحضير متن ذلك القسم وترجمته والتعليق عليه كما قدم له بمقدمة ، كل ذلـك باللغـة الـلاتينيـة . وفي مقدمته حدّد مكانة اليعقوبي بين الجغرافيين العرب بقدر ماسمحت حال البحث العلمي آنذاك .

بهـذا بدأ اهتمـام دي خويـه بفـرع معـيّن من الأدب العربي هو أدب الجغرافيا خاصـة بجغـرافيي القـرنين الثالث والرابع للهجرة الذين قدّموا لنا أفضل وصف للعالم الاسـلامي مستقـين مادتهم من رحـلاتهم وزيـاراتهم لأقطاره المختلفة ومما سمعوه من غيرهم . وقـد عالجـوا في كتبهم الكـلام على جميع المسائل المتعلقة بالسكان والمواصلات والحياة العامة في صورها السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وفي خلال تحضـيره لأطـروحته لم يتوقف دي خويه عن تحضير طبعات لمصنفات أخـرى ، ولكن قبـل ظهـورهـا قام برحلة إلى انجلتـرا كانت جمـة الفـائدة بالنسبة له . فأمضى ثلاثـة أشهـر بأكسفورد وثلاثة أسابيع بلندن (يونيو ـ سبتمبر ١٨٦٢) ليقارن بين المخطـوطـات وينسخ بعضها أو اقساماً منها . وكانت في معظمها تمثل آثاراً تاريخية وجغـرافية ، ولكنه نسخ أيضاً بأكسفورد المعجم المعروف «أساس البلاغة» للزمخشري بهدف نشره مع دوزي ، وإن كان هذا لم يتحقق بالتالي لأن ذلك المعجم طبع بالمشرق .

وبعد عودته من انجلترا اتجه بحماس أكثر في تحضير متون مختلفة بغية نشرها في المستقبـل ، وكـان في معظم الأحوال يشتغل في تحضير أكثر من متن مركزاً اهتمامه في المتن الذي توجد لديه المصادر لتحقيقه ، فاذا ماقابل صعوبة من العسير اجتيازها تركه لبرهة من الزمن منتقلا إلى متن آخر .

وكـان أول أثـر جغـرافي يحققـه دي خويـه بعـد فراغه من اطروحته هو قسم من مصنف الادريسي ، وكان دوزي يفكر في اقناع بعض المستشرقين للمشاركة في إخراج طبعـة لذلـك الأثـر الكبـير تحت إشرافـه ، ذلك أنه لم ير النور منه إلى تلك اللحظة سوى القسم من صقلية الذي نشره المستشرق الايطالي اماري . ولم يكن الكتاب معروفاً إلاّ في ترجمـة فرنسيـة لجـوبـير لم تكن تبعث على الـرضـا . وقـد كلف دي خويه أثناء زيارته لانجلترا بجمع المادة الموجودة بمكتباتها في سبيل تحضير هذه الطبعة .

غير أن معاوني دوزي انسحبوا من المشروع بحيث اقتصر العمل على دوزي ودي خويـه اللذين نشـرا القسم المـوكـل إليهمـا مصحـوباً بترجمة فرنسية وتعليقات وشرح للألفـاظ العـويصـة وهـو القسم الذي خرج تحت عنوان «صفة المغرب وأرض السودان ومصـر والأنـدلس» مأخـوذة من كتـاب «نـزهـة المشتـاق في اختـراق الآفاق» للشريف

الإدريسي (١٨٦٦) . ولم يقـدر لمصنف الإدريسي أن يرى النـور بأجمعه إلا بعد أكثر من قرن من ذلك حين تحقق الحلم الذي داعب مخيلة دوزي ومعاونه دي خويه .

بعـد هذا اضطلع دي خويـه على مدى خمسـة وعشرين عاماً (١٨٧٠ ـ ١٨٩٤) بنشر الأجزاء الثمانية لما يسمى «بمكتبة الجغرافيين العرب» ، وكان يفكر في اضافة جزء تاسع يضم الأثر الجغرافي لابن سعيد ولكنه لم يوفّق في هذا . وكما هو معلوم فان «مكتبة الجغرافيين العرب» تضم آثار أشهر الجغرافيين الذين صنفوا بالعربية في القرنين الثالث والـرابـع الهجريين ، اللذين ـ كما ذكرنا ـ يعدان بحق ألمع فترة في تاريخ الجغرافيا عند العـرب . ولقـد بلغ دي خويـه حد الكمـال في تطبيقـه لمنهـج تحقيق النصـوص في هذه الطبعات ، وقدّم لكل جزء ـ كما هي عادته ـ بمقدمة يحدّد فيها مكانة كل مصنف .

وتتكون هذه المجموعة من المصنفات الآتية :

الجزء الأول : المسالك والممالك للأصطخري ـ ١٨٧٠ .
الجزء الثاني : المسالك والممالك (أو صورة الأرض) لابن حوقل ـ ١٨٧٨ .
الجزء الثالث: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي ـ ١٨٧٧ .
الجـزء الـرابـع : الفهـارس ، تفسـير المصطلحـات ، الإضـافات والتصليحات للأجزاء الثلاثة الأولى ـ ١٨٧٩ .
الجزء الخامس : كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني ـ ١٨٨٥ .
الجزء السادس : المسالك والممالك لابن خرداذبه ، وكتاب الخراج لقدامه ـ ١٨٨٩ .
الجـزء السـابـع : الأعـلاق النفيسـة لابن رستـه ، وكتاب البلدان لليعقوبي ـ ١٨٩٢ .
الجزء الثامن : التنبيه والاشراف للمسعودي ـ ١٨٩٤ .

هذه هي أجزاء هذه المجموعة الثمينة التي طوّق بها دي خويه عنق الاستشراق ، ولنستـدرك انـه تم بالتـالي كشف مخطـوطـات أجود وأقدم دفعت إلى إعادة طبع بعض أجزائها . مثال ذلك أن دي خويه نفسه قد أخرج طبعة ثانية أفضل لمصنف المقدسي عام ١٩٠٦ . كمـا أن المستشـرق الهـولنـدي كرامرس أخرج طبعة ثانية أكمل لمصنف ابن حوقل عام ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ .

وبخـلاف هذا أخـرج لنـا دي خويـه في عام ١٩٠٧ طبعة جديدة لرحلة ابن جبير الأنـدلسي التي كان نشـرهـا من قبل المستعرب البريطاني وليم رايت . ولايفوتنا في هذا المقام أن نذكر بأن دي خويه قد دبّج عدداً من المقالات حول مسائل تمس الجغرافيا في الاسـلام ، مثـل بحثـه عن يأجـوج ومأجوج والسد ، وأهل الكهف وأسفار السندباد ، والمجرى القديم لنهر جيحون .

وإذ نحن بسبيل الحديث عن دي خويه بوصفه ناشراً للنصوص الجغرافية يجب الا ننسى ماأسداه من خدمات في نشر المصنفات التاريخية والتي تعدّ في الوقت نفسه ذات أهمية كبيرة بالنسبة للجغرافيا أيضاً . ففي الفترة من (١٨٦٢ ـ ١٨٦٦) قدّم لنا دي خويه طبعة علمية جيدة لكتاب «فتوح البلدان» للبلاذري الذي يعدّ من المصادر الأساسية في تاريخ القرون الأولى للاسلام ، وهو يعترف في مقدمته للكتاب أن عدم تمكنه في النحو العربي لم يكن من مصلحته ، وقد دفعه هذا من جديد إلى التعمق في النحو مما كان له نتائج طيبة بالنسبة لأعماله التالية في ضبط النصوص وتحقيقها . ومما يشهد له بالتعمق إشرافه على تحضير طبعة جديدة لأفضل أجرومية للغة العربية بأوروبا آنذاك وهي المصنف المشهور لصديقه وليم رايت الذي مات عام (١٨٨٩) .

ولم يوجد كتاب عربي آنذاك كان العلماء من العرب والمستعربين يودّون رؤيته في طبعة علمية مثل تاريخ الطبري الذي وصل به مؤلفه الى عام (٣٠٢) هـ ، (٩١٥ م) . وكان المستشرق الألماني كوسجارتن قد نشر ثلاث قطع منه ، غير أن دي خويه كاتب نولدكه منذ عام (١٨٥٨) بصدد تحضير طبعة كاملة تحت إشراف دوزي تعتمد على المخطوطات المعروفة آنذاك ، ولكن الفكرة لم تذهب بعيداً . وفي عام (١٨٦٢) اكتشف دي خويه باكسفورد جزئين من الطبري لم يكن لأحد علم بهما ، وأفاد بهذا الدوائر العلمية . لذا فقد ظلت الفكرة مستيقظة وحفزت عدداً من العلماء على مداومة البحث عن مخطوطات الكتاب بمختلف مكتبات الشرق والغرب ، وكان ماتم العثور عليه منها قد أثار الأمل منذ عام (١٨٧١) في امكانية جمع مسودة كاملة للكتاب. وابتداء من عام (١٨٧٢) بُذل مجهود جديد في إجراء الاتصالات بالمكتبات في الشرق والغرب التي تحوي فقرات من تاريخ الطبري لنسخها ومقارنتها ، كما تم حصر العلماء والمتخصصين الذين سيوكل إليهم أمر النشر . وكان قطب الرحى في هذا هو دي خويه ، وبمهارته في التنظيم وصبره تمكن من أن يخرج الفكرة من عالم القول إلى عالم الفعل ودفع بالقسم الأول من تاريخ الطبري إلى المطبعة عام (١٨٧٩) ونجح بالوصول بذلك السفر الضخم إلى بر السلامة في عام (١٩٠١) ، مجتازاً جميع العوائق التي اعترضت طريقه . وهو يفصّل قصة هذا في المقدمة الطويلة لهذه الطبعة مبيناً دور كل واحد من العلماء ومسدياً الشكر لجميع من ساهموا في إخراجها .

غير أنه من المتفق عليه أن المهمة ماكانت لتنجح لولا دي خويه ، الذي فوق ذلك قد اضطلع شخصياً بتحضير القسم الأكبر من المتن كما راجع وحسّن بطرق عديدة مجهود العلماء الآخرين، وأخذ على عاتقه مهمة تدوين المقدمة ومعجم الألفاظ الصعبة وإلى حد كبير الفهارس أيضاً ، كذلك نشر دي خويه بمفرده وبعنايته المعتادة تكملة تاريخ الطبري لعريب القرطبي . وقد قال المستشرق الهولندي فنسنك في هذا الصدد : « لايستطيع شخص أن ينكر أن هذ العمل إنما يكلّل هامة الدراسات العربية في القرن

التاسع عشر » ، ليس ذلك فحسب بل إن الكثيرين يقرّون بأنه أكبر عمل في مجال النشر اضطلع به المستشرقون على الاطلاق .

وإذ نختتم القول عن هذا المستعرب الكبير ومجهوده الضخم في نشر النصوص العربية علينا أن نشير إلى ماتركه من أثر على معاصريه الذين امتدحوا أخلاقه الطيبة وشمائله الحلوة وإنكاره للذات . وقد قال عنه المستشرق الهولندي سنوك هرخرونيه «إنه لم يتألق ولم يسترع الانتباه ولكن محياه كان يشرق بنور لطيف ناصع وحرارة نبيلة حببت إلينا الالتفاف حوله» . كذلك حفظ لنا ذكراه أديب مصري هو أمين فكري الذي دوّن كتاباً عن زيارته لأوروبا بعنوان «إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا» (القاهرة ١٢٠٨ هـ = ١٨٩٢ م) ، حكى فيه كيف لقي دي خويه أمينا وأباه ورجلين من الأزهر في ليدن «لقاء الأصدقاء القدماء» .

* * *

(جـ) إغناطيوس كراتشكوفسكي (١٨٨٣ ـ ١٩٥١)

إغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي أكبر مستعرب أنجبته روسيا ، وأحد كبار المستعربين في تاريخ الاستشراق الأوروبي . وقد عرف عنه حبه للعرب وتقديره للحضارة العربية ومنجزاتها ، زار الأقطار العربية في بداية هذا القرن وعقد صلات وثيقة مع الأدباء والمفكرين العرب . وسِعَتْ معرفته جميع نواحي الحضارة الاسلامية ، وقلّ أن وجد جانب منها لم يجر فيه قلمه بالبحث وقام بدور كبير في تعريف مواطنيه بالأدب العربي القديم والحديث معاً ، سواء بالترجمة أو البحث . وأولئك العرب الذين سمعوا باسمه من قبل وبآثاره العلمية كانوا إلى عهد قريب يجهلون اهتمامه بالجغرافيا العربية التي ترك فيها سفراً جليلا يعد العمدة في دراسة تاريخ الأدب الجغرافي العربي .

ولد كراتشكوفسكي بمدينة ولنا في الرابع من مارس عام ١٨٨٣ ، وفي سن الثانية انتقل مع أسرته إلى تاشكند عاصمة إقليم تركستان حيث عيِّنَ والده مفتشاً عاماً للمدارس بذلك الاقليم . وكانت اولى اللغات التي تحدث بها هي الأوزبكية لأن حاضنته كانت من أهل تلك البلاد . وقد عاش ثلاثة أعوام هناك فكانت أولى الانطباعات التي رسخت في ذهنه عن البيئة الشرقية ، وقد ولّد هذا في قلبه الانجذاب نحو الشرق والرغبة في التعرف على حضارته التي اختلفت اختلافاً كلياً عما عهده بالتالي في بيئته الروسية . ولما عادت الاسرة إلى ولنا التحق الصبي بمدرستها ودرس فيها من عام ١٨٩٢ الى عام ١٩٠١ حيث ظهر منه ميل واضح نحو اللغات الكلاسيكية خاصة ملحمتي هومير والدراما اليونانية . وفي سن السادسة عشرة اكتشف بمحض الصدفة بمكتبة المدرسة نسخة من

كتاب المستشرق الفرنسي المشهور دي ساسي في دراسة العربية فأخذ يتصفحه وبدأ في دراسة العربية بمفرده من ذلك الكتاب . فلما أتم دراسته الثانوية اختار الدراسات الشرقية موضوعاً لدراسته الجامعية .

وفي الفترة من ١٩٠١ الى ١٩٠٥ كان كراتشكوفسكي طالباً بجامعة بطرسبرغ حيث تفرغ لدراسة اللغات العربية والفارسية والتركية والتتارية والعبرية والحبشية . وكان أساتذته من ألمع الشخصيات في حلبة الاستشراق الروسي مثل روزن وككوفتسف وبارتولد . وقد كان لهذا الأخير وهو المؤرخ الشهير أثر كبير عليه مما جعله يختار دراسته النهائية «خلافة المهدي العباسي وفقاً للمصادر العربية» .

وقد استمر لعامين بعد ذلك بالجامعة ليتخصص في العربية وآدابها تحت اشراف المستعرب الروسي الكبير البارون فكتور روزن الذي ارتبط به رباطاً عاطفياً وثيقاً لحين وفاته . وفي عام ١٩٠٧ اجتاز كراتشكوفسكي بنجاح امتحان التخصص في العربية وآدابها ، فتقرر إرساله لمدة عامين إلى الشرق العربي . وفي صيف عام ١٩٠٨ وصل كراتشكوفسكي إلى بيروت وهناك شرع يدرس اللغة العربية الحديثة خاصة لغة الصحف ، كما تعمق في دراسة الدارجة . وببيروت استمع الى محاضرات بكلية القديس جوزيف ، كما تعرف بالأب لويس شيخو اليسوعي محرر «المشرق» وأيضاً بالأديب الكبير أمين الريحاني وترجم بعض قصائده وقصصه بالتالي إلى اللغة الروسية .

وفي بداية عام ١٩٠٩ زار مصر لمدة شهر فتعرف على آثارها ومتاحفها كذلك زارها مرة اخرى في أواخر ذلك العام نفسه وفي هذه المرة اطَّلَع على المخطوطات بدار الكتب وبمكتبة الأزهر ، كما تعرف بأحمد زكي باشا وجرجي زيدان صاحب «الهلال» والمستشرق الايطالي نالينو الذي كان يحاضر آنذاك بالجامعة المصرية . وارتبط بعرى الصداقة مع أحمد باشا تيمور وظلّ يكاتبه إلى وفاة الأخير . كذلك زار كراتشكوفسكي فلسطين، ومن مدن سوريا زار دمشق وحلب وحمص وحماة كما زار طرابلس بلبنان ،، وبدمشق زار إدارة تحرير «القبس» وارتبط بعرى الصداقة مع محمد كرد علي .

هذا ولقد أفادته إقامته هذه بالشرق العربي فائدة كبيرة ، فتفهم الحضارة العربية أكثر من ذي قبل ، كما تعرف على الأدب العربي الحديث وهو في بداية انتعاشته الجديدة ، كذلك اطلع على مجموعات المخطوطات الكبرى هنالك .

وعند عودته الى روسيا في صيف ١٩١٠ تم تعيينه محاضراً بالجامعة وحافظاً للمجموعة الشرقية بمكتبتها . وفي عام ١٩١٤ زار جامعات ليبزج وهاله بألمانيا وجامعة ليدن بهولندا لفحص مخطوطاتها الشرقية . وعند عودته نشر اطروحته عن الشاعر أبي الفرج الوأواء الدمشقي . وفي عام ١٩١٧ أصبح استاذاً للغة العربية بكلية الآداب

الشرقية بجامعة لنينجراد ، ولم يَحِلَّ عام ١٩٢١ حتى كان المستعرب الأول بتلك المدينة ، وظل يحقق ويبحث وينشر ابحاثه العديدة إلى اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية . وكان يعمل بمعهد الدراسات الشرقية وبالمتحف الآسيوي وينظم البرامج الدراسية ويُعِدّ الباحثين الشبان في مجال الدراسات العربية . وفي عام ١٩٢١ تم انتخابه عضواً بأكاديمية العلوم السوفيتية بقسم التاريخ واللغات، كذلك تمَّ انتخابه عضواً بالمجمع العلمي العربي بدمشق وبمجمع اللغة العربية بالقاهرة . وكان كراتشكوفسكي عضواً بالجمعيات الاستشراقية الفرنسية والبريطانية والألمانية .

وخلال حصار الألمان لمدينة لنينجراد أثناء الحرب العالمية الثانية كان كراتشكوفسكي قدوة للمواطنين وظل يعمل بنشاط للحفاظ على مجموعات الجامعة وأكاديمية العلوم والمعاهد العلمية، على الرغم من قصف المدينة المستمر واشتداد البرد والجوع . وفي عام ١٩٤٢ تم إجلاؤه إلى منطقة موسكو، وعاد بعد أن وضعت الحرب أوزارها الى مدينته لنينجراد حيث غمرته فرحة شديدة عندما وجد مكتبته وأوراقه في حالة جيدة لم يمسها ضرر ، وقد ظل كراتشكوفسكي مداوماً لنشاطه العلمي حتى وافاه الأجل فجأة في ٢٤ يناير ١٩٥١ ، ففقد الاتحاد السوفيتي واحداً من كبار علمائه ، كما فقد عالم الاستعراب شيخاً من شيوخه الكبار . وكان كراتشكوفسكي شخصاً واسع الاطلاع غزير المعرفة قيل إنه كان يعرف مايقرب من خمس وعشرين لغة ولهجة مختلفة .

وبطبيعة الحال فليس هنا مجال التحدث عن آثاره العديدة التي قارب عددها الخمسمائة ، من كتاب ورسالة ومقالة ونقد ، ويمكن إعطاء فكرة موجزة عن ذلك في النقاط الآتية :

١ - في مجال الحضارة العربية عامة ـ ترجمة القرآن الى الروسية (ظهرت بعد وفاته) ، الحضارة العربية بالأندلس ، دراسات عن الشعر الأندلسي الخ .

٢ - في مجال الأدب العربي عامة ـ الوأواء الدمشقي ، رسالة الملائكة لأبي العلاء المعري، شعر أبي العلاء، الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري، ترجمة كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ الى الروسية ، كشف مخطوطة كتاب المنازل والديار لأسامة بن منقذ .. الخ .

٣ - في مجال الأدب العربي الحديث ـ القصة التاريخية في الأدب العربي المعاصر نشأة الأدب العربي الحديث وتطوره ، ترجمة المرأة الحديثة لقاسم أمين ، ترجمة طه حسين ، ترجمة ميخائيل نعيمة ، ترجمة أمين الريحاني ، أدباء المهجر ، حياة سليمان البستاني .. الخ .

٤ ـ في مجال أدب النصارى العرب ـ الخمر في شعر الأخطل ، تاريخ اغابيوس المنبجي ، ترجمة الكتاب المقدس أيام الخليفة المأمون .. الخ .

٥ ـ المسلمون بروسيا ـ الأدب العربي بالقوقاز الشمالية الخ .

٦ ـ تاريخ الاستعراب بروسيا ـ ككوفتسف ، بارتولد ، تاريخ الاستعراب بروسيا والاتحاد السوفيتي ، مع المخطوطات العربية الخ .

أما بصدد الحديث عن مصنفه الكبير «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» ، فنبدأ القول إن هذا المصنف ظهر في عام (١٩٥٧) أي بعد مرور أكثر من ستة أعوام على وفاة مؤلفه . ثم ظهرت ترجمته العربية في قسمين في عامي (١٩٦٣ و١٩٦٥) فعرّفت ا لدوائر العلميـة خارج الاتحـاد السـوفيتي بهذا السفر الهام . وواقع الأمر أن قليلا من الناس كان على علم باهتمام المستعرب الروسي الكبير بدراسة الجغرافيا عند العرب . وقد فعل ناقل الكتاب إلى العربية خيراً عندما نبّه جمهرة القراء الى هذا ، وذلك بقوله في مقدمة ترجمته للكتاب «شغل الاهتمام بالجغرافيا العربية مكانة مرموقة في النشاط العلمي لكراتشكوفسكي ، خاصة في العشرين عاماً الأخيرة من حياته . وقد اهتم كراتشكوفسكي بالجغرافيا عامة منذ سنى حياته العلمية الأولى فانتخب عضواً في الجمعية الجغرافية الروسية منذ عام (١٩٠٩) ، وأصبح نائباً لرئيسها في عام (١٩٣٩) واستمر يشغل هذا المنصب الى عام (١٩٤٥) . هذا الاهتمام بالجغرافيا إلى جانب معرفته العميقة بالأدب العربي وبالحضارة الاسلامية جعلت منه أنسب شخص للقيام بذلك العمل الجبار ، وهو كتابه تاريخ علم الجغرافيا في الاسلام» .

بدأ كراتشكوفسكي اهتمامه بدراسة الأدب الجغرافي العربي منذ سنى عمله الأولى بالجامعة ، فنبصره يحاضر طلبته منذ ذلك الحين في «نظرة عامة الى الأدب الجغرافي العربي مع مطالعة نصوص مختارة منه» و «أدب التاريخ والجغرافيا عند العرب» . وبخلاف هذا ظهرله عدد من الأبحاث والمقالات التي تمس فترات مختلفة في تطور الجغرافيا في الاسلام ، نذكر من بينها «بداية الجغرافيا الرياضية عند العرب» و «الجغرافيون العرب للمدرسة اليونانية» و «رحلة مكاريوس الانطاكي الى روسيا» الخ . وهكذا بالتدريج عن تلك المحاضرات ا نبعث وترعرع كتابه على مدى نيف وأربعين عاماً ، كان يتعهده خلالها بالزيادة ويتناوله بيد التعديل معتمداً في ذلك على مايجد من مواد واكتشافات طالما قام هو نفسه بدور فعّال في إماطة اللثام عنها ، مثل اكتشافه ثلاث أراجيز بحرية لأحمد بن ماجد .

وقد استغرق تدوين الكتاب الفترة بين عامي (١٩٣٨ و١٩٤٥)، مع بعض التوقف أثناء الحرب . ويبدو جلياً من مقدمة المؤلف لكتابه وهي التي حررها عقب تدوينه للفصل

الثالث والعشرين الذي يؤرخ للأدب الجغرافي العربي في القرن السابع عشر الميلادي ، أنه كان يودّ متابعة تاريخه للأدب الجغرافي العربي إلى أيامنا هذه . إلا أنه لم يظهر في الواقع بعد المقدمة سوى فصل واحد هو الفصل الرابع والعشرون الذي يعالج الكلام على القرن الثامن عشر في حين كانت فكرة المؤلف الأساسية هي أن يضيف إلى ذلك فصلين أو ثلاثة يسوق فيها الكلام على العصر الحديث ، ولكن الأقدار لم تفسح له في الأجل . وعند وفاته ترك مصنفه في نسختين إحداهما بخط يده والأخرى صورة طبق الأصل منها منقولة بالآلة الكاتبة . وقد تناول المؤلف النسخة الثانية أي المطبوعة بالآلة الكاتبة بيد التصحيح وأجرى قلمه في حالات معينة باضافات وتعديلات تتعلق في الغالب بالمراجع . وسوى هذا تم العثور أيضاً على مجموعة البطاقات المختصة بالكتاب وهي تحتوي على ثبت المراجع التي استعان بها في بحثه . كل هذا مكّن العلماء السوفييت من زملاء المستعرب الكبير وتلامذته من إخراج الكتاب في طبعة قشيبة ، مكوناً الجزء الرابع من «منتخبات آثار الأكاديمي أ . ي. كراتشكوفسكي» التي ظهرت في ستة أجزاء في االفترة بين عامي (١٩٥٥ و ١٩٦٠) .

ومن قبل حظي الأدب الجغرافي العربي بين المستشرقين الأوربيين بدراسات عامة وأبحاث خاصة ليست بالقليلة ، ابتداء من المصنف المعروف للمستشرق الفرنسي رينو . وفي خلال النصف الأول من القرن العشرين نما المجهود بشكل ملحوظ بفضل الأبحاث الممتازة لناللينو وبارتولد ومينورسكي وكرامرس ورسكا وفيران وغيرهم . غير أن وضع مؤلف تركيبي عام يجمع شتات المادة بصورة علمية مترابطة لم يتهيأ إلا لكراتشكوفسكي الذي سد بهذا النقص في ذلك الميدان وخلد اسمه بذلك المصنف الكبير. ويجب ألا يدهشنا هذا في شيء فان المستشرقين الروس عهد فيهم الاهتمام بالجغرافيا ، اضف إلى هذا أن علم الجغرافيا الحديث قد لقى انتعاشاً كبيراً في روسيا القيصرية خاصة في القرن التاسع عشر وترك لنا اسماء لامعة في هذا الميدان .

ويؤكد كراتشكوفسكي أكثر من مرة خلال مصنفه هذا وفي مقدمته له أن المنهج الذي اتبعه هو المنهج الفيلولوجي وأنه ليس من غرضه كتابة تاريخ علم الجغرافيا أو تاريخ الاستكشافات الجغرافية عند العرب . وعلى الرغم من ذلك فقد تطرّق المؤلف مراراً إلى الكلام عن تاريخ الجغرافيا العلمية والاستكشافات الجغرافية العربية فقدّم لنا لوحة رائعة لهذا الفرع من العلوم عند العرب وبيّن دورهم الكبير في تطوير علم الجغرافيا العام . ويبدو هذا واضحاً عند كلامه على شخصيات مثل الخوارزمي وألوغ بيك (الفصل الثالث) والبيروني (الفصل التاسع) وأحمد بن ماجد (الفصل العشرين) وغيرهم .

ويقدم لنا المؤلف عرضاً منظماً للأدب الجغرافي ابتداء من التصورات الجغرافية الاولى التي نلتقي بها في أقدم آثار الشعر الجاهلي ، ثم يتتبع ميلاد الجغرافيا الرياضية عند العرب موضحاً علاقتها بالعلم اليوناني والهندي . يلي هذا فحص مفصّل لميلاد بقية فروع الجغرافيا الأخرى مثل الجغرافيا الوصفية والرحلات والجغرافيا الملاحية والجغرافيا العامة والجغرافيا الاقليمية الخ . مع ذكر مراكزها ومدارسها واتجاهاتها وأنماطها المختلفة .

وهو في خلال ذلك يترجم لمعظم الشخصيات الكبيرة وأصحاب الأصالة في هذا الميدان ويوضح الروابط والمؤثرات التي تركت طابعها عليهم . ونتيجة لتحليله الدقيق لعدد هائل من المصنفات يربو على الستين فقد استطاع كراتشكوفسكي أن يحدد درجة الثقة التي تتمتع بها مادتهم ومدى أهمية تلك المادة كمصدر لدراسة الجغرافيا التاريخية للأقطار التي تتحدث عنها . ويحتوي الكتاب الى جانب هذا على ثبت بالمراجع يكاد يستغرق جميع المادة المتعلقة بالموضوع ابتداء من العصور الوسيطة إلى أيامنا هذه ، مع تقدير نقدي للمتون التي نشرت والأبحاث العلمية التي عملت حولها . وينطبق هذا القول ايضاً على الفصلين التاسع عشر والحادي والعشرين المفردين للأدب الجغرافي الفارسي والتركي الذي يعالجه المؤلف بالقدر الذي يتلاءم مع ارتباطه بالأدب العربي .

وهكذا ، فان هذا المصنف الكبير الذي وضعه كراتشكوفسكي قرب نهاية نشاطه العلمي ليقف فريداً في ميدان الاستعراب العلمي لما يتصف به من سعة المادة سواء فيما يتعلق بالمصادر الأولى أو الأبحاث التي عملت حولها . وقد كان ظهوره حافزاً لمداومة الجهد في دراسة نقاط مختلفة تمس منجزات العرب في ميدان الجغرافيا . وكما قال الدكتور طه حسين في حديث له إنه من النادر الالتقاء بمصنف ضخم مثل مصنف كراتشكوفسكي يعالج فرعاً من فروع الأدب العربي بمثل ذلك التفصيل والإلمام بأطراف الموضوع ، هذا إلى جانب المهارة في العرض وطول النَفَس في كتاب يبلغ الألف صفحة .

وعميد الأدب العربي محق فيما قاله . وقليل من العرب المحدثين يعلم أن الدكتور طه حسين كان يفكر في جعل الأدب الجغرافي موضوعاً لأطروحته بالسربون ، ولكن حال دون ذلك عوائق شخصية فآثر أن يكتب عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية . كذلك فإن إعجابه بكراتشكوفسكي يرجع الى عهد سابق وذلك لافتتانهما الاثنين بشخصية أبي العلاء المعري ، وايضاً لأن أبا الاستعراب الروسي الحديث نقل كتاب «الأيام» الى الروسية .

وكان لنقل كتاب كراتشكوفسكي الى العربية في أوائل الستينات صدى كبير بين الدوائر العلمية وأثر واضح في تطوير الفكر الجغرافي بالأقطار العربية في العشرين عاماً

الأخـيرة وتـوجيهـه الى الاهتمام بتراث الأجداد في ذلك الميدان . ومن المعلوم أن تدريس الجغـرافيـا في العـالم العـربي الحـديث في الفترة بين الحربين العالميتين أدخله أساتذة الجامعة المصرية ممن تتلمذوا على الغرب ، مثل الأساتذة مصطفى عامر ومحمد عوض محمـد وسليمان حزيّن وعباس عمار وغيرهم. وعلى الرغم من اعترافنا لهم بما أسدوه من خدمات في سبيل تعريب المصطلحات الجغرافية وإدخال منهج البحث الجغرافي الحديث إلى العـالم العـربي ، إلا أنهم لم يهتمـوا كثـيراً (باستثناء سليمان حزيّن) بالتعرف على الأدب الجغرافي العربي وتعريف تلامذتهم به . غير أننا نبصر في الأعوام الأخيرة اهتماماً واضحـاً بينهم بالأدب الجغـرافي العـربي ونشـر تراثه . ولعل الفضل يرجع في هذا إلى كشفهم لمصنف كراتشكوفسكي ، حتى قال عالم عربي معاصر : «كلنا عيال على كراتشكوفسكي» .

وبعـد ، فبمـا ان الكتـاب قد نال رواجاً منقطع النظيربين القراء في العالم العربي وأصبح في متناول أيديهم في ترجمة سَلِسَة ـ قال جغرافي عراقي بصددها : «إنها توشك ان تكـون تأليفـاً» ـ فليس ثمـة حاجـة لتحليله بالتفصيل في هذه العجالة . ولايسعنا في خاتمـة كلامنـا عن كراتشكـوفسكي إلاّ أن نعـرب عن أملنا في أن يتابع علماء الجغرافيا العـرب أبحـاثهم في ماخلفـه الأجداد من تراث علمي ، وأن يكون ظهور ترجمته العربية حافزاً لغيرهم ليعالجوا تاريخ الفروع الأخرى من الأدب العربي .

* * *

(د) اندريه ميكيل (ولد عام ١٩٢٩)

يعد المستعـرب الفـرنسي المعاصر اندريه ميكيل الذي يشغل حالياً كرسي اللغة والأدب العربي بالكوليج دي فرانس (منذ عام ١٩٧٦) من كبار المستعربين الأوربيـين . وإلى جانب هذا اكتسب الشهـرة بفـرنسـا كأديب . وتكـاد سمعته في عالم الاستشراق تتركز في مصنفه الضخم «الجغرافيا البشرية للعالم الاسلامي الى منتصف القرن الحادي عشر» الذي خرج في ثلاثة أجزاء في الفترة بين (١٩٦٧ و ١٩٨٠) .

وميكيل غير مجهول في العالم العربي منذ عمله بالمعهد الفرنسي بدمشق في عامي (١٩٥٣ و١٩٥٤) . كمـا عاش في القـاهرة عامي (١٩٦١ و١٩٦٢) رئيساً للبعثة الثقافية الفـرنسيـة بالجمهـوريـة العربية المتحدة . وبعد عودته إلى فرنسا عيّن استاذاً بجامعة ايكس بجنـوبي فرنسـا ، ثم استـاذاً بالسوربون منذ عام ١٩٦٨ ، إلى انتخابه استاذاً بالكوليج دي فرانس حيث لايزال يتابع نشاطه في مجال الدراسات العربية والاسلامية .

وقد بدأ اهتمامه بالأدب الجغرافي العربي منذ ترجمته الجزئية لمصنف المقدسي . أمـا مصنفـه الكبـير «الجغرافيا البشرية للعالم الاسلامي» فيمثل محاولة جادة لوصف

العالم الاسلامي وفقاً للمادة التي خلفها لنا الجغرافيون العرب ، مع عرض لأهم آثارهم في هذا الميدان . أما الجزء الأول الذي ظهر في عام ١٩٦٧ فيحمل تحت العنوان العام الذي ذكرناه عنواناً أصغر هو «الجغرافيا والجغرافيا البشرية في الأدب العربي منذ البداية الى عام ١٠٥٠ م» . وبهذا يمثل محاولة لعرض تاريخ الأنماط المختلفة للأدب الجغرافي ممثلا في أنشط شخصياته . ويضم الكتاب أربعمائة وعشرين صفحة ، مضافاً إليها مايقرب من خمسين صفحة في البداية تضم المقدمة وثبتاً مفصلا بأسماء الجغرافيين العرب ومصنفاتهم . وأما الصفحات الأخيرة من الكتاب فتشمل فهارس مفصلة لأسماء المواضع وأسماء الأعلام والمصطلحات الأجنبية .

ويقع هذا الجزء في تسعة فصول مضافاً اليها خاتمة وثلاثة ملاحق . أما الفصل الأول فيعالج الكلام على مصادر الجغرافيا العربية ويقارن بين العلوم الاسلامية التقليدية والعلوم الدخيلة . وهو يجهد في هذا الفصل لإعطاء فكرة عن علم الجغرافيا وأقسامها لدى العرب .

ويعالج الفصل الثاني الكلام على الجغرافيا في القرن الثالث الهجري بوصفها فرعاً من الأدب ، وهنا يركز المؤلف القول على الجاحظ وابن قتيبة لأنهما يمثلان مدرستين مختلفتين . وهو يقدم لنا تحليلا جيداً لآثار الجاحظ التي تمس الجغرافيا مثل رسالة «التربيع والتدوير» وكتاب «الحيوان» .

وموضوع الفصل الثالث هو «صورة الأرض» أي محاولة المسلمين لتصور الكرة الأرضية ، بما يرتبط بذلك من نشأة فن الكارتوغرافيا (رسم الخارطات) لديهم وتطوره بالتالي . كذلك يعالج في هذا الفصل الكلام عن ظهور الأدب الاداري ودور التجارة في تنمية المعارف الجغرافية . أمّا الشخصيات التي يتحدث عنها فهم عمّال الدولة مثل ابن خرداذبة والجيهاني واليعقوبي .

وفي الفصل الرابع يتحدث عن نمو التجارة مع أقطار الشرق ، فيذكر كتاب وصف الصين ورسالة السيرافي وعجائب الهند ، كما يذكر أيضاً الرحالة الذين ضربوا في أصقاع آسيا الداخلية مثل أبي دلف . ولا يفوته في هذا المجال الكلام على الرحلات الواقعية والرحلات الخيالية . أما الفصل الخامس فيفرده لابن الفقيه الهمداني مع تحليل دقيق لمادة مصنفة . وفي الفصل السادس يتحدث عن المؤلفين الموسوعيين أي اولئك الذين لاتمثل الجغرافيا سوى فرع من العلوم التي تناولوها بالتأليف ، مثل ابن رسته والمسعودي وإخوان الصفا . غير أن العلماء بالمعنى الدقيق مثل الخوارزمي والبيروني لايظفرون منه إلّا بصفحات معدودة ، هذا بينما عالج كراتشكوفسكي الكلام على البيروني بالتفصيل وحلّل مصنفاته العديدة وبيّن مكانته الكبرى في تاريخ العلم العالمي .

وفي الفصل السابع يتحدث عن المصنفات الخاصة والمعاجم الجغرافية مقدماً تحليلا سريعاً لأنماط الأدب العربي المختلفة . ثم يتكلم عن الهمداني ووصفه لجزيرة العرب ، كما يتحدث عن الأدب الجغرافي بالأندلس والمغرب ، وفي الفصل الثامن يتحدث عما يصفه بأنه ظهور الجغرافيا حقاً في نمط «المسالك والممالك» ، أي دراسة الكرة الأرضية ككل بجميع أقطارها وسكانها . وهنا يعالج الكلام على كبار الجغرافيين الذين تركوا لنا مصنفات بهذا العنوان مثل الاصطخري وابن حوقل والمهلبي والمقدسي ، واضعاً المقدسي في قمة مابلغه نمط «المسالك والممالك» .

والفصل التاسع مفرد للكلام عن دور التجارة في توسيع المعارف الجغرافية ، كما يتحدث فيه عن الجغرافيا الاقتصادية ، ثم الجغرافيا السياسية ، بل وعن صلة الجغرافيا بالمجتمع والدين . وهذا الفصل من أقيم فصول الجزء الأول وأكثرها أصالة ، ويليه خاتمة قصيرة في صفحتين وثلاثة ملاحق الأول منها يعقد فيه مقارنة دقيقة بين متني الاصطخري وابن حوقل ، والثاني يحتوي تحليلا لجداول قرطبة ، أما الملحق الثالث فهو تحليل للأدب الجغرافي باللغة الفارسية حيث يغتنم المؤلف الفرصة للكلام على كتاب «حدود العالم» المجهول المؤلف . وهذا الملحق لايمكن مقارنته بذلك الفصل الجيد الذي أفرده كراتشكوفسكي للأدب الجغرافي الفارسي في مصنفه آنف الذكر .

وفي عام (١٩٧٥) خرج الجزء الثاني من مصنف ميكيل يحمل عنواناً خاصاً تحت عنوانه العام وهو «الجغرافيا العربية وتصورها للعالم : الأرض والأقطار الأجنبية» . ويتكون هذا الجزء من سبعمائة وخمس صفحات ، تحتوي المائة والخمسون الأخيرة منها على فهارس مفصلة ، كما يحتوي هذا الجزء على مقدمة إضافية بعنوان «كيف يجب أن يُقرأ الأدب الجغرافي العربي للقرون الوسيطة ؟» كان المؤلف قد نشرها عام (١٩٧٢) على هيئة مقال في دورية فرنسية تعنى بدراسة حضارة القرون الوسيطة .

ويتضمن الكتاب أحد عشر فصلا يعالج الأول منها الكلام عن الأرض كوحدة طبيعية كما تصورها الجغرافيون العرب . أما الفصل الذي يليه فيعالج الكلام على تقسيم الأرض إلى أقاليم سبعة وهو ذلك التقسيم الذي أخذه العرب عن اليونان ، ثم تقسيمها إلى ممالك على عادة العرب .

ويتكون صلب الجزء الثاني من تحليل لمعارف العرب عن العالم الخارجي أي الذي يقع خارج دار الاسلام . فيبدأ بالشرق الأقصى مفرداً له الفصل الثالث ، وبعد أن يتحدث عن رحلات العرب إلى الصين والهند يقدم خلاصة لمعارف العرب عن هذين القطرين الكبيرين . وهو يعطي فكرة جيدة عن خبرة العرب بالقارة الآسيوية وشعوبها وثروتها المعدنية وحيوانها ونباتها ، ومعرفتهم العميقة بالأوضاع السياسية والاجتماعية والعادات والتقاليد والديانات .

والفصل الرابع من هذا الجزء مكرس لأفريقيا . ومن المعلوم جيداً أن تلك القارة الغامضة قد سحرت العرب كما سحرت من قبل اليونان والرومان ، وكانت مصدراً لسلع التجارة القيّمة كالذهب والعاج والأبنوس والرقيق . ويبدأ كلامه عن معرفة العرب بالنيل وتصورهم لمنابعه ، ثم ينتقل إلى الكلام على سكان القارة وفقاً للمادة التي خلفها لنا العرب . بعد هذا يفصّل القول عن أفريقيا الغربية وقبائلها وولوج الاسلام إليها . ثم ينتقل إلى تحليل معلوماتهم عن بلاد النوبة وبلاد البجا وعلاقتها بالجزيرة العربية . يلي هذا الكلام على ساحل افريقيا الشرقي أو بلاد الزنج كما دعاه العرب . وهذا الفصل من الكتاب على وجه العموم فصل حافل بالمعلومات ويلقي ضوءاً واضحاً على معرفة العرب الواسعة بالقارة الأفريقية التي استمرت العمدة في معرفة بقية الشعوب بها لحين كشف الأوربيين لداخل القارة في القرن التاسع عشر .

ويتحدث المؤلف في الفصل الخامس عن مادعاه «المساحات الشاسعة الاورالية ـ الالتائية» ، وهو يعني بذلك مناطق آسيا الوسطى الغربية التي تمتد من جبال التاي شرقاً إلى جبال الأورال غرباً ، والتي قطنها الأقوام من الترك والمغول ، وهو يقدم لنا في هذا الفصل معلومات العرب عن اتراك آسيا الوسطى الذين انضووا فيما بعد تحت لواء الاسلام وقاموا بذلك الدور الهام في تاريخه ، وعلى الرغم من أن عدداً من كبار المستشرقين قد عرض لنا تاريخ آسيا الوسطى عرضاً جيداً نذكر من بينهم بارتولد وبليو ومينورسكي واشبولر الخ ، إلا أن عرض ميكيل في هذا الفصل لايخلو من طرافة وفائدة بالنسبة للقارىء العام ، أضف إلى هذا انه مزوّد بخارطات جيدة تبيّن توزيع القبائل التركية في القرون الوسيطة .

وفي الفصل السادس يحلل المؤلف مادة المؤلفين العرب عن أوربا الشرقية وسكانها من البلغار والخزر والصقالبة وغيرهم . وهو يتحدث أيضاً عن رحّالتهم الذين زاروا تلك الأصقاع ، كما يبيّن بالتفصيل معرفتهم الدقيقة بمنطقة القوقاز وشعوبها العديدة . ولعل ماقلناه بصدد الفصل السابق لهذا يصدق بحذافيره على هذا الفصل ايضاً ، وهو انه على الرغم من أن هذه المادة قد درست دراسة جيدة على يد المستشرقين الروس والبولنديين وغيرهم إلا ان عرضه لها في هذا الفصل لايخلو من فائدة بالنسبة للقارىء العام .

وفي الفصل السابع يتحدث عن معرفة العرب بأوربا الغربية ، على حين يفرد الفصل الثامن للكلام على معرفتهم بالدولة البيزنطية . أما الفصل التاسع فيعالج فيه الكلام على حكايات المسلمين بصدد البلاد الأسطورية مثل بلاد يأجوج ومأجوج وجزائر واق الواق ، على حين يتحدث في الفصل العاشر عن المستعمرات الاسلامية ، أو على الأصح الجاليات الاسلامية في الأقطار الأجنبية . ويختتم هذا الجزء بالفصل الحادي

عشـر الـذي يعالج فيه الكلام بصورة عامة عن «مملكة الاسلام» وحدودها ، وعن مفهوم لفظ «مملكة» هذا .

أمـا المجلد الثـالث من هذا المصنف فقـد ظهـر عام ١٩٨٠ بعنـوان صغير تحت العنـوان العـام هو «البنيـة الطبيعيـة» ويقـع في خمسمائة وثلاث وأربعين صفحة تضم الخمسون الأخيرة منها الفهارس . وبما أنه أفرد الجزء الثاني بأجمعه لمعرفة المسلمين بالعـالم الخـارجي ، فقـد قصـر الجزء الثالث على الكلام عن معرفة المسلمين ببلادهم . ويشمل هذا الجزء ستة فصول تعالج الكلام عن عالم الاسلام من وجهة نظر الجغرافيا الطبيعيـة ، فالفصـل الأول يعـالـج الكـلام عن الأرض بتضـاريسها وجبالها وسهولها وصحاريها . أما الفصل الثاني فيفرده للكلام عن الماء ، يريد بذلك الماء العذب ، حيث يرد الكـلام على الانهـار المعروفة في العالم كالنيل . هذا بينما يفرد الفصل الثالث للكلام عن البحار والبحيرات . وفي الفصل الرابع يتحدث عن الهواء ، أي معرفة العرب لما يعرف اليوم بعلم المناخ .

وفي الفصلين الخـامس والسـادس يتحـدث عن معرفة العرب بالعالمين الحيواني والنبـاتي ومنـاطق توزيعهـا . ويـرد في الفصـل عن الحيـوان ذكـر لقصصهم بصـدد الحيـوانـات الأسطـوريـة . كذلـك يتميز الفصل عن النبات بطوله وتفصيله ، ففيه يرد الكـلام عن النبـاتـات الغـذائية والأزهار الخ ، ثم عن أشجار الأخشاب ، وأخيراً العنبر والمـرجـان ، وهذا الجزء الثالث مزود في آخره بخارطتين كبيرتين للعالم الإسلامي تبينان أقطاره ومدنه في العصور الوسيطة .

وبعـد فإن هذا لايمثـل سوى عرض سريـع لمادة هذا المصنف الكبـير الذي ليس بالاستطـاعـة ايفاؤه حقه في هذه العجالة .ولم يبق إلا أن نتمنى أن يرى النور في ترجمة عربية حتى يصبح في متناول دوائر أوسع من القراء العرب . وقد ترامى إلى سمع كاتب هذه السطـور أن بعض الـدوائر العلمية بدولة عربية قد دخلت في اتصال مع عالم عربي ليضطلع بهـذه المهمـة . وكلنـا أمـل في أن يتحقق هذا المشـروع حتى يجد هذا الكتاب طريقه إلى جميع المشتغلين بعلم الجغرافيا في العالم العربي .

وعـلى الـرغم من أن مصنفي كراتشكـوفسكي وميكيل يمثلان أكبر بحثين يمسان الأدب الجغرافي العربي ككل إلا أنهما يختلفان اختلافاً واضحاً في عرضهما ومنهجهما . فالمستشـرق الـروسي إنما كان يهدف إلى إخراج سفر يؤرخ لفرع من الأدب العربي هو الجغـرافيـا ، وذلـك أسوة بما فعله علماء آخرون مع أنماط الأدب العربي الأخرى مثل التـاريـخ والفلسفـة والنثـر والشعر الخ . أما ميكيل فان هدفه الأساسي هو تحليل المادة الجغـرافيـة التي جمعهـا العـرب وصياغتها في شكل صورة متكاملة للعالم وأقطاره كما

عرفوه آنذاك . ولهذا السبب فإن المصنفين يكمل كل منهما الآخر ، وإن وجب الاعتراف بأن المستعرب الروسي كان أكثر دقة وصرامة في معالجته لموضوعه وأكثر تمسكاً بمنهج البحث العلمي ، على حين تميّز مصنف الفرنسي برشاقة الاسلوب وفن العرض .

الآن وقد بلغنا نهاية المطاف في كلامنا عن المستشرقين والجغرافيا لدى العرب ، لايسعنا إلا أن نعترف بما أسدوه من خدمات في هذا الميدان . وإن حدث وأن التقينا بسوء الفهم بل وسوء النية أحياناً فيما يتعلق بشريعتنا السمحة وفي مجالات اخرى مثل التاريخ والعقيدة ، إلا أنه لم يكن بمستطاعهم إظهار ذلك في مجال الجغرافيا لأن الأخيرة علم وصفي يقرب كثيراً من العلوم الدقيقة . أضف الى هذا أن المستشرقين الذين عالجوا البحث في علم الجغرافيا عُرفوا في غالبيتهم بدماثة الخلق وبحبهم للعرب والحضارة العربية . لهذا فانه من العسير الالتقاء في مصنفاتهم بما يمكن أن يشتم منه ذلك البغض والتحامل الذي انعكس في آثار مستشرقين آخرين في مجالات اخرى من مجالات العلوم الاسلامية والعربية .

صلاح الدين عثمان هاشم

ثبت المراجع

١ - ثبت المختصرات

BV	Bibliografia Vostoka
VV	Vizantiiskii Vremennik. SPb.
DAN - V	Doklady Akademii Nauk SSSR, seria V, L.
DV	Drevnii Vostok M.
JMNP	Jurnal Ministerstva narodnogo prosveshchenia. SPb.
ZVO	Zapiski Vostochnogo otdelenia imp. Russkogo Archeologicheskogo obshchestva. SPb.
ZKV	Zapiski Kollegii vostokovedov pri Aziatskom muzee Akademii Nauk SSSR. L.
ZRAN	Zapiski Rossiiskoi Akademii Nauk. Pgr.
IAN	Izvestia Akademii Nauk SSSR. M. - L.
IAN, OGN	Izvestia Akademii Nauk SSSR, Otedelenie geograficheskikh Nauk. M. - L.
IVAN	Institut vostokovedenia Akademii Nauk SSSR.
IGGO	Izvestia Gosudarstvennogo Geograficheskogo Obschestva. L.
IRAN	Izvestia Rossiiskoi Akademii Nauk. SPb. - Pgr.
L'A	Lugat al - Arab. Bagdad (لغة العرب . بغداد)
MI	Mir Islama. SPb.
MITT	Materialy po istorii turkmen; Turkmenii, I. M - L.1939
OON	Otdelenie obshchestvennykh Nauk.
SV	Sovetskoe Vostokovedenie. M. - L.
T'A	Tadj al - Arus, I - X. Cairo, 1306 - 1307 (تاج العروس للزبيدى)
Trudy IVAN	Trudy Instituta vostokovedenia Akademii Nauk SSSR. M. - L.
Trudy IKDP	Trudy Instituta knigi, dokumenta i pismma. L.
KHV	Khristianskii Vostok. Pgr.

EV	Epigrafika Vostoka. M. - L.
AKGWO	Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen.
Abh KM	Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes. Leipzig.
AGNT	Archiv für die Geschiehte der Naturwissenschaften und Technik. Leipzig.
AIEO	Annales de I'Institut d'Etudes Orientales. Paris.
AGMNT	Archiv für Geschichte der Mathematik, Naturwissenschaft und Technik.
AO	Archiv Orientàlny. Praha
AM	Archives Marocaines. Publication de la Mission scientifique du Maroc. Paris.
BAHu.G	Bibliothek arabischer Historiker und Geographen. Leipzig.
Beiträge	Beiträge zur Geschichte der Naturwissenschaften Erlangen.
BGA	Bibliotheca geographorum arabicorum. Edidit M. J. de Goeje. Lugduni Batavorum. I, 1870; II, 1873; III, 1876 (2-eed. - 1906); IV, 1879; V, 1885; VI, 1889; VII, 1892; VIII, 1894.
BGA, III - 2	Bibliotheca Geographorum arabicorum, 2e ed. 1 - 2: ed. J. H. Kramers. Lugduni Batavorum - Lipsiae, 1938 - 1939.
BHG	Beiträge zur historischen Geographie, Kultugeographie, Ethnographie und Kartographie, vornehmlich des Orients, hrsg. von H. Mzik. Leipzig und Wien, 1929.
Bibl, ar. - sic	Biblioteca arabo - sicula.
Bibl. Ind.	Bibliotheca Indica.
BIF AO	Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie

	orientale au Caire.
Brocklemann. GAL	C. Brockelmann. Geschichte der arabischen Litteratur, I-II. Weimar-Berlin 1898-1900. (SB- Supplementband, I - III. Leiden, 1936 - 1942).
BSGI	Bolletino della R. Società Geografica Italiana. Roma
BSOS	Bulletin of the School of Oriental Studies. London.
Centenario	Centenario della nascita di M. Amari...
Collectanea	Collectanea. The Ismaili Society. Series A, I - II Leiden.
Coll. orient.	Collection orientale. Manuscrits inédits de la Bibliothéque royale traduits et publiés par ordre du roi. Paris, 1836 - 1898.
Cosmos	Cosmos di G. Cora. Torino.
DI	Der Islam. Hamburg.
DLZ	Deutsche Litteraturzeitung. Berlin - Leipzig.
EI, EB	Enzyklopaedie des Islam. Geographisches, ethnographisches und biographisches Wört-erbuch der muhammedanischen Völker, I - IV. Leiden - Leipzig (1908), 1913 - 1936; Ergänzun - gsband, Lief. 1 - 5. Leiden - Leipzig, 1934 - 1938.
ELOV	Ecole des langues orientales vivantes. Paris.
GGA	Göttingische gelehrte Anzeigen. Göttingen.
GIV	C. Brockelmann. Geschichte der islamischen Völker aud Staaten. München, 1939.
GJ	Geographical Journal.
GLO	Fr. Taeschner. Die georaphische literatur der Osmanen. ZDMG. 77 (2), 1923.
GMS, N. S.	Gibb Memorial Series. New Series. London.
GOW	F. Babinger. Die Geschichtschreiber der Osmanen und ihre Werke. Leipzig, 1927.

GR	The Geographical Review. New York.
GSAI	Giornale della Società Asiatica ltaliana. Roma Firenze - Torino.
GZ	Geographische Zeitschrift. Leipzig.
Hespéris.	Hespéris. Archives berbères et Bulletin de l'Institut des Hautes - études Marocaines. Paris.
JA	Journal Asiatique. Paris.
JAOS	Journal of the American Oriental Socicty.
J. des Savants.	Journal des Savants. Paris.
JNES	Journal of Near Eastern Studies.
JRAS	Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland - London.
LB	Literathurblatt für orientalische Philologie, Hrsg. von E. Kuhn, I. IV, Leipzig, 1883 - 1888.
Mél. As.	Mélanges Asiatiques. St. - Pétersbourg.
MFOB	Mélanges de la Faculté Orientale de Beyrouth.
MGD	Mélanges Gaudefroy - Demombynes, Le Caire.
MIF AO	Mémoires publiés par les membres de l'Institut Français d'Archéologie orientale au Caire.
MSOS	Mitteilungen des Seminars für Orientalische Sprachen. Berlin.
OLZ	Orientalische Literaturzeitung. Leipzig.
Or. Bibl.	Orientalische Bibliographie, 3. Berlin, 1889.
OM	Oriente Moderno. Roma.
PELOV	Publications de l'Ecole des langues orientales vivantes. Paris.
RAAD	Reveu de l'Académie Arabe de Damas.
Racc.	Carlo Alfonso Nallino, Raccolta di scritti... I - VI. Roma, 1939 - 1948.
RB	Revue biblique internationale publiée par L'Ecole pratique d'études bibliques établie au couvent

	dominicain Saint - Etienne de Jérusalem. Paris
RChrÉAr	Répertoire chronologique d'épigraphie arabe. Le Caire.
REI	Revue des Études Islamiques. Paris.
RO	Rocznik Orientalisticzny. Krakòw.
RRAL	Rendiconti della Reale Accademi dei Lincei. Roma.
RSO	Rivista degli Studi Orientali. Roma.
SBAW	Sitzungsberichte der Akademie der Wissenschaften in Wien.
SBPhMSocErl	Sitzungsberichte der Physico - Medizinischen Societät in Erlangen.
Soc.Or.Fennica	Societas Orientalis Fennica. Helsinkl.
WZKM	Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes. Wien.
ZA	Zeitschrift für Assyriologie. Weimar - Berlin - Strassburg.
ZDMG	Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft. Leipzig.

ب ـ المؤلفون الروس*

Alekseev M. P., Etiudy, iz istorii ispano - russkikh literaturnykh otnoshenie. Kultura Ispanii, M., 1940, p. 353 - 425

(دراسات فى تاريخ العلاقات الأدبية بين أسبانيا وروسيا)

Barthold W., Abd al - Razzak. EI, I, p. 67 - 68

Bartold V. V., Arabskie Izvestia o rusakh. SV, I, 1940, p. 15 - 50

(الروايات العربية عن الروس)

Barthold W, Bulghar. EI, I, p. 819 - 825

Barthold W., Gardizi. EI, II, p. 137 - 138

Bartold V., Geografia ibn Sa'ida. Recueil des travaux rédigés en mémoire du Jubilé Scientifique de M. Daniel Chwolson. Berlin, 1899, p. 226 - 241

Barthold W. Daghestan. EI, I, p. 924 - 929

Barthold W., Djuwaini. EI, I, p. 1115 - 1117

Bartold V., yeshche o samarkandskikh ossuariakh. ZVO, XIII, (1900), 1901, p. 099 - 0104

(من جديد حول مسألة الاسواريين بسمرقند)

Bartold V. V., Iran. Istoricheskoe Obzor. Tashkent, 1926

Bartold V. V., Istoria Izuchenia Vostoka v Evrope i Rossii. Izd. Ie, SPb., 1911; izd. 2e, L., 1925. (تاريخ دراسة الشرق فى أوروبا وروسيا)

Barthold W., Kalmücken, EI, II, p. 750 - 751

Bartold V. V., K voprosu o Proiskhojdenii Derbendname. Iran, I, L., 1927, p. 42 - 58.

(حول مسألة أصل دربند نامه)

Bartold V., K voprosu o Proiskhojdenii Kaitakov. Etnograficheskoe Obozrenie, M. 1910, No 1 - 2, p. 37 - 45; No. 3 - 4, p. 283 - 284.

(حول مسألة أصل القايتاق)

---

* أضفت إلى العناوين الروسية ترجمتها باللغة العربية فى الحالات التى تستوجب ذلك . (المترجم)

Barthold W., Kirgizen, EI, II, p. 1101 - 1103

Bartold V. V. K istorii Oroshenia Turkestana. Gosudarstvennoe Upravlenie Zemledelia i Zemleustroistva, Otdel Zemelnykh uluchshenii, SPb., 1941

(من تاريخ الرى فى تركستان)

Bartold V. V., K istorii religioznykh dvijenii X veka. IAN, 1918, 798 - 758

(من تاريخ الحركات الدينية فى القرن العاشر)

Bartold V. V. Koran i More. ZKV, I, 1925, p (القرآن والبحر) 106 - 110

Bartold V. V., Kultura Musulmanstva. Pgr., (الحضارة الإسلامية) 1918

Bartold V., Novoe musulmanskoe izvestie o russkikh. ZVO, IX, (1895), 1896, p. 262 - 267

(رواية عربية جديدة عن الروس)

Bartold V., O nekotorykh Vostochnykh Rukopisiakh v bibliotekakh Konstantinopolia i Kaira. ZVO, XVIII. (1907 - 1908), 1908, p. 0115 - 0154

(بعض المخطوطات الشرقية الموجودة بمكتبات استنبول والقاهرة)

Bartold V., Otchet o Komandirovke v Turkestan. ZVO, XV, (1902 - 1903) 1904, p. 173 - 276

(تقرير عن مهمة بتركستان)

Bartold V. V., Otchet o poezdke v Sredniu Aziiu s nauchniu tseliu. 1883 - 1894 Zapiski Imp. AN, VIII seria po istor - filol. otdel., No 4 SPb. 1897

(تقرير عن رحلة بآسيا الوسطى فى مهمة علمية)

Bartold V., Persidskia Nadpis na Stene aniiskoi mecheti Manuche. SPb., 1911. (Aniiskia Seria, No 5)

(نقش بالفارسية على جدار مسجد منوجه بآنى)

Bartold V., نقده لكتاب : E. Blochet, Introduction à l'histoire des Mongols de Fadl Allah Rashid ed - Din. Leyden - London, 1910 (GMS, XII) - MI, I. SPb., 1912, p. 56 - 107

Bartold V., نقده لكتاب : Chau Ju - Kua... by F. Hirth and W. W. Rockhill, ZVO (1911 - 1912), 1913, p. 0161 - 0169

Barthold W., Sandabil, EI, IV, p. 158

Barthold W., Toghuzghuz, EI, IV, p. 872 - 873

Bartold V., Turkestan v epokhu mongolskogo nashestvia, I, Texty. SPb, 1898; II, Issledovanie. SPb., 1900 (تركستان فى عهد الغزو المغولى [انظر الترجمة العربية، الكويت ١٩٨١]

Barthold W., Turkestan Down tó the Mongol Invasion. Second Edition, translated from the original Russian and revised by the Author with the assistance of H. A. Gibb, M. A. University Prees, Oxford, 1928 (GMS, New Ser., V)

Bartold V. V., Ulughbek i ego vremia. ZRAN, seria VIII, XIII, No 5 Pgr., 1918

(الوغ بيك وعصره)

Barthold W., 12 Vorlesungen über die Geschichte der Türken Mittelasiens. Deutscher Bearbeitung von Theodor Menzel Berlin, 1935

Barthold W., Hafiz - i Abru, EI, II, p. 225 - 226.

Bartold V., Khafizi - Abru i ego sochinenia. Al- Muzaffaria. Sbornik statei uchenikov Professora barona Viktora Romanovich Rozen ko dniu dvadtsatipiatiletia ego pervoi lektsii 13 - go Noiabria 1872 - 1897 SPb., 1887, p. 1 - 28

(حافظ آبرو ومصنفاته)

Bartold, انظر : Hudud al - 'Alam

Belokurov S. A., Arsenii Sukhanov. Isslodovanie S. Belokurova, 1, M., 1891; 2 Vyp. 1, izd. 2e, M. 1894

Beliaev V. I., Vvedenie. Arabskie istochniki Po istorii turkmen i Turkmenii IX - XIII vv. MITT, I, VII - XV vv., Arabskie i persidskie istochniki, pod redaktsiei S.L Volina, A.A. Romaskevicha i A. Iu. Iakobovskogo. Trudy Instituta Vostoko - vedenia, XXIX, M. - L., 1939, p. 12 - 40

(مقدمة. المصادر العربية فى تاريخ التركمان وبلادهم من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر)

Beneshevich V. N., Pamiatniki Sinaia arkheologicheskie i Paleograficheskie, Predislovie izdatelia, bibliografia o Sinae,

obiasnenia K tabl. 1 - 38 i sami tabl. 1 - 38 - Izd. Rossiiskoi Akademii Nauk pod redaktsiei V. N. Benshevicha. L., 1925
(آثار سيناء الاركيولوجية والباليوغرافية)
Berthels E., Amin Ahmed Razi, EI, III, p. 1228 - 1229
Berthels E., Nāsir - i Khusraw, EI, III, p. 939 - 940
Bertels E. E., Nasir -i Khusrau. Safar - Name. Kniga Puteshestvii Perevod; Vstupitelnia statia E. E. Bertels, M. - L., 1933)
(ترجمة سفر نامه ناصر خسرو إلى الروسية مع مقدمة بقلم برتلس)
Bertels E. E., Ocherk istorii persidskoi literatury. L., 1928
(موجز تاريخ الأدب الفارسى)
Berthels E., Rashid al - Din Tabib. EI, III, p. 1213 - 1215
Bolotov V., Lekstii po istorii drevnei tserkvi, I., SPb., 1907
(محاضرات فى تاريخ الكنيسة القديمة)
Validov A Z., Vostochnye rukopisi v ferganskoi oblasti. ZVO, XXII (1913 - 1914), 1915, p. 303 - 320
(مخطوطات شرقية بمقاطعة فرغانة)
Validov A. Z., Meshkhedskia rukopis Ibnu. I. Fakikha. IRAN, 1924, p. 237 - 248
(مخطوطة مصنف ابن الفقيه الموجودة بمشهد)
Validov A., O sobraniakh rukopisei v Bukharskom Khanstve. (Otchet o Komandirovke). ZVO, XXIII, (1915), 1916, p. 245 - 262
(عن مجموعات المخطوطات الموجودة بخانية بخارى)
Validov, انظر : Validi
Vasiliev A., Byzance et les Arabes, I. Bruxelles, 1935
Veselovski N. I., Vasili Vasilievich Grigoriev po ego pismam i trudam. 1816 - 1881. S prilojeniem portreta i faksimile sostavil N. I. Veselovski. Izd. Russkogo Arkheologicheskogo Obshchestva. SPb., 1887
Volin S., Izvlechenia iz "Mafatikh al - ulum" Abu - Abdallkha al - khorezmi, po izdaniu Van Vloten'a (Liber Mafatih al olum auctore Abu Abdallah Mohammed al Khowarezmi - Lugduni,

Batavorum, 1895). Perevod S. Volina MITT, I, M. - L, 1939 p. 217 - 219

Volin S., Izvlechenia iz "Nuzkhat al - mushtak fi ikhtirak al - afak" ili "kitab Rodjar" al - Idrisi, po rukopisi Leningradskoi Publichnoi biblioteki im. M. E. Saltykova - Shchedrina, Ar. n.s. 176, s privlecheniem perevoda P. A. Joubert (Géographie d'Edrisi. Paris, 1835 - 1840). Perevod S. Volina. MITT, I, M.- L, 1939, p. 220 - 222

Volin S. L., "Iz Sbornika Ietopisei" Rashid - ad - dina, gl. IV - Sbornik Materialov, otnosiashchkhsia K istorii Zolotoi Ordy, II. Izvlechenia, iz persidskikh sochinenii, sobrannye V. G. Tizengauzenom i obrabotannye A. A. Romaskevichem i S. L. Volinym. A N. SSSR, M. - L 1941, p. 27 - 79

Volin S., K istorii drevnego Khorezma. VDI, 1941, No 1, p. 192 - 196

(من تاريخ خوارزم القديمة)

Volin S. L., Novyi istochnik dlia izuchenia Khorezmiiskogo iazyka. Zap. I VAN, VI, 1937, p. 79 - 91

(مصدر جديد لدراسة اللغة الخوارزمية)

Garkavi A. la., Drevneishee arabskoe lzvestie o Kieve, Trudy tretego Arkheologichskogo siezda v Rossii, byvshego v Kieve v avguste 1874 goda, I, kiev, 1878, p. 345 - 352

(أقدم رواية عربية عن كييف)

Garkavi A. la., Skazania musulmanskikh pisatelei o slavianakh i russkikh. SPb., 1870

(روايات المؤلفين المسلمين عن الصقلب والروس)

Girgas Vladimir, Abu Hanifa ad - Dinawari. Kitab al - ahbar at - tiwal. Publié par Vladimir Girgass, Leide 1888

Girgas V. F., Ocherk arabskoi Literatury. SPb., 1873

(موجز الأدب العربي)

Golosov A., Tserkovnaia jizn na Rusi v polovine XVII v. i izobrajenie ee v zapiskakh Pavla Aleppskogo, ch. 1, Zapiski arkhid. Pavla, kak tserkovno - istoricheski dokument. Jitomir, 1916

(الحياة الكنسية فى روسيا فى منتصف القرن السابع عشر كما صورها بولس الحلبى)
Goldziher I., Lektsii ob islame. Prilojenno statia G. Vamberi: Kulturnoe dvijenie sredi russkikh tatar. Perevod s nemetskogo A. N. Chernovoi, SPb., 1912 (Sovremennoe chelavechestvo, Biblioteka obshchestvoznania, pod obshchei redaktsiei I. M. Bikermana)
(محاضرات عن الإسلام ، مضافًا إليها مقال فامبيرى عن الحركة الثقافية بين تتار روسيا)
Gordlevski V. A., K voprosu o vlianii turetskogo iazyka na arabski (Leksicheski material) ZKV, V, 1930, p. 271 - 291
(مسألة تأثير اللغة التركية على اللغة العربية)
Gordlevski VI, Gosudarstvo Seljukidov maloi Azii. M,. L., 1941
(دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى)
Gordlevski, VI, Ocherki novoi osmanskoi literature, M., 1912
(موجز الأدب العثمانى الجديد)
Gordlevski VI., نقده لكتاب . : P. Antoine Rabbath (édité et annoté par): Le plus ancien voyage d'un oriental en Amérique. Beyrouth, 1905, 91 p. (Ottick iz «al - Mashrika», 1905). Etnograficheskoe obozrenie. 1906, No 3 - 4, p. 322 - 323
Grigoriev V. V., Zapiska turetskogo poslannika Sami el - Khadj Akhmed efendi o posolstve ego v Prussiu v 1763 - 1764 godu. Perevod s turetskogo, «Moskvitianin», 1855, No 17 - 18
(مذكرات المبعوث التركى سامى الحاج أحمد افندى عن سفارته فى بروسيا عام ١٧٦٣ - ١٧٦٤)
Grigoriev V., Ob arabskom puteshestvennike X veka Abu - Dolefe i stranstvovania ego po Srednei Azii, SPb., 1872
(عن الرحالة العربى للقرن العاشر أبى دلف وعن تجواله فى آسيا الوسطى)
Grigoriev V., O mesto polojenii stolitsy Zolotoi Ordy Saraia. Jurnal Min. vnutr. del., SPb., 1845 (= Rossia i Azia, SPb, 1876, p. 258 - 321)
(عن موقع عاصمة الأوردو الذهبى سراى)
Grushevski M., Viimki z jerel do istorii Ukraini - Rusi. Lvov, 1895.
Dante Aligieri, Bojestvenia komedia. perevod M. Lozinskogo, M, - L., 1950.

(الترجمة الروسية للكوميديا الإلهية لدانتى)

Dmitrievski A., Priezd v Astrakhan vostochnykh patriarkhov Paisia Aleksandriiskogo; Makaria Antiokhiiskogo i sviazannoe s nim unchrejdenie zdes mitropolii (Iz vtrogo puteshestvia patriarkha Antiokhiiskogo Makaria v Moskvu i obratno v Damask). Kiev, 1904. Ottisk iz jurnala "Trudy Kievskoi dukhovnoi akademii" No 3, 1904

(زيارة البطاركة الشرقيين لإستراخان)

Dorn B. Kaspii. O pokhodakh drevnikh russkikh v Tabaristan. SPb., 1875 انظر Dorn, Caspia

(بحر قزوين ، بصدد حملات الروس الأقدمين على طبرستان)

Juze P. (K), Gruzia v 17 stoletii po izobrajeniu pariarkha Makaria. Kazan. 1905

(بلاد الكرج (جورجيا) فى القرن السابع عشر وفقًا لوصف البطريرك مكاريوس)

Juze P. K., Divan lugat at - turk. Thesaurus linguarum turcarum. Izvestia Azerbaidjanskogo Gosudarstvennogo universiteta im. V. I. Lenina, Vostokovedenie I, Baku, 1926, p. 75-94; II, Baku, 1927, p. 27-35.

Jukovski V., Mukhammed - Khasan - Khan (ltimad - al saltane). ZVO. X, (1896), 1897. p. 187 - 191

Jukovski V. نقد لكتاب : Puteshestvie Shakha Nasr-ed - dina po Mazanderanu. (Sobstvennyi ego velichestva dnevnik). Perevod s Persidskogo gornyi injener E. Koriander, SPb., 1887, ZVO, II (1887); 1888, p. 280 - 282

(نقد كتاب رحلة الشاه ناصر الدين مازندران)

Zaleman K.: Salemann C., Bericht über die Ausgabe des Mi'jar i Jamali. Mél. As., IX, St. - Pb, (1880 - 1888), 1888, p. 414 - 594

Zaleman K.: Salemann C., Zur Handschriftenkunde, I. Al - Biruni's al - Atar al - baqiyah. IAN, VI, Seria No 14, SPb., 1912, p. 861 - 870

Zaleman K., Rozen V., Spisok Persidskim, turetsko - tatarskim i arabskim rukopisiam Biblioteki. SPb. universiteta. ZVO, II (1887), 1888, p. 241 - 266: III (1888), 1889 p. 197 - 222; ott.: Salemann C. et

Rosen V., Indices alphabetici codicum mannscriptorum persicorum turcicorum arabicorum qui in Bibliotheca Imperialis Literarum Universitatis Petropolitanae adservantur. Peteropoli, 1888

Izvestia o turetskoi literature. Chtenie dlia vkusa, razuma i. chustvovanii, 2, M., 1791, p. 195 - 246

Inostrantsev K. A., Torjestvennyi Vyezd Fatimidskikh Khalifov. ZVO, XVII, (1906), 1907, p. 1 - 113

(مواكب الخلفاء الفاطميين)

Kapterev N F., Kharakter otnoshenii Rossii k Pravoslavnomu Vostoku v XV i XVII stoletiakh. Izd, 2 - e. Sergiev Posad, 1914

(طبيعة علاقة روسيا بالشرق الأورثوذكسي فى القرنين الخامس عشر والسابع عشر)

Karaulov N. A., Svedenia arabskikh geografov IX; X vv. po r. kh. o Kavkaze, Armenii i Azerbaidjane. Sbornik mater. dlia izuch. mestnostei i plemen Kavkaza, Tiflis, XXIX, 1901, otd. 1, p. 1 - 73 (al - Istakhri); XXXI, 1902, otd. L, p. 1 - 57 (Ibn al - Fakikh); XXXII, 1903, otd. 1, p. 1-63 (Ibn Oxordadbe, Kudama, Ibn Ruste al-lakubi).

(معلومات الجغرافيين العرب للقرنين التاسع والعاشر عن القوقاز وأرمينيا أوذربايجان)

Kovalevski A. P., Kniga Akhmed Ibn - Fadlana o ego Puteshestvii na Volgu v 921 - 922 gg. Kharkov, 1956

(كتاب أحمد بن فضلان عن رحلته إلى الفلجا فى عام ٩٢١ - ٩٢٢)

Kovalevski A. p., Puteshestvie Ibn Fadlana na Volgu. Perevod i Kommentarii pod redaktsii akademika I. Iu. Krachkovskogo, M.- L., 1939

(رحلة ابن فضلان إلى الفلجا . ترجمة وتعليق)

Koran .' Arabski tekst s russkom perevodom Gordia S. Sablukova. Izd. tretie, Kazan, 1907

Koriander E, Puteshestvie Shakha Nasr - ed - Dina po Mazanderanu. Sobstvennyi ego velichestva dnevnik. Perevod s persidskogo E. Koriander. SPb., 1887 -Jukovski راجع : نقد
(ترجمة رحلة الشاه ناصر الدين إلى مازندران)

Krachkovskia V, A., Pamiatniki arabskogo pisma v Srednei Azii i Zakavkazie do IX v. EV, VI, M. L., 1952, p. 46 - 100
(النقوش المكتوبة باللغة العربية فى آسيا الوسطى وما وراء القوقاز قبل القرن التاسع)

Krachkovski I. Iu, Abu - l- Faradj al - Va'va Damasski, Pgr., 1914

Krachkovski Ignatii, Abu Hanifa al - Dinaweri. Kitab al - ahbar at-tiwal. préface, variantes et index publiés par Ignace Kratchkovsky. Leide, 1912

Krachkovski I., Arabica, VV, XIV, (1907), 1909, p. 648 - 661

Krachkovski I Iu, Arabskia Kultura v Ispanii, M. - L., 1937.

Krachkovski I. Iu., Arabskia Literatura. Vsemirnaia Literatura, Literatura Vostoka, I, Pgr., 1919, p. 24 - 33

Krachkovski I. Iu., Arabskie geografi i puteshestvenniki. IRGO, LXIX, No. 1937, p. 738 - 755
(الجغرافيون والرحالة العرب)

Krachkovski I. Iu., Arabskie rukopisi iz sobrania Grigoria IV, patriarkha antiokhiiskogo (kratkia opis) L., 1924 ott iz nevyshedshego toma Kh V, VII, 1921 - 1924.
(مخطوطات عربية من مجموعة غريغوريوس الرابع بطريرك انطاكية)

Krachkovski I. Iu., Arabskie entsiklopedii srednevekovia (Predvaritelnoe soobshchenie). Trudy IKDP, II, Stati po istorii entsiklopedii, L., 1932, p. 15 - 32
(الموسوعات العربية للعصور الوسيطة)

Krachkovski I. Iu., "Blagodatny ogon" po rasskazu al - Biruni i drugikh musulmanskikh pisatelei X - XIII vv. Kh. V., III, (1914), 1915, p. 225 - 242
(النار المباركة حسب رواية البيرونى وبقية المؤلفين المسلمين من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر)

Krachkovski I, Iu., Dve arabskie skazki iz Nazareta. Soobshchenia Rossiskogo Palestinskogo obshchestva, XXIX.L.,1926, p. 28 - 41

(حكايتان عربيتان من الناصرة)

Krachkovski I. Iu, Dopolnenia k bibliografii rabot barona V. R. Rozena i materialov k nim, ZKV, III, 1928, p. 267 - 278.

Krachkovski, I. Iu, Izbrannye Sochinenia, I - III, M. - L., 1955 - 1956. [IV - VI, 1957 - 1960]

Krachkovski I. Iu., Kolumbovskia Karta Ameriki turetskoi obrabotke. IGGO, LXIV, 1934, p. 184 - 186.

(خارطة كولومبية لأمريكا فى صورتها التركية)

Krachkovski Ignatii. Krachkovsky Ignacio, Un manuscrito de las "Lataif al - Dajira" de Ibn Mammati en Leningrado. Al - Andalus, III, fasc. I. 1935, p. 89 - 96.

Krachkovski I. Iu., Nad arabskimi rukopisiami. Listki vospominanii o knigakh i o liudiakh. Izbrannye sochinenia, I, M, - L., 1955, p, 11 - 148.

(مع المخطوطات العربية) [له ترجمة عربية]

Krachkovski I. Iu. Neizvestnia Antologia Ibn Mammati, DAN, V, 1928, p. 1 - 6.

(مجموعة أدبية غير معروفة لابن مماتى)

Krachkovski I., Kratschkovsky I., Al - Nuwairi, EI, III, p. 1045 - 1047.

Krachkovski I. Iu., Opis bumag barona V. R. Rozena, postupivshikh v aziatski muzei Rossiiskoi Akademii Nauk. IAN, VI seria, 1918, XII, p. 1323 - 1350.

Krachkovski I. Pamiati N. A. Mednikova. ZVO, XXV, (1917 - 1920), 1921, p. 423 - 438.

Krachkovski I. Iu. Biruni i ego rol v istorii vostochnoi geografii. Biruni, sbornik statei, AN SSSP, Otdelenie istorii i filosofii, M, - L, 1950, p. 55 - 73.

(البيرونى ودوره فى تاريخ الجغرافيا الشرقية)

Krachkovski I, Iu., Vostochnie rukopisi Ekaterininskogo dvortsa v

Detskom Sele. DAN, V, 1929, p. 161 - 168.
(المخطوطات الشرقية بقصر كاترينا فى ديتسكوى سيلو) .

Krachkovski I. Iu., Gramota Ioakima IV, patriarkha antiokhiiskogo, lvovskoi pastve v 1586 godu. Izvestia Kavkazskogo istoriko - askheologicheskogo instituta v Tifilise, II, 1927, p. 21 - 30
(منشور يواكيم الرابع البطريرك الانطاكى إلى رعايا لفوف فى عام ١٥٨٦) .

Krachkovski I. Iu., Pervoe arabskoe opisanie Puteshestvia v Iujnuiu Ameriku. Trudy Moskovskogo instituta vostokovedenia, sb No 4, 1917, p. 89 - 93
(أول وصف عربى لرحلة إلى أمريكا الجنوبية)

Krachkovski I, Iu., Turetski pervopechatnik Ibrakhim Mutafarika i ego raboty po geografii. Tiurkologicheski sbornik, I, M. L., 1951, p. 120 - 126
(إبراهيم متفرقة ، أول من أدخل فن الطباعة فى الدولة العثمانية)

Krachkovski Ign., Kratschkowski Ign., Farhat Djarmanus, EI, EV, p. 79 - 80.

Krachkovski, I. Iu, Sheikh Tantavi professor S, - Petersburgskogo universiteta (1810 - 1861). Trudy Komissii po istorii znanii, 8, Ak. N. SSSR, L., 1929

Krachkovski I. Iu., نقد لمقالة : L. Cheikho, La description du mont Sinai par le diacre Ephrem. Al - Mashrik, IX, 1906, p. 736 - 743, 794 - 799, - VV, XIII, 1906, p. 711 - Cf: شيخو، وصف:

Krimski Agatangel, Istoria Persii ta ii pismenstva, I. Iak Persia zvoiovana arabami, vidrodilasia politichno. Kiiv, 1923

Krimski Ag., Rozvidki, statti ta zamitki, I - XXVII. Ukrainska Akad. Nauk, Zbirnik istfilolog. vid., No 57, Kiiv, 1928.

Krimski Ag. i Shakhmatov Ol., Narisi z istorii ukraiinskoi movi ta Khrestomatia z pamiatniki v pismenskoi staroukrainshchini XI - XVIII vv. Ukrainska Akad. Nauk Zbirnik ist.-filolog. vid., No 12, Kiiv, 1924

Krylova T. K., Otnoshenia Rossii i Ispanii v pervoi Chetverti XVIII veka. Kultura Ispanii, M, 1940, p. 327 - 352.

(علاقات روسيا مع اسبانيا فى الربع الأول من القرن الثامن عشر)
Krymski A., Idrisi, Abu Abdallakh Mokhammed. Novy entsiklopedicheski slovar, XIX, p. 55

Krymski A., Istoria Arabov i arabskoi literatury, svetskoi i dukhovnoi (Korana, fikha, sunny i pr.) I- III. Trudy po vostokovedeniu, izdavaemye Lazarevskim institutom vostochnykh iazykov, XV, M., 1914

Krymski A., Istoria Persii, ee literatury i dervisheskoi teosofii. Novoe izdanie, pererabotanoe sovmestno s K. Freitagom. Trudy no vostokovedeniu, izdavaemye Lazarevskom institutom Vostochnykh iazykov, XVI, No I, M., 1909.

Krymski A., Istoria Persii, ee literatury i dervisheskoi teosofii, Ch. II, ot razlojenia Seljukskogo tsarstva do mongolov. Podgotovitelnye materialy dlia Trudov po vostokovedeniu, izdavaemykh Lazarevskim instituom vostochnykh iazykov, XVI, 2, M. 1912

Krymski A., Istoria Persii, ee literatury i dervisheskoi teosofii. Trudy po vostokovedeniu, izdavaemye Lazarevskim institutom vostochnykh iazykov, XVI, 1, No 2, M. 1914.

Krymski A, Istoria Persii, ee literatury i dervisheskoi teosofii. Trudy po vostokovedeniu, izdavaemye Lazarevskim institutom vostochnykh iazykov, XVI, 1, No 2, M. 1914

Krymski A. E, Istoria Persii, ee literatury; dervisheskoi teosofii. Trudy vostokovedeniu, izdavaemye lazarevskim institutom vostochykh iazykov, XVI, III, No 1, M 1915.

Krymski A, Materialy dlia vyiasnenia tserkovnoi i literaturnoi deiatelnosti antiokhiiskogo patriarkha Makaria XVII v. i opisatelia ego puteshestvia na Rus Rikhlat Makariius arkhidiakona Pavla Aleppskogo. Izvlechenia iz dokladov v Vostochnoi komissii Moskovskogo arkheologicheskogo

obshchestva, 1909 - 1912, Trudy po vostokovedeniu, izdavaemye Lazarevskim institutom vostochnykh iazykov XXXVIII, M., 1913, p. 6 - 7

(مواد لتوضيح النشاط الكنسى والأدبى لمكاريوس بطريرك أنطاكية فى القرن السابع عشر ولمحرر وصف رحلته إلى بلاد الروس)

Krymski, A., Sem spiashchikh otrokov efesskikh. Trudy po vostokovedeniu, izdavaemye Lazarevskim institutom vostochykh iazykov, Vyp. 41, M., 1914

(أهل الكهف)

Krymski A., Khamasa Abu temmama Taiskogo (ok, 805 - 846), I - II, M, 1912

Kunik A.i Rozen V., Izvestia al - Bekri i drugikh avtorov o Rusi i slavianakh, I, SPb, 1878; II, SPb. 1903

(مادة البكرى والمؤلفين الآخرين عن الروس والصقالبة)

Lebedva O., Histoire de la conversion des Géorgiens au christanisme par le partiarche Macaire d'Antioche. Traduction de l'Arabe par Mme Olga de Lebedew, Roma, 1905.

Marr Iu. N., Zametka k perevodu opisania Kliucha ot vorot steny Goga i Magoga. Biulleten kavkazskogo instituta arkheologi i istorii, No 6, Tiflis, 1930, p. 11 - 13

(ملاحظة حول ترجمة وصف مفتاح بوابة سد يأجوج ومأجوج)

Mednikov N. A., Palestina ot zavoievania ee arabami do krestovykh pokhodov po arabskim istochnikam, I, Issledovanie, SPb, 1902; II, Perevod, 1897.

(فلسطين من الفتح العربى إلى الحروب الصليبية وفقاً للمصادر العربية، الجزء الأول بحث والثانى ترجمة)

Mejov, Bibliogrofia Azii. Ukazatel knig i statei na resskom iazyke i odnikh tolko knig na inostrannykh iazykakh kasaiushchikhsia otnoshenii Rossii k aziatskim gosudarstvam I. 2 - ia seria, sostavil. M. I. Mejov, SPb., 1891

Melgunov G., Melgunoff G., Das Khazarische Meer. (Vyrezka iz kn: Das Südliche Ufer des Kaspischen Meeres oder die Nordprovinzen Persiens; Von G. Melgunoff, Leipzig, 1886, p. 291 - 334).

Miklukho - Maklai N. D., Geogrficheskoe Sochinenie XIII v. na persidskom iazyke. (Novyi istochnik po istoricheskoi geografii Azerbaidjana i Armenii). Uchenye Zapiski Instituta vostokovedenia AN SSSR, IX, M. - L., 1954, p. 175 - 219.
(مصنف جغرافى من القرن الثالث عشر باللغة الفارسية)

Miklukho - Maklai N. D., Opisanie tadjikskikh i Persidskikh rukopisei Instituta vostok - ovedenia A N SSSR M. L., 1955.
(وصف المخطوطات التاجيكية والفارسية الموجودة بمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية)

Minaev I. P., Svedenia o stranakh po verkhoviam Amu Dari (po 1878 god). Sostavil I. P. Minaev, SPb., 1879.
(مواد متعلقة بالمجرى الأعلى لنهر أمودريا)

Mikhelson M. I., Russkia mycl i rech. Opyt russkoi frazeologii. Sbornik obraznykh slov i inoskazanii, I - II. SPb. (bez goda).

Murkos G. A., Arabskia rukopis puteshestvia antiokhiiskogo patriarkha Makaria v Rossiu v polovine XVII veka. Opisanie rukopisi, prinadlejashchei Biblioteke Moskovskogo Glavn. arkhiva Minist. in. del, M., 1899.
(مخطوطة عربية تحوى وصف رحلة البطريرك الأنطاكى مكاريوس إلى روسيا فى منتصف القرن السابع عشر)

Murkos G., Puteshestive antiokhskogo patriarkha Makaria v Rossiu v polovine XVII veka, opisannoe ego synom, arkhidiakonom Pavlom Aleppskim, I-V Perevod s arabskogo. Chtenia Obshchestva istorii i drevnostei, M. 1896 - 1900.
(الترجمة الروسية لرحلة البطريرك مكاريوس إلى روسيا)

Orbeli I. A. i Trever K. V. Sasandski metall. Khudojstvennye predmety iz zolota i bronzy. M. - L., 1935

Otchet Imperatorskoi Publichnoi Biblioteki za 1897 god. SPb., 1900.

Petrun F. E., K Voprosu ob istochnikakh ''Bolshogo Cherteja''. Jurnal Nauchno - issledovatelskikh Kafedr v Odesse, I, 7, 1923, p. 37 - 43.

Petrushevski I. P., Khamdallakh Kazvini kak istochnik po sotsoialno-ekonomicheskoi istorii vostochnogo Zakavkazia. IAN, OON, No 4, 1937, p. 873 - 920.

(حمد الله قزوينى كمصدر بالنسبة للتاريخ الاجتماعى والاقتصادى للمنطقة الشرقية الجنوبي القوقاز)

Preobrajenski A., Iz pervykh let partesnogo penia v Moskve. Muzykalnyi sovremennik, SPb. 1915, No 3, p. 33 - 41

(الأعوام الأولى للأناشيد الدينية الجماعية بموسكو)

Piatnitski Vl., K istorii Knigopechatnia arabskim shriftom v Evropeiskoi Rossii i na Kavkaze. Publichia Biblioteka SSR imeni V. I. Lenina, sb. I, M., 1928 i otd. ottisk, p. 131 - 154.

(من تاريخ الطباعة العربية فى روسيا الأوروبية والقوقاز) .

Rait V. - Kokovtsov P. K., Kratki ocherk istorii siriiskoi literatury. Perevod s angliiskogo K. A. Turaevoi, pod redaktsiei i s dopoleniami prof. P. K. Kokovtsova, SPb, 1902.

(موجز تاريخ الأدب السريانى)

Rozen V. P., A. F. von Meren. Nekrolog. SPb., IAN, seria, 6,2, 1908, p. 39 - 44.

Rozen V. R., Byl li v 988 g. v Konstantinople avtor Fihrista? ZVO, IV, (1889), 1890, p. 401 - 404.

(هل كان مؤلف الفهرست بالقسطنطينية فى عام ٩٨٨ ؟)

Rozen V. P., Impertor Vasili Bolgaroboitsa, Izvlechenia iz letopisi Iakhii Antiokhiiskogo. Izdal, perevel i obiasnnil baron V. R. Pozen; SPb., 1883.

Rozen V., Manuscrits persans décrits par V. Rosen. Collections scientifiques de l'Institut des langues orientales du Ministere des affaires étrangères, III, SPb., 1886.

Rozen V., K Fihristiu ٨٩, 22 (s dopoleniem I. Krachkovskogo). ZVO, XXIII, (1915), 1916, p. 233 - 244

Rozen V., Les manuscrits arabs de I' Instiut des langues orientales

décrits par V.Rosen. Collections scientifiques de l'Institut des langues orientales du Ministère des affaires étrangères, I SPb., 1877.

Rozen V. Novootkrytia rukopic Ibn - Khordadbekha. ZVO, I, (1886), 1887, p. 225 - 226

(مخطوطة جديدة لابن خرداذبة)

Rozen V., Rosen V. Notices sommaires des manuscrits arabes du Musée Asiatique . I. SPb, 1881.

Rozen V. R., Protokol zasedania 16 Avrelia 1887 g. ZVO, II, (1887), 1888, V, p. IV.

Rozen V.R. نـقـد لـكـتـاب : Alberunis India. An Account of the Religion, Philosophy, Literature, Chronology, Astronomy, Customs,Laws and Astrology of India about A. D. 1030. Edited in the Arabic Original by Dr. Edward Sachau. London, 1887 - ZVO, III (1888), 1889, p. 146 - 162.

R[ozen] V.Rets. Na kn.: Kitab al - Masalik wal-Mamalik (ed. M. J. de Goeje. Lugduni Batavorum. 1889, BGA, VI). ZVO, IV, (1889), 1890, p. 490 - 452.

Rozen V. [R.] . Rets. na kn.: V. D. Smirnov, Turetskie Legendy o Sviatoi Sofii i o drugikh vizantiiskikh drevnostiakh. Izdanie Fakulteta vostochnykh iazykov imperatorskogo S. Peterburgskogo universiteta k dniu otkrytia XI mejdunaro - dnogo Siezda orientalistov. SPb., 1898. 141 + 1 + p. 40 ١٤

ZVO. XI (1897 - 1898) 1899, p. 368 - 402

Romaskevich, Izvlechenia iz "Djekhan - name" Mukhameda Nadjiba Bekran, po rukopisi, IVAN C 612. Perevod pod redaktsiei A. A. Romaskevicha, MITT, I M. L., 1739, p. 349 - 350.

Romaskevich A. A, Persidskie istochniki po istorii Turkmen i turkmenii X - XV vv. MITT, I, M. - L., 1939, p. 40 - 61.

(المصادر الفارسية فى تاريخ التركمان وبلادهم من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر)

Russki biograficheski slovar, II, SPb., 1900

S......, O proiskhojdenii plemen russov. Issledovania akademikov

Frena i Kruga. "Biblioteka dlia chtenia" jurnal Slovesnosti, nauk, khudojestv, XXIX, SPb., 1838, otdel III, p. 45 - 58

(عن أصل الروس)

Sablukov G., Prilojenie k perevodu Korana. Kazan, 1879.

(حاشية لترجمة القران)

Saveliev P., Stranstvovanie arabskogo patriarkha Makaria iz Aleppo v Moskvu. Statia pervaia i vtoraia, Biblioteka dlia chtenia na 1836 god, NV: otdel III, p. 1 - 25, otdel IV. p. 112

(أسفار البطريرك العربى مكاريوس ببلاد المسكوف)

Salie M. A., Usama ibn Munkyz. Kniga nazidania. Perevod M. A. Salie, pod redaktsei, so vstupitelnoi statei i primechania mi I. Iu. Krachkovskogo. P. - M., 1922, p. 7 - 21: vstupitelnaia statia: "Usama ibn Munkyz i ego vospominania» .

Sedelnikov A. D., Arabskia kniga v tsrskoi kazne. Sbornik statei k sorokaletiu uchenoi deiatelnosti akademika A. S. Orlova. L., 1934, p. 165 - 167.

Semenov A. Al - Biruni, velichaishi ucheniyi srednevekovogo Vostoka i Zapada. Literatura i iskusstvo Uzbekistana, I, Tashkent, 1938, p. 106 - 116

Senkovski O., Posolstvo Dervisha Mukhammed - Effendia v Rossiu, v 1168 godu egiry (t. e. 1775 posle R. kh.). Vziato iz ottomanskikh letopisei Vasif effendia, T. I., p. 61. Perevod s turetskogo iazyka, Severnyi arkhiv. SPb., 1826, No I, p. 3 - 18.

(سفارة درويش محمد أفندى فى روسيا فى عام ١١٦٨ هـ - ١٧٧٥)

Senkovski O. I. (baron Brambeus). Sobranie sochinenii, I - IX, SPb., 1858 - 1859.

Senkovski O. I., Sok dostoprimechatelnogo. Zapiski Resmi - Akhmed - efendia, turetskogo minisra inostrannykh del. Perevod s turetskogo. Sobranle Sochinenii, VI, SPb., 1859, p. 234 - 343.

(خلاصة الاعتبار لأحمد رسمى أفندى)

Simirnov V. D., Manuscrits turcs de l'lnstitut des langues orientales

décrits par W. D. Smirnow. Collection scientifiques de l'Institut des langues orientales du Ministére des affaires étrangéres, VIII, SPb., 1897.

Smirnov V. D., Obratsovye proizvedenia osmanskoi literatury v izvlecheniakh i otryvkakh. Vybral i izdal V. D. Smirnov, SPb., 1903

(نماذج من الأدب العثمانى)

Smirnov V. D., Ocherk istorii turetskoi literatury. Vseobshchia istoria literatury. Sostavil po istochnikam i noveishim issledovateniam pri uchastii russkikh uchenykh i literatorov. Nachata pod redaktsiei V. F. Korsha, okonchena pod redaktsiei prof. A Kirpichenikova, T. IV, SPb., 1892, p. 425 - 554 (موجز تاريخ الأدب التركى)

Smironv S., نقده لكتاب : Puteshestvie antiokhiiskogo patriarkha Makaria v Rossiu v polovine XVII veka, opisannoe ego synom arkhidiakonom Pavlom Aleppskim. Perevod s arabskogo G. Murkosa (po rukopisi Glavnogo arkhiva Ministerstva inostrannykh del), I-IV - Chtenie Obshchestva istorii i drevnostei rossiiskikh 1897 - 1898 gg. Bogoslovski vestnik, izdavaemy Moskovskoiu dukovnoiu akademieiu, god vosmoi, iiul, avgust, sentiabr 1899, II, III, Sviatotroitskia Sergieva Lavra, 1899, p. 167 - 174 .

Sreznevski I. I., Khojdenie za tri moria Afanasia Nikitina v 1466 - 1472 gg. (Chtenia I. I. Sreznevskogo). Uchenye zapiski vtorogo otdelenia Akademii Nauk, II, vyp. 2, Spb., 1856.

(رحلة أفناسى نيكيتين وراء الثلاثة أبحر فى عام ١٤٦٦ - ١٤٧٢) .

Sukhanov Arsenii, Letopis tserkovnykh sobytii, 3e izd., 1900

(حوليات الأحداث الكنسية)

Tveritinova A. Katalog knig po istorii na turetskom iazyke, nakhodiashchikhsia v bibliotekakh Leningrada. BV, 10 (1936), Insitiut vostokovedenia AN SSSR M.-L., 1937, p. 201 - 226.

Tizengauzen V., Zameta Elkalkashandi o Gruzinakh, ZVO, I, (1888) 1887, p. 208 - 216

(ملاحظة القلقشندى عن الكرج)

Tizengauzen V. G., "Iz sbornika letopisei" Rashid-ad-dina. Sbornik materialov, otnosiashchikhsia k istorii Zolotoi Ordy, II. Izvlechenia iz persidskikh sochinenii, sobrannye V. G. Tizengauzenom i obrabotannye A. A. Romaskevichem i S. L. Volinom, AN SSSR, M.-L., 1941, gI, IV, p. 27 - 29

Tizengauzen V., Sbornik materialov, otnosiashchikhsia k istorii Zolotoi Ordy, I. Izvelechenia iz sochinenii arabskikh, SPb., 1884.

(نقول من المصنفات العربية فى تاريخ الأوردو الذهبى)

Trever K.V., Terracotas from Afrasiab by Camilla Trever, Moscow - Leningrad, 1934

Tumanski A. G., Novootkryty persidski geograf X stoletia i izvestia ego o slavianakh i russakh, ZVO, X, (1895) 1897, p. 121 - 137

(الكشف عن جغراف فارسى من القرن العاشر وروايته عن الصقالبة والروس)

Tumanski A., Rets. na kn.: Drevnosti Zakaspiiskogo kraia. Razvaliny Starogo Merva V. A. Jukovskogo. ZVO, IX (1895), 1896, p. 300-303

Umniakov I., Kompendium ispansko - arabskogo geografa Iskhaka ibn al-Khuseina i ego svedenia o khazarakh i tiurkah. IGGO, 71, vyp. 8, 1939, p. 1138 - 1145

(مصنف الجغرافى العربى الأندلسى إسحاق بن الحسين ومعلوماته عن الخزر والترك)
Umniakov I., Rets. na kn.: Hudud al-Alam. The Reglons of the World. A Persian Geography 372 A. N. = 982 A. D. Translated and explained by V. Minorsky, London, (GMS, N. S., XI), 1937. VDI, No 3 (4), M., 211 - 218

Umniakov I, Samia staria turestogo karta Mira (XI v.). Ottisk iz "Trudov Samarkandskogo Gosudarstvennogo pedagogichesk-ogo instituta imeni A. M. Gorkogo", I, vyp. I, Samarkand, 1940
(أقدم خارطة تركية للعالم من القرن الحادى عشر)

Fedchenko A. P., Ocherk geografii i istorii verkhoviev Amu-Dari Genri Iulia. Perevod s angliskogo O. A. Fedchenko, s dopolneniami i primechaniami A. P. Fedchenko, N. V. Khanykova i G. Iulia. SPb., 1873

Forma i Velichina Zemli. "Globus", 1938, Spravochny otdel, p. 330.

Fren Kh. D., Pismena drevnikh russov. Biblioteka dlia Chtenia, SPb., 1836, No XIV, p. 50 - 59 (perevod P. S. Savelieva stati: Ibn Abi Jacub el-Nedim's Nachricht von der Shrift der Russen im X Jahrhundert).

Khanykov N., Khanikoff N., Analysis and Extracts of the Book of the Balance of Wisdom, an arabic work on the waterbalance, written by al - Khazini in The 12th Century, by N. Khanikoff; JAOS, VI, 1860, p. 1 - 128

Khanikoff, Lettre de Khanykov à M. Dorn. (Avec une planche). 23 Janvier/4 Février 1857 - Mèl. As., III, (1857 - 1859), SPb., 1859, p. 50 - 81.

Khvolson D. A, Izvestia o khozarakh, burtasakh, bolgarakh, medjarakh, slavianakh i russakh Abu - Ali Akhmeda ben

Omara Ibn - Dasta, neizvestnogo pisatelia X veka po rukopisi Britanskogo muzeia v pervy raz izdal, perevel i obiasnil D. A. Khvolson, SPb., 1869.

Khudud al - alam, Rukopis Tumanskogo. S vvedeniem i ukazatelem V. Bratolda, L., 1930.

Tsereteli. G. V., Arabskia Khrestomatia. Tbilisit, 1949

Shangin M. A., Grecheskii perevod Abu Mashara v rukopisi Biblioteka IAN. AN, No 10 - 11, L., 1926, p. 907 - 916

Shangin M. A., Epistola Messallah in pluviis et ventris. IAN, SSSR., Otdel geogr. nauk, L., 1929, p. 707 - 718.

Shangin M. A., Catalogus codicum astrologorum graecorum, Tomus XII, Codices rossicos descripsit M. A. Sangin, Bruxellis, 1936.

Shangin M. A., Latinskia parafraza iz utrachennogo sochinenia Mashallakha "Sem Kliochei". ZKV. V, 1930, p. 235 - 242.

Shmidt A. E., Iz istorii sunnitsko - shiitskikh otnoshenii. Sbornik "V. V. Bartoldy turkestanskie druzia, ucheniki i pochitateli", Tashkent, 1927, p. 69 - 107.

(من تاريخ العلاقات بين السنة والشيعة)

Shumovski T. A., Tri neizvestnye lotsii Akhmada ibn Madjida, arabskogo lotsmana Vasko da Gamy, V unikalnoi rukopisi Instituta vostokovedenia AN SSSR, M.-L., 1957

(ثلاث مرشدات بحرية للملاح العربي أحمد بن ماجد)

Eberman V. A., Meditinskia shkola v Djundishapure. ZKV, I, 1925, p. 47 - 72

(المدرسة الطبية بجنديسابور)

Etnograficheskoe obozrenie. Izdanie Etnograficheskogo otdela imperatorskogo Obshchestva liubitelei iestestvoznania,

antropologii i etnografii, sostoiashchego pri Moskovskom universitete, god 18., Kn. LXVIII - LXIX (1960), M, 1906 - 1907

Iatsmirski A. I., Rets. na kn.; Puteshestvie antiokiiskogo patr. Makaria v Rossiu v polovine XVII v. Perevod s arabskogo G. Murkos, I - V, Moskva, 1896 - 1900. Jivaia starina, X, vyp. Iv, SPb., 1900, p. 584 - 589

ج - المؤلفون الأوروبيون

Abdel Hamid Mahmoud Samaha, The Arabic Names of the Stars. Lund, 1937. (Meddellande fran Lunds astronomiska Observatorium, Ser. II, No 89. Historical Notes and Papers, Nò 11).

'Abdal - Wàhid ibn 'Ali at - Tamimi al - Marrakushi Abu Muhammed, cf: Dozy, The History of the Almohades.

[Abdul Muqtadir and Abdul Hamid]. V. C. S. O'Connor. An Eastern Library with two catalogues of its persian and arabic mss. compiled by Khan Sahib Abdul Hamid. Patna, 1920.

Abulfedae Chorasmiae et Mavaralnahrae descriptio ed. J. Gravius. London, 1650.

Abu Talib Khan, El, I, 115 - 116

Aga Oghlu M., The Origin of Term Mina and its Meanings. JNES, V, Nò 4, 1946, p. 241 - 256.

Agha Mahdi Husain, Le gouvernement du sultanat de Delhi. Étude critique d'lbn Battuta et des historiens indiens du 14e siécle. Paris, 1936.

Ahlwardt W., Verzeichniss der arabischen Handschriften, I - X. (Die Handschriften-Verzeichnisse der Königiichen Bibliothek zu Berlin), Berlin, 1887 - 1899.

Ahmed Zeki, Mémoire sur les relations entre l'Égypte et l'Espagne pendant l'ocuupation musulmane. Homenaje à D. Francisco Codera. Zaragoza, 1904, p. 455 - 481.

Ahmed Zeky, Mémoire sur les moyens propres à déterminer en Egypte une renaissance des lettres arabes. Cairo, 1910.

Ahmed Zèki Pacha, Une seconde tentative des musulmans pour découvrir l'Amérique. Bulletin de l'Institut d'Egypte, II, 1919 - 1920, p. 57.

Ahmet (Ahmed) Zeki Validi, انظر : Validi.

Ahrens Karl, Muhammed als Religionsstifter. Leipzig. 1935. (AbhkM, XIX, 4).

The Ain i Akbari, انظر : Blochmann H. and Jarrett H. S.

Alfraganus, انظر : Golius J.

Alemany J, Milicias cristianas al servicio de los sultanes musulmanes del Almagreb. Homenaje à D. Francisco Codera. Zaragoza, 1904, 133 - 169.

'Ali Akbar Khita'i, El, I, p. 305.

'Ali b. Muhammed al - Kushdji, El, p. 304.

Amari M., Biblioteca arabo - sicula raccolta da Michele Amari. Versione italiana, I - II. Torino e Roma, 1880 - 1881, Appendice. Torino, 1889.

Amari M., Biblioteca arabo-sicula ossia raccolta di testi arabici che toccano la geografia, la storia, la biografia e la bibliografia della Sicula. Lipsia, 1857.

Amari M., Frammenti del geografo arabo Ibn Sa'id su I'Italia. Bolletino Italiano degli Studii Orientali, Nuova ser., 1877 - 1881, fase. 11 (No 20 - 21), p. 388 - 392.

Amari, انظر : Al-Umarî.

Amari M., (- Nallino A.) Storia dei Musulmani di Sicilia. Seconda edizione modificata e accresciuta dall'autore, pubblicata con note a cura di Carlo Alfonso Nallino, I - III, Catania, 1933 - 1939.

[Amari M. e Schiaparelli C. I. L'Italia descritta ne I''Libro dellre

Ruggero" compilato da Edrisi. Testo arabo pubblicato con versione e note da M. Amari e C. Schiaparelli. Roma (Lincei), 1878 - 1883.

Analectes, انظر : Al - Makkari.

Ansbacher Jonas, Die Abschnitte über die Geister und wunderbaren Geschöpfe aus Qazwini's Kosomographie zum ersten Male ins Deutsche übertragen und mit Anmerkungen versehen, Kirchhain, 1905.

Arendonk C., van, Al-Hamdani, El, EB, p. 87.

Arendonk C., van, Ibn Khaldun, El, EB, p. 94.

Arnold F. A., Chrestomathia arabica quam e libres mss. vel impressis rarioribus collectam. Ed. F. A. Arnold, I - II. Halis, 1853.

Arnold T. W., Arab Travellers and Merchants. A. D. 1000 - 1500. in: A. P. Newton, Travel and Travellers of the Middle Ages. London. 1930. Chapter V, p. 88 - 103.

Arnold Th., The Legacy of Islam. Ed. Thomas Arnold. Oxford, 1931.

Asin Palacios M., Una description nueva del faro de Alejandria. Al - Andalus, 1, 2, 1930, p. 241 - 292.

Asin Palacios Miguel, La eschatologia musulmana en la divina comedia seguida de la historia y critica de una polémica. Segunda edición, Madrid - Granada, 1943.

Asin Palacios Miguel., El "Libro de los Animales" de Jāhiz, Isis, No 43, XIV, 1, May 1930

Atiya A. S., XXme Congrès des Orientalistes, Programme, p. 77.

Atiya A. S., The Crusade in the later Middle Ages, by Aziz Suryal Atiya. London 1938.

Atiya A. S., Some Egyptian Monasteries. Bull. de la Société

d'Archéologie Copte, V. 1939

Atlas minor Gerardi Mercatoris à J. Hodio plurimis aeneis tabulis auctus atque illusratus. Arnhemii, 1621.

D'Avezac, Note sur une mappemonde turke du XVI siècle conservée à la Bibliothèque de Saint - Marc à Venise avec une petite esquisse figurative de ce monument xylographique lu à l'Académie des Inscriptions et Belles - lettres de l'Institut et à la Société de Géographie en novembre 1865 par M. D Avezac. Paris, 1866. (Extrait du Bulletin de la Société de Géographie, Décembre, 1865).

Awfi Muhammed b. Muhammed. EI, I, p. 537 - 538.

Babinger F., Die Geschichtsschreiber der Osmanen und ihre Werke. Leipzig, 1927.

Babinger Fr., Nabi. EI, III, p. 867 - 868.

Babinger Fr., Piri Muhyi 'I-Din Re'is. EI, III, p. 1155 - 1157.

Babinger F., Stambuler Buchwesen im 18. Jahrhundert. Leipzig, 1919.

Baghdad. EI, I, p. 585 - 592.

Barbier de Meynard C., Description historique de la ville de Kazvin, extraite du Tarikhé guzidèh de Hamd Allah Mustôfi Kazvini, JA. 5 série, X, 1857, p. 257 - 308.

Barbier de Meynard. Dictionnaire géographique, historique et littéraire de la Perse et des contrées adjacentes, extrait du Mo'djem elbouldan de Jaqout et complété à l'aide de documents arabes et persans pour la plupart inédits, par Barbier de Meynard, Paris, 1861,

Barbier de Meynard C, Le Livre des routes et des provinces, par Ibn Khordadbeh, publié, traduit et annoté par C, Barbier de Meynard, JA,6 série, V, 1865, p, 5 - 127.

Barbier de Meynard C, Al-Maçoudi, Les Prairiés d'or. Texte et traduction par C. Barbier de Meynard I - IX, Paris, 1861 - 1877.

Barbier de Meynard, Notice sur l'Arabie méridionale d'après un document turc par A. C. Barbier de Maynard, Mélanges Orientaux, Publication ELOV, II série, IX, Paris, 1883, p. 85 - 123.

Barbier de Meynard, نقده لكتاب : "Le miroir des pays", Mir'at al - mamalik, texte turc publié par le journal l'lqdam, 1313, 1 v. in 12° - JA, 9 série, VII, 1896, p. 367 - 368

Barthold, انظر Bartold

Basset R., Les aventures merveilleuses de Temim ed-dàri. GSAI, p. 3-26.

Basset R., Extrait de la description de l'Espagne tiré de l'ouvrage, du géographe anonyme d'Alméria. Homenaje à D Francisco Codera, Zaragoza, 1904, p. 619 - 647.

Basset René, Ibn Abi Dinar, EI., II, p. 377.

Battal, EI, I, p. 709.

Baumstark A, Geschichte der syrischen Literatur mit Ausschlus der christlichpalastinischen Texte, Bonn, 1922,

Bayer T. S. Sallam, Commentarii Academiac Scientarum Imperialis Petropolitanae, I, SPb., 1728.

Beazley C. R. The Dawn of Modern Geography, I - II, London, 1897 - 1901; III Oxford, 1906.

Becker C. Beiträge zur Geschichte Agyptens unter dem Islam, I - II, Strassburg, 1902 - 1903.

Bel A, 'Ali b. Yusuf b. Tashfin, EI, I, p. 304 - 305.

Bel A, Les Benou Ghanya, Publications de l'Ecole des Lettres d'Algér, XXVII, 1903. Appendice.

Bel A, Ibn Khaldün, 'Abd al - Rahman (Abu Zaid), EI, II, p. 419 - 420.

al - Belàdsori Liber expugnationis regionum, auctore lmàmo Ahmed ibn Jahja ibn Djàbir al-Beldsori, quem e codice leidensi et codice Musei Brittannici edidit M. J. de Goeje, Lugduni Batavorum, 1866.

Belfour, Travels of Macarius, patriarch of Antioch written by his attendant archdeacon Paul of Aleppo, in Arabic transl, by F. D. Belfour, I-II, 1829 - 1836 (Oriental translation fund, 3).

Belot J. B. Vocabulaire arabe-français, Beyrouth, 1893.

Berbrugger A. Voyages dans le Sud de l'Algérie et des Ètats barbaresques de l'Ouest et de l'Est par el-A'iachi et Moula Ahmed traduites sur deux manuscrits arabes de la Bibliothèque d'Alger. Paris, 1846. (Exploration scientique de l'Algérie pendant les années 1840, 1841, 1842 publiée par ordre du gouvernement et avec les concours d'une comission académique. Science historiques et géographiques, IX).

Bergh Simon, Van den, Umriss der muhammedanischen Wissenschaften nach Ibn Haldun Diss. Freiburg. Leiden,1912.

Berthels, انظر المؤلفين الروس

Bevan A, A, The Naka'id of Jarir and Farazdak, I - III, Leiden, 1905 - 1912,

Beveridge A. S, Abu'l-Fadl (Fazl) 'Allami (Shaikh), EI, I, p. 89-90.

Bianchi M, Itinéraire de Constatinople à la Mecque. Recueil de Voyages et Mémoires de la Société de Géographie de Paris, 1835.

Bittner M., Die topographischen Capitel des lndischen Seespiegels

Mohit, übersetzt von Dr M, Bittner mit einer Einleitung sowie mit 30 Tafeln versehen von Dr. W. Tomaschek. Festschrift zur Erinnerung an die Eröffnung des Seeweges nach Ostindien durch Vasco da Gamam (1497), hrsg, von der K. K. Geographischen Gesellschaft in Wien, Wien, 1897.

Bittner M., Zum "Indischen Ocean des Seidi 'Ali". Bemerkungen zu einer Ubersetzung aus dem Türkischen. WZKM, X, 1896, p. 21 - 36.

Björkman W., Beiträge zur Geschichte der Staatskanzlei im islamischen Agypten, Hamburg, 1928. (Abhandlungen aus dem Gebiete der Auslandskunde, 38).

Blachére R., Extraits des principaux géographes arabes du moyen àge. Bibliotheca arabica publiée par la Faculté des Lettres d'Alger, VII, Paris - Beyrouth, 1932.

Bloch S. E. Harawi's Schrift über die muhammedanischen Wallfahrtsorte, eine der Quellen Jaquts. Dissertation. Bonn, 1929.

Blochet E., Catalogue des manuscrits arabes des nouvelles acquisitions (1883 - 1924). Paris, 1925.

Blochet E., Contribution à l'étude de la cartographie chez les musulmans, Bône, 1873. (Extrait du Bulletin de l'Académie d'Hippone, No 29).

Blochmann H. and Jarrett H. S. The Ain i Akbari by Abul-Fadl-i 'Allámi, translated from the original persian, I - III, Calcutta, 1878 - 1894. (Bibliotheca Indica, 64).

Bodenheimer F. S. Materialien zur Geschichte der Enthomologie bis Linné, von Dr F. S. Bodenheimer, I - II. Berlin, 1928 - 1929.

Boer T., de. Ikhwan al-Safa, EI, II, p. 489 - 490.

Boer T., de. Al-Kindi, EI, II, p. 1095 - 1096.

Bonelli L., Del Muhit o "Descrizione dei mari delle Indie" dell'ammiraglio turco Sidi 'Ali detto Kiàtib-i-Rum. RRAL, 5 série, III, 1894, p. 751 - 777.

Bouvat L., Ulugh Beg. EI, IV, p. 1077 - 1079.

Bowen Jr. le Baron Richard, Arab Dhows of Eastern Arabia. Rehoboth, Mass., 1949.

Brandel R A., Om och ur den arabiske geografen Idrisi, Uppsala, 1894,

Bräunlich F., Zwei türkische Weltkarten aus dem Zeitalter der grossen Entdeckungen. Berichte über die Verhandlungen der Sächsischen Akademie der Wissenschaften zu Leipzig, Phil,-hist. Kl., 89, 1937, 1, p. 1 - 29.

Bräunlich E, نقده لكتاب : Piri Re'is, Bahrije. Das türkische Segelhanbduch für das Mittelländische Meer vom Jahre 1521. Hrsg., übersetzt und erklärt von Paul Kahle, Bd, I. Text. I. Lieferung, Kapitel 1 - 28; Bd. II. Ubersetzung, I, Lieferung, Kapitel 1 28, Berlin und Leipzig, 1926, 64 Tafeln, XLVIII + 88 S. - Islamica, III, 2. Lipsiae, July, 1927, p. 295 - 300.

Brockelmann C. 'Abd al - Ghani al - Nabulsi. EI, I, p. 39 - 40.

Brockelmann C. Al-'Abdari. EI, I, p. 72.

Brockelmann C. Barhebräus. EI, I, p. 684 - 685.

Brockelmann C. Al-Dimashki. EI, I, p. 1016.

Brockelmann C., Die Gedichte des Lebid nach der wiener Ausgabe überstzt und mit Anmerkungen versehen aus dem Nachlasse des A. Huber, hrsg, von C. Brockelmann, Leiden, 1891.

Brockelmann C., Al-Firuzabadi, EI, II, p. 119 - 120.

Brockelmann C. Geschichte der Arabischen Litteratur, I - II, Weimar - Berlin, 1898 - 1902, Supplementband. I - III, Leiden, 1937 - 1942.

Brockelmann C., Geschichte der arabischen Litteratur, 2-te Ausg., mit Berichtigungen, C. F. Amelang, Leipzig, 1909.

Brockelmann Carl. Geschichte der arabishen Litteratur, Zweite den Supplementbänden angepasste Auflage. Erster Band, Leiden, 1943.

Brockelmann C., Geschichte der Islamischen Völker und Staaten, München, 1939.

Brockelmann C, Ibn 'Asakir, 2, EI, II, p. 386.

Brockelmann C., Ibn Butlan, EI, II, p. 392.

Brockelmann C., انظر : Ibn Qutaiba.

Brockelmann C. Al-Kalyubi, EI, II, p. 753.

Brockelmann C. Al-Makrizi, EI, III, p. 190 - 191.

Brockelmann C. Mitteltürkischer Wortschatz nach Mahmud Kasgaris Divan lugat atturk. Budapest - Leipzig, 1928.

Brockelmann C. Muhammed Murtada b. Muhammed b. Muhammed 'Abd al - Razzak Abu'-l Faïd al-Husaini al-Zabidi al-Hanafi EI, III, p; 743 - 744.

Brockelmann C. Al-Muhibbi. EI, III, p. 755 - 756.

Brockelmann C. Al-'Olaimi. EI, III, 1052 - 1053.

Brockelmann C. Al - Suyuti. EI, IV, p. 620 - 622.

Brockelmann C. Die syrische und die christlich-arabische Litteratur. Leipzig, 1907. (Die Litteraturen des Ostens in Einzeldarstellungen, VII).

Brockelmann C, Al-Zamakhshari, EI, IV, p. 1305 - 1307.

Browne E, A Literary History of Persia from the Earliest Times

until Firdawsi [v, I] London, 1902.

Browne E, A Literary History of Persia from Firdawsi to Sa'di[v, II] London, 1906.

Browne E, History of Persian Literature under Tartar Dominion, (A. D. 1265 - 1502) [V, III] Cambridge, 1920.

Browne E, A, Literary History of Persia, Modern Times(1500-1924), IV, Cambridge, 1928,

Browne E, H., Lubàbu 'l-Albàb of Muhammad 'Awfi, II, Ed. E. G. Browne, London, 1903.

Browne E. G. The Press and the Poetry of modern Persia partly based on the Manuscript Work of Mirza Muhammad 'Ali khàn, "Tarbiyat" of Tabriz by Edward G. Browne, Cambridge, 1914.

Brunschvig R. Un aspect de la littéature historico géographique de l'lslam, MGD, Le Caire, 1935 - 1945, p. 147 - 158.

Büchner V. F. Kazwini, Hamd Allah, EI, II, p. 904 - 906.

Büchner V. F. Saksin, EI, IV, p. 88 - 89.

Buhl F. Al-Kuds, EI, II, p. 1173 - 1184.

Burski Hans Albrecht, von. Kemal Re'is, Ein Beitrag zur Geschichte der türkischen Flotte, Dissertation, Bonn, 1928.

Busch. Aus Briefen an Prof. Brockhaus, Von Hrn, Dr. Busch, Attaché bei der K. Preuss. Gesandtschaft. Constantinopel im Mai 1862, ZDMG, 26, 1862, p. 756.

Byzantion, XII, 1937

Caetani L, Annali dell' Islam, I - IV, Milano, 1905 - 1913.

Caetani Leone. Chronographia islamica ossia riassunto cronologico della storia di tutti popoli musulmani dall'anno 1 all' anno 922 della Higrah (622 - 1547 dell'Èra Volgare), I - II, Roma, 1912.

Cahen Claude, La Djazira au milieu du treizième siècle d'apreès Izz ad-din ibn Chaddad. REI, année 1934, cahier I, p. 109 - 128.

Canard M. Une lettre du Sultan Malik Nâsir Hasan à Jean VI Cantacuzène (750 / 1349), AIÉO, III 4937, p. 27 - 52.

Carra de Vaux, L'Abrégé des mervelles traduit de l'arabe d'après les manuscrits de la Bibliothéque Nationale par B. Carra de Vaux, Paris, 1898, (Actes de la Société Philogique. XXVI, 1897).

Carra de Vaux. Bahr Muhit, EI, I, p. 606 - 607.

Carra de Vaux, Maçoudi. Le Livre de l'avertissemet et de la revision. Traduction par B. Carra de Vaux, Paris, 1897, (Société Asiatique, Collection d'ouvrages orientaux).

Carra de Vaux. Les penseurs de l'Islam. I - V, paris, 1921 - 1926.

Casanova M. Paul, Notes sur les voyages de Sindbàd le Marin. BIFAO, XX, 1922. p. 133 - 199.

Castries, de. An - Nafahat al-miskiya fi-s-sifara at-Turkiya. Relation d'une ambassade marocaine en Turquie 1589 - 1591 par Abou-l-hasan Ali ben Mohammed et- Tamgrouti traduite et annotée par H. de Castries. Paris, 1929. (Pnblications de la Section historique du Maroc. Documents d'histoire et de géographie marocaines).

Catalogus codicum manuscriptorum orientalium qui in Museo Britannico asservantur, Pars II, cod. arab. amplectens. Londini, 1846.

Contenario della nascita di M. Amari. Scritti di filologia e storia araba; di geografia, storia, diritto della Sicilia medievale; studi bizantini e giudaici relativi all'ltalia meridionale nel medio evo; documenti sulle relazioni fra gli stati italiani ed il Levante, I - II, Palermo,

1910.

Cerulli E., OM, XXIII, 1943, No 1.

Chabot J. B., Littérature syriaque. Paris. 1934. (Bibliothéque catholique des sciences religieuses, 66. Littératures chrétiennes de l'Orient).

Al-Châlidî, Der Diwân des Lebîd nach einer Handschrift zum ersten Male hrsg. Jûsuf Dijâ ad-Dîn al-Châlidî. Wien, 1880.

Charmoy F.B.Relation de Masoudy et d'autres musulmans sur les anciens Slaves, SPb., 1834. Mémoires de l'Acad. Impér. des Sciences de St - Pétersbourg, VI série, II, p, 297 - 408

Charmoy F. B., Sur l'utillté des langues orientales pour l'étude de l'histoire de Russie, SPb., 1834.

Chau Ju Kua, انظر : Hirth.

Chauvin V., Bibliographie des ouvrages arabes ou relatifs aux arabes publiés dans l'Europe chrétienne de 1810 à 1885. I - XI, Liège - Leipzig, 1892 - 1909.

Cheikho L. Catologue raisonné des manuscrits historiques de la Bibliothèque Orientale de l'Université St. Joseph. I - VI, Beyrouth, 1913 - 1929 (Extrait MFOB, t. VI. VII; Mélanges de l'Universtié St. Joseph. t. VIII, X, XI, XIV).

Cheikho L. La Littérature Arabe au XIX siècle, 1800 - 1870. Seconde édition revue et augmentée, Beyrouth, 1924.

Cheikho L. Les Poètes arabes chrétiens après l'Islam, 3. Beyrouth, 1927.

Cherbonneau, Notices et extraits du voyage d'el-Abdery à travers l'Afrique septentrionale, au VII-e siècle de l'hégire, JA, 5

série, IV, 1854, p. 144 - 176.

Christensen A. L'Iran sous les Sassanides, Seconde édition. Copenhague, 1944. [له ترجمة عربية]

Christ- Schmidt, Geschichte der griechischen Litteratur, II, 1920.

Clark W. E. Science. في كتاب : The Legacy of India, Oxford, 1937, p. 335 - 368.

Codazzi A. II Compendio geografico arabo di Ishaq ibn al - Husayn publ. e tradotto di Angela Codazzi. Roma, 1929. RRAL, VI serie, V, p, 373 - 463.

Codera Fr. Decadencia y desaparición de los Almoravides en Espana por Fr. Codera. Colleccion de estudios arabes, III, Zaragoza, 1899.

Coedès G. Le Royaume de Çrivijaya. Hanoi, 1948.

Colin G. S. Lawata, EI, III, p. 21.

Colin G. نقده لكتاب : Muhammad al - Mahdi al-Hagwi, Hayat al-Wazzan al- Fasi wa ataruh "La vie et l'oeuvre d'Al-Wazzan al - Fasi", Rabat , 1354 / 1935. Hespéris, XX, fasc. I - II, Paris, 1935, p. 94 - 98.

Collin Davies C. نقده لبحث : Mahdi Husain, The Rehla of Ibn Battuta, Gaekwad's Oriental Series, No CYXII, Baroda, 1953, IRAS, p. 1 2. 1957, p. 126 -127.

Conti Rossini C. Chrestomathia arabica meridionalis epigraphica, Roma, 1934.

Conti Rossini C. Un portulano turco, BSGI, Serie III, X, fasc, XII, 1897. p. 444 - 450.

Cora G. e Nallino C. La Bibliotheca Geographorum Arabicorum di M. J. de Goeje, Cosmos, Serie II, v, XII, fasc, II, Torino, 1894 - 1895.

Coufourier E. Une description géographique du Maroc d'az - Zyâny. AM, VI, 1906. p. 436 - 456.

De Boer, انظر : Boer.

De Çastries, انظر : Castries.

De Goeje, انظر : Goeje.

De Guignes, انظر : Guignes.

De Jong, انظر : Jong.

De la Roncière, انظر : Roncière.

De Saussure, انظر : Saussure.

De Slane, انظر : Slane

Decourdemanche J.A. Note sur l'estivation de la longeur du dégré terrestre chez les Grecs, les Arabes et dans l'Inde. JA. II série, I, 1913, p. 427 - 444.

Defrémery C. - Sanguinetti B. P., انظر : Voyages d'Ibn Batoutah.

Deherain H. Silvestre de Sacy, ses contemporains et ses disciples. Paris, 1898.

Dehérain H. Quid Schemseddin al Dimaschqui geogrophus de Africa cognitum habuerit Paris, 1898.

Denison Ross. Haft-iqlîm, or the geographical and bibliographical Encyclopaedia of Amîn Ahmad Râzî. Edited by E. Denison Ross and Khân Sâhib Maulavï 'Abdul Muqtadir, fasc, I, Calcutta, 1948 (Bibliotheca Indica: Collection of Oriental Works published by the Asiatic Society of Bengal, New Séries, No 1336).

Deny J. Ali Emiri Efendi, (Mort à Constantiople, le 23 janvier 1924), JA. CCIV, 1924, p. 375 - 379.

Derenbourg, Al-Fakhrî, Histoire du khalifat et du vizirat

depuis leurs origines jusqu'à la chute du khalifat 'abbaside de Baghdâdh (11 - 656 de l'hégire = 632 - 1258 de notre ère) ... par Ibn at- Tiktaka. Nouvelle edition du texte arabe, Paris, 1895. (Bibl. de l'École des Hautes Etudes).

Derenbourg H. Les manuscrits arabes de la collection Schefer. Extrait du Journal des Savants, 1901, p. 1 - 76.

Description de l'Êgypte. Seconde édition, publ.par C.L.F. Poncekoucke, IV. Paris, 1821.

Devic Marcel, Coup d'oeil sur la littérature géographique arabe au moyen âge. Bulletin de la Société Languedocienne de Géographie, V, No 3, Montpéllier, 1882, p. 366 - 400 (= t. à. p. 1 -39).

Devic L. M. Le pays des Zendjs ou la côte orientale d'Afrique au moyen-àge, Paris, 1883.

Devonshire R. L. Extrait de l'Histoire de l'Ègypte, volume II, par Ahmed ibn lyas el-Hanafy el - Maçry (Boulaq, 1311 A, H.). Traduit de l'arabe par R. L, Devonshire, BIFAO, XXV, 1925, p. 133 - 145.

Devonshire R. L. Al Kaul al-mustazraf fi safar maulana al-Malik al-Ashraf. Relation d'un voyage du sultan Qàitbày en Palestine et en Syrie traduit de l'arabe par Mme R.L. Devonshire, BIFAO, XX, 1922, p. 42,

Dictionnaire de l'Académie Française, I - II, 8 éd., Paris, 1932 - 1935.

Dieterici Fr. Die Abhandlungen der lchwàn es-safà, in Auswahl arab. Hrsg. von Fr Dieterici, Leipzig, 1883.

Dieterici Fr. Die Propaedeutik der Araber im zehnten Yahrhundert. Berlin, 1865.

Dieterici Fr. Der Streit zwischen Thier und Mensch, Berlin, 1865.

Dieterici Fr. Thier und Mensch vor dem König der Genien, Ein arabisches Märchen aus den Schriften der lautern Brüder in Basra. Im Urtext herausgegeben und mit einem Glossar versehen von Fr. Dieterici, Leipzig, 1879.

Diez H. Fr. Denkwürdigkeiten von Asien in Künsten and Wissenschaften, Sitten, Gebräuchen und Alterthümern, Religion und Regierungsverfassung aus Handschriften und eigenen Erfahrungen gesammelt von Heinrich von Diez, Erster Theil, Berlin, 1811; Zweiter Theil, Berlin und Halle, 1815.

El Djabarti.Merveilles biographiques et historiques ou Chroniques du Cheikh Abd-el-Rahman el Djabarti traduites de l'arabe par Chefik Mansour Beg, Abdalaziz Kalil Bey, Gabriel Nicolas et Iskender Ammoun Effendi, I - IX, Le Caire, 1888 - 1896.

Al - Djahiz, EI, I, p. 1043 - 1044.

Dorn B. Das Asiatische Museum der kaiserlichen Akademie der Wissenschaften zu St. Petersburg, Von dem Director desselben Dr. Bernh. Dorn. St.Petersburg, 1846.

Dorn B. Auszüge aus vierzehn morgenländischen Schriftstellern, betreffend das Kaspische Meer und angrenzende Länder. Mél, As., VI, (1869 - 1873), SPb., 1873, p. 627 - 669, 685 - 746; Mél, As; VII, (1873 - 1876), SPb., 1876, p. 19 - 44, 53 - 92.

Dorn B. Auszüge aus zwei morgenländischen Schriftstellern, betreffend das Kaspische Meer und angrenzende länder. Mél. As., VI, (1869 - 1873), SPb., 1873, p. 344 - 381.

Dorn B. Bericht über eine Reise ins Ausland. Mél, As., VI, (1869 -

1873), SPb., 1873, p. 570 - 579.

Dorn B. Caspia, Über die Einfälle der alten Russen in Tabaristan nebst Zugaben über andere von ihnen auf dem Kaspischen Meere und in den anliegenden Ländern ausgeführte Unternehmungen, St., Pétersbourg, 1875.

Dozy R. Le calendrier de Cordoue de l'anée 961, texte arabe et ancienne traduction latine, Leyde, 1873.

Dozy, Histoire de l'Afrique et de l'Espagne, intitulée al-Bayáno 'l-Mogrib par Ibn - Adhari (de Maroc), publié par R. P. A. Dozy, I, Leyde, 1848 - 1851; II, 1849 - 1851.

Dozy R. Histoire des musulmans d'Espagne, I - IV, Leyde, 1861.

Dozy R. The History of the Almohades, preceded by a Sketch of the History of Spain, from the Times of the Conquest till the Reign of Yúsof Ibn - Teshufin and of the History of the Almoravides by Abdo-'I-Wáhid al - marrékoshi. Ed. by R. Dozy. Leyden, 1847. Second édition, 1881.

Dozy R. Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne pendant le moyen âge. Troisième édition, I - II, Leyde. 1881.

Dozy R. Recherches sur l'histoire politique et littéraire de l'Espagne pendant le moyen âge. Iéd., I - II, leyde, 1849.

Dozy R. Supplément aux dictionnaires arabes I - II, Leyd, 1881.

Dozy R. et de Goeje M., Description de l'Afrique et de l'Espagne par Edrîsî, texte arabe aves une traduction, Leyde, 1866.

Dozy - Lévi - Provençal, Histoire des muslmans d'Espagne jusqu'à la conquéte de l'Andalousie par les Almoravides (711 - 1110) par R. Dozy, Novelle édition revue et mise à jour par

E. Lévi-Provençal, I-III, Leide, 1932.

Dubler C. E. Abu Hamid el Granadino y su relaciôn de viaje por tierras Eurasiaticas. Por Cesar E. Dubler, Madrid, 1953.

Dugat G, انظر : Al - Makkari, Analectes.

Dvorac R. Zemepis u Arabu Ibn Batúta. Zemépisny sbornik, II, 1887.

E. H. نقد لكتاب : Theorie und Grundlagen der darstellenden Erdkunde (I und II Vorwart). Des Klaudios Ptolemaios Einführung in die darstellende Erdkunde. Erster Teil ("Klotho". Edited by F. W. König, 5). Translated and edited by Hans v. Mzik, with Friedrich Hopfner, Wien, 1938, - G.J. XCIII, No, 3, 1939, p. 252.

Ekrem Kamil, Tarih Semineri Dergesi, 1/2. Istanbul, 1937, p. 5 - 90.

Elliot and Dowson, The History of India, as told by its own Historians, the Muhammadan period, Ed. from the posthumous papers of the Late sir H. M. Elliot, by Prof. John Dowson, I - VIII, London, 1867 - 1877.

Fabricius A. K. La première invasion des normands dans l'Espagne musulmane en 844. Mémoire destiné à la 10-ème session du Congrès International des orientalistes par le prof. Adam Kristoffer Fabricius, (Sociétè de Géographie de Lisbonne), Lisbonne, 1892.

Fadl Allah al - Omari, EI, II, p. 38.

Fagnan E. L'Afrique septentrionale au XII-e siècle de notre ère. Description extraite du Kitab al-Istibçar et traduite par E. Fagnan, Constantine, 1900. Recueil des Notes et Mémoires de la Société Archéologique de Constantine, XXXII, 1899.

Fagnan E. Nouveaux textes historiques relatifs à l'Afrique du Nord et à la Sicile, Centenario, II, Palermo, 1910, p. 35 - 114.

Farmer H. G. A History of Arabian Musik to the XIII[th] Century, London, 1929.

Faure - Biguet G. Notice sur le Cheikh Mohammed Abou Ras en Nasri de Mascara, (Extraits de son autobiographie), JA, 9 série, XIV, 1899, p. 304 - 351, 388 - 420.

Ferrand G. L'Elément persan dans les textes nautiques arabes des XV-e et XVI-e siècles JA, CCIV, 1924, p. 193 - 257

Ferrand G. Les Géographes arabes et l'Oceàn Indien. Actes du XVIII-e Congrès des Orientalistes, Leiden, 1932, 131 - 133

Ferrand G. Introduction à l'astronomie nautique Arabe. Paris, 1928 (Bibliothèque des géographes arabes publiée sous la direction de G. Ferrand, I).

Ferrand G. Iranica. Oriental Studies in Honour of Cursetji Erachji Pavry. London, 1933, p. 123 - 126

Ferrand G, Le K'ouen-Louen et les anciennes navigation interocéaniques dans les mers du sud. Extrait du JA 9 série, XIII, Paris, 1919, p.469 - 483 (= t. à p. 131 - 153)

Ferrand G. Madagaskar EI, III, p. 68 - 80

Ferrand G. Notes de géographie orientale. JA, CCII, 1923, p.0 -35

Ferrand G. Note sur le livre des 101 nuits. JA, 101 série, XVII, 1911, p. 309 - 318.

Ferrand G. Le pilote arabe de Vasco da Gama et les instructions nautiques des Arabes au XV-e siècle. Annales de géographie, XXXI-e année, No 172, 15 juillet, 1922, p. 289 - 307

Ferrand G. Relations de voyages et textes géographiques arabes, persans et turks relatifs à l'Extrême - Orient du XIII-e au XVIII-e siècles, traduits, revus et annotés par G. Ferrand, I - II Paris, 1913 - 1914

Ferrand G. Sayabidia EI, IV, p. 214 - 215

Ferrand Gabriel. Shihab al-dïn Ahmed b. Madjid EI, IV, p.389-396

Ferrand G. Sofala. EI, IV, p. 507 - 510

Ferrand G. Le Tuhfat al-albab de Abu Hamid al-Andalusi al-Garnati édité d'après les Mss. 2167, 2168, 2170 de la Bibliothèque Nationale et le Ms. d'Alger par G. Ferrand. JA, CCVII, 1925, p. 1 - 148, 193 - 304

Ferrand G. Voyage du marchand arabe Sulaymân. Paris, 1922

Ferrand G. Le Wakwak est-il le Japon? JA, CCXX, 1932, p. 193 - 243

Ferrand G. Wakwak oder Wakwak EI, IV, p. 1196 - 1200

Ferrand G. Zabag EI, IV, p. 1279 - 1281

Ferrand G. نقد كتاب : The Book of Duarte Barbosa, an Account of the countries bordering the Indian Ocean and their inhabitants, written by Duarte Barbosa, and completed about the year 1618 A D, traduit du texte portugais pubilé pour la premiàre fois en 1812 (lire 1813) par l'Académie des Sciences de Lisbonne, édité et annoté par Mansel Longworth Dames;t. II, comprenant les côtes du Malabar, de l'lnde orientale, de l'lnde transgangétique, de la Chine et de l'lndonésie, Londris, 1921, XXI + 286 pages, Hakluyt Society, 2-e série, No XLIX, avec un portrait du zamorin de Calicut, deux cartes du Bengale et de Ceylan, et un index des deux volumes - JA, CCIV, 1924, p. 114 - 121

Ferrand G. نقد كتاب : G. Coedès, LeRoyaume de çrivijaya,Hanoi, 1918 - JA, 11 série,XIV, 1919, p. 191

Fiorini M. Le projezioni cartografiche di Albiruni. BSGI, Serie II, v IV, fase III - IV, Marzo - Aprile, 1891, p. 287 - 294

Fischer A. Battuta, nicht Batuta. Kleine Mitteilungen ZDMG, 72, 1918, p. 289

Fischer A. Beiträge zum Verständnis religioser muslimischer Texte. Leipzig, 1933

Fischer A. Der marokkanische Historiker 'Abu-I-Qasim ez-Zajani. ZDMG, 71, 1917, p. 223 - 226

Fischer A. Al-Maqdisi und al-Muqaddasi. ZDMG, 60, 1906, p. 404 - 410

Fischer A. Sitzungsberichte der Sächsischen Akademie der Wissenschaften, 81, 3 (1929).

Fleischer H. L. Kleinere Schriften von H. L. Fleischer. Gesammelt, durchgesehen und vermehrt, I - III Leipzig, 1885 - 1888

Fleischer H. L. Ueber das türkische Chatāï-nâme. Kleinere Schriften, III, Leipzig, 1888, p. 214 - 225

Florilegium ou Recueil de travaux d'érudition dédiés à monsieur le marquis Melchior de Vogüé. Paris, 1909

Flügel G. Die arabischen, persischen und türkischen Handschriften der Kaiserlich-Königlichen Hofbibliothek zu Wien, I - III Wien 1865 - 1867

Flügel G. Finige geographische und ethnographische Handschriften der Refaija auf der Universitäts bibliothek zu Leipzig. ZDMG, 16, 1862, P. 651 - 709.

Flügel G. Die grammatischen Schulen der Araber, Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes, II Leipzig, 1862

Flügel G. Lexicon Bibliographicum et Encyclopaedicum a Mustafa ben Abdallah Katib Jelebi dicto et nomine Haji Khalfa celebrato compositum. Ad codicum vindobonensium parisiensium et berolinensis fidem primum edidit latine

vertit et commentario indicibusque instruxit G. Fluegel, I-VII. Leipzig - London, 1835 - 1858.

Flügel G. Kitâb al-Fihrist, I - II Leipzig, 1871 - 1872

Flügel G. Zwei Reisewerke der Refaîja auf der Universitätsbibliothek zu Leipzig. ZDMG, 18. 1864, p. 523 - 569
569

Fraehn Christianus Martinus, Rostochiensis. Aegyptus auctore Ibn al - Vardi. Ex apographo Escorialensi, una cum lectionibus variis e Codice Dresdensi, primus edidit, vertit, notulisque illustravit Chr. Martinus Fraehn. Halae 1804

Fraehn Ch. M., Ein neuer Beleg, dass die Gründer des Russischen Staates Nordmannen waren, und zugleich Aufklärung über den bisher fast gar nicht gekannten Arabischen Reisenden, aus dessen Werke dieser Beleg entnommen. Bulletin scientifique publié par l'Académie Impériale des Sciences de Saint-Pétersbourg, IV, 1838, p. 131 - 147.

Frähn C. M. Ibn - Foszlan's und anderer Araber Berichte über die Russen alterer Zeit. Text und Übersetzung mit Kritischphilogischen Anmerkungen, SPb, 1823.

Freund S., De rebus die resurrectionis eventuris Fragmentum ex libro cosmographico "Margarita mirabilium" Sein ed - dini Ibn al-vardi... editum Dissertatio quam scripsit Siegfriedus Freund Vratislaviae, 1853

Fritch Erdmann, Islam und Christentum im Mittelalter. Beiträge zur Geschichte der muslimischen Polemik gegen das Christentum in arabischer Sprache. Breslau, 1930 (Breslauer Studien zur historischen theologie, XVII).

Fück J., Eine arabische Literaturgeschichte aus dem 10 Jahrhundert n. Chr. (Der Fîhrist des Ibn an-Nadim). ZDMG, 84 1930, 111 - 124.

Fück J., Al-Nadim EI, III, p. 873 - 874

Fück J. Neue Materialien zum Fihrist. ZDMG, 90, 2, 1936, 298 - 321

Furlani G., Le Carte dell'Adriatico presso Tolomeo ed al ldrisi. Compte-rendu du Congrès lntern. de Géographie au Cairo 1925, V, 2, p 196 - 206

Gabrieli Giuseppe, Manoscritti e carte orientali nelle biblioteche e negli archivi d'ltalia. Dati statistici e bibliografici delle collezioni loro storia e catalogazione, Firenze, 1930

Gandz S., The Algebra of lnheritance. A Rehabilitation of al - Khuwarizmi. Osiris, V. Brugis. 1938, p 319 - 391

Garrett, انظر : Hitti

Gaudefroy - Demombynes, Les cent et une nuits. Traduites de l'arabe, Paris, s.n.

Gaudefroy - Demombynes, Les sources arabes du Muhit turc. JA, 10 série, XX, 1912 p 547 - 550

Gaudefroy - Demombynes, La Syrie à l'époque des Mamelouks d'après les auteurs Arabes. Description géographique, économique et administrative précédée d'une introduction sur l'organisation gouvernementale par Gaudefroy - Demombynes. Bibliothèque archéologique et historique, III. Paris, 1923

Géographie d'Aboulféda. Texte arabe publié d'après les manuscrits de Paris et de Leyde aux frais de la Société Astatique par M. Reinaud et Mac Guckin de Slane Paris, 1840.

Geyer R., Gedichte von Abû Basîr Maimûn ibn Qais al-'A'sâ. arabisch hrsg. von. R. Geyer. London., 1928 (GMS, NS, VI).

Gibb H. A., The Arab Conquests in Central Asia. London, 1923

Gibb H. A. R., Arabic Literature, London, 1925

Gibb H. A. R. انظر Ibn Battûta.

Gibb H. A. R., Ta'rikh, EI, EB. p. 249 - 263

Gildemeister J., Des Abd al - Ghani al-Nâbulsi Reise von Damascus nach Jerusalem. ZDMG, 36, 1882, p. 385 - 400.

Gildemeister J., Idrisi's Palaestina und Syrien im arabischen Text herausgegeben von J. Gildemeister. Bonn (Beilage zu der Zeitschrift des Deutschen Palaestina-Vereins. VIII. 1885).

Gildemeister J., Orientalische Literatur über die Entdeckung Americas. Zentralblatt für Bibliothekswesen. V, Leipzig, 1888, p. 303 - 306.

Gildemeister J., Über den Titel des Masudischen Werkes مروج الذهب Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, V, 1844, p. 202 - 204.

Giovanni Leone. Libellus de viris quibusdam illustribus apud arabes. Ed. J. H. Hottinger, Zürich, 1664.

Gobbée E., Enkele termen bij de navigatie in gebruik in het dialect van Djeddah (Hidjâz). Tijdschrift Voor Indische Tall-, Land-en Volkenkunde. LXVI, Afl. 1 - 2, 1926, p. 144 - 155.

Goeje M. J. de, Annales quos scripsit Abu Djafar Mohammed ibn Djarir at - Tabari. Ed. M. J. de Goeje, series I - III, Lugduni Batavorum, 1879 - 1901.

Goeje M. de., Communication sur le livre d'Ibn al-Modjâwir. Actes du Onzième congrès International des Orientalistes. Paris, 1897, Troisième section, Langues et archéologie musulmanes. Paris, 1899, p. 23 - 33.

Goeje M. J. de, BGA, I - VIII, Lugduni - Batavorum, 1870 - 1894: Al-Istakhri, I, 1870; Ibn Haukal, II, 1878; al - Moqaddasi, III, 1877; III^2, 1906; Indices, Glossarium. et Addenda et Emendanda ad Part. I - III, IV, 1879; Ibn al - Fakih, V, 1885; Ibn Khordàdhbeh, VI. 1889; Ibn Rosteh; al-Jakūbi, VII, 1892; al-Masûdi, VIII,1894.

Goeje M. J. de, Eenige Mededeelingen over de Arabische Geografen door M. J. de Goeje. Tijdschrift van het Aradrijkskundig Genootschap. Leiden. 1874, No 1, p. 190 - 199; No 5, 1875.

Goeje M. J. de, Die Istakhri-Balkhi Frage. ZDMG, 25, 1871, p. 42 - 58.

Goeje M. J. de, La Légende de St. Brandan. Tiré des Actes du VIIIme Congrès International des Orientalistes, tenu en 1889 à Stockholm et a Christiania. Leide, 1890; 2me Partie, Leide. 1893.

Goeje M. J. de, al-Belàdsori.

Goeje M. J. de, De Muur van Gog en Magog. Amsterdam, 1888. Mededeelingen der Koninklijke Akademie van Wetenschappen, Afdeeling Letterkunde, 3de Reeks, Deel V, p. 87 - 124.

Goeje M. J. de, Les Russes-Normands. Actes du VIIImeCongrès International des Orientalistes, tenu en 1889 à Stockholm et Christiania. 2me partie, Leide, 1893 p. 37 - 41.

Goeje M. J. de, Siq. ZDMG, 54, 1900, p. 336 - 338.

Goeje M. J. de انظر Selections.

Goeje M. J. de, انظر : Wright William, The Travels of Ibn Jubayr...

Goldziher I., Muhammedanische Studien, I - II. Halle, 1888 - 1890.

Goldziher Ignaz., Über die Benennung der "Ichwan al-safa". DI, I, 1910 p. 22 - 26.

Goldziher I., Vorlesungen über den Islam. Heidelberg, 1910.

Goldziher, Vorlesungen über den Islam von I. Goldziher. Zweite umgearbeitete Auflage von Dr. Franz Babinger, mit einem Bild des Verfassers und einem Geleitwort von C. H. Becker, Heidelberg, 1925.

Golius J., Muhammedis Fil. Ketiri Ferganensis, qui vulgo Alfraganus dicitur, Elementa astronomica, Arabice et Latine. Opera JacobiGolii. Amstelodami, 1669.

Golius, Notae انظر Golius J., Muhammedis Fil. Ketiri Ferganensis...

Gonzaàlez Palencia A. Historia de la literatura arâbigo - espanola. Barcelona - Buenos Aires, 1928.

Gottheil R., Contributions to the History of Geography, II. Candelabrum sanctorum and Liber radiorum. Hebraica, VII. 1890, p. 39 - 55.

Gottschalk H., Abü Ubaid al - Qasim b. Sallam. Studie zur Geschichte der arabischen Biographie. DI, XXIII, Berlin und Leipzig. 1936. p. 245 - 289.

Goutta G., von.Der Agani-artikel über A'sa von Hamdan. Diss. Kirchhain N.-L., 1912.

Greafe E.|Das Pyramidenkapitel in al-Macrizi's "Hitat". Leipzig. 1911.

Greaves J., Astronomica quaedam ex traditione Shah Cholgii Persae. London, 1652.

Griffini E., Estratti dalla geografia di az - Zuhri od Anonimo di Almeria. Centenario I, 1910, p. 416 - 420.

Griffini E. Die jüngste ambrosianische Sammlung arabischer Handschriften. ZDMG 69, 1915 p. 63 - 88.

Griffini E., Lista dei manoscritti arabi nuovo fondo della Biblioteca Ambrosiana di Milano. RSO, III, 1910, p. 253 - 278, 571 - 594, 901 - 921; IV. 1911 - 1912, p. 87 - 106, 1021 - 1048.

Grimme H., Mohammed, I - II, Münster i. W., 1892, 1895.

Gronovius Jacobus (Gionovius). De Geographiae origine, progressu ac dulcedine. Lugdini, 1703.

Guest R., The Delta in the Middle Ages. JRAS. 1913. p. 305 sui.

Guest Rhuvon, The Governors and Judges of Egypt or Kitâb el 'Umarâ (el Wulâh) wa Kitâb el Qudâh of el Kindi together with an Appendix derived mostly from Raf' el Isr Ibn Hajar. Leyden, 1912, (GMS. XIX).

Guest A. R., A List of Writers, Books and other Authorities mentioned by El Maqrisi in his Khitat. JRAS, 1902, p. 103 - 125.

Guidi I., Abyssinien. EI, I, p. 126 - 128.

Guidi I., L'Europa occidentale negli antichf geografi arabi. Florilegium ou Recueil de travaux d'érudition dédiés à monsieur le marquis Melchior de Vogüè. Paris. 1909, p. 263 - 269.

Guidi I., Muhadarat adabyat al-djugrafiyâ wa-t- ta'rikh wa-I-Iuga 'inda-I-'arab bi i'tibar alaqatiha bi auruba wa hususan bi italiya. 1908 - 1909.

Guidi M., Roma e il mondo islamico. Estratto degli "Atti del IV Congresso Nazionale di Studi Romani", 1938.

Guidi I., Une Description arabe du Sinai. (Ephraemi diaconi monachi expositio de monte Sinai). RB, Nouvelle série. III, Paris - Rome. 1906, p. 433 - 442.

Guignes, de., Ithaf al-ahissa fi fada'il al-masdjid al-aksa. Des prérogatives de la Mosquée Alacsa, ou de Jérusalem. Par Ebn aboul Scherif. Auteur du XV[e] siècle de l'ère chrétienne. Par de Guignes. Notices et extraits. III, Paris, 1790. p. 610 - 616.

Guignes, de. Kitab ba'it an-nufus ila zijarat al-Quds al-Mahrus.

Exhortation aux âmes sur le pélerinage de Jérusalem. Par Bourhaneddin Ibrahim, surnommé Al Kazaoui, ou selon d'autres Alkarai, qui vivait avant le XV[e] siècle. Notices et Extraits, III, Paris, 1790 p. 605 - 609.

Guignes, de. Kitab talhis al-atar wa 'adja'ib al-malik al-qahhar. Exposition de ce qu'il ya de plus remarquable (sur la terre) et des merveilles du roi tout-puissant par Abdorraschid, fils de Saleh, fils de Nouri, surnommé Yakouti; Ouvrage de géographie, composé dans le XV siècle. Par M. De Guignes, Notices et Extraits, II, 1789, p. 386 - 545.

Guignes, de. Haridat al-'adja'ib. Perle des merveilles. Mélanges de géographie et d'histoire naturelle, par Zein-eddin Omar, fils d'Aboul Modhaffer, surnommé Ebn al-Ouardi, écrivain du XIII siècle. Notices et Extraits, II, Paris, 1789, p. 19 - 59.

Günther S., Der arabische Geograph Edrisi und seine maronitischen Herausgeber. AGNT, I, 1909, P. 113 - 123.

Günther S., Geschichte der Erdkunde. Leipzig und Wien, 1904

Günther S., Die Lehre von der Erdrundung im Mittelalter bei Arabern und Hébräern. Halle, 1877.

Guyard St., Géographie d'Aboulféda traduite de l'arabe par St. Guyard. II, deuxieme partie. Paris, 1883.

Haffner A., Al-Asma'i. EI, 1.p. 509.

Haffner A., Drei arabische Quellenwerke über die 'Addad. Beirut, 1913.

Al-Hamdani, Al-Iklil. Buch I und 2. Facsimile Ms. Or. oct 968. Berlin, 1943. (Vorwort: M. Weisweiler. 20 Januar 1943)

Hamdani H., Baht ta'rihi fi rasa'il Ihwan as-Safa' wa 'aqua'id

al-Isma'iliya. Bombay, 1354 / 1935.

Hammer J., von. Geschichte des osmanischen Reiches , grossentheils aus bisher unbenützten Handschriften und Archiven durch J. von Hammer, I - X. Pest, 1827 - 1835.

Hammer J., von, Encyclopädische Ubersicht der Wissenschaften des Orients, aus sieben arabischen persichen und türkischen Werken übersetzt. Den Freunden und Kennern der orientalischen Literatur gewidmet von einem derselben Beflissenen in Konstantinopel, I - II. Leipzig, 1804.

Hammer Jos., Erinnerungen. Wien und Leipzig, 1940.

Hammer Jos. von, Rumelie und Bosna geographisch beschrieben von Mustafa Ben Abdalla Hadschi Chalfa. Wien, 1812.

Hammer J., Sur les origines russes. SPb, 1825.

Harrisse Henry, Christoph Columbus im Orient. Centrlblatt für Bibliothekswesen, V, Leipzig, 1888, p. 133 - 138.

Hartmann A. Th., Oluf Gerhard Tychsen oder Wanderungen durch die mannigfaltigen Gebiete der biblisch-asiatischen Literatur. Ein Denkmal der Freundschaft und Dankbarkeit von A. Th. Hartmann, I - II, Bremen, 1818.

Hartmann Joannes Melhior, Edrisii Africa. Curavit Joannes Melhior Hartmann. Editio altera, Gettingae, 1796.

Hartmann M., Das arabische Strophengedicht, I. Das Muwaššah. Weimar, 1897. Semitistische Studien, 13 / 14.

Hartmann M., China. EI, I. p. 875 - 890.

Hartmann R., Eriwan. EI, II. 31.

Hartmann R., Die geographischen Nachrichten über Palästina und Syrien in Halil az-Zahiri's Zubdat Kašf al-Mamalik.

(Dissertation, Tübingen). Kirchhain, 1907

Hartmann R.,Kleine Mitteilungen und Anzeigen. DI. XIX, 1931, p. 296 - 298.

Hartmann R., Die Strasse von Damaskus nach Kairo. ZDMG, 64, 1910, p. 665 - 702.

Hartmann R., Politische Geographie des Mamlukenreichs. Kapitel 5 und 6 des Staatshandbuchs Ibn Fadlallah al-Omari's eingeleitet, übersetzt und mit Anmerkungen versehen von R, Hartmann. ZDMG. 70, 1916, p. 1-40, 477 - 511: 71, 1917, p. 429 - 431 - Nachträge zu ZDMG, 70, p. 477 sui.

Hartmann R., Das Tübinger Fragment der Chronik des Ibn Tulun. Geistesw., III, 2, 1926.

Hartmann R., Zu Ewlija Tschelebi's Reisen im oberen Euphrat und Tigris - Gebiet. DI, IX, 1919, p. 184 - 244.

Hartner Willy, Mintaka oder Mintakat al-Burudj. EI, III. p. 577 - 581.

Hartner W., Zaman, I. EI, IV, p. 1307 - 1310.

Haschimi M. Jahya, Die Quellen des Steinbuches des Biruni. Dissertation, Bonn, 1935.

Al-Hachimi M. Jahya, Les théories économiques d'al-Bayrouni. RAAD, XV, 1937, p. 456 - 465.

Al-Hachimi M. Jahya, Les sciences physiques et naturelles chez Ikhwan es - Safa. RAAD, 1932, p. 513 - 520.

Hassan Z. M., Les Tulunides. Étude de l'Egypte musulmans à la fin du IX e siècle, 868 - 905. Paris, 1933.

Heer G., Die historischen und geographischen Quellen in Jaqut's Geographischen Wörterbuch. Strassburg, 1898.

Heffening W., Al-Darakutni. EI, EB, p. 49 - 50.

Hell J., Der Diwan des Abu Du'aib hrsg. und übersetzt von Joseph Hell. Hannover, 1926.

Hell J., Al-Farazdaks Loblied auf 'Ali ibn al-Husain (Zain al-'Abidin). Festschrift Eduard Sachau zum siebzigsten Geburtstage gewidmet von Freunden und Schülern. Berlin, 1915, p. 368 - 374.

Hell Joseph, Die Kultur der Araber. Leipzig, 1919.

Hennig R., Terrae incognitae. Eine Zusammenstellung und kritische Bewertung der wichtigsten vorkolumbischen Entdeckungsreisen an Hand der darüber vorliegenden Originalberichte. Leiden, R. J. Brill. I. Altertum bis Ptolemäus, 1936; II. 200 - 1200 n. Chr., 1937; III. 1200 - 1415 n. Chr. 1938; IV. 1416 - 1497 n. Chr., 1939.

Hermann A., Die älteste türkische Weltkarte (1076 n. Chr.). Imago Mundi, Jahrbuch der alten Kartographie, I, Berlin, 1935.

Hermann A., Die Karte der nordwestlichen Länder (في كتاب : Southern Tibet. Discoveries in former Times compared with my own Researches in 1906 - 1908 by Sven Hedin, VIII, 2: Die Westländer in der Chinesischen Kartographie). Stockholm, 1922, p. 277 - 282.

Herzog R., Ein türkisches Werk über des Aegäische Meer aus dem Jahre 1520. Athenische Mitteilungen, XXVII, 1902.

Hess J.J., Bemerkungen zu einigen arabischen Wörtern des abessinischen Glossars. ZA, XXXI, Strassburg, 1917 / 1918, p. 26 - 37.

Heyworth - Dunne J., Arabic Literature in Egypt in the Eighteenth Century with same Reference to the Poetry and Poets. BSOS, IX, 3, p. 675 - 689.

Heyworth - Dunne J., An Introduction to the History of Education in

modern Egypt. London, (1939).

Hirschberg I.W., Jüdische und christliche Lehren im vor-und frühislamischen Arabien. Krakow, 1939.

Hirschfeld H., The Diwan of Hassan b. Thabit, ed. Hartwig Hirschfeld, Leyden - London, 1910. (GMS, XIII).

Hirth Friedrich and Rockhill W. W., Chau-Ju-Kua: His Work on the Chinese and Arab Trade in the twelfth and thirteenth centuries, entitled Chu-fan-chï. Translated from the Chinese and annotated by F. Hirth and W.W. Rockhill. SPb., 1911.

Hitti Ph. K., Faris N.A, 'Abd al-Malik B., Descriptive Catalog of the Garrett Collection of Arabic Manuscripts in the Princeton University Library. Princeton, 1938. (Princeton Oriental Text, V).

Hitti, Kitab al - I'tibar. Arabic Text, ed. Ph, Hitti, Princeton, Oriental Texts, I, 1930.

Hjelt A., Études sur l'Hexameron de Jacques d'Edesse, notamment sur ses notions géographiques, contenues dans le 3 - ième traité. Helsingfors, 1892, ch. III, p. 19 - 31.

Hoenerbach W., Deutschland und seine Nachbarländer nach der grossen Geographie des Idrisi (+ 1162). Stuttgart, 1938. Bonner Orientalistische Studien, 21.

Hoenerbach W., Das nordafrikanische Itinerar des 'Abdari vom Jahre 688 / 1289. Leipzig, 1940. (Abh KM, XXIV, 4; XXV, 4).

Hoenerbach W., ZDMG, 94, 3, 1940, انظر : Hoenerbach. Das nordafrikanische Itinerar des'Abdari.

Honigmann E., Die Ostgrenze des Bysantinischen Reiches von 363 bis 1071 nach griechischen, arabischen, syrischen und

armenischen Quellen. Bruxelles, 1935.

Honigmann E., Die sieben Klimata . Heidelberg, 1929.

Honigmann E., نقد كتاب : BHG, III. - lslamica, III, 1927, p. 160 - 163.

Honigmann E. ? نقد كتاب : New Ptolemy Studies. Text und Karten des Ptolemäus, by Paul Schnabel. 1931. Theorie und Grundlagen der dastellenden Erdkunde, by F.W. Koenig. Translated and edited by Hans v. Mzik, 1931. GJ, XCIII, No 3, March 1939, p. 252.

Horn P., Geschichte der persischen Literatur. Leipzig, 1901.

Horovitz J., Koranische Untersuchungen. Berlin und Leipzig, 1926.

Houtsma M. Th., 'Abd al - Latif. EI, I, p. 50.

Houtsma M. Th., 'Abd al - Rahman b. 'Awf. EI, I, p. 57.

Houtsma M. Th., Catalogue d'une collection de manuscrits arabes et turcs appartenant à la maison E. J. Brill à Leide by Brill - M. Th. Houtsma. Leyde, 1889.

Huart CI., Abaza. EI, I, p. 6 - 7.

Huart CI., L'Afrique de la Géographie mozhafférienne. Paris, 1906. (Actes du XIVe Congrès International des Orientalistes), III. Alger, 1905, p. 13 - 27.

Huart CI., Ahmed Pasha. EI, I, p. 213.

Huart CI., Histoire des Arabes, I - II. Paris, 1912 - 1913.

Huart CI., Littérature arabe. Paris, 1902; ed. 4-e, Paris, 1923.

Huart CI., Le Livre de la Création et de l'histoire d'Abou-Zéid Ahmed ben Sahl el-Balkhi publié et traduit d'après le manuscrit de Constantinople par CI. Huart, I - VI, Paris, 1899 - 1919. Publication de l'ÉLOV, séries XVI - XVIII.

Huart CI., Le Livre de la création et de l'histoire. Manuel arabe de

controverse Xe siècle de l'ère chrétienne. JA, 8 série, X, 1887, p. 160 - 164.

Huart CI., Le véritable auteur du Livre de la Création et de l'histoire. JA, 9 série, XVIII, 1901, p. 16 - 21

Huber - Brockelmann, انظر : Brockelmann. Die Gedichte.

Hudud al - 'Alam. The Regions of the World. A Persian Geography 372 A. H. - 982 A. D. Translated and explained by V. Minorsky with the Preface by V. V. Barthold (+ 1930) translated from the Russian. London, 1937. (GMS, NS., XI).

AI - Huwarizmî, انظر : Nallino.

Hylander Andr., Operis comographici Ibn Vardi caput Primum de regionibus. Ex cod. Ups. ed lat. vert. Andr. Hylander. Lectiones nonnullus variantes collegit et geographicum adjecit Sven Hylander. Lundae, 1823.

Ibn Battúta, Travels in Asia and Africa 1325 - 1354. Translated and selected by H. A. R. Gibb, with an Introduction and Notes, London, 1929.

Ibn Dukmak, انظر : Vollers.

Ibn Fadlan انظر : Validi. Ibn Fadlan.

Ibn al - Qifti's Ta'rih al-Hukama'. Auf Grund der Vorarbeiten Aug. Müller's hrsg. von Julius Lippert. Leipzig, 1903.

Ibn Qutaiba, Kitab 'Ujun al - ahbar, I - IV. Hrsg. von C. Brockelmann. Weimar-Strassburg, 1898 - 1908.

Ibn Qutaiba, Liber Poësis et Poëtarum. ED. M. J. de Goeje, Lugduni Batavorum, 1904.

Ibn Saad, Biographien Muhammeds, seiner Gefährten und späteren Träger des Islams bis zum Jahre 230 der Flucht. Hrsg.

von E. Sachau, I - IX. Leiden, 1904 - 1928.

Ibn Shaddad. EI, II, p. 445.

Ibn Said. EI, II, p. 440.

Ideler, Untersuchungen.

Idrisi, La Finlande et les autres pays baltiques orientaux (Géographie, VII,4). 50 N. 10. Édition critique du texte arabe, avec facsimilés de tous les manuscrits connus, traduction, étude de la toponymie, aperçu historique, cartes et gravures ainsi qu'un appendice donnant le texte de VII, 3 et de VII, 5 par O. J. Tallgren - Tuulio - A. M. Tallgren. Helsingforsiae, 1930. (Soc. Or. Fennica, Studia Orientalia, III).

Al - Idrisi. Oblectatio desiderantis in descriptione civitatium principalium et tractuum et provinciarum et insularum et urbium et plagarum mundi. Romae, 1592.

Iltutmish. EI, II, p. 501.

Imago Mundi. Jahrbuch der alten Kartographie, I. Berlin, 1935.

Indices. انظر : Zaleman K., Rozen V. Spisok...

Jacob G., Altarabisches Beduinenleben, Zweite Ausgabe. Berlin, 1897.

Jacob G., Arabische Berichte von Gesandten an germanisch Fürstenhöfe aus dem 9. und 10. Jahrhundert. Berlin und Leipzig, 1927.

Jacob G., Ein arabischer Berichterstatter aus dem 10. Jahrhundert üder Fulda, Schleswig, Soest, Paderborn und andere deutsche Städte. Studien in arabischen Geographen von G. Jacob, I, Berlin, 1891.

Jacob G., Des spanisch-arabischen Reisenden Abû Hâmid Kosmographie "Tuhfat al - albâb" und ihre wissenschaftlichen Ausbeute. Studien in arabischen Geographen von G. Jocob, III, Berlin, 1892.

Jacob G., Studien in arabischen Geographen, Heft I - IV. Berlin, 1891 - 1892.

Ja'kubi, Les pays. Traduction par G. Wiet. Le Caire, 1937. (Texres et traductions d'auteurs orientaux, I).

Janicsek Stephan, AI - Djaihani's lost Kitab ul - Masalik val - Mamalik is it to be found at Mashhad? BSOS, V, 1928, p. 15 - 26.

Janicsek St., Ibn Battuta's Journey to Bulghar. JRAS, 1929, p. 791 - 800.

Jansky H., Die Chronik des Ibn Tulun als Geschichtsquelle über den Feldzug Sultan Selim's I gegen die Mamluken. DI, XVIII, 1929, p. 24 - 33.

Jansky H., At - Tuhfa al - bahiya. Mitteilungen zur osmanischen Geschichte, II, Vienna, 1923 - 1926.

Jansky H., نقد كتاب Tallgren. La Finlande, - OLZ, 36, 1933, p. 633 - 695.

Jaubert P. A., Géographie d'Édrisi traduite de l,arabe en français d'après deux manuscrits de la bibliothèque du roi et accompagnée de notes par P. Amédée Jaubert, I - II, Paris, 1836 - 1840.

Jong P., de. Homonyma inter nomina relativa, auctore Abu'l Fadhl Mohammed ibn Táhir al - Makdisi vulgo dicto Ibno'l - Kaisaráni, quae cum appendice Abu Musae Ispahanensis e

codd. Leyd. et Berolini. ed. P. de Jong. Lugduni Batavorum, 1865 Kitab al - ansab al - muttafika fi - I - hatt al - mutamatila fi - n- nukat wa - d - dabt).

Juynboll T. G., Lexicon geographicum cui titulus est, Marâsid al ittilâ' 'alâ asmâ' al - amkina wa - I - biqâ', ed. T. G. Juynboll. I - VI, Lugduni Batavorum, 1852 - 1864.

Juynboll W. M. G., Zeventiende - eeuwsche beoefenaars van het Arabisch in Nederland. Utrecht, 1932.

Kahle Paul, China as described by Turkish Geographers from Iranian Sources. Proceedings of the Iran Society, II, 4 (25 I 1940), p. 48 - 59.

Kahle P. und Mustafa M., Die Chronik des Ibn Ijâs in Gemeinschaft mit Moritz Sobernheim, hrsg. von Paul Kahle und Muhammed Mustafa, III - V. Istanbul - Leipzig, 1931 - 1936. (Bibliotheca Islamica, V, c, d, e).

Kahle P., Eine islamische Quelle über China um 1500. (Das Khitayname des 'Ali Ekber). AO, XII, 1934, p. 90 - 110.

Kahle P., Nautische Instrumente der Araber im Indischen Ocean, Oriental Studies in Honour of Dasturji Pavry. Oxford, 1933, p. 176 - 184.

Khale P., Piri Re'is, Bahriye. Das turkische Segelhandbuch für das Mittelländische Meer Vom Jahre 1521. Hrsg., übersetzt erklärt von P. Kahle, I, Text, I Lieferung, Kapitel 1 - 28; II, Übersetzung, 1 Lieferung, Kapitel 1 - 28. Berlin und Leipzig, 1926.

Kahle P., Piri Re'is und seine Bahrîye. Beiträge zur historischen Geographie, Kulturgeographie, Ethnographie, Kartographie...

hrsg. v. H. von Mzik., Leipzig und Wien, 1929, p. 60 - 76.
Kahle Paul, Die verschollene Columbuskarte von 1498 in einer türkischen Weltkarte von 1513. Von Paul Kahle, Berlin und Leipzig, 1933.
Kamal Joussouf, Hallucinations scientifiques (les portulans). Leiden, 1937.
Kamil Ayad M., Die Geschichts-Gesellschaftslehre Ibn Halduns, (Forschungen hrsg. von K. Breysig, 2). Leipzig. 1930.
Kassner Karl, Eine neue Kopie von Edrîsîs "Geographie". A. Petermanns geographischen Mitteilungen, 79, Gotha, 1933 p. 304.
Kayser C., Das Buch von der Erkenntniss der Wahrheit oder der Ursache aller Ursachen. Nach den syrischen Handschriften... hrsg. von C. Kayser. Leipzig, 1889 - Aus dem syrischen Grundtext ins Deutsche übersetzt von C. Kayser. Strassburg. 1893.
Kimble G. H. T., Geography in the Middle Ages, London, 1938.
Kindermann H., Al - Safina. EI, EB, p. 206 - 208.
Kmoskó M., Die Quellen Istakhri's in seinem Berichte über die Chasaren. Körösi Csoma Archivum, I, 2, 1921, p. 141 - 148.
Koehler I.B., Tabulae Syriae c. excerpto geogr. ex Ibn ol Wardi geographia et historia natur. ar. et lat. Ed. notis explan. I. B. Koehler. Lipsiae, 1766.
Koenig C., Der Kitab mutir al-garam ila zijarat al-Kuds wa's-Sam des Sihabeddin Abu Mahmud Ahmed al-Mukaddasi. (Diss. Leipzig). Kirchhain, 1896.
Köprulu M. F., XIII asirda Maraga rasathanesi hakkinda bazi

notlar. Türk Tar. Kurumu. Belleten, VI, 1942, p. 208. - 227.

Kotwicz WI. i Kotwiczówna M., Orjentalista Antoni Muchlinski. Zycie i dziela Wilno. 1935. (Collectanea Orientalia, No 8)

Kowalski T., Die ältesten Erwähnungen der Türken in der arabischen Literatur. Körösi Csoma Archivum, II, Budapest, 1926, p. 38 - 41.

Kowalski T.,Relacja Ibrahima ibn Ja'kuba z podrózy do Krajów slowiánskich w przekazie al-Bekriego. Kraków, 1946, (Pomniki dziejowe Polski, Seria, II, I).

Kowalski T., Z hadan nad relacja o Slowianach Ibrahims ibn Ja'kuba zagadnienie Ibrahim - Turtusi. Odbicie ze Sprawozdan Polskiej Akademii Umiej., XLIV, 1939, 4, p. 133 - 137.

Kowalski T., Zjazdy orientalistovo polskich. III - VI. Wilno, 1934 (Collectanea Orintalia, No 6).

Kramers J. H., Djughrafiya. EI, EB, p. 63 - 75*.

Kramers J. H., L'Érythrée, décrite dans une source arabe du X[e] siècie. Atti del XIX Congresso degli Orientalisti, Roma, 1938, p. 573 - 574.

Kramers J. H., Geography and Commerce. (The Legacy of Islam ed. by Sir Thomas Arnold and Alfred Guillaume). Oxford, 1931, p. 79 - 107.

Kramers J. H., Die muhammedanische geographische Literatur als Kulturescheinung. ZDMG, 13, 1934, p. 20 - 22.

Kramers J. H., Al-Mukaddasi. EI, III, p. 765

Kramers J. H., Munadjdjim Bashi. EI. III, p. 779 - 780.

Kramers J. H., Al-Nil. EI, III, p. 989 - 995.

---

* يجب الآن مراجعة مادة « جغرافيا » فى الطبعة الثانية لدائرة المعارف الإسلامية ، وهى بقلم مقبول أحمد وفرانتس تيشنر . (المترجم)

Kramers J. H., Notices sur les cartes d'Edrisi في كتاب : Kamal, Joussouf, Hallucinations scientifiques (les portulans). Leiden, 1937.

Kramers J. H., Opus geographicum auctore Ibn Haukal (Abu 'I - Kasim ibn Haukal al-Nasibi)... "Liber imaginis terrae" edidit collato textu primae editionis aliisque fontibus adhibitis J. H. Kramers, BGA, II, Editio secunda, fasc. 1 - 2. Lugduni Batavorum, 1938 - 1939.

Kramers J. H., La question Balkhi-Istakhri et l'atlas de I'lslam. AO, XI, 1931, p. 9 - 30.

Kramers J. H., Sami. EI, IV, p. 144 - 145.

Kraus P., Épître de Beruni contenant le répertoire des ouvrages de Muhammad b. Zakariya ar-Razi publié par Paul Kraus. Paris, 1936.

Krause M., Al-Biruni. Ein iranischer Forscher des Mittelalters. DI, 26, 1940, p. 1 - 15.

Krause M., Zu "Der Islam", Band 22, S. 267, DI, 25, 1938, p. 196.

Krause M. : نقد كتاب Meyerhof Max, Das Vorwort zur Drogen--kunde des Beruni eingeleitet, übersetzt und erläutert. Berlin, 1932, DI, 22, 1934, p. 266 - 269.

Kratchkovsky (= Kratschkovsky), : انظر Krachkovski

Kremer A., von, Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen, I - II. Wien, 1875 - 1877.

Kremer A., Des Scheich's 'Abd-ol-Ghanîj en-Nabolsî's Reisen in Syrien, Aegypten und Hidschâs. SBAW, Phil-hist., CI., V, 1850, 6 - 10, p. 313 - 356, 823 - 841; VI, 1851, 1 - 5. p. 100 - 139.

Kremer A., Über zwei arabisch - geographische Werke. SBAW, Phil - hist. CI., V. 1850, p. 77 sui.

Krenkow F., Abu'r - Raihan al-Beruni. Islamic Culture, VI, 4, 1932, p. 528 - 534.

Krenkow F., The Elegy upon al-Mughira ibn al - Muhallab, Islamica, II, 1926, p. 344 - 354.

Krenkow F., Al-Safadi, al-Hasan b. Abi Muhammed 'Abd Allah al-Hashimi. EI. IV, p. 57 - 58.

Kretschmer K., Die Entdeckung America's in ihrer Bedeutung für die Geschichte des Weltbildes. Berlin, 1892.

Kurdian H., The Date of the Oriental Geography of Ibn Haukal. JAOS, 54, 1934. p. 84 - 85.

Kválen Eivind, The Early Norwegian Settements on the Volga. Vienna (A. Holzhausen), 1937.

Kválen [Eivind] , Det norske gurdariki. Andre bandet, Fyrste Heftet. Oslo, 1931.

Lammens H., Causeries géographiques sur la Syrie. Beyrouth, 1911.

Lane E. W., Madd al-qamus. An Arabic - English Lexicon, I - VIII, London, 1863 - 1893

Landberg C., Études sur les dialectes de l'Arabie Méridionale, I - II. Leide, 1901 - 1913.

Lane Poole Stanley, A History of Egypt in the Middle Ages. London, 1901.

Langlès E., Cosmographie composée en arabe par le savant historien Mohhammed ben - Ahhmed ben - Ayâs, de la secte ortodqxe d'Abou Hhanifah, natif de Circassie. Notices et extraits, VIII, Paris, 1910.

Lanzone R. V., Viaggio in Palestina e Soria di Kaid Ba XVIII sultano della Il dinastia Mamelucca fatto nel 1477. Testo arabo Torino, 1878.

Lasa T., von der. Sokeikir aus Damascus. Zeitgenosse des Ruy Lopez. Schachzeitung, 1850, p. 320 - 322 .

Lasa T. von der. Zur Geschichte und Literatur des Schachspiels. Leipzig, 1897.

Le Srange : انظر Strange.

Ledit Ch., Al - A'lak al - hatira, un manuscrit d'Ibn Saddad. المشرق XXXIII, 1935, p. 161 - 223.

Ledit Ch., 'Izz - ed - Din Ibn Saddad, sa valeur historique. المشرق XXXIII, 1935, p. 161 - 223, 586 - 608.

Lelewel, Géographie du Moyen Age étudiée par Joachim Lelewel, I - II, Bruxelles, 1852; Épilogue, 1857.

Lemming F., Commentatio philologica exhibens specimen libri Ithaf al-akhissa bi-fada'il al - Masdjid al - Aksa auctore Kemaloddino Muhammede ben Abu Scherif ex codice manuscripto Nieburiano Bibliothece Regiae Hauniensis excerptum... obtulit. Hauniae, 1817.

Levi Della Vida G., Elenco dei manoscritti arabi islamici della Biblioteca Vaticana. Vaticani Barberiniani Borgiani Rossiani. Roma. 1935.

Levi Della Vida G., Kusaiy. EI, II, p. 1243 - 1244.

Levi Della Vida G., II regno di Granata nel 1465 - 66 nei ricordi di un viaggiatore egiziano, Al - Andalus, I, 2, 1933, p. 307 - 334.

Levi Della Vida G., Tamim al-Dari. EI, IV, p. 700 - 702.

Lévi - Provençal E., La Civilisation arabe en Espagne. Paris,

1948.

Lévi - Provençal E., L'Espagne musulmane au V-ème siècle. Paris, 1932.

Lévi - Provençal E., Extraits des historiens arabes du Maroc, textes d'explication, a l'usage des étudiants. Paris, 1923.

Lévi - Provençal, La Fondation de Fès. Annales de l'Innstitut d'Études Orientales, IV, 1938.

Lévi - Provençal E., Les Historiens des Chorfa. Essai sur la littérature historique et biographique au Maroc du XVI ème au XX-éme siècle. Paris, 1922.

Lévi - Provençal E., EI - Makkari. EI, III, p. 189 - 190

Lévi - Provençal, La Péninsule Ibérique au moyen - âge d'après le Kitab ar - rawd al-mitar fi habar al - aktar d'Ibn 'Abd al-Mun 'im al-Himyari. Texte arabe des notices relatives à l'Espagne, au Portugal et au sud ouest de la France, publié, avec une introduction, un répertoire analytique, une traduction annotée, un glossaire et une carte par E. Lévi - Provençal . Leiden, 1938.

Lévi - Provençal E., Ar - raud al - mi'tar... Actes du XVIII Congrès des Orientalistes. Leyden, 1932, p. 240 - 241.

Lévi - Provençal, Al-Razi. El, III, p. 1228.

Lévi - Provençal E., Al - Tamgruti, Abu l - Hasan 'Ali b. Muhammed b. 'Ali b. Muhammed. El, IV, p. 696.

Lévi - Provençal E., Wattasiden (Banu Wattas). El, IV, p 1227 - 1228.

Lévi - Provençal E., Al - Zaiyani. El, IV, p. 1300 - 1301.

Lévi - Provençal E., Al - Zallaka. El, IV, p. 1304 - 1305.

Levy R., An Introduction to the Sociology of Islam, I - II. London, 1931 - 1933.

Lewicki Tadeusz, Les premiers commerçants arabes en Chine. RO, XI (1935), Lwów, 1936.

Lewicki T., La voie Kiev - Vladimir (Wodzimierz Woynski), d'après le géographe arabe du XII siècle, al - Idrisi. RO, XIII (1937), Lwów, 1938, p. 91 - 105.

Lewicki T., Wegry i muzulmanie wegierscy w swietle relacji podróznika arabskiego z XII w. Abu Hamid Al-Andalusi al - Garnati'ego. RO, XIII (1937), Lwów, 1938, p. 106 - 122,

Lewis B, The Origins of Ismailism. Cambrige, 1940.

Linde. A., von der. Geschichte und Literatur des Schachspiels, 1. Berlin, 1874.

Linde A., von der. Quellenstudien zur Geschichte des Schachspiels. Berlin, 1881.

Lippert J. انظر Ibn al - Qifti

Lith, van der. Kitab 'ag'a ib al-Hind. Livre des merveilles de l'Inde par le capitaine Bozorg fils de Chahriyar de Ramhormoz. Texte arabe publié par P.A. Van der Lith. Traduction française par L. Marcel Devic. Leide, 1883 - 1886.

Löfgren O., Arabische Texte zur kenntnis der Stadt Aden im Mittelalter. I, Zur Topographie. Uppsala (1936). (Arbeten utgivna med understöd av Vilhelm Ekmans Universitetsfond, Uppsala, 42: 1).

Löfgren, Ein Hamdani-Fund über das Berliner Unicum der beiden ersten Bücher des Iklil von Oscar Löfgren. Uppsala Universitets Arsskrift 1935: 7, Uppsala, 1935, (Recueil de

travaux, publiés par l'Université d'Uppsala).

Lokotsch Karl, Etymologisches Wörterbuch der europäischen (germanischen, romanischen und slavischen) Wörter orientalischen Ursprungs. Heidelberg, 1927.

Loth O., A Catalogue of the Arabic Manuscripts in the Library of the India Office by O. Loth. London, 1877.

Lund J.P., Aardrijkskundige Fragmenten vit de syrische Literatuur der zesde en zivende Eeuw, Amsterdam, 1887. (Verslagen en Mededeelingen der Koninklijke Akademie van Wetenschappen. Afdeling Letterkunde, Derde Reeks, Derde Deel, p. 164 - 193.

Lyall Ch., The Dîwâns of 'Abid ibn al-Abras, of Asad and 'Amir ibn at-Tufail, of 'Amir ibn Sa'sa'ah. Edited and supplied with a Translation and Notes by Charles Lyall, Leyden, 1913. (GMS, XXI).

Macdonald H., 'Abd al-Razzak. El, I, p. 65 - 67.

Macdonald D. B., Malahim. El, III, p. 204 - 205

Macdonald D. B., Djafr. El, I, p. 1037 - 1038.

Mahdi Husain انظر : Collin Davies C.

Mahmassany Sobhi, Les idées éconmiques d'Ibn Khaldoun. Lyon, 1932.

Al - Makkari. Analectes sur l'histoire et la littérature des arabes d'Espagne, par al - Makkari, Publiés par R. Dozy, G. Dugat, L. Krehl et W. Wright, I, Leyde, 1885 - 1860; II, Leyde, 1858 - 1861.

Malo Ch., Mirza Aboul Taleb Khan. Voyages en Afrique, en Europe écrits par lui-même. Paris, 1819

Al - Maqrizi, انظر G. Wiet, El-Khitat.

Marçais, Al-'Aini. El, I, p. 225 - 226

Marçais W, Al-Khatib al-Baghdadi. El, II, p. 997 - 998.

Margoliouth D. S., The Kitab al-Ansab of 'Abd al - Karim ibn Muhammad al-Sam'ani reproduced in Facsimile from the Manuscript in the British Museum Add. 23, 355. With an Introduction by D. S. Margoliouth. Leyden - London, 1912. (GMS, XX).

Margoliouth D. S., Lectures on Arabic Historians. Calcutta, 1930.

Margoliouth D. S. نقد كتاب :Muallim M. Gevdetin Hayati, Eserleri ve Kutuphanesi (The Life, Works, and Library of Professor M. Jevdet). By Osman Ergin, Secretary of the Istanbul Vilayet. 10 X 6 1/2, pp. 748. Istanbul: Bozkurt Press, 1937. - JRAS, 1939, pp. 622 - 623.

Margoliouth, The Table - Talk of a Mesopotamian Judge being the first Part of the Nishwar al-Muhadarah or Jami' al-Tawarikh of Abu 'Ali al-Muhassin al - Tanuikhi. Ed. D. S. Margoliouth, London, 1921 (Oriental Translation Fund, New Series, XXVII).

Markwart J., Ein arabischer Bericht über die arktischen (uralischen) Länder aus dem 10. Johrhundert. Sonderabdruck aus "Ungarischer Jahrbucher", IV, Heft 3/4, Berlin, 1924.

Markwart J., Osteuropäische und Ostasiatische Streifzüge. Leipzig, 1903.

Markwart Josef, Wehrot und Arang. Untersuchungen zur mythischen und geschichtlichen Landeskunde von Ostiran.

Leiden, 1938.

Martino Pierre, L'Orient dans la littérature française au XVII - e et XVIII - e siècle. Paris, 1906.

Massé H., Rida Kuli Khan. El, III, pp. 1245 - 1246.

Massignon L., Leo Africanus, al - Hasan b. Muhammed al - Wazzan al - Zaiyati. El. III, pp. 24.

Massignon L., Le Maroc dans les premières années du XVI-e siècle. Tableau géographique d'après Léon l'Africain par Louis Massignon. Préface de L. - G. Binger. Alger, 1906. (Mémoires de la Société historique Algérienne, I).

Massignon L., Nawbakhti. El, III, pp. 958 - 959.

Massignon L., Sur la date de la composition des "Rasa'ïl lkhwan al - safs". DI, IV, 1913, 324.

Mehmet Aga Oghlu, The Origin of the Term Mina and its Meanings. JNES, V, No 4, 1946, pp. 246 - 247.

Mehren A. F., Cosmographie de Chems-ed-din Abou Abdallah Mohammed ed - Dimichqui. Texte arabe, publié d'après l'édition commencée par M. Fraehn d'après les manuscrits de St. Pétersbourg, de Leyde et de Copenhague. SPb., 1866.

Mehren A., Udsigt over de islamiske folkes geographiske kundskaber. Kjöbenhavn, 1858. (Annaler vor nordisk Oldkyndighed).

Melgunoff, انظر Melgunov.

Menzel Th., نقد كتاب :Piri Re'is Bahriye: Das türkische Segelhand- -buch für das Mittelländische Meer von Jahre 1521 herausgegeben, übersetzt und erklärt von Paul Kahle, I - II. Berlin, 1926. - OLZ, 1928, No 4, عمود 285 - 288

Mayer E., Geschichte der Botanik, III. Königsberg, 1856.

Meyerhof M., Allgemeine Pharmakologie und Botanik bei Edrisi. AGMNT, XII, 1929, pp. 45 sui., 225 sui.

Meyerhof M., Kitab al-saidana. Berlin, 1932.

Mez A., El Renacimento del Islam. Traducción del alemán por Salvador Vila. Madrid - Granada, 1936.

Mez A, Die Renaissance des Islams. Heidelberg, 1922.

Mielck R., Terminologie der Müller und Bäcker im islamischen Mittelalter (Dissertation, Breslau). Glückstadt und Hamburg, 1914.

Mieli A., La science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale par Aldo Mieli avec quelques additions de Henri - Paul - Joseph Renaud (Rabat), Max Meyerhof (Misr al-Qâhira), Julius Ruska (Berlin). Leiden, 1939.

Miller K., Mappae arabicae. Arabische Welt - und Länderkarten, I - VI, hrsg. von Konrad Miller, Stuttgart, 1926 - 1927.

Minorsky V., Abu-Dulaf Mis'ar Ibn Muhalhil's Travels in Iran (circa A. D. 950). Arabic Text with an English Translation and Commentry. Egyptian Ministry of Education. Cairo University Press, 1955.

Minorsky V., Les Études historiques et géographiques sur la Perse depuis 1930. Acta Orientalia, X, Leiden, 1931, pp. 278 - 293.

Minorsky V., The Khazars and the Turks in the Akam al - Marjan. BSOS, University of London, IX, 1, 1937, pp. 141 - 150.

Minorsky V., Maragha. El, III, pp. 284 - 290.

Minorsky V., Muhammed Hasan Khan. El, III, pp. 741 - 742.

Minorsky V., Narshakhi. El. III, pp. 914.

Minorsky V., Rus. El, III, pp. 1276 - 1278.

Minorsky V., Une nouvelle source persane sur les hongrois au X siècle. Budapest, 1937. (Tirage à part de la "Nouvelle Revue de Hongrie", Avril, 1937).

Minorsky V. - Barthold V. V., انظر : Hudud al - 'Alam.

Mitchell J., The History of the maritime Wars of the Turks translated from the Turkish of Haji Khalifeh. by J. Mitchell, London, 1831

Mittwoch E., Ibn al-Kifti. El, II, pp. 423.

Moberg A., Nasi', El. III, pp. 924 - 925.

Moberg A., An-nasi' in der islamischen Tradition. Lund, 1931.

Mohammed Ben Cheneb., Al-'Abdari. El, I, pp. 71 - 72.

Mohammed Ben Cheneb, Al-'Aiyashi. El, I, 231 - 232.

Mohammed Ben Cheneb, Étude sur les personnages mentionnés dans l'idjaza du Cheikh 'Abd el Qadir el Fasy par Mohammed Ben Cheneb. Extrait du tome IX des Actes du XIV Congrès Internationl des Orientalistes, Paris, 1907.

Mohammed Ben Cheneb, Ibn al-Wardi. El, II, pp. 455.

Moh. Ben Cheneb, Muwashshah. El, III, pp. 859 - 860.

Moncada Crispo, Abû Hâmid da Granata. La descrizione di Roma nel secole XII, tolta da un codice arabo della Biblioteca nazionale di Palermo tradotta ed illustrata da Cario Crispo-Moncada. Palermo, 1906.

Mordtmann J. H., Ewliya Celebi. El, II, pp. 34 - 35.

Mordtmann J. H., Hadjdji Khalifa. El, II, pp. 217 - 218.

Mordtmann J. H., Ibrahim Muteferrika. El, II, pp. 467.

Moritz B., Description du Faiyoum au VII^{me} siècle de l'Hégire par Abou 'Osman il Naboulsi il Safadi. Le Caire, 1898 - 1899.

(Publications de la Bibliothèque Khédiviale, XI).

Moritz B., Ibn al - Gî'ân. At - tuhfa as - sanîja fî asmâ al - bilad al - Misrîja. Ed. B. Moritz Kairo, 1898.

Moritz B, Ibn Sa'îd's Beschreibung von Sicilien. Centenario, I, Palermo, 1910, pp. 292 - 305.

Moritz B., Izhâr sun'at al haij al qaijüm fi tartîb bilâd al Faijûm. Hrsg von B. Moritz, I - II, Kairo 1898 - 1899. (Publications de la Bibliothèque khédiviale. XI).

Motylinski A. M. el-Moqri. Les Mansions lunaires des Arabes, publiées, traduites et annotées par A. de Motylinski. Alger, 1899.

Moura, Viagens extensas e dilatadas do celebre arabe Abu Abdallah, mais conhecido pelo nome de Ben Batuta, traduzidas por Jose de Santo Antonio Moura, I - II. Lisboa, 1840 - 1855.

Muhammad Nizámu' d-din, Introduction to the Jawámi u'l-hikáyát wa lawámi' u'l-riwáyát of Sadidu'd-din Muhammad al-'Awfi. London, 1929, (GMS, N. S., VIII).

Mühlinen E. Graf von, Das Grab Abul - Fida's in Hama. ZDMG, 62, 1908, p. 657 - 660, مع أربعة رسوم

Müller D. H., Das Buch der arabischen Halbinsel von Hasan al-Hamdani (Bericht über die Ergebniss einer zu wissenschaftlichen Zwecken mit Unterstützung der k. Akademie der Wissenschaften unternommenen Reise nach Constantinopel. I). SBAW, Phil-hist. CI., 90, 1878, pp. 299 - 333.

Müller D. H., Die Burgen und Schlösser Südarabiens. SBWA,

Phil.-hist. CI., 94. 1879, p. 355 sui,; 97, انظر : « الاكليل » الهمدانى
1880, p. 955 sui -

Müller D. H., Al Hamdâni's Geographie der arabischen Halbinsel hrsg. von D. H. Müller. I - II. Leiden, 1884 - 1891

Müller D. H, Südarabische Studien. SBWA, Phi.-hist. CI., 86 (1877), pp. 108 sui.

Müller Car., Fragmenta Historicorum Generorum collegit... Carolus Mullersis. IV. Parisiis, 1851.

Murray H. J. R., نقده لكتاب : The Earlier Arabic Literature of Chess. Libro del Ajedrez, de sus Problemas y Sutilezas, de Autor Arabe desconcido. Por Félix M. Pareja Casanas. Publicaciones de las Escuelas de Estudios Arabes de Madrid y Granada. Serie A. No 3, Madrid, 1935. - JRAS, 1937, pp. 169 - 176.

Mzik H. von. Africa nach der arabischen Bearbeitung der G. Y. des Claudius Ptolemaeus von Muhmmad ibn Musa al-Hwarizmi. Wien, 1916 (K. Akad. d. Wiss. in Wien, Phil - hist. CI., Denkschriften, LIX, Abh. 4).

Mzik H., Bibliothek arabischer Historiker und Geographen, I - V. Leipzig, 1926 - 1930.

Mzik H., von. Das Buch der Abbildungen der Länder. Handschrift der Hofbibliothek in Wien. Mitt. der Geogr. Gesellschaft in Wien, LXII, 1919, pp. 145 - 149, tagv. I - IV.

Mzik Hans, von, Idrisi und Ptolemäus. OLZ, XV, 1912, pp. 403 - 406.

Mzik Hans, von. Das Kitab Surat al-ard des Abu Ga'far Muhammed Ibn Musa al - Huwarizmi. Hrsg. nach dem

handschriftlichen Unicum der Bibliothèque de l'Université et régionale in Strassburg (cod. 4247) von Hans v. Mzik. Leipzig, 1926 (BAH u. G, III).

Mzik Hans, von. Mythische Gegraphie. WZKM, XLV, 1 - 2, Wien. 1938, p. 85 - 108

Mzik H., von. Osteurropa nach der arabischen Bearbitung der G. Y. des Klaudius Ptolemaios von Mohammed ibn Musà al - Huwarismi. WZKM, XLIII, 1936, p. 161 - 193.

Mzik H., Parageographische Elemente in den Berichten der arabischen Géografen. BAH u. G., 1929.

Mzik H., von. Ptolemaeus und die Karten der arabischen Geographen. Vortrage gehalten in der Fachsitzung der kk. geographischen Gesellschaft am 4. Mai 191. Mitt. der k. k.Geogr. Ges. in Wien, LVIII, 1915, p. 152 - 176.

Mzik H., von. Die Reise des Arabers Ibn Batuta durch Indien und China (14. Jahrhundert). Bearbeiter von Dr Hans von Mzik, Hamburg, 1911. (Bibliothek denkwürdiger Reisen, 5).

Mzik Hans, von. : نقد كتاب Ernst Honigmann, Die sieben Klimata. Heidelberg, 1929, OLZ, No 34, 1931, p. 939 - 949.

Mzik Hans. : نقد كتاب Eivind Kválen, The Early Norwegian Settlements on the Volga. Ed. and printed by A. Holzhausens Nfg., Vienna 1937, VI u. 49 S. RM 3. - WZKM, XLVI, 1939, p. 317 - 318.

Nallino C. A., Astronomie. EI, I, p. 517 - 520.

Nallino C. A., Al - Battani. EI, I, p. 709.

Nallino C.A., Al-Battani sive Albateni Opus Astronomicum. Arabice editum, Latine versum, abnotationibus instructum a C. A. Nallino, I - III Milano, 1899 - 1907.

Nallino C. A., La Bioliotheca Geographorum Arabicorum di M. J. de Goeje. Cosmos, series II, XII, Torino, 1894 - 1895, fasc. II, p. 45 - 63.

Nallino C., Al - Huwârizmi e il suo rifacimento della geografia di

Tolomeo. Memoria della Reale Accademia dei Lincei, series V, II, 1, Roma, 1894.

Nallino C, 'Ilm al - falak, Ta'rikhuhu 'inda - 'arab fi - I - Kurun al - wusta. Roma, 1911.

Nallino C., Al - Khuwarizmi et son remaniement de la Géographie de Ptolémée. Bull. de la Société Khédiviale de Géographie, IV série, No 8, Cairo, 1896. pp. 525 - 543.

Nallino C. A., Un mappamoundo arabo disegnato nel 1597 da 'Ali ibn Ahmad al - Sharafi di Sfax. BSGI, IX, 1961, p. 721 - 736 (Racc. V. p. 533 - 548).

Nallino Carlo Alfonso, Raccolta di Scritti editi e inediti. V, Astrologia - Astronomia - Geografia a cura di Maria Nallino, Roma, 1934, (Publicazioni dell' Istituto per I'Oriente).

Nallino Carlo Alfonso, Storia dell' astronomia presso gli Arabi nel Medio Evo. Lezioni 1909 - 1910 (= Nallino. 'Ilm al - falak). Racc., V, II, Roma, 1944.

Nallino C., Sun, Moon and Stars.Hastings Encyclopaedia of Religion and Ethics. XII, 1921, p. 88 - 101 (= Racc., V., p. 1 - 87).

Nallino C. A., Le tabelle geographiche d'al - Battani, tradotte ed annotate dal C. A. Nallino. Cosmos, series II, XII, Torino, 1894 - 1896, fasc. VI, p. 161 - 183.

Nallino C., Tracce di opere greche giunte agli Arabi per trafila Pehlevica. A Volume of Oriental Studies pesented to E. G. Browne, Cambridge, 1922.

Nallino C. A., II valore metrico del grado di meridiano secondo geografi arabi.Cosmos, XI, 1892 - 1893, p. 20 - 27; 50 - 63, 105

- 121 (= Racc, V., Roma 1944, p. 408 - 457).

Nallino C., Venezia e Sfax nel secolo XVIII secondo il cronista arabo Meqdîsh. Centenario, I, Palermo, 1910, p. 306 - 356; Aggiunte e correzioni, Centenario, II, Palermo, 1910, p. 640 - 641.

Nallino C. : نقد كتاب R. Strothmann, Die Zwölfer - Schi'a. Zwei religionsgeschtliche Charakterbilder aus der Mongolenzeit, Leipzig, 1926 - OM, VIII, 1928, p. 43 - 44.

Nansen F., Nebelheim, Entdeckung und Erforschung der nördllchen Länder und Meere, II, Leipzig, 1911. (Die arabischen Geographen im Mittelalter).

Nau Fr., Les Arabes chrétiens de Mésopotamie et de Syrie du VII - e au VIII-e siècle. Par François Nau, Paris. 1933. (Cahiers de la Société asiatique, I -re série. I).

Nau F., Le Livre de l'ascension de l'esprit sur la forme du ciel et de la terre Paris, 1899 - 1900 (Bibliothèque de l'École des hautes études, 121).

Nazim : انظر Meyerhof, Kitab al - saidana, p. 6, note 4.

Newton A. P., Travel and Travellers of the Middle Ages. London, 1930.

Nicholson, The Fársnáma of lbnu'l Balkhi. Ed. by G. Le Strange and R. Nicholson, Cambridge, 1921 (GMS. N. S., I),

Nicholson R., A Literary History of the Arabs. Cambridge, 1930.

Nöldeke Th., Die arabischen Handschriften Spitta's. ZDMG, 40, 1886, p. 305 - 314.

Nöldeke Th, Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sasaniden. Leyden, 1879.

Nöldeke Th., Orientalische Skizzen, Berlin, 1892.

Nöldeke Th., : نقد كتاب Peiser, Der Gesandschaftsbericht des Hasan ben Ahmed El - Haimî. Göttingische Gelehrte Anzeigen, 39, 1894, No p, 568 - 572.

Norberg Matthias, Gihan numa, geographia orientalis, ex turcico in latinum versa, I - II. Londini Gothorum, 1818.

Notices et Extraits des manuscrits de la Bibliothèque National et autres bibliothèques, publiés par l'Institut National de France, VII. Paris (بدون سنة الطبع)

Orientalische Bibliographie, hrsg. von A. Müller. und von L. Schermann. Berlin, 1887 - 1922.

Ouseley W., The goegraphical works of Sādlik Ishfaāni. Translated by J. C. from original Persian Mss, in the Collection of Sir William Ouseley. London, 1832

Pardi G., Quando fu composta la geografia d'Edrisi. Rivista geografica italiana, 24. Firenze, 1917.

Paret R., Al - Tanukhi. EI, IV, p. 710.

Pedersen J., Ibn Dukmak, Sarim al - Din Ibrahim b. Muhammed al - Misri. EI, II, p. 397.

Pedersen Johs, Masdjid. EI, III, p. 372 - 435.

Peiser F. E., Der Gesandtschaftsbericht des Hasan ben Ahmed El - Haimi, hrsg. von F. E. Peiser. Berlin, 1894.

Peiser F. E., Zur Geschichte Abessiniens im 17 Jahrhundert. Der Gesandtschaftsbericht des Hasan ben Ahmed El - Haimi. Übersetzt von F. E. Peiser, Berlin, 1898.

Pelliot P., Voyage du marchand arabe Sulaymân en Inde et en Chine rédigé en 851, suivi de remarques par Abû Zayd Hasan,

traduit per Gabriel Ferrand. T'oung Pao, XXI, Leide, 1922, p. 399 - 413 (Les Classiques de l'Orient, VII, Paris, 1922).

Péllisier - Rémusat, Histoire de l'Afrique de Moh'ammed - ben - Abi - el - Raïni - el - K'airouâni. Traduite de l'arabe per E. Péllissier et Rémusat, Paris, 1845. Exploration scientifique de I'Algérie pendant les années 1840, 1841, 1842, publié par ordre du gouvernement et avec le concours d'une commission académique, (Sciences historques et géographiques, VII).

Pérès H., L'Espagne vue par les voyageurs musulmans de 1610 à 1930. Paris, 1937. Publication de l'Institut d'études Orientales. (Faculté des Lettres d'Alger. VI).

Pérès H., Le palmier en Espagne musulmane - Notes d'après les textes arabes. MGD, Le Caire, 1935 - 1945, p. 225 - 239.

Périer A., Jahya b 'Adi, un philosophe arabe chrétien du X siècle. Paris, 1920.

Pertsch W., Die arabischen Handschriften der Herzoglichen Bibliothek zu Gotha. Auf Befehl Sr. Hoheit des Herzogs Ernst II. von Sachsen - Coburg - Gotha verzeichnet von W. Pertsch, I - V. Gotha, 1878 - 1892.

Peschel - Ruge. O. Peschel's Geschichte der Erdkunde bis auf Alexander von Humboldt und Carl Ritter. Zweite vermehrte und verbesserte Auflage, hrsg. von S. Ruge. München, 1877.

Pizzi I., Letteratura Arabe. Milano, 1903. (Manuali Hoepli).

Plessner M., Ta'rikh. EI, EB, pp. 246 - 249.

Plessner M., Al-Tidjani. EI, IV, pp. 806 - 807.

Pons Boigues F., Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo - espanoles for F. Pons Boigues. Madrid,

1898.

Postell G.Cosmographiae compendium.Basileae, 1561.

Praetorius F. Ein arabisches Document zur athiopischen Geschichte. ZDMG,.39. 1885, pp. 403 - 410

Prinsep James, Note on the Nautical Instruments of the Arabs. JASB, 1836 (= Ferrand, Introduction, pp. 1 - 24).

Prolégomènes historiques d'Ibn-Khaldoun. Texte arabe, publié par M. Quatremère, Paris, 1858. (Notices et extraits, XVI - XVIII, première partie). Traduction par M. G. de Slane. Paris, 1862 - 1868. (Notices et extraits, XIX - XXI, première partie).

Prutz, Kulturgeschichte der Kreuzzüge. Berlin, 1883.

Quatremère M. Des sciences chez les Arabes. Mélanges d'histoire et de philologie orientale, Paris (بدون سنة الطبع)

Quatremère E., Histoire des sultans mamlouks de l'Égypte, écrite en arabe par Taki-eddin- Ahmed-Makrizi, traduite en français, et accompagnee de notes philologigues, historiques, géographiques par E.Quatremère, I - II. Paris, 1837 - 1845.

Quatremère E., Mémoires géographipues et historiques sur l'Égypte, II. Paris, 1811.

Quatremère E., Notice de l'ouverage qui a pour titre: Mesalek alabsar fi memalek alamsar "Voyages des yeux dans les royaumes des différentes contrées". Notices et extraits, XIII. Paris, 1839, pp. 151 - 384.

Quatremère E., Notice de l'ouvrage persan qui a pour titre: Matla-assaadeïn oumadjma-albahreïn et qui contient l'histoire des deux sultans Schah - Rokh et Abou Saïd. Par E.

Quatremère. Notices et extraits, XIV, 1. Paris, 1843, 1 - 514.

Quatremère E., نقد لطبعة بولاق : خطط المقريزى - Journal des Savants, 1856, pp. 321 - 337.

Rabbath A., Rihlat auwal šarqi ila Amerika. Le plus ancien voyage d'un oriental en Amérique (1660 - 1683), voyage du curé Chaldéen Elias,fils du prêtre Jean de Mossoul, d'après le ms. de l'archévêché d'Alep, éd. et annoté par le père A. Rabbath. Beyrouth, 1906.

Radu B., Voyage du patriarche Macaire, étude préliminaire. Paris, 1927.

Radu B., Voyage du patriarche Macaire d'Antioche. Texte arabe et traduction française par Basile Radu. Patrologia Orientalis, XXII, I, Paris, 1930.

Ranking- Azoo, Ahsan at taqâsîm fî ma'rifet al aqâlim. Translated from the Arab. and ed. by G. S. A. Ranking aud R. F. Azoo, I, l. Calcutta, 1897. (Bibl. Ind.).

Ravaisse P., Zoubdat Kachf el - Mamâlik. Tableau politique et administratif de l'Égypte, de la Syrie et du Hidjaz sous la domination des sultans mamloûks du XIII-e au XV-e siécle par Khalîl ed Dâhiry. Texte arabe publié par P. Ravaisse, Paris, 1894.

Recueil des historiens des croisades publié par les soins de l'Académie des inscriptions et belles-lettres. Historiens orientaux, Paris, 1872 - 1906.

Rehatsek E., An Embassy to Khatá or China A. D. 1419. From the Appendix to the Rouzat-al-Ssafâ of Muhammad Khâvend Shâh or Mirchond. Translated from the Persian by Edward

Rehatsek. (The Indian Antiquary. A Journal of Oriental Research in Archaeology, History, Literature, Languages, Folklore, etc., etc. Ed. by Jac. Burgess. II, 1873). Bombay, 1874, pp. 75 - 83.

Reinaud, Géographie d'Aboulfeda, 1, Introduction générale a la Géographie des Orientaux, Paris, 1848.

Reinaud, Géographie d'Aboulféda traduite de l'arabe en français et accompagnée de notes et d'éclaircissements par M. Reinaud, II, première Partie, Paris, 1848.

Reinaud M., Invasion des sarrazins. Paris, 1836.

Reinaud M., Notice sur les dictionnaires géographiques arabes. JA, 5 série, XVI, Paris, 1860, pp. 65 - 106.

Reinaud M. (J. F.). Notice des ouvrages arabes, persans, turcs et français, imprimés á Constantinople. Bulletin universel des sciences, XIX. Paris, 1831 (cahier de novembre), section VII, pp. 271 - 288.

Reinaud M. et De Slane M. G., Géographie d'Abouulfeda. Texte arabe publié d'après les manuscrits de Paris et de Leyde aux frais de la Société Asiatique par M. Réinaud et Mac Guckin de Slane, Paris, 1840.

Reitemeyer Else, 'Arram b. al - Asbag as - Sulami's K. asma' gibal Tihama wa makaniha. DI, 1932, p. 247 - 254.

Renan E., Mélanges d'histoire et de voyages, Paris, 1878.

Renaud H.P. J. Isis, XXXIV, 1, No 93, 1942, p. 24.

Rescher O., Abriss der arabischen Litereturgeschichte, I, Konstaņtinopel - Pera. 1925; II, Stuttgart, 1933.

Rieu Ch., Çatalogue of the Persian Manuscripts in the British

Museum, I - III London, 1879 - 1883. Supplement to the Catalouge of Persian Manuscripts in the British Museum. London, 1895.

Rieu C., Catalougus codicum manuscriptorum qui in muso Britannico asservantur. Pars secunda, Codices arabicos amplectens. Londini, 1846

Rieu Ch., Supplement to the Catalogue of the Arabic Manuscripts in the British Museum. London, 1894.

Ritter H., Arabische Flussfahrzeuge auf Euphrat und Tigris. (Mesopotamische Studien. I). Dl. IX, 1919, p. 121 - 143.

Ritter H., Philologika, I, Zur Uberlieferug des Fihrist. DI, XVII, 1928, p. 15 - 23.

Ritter H. نقده لكتاب : Bibliothek arabischer Historiker und Geographen, hrsg von Hans v. Mzik. Dritter Band. DI, XIX, 1930, p. 52 - 57.

Riza Qouly Khan, Relation de l'ambassade au Kharezm publié, traduit et annotè par Ch. Schefer. Paris, 1876 - 1879. (PÉLOV, I série, III - IV).

Robérto C. H., Catalogue of the Greek and Latin papyri in the John Rylands Library. III. Manchester, 1930.

Rohr - Sauer A., von. Des Abu Dulaf Bericht über seine Reise nach Turkestan, China und Indien, neu übersetzt und untersucht. Stuttgart, 1939. (Bonner Orientalistische Studien. 26).

Ronciére Ch. de la. La Carte qui a inspiré à Christophe Colomb la découverte de l'Amérque. Jacomet, Paris, 1924.

Rosen : انظر Rozen

Rosenthal F., Ahmed b. at - Tayyib as-Sarahsi. New Haven, 1943. (American Oriental Series, 26).

Rossi G., Dizionario storico degli autori arabi piu celebri e delle principali loro opere. Compilato dal dottore Giambernardo de Rossi. Parma, 1807.

Rousseau A. انظر : Voyage du scheikh et - Tidjani.

Ruska J., 'Anbar. EI, I, p. 393 - 364.

Ruska J., Al - Manazil. EI, III, p. 252

Ruska J., Das Quadrivium aus Severus bar Schakku's Buch der Dialoge. Leipzig. 1896.

Ruske J., Al - Tusi. EI, IV, p. 1062 - 1063.

Ruska Julius, Zur geographischen Literatur im islamischen Kulturbereich. GZ XXXIII, 1927. p. 519 - 528. 589 - 599.

Saavedra E., La geografia de Espana nel Edrisi, Boletin de la Sociedad Geografica de Madrid, 18, Madrid, 1885. p. 225 - 242.

Sachau Edw., Ta'rikh al - Hind. Alberuni's India, an Account of the Religion, Philosophy, Literatur, Chronology, Astronomy, Customs, Laws and Astrology of India about 1030. ed. by Edw. Sachau, London, 1887 (الترجمة . I - II, London, 1888 : الطبعة الجديدة London, 1910)

Sachau E., Arabische Erzählungen aus der Zeit der Kalifen, München, 1920 (Dichtungen des Ostens).

Sachau E., SBAW, Phil - hist, Kl, 73, 1873.

Sachau E., Vom Klosterbuch des Sábusti. Abbandlungen der Preussischen Akademie der Wissenschaften, Phil - Hist. KI,

1919, No 10.

Sachau Ed., Zur Geschichte und Chronologie von Khárizm. SBAW, Phil - Hist. CI, LXXIII, Wisn, 1873, p. 471 - 506.

De Sacy S., Relation de l,Egypte, par Abd - Allatif, médecin arabe de Bagdad suivie de divers Extraits d'Ecrivains Orientaux, et d'un état de Provinces et des Villages de I'Egypte dans le XIV - e siécle; le tout traduit et enrichi de notes historiques et critiques, par S. de Sacy. Paris, 1810.

Salemann, : انظر Zaleman

Salihani, Kitab muhtasar ad - duwal. ed. Salihani. Beyrouth, 1890.

Salmon G., Une liste de villes marocaines. AM, VI, 1906, p. 457 - 460.

Salmon G., Note sur la flore du Fayyoum d'aprés an - Nâboulsi. BIFAO, I, Le Caire, 1901, p. 25 - 28.

Salmon G., Un voyageur marocain à la fin du XVIIeme siécle. La Rihla d'az - Zyany. AM, II, 1905, p. 330 - 340.

Salverda de Grave, Specimen e literis orienlalibus exhibens az - Zamaksarii lexicon geographicum, cui titulus est Kitab al amkina wal gibál wal mijâh, quod auspice T. G. J. Juynboll edidit Mathias Salverda de Grave. Lugduni Batavorum, 1856.

Samaha , Abdel Hamid Mahmud. The Arabic Names of the Stars. Lund, 1937, (Meddelande fran Lunds Astronomiska Observatorium, Serie II, No 89, Historical Notes and Papers, No 11).

Samaha A. H. Notes on the cosmological Ideas in al - Quran, Lund, 1938. (Meddelande fran Lunds Astronomiska Observatorium. Serie II, No 96, Historical. Notes and Papers,

No 13).

Sangin : انظر Shangin.

Sarkis J. E., Dictionnaire encyclopédique de bibliographie arabe comprenant I le nom de tous les ouvrages imprimés, tant en Orient qu'en Occident et en Amérique, depuis la création de l'Imprimérie jusqu'a 1919 inclusivement, 2 une biographie succincte de la plupart des auteurs anciens et modernes, 3 les sources des notes biographiques, Le Caire, 1928 - 1930.

Sarton George, Introduction to the History of Science, I, From Homer to Omar Khayyam. Baltimore, 1927 : أعيد طبعه في عام 1946; II, From Rabbi ben Ezra to Roger Bacon, Parts I - II. Baltimore, 1931.

Sarton G., Isis, VI p. 146.

Sarton George, The Scientific Litarature transmitted through the Incunabula. Osiris, V. 1938, p. 41 - 245.

Saussure L. de, Commentaire des Instructions nautiques de Ibn Majid et Sulayman al - Mahri. (= Ferrand, Introduction p. 129 - 175).

Sauvaget J., Historiens arabes. Pages choisies, traduites et prèsentés par J. Sauvaget, Paris, 1946.

Sauvaget J., Relation de la Chine et de l'Inde rédigée en 851. Texte établi, traduit et commenté par J. Sauvaget. Paris, 1948.

Sauvaire, Description de Damas. Traduction de l'arabe par H, Sauvaire. JA, 9, série III, 1894, p. 251 - 318, 385 - 501; IV, 1894, p. 241 - 331, 460 - 503; V, 1895, p.296 - 315, 377 - 411; VI, 1895, p, 221 - 313, 409 - 484; VII, 1896. p. 185 - 285, 422 - 459.

Sauvaire H., Histoire de Jérusalem et d'Hébron depuis Abraham Jusqu'à la fin du XV-e siècle de J. C. Fragments de la Chronique de Moudjîr-ed-dyn traduits sur le texte arabe par H. Sauvaire. Paris, 1876.

Sauvaire H., Voyage en Espagne d'un ambassadeur marocain (1690 - 1691) traduit de l'arabe. Paris. 1884. (Bibliothéque Orientale Elzévirienne, XXXVIII).

Savary. Mahomet, Le Koran, traduit de l'arabe accompagné de notes précédé d'un Abrégé de la vie de Mahomet tirè des écrivains orientaux les plus estimés par M. Savary, Paris, sans date (1883)

Sbath P., Bibliothèque de manuscrits Paul Sbath, prêtre syrien d'Alep, Catalogue, I - II, Cairo. 1928.

Schaade A., Al Farazdak. EI, II, p. 62 - 64.

Schacht J. and Meyerhof M., The Medico - Philosophical Controversy between Ibn Butlan of Baghdad and Ibn Ridwan of Cairo. A Contribution to the History of Greek Learning among the Arabs. Cairo, 1937.

Schack A., Fr. von. Poesia e Artes de los Arabes en Eypana y Sicilia. Trad.por J. Valera, I - II, Madrld, 1930 - 1933.

Schefer Ch., Archives de l'Orient latin. I, 1881, p. 587 - 609.

Schefer Ch., Chrestomathie persane à l'usage des éléves de l'Ecole spéciale des Langues orientales vivantes. Publiée par Ch. Schefer, I - II. Paris, 1883 - 1885. (PELOV, lle sérle, VII - VIII).

Schefer Ch., Description de l'Afrique tierce partie du monde escrite par Jean Leon Africain premièrement en Langue Arabesque,

puis en Toscane et à présent mise en Français. Nouvelle édition annotée par Ch. Schefer, I - III, Paris, 1896 - 1898. (Recueil de voyage et de documents pour servir à l'histoire de la géographie depuis le XIII-e jusqu'a la fin du XVII-e siécle, XIII - XV)

Schefer Ch., Notice sur les relations des peuples musulmans avec les Chinois, depuis l'extension de l'Islamisme jusqu'à la fin du XV-e siécle. (Centenaire de l'ELOV 1895, p. 1 - 43).

Schefer Ch., : انظر Riza Qouly Khan, Relation,

Schefer Ch., Trois chapitres du Khitay-Naméh. Texté persan et traduction francaise Paris, 1883, (Mélanges Orientaux).

Schiaparelli C., Geografia Notizie d'Italia estratte dall'opera di Sihâb ad-din al-Umari, intitolata Masâlik al-absâr fi mamâlik al-amsàr. RRAL., Classe di Science morali, serie IV, 10, 1888 p. 304 - 316.

Schiaparelli C., Ibn Gubayr (Giobeir) Viaggio in Ispagna, Sicilia, Siria e Palestina, Mesopotamia, Arabia, Egitto, compiuto nel secolo XII, prima traduzione sull'originale arabo da C. Schiaparelli, Roma, 1906.

Schier Ch., Grammaire arabe. Dresde et Leipsic, 1849.

Schjellerup H. C. F. C., Description des étoiles fixes composée au milieu du dixiéme siécle de notre ére par l'astronome persan Abd-al-Rahman al-Sufi. Spb., 1874.

Schleifer J , Hasik. EI, II, P. 305.

Schnurrer Fr., Bibliotheca arabica. Auctam nunc atque integram edidit D. Christianus Fridericus de Schnurrer. Halae ad Salam, 1811.

Schoy C., The Geography of the Moslims of the Middle Ages. GR, 1924, p. 257 - 269.

Schoy C., Kibla. El, II, p. 1059 - 1064.

Schoy C., Erdmessungen bei den Arabern. Zeitschaft der Gesellschaft für Erdkunde zu Berlin, 1917, I - IV p. 431 - 445.

Schoy C., Die geschichichtliche Entwicklung der Polhöhenbestimmungén bei den älterén Völkern. Diss. München, 1911.

Schoy C., Al-Shams. EI, IV, p. 331 - 333.

Schwarz P., Die ältere geographische Litteratur der Araber. GZ, III, 1894 p. 137 - 146.

Schwarz P., lran im Mittelalter nach den arabischen Geographen von P. Schwarz. I - IX. Leipzig - Zwickau in Sachsen, Stuttgart, 1929 - 1936.

Seetzen U., Al-Khiyari. Zachs Monatliche Correspondenz, XIV, 1806.

Seippel A., Rerum Normannicarum Fontes Arabici ed. Alexander Seippel. Fase, l. Christianiae, 1896, fasc. II, Osloae, 1928.

Sèkowski I, I, Collectanea,,, I - II, Warszawa, 1824 - 1825.

Selections from Arabic geographical Literature edited with Notes by M. J. de Goeje, (Semitic Study Series, No VIII), Leiden, 1907.

Seybold C. F. Analecta arabo-italica. Centenario, II, Palermo, 1910, p. 204 - 215.

Seybold C. F. Edrisiana, I. Triest by Edrisi, ZDMG, 63, 1909, 591 - 596.

Seybold C. F. Al-Idrisi. EI, II, p. 480 - 481.

Seybold C. F. Hispano - Arabica, 1, 2. Zur Biographie von Ibn Gubeir's Vater. ZDMG, 63, 1909, p. 353 - 355.

Seybold C. F. نقد لكتاب :Abû Hamid da Granata. La descrizione di Roma nel secolo XII, tolta da un codice arabo della Biblioteca nazionale di Palermo tradotta ed illustrata da Carlo-Moncada. Palermo, 1906. Deutsche Literaturzeitung XXVIII, 1907 p. 1716 - 1717.

Simonet F. J., don. Description del Reino de Granada bajo la dominacion de los Naseritas sacada de les autores arabes, y sequida del texto inèdito de Mohammed ebn Aljathib por Don F. J. Simonet, Madrid, 1861.

Simonet F., Glosario de voces ibèricas y latinas usadas entro los mozârabes. Madrid, 1888.

Simonet F., Historia de los mozàrabes de Espana. Madrid, 1903.

Slane, de. Autobiographie d'Abou l'-Fedâ, extraits de sa chronique. Recueil des historiens des croisades. Historiens orientaux, I, Paris, 1872, p. 166 - 186.

Slane, de. Catalogue des manuscrits arabes de la Bibliothéque nationale. Paris, 1883 - 1895.

Slane, de. Histoire des Berbères et des dynasties Musulmanes de l,Afrique septentrïonale par Ibn Khaldoun. Texte arabe, 1, 2, publiè par de Slane, Alger, 1847 - 1851.

Slane M. G., de. Ibn Khallikan's Biographical dictionary, translated from the Arabic by Mac Guckin de Slane, I - IV, Paris, 1842 - 1871.

Slane M. G. de : نقد لكتاب Jaubert, Géographie d'Edrisi,,, - JA, 3 série XI. 1841, p. 362 - 387.

Sobernheim M., Ibn lyas, Muhammed b. Ahmed. EI, II, p. 414 - 415.

Somogyi J. v., Ein arabischer Bericht über die Tataren im "Ta'rih al-Islam" von ad Dahabi. DI, XXIV, 1937, p. 106 - 130.

Spies O., An Arab Account of India in the Fourteenth Century. Bonn, 1935.

Sprenger A., Das Leben und die lehre des Mohammed, Berlin, I, 1861; II. 1862; III, 1865.

Sprenger A., Die Post-und Reiserouten des Orients, Abh KM, III, No 3, Leipzig, 1864.

Sprenger, Two Works on Arabic Bibliography, Edited by A. Sprenger, I, Calcutta, 1849 (Bibl. Ind., VI, No 21).

Steinschneider M., Polemische und apologetische Literatur in arabischer Sprache, zwischen Muslimen, Christen und Juden, nebst Anhängen verwandten Inhalts, Abh KM, VI, No 3. Leipzig, 1877.

Storbeck F., Die Berichte der arabischen Geographen des Mittelalters über Ostafrika. MSOS, Zweite Abteilung, XVII, 1914, p. 97 - 169.

Strange Guy, le. Descrîption of Mesopotamia and Baghdad, written about the Year 900 A. D. by Ibn Serapion . The Arabic Text edited from a Manuscript in the British Museum Library with Translation and Notes. JRAS, 1895, p. 1 - 76, 255 - 315.

Strange Guy, le. Description of the Noble Sanctuary at Jerusalem in 1740 A. D. by Kamâl (or Shams) ad-Dîn as-Suyûtî. Extracts Re-translated by Guy Le Strange, JRAS, XIX, 1887, p. 247 - 305:

Strange G., le. Description of Persia and Mesopotamia in the year 1340 A. D. from the Nuzhat al-Kulub of Hamd - Allah Mustawfi, with a Summary of the Contents of that Work, B. G. Le Strange. JRAS, 1902, p. 49 - 74, 237 - 266, 509 - 536, 733 - 784.

Strange G., le. Description of the Province of Fars, in Persia, at the beginning of the twelfth Century A. D. Translated from the MS. of Ibn-al-Balkhi in the British Museum by G. Le Strange, JRAS, 1912 p. 1 - 30, 311 - 339, 865 - 889.

Strange Guy, le. Palestine under the Muslims, Exkurs IV: R. Röhricht, Geschichte des I, Kreuzzugs, London, 1890.

Streck M., Djudi. EI, I, p. 1105 - 1107.

Streck M., Kaf. EI, II, p. 656 - 660.

Streck M., Kais, EI, II, p. 695 - 697.

Streck M., Al-Kazwini - Zakariya. El, II, P, 900, 904.

Strothmann R., Die Koptische Kirche der Neuzeit. Tübingen, 1932.

Strothmann R., Die Zwölfer-Schi'a. Zwei religionsgeschichtliche Charakterbilder aus der Mongolenzeit, Leipzig, 1926.

Stübe R., Hormuz. EI, II, p. 345 - 347.

Süssheim K., 'Ali. EI, I, p. 295 - 296.

Süssheim K., 'Ali (Sidi 'Ali) b. Husain. EI, I, p. 301 - 302.

Suter H Abu Ma'shar. EI, I, p. 105 - 106.

Suter H., AGNT, IV, Erlangen, 1922.

Suter H., Algorithmus. EI, I, p. 290 - 291.

Suter H., Die astronomischen Tafeln des Muhammed ibn Musa al-Chwarizmi in der Bearbeitung des Mazlama ibn Ahmed al-Madjriti und der latein. Ubersetzung des Athelards von Bath... hrsg, und kommentiert von H. Suter, Cobenhavn,

1914 (Mémoires de l'Académic Royale des Sciences et des Lettres de Danemark, Copenhague, 7-me série, Section des Lettres, III, 1).

Suter H., Al-Farghani. EI, II, p. 69 - 70.

Suter H., Ibn Junus. EI, II, p. 456.

Suter H., Die Mathematiker und Astronomen der Araber und ihre Werke, (Abhandlungen zur Geschichte der mathematischen Wissenschaften X), Leipzig, 1900, 1902.

Sven Hedin, Southern Tibet. Discoveries in former times compared with my own researches in 1906 - 1908, VIII, Stockholm, 1922.

At-Tabari انظر : Goeje M. J., de, Annales,

Taeschner F., Das anatolische Wegenetz nach osmanischen Quellen, Leipzig, 1924 (Türkische Bibliothek, 23).

Taeschner F., Der Bericht des arabischen Geographen Ibn al-Wardi über Konstantinopel. BHG, 1929, p. 84 - 91.

Taeschner Fr., Die geographische Literatur der Osmanen. ZDMG, 77 (2), 1923, p. 31 - 80; Nachtrag, p. 144.

Taeschner Fr., نقد كتاب : Hudud al-'alam, "The Regions of the World", a Persian Geography 372 A, H, - 982 A. D. Translated and explained by V. Minorsky, Oxford a. London, 1937 - DI, XXVI, 1940 p. 66 - 67.

Taeschner F., Die Psychologie kazwini's (Dissertation Kiel), Tubingen, 1912.

Taeschner F., انظر : Al-Umari's Bericht.

Taeschner Franz, Die Vorlage von Hammers "Rumeli und Bosna". Mitteilungen zur osmanischen Geschichte, II. Vienna, 1923 - 1926.

Taeschner F. نقد كتاب : Bibliothèque des géographes arabes, publiée sous la direction de Gabriel Ferrand, I, Gabriel Ferrand, Ministre Plénipotentiaire, Introduction â l'astronomie nautique arabe, Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1928; II, Ibn Fadl Allah al-Omari, Masalik el absar fi mamalik el amsar, I, L'Afrique, moins l'Êgypt, traduit et annotè avec une introduction et 5 cartes, par Gaudefroy - Demombynes. Paris, 1927, LXVIII, 284 S., 5 Karten, XII, 272 S, - DI, XIX, 1930, p. 34 - 41.

Taeschner F. نقد كتاب : Piri Re'is Bahriye, Das türkische Segelhandbuch für das Mittelländische Meer vom Jahre 1521. Hrsg.... von P. Kahle. Berlin und Leipzig, 1926, - DI. XVII, 1928, p. 113 - 117.

Taha Hussein, Etude analytique et critique de la philosophie sociale d'Ibn-Khaldoun. Thése de doctorat d'Université... Par T. Hassein, Paris, 1917. (Faculté des lettres de l'université de Paris).

Tallgren O. J., Survivance arabo-romane du Catalogue d'etoiles de Ptolomée. Studia orientalia, II Helsingforsiae, 1928.

Tallgren-Tuulio O. J. - A M. Tallgren انظر : Idrisi, La Finlande.

De Tarrazi Ph., Ta'rih as-sihafa, al-'arabiya, I, Beirouth, 1913.

Tauer F., Geographisches aus den Stambuler Bibliotheken (Arabische Handschrtften). AO, VI, No I, Praha, 1933 - 1934, p. 95 - 111.

Taylor E. G. R., Some Notes on early Ideas of the Form and Size of the Earth. GJ, LXXXV, 1935, p. 65 - 68.

Tkatsch, Poetik des Aristoteles. Wien - Leipzig, 1928.

Tomaschek W., Die topographischen Capitel des indischen Seespiegels Mohît übersetzt von Dr. M Bittner mif einer

Einleitung sowie mit 30 Tafeln versehen von Dr. W. Tomaschek, Festschrift zur Erinnerung an die Eröffnung des Seeweges nach Ostindien durch Vasco da Gama (1497), hrsg, von der k. k. Geographischen Gesellschaft in Wien, Wien, 1897.

Tomaschek W., Zur historischen Topographie von Kleinasien im Mittelalter, I, Die Küstengebiete und die Wege der Kreuzfahrer. SBAW, Phil-hist. CI., 124 (1891), VIII.

Tomaschek W., Zur Kunde der Haemus-Halbinsel, II, Die handelswege im 12, Jahrh. nach den Erkundigungen des Arabers ldrîsî.SBAW, Phil-hist, CI., 113 (1887), p. 285 - 373.

Tomaschek Wilhelm, نقده لكتاب : M. J. de Goeje, De Muur van Gog en Magog, Amsterdam, 1888 Joh. Müller, 38 Seiten. WZKM, III, 1889, p. 103 - 108.

Tornberg C. J., Fragmentum libri Margarita mirabilium, Auctore Ibn el-Vardi, Prooemium, Caput secundum, tertium, quartum et quintum continens... edidit C. J. Tornberg. Pars prior, Upsaliae, 1835; Pars secunda, Pars posterior, Upsaliae, 1839.

Torrey C. C., Ibn Abd al-Hakam. EI, II, p. 375 - 376.

Torrey Ch. C., Futuh Misr wal-Magrib, The History of the Conquest of Egypt, North Africa and Spain Known as the Fütüh Misr of Ibn 'Abd al-Hakam ed. from the mss., in London, Paris and Leyden by Ch. C. Torrey, New Haven 1922 (Yale Oriental Research series, III).

Tourneau R. le, Damas de 1075 à 1154. Traduction annotée d'un fragment de l'Histoire de Damas d'Ibn al-Qalanisi, Damas, 1952.

Trummeter F., Ibn Sa'id's Geschichte der vorislamischen Araber,

Stuttgart, 1928.

Tuch F., Reise des Scheikh Ibrâhîm el-Khijarî el-Medenî durch einen Theil Palàstina's. Leipzig, 1850.

Tuulio O. J., Du nouveau sur Idrisi, Sections VII[3] - VII[5]. Èdition critique, traduction, études par O. J. Tuulio (= Tallgren). Studia Orientalia éd. Soc. Or. Fennica, No VI, Helsinki, 1936.

Tychsen O. G. Elementale arabicum sistens L. A. elemente, catalecta maximam partem anecdota et glossarium. Rostoghii, ex officina libr. Koppiana, 1792.

Al 'Umarî, Condizioni degli Stati cristiani dell' Occidente secondo una relazione di Domenichino Doria da Genova. Testo arabo con versione italiana e note di M. Amari. Atti della R. Accademia dei lincei, Classe di Scienze Morali, serie III, XI 1883, p. 67 - 103, 306 - 308.

Al-'Umari's Bericht über Anatolien in seinem Werke Masalik al-absar fi mamalik al-amsar. Zum ersten Male hrsg, von F. Taeschner, I, Text, Leipzig, 1929.

Validi Togan Ahmed Zeki. Ibn Fadlan's Reisebericht. Abh KM, XXXIV, 3. Leipzig, 1939.

Validi A. Z. Der Islam und die geegraphische Wissenschaft, GZ, XI, 1934, p. 361 - 372.

(راجع موجزا لها باللغة العربية ظهر بمجلة « المعرفة » المجلد السادس العدد ٧ - ٨ ، ابريل - مايو ١٩٣٤ ص ٥٦١ - ٥٧٠) .

Validi A. Z., Die Nordvölker bei Biruni. ZDMG, 90, 1936, p. 38 - 51.

Validi A. Z. (Bonn). Die Schwerter der Germanen, nach arabischen Berichten des IX - XI Jahrhunderts. ZDMG, 90,

1936, p, 19 - 37.

Vambéry A., Travels and Adventures of the Turkish Admiral Sidi Ali Reis,,, during the Years 1553 - 1556. London, 1899.

Van Arendonk, انظر : Arendonk.

Van den Bergh, Simon, انظر : Berg Simon.

Vander Lith انظر : Lith.

Van Vloten, انظر : Vloten.

Vila S., Nombramiento de los gobernadores de la Espagna Musulmana antes de la llegada de los Omeyas. Atti del XIX Congresso Internazionale degli Orientalisti, Rome, 1938, p. 542 - 547.

Vloten, van. Ein arabischer Naturphilosoph im 9. Jahrhundert. Ubersetzt von O. Rescher, Stuttgart, 1918.

Vloten, G. van. Liber Mafâtîh al-olûm explicans vocabula technica scientiarum tam arabum quam peregrinorum auctore Abû Abdallah Mohammed ibn Ahmed ibn Jûsof al-Kàtib al-Khowarezmî. Ed G. Van Vloten, Lugduni Batavorum, 1895.

Vollers, Description de l'Egypte par Ibn Doukmak publié d'aprés le manuscrit autographe conservé â la Bibliothèque Khédiviale. Kairo 1893.

Vollers Ch., La chronique égyptienne d'Ibn Iyas par Ch. Vollers. (Traduit de l'anglais par M. S. Schmeil). Revue d'Égypt, II, 1895 - 1896, p. 545 - 573.

Vollers K., Ein marokkanischer Druck. ZDMG, 47, 1893, p. 538.

Von Burski انظر : Burski.

Von der Lasa, انظر : Lasa

Von der Linde, انظر Linde.

Von Mzik, انظر : Mzik.

Von Rohr-Sauer انظر : Rohr-Sauer.

Vorlesungen انظر : Goldziher.

Voyage du scheikh et-Tidjani dans la régence de Tunis, pendant les années 706, 707 et 708 de l'Hégire (1306 - 1309). Traduit de l'arabe par A. Rousseau. JA, 4 série XX, 1852, p. 57 - 208; 5 série, I, 1853, p. 101 - 168, 354 - 426.

Voyages d'lbn Batoutah, texte arabe, accompagné d'une traduction par C. Defrémery et B. R. Sanguinetti, I - IV, Paris, 1853 - 1858.

Weijers H. E. انظر : Wüstenfeld F., Stammtafel

Weisweiler M., Buntes Prachtgewand: über die guten Eigenschaften Abessiner von Muhammed ibn 'Abdalbàqî al-Buhàrî al Makki, Literarhistorisch untersucht and übersetzt von M. Weisweîler, Hannover, 1924.

Weisweiler, انظر : Al-Hamdani.

Wellhausen J., Das arabischen Reich und sein Sturz. Berlin. 1902.

Wellhausen J., Reste arabischen Heidentums. Gesammelt und erläutert von J. Wellhausen. Zweite Ausgabe. Berlin. 1897.

Wensinck A. J., A'sha Hamdan. EI, I, p. 496.

Wensinck A. J., A Handbook of Early Muhammadan Tradition. Alphabetically arranged by... Leiden, 1927.

Wensinck A, J, Mihna. EI, III, p. 558 - 559

Wensinck A. J., The Ideas of the Western Semites concerning the Navel of the Earth by A. J. Wensinck. Amsterdam, October, 1919. (Verhandelingen der Kon. Ak. van Wetenschappen te

Amsterdam, Afd. Letterkunde, Nieuwe Reeks, Deel XVII, No 1).

Wensinck A. J., The Ocean in the Literature of the Western Semites. Amsterdam, 1918. (Verhandelingen der Kon. Ak. van Wetenschappen te Amsterdam. Afd. Letterkunde. N. Reeks, Deel XIX, No 2).

Wensinck A., Tree and Bird as cosmological Symbols in Western Asia. Amsterdam, 1921. (Verhandelingen der Kon. Ak. van Wetenschappen te Amsterdam, Afd. Letterkunde, N. Reeks, Deel XXII, No 1).

Wensinck A. J., Yadjudj. wa-Madjudj. EI, IV, p. 1236 - 1237.

White J., Abdallatîf's compendium memorabilium Aegypti ed. J. White (1782), praefatus est H. E. C. Paulus. Tubingae, 1789.

White J., Abdallatïf's historiae Aegypti compendium ar. et lat, partim ipse vertit, partim a Brookio versum edendum curavit J. White. Oxonii, 1800.

Wickerhauser, Wegweiser zum Verständniss der türkischen Sprache. Eine deutschtürkische Chrestomathie von M. Wickerhauser. Wien, 1853.

Wiedemann E., Anschauungen der Muslime über die Gestalt der Erde. AGNT, 1, Leipzig, 1909, p. 310 - 313.

Wiedemann E., Bestimmungen des Erdumfanges von al-Bérûnî. AGNT, 1, Leipzig, 1909, p. 66 - 69.

Wiedemann E., Definitionen verschiedener Wissenschaften und über diese verfasste Werke. Beiträge, LVII. SBPhMSoz Erl, 50 - 51 (1918 - 1919). 1920, p. 1 - 32.

Wiedemann E., Geographische Stellen aus den Mafàtîh. Beiträge,

XXVII. SBPhMSozErl, 44 (1912), 1913, p. 37 - 40.

Wiedemann E., Geographisches von al Bèrûnî, Beiträge, XXVII, SBPhMSozErl, 44 (1912), 1913, p. 1 - 26.

Wiedemann E., Al-Kharaki. EI, II. p. 1027.

Wiedemann E., Al-Khazini. EI, II, p. 1006 - 1007.

Wiedemann E., Al-Khwarizmi. Muhammed b. Musa. EI, II, p. 978 - 979.

Wiedemann E. Kutb al Din, al-Shirazi Mahmud b. Masud b. Muslih. EI, II, p. 1252 - 1253.

Wiedemann E., Nasir al-Dîn al Tûsî. Beiträge, LXXVIII. SPBhMSpzErl, 60, 1928, p. 289 - 316.

Wiedemann E., Uber al Bîruûnî und seine Schriften. Beiträge, LX, SBdhMSozErl, 52 - 53 (1920 - 1921), 1922, p. 54 - 96.

Wiedemann E., Uber den Abschnitt über die Pflanzen bei Nuwairî. Beiträge, Ll. SBPhMSozErl, 48 - 49 (1919 - 1917), 1918, o. 151 - 176.

Wiedemann E., Uber die Gestalt, Lage und Bewegung der Erde sowie philosophisch- astronomische Betrachtungen von Qutb al - Dîn al Schîrâzî. AGNT, III. 1912, p. 395 - 422.

Wiedemann E., Uber Tabit ibn Qurra, sein Leben und Werken. Beitäge, LXIV. SBPhMSozErl, 52 - 53 (1920 - 1921), 1922, pp. 198 - 219.

Wiedemann E., Uber von den Arabern benutzte Drogen. Beiträge, XLIX. SBPhMSozErl, 48 - 49 (1916 - 1917), 1918, 16 - 60.

Wiedemann E., Zum Leben von Nasir al Din al Tusi. Beiträge, LXXV, SBPhMSozErl, 58 - 59 (1926 - 1927), 1928, p. 363 - 379.

Wiedemann E. und Frank J., Die Gebetszeiten im Islam. Erlangen, 1925.

Wiedemann E. und Kohl K., Einleitung zu den Werken von al Charaqi. Beiträge, LXX. SBPhMSozErl, (1926 - 1927), 1928, p. 203 - 218.

Wiener A., Die Farag ba'd as-Sidda - Literatur, Von Mada'ini (+ 225 H,) bis Tanuhi, (+ 384 H,). Ein Beitrag zur arabischen Literaturgeschichte. Dl, IV, 1913

Wiet G., Les biographies du Manhal Safi, Le Caire, 1932. Mémoires prèsentés à l'Institut Egyptien, 19.

Wiet G., Catalogue général du Musée Arabe du Caire, Objets en cuivre. Le Caire, 1932.

Wiet G., Kindi et Maqrizi. BIFAO, XII, 1916, p. 61 - 73.

Wiet G., Taqi el-din Ahmad ibn 'Ali ibn 'Abd el-Qàdir ibn Muhammed el-Maqrizi, El-Mawa'iz wa'l-i'tibar fi dhiker el-Khitat wa 'l-âthâr éditè par G. Wiet. I - V. Le Caire, 1911 - 1927, (MIFAO, XXX, XXXIII, XLVI, XLIX, LIII).

Wiet G., Ya'kubi, Les Pays. Trad. par G. Wiet, (Publ. de l'Institut Français d'Archéol. orientale. Textes et traductions d'auteurs orientaux, 1), Le Caire, 1937.

Wittek P., Zur Geschichte Angoras im Mittelalter. Festschrift für Georg Jacob zum siebzigsten Geburtstag, Leipzig, 1932, p. 329 - 354.

Wright J. K., The Geographical lore of the Time of the Cruasdes. New York, 1925. (American Geographical Society, Research Series No 15).

Wright J. K., Notes on the Knowledge of Latitudes and Longitudes

in the Middle Ages, Isis, V, 1923, p. 75 - 98.

Wright R., The Book of Instruction in the Elements of the Art of Astrology by Abu'l-Rayhan Muhammed Ibn Ahmad al-Biruni. Written in Ghaznah, 1029 A. D. Reproduced from Brit. Mus. Or 8359. The Translation facing the Text by R. Ramsay Wright. London, 1934.

Wright W., The palaeographical Society. Facsimiles of Ancient Manuscripts. Oriental Series, VII, London, 1882.

Wright W., The Travels of Ibn Jubair, ed. by W. Wright. Leyden, 1852.

Wright William, The Travels of Ibn Jubayr edited from a ms. in the University Library of Leyden by Wright William. Second Edition revised by M. J. de Geoje and printed for Trustees of the "E. J. W. Gibb Memorial". Leyden, 1907. (GMS. V).

Wüstenfeld F., Bahrein und Jemàma. Nach arabischen Geographen beschrieben. Göttingen, 1874. AKGWG, XIX, p. 173 - 222.

Wüstenfeld F., Die Cufiten in Süd-Arabien im XI (XVII) Jahrhundert. Göttingen, 1883. AKGWG, XXX, 4.

Wüstenfeld F., Die Gelehrten-Familie Muhibbi in Damaskus und ihre Zeitgenossen im XI (XVII) Jahrhundert. Göttingen, 1884.

Wüstenfeld F., Das geographische Wörterbuch des Abu 'Obeid 'Abdallah ben Abd el-Aziz el-Bekri nach den Handschriften zu Leiden, Cambridge, London und Mailand hrsg. von Ferdinad Wüstenfeld, I - II, Göttingen - Paris, 1876 - 1877.

Wüstenfeld F., Die Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke. Göttingen, 1822 (Aus dem XXVII und XXIX Bande

AKGWG).

Wüstenfeld F., Jacut's geographisches Wörterbuch aus den Handschriften zu Berlin, St. Petersqurg und Paris... hrsg von Ferdinand, I - VI. Leibzig, 1866 - 1870.

طبعة جديدة بالقاهرة فى ثمانية أجزاء بعناية الشنقيطى ١٣٢٣ هـ - ١٣٢٤ هـ = ١٩٠٦ . مع زيادات تحت عنوان « منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان » لمحمد أمين الخانجى ، الجزآن التاسع والعاشر القاهرة ١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧ .

Wüstenfeld F., Jacut's Moschtark, das ist: Lexicon geographischer Homonyme. Aus den Handschriften zu Wien und Leyden, hrsg. von F. Wüstenfeld. Göttingen, 1846.

Wüstenfeld F., Jemen im XI (XVII) Jahrundert. Die Kriege der Türken, die arabischen Imâme und die Gelehrten. Mit einem geographischen Anhange. AKGWG, XXXII, Göttingen, 1884.

Wüstenfeld F., Das Leben Muhammed's nach Muhammed Ibn Ishâk, bearbeitet von 'Abd el-Malik Ibn Hischâm, hrsg, von F. Wüstenfeld, I - II. Göttingen, 1858 - 1860.

Wüstenfeld F., Die Literatur der Erdbeschreibung bei den Arabern. Zusammengetragen von F. Wüstenfeld. Lüdde und Berghaus Zeitschrift für vergl. Erdkunde, I, Magdeburg, 1842, p. 24 - 67.

Wüstenfeld F., Stammtafel der Famille Banu-'Asaker. Ein Beitrag zur Geschichte der arabischen Literatur von F. Wüstenfeld. Aus Leydener Handschriften ergänzt H. E. Weijers. Orientalia, II, Amstelodami, 1846, p. 161 - 194.

Wüsternfeld F., Zakarija Ben Muhammed el - Cazwini's Die Kosmographie. Erster Theil كتاب عجائب المخلوقات Wunder

der Schöpfung hrsg. von F. Wüstenfeld. Göttingen, 1849.
Wüstenfeld F., Zakarija Ben Muhammed Ben Mahmûd el-Cazwini's Kosmographie. Zweiter Theil كتاب آثار البلاد Die der Länder, hrsg. von F. Wüstenfeld. Göttingen, 1848.
Yakut, The Irshád al-arib ilâ ma'rifat al - adib or Dictionary of Learned Men of Yáqút. Ed. D. S. Margoliouth. I - VII. Leyden - London, 1907 - 1926. (GMS, VI).
Yamamoto Tatsuro, On Tawalisï described by Ibn Batuta. Memoirs of the Research Department of the Toyo Bunko (the Oriental Library), No 8. Tokyo, 1936, p. 93 - 133.
Youssouf Kamal, Hallucinations scientifiques (les portulans). Leiden, 1937.
Youssouf Kamal, Monumenta Cartografica Africae et Aegypti par Youssouf Kamal, I - XIII, Le Caire, 1344 - 1357 / 1926 - 1938.
Youssouf Kamal, Quelques éclaircissements épars sur mes Monumenta Cartographica Africae et Aegypti. Leiden, 1935.
Yule H., Cathay and the Way thither; being a Collection of medieval notices of China, translated and edited by H. Yule, I - II, London, 1866.
Yule H., Cathay and the Way thither; being a Collection of Mèdieval notices of China, translated and edited by Henri Yule. New edition, revised throughout in the light of recent discoveries by Henri Cordier, I - IV. London, 1913 - 1916.
Yule H. - Cordier H., Ibn Batuta's Travels in Bengal and China (circa 1247) London. 1915.
Yver G., Khair al-Din (Barbarossa). EI, II, p. 934 - 936.

Zaky Mohammed Hassan, Les Tulunides. Étude de l'Égypte musulmane à la fin du IXe siècle 868 - 905. Paris, 1933

Zayat H., Répertoire de noms de vaisseau et embarcations en Islam. المشرق XLIII, 1949, p 321 - 364.

Zenker J. Th. Das chinesische Reich, nach dem türkischen Kahtai-name. ZDMG, 15, 1861, p. 785 - 805.

Zentralblatt für Bibliothekswesen. Hrsg. unter ständiger Mitwirkung zahlreiches Fachgenossen des In-und Auslandes von Dr. O. Hartwig. Fünfter Jahrgang, Leipzig, 1888.

Zetterstéen K. V., Al-Maghribi. EI, III, p. 117 - 118.

Zetterstén K. V., Yahya b. Khalid, Barmakide. El, IV, p. 1245.

Zichy E., Le voyage de Sallam. Csoma Archivum, 1922, 1 / 3.

د ـ المؤلفون الشرقيون

الألوسى ، شكرى : المسك الأزفر فى تراجم علماء بغداد فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . بغداد ١٣٤٨ هـ = ١٩٣٠

الأصمعى : انظر Haffner

أباظه : انظر Huart

إبراهيم بن يعقوب :انظر Kowalski

إبراهيم متفرقه : انظر Mordtmann, Krachkovski

ابن إسحاق : انظر Wüstenfeld, Ibn Ishak

ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور . القاهرة ١٣٠١ هـ - ١٣٠٦ هـ ؛ بولاق ١٣١١ هـ - ١٣١٢ هـ : انظر Sobernheim, Vollers, Langlès, Kahle, Devonshire

ابن بطلان :انظر Schacht, Brockelmann

ابن بطوطه : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . درس ومنتخبات بقلم فؤاد افرام البستانى . الروائع ، رقم ١٣ - ١٥ . بيروت ١٩٢٧ : انظر Defrémery, Aga Mahdi Hussain, و م . جودت Fischer, Dvorac, Moura, Janicsek, Gibb, Yamamoto, Mzik, Yule-Cordier

ابن البلخى : فارس نامه . انظر Nicholson, The Farsnama

: انظر Le Strange

ابن جبير : انظر Wright, Schiaparelli

ابن الجيعان : انظر Moritz

ابن حوقل : انظر De Goeje, B G A, II

ابن خرداذبه : انظر De Goeje, B G A, VI

: انظر Rozen

ابن الخطيب : انظر Simonet

ابن خلدون : المقدمة . بيروت ١٨٧٩ ، ١٩٠٠

: المقدمة ، الترجمة : M. G. de Slane, JA, 4 série, III, p. 187 sui., 291

sui., 325 sui., Paris, 1844.
طبعة القاهرة ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤ .
طبعة جديدة مع مقدمة بقلم - G. Bouthoul. Paris, 1922
1923
: انظر Prolégomènes, Mahmassani, T. Hussein,
Van Arendonc, V. d. Bergh, Bel:
وعمر فروخ

ابن خلكان : انظر De Slane
ابن دقماق : انظر Vollers
ابن سعد : انظر Ibn Saad
ابن سعيد : انظر Trummeter, Moritz
ابن سكيكر : انظر Von der Lasa
ابن شداد : انظر Ledit, Cahen
ابن طفيل : انظر Ch. Lyall
ابن طولون : انظر Jansky, Hartmann
ابن عبد البر القرطبي : كتاب القصد والأمم فى التعريف بأصول أنساب العرب والعجم . القاهرة ١٣٥٠ هـ
ابن عبد الحكم : انظر Torrey
ابن عذارى : انظر Dozy, Afrique
ابن عساكر : انظر Brockelmann
ابن فضلان : انظر A. Z. Validi, Fraehn, Kovaleski
ابن الفقيه : انظر De Goeje, BGA, V
ابن قتيبة : انظر Ibn Qutaiba
: كتاب عيون الأخبار ، ١ - ٤ . القاهرة ١٩٢٥ - ١٩٣٠
ابن القفطى : انظر Mittwoch, Lippert
ابن ماجد : الأرجوزة السفالية . مخطوطة بمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية رقم B 992

Chrestomatie persane, II, Paris, 1885, p. 220 sui.

أحمد زكى باشا : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى بتحقيق الأستاذ أحمد زكى باشا . الجزء الأول ، القاهرة ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٤ .

أحمد بن زنبل الرمال : تحفة الملوك والرغائب لما فى البر والبحر من العجائب والغرائب . مخطوطة Bodl., I, 892

اخوان الصفا : انظر Al-Hashimi, Goldziher, Dieterici.

: اخوان الصفا وخلان الوفا ١ - ٤ . بمباى ١٣٠٥ هـ - ١٣٠٦ هـ

الادريسى : انظر Lewicki, Kramers, Jaubert, J. M. Hartmann, Günther, Furlani, Volin, Pardi, Meyerhof, O. J. Tallgren, De Slane, Saavedra, Tuulio, Tomaschek .

أسامة بن منقذ : انظر Salié, Krachkovski

اسماعيل عاصم جلبى زاده : عجائب اللطائف . استنبول ١٣١١ هـ .

الأصطخرى : انظر Kmosko, De Goeje

اعشى همدان : انظر Wensinck

افرام : انظر Krachkovski ، شيخو ، Guidi

الأكفانى : انظر Sprenger

الياس الموصلى : انظر Rabbath

أمين أحمد رازى : انظر Denison Ross

أمين الريحانى : ملوك العرب . رحلة فى البلاد العربية تشتمل على مقدمة وثمانية أقسام مزينة بالخرائط والرسوم ، ١ - ٢ بيروت ١٩٢٤ - ١٩٢٩

باشا ، قسطنطين الباشا : نخبة من سفرة البطريرك مكاريوس الحلبى بقلم ولده الشماس بولص ، عنى بنشرها الخورى قسطنطين باشا .

حريصه (لبنان) ، ١٩١٢ .

البتانى : انظر Nallino

البستانى : انظر ابن بطوطة

بطرس نصرى وادى صليبا : نبذة تاريخية فى بعض مشاهير طائفة الكلدان الكاثوليكية . المشرق ، المجلد الرابع ، ١٩٠١ ، ص ٨٤٧ – ٨٥٥

البغدادى : انظر W. Marçais

البكرى : انظر Wüstenfeld, De Slane, Rozen, Kunik

البلاذرى : انظر Al - Beladsori

بولص الحلبى : انظر باشا, Golosov، حبيب الزيات, Radu, Murkos

البيرونى : كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر ، حيدر أباد ١٣٥٥ هـ

: كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم (طبعة مصورة مرفقة بترجمة انجليزية عن مخطوطة المتحف البريطانى . انظر : R. Wright, the Book)

: انظر Sachau, Semenov, Fiorini, Krause, Kraus, Rozen, Krachkovski, Zaleman Meyerhof, Krenkow, R. Wright, Wiedemann, Validi;

بيرى ريس : انظر Taeschner, Menzel, Kahle

التجانى : انظر Rousseau, Plessner

التمجروتى : انظر Lévi - Provençal, De Castries

التمرتاشى : الخبر التام فى حدود الأرض المقدسة وفلسطين والشام . مجموعة أحمد تيمور، القاهرة.

التنوخى : كتاب الفرج بعد الشدة ، ١ – ٢ ، القاهرة ١٩٠٣ –

. ١٩٠٤
تيمور ، أحمد : قبر الإمام السيوطى وتحقيق موضعه . القاهرة ١٣٤٦ هـ .
ثابت بن قرة : انظر Wiedemann,
الجاحظ : كتاب الحيوان . القاهرة ١٣٢٣ هـ - ١٣٢٤ هـ
: انظر Asin Palacios, Al - Djahiz. EI, I, p. 1043 - 1044 والكرملى وعبد الوهاب و Van Vloten
جامع التواريخ : راجع Romaskevich
الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، ١ - ٤ . القاهرة ، ١٢٩٧ هـ . انظر El Djabarti
جرجس افندى صفا : تعريف بعض مخطوطات مكتبتى . المشرق ، المجلد السادس عشر ، ١٩١٣ ، ص ١٦٨ - ١٧٨ و ٢٦٧ - ٢٧٦ و ٤٣٥ - ٤٤٦ و ٥٧٨ - ٥٩٠ .
جرير : انظر Bevan
جعفر الحسنى : نقد لكتاب Damas de 1075 à 1154 par Roger le Tournean. Damas, 1952 - RAAD, XXIX, 1954, p. 124 - 125
جمال الدين أبو المعالى محمودبن‌على بهاء الدين الآلوسى شكرى: انظر الآلوسى ، شكرى
جودت : ذيل على فصل الفتيان الأخى التركى فى كتاب الرحلة لابن بطوطة استنبول ١٩٣٢ .
جوينى : انظر Djuwaini, Bartold
الجيهانى : انظر Janicsek
الجلبى ، د . : ابناء ماجد النجديون . لغة العرب ، الجزء التاسع ١٩٣١ ، ص ٤٠١ - ٤١٢ .
: كتاب مخطوطات الموصل . بغداد ، ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧ .
حاجى خليفة : جهاننما . استنبول ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢

	: جهان نما ,Zur Geschichte des Djihan numa MSOS, XXIX, 1926, 2, p. 99 sui.
	: انظر ,Flügel, Lexicon bibliogaphicum Mordtmann, Mitchell, Hammer, Wiedemann
حافظ آبرو	: انظر Bartold
حبيب الزيات	: Les Couvents Chrétiens en terre d'Islam . المشرق ، المجلد السادس والثلاثون ، ١٩٣٨ ، ص ٢٩١ - ٤١٨ .
	: نخبة من سفرة البطريرك مكاريوس الحلبى بقلم ولده الشماس بولس . المشرق المجلد الثلاثون ، ١٩٣٢ ، ص ٥٦١ - ٥٧٤
	: فى تاريخ مملكة حلب : المشرق الثانى والثلاثون ، ١٩٣٤ ، ص ٥٠٥ - ٥٠٩
	: خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا ، حريصة ، ١٩٣٢
« حدود العالم »	: مخطوطة Tumanski ، مع مقدمة وفهرس بقلم V. Bartold لنينجراد ١٩٣٠ . انظر Minorsky
حسان بن ثابت	: انظر Hirschfeld
حسن بن أحمد الحيمى	: انظر Peiser, Nöldeke
حسن حسنى عبد الوهاب	: التبصر بالتجارة ، للجاحظ . ,RAAD, XII, 1932 p. 321 - 355
حمد الله مستوفى	: انظر Le Strange
الحميرى	: انظر Lévi - Provençal
الخازنى	: انظر Wiedemann, Khanykov
خليل الظاهرى	: انظر Ravaisse
الخوارزمى	: انظر ,Miller, Kramers, Volin, Suter, Nallino Mzik, Wiedemann, Van Vloten

– ٤ . القاهرة ١٩١١ – ١٩١٤ . فهارس عامة. القاهرة ، ١٩٢٢ .

السرخسى : انظر Rosenthal

سركيس : صاحب رحلة أول عراق إلى اميريكا . لغة العرب ، الجزء التاسع ، ١٩٣١ ، ص ٤٤٧ – ٤٥٩

سليمان : انظر De Saussure, Sarton

السمعانى : انظر Margoliouth

سيدى على : انظر Bonelli

سيدى على ريس : انظر أحمد جودت Vambery, Süssheim, Kahle,

للسيوطى : انظر Le Strange, Brockelmann وأحمد تيمور

: حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، ١ – ٢ . القاهرة ، ١٢٩٩ هـ .

شكيب ارسلان : كتاب الاكليل للهمدانى . RAAD, X, 1930, p. 439 - 444

الشنقيطى : انظر .... Wüstenfeld. Jacut's

الشوكانى ، محمد بن على: نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار ، ١ – ٨ . بولاق ١٢٩٧ هـ

الشيخ الطنطاوى : انظر Krachkovski

شيخو ، لويس اليسوعى : الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ، الجزء الأول (١٨٠٠ – ١٩٠٠) ، بيروت ١٩٠١ . الجزء الثانى (١٨٧٠ – ١٩٠٠) ، بيروت ١٩١٠ . الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٢٤ ؛ الآداب العربية فى الربع الأول من القرن العشرين . المشرق ، المجلد الثالث والثلاثون إلى المجلد الخامس والثلاثون ، ١٩٣٢ – ١٩٣٤ .

: وصف طور سينا وابنيته . المشرق ، المجلد التاسع ، ١٩٠٦ ، ص ٧٣٦ – ٧٤٣ ، ٧٩٤ – ٧٩٩ .

: غريغوريوس أبو الفرج المعروف بابن العبرى . المشرق ،

المجلد الأول ، ١٨٩٨ ، ص ٢٨٩ - ٢٩٥ ، ٣٦٥ - ٣٧٠ ، ٤١٣ - ٤١٨ ، ٤٤٩ - ٤٥٣ ، ٥٠٥ - ٥١٠ ، ٥٥٥ - ٥٦١ ، ٦٠٥ - ٦١٢ .

: كتاب شعراء النصرانية بعد الإسلام ، قسم ١ -٤ ، بيروت ، ١٩٢٤ - ١٩٢٧ .

: مجانى الأدب ، ١ - ٤ ، بيروت ، ١٨٩٩ - ١٩٠٠ .

: مريم العذراء فى الشعر العامى . المشرق ، المجلد السابع ، ١٩٠٤ ، ص ١٠٨٧ - ١٠٩٩ .

: المخطوطات العربية لكتبة النصرانية. المشرق، المجلد الثانى والعشرون ، ١٩٢٤ ، ص ٨٧ - ٩٥ ، ٢٦٢ - ٢٦٥ ، ٣٥١ - ٣٦٣ و ٥٣٦ - ٥٤٧ .

: رحلة إبراهيم الحكيم الحلبى إلى مصر . المشرق ، المجلد العاشر ، ١٩٠٧ ، ص ٥٥٩ - ٥٦٤ ، ٥٨١ - ٥٨٦ ، ٧٠٨ - ٧١٤ .

: رحلة خليل الصباغ إلى طور سينا. المشرق، المجلد السابع، ١٩٠٤ ، ص ٩٥٨ - ٩٦٨ ، ١٠٠٣ - ١٠١٢ .

: تاريخ فن الطباعة فى المشرق . المشرق ، المجلد الثالث ، ١٩٠٠ ، ص ٧٨ - ٨٥ .

: رحلة القاضى خضر الكلدانى من الموصل إلى روميه . المشرق ، المجلد الثالث عشر ، ١٩١٠ ، ص ٥٨١ - ٥٩٢ ، ٦٥٦ - ٦٦٨ ، ٧٣٥ - ٧٤٤ - ٨٣٥ - ٨٤٣

صادق الاصفهانى : انظر Ouseley

صالحانى : انظر Salihani

الصفدى : انظر Krenkow

صور أقاليم سبعة : انظر Miklukho - Maklai

طاشكبرى زاده : مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، ١ - ٢ ، حيدر أباد ، ١٣٢٨ هـ - ١٣٢٩ هـ .

علي أميرى : عجائب اللطائف ، انظر : اسماعيل عاصم .

علي الشابشتى : انظر Sachau

علي الشرفى : انظر Nallino

العليمى : انظر Brockelmann

عمر فروخ : دراسة عن مقدمة ابن خلدون . ألفها أبو خلدون ساطع الحصرى. مصر ١٩٥٣ . RAAD XXIX. 1954. ص٦٧ - ٧٦ ، ٢٠٣ - ٢١٥ .

العمرى : مسالك ... انظر أحمد زكى باشا ، Fadl Allah, Hartmann,

: انظر Al - Umari, Taeschner, Schiaparelli,

عنان ، محمد عبد الله : مصر الإسلامية . القاهرة ١٩٣١ .

عنخورى ، سليم : نزهة الأنام فى محاسن الشام تأليف أبى البقاء عبد الله بن محمد البدرى المصرى الدمشقى . طبع فى المطبعة السلفية بمصر على نفقة ناشره السيد نعمان الأعظمى صاحب المكتبة العربية ببغداد ، ١٣٤١ هـ . RAAD, IV, 1924 ص ٣٢٧ - ٣٣٠ ، ٣٩٢ - ٣٩٩ .

العوفى : انظر Browne, Awfi, Muh. Nizamud-din,

العياشى : ماء الموائد ، ١ - ٢ طبعة حجر ، فاس ١٨٩٨ .

: انظر Berbrugger, Ben Cheneb, Mohammed

عيسى اسكندر المعلوف : أثر قديم للبطريرك مكاريوس بن الزعيم . المشرق ، المجلد الحادى والثلاثون ، ١٩٣٣ ، ص ٩١١ - ٩٢٠ .

: نخبة من ديوان ابراهيم الحكيم الحلبى . المشرق ، المجلد العاشر ، ١٩٠٧ ، ص ٨٣٣ - ٨٤٤ ، ٨٩٠ - ٨٩٧ ، ١٠١٧ - ١٠٢٦ ، ١١١٠ - ١١٢٠ .

: خزائن الكتب العربية . من نفائس الخزانة البارودية الكبرى فى بيروت . RAAD, V, 1925. ، ص ٣٢ - ٣٤ ، ١٨٧ - ١٩٠ ، ٢٢٣ - ٢٢٥ .

: خزائن الكتب العربية . من نفائس الخزانة التيمورية RAAD III, 1923, No 11 - 12 ، ص ٣٣٧ - ٣٤٤ .

العينى : انظر Marçais

الغرناطى : Dubler, C. E., Ferrand, Jacob, Moncada

الغزى : كتاب نزهة العيون فى أربعة فنون . RAAD, IX, 1929 ص ٦٨١ - ٦٨٧ و X 1930 ص ، ٢٥ - ٢٥١ .

الغسانى : انظر Sauvaire

الفاسى : انظر Mahammed Ben Chenb

الفخرى : انظر Derenbourg

فرحات : انظر Krachkovski

الفرغانى : انظر Golius, Suter

الفردوسى : الشاهنامة. نظمها بالفارسية أبو القاسم الفردوسى، ترجمها نثراً الفتح بن على البندارى وقارنها بالأصل الفارسى وأكمل ترجمتها فى مواضع وصححها وعلق عليها وقدم لها عبد الوهاب عزام. الطبعة الأولى، ١ - ٢ القاهرة، ١٣٥٠ هـ = ١٩٣٢ .

الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون. دمشق ،١٣٤٨ هـ؛ القاهرة، ١٣٥٤ هـ (الرسائل التاريخية ، 1) .

الفهرست : انظر Krachkovski, Rozen, Flügel, Fück, Ritter

القانونى ، جرجس افندى : تعريف بعض مخطوطات مكتبتى . المشرق ، المجلد السادس عشر ، ١٩١٣ ، ص ١٦٨ - ١٧٧ ، ٢٦٧ - ٢٧٦ ، ٤٣٥ - ٤٤٦ ، ٥٧٨ - ٥٩٠ .

قدرى حافظ طوقان : ابن ماجد أسد البحر الهائج . الرسالة ، العدد ٩٣ ، السنة الثالثة ، ١٥ / ٤ / ١٩٣٥ ، ص ٦٣٣ - ٦٣٦ .

القرآن : المتن العربى مع الترجمة الروسية بقلم G. S. Sablukov . الطبعة الثالثة ، قازان ، ١٩٠٧ .

قزوينى ، حمد الله مستوفى : انظر Petrushevski, Büchner

القزوينى ، زكريا : عجائب المخلوقات ، انظر Wüstenfeld
: آثار البلاد ، انظر Wüstenfeld
: انظر Ansbacher, Streck,
قصى : انظر Levi della Vida
قطب الدين الشيرازى : انظر Wiedemann
القلقشندى : انظر Tizengauzen, Björkman
القليوبى : انظر Brockelmann, Garrett
القوشجى ، على بن محمد : انظر Brockelmann, GAL, II p. 234 sui, SB II, p. 329 - 330; Bel. EI, I, p. 304
القيراونى ، أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم بن أبى دينار الرعينى القيروانى : انظر Maalouf, E. Pélissier et Rémusat.
القيسرانى : انظر De Jong
كامل الغزى : انظر الغزى .
كتاب الأغانى : انظر أبو الفرج الاصفهانى .
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر . انظر Prolégomènes
الكرديزى : انظر Bartold
الكرملى ، أنستاس : نظرات فى كتاب التبصر بالتجارة . RAAD, XIII, 1933. ، ص ٢٨٧ - ٢٩٥
الكرمى : نفائس الآثار ، RAAD, 1921 ، ص ٣٣ - ٣٥
كرنكو ، ف : الجزء الثامن من كتاب الأكليل ، لغة العرب ، المجلد التاسع ، ١٩٣١ ، ص ٢٩١ - ٢٩٢ . ونفس المصدر ص ٦٢٦ - ٦٢٧ .
: ماذا يقول الأعاجم ، RAAD, XIII, 1935 ، ص ٤٢١ - ٤٢٢ .
الكلدانى : نبذة تاريخية فى مشاهير طائفة الكلدان الكاثوليكية .

بقلم .... الكلدانيين . المشرق ، المجلد الرابع ، ١٩٠١ ، ص ٨٤٧ - ٨٥٥ .

كمال ريس : انظر Von Burski

الكندى : انظر Guest

لبيد : انظر Brockelmann-Huber والخالدى

ليون الافريقى ، الوزّان الزيّاتى : انظر Massignon, Giovanni Leone, Schefer

المحبى : انظر Brockelmann

محمد الببلاوى : فهرس لأسماء الأعلام وفهرس لأسماء البلدان والجبال والأنهار الواردة فى الجزئين . عنى بجمعها وترتيبها العالم الفاضل السيد محمد الببلاوى أمين دار الكتب الميرية بوقتها ونقيب الأشراف بمصر . بولاق ، ١٣١٤ هـ

محمد حسن خان : مرآة البلدان ، ١ - ٤ طهران ١٢٩٣ هـ - ١٢٩٦ هـ = ١٨٧٦ - ١٨٧٩

: انظر Minorsky

محمد خواندشاه (ميرخواند): انظر Rehatsek

محمد بن شنب : نزهة الأنظار فى فضل علم التاريخ والأخبار . الرحلة الورثيلانية . الجزائر ، ١٣٢٦ = ١٩٠٨

محمد القيروانى : انظر Pelliot

محمد كرد على : خطط الشام ، ١ - ٤ ، دمشق ، ١٣٤٣ هـ - ١٣٤٨ هـ

محمد المقْرى : انظر Motylinski

محمد المهدى الحجوى : حياة الوزان الفاسى وعصره . الرباط ، ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ . النقد : انظر Colin

محمد نجيب بكران : انظر Romaskevich

محمد بن يحيى الهاشمى : مجلة اليقين . بغداد ١٩٢٢ - ١٩٢٥

محمد يونس الحسينى : أثر خالد فى تاريخ الفكر العربى . كتاب الفهرست لابن النديم . RAAD, XI, 1931 ، ص ٦٧٨ - ٦٨٧

المجاجى : الرحلة . الجزائر ، ١٥٦٤ - ١٥٦٥ .
المدائنى : انظر Wiener
المرادى : سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر ، ١ - ٤ ، بولاق ١٢٩١ هـ - ١٣٠١ هـ
مرآة الجنان وعبرة اليقظان: انظر اليافعى .
المراكشى : انظر Dozy
المسعودى : انظر De Goeje, BGA, Al - Maçoudi, Carra de Vaux
: المروج . انظر Charmoy, Barbier de Maynard
المعلوف : انظر عيسى اسكندر المعلوف .
المغربى :مطبوعات حديثة . المراح فى المزاح : RAAD XI, 1931 ص ٣١٨ - ٣١٩
: محمد والمرأة . دمشق ، ١٩٢٩ .
المقدسى : انظر Fischer, De Jong
المقدسى : انظر De Goeje, BGA
: انظر Ranking, Kramers, Koenig
مقديش : انظر Nallino
المقرى : انظر Al - Makkari, Lévi - Provençal,
المقريزى : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ١ - ٢ ، بولاق ، ١٢٧٠ هـ .
: انظر Brockelmann, Graefe, Wiet, Quatremère, Guest
مكاريوس الأنطاكى : انظر باشا Juze, (جوزى) ، حبيب الزيات ، Lebedeva، عيسى اسكندر المعلوف ، Murkos (مرقص) ، Saveliev, S. Smirnov, Iatzimirski, Belfour, Radu
مناش : المناهج فى وصف المباهج لحضرة القس الفاضل جرجس

مناش المارونى الحلبى . المشرق ، المجلد العاشر ، ١٩٠٧ ، ص ٧٢١ - ٧٢٩ ، ص ٧٧٤ - ٧٨٦ .

منجم باشى : انظر Kramers

المهدى الحجرى : انظر Colin

ميرزا أبو طالب خان بن حاجى محمد بك خان: مسير طالبى فى بلاد افرنجى . نقله إلى الإنجليزية Stewart ، لندن ، ٨١٤ .C. Macfarlane كلكتا (مختصرة) ، ١٨٢٧ .

النابلسى : انظر Gildemeister, Kremer, Moritz, Salmon

ناصر خسرو : انظر Bertels

النديم : انظر Fück, Flügel ومحمد يونس الحسينى .

نصير الدين الطوسى : انظر Wiedemann

النعمة : صحيفة كانت تصدرها البطركية الأنطاكية بدمشق ١٩٠٩ - ١٩١٥ .

النوبختى : انظر Massignon

النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب . تأليف شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى ، ١ - ٤ ، القاهرة ، ١٩٢٣ - ١٩٢٥ .

: انظر Krachkovski

الهمذانى : الاكليل ، انظر Krenkow, Löfgren, Müller وشيخو و Peiser

الهروى : انظر Bloch

الوأ واء : انظر Krachkovski

الورثيلانى : انظر محمد بن شنب

اليافعى : مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حوادث الزمان وتقلب أحوال الإنسان وتاريخ موت بعض المشهورين الأعيان . ١ - ٤ ، حيدر أباد ، ١٣٣٧ هـ - ١٣٣٩ هـ .

ياقوت	: المعجم ، منجم ، انظر Wüstenfeld
	: إرشاد ، انظر Margoliouth
	: مراصد ، انظر Juynboll
	: كتاب المشترك ، انظر Wüstenfeld
يحيى بن خالد	: انظر Zetterstéen
يحيى بن عدى	: انظر Périer
اليعقوبى	: انظر De Goeje, BGA, VII
	: انظر Wiet

كشّـاف الفهـارس

فهرست الأعلام

(أ)

(ت)

(خ)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ق)

(هـ)

(و)

فهرست الأماكن والقبائل والشعوب

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

فهرست الكتب والرسائل
(الكتب الشرقية)

(ا)

(ج)

(ز)

(س)

(ل)

(الكتب الروسية)

(الكتب الغربية)

دار الغرب الإسلامي

تونس

لصاحبها الحبيب اللمسي

6 نهج الدالية بالفي - تونس – تلفون: 0021671393360 – فاكس: 0021671396545 – خليوي: 216-96-346567

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.: 200 - R.P. 1015 TUNIS

خرجت الطبعة الأولى لهذه الترجمة فى مجلدين بالقاهرة 1963/1965

الطبعة الثانية: 97 / 2000 /11/ 1987

الطبعة الثالثة: 97 / 1000 / 8 / 2008

التنضيد: المحقق

الطباعة: مطبعة الصراط - بيروت

آثار المترجم صلاح الدين عثمان هاشم



سوداني الجنسية، من مواليد عام ١٩٢٢. درس بجامعات القاهرة (تاريخ) وباريس وهامبورج (لغات شرقية). وهو يجيد ما يزيد على عشر لغات. شغل منصب السفير لبلاده في عدد من الدول (فرنسا، اليونان، إيران، تركيا، الفاتيكان، سويسرة الخ...).

ظهرت له الترجمات الآتية:

١ - إ. يو. كراتشكوفسكي «تاريخ الأدب الجغرافي العربي»، نقله عن الروسية، القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٦٥.

٢ - ف. ف. بارتولد «تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي»، نقله عن الروسية، الكويت ١٩٨١. (نال جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي في مجال الترجمة الادبية لعام ١٩٨٣).

٣ - ن. ف. پيغو ليفسكيا «العرب على حدود بيزنطة وإيران من القرن الرابع إلى القرن السابع»، نقله عن الروسية، الكويت ١٩٨٥.

وله تحت الطبع:

٤ - «أقدم ذكر للعرب في التاريخ»، نقله عن الإنجليزية.

٥ - ي. م. كوبيشانوف «الشمال الشرقي الإفريقي في العصور الوسيطة المبكّرة وعلاقاته بالجزيرة العربية»، نقله عن الروسية.

ويعمل حالياً في تحضير الترجمات الآتية:

٦ - ف. ف. بارتولد «بحوث في تاريخ آسيا الوسطى والمناطق المتاخمة لها»، في مجلدين، عن الروسية.

٧ - ى. بدرسون «الكتاب العربى»، عن الإنجليزية.

٨ - ت. شوموڤسكى «العرب والبحر»، عن الروسية.

ويزمع نقل الآتية:

٩ - هرمان كيس «خطط مصر الفرعونية»، عن الألمانية.

١٠ - مايكل موروني «العراق غداة الفتح الإسلامي»، عن الإنجليزية.

خرجت الطبعة الأولى لهذه الترجمة فى مجلدين بالقاهرة (١٩٦٣ – ١٩٦٥)
على نفقة الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية ، وذلك بمطابع
لجنة التأليف والترجمة والنشر

IGNATI IULIANOVICH KRACHKOVSKI

ISTORIA ARABSKOI GEOGRAFICHESKOI LITERATURY

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
TUNIS

اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي

تاريخ الأدب الجغرافي العربي

نقله عن الروسية

صلاح الدين عثمان هاشم

دار الغرب الإسلامي

تونس

اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي

تاريخ الأدب الجغرافي العربي

نقله عن الروسية

صلاح الدين عثمان هاشم

الطبعة الثانية
مصححة ومنقحة

دار الغرب الإسلامي
تونس

الطبعة الأولى : مجلدين بالقاهرة 1963/1965

الطبعة الثانية : 1987

سحب جديد : 2008

دار الغرب الإسلامي

العنوان: ص.ب.: 200 تونس 1015

تاريخ الأدب الجغرافي العربي

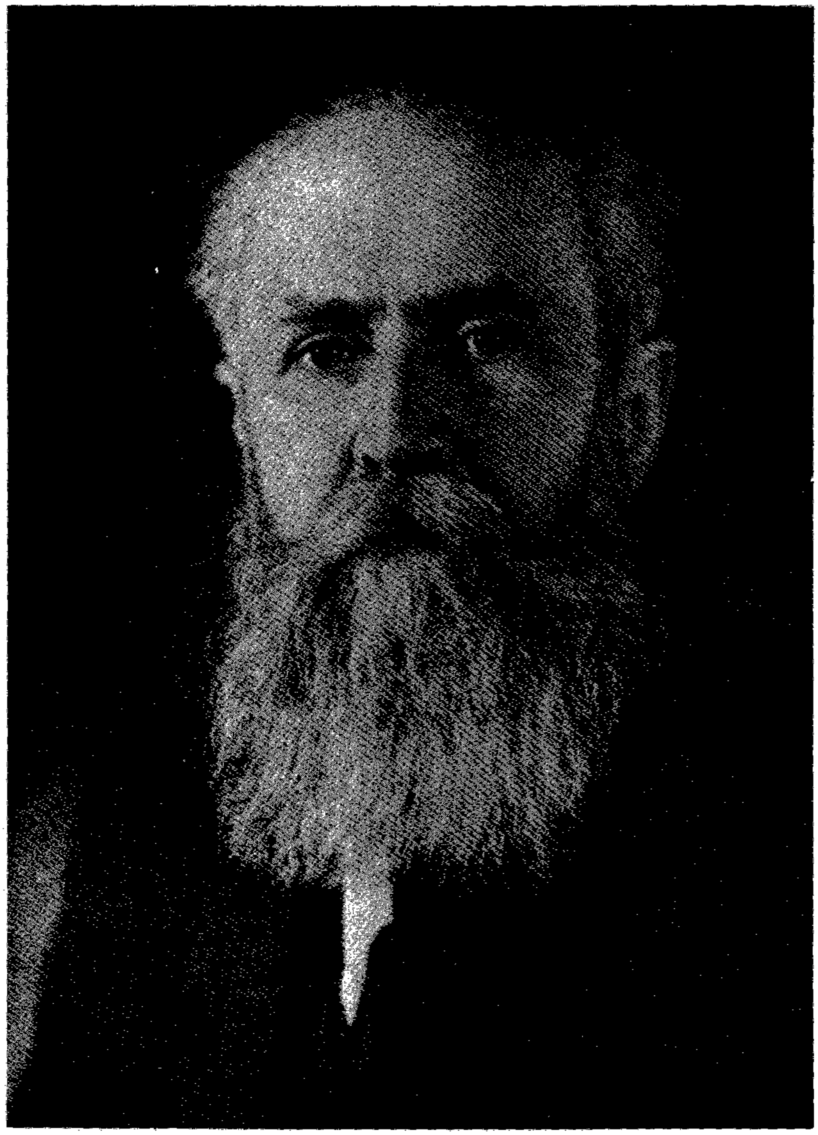
هذه ترجمة كتاب

IGNATI IULIANOVICH KRACHKOVSKI

ISTORIA
ARABSKOI GEOGRAFICHESKOI LITERATURY

MOSKOVA—LENINGRAD

1957



И. Ю. Крачковский.

ا . يو . كراتشكوفسكي (١٨٨٣ ـ ١٩٥١)

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة